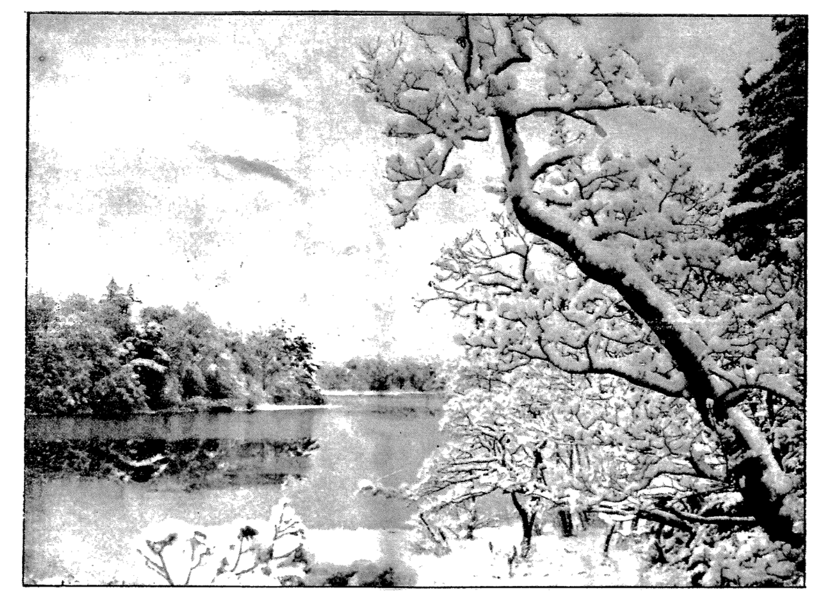




الثلج يغطي الارض والشجر على شواطىء بحيرة «درونت» في منطقة البحيرات بانكلترا

المقتطف

الجزء الاول من المجلد الثاني والتسعين

١ يناير سنة ١٩٣٨ — ٢٩ شوال سنة ١٣٥٦

العلم والمال

ليس هذا البحث بمقابلة بين قيمة العلم وقيمة المال على نحو ما قال الشاعر العربي « لنا علمٌ وللجهال مالُ » ولكنهُ تحقيقٌ في النزعة الحديثة البادية بين طوائف من العلماء وارباب الجامعات الكبيرة ، ولاسيما في الولايات المتحدة الاميركية ، الى التوسل بالمكتشفات والمخترعات العلمية الى جني الربح منها بتسجيلها واستغلالها ، وهل فائدة هذه النزعة تربي على ضررها ، او ضررها يربي على فائدتها . فثمة فريق من الكتاب يرى ان الاكتشاف العلمي على يدي باحث في جامعة اشبه ما يكون بمؤلف بليغ مؤلفهُ استاذ الادب وينشرهُ ويحتفظ بحقوق طبعهِ ويجني منهُ قليلاً او كثيراً . فهل هناك مأخذ يؤخذ على الباحث العلمي ، اذا هو سجل مكتشفاً او مخترعاً جديداً لهُ وجنى منهُ ما يستطيع ? هذا هو السؤال !

كان الرأي بين العلماء في القرون الماضية ولا يزال سائداً بعض دوائرهم حتى الآن ان العلم يطلب لذاتهِ ، لا للثروة التي قد يفضي اليها . وقد أُثر عن بعضهم اقوال في هذا الموضوع جديرة بالترداد . فالعالم الواليديُّ الاميركي ، لويس اجاسيز ، اجاب صديقاً بيَّن لهُ سبيلاً من سبل النفع المشروع بأنهُ « لا يجد متسعاً من الوقت لجمع المال » . ولما اقترح على باستور ان يسجّل مكتشفاتهِ في علم الجراثيم ويخرج بها شهادات تحصر استعمالها فيهِ او ان يسعى الى جني الربح منها ببيعها اجاب : « ان رجال العلم يحسبون ذلك حطة من شأنهم » . ثم كان يحدّث لايدي

كافندش فقال : « لا يسعني ان اعمل في سبيل المال ولكنني استطيع ان اعمل دائماً في سبيل العلم »

ذلك ان العلماء يرون ان الوقت ثمين ، وان المال في المقام الثانوي بين مطالب الانسان ، وان المغامرة في سبيل الكشف عن اسرار الطبيعة اجدى على النفس غبطةً ولذةً من السعي وراء الثروة . ثم انهم يقولون ان السعي للكسب المادي لا يتفق والامانة العلمية

الاَّ ان المشاهد ان العمل في سبيل العلم يفضي بحكم الطبع والتقدم الى العمل في سبيل المال . ومهما يكن البحث العلمي مجرّداً ، فانهُ على الغالب ينتهي يوماً ما الى التطبيق العملي . ان جميع الفنون اللاسلكية ترتدُّ الى معادلات مكسول الرياضية وتحقيق هرتز لصحتها بالتجربة . وجميع الاساليب المستعملة في شركات النفط للتكرير والتحطيم ترجع الى المعادلات الرياضية التي استنبطها نابغة جامعة يابل العلامة ولرد جبس Willard Gibbs . ولو كانت الشركات الصناعية تتأثر بعرفان الجميل لوجب ان تقيم لهذين الفيلسوفين الرياضيين انصاباً من الذهب الابريز

يضاف الى هذا ان العلم وتقدمهُ رهن التأييد الذي ينالهُ الباحثون من رجال المال في سبيل البحث لان المختبرات الحديثة والاجهزة العلمية التي لا بدَّ منها ، تقتضي نفقة كبيرة . والباحث العلميُّ في حاجة الى الاطمئنان والاستقرار على اسباب معيشتهِ ومعيشة من يلوذ بهِ ، لكي يفرغ للتأمل والبحث . فاذا كان العلم يخلق الثروة ، أفلا يجوز للعالم ان يجني مما يكشف ويستنبط لكي ينفق ما يجني في سبيل البحث العلمي ؟ وإذا كان من المتاح للمهندسين وأصحاب الاموال أن يتناولوا مباحث فراداي ومكسول وجبس الاساسية ، ويبنوا على اساسها الشركات الصناعية الكبيرة التي تدرُّ بدرات الاموال ، أفلا يصحُّ للمكتشفين انفسهم أن يفعلوا بينات افكارهم وثمار جهدهم ما يفعلهُ بها غيرهم ؟ إن الجواب عن هذه الاسئلة ، بالنفي حتماً من الناحية الشرعية ، اذ ليس ثمَّة قانون يمنعهم ان يفعلوا ما يبغون بمكتشفاتهم ومستنبطاتهم ، ولكن هناك موانع عملية اساسها تعذُّر العناية بالبحث وبالاستغلال المالي والصناعي في آنٍ واحد ، وأخرى نظرية وعمرانية مستمدَّة من طبيعة البحث العلمي والحرية الفكرية واخوَّة العلماء

***

في سنة ١٩٠٥ كان مدرِّس كيمياوي شاب في جامعة كاليفورنيا ، يبحث عن عمل اضافي يزيد بهِ دخلهُ لضيق ذات يدهِ ولقلة مرتبهِ الشهري . ولو كان هذا الشاب ، مدرِّساً في قسم الأدب ، لألف كتاباً او أنشأ رسائل يجزيهِ عليها الناشرون أو اصحاب الصحف جزاء لا بأس بهِ . ولو كان مدرساً في قسم القانون ، لاتصل بمكتب أحد المحامين ، واتفق معهُ على إعداد بعض المذكرات القانونية ؛ ولكن كوتريل F. Cottrell كان كيمياويًّا فماذا يفعل ؟

اتصل ببعض الشركات الصناعية لعلَّهُ يجد فيها مديراً يعهد اليه في الاشراف على بعض

الاعمال الكيمياوية فيها ، فاتفق لهُ أن عرف في أثناء بحثهِ مدير معمل يصنع الحامض الكبريتيك وكان هذا المدير يشكو ضياع بعض الحامض ، لان ابخرتهُ تصعد من المدخنة في أثناء التكرير . فخطرت لكوتريل طريقة تمكنهُ من ترسيب ابخرة الحامض قبل ضياعها . فصنع شبكة من القضبان المعدنية ووضعها في المدخنة ، ثم وصلها بسلك كهربائي ،فوجد انهُ اذا شرعت الابخرة تصعد في المدخنة ، وكانت الكهربائية تجري في قضبان الشبكة ، اخذت ابخرة الحامض تتقلص على القضبان فتتكون قطيرات من الحامض لا تلبث حتى تعود الى المرجل . ثم ثبت ان هذا الاسلوب الصناعي الجديد يصلح للاستعمال في صناعات مختلفة

وقضى كوتريل هو وزميلان لهُ في استغلال هذا الاستنباط ، خمس سنوات متوالية ، أصابوا في نهايتها النجاح المطلوب بعد انفاق اربعة آلاف جنيه . ولكن هذا النجاح حيّرهم . لأن الشبان الثلاثة علماء وطنوا النفس على البحث العلمي لا على الاستغلال المالي فماذا يفعلون ؟

كانوا قد تعاهدوا عندما اقدموا على هذا العمل ، أن يخصّوا الجامعة التي يدرّسون فيها ، بنصيب من اسهم الشركة التي انشأوها وما تدرُّهُ من الربح ، اعترافاً منهم بجميلها عليهم ، ولأنها سمحت لهم ان يجروا المباحث اللازمة في معاملها. فعرضوا ذلك على مجلس الجامعة فشكر وأبى عرضهم لان المصاعب التي تحول دون اشتراك معهد علمي في عمل تجاري ، كانت في رأي مديريها ، مما يتعذّر التغلّب عليهِ . فضاق الثلاثة ذرعاً ، بما يفعلون ، فعرضوا على الجمعية الكيمياوية الاميركية ان تتولى الاشراف على استغلال هذه المستنبطات المدرّة ، فأبت ، وكذلك فعلت غير واحدة من جمعيات المهندسين. وأخيراً ذهب كوتريل الى وشنطن بدعوة من مدير مصلحة المناجم لاستشارتهِ في موضوع علمي. وهناك اتصل بمدير المعهد السمثصوني المشهور ، فاستقر الرأي اخيراً على انشاء شركة كبيرة مستقلة تضم نفراً من كبار رجال الاعمال وطائفة من العلماء ، لتشرف على استغلال هذه المستنبطات ، وغيرها ومما يمنحها المستنبطون حق استغلالهِ ، على ان لا توزع هذه الشركة ربحاً ما على حملة اسهمها ، بل يوزع المال الذي تجنيه على معاهد العلم وطوائف البحاث تشجيعاً للبحث العلمي ، اي ان تصبح الشركة محسناً كبيراً قائماً على اساس التعاون ، بدلاً من الاكتفاء بالجود الخاص من اموال أثرياء افراد كروكفلر وكارنيجي ولورد نفيلد

وقد بلغ ما وزعتهُ هذه الشركة من المال ، على معاهد العلم والبحث ١٥٠ الفاً من الجنيهات حتى بداية سنة ١٩٣٦ ومن اشهر البحوث العلمية الحديثة المدينة لها بحوث لورنس الاميركي في تهشيم الذرة بجامعة كاليفورنيا ، وكذلك بحوث ده جراف في معهد ماستشوستس الصناعي ، وهيزنبرج في جامعة ليبتسج ، وبحوث المعهد السمثصوني في ما للاشعاع من التأثير في الحياة وغيرها

وقد اتسع عمل هذه الشركة ، اتساعاً عظيماً فنظمت فرعاً مستقلاً عهدت في ادارتهِ الى

كوتريل نفسه ، ومهمتهُ البحث العلمي في علوم الطبيعة والاحياء والاجتماع والاقتصاد

وقد عنيت جامعات كثيرة في اميركا بهذه الناحية من البحث فأنشأت اما شركات مستقلة منحت حق استغلال المكتشفات والمستنبطات التي تكتشف وتستنبط في الجامعة ، وغيرها مما يمكن الفوز به ، واما نقّب رجالها في نصوص قوانينها الاساسية لعلهم يجدون فيها ما يسمح للجامعة باستخراج امتيازات التسجيل والاستغلال باسمها الخاص ثم تنشأ لجنة خاصة من رجالها للاشراف على استغلال هذه الامتيازات استغلالاً ماليًّا

ففي بدء سنة ١٩٣٦ كان في الولايات المتحدة عشر جامعات لها شركات خاصة أنشئت للعمل وفقاً للنهج الاول . حالة ان النهج الثاني اتبع في جامعة تورنتو عند ما اكتشف الدكتور بانتنغ الانسولين فعهد في الاشراف على استغلاله لمصلحة الجامعة الى لجنة من رجالها . وحذت جامعة سانت لويس ومعهد الامراض المعدية بشيكاغو حذو جامعة تورنتو

وقد يقال ان تسجيل الاساليب الخاصة بالعقاقير الطبية وخلاصات الغدد وما اليها والاشراف على صنعها عمل واجب لان فيه وقاية للجمهور من بعض الشركات التي لا تتوخى الدقة كل الدقة في صنعها بحسب الاحوال العلمية فيتعرض مستعملها لخطر الموت على نحو ما حدث من عهد قريب في مادة « السلفانيلاميد » [١] . وهذا القول وجيه ولكن تسجيل اكتشاف او اختراع لوقاية الجمهور من مضار التطبيق الناقص ، شيء والتسجيل رغبة في الربح والاستغلال شيء آخر مع ان الغرض الواحد قد يفضي الى الآخر على الراجح

ومع ذلك ، ومع ان الازمة الاقتصادية قد حالت دون امداد معاهد العلم والبحث بأموال هي في أشد الحاجة اليها،ومع ان حق العلماء في استغلال ثمار بحثهم لا نزاع فيه من الناحية القانونية ، ومع ان مرتبات الباحثين لا تقابل بمرتبات الكتّاب في الصحف ووكلاء الاعلانات وكواكب الصور المتحركة على الرغم من ان « كلَّ مبلغ مهما يعظم يعد ضئيلاً ازاء عمل هؤلاء الرجال الذين يملكون قوة الابداع والتفاني على ترقية الفكر العلمي خطوة خطوة حتى يصلوا به الى البيوت فينشروا فيها اسباب الصحة والراحة والرفاهة . . . » [٢] — مع كل ذلك لا يزال بين العلماء فريق كبير يعارض في الاستغلال التجاري لثمار البحث في معاهد العلم العالي

ولسنا في حاجة الى اقامة الدليل المفصّل على اختلاف الرأي في هذا الموضوع . وحسبنا ان نشير الى ان مجمع تقدم العلوم الاميركي عني به في سنة ١٩٣٣ فعين لجنة من اكبر العلماء لدراسته فوضعت اللجنة تقريرها في أربعين صفحة كبيرة ملخصة فيه ما يقال تأييداً للاستغلال

(١) راجع مقتطف دسمبر ١٩٣٧ صفحة ٦٦١ (٢) للمستر هوفر رئيس الولايات المتحدة السابق

المالي « لثمار البحث في معاهد العلم العالي » واعتراضاً عليه . ولكن المسألة لم تنته عند هذا الحد ، وما زالت الصحف العلمية تنشر الفينة بعد الفينة مقالاً لعالم كبير ، او لمدير معهد علمي في تأييد هذا الرأي او نفيه

***

والغالب ان تكون الناحية الادبية في الموضوع في مقدمة ما يستند اليه المعارضون . فهم يذهبون الى ان الجامعة تعتمد على تأييد الشعب لها . فاذا كانت جامعة حكومية كان هذا الاعتماد غير مباشر ، لان الانفاق عليها من خزينة الحكومة يعود في آخر الامر الى المال الذي يجمع من الشعب وتسمح الهيئة التشريعية بانفاقه عليها . اما اذا كانت جامعة خاصة فاعتمادها على ما يجود به الاسخياء من ناحية وعلى اعفائها من ضرائب معينة تبلغ الوف الجنيهات من ناحية اخرى . وطالما دافعت الجامعات الخاصة عن وجوب اعفائها من الضرائب على ممتلكاتها الواسعة من ارض وبناء ، بقولها انها معاهد عامة لا تبغي الربح ، وان اعمالها وقف على الخير العام . فاذا شاءت الجامعات ان تنزل الى حلبة الاعمال المالية ، وتجني الربح من مكتشفات رجالها ومخترعاتهم ، ايّاً كان سبيل الجني ، فهي تناقض ذلك المبدأ الادبي العالي الذي تعتمد عليه في استمداد المعونة من الجمهور والحكومة

ثم ان الجامعات مرتبطة بعهد غير مكتوب مع الاسخياء الذين جادوا عليها بالمال لتشييد المباني وتجهيزها بمعدات البحث وتوفير المال لمرتبات رجالها . هل كان قصد هؤلاء المحسنين سواء أافراداً كانوا ام جماعات ، ان يهيئوا للجامعات السبيل للتنافس التجاري ؟ بل هناك عهد آخر لا يسع الجامعات ان تخرج عليه بعملها المالي من دون ان يوصم جبينها بوصمة ادبية . ذلك هو العهد الضمني بين رجال البحث في هذا العصر ، او في اي عصر ، والرّواد الذين سبقوهم ، الى تمهيد الطريق واستجلاء الغامض . فليس في العالم اكتشاف جديد او استنباط حديث لا يمكن ان ترتد به خطوة خطوة الى مباحث عشرات من العلماء الذين جهدوا وشقوا في اكتشاف الحقائق واحدة اثر اخرى . . فكيف يجوز لباحث حديث ان يسجّل طريقته ويحصر استعمالها لجني الربح منها مع ان صاحب الركن الاساسي لم يفعل ، ولو فعل لما انيحت له الاركان التي تقوم عليها طريقته . قد نقبل هذا من صاحب شركة تجارية ، ولكنه من عالم او باحث في جامعة ، يحسب نقضاً لذلك العهد الادبي المتفق عليه بين العلماء على ان العلم مشاع .

خذ مثلاً على ذلك اكتشاف الطريقة الحديثة في معالجة الانيميا الخبيثة بخلاصة الكبد . فقد توصّل مينو Minot ومرفي Murphy الاميركيان الى اكتشافها باعتمادهما في ما اعتمدا عليه ، على مباحث هوبيل Whipple في معاهد مختلفة . وهوبيل اعتمد على سلسلة متعددة الحلقات

من المباحث في الفسيولوجيا والكيمياء الحيوية . فلو شاء مينو ومرفي ان يسجّلا طريقتهما ويمنعا استعمالها الاَّ عمّن يوفي الثمن الذي يطلبانهِ او تطلبهُ الجامعة التي يشتغلان فيها ، لـكان لهما وللجامعة ذلك من الناحية الشرعية ولساء عملها عملاً من الناحية الادبية . ومن بواعث فخرهما ان الطريقة ابيحت للعالم بغير قيد ولا شرط . ولذلك ترى ان المعهد الذي عليهِ توزيع جوائز نوبل الطبية اشرك هوبيل معهما في الجائزة من بضع سنوات

هذا من الناحية الادبية. ولـكن للمسألة ناحيتها العملية ايضاً . ومن حق الباحث في شؤون العلم والتربية والاجتماع ان يؤكد من دون أن يخشى لوماً ان مصلحة التربية مرتبطة اوثق ارتباط بمصلحة البحث العلمي ، وكل ما يفضي الى تعزيز الجامعة ومعمل البحث يفضي حتماً وعلى المدى الطويل الى ارتقاء الانسان والحضارة . واذن فمستقبل معاهد العلم ونجاحها في تأدية مهمتها أمر يهمّ الناس . ومع انا نسلّم بأن مسألة الخلاف على الناحية الادبية في موضوع العلم والمال ، قد تكون خاصة بالعلماء انفسهم ووجهة نظرهم الى الامور ، لا يسعنا أن نغفل العناية بنواحي كفاية المعاهد في ابداع الجديد وما يمكن أن يكون لهذا الجديد من ثبوت وفائدة . فهذه المسائل الاخيرة ، وان كانت في صميمها من شأن فلسفة العلم ، الاَّ انها من ناحية التطبيق امور عملية كاخص الامور العملية

لا ريب في ان تجهيز معامل البحث بكل ما يلزم لها من الادوات اللازمة للبحث من أهم وسائل الارتقاء العلمي في هذا العصر . وكثيراً ما يكون استنباط جهاز جديد للبحث وسيلة عظيمة الشأن للكشف عن حقائق خفيت عن انظار الباحثين لقصور وسائلهم . ولعلنا لا نخطئ اذا ضربنا على ذلك مثلاً بالسيكلوترون في مباحث الذرّة [1] فمعامل البحث الطبيعي في الجامعات والمعاهد المختلفة تعجز عن المضي في بحث ناحية من قلب الذرّة اذا خلت من هذا الجهاز ، وقد انكر لورد رذرفورد العظيم ضرورتهُ قبلاً في معمل كافندش بجامعة كمبردج ، ثم غيّر فكرهُ

ولا يخفى ان تجهيز معامل البحث ، بهذه الادوات الحديثة اللازمة للـكشف العلمي ، يقتضي نفقة غير يسيرة . ولو لم يقيض للورنس الاميركي ، من ينفحهُ بمغنطيس كهربائي كبير بلا مقابل ، وعمالٍ من جماعة كوتريل (الذي تقدم ذكرهُ في هذا المقال) لينفقهُ على سائر ما يحتاج اليهِ في اتقان هذا الجهاز ، لما أتيح لهُ ان يصل بمباحثهِ الى مرتبةٍ مكنتهُ من مجاراة الطبيعة بعض المجاراة ، وذلك بتوليد المواد المشعة على نمط الراديوم من مواد غير مشعة

ومن الحقائق التي يجهر بها العلماء وحكماء الحـكام كالرئيس هوفر والرئيس روزفلت ان ما تجود بهِ الامم على دور البحث ، لا يبلغ عشر معشار ما تنفقهُ على البوارج والغواصات

(١) راجع مقتطف دسمبر ١٩٣٧ مقال « تهشيم الذرة » ص ٥٢٣

والطيارات والمدفع والغازات ، بل لا يبلغ معشار ما ينفق على المعجونات المطرية كل سنة

وقد قال عالم يدعى شنيدر وهو مدير معهد البحث في جامعة سنسناتي الاميركي ، ما ملخصهُ :
وماذا في وسعنا ان نفعل اذا كان عندنا برنامج واف لبحث جدير بالعناية ، فنعجز عن المضي فيهِ لقلة المال ، انبذهِ ام نفعل كما فعل كوبرنيكوس ، فنمارس التنجيم ، ام نحتذي حذو باستور فنشتغل لحساب الخمّارين . لقد بذلت الجهد في سبيل الفوز بالمال اللازم من الافراد والمؤسسات ومن ميزانية الجامعة نفسها ، فاخفقت . ولا اعلم ما تفعل الجامعات الاخرى ، ولكنني اعلم ان استنداء الاكف عمل شاق ، وعند ما أُرَدُّ احس انني اودُّ الارض ان تنشق وتبتلعني

هذا بعض ما يقوله شنيدر . ولذلك عمد الى تسجيل بعض المكتشفات التي اكتشفها سبرتي Sperti ، لكي يجنى منها المال اللازم لمتابعة برنامج البحث الذي وضعهُ . ولو اتيح لهُ المال الذي يحتاج اليهِ ، لكان في ذلك غنى للانسانية ، ذلك ان سبرتي اجرى بحثاً دقيقاً في الطاقة على اساس من نظرية المقدار « الكونتم » فتوصَّل الى اسلوب مكّنهُ من تخير انواع معينة من الاشعة تولد فيتامين D في الطعام الخالي منهُ عند تعريضهِ لها . ولو لم يكن شنيدر وسبرتي في حاجة الى المال لمتابعة البحث ، لما سجّلا هذه الطريقة ، فكان في تسجيلها وبيعها لشركة معيّنة خسارة عامة

وليس بالعسير ان نعدد الامثلة . فالموقف الذي تقفه عامة الشعب من معامل البحث ومعاهد العلم العالي ، مشوب بروح من التعالي مردها الى هذا السؤال — وما الفائدة من كل هذا . بل ان هذه الروح لا تقتصر على عامة الناس ، وتتعداها الى فريق كبير من الخاصة فلا تحدثهم في الموضوع الا وترتسم على شفاههم بسمة ازدراء وتنطلق منها هذه الكلمات او ما هو شبيهٌ بها : ما الفائدة العملية ؟ وهم لو كانوا على المام يسير بتاريخ العلم لما كشفوا عن جهلهم بهذا السؤال ، والاّ لكانوا وجدوا في جميع العجائب اللاسلكية فائدة عملية من معادلات مكسويل ؟ ولتذكروا قول فراداي عند ما ردّ على سيدة سألتهُ ما الفائدة بقولهِ : وما الفائدة من الوليد

ما الغرض من معاهد العلم العالي ومعامل البحث وما الصلة التي تربطها بالعالم . ان البحث عن الحقيقة بصرف النظر عن فائدتها العملية ، هو سرُّ وجودها وبقائها وصلتها بالاجتماع . ثم إن البحث العلمي يندمج في الفن او أن الروح التي تحرك الباحث العلمي والرجل الفني روح واحدة . فالعالم يقيس ، والفنان يبدع . ولكن كلاًّ منهما يعمل لا ليشبع رغبة الحيازة ، بل لكي يعمل ويتقن . كلٌّ منهما يحاول أن يعمل ما لم يعمل قبلاً ، وفي هذا ضرب من النزعة الفردية المتطرفة. وفي معاهد العلم العالي ، ومعامل البحث ، تربى هذه الطريقة من طرق التفكير والنظر الى الوجود والحياة . ولكن البحث العلمي لا يميل بصاحبهِ الى التطرف في النزعة الفردية فقط ، بل يفرض عليهِ قيداً من التضافر العالمي . ذلك إن العلم ليس مجموعة من الحقائق

المتحنة والمبوَّبة فحسب، بل هو اخوة دولية باخص معاني الاخوة ، فنتائج البحث في جميع ميادين العلم تجمع وتنشر بلا قيد ولا شرط ليأخذ منها ويستفيد بها من يستطيع . فالملك العام هو روح العلم او قل ان العلم هو الشيوعية الكبرى

واذن فميل الجامعات والمعاهد الى تسجيل المكتشفات الجديدة وتقييدها بقيود الملكية الخاصة يخمد تلك الروح . ثم انهُ يفضي الى التكتم في النشر بدلاً من الصراحة ، وتصبح المعاهد العلمية ورجالها ، في حلبة يتنافسون فيها الى الكتمان بدلاً من ان يتنافسوا الى السبق في النشر واذاعة النور . وهنالك من الحوادث ما يؤيد هذا القول . فقد روي عن عالم بحاثة انهُ زار جامعة غير جامعتهِ واطلع على بحث باحث شاب في موضوع من اختصاصهِ . فلو كانت تلك الجامعة من المعاهد الحرة ، لاطلع الاستاذ ذلك الشابَّ على ما يعلم في الموضوع ولافضى الاشتراك في الرأي الى خير كبير . ولكن تلك الجامعة كانت من المعاهد التي تسعى الى الكسب المالي من كل كشف يكشف فيها ، فامتنع الاستاذ عن الافضاء ، وكان العلم هو الخاسر

ويضاف الى هذا الخطر الموجه الى التعاون العلمي ، خطر آخر وهو ان العلم بأن مجلس الجامعة يجزي الباحث الذي يكتشف او يستنبط شيئاً منهُ فائدة مادية معجلة ، يؤثر في ذهنية فريق من الباحثين على الاقل ، فيصرفهم عن تناول المباحث الاصلية الاساسية ، الى الاهتمام بما يعلّق بهِ أملٌ في الربح المباشر . ولسنا في حاجة الى ترديد القول ، بأن البحث في الاصول هو ركن التقدم العلمي ، دون غيرهِ . فالباحث في أسرار الكون والطبيعة والحياة ، يجب ان يكون حرًّا مطلقاً ، ان يسير في الطريق الذي يرى ، حرًّا في الاعتماد على مباحث غيره لانهُ يعلم ان في هذا الاعتماد لا يمكن ان يوصم برغبة الكسب الخاص . والاجتماع الانساني يمنح الجامعة ورجال البحث فيها هذه الحرية بلا حدّ ولا شرط ، وينتظر مقابل ذلك ، أن يهبَ الباحث نفسهُ لهذا المعنى العالي الذي أصبح ملازماً لمعنى الجامعة ، بلا حد ولا شرط كذلك

ان قرَّاء سيرة بيير وكوري وزوجتهِ ماري يعلمون ان موضوع الكسب المالي من مكتشفاتهما في ميدان الاشعاع والراديوم عرضت لهما فأبيا ، وقد اشارت مدام كوري في سيرة حياتها الى هذا الموضوع فقالت ما ملخصهُ ... « وكذلك ضحّينا بثروة كبيرة لامتناعنا عن استغلال مكتشفاتنا. وقد زعم اصدقاؤنا اننا لو فعلنا ، لما خلفنا لابنتينا مالاً تستمدان عليهِ فقط ، بل لتمكنا من انشاء معهد للراديوم فلا أعاني في بحثي قلة ما في يديّ منهُ . ومع ذلك أظن اننا كنا على صواب . ان الانسانية تحتاج ولا ريب الى الرجال والنساء العمليين . . . ولكنها في حاجة كذلك الى اصحاب الرؤى والاحلام ، الذين يسيِّرون بقاسر خفيّ وراء رؤاهم واحلامهم فينسون العناية بمصالحهم الخاصة ...» ومن يشكُّ في ان مدام كوري كانت على حق !

١ — الحاجة الى زيادة المعرفة بالانسان

الانسان المجهول

لاسماعيل مظهر

تمهيد

في سنة ١٩٣٥ ظهر للعلامة « الكسيس كارل » كتاب عنوانهُ « الانسان المجهول » احدث في دوائر الثقافة العالمية أثراً، لعلنا لا نخطىء إذا قلنا إنهُ لا يقل عن الأثر الذي خلفتهُ مؤلفات قلائل ظهرت في خلال القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين

ولعل ذلك الاثر العميق راجع الى ان الكتاب شامل الاغراض، غير مقتصر على ناحية بعينها من نواحي العلم بالانسان. فهو ان قام في اساسه على فكرة اجتماعية ورمى الى اصلاح اجتماعي، فان بحوثه قد قامت على دعامة من علم الاحياء — Biology — والى تأملات فلسفية استخلصت من العلم بطبيعة الانسان، علماً اقل ما نصفه بهِ انهُ عميق كل العمق، واضح كل الوضوح. والجمع بين العمق والوضوح، صفة قلما يمتاز بها كاتب نشأ عالماً وربي عالماً والّف والنزعة العلمية تكتنفهُ والاسلوب الاستقرائي يقوم من وراء كل ما حصل من علم بالانسان الذي قصر ذلك الكتاب على بحث النواحي المجهولة من حياته، تلك النواحي التي يعتقد ذلك العلامة الفاره انَّ العِلْمَ بها ينبغي ان يتخذ اساساً لاصلاح حالات الاجتماع. وكأنهُ يريد بذلك ان يقول ان الجهل بالانسان قد اقام النظامات والمعاهد الحاضرة على اساس بعيد عن ان يكون الاساس الامثل، وسلك بالاصلاح الاجتماعي نهجاً بعيداً عن ان يكون النهج الواضح السوي.

أضف الى ما تقدم ان الكتاب في مجموعه نتيجة لظاهرة ثقافية ندر ان تقع عليها في كتاب آخر من الكتب التي عالجت الانسان وحالاته. فقد لابس الكتاب روح فلسفية عالية، ولكنها روح فلسفية قامت على العلم، بقدر ما بعدت عن التأمل والفرض. بهذا تحررت من المذهبية ووجهت كل قوتها الى تحرير الفكر وتنوير الذهن، ولاحت عليها سمات الهدوء الذي يكمن من ورائه كل ما في الثورة من قوة الشك، ورمت في اول ما رمت اليهِ الى القضاء على كل ما اتت به الطلاسية وعمل له الطلاسيون من المبادىء التي افسدت الاجتماع الانساني

فلا عجب اذا فكر الاستاذ محرر المقتطف في ان يُلَخِّص الكتاب في مقالات تظهر متتالية على صفحات المقتطف ، ولا عجب إذا لبيت دعوته ، راجياً القراء ان يستعينوا بالصبر على تفهم مبادىء ومشاكل، هي في الواقع اقرب اليهم من حبل الوريد . مبادىء ومشاكل موضوعها الانسان ، وكفى بذلك دليلاً على جلالة الموضوع واثره البالغ

١ — تقدم علم الاحياء ابطأ من تقدم علم المادة الجامدة : جهلنا بانفسنا

ان بين علوم المادة الجامدة، وعلوم الأحياء ، لتفاوتاً كبيراً يحملنا على العجب والتأمل . فعلم الفلك وعلم الآليات وعلم الطبيعة ، قامت جميعها على تصورات يمكن التعبير عنها تعبيراً دقيقاً قويًّا بلغة مستمدة من علم الرياضيات . ولقد اقامت هذه العلوم كوناً فيهِ من الأُلفَة والتجانس ما نأنس في الآثار الجميلة التي خلَّفتها إغريقية القديمة ، ونسجت من حول ذلك الكون شبكة باهرة من التقديرات والفروض ، كما عمدت الى البحث عن الحقيقة في عالم يقع من وراء ذلك العالم الذي تحوم فيهِ الفكرات العادية ، فدلفت إلى مجرَّدات قوامها معادلات مكونة من رموز . أما علوم الاحياء ، فالحال فيها على خلاف ذلك . فان الذين يعالجون البحث في ظاهرات الحياة ، يحسُّون كأنهم في تيه غامض مبهم ، او كأنهم في حرجة سحرية مغلقة المسالك ، لا تستقر أشجارها في مكان ، فهي دائمة التنقل ، ولا تبقى على صورة واحدة ، فهي دائمة التغيُّر . يحسون أن كواهلهم تكاد تنوء بأثقال من الحقائق . حقائق يستطيعون ان يصفوها ، ولكنهم عاجزون عن تحديدها وتعريفها ، بافراغها في معادلات جبرية

من الاشياء التي نصادفها في عالم المادة ، كالذرات او النجوم أو الصخور او السحاب او الصلب او الماء ، أمكن استخلاص بضعة صفات عامة تشملها جميعاً ، كالحجم والامتداد في الفراغ . وهذه المجردات ، لا الحقائق الجامدة ، هي موضوع التفكير العلمي . فان مشاهدة أشياء الطبيعة ، والاقتصار على المشاهدة وحدها ، أنما يكوِّن صورة من العلم دنيَّة بذاتها وطبيعتها ، تلك هي الصورة الوصفية من العلم . فالعلم الوصفي يصنِّف الظاهرات . أما العلاقات الثابتة القائمة بين الكميات المتغايرة ، وبالحري السنن الطبيعية ، فلا تلوح في أفق العلم ، الاَّ عند ما تزداد صفة التجريد فيهِ . ومن أجل ان علوم الطبيعة والكيمياء علوم مجردة ، وهي فوق ذلك كميَّة ، اي تتعلق بالكميات ، أصابها النجاح السريع الباهر . وبالرغم من ان هذه العلوم لا تدَّعي القدرة على الكشف عن غائيات الاشياء ، اي عن الطبيعة النهائية للاشياء ، فانها زوَّدتنا بما نستطيع بهِ ادراك حوادث مستقبلة ، وان نعين باختيارنا في الغالب أوجه حدوثها . وبدرس سر المادة وتكوينها وخصِّيَّاتها ، أمكنتنا ان نسيطر على كل ما هو موجود في كرة الارض، اللهمَّ الاَّ شيئاً واحداً : هو أنفسنا . إن علم الاحياء، على الجملة، وبخاصة ما تعلق منهُ بالفرد من بني الانسان ، لم يتقدم بمثل

تلك الخطى الكبيرة . انهُ ما يزال في الطور الوصفي من درجات العلم . والانسان كلٌّ بالغ التعقيد لا يمكن تجزئته . ولا يستطاع ان يمثل لهُ بشيء يسيط التكوين . وليس لدينا من أسلوب يمكننا من ادراكه دفعة واحدة في مجموعه وفي اجزائه وفي علاقاته بالعالم الخارج عن حيّزه . ومن اجل ان نحلّل انفسنا ، ينبغي لنا ان نلجأ الى وسائل علمية شتى ، وان نستخدم ، بناء على هذا ، علوماً متفرقة . وطبيعي ان تلك العلوم تختلف من حيث التصورات المتباينة التي تكوّنها في درس الموضوع العام الذي تعكف على درسه . فهي لا تستخلص من الانسان الاَّ ما في مقدورها ان تستخلص منهُ بأساليبها الخاصة . وما تستخلص تلك العلوم ، وبلغة الفلسفة ما تجرد ، من الانسان ، يظل حتى بعد ان يضم بعضهُ الى بعض ويفرغ في قالب كامل ، أقلَّ غناء من الحقيقة الجامدة . فلا شكَّ في انها تخلف من ورائها حثالة او بقية ، هي بطبعها اعظم من ان تهمل . فالتشريح والكيمياء وعلم الوظائف وعلم النفس والتربية والتاريخ والاجتماع والاقتصاد السياسي ، جماعها لا تستفني موضوعها درساً . فالانسان كما يعرفه الاخصائي ، بعيد عن ان يكون بذاته الانسان الحقيقي . انهُ ليس اكثر من صورة تتألف من صورٍ أخرى تقيمها الوسائل العلمية الخاصة بكل علم على حدته . فهو عند المشرح تلك الجيفة التي يقطعها ارباً ، وهو الوعي والشعور عند العالم النفسي والقائلين بالحياة الروحانية ، او هو الشخصية التي يظهرها الاستبطان لكل انسان ، قارَّة في صميم ذاته . وهو عند الكيميائي تلك الجواهر الكيميائية التي تؤلف الانساج واخلاط البدن . وهو عند الوظائفيّ (العالم بالوظائف) تلك العمائر الباهرة من الخلايا والسوائل المغذية التي يعكف على درس قواعدها وأسسها . وهو عند رجال الصحة والمربين ، إما تلك الانساج المركبة ، واما تلك القوة الشاعرة الواعية ، التي يحاول هؤلاء بجملتهم ان يرفعوها الى السمت الاعلى من التطوُّر والنشوء على مرّ الازمان . وهو عند أهل الاقتصاد ذلك « الانسان الاقتصادي » Homo œconomicus : الذي ينبغي لهُ ان يستهلك ، على التوالي وبغير انقطاع ، تلك المصنوعات التي يؤدي استهلاكها الى بقاء الآلات التي استعبدتهُ وردته رقيقاً ، تعمل الليل بعد النهار . لم يبق الانسان في اعتبارنا ذلك الكائن البالغ التعقيد الذي تحلله الوسائل العلمية لا غير ، بل هو فوق ذلك الشاعر والبطل والقديس . هو تلك الميول والخواطر والآمال التي تسوق الانسانية . لقد امتزجت تصوراتنا عن الانسان بالغيب وما بعد الطبيعة . لقد قامت هذه الاشياء عامة على أسس يعوزها الضبط والتحديد ، حتى لقد أصبح الاغراء في اختيار أيها يَلَذُّ لنا ، عظيماً قويًّا . لهذا نرى أن فكرتنا في الانسان تختلف بمقتضى مشاعرنا ومعتقداتنا . فالماديّ والرّوحاني كلاهما يقبل التعريف العلمي الذي يحدد بلورة من كلوريد الصوديوم ويؤمن به . ولكنهما يختلفان أزاء الانسان . والنفساني الذي يؤمن بالمبدإ الآليّ ، لا ينظر الى الكائن الحي نفس النظرة التي يراها النفساني المؤمن بالمبدأ الحيوي (أي الروحاني).

فالكائن الحي الذي يراه « جاك لوب » يختلف جُهدَ الاختلاف عن ذاك الذي يراه « هنز دريش » . ولا شبهة في ان الانسان قد بذل جهداً جباراً لكي يعرف ذاته . وعلى الرغم من أننا نملك كنوز المشاهدة التي استجمعها العلماء والفلاسفة والشعراء والمُتَأَلِّهون على مدى الاحقاب والدهور ، فاننا لم نفقه الا بعض نواحي خاصة من انفسنا ، ولم ندرك الانسان في مجموعه . عرفناه شيئاً مكوَّناً من أجزاء مستقلة . وحتى تلك الاجزاء قد خلقناها بأساليبنا . فكلٌّ منا انما هو بمثابة جمهرة من الخيالات والاشباح ، تستقر في جوفها حقيقة مجهولة .

والواقع ان جهلنا عميق . فان اكثر المشكلات التي تقوم امام اولئك العاكفين على درس الانسان تظل بغير حلٍّ مرضٍ . فان آفاقاً واسعة من عالمنا الداخلي لا تزال مجهولة . فكيف تتحد جزيئات الجواهر الكيميائية لتؤلف أعضاء الخلية المعقدة؟ كيف ان المورِّثات (Genes) التي تكون في نواة البُيَيْضَة الملقحة تعين خصائص الفرد الناشيء من تلك البييضة ؟ كيف تنظم الخلايا انفسها بجهدها الذاتي في جماعات فتكون انساجاً أو اعضاء؟ ومثل الخلايا في ذلك كمثل النمل والنحل ، لكل منها معرفة تامة بالدور الذي ينبغي لها أن تمثله في حياة الجماعة . في حين أن قدرتها الآلية الخفية علينا تمكنها من ان تبني كائناً عضوياً ، إذ هو معقد، نراه بسيطاً . وما هي طبيعة بقائنا ، أي حقيقة أعمارنا ، من حيث الزمن النفسي والزمن الوظائفي ؟ نحن انما نعلم اننا تركيب من الانسجة والاعضاء والسوائل والوعي . غير ان العلاقة بين المخ والوعي ، لا تزال سرًّا ، واننا لعلى جهل كامل بوظائف الخلايا العصبية . والى أي حد في مستطاع قوة الارادة أن تكيف من حالات الكائن الحي؟ وكيف يتأثر العقل بالحالة التي تكون عليها الاعضاء؟ وعلى أية صورة تتغير الخصائص العضوية والعقلية متأثرة بأسلوب الحياة وبالجواهر الكيميائية التي يتضمنها الغذاء ، وبطبيعة الاقليم وبالنظامات الوظائفية والادبية ؟

بعيد علينا أن نعرف ما هي العلاقات القائمة بين الهيكل والعضلات والاعضاء ، وبين أوجه النشاط العقلي والروحي . نحن على جهل بتلك العوامل التي تستحدث التوازن العصبي ومقاومة التعب والاجهاد ومقاومة الامراض . نحن على جهل بالطريقة التي تنمّي بها في انفسنا صفات الحس الادبي ودقة الحكم والشجاعة . وما هي القيمة النسبية القائمة بين النشاط الادبي والعقلي والميول التألهية ؟ وما هي قيمة الحس بالجمال والحس بالدين ؟ وما هو نوع تلك الطاقة التي تحدث الاتصال الفكري وتنقل الافكار بين الافراد ؟ ومما لا شك فيه ان هنالك عوامل وظائفية واخرى نفسية تقدر السعادة أو الشقاء ، النجاح أو الفشل . ولكننا لا نعلم ما هي . اننا لا نستطيع ان نهيء فرداً من الافراد بالقدرة على بلوغ السعادة ، كما اننا لا نعرف اية بيئة هي انسب البيئات ليبلغ الانسان في ظلها الحد الاعلى من التطور والنشوء باعتباره كائناً مدنيًّا . أفي مقدورنا ان نكفّ الصراع والجهد والألم عن أن تعمل في كياننا الوظائفي والنفسي ؟ كيف نستطيع ان نحول بين

الانسان وبين الفساد في المدنية الحديثة؟ اننا نستطيع ان نضع كثيراً من الاسئلة الجوهرية في مسائل من أخص ما يتعلق بمصالحنا ؛ ولكنها ستظل بغير جواب . وظاهر جليٌّ أن كل مستحدثات العلوم التي اتخذت من الانسان موضوع درس وتحقيق ، قد ظلت غير كافية ، وان علمنا بانفسنا لا يزال من البُدَائيات

٢ — جهلنا انما يرجع الى اسلوب الحياة التي عاشها أسلافنا ، وإلى تعقد تركيب الانسان ، وإلى تكوين عقولنا

قد يعزى جهلنا ، مع ما تقدم الى اسلوب الحياة التي عاشها اسلافنا ، والى تعقد طبيعتنا ، والى تكوين عقولنا . كتب على الانسان ان يعيش اول شيء . والحاجة الى العيش تطلبت غزو العالم الخارجي ، اي العالم المحيط بنا . كان لزاماً ان نحصل على القوت والحِمَى ، وان نقاتل الوحوش ، كما نقاتل غيرنا من الناس . ولقد ظل اسلافنا عصوراً متطاولة لم تتح لهم الفرصة ، ولا عرض لهم الميل لدرس انفسهم . ذلك بأنهم قد صرفوا ذكاءهم في نواحي اخرى ، كصناعة الاسلحة والادوات واستكشاف النار وتدجين البهائم ، والخيل منها خاصة ، واختراع الدولاب (العجلة) ، وزراعة الحبوب الى غير ذلك . وقبل ان يحس اسلافنا ميلاً الى البحث في تكوين جسومهم وعقولهم بأزمان طويلة ، انصرفوا الى التأمل في الشمس والقمر والنجوم والمدّ وتغير الفصول . ولقد تقدم علم الفلك تقدماً كبيراً في ازمان كان علم الوظائف فيه من الاشياء المجهولة كل الجهل . آية ذلك ان « غليليو » قد رد الارض من مركز للكون ، سياراً صغيراً حقيراً تابعاً للشمس ، في حين ان معاصريه لم يدركوا اوليات العلم بشيء من تركيب الدماغ وخصائصه او الكبد او الغدة الدرقية . وكما ان تركيب الانسان العضوي يستمر عاملاً بغير ان يصيبهُ اضطراب ما ظلت حالات الحياة ملائمة لهُ ، كذلك العلم ، فانهُ سار في الناحية التي لاءمت ناحية التطلع في الانسان ، اي الى العالم الخارجي

بين فترة واخرى ، ومن بين البلايين العديدة التي تعاقب وجودها على الارض من بني الانسان، برز افراد قلائل خصوا بقوة نادرة ، وهيئوا بقدرة غير عادية ، وخصوا بالهام يستظهر المجهولات ، وتصور يخلق العوالم الجديدة ، وكفاية تمكنهم من كشف العلاقات القائمة بين ظاهرات معينة . وكان من نصيب هؤلاء ان يستكشفوا الكون المادي . والكون المادي بسيط التركيب . لهذا تراه قد خضع وشيكاً لهجمات العلماء وأفضى اليهم بسر بضعة من النواميس . ولقد مكنتنا المعرفة بتلك النواميس ، من ان نستخدم عالم المادة في قضاء مصالحنا . وتطبيق المستكشفات العلمية تطبيقاً عمليًّا شيء مربح لاولئك الذين يمارسونهُ . فانهم يسهلون البقاء للجميع ، ويرضون الجماهير بأن يزيدوا من راحتهم وهناءتهم . وما من شك في ان كل فرد قد اصبح بحكم طبعه اكثر تطلعاً الى المخترعات التي تنقص مقدار الجهد الانساني وتقلل من اعباء العمل على

العامل ، وتزيد من سرعة الاتصال والتنقل ، وتلطف من خشونة الحياة ، منهُ الى المستكشفات التي قد تلقي بعض الضوء على المشاكل المعقدة التي تتعلق بتكوين جسومنا او حقيقة الوعي فينا . لهذا نرى ان غزو العالم المادي ، ذلك الغزو الذي استنفدكل انتباه الناس واستحوذ على ارادتهم، قد ادى الى ان يظل العالــمَان العضوي والروحاني مهملين كل اهمال ، مستخفين كل استخفاء. وفي الحق ان علمنا بما يحيط بنا من الاشياء كان ضروريًّا ، ولـكن علمنا بطبيعتنا قد ظهر لنا اقل استجابة لمصالحنا المباشرة وفوائدنا الملحة . ومع هذا كله فان المرض والالم والموت ، وفوق ذلك الآمال الغامضة التي عقدناها في قوة خفية تستعلي على كل ما في الكون المنظور وتهيمن عليه ، عامة اذا وجّه انتباه الانسان بقدر ما ، الى العالم الداخلي القار في جسومنا وفي عقولنا . ففي اول الامر حصر الطب همه في مسألة عملية ترمي الى شفاء المريض بوسائل تجريبية. ولقد حقق الطب، ولـكن حديثاً ، ان امثل الطرق في منع الامراض او علاجها هو ان يعرف الانسان ، معرفة تحقيق، طبيعة الجسم في حالتي الصحة والمرض ، فاضطر الى تكوين تلك العلوم التي نسميها التشريح والـكيمياء الحيوية والوظائف والامراض . ومع هذا فان سر وجودنا ، والآلام الادبية ، وشهوتنا الى استجلاء المجهول ، والظاهرات النبيلة ، كل هذا قد ظهر لآ بائنا أعظم شأناً من الآلام الجسمية والامراض . ودرس الحياة الروحانية والفلسفة قد اجتذبت لناحيتها عدداً من الباحثين اعظم مما اجتذب الطب . ومبادىء التأله وطرائقه قد عرفت قبل ان يعرف علم الوظائف . غير ان مثل هذه المبادىء لم تر النور الاَّ بعد ان نشأ في الانسان ميل كافٍ وَجّه انتباهه الى اشياء اخرى غير غزوة العالم المادي

هنالك مؤثر آخر قد يعزى اليه السبب في بطء التقدم الذي نال معرفتنا بانفسنا . فان عقلنا قد ركّبت بحيث يهيم بالتأمل من الحقائق التافهة . وانا لنشعر بنفور من ان نهاجم مشكلات معقدة كتكوين الـكائنات الحية او الانسان . فالقوة العاقلة ، كما قال « برجسون » قد اختصت بضعف طبيعي يمنعها من ادراك سر الحياة . وعلى العكس من ذلك ، نرى اننا نحب ان نكشف من الـكون عن تلك الصورة الرياضية الهندسية التي تستقر في اعماق وعينا . فان ما في آثارنا القديمة والحديثة من اثر الضبط وطابع الاتقان ، وما في آلاتنا من مجالي الدقة ، كلها اشياء تعبّر اصدق تعبير عن حقيقة عقلنا . ان الهندسة لا وجود لها في عالمنا الارضي . لقد خلقت في نفوسنا . وأساليب الطبيعة لن تبلغ من الدقة مبلغ الاساليب البشرية . فاننا لا نجد في الطبيعة ما يشبه ذلك الضبط وذاك البهاء ، الذي نأنسه في افكارنا . لهذا نحاول ان نجرّد من تعقيد الظاهرات قليلاً من النظامات البسيطة التي بين بعض اجزائها المؤلفة ، وبعض علاقات تخضع للتبيان عنها بطريقة آلية . والى قوة التجريد في العقل الانساني، يرجع ذلك التقدم الباهر في علمي الطبيعة والـكيمياء . ولقد كان لهذا النجاح مثيل في درس الـكائنات الحية درساً قائماً على اساس طبيعي كيميائي . ونواميس

الكيمياء والطبيعة واحدة سواء افي الاشياء الحية ظهر أثرها ام في الاشياء غير الحية ، على ما قال « كلود برنار » من قبل . ولقدتبين لنا هذه الحقيقة لمّ كشف علم الوظائف الحديث مثلاً عن ان استمرار قلوية الدم وماء البحر ، انما ترجع في كلتا الحالتين إلى نواميس واحدة. وان الطاقة التي تبذلها العضلة المنقبضة يجدها تختزن السكر في الجسم ، الى غير ذلك . ان في بحث المظاهر الطبيعية الكيميائية في الانسان من السهولة والبساطة ما في بحث الاشياء الاخرى التي يتضمنها عالمنا الارضي . وتلك هي المهمة التي نجح علم الوظائف العام في الاضطلاع بها

ان بحث الظاهرات الوظائفية الصحيحة — اي تلك التي تنشأ من نظام المادة الحية — تواجههُ عقبات أعظم من العقبات التي تواجه غيره من البحوث . فان الاشياء موضوع البحث والتحليل في هذا العلم اذ هي صغيرة جهد الصغر ، يتعذر علينا ان نتخذ الادوات العلمية في الطبيعة والكيمياء ذريعة لبحثها . فأية أداة من أدوات العلم وأجهزته في مستطاعها أن تظهرنا على التكوين الكيميائي لنواة الخلية التناسلية او صبغيّاتها — Chromosomes والمورّثات التي منها تتكون تلك الصبغيّات ؟ ومع هذا فان هذه الكتل الدقيقة المكونة من جواهر كيميائية لذات خطر عظيم . ذلك بأن فيها يكمن فرد الغدِ ، وسلالة المستقبل . وكذلك هشاشية أنساج معينة ، كمادة الانساج العصبية ، فإنهُ يتعذر عليك ان تدرسها في حالة الحياة . وليس لدينا من وسائط علمية تخترق صميم المخ فتصل الى أسراره ، والى تآلف خلاياه وتجمعها . ان عقلنا ، ذلك العقل الذي يحب الجمال الساذج الذي يأنسه في المعادلات الرياضية ، ليحار ويبهر اذا ما مضى يتأمل تلك الكتل العظيمة المكونة من خلايا وأخلاط ووعي ، تلك التي يتألف منها الفرد الحي. لهذا نجهد انفسنا في ان نطبق على هذه الاشياء المركبة ، تلك التصورات التي اتضح أنها مفيدة في الكشف عن غوامض الطبيعة والكيمياء والآلة ، والمذاهب الفلسفية والدينية . غير أن مثل هذه المحاولة لم تنجح نجاحاً كبيراً ، لاننا لا يمكن أن نرتد الى مجرد نظام طبيعي كيميائي ، ولا إلى شخصية روحانية لا غير . وطبيعي ان علم الانسان عليهِ أن ينتفع بكل التصورات التي كونتها العلوم الاخرى . ولكنهُ بجانب هذا ينبغي له أن ينمي من تصوراتهِ الخاصة . لأن ذلك العلم جوهري كعلم الذرات والجزيئات والكهيربات

وعلى الجملة فإن بطء التقدم في المعرفة بالانسان ، مقيساً بالارتقاء الباهر في علوم الطبيعة ، والفلك والكيمياء والآلة انما يرجع الى نقصان الميل في اسلافنا الى بحثه ، والى تعقد الموضوع ذاته ، والى تركيب عقولنا . وهذه ولا شك عقبات كبار ، فوق أنها جوهرية . ولا أمل لنا في التخلص منها . انها عقبات ينبغي لنا ان نستقوى عليها بالجهد المفرط . وعلمنا بانفسنا لن يبلغ حد السهولة المحببة والجمال والتجريد الذي نجده في علم الطبيعة . والعوامل التي سببت تأخره ، سوف تبقى ولا تزول . وعلينا ان نتفقه ان علم الانسان هو اصعب العلوم جميعاً

حكم انكليزية ويابانية

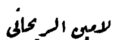
يهزل الحسود اذا سمن جاره
كلمة الصادق حجة
قد تخرب ساعة ما عمّر في جيل
درهم من الحكمة خير من رطل من الذكاء
يبدأ الكذوب بخداع غيره وينتهي بخداع نفسه
الجمال بلا طهارة كسم في حق من ذهب
الحصاة والجوهرة سيان في نظر الاعمى
لا تثق بصديق يعاديك ثم يصالحك
خير للانسان ان يحسد من ان يُرثى له
من كان ضميره مطمئناً نام والرعود تقصف
في الجدال الطويل يضيع الحق
الاعتدال هو السلك الذي يضم سلسلة الفضائل
كثيرون يقبلون اليد التي يريدون قطعها
ليس الجود العطاء بسخاء بل بحكمة
الفوز للفئة الصغرى اذا كانت على حق
اذا عرفت نفسك لم يجهلك أحد

***

اشتم جارك واحفر قبرين
تبديد الضباب بالمروحة محال
بناء جسر يصل الى السحب محال
غرف البحر بالصدفة محال
الكلب جسور عند باب صاحبه
الشاعر يرى العالم اجمع وهو في بيته
عرش الآلهة على جبين الصديق



مصنع المثل الاعلى



ان للحياة ، على تنوع اسبابها واغراضها ، وعلى اختلاف درجاتها في المدنية ، مثلاً اعلى ، كبيراً او صغيراً ، هو الضامن لسلامتها ورقيها ، وهو الضامن لدوامها . وان لهذا المثل الاعلى عوامل شتى تبدأ بفكر المصلح والمخترع ، وتتدرج في هذا الزمان الى افكار ارباب العمل والمال

اما الفكر فلا كيان له يذكر بدون الالف باء والصناعة التي تخلّد الالف باء . فهو يتجسد في الاولى ، ويتخذ من الثانية اجنحةً للطيران . وبكلمة اخرى اقول ان الفكر البشري ، في نشوئهِ وتطورهِ ، وفي ارتقائه وانتشاره ، هو ابن الطباعة ، وهو كذلك سيدها

فقد بدأت الطباعة بالحرف الخشبي والمطبعة الصغيرة اليدوية في منتصف القرن الخامس عشر وتمشت بعد ذلك على سنة النشوء والارتقاء ، فاصبحت المطبعة في تعدد اقسامها وادواتها ، وفي عملها الآلي الذاتي ، كالانسان ، لا ينقصها غير الفكر المولّد المخترع . بل هي في عملها العجيب ، وان كان محدوداً ، ترى ولا عين لها ما لا يراه الانسان ، وتعمل ولا يدَ لها ما لا يستطيع عمله ، وتضبط فوق ذلك عملها ، ولا فكر لها ، ضبطاً تامًّا تعجز دونه اليد البشرية

هو الفكر — اعود الى اوليتي — فكر الانسان المخترع . فقد جاءَنا ، بعد اربعمئة سنة من الاختراع الاوَّل ، بأعظم آلة للطباعة واعجبها حتى اليوم . هي منضدة اللَّينوتَيْب . ومعنى اللينوتَيْب سطرٌ من الاحرف line of type فمن الحرف الفرد الذي كان الاساس في التنضيد تدرجنا الى السطر الفرد ، ومن صندوق الحروف انتقلنا الى بودقة الرصاص لسكب الحروف . هو ذا الاوج الذي ادركتهُ الطباعة في هذا الزمان

لست بميكانيكي ، ولا علم لي بالميكانيكيات . ولكنني اقف دهشاً مسحوراً امام آلة عجيبة كما اقف امام صورة زيتية لشهير من المصورين . ولقد سحرتني منضدة اللينوتَيْب التي تكاد تكون عاقلةً رشيدةً كالانسان العاقل الرشيد ، هي آلة كبيرة كثيرة العوامل والاسباب ، ولكنها للعامل بها بسيطة في عملها بساطة الالف باء . وفيها مع ذلك اسرارٌ تنشرها وتطويها ، وآيات ينطق بها

الحديد . ان لها في الحديد مئة يدٍ ، ومئة عينٍ ، تعمل جميعها ، بنظام يفوق التصور ، عملها العجيب

ومن اعجب ما فيها لمثلي وللقراء غير الميكانيكيين الطريقة التي تلبي بها المنضّد الناقر على مفاتيح الالف باء البادية امامه . فهي ترسل الامهات من مستودعها وتصفها صفًّا متساوياً متراصًّا متقناً كل الاتقان . وهذا السطر من الاحرف ، بكلماته وفواصلها ، يمشي بعد ان يتم الى قالبٍ يقف به امام الباب او المنفذ الذي يتصل ببودقة الرصاص المصهور ، فيجري سائل الرصاص منها وينصَبُّ في الامهات المجوفة احرفاً بارزة . ثم يخرج السطر قطعةً واحدةً جامدةً نظيفة مصقولة ويسقط مكانه من عمود الجريدة او صفحة الكتاب . السطر الفرد بدل الحرف الفرد هو اليوم اساس التنضيد . واعجب مما ذكرت الطريقة التي تعاد بها الامهات الى المستودع ، وتوزّع آليًّا بعمل ذاتي كما يوزع المنضد الحروفَ في الصناديق . على انها في عملها اسرع جدًّا منهُ واكثر تدقيقاً . فهي ترسل كل حرف الى بيتهِ وقلما تخطىء . آلة عاقلة رشيدة ، اختراع مدهش عجيب !

هذي هي منضدة اللَّينوتَيب التي يجلس اليها العامل كما يجلس الى آلة الكتابة ، فيلقنها الالف باء — الالف باء التي يتكون منها الفكر لخدمة الانسان ، بل لنشر المثل الاعلى في حياة الانسان وحياة الامم

المخترعان الالمانيان

منذ اربعمئة سنة ، بعد ان اخترع غوتنبورغ مطبعته اليدوية وحروفه الخشبية ، كان الرهبان وطائفة صغيرة من العلماء خارج الاديرة يتمتعون وحدهم بخير ذلك الاختراع . اما اليوم فالمنضدة العظيمة هي شبيهة بآلـه ينثر خيره في الناس جميعاً وفي اقطار العالم المتمدن جمعاء . والفضل في الاختراع الثاني ، مثله في الاختراع الاول هو لرجل الماني . ان قصة الاول لمن صفحات التاريخ المعلومة . سأقص اذن قصة الاختراع الثاني ، وهي تبدأ في المجلس النيابي الاميركي بواشنطون

ولا عجب . فالكلام حياة المجالس النيابية في العالم . والنواب ، اميركيين كانوا او شرقيين لا يشتهرون الاَّ اذا اكثروا الكلام ، واحسنوا منهُ ما يدعى بالمركب المفيد . الاَّ ان لكلام النواب ، مركباً كان او غير مركب ، مفيداً او غير مفيد ، حق الخلود في سجلات الحكومة . اجل ، يجب ان يسجّل . ومن يستطيع من كتَّاب المجلس ان يتتبع النائب الفصيح اذا ما طفق يتدفق بالكلام ! عوناً نوابغ العلم والاختراع . عونكم ، او تضيع درر الفصاحة والبيان والحكمة

جاء المخترعون بلغة الاختزال ، فاستطاع المختزل ان يعدو والخطيبَ — هذا ينثر وذاك يلتقط — دون ان تُفقد غالية من غوالي الخطبة . على ان التسجيل في جريدة الحكومة الرسمية من اللزوميات ، فوجب على الكاتب ان يعيد كتابتهُ المختزلة بلغة يفهمها منضد الحروف ، وقد كانت الخطب تنضَّد يومئذٍ بالطريقة القديمة — حرف من هذا البيت ، وحرف من ذاك ، والصندوق

كثير البيوت والحن . يالها من طريقة بطيئة مزعجة شاقة . أفنستطيع والحالة هذه ان نصدر الجريدة الرسمية كل يوم . الجريدة الغراء التي يترقبها النواب ترقب الصائم لهلال العيد ، أيمكننا أن نباريهم في سرعة العمل وهم دوماً يخطبون ؟ ويغضبون اذا نقص من الخطبة كلمة واحدة . بل كان النائب الخطيب ، وهو يراجع مسودة خطبته، يضيف اليها ما فات الكاتب منها ، ولاسيما تينك الكلمتين بين الهلالين (تصفيق حاد) في مواقفه الرنانة المفحمة ، اكراماً لمنتخبيه في الاقل فيقرؤنها في جرائدهم المحلية ويهتفون : هذا نائب ! ويعيدون انتخابه للمجلس

على ان كتّاب الخطب سئموا عملهم المزدوج المزعج ، وكان مدير الجريدة الرسمية يتضجر من تراكم المواد في ادارته ، والنواب الخطباء يتسخطون على الجريدة لتأجيل نشر خطبهم الغراء . ولاختصارها في بعض الاحايين . ما العمل وما التدبير ؟ فكّر الكتّاب كتّاب المجلس، بطريقة تريحهم من المحنة او تخففها . أليس من الممكن ان نطبع ،وادنا المخزلة مباشرةً على آلة منضدة ؟ عونكم ، نوابغ الاختراع . جال بعض كتّاب المجلس جولة في ميدان الاختراع وعادوا مخفقين

وفي تلك الايام ، اي منذ خمس وخمسين سنة ، كان في واشنطون شاب يدعى أطمَر مُرغِنْثالَر ، جاء من ورتنبرج بالمانيا ، يدفعهُ الطموح ، وتستغويه الشهرة والثروة . وكان له ابن عم « ساعاتي » تقدمهُ الى البلاد الاميركية ، فاستخدمهُ في دكانه . ان في الساعات وأدواتها الدقيقة غذاء لعقل المخترع . فبين كان «أطمر» يشتغل في الدكان كان فكره يجول في عالم الاختراع . وقد كانت المادة في عقل هذا الشاب شبيهة بتلك التي أنارت عقل ابن بلاده الذي تقدمهُ باربعمئة سنة ، اي المخترع الاول للطباعة جوهان غوتنبورج

سمع كتّاب المجلس النيابي بهذا الشاب ، وانهُ يخترع اختراعاً للطباعة جديداً . فجاءوا بهِ الى المجلس مستطلعين حقيقة الخبر ، فسروا بما علموا ، وساعدوا الشاب ادبيًّا ، ثم توفقوا الى من ساعدهُ ماليًّا . فأنتجت تجرباته في سنة ١٨٨٦ الاختراع الاول لمنضدة اللَّينوتَيْب هو الحادث الثاني العظيم في تاريخ الطباعة

انما المبتكر لايرضى بباكورة عمله ، ولا يقف المخترع عند حدٍّ في اختراعهِ . ان لكل اختراع قصة في النشوء والارتقاء ، تبدأ بالفكر المولّد ، ولا تنتهي ما زال ذلك الفكر حيًّا متنبهاً مولّداً

اخترع مُرغنثالر منضدتهُ ، فتولت شركةٌ صنعها وبيعها ،وظل الفكر المتنبه المولّد يحسن فيها حتى أصبحت منضدة اليوم اذا قيست بالمنضدة الاولى كالمطبعة الاسطوانية اذا قيست بالمطبعة اليدوية . انما المخترع هو هو ، والمنضدة تحمل اسمه الذي اصبح خالداً مثل اسم مواطنه غوتنبرج .

بيد ان الفرق بين الاثنين هو ان مرغنثالر أحرز في اختراعهِ فوق الشهرة مليون دولار

المانيان هما كوكبان في عالم الالفباء المطبوعة ، وفي سماء الفكر المنشور . وان بين الكوكبين

مسافة لا تعد بين الكواكب طويلة . على انها في حياة المثل الاعلى — وبدون مجاز أقول : في نشره وتعميمه — لأعجوبة من اعاجيب الزمان

فماذا عسى ان يكون من أمر الطباعة بعد اربعمئة سنة من عهدنا هذا، عهد اللاسلكي والطيران ؟

التحسين ونوافله

دع عنك الماضي والتكهن بما عسى ان يكون في المستقبل . ان للمثل الاعلى اليوم مصنعاً كبيراً في البلاد الاميركية . قد أسميته مصنع المثل الاعلى لا لما تقدم بيانه فقط — لا لانهُ من العوامل الكبرى في نشر المعارف ، وتعميم الثقافة — بل لانهُ مؤسس على مبدإ المثل الاعلى في الارتقاء الدائم الذي يشمل العامل والآلة والانتاج معاً

كان المعمل في الماضي مؤسساً على قاعدة واحدة اولية هي قاعدة الارباح . وكان العامل في سبيل الارباح ، لاصحاب العمل وحاملي أسهمه ، كالآلة الصماء ، بل كالرقيق المكدود المنكود ، يعمل اثنتي عشرة ساعة في النهار براتب ضئيل ، ويعيش وعائلته في بيئة تعجج من القذارة والفقر والجهل ، وما يصحبها من المآتم والامراض . فثار المصلحون الاجتماعيون على هذه الحال ، ولبت الحكومة تدريجاً مطالبهم او بعضها ، فاشترعت الشرائع لتحسين المعامل ، وتحسين احوال العمال فيها . وقد أصبحت هذه الاصلاحات من الامور العادية المرعية في المعامل الاميركية . بيد ان هناك من التحسين ما لا تفرضهُ الحكومة، وما قلما يخطر في بال المصلحين . هي نوافل التحسين التي يقوم بها اصحاب المعامل من تلقاء انفسهم

ربَّ قائل قال : ليس الدافع لهذه النوافل مجرد الحب الانساني . هو قول معقول . فقد يكون الدافع لها حب التفوق الصناعي ، اي التنافس بين أرباب الصناعة الواحدة . وقد يكون الدافع لها رغبة الزيادة في الارباح . على انهُ في كلا الحالين لا يخلو من الحب الانساني الذي يوجبهُ المثل الاعلى في العمل، فيدخل على قلب ارباب المال العقيدة الاجتماعية الاقتصادية انهم والعمال أخوان وشركاء. هذي هي نوافل التحسين التي لا تفرضها الحكومة ولا تنحصر نتائجها في الارباح المادية

وانك لتجد في المصنع الذي أحدثك الآن عنهُ شيئاً كثيراً منها . تعالَ زرهُ معي، فتشاطرني ولا شك السرور والاعجاب — اننا في طريقنا الى القسم الاداري منه، وهذه الصور الزينية على الجدران تمثل تاريخ الكتابة والطباعة ، منذ نقش الاشوريون سير ملوكهم وآلهتهم في الحجارة الى يوم كُتبت الكتب خطّاً على البردي ثم على الرق ، ومن عهد غوتنبورغ الخشبي الى عهدنا هذا الكهربائي

ومما يروقك في الطابق الذي يحتوي على القسم الاداري هندسته الاوربية القديمة . فالرواق فيه شبيه بأروقة الاديرة في القرون الوسطى . هو العلم والذكريات الجميلة لمهد العلم في اوربا

وهل للنجاح في الصناعة والتجارة غير العلم سبيلاً ؟ هاك الى جانبي رواق العلم شتى المكاتب

التي تقوم بشؤون العمل الادارية والتجارية . وفي احد هذه المكاتب يرحب الرئيس بنا ، ويصحبنا بدليلٍ للطواف بالمصنع الكبير الكثير الدوائر والاقسام ، الذي يعمل فيه اثنتا عشرة مائة من العمال رجالاً ونساء

ان دليلنا مدير الصناعات العام لفيلسوف حكيم . يحدّثنا ، وهو يطوف بنا بيت عجائب الحديد والنحاس ، عن عجائب العقل البشري ، وأسرار الضعف والقوة في الانسان العامل ، والانسان المفكر . اني اذكر قوله : « المرء يميل طبعاً الى السهل من الامور . ونحن نسعى دائماً الى تسهيل العمل على الآلات، ولازالة اخطارها » . وأذكر كذلك هذه الكلمات : « غايتنا الاولى هي ان نحوّل العمل من العضلات الى العقل » . سترى اذن كيف ان الاعمال اليدوية الشاقة اصبحت اعمالاً عقليةً دقيقةً مستحبة

سيرة الحرف الابجري

في كل ما اخترعهُ العقل البشري ، وصنعتهُ اليد البشرية ، لا اظنك تجد شيئاً صغيراً حقيراً كالحرف الواحد من احرف « الالفباء » ذا سيرة عجيبة كسيرته . فان في صنعه ، منذ يُرسم على الورق الى ان يتصلب في الوجاق الكهربائي ، يفحص بالناظور المكبر ، ويعطى الشهادة انهُ صالح لتوليد مليوناً مثله من الحروف ، ان في صنعهِ آية من آيات التقسيم والتنظيم والتوحيد في الصناعة . اجل ، ان هذا الحرف الواحد يمر في تكوينهِ على اثنين وخمسين عاملاً ، يعمل كلٌّ فيه عمله مهما يكن صغيراً ، وبدونهِ لا يتم

ها نحن في دائرة الرسامين وأكثرهم من الجنس اللطيف . هو الفصل الاول من السيرة المدهشة . فالحرف يرسم على الورق رسماً ضخماً هو اربعمئة مرة اكبر من الحجم العملي . وهذه الرسوم ترسل الى دائرة الفن والتصوير للنظر والنقد ، فلا يخرج رسم منها وفيه نقص او خلل بالتناسب الفني

ثم تُرسل الرسوم هذه الى دائرة الحفر في النحاس ، وفيها آلات صغيرة صقيلة ، تديرها أيدٍ نسوية نحيفة ، فيحفر الحرف على قطعة من النحاس ربع حجم الرسم حجمُها . ان سر الضبط في هذه الآلات لعجيب . فليس على الفتاة ان تجهد غير عينيها بين ان يدها تحرك ابرة على الرسم كأنها تعيد رسمه . وهذه الابرة تتصل بأدوات محجوبة مركبة تركيباً دقيقاً بحسب الاقيسة الهندسية والرياضية ، فتحرك ابرة من الفولاذ على قطعة النحاس ، فينحفر الحرف مصغّراً ليكون حجمه ربع الحرف المرسوم وأربعين مرة اكبر من الحرف المطلوب . ثم يحفر ويجلى كل ما حوله فيبقى الحرف وحده نافراً على النحاس

بعد ذلك يرسل هذا الحرف النحاسي الى دائرة الامهات ، وهناك صف من الحسان ،

في اثواب من الحرير ، جالسات امام آلات صغيرة الحجم كبيرة العمل ، شبيهة اصلاً بالآلات التي تصنع الحروف النحاسية . وكل فتاة تحرك ابرةً امامها على حرف النحاس ، فتتحرك الآلة وتحفر في جوف اسرارها الحرف الصغير المطلوب الذي يدعى الطابع

ومن هذا الطابع البارز تصنع الامهات المجوفة . اي انهُ يستخدم لطبع الحرف في القطعة التي تدعى« الامّ »، والتي تباع للطابعين . ولكن هذا العمل لا يتم بغير الضغط الشديد . لذلك يشوى الطابع في وجاق كهربائي حرارته الف وأربعمئة درجة (فارنهت) ثم يُغمس في الماء فيكتسب الصلابة وقل المناعة اللازمة لفعله ، فلا يتمدد في الكبس عليه ، ولا ينكسر تحت اثقال الادوات

أما « الام» التي تصنع من الطابع فهي كما اسلفت القول محفورة تجويفاً في قطعة من النحاس ذات اسنان وتجاويف اخرى لتمكن المنضدة من القبض عليها واستخدامها في التنضيد ، وفي سكب الرصاص والتوزيع . وهذه الام ، قبل ان تصبح صالحة لطبع الجرائد والمجلات والكتب تمر كما قلت على اثنين وخمسين عاملاً كل يعمل فيها عملهُ الميكانيكي او الكيماوي او الفني . ان في هذه الدائرة خمسمئة عامل وعاملة ينجزون في الاسبوع الواحد مليوناً واحداً من الامهات

بقي ان اقول ان آخر الاعمال يقوم بهِ الفاحصون او بالحري الفاحصات الجالسات وراء الناظور المكبر في خيم صغيرة ، فترى الفتاة الحرف الذي ينعكس على الزجاج واضحاً امامها ومن اغرب طرق الفحص وأسهلها ما تراه الى يمين الفاحصة والى يسارها . هناك زندان يتصلان بالآلة التي تدفع الامهات في احد طرفي الناظور فتعكس في الطرف الآخر مكبرة امام الفاحصة فاذا كان الحرف سالماً من الشوائب حركت زند اليمين ، واذا كان فيه خلل حركت زند اليسار . فالحركة الاولى ترسله الى صندوق الانتاج الصالح للبيع ، والحركة الثانية تسقطهُ في صندوق آخر للاصلاح

قال المدير دليلي العالم بأخلاق الناس علمه بأسرار الآلات : لو « كان الفحص على غير هذه الطريقة ، او بالحري يدويًّا بالمكرسكوب ، لاستغرق الوقت الطويل ، ولكنَّا مضطرين مع ذلك أن نقيم الفاحصين على الفاحصات ، فلا يتهاملنَ او يتكاسلنَ في عملهنَّ . اما وقد جعلنا طريقة الفحص مقيدة بهذين الزندين ، وحركة الواحد سهلة كحركة الآخر . فلا سبيل للتفضيل او للتهاون . تستطيع الفتاة ان تحرك كليهما على السواء ، والباقي موكل بنظرها »

قلت : « وبضميرها » فقال: « اذا سهلت العمل استقام الضمير»

آلات تصنع آلات

لو حاولت ان اصور للقارىء صورة من الجبابرة والاقزام في عمل واحد ، بل من الافيال في العمل ومن النمل ، وأجعل الوحدة المنظمة محور الصورة كما ينبغي ، فتبدو الصلات في الاعمال

كأنها الشرايين في الجسم البشري ، لكان العجز او الاجتهاد أظهر ما في الصورة . لذلك اكتفي بالاشارة الى النمل والى الافيال لأرمز على ما في هذا المصنع من الاشياء الدقيقة والاشياء الضخمة . ومن الدقة الصناعية والهندسية في كل عمل يتعلق بها ، كبيراً كان او صغيراً

لقد شاهدنا في معمل الامهات الحرف الذي هو كالنملة الصغيرة محفوراً في النحاس . فهب ان رجلاً من ارجل النملة كان مجروحاً فهل يُدرى الجرح بالعين المجردة ؟ على ان الخلل في الحرف الصغير لا يقاس حتى بالجرح في رجل النملة . فهي بالرغم منهُ تمشي . اما الحرف المشوب بأصغر الشوائب فهو لا يمشي. وهو فوق ذلك يشوّه سطراً في صفحة من الحروف ، وقد يقضي بتوقيف المطبعة . فاذا كان عالياً مثلاً فهو يخرق الصفحة ، او يبدو بين أقرانه وقد أُثقل حبراً كالعبد الاسود بين صف من البيض . واذا كان واطياً فلا تدركهُ المطبعة فيختفي . وكم ينبغي ان يكون مقدار الزيادة او النقص ليحسب خللاً ؟ ان الحرف الواحد ، كما تعلم اذا كنت منضداً او طابعاً ، هو جزء صغير من السطر الذي ينبغي ان يضبط «على الشعرة» كما يقال . وليس في القول مبالغة . فاذا كان الحرف عالياً او واطئاً او زائداً او ناقصاً في سمكه وعرضه وطوله ، جزئين من عشرة آلاف جزء من البوصة ، فهو غير صالح في نظر ارباب الصناعة ، فينبذ او يصلح

وهل يمكنك ان تتصور مثل هذه الدقة في الصناعة ؟ اقسم البوصة الواحدة الى عشرة آلاف جزء ، ومثل لنفسك ان استطعت جزئين منها . فهذان الجزءان اذا زادا او نقصا في جسم الحرف يشوهانه صناعياً او فنياً ، فهو اذ ذاك لا يصلح للعمل

وهذه الدقة العجيبة ترعى في كل جزء من اجزاء المنضدة كبيراً كان او صغيراً . فضلاً عن ذلك ان الخلل الذي لا يدرك بغير النواظير المكبرة يؤثر في الآلة اجمالاً . فالضبط في عمل النملة اذن هو ألزم من الضبط في عمل الفيل . بل ان في هذا الضبط تستقيم الوحدة التي اشرت اليها ، والتي تصل وظيفة الفيل بوظيفة النملة

بعد هذا البيان ننقل من بيت النمل الى بيت الافيال — من دوائر الحروف والامهات الى دوائر الآلات الضخمة الجبارة . ها هنا الحديد يفل الحديد ، والفولاذ يقطع الفولاذ ، والآلات المخوفة تصنع الآلات العجيبة . ها هنا تتم وتركب أجزاء المنضدة ، فتمر قطعة من الحديد صماء في آلة ضخمة يستطيع الولد أن يحركها بأن يضغط زراً أو يدير لولباً . ثم تخرج من الآلة وفيها الثقوب أو الاسنان ، أو الصقل أو التجويف أو الاضلع اللازمة لكيانها كجزء حي سويّ من أجزاء المنضدة . ولكل عمل في أحد الاجزاء آلة مخصوصة ، فينقل من الواحدة الى الاخرى ليدرك درجة الكمال . ثم تنقل الاجزاء الكاملة كلها الى بيت التركيب ، حيث تركب المنضدة تركيباً تاماً ، يؤهلها للعمل الذي اسلفت بيانه

السكة المعلقة

قلت ان اجزاء المنضدة تنقل اثناء صنعها من آلة هائلة الى اخرى . وقد تنقل عشرين مرة في الطابق الواحد الذي يبلغ طوله اربعمئة قدم . على ان نقل هذه الاجزاء باليد ، ومنها ماهو ضخم ثقيل يختلف وزنهُ من القنطارين الى الاربعة القناطير ، يشغل عدداً كبيراً من العمال ، ولا يخلو من خطر ، فضلاً عن البطء فيهِ والمشقة . فهي لذلك تنقل على العجلات ، وقد أُعدت لها سكة من حديد . هي الطريقة المتبعة المألوفة في المصانع الاميركية

اما العجيب في سكة هذا المصنع فهو انها معلقة في السقف ! فلو مدّت على الارض ضيّقت على الآلات ، وسببت الازدحام والتلبك . الازدحام — في الآلات او في عمالها — انما هو عدو النظام ، والنظام صفة ملازمة للاتقان ، وفي الاتقان الطريق المستقيم الى النجاح والارباح. اذن ، سنمنع الازدحام ، وسنعلق السكة في سقف البيت

هي ذي آية اخرى من آيات العلم والاختراع — سكة في السقف من حديد ، وقد اثبتت هناك بكلاليب الحديد . هي خطوط ذات ادوات رافعة تتصل بها ، ومخالب كالملاقط تتدلى منها لكل حبلان يدنو طرفاها من الارض، فيشد العامل احدهما فتنزل الآلة الرافعة . وتقبض بمخالبها على قطعة الحديد التي يراد نقلها، ثم يشد الطرف الآخر فتصعد وقد حملت حملها ، وتسير بهِ مدفوعة بقوة الكهرباء ، فتجري على العجلات فوق رؤوس العمال وفوق الآلات

هذا ما ارادهُ المدير دليلي بقوله ان الغاية القصوى في المصنع هي ان نعتاض الاعمال العقلية السهلة عن الاعمال اليدوية الشاقة . وقد شاهدت في الطابق الثالث مثلاً آخر باهراً من هذه الامثلة. هناك تُجمع وتركّب اجزاء المنضدة ، فتصف صفًّا من طرف المكان الى الطرف الآخر ، الجزء يتلو الجزء ، كما يقتضي التركيب . فيبدأ العامل بفرش أرض المطبعة على مائدة ذات عجلات ، ثم يشرع يدفعها امامه ، فيقف بها عند كل جزء يضيفهُ اليها حتى تتم المرحلة وتكمل المنضدة

وفي تركيب الاجزاء تُرعى الدقة الذي تقدم بيانها في الكلام على فحص الامهات . فالجزء يرتبط بالجزء بطريقة محكمة مضبوطة « على الشعرة » ولا مبالغة . بل ما دققت في التعبير . فهي تضبط حقيقةً على ورقة « السيكارة » . هوذا العامل والورقة الرفيعة بيده ، يضعها بين طرفي جزئين ويستلها، وهو يحكم ارتباطهما . وقد يقضي ساعة او ساعتين في هذا العمل حتى يمسي استلال الورقة من بين الجزئين المتصلين مستحيلاً . ان هذه الطريقة في الضبط تقاس ببضعة اجزاء من عشرة آلاف جزء من البوصة

— « غايتنا القصوى أن نستغني ما استطعنا عن الاعمال اليدوية الشاقة »

واليك ، قبل ان تنقل من الدوائر الميكانيكية ، بمثل آخر من هذه الامثلة الصناعية الباهرة ،

في الطابق الاسفل تتولد القوى البخارية الواجبة للعمل وللدفء . هناك صفٌّ من الخزانات الكبيرة ، ولكل خزان وجاق حياته الفحم ، فكان يطعم في الماضي باليد او بالحري بالرفش ، فيقف الوقاد امام النار المتأججة يرفش الفحم ، وهو أحمر العينين ، أسود الوجه ، وقد لصقت قميصه بجسمه من العرق . ساعة واحدة من هذا العمل تمثل للعامل الموت والجحيم

بعداً للمهلكات . هاك خارج المعمل مستودع الفحم وقد رفع عالياً ، فتمتد منهُ حبال الحديد تجري عليها الزنابيل الملأى بالفحم فتقذف بهِ الى الوجاق . عملية ميكانيكية يقوم بها رجل واحد ، وهو بعيد عن النار وشرها ، فلا تمرض عيناه ، ولا تحترق يداه ، ولا يعرق ويشقى

قد يظن القارىء ان الاخطار تحوق بالعمال في هذا المصنع الكثير الآلات والادوات ، وهي تدار بالقوى البخارية والكهربائية . ليس لديَّ ما ينفي هذا الظن . الاَّ انني علمت ان الشركة احرزت جائزة السلامة من دائرة الحكومة لفحص المصانع ، لان حوادث الخطر في السنة الواحدة لم تتجاوز الاثنين في المئة . وقد زرت المستشفى فيهِ المعَد للاسعافات الاولى في مثل هذه الحوادث ، فرأيت الممرضة تطالع كتاباً ، وما رأيت شخصاً في سرير

ومع السلامة الصحة والرضى

اني مسهب في وصف هذا المصنع وسائر دوائره اكراماً لاخواني الشرقيين الذين يبتغون لاوطانهم ما يتمتع بهِ الغرب من ثمار العلم والصناعة . فهاكم المثل الاعلى في الاثنين . لاثروة بلاعلم ، ولا علم بلا عمل ، ولا عمل يفلح بدون النظام والتضامن . لقد شاهدنا في ما تقدم مظاهر باهرة من مظاهر العلم والعمل والنظام

اما التضامن فالعروة الوثقى فيهِ إنما هي العدل ، وقل هي اشتراك العمال واصحاب المال في ثمار الانتاج اشتراكاً عادلاً . من الاقوال المبتذلة : أحسن معاملة العامل يحسن عمله . وفي احسان المعاملة الارباح لك وله . فاذا عُمل بالقول المبتذل صار قولاً ذهبيًّا . لقد اسلفت الذكر لما كان من اصلاح المعامل بواسطة الحكومة ، وأشرت الى نوافل التحسين التي يقوم بها اصحاب المصنع من تلقاء أنفسهم مهما كان الحافز بهم الى تلك الاعمال . وأي مصنع هو أجدر بالتحسين الدائم من هذا الذي يصنع الادوات لنشر المعارف ، وتعميم الثقافة الحديثة في العالم . ان خبره ليصدق خبره . نقول نحن العرب : النظافة من الايمان . ويقول الغربيون قولاً شبيهاً بهِ يقرن النظافة بالالوهية . انما يشفعون القول بالعمل ، والعمل بأمثلة من النظافة وهي تفاخر بيناتها الثلاث : الصحة والاقبال والسعادة

لست معجباً بشيء من تلك الآلات العجيبة ، ذات الاسرار المحجوبة ، اعجابي بالنظافة فيها ، وحولها وتحتها ، وفوقها — ارض من الخشب المصقول كانها كُنست وغسلت ساعة دخلنا المصنع —

صناديق للكناسة في كل مئة ذراع من المكان ، بأغطية تفتح بدفعة يد ، وتقفل بعمل ذاتي — خزانات من حديد لاثواب العمال — مغاسل كبيرة ، بأنابيب مرتفعة ، ترش المياه رشًّا أفقيًّا ، يغسل فيها العمال بالمياه الجارية ، لا كما كانوا يغسلون في الماضي بالاجران الجامعة للادران والجراثيم — حنفيات تقذف الى العلاء بالماء المبرَّد ، فيشرب المرء دون ان تمس شفتاه الحنفية (هي طريقة معكوسة للابريق الذي نشرب بهِ في لبنان) اما الآلات نفسها فلمعانها لا يزول، وحسنها لا يحول ، تجلس اليها الحسان في أثواب من حرير ، وبعد يوم من العمل يعدنَ الى بيوتهنَّ كما غدونَ منها ، كأنهنَّ عائدات من دور السينما . ناهيك بالفسحات بين الآلات وعمالها، وبالجدران التي تكاد تكون كلها نوافذ وشبابيك فتغمر المكان بفيض من الشمس ، وبدورة مستمرة من الهواء النقي . أضف الى ذلك النعمة الكبرى : لا روائح ، ولا ضجيج ، ولا ازدحام

ان للعلم والاختراع والنظافة آيات في كل مكان . فهناك الآلات الصاقلة لبعض أجزاءٍ من المنضدة . ان عملها ينشر دقيقاً من المعادن لو ظلَّ هناك لعلق بالهواء وأفسده ، فاخترع لهُ اختراعاً هو المصَّاصات . وما أدراك ما هي . أنابيب كبيرة تمتد من أمام الآلة الصاقلة الى الخارج ، فتمتص دقيق المعادن وتدفع بهِ الى زنابيل على السطح تفرغ كل يوم

اما وقد انتهينا من أهم فروع المعمل الميكانيكية ، وحان وقت الغداء ، فدعوة الرئيس للاكل لا تُرَد . ما خرجنا من المصنع لهذا الغرض الشريف، بل يممنا المطعم فيهِ ،وهو كبير بطولهِ وعرضه ، موائدهُ لا تعد ، يجلس الى بعضها ستة والى غيرها عشرة من العمال او المديرين ، رجالاً ونساء . وهم جميعاً — الف ومئتان عدًّا — يؤمون المطعم في ساعة معينة ، فيتناولون الطعام في وقت واحد . لا حاجة الى وصف النظافة ها هنا . انما اقف بالقارىء عند المطبخ المنفصل بالزجاج فقط ، فيرى بحذافيره ، ويوقظ القابلية في السقيم . كأن تلك الوجاقات الكهربائية ، والمواعين ، وأدوات المائدة ، معروضة كلها للبيع ، لا معدَّة للعمل . وما كل معروض للبيع في المخازن بأنظف منها

عفواً ، أيها القارىء العزيز . أني معلنب بما أراه من الكمال في الغرب المادي ، لعلنا في هذا الشرق نقتبس شيئاً منهُ ، ندعم بهِ استقلالنا ، ونحسن بهِ بعض أحوالنا . . . النظافة ، نقول ، من الايمان . وما قولك اذا كان ايماننا نفسه يحتاج الى التنظيف والتجديد ؟ — ان علومنا الروحية لفي حاجة الى العلوم الاجتماعية والاخلاقية والنفسية والعقلية ، فتحييها ، وتشعل نور الزمان الحاضر فيها . النظافة في كل مكان — في السوق وفي المعمل كما في المخزن والبيت . في الكبير من أمرها ، وفي الصغير على السواء . وهاك من الصغير المثل الاعلى في المصنع الذي طوَّفتك بهِ . ان فيهِ الدليل على اجتهاد مديري المصنع في درس الاخلاق البشرية والعمل بما تقتضيهِ . ان الاشارة لخيرٌ من الامر . بل ان الاشارة لخيرٌ من القول المعروف — لا تبصق على

الارض . انها من باب النهي عن المنكر . وفي النهي شيء من التفوق والتحكم — في البصاق العدوى ، فحافظ على صحة أخيك . انها من الكلمات المحقِّرة للناس ، المذكرة بمرض فيهم او جهل . فبدل الامر والقول المعروف ، حتى والمعقول منهُ ، تحيتهم بالاشارة ؛ وهي أفصح من الكلام وأبلغ

ان جدران الادراج في المصنع مدهونة بالدهان الازرق والزوايا منها بالدهان الابيض . فما معنى هذا التميز ؟ من عادات العمال القبيحة انهم يبصقون في الزوايا فلا تُرى فعلتهم . فجاءت الاشارة في الزوايا البيض ، كأنها تقول للعامل : ان انت بصقت هنا ، او رميت بشيء يوسخ المكان ، فالتوبيخ جزاك . وممن التوبيخ ؟ لا من المدير ، ولا من احد اخوانك العمال أما هو من نفس عملك البادي امام ناظريك . هو نقطة سوداء في صحيفتك البيضاء . فتنبه . هي ذي الاشارة التي تفوق ببلاغتها بلاغة الآيات والامثال . فالادراج نظيفة على الدوام ، وبالاخص زواياها البيض

لا أبوية في المعاملة

من المبادىء التي يلذ للصالحين في الشرق العمل بها المبدأ الذي يحمل صاحب العمل على معاملة عماله كبنيه . فيرمقهم في المعمل وخارج المعمل بنظره ، ويغار على آدابهم غيرته على مصلحتهم ، ويحسن في بعض الاحايين اليهم احساناً ابويًّا صافياً . لك ان تعترض على النعت الاخير . أما المدير الاميركي فهو يعترض على المبدإ الابوي باصوله وفروعه . لا . ليس لهذا المبدإ حرمة ، وليس له انصار في المعامل الاميركية

تناولت الغداء وبعض المديرين في المطعم العام . وكنت قد ظننت ان الطعام يقدم مجاناً لهم وللعمال ، فأخطأت الظن . وقد دهشت لما رأيت الرئيس يدفع ثمن غدائه وغدائي . نظرت في لائحة الطعام فاذا بها مسعّرة ، واذا بالاسعار اقل من نصف ما يتقاضاه مطعم من مطاعم المدينة . حدثت الرئيس في الامر فذكرت الضيافة قائلاً : « اذا الشرقي انشأ مطعماً لعماله فهو يكلله بالضيافة فيجعله مجاناً » . فابتسم وقال : « لا نرى الحكمة في المبدإ الابوي . فاذ انت اعطيت المرء شيئاً مجاناً فهو يظن ان لك في ذلك غرضاً خفيًّا ، فيحذرك ، وقد يسيء بعد ذلك اليك »

هي حكمة اميركية . وقد تكون خيراً من الحكمة الشرقية . بيد اننا في الشرق نشعر بالجميل شعورنا بالكرم وأشد . فهل نستعيض الحكمة الاميركية عن حكمتنا يا ترى ؟ هي الحكمة المألوفة في البيع والشراء . لا شيء بلا شيء . على ان المطعم مؤسس على غير قاعدة الارباح . فهو للعمال والمديرين بما يكلف الطعام والخدمة لا زيادة ولا نقصان

أضف الى ذلك ان المكان يستحيل مرقصاً مرتين في الشهر . فتقام فيه الليالي الراقصة ،

يحضرها الشبان والشابات من العمال ، وهم يدفعون من مالهم اجرة الموسيقيين. هي القاعدة الاميركية بالضبط . كأن الشركة تقول لعمالها : قاعة الرقص مني، والموسيقيون منكم ولا تفاضل ولا منّة

سألت الرئيس : « هل تخص الشركة العمال بشيءٍ من الارباح السنوية »

فاجاب قائلاً : « كلاً . ان في ذلك شيئاً من المبدإ الابوي »

قلت : وهل تساعدون من يمرض او يصاب في حادث اثناء العمل ؟ »

قال : مساعدة بسيطة في مستشفى المعمل فقط . بعد ذلك يُنقل المريض او الجريح الى بيته او الى احد المستشفيات في المدينة ، فيُعالج ويمرَّض هناك على نفقته ، او على نفقة الجمعية»

قلت : « اية جمعية ؟ » قال : جمعية التعاون المؤسسة من العمال ولهم . اما اذا نفد المال من صندوق الجمعية فهم يستعينو ننا فنعينهم»

— وهل من منافع مادية تخصونهم بها ، وهم في اخلاصهم واجتهادهم يزيدون إنتاج المصنع وثروته ؟ »

— « لكل عامل من العمال الحق ان يشتري بما يدخره من راتبه اسهماً في الشركة ، فيشارك اذ ذاك في الارباح . هو حق الجميع رجالاً ونساءً »

— « وما هو عدد المشتركين ؟ »

— « لربع العمال بالتقريب اسهم في الشركة »

وهي فوق ذلك تضمن حياة العمال ، كل عامل وعاملة ، بألف وخمسمئة دولار ، فتدفع الى شركة الضمان القسط السنوي عنهم جميعاً . ولا تحسمه من رواتبهم

قد تُعد هذه الطريقة المتبعة في اكثر المعامل الاميركية ، من الابويات . ولكنها في الحقيقة من باب التعاون والتضامن . ان لصاحب العمل حقه ، وللعامل حقه ، وان قسمة كليهما موكلة بثلاثة هي احسان العمل ، واحسان الجزاء ، والاقتصاد . فالعامل المجتهد في عمله ، المقتصد في نفقاته ، يصبح من الشركاء في المصنع . اما اذا كان من غير المجتهدين المقتصدين فحقه ينحصر في راتبه ، وفي صك الضمان المخصص به اكراماً لعائلته ، فاذا مات فقيراً ساعدت الشركة عائلته بما ضمنت حياة فقيدها ، اي بألف وخمسمئة دولار

قال الرئيس : « على الشركة واجبات ادبية ثلاثة ، هي ان ترضي عمالها ، وزبائنها ، وحاملي اسهمها »

اما العمال فقد شاهدت ما تقوم به الشركة من اعمال التحسين لخيرهم وخيرها . فهي لا تسألهم خير ما عندهم من علم ومقدرة واجتهاد ، بل تعد الاسباب ، وتمهد السبل المشجعة على ذلك ، فيسلكها العامل لسهولتها مسروراً بعمله ، راضياً بثمرته

وفي هذه الحال تتمكن الشركة من القيام بالواجبين الآخرين . فان في اتقان العمل رضى الشاري ومصلحته ، وفي الاقبال والارباح رضى الشركاء حاملي الاسهم . فلا تهاون ، ولا اهمال ولا تقصير في التحسين مهما اقتضاه من العلم والتجربات ، ومن النفقات

ومن التعاون في الاختراع

ان الشركة تمنح جائزة مالية لكل عامل يجيئها بفكرة جديدة ، او اقتراح مفيد ، للتحسين الميكانيكي او الفني او الاداري في المصنع . قرأت الاعلان المنشور على الجدران المنبيء بهذه الجائزة . وتحت العنوان صندوق وأوراق الكتابة ، فيكتب العامل اقتراحه ، ويضعه في الصندوق . هذه الاقتراحات تجمع مرةً في الشهر ، وتعرض على لجنة من المديرين تنظر فيها ، فتجيز صاحب الاقتراح المقبول بما يستحقهُ ، بعد ان تقدر ما قد يكون من الفائدة في العمل بذلك الاقتراح
سألت المدير : وكم هي قيمة اكبر جائزة منحتموها ؟ » فأجاب : « الف دولار »

ثلاثة من لبنان

أعود ، وقد دنوت من نهاية هذه الرسالة ، الى المنضّدة التي أوحتها اليَّ . فقد طفنا ، ايها القارىء بمصنعها الكبير ، الكثير المحاسن الميكانيكية والفنية والادارية . ومن أهم ما علمناه ان من اركان النجاح في الصناعات ركنين اصليين هما صحة العامل ، وصحة الآلة التي يديرها . ولنا ان نقول ان الركن الاول والاكبر هو العلم بالاخلاق البشرية ، وبالاسرار الميكانيكية ، علماً مقروناً بالعمل والانصاف . علمنا ذلك وتحققناه في ما شاهدنا

بقي ان أعلمك أن منضدة اللينوتيب اصبحت تنطق بخمسين لغة من لغات العالم ومنها لغة الضاد ، وان في جامعة برنستون بأميركا ثلاث منضدات عربيات لطبع ما تختاره من المخطوطات القديمة في مكتبتها العربية النادرة ، باشراف قيّمها العالم الفاضل مواطننا الاستاذ فيليب حتي

ولمن الفضل في اختراع منضدة اللينوتيب العربية ؟ قد علمتَ ان مخترع المنضدة الانكليزية هو الماني هاجر في صباه الى اميركا . أجل . ان أطمر مُرغنثالر لمن المهاجرين فحق للمهاجرين وأبنائهم في تلك البلاد العظيمة ان يفتخروا ويفاخروا بهِ ، ويجب ان اخبرك ان مخترع المنضدة العربية هو ايضاً من المهاجرين . هو لبناني من الفريكة ، هو ابن قريبي الاستاذ سلوم مكرزل . فحق لابناء العرب اللبنانيين ، المهاجرين والمتخلفين ان يفتخروا بهِ

أما ثالث الثلاثة فهو ، ولا فخر ، كاتب هذه الرسالة . لبناني يخترع المنضدة الناطقة بالضاد ولبناني يشرف على مطبوعاتها النفيسة في اشهر جامعة اميركية ، ولبناني يقص قصتها على ابناء هذه اللغة الشريفة . هذا واجب . هذا حق . فان في لبنان الخالد — بغير سياساته ورؤسائه — دوحةً للعلم والادب اصولها عربية ، وفروعها شرقية غربية اهـ

النبات والمعدن

شعور نابض

سيرة العلامة الهندي بوز
وطرف من مباحثهِ العجيبة

في اواخر العقد الثامن من القرن الماضي وضع احد العلماء الفرنسيين كتاباً بيَّن فيهِ ان بين حياة النبات وحياة الحيوان وجوه شبهٍ متعددة . فالنبات الاخضر الورق يطلق ثاني اكسيد الكربون في الليل ويأخذ الاكسجين ، اي انهُ يفعل ما يفعلهُ الانسان عند ما يتنفس. ثم ان في النبات خمائر هاضمة تحوّل النشاء الى سكَّر ، ولهُ مفرزات كذلك ولكنهُ لا يفرزها الى الخارج بل يعود فيستعملها في شؤونهِ الحيوية . واذا قيل ان النبات ليس فيهِ عضل قيل نعم ولكن النبات متصف بالقدرة على الحركة . فالازهار تتجه احياناً الى الشمس وتحني اعناقها عند ما يهطل المطر ورؤوس افنانها في حركة دائمة . بل ان بعض النبات يقوم بضروب عجيبة من الحركة ، كأن لهُ عقلاً يأمر وعضلات تنفذ الامر كالسنط الحسَّاس و«مذبنة زهرة» وغيرها

لم ينهض بين علماءِ الاحياء عالم يتوفر على هذه الناحية من حياة النبات توفر اَعليّاً، الاّ في مستهل هذا القرن . وهذا العالم هو الاستاذ السر جاغاديس شندرا بوز الهندي الذي نقلت الينا الانباء البرقية خبر وفاتهِ من عهدٍ قريب

بدأ بوز حياته العلمية استاذاً رقيق الحال في جامعة بالهند ، فاستوقفت مباحثهُ نظر عالمين انكليزيين كبيرين هما السر جيمس ديوار واللورد راليه ، فاستقدماه الى بريطانيا وافسحا له مجال العلم والبحث في معمل فراداي بالمعهد الملكي في لندن . وفي اثناء اقامتهِ في انكلترا طار صيتهُ واسترعت مباحثهُ انظار الصحف فجعلت تنشر انباءَها لما رآه فيها اصحابها من غرابة وعجب . ثم عاد الى الهند وقضى عشرين سنة في بحث متواصل ودأب مستمر . ولما عقد مجمع تقدم العلوم البريطانية اجتماعهُ المئوي برآسة البرنس اوف ويلز في جامعة اكسفورد سنة ١٩٢٦ دعي السر جاغاديس بوز اليهِ فألقى فيهِ محاضرة على اكبر علماء العصر وكان اينشتين نفسه في طليعتهم . فلما انتهت المحاضرة صرّح اينشتين بانهُ يجب ان يقام لبوز تمثال ينصب في عاصمة جامعة الامم. وقد وصفهُ احد العلماء وهو يحاضر بقوله : ان روح الجمال الحق ينبثق منهُ وهو يتكلم . . .

ولماذا تأثر اينشتين بمحاضرة بوز؟ بل لماذا ذاع اسم بوز في جميع أنحاء العالم، فلم يقتصر على دوائر العلماء المختصين شأن فريق من العلماء؟ ذلك ان بوز أثبت وحدة الحياة. انهُ دلَّ بالتجربة على ان الصلب وغيره من الفلزات ذات شعور، وان للنبات انفعالات، وان كل ما خلق يحيا ويموت، ولو كان جماداً. وبوز لم يقتصر في مباحثهِ على مراقبة النبات بالعدسة المكبرة. ولكنهُ استنبط طائفة من الاجهزة الدقيقة لقياس الافعال العصبية العكسية في النبات. لقد وصف بأنهُ صوفي، ولكنهُ اذا صحَّ هذا الوصف عليهِ، كان صوفيًّا يقيس جزءا من مليون جزء من البوصة! قد يكون خيالهُ مستمدًّا من اصله الشرقي، ولكنهُ أضاف اليهِ الدقة العجيبة التي يتصف بها العالِم الغربي — بل كل عالم على الاطلاق

ومع ذلك فان في مكتشفاتهِ من العجب العجاب، ما يحمل كثيرين على الشك فيها والاحجام عن التسليم بها. فانها أقرب الى بنات الخيال منها الى أصول الحقائق العلمية. واليك ما يقولهُ في فصلٍ لهُ: لقد كنا حتى الآن نحسب النباتات والاشجار بعيدة الصلة بنا اذ لا صوت لها، تعبر بهِ، ولكنني سأثبت لكم انها مخلوقات تحسُّ، وانها تستطيع ان ترد على الاسئلة التي نوجهها اليها. فورقة السنط الحساس عند ما تحسُّ بصدمة تستجيب لها بالانقباض والانحناء على اعناقها، وقد استنبطنا جهازاً يمكننا من تحويل هذا الجواب الى خط يرى . . . . ثم وصف الجهاز والتجربة

والواقع ان الاجهزة التي استنبطها بوز لقياس احساس النبات دقيقة كلَّ الدقة. ولا يخفى ان حركات النبات، بطيئة على الغالب، فالبزاقة البطيئة أسرع في حركتها من نموّ النبات ستة آلاف ضعف. اذ لا يزيد متوسط نمو النبات على جزءٍ من مليون جزء من البوصة في الثانية. ولكن من النبات، كالخيزران، ما هو أسرع جدًّا في نموّه من معظم النبات. وليس بالنادر ان ترى غصناً من أغصان الخيزران ينمو من تسع بوصات الى اثنتي عشرة بوصة في اربع وعشرين ساعة. ومع ذلك استنبط بوز جهازاً لقياس نمو النبات قوامهُ علة مغنطيسية وابرة لا تتأثر بمغنطيسية الارض وبقعة من الضوء تعكس على ستارة من مرآة صغيرة ومجهر. وللدلالة على قوة هذا الجهاز نقول انهُ اذا طبق على حركة البزّاقة ظهرت وكأن سرعتها مئتي مليون قدم في الساعة

قال بوز: للنباتات قلوب. وقبل ان استنبط الكريسوجراف (اي مقياس نموّ النبات) كنت واثقاً بان عصير النبات يجري في عروقها بجهاز يشبهُ في اصوله جهاز الدورة الدموية في الجسم البشري اي ان ضغط العصير في حركتهِ لم يكن على نمط واحد بل كان كأن وراءهُ مضخة تنبض نبضاً منظَّماً. وقد ايّدت آلة الكريسوجراف ظنّي هذا

وقد عانى بوز في سبيل اتقان اجهزتهِ عرق القربة. ولكن شغفهُ بالبحث سهل عليهِ كلَّ مشقة. وعلى مقربة من مدينة كلكتا أنشىء معهد بوز. هناك بهو متسع للمحاضرة ومعمل للبحث تحيط بهِ حديقة غنَّاء. ويحف بالحديقة مساكن الطلاَّب من هنود وغربيين. وكل ما

يستعمل في بناء الاجهزة يصنع في المعهد نفسه . ومع انهُ لم يعن كثيراً بتسجيل مكتشفاتهِ اتيح لهُ جمع ثروة غير يسيرة فوقف مئة الف جنيه منها على هذا المعهد

من التجارب العجيبة التي جربها ، ما لهُ صلة بتأثير السمّ في النبات وذلك بغمس جذعها في مركب البرومور ثم يصل اوراقها بأجهزته الدقيقة ، فتبدو فيها خطوط متعرجة اذا قوبلت بخطوط النبتة وهي سليمة سوية، تبينت فيها ما يدل على اضطراب النبتة وخفقانها تحت تأثير السم كما يفعل الحيوان . وأغرب من هذا ان اطباء الهنود الاقدمين كانوا قد اكتشفوا ان قدراً يسيراً من السم من انياب الكوبرا قد يفعل في المريض المشفي فيعيد اليهِ الحياة . وهذا يفسر عادة قديمة عندهم وهي امتناعهم عن دفن من مات بلدغ الكوبرا بل يوضع على رمث في النهر ظنًّا منهم ان الحياة قد تعود اليهِ . هذا وقد اثبت بوز ان سم الكوبرا يزيد خفقان الشعور النابض في النبات

ولم يكتف بوز بحصر بحثهِ في النبات ، بل تعداه الى المعادن فثبت لهُ ان في المعادن ايضاً قوة حيوية . فالصناع الذين يتناولون المعادن والفلزات يعلمون ان الفلزات تصاب بظاهرة تشبه التعب في الانسان . ولذلك قيل ان حلق الذقن يقتضي الاَّ تستعمل شفرة الموسى يوماً بعد يوم . بل تجب المداولة بين الشفرات حتى تستريح . وقد اثبت الفحص بالاشعة السينية ، ان فترة الراحة تتيح لجزيئات الفلزّ ان تعود الى وضعها الاصيل . وقد استعمل بوز جهازاً كهربائيًّا يدعى « غلفا نومتر » لقياس ما تصاب بهِ الفلزات من التعب ، فثبت لهُ ان احساس الفلزات يضعف بتوالي الحافز الكهربائي عليها ، ثم اذا استراحت فترة ، عادت اليها قوة احساسها السوية . بل ذهب الى ابعد من ذلك اذ اثبت أن الفلزات تتأثر بالحرارة والبرد فيضعف احساسها في البرد . وأدهى من ذلك انهُ بين انها تتأثر بالمخدرات كما يتأثر الدماغ بها . فغمس قطعة من القصدير في محلول برومور البوتاسيوم يفقدها قوة الاحساس العادية. ولا يخفى ان جرعة كبيرة من الافيون تخدر اعصاب الانسان وان جرعة صغيرة تهيجها ، والفلزات تستجيب بالطريقة نفسها . بل ذهب الى ان السموم تميت الفلزات كما تميت الخلايا الحية ، فقد أخذ قطعة من المعدن وامتحنها بالجلفا نومتر فوجدها سوية الاحساس ثم عالجها بالحامض الاوكساليك ، فظهر في آثار الجلفا نومتر دليل الاضطراب فيها ، ثم ضعفت الحركة رويداً رويداً الى أن كادت تبطل تماماً . ثم عالجها بترياق فعاد شعورها رويداً رويداً . وبعد فترة من الراحة عادت القطعة سوية. ثم اعاد هذه التجربة فابقى الفلز مغموراً بالسم الى ان بطلت دلائل الشعور تماماً فاستخرجها وعالجها بالترياق والراحة ولكن الموت كان قد ادركها فلم تُفِق

هذه النتائج الغريبة لا تزال محور البحث والتجربة في مختلف انحاء العالم ، وقد وجه اليها نقد علمي من علماء مجرّبين (راجع فصول في التاريخ الطبيعي ص ٤٥ — ٥٥) . أما ما لا ريب فيهِ فهو ان بوز قد فتح ابواباً جديدة نطل منها على وحدة الوجود



اصلاح النسل

مدخل الى هذا العلم الخطير الشأن

للدكتور شريف عسيران

مقام وتاريخه

ان موضوع اصلاح النسل من الموضوعات الاجتماعية الخطيرة الجديرة بالبحث لانهُ يتناول نواحي الحياة المختلفة من شخصية واجتماعية واقتصادية وسياسية وطبية وتهذيبية وغير ذلك مما يهم الفرد والمجتمع ويؤول الى خيرهما واسعادهما

قال الاستاذ باتسون رئيس مجمع تقدم العلوم البريطاني سنة ١٩١٤ ان المسائل السياسية التي يقتضي حلها معرفةَ الحقائق البيولوجية كثيرة ومنها مسائل التعليم والقوانين الجنائية وجميع فروع الادارة والسياسة فكثيراً ما تعرض لاهل السياسة مسائل يحكمون فيها فيما يمكن عمله او ما لا يمكن عمله لاحداث تغيير مطلوب في فرد مخصوص او في شعب بكامله ولا بد للحكم في هذه المسائل من المعرفة بالحقائق البيولوجية ولا تعد المعارف البيولوجية من المعارف الضرورية لاهل السياسة والاحكام في الوقت الحاضر ولكن سوف يأتي يوم يضطر فيهِ المعلم والحاكم والمحامي والسياسي الى الاشتراك مع الطبيعي في معارفه التي تتعلق بفسيولوجيا الشعوب[1]. وقد اهتمت بهِ الامم الراقية في عصرنا الحاضر واحلتهُ محله الرفيع فسنت له القوانين والانظمة وظهرت عشرات لا بل مئات من الكتب فيهِ لاشهر علماء العصر وكثر انصاره والمنضوون تحت لوائه والداعون اليهِ مع انهُ لا يزال طفلاً يترعرع. وسندرسهُ على ضوء الحقائق العلمية الصحية المجردة عن العاطفة والخيال والمبالغة في الاقوال معتمدين على اوثق المصادر المعترف بها في عالم العلم. وسنجد فيهِ لذةً وغذاءً شهيًّا للنفس التواقة الى المعرفة

﴿ تاريخه ﴾ ليست فكرة اصلاح النسل من مبتكرات عصرنا الحاضر بل سبقنا اليها الاقدمون . فقد ذكرها الشاعر اليوناني ثيوجينيس في النصف الاول من القرن الثاني قبل المسيح وبحثها افلاطون نحو قرن بعده واقترح ان تتدخل الحكومة في الامر بتزويج الاحسن للاحسن والاردإ للاردإ وتشجع تناسل الفئة الاولى وتتولى تربية اولادها وتقذف باولاد الفئة الثانية

(١) العلم والعمران هدية المقتطف السنة ١٩٢٨ ص ٢١٣

في مجاهل غير معروفة[١] وان لا تتألف جمهوريتهُ من اكثر من ٥٠٤٠ وطنيًّا Citizens واشار بتحديد النسل لحفظ موازنة هذا العدد[٢]

وقد طرق ارسطاطاليس هذا الموضوع من الناحية السياسية والاقتصادية وايد مذهب تدخل الدولة في النسل[٣] وينسب اليهِ القول الآتي : اذا ولدت امرأة عدد الاولاد المحدد لها ثم حملت فيجب طرح الولد منها قبل ان تدب فيهِ نسمة الحياة[٤]. ويروي لنا التاريخ ما كان يفعله الاسبرطيون في سبيل تخشين ابنائهم بتدريبهم على الفروسية وتعريضهم لقارس البرد ولافح الحر ليخلقوا منهم رجالاً اولي بأس وقوة يكافحون في ميادين القتال وينتصرون على الاعداء

﴿ اصل اللفظة ﴾ ان لفظة يوجنكس Eugenics يونانية الاصل ومعناها الاصيل او الجيد الولادة[٥] Well born . واول من طبعها بطابع العلم الحديث العلامة الانكليزي النابغ السير فرانسيس غالتون صاحب المصنفات النفيسة في الوراثة واصلاح النسل ومقياس الذكاء وبصم الاصابع وغيرها من البحوث الاحيائية الاجتماعية الممتعة ولا يليق بنا ان نمر بشخصية فذة كهذه من دون أن نتوسع قليلاً في دراستها

العلامة غالتون

ولد غالتون (١٨٢٢ — ١٩١١) في نفس السنة التي ولد فيها مندل ولم يعلم شيئاً عن ابحاثه التناسلية في النبات ولكنهُ طرق الموضوع من ناحية اخرى احصائية وظهرت رسالته قبل رسالة مندل بشهرين وبرهن في كتابه «النبوغ الوراثي» الذي سنشير اليهِ فيما بعد على ان النبوغ والتفوق العقلي وغيرها من المواهب جميعها وراثية وعرف اصلاح النسل بما يلي : اصلاح النسل هو درس العوامل التي تحت سيطرة المجتمع والتي تتمكن بها من اصلاح الجيل المقبل او افساده جسديًّا وعقليًّا[٦].

نشر غالتون مقالتهُ الاولى في هذا الموضوع في مجلة مكملان سنة ١٨٦٥ وبين فيها انهُ من الممكن تحسين نسل البشر بتعمد إنسال جيدهم وتوسع في هذا الموضوع في كتابه النبوغ الوراثي Hereditary Genius[٧] وقد تتبع نسب ٤١٥ مشهوراً من مشهوري انكلترا يمتون الى ٣٠٠ اسرة وجد فيها ما يقرب من الالف مشهور[٨] منهم ٨٥ قاضياً و ٣٩ سياسيًّا و ٢٧ قائداً و ٣٣ اديباً و ٤٣ عالماً و ٢٠ شاعراً و ٢٨ فنَّاناً و ٢٥ قسيساً[٩] وقصده ان يبرهن على ان النبوغ وتفوق المواهب

(١) اصلاح النسل التطبيقي Applied Eugenics, Poponoe and Johnson p. 343, 1933
(٢) Abortion Spontaneous and Induced, Dr. Frederick Taussig 1936
(٣) Applied Eugenics. p. 343 (٤) Abortion Spontaneous and Induced
(٥) دائرة المعارف البريطانية الطبعة الرابعة عشرة تحت لفظة Eugenics
(٦) دائرة المعارف البريطانية الطبعة الرابعة عشرة (٧) Applied Eugenics p. 344
(٨) Hereditary Genius p. 307 (٩) Applied Eugenics p. 344

العقلية بدرجاتها وراثية . قال في كتابه النبوغ الوراثي : « ان الحجج التي احاول ان استند اليها لابرهن على ان النبوغ وراثي هي وفرة عدد المشهورين الذين يمتون بنسب الى مشهورين مثلهم من أقربائهم » (١)

وسنة ١٨٧٤ طبع رسالة عن سيرة ١٨٠ عالماً انكليزياً برهن فيها على ان الوراثة لا المحيط هي الاصل في مواهب الانسان وسنة ١٨٨٣ طبع كتابه : البحث عن موهبة الانسان وتطوُّرها . وطبع غيرها من الكتب التي يستشهد بها كبار المؤلفين في هذا الموضوع وقلما نجد باحثاً يبحث في هذه الموضوعات ولا يستشهد بأقوال هذا العلامة الشهير ويسترشد بمواهبهِ وعلمهِ

وسنة ١٩١١ قرأ رسالة امام جمعية علم الانسان Anthropology موضوعها . امكان تحسين نسل الانسان تحت تأثير الشعور والقوانين الحاضرة . وبعد ثلاث سنوات تلا رسالة أخرى أمام الجمعية الاجتماعية موضوعها اصلاح النسل تعريفه ومنهجه وغايته ملخصها : (١) تعميم معرفة قوانين الوراثة (٢) البحث عن معدل مواليد الامم القديمة والحديثة بين طبقاتها الاجتماعية (٣) جمع احصاءات صحيحة عن مقدار العائلات الكبيرة التي نشأت (٤) درس العوامل المتعلقة بالزواج (٥) أهمية علم اصلاح النسل للامم

وأسس سنة ١٩٠٤ كرسيًّا خاصًّا لهذا العلم وأوصى بعد مماته في ١٧ يناير سنة ١٩١١ بتأسيس استاذية لهذا العلم بعهدة Karl Peerson الشهير وخصص لها المبالغ اللازمة من مالهِ الخاص (٢)

ثم انتشرت هذه الدعاية في أميركا والمانيا وفرنسا وايطاليا وروسيا واكثر الامم الاوربية وبعض الامم الاسيوية كاليابان والصين ولا نطيل الشرح هنا ومن شاء المزيد فعليهِ مراجعة (Applied Eugenics) وقد اخترنا منهج امتين مختلفتين لهذا الموضوع ننشرهما هنا لانهما يلخصان أهم الموضوعات التي سنطرقها في بحثنا وهما نموذج لابحاث هذا العلم الحيوي الخطير

منهج الامة الاميركية

انتشرت هذه الحركة في اميركا قبل غيرها . ولكنها سارت ببطء فأسس لورن مودي (Lorung Moody) سنة ١٨٨٠ معهد الوراثة في بوسطن وساعده الشاعر الشهير لونغ فلو (Longfellow) وغيره من المشهورين . وكان الكسندر بل مخترع التلفون اول من طرق هذا الموضوع بصورة عملية سنة ١٨٨٣ وأنشئت سنة ١٩٢٦ جمعية اصلاح النسل الاميركية ووضعت سنة ١٩٣١ مقترحاتها الآتية نوردها هنا لانها تبين وجهة نظر الامة الاميركية ونورد بعدها وجهة نظر الامة الالمانية

(١) ادخال موضوع تحسين النسل في مناهج المدارس الابتدائية والعالية وجعله جزءًا

---

(١) Hereditary Genius p. 5 (٢) Applied Eugenics p. 345–46

لا يتجزأ منها والتشجيع على التخصص بهِ في المدارس العالية كالكليات والجامعات (٢) تعميم الارشاد الكافي عن حقائق هذا الموضوع بواسطة الصحافة والمحاضرات والمعارض والكتب والنشرات الخ (٣) تشجيع الابوة والبحث عن الصفات الوراثية النافعة للامة (٤) تشجيع تزويج من يتصفون بصفات وراثية جيدة وذلك بما يلي :

(ا) استقصاء سبب قلة نسل ذوي المواهب المتفوقة

(ب) الحث على تتبع انساب الاسر ودرس الصفات المتأصلة فيها

(٥) منع زواج المصابين بعاهات وراثية كالجنون وما أشبه وسن شرائع خاصة لهذه الغاية

(٦) عزل الآباء والامهات المصابين بعاهات وراثية (٧) سن قوانين خاصة للزواج من جهة تحسين النسل تشمل الامور الآتية :

(ا) جعل الحد الادنى لسن الزواج ١٦ سنة

(ب) تأخير اجازة الزواج ثلاثة ايام من تاريخ الطلب ونشر اعلان عنهُ في الصحف او غيرها

(ت) عدم منح الاجازة الاَّ بعد الحصول على شهادة طبية تثبت سلامة طالب الزواج من الامراض الوراثية والزهرية

(ث) جواز تزويج الاشخاص البعيدي القرابة

(ج) ان يدخل ضمن موجبات الطلاق عدا الزنا الجنون الوراثي وضعف العقل والهجر والعقم

(٨) سن قوانين تمنع هجرة من فيهم صفات وراثية غير مرغوب فيها (٩) تعميم ارشاد الناس في طرق منع الحمل تحت اشراف اطباء اكفاء في المستوصفات العامة

منهج الامة الالمانية

تأسست جمعية تحسين النسل الالمانية سنة ١٩٠٥ ونشطت هذه الحركة في المانيا خاصة بعد الحرب العامة وها هوذا ملخص خططها مقابلة للخطط الاميركية

(١) إن الخطر الرئيسي الذي تتعرض لهُ الامم هو الفساد الناشىء من فقدان العناصر القوية الصالحة (٢) ان الامم التي تستطيع ان تنازع غيرها البقاء هي التي فيها نسبة كبيرة من رجال ونساء ذوي مواهب عقلية وجسدية صحيحة واخلاق وآداب صالحة (٣) ان صحة الامة وحيويتها وانتاجها الثقافي لا تتوقف على المحيط فقط (كالغذاء والتهذيب والامراض الخ) بل على قابليتها الوراثية التي تعد من الاسس الجوهرية في كيانها (٤) ان ميراث الامة الوراثي عرضة للفساد بطريقتين الاولى تقديم العناصر الفاسدة على الصالحة والثانية افساد السلالة بادخال عناصر منحطة اليها (٥) عند الشعوب المتمدنة في الوقت الحاضر اختيار فاسد يؤول الى فساد النسل بمقدار كبير (٦) من سوء الحظ أن يرافق الصعود الاجتماعي فناء الاسر (٧) ان تشجيع تكثير نسل

ذوي المواهب الوراثية المتفوقة الذين يصلحون لقيادة الامة من خيرة الوسائل لتحسين السلالة (٨) من أهم مشكلات حفظ صحة النسل الاحتفاظ بالاسر المهمة اجتماعياً من كافة الطبقات (٩) إن النسل الذي لا يصلح يتوقف على منعه اكثر مما يتوقف على تجنب اسبابه (١٠) لما كان جميع المواليد لا يبلغون مستوى الانتاج المتفوق فخطة الاكتفاء بولدين لبست حميدة لانها تؤول الى انقراض الاسر عقب اجيال قليلة ويكاد معدل ثلاثة أولاد لا يكفي لحفظ كيان الاسرة (١١) ان اسباب تعمد منع الولادة اجتماعية واقتصادية فيجب تشجيع علم صحة السلالات بتكثير الجيد وتقليل الضرر الناشىء عن تكثير نسل مثل هؤلاء (١٢) يجب أن يأخذ التشريع بعين الاعتبار حجم العائلة ويجزىء الارث لغاية الضريبة الى اكبر عدد ممكن بحسب افراد الاسرة (١٣) يجب أن تعفى الاسرة المؤلفة من ثلاثة اولاد أو ولدين من ضريبة الارث وتستثنى التركات الكبيرة من هذا الحكم (١٤) يجب أن تسن انظمة خاصة لجباية الضرائب من سكان الارياف حتى لا يخشى سكانها خوفاً من قلة الاولاد الضرائب (١٥) يجب أن يراعي في انشاء القرى احتمال تناسل المزارعين. وتشجيع سكنى الارياف واشباهها مهم من وجهة صحة السلالة (١٦) ان سياسة تقليل النسل واتباع نظرية ملتوس يحرج موقف تحسين النسل لان النقص يحصل حتى بين احسن الاسر (١٧) ان الاعتماد على مجرد زيادة النسل بقطع النظر عن اختيار العناصر ذات الوراثة الصالحة مضر لانهُ يفسح المجال لتكاثر العناصر المنحطة

تطبيق اصلاح النسل

نبحث الآن هل موضوع اصلاح النسل قابل للتطبيق أو انهُ من الموضوعات النظرية الفلسفية التي يتلذذ المرء بمعرفتها ونقابل بين آراء المتحمسين الذين يتمدون عليهِ في خلق جيل كامل من الناس والرجعيين الذين يعدون التدخل في الامور الطبيعية تحدياً للعزة الالهية كما قال المستر دارو: «من هو ذلك الاهوج الذي يجرؤ على تغيير طرز الانسان الجسدي»[1]

في العالم اذكياء واقوياء وصالحون ونبغاء وغيرهم من ذوي الصفات الصالحة الممتازة وفيهِ الضعفاء والبلداء والناقصو العقل والمجرمون والاعلاء وغيرهم من اصحاب الصفات السقيمة. والقوانين والانظمة والثقافات والمدنيات والتهذيب والتعاليم والعادات والتقاليد وغيرها من مظاهر الحياة وليدة هذا الجرم الصغير الذي انطوى فيهِ العالم الاكبر تصلح بصلاحهِ وتفسد بفساده فلماذا لا نستبدل الفريق الاول بالفريق الثاني ونصير كوكبنا جنة عدن ومثوى الكمال (Utopia) الذي يتخيلهُ الفلاسفة والمصلحون. هذا ما يحلم بهِ دعاة هذا المذهب وما عناه رئيس جمعية اصلاح النسل الاميركية بقوله: يجب أن نجتهد ان نري العالم أن اصلاح النسل (يوجينا) من انجع الوسائل لحل المشكلات

(١) The Eugenic Predicament, 1933, S. J. Holmes p. 125

التي يتطلبها الاطباء ورجال الصحة والاجتماعيون والقسوس والمصلحون ، مشكلات مكافحة العجز والبطالة والنقص العقلي والاخلاقي والقضاء على الرذيلة والاجرام (١)

يستطيع الانسان أن يكيف النباتات وفقاً لرغائبه فينبت الحنطة ذات الحب الكبير والصغير والبيضاء والسمراء ويولد أنواع الفواكه الطيبة الطعم الكثيرة الانتاج وضروب الورود الفوّاحة يستطيع ان يوجد البقر الحلوب والسمين الصالح للاكل والقوي الصالح للفلاحة. يستطيع ان يختار خيل السباق وخيل الركب والدجاج الكثير البيض وكلاب الحراسة والصيد وغير ذلك مما نراه من ضروب النباتات والحيوانات وفقاً لرغائبنا . فلماذا لا نطبق نفس هذه الحقائق على الانسان وهو يعيش في نفس المحيط وتؤثر فيه العوامل التي تؤثر في النبات والحيوان ويخضع لنفس النواميس الطبيعية التي تخضع لها

يقول العلامة غالتون في كتابه النبوغ الوراثي : كما انهُ من السهل توليد سلالة دائمة من الكلاب او جياد السباق او غيرها متصفة بالصفات المرغوب فيها اذا بذلنا العناية في اختيار تناسلها كذلك يمكننا عمليًّا ان نخرج سلالة من البشر ذات مواهب فائقة بتزاوج اجيالها المتعاقبة (٢)

ويقول هومز في كتابه « مشكلة اصلاح النسل » : من الممكن توليد ضروب الناس من بين سلالات البشر الموجودة الآن بالتناسل الانتخابي ، الاغش (ذو ست اصابع) والمفتوح الكف والاشقر والاصلع والادرد (٣) والاصم والاعمى والقزم ذي الرأس الضخم وأنواع درجات الذكاء من الابله الى العبقري (٤) ويقول ليونارد داروِن الشهير في كتابه «ماهو اصلاح النسل» : حينما يعزم امرؤ على الزواج يهتم بمقدار الميراث المالي ولكنهُ قلما يلتفت للميراث الجسدي والعقلي (٥)

هذه لمحة صغيرة عن تضارب الآراء في هذا الموضوع الحيوي وسنتبع خطة معتدلة في تمييز عجره وبجره معتمدين على أقوال الثقاة المعتدلين. ان خير تعريف حديث لهذا العلم هو تعريف الطبيب الهولاندي الشهير فان ده فلد Van de Velde في كتابه العقم والخصب في الزواج : ان المثل الاعلى في تناسل البشر هو ايجاد سكان متناسبين مع مواردهم الطبيعية والثقافية تزداد في كل جيل قابليتهم ومواهبهم الطبيعية وتنقص عيوبهم وعللهم (٦) وقد جمع هذا التعريف على اختصاره فأوعى

فغاية تحسين النسل تشجيع الصفات الجيدة ونبذ السقيمة ومما لا شكَّ فيهِ ان كل امة تتمنى ان يكثر فيها عدد النبغاء والمخترعين والاقوياء والاذكياء وينقص فيها المجرمون والبله والضعفاء

(١) H. S. Jennings : The Biological Basis of Human Nature 1930, p. 130

(٢) Hereditary Genius p. 1

(٣) الدرد — وهو ان تسقط الاسنان كلها وقد درد درداً فهو ادرد والانثى درداء (ابن سيده)

(٤) The Eugenic Predicament (Holmes) 1933 p. 10

(٥) What is Eugenics 2. by Leonard Darwin p. 1

(٦) Sterility and Fertility in Marriage : Van de Velde 1931 p. 49

واضرابهم . ومما لاريب فيهِ أن الانسان كسائر المخلوقات الحية تابع لسنة التطور . ويؤكد العلماء بناء على ما استنتجوه من المتحجرات ان الانسان الحالي يختلف عن الانسان الاول . ولا يستطيع أحد أن يجزم بمدى قِدَم الانسان. ويرجحون أن قدمه لا يقل عن النصف مليون سنة وقد انقرضت أكثر انواع الانسان ولم يبق الاّ النوع الحالي أي الانسان العاقل (Homo Sapiens) الذي لا يقل تاريخه عن خمسين الف سنة . وقد مرت بهِ أطوار عديدة كان في خلالها عرضة للطبيعة تتصرف بهِ كما تتصرف بغيره من الحيوان. ولما ارتقى دماغه اخذ يخضع المحيط فاستطاع التغلب على كثير من الامراض واكتشف سبلاً للعيش والوقاية من الحر والبرد وغير ذلك من مستنبطات الانسان التي استطاع بواسطتها ان يتغلب على كثير من العوامل المحيطة بهِ ولا يزال جادًّا في هذا السبيل يعمل لما فيهِ خيره وسعادته

يؤكد العلماء أن مواهب البشر الوراثية لم تتغير وان التغير الذي حصل اقتصر على محيط الانسان ولكن صفاته الاحيائية (البيولوجية) لم تتطور ولا تزال على ما كانت عليهِ منذ الوف السنين . وليس من مقتضيات المدنية تقدم الناحية الاحيائية . وسيان لدى الطبيعة إن كنا حشرات أو أرقى طبقات البشر فالذي يهمها تخليد الحياة وليس نوع الحياة التي نحياها . فالتطور يؤول الى التقدم او التأخر او بينهما[1] فينشأ جيل من الناس مواهبهم الوراثية ارقى من الجيل الحاضر بالقياس الى عصرهم . فقد ذكر غالتون في كتابه النبوغ الوراثي ان اقدم سلالة في التاريخ هي سلالة اليونان الاقدمين اذ لم يسبقهم احد فيما اخرجوه من الآثار التي تحتاج الى مواهب عقلية ممتازة ولان السكان الذين تحدر منهم هؤلاء النوابغ كانوا قليلي العدد فسكان اتيكا (Attica) اقدر ارداف السلالات اليونانية فقد نشأ فيها خلال قرن اي بين ٤٣٠ و٥٣٠ ق.م صدفة دون تعمد كوكبة من الممتازين بمواهبهم العقلية يبلغ عددهم اربعة عشر مشهوراً اي واحد لكل ٤٣٠٠ من السكان الاحرار البالغين . وفي القرنين ما بين ٣٠٠ — ٥٠٠ ق . م أخرجت هذه البلاد القاحلة التي لا تبلغ مساحتها مساحة جزيرة رودس اليوم وسكانها اقل من الخمس ما يقرب من الـ ٢٥ مشهوراً من الاحرار الخلص منهم :

ثميستوكليس وميلتياديس وارستيديس وبركليز من الساسة والقواد . وسقراط وافلاطون وارسطوطاليس من الفلاسفة . واسكيلس ويوربيدس وسوفوكليس وارستوفانيس من الشعراء . واكتينس وفيدياس وبراكسيتيليس من البنائين والمثالين . وتوسيديديس وكزينفون من المؤرخين . وديموستينيس وايسوقراطيس من الخطباء[2] (البقية في باب الاخبار العلمية)

(١) Holmes. The Eugenic Predicament p. 4-5

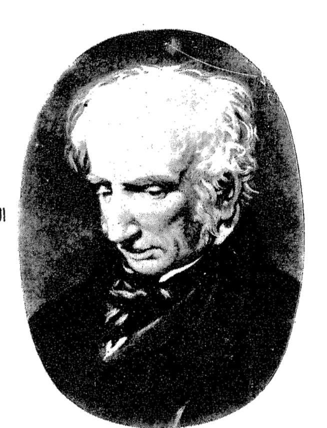
(٢) Heredity and Environment 1930 (Conklin) p. 299 Hereditary Genius p. 329

بيت الشاعر

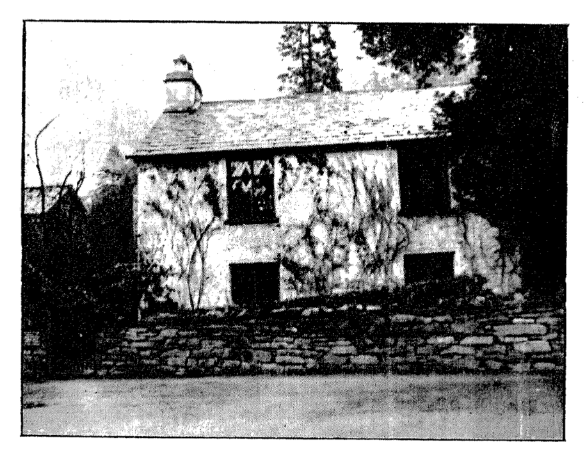
في منطقة البحيرات بانجلترا وفي قرية « جراسمير » الجميلة بيت الشاعر « وردسورث » المشهور باسم « كوخ الحمامة » وقد زاره الشاعر من سنتين وقال فيه هذه الابيات : —

يابيت « ورد سورثَ » لا أقفرتْ منك المنى . ولا عداك السلامْ !
فقيك حلّ الشعر أصفاده * وانطلق الطير وغنى الحمامْ !
ياشاعر الدنيا (١) وما قد حوت من كشرة عن نابها . وابتسامْ
هدأتَ . والدنيا كعهدي بها أشباح أطياف ورؤيا منام . . .
والناس : حيٌّ سائرٌ للبلى وهامة تيّاهةٌ فوق هام
تلك البحيرات وشُطآنها * توحي الى الشاعر معنى الكلام
منثورةٌ في الارض حبّاتُها كأنها عقد بغير انتظام
للشعر فيها نشوة حلوة وللطبيعيين فيها هيام . . .
توحي الى المفتنّ من فنها وتلهم المغرم معنى الغرام
الجبل الرابض في أرضها مستشرف الذروة عالي السنام
يجلل الثلج به قمةً كأنهُ شيخ جليل المقام!
والكلأُ المخضلُّ في صدره كأنهُ صدر علاه الوسام!
والشجر الملتفُّ من حوله يلوح في الوادي كبعض (٢) الخيام!!
لله تلك الارض من جنة يحلو بها العيش ويصفو المُقام
قد فُتن الشاعر في حسنها وجال (٣) ما بين رباها وهام
هذا جمال الله ما صاغهُ * فنُّ الورى أو زخرفتْهُ الانام
يا بيت « وردسورث » هل وقفةٌ تبل من نفسي الصدى والأُوام ؟
وهل يعيد الدهر جولاتنا بين روابيك وبين الإكام ؟؟
وهل « جراسميرُ » كعهدي بها العيش فيها نهبةٌ واغتنام ؟؟
ظننتُ بالإمس عشياتنا تدوم . . لو كان لشيء دوام . .

(١) كان وردسورث وكولريدج وسذي أشهر شعراء الطبيعة عند الانجليز (٢) في شمال انجلترا نوع من الشجر على شكل القمع وما أشبه بالخيام المضروبة في الصحراء (٣) كانت لوردسورث جولات كثيرة في ارض البحيرات وله كتاب اسمه (جولة المساء)



الشاعر وردزورث
في شيخوخته



كوخ الحمامة — بيت الشاعر وردزورث
(تصوير محمد عبد الغني حسن)

تصادم عبقريتين

الصراع بين ابي جعفر المنصور وأبي مسلم الخراساني

لعلي ادهم

يقف مدوّنو التاريخ الاسلامي وقفات طويلة حيال الخلاف المشهور الذي ثار بين ابي مسلم الخراساني وأبي جعفر المنصور وأسفر عن قتل ابي مسلم ، ويكثرون من تفصيل حوادثه واستقصاء اسبابه وسرد مختلف الروايات التي تدور حوله وتتصل بهِ . وعذرهم في ذلك واضح مقبول . فقد كان الرجلان من الشخصيات النابهة المنيفة التي ارتبطت بتاريخها حوادث عصرها اشد ارتباط . وأبو جعفر هو رجل العباسيين الذي ثبّت لهم الخلافة وأرسى قواعد الملك وكان واحد عصره في قوة الشكيمة ومضاء العزيمة ونفاذ النظر وإحكام التدبير . وأبو مسلم نادرة من نوادر التاريخ ونتاج غريب لاحتكاك الاسلام بالحضارة الفارسية ، وقد انحدر على الاغلب من صلب بزرجمهر بن البختكان وزير كسرى انوشروان فهو من اصل فارسي شريف . تلتهب فيهِ الروح الفارسية تحت غلالة الاسلام ، ونلمح في تصرفاتهِ سطوة الارستقراطية وقسوتها ودهاؤها وشمائل الملك وعزة السلطان ، وقد استطاع بصادق حماسته وبارع قيادته وفائق تدبيراتهِ ان يغير مجرى التاريخ الاسلامي ويضرب ملك بني مروان الضربة القاضية ويرفع على انقاضهِ بيت بني العباس ، وقد تمكن من انجاز ذلك قبل ان تبلغ سنه الخامسة والثلاثين

وقد كان في بني العباس طموح ودهاء وحرص على طيبات الدنيا ونزوع الى السلطة وخبرة جيدة بالدوافع الانسانية . وقد احسنوا تدبير الدعاوة واختيار الارض العذراء الصالحة لاستنبات بذورها وعرفوا الفرصة المناسبة لظهورهم والجهر بدعوتهم . ولم تكن فيهم تلك النزعة الصوفية المشوبة بالزهد والعجز في الحياة العملية التي تميز بها العلويون وجرّت عليهم الاخفاق في كل محاولة وصيرت تاريخهم سلسلة من المآسي المفجعة تستوجب الاسف وتستدر الدموع وجعلت الرجال العمليين يقعدون عن نصرتهم لانهم لم يجدوا عندهم اِيالة الملك ولا صيانة المال ولا مكيدة

الحرب كما قال احد هؤلاء الرجال وهو الاحنف بن قيس . ولكن كان ينقص بني العباس القائد الحربي الموهوب المتدرب على وضع الخطط وتدبير المعارك وتنظيم القيادة ، وقد اصابوه في ابي مسلم . فلولا براعته الحربية وأساليبه العجيبة لافلتت منهم الفرصة ولما امكنهم ان يبتزوا ملك الامويين وعلى رأسهم خليفة من اقدر رجالهم مثل مروان بن محمد الذي لم تغض الهزيمة من مزاياه الحربية ولم يستسغ التاريخ أن ينكر عليه همته العالية ومواهبه الممتازة

والذي يتدبر اخلاق هذين الرجلين يعرف انهما شخصيتان قدر لهما ان يتصادما . فكلاهما اناني الى اقصى حدود الانانية لا يطيق ان يرى الى جانبه منافساً في نفوذه او قسيماً لهُ في ملكه ، وكلاهما مكيافلي من فرعه الى اخمصه لا يعرف معنى للعواطف النبيلة او المبادىء السامية اذا وقفت حجر عثرة في سبيل اغراضه ، فأبو مسلم لم يتورع عن الاسراف في القتل على الشبهة والغدر بأصدقائه وأعدائهِ على السواء ، والمنصور اول من قتل في الاسلام على الملك عمه وابن اخيه وأظهر قسوة بالغة في معاملتهِ لابناء عمه العلويين

وقد كان أبوجعفر متبحراً في دراسة الفقه الاسلامي ، وكان لهذه الدراسة تأثير كبير في تكييف عقله وصقل تفكيره ، وقد مكنتهُ من ان يدرك في سهولة أوجه الشبه بين الاشياء دون ان تغيب عنهُ اختلافاتها الدقيقة ، وشحذت رغبته في البحث والتقصي والصبر على الشك والتريث في التفكير والاستعداد للمراجعة ، وقد كانت حاسة النظام والترتيب في نفسهِ أقوى من حاسة ادراك الجمال ، ولم يكن بطبيعتهِ شديد الميل الى النساء والتهالك على اللذات او غالياً في التأنق ، ولم يكن شديد الولوع بالشعر فان أعجب بشيء منهُ فانما يعجب بالجانب التعليمي فيهِ وبما قد يتضمنهُ من مأثور الحكم وناضج التجارب وما يمكنهُ ان يستخرج منهُ درساً سياسيًّا او قاعدة عملية . وكما زادتهُ دراسة الفقه استقامة في التفكير واناة في اصدار الاحكام فكذلك طول صحبته للعلماء زادهُ بعداً عن الاسراف في الترف والانغماس في اللهو

وكانت نشأة أبي مسلم سياسية عملية خالصة ، وقد جمع بين براعة السياسي ومهارة القائد ، وكان ينظر الى ابي جعفر نظرة متأثرة بذلك الازدراء الخفي الذي يضمره رجال العمل وأبطال الميادين للعلماء ، وهذا الاحتقار المستور كثيراً ما يعمي أبعد الناس نظراً وأصدقهم فراسةً عن مشاهدة مزايا الغير وتقدير المواهب . ولذلك لم يتيسر لابي مسلم تقدير ابي جعفر تقديراً دقيقاً ولم يستطع وهو في ريعان نفوذه وعنفوان انتصاره ان يدرك ان هذا الرجل هو نابغة قومه وباقعة عصره ، ورجل العمل والكفاح في حاجة ماسة الى ان يكون معلمه من طراز أرسطو معلم الاسكندر ليوقر العلماء . ولم يلق أبو مسلم باله الى تأثير الحوادث في المنصور وكيف أفاد تجربة وحنكة . ولقد عاش أبو جعفر في الظل والخفاء وعاش في الضوء الساطع وعلمتهُ الاقامة

في ذلك المنفى البعيد عن الحضارة بتلك القرية النائية المشرفة على الصحراء المسماة الحميمة ان يطيل التفكير ويجيد وزن الامور . واذا كان الانبياء المرسلون يخرجون الى العالم من اعماق الوحدة والنواحي المهجورة فلا مانع من ان تكون تلك القرية الموحشة مدرسة للسياسيين الملهمين والسياسة ضرب من الفلسفة العملية تشترك فيه التجربة والتفكير والبداهة ، ومن نظر الى الحياة من أعاليها واعماقها وذاق حلوها ومرها لا تزدهف لبه ابتسامات الملق ولا تطير بهِ الوشايات والنمائم لانهُ تعود مراجعة النفس وألف الحذر

وأول ما وقع في نفس ابي جعفر من أبي مسلم وكان لهُ تأثير في مستقبل العلاقات بينهما هو ما كان من رسول ابي مسلم لما قدم على ابي العباس السفاح عند بدأ ظهوره واستعلان امره فقد دخل عليهِ الرسول لتبليغ التحية وتقديم التهنئة ، وكان أبو العباس جالساً مع ابي جعفر وجماعة من وجوه بني العباس ، فسأل الرسول « أيكم ابن الحارثية » ؟ وكانت أم المنصور جارية بربرية اسمها سلامة . وكان اخوه ابو العباس اصغر منهُ سنًّا ولكن ابراهيم الامام اوصى له بالخلافة وآثره بالاسبقية لان امه عربية حرة ، ولا نزاع في ان هذا التفضيل المقصود كان يحز في نفس ابي جعفر الذي كان يعرف قيمة نفسه ويرى انهُ احق بالخلافة واقدر على النهوض باعبائها من اخيهِ اللين المستضعف . وقد نكأت كلمة رسول ابي مسلم هذه القرحة في نفس ابي جعفر ، وهي في تقديره اهانة لا يغتفرها رجل مثله شديد الحقد الد العداوة

اوفده بعد ذلك السفاح الى خراسان ، وكان السبب الظاهر لذلك هو اخذ البيعة من ابي مسلم للسفاح ولابي جعفر من بعده ، وكان السبب الباطن هو الرغبة في اختبار احوال ابي مسلم وسبر غوره لان خيانة ابي سلمة الخلال ومحاولته نقل الخلافة الى العلويين عقب مجيء الاخبار بوفاة ابراهيم الامام اثارت شكوك العباسيين وجعلتهم يستريبون برجال دعوتهم ويحرصون على الاستيثاق من اخلاصهم وكان لهذه الرحلة تأثير كبير في نفس ابي جعفر فقد رأى بعينه قوة نفوذ ابي مسلم ولمس عن قرب سعة سلطانه ومدى سطوته وتعلق اصحابه بهِ وتفانيهم في طاعته. ويظهر ان ابا مسلم لم يوفه حقه من الرعاية واستخف بهِ بعض الاستخفاف ، واتفق اثناء وجود ابي جعفر هناك ان ابا مسلم اشتبه في سليمان بن كثير كبير نقباء خراسان فدعاه اليهِ وقتله دون ان يستشير في ذلك ابا جعفر او يرجع الى رأي الخليفة . فلما عاد ابو جعفر افضى الى اخيه بمخاوفه من استفحال نفوذ ابي مسلم وزين له الخلاص منهُ ، ولكن ابا العباس كان يستعظم الاقدام على ذلك ويخشى عواقبه فلم يعمل برأيه وارسله الى واسط ليتولى تضييق الحصار على ابن هبيرة ، وابلى ابو جعفر في هذه المهمة بلاءً حسناً حتى اضطر ابن هبيرة الى طلب الامان ، وجرت السفراء بينهما وجعل لهُ ابو جعفر اماناً وكتب بهِ كتاباً مكث ابن هبيرة

يشاور فيه العلماء ردحاً من الزمن حتى رضيه واطمأن اليه ، ثم انفذه الى ابي جعفر فأنفذه الى ابي العباس فامره بامضائه . وكان من رأي ابي جعفر الوفاء له بما اعطاه ولكن ابا العباس استشار ابا مسلم وكانت فرصة لتوهين رأي ابي جعفر فاشار على السفاح بقتله لان الطريق السهل اذا القيت فيه الحجارة فسد ولا يصلح طريق فيه مثل ابن هبيرة . وعارض ابو جعفر في ذلك معارضة شديدة فألح عليه ابو العباس حتى اضطر الى تنفيذ امره واستطاع ابو مسلم في هذه المعركة ان يتغلب على ابي جعفر ويبرزه ملوثاً بدم الغدر موصوماً بنقض مبرم العهود

ووجه أبو العباس أبا جعفر عقب ذلك والياً على الجزيرة ، وكانت بينهُ وبين أهلها وقعات وحروب شديدة ، ثم صالحوه واستقام أهل الجزيرة وحدثت هدنة اضطرارية بين الرجلين انصرف خلالها كلٌّ منهما الى معالجة شؤون ولايتهِ واخماد الفتن ورتق الفتوق ، وبعد انقضاء أربعة اعوام عاد الخلاف بينهما على أشده وذلك لان ابا مسلم كتب الى ابي العباس يستأذنهُ في القدوم عليهِ للحج ، وكان ما يرمي اليهِ من وراء ذلك هو ان يظفر بشرف ولاية الحج توطيداً لمركزه وتوسيعاً لنفوذه ، وأدرك ابو العباس قصده ورأى في ذلك ما يزيده علواً وتمكيناً ، وبعد اعمال الفكر للحيلولة دون ذلك كتب الى ابي جعفر يستحثهُ على ان يستأذنهُ في الحج حتى لا يطمع ابو مسلم في تقدمهِ عليهِ ، ورحب ابو جعفر بهذه الفرصة التي عنت لهُ لمراغمة خصمه فلبى الطلب وكتب الرسالة ، ولما علم ابو مسلم بذلك اضطغنها على ابي جعفر

وقدم ابو مسلم الانبار فأمر ابو العباس ان يتلقاه القواد واعيان الدولة وسائر الناس ، وأعظمهُ وأكرمهُ ، وقدم ابو جعفر من الجزيرة ، واتفق اثناء وجودها بالانبار ، ان دخل ابو مسلم على السفاح وابو جعفر حاضر فسلم على السفاح ولم يسلم عليهِ فاسترعى ابو العباس التفاته الى ابي جعفر فقال ابو مسلم « اني قد رأيتهُ ولكن هذا مقام لا يقضى فيهِ حق غيرك » وهو تخلص لبق اكتفى بهِ ابو العباس الذي كان لا يرى كبير بأس في بقاء ما بين هذين الفحلين متباعداً ، وعاد ابو جعفر يلح على أخيهِ في ضرورة القضاء على ابي مسلم وأغراهُ باغتياله ولكن أبا العباس كان لا يزال يتخوف الاقدام على ذلك

وسارا بعد ذلك في طريقهما الى الحج ، وكانت مباراة محتدمة ومنافسة مكشوفة استطاع ابو مسلم ان يكون فيها أبعد صوتاً وأخلب مظهراً من ابي جعفر ، فقد تحرى استصلاح الطريق وحفر الآبار وكسو الاعراب وأغدق عليهم العطايا وتعهدهم بالطعام ، ولم يكن ابو جعفر بطبيعته ميالاً الى الجود واجتذاب القلوب وكان يؤثر على الدوام ان يكون مخشي الجانب مرهوب السطوة. ولما صدرا من الحج ترامت اليهما الانباء بوفاة الخليفة ابي العباس فدعا ابو جعفر الناس الى البيعة، وبايعهُ ابو مسلم بعد تلكؤ يسير ، وأظهر ابو جعفر لابي مسلم تخوفه من شر عمهِ عبد الله

ابن علي وشيعته . ولما اخذ عمه البيعة لنفسهِ اشار ابو جعفر على ابي مسلم بالتوجه الى قتاله لان عامة جنده ومن معهُ من خراسان . وكان ابو مسلم يحاول جهده الاسراع في العودة الى خراسان ويؤثر ان يخلي ما بين ابي جعفر وعمه عبد الله ، وكانت الحجة التي أبداها للمنصور هي ان امر عبد الله قليل الخطر وان أمر خراسان أعظم شأناً وأهول خطراً مما يستدعي بقاءه هناك ، ولكن أبا جعفر ألحَّ عليهِ وأغرى بعض رجالهِ بتحويلهِ عن رأيهِ حتى قبل اخيراً التوجه لاخماد حركة عبد الله ، وقد استلزم القضاء عليها مجهود ستة أشهر انتصرت في نهايتها حركات ابي مسلم الموفقة القوية على حركات عبد الله الضعيفة ، وفي خلال هذه المدة أتم ابو جعفر تدبير الخطة للقضاء على ابي مسلم . ولم يكن ابو جعفر يجهل حاجته الى قائد عظيم ووزير قدير مثل أبي مسلم والدولة في طالعة امرها والمتربصون بها كثيرون والطامعون فيها لا يخلون من قوة وبأس، وكان يعرف ان ابا مسلم هو مدبر المؤامرات الناجحة وراسم الخطط المثمرة ولكنهُ وازن بعقلهِ الحسَّاب بين الضرر والمنفعة ولما قطع بالرأي لم يتردد في تنفيذه لان الرجل كان لا يعرف الهوادة ولا تغلبهُ العاطفة في مواقف الخطورة ومواطن الجد . وقد كان ابو مسلم كلما سما مقامهُ وطغى نفوذه اصبح خطراً كبيراً على نفوذ الخليفة ، فليس هو الآن منقذ بيته ورافع دعائم ملكه والحاجز المنيع ضد الثورات ، وانما هو مناظر مخوف الجانب يستطيع ان يفسد عليهِ امره ويسلبهُ ملكه . وكان المنصور قد حكم منذ زمن على ابي مسلم بالاعدام بينهُ وبين نفسه وهو حكم انتجهُ التفكير الهادىء والمنطق الذي لا يلين ولا يرحم وزادتهُ الايام ايماناً بصحة ذلك الحكم وضرورته

وكان ابو مسلم خلال اداء تلك المهمة التي اناطها بهِ المنصور — وقبلها مضطرًّا كارهاً — ناقماً على المنصور ، ولم يستطع ان يقمع استخفافه بهِ وموجدته عليه ، فكان يأتيهِ منهُ الكتاب فيقرأه ، ثم يلوي شدقه ويرمي بالكتاب الى صديقهِ الحميم ابي نصر (مالك بن الهيثم) فيقرأهُ ويضحكان استهزاء . وقد ساء ذلك القائد البارع الحسن بن قحطبة فارسل الى ابي ايوب المورياني وزير المنصور رسالة شفوية خاصة ضمنها ارتيابه بابي مسلم

وكان المنصور يحاول الآن — وقد انتوى ازاحة ابي مسلم من طريقه ألاَّ يبدو قتله في صورة الغدر الاثيم والخيانة الصارخة ، والوسيلة الوحيدة لذلك هي ان يستفز اباءه ويثير غضبه حتى يخرج عن طوقه ، ويجد المنصور اذ ذاك مسوغاً لقتله امام اتباعه . فلما انهزم عبد الله بن علي وكتب ابو مسلم الى المنصور بذلك ارسل المنصور رسولاً من قبلهِ لاحصاء الغنائم وتحصيل الاموال ، وكان يعلم ما في ذلك من الاساءة الى ابي مسلم الذي تعود الاستمتاع بالسلطة المطلقة بلا رقيب ولا حسيب . فلما قدم عليهِ الرسول وعلم بمهمتهِ لم يستطع ان يكظم غضبه

وبسط لسانه في ابي جعفر وهمَّ بقتل الرسول لولا تدخل اصحابه . فعاد الرسول الى ابي جعفر وأخبره بذلك . وكان المنصور يحاول جهده ان يحول بينه وبين خراسان فأرسل اليهِ رسولاً آخر معهُ كتاب يخبره فيهِ بأنهُ قد ولاه مصر والشام وأنهما احسن لهُ من خراسان وان يوجه الى مصر من يشاء من قبله ويقيم هو بالشام ليكون قريباً من الخليفة . فلما جاءه هذا الكتاب عرف غرض ابي جعفر وغضب واعتزم المضي الى خراسان وأقبل من الجزيرة مجمعاً على الخلاف . والواقع ان ابا مسلم كان قد تعوَّد السلطة وأن يقطع برأيهِ ويتصرف بحسب هواه وان يأمر فيطاع ويستشار ويستنصح فيعمل بمشورتهِ ويؤخذ بنصيحتهِ ، ولم يكن يستطيع الآن ان يصانع ويتملق ويخطب الود ويلتمس الرضى وغير غريب ان يتحدى ويغاضب . ومن الصعب على الانسان ان يصل الى ذروة السلطة المطلقة والسيطرة الكاملة على الناس ثم يتنازل عن ذلك كله في يسر وسهولة وعند اول اشارة ، وقد تحوَّل الامر بأبي مسلم من عدم الاكتراث لأبي جعفر الى العناد والاصرار ومن العناد والاصرار الى التحدي الظاهر والمخالفة الصريحة وقد زاده الانتصار الاخير اعتزازاً برأيهِ وادلالاً بمكانتهِ وشدة شعور بشخصيتهِ ، وكان المنصور من ناحيــة اخرى يريد النظــام ويأبى الفوضى في أية صورة من الصور ومثل هذا الرجل لا يطيق ان يرى مناظراً له في سلطانهِ ولا يسمح ان يعيش في ظل ملكه الوريف منازضاً واحداً هادىء البال مصون الدماء

وخرج ابو جعفر من الانبار الى المدائن وكتب الى ابي مسلم في المصير اليهِ . فكتب اليهِ ابو مسلم وقد نزل الزاب وهو على الرواح الى طريق حلوان « انهُ لم يبق لامير المؤمنين اكرمهُ الله عدوّ الاَّ أمكنهُ الله منهُ ، وقد كنا نروي عن ملوك آل ساسان انَّ أخوف ما يكون الوزراء اذا سكنت الدهماء ، فنحن نافرون من قربك حريصون على الوفاء بعهدك ما وفيت ، حريون بالسمع والطاعة غير انها من بعيد حيث تقارنها السلامة ، فان ارضاك ذلك فأنا كأحسن عبيدك وان أبيت الاَّ ان تعطي نفسك ارادتها نقضت ما أبرمتِ من عهدك ضنًّا بنفسي »

ولما وصل هذا الكتاب الى ابي جعفر كتب الى ابي مسلم « لقد فهمت كتابك وليست صفتك صفة اولئك الوزراء الغششة ملوكهم الذين يتمنون اضطراب حبل الدولة لكثرة جرائمهم فانما راحتهم في انتشار نظام الجماعة فلمَ سويت نفسك بهم وانت في طاعتك ومناصحتك واضطلاعك بما حملت من أعباء هذا الامر على ما انت بهِ ؟ وليس مع الشريطة التي اوجبت منك سماع ولا طاعة واسأل الله ان يحول بين الشيطان ونزغاته وبينك فانهُ لم يجد باباً يفسد بهِ نيتك أوكد عنده وأقرب من طبهِ من الباب الذي فتحهُ عليك » واختار ابو جعفر من رجاله ابا حميد المروروزي ليحمل الكتاب الى ابي مسلمٍ ورسم له الخطة التي يسلكها بعد تقديم الكتاب وهي ان يبدأ فيكلم

ابا مسلم بألين كلام ويلوّح له بالوعود ويمنيه الاماني ويستفرغ في ذلك جهده ويحذره عاقبة البغي فان أصرّ على المخالفة وصرّح بالعصيان ويئس منهُ يبلغهُ هذه الرسالة الشفوية وهي ان امير المؤمنين يقول له « لست للعباس وانا بريء من محمد ان مضيت مشاقاً ولم تأتني ان وكلت امرك الى احد سواي وان لم أل طلبك وقتالك بنفسي ولو خضت البحر لخضتهُ ولو اقتحمت النار لاقتحمتها حتى اقتلك او اموت قبل ذلك » واوصى المنصور من حضره من بني هاشم بان يكتبوا الى أبي مسلم يعظمون امره ويشكرون ما كان منهُ ويحذرونهُ عاقبة الغدر ويأمرونهُ بالرجوع الى امير المؤمنين وان يلتمس رضاهُ

***

وسار ابو حميد في جماعة من اصحابهِ ممن يثق بهم حتى قدموا على ابي مسلم بحلوان ، فدخل ابو حميد ومعهُ اصحابه ودفع الكتاب الى ابي مسلم ، وقال لهُ ان الناس يبلغونهُ عن امير المؤمنين ما لم يقلهُ وخلاف ما عليهِ رأيه فيهِ حسداً وبغياً يريدون ازالة النعمة وتغييرها ونصح لهُ ان لا يفسد ما كان منهُ ، فكبر هذا الكلام على ابي مسلم لان أذنه لم تتعود سماع النصائح فالتفت الى ابي حميد وقال لهُ في كبرياء وأنفة « متى كنت تكلمني بمثل هذا الكلام » فقال لهُ أبو حميد « لقد دعوتنا الى طاعتهم أفتريد حين بلغنا منتهى أملنا ان تفسد أمرنا وتفرق كلمتنا ، وقد قلت لنا من خالفكم فاقتلوه وان خالفتكم فاقتلوني »

وكان الى جانب أبي مسلم صديقه الحميم مالك بن الهيثم ، فأقبل عليهِ وقال « أما تسمع ما يقول هذا ! ما هذا بكلامهِ يا مالك »

فقال لهُ مالك « لا تسمع كلامه ولا يهولنك هذا منهُ ولعمري لقد صدقت ما هذا كلامه ، ولما بعد هذا أشد منهُ فامض لامرك ولا ترجع فوالله لئن أتيته ليقتلنك وقد وقع في نفسهِ منك شيء لا يأمنك أبداً »

وأراد ابو مسلم ان يخلو بنفسهِ فصرف القوم وأخذ يفكر ويقلب الامر على وجوههِ ، ولما أتعبهُ التفكير استدعى نيزك وكان موضع ثقته وكاتم سره . فلما أقبل نحوه نيزك التفت اليهِ ابو مسلم وهو يحاول ان يخفي اضطراب خواطره ويتظاهر بقلة الاهتمام وقال لهُ « يا نيزك اني والله ما رأيت طويلاً أعقل منك فما ترى ? فقد جاءت هذه الكتب وقد قال القوم ما قالوا »

فقال لهُ نيزك « لا أرى ان تأتيهِ وأرى ان تأتي الري فتقيم بها فيصير ما بين خراسان والري لك وهم جندك ما يخالفك احد ، فان استقام لك استقمت لهُ وان أبى كنت في جندك وكانت خراسان من ورائك ورأيت رأيك » واطمأن أبو مسلم الى هذا الرأي وعوّل على الاخذ بهِ

ودعا أبا حميد وقال لهُ « ارجع الى صاحبك فليس من رأيي ان آتيه »

فقال لهُ أبو حميد « اوقد عزمت على خلافه ؟ فقال لهُ أبو مسلم « نعم »

فقال لهُ أبو حميد « لا تفعل » فقال ابو مسلم وقد بدت على وجههِ علامات الاصرار « ما أريد أن القاه »

***

وهنا لم يجد ابو حميد بدًّا من ان يبلغهُ رسالة ابي جعفر الشفوية . فلما سمعها ابو مسلم وجم طويلاً ، وأخذت تتكشف لهُ طبيعة الرجل الذي يريد مخالفته وكأنما رفع عن بصره الغطاء في تلك اللحظة وأدرك انهُ أفرط في تحدي أميره ، وكان ابو مسلم يعلم جيد العلم ان سلطان ابي جعفر قائم على دعامتين قويتين ليس من السهل هدمهما وهما قوة الدين وشرف النسب . وقد حاول ابو مسلم من قبل ان ينتزع جانباً من هذا الشرف ويخلعه على نفسه وذلك بادعائهِ مرة انهُ من ولد سليط الذي كان ينسبهُ الامويون الى عبد الله بن العباس وبمحاولتهِ مرة أخرى ان يخطب الى المنصور عمته أمينة بنت علي . وراعهُ هذا التهديد المكشوف الذي يشف عن صدق العزيمة والاستهانة بالخطر ، وكان ابو جعفر عند ما حاول استفزاز ابي مسلم قد احتاط للامر وأخذ يحرك المنافسة والحسد في قلوب مناظري ابي مسلم وحاسديه ، فكتب الى ابي داود خليفة ابي مسلم على خراسان يوليهِ امر خراسان ما بقي ، فكتب ابو داود الى ابي مسلم من رسالة انا لم نخرج لمعصية خلفاء الله واهل بيت نبيه صلعم ، فلا تخالفنَّ امامك ولا ترجعنَّ الاَّ باذنه ووافاه الكتاب وهو في تلك الحال من تبلبل الفكر وتضعضع العزم فزاده همًّا ورعباً ، وهنا ارتبكت اعصاب الرجل وتحللت عزيمته فاستدعى رسول ابي جعفر وصديقه جالسكاً وقال لهما « اني قد كنت معتزماً المضي الى خراسان ثم رأيت ان اوجه ابا اسحق الى امير المؤمنين فيأتيني برأيهِ فانهُ ممن اثق بهِ » ولما قدم رسوله على المنصور تلقاه بنو هاشم بكل ما يحب وقال له ابو جعفر اصرفه عن وجهه ولك ولاية خراسان وأجازه فرجع ابو اسحق الى ابي مسلم وقال له انهُ لم يجد من القوم ما ينكره وانهم معظمون لحقه واشار عليه ان يرجع الى امير المؤمنين فيعتذر اليهِ مما كان . وكان ابو جعفر قد نجح في ان يهز ثقة الرجل بنفسه وان يعطل قوة رأيه القاطع فأجمع على العودة الى الخليفة لانهُ لم يجد بدًّا من ذلك وحاول نيزك ان يثنيه عن الرجوع ولكن ابا مسلم كان يشعر بقوة قاهرة تجبره على الذهاب ، ولما اطال عليهِ نيزك تمثل ابو مسلم قائلاً

ما للرجال مع القضاء محالة   ذهب القضاء بحيلة الاقوام

فقال له نيزك وقد عجز عن اقناعه « اما وقد عزمت على هذا فاحفظ عني واحدة ، اذا دخلت عليه فاقتله ثم بايع لمن شئت فان الناس لا يخالفونك » وكتب ابو مسلم الى ابي جعفر يخبره انهُ منصرف اليه ، ولما طوى اكثر الطريق تلقاه رجل من قواده وحذره ونصح له بالعودة فاشتدت بهِ المخاوف وكثرت هواجسه وخايلته فكرة العودة فتردد وتلبث ولكن الشبكة المحكمة لم تمكنهُ من الافلات واحس بشدة وطأتها وعجزه عن النجاة فاستسلم للقضاء ، وكان المنصور الذي لا تنفد حيله يدس عليهِ رجالاً ليبلغوه ما ينفي عنهُ الوساوس ويوحي اليهِ الطمأنينة ، ولما شارف المدائن امر المنصور الناس فتلقوه واحتفى بمقدمه القواد والرؤساء واعيان العباسيين ، ولما دخل المدائن كان النهار قد ادبر وارخى الليل سدوله وجلس ابو جعفر ينتظر قدومه وقد حفهُ صمت عميق ووقار رهيب ، ودخل ابو مسلم على المنصور وسلم والتقى الرجلان وجهاً لوجه على ضوء الشموع ، وكان احدهما وهو المنصور اسمر اللون رقيق السمرة طويلاً نحيفاً خفيف العارضين عليه ابهة الملك وجلال النسك ، وكان الآخر — وهو ابو مسلم — قصيراً اسمر احور العين عريض الجبهة وافر اللحية ساهم الوجه شارد الفكر يحاول جهده ان يتماسك ويتجلد ، ولم يغب عن عين المنصور ما يعانيه ابو مسلم من الاضطراب الخفي فتلطف معهُ وترفق به واحتفى بمقدمه وتهللت في وجهه المهيب الدائم العبوس تلك الابتسامات التي يتخذها الساسة قناعاً يسترون به مبهم النيات وخفيّ الاغراض . ولم يطل قيام ابي مسلم فقد أذن له الخليفة بالانصراف لينفض عنهُ غبار السفر ويرتاح من وعثائه ، وقد حاول كل منهما خلال تلك اللحظات القصار التي قضياها معاً ان يتغلغل بنظراته الحادة الى سريرة صاحبه ، وخرج أبو مسلم وقد ذهب بهِ الفكر كل مذهب ، ولعله لم يشعر تلك الليلة بما حفلت بهِ المدائن من اصوات البشائر وبما اقيم لقواده ورجال حاشيتهِ من الحفلات والولائم ، وأوى الى فراشهِ مبكراً ، ونستطيع ان نتصور ابا مسلم في تلك الليلة متململاً فوق فراشهِ لا يقر لهُ قرار ولا يهدأ لهُ بال ، ولم تستطع مظاهر الحفاوة والتكريم التي قوبل بها ان تبدد مخاوفهُ وتنفي عنهُ الافكار السوداء وأخذت كلمات التحذير التي قالها له صديقه ابو نصر وصاحبهُ نيزك تدوي في اذنهِ دوياً متصلاً وترن رنيناً محزناً ولعله اخذ يعجب من نفسهِ وكيف جاء الى المدائن وسعى الى حتفهِ وكيف خذلتهُ شجاعتهُ والتوى عليهِ الرأي وهو الجندي الباسل والسياسي الخطير ، وكان يشعر بعزلتهِ وأنهُ وحيد في عالم غريب وان الخطر الذي يهدد حياته قد صار على كثب منهُ ، ولما مضى الهزيع الاول من الليل هدأت الحركة في المدائن وهمدت الاصوات ، وران الكرى على الجفون ولكن بقي رجلان ساهرين احدهما ابو مسلم الذي كان يفكر في مصيره وما تخبئهُ

لهُ الاقدار ويخشى ان يغدر الخليفة بأقدر رجاله وأعقل وزرائه ، والآخر المنصور وقد اخذ يلوم نفسهُ لانهُ لم يهتبل الفرصة ويقتل ابا مسلم عند ما ملأ عينيه منهُ وريح نفسهُ ويشفي غله وصار يستطيل الليل ويرقب تباشير الصباح في قلق وحذر

***

ولما اقبل الصبح استدعى المنصور اربعة من رجال حرسه الاشداء وعرفهم بالمهمة الموكولة اليهم فهالهم الامر ولكنهم لم يجترئوا على المخالفة وأوصاهم بالوقوف خلف الرواق وان يبرزوا اذا ارتفع صوتهُ وصفق بيديه ويقتلوا ابا مسلم

وأصبح ابو مسلم متعباً حزيناً لما عاناه من ارق وتسهيد وما ساوره من افكار وهموم وكانت بينه وبين عيسى بن موسى ابن اخي المنصور صداقة ومودة فأتى منزله وتناول عنده الغداء وفي خلال الحديث انشد عيسى

سيأتيك ما افنى القرون التي مضت وما حل في اكناف عاد وجرهم

ومن كان انأى منك عزًّا ومفخراً وانهد بالجيش اللهام العرمرم

فالتفت اليه ابو مسلم وقد امتقع وجهه وقال له « هذا مع الامان الذي اعطيت » فقال لهُ عيسى اعتق ما املك ان كان هذا لشيء من امرك وما هو الاَّ خاطر أبداه لساني « فقال ابو مسلم فبئس الخاطر والله اذن » وبعد قليل وافاه رسول الخليفة يدعوه الى الحضور فقال له عيسى لا تعجل بالدخول حتى احضر وادخل معك ، فابطأ عيسى بالوضوء ومضى أبو مسلم فلما همَّ بالدخول على الخليفة جرده البواب من سلاحه فدهش لذلك ، ولما مثل بين يدي الخليفة شكا اليه ما صنع به فطيب المنصور خاطره واقبل بعد ذلك عليه يعاتبهُ ويحصي عليه ذنوبه وينعي على زلاته وشدد النكير على سلوكه نحوه وكيف كان يتقدمهُ في طريق الحج وكيف كان يكتب اليه فيبدأ بنفسه وكيف أقدم على قتل سليمان بن كثير مع بلائه في دعوتهم وكان ابو مسلم يرد على ذلك بكياسته المعهودة ، ولما اكثر عليه المنصور أخذته العزة فقال لهُ « لا يقال لي هذا بعد بلائي في دولتكم وما كان مني » فغضب المنصور وقال لهُ « لو كانت امة مكانك لأجزت ناحيتها انما عملت ما عملت في دولتنا وبريحنا ولو كان ذلك اليك ما قطعت فتيلاً » وسبهُ بعد ذلك وذكره كيف تطاول الى خطوبة عمته وادعى انهُ من ولد سليط ، وغلت مراجل المنصور وانفتقت في نفسه شهوة الانتقام ولاحت في عينه بوارق الغضب والحقد ولواعج الغدر وأدرك ابو مسلم خطورة الموقف فأخذ يعرك يده ويقبلها ويحاول تهدئة ثائرته ، وتزايد غضب المنصور وصفق بيديه فبرزت

الرجال بالسيوف ولم تزد أول ضربة على ان قطعت حمائل سيفهِ فقال « يا أمير المؤمنين استبقني لعدوك » فقال لهُ المنصور « لا أبقاني الله اذن وأي عدو اعدى لي منك » وصاح برجاله « اضربوا قطع الله ايديكم » ولما توالت على ابي مسلم الطعنات خارت البقية الباقية من شجاعتهِ وانطوى إباؤه وارتجف من الموت هذا الرجل الذي اذاق الالوف طعم الموت وجرعهم مرارته وصار يلتمس العفو في ذلة وضراعة حتى عجب المنصور وقال لهُ « العفو وقد اعتورتك السيوف »

ووقف المنصور امام فريسته كالوحش الضاري ينشد

زعمت ان الدين لا ينقضي فاستوف بالكيل أبا مجرم
سقيت كأساً كنت تسقي بها امرّ في الحلق من العلقم

ودخل بعد ذلك عيسى بن موسى وسأل عن ابي مسلم فقال له المنصور « ها هو ذاك في البساط فأبدى عيسى اسفه وتفجعه وذكر اخلاص ابي مسلم وطاعته فقال له المنصور « خلع الله قلبك وهل كان لكم ملك او سلطان او امر او نهي مع ابي مسلم » وامر المنصور فحملت بقايا ابي مسلم ورمى بها في دجلة وبعث الى عدة من قواده بجوائز سنية واعطى جميع جنده حتى رضوا ورجع اصحابه وهم يقولون لقد بعنا مولانا بالدراهم

ومرّت على هذه الحادثة اعوام وبينما كان المنصور ذات ليلة يسمر مع جماعة من خاصته قال لهم : « ثلاثة كنّ في صدري شفى الله منها كتاب ابي مسلم اليَّ وانا خليفة عافانا الله واياك من السوء ، ودخول رسوله علينا وقوله ايكم ابنُ الحارثية وضرب سليمان بن حبيب ظهري بالسياط »

***

وطوى عصر المنصور ودارت الايام دورتها وضرب الدهر ضرباته وتسنم عرش الخلافة احد احفاده وهو عبد الله المأمون وجلس ذات ليلة يسمر مع رجال حاشيتهِ ودار الحديث على أبطال التاريخ فقال لهم اجل ملوك الارض ثلاثة وهم الذين قاموا بنقل الدول الاسكندر المقدوني واردشير وابو مسلم الخراساني !

وقد كان قتل ابي مسلم ضرورة سياسية ومحاولة جبارة قام بها المنصور لصد تيار النفوذ الفارسي واعادها بعده الرشيد بايقاعهِ بالبرامكة وكررها المأمون باغتياله الفضل بن سهل ولكنهم لم يوفقوا في تلك المحاولة العنيفة التوفيق كله لان تغيير مجرى الحوادث في كثير من الاحوال من وراء قدرة الرجال ولو كانوا من طراز المنصور والرشيد والمأمون



اوراق متناثرة من ديوان

الادب العالمي

لكامل محمود حبيب

— ١ —

لينين والرواية

أفكان لينين يتعشق الرواية ويقرؤها وينكبُّ عليها وهو الرجل الصلب الجاف الذي عاش عمرهُ تضطرب في نفسه فكرة واحدة سيطرت عليه فسلبتهُ من كل فكرة اخرى ، تلك هي الرسالة التي أخذ على عاتقه ان يقوم بها ويوفر عليها جهوده ؟ أفكان يجد في نفسه هوًى للرواية ونحن نرى فيها مسلاة وملهاة تملأ الفراغ وتقطع الوقت ، وهو . . . هو لينين رجل العمل والجد ؟

نعم ، لقد قرأ لينين الرواية واغرم بها ، رواية واحدة كان يجد فيها الاستاذ والمعلم والمرشد، والنبراس الذي يهتدى بهديه ويستلهم منهُ الفكرة ، تلك هي « طبيب القرية » لبلزاك . ولكن اي فكرة سامية في هذه الرواية فتجذب اليها لينين فيقرؤها ويقرؤها فقط ؟ إن طبيب القرية (بيناسيس) الذي صوّره بلزاك بقلمهِ الرائع واسلوبه الجذّاب رجل عاش في الريف في منأى عن كل ما يشغل الناس وينفث فيهم روح التناحر الدائم . . . عاش هناك ، على بضعة أميال من جرينوبل ، ليضرب للناس مثلاً عالياً في الدكتاتورية الصالحة التي تنهض بها — اول ما تنهض — الامم

اخذ الطبيب بيناسيس نفسه بأن يبذر في نفوس الناس الذي عاش بينهم ما يبذر المعلم الامين في نفوس تلاميذه الصغار من غراس الخلق الطيب والعلم الصحيح . فراح يطهر الناحية من أدران الجهل والكسل والفتور ، وهبّ يرفع من اسباب العيش ومستوى الحياة فأحسّ الناس بالحاجة الى اشياء ، وهو يقول « إن الذين لا يستشعرون الفاقة هم الفقراء حقًا » . وألحت الحاجة على صحابته فاندفعوا يستبدلون مع الاجانب متاعاً بمتاع . وحين بدا هو في اعينهم نشيطاً دؤوباً مقداماً مصلحاً تهافتوا اليهِ يولونهُ ثقتهم ومحبتهم فأخرج منهم ناساً فيهم الدأب والرفاهية

وجاء جينستاس ، وهو رجل حرب ، ليرى الطبيب ، فنزل ضيفاً مكرماً في داره ، وراح

الطبيب يكشف له عن بعض ماكان منهُ ويبسط امامه خواطره وآراءه و ... وآماله ...

وعلى حين فجأة مات الطبيب

والقارىء يرى في الطبيب رجلاً بارزاً لا يضنيه العمل ولا يقعد به الجهد ، لا يهدأ ولا يستقر ، تدفعهُ العاطفة والعقل معاً الى الغاية التي يبتغي . أفلم يكن لينين من هذا الطراز ؟ أفلم تحل فيه روح الطبيب فتشيع في نفسه مبادئه حين يقول « ان الذي يعيش عاطلاً هو لص اجتماعي » وحين يقول « لا بدَّ ان يعيش الرجل بين الناس نزيهاً » أو حين يقول « ان الذي يدرك معنى الحكم ، ويجد في نفسهِ القوة على حمل اعبائهِ ، يجب عليهِ حين يمسك بالدفة ان يديرها في حزم وصمت » ؟

وروعة الكتاب تبدو في مواضع كثيرة اوضح فيها ان المادة هي شغل الناس الشاغل. ولقد اراد الطبيب ان يهب نفسه لما فيهِ صلاح القوم فاضطربت في رأسه فكرتان : أيعيش بين الناس طبيباً يداوي عللهم ويحنو عليهم ام هو يسعى جهده ليقر بينهم السلام والهدوء ؟ وتنازعهُ عاملان: أفيكون طبيباً او قساً ؟ وخيّل اليهِ ان الانسان يصغي في رضا لمن يخفف عنهُ آلامه اكثر مما يطمئن الى من يمنيهم ويخوّفهم ، فراح يسهر على مرضاه ، واستقر الى جانب الفلاح الذي يكدح عمره لينال قوت يومه. ولكن الانسانية الخامدة لا ترقى الاَّ على سلم من الاعتداد بالذات ، فهذا العظيم الذي يقذف بنفسهِ في خضم الجهاد ، هو لا ريب يسعى لينفث روح الاعتداد بالنفس في نفوس الشعب لينشىء خلقاً جديداً غير ان الجيل الجديد سيكون ولاشك ماديًّا

ولعلَّ لينين نفسه شعر بما شعر بهِ الطبيب فاندفع ينهج نهجهُ

ثم تجيء الفكرة الدينية تعلن — دائماً — عن نفسها ولقد قال الطبيب : « إن الكاثوليكية كتلة من التعصب والخرافة تآلفت في إتقان ودقة ، يستطيع العقل الحصيف ان يمتد اليها بالتطهير والاصلاح » ولكنهُ حين اغتمر في عمله بين الفلاحين رأى انها « هي القوة الوحيدة التي تضم في اضعافها كل المبادىء الاجتماعية السامية وتسبغ عليها من روح الحياة والوحدة السياسية » وان الدين « لم يكن — في يوم ما — سلوة يستمتع بها المرء بل هو اداة صالحة تقود الجماعات — دائماً — الى النجاح ». وحين أخذ لينين بهذا المذهب اصبح هو في روسيا الرجل المحترم المقدّس ، وغدا عماد القانون الارضي وحارسه

ولقد اخذت كل من روسيا والمانيا وايطاليا بالمبدإ الذي رسمهُ طبيب بلزاك « . . . إن اخلاط الناس هم سفلة القوم الذين يسهرون على حماية الامة . . . واذا هبّ رجل عظيم يريد الاصلاح فلا بدّ ان يعتمد على الحكومة والاَّ التوى بالناس في غمار الثورة ... ان مجالس الشورى والبرلمانات والديموقراطية كل اولئك خور وضعف وضياع للوقت دون ثمرة تجتنى . . . ياعجباً ،

يا عجباً ! كيف يجلس قوم يتنازعون بينهم الرأي ، والخطر على خطوات منهم يحدجهم بنظرات يتطاير منها الشرر فلا يستطيعون دفعه ! لا بد ان تكون السلطة والقانون و . . . أشياء تقبض عليها يد واحدة . . . يد واحدة فقط »

واخيراً ننشر امام اعيننا رسم الدكتاتور الصالح الذي نادى به بلزاك قائداً وحاكماً ، والذي سار على ضوئه لينين ومن بعده الزعماء ذوو الحزم والعزم مثل هتلر وموسوليني وستالين ... :

« أن يكون بعيد النظر ثاقب الفكر ، لا يطيش ولا يذهب بلبه الغرور والخداع ، وأن ينزع عن نفسه شهواتها وأطماعها ليسيطر على مواهبه في نزاهة وعدل ، في عزم وقوة ، وأن ينفذ أوامره في صرامة وشدة فلا يضطرب ولا يختلج ولا يرحم ولا يصغي الا لنداء ضميره هو ، وأن يستلب عن نفسه الشك والثقة العمياء فلا يطمئن الى رفاقه واعوانه دون تجربة ، وألا يكون سهلاً ليناً ولا صلباً جامداً ، وان يكون على اهبة فلا تدهمهُ الحادثة فيضطرب لها ويفزع ويتزلزل زلزالاً شديداً ، ثم هو يجب عليه ان يجول بين الناس يشع عليهم من عبقريته وينفذ الى قلوبهم من خلال أحاديثه الرقيقة ونظراته النفاذة ، وألاّ تشغله الصغائر بل هو يعنى دائماً بالنتائج . . . ذلك هو الرجل الذي يرقى درجة فوق الانسانية »

تلك هي المبادىء التي بذر بلزاك غراسها في عقل لينين فتأثر بها وشغفتهُ حبًّا . . .

— ٢ —

اللحن الضائع لسافو

في الاربعين السنة الاخيرة انحسرت رمال الصحراء المصرية عن ألحان من الشعر الاغريقي فيها الروعة والجمال، طوّحت بها المسيحية الى أعماق النسيان والاهمال حين راحت تحط من قيمة الأدب الوثني في اعين الناس ، فكشف كل من جرينفل وهنت عن مقطوعات من شعر سافو ، وعثر العالم الايطالي ميديانورسا على اربع قطع ونصف من الشعر كتبت في القرن الثاني قبل الميلاد على قطع من الفخار ، عرف هو — عندما قابل بينها وبين الحان أخر — انها لسافو. وهي قطع من رائع الشعر تصف حقلاً حشد في اقليم كأنهُ الفردوس فيه الماء والزهر والاشجار وفي اضعافها دعوة الى أفروديت معاصرة سافو لتحضر الحفل مكللة بالغار وفي يدها كأس ذهبية فيها الرحيق

والاسطر الاربعة الاولى مضطربة غير ان القارىء المدقق يستطيع ان يستشف من ورائها

امرين : الاول ، انها تصف ناراً تتألق في السماء علامة يستبشرون بها كلما همّ الناس بعمل ذي خطر ولعل العمل هو حفل زفاف والنار هي علامة رضا الآلهة ، فالملأ كانوا يعتقدون ان النار والبرق والرعد سمات البشرى ترسلها الآلهة الى الناس . والثاني ، ان سافو تعلن عن نفسها امام الزمر في كريت . ولكن كيف ذهبت سافو الى كريت ومتى ؟ إن التاريخ يقول انها نفيت من وطنها وهي طفلة الى سليسيا ولعلها لبثت في هذه الجزيرة عمراً من عمرها في ذهابها او في إيابها ! ومهما يكن في الامر من شيء فهي التي تقول « على نغم الموسيقا وحول المذبح المقدس اندفع فتيات كريت يرقصنَ في ارجل لدنة ويطأنَ الازهار الجميلة اليانعة في خفة . . . » وفي هذا اللحن نجد سافو تذكر حفل كريت في حنين وشوق

واذا اغفلنا الاسطر القليلة المضطربة استطعنا ان نترجم ما بقي من اللحن « . . . ما اجمل اشجار التفاح المتشابكة والبخور يتصاعد سحباً عطرية من المعبد ، والماء البارد يتدفق في صخب بين الشعاب ، والظلال تنشر ثوبها الرقيق على المكان كله ، وحفيف الاشجار ينبعث كأنه صوت النعاس المقدس ، والخيل ترعى في الرياض المزهرة ومن فوقها أكمام زهر البلوط ، والنسيم يهب رقيقاً ينفح ريحه العطر الشذي... ! تعالَ الآن ، ايها القبرصي .. تعالَ لتأخذ زهرتك ، ولتصب في رفق رحيقك الشهي في الكأس الذهبية ، ثم انفث فيها اللذة والسعادة ! »

وهذه اغنية ترددت — ولا ريب — يوم زفاف سافو نفسها . والاستاذ ميديا يقول انها اغنية خاصة لم ترتفع بها الاصوات لدى المعبد بل كانت تترنم بها هي ورفيقاتها . وحجته في ذلك ان اغاني العرس كثيرة وعديدة ، وومضات البرق تعيد الى النفس ذكرى ابولون وهو يسلم هيرا المشاعل لتحملها في عرس فيلا وثيتس أبوي « أخيل » اوهي تذكر الناس بالنار التي شبت من جانب السماء حين ربط بين زيدو وإيئوس بالرباط الوثيق في الكهف . ولعل حديقة التفاح المقدسة هي حديقة افروديت فهي كانت تقدس التفاح لانهُ عندها علامة انتهاء عهد العزوبة وابتداء عهد الزواج . ثم هي ذكرت سحب البخور وهي تنعقد في سماء المحراب علامة نجاح الحفل . ولقد خاطبت سافو الكريتيين لانهم رفاق زوجها فهي لم تناد واحداً منهم بل كانت تنادي زوجها وحده

وانهُ ليستوقف النظر ان نرى سافو تدعو أفروديت الى المهرجان وعلى رأسها الغار وفي يدها الكأس الذهبية مترعة بالرحيق لتقدمها هي الى الزوج فيتقبلها وعلى شفتيه ابتسامة علامة الرضا والترحيب بحياته الجديدة ، فلقد كان يخيل الى سافو ان الآلهة يحفون من حولها وانها تتحدث اليهم ، فهي تدعو افروديت ربّة الزهر لتقوم لها بما يقوم به هيرمس في اعراس الاولمب ، او لعلها كانت تناجي زهرة من بين الازهار العديدة التي نثرتها في ارجاء المكان كأنها هي ربة الزهر

ودوّى لحن عرس سافو تدوية شديدة ، في عالم الآثار ، فما هو كغيره من الالحان الاخرى لانها كشفت لنا عن بعض ما يضطرب في نفس المرأة في ليلة العرس من نوازع فيها اللذة والطرب ، وفيها السحر والسعادة ، ثم هي استطاعت بعد ذلك ان تتغلغل في النفوس بعبارات فيها السهولة واللين ، وفيها الخيال والروعة ، ثم هي تعيد العبارة مرات ومرات فما يمجها الذوق ولا تعافها الاذن لانها تنفث فيها في كل مرة من روحها الجذابة ونغمها الساحر وعاطفتها المتسعرة

والآن فيا مصر ، افيضي علينا مما تكتمين عنا الحاناً أُخر فيها السحر والجاذبية والجمال فلطالما لجتْ بك الضنة

— ٣ —

مؤتمر ورق البردي

في اواخر اغسطس الماضي عقد المؤتمر الخامس لعلم البردي وحضره اكثر من ستين ومائة عالم من انحاء اوربا واميركا . وغريب ان تجتمع لورق البردي المؤتمرات فيخف اليها العلماء من كل صوب ! وماذا في ورق البردي حتى يعنى بهِ العالم ويوليهِ من عنايتهِ وهمتهِ ووقتهِ ؟

لقد كان لورق البردي المكان المرموق عند قدماء المصريين والاغريق والرومان فهم قد كتبوا عليهِ كتبهم ودونوا وثائقهم العامة والخاصة ، والبردي ورق مصنوع من نبات مائي كان الى حين ينبت على ضفات النيل ، وهو سريع البلى غير ان جو مصر الجميل وتربتها الجافة ساعدا على ان يجتاز هذا الورق القرون الطويلة وهو في جدتهِ وبهائهِ لم تعبث بهِ الايام

وكان تاريخ الادب يبتدىء من القرن الرابع الميلادي ، فجاء البردي يفتح امامنا صفحة اخرى يمتد تاريخها الى ما قبل ذلك بقرون

وكشف عن ورق البردي — اول ما كشف عنهُ — في سنة ١٧٧٨ حين عثر جماعة من اهالي مديرية الفيوم على حزمة منهُ في اناء خزفي فاشترى احد الهواة بعضها بالثمن البخس ، واحرق القوم ما بقي حين لم يجدوا فيهِ فائدة ترتجى . واستطاع كاردينال بورجيا ان يحصل على هذه الاوراق فطبعها في سنة ١٧٨٨ فاذا فيها اسماء العمال الذين قاموا بأعمال الري سنة ١٩١ بعد الميلاد

وفي التسعين السنة التالية لم يعثر الا على وريقات لا تشفي غلة بينها بعض قطع من ادب هوميروس وهيبريديس تيرب ديموستنيس والكمان

وفي سنة ١٨٧٧ اكتشف اكبر قدر من هذا الورق وهو قرابة الف وثيقة تجمع بين

اسطرها ما كان من امر مدينة ارسينو ، وهذه المجموعة حفظها الارشيدوق راينر النمسوي

وجاءت سنة ١٨٩١ تحمل في اضعافها حزماً من ورق البردي فيها الادب وفيها العلم معاً فطبعت دار الآثار الانجليزية بعضها وهي: رسالة ارسطو المفقودة في تاريخ اثينا ، والاشعار لهيرودس وبعض خطب هيبريدس ، ورسالة مستفيضة في الطب ، ثم بعض ما كتب هوميروس وديموستنيس واسوكراتيس ، وفي ذلك الحين كشف عن وثائق فيها شذرات لهوميروس وافلاطون ثم المأساة المفقودة ليوريبيديس

فابتدأ حب الاستطلاع يدفع الباحثين الى دراسة ما يزجيه الينا البردى من الادب والتاريخ ، فتوزعته الايدي بين برلين ولندن وفينا وجنيف ، وتناولته العقول بالبحث في نواحيه العديدة ...

***

ومنذ اربعين سنة تدفق سيل من اوراق البردي فأفعم مكتبات اوربا ومصر واميركا بمئات من القطع الادبية وآلاف من غير الادبية ، ذلك عدا بعض كتب في اللغة المصرية القديمة ونسخة اغريقية من الكتاب المقدس تسبق كل ما بين ايدينا من هذا الكتاب بمئتي سنة .

ولقد افادنا البردي من الناحية الادبية فائدة عظمى ، فهو قد كشف لنا عن بعض ما كتب عظماء الفلاسفة والكتّاب والشعراء مثل : ارسطو وهيبريدس وهيرودس وميناندر وتيموثيس ، وقطع لسافو وبندار ومأساة سوفكليس ، ثم هو قد نشر على اعيننا كل ما نعرف الآن عن الادب والعلم عند قدماء المصريين ، والقى بين ايدينا ببعض المخطوطات القبطية التي اوضحت لنا عن الفكرة الدينية الصحيحة ...

وجاءت الوثائق غير الادبية تهدينا الى المنهل العذب الصافي الذي نغترف منهُ كل ما تصبو اليه النفس من الحقائق عن تاريخ حكم البطالسة والرومان والبيزنطيين والعرب في مصر ، ثم الحياة الاجتماعية والاقتصادية في مصر في مدى الف سنة

***

والباحث في القانون يجد مئات من الوثائق تجمع في ثناياها المواد القانونية والمحاكمات الهامة من عهد المصريين القدماء حتى العهد البيزنطي ، واخرى تشمل خطابات خاصة تنم على الحياة في عصور المدنية السحيقة

افليس في كل هذا ما يحث على ان تجتمع المؤتمرات وان تشاد المعاهد العلمية لدراسة ما جاء في اضعاف ورق البردي من ادب وتاريخ وعلم ؟

الدهن وانواعه

بحث لغوي تحليلي

للاب انستاس ماری الكرملی

احد اعضاء مجمع اللغة العربية الملكي

١ — تصدير

في معاجم لغتنا المبينة ، شائبة شوّهت جبينها الناصع ، وكادت تنسي ما في سائر جسمها وقوامها من المحاسن والبدائع وهذه الشائبة هي انك تجد احياناً في تلك الدواوين — على اختلاف مؤلفيها وعصورهم — مثل هذه الكلمة (معروف) عوض التعريف . وان لم تذكر هذه الكلمة بنصها الواضح الصريح ، فانهُ يلمح اليها تلميحاً ، يبعث في صدرك السأم واليأس ، بحيث تستشيط غضباً على من وضع السِفر الذي بيدك وترميهِ بعيداً عنك

انك لا تستطيع مثلاً أن تعرف معنى (السرير) معرفة صادقة تامة ، مهما بحثت ونقّرت وصرفت الساعات الطوال للاهتداء الى حقيقتهِ او صورتهِ . وكذا قل على (اللحم) و (الكُحْل) و (الكاهن) و (التنحنح) و (النحنحة) الى غيرها . بل هذه كلة (القُنْسطِيط) التي ذكرها اللغويون بقولهم : (شجرة معروفة) هي اجهل المجهولات . أوَاهتديت الى حقيقتها ؟ — كلاّ ولعل سبب ذلك غرابتها ، فانها تنفّر أذنك من سماعها حال بلوغها اليها بل تهرب من الأخذ في تطلب معناها ، اذ قد اجتمع فيها شيئان : غرابة تركيبها ووزنها . وكذا قُل عن عشرات الكلم التي كانت (معروفة) في عهد المصنفين ، لكنها اليوم لا تكاد (تعرف) او تعرف بعض المعرفة ، فتدفع الكُتّاب الى الجدل والمناقشة على غير طائلٍ ، ولو عرف معناها حق المعرفة في اول تدوينها في المعاجم لما وقع عليها النقاش والنقار والنفار

ومثل هذه الشائبة لا تُصيبها في مصنفات اهل الغرب على اختلاف ألسنتهم واقوامهم وديارهم ومن جملة الحروف (المعروفة) : الدهن الذي ارصدنا له هذا المقال . فما هو ؟

٢ — الدهن وتعريفه على ما في كتبنا اللغوية

الدهن ، ما ادراك ما الدهن — قال المجد : « دَهَنَ: نافَقَ . ورأسهُ وغيره دَهْناً ودهنةً : بلَّهُ [1] والاسم الدُهْن ، بالضمّ » اه . ولم يوضح في ما بقي من المادة ما يزيد هذا الكلام وضوحاً وتبياناً

وفي لسان العرب : « الدُهْن (معروف) ، دهن رأسهُ وغيره ، يدهنهُ دهناً : بلَّهُ . والاسم الدُهن والجمع ادهَان ودِهان . . . » الى آخر ما قال وليس فيه جلاء في تحقيق المعنى

وقال في اساس البلاغة : « دهن رأسهُ ودهَّنهُ وادَّهن وتدهَّن، وكأنها مداهن الفضة ، جمع مدهن وهو الذي يجعل فيه الدهن » اه . ولا تزد على هذا القدر من الابهام والكلام الغامض.

واما في مختار الصحاح والصحاح ، فالكلام فيهما على مثل هذا الغموض . فقد جاء فيهما : « الدهن (معروف) » — واذا نقلنا هنا كل ما ورد في معاجم الاقدمين ، فلا نزداد علماً ولا تحقيقاً ولا درايةً للشيء ، بل رسوخاً في الابهام والايهام وغامض الكلام

واما في المعاجم الحديثة مثل محيط المحيط وما نقل عنهُ او صُنّف بعده ، فالاشارة الى معنى الدهن أبين لكنَّ ركاكة العبارة ظاهرة . قال المعلم بطرس البستاني في دهن من محيط المحيط « الدِهْن [وهي مضبوطة بالكسر] . . . من الحيوان : اللحم الابيض كلحم ألية الضأن ونحوه الواحدة دِهْنة . مولَّدة. والدُهْن (وضبطها بالضم) الاسم من دهن الشيء : اذا بلَّهُ ودهن السمسم وغيره : زيتهُ . ج : ادهان ودهان . ودهن الحل : السيرج » . اه

واول شيء يلاحظهُ القارىء انهُ قال : اللحم الابيض ، وهو تعبير فاسد لان من يقول : (لحماً) لا يتصور الاَّ شيئاً او مادة رخصة حمراء تكون مملوءة دماً ومن اعضاء الحيوان .فقوله: (اللحم الابيض) كقول من يقول : (الاحمر الابيض) وقولهُ (الواحدة دهنة) ،تعبير اركُ من الاول . لانهُ يقال : الواحدة كذا لما هو من شبه الجمع كقولك : بَقَر وتمر وثمَر فتقول : (الواحدة بقرة وثمرة وتمْرة . واما ما ليس من شبه الجمع فيقال فيه :(الطائفة منهُ او القطعة

---

(١) لم يفهم كثيرون من اصحاب المعاجم الحديثة معنى « بل رأسه » فخيل اليهم ان المراد بالبلل هنا ايصال شيء من الماء اليه ، وليس هذا هو المطلوب . انما معنى « بله » : رطبه ورطله وطراه ، اي وضع عليه من الطيب او الطلاء او المادة المرطبة ما يمنع شعثه . ورطل الشعر مأخوذ من رطبه قلبت الباء لاماً لاحداث معنىً جديداً يخرجه من معناه المألوف العام الى هذا المعنى المحصور به ، الخاص به دون اصله.

وقلب الباء لاماً في مثل هذا المقام اكثر من ان يحصى فقد قالوا معزاب ومعزال ، للذي قد عزب بابله — والعندليب والعنديل للهزار المشهور بضروب ألحانه وأغانيه وبشق المسافر ولشق اي تأخر وعجز عن السفر — وعراقيل الامور وعراقيبها اي عظامها وصعابها ، الى غيرها وهي جمة لا تحصر.

منهُ كذا) كما لا يخفى على من له اطلاع على اللغة ، ومصطلحاتها

ثم إن هذا « الايض » الى آخر ما قال فيهِ ، كان في غنى عنهُ لو قال « الشحم » أو الدهن والظاهر أنهُ « لم يعلم أن الدهن » بالدال المهملة المكسورة هي تصحيف الذهن ، بالذال المعجمة المكسورة ، وكان عليهِ ان ينبه على ذلك لينتبه الغافل ويعلم المولد ان التصحيف بين الكلمتين هو من قبيل لغةٍ من لغات بعض العرب الاقدمين والمحدثين

وصاحب البستان أخذ كلام محيط المحيط وحذف منهُ العبارة الاولى المتعلقة بالدِهن (المكسورة الاول) وقال في الدهن ، المضموم الاول : « الدُهن ، بالضم ، الاسم من دهن الشيء : إذا بلَّهُ دهن الخلّ (كذا بالخاء المعجمة وهو خطأ طبع بلا أدنى ريب ، وما كان ينبغي ان يقع مثل هذا الخطأ في معجم لغة من شأنهِ ان يرشد الباحث فيهِ الى الصواب) ، الشيرج دهن السمسم زيتهُ ج دهان وادهان » اه

فقول البستانيين : « دهن الخلّ : الشيرج » خطأ ، لأن الخلّ هو الشيرج نفسهُ ، فكيف يجوز ان يقال : دهن الخلّ الشيرج . فكأنك تقول : « دهن الشيرج : الشيرج » وهو كلام لا معنى فيهِ ولا فائدة

وللعرب كلمة تقال على كل دهن وهي (الاهالة) وتصدق على كل ضرب من ضروب الدهن. قال في اللسان في (اهل) : « الاهالة ما أذيب من الشحم . وقيل : الاهالة: الشحم والزيت . وقيل . كل دهن أُؤتدم به إهالة . والاهالة : الوَدك . وفي الحديث : «انهُ كان يُدعَى الى خبز الشعير والاهالة السنخة فيجيب » . قال : كل شيء من الادهان مما يؤتدم بهِ إهالة ،وقيل، هو ما اذيب من الالية والشحم. وقيل : الدسم الجامد . والسنخة : المتغيرة الريح ، وفي حديث كعب في صفة النار : (يجاء بجهنم يوم القيامة كأنها مَتن اهالة) اي ظهرها . قال : وكل ما اؤتدم بهِ من زُبد وودكٍ شحم ودهن سمسم وغيرهِ فهواهالة . وكذلك ما علا القدر من ودكِ اللحم السمين : (إهالة) . وقيل : الألية المُذابة والشحم المُذاب : (اهالة) ايضاً . ومَتْن الاهالة : اذا سكبت في الاناء . فشبه كعب سكون جهنم قبل ان يصير الكفار فيها

٣ — الدهن وتعريفه على ما يحصل من كتب القوم

رأيت ان الدهن في كتب اللغة اسم مصدر لدَهَنَ الشيء : إذا بلَّهُ . فكل ما يبلّ شيئاً يسمى دهناً ، اي كل سائل ذي إهالةٍ يسمى دهناً . هذا من باب التعميم، واما من باب التخصيص وعلى ما يتحصل من كتب الادب والعلم ، بل من اسفار اللغة نفسها فان (الدهن كل مادة دسمة) . ولما كان الدسم يوجد في الحيوان والنبات والجماد ، كان تعريف الدهن :(كل جوهر ومادة دسمة من حيوان ونبات وجماد) . ونحن نؤيد هذا القول بالنقل عن الائمة :

٤ — الدهن النباتي

الدُّهن النباتي ما يستخرج من عصر بعض الانبتة التي فيها زيت كالبان والزيتون والزنبق والخردل والسمسم والجوز واللوز والجلَّوز والمشْـلوز وهي كثيرة جمة العدد

واحسن دليل على وجود الدُّهن في النبات ما جاء في سورة المؤمنين : « وشجرة تخرج من طور سيناء تنبت بالدُّهن وصبغ للآكلين » . فليس شيء اوضح من هذا الكلام على وجود الدّهن في الزيتون . ولا جدل في هذه المسألة

وسمى العرب دهن البان : (المضنون) على ما صرح بهِ صاحب المحكم وغيرهُ وسموا دهن الزنبق ودهن الخردل (السعيط) . والمطيّب المطبوخ بالرياحين (الدهن المُقتَّت) . وسموا الدهن الذي يتخذ من الزيت بافاويه (الخطَّار) . ولاحظ حسناً هذه الكلمة (الدهن الذي يتخذ من الزيت) ، مما يدل دلالة صريحة جليَّة على ان هناك فرقاً بيّناً بين (الزيت والدهن) فالواحد غير الآخر من باب التخصيص ، بخلاف ما ذهب اليهِ بعضهم ودونك عبارة القاموس ، ليطمئن قلبك الى ما نورده عليك . قال المجد الفيروزابادي : « والخطّار ، ككتان : دهن يتخذ من الزيت بأفاويه الطيّب » . وفي اللسان : « الخطَّار : دهن من الزيت ذو افاويه »

وكذلك ميزوا بين الاثنين في كلامهم على «المقتَّت من الزيت» . قال المجد : «زيت مقتّت: طبخ فيهِ الرياحين او خُلِط بأدهان طيبة» . فهذان نصّان بيّنان على ان «الزيت غير الدهن» . وأن الدهن مادة دسمة تدخل في بعض الزيوت ، فالواحد غير الآخر

وذكر صاحب اللسان في مادة (ن ش ش) ما هذا نِصَابُهُ : «روى الازهري عن الشافعي، قال : الادهان : دُهْنانِ : دهن طيب مثل البان المنشوش بالطيب ، ودهن ليس بالطيّب ، مثل سليخة البان غير منشوش . ومثل الشيِرِق . قال الازهري : المنشوش : المربّب بالطيب ، اذا رُبّب بالطيب فهو منشوش . والسليخة : ما اعتُصر من ثمر البان ولم يربّب بالطيب » اه

وهناك غير هذه الادلة المقتبسة من كلام ائمة اللغويين فاجتزأنا بهذا الوشل ، لان ما زاد على هذه الشواهد ، او على هذا القَدْر ، لا يزيدنا فائدة او علماً على ما ذكرناه

٥ — الدهن الحيواني

وجود الدهن في الحيوان امر لا ينكر . قال ابن البيطار في ترجمة (القاوند) : « ابو العباس الحافظ : هو دهن معروف لونهُ مثل لون السمن ، وقوامهُ في الجمود كذلك . وهو معروف بالحجاز ، يؤتى بهِ من اليمن ومن بلاد الحبشة . ويأتيهم من الهند » الى آخر ما قال وهو لا يريد زيت الزيتون ولا غيره . اما الدميري فيقول : «القاوند طائر يتخذ وكره على ساحل البحر ...

وهذا الطائر المتخذ منهُ «شحم» القاوند المعروف، وهو يقيم المقعد ... » الى آخر ما قال.
فما سماه ابو العباس الحافظ «دهناً» سماه الدميري «شحماً» لانهما شيء واحد

وهذا أبين دليل على ان « الشحم والدهن » من جنس واحد. فهو « شحم » اذا كان جامداً. وهو «دهن» اذا ماع او لم يمع

وأهل بغداد يسمون «السمن» : « دهناً » . ومنهم من يقول : «دُهناً حرًّا» لتمييزه عن سواه من شحم وزيت الى غيرهما . ويقولون : «هذا اللحم دهين» ، اذا كان كثير الودك والشحم. فقول الاطباء والكتبة : « المواد الدهنية » اصح من قولهم : « المواد الشحمية » لشهرة اللفظة عند جميع الناطقين بالضاد، من جميع ديار الناطقين بها ، من مصريين وسوريين وعراقيين الى غيرهم، ولان صحة الدهن لا غبار عليها، اذ تعني الشحم والزيت وكل مادة دسمة ، واذ في الالية دهن وشحم ، وفي الانسان دهن وشحم ، وفي الامعاء دهن وشحم . هذا فضلاً عن ان الشحم كلة مبتذلة صارت اليوم من لغة القصّابين واللحّامين والشحّامين

ومن تعبير اللغويين للدلالة على ان الدهن يكون في الانسان، شرحهم للكلمة (الغِفارة) فقد قالوا فيها : خرقة (تكون دون المقنعة) توقي بها المرأة خمارها من الدهن (ق) . وقالوا مثل ذلك في (الصِقاع) والصوقعة (ق) . وليس المراد هنا الدهن الذي تستعمله النساء للتطيب، بل الدهن الذي يفرزه او يقذفه الرأس ، اذ لو كان من دهن التطيب، لما عمّ اللغويون الكلام واطلقوه على كل امرأة تستعمل الخمار، وانما خصوا بهِ النساء لان الرجال اقل استعمالاً لما يلبس على الرأس من النساء، ولانهُ يلازمهنّ ليل نهار، والاَّ فرؤوس الرجال تقذف الدهن كما تفيض بهِ رؤوس النساء

٦ — الدهن المعدني

سيأتي في العودة الى الكلام على (الاهالة) انها استعملت للزيت المعدني على ما ذكره استرابون، وهو من اعظم العلماء الاثبات واقدمهم ، فهو ثقة دونهُ كل ثقة، لكنهُ من الاعاجم ونحن في حاجةٍ الى حجة في لغتنا العربية ، ولما كان للدهن مترادفات عدة ، اخترنا من جملتها واحداً من عشراتهِ وهو (المُهْل) او (المُهْلة)

قال في لسان العرب : « المُهْل ، اسم يجمع معدنيات الجواهر . والمهل ما ذاب من صُفر او حديد . وهكذا فسر في التنزيل . والله اعلم . والمهل والمهلة : ضرب من القطران ماهيٌّ ، رقيق يشبه الزيت ، وهو يضرب الى الصفرة من مهاوتهِ ، وهو دسم تدهن بهِ الابل في الشتاء. قال : والقطران الخاثر لا يهنأ بهِ . وقيل : هو درديّ الزيت . وقيل : هو العَكَر المُغلى .

وقيل : هو رقيق الزيت . وقيل : هو عامتهُ . وانشد ابن بري للافوه الاودي :

وكأنما اسلاتهم مهنوءة بالمُهل من ندب الكلوم اذا جرى

شبه الدم حين يبس بدرديّ الزيت . وقولهُ عزّ وجل : « يغاثوا بماءٍ كالمهل » يقال : هو النحاس المذاب . وقال ابو عمرو : المهل دردي الزيت . قال : والمهل ايضاً القيح والصديد . ومهلتُ البعير : اذا طليتهُ بالخضخاض فهو ممهول . . . وقالت العامرية : المهل عندنا السمّ ...» إلى آخر ما جاء هناك ، فراجعهُ ان شئت التطويل في التفصيل

فقد رأيت انهُ فسّر المهل والمهلة بالخضخاض ثم اطلق عليهِ اسم الزيت ايضاً . والخضخاض على ما قال صاحب اللسان ، نقلاً عن ابي منصور الازهري : « ضرب من النفط أسود رقيق لا خثورة فيهِ وليس بالقطران . . . (وهو) دسِم رقيق ينبع من عين تحت الارض . . . » اه

وقال ابن مكرم في (نفط) : « النِفط والنَفط . دهن . والكسر افصح . وقال ابن سيده : والنفط والنفط: الذي تطلى بهِ الابل للجرب والدَبَر والقردان وهو دون الكحيْل .. والنِفط والنَفط حلابة جبل في قعر بئر توقد بهِ النار . والكسر افصح » اه

فلو لم يكن في ايدينا الاَّ هذا الشاهد المذكور في اللسان ، لكفانا دليلاً على ان (الدهن) قد يكون لسائلٍ معدني ولم يكن ابداً محصوراً عند العرب بما يحصل من عصر بعض الانبتة الحاوية زيْتاً .

٧ — أصل الاهالة

من غريب تركيب أحرف هذه الكلمة ، انها لا تتصل بما يوجه معناها الى الدهن او الشحم او الزيت او اشباه هذه المعاني ، لكننا نراها مضارعة لليونانية Élaia جمع Élaion ومعناها في اول وضعها « زيت الزيتون » ثم اطلقوها على جميع الدهان التي ذكرها لغويو العرب بجذافيرها . لا بل ذكر استرابون الاماسيّ من علماء وُصّاف البلدان المقدّمين (وكان في سنة ٦٦ قبل المسيح الى ٢٤ بعد الميلاد في كتابهِ الذي نشره ج . كرامر في سنة ١٨٤١ الى سنة ١٨٥٢ في الفصل الحادي عشر والقطعة الخامسة) : ان الاهالة يراد بها الزيت المعدني ايضاً وكان بعض الفقراءِ يطيّبونهُ ويتخذونهُ اهالةً أوادماً لهم . فصحت الاهالة على ان تطلق على كل زيتٍ من معدني ونباتي وحيواني

واللغة العربية لا تأبى هذا الاطلاق ولا تنبذه ولا تعافهُ ، اذ يشترط في (الاهالة) ان تكون « مادة دسمة وان يؤتدم بها »

وتعريب « الإية » اليونانية بصورة « اهالة » غير بعيدٍ ، لانهُ كان لبعضهم لغة يجعلون

فيها اللام هاء . فكانوا يقولون شاكهة في شاكلة (راجع المزهر طبعة بولاق الاولى ١ : ٢٢٨) وقالوا الهفات كاللفات وزان سحاب وهو الاحمق ، الى غيرها من نظائرها . وأما ابدال اللام بالياء فكانت لثغة عند العرب ذكرها المزهر ايضاً (في ١ : ٢٧٠) والجاحظ في كتابهِ البيان والتبيين (الطبعة الاولى ١ : ١٧)

والذي يدفعنا الى هذا القول أن ليس للاهالة ما يقابلها في التركيب في سائر اللغات السامية وللكلمة « الاية » لغتان أخريان هما : (إلايْهَة وإلاهْيَة) فمجانستهما للعربية اوضح وأقوى

٨ — أصل المهل والمهلة

المُهْل تشبه قلب أُلِيُمْ Oleum اللاتينية (٢) لأنها تصير حينئذٍ Moleu ولا عبارة بآخر حرف أو إنهُ حول هاء . وهو غير بعيد فقد سبق للسلف أن قلبوا Litra فقالوا فيها رِطْل Ritla وقالوا في Mensis نماص أي الشهر Nemis وفي Virgo بِكْر اي بتول Vigro الى نظائرها مما ورد مقلوباً ومنقولاً عن اللاتينية أو اليونانية

زد على ذلك ان جميع معاني اللفظة الرومية Oleum تراها واحداً فواحداً في العربية وبالعكس . ولهذا لا ترى لها مقابلاً من هذه المادة في سائر اللغات السامية . هذا رأينا ولعلنا مخطئون في جميع هذه الاحرف

٩ — أصل الدهن

هذه الكلمة تنظر الى Dèmos اليونانية ومعناها الدهن ، اي كل مادة دسمة والشحم ايضاً على حدّ ما في لغتنا الضادية . والحرف H اليوناني يقابل الهاء العربية . وقد صوَّرناهُ هنا هكذا È

(٢) ومما نشأ من الكلمة Oleum الرومية ، كلمة عربية أخرى هي (الحل) بمعنى زيت السمسم ، او (الشيرج) وهذه الثانية من الفارسية « شيره » اي عصير او عصارة : —

والحرف O الرومي — بل اليوناني ايضاً — كثيراً ما يرد بإزاء حرف حلقي في اللغات السامية ولا سيما في العربية . فاللاتينية Odor تقابل « عطر » — و Offa : عفة و Olla : حلة . وقد جهل بعضهم هذا الاصل المعرب . فقد جاء في تاج العروس ما هذا اصله : « الحلة في اصطلاح اهل بغداد كهيئة الزنبيل الكبير من القصب يجعل فيه الطعام . نقله الصاغاني . قلت (اي السيد مرتضى) : وفي اصطلاح مصر يطلق على قدر النحاس لانه يحل فيها الطعام » اه كلامه . قلنا : والحلة معروفة بهذا المعنى الى يومنا هذا في العراق. الا انها تستعمل لوضع الحَمام فيها (الطير المعروف) لا الطعام . ولعل اصل قول الصاغاني كان (الحمام) لا (الطعام). والكلمة رومية بلا شك ولا ريب . ومعناها القدر او المرجل . هذا هو الاصل ثم أطلق على ما يشبه من نسيج القصب والخوص او نحوهما ، من باب التوسع في المعنى والخروج من سلاسل التقييد

ولما كانت الدال اليونانية تنقل مرةً دالاً مهملة واخرى ذالاً معجمة ، جاءت في العربية الدُهْن (بالضم)والدِهْن(بالكسر) وبين الضم والكسر تعاقب غير مجهول . والظاهر ان اليوناني هنا هو العبرة (اي الاصل الاول الذي تردّ اليهِ النظائر) دون غيرهِ . والدليل على هذا ،اننا نجد في العربية (المدموم) بمعنى المتناهي السمن الممتلىء بالشحم ، وفي المادة العربية (دمم) عَوْد الى المعدن اليونانيّ من غير ادنى تبديل او تغيير او تعديل

قال في اللسان في (دمم) : « المدموم . الممتلىء شحماً من البعير ونحوهِ . وقد دُمَّ بالشحم اي اوْقِر . . . والمدموم : المتناهي السِّمن ، الممتلىء شحماً كأنهُ طلي بالشحم... ويقال للشيء السمين : كأنما دمَّ بالشحم دمًّا ... ودم البعير دمًّا : اذا كثر شحمهُ ولحمهُ حتى لا يجد اللامِس مسَّ حجم عظمٍ فيهِ » اه

١٠ — تأزير وخلاصة

ظهر لنا من بسط هذا الموضوع : ان (الدهن) يعني كل مادَّةٍ دسمة ، معدنية كانت ام نباتية ام حيوانية، سائلة ام جامدة ، ويقابلها في الفرنسية Corps gras ou graisse التي توافق هذا التعميم وهي بالانكليزية Fat or grease . اما (الزيت) فهو كل سائل او مائع دسم اودهنيّ وهو Huile بالفرنسية وتشمل الزيت النباتي والمعدني والحيواني وهو ، في الانكليزية Oil . — واما (الاهالة) فتشمل الدهن والزيت وكل مادة دسمة يؤتدم بها ،

وهي بالفرنسية Toute matière grasse ou huileuse avec laquelle on mange le pain

وبالانكليزية All fatty or oily matter eaten with bread

ومن الغريب ان ليس كلمة واحدة في لغة من لغات العالم تؤدي معنى (الاهالة) الذي وضعهُ لها ابناء عدنان، بل يضطر اصحاب تلك اللسان الى اتخاذ عبارة للدلالة عليهِ كما مرّ بك . واللغة اليونانية مع غناها ، واللاتينية مع شيوعها وذيوعها بين طبقات العلماء من جميع العباد والبلاد، لم ترصدا كلمة واحدة للمؤدى الذي اشرنا اليهِ . فأكرم بلغة تتحدى ألسنة الدنيا كلها بسعتها واداءِ افكار ابنائها ودقائق معانيها في جميع العصور وفي جميع الفنون والعلوم والصنائع

و (المُهل) او (المُهلة) تجمع كل سائل او مائع [1] على اختلاف انواعهِ وضروبه ، جامداً كان اصله ام غير جامد ، حتى ان المعادن الصلبة اذا مُيِّعَت ، يقال لمائعها (المهل)

---

(١) الفرق بين السائل والمائع ان المائع ماكان اصله جامداً ثم أذيب فجرى ، والسائل ماكان اصله جارياً . فالماء والزيت من السوائل والدهن والشحم والالية اذا اذيبت من المائعات . وقد يتوسع فيهما والاصوب ان يحافظ على وضع العرب الاصيل

شدة الاحساس

بأشياء ومواد معينة

والاستهداف بسببه لحالات مرضية منوعة

يعرف كاتب هذه السطور سيدة اميركية عالية الثقافة حصيفة الرأي شديدة العناية بشؤون معيشتها ومعيشة اهل بيتها ، تقطن ضاحية المعادي قرب القاهرة ، ولكنها مضطرة الى مغادرتها مع اغتباطها بكل ما حواليها لانها تصاب كل سنة ، عند ما تبسم الارض في الربيع ، وتخرج الازهار من اكمامها بمرض يعرف « بحمّى التبن او القش » ، فتلتهب جفونها وتدمع عيونها ويسيل انفها وتصاب احياناً بضيق التنفس . وليس لذلك سبب ظاهر . فاهلها يأكلون ما تأكل ويشربون ما تشرب ويتنفسون الهواء الذي تتنفس ولا يصابون بما تصاب . وسرّ هذا الامر ان هذه السيدة شديدة الاحساس بحبيبات اللقاح التي تتطاير من ازهار الحقل ، فتستهدف لهذه الاعراض

وقد عرف كذلك سيدة أخرى كانت اذا اكلت الكركند الشائك والسرطان النهري (Lobster) أو السرطان (Crab) تصاب بما يشبه التسمم مدة اربع وعشرين ساعة ، وقد اكلتهما هنا وفي اوربا وفي لبنان وكانت تصاب دائماً بالاعراض نفسها

في سنة ١٨٣٩ كان العالم الفسيولوجي الفرنسي فرنسوي «ماجندي» Magendie يجرّب بعض التجارب بالكلاب فحقن كلباً بقدر صغير من زلال البيض فلم تبد على الكلب آثار تدلّ على انهُ اصيب بضرر من هذه الحقنة . ثم بعد فترة وجيزة حقن الكلب ثانية بالقدر نفسه من زلال البيض فمات فجأة فتحيّر « ماجندي » في ما رأى لانهُ كان يعلم ان زلال البيض ليس سمّاً ومع ذلك فعل فعل السم في الكلب فقضى عليه

بعد ذلك بربع قرن ذهب حدَث من الاحداث الى اجتماع في الريف ، وبعد ما تعشّى اكل قطعة من الحلوى التي قدمت للزوّار وكانت مصنوعة من الحنطة السوداء ، وما كاد يزدردها حتى احسّ ناراً تتأجج في حلقه ومعدته . ثم احمرّت مقلتاهُ وتورّدت وجنتاهُ وظهرت على شفتيه اورام حمر . فساورهُ خوف عظيم . وعزم ان يسير الى بيته على قدميه . وبعدما سار مسافة ثلاثة اميال في الثلج خفّت وطأة الاعراض التي احسّ بها وعندما وصل بيتهُ كان قد

ثبت في ذهنه ان الحلوى المصنوعة من الحنطة السوداء هي سبب اصابته. وبعد سنوات اكل هذا الفتى كعكة مصنوعة من الذرة فاصيب بالاعراض نفسها . فلما تحرّى المسألة ظهر ان الذرة كانت قد طحنت في مطحنة طحنت فيها الحنطة السوداء فاتصلت حبيبات منها بدقيق الذرة

وانقضت سنوات ، وبلغ الفتى سن المراهقة . وحدث لهُ ما حمله على الاعتقاد ، بأن دقيق الفلفل الاسود يسبب نفس الاعراض التي يسببها دقيق الحنطة السوداء ، اذا ذرّهُ على طعامه. ولكنهُ وجد انهُ اذا اشترى حبات الفلفل وسحنها في بيته وذرّها على طعامه ، لم يصب بها . فحمله ذلك على الظن بأن دقيق الفلفل الاسود الذي يباع في الاسواق مدخول فيه ، فجعل ينقب ويبحث حتى اتصل بمدير احدى الشركات التي تحضر دقيق الفلفل وتبيعهُ وعرف منهُ ان شركتهُ تبتاع قشور الحنطة السوداء وتسحنها وتخلطها بدقيق الفلفل

ولما بلغ الخامسة والاربعين من العمر ذهب الى مستشفى جامعة جونز هبكنز . وكان العلماء في خلال ذلك قد جمعوا حقائق كثيرة عن هذه الظاهرة الغريبة ، فحضروا نقوعاً من دقيق الحنطة السوداء ، وخدشوا ذراعه ووضعوا على الخدش قطيرات من النقوع ، فما انقضت عليه خمس عشر دقيقة ، حتى صاح « ان الحنطة السوداء قد شرعت تفعل فعلها » وجعل يشكو ضيقاً في الصدر وأخذ يسعل كما يفعل المربوءُ (المصاب بالربو Asthma) وظهرت على وجهه وجسمه وأطرافه بقع حمر ، لم يسعهُ الاَّ ان يحكها حكَّا عنيفاً

ثم استرعت هذه الظاهرة انظار طبيبين من اطباء فينا هما كلمنس فون بيركه Pirqnet وبيلا شيك Schick . ولا يخفى ان فون بيركه اصبح في ما بعد من اشهر الاطباء المتوفرين على امراض الاطفال في العالم . اما شيك فاستنبط الكاشف المنسوب اليه لامتحان الذين يشتبه في اصابتهم بالدفتيريا . كان هذان الطبيبان يعالجان اطفالاً مصابين بالحمى القرمزية بمصل جديد استنبط حديثاً لعلاج هـذا المرض . وكان لا بدّ في هذا العلاج من استعمال مقادير كبيرة من المصل . فلاحظ ان بعض الاطفال اصيب فجأة بحمى وقشعريرة ونفط حمر على الجلد وألم في المفاصل بعد انقضاء نحو اسبوعين على الحقنة . فواليا البحث ووجدا ان الاطفال الذين لم يصابوا بهذه الاعراض بعد الحقنة الأولى ، كانوا يصابون بها حتماً بعد الحقنة الثانية . فأطلقا على هذه الحالة «مرض المصل» واسماء اخرى منها اللفظ Allergy وبه تعرف في رسائل الاطباء

ومن ضروب الربو ما يعرف « بربو الجياد » والذين يصابون به تبدو عليهم اعراض الربو عند ما يكونون على مقربة من جواد او عند ما يتصل بهم شعر من شعره او غبار كان عالقاً به على نحو ما يصاب بعض الناس « بحمى التبن » عندما تنتثر حبيبات اللقاح النباتي في الهواء . فهؤلاء الناس من المعضلات التي يواجهها الاطباء عندما يمرضون ويقتضي المرض حقنهم بمصل ما ،

لان طائفة كبيرة من المصول تولد في دم الخيل . فاذا أُصيب احدهم بالدفتيريا وجب حقنهُ بالمصل المضاد لها ، وهذا المصل يولَّـد في دم الخيل ، فيصاب المحقون باعراض الربو . نعم إن ارتقاء وسائل النقل بقوة البخار والحركات الذاتية كقطارات السكك الحديدية والسيارات ، بعد المركبات التي تجرُّها الجياد ، قد أزال عاملاً من عوامل هذا الضرب من الربو ولـكن تقدم الطب في استعمال المصول عرَّض بعض الناس لهُ من جديد

ومن الناس من يتأثر تأثراً خاصًّا بقربهِ من الغنم أو الخنازير والـكلاب والهررة والارانب والجرذان والدجاج والبط والاوز أو بأكلهِ قطعاً منها على نحو ما يتأثر بعضهم بالجياد . بل ان بعض الناس يتأثر بريش الدجاج فلا يكاد ينام على وسادة محشوَّة بهذا الريش حتى يصاب بنوبة من الازم الشديد

ويمكن ان يقال بوجه عام أن المواد التي تسبب هذه الاعراض هي انواع من الطعام ، وحبيبات اللقاح والغبار ، وشعر الحيوان وقشورهِ وجذور الاوريس (وهو نبات اسمهُ العلمي ايريس فلورنتينا وايرس جرمانيكا ويستعمل دقيق جذور الاول او نشاؤهُ في تعطير بعض مستحضرات الجمال بعطر بنفسجي) وبعض البكتيريا . ويذهب بعضهم الى أن البرد والحرّ قـد يؤثران في الجسم فتنحل بعض المواد الزلالية في الجسم فتصبح من طبقة المواد « الاليرجية » . وتقسم المواد التي تحدث هذه الاصابات الى ثلاثة أقسام عامة منها ما يتصل بانساج الجسم عن طريق الاكل واخرى باللمس وغيرها بالاستنشاق

وهذا يعود بنا الى المثل الذي ضربناه في مستهل هذا المقال . نعني «حمى التبن» Hay Fever. وهي نادرة في مصر . فقد وصف الطبيب الانكليزي جون بوستوك Bostock هذا المرض أولاً سنة ١٨١٩ وكان يصاب بهِ في الصيف فاطلق عليهِ اسم « زكمة الصيف » وانقضى القرن التاسع عشر والظن الراجح انهُ مرض نادر

وكان الطبيب وليم دنبار Dunbar اول من درسهُ دراسة علمية في اواخر القرن التاسع عشر وكان رأيه انهُ نتيجة من نتائج الحضارة الحديثة . قال ان العمال في الامم غير المتحضرة لا يصابون بهِ ، او تندر اصابتهم بهِ حال أن الامم البالغة شأواً عالياً من الحضارة تكثر فيها الاصابة بهِ . وبين ان الاصابات بهِ في اميركا الشمالية كثيرة . وقد كانت قبل نصف قرن نادرة فاصبحت الآن مألوفة ويبلغ عدد حوادثها نحو المليون كل سنة

الاَّ أن الطبيب الانكليزي تشارلز بلاكي بدأ تجاربهُ في منتصف القرن الماضي ، أي نحو اربعين سنه قبل مباحث دنبار ، فثبت لهُ أن حبيبات اللقاح النباتي تسبب هذا المرض ، وكان بلاكي نفسهُ معرضاً للاصابة بهِ ، فجمع حبيبات اللقاح ووضعها في عينيهِ وأنفهِ فاحدث فيهِ اعراض هذه الحمى . وكان العلاَّمة الالماني هلمهلتز معرضاً للاصابة بهِ كذلك ، فأخذ بعض مفرزات أنفهِ وهو مصاب أعراضهِ وفحصها فوجد فيها بكتيريا لا تكون فيها عندما يكون سليماً . وكذلك ظلت النظرية

البكتيرية في سبب هذا المرض سائدة سنين متعدّدة ، لان مقام هلمهلتز العلمي كان في الطبقة العليا الاَّ ان دنبار ، مع ذهابهِ في تفسير هذا المرض الى استادهِ الى الحضارة ، بدا لهُ ان في اقوال بلاكلي شيئاً من الصحة . فجعل يجمع حبيبات اللقاح النباتي ويجربها في الناس المعرضين لحمى التبن . فثبتت لهُ الصلة بين الحبيبات والاعراض

وأعمُّ أنواع هذه الحمى ينشأ عن لقاح نباتين احدهما يعرف باسم العود الذهبي (وهذا ترجمة الاسم الانكليزي Golden-Rod كما جاء في معجم شرف وهو خروسوغون او دَسْفس : يونانية في معجم اسماء النبات لعيسى) وكلاهما ينثر حبيبات لقاحهِ في الصيف . وقد أثبت البحث ان حبيبات اللقاح في النبات الثاني (Ragweed او عشب الحرقة : شرف) يمكن ان تنثر الى مسافات خمسة عشر ميلاً وان نبتة واحدة منها تستطيع ان تقذف ملايين من الحبيبات في اليوم

وهناك نوع آخر من هذه الاصابات يعرف بالخُماق او الحُماق وهو شبه الجدري ينتفط بهِ البدن ويعرف عادة باسم «الشري» . واعراضهُ ظهور بقع وارمة حول العينين وفي الشفتين واليدين والبدن . ولو اقتصر عليها لهان الامر ولكنهُ قد يحدث في الحلق والحنجرة فيفضي الى الموت اختناقاً

وبعد فما هو تفسير هذه الاصابات ؟ ليس ثمة رأي واحد يعلل جميع ظاهراتها . ولكن منها رأي فوغان (Vaughan) فهو يقول ان الخلايا في الحيوان السوي تتخصص . فاذا دخل الطعام الجهاز الهضمي ووصل الى الامعاء افرزت خلايا الامعاء مفرزات خاصة تخمّر الطعام وتحلّهُ . فاذا حقن احدهم تحت الجلد بمصل مستمدّ من دم جواد ، عمدت الخلايا المختصة الى افراز خمائر تحل مادة المصل . فاذا افرزت مقادير كبيرة من هذه الخمائر بعد الحقنة الاولى كان الجسم مستعدًّا لحل هذه المادة عند ما يحقن بها ثانية ، فتتولد مواد سامة تحدث اعراض هذه الاصابات . ويقول بعضهم ان مادة الهيستامين Histamine — وهي مادة أثبت الطبيب الانكليزي ديل H. H. Dale تكثر في معظم انساج الجسم — هي التي تسبب هذه الاعراض . والهيستامين نفسه اذا حقن في مقادير يسيرة سبب الاورام وهبوطاً في ضغط الدم وبعض اعراض الصدمة التي تمتاز بها الامراض « الاليرجية » . ومن بواعث القلق — لولا حكمة الخلق — ان يعرف الانسان ان في انساجهِ من هذه المادة ما يكفي لقتل عشرات من الناس

ويقال كذلك ان المواد « الاليرجية » اذا دخلت مقادير كبيرة منها الجسم او عجزت الانساج عن حل ما يدخل الجسم بالسرعة اللازمة سببت اعراض الاصابات التي تقدَّم ذكرها . ويعزى عجز الانساج عن حلّها بسرعة الى نقص في بعض مفرزات الغدد الصم . فبعضهم يذهب الى ان النقص هو فقط في مفرزات الكظرين . وآخرون الى انهُ نقص في مفرزات الحلوة . وثمة تقارير طبية مختلفة وصف فيها استعمال خلاصات الدرقية او الكظرين او المبيضين في علاج هذه الحالات

حيوانات مشهورة

وصحة اسمائها

للدكتور امين المعلوف

أوردت في مقتطف ماضٍ شيئاً عن الحشرات وأني مورد في ما يلي غيرها مما عثرت عليهِ في مؤلفات القوم منها الكلمات الآتية وهذه الحشرات مما لم أذكره قبلاً

لَيثُ عِفرين — Ant lion Myrmeleon

بقرة بني اسرائيل . أم قيس . أم عويف . ابو عويف . دويبة من عصبية الاجنحة يأكل دعموصها النمل فانهُ يحفر لنفسهِ حفرة في شكل مخروط قمته الى الاسفل وقاعدته الى الأعلى ويندسُّ فيها فاذا مرَّت نملة فوق الحفرة تدهورت الى أسفلها فيقبض عليها بمخلبيهِ ويغوص بها في التراب ويفترسها . وهو يسمى ليث عفرين وبقرة بني اسرائيل وأبا عويف متى كان دعموصاً فاذا نبتت أجنحتهُ وطار سمي أم قيس وأم عويف . والصبيان في مصر يسمون دعموصهُ غزالة ولا أذكر ما كنا نسميهِ في بيروت

وهاك ما جاء عن هذه الدويبات في المخصص من معاني ليث عفرين ٨ : ١٠٣ . ليث عفرين مثل الفسيتقة لونهُ لون التراب يندس في التراب وفيهِ ٨ : ١١٦ « ابو عويف دويبة غبراء تحفر بذنبها وقرنيها لا تظهر ابداً » وهذه الدويبة غبراء تحفر بذنبها وقرنيها لا تظهر ابداً كما يقول كل من يعرفها ولا يخفى أن عويف تصغير عوف وهو الاسد . وفي حياة الحيوان « بقرة بني اسرائيل هي التي يقال لها أم قيس وأم عويف وهي دابة صغيرة لها قرنان تكون في الرمل فاذا أردت ان تخرجها فاطرح في موضعها قملة فتخرج » وهو أحسن وصف لها وقد كنا نعبث بها في بيروت ونستعيض عن القملة بنملة فان امهاتنا لم تترك لنا قملاً لابحاثنا البيولوجية قلت ولم يذكر احد من اصحاب المعاجم هذه الدويبة على صحتها

أُرْقة . واحدة الأُرْق الآتي ذكره — Aphid. A plant louse

أُرْق — Aphidae. Plant lice

فصيلة من الحشرات تصيب الزرع فتحدث فيهِ الآفة المعروفة بالأُرْقان

أَرَقَة Aphis. Pl. Aphides

جنس من الارَق يحدث الآفة المعروفة في السودان بالعَسل وفي مصر بالندوة العسلية وفصيحةُ الارقان

أَرَقة القطن . وهي تُحدث فيهِ أرَقان القطن اي الندوة العسلية A. gossypii

أَرقة التفّاح A. mali

أَرقة الذرة A. sorghi

الارَق والارْقان والارَقان واليرَقان وفيهِ لغات غير هذه آفة تصيب الزرع والناس يتغير منها اللون . اما في الناس فالمشهور منها اليرَقان وهو داء معروف عند الاطباء وعند العامة بهذا الاسم . وأما الآفة التي تصيب الزرع فتسمَّى في السودان بالعَسَل وفي مصر بالندوة العسلية وفي الشام بالمن وسببها حشرات صغيرة تعرف عند العامة بالمن. ولما كانت الارَق والارقان واليرقان ومرادفاتها فصيحة بهذا المعنى فقد اخترت اللفظة الاولى اي الارق لهذه الحشرات وجعلت واحدها ارقة قياساً وتركت سائر المرادفات لآفة الزرع خلا اليرقان فهو مشهور بمعنى الداء المعروف الذي يصيب الناس . أما تسمية العامة لهذه الحشرات بالمن فهو لانها تُحدث هذه الآفة الحلوة الطعم فسمتها العامة مَنًّا . والمن مادة أخرى تكون على شجر البلوط والطرفاء والعاقول وهي غير هذه وسببها حشرات اخرى غير الارق See Coccidae

هذه الفاظ وضعتها لما يعرف عند العامة بالمن ولا اظنني مخطئاً فالمن عامية بهذا المعنى

شبكية الجَناح (الدكتور صروف) اسد الارَق او المن Aphis Lion. Lacewing fly

ككسيدة . حشرات المغافير Coccidae. Scale insects or Mealy bugs

فصيلة من الحشرات تُحدث المغافير في الشجر كالمن الذي يؤكل . ومنها حشرة القرمز المعروفة بدودة القرمز . المِغثر والمُغثور شيء ينضحهُ الثمام والعُشَر والرِمث مثل الصمغ وهو حلو كالعسل يؤكل وربما سال لثاهُ على الثرى مثل الدبس وله ريح كريهة ج مغاثير . ومثله المِغفر والمُغفُر والمُغفور . ولا شبهة ان المغافير هي هذه اي التي تنضح المن

دُعسُوقة Coccinella punctata. Ladybird

خِنفسة صغيرة مرقطة تعرف في مصر بام العيد

فصيلة الدعاسيق . بنات العيد Coccinellidae

فصيلة من الخنافس صغار مرقطات بالوان مختلفة

قلت وقد ذكرت المعاجم هذه الحشرة باسم ابي العيد ولم تذكر الدعسوقة وقد اخذتها عن التاج قال : الدعسوقة بالضم دويبة والدعشوقة بالشين المعجمة دويبة ويقال للصبية والمرأة القصيرة يا دعشوقة تشبيهاً لها بتلك الدويبة او هي شبه الخنفساء وفي حياة الحيوان الدعسوقة بفتح الدال دويبة كالخنفساء وربما قيل للصبية والمرأة القصيرة تشبيهاً بها قاله في المحكم وفي مختصر العين

الزبيدي ايضاً الاّ أنهُ ضبطهُ بالقلم بفتح الدال في نسخة صحيحة . قلت وقولهم يا دعسوقة مثل قولنا في بيروت يا ابو بليقة والابو بليق طائر سمين يؤكل كله دفعة واحدة بلا تنظيف

Bot, Bott. نغفة . دودة تفقس عن ذباب يتطفل على الحيوان والانسان جمعها نغف

Botfly. Any of the Oestridae نبر

ذباب يتطفل على الغنم والابل والبقر والخيل فيتولد منهُ النَغَف . والنبر لا يَلسع وانما يبيض تحت الجلد ويخرج منهُ نغف أما في الجلد او في مجاري الانف او في المعدة ولما كان النغف لا يلسع قالوا عنهُ دويبة اذا دبت على البعير تورم جلده وانتفخ وربما يكون ذلك سبب هلاكه

Botfly.of the sheep. Oestris ovis نبر الغنم يتطفل على الغنم فيتولد النغف في انوفها

Botfly of the camel. Cephalomyia maculata نبر

يتولد نغفه تحت جلد البعير فيتورم

Botfly of the horse. Gastrophilus equi نبر الخيل يتولد نغفه في معدة الفرس

Botfly of the ox. Hypoderma bovi and H. lineata نبر البقر

يبيض تحت جلد البقر فيتورم جلدها

Bots, Botts. نَغَف

دود في انوف الابل والغنم أو تحت جلد البقر والابل أو في معدة الخيل واحدتهُ نَغَفَة

Gadfly. Syn. Horsefly or Breeze fly. Any of the Tabanidae نعرة

ذباب من فصيلة النُعَر وهو ذباب كبير لهُ خرطوم طويل يلسع بهِ الدواب ويؤلمها الماً شديداً . ونَعِر الحمار دخل النُعَرة في انفه فاضطرب فهو نَعِر والعامة في الشام تقول نَوعَر وتستعمل النَعْر للطعن الحاد كما ينعر النُعَرة . واسم النُعَرة في السودان السَرُوت وهي كثيرة في اعالي النيل . ولا يلسع الذكر من النعرة بل الانثى وقد يطلق الانكليز هذه اللفظة على ذباب آخر هو النِبْر بالعربية وقد تقدم ذكره

Tabanus dorsivitta سَرُوت في السودان

(See Botfly, Oestridae, Tabanidae)

Tabanidae. Gadflies فصيلة النعَر الواحدة نعَرة

ذباب كبير طويل الخرطوم يلسع لسعاً مؤلماً ويمتص دم الملسوع والانثى هي التي تلسع اما الذكر فيقتات بالازهار . وقد تقدم الكلام على النعر وهو انواع كثيرة

Tabanus. Gadfly. نُعَرة

ولا يخفى ان الحشرات كثيرة تعدُّ بالألوف ففي بعض الفصائل نحو عشرة آلاف نوع وقد ذكرت بعضها فقط



رباعيات الغزالى

للشاعر الفرنسى جان لاهور

الحب الصوفي — الشك

نقلها خليل هنداوي



الحب الصوفي

٣ — الشك

كنتُ مؤمناً من قبل ، والآن ليس لي الاّ الشك ،
أراني أقلَّ جنوحاً وارتياحاً وقوةً للعمل .
شجرة العلم هي شجرة الموت
وثمارها مرّة المذاق للمتذوّق.

هذا النور الحار في هذه السماء الزرقاء
يخيل اليَّ انهُ نظرة او قبلة الإله .
أين يثوي في الشتاء ؟
ومن أين ينبعث حنان الالــه الملتهب حبًّا حينما يمسنا في الصيف ؟

وأنت ايها المصور الالهــي الذي — على حواشي الابدية وفي اعماق الفناء—
يتمم صور السماوات والازهار والاكوان الجميلة
قل لي : هل اهملت الانسان من بين الاكوان ؟

لماذا يقهر الشك الروح دائماً ؟
وخير من فينا يحطمهُ القدر ؟
وما يشيده الحب يهدمهُ الموت .
اي صاحب خلقنا ، وأي عدو خرقنا ؟

آه ! ما هو هذا الجسد الذي ينخره الدود سريعاً ؟
والحب الذي يموّه علينا بهذا العطف القصير ؟
اذا قدرت يا الهــي على ابداع الوجود مرةً ثانية
فكيف تغادر حلمك فيه غير كامل ؟
كنهر يجمع الرمال ويفرقها .
يجمع الزمن ويفرق طوراً بعد طوز من يستدعيهم الحب ويؤلف بينهم
غير مركّب ابداً ما لا يفنى .

يخيَّل ان السماء تقارن السعداء في الحياة ؟
انا لم احلم ابداً بالبقاء طويلاً .
هل يرون الكهول يضحكون ويسمرون بهناء ؟
ان ماءهم القاتم لا يولد في نفسي شيئاً من الغيرة .

انك خلقتني يا الهي بدون رأيي !
وها أنا ذاهب لأهوي في الهوة المجهولة ،
من قبل ان ادرك اسرار وجودي الذي تذهلني عظمته أكثر من الفناء !

الحلم الذي تخاله حقيقة حين تنام .
واذ يتلاشى في ساعة يقظتك ترى ان روحك قد فقدت حقيقته
كذلك الاموات يشكّون في حياتهم الغابرة .

أرانا نمشي تائهين كالمجانين
ونحن يتمزق شملنا على الدروب .
اية غبطة تعروك من ذلك ؟
ولماذا الشر فيك يقضي علينا بالشك ؟

المعركة انتهت ، والموتى — هنالك — راقدون .
وقد همدت جميع اصوات البغض والشقاء .
وهذا السكون الذي يتلو كل عاصفة بشرية كم يعلن قوة هذا الفناء !

والسماء الخلية التي تلد وتميت !
ما عسى يشيها ان يتألم الناس او ان ينتهوا من ألمهم ؟
وفي هذه الهوة البعيد قرارها ، هوة الزمن والفضاء
ما قيمة شقاء ذرة عابرة ؟

وانت خاضع لهذا القليل الذي هو كيانك
إذا اتاك الموت فلا تصح ،
فانما الارض ضريح نُصب وسادة لنا ،
تعيننا على أن نحلم لحظة قبل الرحيل .

ان هذه اللبنة التي ربما كانت مجبولة
من رفات عمر ، أو فيريدون ، او الاسكندر الكبير
قد تنجع في تشييد قصور للاحياء ،
ستعيد الرياح تعفية آثارها ، ونثر ترابها .

اننا بأيدي القدر شبيهون بالدُّمى الصغيرة،
أو بكلمات واشارات باطلة .
تختلط ، وتتحرك وتدور مصعدة اصواتها
ثم يغمرها الصمت ، ثم يلفها الليل المدلهم !

ايتها العقدة السرية بين العدم والوجود !
آه ايها الحب لماذا دعوتني الى الظهور ؟
ايها الخيال الهائم بين الاخيلة المختلفة
والمعجب — مثلها — بهذا العالم المبهم ؟

إن سر الاله كامن في كل ذرّة . . .
والصوان يواري في اعماق كراه كالليل في سكونه
هذا السر الذي تخفيه عنا الشمس .

متى نغادر قصر الوجود المتوهج
غداً او بعد غد ، هل أدري ؟
ولكننا سنغدو رفاقاً مهملين في الرماد المجدب لكل الاولى دك
الموت منهم الحياه !

الارض والصخور والبحار
وهذه الكواكب الساطعة !
والنفس البشرية مع آلهتها واحلامها وعبقريتها وجنونها
كل هذا ينبغي له ان يتلاشى في صدر السماء الفسيح !

حلمي وحده هو الذي ينطق بالجمال والصفاء
هذه الشمس الذهبية الدموية التي تهبط في القرار .
ولكن عندما يقهر الوعي الانساني على أمره
قد تستطيع ان تشتعل بعده لامعة ، ولكن صفاءها يغدو باطلاً .

تغذية جوفه ، وافعام كيسه ، وسروره بتخليد القضاء والشقاء بلا نهاية .
ألا ما هو كل هذا الفناء ؟ وماذا يدعونهُ الحياة ؟
ليسرع الموت الذي ينقذنا !

رجلٌ عاقل أوحى بسفر تكوين الآلهة !
على أنهم لم يكونوا قبيل الليلة الاولى ، ولا قبل الاصباح الاول ،
ولا قبل الانسان الاول . . .
وانما الخوف او الحب عمرا السماوات بالآلهة .

اشقانا من قبل — في الايام الماضية . . .
السأم والخوف ، التقزز والبغض
وازدراء الدناءة البشرية .
لنخشَ الموت أقل مما نخشاه فهو وحده يشفي كل شيء .

سليمان الذي كان عرشهُ مرصعاً
يأمر ارواح الارض والماء !
ولكن السأم القاسي على العظماء
قد أكله في قمة مجده .

اتتهُ ساعة أعلن فيها ان كل شيء باطل .
حتى الحب الانساني والحب الالهي —
ووجد ان الخير للانسان ألاَّ يكون .
فبماذا يفكر العبد اذاً — وهو دُمية في يد مولاه ؟

مع الموت وادناسه
كل شيء يحيا ويتجدد — وهذا نظام دائم
الغرسة والزهرة والحيوان
والخير النادر والشر .

ان غريزتك البهيمية للحياة كثيرة فيك
وإذا كان — لا شيء — يوقظ من الآن قلقك
والا شيء — عندك — يغدو لا شيء ، ولا يثير فيك غيرة
فأقلع عن هذه الحياة غير آسف ولا خائف .

سيحل محلك من يولدون ،
ابناؤك الفتيان الاشداء .
فهل تحس انهم بازاحتهم اياك ظافرون جذلون بما صاروا اليه ؟
قال لي الموت « انطلق ! انك زحمت ابناءك » !

انني ابغض ، واكره . . . بل كنت زمناً سكران بالبغض .
وكنت استعين اذا وقعت عليَّ الفاحشة العامة بجائر يحطم هذه الهوام البشرية
والآن صرت اخجل من نذري المشئوم الذي نذرتهُ .

وعند ما تحس — في الحالة التي تصم فيها عن اصوات اصحابك الكتب —
تحس مرارة الحياة وشقاءها
وعند ما تئن ناحباً لان الحياة جرحتك
إحلمْ « بلانهاية الازمان » التي لا محيص عنها .

العوالم المغمورة في ابديتك ،
المتلاشية فيك ، ماذا سيحل بها ؟
اتحول الى حلم، او شعاعة برق ومضت ومَضَت ؟
لماذا هذا الاضطراب الباطل— لحظةً — بهذا الفضاء ؟

الشر الأدبي يا الهي قد اتخذ المادة عبدة
وأحبها فجعلها يوماً أُمّاً .
ولكنهُ الا يبقى هذا الذي الفت بهِ وشجعتهُ
مقيداً بقيود هذا الحب الغريب ؟

روحك ظهرت لي يا الهي في الشمس
حيناً رقيقة ، واكثر احيانها مشتعلة .
الا انها كيف تتألم وتخفق دامية
في بعض أُمسيات في الغروب القرمزي ؟

اهواؤك الالهية شبيهة بأهوائنا !
فلماذا تركض في رأسك هذه النجوم المجنونة ؟
اوليست نفسك التي لا تتناهى — يا الهي —
غير هذه النفس التي تضطرب قلقة فينا ؟

منذ ذلك اليوم الرائع ، يوم ولادتك يا آدم
يضيء ذات الشعاع في الانسان والشمس
وجودي والكون هما من كنه واحد
ونفسي واضطراباتها اجدها فيه .

ايها المسخ الذي تحركه نفس مظلمة
ايها المسخ الاخرس ، يا أُمي الطبيعة !
هل أنا ضميرك وفعلك ؟
ولماذا يخيّل اليّ انك لا تفكرين ولا تنطقين الا بي ولي ؟

ايتها الشابة دائماً ، ايتها الأم دائماً
ايتها الخليلة الدنسة والمقدسة حيناً

يا مضاعفة المشهد دائماً — ايتها الطبيعة !
اني اراك قاسية كما انت مشفقة وعذبة كما انت مرّة .

قد تفهمت نفسي خيراً من قبل حينما لاحظت نفسك ؟
وفي قلب ابنائك الفاحشين ما وجدت الاّ اياك :
ولا خطيئة فيهم الاّ كنتِ انتِ مصدرها

ايها الليل المعزي للانسان !
ايها الليل : يا حلم ابن السكرى وراحته !
ايها الليل الهادىء الذي تسكن الاعمال فيهِ .
ايتها البحيرة السوداء ، ويا ايها القبر الساكن الذي تظلم فيهِ عقولنا !

انك وانت حي — انما تحيا وتسمن بموت نفوس
وارتشاف دماء اجدادك الغابرين !
ضع ما تأخذ !
وادخل بلا عناء كنهر في بحر ، بحر الاكوان .

وفي هذا الكون المجنون الذي صنعهُ (مايا)(١)
تجد من قادهم الحب يتدحرجون خلال الاشياء
ويضطربون لها بدون سبب ، يعتبرونها حقائق منشودة

الستَ مروّعاً بالعدم المفعم ظلاماً ؟
حيث تتلاشى فكرتك وانت تحلم كثيراً
اصعد من العدم ، فالحب وحده ينقذك
ويأخذ بيدك ويهتف بك الى حياة جديدة !

(١) بحسب الخرافة الهندية

ألا بالرغم عن الدعر وعن الشقاء الذي يعضنا
لا تزال — هناك — لحظات سعيدة في هذه الرحلة الـكونية
فالهدوء في طرف العدوة الثانية
والسلام الاكبر تلقاه تحت مظلة الموت .

في بعض الأمسيات حيث تذهل الحواس
يبدو لك الوجود كأثر الـهي رائع .
ونفحات الريح لها حلاوة الاشعار
ولمعات السماء تشبه الالحان . . .

في فؤادي حفظت ذبول عينيك
الشبيهتين بالازهار التي تطلعها النفس علينا .
وفي فؤادي صنت شذا كيانك .
وعذوبتك تركتني رحيماً .

انك تدري العقدة والفصل الاخير . . .
حيث لا نظر ولاكلام ثم لا شيء . . .

تذوّق — لحظةً ثانية — هذا النور وارشفهُ
تأمل واحلم
اعمل دائماً . . .
واصنع الخير . . .

خليل هنداوي

« يتلوه : شفقة الاستسلام »

سَيْرُ الزَّمَانِ

الوحدة العربية

لحنا خباز .

روسيا

على مفترق الطرق



الوحدة العربية

لحنا خباز

نشأت في السنين الاخيرة دعاية جدّية الى الوحدة العربية . وجعل دعاتها ينادون بها في الاندية وفي الصحف ، مستبشرين او مبشرين بتآلف الاقطار العربية وتفاهمها وتحالفها ووحدتها . وقد تجاوز بعضهم هذا الحد الى التصريح « بالامبراطورية العربية » كأمر هو في حيز الامكان

وكان قد سبق فنفخ بالبوق هذي النغمة الجميلة المرحوم عبد الرحمن الكواكبي بكتابه الشهير « ام القرى » وذلك قبل نحو نصف قرن . وخفت ذلك الصوت بعدها ، الى ان تجدّد في آخر عهد الملك فيصل الاول ملك العراق . فارتفع صوت ذويه بالنداء بها على اثر عودته من لندن . وللناس في تعليل ذلك مذاهب متباينة . والذي اعلمهُ ان الدكتور قدري بك سفير العراق في باريس ، وفارس بك الخوري رئيس مجلس النواب السوري ، ورستم حيدر بك ، وغيرهم من امثالهم ، يرون ان تلك الوحدة لابد من تحققها ، وانها ثمرة طبيعية لتحرر الامم العربية من السلطة الاجنبية . فان كل امة حرة هي واحدة في حكومتها ونظامها ، كايطاليا والمانيا وبريطانيا وفرنسا واليابان وروسيا وغيرها من امم الدنيا . وكل عربي صميم يودّ من كل قلبه ، حلول اليوم السعيد ، الذي بهِ تكون الامة العربية متحدة متوحّدة منضوية تحت علمٍ واحد . واذكر اني كنت احادث الاستاذ عبد العزيز الثعالبي ، الزعيم التونسي الكبير ، في امر الوحدة العربية . فقلت له ان حصول ذلك يقتضي الزمن الطويل . فاجابني فوراً : « وما هو الزمان ؟ ليس الزمان الا انت وانا . فتى اتفقنا على امر من الامور فقد حان وقتهُ » : وجّه هذا القول نظري الى ما للقوة الروحية من النفوذ في مصير الجماهير . على انهُ لم يعمني عما يعترض الوحدة العربية من العقبات . فمهما تنشر في نفوسنا محبة الوحدة لا يمكنها ان تخفف صعوبة ما يعترض تحقيقها من العقبات . ولا اراني ارمي الى تثبيط عزائم بني امي باشارتي اليها . انما هي نظرة علمية لا بد من العناية بها إزاء ما نسمع ونرى كل يوم من اعراض يقظتنا المباركة ، ورغبتنا في ادراك شأو الامم الراقية في مشارق الارض ومغاربها . وسأعالج الآن العقبات على ان افرد فصلاً خاصًا للاساليب والوسائل التي يجب ان نتخذها لتذليل هذه العقبات في سبيل ذلك الهدف السامي

١ — الوضع الجغرافي وصعوبة المواصلات

نظرة الى خريطة العالم العربي ، فانها تريك حالاً ان تلك الاقطار غريبة الوضع ، لا مثيل

لها في بلاد غير العربية من الامم . بلاد تمتد من الاوقيانوس الاطلنطي غرباً الى جبال كردستان شرقاً . ومن جبال طورس شمالاً الى بحر الهند جنوباً . وفي وادي النيل تمتد الاقطار العربية الى قلب افريقية . واكثر هذه الاصقاع صحارٍ وبلاقع ، يعزُّ فيها الزرع والضرع ، بل هناك ما هو اكثر من ذلك نكداً ، وهو انها تعزُّ فيها المواصلات . وتندر الخطوط الحديدية ، الاَّ ما كان من منشآت الاجانب . يستثنى من ذلك الخطوط الحديدية في مصر . على ان تلك الخطوط محلية لا تصل قطراً بقطر آخر من الاقطار العربية الاَّ ما يصل مصر بفلسطين اذا صحَّ القول بانهُ خط واحد . ثم ليس في كل الاقطار العربية نهر يصلح لمخر السفن فيهِ الاَّ النيل والدجلة والفرات . على ان المواصلات فيها محدودة وسفر الركاب قليل . انَّ تقارب الاقطار ، وسهولة المواصلات فيها وتوافرها ، من اول الشروط لامكان وحدتها . قابل الاقطار العربية بأي بلد آخر ، كاليابان او المانيا او فرنسا ، تجد البون الشاسع بين هذه وتلك . والاقطار العربية ليست منتشرة في قارتين فقط ، بل انها في القارة الواحدة بعيدة المدى صعبة المراس . مثلاً ، الاقطار العربية في افريقية تمتد من الاسكندرية الى قلب السودان نحو ثلاثة آلاف كيلومتر . ولكن امتدادها من بور سعيد الى الدار البيضاء في غربي مراكش هو اطول كثيراً مما ذكر . كذلك الاقطار العربية في آسيا فانها غير متآلفة ، ولا متدانية ، ففيها الشام ، والعراق بينهما صحراء سورية ، ثم الجزيرة العربية بصحاريها ورمالها ، وجفاف بقاعها

ومن المعلوم ان الاقطار المتباعدة ، الصعبة المسالك ، القليلة المواصلات تنشيء في أقوامها تنافراً في المشارب وتبايناً في الاذواق . لان الانسان ابن الطبيعة . ولكل اقليم تأثير خاص في نفوس ساكنيهِ وفي أخلاقهم . فترسخ مزايا كل قطر في قومهِ على مدى الاجيال ، فتصير فيهم ملكات يتعذَّر نزعها او يتعسر . وهذا يحول دون تفاهمهم وتساندهم واتحادهم لجرِ المغانم ودفع المغارم ، فكيف يهون عليهم انشاء امبراطورية على ما بينهم من بعد الدار ، وتباين الآراء والميول ؟ فان الوحدة السياسية اذا لم تكن اختيارية ، واذا لم تكن ثمرة الثقافة الواحدة والصبغة الروحية الواحدة ، فاما أن تكون مستحيلة ، واما ان تكون ، اذا أمكنت ، بلاء على الناس ، كما كانت حال الاقطار الخاضعة للدولة العثمانية

لكل قطر من أقطار العربية مزاياه الخاصة ، وعاداتهُ ، وتقاليده ، وميولهُ . ولدى محاولة جمع هذي الاقطار لتأليف ، وحدة او حلفٍ بينها ، يبرز التباين بين مزاياها ، وتبدو صعوبة انضوائها تحت علم واحد . بل ان هنالك ثُغَراً أوسع ، وأدواء أشنع . حتى في أقسام القطر الواحد . مثلاً : بر الشام ، وهو اصغر الاقطار العربية ، وأقلها حظًّا . ففي هذا القطر من تباين الآراء ، وتنافر الاذواق ، ما ليس لهُ مثيل في قطر من أقطار الدنيا . فالتباين النفسي

بين الشمال والجنوب امر تحققناه ، في معاهد العلم التي ضمت أبناء البلاد ضمن جدرانها . وهنالك عناصر لا يهون امتزاجها بعضها ببعض . كالدروز والموارنة والنصيرية واعراب البادية . وعلاوة على ما ذكر هناك « اليهود » وهم ساميون نظيرنا ، ومع ذلك ، فان بينهم وبيننا ما صنع الحداد. وقد ضاعت حكمة اساطين السياسة في أوربا وأميركا أمام المشكلة اليهودية في فلسطين

وارجو القارىء العزيز أن لا يذهب عن فكره ان في القطر السوري من الادمغة والهمم الشماء ما يعزّ نظيره في أقطار هي أوسع مساحةً وأكثر سكاناً . تلك حقيقة لا مراء فيها ، تؤيدها شهادات أقطاب العالم المتمدن . ومع ذلك فأنت ترى ما فيها من الانشعاب وتنافر الاذواق ، وعدم التوافق . فاذا كان هذا هو الواقع في قطر واحد صغير ، فما ظنك في الاقطار المتباعدة كمصر وحضرموت او الجزائر والعراق ؟ فهذي أول عقبة في سبيل الوحدة العربية

٢ — الفقر

هو الداء العضال الذي لا ينفع فيه دواء ، ولا رقية ولا تعويذة ولا حيلة . الفقر اعضل الادواء البشرية واعصاها على نطس الاجتماع والسياسة . هذه الاقطار العربية ، على جودة اقاليمها — بعضها لا كلها — وموقعها الجغرافي الممتاز ، فانها صلة الوصل في العالم ، وبالرغم من ذكاء اقوامها وصفاء فطرتهم ، بالرغم من كل ذلك يحيق بها الفقر المدقع ، الفقر الاسود

وكيف يمكن ان تصان الوحدة والامة عاجزة عن الدفاع ؟ هذي هي بحارنا بحر العرب وخليج عمان ، والبحر الاحمر بخليجيه العقبة والسويس ، والبحر المتوسط ، وبوغاز جبل طارق ، وشرقي الاطلنطي . هذي هي البحار التي تغسل الشطوط العربية ، فكم بارجة فيها لنا وكم نسافة وكم طراد ؟ فلنفرض جدلاً ان الوحدة العربية ، التي نحبها ونحلم بها ، قد حصلت فاذا في طوقنا للدفاع عن الشطوط . وهب ان الحكومة حاولت ان تعقد قرضاً داخلياً فكم مليون جنيه يمكنها ان تقترض ، وماذا عساها ان تفعل بتلك المبالغ ؟ . اذكر ولا انسى يوم اعلن الدستور العثماني سنة ١٩٠٨ ، وهبّت الامة لتتولى الدفاع عن نفسها . فأذاعت جمعية الاتحاد والترقي ، وهي يوم ذاك حكومة ضمن حكومة ، اذاعت هذي الجمعية نداء في عرض البلاد بضرورة التبرع لانشاء اسطول عثماني يتولّى أمر الدفاع عن شطوط الممالك المحروسة . وتبارى رجالها في كل بلد في هذا المضمار . فكانوا يدعون الاعيان والاغنياء ، ويستنهضون هممهم لخدمة الوطن ، « قرّرنا انشاء اسطول عثماني ، فهاتوا أرونا غيرتكم » . فكم جمعت الممالك المحروسة بعد بذل الجهود الخارقة ؟ الذي اذكره انها جمعت نحو نصف مليون جنيه . فماذا عساها أن تنشىء بهذا المبلغ، والبارجة من الطراز الاول تكلف ثمانية ملايين جنيه؟ وكم سفينة حربية يلزمنا لحماية شطوط الامبراطورية العربية التي نحلم بها ؟ . وكم مليون يلزمنا لانشاء جميع تلك البوارج

والطرادات وغيرها من السفن الحربية، لا للغزو، بل للدفاع ؟

وإذا عجزنا عن ذلك فالى أي مستند نستند في انشاء امبراطورية اوسع من كل دولة في الارض واطولها شطوطاً ؟ وما قلتهُ في الاسطول يقال في الجيش البري. فيلزمهُ من الاموال مالا يستهان بهِ. واليك شاهداً محسوساً « مصر » اليوم. فانها بناء على المعاهدة الحديثة بينها وبين انكلترا صار يحق لها، بل يجب عليها، زيادة الجيش للدفاع عن بيضة الملك. واجتمع الوزراء مراراً وتبادلوا الافكار، وسمعوا اقوال الخبراء، وانتهوا الى نتيجة مضبوطة وهي: أن انشاء جيش مؤلف من عشرة آلاف يكلف الدولة عشرين مليون جنيه او اكثر. وان مصر، مع ما يستدعي موقفها الحاضر لا تكاد تقدر ان تجند في العام القادم ثلاثة آلاف. فكم يلزمها لتعبئة نصف مليون ؟. ولو أنها تولت الدفاع وحدها لما كفاها نصف مليون. ويلزمنا للدفاع عن الامبراطورية العربية اكثر من ذلك كثيراً، فأين الاموال ؟ ان فقر العالم العربي يغلّ يده عن انشاء الوحدة لانهُ يرى نفسهُ عاجزاً عن الدفاع. اللهمَّ الاَّ أن تكون وحدة زائفة خالية من مؤهلات الاعتبار والاحترام فتغدو العوبة في ايدي الاجانب

٣ — ضعف الزراعة والصناعة

الزراعة اول حجر في بناء الاجتماع البشري، وهي استغلال الطبيعة: ومنبع الثروة بالمعنى الصحيح. والصناعة هي الخطوة الثانية، وهي ثمرة تصرُّف العقل بالمادة. والارتقاء الصناعي لصيق العلم وظاهرة المدنية. وقد جعل افلاطون الزراعة والصناعة، في كتاب الجمهورية، أس العمران، وضامن الكيان. وعلى تبادل المنافع بين الافراد والجماهير تدور رحى المدنية والسياسة والارتقاء. وارتقاء الزراعة والصناعة في بلدٍ أو امّة عنوان الارتقاء. ولا يمكن ان ترْقى أمة وزراعتها منحطة وصناعتها متقهقرة. فما هي أحوال هذين الركنين — الزراعة والصناعة — في العالم العربي ؟. ليس ثمَّة من يجهل ان الاقطار العربية متأخرة في الامرين. وذلك أهم اسباب الفقر في بني قحطان، لان الصناعة والزراعة مورد الثروة الاوّل

أجل ان القطر المصري، وهو أسبق الاقطار العربية مدنيًّا، فيهِ نهضة زراعية وصناعية أيضاً. وقد خطا في مساعي الري خطوة كبيرة الى الامام. وقد صحب ذلك نبوغ مهندسين وطنيين كبار، عدا الخبراء والاختصاصيين الاجانب المستخدمين في مصلحة الري بوزارة الاشغال. فمصر بهذا الاعتبار جادَّة في أثر الامم الحية. وأرى ان العراق يسير في اثر مصر ويستند في نهضتهِ اليها نوعاً. وذلك ظاهرة حياة في مصر والعراق، ومقدمة ارتقاء في العالم العربي. اني اقدر ذلك قدرهُ كمؤرخ نزيه للنهضة العربية. على ان نزاهتي لا تأذن لي بالتعامي فالمغالاة. فلست أجهل ان نهضة مصر والشام والعراق محلية وابتدائية. فلم يبلغ قطر من هذي الاقطار

مصاف الامم الراقية في احد ركني الحضارة . فلا نزال ، نحن العرب ، في اول اشواط الارتقاء وينقصنا من الصناعات الشيء الكثير ، كصانع بناء السفن ، والبوارج ، والقاطرات ، والترام ، والسيارات والطيارات ، والغواصات ، والاسلحة ، والكوتشوك ، والآلات المنوعة ، كآلات النسيج وآلات عمل الجوارب ، وآلات التطريز والزركشة ، كذلك معامل صنع الخردوات ، كالمرايا والازرار والابر والدبابيس واقلام الرصاص ، والورق والحبر وأنواع البويا والاصباغ وغير ذلك من الصناعات التي لا بدَّ منها للاستقلال . هذا ما أقولهُ في أرقى الاقطار العربية ، فماذا ترى في الجزيرة العربية والسودان وبعض اقطار المغرب ؟ هل لها صناعة وزراعة تؤذنان بادماجها في عداد الامم الراقية ؟ لا أرى مطّلعاً عاقلاً يجهل ان الجواب ، مع الاسف ، سلبي . كنت في اليابان أدهش لرؤيتي مبلغ القوم الزراعي ، وقد لمست في ذلك حقيقة النهضة اليابانية . وكذلك في صناعتها . فلما أشرفت على أوساكا سنة ١٩١٨ وفيها يومذاك سبعة آلاف معمل ، ورأيت مداخن المعامل في ظاهر المدينة ، ودخانها يكاد يحجب نور الشمس عنها ، عندها فهمت معنى النهضة الحديثة ، وتمنيت لبلدي العربي نهضة نظيرها . وقد تجلى هذا الاقتناع للخاص والعام في السنين الاخيرة لما غمرت المنتوجات اليابانية أسواق العالم . ورأى ابناء البين والضاد المنسوجات الحريرية اليابانية ، والحدايد اليابانية ، هذا عدا الخردوات والبهارج اليابانية ، وعدا الراديو وغيره من مصنوعات اليابان . وما أقولهُ في اليابان اقول اكثر منهُ في الولايات المتحدة الاميركية ، وفي فرنسا وانكلترا والمانيا وايطاليا . ولا أجهل ، ولا أنكر انَّا مسبوقون في ذلك ، ومسبوقون كثيراً

وربَّ قائلٍ يعارضني : ما علاقة تقدم الزراعة والصناعة بالوحدة العربية ؟ : اجيب هنالك كل العلاقة . فالتقدُّم الزراعي والصناعي شرط لازم لامكان الوحدة . فقد يكون ارتقاء صناعي وزراعي دون حصول الوحدة . ولكن الوحدة لا تكون بدونهما . لان الوحدة ظاهرة حياة شعبية . والارتقاء الزراعي والصناعي اول ظاهرات الحياة . فلا يمكن حصول الوقت خلوًّا منها . ثم ان الزراعة والصناعة ادوات الوحدة تستعين بها على غلبة الصعوبات وتسهيل الامر . ولا يمكن امة في امم الارض ان تدرك وحدتها دون تقدُّم حقيقي زراعةً وصناعةً . بل انها اذا كانت موحدة وتأخرت في الزراعة والصناعة ضعفت اواصر وحدتها وانهار ركن اجتماعها ، فتنشعب وتتفرق ايدي سبا ، شاهدك المحسوس في ذلك الصين . فقد كانت الصين امة واحدة ولكن تأخرها صناعةً وزراعة انتهى بتفكك اوصالها ، وتمزيق وحدتها . وليس غزو اليابان اياها علة ذلك الانشعاب بل نتيجته ، كما ان غزو الترك الاقطار العربية ، وقضاء الاسبانيين على ممالك الاندلس العربية ، لم يكن علة الانشعاب في الجسم العربي بل نتيجته . فالانشعاب اولاً والاستعباد ثانياً . واري — وكلامي هنا سابق وقته — ان كل جهدٍ في تحسين الزراعة والصناعة

هو خطوة الى الامام في بناء الوحدة العربية

يتبع ذلك ، او ينشأ عنهُ « تبادل المنافع » بين الاقطار العربية . وتبادل المنافع هو الرابط الاجتماعي العظيم . وتتم الوحدة العربية والكونية حين يكمل نظام تبادل المنتوجات على الوجه الاتمّ . وليس الخلل والشقاء في مسالك الامم والدول ، في عصرنا وفي كل عصر، الاّ ظاهرة ، او نتيجة عدم الانصاف في تبادل المنافع . فتبادل المنتجات ، في صورته الكاملة هو مجلى حياة ومجد اشراق تلك الحياة . ترى ذلك في الجسم العضوي كالانسان مثلاً فان نظامه الفسيولوجي صورة مصغرة لبناء الدولة والوحدة الشعبية فما دام الجسم سليماً من الآفات ، والحياة آمنة في عرشها والصحة مالكة زمام الاعضاء ، كان التعاون وتبادل الانتاج بين الاعضاء ، على اتمه . فيقوم كل من القلب والرئتين والمعدة والكبد والكليتين والدماغ بوظيفته الخاصة ويمد الاعضاء الأخرى بما يلزمها . فاذا اعتلّت الاعضاء اختلّت علاقاتها ، وانصرمت المواصلات ، وتعطل التبادل ، فبدت على الجسم اعراض الموت . هذا هو حال امم اوربا واسيا واميركا ، وهو حال المجموعات الفلكية ، وحال الوجود في ما اعتقد . فما هي المنتجات التي تتبادلها الاقطار العربية ؟ ارجع الى لائحة الصادر والوارد في مصر وسورية والعراق واليمن وغيرها من سائر الاقطار العربية . ويدخل في ذلك الاصطياف والمشتى والسياحة ، وكل انواع التواصل والتعاون الاجتماعي

وخلاصة ما أقول في هذا الفرع هو ان تأخر الزراعة والصناعة والانتاج ، وقلة التبادل في المنتوجات ، عقبة في سبيل الوحدة العربية المرغوبة

٤ — اختلاف المقاييس

يدخل هذا البحث تحت التباين في الحالة النفسية . لكني اخصه بالذكر هنا لما لهُ من شأن كلنا نعلم ما حدث في الحجاز بين المصريين والوهابيين في امر المحمل المصري وكيف اشتبك الفريقان في القتال . ولولا الملك عبد العزيز انقذ الموقف بحكمته لساءت العاقبة . على أنهُ مع ما ابدى الملك عبد العزيز من الحيطة والهمة ، ومع انقاذه الموقف بلباقة وشمم يستحق عليهما قدر الناس اياه قدره ، مع ذلك تصرّمت العلاقات بين القطرين الشقيقين نحو عشر سنين . ولماذا كان ذلك ؟ الفريقان عرب . والفريقان مسلمون . ولمصر في الحجاز اياد بيض . فانها تنفق هنالك كل سنة عشرات الالوف من الجنيهات . وليس ثمة قطر عربي أوفر سخاء في الحجاز من مصر . فلو أن هنالك امة محببة الى قلب آل نجد ، فتلك الامة هي الامة المصرية . فلماذا كان التجافي والتنابذ بينهم وبينها ؟

الامر واضح . انهُ « اختلاف المقاييس » . مصر تحب الموسيقى وتحسبها ظاهرة حياة نفسية عالية . والوهابيون ينكرون ذلك ويحسبونهُ ظاهرة خلاعة وجناية على الروح . المصري يزامل زوجه الى السينما ، وقد يصحب صغاره أيضاً ، والوهابي يرفض ذلك ويقاومه . المصري يرسل بناته

الى المدارس الوطنية والاجنبية للتخصص في العلوم والفنون . والوهابي يحسب ذلك عاراً . المصري يحلق عارضيه والوهابي يرخي لحيته . المصري يدخن وذلك ينكر التدخين . أقول ان اختلاف المقاييس هو كل السبب في نزاع الاخوين وتجافيهما . وهو اس التنابذ بين الشرق والغرب ، وبين الشيوعيين والدكتاتوريين ، وبين النفس والجسد ، وبين الارض والسماء . فكيف تتسنى الوحدة مع اختلاف المقاييس والقيم؟

هنا يدخل توحيد الثقافة ، والكلام فيها ليس من اختصاص هذي المقالة ، فاكتفي بالاشارة ان تفاوت الاقوام في المستوى الاجتماعي والعمراني والمدني والعلمي يقيم في سبيل وحدتها اصعب العقبات . فاذا كان احد الفريقين يتكلم الانكليزية والفريق الآخر الروسية فلا تفاهم بينهما . واذا راما التفاهم لزمهما الترجمان او القاموس . هذا هو موقف امم هي على درجات متفاوتة في سلم الارتقاء . فلكي يمكننا توحيد الخطة يجب اما ان اصعد اليك او انك تنزل اليّ . ولما كان منهج الطبع الارتقاء ، كان نزولك اليّ غير مشروع ، فوجب ان ارقى اليك . ومتى كنا في مستوى واحد فحينذاك ، ليس الا ، يمكننا ان نسير معاً جنباً الى جنب وكتفاً الى كتف

ان ما قلته في امم الاقطار العربية يصح في العائلات ، وفي العلاقات الزوجية . فما دامت المقاييس في عين الزوجين متباينة لا يمكنهما ان يتمتعا بسعادة الاتحاد . فالزوجان السعيدان هما اللذان عندهما مقاييس واحدة . فما يقدسه الزوج تقدسه الزوجة ، وهكذا . فاذا تباينت مقاييسهما حل بهما الشقاء

٥ — الميل الى الانشعاب

عرف هذا الميل في اليونانيين القدماء . فتعذر عليهم الانضمام تحت علم واحد . فكانوا ممالك عديدة ؛ حتى في بعضها كانت كل مدينة مملكة . لذلك لما تكلم افلاطون في الجمهورية مثل عليها بالمدينة . لان المدينة في عرف اولئك المنشئين هي الدولة . أما في تمدن اوربا الحديث فليس الامر كذلك ، بل نرى فيها كل امة تحت علم واحد ، فجميع الفرنسيين يخضعون لحكومة باريس ، وجميع الانكليز لحكومة لندن . وهكذا الالمان والروس والايطاليون وغيرهم . أما في العالم العربي فليس كذلك ، فلنا دول مستقلة متمايزة في امة واحدة . هذي اليمن . والى جانبها حضرموت ، ثم الحجاز ونجد ، تليها العراق فسورية فمصر . يأتي بعد كل ذلك المغرب باقسامه تونس والجزائر ومراكش ، ولا ننسى طرابلس والسودان . وقد بلغ من بعضهم الاعتصام بذلك حداً حسب عنده السعي في الوحدة افتئاتاً وجناية !! والسبب في ذلك ميل الجنس العربي — كما كان في الجنس الاغريقي — الى الانشعاب

والانشعاب اسهل على الحياة الفطرية من الاتحاد . ففي الحياة المادية التقدم من الواحد الى المتعدد . فالنبت اصله واحد ثم انشعب . والعائلة اصلها واحد ثم تعددت . هذا هو منهج الفطرة .

اما في الحياة الروحية فالتقدم هو من المتعدد الى الواحد . الاصل في بني حواء فرادى . فاذا ارتقوا روحيًّا تقاربت افرادهم وتواصلت فتبادلت الحياة . نرى ذلك كلهُ في الجسم العضوي فاذا برحتهُ الحياة ، وتحكمت فيهِ نواميس المادة تبعثر وتشعبت اجزاؤه حتى صار ترابًا . اما اذا سادتهُ الحياة فان اجزاءه تترابط وتتساند ، فالاجناس التي ما زالت على الفطرة يعز عليها انشاء الوحدة ، وعليهِ تنقسم الامم في الطور الاول الى عشائر متباينة متمايزة . وفي جزر فيلبين لكل جزيرة لغة خاصة ، وهكذا في العشائر الافريقية ، فتعداد اللغات في امم اوربا هو كالحروب من موروثات القِدم ، والارتقاء آذن بتوحيد اللغة لا بتنوعها . فالامم العربية أقرب الى الفطرة منها الى الارتقاء . ومع ان بعض اقطارها لامس المدنية وصعد في سلم الارتقاء ، ما زالت سنة الفطرة تسود احكامه . فمها يكبر الرضيع لا يزال يصبو الى النهد . وترى في اكبر الشيوخ الميل الى اوصاف الطفولة كالمرح والبكاء والشهوة والنزاع . فانشاء الوحدة العربية عمل تقدم ايجابي ينافيهِ الميل العربي الى الانشعاب . فان البدوي لا يعرف الخضوع للنظام في دائرة واسعة. ولا يحترم انكار النفس في سبيل حقوق الغير . لذا كان الغزو عنده مشروعاً . ونحن الحضر اخوانه شركاؤه في تراث السلف « الصالح » . كنت أقرأ كتاب تاريخ اليمن للعلامة الشيخ عبد الواسع ابن يحيى الواسعي اليماني ، راغبًا في الوقوف على شيء من شؤون اخواننا في قلب الجزيرة يصح الاستشهاد بهِ في موضوعي والاستناد اليهِ .فاستوقف نظري تعداد العشائر في تهامة الى حدّ تضيع عنده الحافظة . وقد شغل ذكر العشائر المتمايزة اكثر من ٤ صفحات ، ولكل عشيرة مزاياها الخاصة ومقاييسها . يقيم ذلك صعوبة كأداء في سبيل الوحدة العربية كنظام سياسي

كذلك كانت إيطاليا في بدء تاريخ رومة . وكانت عشائرها وحدات متمايزة يحارب بعضها بعضاً ، كما تفعل عشائر الاعراب اليوم . وبعد سقوط الامبراطورية الغربية في عهد شارلمان عادت ايطاليا الى الانشعاب . وانقسمت الى اقاليم عديدة . وفي بعضها الحكم لمدينة واحدة كالبندقية وفلورنسا وجنوى ونابلي وهكذا . وظل الانشعاب الى النصف الثاني من القرن التاسع عشر حيث نشأت الوحدة الايطالية بمساعي كافور وغاريبلدي ومازيني وغيرهم . وقد نقم بعضهم ، وأنا معهم، على دول الاستعمار لانها قسمت البلاد الى وحدات صغيرة يسهل ازدرادها . فاوجدوا ما يدعونهُ شرق الاردن. فلسطين. لبنان. سورية. سنجق الاسكندرونة . وهكذا . على اني لا انكر انهُ لولا الميل العربي الى الانشعاب لاستحال حصول ذلك. وعندي على ذلك شواهد لا محل لاثباتها هنا لضيق المقام

هذي بعض عقبات ذكرتها مختصراً ، وقد تجنبت فيها ايراد الشواهد : وعندي ان هذا البسط لا مندحة عنهُ لوصف الخطة القويمة التي نختطها في سبيل التغلب على هذه العقبات ، والاتجاه الى تحقيق الوحدة . وهو موضوع مقالة على حدة ، ان شاء الله

روسيـــــا

على مفترق الطرق

مضت سنة ونصف سنة وروسيا السوفيتية تعاني ازمة داخلية شديدة ، بدا بعض مظهرها في محاكمة اقطاب الثورة البولشفية وفريق من اكبر قواد الجيش واعدامهم ، وما لازم تلك المحاكمة، من اعتراف المحاكمين اعترافاً ليس فيه اثرٌ من الرجولة بل كل اثرٍ من الضعف والتخاذل، وما كشف عنهُ التحقيق من تهم بالخيانة والتدمير موجهة الى الرؤساء في اعلى دوائر الحكومة، وما تبعها من فقد روسيا جانباً كبيراً من الثقة التي احرزتها في العهد الاخير في اوربا واميركا ولا سيما بعد اعتراف حكومة الولايات المتحدة الاميركية بها وانتظامها في جامعة الامم في خريف سنة ١٩٣٤

فهل ستالين دكتاتور روسيا مصاب بجنون الاضطهاد ؟ ألمْ تفض الحوادث الاخيرة الى زعزعة الاركان التي يقوم عليها النظام السوفيتي ؟ وهل من المحتمل ان يبقى ظل حكمه الدكتاتوري مبسوطاً على روسيا ؟

لنصرف النظر عن السؤال الاول . فليس في ما يعرف عن اعمال ستالين وحالته ما يكفي لتناول ذهنه وحالته النفسية بالتحليل السيكولوجي والطبي المجدي . ثم ان التماس العلل النفسية للتطوّرات السياسية المعقدة ، قد يضلُّ بالباحث عن طريق الصواب حتى في البلدان التي تحكم حكماً دكتاتوريًّا

الاَّ ان السؤال الثاني ، يرمي الى تبيُّن اثر الحوادث الاخيرة في مكانة ستالين وهل عزّزتها او زعزعت من اركانها ؟ ويقول باحث متنكر في مجلة الكونتمبوررِي وعنهُ تنقل — ان الردّ على هذا السؤال لا يمكن ان يكون ايجاباً صرفاً ولا سلباً بحتاً . ذلك انهُ اذا نظرنا الى ستالين على انهُ زعيم الشيوعية ، وقائد للحركة التي ترمي الى احداث الثورة العالمية ، فلا ريب في انهُ قد فقد جانباً كبيراً من سلطته وقوته وثقته بنفسه . وهذا يفسّر ما يشاهد في الاحزاب الشيوعية في مختلف البلدان من انقسام ونزاع ، ولذلك غدت موسكو بعدما كانت الى عهد قريب محجة جميع الشيوعيين المستقيمي الرأي في العالم ، وهي غير ما كانت عليه . ولذلك يرى السائر في هايد بارك بلندن خطيبين شيوعيين يخطبان ، احدهما في جوار الآخر ، اولهما تحت علم ستالين والآخر تحت علم تروتسكي واتباعه . ولذلك يصح القول بان التهمة التي يوجّهها تروتسكي في مقالاته وكتبه الى ستالين ، بانهُ خان الثورة الشيوعية العالمية ، لها ما تستند اليه .

والواقع ان ستالين اليوم غير ما كان عليه سنة ١٩٢٣ او في السنوات التي تلت وفاة لنين . فبعد ما كان الزعيم الثوري للاشتراكية الدولية اصبح الحامي الحاكم بامره لمصالح روسيا القومية

فاذا نظرنا اليهِ على انهُ الرائد للمرحلة التالية من الثورة البولشفية التي يصح ان نسميها مرحلة البولشفية الوطنية ، وجدنا انهُ عزز مقامهُ وأيد سلطتهُ نتيجة للحوادث الجسام التي وقعت في روسيا في العام الماضي . ولعلهُ غير مدرك تماماً هذا التحول الداخلي في نفسهِ . بل لعلهُ لايزال يعتقد انهُ الامين على ميراث لنين . ولكن الواقع ان ستالين زعيم الثورة العالمية قد انقلب رجلاً آخر هو زعيم البعث القومي في روسيا . فموقفهُ الآن من الوجهة النظرية ، هو الموقف الذي يستخلصهُ الباحث من حديثهِ مع ولز حيث وصف بأنهُ رجل يواجه حقائق الحال وقد اضطرتهُ نزعتهُ هذه الى تعديل خطتهِ وفقاً لتحول الحالة الدولية . اما هل يعود بعد ذلك الى موقفهِ الاول موقف زعيم الثورة العالمية ، فمن الصعب الحكم فيهِ وهو غير محتمل على الارجح

ان هذا التحول في نفسية ستالين ، وفي تطور روسيا السياسي ، ليسا من نتائج المصادفة . بل هما مظهران من مظاهر الخطر الخارجي الذي يحف بروسيا السوفيتية . فقيام الهر هتلر في المانيا ، وأملهُ المعقود على توسع المانيا في شرق اوربا ، قد أثرا في اتجاه الفكر الروسي وسياسة روسيا الداخلية . ثم ان مطامع اليابان في الشرق الاقصى أيدت هذا الاتجاه . وقد كان للحروب الخارجية ، في تاريخ روسيا الحديث ، تأثير كبير في نظامها الداخلي . لذلك قال لنين ان الشيوعيين لا يستطيعون ان يبدلوا في جغرافية روسيا . فانشاء روسيا الحديثة على يدي بطرس الاكبر ، كان نتيجة النزاع الطويل مع نده السويدي . والاصلاحات الثورية التي أدخلها على البلاد ، لم تكن وفقاً لبرامج أعدهُ للاصلاح ، بل كانت أعمالاً قضت بها الحاجة لمواصلة الحرب . ثم ان حرب القريم أفضت الى الغاء الرق الزراعي والحرب الروسية اليابانية الى وضع الدستور ، والحرب العالمية حولت روسيا القيصرية الزراعية المتأخرة في شؤون الصناعة الى الدولة الشيوعية الاولى في ظل دكتاتورية العمال

أما اليوم فان مخاطر الحرب التي تهدد روسيا من الداخل والخارج تؤثر في نشوئها الداخلي قبل وقوعها ، لان الدولة ترى حتماً عليها ان تبذل كل جهد للتأهب لها ولو كان في كل عمل تعملهُ في هذا السبيل ، ما يناقض برنامج الحزب الشيوعي وخطتهُ

ان نظام الدولة السوفيتية نفسهُ قد بدأ يتغير وفقاً لمقتضيات الحالة الدولية . حتى تحقيق برنامج السنوات الخمس الاول والثاني ، يجيء في المقام الثاني بالقياس الى الاصلاح الدستوري في البلاد . لقد عدل الدستور الاميركي الذي وضع من قرن ونصف قرن احدى وعشرين مرة . ولكن الدستور السوفيتي الذي أنشىء من اربع عشرة سنة قد نقح كل سنة تقريباً . وللمرة الاولى في

السنوات الاربع عشرة الماضية، فسح المجال في الاصلاح الدستوري الذي تمّ في السنة الماضية، لمثل الاحرار والدمقراطيين . وكان ذلك على اثر الخطبة التي خطبها ستالين في ٤ مايو سنة ١٩٣٥ عندما بيّن قيمة « الشخصية » التي طالما أنكرتها روسيا الشيوعية

ان الحكومة الروسية القائمة ترى انها في اشدّ الحاجة الى توسيع الاساس الاجتماعي الذي تقوم عليه سلطتها رغبةً منها في تعزيز قدرة البلاد على الدفاع . واذن لا بدّ من مسالمة العناصر التي كانت تعاديها قبلاً . ولذلك نصّ الدستور الجديد على أن جميع الروسيين ما عدا المصابين في عقولهم سيمنحون حق الانتخاب عندما يبلغون السنة الثامنة عشرة من العمر . فلا ينظر بعد الآن الى نشأة الرجل او المرأة في بيت من بيوت الاشراف او الارستقراطيين . لان روسيا الجديدة ستضمّ من الوجهة النظرية على الاقل ، « جميع المرابين وجواسيس البوليس» اسوةً بالعمال . ثم إن الخدمة العسكرية والانتظام في الجامعات لن يكونا ميزة مقتصرة على العمال . بل على الضدّ من ذلك اصبح اقطاب الحكومة يصرّحون بان الخدمة العسكرية ، عمل شريف يجب على كل روسي . ومن مظاهر هذا التحول ان فرسان القوزاق الذين كانوا من ألدّ خصوم البولشفية ، قد أعيدت اليهم امتيازاتهم وملابسهم الخاصة . ذلك ان الحكومة تريد أن تضم تحت لوائها جميع القوى في سبيل الدفاع عن « الوطن الروسي » !

إلاَّ أن ما تقدم لا يكفي لانهُ يتصل بمظهر الدولة فقط . ولكن العقول والنفوس يجب ان يغير ما بها ، وتعدّ للنهوض بالاعباء التي تواجهها . واذا بحث باحث في الصحافة السوفيتية الآن حمله على الدهش ما راهُ فيها من تبدل في اللغة وأساليب التفكير . فهي تستخرج الآن من دفائن الماضي الفاظاً كانت الثورة البولشفية قد حظرتها . هو ذا كلمة « الوطن » يجب ان تظهر في كل مقال افتتاحي . « والوطنية » صفة تمجد بكل اسلوب من اساليب التمجيد . قالت الاسفستيا في ٢٦ سبتمبر سنة ١٩٣٧ :— «الوطن ! ما اعظم ما تنطوي عليه هذه اللفظة البسيطة من المعاني تثيرها في نفس كل روسي . أنها تعبر عن أجلّ وأعلى وأنبل شعورٍ يجول في نفس الوطني السوفيتي . محبة المرءِ لبلادهِ ، والتباهي بقومهِ ، والشعور بقوتهِ التي لا تغلب ، والاستعداد للخدمة ، والتضحية بالحياة إذا اقتضى الامر ذلك »

لقد قلَّ بل ندر ما يذكر الآن في الصحف عن العمال الروس وأنهم روّاد الثورة العالمية . وحلَّ محلهُ القول في عظمة الشعب الروسي ومجد مآثرهِ القومية . فالصحافة الروسية ترسخ في اذهان الشعب الروسي المباهاة بتاريخه وادبهِ وفنهِ وبعظماء ابنائهِ . وكتابها يعمدون الى التنقيب في التاريخ الروسي فيستخرجون منهُ صفحات المجد وينشرونها على الناس ...

حتى الادب الروسي غدا يستعمل وسيلة لنشر الدعوة في سبيل جمع القوى والتأهب

للدفاع . والمؤلفون الروس يُحثون على معالجة مشكلات الدفاع عن الوطن وتعزيز حبه وروح التضحية في سبيله في نفوس القراء . وقد بُعثت الاناشيد الوطنية الحماسية التي كانت شائعة في العهد القديم ، لانها مرتبطة بكثير من الاساطير التي تمجد ابطال الدفاع عن الوطن في مختلف عصور التاريخ . بل ان الدعاية الوطنية في روسيا قد اخذت تتسم بسمة الغلوّ في الوطنية . فالشاعر الروسي لوجوفسكي ، هدّد من عهد قريب بطرده من جماعة المؤلفين الروس لانهُ حاول ان يخرج طبعة جديدة لاشعاره القديمة التي يصف فيها كآبة القرية الروسية وجفاء الطبيعة فيها

ثم هناك تعليم التاريخ . وفي هذا الميدان نجد تبدلاً ظاهراً . فقد قال احد الرحالين الانكليز ، انهُ عند ما يزور البلدان الاجنبية يعنى عناية خاصة بمطالعة كتب التاريخ التي تدرّس في المدارس لانهُ يجد فيها أبلغ دليل على اتجاه الفكر في تلك الامة

ولا يخفى ان أقطاب الثورة البولشفية في روسيا عمدوا بعد الثورة الى تغيير كتب التاريخ التي تدرس في المدارس ، فألقوا ستاراً كثيفاً على مكانة « الشخصية » في التاريخ ، مع ان إجلال شخصية لنين حينئذٍ كان قد بلغ مبلغ العبادة . وجعلوا يفسّرون كل حادث تاريخي ، بأنهُ مظهر للنزاع بين الطبقات . ولكن هذه النزعة قد أخذت تتبدل . وغدت كتب بوكروفسكي القائمة على تفسير التاريخ تفسيراً اقتصاديًّا بحسب مذهب ماركس — وهي كتب أثنى عليها لنين، وطبعت منها ملايين النسخ ووزعت في المدارس — غدت هذه الكتب في نظر الحكومة السوفيتية الآن مناقضة للاسلوب التاريخي السليم . كانت كتب التاريخ تعمد الى تمجيد عهد الوثنية الروسية قبل دخول المسيحية ، ولكن الكتب التي تؤلف وتدرس الآن تشير الى دخول المسيحية البلاد كعامل من عوامل الارتقاء . وبطرس الاكبر الذي كان يوصف بأنهُ طاغية مستبد بالجماهير الروسية ، غدا « قيصراً حكيماً محبًّا للارتقاء » . والامثلة على هذا التحوُّل في كتابة التاريخ وتدريسهِ كثيرة فاكتفينا منها بما تقدم

هذا السعي الى افراغ حياة الشعب الروسي العقلية ، في قالب النزعة الوطنية القومية ، يصحبهُ سعي آخر الى العودة بالحياة الاجتماعية الى حالة الاجتماع « البورجوازيّ » . فالنزعة الحرّة بادية الأثر في الدستور الجديد ، حيث يعترف بحقوق الانسان على مثال ما بسطت في الدستورين الاميركي والفرنسي

ثم هناك تحوُّل عظيم الشأن في النظر الى حياة الاسرة ، يرجى منهُ أن تحوّل روسيا من بلاد « الحب الحرّ » الى بلاد الاسرة المتماسكة . وقد صدرت قوانين متعدّدة غرضها مكافحة الموقف المجرّد عن الشعور بالمسؤولية نحو الاسرة وواجباتها

فالطلاق الذي كان سهلاً جدًّا وضعت في سبيله القيود . وبعدما كان الراغب فيه الى عهد

قريب ، يكتفي بكتابة ورقة يقرر فيها هذه الرغبة ، فيمنح الطلاق ، اضحى كل طلاق جديد يقتضي من طالبه للحصول عليه، دفع مبلغ اضافي من المال للدولة ، يزيد بزيادة عدد طلبات الطلاق. وكان الاجهاض عملاً شرعياً خلال ست عشرسنة، اما الآن فهو محرَّم لانهُ ضار على ما يقولون، ومن يحاولهُ او يقم به يعاقبْ عقاباً شديداً . فالامومة اصبحت في هذه النظرة الاجتماعية الجديدة « واجباً عظيماً » والوالدات اللواتي يلدنَ ستة اولاد او اكثر تمنحهن الدولة اعانة خاصة على مثال ما تفعل الحكومات الفاشستية

وما تبيّناه من اثر الاتجاه الجديد في الانظمة السياسية والاجتماعية نجده كذلك في ميدان التعليم والادب . فقد استردّ المعلمون سلطتهم على الطلاب ، وعادت الجامعات توزع الالقاب والرتب العلمية على مستحقيها . وزاد الطلب على مؤلفات الكتاب الروس العظام مما يدلُّ على ان القارىء الروسي قد أخذ ينصرف عن « الادب الاشتراكي » التي وضعت مؤلفاتهُ بامر الدولة ، الى مؤلفات الكتاب والشعراء الروس الذين احرزوا أعلى مكانة في الادب العالمي كبوشكين وتورجنيف وتولستوي وغيرهم

وقد عادت رواية « آنا كارنينا » تأليف تولستوي ، اوسع الروايات انتشاراً بعد رفع الحظر عنها . ولا يقل الطلب كذلك على مؤلفات الشعراء والادباء الاجانب كجوته وبيرون وهيني وبلزاك ، بل إن مسرحيات شكسبير ، تحسب « قمة الدرامة الكلاسيكية »

ان حماسة الروس الثورية قد بلغت ، على ما يظهر ، مرتبة الخمود ورقاص الثورة الذي اندفع الى اقصى حدوده في ناحية قد أخذ يرتدُّ الى الناحية المقابلة . وهناك آثار إعياء وخمود بادية في جميع مسالك الحياة . فالنزعة الى مواجهة الحقائق اليومية أخذت تحلُّ محلّ الحماسة الثورية

وكذلك يمكن ان يقال ان الثورة البولشفية قد بلغت المرتبة التي تلتهم فيها الثورة ابناءها —اي الافكار والمنشآت الثورية — بل ومبدعي تلك الافكار والمنشآت .وليس ذلك بالغريب. فالتحوُّل من الثورة والانحراف عن سبيل الشيوعية المستقيم الى مسالك « القومية البولشفية » ، ما كان يمكن ان يتم بغير نزاع عنيف ، عام وخاص . وقد كان شبان الشيوعيين في مقدمة الذين بعثوا بأسئلتهم الى مكاتب الصحف ، لانهم على ما قالوا عاجزون ان يفهموا مغزى الكلام على الثقافة القومية حالة انهم نشأوا ورسخ في اذهانهم ثقتهم واحترامهم للثقافة الخاصة بالعمال . ثم ان الانصراف عن السعي الى بث الثورة العالمية، هال بعض اقطابها فاعترضوا عليه . وهذا يفسّر اعدامهم. ان التحول الجديد ، يقتضي ازالة النزعة الثورية من سبيله . وقد أصدر ستالين امرهُ من عهد قريب بفض جماعة البولشفيك القدماء . ومن المفارقات ما يروى الآن، من ان ستالين وهو سكرتير الحزب الشيوعي ينوي ان يقضي على الحزب في شكله الحالي . ومما يلحق بهذه النزعة ، فتور الحكومة

الروسية في استقبال الشيوعيين الاجانب الذين يجيئون موسكو حجاجاً او لاجئين . ان معظم هؤلاء ، يرون في روسيا الحالية ، هيكل احلامهم لا غير .

اما اعدام المارشال توخاتشفسكي فلا يمكن ان يفسّر تفسيراً معقولاً بما تقدم . والذين يعرفونهُ يؤكدون ان تهمة الخيانة والتواطؤ مع اعداء روسيا، وهي التهمة التي وجهت اليهِ رسميًّا عند محاكمتهِ ، ليس لها ما تستند اليهِ . والراجح انهُ سلك سلكاً معيناً املتهُ عليهِ وطنيتهُ . فالجفاء بين الحكومتين الالمانية والروسية الآن لا صلة لهُ بما بين الشعبين من تنافر في الذوق والطبيعة . ومردّهُ الى عداءٍ مفتعل بين الفاشستية والشيوعية . ومع ذلك ففي الريخسفهر، في عهد الريخ الثالث اسوة بعهد الجمهورية ، فريق مع الاقطاب من رأيهم الاتفاق مع روسيا . وقد كان توخاتشفسكي في المنصب الذي يمكنهُ من فهم الخطر الذي يتعرض لهُ وطنهُ اذا اضطر ان يحارب دولتين عسكريتين عظيمتين في الشرق والغرب في آن واحد . ولعلهُ حاول حينئذ ان يتصل بذلك الفريق من الريخسفهر الذي يؤيد فكرة التفاهم مع روسيا ، بباعث من شعوره الوطني وادراكه للخطر الذي يحف بروسيا . وليس من المستحيل ان تكون مساعي من هذا القبيل منطوية على فكرة نزاعٍ داخلي او مؤامرة على ستالين . والواقع ان تطور روسيا الداخلي ، الذي وصفناه في ما تقدم كان قد انشأ جوًّا صالحاً لاحداث انقلاب على يد قائد كبير . ولو وقع هذا الانقلاب ونجح لكان من شأنهِ تعزيز النزعة القومية في روسيا . ولكن ستالين علم بما يدور فضرب ضربتهُ القاضية ، وباعدام توخاتشفسكي فقد الجيش الاحمر قائداً من اعظم قواده وأعظمهم جرأة

والآن — هل يطول حكم ستالين ؟ وهل يدوم حكم هتلر ؟ وهل تخرج اوربا سليمة بوجهٍ عام من حرب عالمية اخرى ؟ وهل ثمة امل ما في اجتناب هذه الحرب ؟ انها اسئلة من صنف واحد ، وهي متصلة بعضها بعض اوثق اتصال . ومن البيّن ان محاولة التنبؤ بما يقع في روسيا متعذّر ، ولا سيا وهي تجتاز ازمة داخلية عنيفة وتحولاً اساسيًّا بعيد المدى . وانما يمكن ان يقال ، أن ستالين قد عزز سلطتهُ بالقوة والبطش ، وانَّ لا ريب في انحرافهِ رويداً رويداً الى ناحية الطريق « البولشفي القومي » ، بضغط القوى الخارجية التي تهدد روسيا . والبادي للباحثين المجردين عن الهوى الآن ، ان دكتاتورية ستالين اقل تعرضاً للسقوط الآن من ارث لنين — ارث الشيوعية الخالصة والثورة العالمية

ان مقبرة لنين الفخمة لا تزال قائمة في الميدان الاحمر بموسكو . ولكن هل ينبعث منها الآن ، كما كان ينبعث في الماضي ، نور وحي قوي وايمان راسخ ؟ لقد علمنا التاريخ ، ان الانصاب كثيراً ما تفقد تأثيرها في النفوس بانقضاء قليل او كثير من الزمن عليها !

باب التربية
والخدمة الاجتماعية

التعليم على قمة جبل

للكاتب الاميركي لويس اداميك

زكاة الثقافة والعلم والنبوغ

خطبة الاستاذ محمد العشماوي بك

تاريخ مجيد وأغراض نبيلة

للسيدة انصاف منصور فهمي بك

مدرسة عجيبة حيث يتعلم الطلاب
كيف يعيشون وكيف يفكرون

التعليم على قمة جبل

في هذا المقال النفيس ملخص واف لتجربة خطيرة في ميدان التربية وصفها الكاتب الاميركي الكبير لويس اداميك في مجلة هاربرز الاميركية ونقلها عن ملخص الريدرز ديجست محمد سعد فوزي

ليست بلدة « بلاك ماونتين » — أو الجبل الاسود — إلاَّ بلدة جبلية صغيرة يحيط بها الاخدود الازرق الكبير من جهة وسلاسل الجبال الشاهقة من الجهة الاخرى في ولاية كارولينا الشمالية باميركا . وعلى منبسط من شمالها قامت « كلية الجبل الاسود » في بناء على طراز الفنادق الصيفية تملكه جمعية الشبان المسيحية ولا تزال تستعمله الى الآن في شهور الصيف كمعسكر للكشافة الشبان

عندما اجتزت ردهة الكلية لم يكن في نيتي ان امكث فيها الاّ ما يقضي الزائر العادي — ربما ساعة او بعض ساعة . ولكني بقيت فيها شهرين ونصف شهر ادرس ما يمكن ان يضحى اهمّ المبتكرات التربية في تاريخ أميركا الحديث

إن بداءة كلية الجبل الاسود سنة ١٩٣٣ اتخذت شكلاً يصعب تصديقه . ولست ألح في قولي هذا الى الدكتور جون رايس الذي كانت جامعة رولينس بفيلادلفيا قد طردتهُ لانهُ كان مصدر قلق دائم فيها لما اتصفت بهِ آراؤهُ في التربية والفلسفة من الجرأة والخروج على المألوف ، ولا الى ذلك الفريق من المدرسين الذين ايّدوا رايس وفقدوا بسببه وظائفهم . ولكنني لا ازال اذكر وأعجب بمنظر اولئك الشبان ، وكان عددهم خمسة وعشرين بين شاب وفتاة وهم لا يزالون في العشرين من العمر أعجب بمنظرهم وقد انضموا بملء اختيارهم الى اولئك الاساتذة الثوار في مشروعهم الكبير لتأسيس كلية حين كان كلٌّ يجهل طريقة الابتداء في العمل او على اي اساس من الناحية المالية يقوم

ولقد نجح المشروع . فقد تمكن الطلبة باكتتاب عام من مساعدة اساتذتهم على جمع مبلغ يسير من المال يكفي لاستئجار المكان المذكور عدة شهور وشراء بعض اللوازم المدرسية وتخزين بعض الاطعمة لتكفيهم بضعة اشهر . واحضر كل طالب معهُ وكل مدرس كتبه الخصوصية وجمعوها في غرفة واحدة وسموها « مكتبة الكلية » واتفقوا على ان يقوموا بالاعمال اليدوية فيها بالتناوب . وعند انتهاء السنة الاولى كان كل مدرس قد سحب من « الخزينة » مبلغاً قدره

سبعة ريالات وسبعة وعشرين سنتاً في الشهر اي نحو جنيه ونصف وذلك لشراء الضروريات من ملابس وغيرها . واخذ عدد الطلبة والمدرسين يزداد تدريجاً ويمكن القول ان العدد قد يصل في بحر الثلاث السنوات القادمة الى مائة وعشرين طالباً وطالبة وثلاثين مدرساً ، وهو أقصى عدد يمكن أن تتسع له الكلية في مكانها الحالي

وليس للكلية مجلس امناء ولا مجلس ادارة ولا عميد ولا اي مدير يمكن ان يتدخل في عمل الاساتذة . ولما كان جون رايس هو الذي انشأ هذه الكلية فهو في منزلة المدير ولكن جميع القرارات الخطيرة تصدر من الجمعية التي قوامها بعض المدرسين يختارهم زملاؤهم ومندوب او اكثر عن الطلبة . والكلية عبارة عن دولة صغيرة أساسها الديموقراطية والمساواة التامة فمندوبو الطلبة يقفون على قدم المساواة مع مندوبي هيئة التدريس . والمدرسون يجتمعون مع الطلبة للنظر في مسائل الكلية العامة ومشاكلها كلّ شهر مرة او عند ما تقتضي الحالة عقد هذا الاجتماع

ولقد القيت سياسة التدريس اول الامر على عاتق الدكتور رايس . وترمي طريقته الفلسفية في التعليم الى تخريج شبان ناضجين عقلاً « وعاطفة » وهو يقول في ذلك « إن مهمة المدارس هي تخريج طلبة لا يمتازون بمقدار ما تعلموا فقط ، ولكن بما في استطاعتهم أن يستفيدوا مما تعلموه . وكليتنا تخرج شباناً يعلمون أن الحياة ما هي الاّ سلسلة تعاون محكمة الحلقات »

وموطن جون رايس في جنوب كارولينا وهو ابن قسيس ويبلغ من العمر الآن نحو سبعة وأربعين عاماً ويتصف بكثير من النشاط الجسمي والعقلي . أما صراحتهُ وإخلاصهُ فلا يرقى اليهما الشك . وهو كثير التعصب لمهنتهِ . ولقد استوقفت نظري شخصيته أولاً وتملكتني حماستهُ ولكنني ارتبت في نظرتهِ المتفائلة الى مشروعهِ الكبير . ثم استوثقت بعد الدرس والتمحيص من أن طريقتهُ التعليمية لا بد وأن تنال نجاحاً عظيماً في المستقبل القريب

والتعليم في تلك الكلية ينحصر ويتركز في شيء واحد — التجربة والاختبار . فالطالب يجد هناك بغيتهُ من العلوم العادية ومن بينها الموسيقى ودراسة الدراما والفنون الجميلة . وهو مضطر أن يعيش كوحدة في هيئة اجتماعية مشدود عراها . واذا استثنينا اثنين من الاساتذة يعيشان مع زوجتيهما وأولادهما في جناح خاص ، فان باقي الاساتذة يسكنون مع الطلبة في بناء واحد وينامون في عنبر واحد ويقومون بتمريناتهم الصباحية معاً في صحن المدرسة الواسع . ويتناول الجميع الطعام في أوقاتهِ المحددة في حجرة الطعام الكبيرة حيث ينضم اليهم الزميلان المتزوجان مع زوجتيهما والاطفال

وليس في الكلية موظفون . وإذا استثنينا الطباخ ومساعده وخادمين ورجلاً يهتم بالمدفأة

في شهور البرد القارص ، فان الأعمال اليدوية جميعها يقوم بها الطلبة والاساتذة معاً بغير فارق ففي أوقات الطعام يخدم الطلبة الاساتذة دوراً وهؤلاء يخدمون الطلبة دوراً آخر وهلم جرًّا . والطلبة الذين يدفعون أقل من النفقة المقرّرة للكلية أو الذين لا يدفعون شيئاً قط لا يطلب منهم القيام بأي عمل إضافي في خدمة الطلبة الآخرين . والحكمة في ذلك سامية وهي أن الطالب الذي يدفع اقل من غيره يشعر بغضاضة تجرح عزة نفسهِ اذا خدم طالباً آخر يعرف أنهُ يدفع أكثر منهُ ، ومن الناحية الاخرى فان الطالب الآخر قد يداخلهُ الغرور وتملأ نفسهُ النفخة الكاذبة

***

ويبلغ عدد طلبة المدرسة الآن سبعة وعشرين شابًّا واثنتين وعشرين فتاةً تختلف اعمارهم من الثامنة عشرة الى الخامسة والعشرين. وليس في نظام الكلية ما يحتّم قبول الطلبة في سن معينة. والكلية لا تهتم بدرجات الامتياز التي نالها الطالب في المدارس الثانوية بقدر ما تهمها شخصيتهُ ومدى استعداده لتفهم مبادىء الكلية وقبولها. أما شروط الانتظام فاثنان المقدرة على الاستفادة من المعيشة في وسط كوسط الكلية ثم الذكاء النسبي ، وهم يفضلون أن يكون الطالب شجاع الرأي سامي الاخلاق محبًّا للحق مدافعاً عنهُ . وكثيراً ما تقبل الكلية انتظام بعض المصابين بنقص في عقولهم في سلك الطلبة وقصدها من ذلك هو محاولة اصلاح امرهم من جهة ومن الجهة الاخرى اتاحة الفرصة للطلبة العاديين لتعلم كيفية المعيشة والاختلاط مع من هم اقل منهم نموًّا في العقل

ولما كان المطلوب من الطالب هو ان يتعلم كيف يعيش بنفسه وكيف يقرر ما يراه صالحاً لنفسه بنفسهِ فان الكلية لا تفرض على الطلبة مواد معينة ولكن على الطالب أن يتقدم الى امتحانين الاول عند انتهاء سنتين من دخوله الكلية والثاني بعد أربع سنوات . أما المواد التي يختارها الطالب والطريقة التي يتبعها في التعليم فذلك راجع اليهِ أولاً وآخراً . وفي امكانهِ أن يدرس بنفسهِ وتحت ارشاد مدرس أو يحضر الحصص اليومية المخصصة لباقي الطلبة . ولكن المتفق عليهِ أن يواظب الطالب على حضور الحصص الدراسية في بدأ دخولهِ المدرسة . أما بعد ذلك فالعمل كلُّهُ يقع على عاتقهِ الشخصي

وطالب القسم الاعدادي في الكلية يجد الفرصة متاحة لتجربة عدة مواد حتى يستوثق من المادة التي يميل اليها اكثر من غيرها . والانتقال من القسم الاعدادي الى القسم العالي يتوقف على الطالب فهو الذي يقرر متى يكون ذلك . وليس معنى ذلك هو ترك الطالب وحبلهُ على غاربهِ

لان الاساتذة مستعدون دائماً لإسداء النصح الى الراغب فيهِ . اما الطالب الذي يعتقد انهُ أتمَّ دروسه العالية ويريد التخرج فليس عليهِ الاَّ ان يعلن الكلية بذلك في صورة التماس باعطائهِ الاجازة ويكون ذلك مشفوعاً بملخص وافٍ لما يعرف من المواد التي درسها . واذا رأت الكلية بعد استشارة الاساتذة ان الطالب يستحق اجازته فانها تدعو بعض المبرزين في هذه المواد من الخارج لامتحانهِ

أما في أيام العطلة الصيفية فيذهب الطلبة الى منازلهم وفي آذانهم يدوي صوت أساتذتهم وهم يحثونهم على زيارة المنشآت الصناعية المختلفة والامتزاج بالبيئات السياسية والاجتماعية ويطلب منهم عند رجوعهم كتابة التقارير المفصلة عما شاهدوا وتعلموا

ولعلَّ أغرب ما شاهدتهُ في الكلية هو تعاون الاساتذة والطلبة وامحاء الفوارق بينهم امحاء تامًّا . فلقد شاهدت الاساتذة يشتركون مع الطلبة اشتراكاً فعليًّا في جميع الاعمال التي تتطلبها الحياة اليومية في الكلية من غسل الصحون ومسح الارض الى قطع الخشب واصلاح الطرق وتمهيد ملعب « التنس » وغير ذلك

ويتمتع طالب كلية « الجبل الاسود » بحرية قلما يتمتع بها طالب آخر فله الحق كل الحق في ان ينحي على أعمال مدرسيه بالنقد كما ينقد هؤلاء أعماله . ولهُ مطلق الحرية في ان يقول ما يشاء عن أي شيء في أي وقت شاء مع تحمل العواقب بالطبع . ويحضر بعض الاساتذة — ومن بينهم جون رايس نفسه — بعض الفصول كطلبة ويجلسون مع الطلبة ولا فارق بينهم مطلقاً

ومعظم دراسات الكلية تتم خارج الفصول . وكثيراً ما رأيت الطلبة يجتمعون فرقاً فرقاً في صحن المدرسة ورايس يتنقل بينهم فهو هنا يشرح مسألة صعب فهمها وهناك تراهُ جالساً كطالب مؤدبٍ عادي ثم هو هنالك يناقش الطلبة في مبادىء الكلية وأغراضها . او في مشكلة اجتماعية او سياسية . وأحياناً ينضم جميع الطلبة والاساتذة لمناقشة احدى المسائل العامة ويوالون النقاش اثناء تناول الغداء والعشاء وكثيراً ما تمتد المناقشة الى وقت متأخر من الليل فيتفق الجميع على ارجائها الى الغد حيث يستعد كل فريق بحججهِ وادلته الى ان يصلوا الى القرار الاخير

وقد تكون اهم اغراض الكلية هي اعداد الطلبة لمواجهة الحياة الصحيحة بعزم وشجاعة وتخريجهم خبيرين بالطبيعة البشرية رجالاً ونساء يعتمدون على انفسهم ولا يقعون في حياتهم في اخطاء في زيجاتهم او علاقاتهم الشخصية بغيرهم او ما اشبه ذلك او تكون اخطاؤهم في ذلك أقل من اخطاء غيرهم . وبيئة الكلية تظهر نفسية الطالب تماماً فيراهُ الجميع على حقيقته كما

ّرى هو قرارة نفسه في وضوح وجلاء وربما لم يكن يعرف ذلك من قبل . والطالب الذي يريد ان يخدع نفسه يجد الفرصة مؤاتية لهُ فليس هناك قوانين ولا لوائح . ولكنهُ لا يلبث طويلاً حتى يرى الفرق بين سلوكه وسلوك اخوانه الطلبة فان النقد الذي تقابل بهِ اعماله تجعله يخجل من نفسه ، وهو نقد خال دائماً من الغرض او اللذع الاليم . والرغبة في مساعدة الغير متوافرة ودائمة وقوية ونبيلة . والطلبة القدماء يحاولون جهدهم تقويم اخلاق الزميل الجديد واصلاح اعماله

***

ومن المواد الاساسية التي يدرسها الطلبة في الكلية دراسة الدراما والروايات التمثيلية وهي ذات فائدة عظيمة كما سيجيء بعد . ويقوم الطلبة مع الاساتذة بتأليف خمس روايات تمثيلية كل سنة وتمثيلها واخراجها . وفي ذلك يقول جون رايس :

« غايتنا — إذا أردتَ مثلاً — أن نظهر شابًّا تملأ نفسه غريزة الطغيان في دورالطاغية حيث يرى عواقب طغيانه واضحة جلية . ونحن نخلق للفظّ دوراً يناسبهُ وللغنيّ عملاً يؤديهِ . ومن الناحية الاخرى فنحن نعين للطلبة أدواراً تخالف طبيعتهم كلَّ المخالفة فالطالب الغني يقوم بدور رجل قد هدَّهُ الفقر وحطمهُ . ونضع الفتاة الفقيرة في مقام امرأة غنية تعسة . أما دور الشاب الخائر المتشكك فيوحى اليهِ معنى الكفاح في الحياة ولذة النصر ويريه كيف يموت المرء راضياً دفاعاً عن مبدإٍ إعتنقهُ . . »

وموارد الكلية محدودة وهي لا تكاد تكفي لإنهاء العام الدراسي . وربما يأمل الجميع ان يهبط عليهم ذات يوم ملاكٌ من السماء ويرميهم بمائة الف جنيه فهم في اشد الحاجة الى مكتبة عصرية كاملة ومعدات كثيرة . ولكنهم في الحقيقة يخشون الغنى المفاجيء ويفضلون حالتهم الحاضرة مع ما فيها من عنت . ولا يقبل أحد منهم ان يتقدم لتمويلهم غنيٌّ ما اذا عنّ لهُ املاء شروط خاصة على إدارة الكلية

قد تكون عظمة الكلية في الوقت الحالي أنها محاولة لا تزال في المهد ولكن الفكرة فيها على كثير من السمو . ويفكر كثيرون من خريجي الكلية في انشاء فروع اخرى على غرارها في انحاء الولايات المتحدة . والسائد انهُ في نهاية العام الدراسي الحالي يكون لدى الكلية هيئة تدريس تصلح مع من ينضم اليهم من الطلبة القدماء كنواة لانشاء فرع جديد . وأنا اعتقد اعتقاداً جازماً ان عشرين كلية من ذلك الطراز تضم كلٌّ منها مئة وثلاثين طالباً وثلاثين مدرساً في امكانهم ان يقلبوا طرائق التعليم الحالية رأساً على عقب . وأعتقد ان الف طالب يتخرجون منها يمتد اثرهم الى جميع المرافق في حياة العالم الجديد.

الخدمة الاجتماعية

افتتاح مدرسة لها في القاهرة

— ١ —

زكاة الثقافة والعلم والنبوغ

خطبة الاستاذ محمد العشماوي بك

وكيل وزارة المعارف

طالما تمنيت ان اقف مثل هذا الموقف بعيداً عن دائرة عملي الحكومي ، في ميدان حر ، ارحب بمشروع حر كهذا المشروع الذي نحتفل بهِ اليوم . لذلك احمد الله ان هيأ لي هذه الفرصة التي اتاحت لي ان ابدي عظيم الاعجاب بهمة هؤلاء العاملين الذين اخرجوا هذه المؤسسة ، معتمدين على انفسهم وعلى الجمهور ، يستمدون منهُ نشاطهم وقوتهم ، ثم يعكسون عليهِ ما استمدوه منهُ ، فيهيئونهُ للاعمال الصالحة ، ويرشدونهُ الى انجع وسائل التربية والثقافة والاحسان

وبمثل هذه الجهودات المثمرة يهيأ الشعب للاشتراك الفعلي في الميادين الاجتماعية . واقوم سبيل للوصول الى هذا الغرض هو ان يتولى المفكرون ارشاد الناس الى اتباعهم والاهتداء بهديهم . واعتقد ان للمجتمع كل الحق في مطالبة هؤلاء المفكرين بتقديم جزء من تفكيرهم وثقافتهم للجمهور وهذا الجزء هو الزكاة التي يجب ان يؤدوها لمواطنيهم مما اكتسبوه من ثقافة وعلم ، وما حباهم بهِ الله من تفكير ورأي

واني لأعلم انهم يفرضون في بعض البلاد على كل صاحب عمل منتج ان يخصص جزءا من جهوده ، بدون مقابل ، للاعمال العامة التي تعود بالنفع على المجتمع : وهذا هو ما اسميهِ بزكاة الثقافة والعلم والنبوغ ، وهي لا تقل شأناً عندي عن زكاة المال

ولعل اهم هذه الجهود ، وخصوصاً في مصر ، هو ما يبذل منها في سبيل اصلاح المجتمع . واول خطوة في هذا السبيل هي تنظيم الخدمة الاجتماعية

لعلّ الكثيرين يتساءلون عن ماهية الخدمة الاجتماعية ، وافضل تعريف اطلعت عليهِ هو تعريف وضعه مؤتمر دولي عقد في السنوات الاخيرة لبحث وجوه هذه الخدمة ، ففسرها بانها هي مجموع الجهود التي يقصد بها تقديم المعونة في النواحي الآتية : —

١ — تخفيف الآلام التي تنشأ عن البؤس : وهذه الناحية يمكن ان يطلق عليها ناحية « الخدمة الملطفة »

٢ — وضع الاشخاص والاسر في ظروف طيبة تلائمهم : وهذه الناحية هي ناحية « الخدمة الشافية »

٣ — منع وقوع الويلات الاجتماعية : وهذه هي ناحية « الخدمة الوقائية »
٤ — تحسين حال المجتمع ، ورفع مستوى المعيشة : وهذه هي ناحية « الخدمة الانشائية »

فتلطيف اثر المصائب ، وشفاء الاشخاص مما ينتابهم من العلل ، ووقاية المجتمع من الخطوب ، وانشاء النظم التي تحسن حالته وترفه عنه : تلك هي اغراض الخدمة الاجتماعية

ولأضرب لحضراتكم مثلاً تظهر فيه هذه الاغراض : تصوروا الفلاح وهو عماد المجتمع المصري ، اذا اصيب بمرض خطير يقعده عن كسب الرزق له ولعياله : هنا تتدخل الخدمة الاجتماعية لتقدم لاسرته الطعام والشراب والمسكن وما اليها ، وهذه هي « الخدمة الملطفة ». ثم يجب ألاّ يهمل علاجه ، وان يوفر له ما يحتاج اليه من دواء حتى يشفى ويستطيع ان يستأنف عمله : وهذه هي « الخدمة الشافية » . ثم اذا شفي من مرضه ، وجب ان تدبر له ولاولاده معيشة صحية تقيهم شر الوقوع في الامراض مرة اخرى : وهذه هي « الخدمة الوقائية » . ثم يجب ان تهيأ لهذا الفلاح وامثاله نظم معينة لضمان راحتهم وهناءتهم ، وان يوفر لهم ما يحتاجون اليه من ثقة وتسلية ورياضة وما الى ذلك : وهذه هي « الخدمة الانشائية »

هذا بعض ما يمكن ان تؤديهُ الخدمة الاجتماعية . فهلاً ترون حضراتكم ان بلادنا في أمسّ الحاجة الى أيدٍ كثيرة تقوم بهذه الخدمة في مختلف المرافق ؟

ضربت لحضراتكم مثلاً بحاجة الفلاح اليها . ولقد خطر هذا المثل ببالي لاشتراكي في بحث مشروع المجموعات القروية الذي اقترحه حضرة صاحب العزة الدكتور عبد الواحد الوكيل بك احد أعضاء مجلس ادارة الجمعية المصرية للدراسات الاجتماعية ، التي تحتفل اليوم بافتتاح مدرستها

أخذت أفكر اثناء دراستي لهذا المشروع الجليل ، الذي قصد بهِ تحسين حال الفلاح ، فيما يحتاج اليهِ من أيد عاملة ، لان نجاحه يتوقف على الجهود التي يبذلها اعضاء المجموعة التي تباشر تحسين حال القرية . ويجب ان تتضمن كل مجموعة عاملاً اجتماعيًّا ، فكم من مئات من هؤلاء الاجتماعيين تحتاج اليهم بلادنا للاشتراك في رفع مستوى القرية من الناحيتين المعنوية والمادية . وكم كنت اود لو أتيح لعمد البلاد نصيب كبير من الثقافة الاجتماعية يمكنهم من المساهمة في هذا الاصلاح

واذا تركنا الفلاحين ونظرنا الى العمال او المجرمين من احداث وكبار او الى اللقطاء والمتشردين او الى الطبقات الفقيرة بصفة عامة ، وجدناهم جميعاً في حاجة كبيرة الى من يلطف ادواءهم ثم يشفيهم منها ويقيهم من الوقوع فيها مرة أخرى ثم ينشيء لهم نظاماً ثابتاً وحياة رغدة هانئة

وليس افراد الشعب فقط هم الذين يحتاجون وحدهم الى الخدمة الاجتماعية بل ان كثيراً من الهيئات والمرافق العامة كالمستشفيات والملاجيء والمدارس ، في مسيس الحاجة الى طائفة من الاخصائيين الاجتماعيين لينهضوا بمستواها ويحققوا لها الوصول الى الغرض الذي أنشئت من

أجله . على ان هذا العمل لا يمكن ان يؤدَّى على وجههِ الاكمل الاَّ اذا درست أساليبه الصحيحة دراسة علمية . وهذه هي الدراسة التي من أجلها تنشأ مدارس الخدمة الاجتماعية في الامم المتمدينة

واني لأرجو ان تقوم المدرسة التي نحضر اليوم افتتاحها الرسمي بما نؤمله فيها من تخريج اخصائيات واخصائيين في الشؤون الاجتماعية يسدون النقص الكبير الذي نشعر بهِ الآن في الميدان الاجتماعي . وانتهز هذه الفرصة لاوجه نظر الشابات والشبان الى هذا المجال الفسيح ، ففي الاشتغال بهِ ما يقلل البطالة ويوفر عملاً شريفاً نافعاً لطائفة كبيرة من المتعلمات والمتعلمين

ولم يفت وزارة المعارف ما للدراسات الاجتماعية من كبير شأن في المجتمع ، فأوفدت بعثة منذ سنتين الى اوربا لهذا الغرض وهي تفكر الآن في ايفاد بعثات اخرى . كما انها عملت على انشاء عيادة نفسانية (سيكولوجية) في معهد التربية لمعالجة الاطفال الشواذ بعد تبين اسباب شذوذهم وهذه ناحية هامة من نواحي الخدمة الاجتماعية المدرسية . كما انها تدرس الآن مشروع انشاء معهد خاص بالشواذ وذوي العاهات . وما كادت تعلم بتأسيس الجمعية المصرية للدراسات الاجتماعية وقيامها بانشاء مدرسة للخدمة الاجتماعية ، حتى رحبت بهذا المشروع الجليل كل الترحيب

ويسرني أن اعلن اليوم ان الوزارة لم تقتصر على الترحيب الادبي ، بل شفعتهُ بتشجيع مادي ، إذ قررت منح الجمعية هذا العام مبلغ ٣٠٠ جنيه لاعانتها على القيام بسد بعض نفقاتها وشراء ما تحتاج اليهِ من كتب في الشؤون الاجتماعية . كما قررت ان تدرج لها في الميزانية مبلغاً ثابتاً يمنح لها سنويًّا . وستنظر الوزارة في تقدير « الدبلوم » التي تمنحها المدرسة ، كما ستنظر ايضاً في وضع نظام لتفضيل الطلاب الذين يتمون الدراسة بهذه المدرسة ، وتتوافر لهم المؤهلات المطلوبة في شغل وظائف الاشراف على النواحي الاجتماعية في المعاهد والملاجيء وفي تلقين الطلبة بعض الموضوعات المتصلة بالدراسات الاجتماعية . كذلك وافقت الوزارة على تمكين طلبة معهدي التربية للبنين والبنات وطالباتهما، وبعض المدرسين والمدرسات المشتغلين بالنواحي الاجتماعية من حضور مقررات المدرسة كلها او بعضها مقابل رسم تدفعهُ الوزارة عنهم لهذه المدرسة . ولم تخط الوزارة هذه الخطوات الاَّ بعد أن تبينت حاجة البلاد الى تشجيع هذا النوع من الدراسات ، وبعد أن اطمأنت الى ما تبذلهُ هذه المدرسة مع حداثة عهدها من جهد كبير في سبيل اداء مهمتها ، وما يسودها من نظام

وانهُ ليسر الوزارة أن ترى أن الجامعة المصرية لم تبخل على هذه المدرسة بالتعضيد فقدمت لها كلية الطب مكاناً للمحاضرات والمكتبة وها نحن الساعة نرى هذا التعضيد ظاهراً في إقامة هذا الاحتفال في فناء الكلية . ولا يفوتني أن انوه في هذا المقام بما قام بهِ حضرة صاحب المعالي احمد نجيب الهلالي بك من جهود جبارة موفقة في سبيل الاصلاح الاجتماعي في مصر

وها هي الجمعية المصرية للدراسات الاجتماعية ومدرسة الخدمة الاجتماعية ورابطة الاصلاح الاجتماعي وغيرها : كلها أمثلة حية ، تنطق بفضله العميم في الميدان الاجتماعي

واني لأحيي هذه الروح الاجتماعية في معاليه وفي كل من اشترك معهُ في هذه الاعمال الجليلة ، وأرجو أن تكون المدرسة التي تفتتح اليوم نواة طيبة لامداد المجتمع المصري بايد عاملة رشيدة تعمل على اصلاحهِ وتخفيف ما ينتابه من ويلات ودرء ما قد يتعرض له من اخطار

وأنهُ لفأل حسن أن تفتتح هذه المدرسة في مستهل هذا العهد السعيد الذي تستعيد فيهِ البلاد شبابها اذ يتسنم عرشها مليكها الشاب المحبوب جلالة مولانا المعظم فاروق الاول حفظهُ الله ورعاه فتستمد منهُ روحاً فتية وعزماً قوياً للسير الى الامام جعل الله عهد مليكنا المعظم عهداً مديداً سعيداً ينعم فيهِ المجتمع المصري بكل طبقاتهِ باوفر السعادة والرفاهية وتبلغ فيهِ حياتنا الاجتماعية اسمى درجات الكمال

—٢—

تاريخ مجيد وأغراض نبيلة

للسيدة انصاف حرم الدكتور منصور فهمي بك

لقد شرفتني الجمعية المصرية للدراسات الاجتماعية ، فرأت أن أتحدث اليكم في افتتاح اول معهد بالقاهرة للخدمة الاجتماعية . واني انتهز هذه الفرصة لأحييكم أطيب تحية ، وأشكر لكم تلبية دعوتنا ، اذ حضرتم لهذا الحفل المبارك حرصاً على المساهمة في الاعمال النافعة التي تعود على الوطن وبنيه بالخير فجزاكم الله خير الجزاء

ايها السادة : ان الشعور بما تحتاج اليهِ الامم من اصلاح ، والرغبة الصادقة في القيام بالخدمات الاجتماعية ، لا يكونان الاَّ في الجماعات الراقية التي يسودها روح التعاون والتكافل ، ولا تسود هذه الروح الاَّ حيث تتجلى الصفة الانسانية في اروع مظاهرها واجلاها . فالامم التي تروج فيها الدعوة للتعاون بين الافراد لترقية شؤونهم وتخفيف آلامهم تعتبر بحق في مصاف الامم الحية الراقية

سادتي : ان البلاد التي نحذو حذوها في ميادين التقدم قد سبقتنا الى الاهتمام بامر الخدمات الاجتماعية ، والى انشاء معاهد تعد الخبيرين بهذه الخدمات . وان نظرة عجلى الى تاريخ الخدمة الاجتماعية تبين لنا ان النهضة تنشأ في أول امرها صغيرة تقوم على جهود نفر من الغيورين ، وتبدو كالدائرة الضيقة تتسع بمقدار ما تجد من تأييد الاعوان وانضمامهم اليها ، وبمقدار ما تنتج من صالح الأثر ، حتى يشمل محيطها الامة جميعاً

ففي البلجيك من نحو اربعة قرون شعر المصلح الاجتماعي البلجيكي جان لويس فيف بحاجة المجتمع الذي كان يعيش فيهِ الى المعونة ووسائل الاصلاح ، فاهتم بشأن الاسرة ووجه اول

خدماته اليها ، لانها اساس المجتمع ودعامته ، تخصص لكل حي من احياء المدينة مندوبين يتفقدون احواله ويقومون على ما يعوزه من وسائل الاصلاح ، فيحصى الفقراء وتعرف اسباب عوزهم رغبة في النهوض بالاسر ماديًّا وصحيًّا وخلقيًّا . ولقد جرت هذه البداءة وتطوراتها الى أن أنشئت في مستهل القرن العشرين ثمانية معاهد للخدمة الاجتماعية يتخرج فيها الخبيرون وتعتمد الحكومة شهاداتهم

وفي فرنسا من نحو ثلاثة قرون نشر الراهب الفرنسي « سان فنسان دي بول » دعوته لاعمال البر والاحسان بين سيدات الطبقة الراقية للمساهمة في تفقد شؤون البائسين ومد يد المعونة اليهم ، فانتشرت هذه الدعوة وصادفت من نفوس المتطوعات الخيرات قبولاً واقبالاً . ترتب على ذلك أن أسس هذا الراهب نظاماً لجماعات المنقطعات من الراهبات اللائي وقفن حياتهنَّ على عمل الخير والاحسان وسميت جمعياتهن العديدة المنتشرة في انحاء العالم باسم ذلك الراهب العظيم . ولم يمض بعد ذلك زمن طويل على تأسيس جمعيات الخير النسوية حتى امتدت الدعوة الى الرجال كذلك لتأسيس جمعيات شبيهة اسدت الى المجتمع خدمات مشكورة . ولما حلت الثورة الفرنسية ثبتت في فرنسا تنظيم أعمال البر حتى اصبحت لا تخلو ناحية في هذه البلاد من مؤسسة تقوم بحاجات المعوزين من أهلها ممن لا قدرة لهم على العمل ، وبحاجات الارامل واليتامى وأبناء السبيل الى غير ذلك من اعمال البر

ولقد تنبهت انجلترا في مستهل القرن التاسع عشر الى ما للخدمات الاجتماعية من طيب الاثر فسنت قوانين تبيح لفقراء كل حي ان يلجئوا الى كنيسة ذلك الحي لطلب المعونة والارشاد ثم ظهرت المصلحة الاجتماعية فلورانس نيتنجيل فحفزتها الشفقة على المرضى الى العناية بأمر اعداد الممرضات والى تحسين ادارة المستشفيات ، وعلى الجملة الى تنظيم كل عمل يخفف وطأة الآلام

وقام « كانون بارنت » ومعهُ طائفة من الجامعيين المثقفين الصادقين ، فاستوطنوا أفقر أحياء لندن من طرفها الشرقي وانبثوا في غمار الشعب يهذبونهُ ويشغلونهُ في أوقات فراغه ، وذلك لكي يرفعوا مستوى الحي من جهة الاخلاق ومن جهة الصحة والآداب . وبعد ذلك أخذت حركة الخدمة الاجتماعية تخطو خطوات واسعة ، فأنشئت لها ادارة ومعاهد خاصة ، وألحقت هذه المعاهد بالجامعات . وفي أميركا قام المصلحون في بعض الولايات بانشاء المؤسسات الاجتماعية ، وكان من اظهر البارزين في تنظيمها جوزفين شولول المصلحة الكبيرة ، وتعددت هذه المؤسسات حتى بلغت الآلاف . ثم في اوائل القرن العشرين انشئت في مدينتي نيويورك وبوستن مدارس للخدمة الاجتماعية مستكملة الدراسة . وتدل الاحصاءات على ان عدد مدارس الخدمة الاجتماعية بلغ خمساً وثلاثين مدرسة فيها نحو ٥٢٥٩ تلميذاً وتلميذة ، ومع ذلك فان عدد المتخرجين من هذه المدارس هم دون حاجة البلاد وحاجة الناس الى الخدمات

ولنكتف الآن أيها السادة بذكر ما تقدم من الشواهد خوف الاطالة والاَّ فهناك بلاد أخرى كألمانيا والسويد وسويسرا وايطاليا واستراليا وكندا واليابان وغيرها مما نرجو ألاَّ تكون البلاد العربية وبخاصة مصر دونها حظاً في هذه النهضة الانسانية . وان لنا نحن الشرقيين في الفاروق عمر بن الخطاب وعنايته بالفقراء والمساكين وتفقده بنفسه احوالهم اسوة حسنة وذكرى مشرفة . فان سيرة هذا الخليفة العظيم وسيرة أصحابه في اعمال المؤاساة ومقاومة الأثرة والامر بالمعروف والنهي عن المنكر لما تفخر بها صفحات التاريخ في الاعمال الاجتماعية والصفات الانسانية الخالدة. وان النظم الاسلامية في تطورها قد استنت السنن الصالحة في سبيل الخدمات الاجتماعية ، فكان في سلف المسلمين ومن نحا نحوهم من يحبس الاموال بكرم لمؤاساة ذوي العاهات أو يقفها لانشاء المستشفيات والمطاعم أو لتسبيل الماء وتيسير الانتفاع به او للبر بالحيوان وغير ذلك مما كان يسجل في الاوقاف . ولم يعدُ كل ذلك الخدمات الاجتماعية فلها اذاً في تقاليدنا تاريخ مأثور وأثر مشكور

أيها السادة : ان اللمحة التي قدمتها في تاريخ الخدمة الاجتماعية تُرينا ان كثيراً من أعمالها كان نتيجة لجهود ذوي المبادىء السامية الذين تدفعهم رغبتهم في الاصلاح الى التضحية براحتهم في سبيل تحقيق هذه المبادىء. وانه ليسرني أن اعلن بأن العنصر النسوي كان لهُ فضل عظيم في هذه النهضة وجديرٌ بهذا العنصر أن يواجه مستبسلاً حاجة الخدمات الاجتماعية ويتحمل أعباءها فليس من شيء اقرب الى قلب المرأة الصالحة من اعمال البر. وليس من شيء ادنى الى طبيعتها من العمل لمواساة الغير. وليس من شيء اشد تقريباً لها عند الله ، وأشد تأثيراً في تدعيم السلام من امومة المرأة وعملها في تربية جيل صالح ينطبع على بذل التعاون ، ويبث روح المحبة ويمهد اسباب السلام . وانهُ ليزيدني غبطة ان ارى بمصر الآن عدداً من المؤسسات الخيرية كان للمرأة في نجاحها اكبر الأثر . وها هو ذا عدد السيدات اللاتي يعملنَ الخير لمجرد الخير آخذ في الازدياد . واني وان كنت ارى ان اعمال الخدمة الاجتماعية تحتاج الى جهود مشتركة من الرجال والنساء معاً ، الاَّ ان المرأة يجب ان تكون اسبق من الرجل في ميدان هذه الخدمة ، لما وهبها الله من حسن الاستعداد لذلك ، فهي التي تستطيع ان تطمئن اليها ربات المنازل ليفضينَ اليها بهمومهنَّ ، وهي التي تجنح اليها الفتاة البائسة لتبثها الشكوى وتدلي اليها بآلامها وأحزانها ومنازعها ، وهي التي يسهل عليها ان تتغلغل في صميم الاسر لتبحث وتنقب وترشد وتدعو للاخلاق وللتوفيق ولشد اواصر الاسرة . واني اهيب بالسيدات المصريات ان يساهمنَ في نواحٍ من الخدمات الاجتماعية الميسورة الشريفة التي لا تضيع حق منازلهنَّ ففي اعمال البر متسع لمن يريد العمل . واني الح في رجاء كل ام لتبث العطف على البائسين في نفوس اولادها منذ الصغر ، حتى يسوء بذلك المجتمع

جيلاً جديداً تتضاءل فيه نزعات الانانية ويسهل عليه ان يعمل للخير العام

ايها السادة : ان النهضة المصرية العامة تناولت في هذا العصر الحديث عدة نواح في الاصلاح بفضل جهود الموفقين من ولاة الامور وبفضل الغيورين من ابناء مصر على مصلحة البلاد . لكن مهما بلغت بلادنا من الرقي في النواحي الاقتصادية والصناعية وغيرها فان بعض النواحي الاجتماعية عندنا لا يزال في طور نشأته الاولى ، وفي مقدمتها رعاية الطفولة والامومة ، ورفع مستوى الاسرة وتوطيد اركانها وتقوية روابطها ، والعناية بذوي العاهات ، والنظر في ادوار المراهقة ومشكلاتها ، وحماية الفتيات والفتيان من المفاسد والمغريات ، وتنظيم اوقات الفراغ . وما شاكل ذلك من وجوه الاصلاح مما يحتاج الى العاملين الصادقين . على ان العمل في هذه النواحي جد خطير ، وذلك لاتصاله بالنفوس البشرية المختلفة في ادق الحالات واحرج المواقف ، فهو من الاعمال التي تتطلب خبرة وصفات خلقية سامية ، في مقدمتها ان يكون المرء صبوراً ، قادراً على ضبط نفسه ، محبًّا لاخيه الانسان مضحياً بوقته وجهده في اسعاد غيره ، وان يجد في بذل الخدمات غبطة وارتياحاً ، وبجانب هذه الاخلاق يجب ان يكون ملمًّا بنوع من الدراسات تتفق وطبيعة الخدمات التي يؤديها ، كدراسة علم النفس وعلم الاجتماع وعلم الصحة وطبائع الطفل وعلاج الشذوذ واسباب الاجرام والتشرد والبطالة وغير ذلك من الوسائل الثقافية التي تعينهُ على اداء ما يضطلع به من الخدمة في الجماعة التي يعيش فيها

ولايجاد الاخصائيين الاجتماعيين الذين يمكن ان تستفيد بجهودهم البلاد على الوجه الصحيح فيما هو قائم الآن من المؤسسات الاجتماعية ، وفيما نأمل ان ينشأ منها في المآل ، اهتمت الجمعية المصرية للدراسات الاجتماعية ، بانشاء المعهد الذي نفتتحهُ اليوم رسميًّا . ولحضرة صاحب المعالي الاستاذ احمد نجيب الهلالي بك يد تذكر فتشكر على هذا المشروع الجليل بما بذله معاليه من جهود في توجيهه التوجيه الصحيح . كما اننا نسدي الشكر لمن ساهم فيه من حضرات اصحاب المعالي والسعادة والعزة المتبرعين وصاحبات العصمة المتبرعات من مصريين واجانب

اما بعد ، فاسمحوا لي ايها السادة ان اذكر الآن نبذة قصيرة عن المعهد الذي اجتمعنا اليوم لافتتاحه :

بدأت الدراسة فيه في اليوم السادس عشر من شهر اكتوبر سنة ١٩٣٧ ، وروعي في اختيار طلبته ميلهم للخدمة الاجتماعية واستعدادهم لتلقي الدراسات المتصلة بها . وبالمعهد ٦٤ طالباً وطالبة من الحاصلين على شهادة الدراسة الثانوية (قسم ثان : البكالوريا) واكثرهم من الموظفين المشتغلين بقسم التعاون بوزارة الزراعة ومصلحة المساحة والسجون ومن الجوالة ومن الآنسات المثقفات . وهؤلاء الطلبة وإن كانوا من بيئات مختلفة الا انهم يجتمعون على غاية واحدة

هي اعداد أنفسهم للنهوض بمصر . وان الروح السامية السائدة بين هؤلاء الطلبة لجديرة بالتشجيع ويقوم بالقاء المحاضرات اخصائيون واخصائيات في المواد التي يدرسونها ، وكثير منهم من اساتذة الجامعة ومدرسيها ومن كبار رجال التعليم بوزارة المعارف . ومن مميزات هذا المعهد انهُ يعمل على دعوة الاخصائيين البارزين في الشؤون الاجتماعية من الزائرين الاجانب ومن المصريين لالقاء المحاضرات العامة . ولكي يتوافر لطلابه الجو العلمي الملائم والمتاحف والمعامل التي تضمن مستوى عاليًا من الثقافة والتحصيل ، رئي أن يلجأ الى كلية الطب . وقد تفضل عميدها حضرة صاحب السعادة الدكتور علي ابراهيم باشا فاذن في ذلك

ويستفاد للمعهد من مكتبة كلية الطب . ومما عني باستحضاره من الكتب الاجتماعية والنفسية والنشرات الدورية المستصدرة من الخارج للفائدة الدراسية . ويعنى المعهد بالناحية العملية من الدراسة كعنايته بالناحية النظرية ، فخصصت ثلاثة شهور من العام الدراسي لتدريب الطلاب تدريباً عمليًّا في المؤسسات الاجتماعية على اختلاف انواعها

بالمعهد روح قوية مستمدة من حضرة العميدة السيدة برتا كال فهي الاخصائية في العلوم الاجتماعية وهي لا تألو جهداً في العمل على رفع شأن هذا المعهد وتوطيد دعائمه

سيداتي . سادتي : ذكرت لكم نبذة قصيرة عن اول معهد للدراسات الاجتماعية نشأ في مصر ، ويسرني انه اول معهد من نوعه في البلاد العربية ، وان في بوادر نشأته ما يبشر بنجاحه ولربما يباح لنا ان نتطلع الى أمل مشروع ، ذلك ان تهيء الحكومة ادارة قوية منظمة لرعاية الخدمة الاجتماعية اسوة بالحكومات التي اضطرتها شؤون الحياة العصرية الى تنظيم الجهود وتتبع مشا كلها . ولعلَّ الحكومة اذا هي حققت في يوم من الايام ما نأمله ونتمناه تجد في خريجي معهدنا ادوات صالحة ينتفع بها في مختلف نواحي الاصلاح كالمدارس والمعاهد الخيرية والملاجيء ومراكز رعاية الطفل والاصلاحيات ومحاكم الاحداث الى غير ذلك

ايها السادة : ان كل رعاية لشؤون المجتمع البشري هي رعاية اسمى من ان تمسها اختلافات الاجناس او العقائد او الآراء ، اذ في طبيعة الاصلاح الاجتماعي ما يربط بين الناس جميعاً ، مهما اختلفت الوانهم وتباينت اجناسهم

وهل لمنازع الخير ومذاهب الاحسان حدود في الارض تحدها او حواجز بين الناس تصدها وتردها ! لا حد للاعمال الانسانية الخيرية الاَّ عند مرضى القلوب وصغار الاحلام ألا ان مبعث هذه الاعمال صفاء النفوس ومبدأَها عظمة الهمم . ألا ان مردها واسع الرحمات ومنتهاها الى رافع السموات . اسأل الله تعالى ان يحقق آمالنا الخيرية في ظل حضرة صاحب الجلالة المرتجى لخير البلاد فاروق الاول ايده الله

باب الأخبار العلمية

عمر القمر

وموعد الاحتفال بزواج جلالة الملك المعظم

طالما وجدنا من ألزم اللزوميات معرفة عمر القمر في اي وقت نريد لنهتدي بوجوده في ظلمات البادية او لنذهب على ضوئه ليلاً الى كوخنا وهو «يبث النور في الظلام دليلاً»

ومن محاسن الصدف اني وجدت طريقة مختصرة طريقة سهلة يمكن حفظها بسهولة يعرف بها عمر القمر ليس في اول السنة فقط كما هو الحال في نظام ال (Epacts*) لا بل في أي يوم من ايام السنة الافرنكية . واعترافاً بالفضل لذويه أقول انها للعالم الفلكي الانكليزي جورج فوربس (George Forbes) جاءت في كتابه The Wonder & The Glory of the Stars)وهذه الطريقة تتلخص فيما يلي:—

« أضف عدد اليوم الى عدد الشهر الى عدد السنة الى العدد واحد واقسم المجموع على ٣٠ ثلاثين الذي هو اقصى عمر القمر فالباقي يكون هو عمر القمر في التاريخ المعلوم المراد معرفة عمر القمر فيه مع العلم ان :—

(١) عدد اليوم هو تاريخ اليوم من الشهر

(٢) عدد الشهر هو العدد الوارد ازاء اسم الشهر في الجدول الآتي : —

يناير	٠	يوليه	٤
فبراير	٢	اغسطس	٦
مارس	٠	سبتمبر	٧
ابريل	٢	اكتوبر	٨
مايو	٢	نوفمبر	٩
يونيه	٤	دسمبر	١٠

(٣) عدد السنة يستخرج هكذا :

اعتبر ان سنة ١٩١١ تساوي صفراً وكل سنة بعد ذلك يطرح منها العدد ١٩١١ ويضرب الباقي في ١١ ويقسم المجموع على ٣٠ فيكون الباقي هو عدد السنة ويستعمل طول ايام السنة

واذا اختبرنا هذه القاعدة بمضاهاة نتائجها على ما هو وارد في التقاويم السنوية وجدنا انها مضبوطة تماماً مع فرق يوم واحد في بعض الاحيان. ولنضرب لذلك مثلاً فنقول ما هو عمر القمر في يوم ٢٠

(١) ال Epacts عبارة عن عمر القمر في اول يوم من السنة الافرنكية او هو عدد الايام التي بها يسبق مولد القمر الجديد مبدأ السنة الافرنكي

يناير سنة ١٩٣٨ وهو اليوم الذي عينهُ حضرة صاحب الجلالة المعظم فاروق الاول لعقد زواجه على حضرة صاحبة المجد والشرف الآنسة النبيلة فريدة هانم ذو الفقار بارك الله هذا الزواج وجعله طالع سعد ويمن فالجواب على ذلك هو : —

(١) عدد اليوم ٢٠

(٢) عدد الشهر صفر

(٣) عدد السنة $\frac{(١٩٣٨ - ١٩١١) \times ١١}{٣٠} =$

$\frac{٢٧ \times ١١}{٣٠} = \frac{٢٩٧}{٣٠} = ٩$ والباقي ٢٧ وهو عدد السنة

اذن $\frac{٢٠ + ٠ + ٢٧ + ١}{٣٠} = \frac{٤٨}{٣٠} = ١$

والباقي ١٨ وهو عمـــر القمر يوم ٢٠ يناير سنة ١٩٣٨

بدر رفيق ومنظم للوقت دقيق ! فسبحانك اللهم يا مبدع الكائنات ومرتب الافلاك ومنظم الكواكب ومسير النجوم وانا لنسى نواظرنا ولن ننسى ان ذرة واحدة من هذا الكون الفسيح لهي آية من الآيات البينات تنطق بعظمتك وقدرتك جل جلالك وسبحانك اللهمَّ يا من علمتنا مالم نعلم . واليك مني ايها العلامة فوربس تحية شاكر لفضلك وعارف بجميلك

صبحي جلبي
بعموم هندسة السكة الحديد

جائزة نوبل الطبيعية
لدافيسون الاميركي وطمسن الانكليزي

أذاعت لجنة جائزة نوبل ان جائزة الطبيعة عن سنة ١٩٣٧ منحت للباحث الاميركي الدكتور دافيسون احد علماء شركة بل التلفونية الاميركية وللعالم الانكليزي الاستاذ جورج طمسن الاستاذ بكلية العلم الامبراطورية بلندن ونجل شيخ علماء الطبيعة في هذا العصر السر جوزف طمسن مكتشف الالكترون وهو الكهرب أو الكهيرب بحسب وضع مجمع اللغة العربية الملكي

والاكتشاف الذي منح هذان العالمان جائزة نوبل من أجله هو اثباتهما ان الكهيربات (الالكترونات) تفعل فعل أمواج الضوء او أمواج الاشعة السينية (اشعة اكس)

فقد أثبتا كل منهما على حدة، ان البلورات تفرق الكهيربات على نمط معين كما تفرق امواج الضوء . فأيد بالتجربة نظرية الميكانيكيات الموجية التي وضعها العالم الفرنسي البرنس ده بروليِ ونال عليها جائزة نوبل الطبيعية سنة ١٩٢٩

وتبلغ قيمة جائزة نوبل هذه السنة نحو ثمانية آلاف جنيه نصفها لدافيسون ونصفها لطمسن الصغير

*

ان وجه الخطر في اكتشاف الحقيقة التي اكتشفاها — أي ان البلورات تفرق الكهربات على نمط معين — قائم على ان هذه الحقيقة الطبيعية الجديدة أصبحت وسيلة بارعة دقيقة من وسائل البحث الطبيعي وهي تشبّه باكتشاف اشعة اكس. ان تفرق هذه الاشعة عند تسديدها الى بلورات مكن علماء الطبيعة الحديثة من النفوذ الى فهم المعادن وكيف تتركب ذراتها وجزيئاتها ومن فهم البلورات وما اشكالها وكيف تجتمع فتتكون منها كتل بلورية كبيرة. ثم انها تصلح لدراسة الاغشية الرقيقة جدًّا وقوامها من ذرات وجزيئات. وفي جميع هذه الاحوال — أي المعادن والبلورات والاغشية — لا تسدي اشعة اكس خدمة للعلم لانها تخترق هذه المواد فتحل الكهربات محلها لانها تصطدم بالذرات والجزيئات فتتفرق فيعرف من تفرقها وشكله قوام المادة المخترقة. وفضل دافيسون وطمسن قائم على اكتشاف هذه الحقيقة اولاً ثم تحرّي اساليب استعمالها

ومن عهد قريب اقترح احد الباحثين الاحيائيين انهُ يمكن استعمال هذه الطريقة لدراسة الاغشية الحيوية الرقيقة التي تفصل خلايا الجسم الحي بعضها عن بعضها ومعرفة قوامها

اكتشف هذان الباحثان — كلٌّ على حدة — هذه الحقائق سنة ١٩٢٧. وكان دافيسون يشتغل بكهربات سريعة يوجهها الى بلورة من معدن النيكل. وكان يساعده الدكتور جرمر. اما الاستاذ طمسن فكان حينئذٍ في جامعة ابردين باسكتلندا وكان قوام تجاربه كهربات بطيئة — بطئًا نسبيًّا طبعاً — موجهة الى ورق رقيق جدًّا من الذهب الخالص

ويبلغ طمسن السنة الخامسة والثلاثين من العمر أما دافيسون ففي السادسة والاربعين. وقيل انهُ لما بلغهُ نبأ الجائزة وقابله الصحفيون لمحادثته أصرَّ على وجوب ذكر مساعده الدكتور جرمر مقروناً باسمهِ عند النشر

جائزة نوبل الكيماوية

وكما منحت جائزة نوبل الطبيعية لعالمين احدهما انكليزي والآخر اميركي منحت جائزة نوبل الكيماوية عن سنة ١٩٣٧ لعالمين كذلك احدهما انكليزي والآخر سويسري. اما الانكليزي فاسمهُ الاستاذ هاورث احد اساتذة جامعة برمنهام. وأما السويسري فاسمهُ الاستاذ بول كارر أحد اساتذة جامعة زوريخ

كان مدار البحث الذي نال من أجله الاستاذ كارر هذه الجائزة التركيب الكيماوي لجزيء فيتامين A وهو المعروف بفيتامين النمو ويكثر في زيت السمك والزبدة والجزر وغيرها. ومن بدائع ما ثبت للاستاذ كارر في أثناء بحثه ان هذا الفيتامين دقيق الصلة بمادة كيماوية تعرف باسم «ايونون» وهي المادة الاساسية في عطور البنفسج

ثم حوَّل الاستاذ كارر نظره بعد ذلك الى فيتامين B الثاني وهو ضرب من فيتامين B

بشير الشهية فكشف عن تركيبه الكيمياوي وقد تمكن احد بيوت العقاقير ان يصنع هذا الفيتامين بالتركيب الصناعي باشراف العالم السويسري . وتقول احدى الصحف العلمية الاميركية ان علماء أميركا أتيح لهم رؤية هذا الفيتامين المركب بالتأليف الصناعي في الاجتماع الذي عقدته الجمعية الطبية الاميركية سنة ١٩٣٥ وكان كل ما ركب منهُ ستين قمحة حينئذ

أما مدار البحث الذي أجراه الاستاذ هاورث فكان فيتامين C المانع للاسكربوط وطائفة أخرى من المواد الكيمياوية هي اساس المواد النشوية والسكرية فنفذ من بحثهِ هذا الى أسرار تركيب السلولوس وهو المادة الاساسية في الخشب والقطن والكتان وغيرها

جائزة نوبل الطبية

وقد سبق لنا أن اشرنا في هذا الباب الى ان جائزة نوبل الطبية عن سنة ١٩٣٧ منحت للعالم المنغاري الاستاذ البرت سانت جورجي. وقدرنا عند ما أشرنا الى هذا الموضوع ان الجائزة منحت لهُ جزاء لهُ على اكتشافه فيتامين P المعروف باسم السترين الذي يوجد في ثمار الموالح والباريكا (وهي نوع من الفلفل) ولكن الجائزة منحت لهُ لانهُ كان اسبق العلماء الى الحصول على فيتامين C مبلوراً . وهذا الفيتامين كما لا يخفى مانع لداء الاسكربوط . وأما فيتامين P الذي اكتشفهُ الاستاذ سانت جورجي من عهد قريب فوثيق صلة القرابة بهِ الاَّ انهُ يختلف عنهُ

*

الولايات المتحدة الاميركية
تخسر تفوقها في ميادين الطيران

كان التفوق في ارقام الطيران القياسية في سنة ١٩٣٦ لاميركا فكان لطياريها ٥٤ رقماً ولطياري فرنسا ٣٧ ولطياري ايطاليا ٣٦ ولطياري المانيا ٨ ولكل من بريطانيا وروسيا رقم قياسي واحد

اما الآن فقد اصبح المقام الاول لايطاليا فلطياريها ٤٥ رقماً قياسيًّا وتليها الولايات المتحدة الاميركية (٤٣) ففرنسا (٣٥) فروسيا (١٥) فألمانيا (١٤) فبريطانيا اربعة ارقام قياسية

ولعلَّ ارتقاء روسيا من احرازها رقماً قياسيًّا واحداً في الطيران الى احرازها ١٥ رقماً قياسياً في سنة واحدة اكثر استيقافاً للنظر من ارتقاء ايطاليا من المكانة الثانية الى المكانة الاولى وزيادة الارقام القياسية التي احرزها طياروها من ٣٧ رقماً الى ٤٥ رقماً قياسيًّا . وقد كان التنافس على اشده بين انكلترا وايطاليا على الرقم القياسي للتحليق في الجو وهو الآن للطيار البريطاني آدم اذ حلق الى ٥٣٩٣٧ قدماً

العلم والديمقراطية

قصة عالم فرنسي شهير

يروى عن جورج كاود المهندس والمستنبط الفرنسي المشهور انهُ رغب من بضع سنوات في ان ينتخب عضواً في مجلس النواب فأعدَّ سيارة نقل كبيرة وحملها أسلاكاً ومضخات وأنابيب وقوارير وذهب الى دائرته الانتخابية ليخطب في الناس ويقنعهم بانتخابه ولما وصل الى دائرته الانتخابية وقف على السيارة وخطب قائلاً اني لا أعرف شيئاً عن السياسة ولكن من تحتاج اليهم فرنسا في مجلس النواب ليسوا سياسيين بل كيماويين وطبيعيين ومهندسين وفنيين مدربين يعرفون ما هي الآلات التي اسبغت على حضارتنا صفتها واتجاهها انتخبوني فاسعى لاجعل فرنسا اعظم مما هي عن طريق العلم والهندسة . والآن اليكم بعض التجارب العلمية

فراقبهُ الجمهور مأخوذاً وسمعهُ مشدوهاً ولكن جورج كاود لم ينتخب عضواً في مجلس النواب الفرنسي . ولو انهُ أدرك ساعتها ان المجتمع في حالتهِ الحاضرة اشد تأثيراً بما يثير العواطف منهُ بما يحفز العقل لتمكن بشيء من البراعة والاستهواء ان يحول اخفاقه الى ظفر لان تاريخ فرنسا حافل بفريق من اكبر العلماء كانوا كذلك من أقطاب السياسة رجال كبرت الفسيولوجي وبرتيلو الكيمياوي وبانليفيه الرياضي

ليس جورج كاود من طراز الفلاسفة المثاليين الذين اراد افلاطون ان يسودهم على الدولة المثلى ولكنهُ مهندس يعرف ان الدمقراطية عاجزة عن معالجة المشكلات التي خلقها العلم ويرى ان انقاذ الدمقراطية والحكم النيابي والاحتفاظ بقواعد الحرية والمساواة لا يمكن ان يكونا الاَّ عن طريق العلم نفسه

ذلك أن الدمقراطية صورة لنظام الحكم ورثناها من القرن الثامن عشر ولا يزال اقطابها في القرن العشرين يفكرون على الاكثر تفكير اسلافهم في القرنين الماضيين حالة أن الجماعة التي عنت للآلة ومنتجات الآلة اصبحت في الواقع خاضعة للهيئات الصناعية والاقتصادية اكثر منها للاحزاب السياسية

لان الاحزاب السياسية هيئات منظمة يعرف اقطابها كيف يستهوون الجماهير اما العلماء حتى علماء السيكولوجيا فهم ابعد ما يكونون عن معرفة اهواء الجماهير وكيفية التأثير فيها. ولكن الحكومات والشعوب التي يهمها ان تنفذ الديمقراطية للحضارة يتحتم عليها ان تبتدع اسلوباً تدخل بهِ العلماء الى مخادع الحكام

انابيب البيرا من الزجاج

كانت أنابيب البيرا التي تمد بين مصانع البيرا ومستودعاتها في مشاربها بالمانيا تصنع من المعدن المطلي من داخلهِ بالقصدير فأصبحت تصنع من الزجاج لان الحاجة ماسة الى القصدير في في صناعة السلاح

اخلاط ملونة من الذهب

لون الذهب معروف لا يحتاج الى وصف ولكن التجارب الحديثة اثبتت انهُ اذا خلط بمعادن اخرى تغير لونهُ فيصبح له شأن آخر في ما يستعمل له بقصد الزينة . والغالب أن يكون لون الخليط المعدني مزيجاً من ألوان المواد الداخلة في الخليط الاَّ أن الباحث يجد احياناً ان خليطاً جديداً من مواد معينة يظهر في لون غير اللون الذي يتوقعهُ

والذهب من هذا القبيل فاذا خلطت ٢٢ جزءاً من الالومنيوم بـ ٧٨ جزءاً من الذهب كان لك خليط معدني أرجواني او في لون الياقوت الاحمر . والغريب الذي يبعث على الاسف ان هذا الخليط قصم سهل الكسر فلا يمكن مده اسلاكاً ولا طرقه ورقاً رقيقاً ولا يعلم الآن هل يمكن في المستقبل ان يستعمل بقصد الزينة

أما إذا خلطت الذهب بمقدار عشرة في المئة من الالومنيوم كان الخليط ابيض فاذا زاد نسبة الالومنيوم في الخليط رويداً رويداً تحول لونهُ الابيض الى وردي فالى ارجواني

***

ولا يعرف علماء المعادن خليطاً معدنيًّا آخر بهذا اللون الاّ خليطاً قوامهُ ٥١ في المئة من النحاس و ٤٩ في المئة من الانتيمون ولكن لونهُ الارجواني اقل زدهاء من لون خليط الذهب والالومنيوم

اصلاح النسل

تتمة المنشور على الصفحة ٣٩ للدكتور شريف عسيران

وكان يبلغ عدد سكان اتيكا ٩٠ الفاً من السكان الخلّص و ٤٠ الف اجنبي عن البلاد وأربعمائة الف عبد من العمال وأصحاب الحرف. وتولد النوابغ الذين مرّ ذكرهم من التسعين الف الاولى . والسبب في ذلك ان الاثينيين فتحوا الباب على مصراعيه لهجرة العناصر الجيدة وأوصدوه في وجه الفاسدة وجعلوا مدينتهم مركزاً لاولي المقدرة الفائقة والثقافة العالية بخلق وسائل لم تتوافر في غيرها من المدن . واستنتج غالتون من ذلك ان معدل مقدرة السلالة الاثينية في ذلك العصر يفوق على اقل تعديل السلالة الانكليزية الحاضرة بنسبة تفوقها على سود افريقيا . يقول هالدين : ليس هناك دليل على أن مواهب الانسان الوراثية تحسنت في الثلاثين السنة المتأخرة مع العلم بأن عاداته وعلمه تحسنت بمدى واسع . والانسان الذي اكتشف النار لا بد كان عالي الهمة شديد الذكاء . والارجح انهُ لو عاش اليوم لعرف كيف يستخرج النفط من الطباشير والماء وقوة الريح . وكذلك لم تتقدم وراثة الامة العربية وانما حصل تغير في محيطها فاسلافنا كانوا اخصب منا فلسفة وعلماً وأدباً ومدنية وثقافة والمحيط مهما ارتقى لا يحسن الوراثة البيولوجية ومن الممكن تحسين وراثة النباتات والحيوانات ولكن تجارب آلاف السنوات علمتنا أن ما ينطبق عليها لا ينطبق على الانسان

مكتبة المقتطف

هندسة الكون بحسب ناموس النسبية

بقلم نقولا الحداد ١٦٨ صفحة من القطع المتوسط ٢٤ × ٧ سم أصدرته دار المقتطف وعدداً خاصاً من المقتطف في شهر اغسطس سنة ١٩٣٧ م القاهرة — الثمن ١٥٠ مليماً

الاديب البحاثة نقولا الحدّاد من رجالات الفكر الذين يعنون بتبسيط مغمضات مباحث الفوزيقا الحديثة وخاصة ما اتصل منها بنظريات البرت اينشتين في مبدأ النسبية . والكتاب الذي نحن بصدده تبسيط لاوليات نظرية اينشتين مسوق الى الافهام العامة . وهذا الكتاب يعتبر الاول في موضوعه في اللغة العربية ، والمبحث الوحيد الذي كتب في هذا الشأن . واني وان كنت شخصيًّا قد وضعت دراسة مفصلة عن نظريات اينشتين في مجلدين في اكثر من خمسمائة صفحة في العربية تلخيصاً عن كتابي Die Grundlangen der Relativitaetstheorie, Leipzig. 1934 الذي أُلّفتهُ بالالمانية في ثلاثة اجزاء ، الاّ أنني لم أنشر من دراستي العربية غير جانب في مجلة « الرسالة » مسلسل على عدة مقالات ، وهذا الجانب يعرض لقرارات « النسبية الخاصة » التي تقومت بجهود لورانتز وبوانكاريه واينشتين ومينقوفسكي دون « النسبية العامة » . ولما كنت قد نهجت في دراستي النهج الرياضي الصرف فقد كانت الفائدة قاصرة على الذين في مكنتهم ان يسيروا في البرهان الرياضي العالي . لهذا وحده يمكنني ان أغفل حساب ما كتبت في هذا الشأن واقرر ان كتاب البحاثة نقولا الحدّاد الاول في موضوعه بأسلوبه وسيظل فريداً في بابه بمنهجه. غير ان هذا لا يمنعني بحكم توفري الطويل على دراسة النسبية والقيام بتدريسها في وقت من الاوقات ضمن دروس الفوزيقا النظرية بمعهد الطبيعيات الروسي التابع لجامعة موسكو ان أوجّه نظر المؤلف الى بعض الاخطاء التي وقع فيها نتيجة الخلط بين النظر الكلاسيكي والنظرة الجديدة التي تقومت بجهود اينشتين ومينقوفسكي

ذهب المؤلف مذهب لورانتز في تفسير ظاهرة تقلص الاجسام في اتجاه سرعتها واعتبر هذا التقلص حقيقة فوزيقية . ولكن قبل كل شيء يجب ان نفرق بين ما هو داخل في نطاق الفوزيقا الثانية مما هو راجع لاعتبار انساني وبين ما هو ضمن الفوزيقا الاولى مما هو يعرض لعالم الطبيعة من حيث هي ، لان موضوع الفوزيقا الثانية يتصل بعالم المظاهر بينما موضوع الفوزيقا الاولى يتصل بما هو واقع . إذن فلنا ان نسأل : هل ظاهرة التقلص في الاجسام في اتجاه حركتها حقيقة واقعة ام حقيقة تتصل بعالم المظاهر ؟ فان كانت حقيقة تتصل بعالم المظاهر فهل يصح تفسيرها تفسيراً واقعيًّا ؟

لقد كانت الفوزيقا القديمة ترى هذه المظاهرة حقيقة واقعة حتى ان لورانتز فسرها بنظريته في الالكترون — انظر Hendrik-Antoon Lorentz Ernscheinungen في Elektromagnatische in einen System, das sich beleibiger, die des Lichtes nichterreichender Geschvindigkeit. (Leiden 1895).

ولقد تابع المؤلف لورانتز في تفسيره ، ولكن الفوزيقا الحديثة التي تقومت بجهود اينشتين وتكلمت بمباحث مينقوفسكي يثبت ان ظاهرة التقلص ظاهرية بالنسبة للانسان وحقيقتها تتصل بعالم المظاهر ، حتى ان الاب مورو Moreux يرى ان الاثر الوحيد لاينشتين في النسبية الخاصة ينحصر في هذا وحده . ولقد تبسطنا في شرح هذه المسألة رياضيًّا في المقال المنشور بمجلة الرسالة العدد ١٣٨ (السنة الرابعة — ٢٤ فبراير سنة ١٩٣٦) وقد جاء في ختامها :

« ومسئلة تقلص الاطوال شيئاً فشيئاً كما تقرره ميكانيكية لورانتز ليست راجعة الى تقلص الاجسام في اتجاه حركتها وانما هي نتيجة لنسبية الاطوال . وليس هذا التقلص حقيقيًّا بل هو ظاهري حيث ان الراصد لا يمكنهُ ترتيب حدوث الحوادث كما تقع في عالم الواقع . وانما يرتبها بحسب ما تتراءى له . وتقسيم الزمان والمكان تقسيماً مطابقاً لموضوعها لا يمكن اجراؤه في صورة مستقلة بعضها عن بعض ، حيث ان سرعة اندفاع الجسم اذا بلغت سرعة انتشار النور او قاربتها بلغ التقلص اقصاه — ولم يصبح للجسم عمق لدى النظر . لان الاجسام عند ما تبلغ من السرعة هذا الحد تلوح كصفائح رقيقة » . اذاً فاعتبار المؤلف تقلص الاجسام في اتجاه حركتها عملية واقعية ، خطأ لا يتفق وقواعد نظرية النسبية لأن هذا التقلص ظاهري بالنسبة للراصدين . والتفسير الذي قدمهُ المؤلف لتعليل التقلص لا يتفق ومنطق النظرية التي يشرحها

عرض المؤلف لنظرية النسبية كناموس كوني، وقرر واقعية مبادئه وغاب عنهُ ان النسبية نظرية تدخل في نطاق الفوزيقا الثانية ، ويعترض عليها بالشيء الكثير الذي يجمل التريث في بناء نظرة كونية استناداً اليها ، شيئاً محموداً في نظر العلم

يقرّر مبدأ النسبية الكلاسيكية أن الحوادث تحدث في العالم مطلقة سيان كانت منسوبة الى كمياتها الوضعية co-ordinates نسبة ثابتة أو كانت متحركة ازاءها حركة مستقيمة منتظمة . وتجربة « ميكلصون — مورلي» تثبت أن للنور سرعة ثابتة فهل في الامكان التوفيق بين مبدأ النسبية الكلاسيكي النيوتوني وسنة ثبات انتشار الضوء في الفضاء ؟

إن الاجابة عن هذا السؤال بحسب منطق نظرية النسبية ترجع بنا الى مسألة التوافت التي توحي الينا أن الزمان ليس بفكرة أنية a priori كما تقرر الميكانيكا الكلاسيكية ، وان مفهوم السرعة مشتق منهُ ، بل أن سرعة النور وثبات هذه السرعة مفهوم أولي، ومنها يشتق مفهوم الزمان

فكأنما راصد الحادثات مقيد بآلاته يقرر حسبها تتراءى له الحادثات ، والزمان بالنسبة لهُ ليس شيئاً وهميًّا لدى القياس كما هو في ميكانيكية لورانتز لهُ حقيقة موضوعية

هذا الافتراض حققهُ اينشتين عن طريق ردّ مبدأيْ مطلقية الزمان والمكان ورجع بهما الى هيئة القياس ، أعني الى مبدأ عام ينسبهما الى الهيئة التي تقاسان بالنسبة لها . وهذه الوجهة من النظر هي قرارة نظرية اينشتين في النسبية الخاصة

ولقد خلص اينشتين الى هذا الافتراض من تحقيق رياضي عرض لهُ المؤلف في آخر القسم الثالث ، الفقرة ى من الفصل التاسع ص ٨٧ — ٩٠ فلتراجع هناك . غير أنهُ من المهم أن نعلق على هذا بأن هذا الافتراض خطأ من الوجهة الفيزيقية والرياضية ، أما الوجهة الفيزيقية فلأن تحقق ذلك قائم على الخلط بين نظريتين من هيئات القياس

وقد كان بودّي أن اشرح هذا الخطأ ولكن تحقيقه رياضي . والمقتطف لا يتسع لمثل هذا التحقيق ، غير أن هذا لا يمنعني ان أعلن قرائي اني أرحب بكتابتهم اليَّ بشأنه إذا أرادوا التوسع ، وكل ما يمكنني ان أقوله من باب عقلي بعيد عن الاسلوب الرياضي أنهُ في الشرح الذي قدمهُ البحاثة نقولا الحداد ص ٦٦ — ٦٩ من كتابه كان الزمن متواقتاً بالنظر للراصد الذي بالنقطة (ب) ومتخلفاً بالنسبة للراصد (ن) ، وذلك لان انتشار النور سيكون ثابتاً للراصد (ب) ومتخلفاً بالنسبة للراصد (ن). والى هنا نتفق مع اينشتين ولكن نختلف معهُ في أن التخلف سيكون بالنسبة لمن ؟ بالنسبة للراصد (ب) ؟ ام بالنسبة للراصد (ن) ؟ وان الحادثتين اذا كانتا متواقتتين بالنسبة للراصد (ب) فمن الذي سيحكم بعدم تواقتهما بالنسبة للراصد (ن) ؟ ومن الذي سيقتنع بهذه الوجهة من النظر ؟ ان الذي سيقتنع والذي سيحكم بطبيعة الحال هو الراصد (ب) !

فكان بالنسبة لوجهة نظر الراصد (ب) هناك حادثتان متواقتتان له غير متواقتتين بالنسبة راصد (ن) !

ولتحقق هذا يجب ان نعترف بامكان معرفة الراصد (ب) وجهة نظر الراصد (ن) ، ولكن اينشتين يسوق كل نظريته ويمضي في استدلاله الرياضي دون ان يكون هنالك اثبات لهذه الدعوى فكأن ملاحظة اينشتين إذن ساقطة

لقد اغفل المؤلف الكلام عن ميكانيكية لورانتز التي هي نتيجة من نظرية النسبية ، لان استخراج معادلات التحويل اللورانتزية يستلزم قبول ميكانيكا لورانتز ، ولقد أخذ اينشتين بهذه الوجهة من النظر غير أن المؤلف اعرض عن هذا مع أنهُ في معرض الكلام عن نظرية اينشتين وكان نتيجة هذا قفزة واسعة من نطاق النسبية الخاصة الى النسبية العامة لا يتأتى ادراكها الاَّ في ضوء الكلام على الميكانيكا الجديدة والديناميكا النسبية

فاذا ضربنا صفحاً عن الاخطاء الاصطلاحية وهي كثيرة في الكتاب وهي موضوع بحث

خاص فان الدراسة لم تخلص في أكثر فصولها من الخلط بين النظريتين الكلاسيكية والجديدة من ذلك ما قدمهُ الكاتب من تعليل لسبب انحراف شعاعة النور المارة على مقربة من الشمس ص ١١٠ ، والذي يناقض اعمال البعثتين الفلكيتين — انظر J. W. Dyson, A. S. Eddington and C. Davidson, " A Determination of the Dflection of light by the Sun's gravitational field...„ Philosophical Transactions of The Royal Society of London Serie A. Vol 220 (1920) , p. 291-333. Cf. E. Freundlich, Die Naturwissenschaften (1920) , p. 667-673.—

كذلك عما كتبه في «تحدب الابعاد الاربعة» ص ١٣٦—١٣٨ . فاذا ضربنا عن كل هذه المآخذ وهي لا تنقص من قيمة الكتاب اذ لا يخلو من مثلها اي كتاب مبسّط في نظرية النسبية ، لا يسعنا الاَّ ان نشكر صاحب الكتاب على ما تجشمهُ من مشقة في وضع هذا الأثر

الاسكندرية اسماعيل احمد ادهم

الصيد في البلدان العربية في العصور الوسطى

٤٤ صفحة و ١١ لوحة للدكتور زكي محمد حسن

Hunting as Practiced in Arab Countries of the Middle Ages

رسالة أنيقة في موضوع طريف كتبها باللغة الانجليزية الدكتور زكي محمد حسن أمين دار الآثار العربية في مناسبة انعقاد مؤتمر الصيد الدولي في برلين . وهي محلاة بمجموعة من الصور الفنية نقلاً عن النقوش المعدنية والخزفية والمنسوجات الاسلامية والاخشاب الاثرية المودعة في دار الآثار العربية وغيرها . في هذه الرسالة تناول الدكتور بحث الاسباب التي دعت الاعراب الى الاهتمام بالصيد قبل الاسلام وكيف ان طبيعة معيشتهم في الصحراء والدفاع عن انفسهم قد وجهتهم الى الغرام بالصيد . كما تكلم عن أسلحة العرب التي استعملوها في الصيد قبل العصر المعدني في شبه الجزيرة العربية وتطوُّرها فيما بعد اكتشاف المعادن

واستشهد الدكتور ضمن وقائع ما كتبهُ ببعض قصص الصيد المشهورة في الاسلام . ولا سيما عند ملوك السلاجقة والفرس والتتار وسلاطين الفاطميين والايوبيين وسلاطين المماليك الذين كانوا يقلدون أعمال الصيد لضابط كبير بأسم « امير شيكار »

ولم يكن لدى خلفاء بني أمية في دمشق والاندلس او بني العباس في بغداد والطولونيين وآل إخشيد والفاطميين والايوبيين وسلاطين المماليك في مصر أعز وأحب من الخروج الى الصيد على متون جيادهم الكريمة وخيولهم الصوافن يحيط بهم رجال معيتهم يحملون أسلحة الصيد البراقة وهم في أزيائهم الملونة البديعة . والرسالة انيقة كما قلنا وطريفة الى حدٍّ بعيد . وقد أخرجتها المطبعة الاميرية ببولاق في ثوب قشيب

عبد الرحمن زكي

القضية الفلسطينية

لواضعه الدكتور يوسف هيكل ، في ٣٠٠ صفحة ، طبع يافا سنة ١٩٤٧

تنازع البقاء ناموس عام في عالم الاحياء . هذه هي منازعات رومة وقرطاجنة ، وبابل وأشور ، والفرس واليونان ، والصين واليابان ، وهذا ما جرى للأوربيين في قارّتي أميركا . فقد أفنوا سكانها الاصليين وحلوا محلهم ، كما فعل الاتراك بالارمن . هذه سنة الكون النافذة رضينا أم لم نرضَ . والكون بحسب نظرية دارون، وتفكير شوبنهور ، نزاعٌ في نزاعٍ

على هذه الصورة أرى امامي في مشهد كتاب هيكل ، اليهود والعرب يتنازعان . اليهود طائفة معروفة ، من ذرية ابرهيم الخليل ، طائفة مشتتة في جميع اقسام الدنيا . طائفة قديرة ، غنية ، مضطهدة متساندة ، منبوذة في كثير من البلدان . لها تقاليد دينية وجنسية تربط قلوبها بفلسطين. فحفز اليهود الى فلسطين حافزان ، هما التوراة والاضطهاد القاسي . فهبوا للسعي في العودة اليها . وألفوا الجمعية الصهيونية في أواخر القرن المنصرم لهذا المقصد . وفي واقع الامر جاء كثيرون منهم الى فلسطين في عهد عبد الحميد . واختطوا تل أبيب وزمارين وغيرها

وشبت نار الحرب الاوربية الكبرى سنة ١٩١٤ . وهنا يقول المؤلف هيكل في صفحة ٤١ « كانت نتيجة الحرب أوائل عام ١٩١٧ غير معلومة . ووضعية الحلفاء حرجة . وكان العالم اليهودي قوّةً هامة . فسعت دول الحلفاء (من جانب) ودول اوربا الوسطى (من جانب آخر) لاجتذابهم . فأظهرت المانيا رغبةً شديدة في الاحتفاظ بميل اليهود وربطهم برباط صداقة جديدة . وتوسطت لدى الباب العالي ليسمح لليهود بسكنى فلسطين . . . . وألحّت على صديقتها تركيا بالتسامح مع الصهيونيين للاحتفاظ بصداقة اليهود . . . . وفي تلك الاثناء أخذ الحلفاء يعتبرون اقتراحات الصهيونيين وعملوا على ارضائهم خوفاً من انضمامهم الى الالمان . فتساهلوا معهم ، واتفقوا واياهم على « تصريح بلفور » . وص ٤٤ . كانت نتيجة الحرب متوقفة على الولايات المتحدة . اذ لم يكن للحلفاء أمل في الانتصار دون مساعدتها . . . . وتأكدوا انهُ من الصعب جداً ادخال الولايات المتحدة الحرب في صفوفهم ان لم يجتذبوا اليهم قلوب اليهود الذين فيها، فكان تصريح بلفور »

ويذكر الكتاب في صفحة ١٧ — ٢٥ اتفاق الحسين بن علي شريف مكة يومذاك ، والحلفاء على خروجه على الترك ، والانحياز الى الحلفاء واعدين بتحرير البلاد العربية واستقلالها فلما انتهت الحرب . وفاز الحلفاء . وكثر اليهود بفلسطين وتنازعوا والعرب ، ذكّر العرب انكلترا بمواعيدها للحسين التي مفادها استقلال فلسطين عربية ، وتشبث اليهود بتصريح بلفور

« ان يكون لليهود وطن قومي بفلسطين » . فكانت انكلترا بين قوتين متضادتين تجرانها الى جهتين متقابلتين . بهذا الاعتبار يقول المؤلف في صفحة ٧٢ : وخاطبت الحكومة البريطانية زعماء الصهيونية قائلة : ليس من الصواب ، ولا من الحكمة ، ان يتابعوا الضغط على حكومة جلالته ، لتتبع سياستهم في مسألتي المهاجرة والاراضي . اذ معنى عملهم هذا انهم يتجاهلون واجب الحكومة نحو سكان البلاد من غير اليهود

ثم قال المؤلف في صفحة ٩٩ « وبعد ان درست وزارة المستعمرات (الانكليزية) تقرير لجنة شو ، وتقرير سمبسون ، وضعت حكومة جلالته الكتاب الابيض لعام ١٩٣٠ وبهِ انصفت العرب بعض الانصاف » . و ص ١٠١ « وجابه العرب المشروع بتروٍّ وامعان فكر ، وأخيراً قبلتهُ مبدئيًّا اكثر يتهم . . . اما اليهود فحملوا عليهِ حملة شعواء » الخ . ويقول في ص ١٠٠ « وأخيراً هدَّد الصهيونيون حكومة جلالته باعلان حرب اقتصادية عليها ان قامت بتنفيذ محتويات الكتاب الابيض لعام ١٩٣٠ » . وفي ص ١٠٢ « حاول وزير المستعمرات الدفاع عن المشروع . غير أن اعضاء المجلس (البرلمان) المتشبعين بالاهواء الصهيونية لم يعيروا براهينه اذناً صاغية . فخشيت حكومة بلدوين تألُّب النواب عليها ، فعدلت عن مشروع تأسيس المجلس التشريعي ، وأوعزت الى مندوبها في فلسطين ان يتمهَّل . . . فظهر للعالم بكل جلاء أن نفوذ الصهيونية دخل وتمكن في البرلمان البريطاني »

وجاء في ص ١٠٤ « نرى وللاسف أن الحكومة المنتدبة لم تتقدم خطوة واحدة في سبيل ترقية الحكم الذاتي في فلسطين . . . ليس لانها لا تريد القيام بواجباتها ، ولكن لأنها عاجزة عن مقاومة الصهيونية »

يتبيَّن القارىء من هذه الاقوال وامثالها ، وهي كثيرة في الكتاب ، أن المؤلف يشهد للحكومة الانكليزية بحسن النية نحو العرب . ولكنها غير قادرة على ان تقاوم الصهيونية ذات الحول والطول في انكلترا او اميركا . وذلك ابلغ دفاع قال بهِ فلسطيني عن الحكومة الانكليزية

ثم أتى في صفحة ٢٤٩ على « الحل العلمي العادل » لمشكلة فلسطين ، وبعد ما مهَّد لهُ بكلام حكيم قال في ص ٢٥٣ و ٢٥٤ ما نصهُ : « خير حل للمشكلة اليهودية هو . . . إيجاد وضعية دولية خاصة باليهود . اي إن يعيش اليهود في البلاد التي هم فيها . وان يكونوا مخلصين نحو حكومتها . ويقوموا بجميع الواجبات التي يقوم بها اهل البلاد . وان تعترف لهم الدول بحقوق خاصة في ما يتعلق بديانتهم وعاداتهم ولغتهم . وان تكون هذه الحكومات مسؤولة عن ذلك أمام مجلس دولي . . . وتكون فلسطين مركزاً روحيًّا وثقافيًّا لهم »

وهو حل بديع لو يصحّ

ولا يحط من قدر المؤلف بعض اغلاط وردت في كتابهِ ، ارى من واجب المراجعة الاشارة اليها . قال في صفحة ٤٧ « خلف يعقوب ١٢ ولداً صغيرهم يوسف » . وهو خطأ . والصواب ان صغيرهم بنامين . وقال في ص ٤٨ وبعد ان مضى عليهم خمسة قرون (في ارض كنعان — يعني اليهود) مالوا الى الحضارة واختاروا شاول ملكاً عليهم » . والصواب ان عصر القضاة ، الذي كان اليهود فيهِ في شيءٍ من البداوة ، لم يزد على ٢١٥ سنة يضاف اليهِ عصري يشوع بن نون وصموئيل ٨٠ سنة . وقال في ص ٥٠ دخلت فلسطين ضمن امبراطورية الاسكندر عام ٣٣٢ ق م . الى ان دخلت ضمن الامبراطورية الرومانية عام ٦٤ ق . م . هنا أغفل المؤلف عصر المكابيين وهو امجد سطر في تاريخ اليهود . وقال في ص ٥٤ عدد المسيحيين اكثر من ٤٥٠ مليوناً . وهو خطأ صوابه انهم اكثر من ٧٠٠ مليون . منهم في اوربا ٤٥٠ وفي اميركا ٢٦٠ عدا من في اوستراليا وافريقية واسيا وجزر البحار . اقتصر على القليل وهو عن الكثير بديل . مثنياً على نزاهة المؤلف وسعة اطلاعه القاهرة حنا خباز

اصول الطب البيطري

تأليف الدكتور ابرهيم نجيب محمود مدرس الطب البيطري في كلية الزراعة في الجامعة المصرية
مطبعة الاعتماد بشارع حسن الاكبر والثمن خمسون قرشاً

انهُ ليسر الباحث ان ينقد كتاباً مثل هذا الكتاب فهو كتاب مدرسي حسن التأليف والطبع فرأيت ان انقد بعض فصولهِ لأبين للقارىء بعض ما جاء فيهِ فالباب الاول في الحيوانات الاهلية كالبقر والابل والخيل ونحوها وقد زين المؤلف صفحاته بالصور المتقنة البديعة واورد فيها اجزاء الجسم في كل منها وكتب اسماءها بلغة عربية فصيحة ففي اجزاء الفرس مثلاً ما يأتي:

الرأس والجبهة والاذن والانف والعين ونقرة العين والناصية والمنخران والشفة العليا والشفة السفلى والذقن والفك والبارزة الوجنية والرقبة والسبيب اي العرف وصفحة العنق ثم الصدر ثم الجسم وفيهِ المحارك والظهر والقطن والجنب واللبان اي الصدر والبطن والخاصرتان والكفل يتوسطهُ العجز والجراب داخلهُ القضيب ويقال للجراب القنب ثم الصفن داخلهُ الخصيتان ثم البارزة الحرقفية ثم القائمة الامامية وهي الكتف ومفصل الكتف والعضد والمرفق اي الكوع والساعد والزائدة القرنية والركبة والوظيف (المدفع الامامي) والزر (الرمانة) والقيد والشرابة الامامية اي الثنة والاكليل والحافر . ثم القائمة الخلفية وفيها مفصل الورك والفخذ والساق والعرقوب وبروز العرقوب والوظيفة الخلفي والزائدة القرنية الخلفية والرمانة الخلفية والشرابة الخلفية اي الثنة والقيد الخلفي والاكليل الخلفي والحافر الخلفي والذيل وشعر الذنب وفي الانثى الضرع ولهُ خلفان اي حلمتان والحياء في أسفل الشرج . ثم أورد أجزاء البقر والابل

وكلهُ بلغة فصيحة . وقد سرني في تصنيف هذه الحيوانات قولهُ اللبونة فانها اصلح كثيراً من الثدية فليس كل لبون ثديي على ان مجمع اللغة لا يزال على ثديي او ان الموكل بانتخاب مصطلحات علم الاحياء لا يزال في القرن التاسع عشر او انه يرضى بالحيوانات اللبونة بعض مضي سنوات حتى ينسى من اقترح اللبونة

هذا في الفرس ثم ذكر المؤلف الحيوانات الاهلية المشهورة في مصر واورد رسومها واسماءها العربية الفصيحة في غاية الدقة والاتقان . هذا في فصل واحد من الفصول وكنت افضل ان يهمل ما هو اعجمي في بعضها فيقتصر على الوظيف مثلاً اما اضافة المدفع اليها فأعجمي لا لزوم لهُ فالمدفع انكليزي والوظيف عربي وهو يكفي وهناك مسألة اخرى احب ان اشير اليها فقولهُ الجمال والاغنام والماعز كلهُ فصيح واظن لو قال الابل فالابل تشمل الجمال وهي الذكور والنوق وهي الاناث : فالعامة تفهمها وهي ادق في التعبير ولماذا تقول الاغنام والغنم افضل وهي جمع وتشمل الضأن والمعز والغنم شائعة في السودان والعراق ويراد بها ذوات الصوف وذوات الشعر

اما الباب الثاني في تركيب الحيوان فانهُ ذكر فيه الشحم والدهن وقال إنَّ الشحم يشبه الدهن في ذوبانه وقد بينت قبلاً في المقتطف ان الدُهن مادة سائلة وان الشحم هو ما يسمى بالانكليزية Fat لا كما تزعم العامة ولا كما جاء في لجنة علوم الاحياء والمادتان هما بالانكليزية والعربية كما يأتي fat and oil

(المقتطف : في هذا الجزء من المقتطف بحث للاب انستاس ماري الكرملي في هذا الموضوع)

ثم الباب الثالث وغيره الى آخر الكتاب . فالكتاب مؤلف دقيق اورد فيه المؤلف الاسماء العربية الفصيحة كما تقدم فهو كتاب نفيس واني اشير بالاعتماد عليه لفصاحته فهو من جملة الكتب التي اختارها الله لتوحيد المصطلحات الطبية

مصر الجديدة   امين المعلوف

الثورة العرابية

لانور زقلمة — واخراج مطبعة المجلة الجديدة سنة في ٣٧٠ صفحة

في دراسة التاريخ القومي أكبر عون على الفخر بالانتساب الى وطن عظيم ، ومن أجل هذا كانت عناية جميع الأمم الحية بدراسة التاريخ الوطني علماً منها بانها خير سبيل لكي يغرس في نفوس النشء روح الاعتزاز بالوطن والعمل على احياء تراث الماضي المجيد . وكانت الوسيلة التي تبعتها تلك الأمم الحية لايقاظ الشعور الوطني أنها استقلدت من كل صفحة من صفحات تاريخها المضيء باستخراج ما فيها من دروس وطنية

والروح التي كتب بها الاستاذ المحامي « انور زقلمة » كتابه الاخير الثورة العرابية هي التي

يحتاج اليها في معظم كتب التاريخ التي يجب ان يتداولها الطلبة في المعاهد العلمية بعد التحول الفكري الذي اصاب معظم الكتاب والمؤرخين الذين انتدبوا « رسميًّا » للكتابة عن بعض صفحات تاريخية لمصر تعمدوا فيها عن قصد او غير قصد الحط من قيمة تاريخنا وذكرى ابطالنا . فكتبوا ما كتبوه من الكتب وهي خالية من ذكرى الاعمال العظيمة التي اتاها الجيش المصري في فتح البلاد الاسيوية بقيادة تحوتمس الثالث اوملوك الرمامسة . وفي محاربة الصليبيين امام دمياط والمنصورة وفارسكور وفي القضاء على الجيوش العثمانية في سورية والاناضول بقيادة الجندي البطل ابراهيم . وفي القضاء على مآرب الفرنسيين في مصر وفي مقاومة الحملة الانجليزية في المئتي السنة الاخيرتان

والتاريخ المصري الحديث حافل بحوادث الابطال المصريين — هؤلاء الابطال الذين يجب علينا ان ندرس تاريخهم بتوسع . فلا يقال عنا اننا امة تنكر الجميل وتجحد فضل ابنائها الذين ماتوا في سبيل رقيها — ومن هؤلاء الرجال . . . عرابي باشا وهو وان كان قد خاب في مساعيه الا اننا يجب ان نذكر ان خيبته لا تحط من قيمة عمله بل يجب علينا ان نكثر من درس سيرته لنعلم اسباب الاخفاق فنجتنبها واسباب الرقي فنأخذ بها

هذا البحث يقدمهُ الينا الاستاذ « أنور زقلمه » في كتابه « الثورة العرابية » بعد ما راجع من الكتب والمصادر النفيسة ما راجع وحلل ما ورد فيها من الآراء المتناقضة

لخص المؤلف اهم حوادث مصر منذ حكم محمد علي الى ايام اسماعيل العظيم . وتناول الكلام عن تسرب النفوذ الاجنبي الى الادارة المصرية وأسبابها السيئة في قيام العاصفة فالثورة فالعصيان القومي وقيام عرابي يدافع عن الظلم الذي لحق بالجيش من جراء تعسف الضباط الترك وانتقل المؤلف الى الكلام عن التداخل الانجليزي بين الخديو وشعبه بحجة الدفاع عن عرش سيد البلاد. ثم وصف الحوادث التالية للثورة الى نشوب الحرب بين الجيش المصري والانجليزي . وفي الفصلين الختاميين لخص اهم اسباب الثورة ونتائجها فنجده يقول : « لقد اخرجت لنا الثورة جميع زعماء النهضة الحديثة في مصر ويكفي ان الزعيم سعد زغلول كان احد الشبان الذين تخرجوا منها »

ونحن نهنيء الاستاذ زقلمه بمؤلفهِ النفيس ونأمل ان يكشف الستار قريباً عن صفحة تاريخية ماضية ليملأ بنورها فراغاً آخر

عبد الرحمن

فؤاد الاول

من الصفات النبيلة التي خلعها العالم على المصريين انهم كرام . ولسنا ندري ان كان مبعث ذلك طيب مناخهم ، وصفاء سمائهم ، أم انهم من سلالة أولئك العرب الذين أثبتوا عمليًّا انهم معدن الكرم ، فاحتفظت صفحات التاريخ بذكريات رائعة لهم ، ما زالت تسير مسير المثل وتهب هبوب العرف الشذى . ولئن كان المرحوم شاعر النيل نعى عليهم ان يتغالوا في تلك الحلة التي

جرت عليهم في سبيل الحياة ذاك الزحام ، فان مما لا شكّ فيهِ انهُ لم يجد هو او غيره مغمزاً في ذلك الخلق النبيل : خلق الوفاء الذي انتظم خاصتهم وعامتهم . وظهر ذلك جليًّا في ليالي خطوبهم كما وضح في مباهج أعيادهم . ولئن كان مظهر الكرم رائعاً فيهم على الرغم من انهُ لم يعد يناسب الاوضاع الاجتماعية فان مظهر الوفاء فيهم ما زال أروع ، اذ لا مصدر لهُ إلاَّ القلب ، بخلاف الكرم فقد يكون لدواع لا تمت الى جوهره الاَّ بأوهى سبب !! نقول هذا على ذكر المؤلف الضخم الذي قام بتأليفهِ ثلاثة من رجال التربية في وزارة المعارف . أما الكتاب فهو « فؤاد الاول » . وأما المؤلفون فهم الاساتذة الافاضل : عبد العزيز الازهري وعلي سرحان ومحمد مجاهد . لم نكد نتصفح صفحاته التي تشارف الخمسمئة من القطع الكبير حتى راعنا حسن تنسيقه ، وجميل تبويبهِ ووفرة صوره هذا الى افانين من الاسلوب السهل الممتنع ، والبحوث الدقيقة المدعومة بالارقام ، والبسط الوافي لكل ما لهُ علاقة بجلالة الملك الراحل وليداً وطالباً واميراً وزوجاً ووالداً وسلطاناً وملكاً . . . . او ما له صلة بعصر الحديثة ما بين سنة ١٩١٧ التي ولـي فيها حكم مصر وسنة ١٩٣٦ التي جاور فيها الرفيق الأعلى . فدعاهم هذا الى ان يستطردوا في دقة وبراعة النهضات المصرية : علمية وسياسية ودينية واجتماعية واقتصادية ... ومما نشكره لحضرات المؤلفين اهتمامهم بامر الصحف والمجلات في بحث شائق استغرق ست صفحات كاملة فتحدثوا عن مبلغ نفوذها واثرها ومنزلتها كهيئة محترمة بين الهيئات التشريعية والقضائية والتنفيذية وأقدم الجرائد الاوربية والعربية وكان ذلك من حضراتهم تمهيداً لعلاقة الملك الراحل بالصحافة : أميراً وسلطاناً وملكاً

وكما أن المنطق أوحى الى المؤلفين أن يجعلوا براعة الاستهلال في كتابهم أن تحدثوا عن الاسرة المحمدية العلوية وانتخاب محمد علي والياً والخديو اسماعيل وسعيهِ لجعل مصر دولة مستقلة فكذلك كان توفيقهم في الاختتام إذ تحدثوا في آخر اقسامهِ عن ساعات الغروب فتتبعوا صحة الملك الراحل في ترتيب متسق وعبارات رائعة مؤثرة من سنة ١٩٣٣ م حتى غربت شمس حياتهِ التي طالما ملأت الشرق بهجة ونشاطاً . . . ولم يتركوا الفاجعة الحارة تعبث بالقلوب الدامية طويلاً بل واسوا تلك الجراح بما كان من تنصيب الملك الشاب المحبوب فاروق الاول على عرش الفراعنة وتنازلهِ عن ثلث مخصصاتهِ السنوية

هذا هو الكتاب في جملتهِ . وعندنا ان المؤلفين احسنوا التعبير عن ولائهم للذات الملكية وكان التوفيق رائدهم في كل ما بسطوه في كتابهم الحافل عن الملك الخالد وعصره الذهبي وحسبهم ان التقرير الذي رفع الى جلالة الملك فاروق عن كتابهم انصفهم وشهد لهم بمجهودهم ولكتابهم بأنهُ طيب وانهُ اوفى كتاب صدر الى الآن عن جلالة الملك الراحل طيب الله ثراه **

فهرس الجزء الاول

من المجلد الثاني والتسعين

June—December 1937

يونيه الى ديسمبر سنة ١٩٣٧



مجلة علمية صناعية زراعية

لمنشئيها

الدكتور يعقوب صرّوف والدكتور فارس نمر

المجلد الحادي والتسعين

AL-MUKTATAF

A MONTHLY ARABIC SCIENTIFIC REVIEW

Edited by: FUAD SARRUF

VOL. 91

Founded 1876 By Drs Y. Sarruf & F. Nimr

فهرس المجلد الحادي والتسعين

كل موضوع امامه نجم يدل على أنه مصور

المقتطف

الجزء الثاني من المجلد الثاني والتسعين

١ فبراير سنة ١٩٣٨ ١ ذي الحجة سنة ١٣٥٦

الاشعاع

قديماً وحديثاً (١)

موضوع الاشعاع موضوع عويص وواسع النطاق في آن ، قلما يعرف الباحث،اذا حاول ان ياتي محاضرة واحدة فيه، اين يبتدىء واين ينتهي . فامواج الاشعة المرئي منها والخفي تحيط بنا من كل ناحية ، وتؤثر في معظم وجوه المعرفة والعمل والحياة . من الامواج اللاسلكية الطويلة والقصيرة ، الى امواج الحرارة الخفية ، الى امواج الطيف المرئي ، الى امواج الاشعة التي فوق البنفسجي ، الى الامواج التي وراءها كالاشعة السينية ، واشعة غمَّا ، الى الاشعة الكونية ، التي تستطيع ان تنفذ من خلال الواح من الرصاص كثافتها عشرون قدماً او تزيد

ما هذه الاشعة ؟ وكيف تتشابهُ وكيف تختلف ؟ وكيف تنبعث ؟ وكيف تنتقل في الفضاء ؟ وما صلتها بالمادة ؟ وكيف يفسَّر فعل العناصر التي تطلق اشعةً ؟ وما العلاقة بين ما نعرفهُ عن هذه العناصر وبناء المادة الاساسي ؟ وهل في المستطاع مجاراة الطبيعة فيتاح للانسان ان يخرج من المواد الجامدة ، غير المشعة ، مواد تتأجج في احشائها الطاقة وتنطلق منها الدقائق والامواج ؟

هذه هي بعض الاسئلة التي تخطر للباحث عندما يقترب من موضوع الاشعاع . والغرض من هذا البحث محاولة الاجابة عن بعضها، على اساسين من الايجاز والتبسيط ، فالتطويل ممتنع بالميعاد المضروب للمحاضرة، والتعمق الرياضي ليس هذا محلّهُ وهو على كلّ حالٍ فوق طاقتي

(١) من محاضرة اعدها رئيس تحرير المقتطف لتلقى في المجمع المصري للثقافة العلمية باجتماع يناير ١٩٣٨

١ — مدى طيف الاشعاع

ولعلّ خيرَ ما نستهلُّ بهِ البحث ، تعيين مدى الاشعاع في الطبيعة ، وخواص الامواج في كل قسمٍ منهُ . ولعلّ خير تقسيم نعتمد عليهِ في هذا الصدد ، مع انهُ تقسيمٌ عرفيٌّ ، هو اتخاذ الطيف المرئي اساساً ثم البحث في مدى الامواج التي على جانبيهِ

عرف من عهد نيوتن في القرن السابع عشر انهُ اذا دخلت شعاعة من ضوء الشمس حجرة معتمة من ثقب ، في جدارها او في ستارٍ اسودَ مسدل على نافذتها ، ووقعت هذه الشعاعة على منشور زجاجي ، نفذت منهُ في الناحية المقابلة ، وقد انحلت الى الوانٍ سبعة هي الاحمر فالبرتقالي فالاصفر فالاخضر فالازرق فالنيلي فالبنفسجي . الاحمر اطولها امواجاً والبنفسجي اقصرها امواجاً ، وامواج الالوان الاخرى بينهما متدرجة قصراً من الاحمر الى البنفسجي

الآن مدى الاشعاع في الطبيعة لا ينتهي عند الاحمر من ناحية ولا عند البنفسجي من ناحية اخرى . فوراءَ الاحمر اشعة تعرف بالاشعة التي تحت الاحمر وهي اشعة حرارة لا تبلغ امواجها في سرعة تواليها المبلغ الذي تتأثر بهِ عين الانسان فنعجز عن رؤيتها ، ولكننا نحسُّ حرارتها . ويرجع الفخر في اكتشاف فعل هذه الاشعة الى العلامة هرشل ، السر وليم هرشل مكتشف السيار اورانوس . فقد كان يجرّب التجارب بالامواج التي يتألف منها طيف الشمس المرئي وما لها من تأثير في مقياس الحرارة ، فكان يحلُّ شعاعة الضوء ، بالطريقة التي تقدّم ذكرها ، ثم ينقّل المقياس الحراريَّ من البنفسجي الى الاحمر ، في فسحات متساوية من الوقت ، ويدوّن تأثير اشعة الالوان المختلفة في رفع درجة الحرارة فيهِ ، فلاحظ ان اشعة اللون الاحمر اشدُّ رفعاً لدرجة الحرارة في المقياس وان اشعة اللون البنفسجي اقلها . ثم خطا الخطوة التالية ، وهي خطوة يحتمها المنطق ، اذ وضع مقياس الحرارة في المنطقة التي تلي اللون الاحمر ، وهي منطقة لا تتبين العين فيها لوناً ما ، فوجد ان درجة حرارتهِ ، ترتفع وهو فيها ، اكثر من ارتفاعها اذ يكون المقياس مغموراً بالامواج الحمر . فثبت لهُ ان وراء اللون الاحمر ، امواجاً خفية ، تبعث حرارة في الجسم الذي يغمر بها . ثم طبق هو وطائفة من الباحثين الذين تلوه ، ما كان معروفاً عن خضوع امواج الالوان المختلفة ، لقوانين الانعكاس والتكسر والاستقطاب والتداخل فثبت ان طبيعة هذه الامواج الخفية من طبيعة الامواج المرئية

ولم يكتف هرشل باستكشاف المنطقة التي وراء اللون الاحمر بمقياس الحرارة ، بل حاول كذلك استكشاف المنطقة التي وراء اللون البنفسجي ، فوجد الفعل مختلفاً ، اي كان كلما بعد بمقياسهِ عن امواج اللون البنفسجي يرى الحرارة فيهِ وقد هبطت . وكان ذلك مما توقعهُ وتوصل اليهِ بالاستنتاج

من مشاهدة التدرج في هبوط درجات الحرارة في المقياس ، بالانتقال بهِ من وراءِ الاحمر او تحت الاحمر الى الاحمر الى ما يليهِ من الالوان

وكان الكيمياوي السويدي شيل ، قد اكتشف ان أملاح الفضة تتغير لوناً اذا عرضت لضوءِ الشمس . فتساءل الباحثون ، هل للاشعة التي فوق اللون البنفسجي تأثير في املاح الفضة ؟ وفي سنة ١٨٠٢ جرّب ولاستن التجربة التي اسفرت عن الجواب . ثم اثبت يونغ ان الفعل الكيمياوي الذي تتصف بهِ الاشعة التي فوق البنفسجي سببها امواج اثيرية ، لانها تنعكس وتنكسر وتستقطب كأمواج الضوءِ . ونحن نعلم الآن ، ان هذه الاشعة هي التي تؤثر في املاح الفضة التي تغطي طبقة الافلام وألواح التصوير فتجعل التصوير الضوئي ممكناً . ونعلم كذلك ان ما تتصف بهِ هذه الامواج من الفعل الكيمياوي يستعمل الآن لتوليد بعض انواع الفيتامين في مواد خالية منهُ . وليس هنا مجال التبسط في ذلك

ولعلي لا أخرج كثيراً عن الموضوع ، اذا قلت ان الباحث الاميركي ميز Mees اثبت من عهد قريب ان الاشعة التي تحت الاحمر ، وهي اشعة حرارة كما قدمت ، تؤثر تأثيراً كيمياوياً في بعض المواد ، فصنع ألواح تصوير تغشاها المادة التي تتأثر بالاشعة التي تحت الاحمر ، وأحمى مكواة ووضعها في حجرة معتمة ، فلم يرها بعينيهِ ولكنهُ استطاع تصويرها ، لان اشعة الحرارة المنطلقة منها أثرت في لوح التصوير فرسمت المكواة عليهِ

وكذلك امتدَّ طيف الاشعاع من اليمين ومن اليسار ، أو من تحت ومن فوق ، فشمل من ناحية اللون الاحمر ، اشعة الحرارة ، ومن ناحية اللون البنفسجي الاشعة الكيمياوية ، فالاولى تعرف باسم الاشعة التي تحت الاحمر ، والثانية بالاشعة التي فوق البنفسجي . وكذلك ثبت ، أن بين الضوءِ والحرارة صلة وثيقة . فهل ثمة ظاهرة اخرى من ظاهرات الطاقة تتصل بهما ؟

هذه مسألة تستهوي العقول التي يشغلها ويحيرها ما في الطبيعة من اسرار ، ويحثها الشوق الى التساؤل والتجربة . وكان من الطبيعي ان يتجه فراداي الانكليزي وهو امير العلماء المجربين في عصره ، الى هذا السؤال . ففي سيرتهِ ما ينبئنا انهُ كان في سنة ١٨٢٢ معنيًّا بالبحث عن الحلقات الخفية الناقصة ، في سلسلة الظاهرات الطبيعية وكان يعتقد اعتقاداً راسخاً في ان الاشكال المختلفة التي تظهر فيها قوى المادة تُرَدُّ الى اصلٍ واحد ، وكان بطبيعة مباحثهِ الاخرى ، يهتم بالضوءِ والمغناطيسية والكهربائية . وكان الضوءُ المستقطب يحيرهُ . وكان يحسُّ وليس عندهُ دليل ، ان هناك صلة بين المغنطيسية والكهربائية . فامرَّ شعاعة من الضوءِ المستقطب بين قطبي مغنطيس كهربائي قوي ، فتبين لهُ ان شعاعة الضوء تدور عندما يجري التيار الكهربائي في المغنطيس . فاذا انقطع عادت الشعاعة الى وضعها الاصلي ، ثم اخذ لفّة من السلك بدلاً من

مغناطيس واجرى فيها تياراً فكان تأثيرها في شعاعة الضوء المستقطب كتأثير المغناطيس الكهربائي فخلص فراداي من هذه التجارب الى النتيجة المحتومة بان للضوء خواص كهربائية ومغناطيسية .

وفي سنة ١٨٤٦ تنبأ فراداي بأنهُ لا بدَّ ان يجيء يوم يثبت فيهِ ان ثمة صلة بين الضوء والاهتزازات الكهربائية المغنطيسية (الكهرطيسية) في الاثير . وكان فراداي مجرباً عبقريًّا ولكنهُ كان غير راسخ العلم في الاساليب الرياضية ، وهذا التنبوء الجريء ، لابدَّ لهُ من سحر الرياضة ليحوّلهُ من خاطر ومشاهدةٍ الى حقيقة علمية

ومن محاسن الاتفاق ، او من اسرار الخلق ، ان العصر الذي انجب فراداي ليكشف هذا الكشف ويقذف بهذه النبوءة الجريئة ، انجب كذلك اميراً من امراء البحث العلمي الرياضي في جميع العصور اعني جيمس كلارك مكسول . كان مكسول مجرباً لا يستهان بهِ ، ولكن قلَّ من يجاريهِ في عبقريتهِ الرياضية . فنظر مكسول في نتائج التجارب التي اجراها فراداي وقال في ذات نفسهِ لا بدَّ من وجود تفسير لما يتصف بهِ الضوءِ المستقطب من الخواص الكهربائية والمغناطيسية .فعكف على التحليل الدقيق ، وخرج منهُ بمعادلات رياضية ،تدلُّ على ان في الفضاء اضطرابات كهربائية مغنطيسية تتصف بصفات الضوء . فكأن مكسول قال : ان الضوء مظهر اضطراب موجي في الاثير،وكذلك الاضطرابات الكهربائية الناشئة من شرارة كهربائية تبدو في مظهر امواج في الاثير ، لا نراها ، ولكنها هناك كالامواج التي تحدث النور والحرارة والطاقة الكيمياوية تسير جميعها بسرعة واحدة، هي السرعة المعروفة للضوء اي ١٨٦٣٠٠ ميل في الثانية

وقضى مكسول ، في سنة ١٨٧٩ وهو في الثامنة والاربعين من عمره ، ومعادلاتهُ الرياضية لا تزال ارقاماً ورموزاً على ورقٍ ، ولكن لم تكد تنقضي سبع سنوات على وفاته حتى حقق هينريش هرتز الالماني بالتجربة ، ما كان ظنًّا في ذهن فراداي ومعادلة رياضية في بحوث مكسول . ففي يوم من ايام سنة ١٨٨٦ كان هرتز يجرب التجارب في معمله ، بملفين من الاسلاك المعزولة ، واذ هو يجرب لاحظ انهُ اذا افرغت جرة ليدن في احد الملفين احدث افراغها تاثيراً في الملف الآخر البعيد عنهُ . فدهش لذلك . ومضى في التجربة بغية الاستيثاق ، فثبت له ان التأثير في الملف الثاني لا يقع الاَّ اذا كان في حلقة الملف الاول فراغ صغير بين طرفيهِ اي متى كان الملف كالخاتم وقد احدثت فيه ثغرة صغيرة . ثم ثبت لهُ كذلك ان تفريغه جرة ليدن في الملف الاول يحدث تاثيراً في الملف الثاني ولو ابعد عنه بعداً لا بأس بهِ

ثم نوَّع التجربة ، فاحدث ثغرة في الملف الثاني كالثغرة التي في الملف الاول ، ثم افرغ جرة ليدن في الاول فقفزت شرارة بين الطرفين ، وقفزت شرارة مثلها بين طرفي السلك الثاني مع انه لم يكن ثمة اي اتصال بينهما . وتفسير ذلك ان قفز شرارة بين طرفي الحلقة الاولى

احدث اضطراباً او ذبذبة في الفضاء ، فانتقل هذا الاضطراب او الذبذبة الى الملف المقابل فاحدث فيه تياراً كهربائياً مؤثراً induced ففقز شرارة بين طرفي الحلقة حيث تقوم الثغرة. فكان ذلك الجهاز اللاسلكي الاول في ابسط اشكاله

وكانت الخطوة التالية ، ان عُني هرتز بدراسة الاضطراب الذي يحدث في الفضاء ، اي الذبذبات او الامواج التي تنتقل من الملف الاول الى الملف الثاني . فاثبت ان هذه الامواج تكسر وتستقطب وقاس سرعتها فوجدها كسرعة الضوء تماماً، ثم بين انها تتداخل interference كامواج الضوء . ان هذه الامواج التي تنتقل في الفضاء على اثر تفريغ جرة ليدن تتصف بجميع صفات الامواج الضوئية ، والفرق الوحيد بينها وبين الامواج الضوئية ، انها كانت اطول كثيراً من امواج الضوء

وكذلك تحققت نبوءة من اعظم النبوآت العلمية في العصر الحديث ، فافضى تحقيقها الى تقدم عملي عجيب في المخاطبات اللاسلكية

كان هرتز في السابعة والثلاثين من عمره ، عندما أصيب بتسمم في دمه وقضى . ولكنهُ كان قد طبق جميع اساليب البحث على الاشعة الكهربائية المغنطيسية — وهي المعروفة باللاسلكية الآن — ليعرف هل هي من نوع امواج الضوء فعكسها وكسّرها وفرقها وداخل بعضها في بعض . ومن المعروف الآن انها تمتدُّ من حيث طول موجتها عشرات الاميال الى حيث طولها بضعة سنتمترات . وهي من حيث المدى بين اطولها واقصرها اوسع مدى من طيف الضوء المرئي ، ألوف المرات ، حتى ولو اضفت اليهِ الاشعة التي فوق البنفسجي والاشعة التي تحت الاحمر

وإذن ، كان مدى الاشعاع ، عند ما اثبت هرتز في منتصف العقد التاسع من القرن الماضي وجود الامواج الكهرطيسية ، يشتمل على الضوء المرئي ، وما يحيط بطرفيهِ من الاشعة الكهرطيسية وأشعة الحرارة — التي تحت الاحمر ، والاشعة الكيمياوية — التي فوق البنفسجي . ولكن الفرق بين اقصر الامواج الكهرطيسية واطول الامواج الحمر كان كبيراً في البدء ، الا أن المباحث الحديثة كشفت عن امواج كهرطيسية قصيرة جدًّا تساوي في طولها او تحاذي اطول الامواج الحمر وكذلك يمكن ان يقال ان طيف الاشعاع من اطول اشعة الراديو الى الاشعة التي فوق البنفسجي ، اصبح بالبحث الدقيق والتجربة البارعة « مكشوفاً » للعلم ولا ثغرة فيه . ففي الناحية الواحدة امواج يقاس طولها بالاميال ، وفي الناحية الاخرى امواج يقاس طولها باجزاء صغيرة من السنتمتر أو الملمتر

ولكن ايقف طيف الطاقة عند هذا الحدّ من ناحية الاشعة التي فوق البنفسجي ؟ أليس وراءها اشعة اخرى ، امواجها اقصر من هذه الامواج التي تؤثر في املاح الفضة ؟

هذا سؤال لم تُنر الطريق الى الجواب عنهُ الاّ بعد انقضاء نحو عشر سنوات على اكتشاف الاشعة الكهرطيسية او اشعة الراديو او الاشعة اللاسلكية

ففي سنة ١٨٩٥ كان وليم رنتجن في ڤرتزبرج . وكان في احد الايام يبحث في حجرة معتمة، وكان من ادوات بحثهِ انبوب استنبطهُ السر وليم كروكس الطبيعي الانكليزي فنسب اليهِ ،وكان رنتجن قد غطاه بورقة سوداء . فلاحظ في احد الايام ظاهرة عجيبة استرعت نظرهُ واستوقفت فكرهُ . ذلك ان تياراً كهربائيًّا كان منطلقاً في انبوب كروكس ، وهو مغطى بالورقة السوداء . وعلى بضع اقدامٍ منهُ كانت لوحة مغطاة بطبقة من مركب (بلاتينو سيانور الباريوم) ، فتألقت اللوحة تألقاً عجيباً . فظن اولاً ان اشعة المهبط احدثت هذا التألق . ولكنهُ بعد تفكيرعرف ان هذه الاشعة لا يسعها اختراق زجاج الانبوب . فعدل عنها الى القول بان هناك اشعة اخرى تخترق الزجاج والورق الاسود وطبقة من الهواء كثافتها بضع أقدام — المسافة بين الانبوب واللوحة — وعندئذٍ جعل يجرب التجارب ليعرف قدرة هذه الاشعة الخفية على اختراق الاجسام والنفوذ من خلالها ، وذلك بوضع أجسام مختلفة الكثافة والصلابة بين الانبوب واللوح . ومن جملة ما وضع يداً بشرية وراءها لوحة فوتغرافية حسّاسة . ولشدة دهشتهِ وجد صورة اليد وعظامها قائمة في الصورة حالة ان الانسجة المحيطة بها كانت رمادية الى البياض.فكأَنَّ هذه الاشعة اخترقت اللحم والدم ولم تخترق العظام

وفي ٢٤ دسمبر سنة ١٨٩٥ اعلن رنتجن اكتشافهُ لهذه الاشعة الخفية في رسالة تليت على جمعية برلين الطبيعية . ووسمها بحرف X الذي يرمز بهِ الى المجهول في علم الجبر . وبعدما دعيت بالعربية اشعة اكس واشتهرت بها رأى بعضهم اطلاق اسم الاشعة السينية عليها لان الحرف «س» يحلّ محلَّ الحرف X في الجبر العربي ويسهل استعمالهُ منسوباً اليهِ

عند ذلك اخذ العلماء يسألون ، هل امواج هذه الاشعة ، من نوع اشعة الضوء واشعة الحرارة والاشعة الكيمياوية ، والاشعة اللاسلكية . وانقضت ست عشرة سنة قبل ان فاز العلم بالجواب الاول . ففي سنة ١٩١١ تمكن العلامة الالماني فون لاو Von Laue من تفريقها بوساطة لوحة محزّزة . ثم جاراهُ وليم براج الانكليزي في هذا البحث فعكسها وقاس طول امواجها فوجدها اقصر من امواج الاشعة التي فوق البنفسجي ، واقصر الوف المرّات من اشعة الضوء الذي يرى . وفي سنة ١٩٢٥ كسّرت، فاجتمعت الادلة الوافية ، على انها جزء من ذلك الطيف طيف الاشعاع الذي يجمع اشعة الراديو واشعة الحرارة واشعة الضوء والاشعة الكيمياوية

هل ينتهي الطيف عند هذا الحدّ ؟ هوذا السؤال نفسهُ يتردد ثانية وثالثة . اوليس وراء الاشعة السينية اشعة اخرى ، اقصر امواجاً واعظم نفوذاً واختراقاً للاجسام ؟ في الرد

عن هذا السؤال تنطوي جميع المباحث الخاصة بالمواد المشعّة التي مهّد لها بكريل الفرنسي الطريق وعبّدها بيير كوري وزوجته ماري باكتشافهما عنصري البولونيوم والراديوم وما تلا ذلك من مباحث عشرات من العلماء الاعلام الذين اثبتوا ان انواع المقذوفات المنطلقة من الراديوم ثلاثة، هي دقائق الفا ، ودقائق بيتا وهي الكهيربات، واشعة غمًا . واشعة غمًا هذه اقصر امواجاً من الاشعة السينية واشدُّ نفوذاً من خلال الاجسام المادية . وما كاد الستار يزاح عن اشعة غمًا حتى بدأ البحث بقصد معرفة طبيعتها وهل هي تابعة للطيف الكهرطيسي . وكانت اقامة الدليل على ذلك من اعسر الامور . ولكن ڤيلار اثبت انها تعكس وتكسّر وتسير بسرعة الضوء وفي سنة ١٩١٤ تمكن رذرفورد واندراده من قياس طول امواجها فثبت انها اقصر امواجاً من الاشعة السينية واذن فقدرتها على اختراق الاجسام اعظم من قدرة تلك ، فضمت الى الطرف القصير الامواج من طيف الاشعاع

وما كادت هذه الحقائق تعرف او يعرف بعضها ، حتى خطّت في افق علم الطبيعة الحديثة علامة استفهام قديمة مؤدّاها ، هل ينتهي مدى طيف الاشعاع عند هذا الحدّ ؟ وكان من المتعذّر الاجابة قبل التجربة والامتحان ، اذ كان يعسر على الذهن البشري ان يتصور اشعة اقصر امواجاً من اشعة غمّا المنطلقة من الراديوم ، وتستطيع لقصرها ان تخترق لوحاً من الرصاص سماكتهُ اكثر من بوصتين . ولكن هذا الذي كان يصعب تصوّره ويتعذّر توقعهُ اصبح حقيقة واقعة ، باكتشاف الاشعة الكونية . وقد سبق لي أن تشرفت بالقاء محاضرة في موضوعها في هذا المجمع الموقر نشرت في كتابهِ السادس فلا اعيد ما جاء فيها وانما اكتفي بالقول بان اقصر الاشعة الكونية التي تبينتّها اجهزة العلماء الدقيقة تخترق ما سماكتهُ ٢٨٠ قدماً من الماءِ أو ٢٥ قدماً من الرصاص ! مع ان الاشعة السينية لا تخترق الاّ ما سماكتهُ سنتمتران فقط !

بقي علينا ، ان نقول كلمة في وحدة المقاييس التي يعتمدها العلماءِ في قياس امواج قصيرة من هذا القبيل قبل الاتيان على هذا الجانب من المحاضرة. وهذه الوحدة التي اعتمدها العلماء في قياس طول الامواج القصيرة تعرف « بالانجستروم » وهي جزء من عشرة ملايين جزءٍ من المليمتر

على هذا الاساس من القياس تكون اطوال الامواج في الطيف الكهرطيسي ، كما يلي

ضرب الامواج	اطوال الامواج
الامواج اللاسلكية	من عدة كيلومترات الى عشر المليمتر (مليون انجستروم)
الاشعة التي تحت الاحمر	من مليون انجستروم اي عشر المليمتر الى ٨٠٠٠ انجستروم
اشعة الطيف المرئي	من ٨٠٠٠ انجستروم الى ٤٠٠٠ إنجستروم
الاشعة التي فوق البنفسجي	من ٤٠٠٠ انجستروم الى ١٠٠ انجستروم

ضرب الامواج	اطول الامواج
الاشعة السينية	انجستروم واحد
اشعة غما	من بضعة اعشار الانجستروم الى سبعة اجزاء من الف جزء من الانجستروم
الاشعة الكونية	اقصر من ذلك كثيراً

٢ — طبيعة الاشعاع

نستيقظ في الصباح فاذا الضوء يغمر الكائنات . فلا يخطر للذهن البشري أن هذا الضوء يصدر ويسير ويستغرق في صدورهِ وسيرهِ ووصولهِ وقتاً . فكان لا بدّ من خيال متيقظٍ ليتصوّر ان الضوء يتحرك وانهُ يتحرّك بسرعةٍ ثابتة . وليس في تاريخ العلم ذكر من سبق الى فكرة انتقال الضوءِ ولكن اول من طبق هذه الفكرة تطبيقاً علميًّا على ما نعلم هو الفلكي الدنماركي رويمر . ففي سنة ١٦٧٦ كان رويمر يراقب حركة الاقمار الاربعة التي تدور حول المشتري ، وفي دورانها حول هذا السيار ، تجيء عليها فترات تغيب عن النظر وراءهُ . ثم تبرز للعيان . وكان كل قمر يغيب فترة معينة من الزمن . فدوّن رويمر مدى غياب كلٍّ منها في أرصاد مختلفة . فدهش عند ما رأى ان مدة غياب القمر الواحد ليست واحدة ، فحيرهُ ذلك لانهُ لم يرَ كيف السبيل الى حسبان سرعة دوران المشتري على محوره سرعة متغيرة . ولا كان في وسعهِ كذلك ان يسلم بأن هذه الاقمار تغير سرعتها في دورانها حول المشتري . ثم لاحظ ان هذا التغير في مدى غياب الاقمار ، او في سرعتها الظاهرة على صلة بحركة الارض بالقياس الى حركة المشتري . فالمشتري تبعاً لحركتهِ وحركة الارض حول الشمس ، يكون آناً مقترباً من الارض وآناً مبتعداً عن الارض . فاذا فرضنا ان المشتري ، آخذ في الابتعاد عن الارض . وانهُ لكذلك نرصد احد أقماره فنراهُ يغيب وراءه ثم يظهر . ولكن في الفترة بين غيابهِ وظهوره يكون المشتري قد ابتعد عن الارض . واذن فالضوء الواصل الينا من القمر بعد ظهوره ، يقطع مسافة أبعد من المسافة التي كان قد قطعها قبل غيابهِ ، لابتعاد المشتري في اثناء ذلك . واذا كان المشتري آخذاً في الاقتراب كانت المسافة التي يقطعها قمر المشتري بعد ظهوره اقصر من المسافة التي قطعها قبل غيابهِ ، لان المشتري يكون قد اقترب منا في اثناء ذلك . فاذا كان الضوء يستغرق زمناً مهما يكن صغيراً في اختراقهِ الفضاء او اجتيازه المسافات ، فلا يمكن أن تكون الفترتان اللتان يستغرقهما القمر بين الغياب والظهور ، في حالتي اقتراب المشتري وابتعادهِ واحدة . وكذلك حلّ رويمر العقدة التي حيرتهُ بقولهِ ان الضوء يستغرق زمناً في اجتياز المسافات . وحسب حساب سرعتهِ فاذا هي ١٩٢٠٠٠ ميل في الثانية . وقد صحح هذا الرقم في خلال الزمن الذي انقضى على حساب

رويمر ، وتعددت التجارب واساليب القياس ، والرقم المقبول الآن هو ١٨٦٣٠٠ ميل في الثانية . وعلى هذا القياس يستغرق ضوء الشمس في الوصول الينا نحو ثماني دقائق

هذا القياس الذي قام بهِ رويمر في العقد الثامن من القرن السابع عشر ، اثار سؤالاً كبير الشأن ، لا يزال حتى يومنا هذا يحفز عقول العلماء الى الرد عليهِ . ماذا يحدث خلال سير الضوء في الفضاء اي ما طبيعتهُ وكيف ينتقل ؟ والعصر الذي انجب رويمر فقاس سرعة الضوء واثار بقياسها هذا السؤال ، انجب كذلك نيوتن وهوجنس فذهب كلٌّ منهما مذهباً يخالف مذهب الآخر في طبيعة الضوء وسر انتقالهِ . اما نيوتن فذهب الى ان الضوء ذرات او دقائق تنطلق من الجسم المنير ، بالسرعة التي قاسها رويمر وفي خطوط مستقيمة . فكأنهُ تصور الاشعاع حركة من حركات المادة . وأما هوجنس فتصور الضوء والاشعاع حركة تموجية . اي حركة الطاقة لا حركة المادة . فكأنهُ قال ان امواج البحر تنتقل بتموج الماء . وامواج الضوء تنتقل بتموج الهواء . فلما قيل لهُ ان الضوء يخترق الرحاب الشاسعة بين الاجرام حيث لاهواء يتموج وانهُ ينتقل كذلك في الفراغ ، فرض وجود الاثير ، على انهُ وسط شفاف لا وزن لهُ يملأ رحاب الكون وفجواتهِ

كانت الغلبة في البدء لمذهب نيوتن ، لما كان لهُ من المقام العلمي العظيم ، ولان الظاهرات الضوئية المعروفة في عصره ، امكن تعليلها بمذهبه على اوفى وجهٍ . ولكن ظهرت ظاهرات ضوئية اخرى ، لم يمكن تعليلها بمذهبهِ الذرّي ، وأمكن تفسيرها بالمذهب التموُّجي فعقد لهذا اكليل النصر وظل معتمد العلماء الى اواخر القرن التاسع عشر

ولكن ظهر في اواخر القرن الماضي حقائق تتعلق بالطاقة ومنها الضوء ، اثبتتها التجارب ولكنها جاءت مناقضة للنظرية التموجية . فابتدعت نظرية جديدة ، اصبح لها الشأن الاول في مباحث الطبيعة الجديدة ، ونعني نظرية المقدار (Quantum) وقد كان مولدها الرسمي يوم ١٤ دسمبر سنة ١٩٠٠ وهو اليوم الذي قرأ فيهِ العلامة الالماني ماكس بلانك رسالة في الجمعية الطبيعية الالمانية ضمنها قواعد هذه النظرية

ويجدر بنا قبل ان نصف الصورة الجديدة التي رسمها العلم الحديث لطبيعة الاشعاع ان نوطىء للوصف بفذلكة عن فكرة الانفصال في الطبيعة . فلنفرض اننا نملك منجماً للفحم . وان في هذا المنجم اربعمائة عامل . وانهُ ينتج في الاسبوع خمسمائة طن . ولنفرض ان الاحوال الاقتصادية قضت بنقص عدد العمَّال . فالنقص لا يمكن ان يتمّ في وحدات اقل من عامل واحد . اي اننا لا نستطيع ان ننقص عدد العمال من ٤٠٠ عامل الى ثلاثمئة عامل ونصف

عامل . بل يجب ان يكون اما ثلثمائة عامل واما ثلثمائة عامل وعامل واحد . اما مقدار الانتاج فيمكن ان يزيد او ينقص بكسور من الطن

وكذلك في الطبيعة . ففيها كميات ، تتغير تغيراً متصلاً واخرى لا تتغير الاّ تغيراً منفصلاً . فالوقت والمسافة من النوع الاول وان كانا يقاسان بمقاييس تنتقل قفزاً من أصغر وحداتها الى الوحدة التالية. ولكن عند ما نسأل كم ذرة من الايدروجين في لتر من هذا الغاز ، لا يمكن ان يكون الجواب الاّ عدداً كاملاً من الذرات . لا كسور فيهِ . اذ لا يمكن ان يكون في اللتر كذا مليون من ذرّات الايدروجين ونصف ذرة او ثلث ذرة منهُ . فالطبيعيات الكلاسيكية كانت تتناول الكميات المتصلة كالوقت والمسافة والكتلة والقوة والطاقة

ولكن نشوء النظرية الذرّية في القرن التاسع عشر ، احدث التغيير الاول . اذ اثبتت ان المادة منفصلة لا متصلة . فالايدروجين المحفوظ في وعاء يحتوي على عدد كبير جدًّا من الذرات الكاملة . وهذه النظرية القائمة على مبدإِ الانفصال مكنت العلماء من تعيين كتلة ذرة واحدة من الايدروجين . وكانت النتيجة الاولى ان انهارت فكرة الميكانيكيات الكلاسيكية القائمة على اتصال الكتلة . اذ ليس في الامكان ان تضيف الى وعاءٍ يحتوي غاز الايدروجين مليون ذرة ونصف ذرة من هذا الغاز ولا ان تزيل منهُ مليون ذرة ونصف ذرة

ثم اتصل اثر ذلك بالكهربائية نفسها . ذلك انهُ لما ثبتت النظرية الكهيربية (الالكترونية) القائلة بان الذرة قوامها بروتونات والكترونات ، وان هذه الوحدات هي وحدات الكهربائية السالبة والموجبة ، ظهر ان الشحنات والتيارات الكهربائية ليست متصلة فلا يمكن ان تنقص ولا ان تزيد الاّ بوحدات كاملة

واذا كان ذلك كذلك فاي جديد اتت بهِ نظرية المقدار ؟ الجديد الجريء في نظرية المقدار ، ان العلامة بلانك ، قال بان جميع ضروب الطاقة منفصلة القوام . اي انها غير متصلة ، وانها مجموع وحدات اطلق على كلّ منها « كوانتوم » وقد ترجمناها بلفظ « مقدار » والجمع « مقادير » . فاصبح عندنا المقادير الاساسية في المادة وهي الذرات ، والمقادير الاساسية في الكهربائية وهي الكهيربات والبروتونات والبوزيترونات ، ومقادير الطاقة

تطلق الاجسام المضيئة اشعاعاً ، وتمتص المادة هذا الاشعاع او تعكسهُ او تفرقهُ . قال بلانك: كل ما تطلقهُ الاجسام المضيئة من الاشعاع وما تمتصهُ المادة منهُ لا يتم الاّ في « مقادير». فالجسم يطلق عدداً معيّناً من المقادير الكاملة والآخر يمتص حين يمتص عدداً معيناً من المقادير الكاملة

هذه نظرية « المقدار » في ابسط اشكالها . ومن الطبيعي ان يكون اول سؤال يتبادر الى الذهن في هذا الصدد ، ما حجم المقدار . فلنعمد الى التشبيه في التوطئة للردّ على هذا السؤال الوحدة الاساسية في الميزانية المصرية هي المليم . فلا يمكن ان تزيد الميزانية او تنقص الاّ

ملاليم مهما يكبر عددها . ولنفرض ان الوحدة الاساسية في الميزانية الانكليزية هي « البنس ». فلا تزيد الميزانية البريطانية ولا تنقص الاّ « بنسات». وان الوحدة الاساسية في الميزانية الفرنسية هي « السنتيم » فلا تزيد او تنقص الاّ سنتيمات . كلٌّ منها وحدة اساسية ولكن قيمة هذه الوحدات الاساسية الثلاث ليست متساوية

فاذا كانت هذه الوحدات هي « المقادير » الاساسية في الميزانيات الثلاث، فالمقادير مختلفة القيمة أو الحجم . وهي كذلك في الطبيعة . ان « مقدار » الضوء الاحمر يختلف عن « مقدار » الضوء البنفسجي . والمقدار يزيد كبراً بالقياس إلى قصر الموجة في الطاقة التي يمثلها . فطول الموجة في الضوء البنفسجي نصف طول الموجة في الضوء الاحمر . وإذن فمقدار الضوء البنفسجي ضعف مقدار الضوء الاحمر

واذن يتحوّل سؤالنا : ما هو المقدار اي الكوانتم الاساسي للطاقة الى سؤال آخر : ماهو المقدار الاساسي لضرب معين من الطاقة ذي طول موجة واحد. وفي الرد على هذا السؤال لا بد من استعمال كمية ثابتة استنبطها بلانك وتعرف في علم الطبيعة الحديث « بثابت بلانك » ويرمز اليها في اللغات الاعجمية بالحرف h الصغير فلنرمز اليها بالحرف (ه) . وهذه الكمية ليست من ابتداع المخيلة وانما توصل اليها بلانك من تجارب ومباحث دقيقة كلّ الدقة . وعن طريق هذا الثابت (ه) نستطيع ان نعين « مقدار » او كوانتوم كل ضرب من ضروب الاشعاع اذا عرفنا طول موجته بحسب المعادلة التالية

$$\text{مقدار الطاقة} = \text{ه} \times \frac{\text{سرعة الضوء}}{\text{طول الموجة}}$$

ومن هنا يتبين انهُ كلما قصرت الموجة زاد المقدار . ويجب ان تكون جميع الكميات في هذه المعادلة بالسنتمتر او بأجزاء منهُ

ولا يخفى على حضراتكم انهُ اذا رفع ما وزنهُ كيلوغرام مسافة مترٍ انفق على هذا الرفع قدر من الطاقة . فاذا قسمتم هذا القدر من الطاقة مائة مليون جزء دعي كل جزءٍ منها « ارج » فهذه الوحدة الصغيرة من وحدات الطاقة يمكن ان يقاس بها العمل الذي تعملهُ النملة الصغيرة في بناء قريتها . فاذا سألنا ما عدد مقادير الضوء الاحمر في « الارج » افضى بنا الحساب الى انهُ ٤٠٠ مليون مقدار في الارج الواحد . وكان عدد مقادير الضوء البنفسجي في الارج الواحد ٢٠٠ مليون مقدار. وعدد المقادير ينقص في الاشعة التي امواجها أصغر مما تقدم كالاشعة السينية واشعة غما

وفي سنة ١٩٠٥ نشر عالم شاب في « انالن در فيزيك » بحثاً في تطبيق نظرية « المقدار » على الضوء . وكان ذلك العالم البرت اينشتين . فتقدم بالنظرية التي اخرجها بلانك خطوة الى الامام. اذ قال ان الضوء ليس موجاً وانما هو « مقادير » دعاها فوتونات (وقد ترجمها احد اعضاء مجمعنا الاستاذ اسماعيل مظهر بضويئات قياساً على جزيئات) تسير بسرعة الضوء . فكانهُ أحيا نظرية نيوتن الذرية في طبيعة الضوء ، مبدلاً فيها التبديل الذي يقتضيه تقدم العلوم الطبيعية في

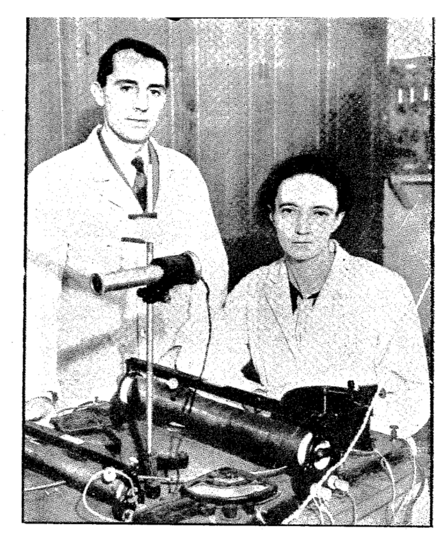
هذا العصر . ولكن اذا الغينا النظرة التموجية في الضوء ، حذفنا من علمنا صورة « طول الموجة » فماذا يحل محلها ؟ بمقتضى هذا التغير يصبح علينا أن نقول « الطيف المرئي قوامه ضويئات مختلفة الطاقة » بدلاً من « الطيف المرئي قوامه أمواج مختلفة الاطوال » . و « ان طاقة الضويء في المنطقة الحمراء من الطيف نصف طاقة الضويء في المنطقة البنفسجية في الطيف نفسه » بدلاً من « إن طول الموجات في الاشعة الحمر ضعف طول الامواج في الاشعة البنفسجية »

وليس خروج العلماء على نظرية الضوء التموجية نتيجة نزوة من النزوات، ولكن لان النظرية الجديدة تفسر ظاهرات عجزت النظرية التموجية عن تفسيرها ، وتنبئ بحقائق اثبت البحث صحتها

الاَّ ان نظرية « المقدار » لم تحلَّ جميع المصاعب التي تعترض العلماء في بحث الطاقة . ففي دراسة الضوء ظاهرة تعرف باسم الفعل « الكهربائي النوري » او « الكهرنوري » لا يمكن تفسيرها بنظرية الضوء التموُّجية . ويمكن تفسيرها أحسن تفسير بنظرية المقدار . ولكن هناك ظاهرة أخرى تعرف بظاهرة « التداخل » لا تجدي نظرية المقدار في تعليلها ولكن النظرية التموجية تجدي . وهذا مما يحيّـر . فقد تعودنا ان نحسب الضوء نوعاً من التموج . ولكن بعض الظاهرات تقتضي ان يكون تياراً من المقادير دعيت الضويئات . وتعوَّدنا ان نحسب المادة مجموعة من الدقائق . ولكن بعض التجارب يثبت ان دقائق المادة تتصرف كأنها امواج . وقد منح جرمر الاميركي وطمسن الانكليزي — نجل السر جوزف طمسن — جائزة نوبل الطبيعية سنة ١٩٣٧ لاثباتهما ذلك بالتجربة. ولذلك سعى العلماء في العشر السنوات الاخيرة، الى الجمع بين الرأيين في صورة جديدة ، أُطلق عليها اسم « الميكانيكيات الموجية » . فبمقتضى هذه الصورة الجديدة يكون الكهيرب متصلاً حين ينطلق او مصحوباً بسلسلة من الامواج . ولكنها ليست امواجاً طبيعية، فكأنها امواج غير مادية كامواج الغبطة أو الحزن او الحماسة التي تكتسح شعباً من الشعوب

لا تزال هذه النظرية غير مفهومة تماماً الاَّ لنفر يسير من العلماء . لأنها لا تزال في دور البحث الرياضيّ العالي . ولان مقتضياتها ليست مما يسهل افراغهُ في صور قريبة من الذهن ، ولا سيما الذهن الذي تعوَّد التفكير الطبيعي على أساس الطبيعة الكلاسيكية

ولعلَّ عالمنا الطبيعي الكبير الدكتور مشرَّفة يبسط لنا في محاضرة خاصة الفكرة الحديثة في ثنائية المادة والطاقة ، فانهُ من الاعلام الذين أضافوا اليها إضافات سجّلت لهُ في الجمعية الملكية البريطانية واشار اليها غير واحدٍ من العلماء في مؤلفاتهم الحديثة .قال السر جيمز جينز في كتابه « الكون الخفيّ » ما يلي صفحة ٧٧ : وقد اقترح مشرَّفة وغيرهُ ان السرعة قد تكون الفرق الوحيد بين الاشعاع والمادة، فالمادة نوع من الاشعاع المتجمد سائراً بسرعة أقل من سرعته السوية



الاستاذ كوري جوليو وزوجهُ مكتشفا النشاط الاشعاعي الصناعي ·



ارنست لورنس مستنبط « السيكلوترون »

٣ — النشاط الاشعاعي الصناعي

استعملنا لفظ الاشعاع في ما تقدم من القول مقابلاً للفظ Radiation الاعجمي . ولكنّ هناك لفظاً آخر لا بدّ من وضع مقابل خاص لهُ للتميز وهو لفظ Radio-activity وقد رأينا ان نختار لهُ مقابلاً عربيًّا فاخترنا « النشاط الاشعاعي »

هذا الفصل من البحث ذو مشهدين . احدهما بدأ عند ما كشف بيير كوري وزوجه ماري سكولودوفسكي البولندية الاصل، عنصر الراديوم قبيل نهاية القرن الماضي. وقد دام هذا الدور حتى مستهل العقد الرابع من القرن العشرين . اما المشهد الثاني فيبتدىء باسم كوري كذلك ، ولكنهُ اسم ارين كوري كريمة مكتشفي الراديوم . وهي الآن زوج الاستاذ جان فردريك جوليو ، وقد قبل زوجها ان يضاف اسم كوري الى اسمهِ ، تخليداً لذلك الاسم الكريم اللامع في تاريخ الطبيعة الحديثة ، لان الاستاذ بيير لم يعقب ذكراً ، فاصبح الاستاذ جوليو وقرينته يعرفان باسم مركب هو « كوري ، جوليو »

ما اعجب اسرار الخلق ! تفرُّ فتاة بولندية من وطنها ابتعاداً عن الاستبداد فتؤمُّ باريس ، وفيها تلتقي بباحث وديع ، فيتزوجان ، فيتاح لهما كشف عنصر الراديوم المشعّ فينالان جائزة نوبل الكيمياوية ١٩٠٣ ثم يصاب الزوج بحادثة اودت بحياته فتحل قرينتهُ محلَّهُ في السوربون ، وتوالي بحثها قصد استفراد ذلك العنصر العجيب ، فتنال جائزة نوبل الطبيعية وحدها . ومدام كوري فذّة في تاريخ جوائز نوبل في ان احداً غيرها من العلماء لم ينل جائزتين منها . وهاهي ذي ابنتها تقتفي خطواتها ، فتكشف في هذا الميدان ما يجعلها جديرة بجائزة نوبل ايضاً فتنالها هي وزوجها من سنتين (١٩٣٥)

امتاز المشهد الاول في تاريخ النشاط الاشعاعي بدراسة ما يقذف من الراديوم . فاذا هو ثلاثة انواع ، دقائق الفا وهي نوى ذرّات الهليوم ، ودقائق بيتا وهي الكهيربات ، واشعة غمّا وقد تقدم ذكرها . هذه المقذوفات تنطلق من الراديوم انطلاقاً ذاتيًّا لا يؤثر فيها ضغط ولا حرارة عالية او واطئة ، فالانسان عاجز عن ان يزيد انطلاقها سرعة او بطئاً ، فكأنها خارجة عن نطاق إمكانه

اما المشهد الثاني ، فيمتاز بانكشاف الطريق الى توليد العناصر المشعة من العناصر غير المشعة. ان عناصر ساكنة مستقرة كالفضة والنحاس والكربون ، وهي ابعد ما يكون طبيعة عن عنصر دائم الانحلال كالراديوم ، يمكن ان تهيجها فتشعُّ . فكأنك اخذت مقعداً مشلولاً ونفخت فيه روحاً جديداً او حقنتهُ بعقار قوي ، فقفز عن سريره واصر على ان يشترك في الالعاب الاولمبية

العناصر المشعة نادرة في الطبيعة . ولذلك نجدها غالية الثمن . حتى ان الغرام الواحد من عنصر الراديوم يزيد ثمنه الآن على عشرة آلاف جنيه . وقد كان قبل عقدين من السنين يبلغ ثلاثين الفاً او نحو ذلك . ولذلك يصح القول بأن الكشف الحديث عن تحويل العناصر غير المشعة الى مواد مشعة ، تقدم عظيم الشأن في علم الطبيعة ، وقد يكون ، بل لا يبعد ان يكون ، نفحة جليلة اخرى من نفحات العلم النظري لعلوم الطب العملية . اذ لا يخفى ما للعناصر المشعة من فائدة في بعض انواع العلاج

هذا الكشف الجديد ، الذي اثبت ان الانسان يستطيع ان يحوّل بعض العناصر غير المشعّة الى عناصر مشعّة ، بأساليب صناعية ، وبمقذوفات لا يد للطبيعة في اطلاقها ، نتيجة النشاط العجيب ، الذي بدا في علم الطبيعة التجريبي ، ودار حول نواة الذرة ، عن طريق تهشيمها بغية الوصول الى معرفة قوامها . فقد أذيعت الانباء الاولى عن هذا الكشف في ١٥ يناير سنة ١٩٣٤ في رسالة للاستاذ كوري جوليو وزوجه ارين كريمة مكتشفي الراديوم . وما ذاع النبأ الذي انطوت عليه رسالتهما حتى اكبت عليه طائفة من البحاثين في مختلف البلدان ، فتوسعت فيه ، وأيدت بتجاربها الحقائق التي كشفاها . وفي مقدمة الذين تناولوها وأضافوا اليها ، اللورد رذرفورد واعوانهُ — وقد كانت وفاة رذرفورد في السنة الماضية خسارة علمية فادحة — والاستاذ ارنست لورنس الاميركي وغيرهم

***

قلنا ان هذا الكشف الجديد ، اي ان هذه المرحلة الجديدة في دراسة النشاط الاشعاعي ، نشأت عن العناية بدراسة نواة الذرة ، والتوسل بتهشيمها الى معرفة قوامها

ولا يخفى ان تهشيم الذرة ، او بالحري تهشيم نواتها ، يقتضي أولاً — قذيفة تطلق على نواة الذرة فتخترق النطاق الكهربائي الذي يحيط بها فتهشمها . وثانياً — وسيلة صالحة لاطلاق تلك القذيفة بزخم كافٍ للتهشيم . وثالثاً — هدفاً يحتوي على الذرات التي نبغي تهشيم نواها كلوح رقيق من البورون او الالومنيوم او المغنسيوم او الصوديوم — وليس بضروري ان يكون الهدف لوحاً — فيوضع الهدف في مسار القذيفة فتصطدم بهِ . ورابعاً — اسلوباً يمكن الباحث من معرفة نتيجة التصادم

تطلق هذه القذائف العديدة على الهدف فلا بد ان يتفق لاحداها ان تصطدم بذرة من الذرات التي في الهدف فتهشم نواتها وقد تتحد بجزء منها فينشأ من هذا الاتحاد مادة جديدة او قد تلصق بالنواة بغير ان تهشمها فينشأ من ذلك جسم اكبر وزناً من جسم الذرة الاصلية . ويكون هذا الجسم غير مستقرّ التركيب فلا يلبث حتى ينحل فتنطلق منهُ دقائق ذرية وأشعة

غمًا . وهذه الحالة الاخيرة هي ما يعرف بالنشاط الاشعاعي الصناعي لان النشاط الاشعاعي الذاتي في الراديوم ليس في الواقع الاَّ انطلاق دقائق وأشعة من ذلك العنصر

كانت القذائف التي استعملها اللورد رذرفورد أولاً في تحويل العناصر قذائف تستمدُّ طاقتها وزخمها من الطبيعة ، اي الدقائق المنطلقة بسرعة عظيمة من العناصر والمواد المشعة كالراديوم والبولونيوم والثوريوم وغيرها . فلم يكن لهُ يدٌ في اطلاقها أو في زيادة طاقتها . الاَّ ان العلماء مقتنعون كاقطاب المسكرين بالفائدة العظيمة التي تجنى من استعمال الاجهزة الميكانيكية . ولذلك عمدوا الى استنباط الوسائل والاجهزة التي تمكنهم من ان يتناولوا دقائق مادية منوّعة ، فيطلقوها بوساطة اجهزتهم ، بزخم عظيم

أما الوسائل المستعملة لهذا الغرض فمختلفة . وافضلها جهاز لورنس المعروف باسم السيكلوترون او الجهاز الرحوي . وجميع الاجهزة التي سبقت اتقان طريقة لورنس ، تتصف بخزن مقادير كبيرة من الطاقة الكهربائية واطلاقها بين قطبين ضخمين . ولكن ظهر بعد التجربة انهُ إذا ارتفع الضغط الكهربائي في القطبين وبعدت المسافة بينهما ، تعذر وجود انابيب تصلح لمرور الشرارة العظيمة بين القطبين . وقد صنع فعلاً جهاز عظيم في معهد ماستشوستس التكنولوجي قبل اربع سنوات ، بحيث تنطلق الشرارة الكهربائية فيه عندما تنطلق بقوة سبعة ملايين فولط ولكنهُ لم يستعمل لانهُ تعذَّر حتى الآن صنع انبوب صالح لذلك

ولكن ارنست لورنس الاميركي ، احتال على تحقيق الغرض نفسهِ باسلوب بارع . فقد كان في سنة ١٩٢٩ — وهو حينئذٍ في الثامنة والعشرين من عمره — يطالع رسالة لباحث الماني غير مشهور فوقع فيها على وصف لما يحدث للايونات عندما تكون في حقل مغناطيسي ، وكيف تمكن من ان يجعل طاقة الحركة في ايونات البوتاسيوم ، ضعفي الطاقة الاصلية التي قذفت بها . فخطر للورنس ، ان يسعى الى صنع جهاز ، القصد منهُ أن يطلق فيه الدقائق بقدر معيَّن من الطاقة واطيء الضغط بالقياس الى الطاقة العظيمة في الاجهزة التي تقدم وصفها . ولكنهُ يجعل الجهاز بحيث تؤثر هذه الطاقة مرة بعد اخرى في الدقائق ، فتزيد سرعتها رويداً رويداً حتى تصبح طاقة انطلاقها اضعاف الطاقة الاصلية التي اطلقت بها . وقد شبه الاستاذ كارل كمطن مدير معهد ماستشوستس التكنولوجي هذا الجهاز تشبيهاً لطيفاً يقرب معناهُ . قال انهُ اشبه ما يكون بفتى واقف على عارضة ارجوحة ساكنة فيطلب الى احد رفاقه ان يدفعهُ الى الامام : فيفعل . ولكن الفتى يستطيع ان يبلغ علوّاً عظيماً وزخماً كبيراً اذا عرف كيف يرتب حركة قيامه وقعوده في الارجوحة . وقد استطاع لورنس فعلاً ان يبدأ إطلاق القذائف في جهازهِ بقوة تبلغ ضغطها خمسين الف فولط فقط فيبلغ طاقة حركتها ستة ملايين من الفولطات.

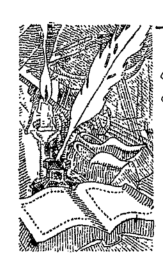
وأحدث الانباء من كاليفورنيا تشير الى انهُ معنيٌّ الآن بصنع جهاز يمكنهُ من ان يقذف بهِ قذائف معينة بطاقة ١٢ مليوناً الى ٢٠ مليوناً من الفولطات ودقائق اخرى بطاقة ٢٤ مليوناً الى ٤٠ مليوناً من الفولطات

قلنا ان القذائف الاولى التي اعتمدها لورد رذرفورد كانت تنطلق انطلاقاً ذاتيًّا من العناصر المشعة . ثم استعملت البروتونات وهي نوى ذرات الايدروجين . ولكن في خلال المدة التي انقضت والعلماء يبحثون عن استحداث جهاز لاطلاق هذه القذائف بطاقة عظيمة ، اكتشف الباحثون دقائق مادية جديدة ، هي اصلح من البروتونات للاطلاق . ففي سنة ١٩٣٢ اكتشف شدك الانكليزي ما يعرف باسم « النوترون » — ومعناه المحايد — وهو دقيقة وزنها واحد اي كوزن البروتون ولكنها لا تحمل شحنة كهربائية واذن يسهل عليها اختراق النطاق الكهربائي حول النواة لعدم تأثرها بفعل الجذب والدفع الكهربائيين . وحوالي ذلك الوقت ايضاً اكتشف يوري الاميركي الدوتيريوم او الدبلوجين ، وهو الاسم الذي يطلق على الايدروجين الثقيل ، اي الايدروجين الذي كتلة نواتهِ ضعف كتلة النواة في الايدروجين العادي . ولما كان البروتون من القذائف المستعملة في هذا البحث ، فالدوتون او الديبلون خير منهُ لان كتلته ضعفا كتلة البروتون ، واذاً فزخمه عند اطلاقه يجب أن يكون اعظم

وكذلك توافرت للباحثين القذيفة . والجهاز اللازم لاطلاقها بزخم عظيم . فتمهَّد الطريق لاحداث النشاط الاشعاعي في عناصر غير مشعة . وفي احدث ما لديَّ من المصادر ان اربعين عنصراً غير مشع استحدث فيها النشاط الاشعاعي باحدى الطرق المتقدمة

ومن العجب ما تمَّ في هذا الميدان صنع الصوديوم المشع باطلاق الدوتونات عليهِ . فعندما يصيب الدوتون ، وهو منطلق بطاقة ٠٠٠و١٧٥٠ فولط نواة ذرة الصوديوم يندمج فيها ويطلق منها بروتوناً ، ولكن الدوتون ضعفا كتلة البروتون ، اذن يزيد وزن نواة الصوديوم واحداً فتصبح بذلك ذرة صوديوم مشعة . وهذه الذرة تطلق اشعة غمَّا تماثل اشعة غمَّا المنطلقة انطلاقاً ذاتيًّا من عنصر الراديوم . الاَّ ان نصف حياة الراديوم ١٦٠٠ الى ١٧٠٠ سنة . ولكن نصف حياة الصوديوم المشع خمس عشرة ساعة . ويمتاز الصوديوم المشع على الراديوم في انهُ لا يطلق الاَّ اشعة غما حالة ان الراديوم يطلق دقائق الفا ودقائق بيتا كذلك . واذن فاستعمال الصوديوم المشع في الطب قد يكون اسهل من استعمال الراديوم

هذا ايها السادة ما اتسع لهُ المقام من القول في الاشعاع من ناحيتهِ الطبيعية فقط دون الابواب المتعددة التي فتحها بحثهُ على العلوم الاخرى ، وحسبي ان تتلقَّوه بحلمكم وتغضوا الطرف عمَّا فيهِ من تقصير



العوامل الفعالة

في

الادب العربي الحديث



عُني حضرة العلاّمة الاستاذ انيس المقدسي استاذ الادب العربي في جامعة بيروت الاميركية باعداد بحث نفيس عنوانه « العوامل الفعالة في الادب العربي الحديث » وهو دراسة تحليلية للنزعات المتجلية في آداب النهضة العربية الحديثة وبواعثها السياسية والاجتماعية والفكرية . وقد اتيح المقتطف ان يظفر بهذا البحث . فشرعنا في نشر الحلقة الاولى التي عالج فيها المؤلف « العوامل السياسية في المواطن الرئيسية للنهضة اي مصر والعراق والاقطار السورية من منتصف القرن الماضي الى الوقت الحاضر » . والاستاذ المقدسي يعلم « ان هذه طريق وعرة لا يأمن سالكها العثار أو الضلال . فاذا كنا نحاول سلوكها فان جلّ همنا ان نشقّها شقًّا واضحاً لمن يسلكها بعدُ فيمهدها ويعبّدها حتى يصل بها الى الغاية القصوى . وها نحن نعرض هذه الدراسات التمهيدية في المقتطف — المعرض العربي العلمي العام — راجين اولي الاطلاع النظر فيها والتكرُّم بكل ملاحظة تفيد كاتبها وتخدم الحقيقة العلمية المنشودة »

النزعات الادبية

العامة قبل دستور ١٩٠٨

لانيس المقدسي
استاذ الادب العربي بجامعة بيروت الاميركية

— ١ —

﴿ الرابطة العثمانية ﴾ ظلت تركيا الى عهد قريب سيدة الامم العربية من الناحية السياسية، وظلت عاصمتها الاستانة مقر سلطنة مترامية الاطراف ، وخلافة دينية واسعة النفوذ

وبرغم ما بلغته في اواخر عهدها من فساد اداري واختلال اقتصادي ، وبرغم الدعايات[١] الواسعة التي كانت تقوم بها الدول الاوربية ، واخصها روسيا القيصرية وبريطانيا وفرنسا والمانيا والنمسا ، لا ترى في الشرق العربي منذ ايام ابراهيم باشا المصري حتى اواخر القرن التاسع عشر حركة جدية للانفصال عن السلطنة العثمانية والاستقلال بكيان سياسي منظم . ولم يكن لقطر عربي من الاسباب الممهدة لظهور ادب قومي عربي النزعة ما كان لمصر في القرن التاسع عشر فهي اسبق البلدان العربية الى انشاء وحدة ادارية ذاتية ، بل هي اول مكان بعث فيه الروح العربية الاستقلالية ، كما يستدل من سياسة ابرهيم باشا التي كانت ترمي الى فصل بعض الاقطار العربية عن جسم السلطنة وتأسيس مملكة عربية كبيرة[٢]. كان ابرهيم باشا يحلم بالاستقلال حينما صرح للبارون بوالكونت بقوله[٣] « ما انا بتركي بل انا ابن مصر ان شمسها قد غيرت دمي فجعلتني عربياً قحاً » وقد سارت مصر بعده بخطى ثابتة في ذلك السبيل ومع كل ذلك ظل الادب العربي فيها عثماني الروح . والذي يراجع نفثات الادباء المصريين في القرن الاخير كابي النصر علي ، والشيخ علي الليثي ، وسامي باشا البارودي ، وعبد الله نديم وسواهم يتجلى له ما نقصد اليه

---

(١) الدعايات لفظة غير قاموسية . ولكننا آثرنا استعمالها لشيوعها بين الكتاب السياسيين ولانطباقها على قاعدة ذكرها ابن جني في الخصائص تحت باب التدريج

(٢) Rustum, The Royal Archives p. 92-96

(٣) Douin, Mission du Baron Boisle Comte p. 249

وسبب ذلك ، على ما يظهر ، ما كان للخلافة ودعاتها من تأثير في نفوس المسلمين . فكان سلطان تركيا الممثل الاكبر لعظمة الشرق والاسلام . وإذا سمعنا الشيخ الليثي شاعر الخديو اسماعيل يقول في السلطان عبد العزيز (على الطريقة الشعرية في ذلك العهد)

دعْ ذكر كسرى وقصّرْ إن اردت ثنا عن قيصر الروم حيث النفع مفقودُ
واشرح مآثر من سارت بسيرتهِ ركائب الجود تحدوها الصناديدُ
مَلْكِ الملوك الذي من يمن دولته ظلّ العدالة في الآفاق ممدودُ

فانما قوله انموذج لما كان يقال في العرش العثماني وخلافة الاسلام .وقد ظلت الروح العثمانية شديدة البروز في مصر حتى حدث ما حدث بعد الحرب الكبرى من سقوط الخلافة وانقلاب السلطنة العثمانية الى دولة تركيّة صرفة . وكان قادة الحركة الادبية على اتصال بمقر الخلافة . تغمرهم النّعم السلطانية كعلي ابي النصر المتوفي سنة ١٨٨٠ وعبد الله فكري ١٨٨٩ وعبد الله نديم ١٨٩٦ وابراهيم المويلحي ١٩٠٦ ومصطفى كامل ١٩٠٨ ثم المتأخرون عن هؤلاء بالوفاة كاحمد شوقي وحافظ ابراهيم واسماعيل صبري وسواهم

وشوقي على ما يظهر هو اعظم من تغنى شعريًّا بمحامد الخلافة وتعظيم رجالها . فان له في ذلك قصائد سائرة . ومن اشهرها ما نظمهُ في وقائع الحرب العثمانية اليونانية سنة ١٨٩٧ وكان في ابّان شبابه كقوله في بائيتهِ العصماءِ (صدى الحرب) يخاطب السلطان : —

بسيفك يعلو الحقّ والحقُّ اغلبُ ويُنصر دين الله ايَّان تضربُ
وما السيف الاّ آية الملك في الورى ولا الامر إلاّ للذي يتغلّبُ

ومنها في وصف معركة ملونا وبأس الاتراك الظافرين : —

فهل من « ملونا» موقفٌ ومسامعٌ ومن جَبَلَيها مِنبرٌ لي فاخطبُ
فاسأل حصنيها العجيبين في الورى ومدخلها الأعصى الذي هو أعجبُ
وأستشهدُ الاطوادَ شمَّاء والذّرى بواذخ تلوي بالنجوم وتجذبُ
هل البأسُ الاّ بأسهم وثباتُهم ام العزمُ الاّ عزمهم والتلبّبُ
أم الدين الاّ ما رأت من جهادهم أم الملك الاّ ما اعزّوا وهيّبوا

والحق يقال ان هذه القصيدة ملحمة حربية . بل هي فيض من العواطف العثمانية . وكذلك كان كثير من شعر شوقي في كل ادوار حياتهِ . فقد نشأ على حب العثمانيين وظلّ من اكبر الدعاة لهم . ومن أراد ان يتحقق عثمانية هذا الشاعر الكبير فليراجع من قصائده ما يلي : —

تحية الترك ومطلعها :

بحمد الله ربّ العالمينا وحمدك يا امير المؤمنينا

ضيف امير المؤمنين ومطلعها :

رضي المسلمون والاسـلام فرع عثمان دمْ فداك الدوام

نجاة امير المؤمنين ومطلعها :

هنيئاً امـير المؤمنين فانما نجاتك للدين الحنيف نجاة

الاسطول العثماني ومطلعها :

هزّ اللواء بعزّك الاسلام وعنت لقائم سيفك الايام

في سبيل الهلال الاحمر ومطلعها :

يا قوم عثمان والدنيا مداولة تعاونوا بينكم ياقوم عثمانا

في سبيل الهلال الاحمر ومطلعها :

جبريل هلّـلْ في السماء وكبِّـر واكتب ثواب المحسنين وسطّـر

الاندلس الجديدة ومطلعها :

يا اخت اندلسٍ عليك سلام هوت الخلافة عنك والاسلام

تحية للترك ومطلعها :

الدهر يقظان والايام لم تنم فـما رقادكمُ يا اشرف الامم

رثاء الخلافة ومطلعها :

عادت اغاني العرس رجع نواح ونعيت بين معالم الافراح

فمن قراءة هذه القصائد وسواها يتبين لك ما كان للخلافة العثمانية من مقام في نفوس المصريين

اما في الادب المنثور فاكثر ما ترى ذلك في خطب السيد عبد الله نديم ومقالاته . ثم في الحركة الوطنية التي قام بها مصطفى كامل وفي كتابات السيد توفيق البكري . ومن امثلته قول الاول في خطاب [١]

« هذي يدي في يد من اضعها ؟ ضعها في يد وطنك واعقد خنصرك على محبة امير المؤمنين الخليفة الاعظم والاّ فقطعها خير من وضعها في يد اجنبي يستميلك اليهِ بوعود كاذبة وحيل واهية لتكون عونه الاكبر على ضياع حقوقك واذلال اخوانك ونزع سلطة اميرك وسلطانك »

وهذه الروح بارزة في كثير من اقوال هذا الخطيب

وكان مصطفى كامل (وهو زعيم الحركة الوطنية قبل الحرب الكبرى) يرى ان مصلحة مصر مرتبطة بمصلحة الاسلام على العموم . فكان كما قال زيدان « شديد المدافعة عنهُ كثير السعي في نصرتهِ . وقد كان يخدم مصلحة الدولة العثمانية من طرق كثيرة فانعم عليه السلطان بالرتب

(١) راجع مقالاته المنشورة على نفقة المطبعة الجديدة (مصر) ولا سيما الثالثة والتاسعة

والالقاب [1] » ومن قرأ خطبه تحقق صدق عثمانيته . ومن امثلة ذلك قوله من خطاب القاه على المصريين في باريس سنة ١٨٩٥ [2]

« حقاً ان سياسة التقرب من الدولة العلية لاحكم السياسات وأرشدها . فضلاً عن الاسباب العظيمة الداعية لهذا التقرب فان العدوّ واحد . ولا يليق بنا ان نكون في فشل وشقاق في وقت يعمل فيه اعداؤنا على تجزئة دولتنا . ولا غرو ان كنا نتألم لآلام الدولة العلية فما نحن الاّ ابناؤها المستظلون بظلها الوريف المجتمعون حول رايتها » ... الى ان يقول « وقصارى القول ان الراية العثمانية هي الراية الوحيدة التي يجب ان نجتمع حولها . ولا تتحقق وحدتنا بغير الاتحاد والائتلاف فلنتحد قلباً ولساناً ولنكن يداً واحدةً في خدمة الاوطان واسعادها . ولنقل اليوم جميعاً من صميم افئدتنا ليحي جلالة السلطان عبد الحميد وليحي العباس ولتحي العثمانية ومصر »

ولا نستطيع الآن البت في هل كان مصطفى كامل يستخدم الدعوة العثمانية مناوأةً للاحتلال الانكليزي في مصر او كان يستخدم مناوأة الاحتلال اداة لخدمة الخلافة . على ان الذي لا شبهة فيه ان كلتا العثمانية والمصرية بارزتان في حياته وادبه ، وانه كان من اكبر الدعاة في مصر بل في الشرق لتوطيد دعائم الجامعة العثمانية في ظل الخلافة الاسلامية

وقد نشأ قبله اثنان كان لهما يد طولى في هذه الدعوة واحيائها في الادب العربي . الاول احمد فارس الشدياق ١٨٨٧ وهو لبناني الاصل لكنه اتمّ علومه في مصر وعمل فيها فتولى كتابة الوقائع المصرية . ثم جال في اوروبا وأقام فيها بضع عشرة سنة . وبعد ذلك امّ تونس حيث اعتنق الاسلام ثم طلب الى الاستانة وهناك انشأ الجوائب وكانت واسعة الانتشار في العالم الاسلامي وفيها يجد الباحث كثيراً من القصائد والمقالات التي تدور على عظمة الدولة ومدح سلاطينها ورجالها . كقوله من قصيدة في عبد العزيز [3]

للــــدولة العليا عُلىً ومآثر ... يشدو بها يوم الفخار الآثر
ساست ممالك ليس يعلم حدّها ... ولغاتها الاّ العليم القادر
سر حيث شئت من البلاد فلا ترى ... إلاّ النعيم وما اشتهاه الناظرُ

والثاني جمال الدين الافغاني ١٣١٤ ﻫ ويتصل نسبه بآل البيت . كان زعيماً اسلامياً كبيراً . وقد اضطرتهُ الاحوال السياسية ان يفارق بلاد الافغان ويقصد الاستانة فاستقبل هناك بحفاوة

---

(١) تراجم مشاهير الشرق ١ — ٢٩٧ و ٢٩٩ (مصر ١٩٢٢)
(٢) راجعه في كتاب مصطفى كامل باشا (الطبعة الاولى مصر ١٩٠٨) ج ٣ — ١٩٧
(٣) منتخبات الجوائب (١٢٩٢) ٣ — ١٥٢

واقام بها مدة . ثم امّ مصر وكان فيها محجّة العلماء والمفكرين . وجمال الدين خطط وتعاليم سياسيّة ويؤخذ منها «ان الغرض الذي كان يصوّب نحوه اعماله والمحور الذي كانت تدور عليه آماله توحيد كلمة الاسلام وجمع شتات المسلمين في حوزة دولة اسلاميّة تحت ظل الخلافة العظمى »[1]

ولا شك ان للافغاني وللشدياق اثراً كبيراً في الادب السياسي بمصر

***

ونحن إذا قلنا ان الادب المصري كان متشبعاً بروح التشيُّع للخلافة والجامعة العثمانية فحكمنا يتناول المصريين الاصليين ولا سيما المسلمين منهم . اما نزلاء مصر من السوريين والعراقيين فكانوا فئتين متطرفتين ، فئة تجاري المصريين في عثمانيتهم وفئة تنكر عليهم هذا الاندفاع نحو تركيا

ومن الفئة الاولى سليم تقلا مؤسس جريدة الاهرام . واليك بعض ما كتبهُ سنة ١٨٩٩ في « الوطنية العثمانية » قال —[2]

« انّ في ممالكها المحروسة عناصر عديدة بين تركية وعربية وارمنية ويونانية وغيرها . وكذلك مذاهب مختلفة . ولكنها تجمعها كلها جامعة واحدة وطنية هي الجامعة العثمانية وهي دون استثناء تخضع لجلالة سلطانها وتصدع بامره وتنصاع لاحكامه . وهذه الجامعة كانت وتكون الحصن الحصين للرعية دون اطماع الدول ، وما وراء العبث بها الاّ الخسران والضياع . واذا تبيّن هذا ، وهو الحق الصُّراح ، كان ابن مصر وابن الحجاز والعراق والشام اخوة لامٍّ هي دولتهم ، وأبٍ هو جلالة السلطان »

وتتجلّى هذه النزعة العثمانية في شعر خليل مطران . وفي ادب مطران وسيرته ما يدلّ على مجاراته الوطنيين المصريين في آمالهم ونزعاتهم . فلا نستغرب ان نسمعهُ يقول في قصيدته « فتاة الجبل الاسود » وكان قد نظمها قبيل استقلال ذلك الجبل[3] —

طغتْ امة الجبل الاسودِ على حكم فاتحها الأيّدِ

ومنها — وما الترك الاّ فحول الحروب رضيعو لظاها من المولد

اذا لقحوها الدماء فلا نتاج سوى الفخر والسؤدد

سواء على المجد ايّا تكنْ عواقب مسعاهم تُحمَد .

وتظل هذه الحماسة العثمانية فيه الى زمن متأخر كما نرى في القصائد التي يذكر فيها حرب طرابلس الغرب وبعثات الهلال الاحمر[4] ففي هذه وما يماثلها يظهر ميله العثماني وتشيعه لوطنيي مصر

---

(١) تراجم مشاهير الشرق (زيدان) (مصر ١٩١٢) ج ٢ — ٦١

(٢) مجالي الغرر ٧٣ (٣) ديوانه ص ١٥٤ (٤) راجعها في الشعراء الثلاثة للسندوبي (١٩٢٢) ص ٣١٤ و٣٣٤ والمورد الصافي ٣ — ١٨٣

ويمثل الفئة الثانية المناوئة للسياسة العثمانية سليم سركيس صاحب جريدة المشير فهو شديد التهجم على هذه السياسة وعلى دعاتها . ومما يبيّن لك ذلك مقالة له موضوعها «هل مصر عثمانية» قال فيها[١]

« لم اجد في حياتي ولا قرأت في مطالعاتي عن امة تريد الانتقال من نور الاستقلال الى ظلمات العبودية الاّ هذا القسم من الامة المصرية الذين يريدون التمسك بأذيال العرش العثماني » ومن شعره قوله[٢] —

نرجو صلاح الترك قد خابت امانينا الكواذبْ
هي دولة ظلمتْ وليس العدلُ عن ظلم بذاهبْ
فانشدْ معي قولاً تردّده المشارق والمغاربْ
ليس العجيبة فقدها بل عيشها احدى العجائبْ

ومثل سركيس كثيرون ممن بلغ بهم اليأس هذا الحدّ من كره الادارة التركية

على ان بين هاتين الفئتين فئة ثالثة تتوسطهما وتتصل بكلتيهما . وهي فئة المعتدلين الذين لم يعمهم التعرّض عن سيئات تركيا — ومنهم من هجرها طلباً لحرية الفكر — وكان مع ذلك كله يحرص على بقاء الجامعة العثمانية . نذكر منهم فرح انطون فقد اصدر في الاسكندرية سنة ١٨٩٧ مجلتهُ (الجامعة العثمانية) ومن اسمها يتضح مذهبه السياسي وخلاصته[٣] ان الامم الشرقية يجب ان تتحالف تحالفاً متيناً جدًّا حتى تستطيع ان تسير مع التيار الغربي فلا يدوسها ولا يستطيع ان يهضمها فهو منذ بدء حياته القلمية يدعو الى جامعة شرقية واسعة. ومن اقواله في العدد الاول من مجلتهِ مشيراً الى المدارس الاجنبية — « فلننشأنّ ايها العثمانيون بازاء تلك المدارس مدارس جديدة يكون اساس تعليمها حب الوطن والامة وتعليم ما هو الوطن وما هي الامة . لنؤسس مدارس جديدة ندخل اليها طرق التعليم الحديثة ووسائل التربية الحديثة . وندخل اليها قبل ذلك عناصر الامة كلها فنربيها فيها على مقاعد واحدة ونلقنها دروساً واحدة ومبادىء واحدة حتى تكون بعد خروجها من حياة المدرسة الى حياة الرجولية بقلوب واحدة وأفكار واحدة فان هذا هو السبيل الى تقوية جدار الوطنية العثمانية ووقايتهُ من الثلم والهدم »

وقد علق على ذلك الشيخ رشيد رضا صاحب المنار الاسلامي بقوله[٤] « فشكراً لك ايها الكاتب الفاضل ، ونجح الله تعالى الجامعة العثمانية بمبادئك الصحيحة » ومما لا ريب فيه ان الشيخ المذكور كان من دعاة العثمانية وكذلك الشيخ علي يوسف صاحب جريدة المؤيد وغيرهما من رجال العلم والدين

---

(١) راجعها في المشير عدد ١٠٣ (٢) المشير ٢١ ابريل ١٨٩٩ (٣) «فرح انطون» ملحق مجلة السيدات والرجال ١٩٢٣ ص ١٤ (٤) المنار مج ٢ — ٤٧

ومن المعتدلين الناظرين الى الامور بعين الروية جرجي زيدان منشىء الهلال فهو من طلاب الاصلاح السياسي ولكنهُ لم يكن مناوئاً للعثمانية . والذي يطالع اعداد مجلته ولا سيما في السنين الاولى يراه عطوفاً على الدولة ولعله كان يرى كما كان يرى اديب اسحق واصحاب المقطم وامثالهم انَّ الرابطة العثمانية لازمة للشرقيين وان طلب الاصلاح لا يعني القضاء عليها او استبدالَ رابطة اخرى بها

واذا صح ان نعد ولي الدين يكن نزيلاً في مصر لنشأته في الاستانة واعتباره اياها وطنه الاصلي فهو من ابرز المتسمين الى هذه الفئة الوسطى . بل هو يجمع في نفسه تطرف الفئتين الاوليين — شدة النقمة على سلطان تركيا ، وشدة العصبية للوطن التركي . فلما كان في مصر ورأى بعض الجرائد الانكليزية والعربية تتحامل على الجنس التركي نسي نقمته على عبد الحميد وحكومته وقام يدافع عن الاتراك غير مبالٍ بمعاداة كثير من خلانه الاحرار[1]. وهو القائل « لوطني مني حياتي وكل ما كان دونها على ان اعيش عثمانيًّا واموت عثمانيًّا »[2] ومن اقواله في وطنه العثماني

ويخلد لليالي فيك حبي واخلاصي الذي في الناس شاعا

وفي مرثاته لادهم باشا بطل الحرب اليونانية يقول

وبلاد الفتى تعزُّ عليهِ وعظام الآباءِ فيها عظام

وعهود الصبا عهودٌ غوالٍ وغرام الوفيّ ذاك الغرام

وكيف التفتَّ الى ولي الدين تجده في ادبه ذلك العثماني المخلص الذي يكره الاستبداد ولكنهُ يحبّ الوطن ، يمدح اللورد كرومر لحمايته الاحرار في مصر[3] ولكنهُ ينقضّ على مشايعي غلادستون المتحاملين على تركيا والاتراك[4] وحتى في ايام محنته ونفيه الى سيواس لا يذكر بلاده الا بالخير فيقول[5]

ايها الركبُ سرْ فانّ امامي لبعاداً مرًّا وعيشاً امرّا

غربةٌ هذه وقد كنت ادري أن سأرمى بها لدنْ كنت حرّا

فالفحي يا روامي الارض ناراً وأفيضي قدافد الارض بحرا

وانفحي يا ريح الشمال سموماً واقذفي يا سوائر الافق صخرا

انا ارضى بذا لحبّ بلادي وارى في سبيلها الموتَ فخرا

(١) المعلوم والمجهول (١٩٠٩) ١ — ١٠٧ (٢) المعلوم والمجهول (١٩٠٩) ١ — ١٣٩
(٣) المعلوم والمجهول ١ — ١١٠ (٤) المعلوم والمجهول ١ — ١٠٧ (٥) المعلوم والمجهول ٢ — ٦٥

واذا ذكر الخلافة العثمانية ومجدها الماضي وكيف اصبحت في ايام عبد الحميد قرن ذلك بدموع الاسى على الوطن فقال[1] —

خلافة قد مضى عنها خلائفها من آل عثمان من سادوا ومن شادوا
ابقوا بها المجدَ للاخلاف بعدهمُ والمجدُ يبقيه للاخلاف امجادُ
حتى انتهت لاميرٍ في تسلّطه يخشى مظالمه عادٌ وشدّادُ
يا ويلنا انما نبكي لنا وطناً يبكيه في الترب آباءٌ واجدادُ

فولي الدين مهما يكن موقفهُ من الادارة الحميدية عثماني مخلص شديد التعلق بالجامعة العثمانية ولعله يفوق سائر الاصلاحيين في ذلك

وما يصدق على المهاجرين العثمانيين في مصر يصدق عليهم في سائر المهاجر الاَّ انهُ لما كان اكثرهم هناك من السوريين واللبنانيين النازحين من بلادهم اما رهبة من الاستبداد وإما رغبةً في طلب العلى ، ولما كانوا بعيدين عن تأثير الدعايات العثمانية كما كانت حال اخوانهم في وادي النيل ، فقلما ترى منهم من يعطف على الجامعة العثمانية او يهتم ببقائها . على انك قد تجد منهم من تهزه العصبيّة الشرقية أحياناً فتظهر العثمانية في شعره او نثره ولكن ذلك قليل اذا قيس بسواه

***

وإذا خرجنا من مصر الى سائر الاقطار العربية ولا سيما سوريا ولبنان والعراق فمن الطبيعي أن نجد معظم الادب السياسي فيها متلبساً بملابس المجاملة او التزلف الى السلطان ورجال دولتهِ

ولا ينكر ان من الشعراء في هذه الاقطار من كان صادق العقيدة العثمانية إما لتأثيرها الديني في نفسهِ وإما لاسباب اخرى . على ان الرهبة من الاستبداد او الرغبة في جرّ المغانم كانتا قبل العهد الدستوري من اهمّ الدواعي الى شيوع النزعة العثمانية في الادب العربي وليس على طالب الحقيقة الاَّ ان يراجع دواوين الشعراء في ذلك العهد كبطرس كرامه ، وعبد الباقي العمري ، وناصيف اليازجي ، وعبد الغفار الاخرس ، وفارس الشدياق ، ويوسف الاسير ، وابراهيم الاحدب . ثم محمد حسن الحموي ، ومحيي الدين الخياط ، والباروني ، وعبد الحميد الرافعي ، ومن عاصرهم . فانهُ يجد في جميعها ما يماثل قول اليازجي الكبير في السلطان عبد العزيز : —

(١) ديوانه ٤٣

خليفة الله ظلٌّ في خليقته ظلت بهِ تتّقي الدنيا وتستترُ
لا ترتضي غيره الدنيا لها ملكاً لوكان جبريل يأتيها أو الخضِر
مقلَّد فوق اثواب مضاعفة من خشية الله سيفاً صاغه القدر
إذا طلبنا من الباري لنا وطراً فليس الاَّ بقاهُ عندنا وطر

أو قول عبد الحميد الرافعي في ابي الهدى الصيادي شيخ السلطان عبد الحميد

سألوا يا سعدُ أين المبتغى قلتُ حيث الشمسُ في برج الاسدْ
حيث لي من آل طه سادة ملأُوا الدنيا بأنوار المددْ
ودنوا من ملجأ الملك لدى مقعد الصدق ومرقى المعتمدْ
فرد ذا الدهر حميد الخُلقا دام في حفظٍ من الفرد الصمدْ

وباب مديح العظماء في ادب ذلك العهد واسع ، بل هو أوسع الابواب الشعرية . وكثير منهُ شخصي لا علاقة لهُ خاصة بالاحوال السياسية . على ان منهُ ما يتعلق بالسياسة الداخلية او الخارجية . فدراستهُ من هذا القبيل مفيدة للباحث . ومن أمثلة ذلك قصيدة رفعت سنة ١٩٠٢ الى مظفر باشا متصرّف لبنان عند توليهِ الحكم يحاول فيها الشاعر[١] ان يعبر عن أماني اللبنانيين المهاجرين فيصف حال الجبل في ذلك الحين وأحوال المهاجرين ثم يلتفت الى المتصرف الجديد فيحذّره من تدخل القناصل في ادارتهِ . ويطلب الى نواب الاقضية (اعضاء مجلس الادارة) ان ينشطوا الى ما فيهِ خير البلاد وان يمحوا سيئات الماضي في هذا العهد الجديد . ويختمها راجياً من المتصرف ألاّ تكون وعوده كوعود أسلافهِ كلاماً في كلام فيقول —

أمظفر الجيل الذي ضمنت لنا أقوالهُ يمناً يعزُّ مثالهُ
كم حاكمٍ ابدى لاول حكمهِ وعداً فكان وفاءه اخلالهُ
حاشاك إخلاف الوعود فانت مَن شرف المبادىء والوفاء خِلالهُ
تركوا لنا التاريخ مسودًّا فكن ممّن تخلَّد بالجميل فعالهُ

ولو رجعنا قليلاً الى الوراء وراجعنا مثلاً مدائح ناصيف اليازجي وخليل الخوري في فؤاد باشا لقرأنا في خلال سطورها كثيراً عن حوادث السنة الستين في سوريا ولبنان وقس على ذلك كثيراً من شعر المديح المتعلق بحوادث سياسية اثارت خواطر الناس في مختلف الاقطار العربية

« للبحث صلة »

(١) قيصر المعلوف في تذكار المهاجر (١٩٠٤) ص ١٠١

٢ — الحاجة الى زيادة المعرفة بالانسان

الانسان المجهول

لاسماعيل مظهر

٣ — أثر علوم الآلة والطبيعة والكيمياء في تكييف بيئتنا

إنّ البيئة التي كوّنت جسوم آبائنا الاولين وكيفت ارواحهم، طوال الآلاف المؤلفة من السنين، قد استبدلت الآن بغيرها. ولقد مرّ بنا هذا الانقلاب الصامت من غير ان نحسّه غالباً. وكذلك لم ندرك ماله من الشأن. ومع هذا فانهُ احد المآسي الكبرى التي يرويها تاريخ الانسان. ذلك بأن تغيّراً ما يصيب المحيط الذي يشمل الاحياء، انما يترتب عليه اضطرابات لها اعمق الأثر. لهذا ينبغي لنا ان نحقق مدى تلك التحولات التي فرضها العلم على اسلوب الحياة التي عاشها أسلافنا، ومن ثمَّ علينا بالذات

فمنذ بُداءة العصر الصناعي، اضطر فريق كبير من الناس ان يعيشوا في مساحات من الارض ضيقة محدودة. فان العمال قد سيقوا الى التجمع : إما في ضواحي المدن الكبرى، وإما في قرًى اقيمت لهم. وهم يعملون في المصانع ساعات محدودة، ويقومون بأعمال سهلة وعلى وتيرة واحدة، وينقدون اجوراً حسنة. وكذلك ترى المدن وقد اكتظت بعمال المكاتب وخدام الحوانيت والمخازن وكتاب المصارف والادارات العامة والاطباء والمحامين ومعلمي المدارس، غير تلك الجموع الغفيرة التي تكسب قوتها، بالذات او بالبواسطة، من التجارة او الصناعة. وما المعامل في الواقع الاّ مكاتب كبيرة، حسنة الإضاءة تامة النظافة. ودرجة حرارتها واحدة لا تتغير تقريباً. واجهزة التدفئة والتهوية، ترفع درجة حرارتها شتاء، وتخفضها صيفاً. في حين ان المُطَرّحات (ناطحات السحاب) التي نشاهدها في المدن الكبرى قد جعلت من الشوارع والطرقات ما يشبه الاغوار السحيقة. وقد استبدل ضوء الشمس في داخل العمائر بأضواء كهربية غنية بالاشعة فوق البنفسجية. واستعيض عن هواء الشارع المشبع بأدخنة الغزولين، في المكاتب

والمعامل ، بهواءٍ تقي تجذبهُ اليها جهازات التهوية المركبة فوق الاسطح، من طبقات الجو العليا . وقد عمل على حماية سكان المدن الكبرى من كل ما قد يحتمل ان ينزل بهم تغير الطقس من المكدِّرات . ومع هذا كلهِ ، فهم عاجزون عن ان يعيشوا كما عاش اسلافهم ، بمقربة من معاملهم او مخازنهم او مكاتبهم . فالاغنياء يحتلون العمائر الضخمة القائمة على جوانب الشوارع الكبرى . وعلى قمم الابراج العليا يعيش «ملوك العمل» في صروح ممرّدة، تحيط بها الاشجار والحشائش والازاهير. يعيشون هنالك ، محصنين عن أن يصل اليهم رُغاءٌ أو لغط او تراب ، او أي من المكدرات الاخرى ، كما لو كانوا يعيشون في قمم الجبال الشامخة . يعيشون في عزلة عن العامة اين منها انفراد اسياد القطائع خلف اسوارهم وقلاعهم في قصورهم الحصينة . اما متوسطو الحال ، وبالحري الذين هم أقل غنىً عن اولاء ، فيعيشون في شقق فيها من النعائم مالم يحْظَ بمثله لويس الرابع عشر ، أو فردريك الاكبر . وكثيرهم الذين يعيشون بعيداً عن المدن ، فتحملهم قطارات سريعة مساء كل يوم زرافات غفيرة الى حيث يجدون الطرقات المتسعة تشق رقعاً من الارض اخضوضرت بالحشائش ، وارتال من الاشجار تقوم صفوفاً ، وعلى جانبيها بيوت جمعت كل اسباب الراحة والهناء . أما العمال وصغار المستخدمين، فحياتهم أرقى من حياة الاغنياء في فارط الزمن . فجهازات التدفئة التي تنسق درجة الحرارة آليًّا في المنازل ، والحمّامات ، والمبرِّدات ، والحامي الكهربية ، والادوات المنزلية التي أعدت للطبخ وتنظيف الحجرات ، تضفي على مسكن كل انسان ، لا في المدن والضواحي وحدها ، بل في الريف ذاته ، طابعاً من الهناءة ، وتزوّدها بعوامل للسعادة ، ما كنت لتقع عليها في غير مساكن قلةٍ من الافراد ذوي الامتياز

مع تغير المسكن ، تغير اسلوب الحياة . والسبب في هذا التغيُّر راجع في أكثر الامر إلى الزيادة في سرعة المواصلات . وفي الحق إنهُ لظاهر أن القطارات الحديثة والبواخر والطيارات والسيارات والبرق والتلفون ، سلكيًّا ولاسلكيًّا ، قد كيَّفت العلاقات القائمة بين الافراد وبين الامم في انحاء الارض جميعاً . فان الفرد الآن في مستطاعه ان ينجز من العمل اكثر مما كان في مستطاع زميله الاول اضعافاً . ويشترك في عدد اكثر من الاحداث ، وفي كل يوم يتصل بخلائق جُددٍ . والفترات التي يقضيها في هدوءٍ او عطلٍ من العمل ، إنما هي فترات نادرة في مجرى حياتهِ. والعشيرة الضيقة الحدود، عشيرة الاسرة او عشيرة الأبرشية ، قد تبخرت وزالت . فالاقبال على غشيان دور الخيالة والمسارح ،أو القيام باعمال الرياضة البدنية ، والاندية والمجتمعات بأنواعها ، ناهيك بالجامعات العظيمة والمعامل والمخازن الكبيرة والفنادق ، عامة ذا قد أدى الى توثيق عادة العيش في جماهير . فالتلفون والراديو والحاكي بما تسجل من حوادث ، تنقل بغير انقطاع عامية الجمهور ونقائصه ، كما تنقل مسراته وصوره النفسية الى كل بيت ، مهما كانت عزلته

وانقطاعه عن العالم المتمدين . وعلى الجملة فقد اصبح كل فرد ذا اتصال ، سواء أمباشرة ذلك كان ام بالواسطة ، بغيره من الخلائق البشرية ، واقفاً على جميع الحوادث كبيرة كانت ام تافهة ، سواء أفي القرية التي يعيش فيها وقعت ام في المدينة المجاورة ، ام في طرف بعيد من اطراف الدنيا الفسيحة . ففي مستطاع من يقيم في ركن منعزل من اركان الريف الفرنسي ان يستمع الى الانغام التي تتجاوب بها جنبات وستمنستر ، كما ان فلاحاً في « فيرمونت » قد يصغي ان اراد ، الى خطيب يتكلم في برلين او لندن او باريس

حيثما وليت وجهك ، في المدينة ام في الريف ، في المساكن الخاصة ام المعامل ، وفي دور الصناعة والطرقات والحقول والضياع ، ترى ان الآلات قد انقصت من مقدار الجهد الانساني . حتى لقد اصبح من غير الضروري في هذا العصر ان تمشي . واستعيض بالمرقاة عن السلم ، والسيارات العامة والعربات والمتحركات بأنواعها اصبحت مباءة الجميع وملتمسهم في الانتقال مهما قصرت المسافات . كذلك ترى ان ضروب الرياضة البدنية الطبيعية كالمشي والجري على الارض الخشنة وتسلق الجبال واثارة الارض بالعمل اليدوي وقطع الحرجات بالفؤوس والعمل مع التعرض للمطر والشمس والريح والبرد والحرارة ، قد استبدلت بأنواع من اللعب منسقة بحيث تبعدنا عن الخطر ، وبصنوف من الآلات تمنع علينا القيام بأي جهد عضلي . ولقد ترى في كل مكان ملاعب للتنس والجولف وحلقات التزحلق الصناعية وحمامات العوم الدافئة والملاعب التي يقوم فيها الرياضيون بمراناتهم ومصارعاتهم ، وجميعها مداريء تمنع التعرض لتغيرات الطقس . وبهذا الاسلوب يستطيع ايٌّ من الناس ان ينمي عضلاته من غير ان يعرض نفسه للتعب او الصعوبات التي استلزمتها الحياة في العصر البدائي

اما الاطعمة التي تغذّى بها اسلافنا ، وكانت عبارة عن دقيق الشعير الخشن واللحم والمشروبات الكحولية ، فقد استبدلت بأطعمة غيرها فيها من التنوع ، بقدر ما فيها من النعومة . فقديد لحم البقر والغنم ، ليس في عصرنا ، كما كان في سالف العصور ، الغذاء المعتاد . فان العناصر الاساسية في الغذاء الحديث هي اللبن والقشدة والزبد والبقول والغلال مبرأة من القشور وفواكه المنطقتين الاستوائية والمعتدلة ، والخضر النضّة او المحفوظة والمشهيات ومقادير كبيرة من السكر مصنوعة فطائر او حلوى . ولم يبق محتفظاً بمقامه الاول غير الكحول . كذلك ترى ان غذاء الاطفال قد انتابهُ تغير كبير ذو أثر بيّن . فانهُ الآن في الاكثر صناعي وغزير . وغذاء البالغين لا يقل عن غذاء الاطفال كثرة وغزارة . وانتظام ساعات العمل في المكاتب والمعامل ، نظمت وقت الوجبات استتباعاً . ونظراً الى ازدياد الثروة ، وقد كان عامًّا

حتى عدد يسير من السنين ، والى الضعف الذي اصاب الروح الديني ، والاخلال بمراعاة فرائض الصوم ، لم يمر بالانسان وقت انتظمت فيهِ التغذية فحددت اوقاتها وروعيت ، كوقتنا هذا

والى ازدياد الثروة وتوزعها في العصر الذي تلا الحرب العظمى ، يرجع السبب في الاقبال على التعلم ، ذلك الاقبال العظيم . فقد اقيمت المدارس وشيدت الكليات والجامعات ، وأمها من طلاب العلم جموع غفيرة . ذلك بان شباب هذا العصر قد أدركوا ما للعلم من أثر في دنيانا الجديدة . وقد قال « باكون » — «المعرفة قوة» — لهذا قصدت جميع معاهد التعليم ونشر المعرفة الى تنشئة الشبان والاولاد تنشئة عقليـة ، والى جانب ذلك عنيت بحالاتهم الجسمية والتكوينية . ولا خفاء ان الغرض الذي تتطلع اليهِ معاهد التعليم انما يتجه الى تنمية القوتين ، العقلية والبدنية . ونرى من جهة اخرى ان العلم قد اثبت فائدته في حياة الناس بحيث شغل من برامج التعليم المنزلة الاولى ، وأن عدداً كبير من الفتيان والفتيات قد تطوعوا له مختارين الخضوع لنظمهِ الشديدة . وآية الامر ان المعاهد العلمية والجامعات والاتحادات الصناعية قد عنيت جميعها بتأسيس معامل للبحث يتسنى معها لكل باحث علمي الاستفادة من علمهِ الخاص

ان أسلوب الحياة الانسانية قد تأثر تأثراً عميقاً بالغ المدى بما استكشف من قواعد علم الصحة والطب والمبادىء التي استخلصها « باستور » ولا ريب في ان ذيوع «المبادىء الباستورية» كان بذاته حادثاً من اكبر الحوادث أثراً في حياة الانسانية

ويكفينا ان نعرف ان تطبيقها قد أدى دراكاً الى صد تيار الامراض المعدية التي كانت تكتسح العالم المتمدن بين حين وآخر ، كما قضت على كثير من الامراض التي كانت مستوطنة في كل بلد بذاتهِ . وبذلك ادرك الناس فائدة النظافة ، وقلَّ معدَّل وفيـات الاطفال ، وزادت متوسط العمر زيادة أدت الى العجب، حتى بلغ في الولايات المتحدة ٥٩ سنة و٦٥ سنة في زيلندا الجديدة . وليس معنى هذا ان الناس قد طالت اعمارهم عن ذي قبل ، انما معناه ان عدد المعمرين منهم قد زادت نسبته . ومبادىء علم الصحة قد ضاعف عدد الناس . أضف الى ذلك أن الطبَّ ، وقد أدرك طبيعـة الامراض ادراكاً أوفى ، واستطاع ان يطبق العمل الجراحي تطبيقاً أدق ، مدَّ يده الى إنقاذ كثير من الضعفاء وناقصي التكوين ، أولئك الذين قدرت الطبيعة ان يكونوا نهباً للعدوى الميكروبية ، كما سـاعد أولئك الذين قضي عليهم ، قبل ان يمد اليهم الطب يده ، أن يعجزوا عن مقاومة اسلوب من الحياة فيهِ خشونة بعض الشيء . وعلى الجملة نقول إن الطب قد استطاع ان يزيد رأس مال المدنية من حيث عدد النسمات زيادة تضاعفية عظيمة . وفي الوقت ذاته أمكنهُ ان يَهبَ كل فرد وسائل يأمن بها الالم والمرض

أن بيئاتنا العلمية والادبية التي نعيش مغمورين في غمرها، قد حوَّلها العلم. وان العلم هو الفارق العظيم

بين الدنيا التي تغشى عقل الانسان الجديد ، والدنيا التي غشت عقول أسلافنا الاقدمين . فقبل ان تنال تلك الانتصارات العقلية التي حبتنا الثروة والراحة والهناء ، حلّت القيم الادبية محل غيرها من القيم . ولقد كان ذلك طبيعيًّا وملائمًا لفطرة الاشياء . أما اليوم فقد اكتسح العقل العقائد الدينية ، واصبحت المعرفة بالسنن الطبيعية والقوة التي استحوذنا عليها بمعرفتنا هذه واستقوينا بها على العالَم المادي وعلى الخلائق البشرية معاً ، وحدها الاشياء ذات القيمة الاولى في اعتبارنا . فالمصارف المالية والجامعات والمعامل ومعاهد البحث ومدارس الطب والمشافي ، قد حازت في نظرنا من الجمال والعظمة ، ما كان للمعابد القديمة والكاتدرائيات القوطية وقصور البابوات ، في الزمن الحالي . وحتى بدءِ الازمة المالية الحديثة ، كانت رياسة المصارف وشركات سكك الحديد ، مرمى نظر الشبان ، وقبلة آمالهم ومطمح خيالهم

ولا يزال لرؤساء الجامعات من الاعتبار والتقدير في نظر الناس منزلة فذة . ذلك بأنهم يذيعون العلم وينشرون المعرفة . والعلم نبع الثروة والهناءة والصحة . ومع هذا فلا نكران ان الجو العلمي الذي يعيش الانسان الحديث مغموراً بهِ في حياتهِ ، قد مضى يتغير بسرعة كبيرة. فان عواهل المال والاساتذة والعلماء وخبراء الاقتصاد بدءوا يفقدون ما كان لهم على الناس من سلطان . فان جماهير العصر الحديث قد نالوا من التعليم قدراً يمكنهم من قراءة الجرائد والمجلات، وهم فوق ذلك يستمعون إلى الخطب التي يذيعها السياسيون ورجال العمل والدعاة وأصحاب الرسالات المختلفة . وقد تَشَبَّعَت نفوسهم بقدر عظيم من الدعايات التجارية والسياسية والاجتماعية. تلك الدعايات التي اصبح لها فن خاص معروف أخذ في التقدُّم نحو الكمال . وكذلك هم يقرءون في الكتب فصولاً بسط فيها العلم وذللت الفلسفة . ولك ان تعرف ان الكون الذي نعيش فيهِ قد نال من العظمة والجلال ، بفضل ما استكشفهُ علم الطبيعة وما ابان عنهُ علم الفلك ، قسطاً وفيراً . ومع هذا فان أي انسان ، يستطيع إن اراد ، ان يستمع الى شيء من نظريات إنشتين ، او يقرأ كتب إدنجتون وجينز ، ومقالات شابلي وملكن . فالجمهور الحديث مشغوف بالاشعة الكونية شغفهُ بنجوم السينما ولاعبي كرة القدم . والكل يعرفون ان المكان محدودب ، وإن الكون مؤلف من قوى عمياء مجهولة ، وإن ذواتنا ليست باكثر من ذرَّات صغيرة تدب على سطح دقيقة من التراب مغمورة في سعة الكون ، وان ذلك الكون على سعتهِ وترامي نواحيه فاقد الحياة ، فاقد الشعور ، فاقد الوعي . هم يعرفون أن كوننا نظامٌ آليٌّ ولن يكون كوننا غير ذلك ، ما دام انهُ خَلْق أساسهُ مجهولات قررها علم الطبيعة وعلم الفلك . على هذا يقوم محيط الانسان الحديث ، فانهُ ليس اكثر من كون عجب نمتهُ علوم المادة الجامدة

٤ — النتائج المترتبة على مثل هذا الانقلاب

أن الانقلابات البالغة التي انتابت عادات الانسان بتطبيق مكتشفات العلوم ، حديثة العهد . والحق اننا ما نزال في غمر الثورة الصناعية . لهذا يصعب علينا أن نعرف معرفة تحقيق ، كيف أثر في خلائق المدنية الحديثة ،تبدُّلُ وجودهم من طراز طبيعي الى طراز اصطناعي، وانقلاب البيئة التي تشملهم انقلاباً تامًّا . أما ما نحن على يقين منهُ فهو انَّ انقلاباً كهذا قد وقع بالفعل. ولما كل كائن حي انما يعتمد في بقائه على حالات محيطهِ ، وبقاؤه في الواقع مرهون بالتغاير الطبيعي لاحتمال كل ما ينتاب محيطه من الانقلاب ، انبغى لنا ان نحقق بأي اسلوب تأثرت حياتنا وعاداتنا وأطعمتنا وتعليمنا ، بل ومتجهاتنا العلمية والادبية، التي فرضتها علينا المدنية الحديثة. أأصبنا فائدة من هـذا الارتقاء ؟ إن الاجابة عن هذا السؤال الهامّ لا تتأتى الاَّ بان نبحث بحثاً مستفيضاً كاملاً حالة الامم التي كانت اول الامم استغلالاً واستفادة من المستكشفات العلمية

ليس يخفى ان الناس استبشروا بالمدنية الحديثة واستقبلوها فرحين مهللين ، فتركوا الرّيف ونبذوه إلى المدن والمعامل ، فاكتظت بهم . وقد عملوا جاهدين نهمين أن ينتحلوا الاساليب والطرائق التي اقتضاها العصر الحديث ، عملاً وتفكيراً . فتركوا عاداتهم القديمة بغير تردّد،لان تلك العادات كانت توجب عليهم جهداً اكبر . فما لا شك فيهِ مثلاً أن العمل في مصنع أقل تطلباً للجهد من العمل في الحقل . غير ان الحقل ذاته قد ادركتهُ الوسائل العملية فخففت من خشونة الحياة ومحت كثيراً من متاعبها فيهِ . والمساكن الحديثة قد هيأت للناس حياة أنعم وأرفه عن ذي قبل . فان ما فيها من الراحة والدفء والانارة التامة ، قد أضفت على سكانها شعوراً بالراحة والرضا ، ومُعدَّاتها الرئيسية قد انقصت كثيراً من الجهد الذي تطلبته من النساء مساكن الاولين . والى جانب ما أنس الناس من انقاص الجهد العضلي وازدياد النعاُم ، قد اخلدوا فرحين الى حياة الجماعة ، فانهم قلما يتركون فُـرَادَ أي منعزلين عن الناس ، وانغمسوا في مشهيات المدن وملاهيها ، والعيش في غمر الجماهير ، والبعد عن التفكير . كذلك تراهم يهيمون بالفكاك ، بما غرس فيهم من نتاج التربية العقلية ،من القيود الادبية التي فرضها المُـمّحِـضون (Puritants)والمبادىء التي فرضها الدين . وفي الحق ان الحياة الحديثة قد ردت الناس أحراراً . فقد فتحت لهم سبيل الحصول على الثروة بكل سبيل مستطاعة وبكل وسيلة ممكنة ، طالما انها وسيلة لا تؤدي بهم إلى السجن . إنها فتحت لهم ممالك الارض وفجاجها . إنها حررتهم من الاساطير وطهرتهم من الاوهام . انها مهدت لهم سبيل استثارة شهواتهم الجنسية كيفما شاؤوا ، وسهلت لهم سبيل ارضائها . انها محت القيود وفكت اغلال النظم وقللت من الجهد الجسمي ، بل ومن جميع الاشياء المتعبة او المكدرة.وعلى

الجملة فان الناس ، والذين هم من الطبقة الدنيا خاصة ، اكثر سعادة وهناءة ، من الوجهة المادية ، مما كانوا في الازمان الاولى . على ان فئة من الناس قد اخذوا بمسكون ، ولكن تدرجاً ، عن ان تستهويهم ملهيات الحياة الحديثة أو يأخذوا بملذاتها الغليظة . وهؤلاء في الغالب هم الذين يحول ضعف صحتهم دون الاستمرار في التورط فيما هيأت لهم حياة المدنية من مناعم كالاكل والشراب والتخالط الجنسي ، تلك التي مهد السبيل اليها محو النظم الادبية وكسر اصفادها . هذا إلى جانب انهم يعيشون مهددين بفقدان العمل الذي يعملون فيه او موارد معيشتهم او مدخراتهم او ثرواتهم . انهم عاجزون عن ان يرضوا حاجة النفس الى الشعور بالامان والطمأنينة ، تلك الحاجة التي نحس جميعاً انها كامنة في اعماق نفوسنا . وعلى الرغم مما يحف بالناس من ضروب التأمين الاجتماعي ، فانهم يشفقون من مستقبلهم . اما الذين هم قادرون على التفكير ، فانهم ينقلبون ممتعضين ثائرين .

من المحقق مع هذا ان الحالات الصحية تتقدم وتتحسن . ولم يقف تحسن الصحة عند نقصان متوسط الوفيات ، بل إن كل فرد قد اصبح اجمل تكويناً واكبر حجماً واشد مِرّة . فالاطفال في عصرنا الحاضر اكثر طولاً مما كان آباؤهم ، ووفرة الغذاء والمرانة الطبيعية قد ادّتا إلى زيادة حجم الجسم وقوته العضلية . واكثر الرياضيين المتازين في الملاعب الدولية يفدون من الولايات المتحدة . وفي الفرق الرياضية التابعة للجامعات الاميركية ، نقع على افرادٍ هم في الواقع نماذج عليا للتكوين البشري . والتعليم الحديث اكبر عامل على نماء العظام والعضلات نماءً كاملاً . ولقد استطاعت اميركا بطرقها الخاصة أن تستحدث من نماذج الجمال ما يضارع نماذج الجمال القديم في العصور القارطة . ومع كل هذا نجد ان طول العمر ، مع ما نبذل من جهد رياضي وما نمتع به من مزايا الحياة الجديدة ، لا يزيد عن طول عمر أسلافنا ، بل ربما كان فينا أقصر منهُ فيهم . فان قدرتهم على مقاومة التعب والكدّ قد نقصت . والظاهر اجمالاً ان الافراد الذين اعتادوا معالجة المرانة الجسمية الطبيعية ، واحتمال التعب والتعرض لتقلبات الجوّ ومكدّراته كما كان اسلافهم من قبل ، هم اقدر على بذل الجهد وتحمل المتاعب من رجالنا الرياضيين . وإنا لنعلم انّ محصلات التعليم الحديث تتطلب من الفرد أشياء اساسية منها كثرة النوم ووفرة الغذاء وانتظام العادات . بذلك اصبح المجموع العصبي هشّاً ضعيفاً ، حتى غدا الناس عاجزين عن تحمل اسلوب الحياة الجديد في المدن العظمى ، والاحتباس في المكاتب ، ومشاغل العمل ، بل اصبحوا غير قادرين على مواجهة المصاعب وآلام الحياة العادية التي عليهم ان يواجهوها كل يوم . لذلك هم يتحطّمون سراعاً . وربما كانت انتصارات علم الصحة والطب والتعليم الحديث اقل قيمة للناس مما نعتقد في العادة

وإن لنا ان نسائل انفسنا : أليس هنالك من نقائص عملية متعلقة بنقصان متوسط الوفيات اثناء طوري الطفولة والفتوة ؟ الحقيقة ان للضعيف في عصرنا من فرص الحياة ما للقوي . ذلك بان الانتخاب الطبيعي قد منع عليه ان يؤدي رسالته . ولا يمكن لاحد ان يتكهن عما يكون مستقبل سلالة احتمى أفرادها بالطب . غير اننا نترك هذا المشكل الى مشاكل اخرى اعظم واروع تتطلب منا حلاً سريعاً شاملاً . فبينما نرى أن الطب قد استطاع ان يقضي على مرض الاسهال الاخضر في الاطفال ، وان يقف فعل السل والدفتيريا والتيفود ، بل ويقضي عليها قضاء ، نرى ان هذه الامراض قد استبدلت بامراض اخرى ذات طابع انحلالي . اضف الى ذلك ازدياد عدد الاصابات بالامراض العصبية وأمراض العقل . ففي بعض الاقاليم نجد ان عدد المجانين في مشفى ما ، يزيد عن جميع عدد المصابين بأمراض أخرى في بقية المشافي جميعاً . وليس يقف الامر عند الجنون ، بل ان الاضطرابات العصبية ومظاهر الضعف العقلي قد اصبحت اكثر ذيوعاً عن ذي قبل . وانها لاكبر العوامل تأثيراً في احداث التعاسة في الافراد والانحلال في الاسر . ولا شكّ في ان الانحطاط العقلي أنكى خطراً على المدنية من الامراض المعدية ، تلك التي حصر علماء الصحة والاطباء همهم كله في بحثها ومقاومتها

***

بالرغم من المبالغ المالية الطائلة التي تنفق في الولايات المتحدة على تعليم الاطفال والناشئين فان الطبقة المنتقاة من ذوي العقل الممتاز لم يزد عددها . ولا شكّ في ان الطبقة الوسطى في الولايات المتحدة ، رجالاً ونساء ، تتلقى تعليماً ارقى ، وتعيش عيشاً أرفه مما كان اولاً ، والرغبة في القراءة والاطلاع اصبحت اكبر وأعظم ، والجمهور يشتري من المجلات والصحف اكثر مما كان يشتري جمهور الجيلين السالفين ، والمشتغلون بالعلم والآداب والفنون اكثر عدداً . غير ان اكثرهم مشغول بأحط صور الادب ، ومن يعمل منهم في العلم والفن يعكف على ما يشبه العلم والفن ، لا على ضروبهما العليا . ويظهر من ذلك ان الحالات الصحية الممتازة التي يعيش الاولاد مشمولين بها ، والعناية التي تبذلها المدارس والمعاهد في سبيلهم ، لم تضف شيئاً الى صفاتهم او نماذجهم العقلية والادبية . وقد يمكن ان يكون هنالك تناقض ما بين نمائهم الجسمي ، وقدرتهم العقلية (١)

« البقية في باب الاخبار العلمية »

(١) يريد الكاتب ان يقول ان المدنية الحديثة تحقق بأساليبها قول القائل : اجسام البغال وأحلام العصافير

لماذا يغرّد الطير

ألِلطرب ام للمزاوجة ام للتخاطب ؟

في حياة الطير نواح متعدّدة تستوقف العناية [1] ولكن التغريد اشهرها واعمُّها . فقد يكون بين قرّاءِ هذه الصفحات من لا يميّز نوعاً من نوعٍ من الطير ، ولكن يندر ان يكون بينهم من لا يطربهُ تغريد البلبل والكنار والحسّون والقبرة . ودواوين الشعراءِ حافلة بوصفهِ وبأثرهِ في نفوس الشعراءِ . وهذه العناية بالتغريد حملت علماء الطير على البحث في سببهِ . فاصبحوا في شغل عن الطرب بما هم فيهِ من البحث . ولكنهم على كل حال ينكرون بوجهٍ عام ان الطير يغرّد طرباً لان ذلك الرأي القديم في نظرهم ليس رأياً علميًّا

ان العلماء الذين عنوا بهذه الناحية من حياة الطير ، فريقان . فريق يقيم رأيهُ على اساس مادي ، والآخر يقيمها على اساس غير ماديّ . والرأي الغالب الآن هو الرأي الاحيائي (البيولوجي) وزعيمهُ ، المستر نكولسون E. M. Nicholson . ان اصحاب هذا الرأي يقولون ان سلسلة الانغام التي يميّزها علماء الطير سواء ابسيطة كانت ام مركبة ، يستعملها الذكر في فصل المزاوجة اعراباً عن استقلالهِ وسيادتهِ في المنطقة التي نزل فيها . وانهُ لا يغرّد خارج تلك المنطقة . فاذا فعل لم يكن ذلك تغريداً حقيقيًّا بل شبيهاً بهِ sub-song ثم ان للتغريد مسوّغات بيولوجية علاوة على ما تقدم . فهو في مذهبهم وسيلة يسترعي بها الذكر الانثى الهائمة في الربيع وعندهم ان الذكور تصل اولاً الى المنطقة الجديدة ، فتنزل فيها ، ثم تتبعها الاناث غير المتزوجة . ولما كان معظم الطيور الغرّيدة صغير الحجم ، لا يمتاز بريش باهي الالوان متعددها ، فالتغريد وسيلتهُ لاتمام المزاوجة بتوجيه عناية الاناث اليه . ثم ان التغريد رسالة تحذير يوجهها الذكر الى غيره من الذكور ان لا يعتدوا على المنطقة الخاصة بهِ . فاذا لم يغرّد فقد يقصى عن منطقتهِ وقد لا يجد زوجاً . فالتغريد في رأيهم ليس اعراباً عن شعور ، وانما هو ضرورة بيولوجية

هذا هو الرأي البيولوجي في تفسير تغريد الطير مجملاً . ولكن عند التدقيق فيهِ ، يجد الباحث

---

(1) راجع « عقل الطير » مقتطف يونيو ١٩٢٣ صفحة ١

خطأين اولهما ان التغريد لا يقتصر على فصل المزاوجة ولا ينحصر فيهِ . وقول المستر اليوت هوارد Eliot Howard ان التغريد محصور في فصل واحد من فصول السنة وهو فصل التوليد مردودٌ بالمشاهدة . فليس في السنة فصل واحد لا تفيض بهِ لهى الطير بالنشيد . فان الحنّاء Robin (معجم الحيوان عن القزويني) والصَّعْوَة Wren (معجم الحيوان ويعرف في الشام باسم سكسوكة وعنمة ودعويقة) والسمنة تغرّد في غير فصل التوليد . وقد ردَّ اصحاب المذهب المتقدم هذا الاعتراض بقولهم ان هذه الطيور التي تغرّد في غير فصل المزاوجة ، تحتلُّ أرضاً خاصة بها على مدار السنة . ثم هناك خطأ آخر . فقولهم ان تغريد الذكر يجذب الانثى التائهة اليهِ يعني ان الانثى تتجه الى أطرب الطيور تغريداً وهذا مردود بقول اليوت هوارد نفسهِ اذ أثبت فساده في ما يتعلق بضربين من الطير من نوع الدُّرْسة Bunting المعروف بمصر باسم « الصعو » مع ان الصعو كما تقدَّم يقابل (Wren) (راجع معجم الحيوان مادة Bunting)

وعلى الرغم من هذين الاعتراضين على الرأي المتقدم لا يزال هذا الرأي قائماً . ولكن كلما أمعن الباحث تدقيقاً فيهِ تبين انهُ غير دقيق وغير شامل . فقولهم ان تغريد الذكر اعراب عن سيادتهِ في منطقتهِ وتحذير موجه الى منافسيهِ مردودٌ بما يشاهد في اثناء الربيع من القتال الكثير بين الذكور . راقب الذكر وهو يغرّد . قد تحسُّ انهُ يعرب في تغريده عن استقلالهِ وسيادتهِ ، ولكنك قلما تقتنع ، وأنت تشاهدهُ مستغرقاً جسماً وعقلاً وروحاً في التغريد انهُ مهتمٌ بغيره قصد تحذيره . وقد قال الاستاذ فيزي فتز جيرالد في مجلة الكونتمبورري — وعنهُ نلخص — انهُ كثيراً ما راقب الدُّخلة او الهازجة اثناء التغريد ، فعجز عن اقناع نفسهِ بأن فيهِ تحذيراً وانذاراً لسائر الهوازج

ولو كانت الذكور لا تغرّد خارج المناطق الخاصة بها لكان الباحث مضطرًّا ان يسلم بهذا الرأي . ولكنها تغرد أينما تكون . ففي الربيع تغرّد الهوازج القواطع في اماكن لا تنوي مطلقاً ان تبني فيها عشاشها . وقد كان للاستاذ فيزي فتز جيرالد حديقة ، في منطقة تجتازها هذه القواطع ، فكان يسمع في الربيع تغريدها مع انها لم تكن معششة فيها ولا في جوارها . بل ان الشجرة الواحدة كانت بمنزلة منبر تشدو من فوقهِ ستة أنواع او اكثر . ثم كان يبحث عنها في اليوم التالي فلا يقف لها على أثر ، ثم يسمعها شادية ، عند عودتها قاطعةً في الخريف . فليس ثمة صلة بين الشدو والمنطقة . نعم ان هذه الطيور قلما تشدو كثيراً خارج منطقتها ، بعد ان تتوطنها . ومع ذلك فكثير من الباحثين غير مقتنع بأن هناك صلة بين الشدو والمنطقة في عقل الطير في حالة المتوطن منها . والامثلة على ما تقدم كثيرة . اما المستر نكولسون فيزعم ان هذا الشدو خارج المنطقة ليس شدواً صحيحاً وانما هو شبيهٌ بهِ ويطلق عليهِ اسم (sub-song) اي انهُ

اصوات لم تسمُ الى مستوى الشدو او التغريد . فيردُّ عليهِ فيزي فتز جيرالد بأنهُ جهد نفسهُ في التفريق والتمييز بين التغريد في المنطقة المستوطنة والتغريد خارجها فلم يتبين اقل فرق

اما التوسل بالتغريد لجذب الاناث فقائم على الرأي القديم بأن الطيور الزاهية الالوان قلما تجيد التغريد . وان الطيور المتوسطة الحجم قلما تحسب في عداد الطيور المغرّدة . ويذهب نكولسون الى القول بان الطيور التي لا تعيش في جماعات ، تحتاج الى قدرة التغريد ، لتعتاض بها من خفائها الناشيء عن صغر حجمها او عدم ازدهائها . ففي فصل المزاوجة — على رأيهِ — يحتاج الذكر الى ما يمكنهُ من اعلان وجودهِ رغبة منهُ في جذب الانثى اليهِ وكذلك في اقصاء المعتدين عن منطقتهِ لكي يكفل ارضاً تحتوي ما تحتاج اليهِ صغارهُ من الغذاء . فاذا كان صغير الحجم او قليل اللون كان لا بدَّ لهُ من الاعتماد على الصوت وإن لم يكن ذلك الصوت تغريداً دائماً

وفي الردّ على هذا يقول الاستاذ فيزي فتز جيرالد انهُ قد يكون التغريد في بعض انواع الطير وسيلة لاجتذاب الاناث ، مع انهُ ينكر صدق ذلك على اي نوع . ويستشهد بقدرة طيور غير غريدة على الفوز باناثها . ولكنهُ يسلم جدلاً بان التغريد قد يكون لهُ هذا الغرض في بعض الانواع ثم ينكر ان البحث عن الزوج هو القصد الاول او الوظيفة الرئيسية المقصودة بالتغريد. وقد أقام الدليل على ذلك بالاشارة الى طائر يعرف باسم خاطف الذباب fly-catcher (معجم الحيوان عن احمد فارس وشورب وهي عامية في مصر عن حلمي السمّاع وبوبانة عامية في لبنان) . فالارقط منهُ يستوقف النظر بريشهِ وطباعهِ ومع ذلك يتصف بتغريد شجيّ. والظالم او الصنتج chaffinch (معجم الحيوان الاولى عامية في الاسكندرية عن حلمي السمّاع والثانية عامية في لبنان عن بوست) حسن الصوت ويستوقف النظر بشكلهِ في آن واحد . وكذلك الصفارية Golden Oriole (معجم الحيوان) يستوقف النظر بلونهِ الاصفر وصوتهِ الحسن

وهناك فريق ثانٍ يذهب مذهباً آخر في تفسير تغريد الطير . وزعيمهُ المستر رتشموند (W. K. Richmond) وهو يستمدُّ اساس رأيه من المذهب البيولوجي ، فيقول : لما كان معظم الطيور يغرّد في فصل المزاوجة فيصحُّ القول بان التغريد كان اصلاً مرتبطاً بالمزاوجة . ويمكن التسليم كذلك من الناحية العلمية ، بان ازدياد التغريد في الربيع مرتبط بنمو الاعضاء الجنسية في الذكر وان خفوتهُ مرتبط بضمورها . ومن الصحيح ايضاً ان الطيور تغرّد عندما يكون نشاطها على اشدّهِ ، فاذا اتجه النشاط الى اعمال أخرى كتغذية الصغار او تبديل الريش قلَّ التغريد . ثم هنالك عاملٌ آخر وهو توافر الاحوال المؤاتية . فاذا حرم الطير الطعام او هبطت الحرارة فجاءة أثَّر ذلك في تغريدها فاذا استمرّت الاحوال غير المؤاتية انقطع التغريد ، ولكن حماسة الطيور المغرّدة في الربيع تتغلّب على احوال الجوّ ، وكثيراً ما سمعت أبا قلنسوة (الخوري والشمّاس ذكرهُ واثاه

في لبنان عن معجم الحيوان) والموازج وهي تغرّد بغير انقطاع عندما كان الثلج يغطي الارض ثم ان رتشموند لا ينكر التغريد على الطيطوى Sand piper (معجم الحيوان عن ترجمة كليلة ودمنة لفوكنر) والزرزور Starling لانهُ يعلم ان لتغريد الطيور نواحي متعددة . وقد ضرب المثل على ذلك بطائر الحمراء Redstart فقال في وصفه ما يلي : لقد شاهدت حمراء وهو يشدو شدواً كله قوة وكبر ... وكانت كل حركة من حركات الطائر وكل نغمة من نغمات شدوه تدل على طبع عنيف وغد . ولكنني رأيت نفس الطائر بعد الظهيرة وهو اهدأ بالاً مما كان في الصباح وكان يهزج هزجاً رقيقاً يدل على رضائه وفنائه في هزجه . ثم يقول ان الطيور تغرّد عند ما تصاب بأذى او حتى عند ما تكون على وشك الموت . ومن هذا يخرج رتشموند الى ان التغريد في الطيور اعرابٌ وانها تغرد لا لانها مدفوعة اليه بحاجة قاسرة يفرضها عليها الانتخاب الطبيعي ، بل لان التغريد متفذ لنشاطها الفائض «فهي اما ان تغني واما ان تنفجر» . والتغريد في رأي رتشموند هو الاعراب الانفعالي عن حياة الطير

قد يكون هذا الرأي في هذه الايام ، ايام التفسيرات العلمية والشبيهة بالعلمية ، غير مقبول لانهُ غير علمي . ولكن من الخطل ان نتجاهلهُ لكونهِ غير مفرغ في قالب علمي . فالمستر رتشموند باحث محقق دقيق الملاحظة . وهو اقرب في نظر فيزي فتزجيرالد الى الحقيقة من اصحاب الرأي الجغرافي القائم على ان التغريد اعلان الطائر استقلالهُ في منطقتهِ وتحذيره غيره من تعدي حدودها . ولا يبعد ان يكون رأيهُ الحقيقة كلها

وماذا نعني بتغريد الطير ؟ السمنة تغرّد والغراب ينعق . ومع ذلك فللغراب لغاة مرتقية التركيب ومدى من الاصوات اذا شبهناها بألفاظ الانسان قلنا ان ثروتهُ اللفظية واسعة . والظاهر اننا نقصد بالتغريد تلك الاصوات التي تقع وقعاً مطرباً على آذاننا . بل ان اصحاب الرأي الجغرافي ، ينكرون ان الطيور تغرد خارج منطقتها الخاصة بها . وما يصدر منها من الانغام خارج هذه المنطقة ، يوصف بأنه شبيه بالتغريد . فاذا كانت اصواتها غير منغمة تجاهلوها اطلاقاً . ولكن هذا التعريف الضيق لا يتسع لكثير من الاصوات التي وصفها هندي Hendy بأنها « كلام الطيور »

اذاً ما تغريد الطيور ؟ لا بد من القول بأن تغريد الطير ليس مسألة واحدة بل مسائل متعددة . ويمكن ان نقسمها ثلاثة اقسام تدور حول اصل التغريد ، ونموّه ووظيفتهِ . وكلٌّ منها مسألة قائمة بذاتها . ثم ان موريس Morris يعمد في كتابهِ عن « التغريد » الى تقسيمهِ بحسب الفصول ويعدُّ منها تغريد الربيع والخريف والشتاء . ولكن التمييز بين ألوان التغريد الخاصة بهذه الفصول شاق او متعذر . ومع ذلك يمكن ان يتمادى الباحث في تصنيف التغريد ، فيميز بين التغريد قبل المزاوجة والتغريد الذي يقصد منهُ اطراب الانثى وهي حاضنة البيض . وهذا يدلك على سعة الموضوع

لا ريب في ان للنزعة الجنسية في الطير تأثيراً كبيراً في تغريده ولكن من الخطل الذهاب الى ان تغريد الطير ليس الاّ اسلوباً من اساليب التحدث الجنسي . لان الحقائق تدل على ان التغريد أبعد مدى من مجرد الاعراب الجنسي . وعلماء الطيور يعرفون طائفة كبيرة من الطيور تجيد التغريد بعد ان تقضي فيها الشهوة الجنسية

ان التغريد الذي نشأ اصلاً للاعراب عن الرغبة الجنسية قد تطوَّر حتى اصبح لغة او وسيلة للتخاطب. ولا بدَّ لنا اذا شئنا ان نفهم تغريد الطير من ان ندرك ان ما نطلق عليه وصف «التغريد» او «الشدو» هو في الواقع لغة الطير ، وللغة نواحٍ متعددة ، بتعدّد النواحي في حياة الطير . وآذانه ليست معدَّة للتأثر بجميع ألوان الصوت الصادر من لهى الطيور . وقد قال الاستاذ جارستانج في وصف هذه اللغة « انها تعرب عن الشعور والانفعال لا عن الاشياء والافكار ، وهي في آخر الامر متصلة بالسلوك وتشتمل على الدعوة والتحية والتحذير والتحدي والتشجيع وقلما تشمل غيرها »

وهذا الذي قالهُ جارستانج لا يشكُّ فيهِ احد من مراقبي الطيور . وكما ان الانفعال في الناس تصحبهُ الحركة كذلك يصحب الرقص ورفرفة الاجنحة والتحليق الاعرابَ عن انفعال الطير بالتصويت . ولا يخفى ان وردزورث الشاعر الانكليزي الذي كان يعرف طبائع الطير وصف طبع الشاعر كأنهُ يصف طائراً عند ما قال : « ثم يحفل قلبي بالغبطة فيرقص مع الدخلة »

إن ارتقاء القدرة على التخاطب بالتصويت في الطيور يختلف باختلاف انواعها . ولكن هذه القدرة تمتدُّ من نعيق الغراب الى الشدو الموسيقي الصافي في فصيلة السمنة ، ولغة كل نوع لا يفهمها الاّ ذلك النوع

اذن ، هل تغرّد الطيور كما نفهم التغريد؟ هل تغرّد اعراباً عن غبطة الحياة ؟ انها ولا ريب تفعل ذلك. ولكن أصحاب المذهب الجغرافي يصفون تغريدها هذا بأنهُ شبيه بالتغريد sub-song الاّ أنهُ اتيح لي (فيزي فتزجيرالد) ان ازاقب الشحرور يفرغ قلبهُ في صياحه وهو جاثم على غصن. ثم شاهدتهُ بعد قليل وهو لا يزال على ذلك الغصن يشدو شدواً رخياً رضيًّا . ومنذ ذلك اليوم لم يخامرني شك في حقيقة التغريد . اذكر ايها القارىء حمراء رتشموند . او تذكر الصفنج Chaffinch جاثماً على سور الحديقة وهو يهزج . او الزرزور على قمة المدخنة . او التفاحيّ linnet (معجم الحيوان عن حلمي السباع وهو عند عامة المصريين التفاحي والزقيقية وعند عامة السوريين الزقاقية والتفيفيحة) او السمنة . ليس ثمة ظلٌ من الشك في ذلك . والواقع انني لا انكر قدرة التغريد على اي طائر . اليس الصرد shrike من ارخم الطير شدواً مع اننا تعودنا ان ننكر عليهِ التغريد

ان اصوات الطير التي يصفها بعضهم بانها « شبيهة بالتغريد » لهي التغريد الحقيقي ، المجرّد من قيود التخاطب والمنطقة والجوع والعمل ، مجرّد من كل شيء الاّ من الطرب

في تاريخ العرب

للدكتور زكي محمد حسن

على هامش كتاب History of the Arabs
للدكتور فيليب حتي الاستاذ بجامعة برنستون

كتب المستشرقون وكتب المسلمون أنفسهم المؤلفات الكثيرة عن تاريخ العرب والمسلمين عامة، وتضاربت الآراء في قيمة هذه المؤلفات، ولكن الكتاب الذي ظهر حديثاً للاستاذ الدكتور فيليب حتي يختلف عن كل ما كتب في هذا الموضوع، ويبزه في المادة والاسلوب وطريقة البحث. ولسنا نقصد أن نعرض او ان نشير الى الابحاث والكتب التي ألفت في شتى موضوعات التاريخ الاسلامي وفروعه، فان مثل هذه الكتب، بطبيعة حجمها وكون كل منها موقوفاً على دراسة ناحية او مشكلة من مشكلات التاريخ الاسلامي، تكون أوفى غرضاً وأوسع مادة وأدق منهجاً، ولكننا نريد الكتب التي عقدت فصولها للكلام عن التاريخ كله او جله في تركيز وايجاز لا يمكن بدونهما أن يلم المؤلف بتاريخ المسلمين او العرب في مجلد واحد من القطع المتوسط ولم تكن هذه الكتب الاخيرة كثيرة في شتى اللغات فليس بالانجليزية الا كتاب موير [١] والسيد امير علي [٢]. وبعض كتب أخرى مختصرة جداً. وليس في الفرنسية الا كتاب هوار [٣]. فضلاً عن بضعة مؤلفات موجزة لا تفي الموضوع حقه. اما الالمانية فقد كانت أغنى من اللغتين السابقتين بل كانت في التاريخ العلمي الصحيح أغنى من اللغة العربية نفسها. فمؤلفات

---

(١) W. Muir : The Caliphate وقد طبع سنة ١٨٨٣ وسنة ١٨٩١ وسنة ١٨٩٨ وظهرت منه طبعة جديدة منقحة على يد T. H. Weir بادنبره سنة ١٩٢٤

(٢) Syed Ameer Ali : A Short History of the Saracens (London 1921) وقد ظهرت بعض مؤلفات اخرى بالانجليزية في تاريخ العرب والمسلمين لغير السيد امير علي من المؤرخين الهنود

(٣) C. Huart : Histoire des Arabes (Paris 1902)



الدكتور فيليب حتي
مؤلف كتاب History of the Arabs

فون كريمر[١] . وفيل[٢] وبيكر[٣] لا تزال مراجع ثمينة في التاريخ الاسلامي عامة وليس في اللغة العربية كتاب واحد يضم بين دفتيه تاريخ العرب او المسلمين على نحو علمي صحيح[٤]

وهكذا يرى القراء أن كتاب الدكتور حتي سدّ ثغرة في عالم التأليف . على ان المؤلف يبدأ مقدمته بان كتابه «محاولة متواضعة لحكاية سيرة العرب والشعوب التي تكلمت العربية منذ العصور الاولى حتى الفتوح العثمانية في بداية القرن السادس عشر » ، ولكن الحق أنه عمل جليل يشهد بعلم وافر واطلاع واسع ومثابرة مضنية ، ولا غرو فالمؤلف يعترف في المقدمة بان هذا الكتاب ثمرة عمل دام سنوات طويلة قضاها في الدرس والتدريس بجامعة كولومبيا والجامعة الاميركية في بيروت وجامعة برنستون باميركا

وينص الدكتور حتي في المقدمة على أن الكتاب أعد ليفي بحاجة الطالب وبحاجة القارىء المثقف من غير الاختصاصيين. والواقع أن هذا الكتاب رفيق طيب لأساتذة التاريخ الاسلامي، وإن كنا لا نذهب الى حسبانه مصدراً جامعاً شاملاً يمكن الاعتماد عليه إلى حد كبير . وسنبين علة ذلك في المآخذ القليلة التي سنعرض لها في آخر هذا المقال

ولعل خير وسيلة لتبين ما لكتاب الدكتور حتي من شأن خطير ان نستعرض اقسامه وفصوله

قسم المؤلف كتابه خمسة اقسام ، عقد الاول للكلام عن العصر الجاهلي ، والثاني عن قيام الاسلام وعصر الخلفاء الراشدين، والثالث عن القيصريتين الاموية والعباسية ، والرابع عن العرب في اسبانيا وصقلية ، والخامس عن آخر الدول الاسلامية في العصور الوسطى وعن الحروب الصليبية

أما القسم الاول فقد بدأه المؤلف بالتحدث عما لتاريخ العرب من شأن خطير ، على الرغم من ان المعروف عن بلاد العرب لا يتناسب وكون المسلمين يبلغ عددهم الآن نحو سبع سكان العالم او سدسه ، ولا يتفق مع عظمة المسلمين ، الذين لم تكن لهم قيصرية مترامية الاطراف فحسب ، بل ورثوا المدنيات التي قامت على ضفاف الدجلة والفرات والنيل ، واقتبسوا من العالم الاغريقي الروماني القديم ، وكانت لهم ثقافة عظيمة اثرت في اوربا في العصور الوسطى فبعثت النهضة فيها . وكان التراث الذي خلفه العرب والناطقون بالضاد اكبر من تراث أي شعب آخر

---

(١) A. von Kremer : Culturgeschichte des Orients unter den Chalifen(Wien 1875-77)

(٢) انظر G. Weil : Geschichte der islamitischen Völker von Mohamed bis zur Zeit des Sultan Selim, (Stuttgart 1866) , وراجع ايضاً : G. Weil : Geschichte der Chalifen (Bd. 1—3, Mannheim 1846-1851)

(٣) C. H. Becker : Islamstudien (Bd. 1-2, Leipzig 1924-1932)

(٤) يعرف القراء ان تاريخ الاسلام السياسي للاستاذ الدكتور حسن ابراهيم حسن لم يظهر منه الا الجزء الاول كما أن محاضرات الاستاذ عبد الحميد العبادي في كلية الآداب لم تطبع بعد . بينما كتاب «العالم الاسلامي» لمحمد رضا كحالة موجز ومقتضب ، وثمة مؤلفات اخرى لم تتبع في تأليفها طريقة البحث العلمي الصحيح

ثم تكلم الدكتور عن الاستكشافات الحديثة في بلاد العرب ، وعن الشعوب السامية عامة ومهدها في شبه الجزيرة . وعقد بعد ذلك فصلاً عن بلاد العرب : طبيعتها ومناخها ونباتها وحيوانها ، ثم وصف الحياة البدوية ، فتكلم عن الغزو والحماسة والمروءة والعصبية والقبيلة وشيخها. على أن أبدع فصول القسم الاول من كتاب الدكتور حتي انما هي الرابع والخامس والسادس، فقد لخص الدكتور في الفصل الرابع العلاقات الدولية بين العرب وجيرانهم في العصور القديمة : علاقتهم بالمصريين القدماء وبالسوريين والبابليين والاشوريين والفرس واليهود والعالم الاوربي القديم . وكان قوام هذه العلاقة تجارة البخور واللبان والتوابل ومناجم الذهب والنحاس . اما الفصل الخامس فقد شرح فيه المؤلف احوال الدول القديمة التي قامت في بلاد العرب الجنوبية: المعينية والسبائية والحميرية وتكلم في هذا الصدد عن تجارة بلاد العرب الجنوبية وعن النقوش السبائية والحميرية ومكتشفيها نيبهر Niebuhr وهالفي Halévy وجلازر Glaser ، وعن مأرب وعن العرب الذين هاجروا من حضرموت واليمن الى شرق افريقية ، حيث أسسوا دولة الحبش السامية الاصل والتي أتيح لها ان تمد سلطانها الى بلاد العرب الجنوبية في القرن السادس الميلادي، حتى هب لطردهم منها سيف بن ذي يزن بطل السيرة الشعبية المشهورة ، وعاونه الفرس ولكنهم اتخذوا ذلك سلماً لحكم اليمن، وظل نفوذهم قائماً فيها حتى اعتنق الاسلام باذان خامس ولاتهم فيها، فأصبحت اليمن جزءاً من الدول الاسلامية وأصبح شمال بلاد العرب أخطر شأناً من جنوبها

وعقد المؤلف الفصل السادس للكلام عن الولايات التي قامت في شمال شبه الجزيرة قبل الاسلام فكتب عن النبط الذين نزحوا في القرن السادس قبل الميلاد من شمالي اقليم شرقي الاردن الى جنوبيه واتخذوا مدينة البتراء Petra عاصمة لهم فغدت من أعظم المدن في الطريق التجاري بين سبأ وسواحل البحر الابيض المتوسط . وكان النبط يتكلمون اللغة العربية ويستخدمون في كتابتها الحروف الآرامية كما كانت اللغة الارامية لغة العلم عندهم . ثم تطورت الكتابة النبطية في القرن الثالث الميلادي الى الحروف العربية النسخية التي عمّ استخدامها في العالم الاسلامي ، اللهمّ الاّ في العصور الاولى حين استخدم الخط الكوفي في كتابة المصاحف وفي كتابة بعض المستندات الرسمية الخطيرة وفي العملة وعلى العمائر والمساجد

وقد شرح المؤلف في هذا الفصل كيف تطورت الرموز الهيروغليفية على يد سكان شبه جزيرة سينا حتى وصلت الى الحروف الابجدية الخالصة ، التي كان الفينيقيون اول من عرفها . ثم تحدث عن مدينة البتراء عاصمة النبط المحفورة في الصخر والتي بلغت اوج عظمتها تحت رعاية الرومان في القرن الاول من الميلاد ، وعن مدينة تدمر التي كانت من أغنى مدن الشرق الادنى في القرن الثاني والثالث بعد الميلاد والتي بهر العرب بآثارها حتى زعموا انها من بناء الجن

لسيدنا سليمان ، وعن بني غسان الذين كانوا يقطنون جنوب شرقي دمشق عند آخر الطريق التجاري بين مأرب والشام والذين اعتنقوا المسيحية وتعلموا الارامية لغة السوريين بدون ان تنقطع صلتهم باللغة العربية ثم اسسوا امارة حليفة لبيزنطة تشملهم برعايتها نظير قيامهم بحماية حدود ممتلكاتها في الشام وصد القبائل العربية عنها ، كما اسس اللخميون في الحيرة امارة اتخذها الفرس حليفة لهم تحمي حدود العراق من غارات البدو

وختم الدكتور حتي القسم الاول من كتابه بفصل ممتع عن بلاد الحجاز قبيل الاسلام ، شرح فيه ايام العرب وحروبهم ولغتهم وأدبهم وشعرهم من سجع وقصائد ومعلقات واحوالهم الاجتماعية ودياناتهم وما يتصل بها من اعتقادهم في الجن ومن حجهم الى الكعبة كما تحدث عن اشهر مدنهم في ذلك العصر : مكة ويثرب والطائف ، وعما كان لبلاد العرب الجنوبية والحبشة وايران من تأثير في بعض نواحي الحياة في الحجاز فضلاً عن اثر اليهود والنصارى في تهيئة النفوس للدين الجديد

وفي اعتقادنا ان القسم الاول من كتاب الدكتور حتي أنفس ما في كتابه . ولعلَّ السر في ذلك ان سائر الكتب التي عرضت لتاريخ العرب والمسلمين لم تصل الى تلخيص اهم ما انتجته الابحاث والحفائر والدراسات العلمية من بيانات عن حال العرب قبل الاسلام ، وانما عنيت باخبار العرب في العصر الاسلامي ، ومصادرها كما نعرف كثيرة الى حد كبير. وان صح ان جورجي زيدان جمع في كتابه عن بلاد العرب قبل الاسلام شتات ما تناثر من الاخبار في هذا الموضوع ولخص كثيراً مما جاء في الكتب التي الفت باللغات الاوربية عن العرب في الجاهلية فان تاريخ تأليف هذا الكتاب (١٩٠٨) سابق على كثير من الابحاث والمكتشفات التي أماطت اللثام عن بعض معميات هذه الحقبة من تاريخ العرب

اما القسم الثاني من كتاب الدكتور حتي ، فقد تحدث فيه عن قيام الاسلام : عن سيرة محمد رسول الله وعن طبيعة الدين الاسلامي وعن عصر الخلفاء الراشدين وعن الفتوحات العربية وإدارة الاقاليم المفتوحة وعن النزاع بين علي ومعاوية ، كل ذلك في دقة علمية تستحق الثناء والاعجاب وأسلوب جذاب ممتع وبعد عن التعصب الذي يشوب كتابات كثيرين من المؤرخين المستشرقين والمسلمين القدماء وقد أسدى المؤلف بذلك خدمة جليلة الى الذين يودون الوقوف على الآراء العلمية الصحيحة في هذا الميدان بدون قراءة الكتب المطوّلة في شتى نواحيه

وقد عقد المؤلف القسم الثالث من كتابه للحديث عن الدولة الاموية : عن قيامها ، وعن علاقاتها العدائية بالبيزنطيين ، وعن اتساع ملكها ، وعن الحياة السياسية والادارية والاجتماعية والعقلية والفنية في عصرها ، ثم عن الدولة العباسية ، والنهضة العقلية التي حملت لواءها ، وعن نظم

الحكومة وطبقات المجتمع والتقدم العلمي في عصرها ، حتى انهُ عقد فصلاً للحديث عن مراحل التعليم وعن المكتبات والورق والورّاقين ، كما عقد فصلاً آخر للكلام عن الفنون فتحدث عن العمارة واشار الى تشييد سامرا وما كان فيها من زخارف جصية ونقوش ونوّه بمنتجات الفنون الفرعية المختلفة كالمنسوجات والخزف والزجاج والمخطوطات المصورة . وهذا تجديد في تأليف الكتب التاريخية حبذا الحال لو عني بهِ المؤلفون حق العناية

ومن ابدع فصول هذا القسم فصل الفرق الدينية في الاسلام وقد لخّص المؤلف فيهِ تلخيصاً طيباً مبادىء كل فرقة وما ألمّ باتباعها من الاحداث السياسية . وكان طبيعيًّا ان يختم المؤلف حديثه عن الدولة العباسية بما جلبهُ تراخي اطرافها وضعف خلفائها ونمو سلطان الجند الترك فيها من اضمحلالها ، واستقلال اجزائها النائية عنها ، وقيام دويلات صغيرة على انقاضها كبني ادريس في المغرب الاقصى ، وبني الاغلب في افريقية (تونس) ، والطولونيين والاخشيديين في مصر والحمدانيين في الجزيرة ، والطاهريين والصفاريين والسامانيين والغزنويين وبني بويه والسلاجقة في ايران وغربي اسيا

وشرح المؤلف في نهاية هذا القسم كيف سقط بنيان الدولة العباسية وتهدمت عاصمتها سنة ١٢٥٨ على يد جموع المغول بقيادة هولاكو حفيد جنكيز خان

واوجز الدكتور حتي في القسم الرابع من كتابهِ الكلام عن تاريخ العرب في اسبانيا وفي جزيرة صقلية فبدأ بفتح الاندلس وتطرق الى عبور العرب جبال البرانس وتوغلهم في جنوب فرنسا تحت لواء عبد الرحمن بن عبد الله الغافقي ، حتى هزمهم الفرنج بقيادة شارل مارتل في واقعة بلاط الشهداء سنة ٧٢٢ بين تور Tours وبواتييه Poitiers

ثم كان سقوط الدولة الاموية في الشرق ، وفرار عبد الرحمن بن معاوية بن هشام الى المغرب في الاندلس ، حيث افلح في الاستيلاء على السلطان وتأسيس امارة اموية غربية فيها ، وازدهرت هذه الامارة في عصر عبد الرحمن الناصر ، الذي اتخذ لنفسه لقب الخلافة سنة ٩٢٩ . وكان حكمه العصر الذهبي في تاريخ المسلمين بالاندلس ، فاسترد ما كان المسلمون قد خسروه من املاكهم في شبه الجزيرة ، ووطد دعائم حكمه فيها وشيّد مدينة الزهراء ، ووقف حجر عثرة في سبيل تقدم حركة ال Reconquista او استعادة المسيحيين سلطانهم في شبه جزيرة ايبيريه

وعقد المؤلف فصلاً خاصًّا للكلام عن النظم السياسية والاقتصادية وعن المؤسسات العلمية الاسلامية التي ازدهرت في الاندلس وجعلت قرطبة اكثر مدن اوربا علماً وثقافة ، وأحد المراكز الثلاثة للعلم والعرفان في ذلك العصر ، ولا غرو فانها كانت لا تقل بهاءً عن زميلتيها : القسطنطينية وبغداد ، وكانت تفخر بأميال من الطرقات المرصوفة والمضاءة ، « بينما

لم يكن في طرقات لندن مصباح واحد بعد هذا التاريخ بسبع مائة سنة » ، وكانت الحمامات امراً مألوفاً في قرطبة إذ ذاك « بينما كانت جامعة اكسفورد تنظر الى الاستحمام كعادة وثنية »، وشرح المؤلف النظم الحكومية واساليب الزراعة والتجارة في الدولة الاموية بالاندلس، ووصف ابهة الخليفة والازدهار العلمي في عهده ثم تكلم عن دكتاتورية المنصور بن ابي عامر في عصر الخليفة هشام الثاني (٩٧٦ — ١٠٠٩) ، قبل أن ينتقل الى سقوط الدولة الاموية ، وقيام ملوك الطوائف ، وتاريخ الولايات التي بقيت في يد العرب بعد ذلك ، والعمائر التي شيدت فيها حتى تقلص سلطان المسلمين ، وسقطت غرناطة سنة ١٤٩٢

ومن ابدع فصول هذا القسم ما تحدث فيه المؤلف عن تراث المسلمين في اسبانيا وما خلفوه للغرب ، فتكلم عن لغتهم وادبهم وشعرهم وما استحدثوه من اوزان ومعانٍ ، ثم عن اساليب التعليم عندهم ومجموعات الكتب التي كانت تزدحم بها حوانيت ورّاقيهم ، وعمن نبغ بينهم من المؤرخين وكتّاب التراجم . كابن القوطية وابن حيان وابن الفرضي وابن بشكوال وسعيد ابن احمد الطليطلي ولسان الدين بن الخطيب وعبد الرحمن بن خلدون ، ثم الجغرافيين والرحالين كالبكري والادريسي وابن جبير وابي حامد محمد المازني الذي زار روسيا سنة ١١٣٦ . وكتب المؤلف عن الفلك والرياضيات والطب وعلم النبات والفلسفة في الاندلس وعما كان للمسلمين من تأثير في تقدم هذه العلوم على يد الاوربيين بعد هذا التاريخ ، واستن المؤلف سنة حميدة فعقد فصلاً خاصًّا للكلام عن الفن والعمارة الاسلامية في الاندلس وما كان لهما من تأثير في اوربا[1]

وختم الدكتور حتي هذا القسم من كتابه بفصل عن جزيرة صقلية : فتح العرب اياها على يد بني الاغلب في منتصف القرن التاسع الميلادي ، ثم اتخاذها مركزاً لغارات كان المسلمون يشنونها بين حين واخرى على الشواطىء الايطالية ، حتى سقطت الدولة الاغلبية واصبحت صقلية جزءاً من قيصرية الفاطميين ، وظلت كذلك حتى استولى عليها النورمنديون ، ولكنهم ساروا فيها على سياسة التسامح الديني واعزاز المسلمين ورعاية ثقافتهم [2] . وكانت صقلية ميداناً خصيباً لتبادل الثقافة بين الشرق والغرب ولا غرو فقد كان سكانها خليطاً من الاغريق الذي يتكلمون اليونانية ، والمسلمين الذين يتكلمون العربية ، والعلماء الذين يستخدمون اللاتينية

بقي الجزء الخامس والاخير من هذا السفر الضخم وقد عقده المؤلف للكلام عن آخر الدول الاسلامية في العصور الوسطى فكتب عن دولة الفاطميين الشيعية في مصر : تاريخها السياسي وحياة المجتمع في عصرها وما ازدهر فيها من علوم وفنون ، ثم عن الدولة الايوبية

(١) راجع كتاب تراث الاسلام The Legacy of Islam الذي نقلته الى العربية لجنة الجامعيين لنشر العلم

(٢) راجع كتابنا « كنوز الفاطميين » ص ٧ و٨ و١٠٣ و١٢٠ و١٤١ و١٤٣

والنزاع بين الشرق والغرب في الحروب الصليبية وختم الكتاب بالتحدث عن دولتي المماليك وحضارة مصر في عصرها

ذلك عرض سريع لما جاء في هذا الكتاب النفيس من موضوعات وبحوث . واننا لنحرص الحرص كله على ان ننوه بالكشاف الطويل الذي الحق به ، وباسلوب الكتاب الرائع، ودقته العلمية ،وربطه بين الفنون والآثار وبين سائر نواحي التاريخ الاسلامي ، بله ان الصور الكثيرة التي تزين الكتاب تساعد على تفهم الحضارة الاسلامية العظيمة ، وتقرب الى الفهم كثيراً مما يستعصي تصوره من الكتابة والوصف . وأما ما فيهِ من رسوم وخرائط فيشهد بطول الباع في الدقة والتحقيق

وان كان ثمة ما نأخذه على الاستاذ المؤلف فهو قبولهُ ان تحذف المراجع في نهاية كل فصل او قسم ، فان الايجاز في شرح بعض النظريات والمسائل يجعل الاشارة الى المصادر التي توفيها حقها من الدرس امراً لازماً ليستطيع القارىء أن يفي حاجته من التحصيل وان يكون رقيباً على المؤلف ، يقره أو يتخذ لهُ رأياً آخر ، ولكن فضلاً عن ذلك ان يعد الكتاب مصدراً علميًّا صحيحاً يتخذ حجة ويشار اليهِ في المؤلفات المطوّلة .

وثمة شيء آخر لانجد مفرًّا من الاشارة اليهِ ملتمسين للمؤلف الجليل عذراً في وقوعه : ذلك اننا لاحظنا ان بعض الموضوعات الخطيرة لم توف حقها من العناية فنالها من صفحات الكتاب أقل مما نال غيرها من المسائل التي لا تساويها خطراً ، ولكن هذا راجع بطبيعة الحال الى حجم الكتاب وطول الحقبة التي عرض لها . كما اننا لاحظنا في بعض ابواب الكتاب ان الاستاذ المؤلف لم يستخدم المؤلفات الحديثة في بعض نواحي التاريخ الاسلامي . وربما كان السبب في ذلك أن ابواب الكتاب المذكورة اعدت قبل صدور المؤلفات المشار اليها وقد سمعت مثل هذا النقد من بعض أفاضل المستشرقين ، كل في الناحية التي وقف نفسهُ على دراستها

***

على ان الاستاذ الدكتور حتي قد وفق الى ابعد حدود التوفيق في قص تاريخ العرب في زهاء سبعمائة صحيفة بطريقة طريفة مع الدقة،وعلمية مع السهولة . ولا نبالغ في شيء اذا قلنا ان كتابه النفيس ألزم عدة لكل من يريد ان يدرس تاريخ المسلمين بدون ارهاق وعلى نحو علمي صحيح. ولا غرو فقد قام الدكتور حتي بالتدريس في الشام، وفي اميركا واعد اعداداً طيباً لاخراج هذا المؤلف الجليل واتيحت لهُ فرص للدرس والتحصيل لم ينعم بها غيره ممن كتبوا في التاريخ الاسلامي . وحسبهُ فخراً ان ينسب اليهِ هذا السفر الضخم الذي يدل على علمهِ الغزير وفضله الواسع

التوائم

وأثر البيئة والوراثة فيهم

للدكتور شريف عسيران

كنت قد نشرت في المقتطف الاغر بحثاً عن التوائم والمحيط [1] وعثرت الآن في المجلد ١٥٧ العدد الثاني الصادر في اغسطس ١٩٣٧ من مجلة السينتفك اميركان على هذا المقال النفيس بقلم سيسل ريف احد اساتذة جامعة اوهايو فرأيت ان انقله اتماماً للفائدة لانهُ ينهج نفس المنهج الذي نهجته في مقالي . وللوراثة والمحيط شأنهما الكبير اليوم في عالم العلم . واليك المقال

كنت في احد الايام سائراً في الشارع اذ لمحت على مسافة قصيرة مني شاباً منظره اليفٌ اليَّ فلحقت بهِ ولما ادركتهُ اخذت أحدثهُ كمن يعرفهُ حق المعرفة ولكن كان موقفهُ مني موقف المستغرب فالتفت اليَّ وقال لاشك انك تظن انني اخي التّم وكان قوله صحيحاً لانني ظننتهُ اخاه . وقد دلت التجارب ان التوائم غير المتولدة من بيضة واحدة لا تتشابه صفاتها الاَّ كواحد في ربع مليون . وبتعبير آخر دلت هذهِ الحادثة على ان هذين التئمين من النوع المتماثل

وقد اتخذنا التجارب المذكورة قاعدة تشخيصية للتوائم استنبطناها في مختبرات علم الوراثة بجامعة ولاية اوهايو وهي تشمل فرق الدم وبصم الاصابع ولون العين والقامة وبعض تفاعلات حاسة الذوق وحاصل الذكاء . فبحثنا كل صفة من صفات التوائم بالمقابلة بينهم وبالقياس الى آبائهم واخوتهم واخواتهم . ثم استخرجنا احتمال التشابه بين توائم كهذه منشقة من بيضات ملقحة مختلفة . ان الشابين المذكورين آنفاً يمتان الى فرقة دم واحدة ولا فرق يذكر بين شعرهما ولون اعينهما . والفرق بين قامتهما لا يتجاوز ربع البوصة (انش) وبين وزنهما «الباوند» الواحد وبصمات اصابعهما متشابهة حتى لا يفرق بينهما الخبير البارع وهما مصابان بدرجة واحدة من عمى اللون الاحمر والاخضر ويغنيان احياناً معاً احدهما بصوت منخفض والآخر بصوت عال ويتبادلان الصوت دون ان يلاحظ السامعون . ودرجة ذكائهما واحدة بحسب امتحان Stanford Binet وفي العشرين

(١) المقتطف م ٨٢ ج ٤ ص ٤١٤

من عمرها اصيب كلاهما بألم في نفس السن وذهبا الى طبيبين مختلفين عالجا سن كل منهما العلاج نفسهُ يكاد كل انسان يصادف توائم متماثلة تنطبق عليها وجوه الشبه التي ذكرناها كل الانطباق . ومع انهُ من المحتمل ان يتولّد تمان متماثلان اشد التماثل ذكران او انثيان من بيضتين مختلفتين (ملقحتين) فالارجحية الوف المرات للمرة الواحدة ان تمين من هذا القبيل يتولدان عادة من بيضة واحدة . ومن المعقول جدًّا ان يكون التمان اللذان يصعب التمييز بينهما على الاقارب والاصدقاء من بيضة واحدة. ترى على صفحات هذه المجلة (يقصد السينتفك اميركان) بنتين تمتين اجريت لها عملية الزائدة الدودية في السنة الخامسة من عمرهما خلال يومين بين الاولى والثانية وقد بلغت الزائدة طولا واحداً تقريباً وكانت حالتهما بعد العملية واحدة ايضاً

ان مقدار ٢٠—٢٥ بالمائة من التوائم البشرية متماثلة تماماً . اما التوائم الاخوية فلا تتشابه اكثر مما يتشابه الاخوة والاخوات في صفاتهم الوراثية. وقد تكون التوائم ثلاثية او رباعية او خماسية وهي اما متماثلة واما خليط من متماثلة واخوية والتوائم المتصلة Siamese هي المتماثلة التي لم ينفصل احدها عن الآخر . ان نوع التوائم يهيء لنا مادة للبحث في مكانة الوراثة والمحيط في تكوين الصفات فالفرق بين التوائم المتماثلة لا بدَّ ان يكون غير متولد من الوراثة لانهما من بيضة فاذا تزوج اخوان تمان متماثلان اختين تمتين مثلهما تتشابه صفات اولاد الاعمام مشابهة صفات الاخوة والاخوات العاديين ولا يعني هذا انهُ من الضروري ان تكون الفروق بين التمين وراثية فمخالفة الايدي تحصل غالباً في بعض التوائم المتماثلة ولكنها لا تحصل في أغلبها (اي ان يكون احد التمين أيمن والآخر أعسر) ومع ذلك لدينا أدلة تثبت ان لتكوين الايدي أساساً وراثيًّا وتعليل هذه الظاهرة ان محيط التوائم المتماثلة يختلف حقيقةً عن محيط الفرد غير التوأم وقد يؤثر وضع الجنين في الرحم في القابلية الوراثية . ولنتخذ التوائم الاخوية ضابطاً في بحثنا عن التوائم المتماثلة[1] ويمكننا ان نقول مؤكدين ان التوائم التي تنشأ معاً يكون لها نفس المحيط فالمشابهات التي تكون اكثر بين التوائم المتماثلة من عكسها يجب ان يكون لها أساس وراثي على شرط ان يكون محيط النوعين متماثلاً . ولا يجب ان يغرب عن بالنا انهُ رغماً عن انهُ ليس للتوائم الاخوية قابليات وراثية متماثلة فهي تتشابه بعضها بعضاً مشابهة الاخوة والاخوات . فمقابلتنا لنوعي التوائم في المحيط المتماثل لا تحل المشكلة اذاً لانها تظهر شطراً فقط من تأثير العوامل الوراثية

وقد استرشد عدة علماء بهذه الطريقة في تتبعاتهم عن تأثير الوراثة والمحيط ونذكر على سبيل المثال ديل Diehl وفون فيرشور von Verschuer الالمانيين اللذين أنجزا منذ عهد قريب درس ٢٠٥ ازواج

(١) دفعاً للالتباس نقول ان التوائم المتماثلة تتولد من بيضة واحدة وفيها نفس الصفات الوراثية والاخوية من بيضتين مختلفتين وصفاتها الوراثية مختلفة (المعرب)

توائم في كلا التشمين او في احدهما قابلية للسل واستغرق درسهما عدة سنوات . ومن هذه التوائم ثمانون متماثلة و ١٢٥ أخوية فتبين ان قابلية السل كانت ثمانين بالمائة في التوائم المتماثلة و٢٥ بالمائة فقط في التوائم الاخوية . وتدلنا هذه النتائج دلالة أكيدة على ما للقابليات الوراثية من أثر مع العلم ان العدوى ضرورية لاحداث المرض

وقد حذا حذوهما في استقصاء عدة امراض علماء مختلفون مسترشدون بنفس الطريقة فبعض انواع الفتوق والجحوظ والصرع والجنون تكون شديدة الشبه في التوائم المتماثلة وضعيفة في الاخوية مما يدل على ان الوراثة عامل قوي في حدوثها وعكس ذلك الحصبة والسعال الديكي فانهما يصيبان النوعين على السواء مما يدل على ان تأثير الوراثة في قابلية المرء للعدوى ضعيف فيها

وهناك ملاحظات وتقارير عن عدة مشابهات تستوقف النظر بين التوائم المتماثلة لامراض أقل شيوعاً من الامراض المذكورة آنفاً . وقد اكتشفنا حديثاً رجلين تشمين عمر كل منهما ٥٢ سنة عاشا مدة ٢٥ سنة بعيدين أحدهما عن الآخر مسافة ١٠٠ ميل أحدهما عامل في السكة الحديدية والآخر عامل في احدى الموانىء البحرية فمرض الاول في ابريل سنة ١٩٣٣ وأجريت لهُ عملية حصى المرارة الساعة السادسة مساء وفي منتصف الليلة نفسها مرض أخوه وأجريت لهُ العملية ذاتها . ومنذ أقل من سنة أوردت بعض المجلات المعروفة حادثة عن سرطان المعدة تشبه هذه الحادثة . مرض تئم عمره ٧٠ سنة وأدخل أحد المستشفيات وظهر انهُ مصاب بسرطان في المعدة وفي خلال اسبوع مرض أخوه الذي كان يسكن بعيداً عنهُ ولم يعلم شيئاً عن مرض أخيه فأدخل المستشفى وتبين انهُ مصاب بسرطان المعدة ايضاً . ومن الواضح ان مشابهات كهذه بين التوائم المتقدمة سنًّا والتي تعيش بعيدة بعضها عن بعض هي اعظم شأناً من مشابهات التوائم التي تعيش معاً . والحادثة التالية التي نشرها Champlin في مجلة المجمع الطبي الاميركي سنة ١٩٣٠ تزيد البحث وضوحاً : اصيب فرد تئم بلطمة من قدة خشب في خصيته اليمين فظهر ساركوما [1] في موضع اللطمة ومات وكان عمره ٢٤ سنة بعد سنتين من اثرها . وظهر في خصية اخيه التئم عند ما بلغ الحادية والثلاثين نفس الورم مع أنهُ لم يصب بأي لطمة فمن الواضح ان اللطمة لم تسبب الساركوما وانما عجلت ظهوره

إن لمقابلة النقص العقلي بين التوائم المتماثلة وغير المتماثلة لذة خاصة فنسبتها بين الاولى ٩٦ بالمائة والثانية ٢٥ بالمائة . ومن عدة سنوات درس Lange ١٣ توأماً متماثلة في المانيا من ناحية ميلهم للاجرام فاكتشف اجراماً في سيرة كل منهم ما عدا ثلاثة حالة ان هذه النسبة كانت في ١٨ توأماً أخوية ثلاثة فقط فدفعت هذه النتيجة غيره من الباحثين انَ يحذوا حذوه فدرسوا ٦٦ زوج تئم متماثلة و ٨٤ اخوية فكانت نسبة المجرمين في المتماثلة ٦٨ بالمائة وفي الاخوية ٣٨

(١) نوع من الاورام الخبيثة

وهناك عدة صفات انسانية Anthropological كفرق الدم ولون الشعر والعين والجلد وعدة شذوذ وراثية كالعنش [١] (Polydactylism) واللَّهاق [٢] (Albinism) والعَلْمة [٣] (Harelip) والصلع وعمى اللون لا تتغير البتة في التوائم المماثلة حالة ان بصمات الاصابع والكف وشكل الاسنان والقسمات والمشية والصوت والمظاهر الخارجية تختلف اختلافاً عظيماً ولكنها قد تختلف أو لا تختلف في التوائم الاخوية . وفي بعض التوائم المماثلة وليس في جميعها تجد الشبه بين اليد اليمنى واصابعها في التئمين اشدَّ منهُ بين اليمنى واليسرى في التئم الواحد

واعظم ما يثير اهتمامنا في درس مقابلة التوائم هي الصفات العقلية . ان تأثير الوراثة والمحيط وايها أفعل في حياة الفرد كان ولا يزال شغل العالم المتمدن الشاغل وموضوع مجادلات عنيفة . فهل يلقي درس التوائم نوراً على هذا الموضوع الذي تتبعهُ مختلف الباحثون وبذلوا الجهود الكثيرة في سبيله ؟ ويجابه المرء بعض الصعوبات في البحث عن الصفات العقلية لا يجابهها في دراسة الصفات الجسدية . ولا نستطيع ان نستوثق من امتحان الذكاء وهل يقيس فقط قابلية المرء الطبيعية للتعليم أو ان حل بعض الاسئلة نتيجة التهذيب والتدريب . ويجب ان نقدر أن المُمتَحَنْ يستطيع او لا يستطيع أن يجيب بهِ باقصى مقدرته

وقد درس علماء النفس بعض مقاييس الذكاء كمقياس Simon Binet وتنقيحاته درساً وافياً زمناً مديداً ووجدوا نتائج هذه المقاييس مرضية في التوصل الى قياس قابلية درجة التعلُّم بصورة عامة . فاذا تعهد هذه الامتحانات (المقاييس) اناس مدربون استحقَّت ان تكون دليلاً في معرفة درجة الذكاء وبعبارة أخرى ان مختلف الممتحنين يتوصلون الى حاصل ذكائي متساوٍ تقريباً في الشخص الواحد او اذا امتحن الشخص الواحد في فترات مختلفة بين سنة او اكثر بقي حاصل الذكاء متساوياً في مختلف الفترات

وقد تناول مختلف الباحثين درس درجات ذكاء التوائم المماثلة فكان الفرق خمس نقط بين بعضها في حاصل الذكاء وهو فرق لا يؤبه لهُ وعكس ذلك الفرق بين التوائم الاخوين اذ يبلغ ١٠ — ١٢ نقطة وهو فرق محسوس. والنتيجة الحاصلة من هذه المقابلات ان الذكاء وراثي الى حدّ ما. وقد حاول نيومن ان يعرف مدى تأثير المحيط في تكييف الشخص فدرس عشرين زوج تئم مماثلة رباهم منفصلين بعضهم عن بعض في اماكن مختلفة فوجد حاصل ذكائهم تقريباً كحاصل توائم اخوية تربوا معاً اي في محيط واحد . فهذه التجربة تدلنا على ان للمحيط والوراثة اثراً بيناً في حاصل ذكاء الفرد . وهناك بعض الصعوبات في قبول صحة هذه النتائج لان المحيط المتشابه

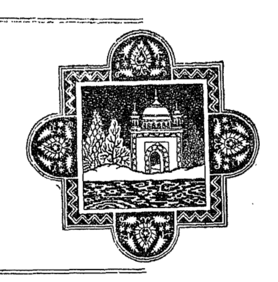
---

(١) ان تنمو ست اصابع أو اكثر في الكف الواحدة والاعنش لغة من له ست اصابع
(٢) اللهق واللهاق — الابيض الشديد البياض (ابن سيده)
(٣) العلم والعلمة والعلمة — وهو شق في وسط الشفة العليا مثل شفة البعير (ابن سيده)

وغير المتشابه ليسا الاّ تعبيرين نسبيين اذ لا يمكن ان يكون لفردين محيط متماثل او مختلف بالمعنى الحرفي . ويقول النقاد اننا حتى لو ربينا نوعي التوائم معاً فمحيط المتماثلة يكون اكثر تشابهاً من الاخوية لان الانسباء والاقربين فقط يستطيعون تمييز فردي التوأم المتماثلين فيقف الناس منهم موقفهم من شخصية واحدة . وأما التوائم الاخوية فتختلف اختلاف الاخ والاخت ولهذا يختلف تأثرهم بالناس . والطريقة المعقولة لتحقيق هذه القضايا ان نأخذ نوعاً رابعاً اي توائم اخوية تربى بعيدة بعضها عن بعض . فاذا كانت مقاييس الفروق بين التوائم المتماثلة والاخوية التي تربى معاً اكثر من التي تربى مبتعدة بعضها عن بعض فيمكننا حينئذٍ ان نوقن بأن هذا الاختلاف ناشىء عن ان محيط التوائم المتماثلة التي تربى معاً اكثر تشابهاً من التوائم الاخوية التي تربى معاً لان الفروق الوراثية متشابهة في كلتا الحالتين . واذا كان الفرق بين نوعي التوائم التي تربى كل على حدة مثل التي تربى معاً او اكثر كان في وسعنا ان نقول حينئذٍ بأن الفروق المحيطة بين نوعي التوائم التي تربى معاً لا يؤبه لها من وجهة الذكاء

ومن الممكن ان يمتحن فردان نفس امتحان الذكاء باحدى الطرق المتبعة ويجاوب كل منهما عن اسئلة من الامتحان اجوبة تختلف عن التي يجاوب بها الآخر . ويجاوب اجوبة صحيحة تختلف عن اجوبة الفرد الثاني . وكل من لهُ خبرة كبيرة في فحص التوائم الاخوية يعلم ان الفرد الواحد يجاوب اجوبة صحيحة تختلف عن اجوبة الآخر حتى اذا جاوبا أجوبة صحيحة فان طرق اجوبتهما تختلف . حالة ان اجوبة التوائم المتماثلة تتشابه تشابهاً كلياً في صحة الاجوبة ونوعها . وقد دلت الاحصاءات ان درجة الاختلاف كبيرة في نوعي التوائم وبعبارة اوضح أن التوائم المتماثلة التي تربى معاً تتشابه نوعياً في اجوبتها اكثر من تشابه الاخوية التي تربى نفس التربية . ولا نعلم هل منشأ هذه الزيادة زيادة مشابهة المحيط او ان هناك سبباً وراثياً لنوع الذكاء المقاس بامتحانات كهذه ،وصفته . ويجب ان نتوصل الى حل لهذه القضية اذا قابلنا توائم أخوية تربى منفصلة مع توائم متماثلة تربى مثلها فاذا ثبت وجود فروق نوعية كهذه متساوية بين نوعي التوائم فلا يخامرنا شك حينئذٍ في ان جانباً على الاقل من نوع ذكاء الفرد ودرجتهِ يتوقف على الوراثة واذا كانت هذه الفروق معدومة بين نوعي التوائم التي تربى منفصلة أمكننا ان ننسب الفروق النوعية بين التوائم التي تربى معاً الى زيادة مشابهة المحيط في التوائم المتماثلة

لقد أوجزنا في مقالنا هذا بعض الطرق الوراثية في البحث عن التناسل . ولا يخفى اننا لا نزال في اول الطريق للاستفادة من المكنات الميسورة لنا وكل من يعرف شيئاً عن توائم مختلفة او متماثلة ربيت مبتعدة بعضها عن بعض يسدي مساعدة حقة الى علم التناسل اذا اتصل بالباحثين الشغوفين بهذا الموضوع



الدكتور محمد اقبال

اكبر شعراء الهند المسلمين في العصر الحاضر
رسالة شعره

للسيد ابو النصر احمد الحسيني الهندي

— ١ —

ان للشعر في حياة الامة رسائل ووظائف تتنوع على حسب ادوارها المختلفة . لذلك قالوا ان الشاعر دائماً ممثل لاحوال زمنه وصورة لحوادث عصره. وان الزمن هو الذي يخلق الشاعر على حسب احتياجه وضروراته . ففي دور الفروسية حين لا تعرف افراد الامة دعة ولا تستوطيء راحة ، بل كل واحد منهم يريد ان يخوض هائل الغمرات ويجوب وطيس الوقعات ، لا يألو اقداماً ، ولا ينكص احجاماً ، لا ينشر الشاعر بشعره لآليء الحديث تستعبد الاسماع وتلذ الانفس فتلهيهم ، وتحيلهم عن قصدهم ، وتصدفهم عن مبتغاهم ، بل ان شعره في هذا الدور شرار من النار تلهب نار الشجاعة في قلوبهم ، وتنفخ روح الحماسة في نفوسهم . تذمرهم للحرب ، وتهيجهم للطعان والضرب . وتشعلهم للقراع وتؤججهم المصاع . وفي دور العروج حين تغلب الامة وتحكم تتوجه الى تدبير شئون البلاد وتنظيم ادارة الحكومة . فتكف افرادها عن القتال وتصد عن النضال . فتضمحل قوى الحياة ويتغير الطلب بالقناعة ويحل السكون محل الحركة والاستلذاذ محل الجهاد لان امور الامة تنتظم فيه فتصلح حالها ، وتضاعف يسارها ، وتمرع جنابها ، فيقع اعيانها في الطفش والرفش[1] فينتج الشاعر بطبيعة الحال في هذا الدور على الاكثر ، القصائد في المديح والغزل والنسيب . وفيه يبتديء الشعر ان يتضع رتبة وينحط حقيقة ويسقط منزلة . وفي دور الانحطاط حين تخلد الامة الى الكسل وتطمئن الى الخمول فتصبح ميتة الحس لا تحفزها الحاجة ولا تستحثها الفاقة ، فتميل دعائم عزها ، وتتهاوى كواكب سعدها ، فتتقوض سرادق مجدها يستعبدها الاجنبي ويستذلها الغير ، يفتح على افرادها ابواب الظلم والخذلان ، ويطلق

(١) قال ابن خالويه : وقع فلان في الطفش والرفش اي في الاكل واللهو

عليهم عقال الجور والهوان . فيرضون بها ، ويركنون اليها ، ويعدون هذا الجورعدلاً ،والهوان كرامة ، والضعف قوة ، والانحطاط عروجاً . في هذه الساعة تتحرك القدرة الالهية لايجاد التوازن في النظام الطبيعي فتخرج الحياة من الموت ، وتبعث اليهم رسل الشعر ، معجزي البيان ، محكمي المنطق ، سلسي الأسلة ، يحيون بشعرهم مواتاً ، ويهدون برأيهم ضالاً ،ويعدلون بصيرتهم زيغاً ، ويصلحون بنظرهم فاسداً فتدب الحياة في عواطفهم وتستيقظ غيرتهم وتجتمع كلمتهم وتبعث روح الحماسة في قلوبهم فيقومون قومة واحدة لاعادة مجدهم واستعادة كرامتهم

ومن هؤلاء الرسل شاعرنا الدكتور اقبال . فرسالة شعره في الحقيقة نفخة صور تبعث الحياة في العالم الاسلامي خاصة والشرق عامة من جديد وتسعى لاخراجهم من الظلمة الى النور، ومن الضعة الى الرفعة ومن الهوان الى الكرامة ومن الانثناء الى العزم ومن الضعف الى القوة . وإذاً فدعوته تختلف عن دعوة الشعراء الآخرين لان دعوتهم وان باشرت بعض نواحي الحياة ، قد لا تباشر الحياة نفسها ومن أساسها . فشعره في الحقيقة دواء ناجع لمرضى العزيمة ، وحياة جديدة لموتى اليأس ، ودليل ناطق لحائري الضعف ، وبشارة عظمى لكلال الهمة وقد اشار الدكتور الى رسالته هذه في ديوانه « بانك درا » فقال :

« ان رسالة غيري شيء ، ورسالتي شيء آخر
ان أسلوب الكلام لمن عانى العشق (حقيقة) شيء آخر
انكم قد سمعتم[1] نياحة الطير المحبوس
ولكن اسمعوا ان نياحة الطير الذي على القمة شيء آخر»

وما تلك الرسالة الا سر الحياة أو طريق الكمال الذي بذل الدكتور في معرفته حياته فلم يدركه الا بعد ان عقله التعب ، وشكله النصب ، ومسه اللغوب ، وناله الرزوح ، ولحقهُ الطلوح . فلما عرفهُ لم يجد من يفهمه ولا من يسمعهُ كما قال في بيت :

« اني وان كنت قادراً على التعبير فانهُ ليس هناك من يفهمهُ
واحسرتاه ! على من في صدره سر وليس لهُ رفيق ! »

وقال في بيت آخر :

« اني جئت بحديث جديد ولا يصغى اليهِ أحد
ان النور كاد ان يغيب ولا يمد نحوه احد بصره»

يضيق بنا المجال عن ان نقدم الى القراء جميع المعالم في رسالة شعر اقبال لان صاحب تلك الرسالة قد بسطها في سبعة دواوين ظهرت الى الآن اي في ألفي صفحة تقريباً . وما نقدر عليهِ هنا هو ان نقدم اليهم بعضها بالايجاز فنقول :

أولاً : ان أهم ما يحتوي عليهِ رسالة شعره هو الدعوة الى الجد والجهد . فقد أبان في دواوينه مرة بعد مرة بطرق مختلفة ، وأفكار دقيقة ، وأمثلة كثيرة ، وأسلوب مؤثر ، ان المصائب والآلام في حياة الانسان ان هي الاَّ أشياء اعتبارية ، وان تحملها من اكبر البواعث على بلوغ الانسان الكمال المنشود الذي بهِ ينال الدوام والخلود . وان عيشة التنعم التي تشل قوى الانسان العملية في الحقيقة تدمير لحياته وموت لهُ . وإذاً فان كل من أراد بلوغ الكمال ونيل الخلود يجب ان يجتهد ويجد ويخوض غمار الآلام والمصائب ويجابه العراقيل في سبيل ذلك بالبسالة والشجاعة . وقد بسط الدكتور هذه الدعوة في جميع الدواوين نقتطف منها بعض الابيات هنا قال :

« ان الحياة هي ان تخلق اللؤلؤ في صدفك
وان تنفذ في اللهيب ولا تذوب . »

وقال في بيتين آخرين : —

« يامن جلست على الساحل جلسة القناعة والهدوء
قم ! لانهُ لا يزال لك شغل مع الدُرْدُور والتمساح
ان اعراضك عن القَدُوم ليس من شأن العاقل
لان كثيراً من الجوهرات لا تزال في قلب الحجر . »

وقال ايضاً : « لا تزين محفلك على الساحل لان هناك صوت الحياة منخفض
غص في البحر ! وجاهد امواجه
لان خلود الحياة في الجهاد »

وقال ايضاً : « سألت صاحب النظر ما هي الحياة ؟
فقال : هي الخمر التي امرّها احسنها »

وقال ايضاً : « قال الساحل الساكن : أنا عشت طويلاً
ولكن واحسرتاه ؟ انا لم أعرف من انا ؟
فلم يتمالك الموج وجرى بالسرعة اليهِ وقال :
ان وجودي من الجريان فان لم أجر فلا وجود لي

وقال ايضاً : « الى متى تكون تحت اجنحة الآخرين
تعلم الطيران الحر في هواء الحديقة
اخرج من عزلة البرعوم مثل الشذى
وامتزج مع نسيم السحر وتعلم الهبوب »

ثانياً : ومن معالم رسالة شعر اقبال الدعوة الى استمرار الجهاد فالتقلب بين أعطاف السكون، والتفيؤ في ظلال الراحة ، والاخلاد الى الدعة ، عنده مرادف للموت . لذلك قد وضح في دواوينه بطرق مختلفة مؤثرة ان لا ينبغي للانسان ان يكتفي بحالة واحدة ويرضى بما هو فيه ، ويقتنع بالكفاف ، ويجتزىء بالميسور مادامت ابواب الرقي عليه مفتوحة ، وطرق التوقل في أعلى منها ممكنة . لان الحياة عنده هي الحركة الدائمة والجهاد المستمر . وقد عبر عن ذلك بابيات كثيرة نختار منها ما يلي قال :

«ان الحياة تنقش في كل لحظة نقشاً جديداً
ولا قرار لها في صورة واحدة
لو كان يومك هذا نفس صورة البارحة
فليس في ترابك شرار الحياة »

وقال ايضاً : « اتسألني من اين انا ومن انا ؟
انني اموج حول نفسي فأعيش
انني مضطرب في هذا البحر مثل الموج
فان لم اضطرب حول نفسي فلا وجود لي »

وقال ايضاً : « لو تبحث عن رمز الحياة لا تجده الاَّ في الاضطراب
ان في الاستراحة في البحر عاراً على ماء النهر »

وقال ايضاً : « ان حياة القطرة تعلم اسرار الحياة
فانها احياناً اصبحت لؤلؤاً ، وتارةً ندًى ، وطوراً دمعةً »

يشترط الدكتور اقبال اصطحاب هذا الجد المستمر بالعلم . لان العلم مفتاح المحاسن ومصباح المحامد اذ لا شرف الاَّ وهو السبيل اليه ، ولا خير الاَّ وهو الدليل عليه . فقد بث الدكتور منزلته وفوائده في الدواوين بأبيات كثيرة وحثَّ على التحلي به نكتفي منها بما يلي قال :

« ان الحياة جهد وليس الادعاء
ولا سبيل لذلك الاّ بعلم الانفس والآفاق
ان العلم يعطي الجناح للحرف والصوت وبهاء اللؤلؤ لما ليس بلؤلؤ »

وقال ايضاً : « ان دواء امراض الامة في هذا العصر علم
لانه كالفصد للدم الفاسد في جسمها
ان الله قد قال في الحكمة أنها خير كثير
فخذ هذا الخير اينما تجده »

ولكن ينكر اقبال العلم الذي يوهن العزيمة فيبيد نشاط الاضطلاع باعباء المهمات ، ويفتر الهمة فيتلف شهامة الركوب على ظهور العوائق ، ويضعف الحماسة فيفني صولة الثبات في ارتطام المهالك ، فقد قال فيه ما يلي ترجمته :

« أنا لا آخذ بقطعة من الحشيش ذلك العلم والفراسة
اللذين يجعلان الرجل الغازي عن سيفهِ ودرعهِ غريباً »

وفي هذا البيت ايضاً اشارة الى ان الثقافة او التربية التي لا تلائم بيئة الانسان وطبعه وعاداته وتقاليده بل تقطع صلته بها ليست ذات قيمة تستحق الاعتناء

وينكر اقبال ايضاً العلم المجرد عن الروحانية ، ويرى انهُ خطر داهم على الانسانية . فالثقافة الغربية التي تتسلط يوماً فيوماً على نفس الانسان وعقله عنده غير مفيدة للعالم لانها تشل الروحانية وتقتلها . وذلك لان اساسها العلم المجرد . فعيون عقلاء الغرب يقظة ولكن قلوبهم ميتة وأرواحهم راقدة . وهم يشاهدون في تقدم العلوم والفنون الحاضر انحطاط الروحانية وزوالها ولا يقدرون على انقاذ الموقف . وتقدم العلوم الطبيعية الذي تثار في اطرائهِ الآن ضجة وان كان أفاد الانسان من بعض الوجوه فان ويلاته عليهِ اشد من ذلك لانهُ الوسيلة الوحيدة لصنع الآلات المهلكة لهُ وللاتيان بالدمار عليهِ . ألم تر كيف ان اصوات الحرية المرتفعة في الغرب المتقدم في العلوم والفنون ان هي الاَّ اصوات السلاسل لاسترقاق الغير من ابناء البشر . لذلك يدعو اقبال اهل الشرق عامة والمسلمين خاصة الى انقاذ انفسهم من الوقوع في مثل هذه الورطة اي اهمال الروحانية . وهو يرى ان اساس العلم العقل واساس الروحانية عشق . فمركز عقل الانسان دماغه ومركز عشقه قلبه . والغرب قد اهمل القلب . وقد وضح ذلك في قصيدة طويلة كتبها ردًّا على الشاعر الفيلسوف الالماني جويته ونشرها في ديوانه «رسالة الشرق» . والقصيدة آية في البراعة والاتقان تملك القلوب وتسترق الافهام وتستعبد الاسماع . كما انهُ ابان ذلك في دواوينه الاخرى ونحن نترجم بعض الابيات المختارة منها هنا قال :

« لو تقرأ العلم بغير حرقة القلب فهو شر
ونوره ظلمة البر والبحر
ان العالم من غازه اعمى وازرق
ومَلَكه يُسقط اوراق الفناء والبقاء
فالبحر والصحراء والجبل والحديقة والمرج
متأثرة بقنابل طيارته

« ان النار في صدر الافرنج منهُ
ولذة الهجوم عندهم منهُ
هو يعطي الايام السير المموج
ويسلب رأس مال الاقوام
ان قوتهُ صاحبة ابليس
والنور يصبح النار بصحبة النار
ان قتل ابليس أمر صعب
لانهُ متوارٍ في اعماق القلب
فالاحسن ان تجعله مسلماً
وتقتلهُ بسيف القرآن .
الامان ! من الجلال المجرد عن الجمال
الامان ! من الفراق المجرد عن الوصال
ان العلم بغير العشق من الطاغوت
ان العلم مع العشق من اللاهوت

وقال ايضاً : « ان اساس العلم على الخوف والرجاء
وأما العشاق فلا رجاء لهم ولا خوف
ان العلم يخاف جلال الكائنات
والعشق يغوص في جمال الكائنات
نظر العلم الى الماضي والحاضر
ولكن العشق يقول : انظر الى ما يأتي
إن العلم قد عاهد قوانين الجبر
فليس لديهِ علاج الاَّ الجبر والصبر
ولكن العشق حر وغيور وغير صبور
هو قد جاء في معرض الوجود جسوراً
ان عشقنا لا يعرف الشكاوى
وإن كان سكران بالبكاء

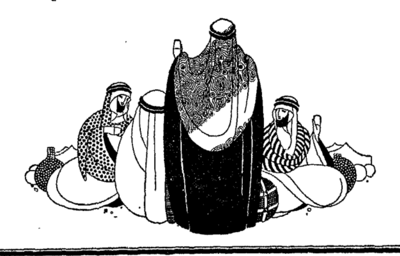
وقال في القصيدة التي كتبها رداً على جويته

« أيتها الريح ! بلغي عني فيلسوف الافرنج
ان العقل كلما يكون مدققاً يكون اكثر اسراً
انهُ يحرق هذه الكبد ويأسر الاخرى
ولكن العشق اكثر محافظة على الكبد من العقل الفتّان
إن العين لا ترى إلاَّ لون الورد وشقائق النعمان
والاَّ الذي تحت قناع اللون اكثر ظهوراً
ليس العجب من أن عندك اعجاز المسيح
ولكن العجب ان مريضك اكثر سقماً (بسببك)
انك قد جمعت الحكمة ونبذت القلب من الكف
واحسرتاه ! على النقد الثمين الذي نبذته

وقال فيها ايضاً مشيراً الى ما انتجت الحضارة الغربية المؤسسة على العلم المجرد :

« ان العشق اصبح طمعاً فتجذمت العرى
والانسان صار من فتنتهِ في الشص مثل السمك
انهُ قد اختار الحرب على السلم وحشد الجيش
ولم ينزل سيفه الاَّ على رؤوس الاصدقاءِ وصدورهم
واللصوصية التي أسسها سماها « تعمير العالم »
وظلمُ سيادتهِ قد كسر ظهر العامل
انهُ يرقص على صوت الدف والناي بغير الحياء
وفي يده كاس من دم اقاربه المساكين »

(يتبع)



مكتشفات العلم

في غور اليم

عوالم جديدة في قعر البحر

لعوض جندي

سيشرع عما قريب في عملٍ من اخطر الاعمال البحرية ، وذلك على بعد اثني عشر ميلاً بحريًّا من التخم الجنوبي لجزيرة ارلندة الشبيه ببنانة الاصبع في غور المحيط الاطلنطي ، تحت أمواجه السنجابية . وسيضطلع بهِ رجال شجعان حيث يمارسونهُ على عمق يُربي على ثلاثمائة قدم في جوف البحر ، متذرعين الى بغيتهم ، بأجهزة علمية بديعة الصنع للغوص . ونعني بذلك العمل الطريف الشاق ، انتشال الذهب الذي غرق مع الباخرة لوزيتانيا. ثم يعكفون على تصوير اللقايا التي يلقونها ، صوراً سينمائية لتعرض في معارض الصور المتحركة الناطقة ، فتذاع انباؤها بالراديو في الوقت نفسه ، ليقف الملأ على ما يبلغ المكتشفون من أمانيهم المنشودة في قعر المحيط ، رويداً رويداً ، حيث يحققون فعلاً ما جاء بالاساطير وهماً

ولذلك القصد جعل غواصان اميركيان مشهوران ، يتأهبان لتنفيذ هذا المشروع الدالّ على الاقدام على مكافحة اللجج في بحيرة متشيغان الساكنة ، ثم في حياض الضغط التابعة للبحرية الاميركية في وشنطون ، حيث جرّبا جهازين من اجهزة الغياصة الحديثة ، اخترعا لتلك الغاية. ويبلغ ثقل كلٍّ منهما ٢٨٨ رطلاً . ويمتاز ذلك الجهاز بتجرده من خرطوم الهواء إذ يستنشق الغواص الذي يُجَهَّزُ بهِ ، الاوكسجين الذي يلزمهُ ، من مستودعات توثق بسيور جلدية تشدّ الى كاهلهِ محتوية على أوكسجين مضغوط ضغطاً شديداً . وفي ذلك الجهاز ايضاً لوحة مثبتة فيها آلات دقيقة ، تدل على مبلغ عمق الماء ودرجة حرارته وضغطهِ ، وتبين مقدار الباقي في المستودعات من الاوكسجين المضغوط

ويتمُّ على الغواص في أثناء نزوله في البحر ، ميكرفون مودع في باطن جهازه يضخم حركاته وسكناتهِ ويبلغ الباخرة ، (التي ينزل منها) اياها . ويضيء لهُ مسلكه في اللجج ، مصباح كهربائي مثبت بالباخرة مشتبك بمقبض جهاز الغوص تبلغ قوتهُ ٤٠٠٠ شمعة من المصابيح القوية

(قام باختراعها مهندسو شركة الكهربائية العامة الاميركية ، خاصة لذلك المشروع العظيم) وتغشاها طبقة كثيفة من الصمغ المرن «كاوتشوك » وقايةً لها من المياه فتحتمل ضغطها حتى ٥٠٠ رطل على العقدة الواحدة المربعة ، وهذا يزيد على ثلاثة اضعاف ضغط المياه في عمق الـ ٣١٢ قدماً المرتطمة فيه الباخرة لوزيتانيا التي غرقت في ٧ مايو سنة ١٩١٥ على اثر اطلاق الطوربيد عليها من احدى غواصات الالمان ابان الحرب العالمية

ويبلغ أجل هاتيك المصابيح الكهربائية ، وهي مضاءة في باطن الخضم حيث تبردها مياهه ، نحو ٢٥ ساعة . على حين انها لو أضيئت في الهواء الطلق لاحترقت من شدة حرارتها في بضع دقائق

وسيتوسل اولئك المكتشفون إلى إضاءة غور البحر ، عند التصوير بالمصورات الضوئية باثني عشر مصباحاً تبلغ قوة نور كلٍ منها ٢٠٠٠٠ شمعة . وهي من المصابيح المملوءة زجاجاتها بغازي النتروجين والارغون . وستقام على منصات خاصة في قعر اليم للاضاءة عند التقاط صور المخلوقات البحرية

وتشترك في انقاذ وسق لوزيتانيا ، شركة انكليزية ، وستنذرع غواصوها الى الغياصة بأجهزة من طراز تريتونيا Tritonia الذي يبلغ ثقل الجهاز منها ٩٠٠ رطل ، وله غطاء ذو مفاصل من خليط معدني متين جدًّا يقي الجهاز في قعر المحيط من الضغط الهائل للمياه عليه ويهوّن عليهم الغياصة عشر ساعات كاملة بلا انقطاع ، ويتيح لهم ايضاً تناول طعامهم من رفوف صغيرة مرتفعة تجاه صدورهم في الجهاز عينه . وقد ثبت من امتحان تلك الاجهزة في المختبرات العلمية انها تصلح للغوص الى عمق ٢٤٠٠ قدم تحت سطح البحر لان الضغط لا يتغير على ذلك الجهاز . فيتسنى انتشال الغواص مباشرةً الى سطح الماء . واذا بلغ الغواص الباخرة الغريق لوزيتانيا ، امكن استخراجه رأساً في ثلاث دقائق بينما يستغرق رفعهُ ساعتين ، متى كان مرتدياً جهازاً عاديًّا . وفي أثناء تينك الساعتين لا بدّ من وقف العمل في فترات معدودة لكي يتعود جسم الغواص ، تقلب الضغط

وفي خريف سنة ١٩٣٥ تمكن جيم جرّات Jim Jarratt الغواص البريطاني من بلوغ جسم لوزيتانيا لابساً جهازاً من طراز تريتونيا فاستطاع تحديد موقعها بالضبط بالقياس الى رأس Kinsale كنسيل الكبير في ارلندة ويرى الخبيرون ان أولئك المستكشفين الجريئين سيغنمون ، بأحدث الوسائل العلمية التي لديهم ، ما يحويه وسق لوزيتانيا من السبائك الذهبية والفضية التي تساوي ١٥ مليوناً من الريالات عدا النقود العين والجواهر النفيسة التي كانت تقلها تلك الباخرة المنكودة الحظ

ولاجرم ان هذا المشروع المقصود به احراز غنيمة عظيمة من البحر عاجلاً ، يوجه النظر مرة اخرى الى اقصى حدود الارتياد ، في غور المحيط

ولقد جاءتنا الانباء حديثاً بأن الطائرات قد حلقت في جو القطب الشمالي ، وان البلونات

قد بلغت في طيرانها منطقة الطبقة الطخرورية ، وان السيارات تقطع طرق أشد مجاهل افريقية غموضاً . ومع ذلك فان غور المحيط ومساحته تكاد تبلغ ٧/١٠ العالم قاطبة ما زال حصناً حصيناً لا قِبَلَ لامرىء باقتحامه وكشف ما يستوعبهُ من الغرائب

ولا غرو فسطح البحر الازرق اللون ، بمنزلة سور منيع يحجز وراءهُ ربوات سابحة من الخلائق المائية التي لا نعلم عنها غير القليل ، بينما تؤلف معرضاً طبيعيًّا واسع الارجاء . وفي غور المحيط كنوز من الذهب وبراكين ومنابع للنفط وغيرها من مصادر الثروة الخفية العذراء

وربما تنشب حروب المستقبل في تلك الاغوار الحالكة ، بل ذلك العالم المدهش الواقع على بعد نصف ميل تحت سطح البحر الذي لم يصل اليهِ إلاَّ الدكتور وليم بيبي Dr. Wiliam Beebe ورفيقه اوتيس بارتون Otis Barton ومساعدوهما . وذلك في كرة فولاذية جوفاء يبلغ قطرها ست أقدام ويزيد ثقلها على طنين اطلق عليها اسم الغرفة الغوَّاصة او «كرة الاعماق» Bathysphere

وما لبثوا أن شقوا عباب البحر بتلك الغرفة السابحة ، حتى اخذوا يشاهدون من نوافذها التي صنعت من البلور الصخري ، خلائقها العجيبة — وبينها البراغيث البحرية المضيئة « وهي المعروفة عندنا باسم الجبري » وما تطلقهُ من غيوم أو دخان مضيء يعمي عيون اعدائها ويعرقل سيرها حينما تدنو منها محاولة اغتيالها [1] وقواقع طيارة ذات اجنحة جلدية تسهل لها العوم وسمك ذو اجنحة واذناب منيرة نوراً ضئيلاً مجرداً من الحرارة ، وحبارات — أم الحبر — تشع ضوءا برتقالي اللون وسمك النجوم وسمك آخر مزدان ببقع ذهبية منيرة تحدق بها فوانيس أرجوانية ، وغيرها من الخلائق البحرية المجهولة التي ينبثق منها شرار يبلغ حجم القروش ، تبزغ وتأفل في هنيهة

وقصارى القول أن ذلك العالم الحالك ، المشرب بالزرقة ، المكتظ بالخلائق المضيئة ، يستهوي المكتشفين والعلماء بعجائب مخلوقاته

ولقد اقترح الدكتور بيبي انشاء خطة بارعة للهجوم على أسراره الخفية الجمة . وهي إقامة سلسلة مراصد بحرية في غور البحر . كما تقام المراصد الفلكية فوق قنن الجبال فتشيد من الفولاذ والزجاج والخرسانة ويهبط اليها المرء بسلالم ومصاعد وذلك من منصة تقام عند سطح الماء حيث يمارس العلماء مباحثهم على مدى السنة فيتاح للزائرين استجلاء غوامض ذلك العالم العجيب الذي ما برح مجهولاً

وإذا شئت ان نصف لك تلك الحجرة الغوَّاصة — فتخيل نفسك نازلاً في إحدى هاتيك المراقب البحرية المشيدة ، اذ تنزل فيها هابطاً في مصعدة تقلّك الى عالم آخر تكاد عجائبه

(١) انظر ما كتبناه على الغازات السامة والاسياء بصفحة ٣٩١ بمقتطف مارس سنة ١٩٣٤

تبلغ عجائب كوكب المريخ (إذا استطعت بلوغه) . وفي الحجرة معامل كيميائية لمباحث العلماء ومتاحف لجمع التحف البحرية . بيد ان اهمَّ ما فيها — نوافذها المصنوعة من البلور الصخري وهي التي ترصد منها عن كثب عجائب المخلوقات في قعر البحر

فتبصر من نافذة فأخرى ، في معرض عام لا نهاية له ، الخلائق المائية تمرح في ادغال المرجان بين الاعشاب البحرية التي تكاد تشبه المنسوجات المطرزة التي تزين بها الحيطان في البيوت . وتلمح السمك الهلامي المسمى قنديل البحر[١] يغدو ويروح زرافات ووحداناً . وترى القرش[٢] يسبح على بعد اثني عشر قدماً من النافذة البلورية . وتلمح من فوقك السمك الكبير يعوم كأنهُ الكواكب السيارة في كبد السماء . وترى عن كثب كثيراً من المخلوقات المائية العجيبة تمدُّ انوفها تجاه النافذة الزجاجية وتحدِّق فيها . وفي الليل ترسل المصابيح الكشافة انوارها الباهرة على شكل قطع مخروطي فتتلألأ امامك وخلفك فتتكشف لك هاتيك الحيوانات التي تجول ليلاً مفتشة عن فرائسها

ويقول الدكتور بيبي إنه متى نصبت تلك المراصد في بقع مستورة على امتداد شاطىء فلوريدا الجنوبية ، استطاع العلماء اقامة معاهد لدراسة عشرة آلاف نوع من الاحياء المائية التي لا نعلم عنها الاَّ اليسير بالقياس الى غيرها

وما انفك الاستاذ ريجنالد ترويت Prof-Reginald Truitt ومساعدوهُ في المختبرات البيولوجية في خليج تشيزابيك يقومون بالاكتشافات البحرية في ذلك الخليج ، بغية التبحر في علم طريقة معيشة السمك في الاعماق ، متوسلين لذلك بأسطوانة فولاذية مسدسة القوائم ، ذات نوافذ من الزجاج الثقيل مثبتة في جوانبها ورأسها . ويسمونها بنثاريوم Bentharium وهو لفظ اغريقي معناه « حجرة في قعر البحر » وتنزل الاسطوانة الى الغور ، من بئر مثبتة في رمث عائم ، وتسع راصدين ، وبها تمكن العلماء عشرات المرات من الجوس خلال حياض الاصداف والبقاع الملأى بالحشائش المكتظة بالحيوانات البحرية العائشة في ذلك الخليج . وقد هبطوا كثيراً في آناء الليل واطراف النهار ، قريباً من الشاطىء وبعيداً عنهُ وفي غضون العواصف ايضاً . ثم انهم من عهد قريب غاصوا في اللجج قبل الفجر ليتحققوا كيفية مظهر شروق الشمس عند السمك

ان المعرض الحافل بالالوان الذي خبره اولئك العلماء ، لدليل على ما سوف نلاقيه في

(١) سمكة كصورة القلنسوة ، شفافة كشفوف الزجاج ، شبيهة بالخوذة ولها اربعة اجرام في وسطها ، ترى في الليل مضيئة كالقمر اذا حجبه السحاب الرقيق ولها ضوء يشرق على ماحولها في البحر ولونها ازرق سماوي

(٢) سمكة في البحر لها خرطوم كالمنشار تفترس وربما التقمت ابن آدم وقصمته نصفين ويقال لها اللخم والكوسج ايضاً وتخافها دواب البحر كلها . عن معجم الحيوان للفريق الدكتور امين فهد المعلوف باشا

اعماق البحر حينما يصبح الارتحال اليها امراً ميسوراً مألوفاً ، حيث أبصر الرقباء من حجرتهم الفولاذية الغائصة في المياه الحالكة ، قبل بزوغ الفجر ، من نوافذها الزجاجية ، الماء ينقلب من حالك الى ازرق فقرنفلي ، فأحمر برتقالي ، فشبه اخضر شفاف ثم يظل على ذلك طول النهار

وقد اطلوا مرة من النافذة العليا فشاهدوا اعظم المشاهد البحرية اذ بدت لهم اشعة الشمس تنزل عليهم من علو كأنها كرات كبرى نارية حمر ، مخترقة المياه البرتقالية اللون. وحينئذٍ كانت الشمس قد أنارت الافق فجعلت سطوح الامواج البلورية اللون الجارية فوقهم ، تعكس صور الاشباح الى اسفل.ومن الموضوعات المفيدة في الاستكشاف البحري ، دراسة الغور نفسه . ففي الطبقات الصخرية لتلك السهول والاودية وسلاسل الجبال المغمورة دائماً بالمياه ، مفاتيح ما أغلق على العلماء من الالغاز الجيولوجية منذ اقدم العصور . ولا غرو فالعلماء في هذا الزمن فريقان ولكل منهما رأي مخالف للآخر في مسألة تكوين القارات . فأصحاب المذهب الاول يقولون ان القارات كانت ذات يوم متصلة بعضها ببعض بمعابر أرضية ثم غمرتها المياه من زمن بعيد . ويذهب الفريق الآخر ان القارات بمثابة طبقات من الجمد عائمة على سطح الماء ، ترحل من مكان الى آخر ترحالاً وئيداً ، محمولة على مادة من المعادن المصهورة التي في باطن الارض

والوجه ان المرجع في معرفة أصوب ذينك المذهبين ، سيكون في المواد التي تنتشل من سلاسل الجبال الغائرة في المحيط . فان كانت تلك السلاسل قد كونت في زمن ما ، معابر ارضية لربط القارات ، كانت النماذج الصخرية التي تؤخذ منها محتوية على الحيوانات والنباتات المتحجرة التي تمتاز بها مناطق المياه الجارية فوقها الآن

وقد أعلن حديثاً الدكتور تشارلس بيجوت Dr. Charles Piggott احد علماء معهد كارنيجي في وشنطون ، وسيلة جديدة تساعد على كشف اسرار الجيولوجيا في غور البحر ، وقوامها مثقب ضخم مجوف ، يطلق مباشرةً بالمواد المفرقعة الى قعر البحر ، ثم ينشل الى سطحه محتوياً على اسطوانة من الصخر من غور البحر . وبهذه الوسيلة تسنى للعالم المشار اليه الظفر بنموذج طوله ثماني أقدام من قلوب الصخر الكامن في عمق ٧٢٠٠ قدم تحت سطح البحر

هذا وقد وافتنا بعض انباء اخرى خطيرة باللاسلكي عن اكتشاف عالم غور المحيط في القطب الشمالي ، حيث قام من عهد قريب اعضاء البعث الروسي بسبر غور المياه هنالك فاذا هي تبلغ من العمق ١٤٤٠٠ قدم وتبينوا ان ارض البحر في ذلك المكان مؤلفة من غرين اسمر مشرب باللون السنجابي

وأولع لفيف من هواة الفنون الجميلة والصيد بالاكتشافات البحرية في مياه البحر الابيض المتوسط الدفيئة . ويرأس تلك الجماعة المسيوجان بنليفه Jean Painlevé نجل رئيس وزراء فرنسا

السابق وقد شرعت في انشاء أندية لها اطلقت عليها اسم « اندية تحت سطح البحر » واعمالها ناجحة . وينضوي تحت لوائها بضع مئات من الاعضاء يرتدون وجوهاً مستعارة خاصة ويعلقون باكتافهم احواضاً صغيرة للهواء المضغوط مربوطة بسيور جلدية تكفيهم لرحلة ربع ساعة تحت الامواج ، متسلحين برماح مثلثة الشعاب وبنادق هوائية لصيد السمك في الآجام المائية على عمق ١٢ قدماً او اكثر تحت سطح الماء

واحدث ضروب التحسين في تلك الرياضة البدنية ، البحث عن المدن المغرقة على ساحل البحر . فقد عثر احد الاعضاء الكُثُر من تلك الجمعية ، من زمن قريب على فخارٍ رومانيّ نادرٍ من قرية كانت واقعة على الشاطئ الجنوبي لفرنسا ، وقد طغت عليها مياه البحر من زمن بعيد . ومن الميسور لأولئك الهواة المغامرين النزول تحت سطح الماء الى عمق يتراوح بين ١٥ قدماً و٢٠ قدماً ، حاملين عتادهم المؤلف من الوجوه المستعارة ومستودعات الهواء المضغوط وعلى رؤوسهم خوذ ثقيلة . اما العالم بيبي فقد وصل الى عمق ٦٠ قدماً ، وهذا اقصى ما يستطيع المرء بلوغه دون التذرع بجهاز الغوص الكامل

ولما تعمَّق الدكتور بيبي اول مرة في غرفته الغواصة الاصلية ، اكتشف اكتشافاً عجيباً فأذاعهُ ، وفحواه ان الاحياء في أغوار المحيط لها مناطق مكتظة بسكانها مثل طبقات الفطيرة ، يعلو بعضها بعضاً . ثم أعلن من عهد قريب اكتشافاً آخر احدث من ذلك ، وهو تأثير الاشعة التي فوق البنفسجية في سمك المياه الملحة . وذلك انهُ توسل بمصباح كشاف من مصابيح الاشعة التي فوق البنفسجية فأطلق منهُ تلك الاشعة الخفيـة في عبـاب البحر من طرف أفريز احد المرافئ فاصطادت شباكهُ سمكاً اكثر مما كانت تصيد في الاحوال العادية ، اذ احتشد السمك في تلك البقعة احتشاداً كبيراً كانهُ يشغف بتلك الاشعة الغريبة فيسايرها حيث تنبثق ، وقد تبين لهُ في عدة حوادث ان الخلائق البحرية تتألق تألقاً باهراً على ألوان مختلفة مثل بعض المعادن حينما تُعرَّض لضوء الاشعة التي فوق البنفسجية

ويعنى هذا العالم ، في هذه الآونة ، بتجارب جديدة في مقرِّه بجزيرة برموده متوخياً بها التحقق من علّة هيام السمك بالاشعة المشار اليها . وما زال هذا سرًّا من اسرار شتّى ينطوي عليها عالم البحر

وما ذهب لوزيتانيا وغيره من كنوز البواخر الغارقة المنتشرة شذر مذر في قرار المحيط الأ حافز وحيد على الاكتشافات البحرية . اما المشاهد العجيبة والاكتشافات العلمية الطريفة فستكون من نصيب طلائع المرتادين . ويعتقد الدكتور بيبي ان بين قرار المحيط وسطحه ، تمتد آخر ميادين المغامرات العلمية

(عن مجلة العلم العام)

راجي الراعي

أيتها الارض

أيتها الحبارة الرحيمة التي حملتني حتى اليوم وأنا ابن الرجل الذي طرده الله من جنته
أيها الصدر الرحب الذي ادوسهُ وفي دمي غذاؤهُ . . .
أيتها الكريمة الحليمة التي أمزّقها بحراثي فترتق بزادها وملئها ما فتقهُ في الزمان
أيها الثدي الكبير الذي تتدفّق منهُ الينابيع . .
أيتها الفاتحة ذراعيها لموتاي ، الخازنة في اعماقها ذهبي ، الشاربة سموم الافاعي لتقيني شرّها ، الصامتة صمت الجبابرة لتكسر حدة الهوس في بياني ، الحاملة جبالها لا تلقّن امثولة الصبر ، الباسطة صحاريها ليتسع نطاق أحلامي ، وحدائقها ومروجها لأضفر على رأس الحبيب اكليلهُ الزاهي، المتبرّعة بأشجارها لأجني ثماري، المرتدية ثوبها الترابي لا خلع عني حلل الحرير والدمقس وارضى بأطماري ، الفاتحة بابها على مصراعيه للجبار والصعلوك والغني والفقير والمجنون والعاقل والذكي والابله لاسحق كبريائي وآخذ عنها درس المساواة ، الطاوية كبدها على النار لتفهمني أني خلقتُ للالم ، الباسطة كفها للموت وقبوره لأقطع حبل شروري وآثامي ، المتبلجة في الصباح لتنقذني من براثن اليأس ، الفاتحة صدرها لتضحيتي وجرأتي ومجدي ، المستسيغة دماء المعارك لتكثر الاشلاء فلستفظع مظالمي، الحاملة تماثيلي لأرى العظمة في أقراني وهياكلي لأصافح الرحمان وخرائبي لاتخيّل الماضي ، الناظرة بارحامها الى الامهات نظرة الزميل الى زميله ، المنصتة لعربدتي لأظلّ ثملاً بالخليقة أكرع كؤوسها ، المتوّجة بالافق لكي لا يجاريها فوق عرشها سلطان ، السائرة في مواكب الاجيال ، المستظلة براية الزمان ، الراقدة في احضان الليالي، المفترشة الفضاء ، الملتحفة بجلال الخالق ، السابحة في بحور النور ، المفعمة بالأثير ، الرافلة بحلل التاريخ ، الحائرة بين المهود واللحود، المتكئة على وسادة الله، الباسطة بقاراتها يدها ذات الاصابع الخمس ، الزاحفة في طريقها الى حيث لا تدري، الحاملة اعباء الانسانية على ظهرها الحديدي الذي لا تقوّسهُ الايام ، الدائرة على نفسها كأنها تحاول أن تفلت من حقارة الانسان ، العارضة قمرها للعاشقين ونجومها للطامعين وبحورها لليائسين وغاباتها لقراطيس الموهوبين وجراحها للمظلومين الفارّين وساحاتها للصارعين وبلاياها للمغرورين المتجبرين وأمجادها للمجاهدين وشلالاتها

لمن أُصيب بالعقم وتحجّر قلبه وغلظت كبده، واجواءها للمحلقين وزواياها للقانعين ونواقيسها للناسكين ، القائمة على قمة هرمها الابدي الذي يؤلف جوانبه الثلاثة امسها ويومها وغدها ، الحانقة على الاسكندر وهانيبال ويوليوس قيصر ونابليون الذين حاولوا أن يمتلكوها ، المعترفة بجميل كولمبس الذي اهتدى الى شطرها المفقود

أيتها الارض ! ! يامسرح الوجود ويا وليدة الرحمن ، ايتها التائهة في صحراء الله السابحة في بحور حلمها الاكبر الذي غابت عنّا أسراره . . .

أيتها الارض ! ؟ أنا من ضيوفك الذين القتهم في احضانك يد الحب القاهرة

اتيتك باكياً وما جفّت دمعتي بعد . . .

اتيتك حائراً وما تزال فيّ حيرتي . . .

ورأيت الناس يموتون وأنت تفتحين بيدك أبواب لحودهم فدبّ الرعب في نفسي وجئتك مستجيراً استحلفك بمعجزاتك أن لا يكون نصيبي نصيب رفقائي فيطول بقائي الى أبد الآبدين . . وأنا انما احب الحياة في ظلالك والخلود في حماك لكي لا يقال انني ضيفك الذي اغتالهُ ترابك وانك تفتكين باللاجئين اليك المستدرّين كرمك ورضاك . . . ولكي أجاريك في سيرك الى يومك الاخير . . .

أحب ان أرافقك ايتها الارض الى نهاية الطريق الذي رسمتهُ لك السماء وان أكون ثابتاً على مسرحك ثبات شمسك التي لا تنطفىء وقمرك الذي لا يموت ونجمتك التي لا تمل ولا تتوارى وينابيعك التي لا تجف وسنابلك التي لا تفنى . . .

احب أن لا أزول وفي رأسي فكرة واحدة وفي صدري عاطفة واحدة . .

أحب ان أبقى لأظلّ من البنائين فلا يهدم الفناء بنائي . . وأن اظل حيًّا لاستكشف اسرارك واسراري . . .

لقد رضيت بآلامك وشربت دموعك وهلل قلبي لجراحاتك فما انا نافر منك ولا أنا حانق عليك . . .

ليطل حبل شبابي وليأتني الهرم في الساعة الاخيرة قبل يومك الاخير . . .

احمليني على اجنحتك الى حيث تريدين ولكن بربّك لا تهيلي عليّ ترابك البليد ففي ذلك انتقام بليد انت اكبر من أن تتسلحي بهِ ايتها الارض الجبارة الشريفة الكريمة

إن بساطك فسيح جداً افلا تخافي أن لا احد فيك مكاناً على توالي القرون . .

انا لك ايتها الارض . . انا لك على علاّتك فلا تطرديني من بيتك . . إن حقّ الضيافة مقدس ولا يطرد ضيوفهُ الا الوقح الزنيم . .

أقطاب الاسلام لاحداث الطلاب

عمرو بن العاص (١)

لحسن حسن على

— ١ —

يقول المؤرخون ان عمرو بن العاص داهية من دواهي العرب، والداهية : هو الرجل ذو الدهاء والفكر الناضج والعقل الممتاز، فاذا قلنا ان عمرو بن العاص داهية من دواهي العرب، فمعنى ذلك ان عمراً من أشد العرب دهاء، وأوسعهم حيلة وأوفرهم ذكاء، وأحدهم ذهناً

ونحن لن نتعرض لتاريخ عمرو بن العاص من مبدأ حياته الى منتهى اجله، فان ذلك امر يطول شرحه علينا وعليكم، وانما نريد ان نعرف كيف كان عمرو بن العاص داهية من دهاة العرب؟ وما هي الحقائق والوقائع والحوادث العملية والنظرية التي جعلت عمراً من دهاة العرب الممتازين

وُلد عمرو بن العاص في مكة، وكانت تسكن مكة قبيلة ضخمة تعرف بقريش، ولم تكن قريش في مكة ذات حكومة منظمة وقوانين موضوعة كشأن الحكومات المعروفة في عصرنا هذا، وانما كانت قريش منقسمة الى عشائر وبطون وأقسام يتولى كلُّ قسمٍ منها فرعاً من فروع الحكم، فكان منها جماعة يعرفون ببني الدار، وكانوا يتولون حمل الراية في وقت الحرب، وكان منها جماعة يعرفون ببني هاشم، وكانوا يتولون سدانة الكعبة، وسقاية الحجيج، وهؤلاء هم رهط النبي صلى الله عليه وسلم، وكان منها جماعة يعرفون ببني سهم، وكانوا يتولون القضاء والحكم فيما يقع بين الناس من الخصومات، وهؤلاء هم عشيرة عمرو بن العاص، ولا بدّ ان بني سهم هؤلاء كانوا على شيء كبير من الدهاء والذكاء، لان القاضي محتاج بحكم وظيفته الى عقل ذكي حاد حتى يعرف به موضع الحق من موضع الباطل، ولا بدّ ان يكون ذا لباقة وحصافة ومقدرة على التصرف في الامور حتى يداري المحكوم عليه اذا كان ذا سطوة وشوكة ونفوذ، ولا سيما في هذا الزمان الغابر الذي لا يدين الاّ للقوة

(١) من المحاضرات التي تلقى في بهو المحاضرات بمدرسة الجمالية الابتدائية الاميرية

وعلى هذا فبنو سهم أجداد عمرو بن العاص وآباؤه واهله وعشيرته كانوا ذوي ذكاء ودهاء بحكم مركزهم القضائي في قريش ، فلا عجب ان يأتي منهم عمرو بن العاص الذكي الداهية ، ومن يشابه آباءه وأجداده فما ظلم

ومما زاد هذا الذكاء حدة وهذا العقل نضوجاً واتساعاً ، ان عمرو بن العاص اشتغل منذ حداثتهِ بالتجارة ، فكان يذهب في رحلة الشتاء الى بلاد اليمن وبلاد الحبشة فيشتري من هذه الاقطار الطيب والجلود والعطور ، ثم يذهب بها في رحلة الصيف الى مصر وبلاد الشام ، فيبيعها هناك ، ويشتري من هذه الجهات الحنطة والمنسوجات والمصنوعات والزبيب ، وبلاد الشام حتى هذه الساعة مشهورة بالزبيب

ويقال ان اول رحلة قام بها عمرو بن العاص الى مصر ذات سبب عجيب ، وذلك انهُ خرج مرة مع جماعة من اصحابه الى تجارة في بيت المقدس ، فكانوا يحملون بضائعهم بالضرورة على الجمال ، وكانوا يسافرون من بلادهم الى بيت المقدس على الجمال ، فاتفقوا أن يخرجوا وهم في بيت المقدس الى الاسواق للبيع والشراء ويتخلف في كل يوم واحدٌ بالتناوب ليرعى هذه الجمال في المراعي بين الجبال ، وبينما عمرو بن العاص يرعى الجمال وسط الجبال ابصر شماساً مصريًّا ، والشماس رجل لهُ وظيفة دينية صغيرة بالكنيسة . ابصر هذا الشماس وقد اجهده التعب ، وأضناه الحر وأهلكه الظمأ ، فلما رآه عمرو يكاد يموت من العطش اسقاهُ بقدح من الماء ، فأحيا بذلك مواته ، ولما انس بهِ الشماس نام بالقرب منهُ ، الاَّ ان الشر والنحس كان يلاحقه ، فقد خرجت حية كبيرة من جحرها واتجهت نحو هذا الشماس النائم لتفتك بهِ ، ولكن عمرو بن العاص شكها بسهم صائب فقتلها ، ولما استيقظ الشماس وعلم بذلك قام الى عمرو فشكره وقبل رأسه ، وقال لهُ لقد احياني الله بك مرتين : مرة من العطش ، ومرة من هذه الحية ، فلك اليوم عندي ديتان والدية الف دينار . ثم قال الشماس لعمرو ولكني الآن رجل غريب فقد سافرت من الاسكندرية الى هنا لاني قد نذرت لله ان اصلي في بيت المقدس وان اطوف في جبالها شهراً ، وقد وفيت نذري وانا الآن صفر الكف ويدي خالية من النقود ، فان اتيت معي الى مصر فلك عهد الله وميثاقه ان اعطيك الفي دينار جزاءً لك على ما فعلت ، فلما احس عمرو من كلام الشماس الصدق ووثق من كلامهِ ، استأذن من اصحابه وسافر معهُ الى الاسكندرية ، فأكرمهُ الشماس غاية الاكرام ، وألبسهُ ثوباً من الحرير ، وقدم لهُ المبلغ ، واتفق في ذلك الوقت ان اهل الاسكندرية كانوا يقومون باحتفال عظيم سنوي ، اذ يجتمع الحكام والعظماء ، والقواد في ميدان كبير ، ويتقاذفون بكرة مرصعة من الذهب ، ويتلقفونها بأكمامهم ، فاذا استقرت الكرة في كم واحد منهم فلا بدَّ ان يأتي عليهِ يوم يكون فيهِ حاكماً على مصر ، وبينما كان عمرو مع الشماس يشهد هذا

الاحتفال اذ بالكرة تهبط وتستقر في كم عمرو بن العاص ، فدهش الناس وتعجبوا وقالوا أذا كانت هذه الكرة قد صدقتنا في أيامها الماضيات ، فقد اخطأت هذه المرة خطأً ظاهراً . لأنهم استبعدوا ان يكون هذا الفتى البدوي الصغير اميراً عليهم في مستقبل الايام

ولم يعرفوا انهُ عمرو بن العاص الفاتح العظيم الذي سيغزو بلادهم مرتين مرة قبل الاسلام ومرة في ايام علي

وعلى كل حال فان هذه الرحلات التجارية التي قام بها عمرو بن العاص في الجاهلية قد زادت ذكاءه حدة ، وعقله نضوجاً ، وامدتهُ بكثير من التجارب والمعلومات ، لان اختلاطه بالاجناس الاجنبية ، واطلاعه على بلادهم واخلاقهم وعاداتهم امدهُ بكثير من الافكار والتجارب التي لم يكن ليتيسر لهُ أن يعرفها في بلاده

ولما اراد ان يتجر في بلاد الحبشة ركب البحر في سفن تجارية مع شريك يقال لهُ عمارة وقد ركبوا السفن ليعبروا البحر الاحمر ، ويصلوا الى الحبشة لدى الشاطىء الافريقي ولكن عمارة شريك عمرو كان رجلاً سفيهاً فاسد الاخلاق ، وكان مغرماً بالتحدث مع النساء ، فأراد مرة ان يتحدث مع زوجة عمرو ولكن المرأة احتقرتهُ ولم تحدثهُ اما عمرو بن العاص فقد اعتبر هذا من عمارة اهانة عظيمة لا بدّ ان ينتقم بسببها منهُ انتقاماً رادعاً ، ولكنهُ ماذا يفعل بعمارة وهما بين الماء والسماء . ايقذفهُ في البحر ؟ ايقتلهُ بالسيف ؟ إنهُ لو فعل ذلك لتقدمت اليهِ عشيرة عمارة بسيوفها لتقتلهُ حتى تأخذ بثأر عمارة ، فكأنهُ قد قتل نفسه حين قتل عمارة ، إذاً فليصبر عمرو ساتراً غيظه والايام وحدها هي التي تهيء لهُ الفرص المناسبة للانتقام من شريكه السفيه

ذهبا الى النجاشي في بلاد الحبشة فقدما اليهِ أحسن التجارة فاشترى منهما ثم اتجها الى الرعية فباعا واشتريا وكثر ربحهما وزادمالهما ، ولكن عمارة شريك عمرو كانت اخلاقه السيئة تلازمه اينما حل ، فرأى زوجة النجاشي فحدثها فحدثتهُ ، وصار في كل يوم يذهب اليها ليحدثها ثم يأتي الى عمرو بن العاص فيخبره بذلك فيقول له عمرو ان هذا امر لا اصدقهُ واظن انك مبالغ في خبرك ، وان زوجة الملك لا تحدث امثالنا فيؤكد لهُ عمارة القول ، ويقسم له اغلظ الايمان انهُ يحدث زوجة النجاشي ، وهنا يضغط عمرو على اسنانه ونواجذه لانهُ وجد الفرصة السانحة للانتقام من عدوه ثم يقول له إذا اردت ان اصدقك فيما تدعي فاحضر لي شيئاً من بيت الملك مما لا يستعمله الاّ الملك ، فان فعلت عرفت انك حقيقة تدخل في بيت الملك ، فقال لهُ عمارة: ما اسهل هذا الامر عليّ ، وما اهونهُ ، ثم انطلق الى زوجة الملك وحادثها كعادته ، ثم قال لها طيبيني من الدهن الذي يتعطر منه الملك ، فطيبتهُ ثم قال لها اعطني قارورة من هذا العطر حتى ادهن منها اذا كنت في الخارج ، فأعطتهُ قارورة من العطر ، فذهب عمارة وهو نافخ اوداجه

يتيه عجباً واختيالاً بما فعل ، ثم تقدم الى عمرو بن العاص وقال لهُ هذه ثيابي فشمها ، وهذه قارورة من العطر الذي لا يدهن بهِ الاَّ النجاشي خذها هدية مني اليك ، فقال له عمرو حقًّا انك تحدث زوجة الملك وقد أقررت لك بالمقدرة وحسن الحيلة

ولما انصرف عمرو من مجلسه ، ذهب الى النجاشي وقال له ايها الملك العظيم إنني أخشى ان يصلني سوء منك بسبب شريكي العربي فقال لهُ النجاشي وما سبب ذلك ، فقال عمرو إن عمارة شريكي رجل سفيه شرير ، وكثيراً ما اخبرني انهُ يذهب الى زوجة الملك ويتحدث معها ، ولكني في بادىء الامر لم اصدق دعواه ، فلما احضر لي من الملكة قارورة العطر الذي لا يدهن منهُ الاَّ الملك أيقنت من الخبر ، وجئت اليك متبرئاً من عمله ، وهذه هي قارورة العطر ، فلما رآها النجاشي غضب غضباً شديداً ، وأتى بعمارة فشم في اثوابه رائحة العطر فأراد ان ينتقم منهُ انتقاماً مرًّا أليماً فماذا يفعل بهِ . انهُ افسد لهُ بعض اعضائه وهو حي ، واتلف لهُ هذه الاعضاء إتلافاً تامًّا ، وكان جزاؤه من جنس العمل

وهكذا انتقم عمرو بن العاص من خصمه انتقاماً مرًّا أليماً من غير ان يلقيه في البحر او يقتله بالسيف او يعرض نفسه للقتل ، وهكذا ألقى على عمارة درساً قاسياً في الاخلاق لم ينسه طول حياته ، وهكذا استطاع عمرو ان يصرع خصمه بحيلتهِ ومقدرته وذكائه

ولما هزم الله الاحزاب في غزوة الخندق ، وسلط عليهم ريحاً عاصفة قوضت خيامهم ، وكفأت قدورهم ، وتفرقوا الى بلادهم ، فكر عمرو بن العاص في هذا الامر فأدرك ان النبي صلى الله عليهِ وسلم ، لا بد ان ينتقم من قريش ، ولا بد ان تجازيها حرباً بحرب ، وتكهن بفتح مكة قبل ان يدخلها النبي بأزمنة طويلة ، فقال في نفسه اذا وقعت هذه الحرب ، وانتصر محمد على قريش فلا بد ان يرد عزيزها ذليلاً ، فلأَذهبنَّ الى النجاشي في الحبشة فان انتصر محمد فأنا بمنجاة من الشر ، وإن انتصرت قريش فليس لي عند قومي الاَّ الخير

ثم اخذ هدية الى النجاشي وقدمها اليهِ ، فتقبلها قبولاً حسناً ، ولكن عمرو وجد عند النجاشي رجلاً من اصحاب النبي فحدثهُ في شأنه فقال لهُ النجاشي ان هذا الرجل آتٍ من النبي الذي تنزل عليهِ الملائكة ويأتيه الوحي وإن دينه لحق ، وهنا تغير رأي عمرو تغيراً تامًّا لانهُ تمكن بعقله النافذ ان يخترق الحجب ويسابق التاريخ ويستشف المستقبل من وراء حجاب فقال في نفسه إذا كان هذا الدين على حداثة عهده قد آمنت بهِ الملوك فضلاً عن الرعية ، وإذا كان قد وصل الى البلاد الخارجية فضلاً عن جزيرة العرب ، فلا بد ان يعم هذا الدين البلاد العربية ولا بد ان يدين اهل مكة طوعاً او كرهاً فبدلاً من ان ادخل هذا الدين كارهاً فلا بد من ان ادخل طائعاً ، وعليَّ ان اسرع في ذلك حتى اكون من السابقين ، ثم انقلب عمرو راجعاً الى

بلاد الحجاز لم يرجع عمرو الى مكة مقر عشيرتهِ ، وانما رجع الى النبي فأسلم على يديهِ وحسن إسلامه

وهكذا لم يسلم عمرو كما اسلم غيره من العرب بل اسلم بعد موازنات شتى ، وبحوث مستفيضة ، ومقارنات ذهنية كشفت لهُ ما يكنهُ مستقبل الاسلام الباهر . ولما ارسله ابو بكر رضي الله عنهُ على رأس جيش من الجيوش الاربعة لفتح بلاد الشام اشتغل في هذه الحروب بهمة ونشاط ، ولما توفي ابو بكر رضي الله عنهُ رأى عمر بن الخطاب ان على فلسطين قائداً من الروم لم يسمع الناس بمثله في الدهاء والمكر وسعة الحيلة ، وكان يقال له ارطبون ، وكان ارطبون في الروم بمنزلة عمرو بن العاص في العرب فامر عمر بن الخطاب عمرو بن العاص ان يتجه الى فلسطين ليحارب ارطبون ، وقال : رمينا ارطبون الروم بأرطبون العرب ، فلننظر عمَّ تنفرج . ومعنى ذلك اننا ارسلنا الرجل الماكر من العرب ليحارب الرجل الماكر من الروم وسننظر ايغلب ماكر الروم ام ماكر العرب

***

اما عمرو بن العاص فقد وجد ان ارطبون قد وضع لفلسطين خطة حربية محكمة ومن الصعب ان يتغلب عليها اي قائد حربي ، وذلك انهُ عسكر بجيش كثيف في مدينة اجنادين مركز فلسطين وجعل في كل مدينة حامية قوية تدافع عنها اذا هاجمها العدو ، وانشأ بين هذه البلاد مراسلات سريعة،بحيث اذا اغار العدو على اية مدينة ففي الحال ينتقل الخبر بهذه المراسلات السريعة ، ويتوالى ورود المدد على المدينة المحصورة ، فيصبح الجيش المهاجم بين قوة المدينة الاصلية ، وبين الامدادات المتوالية ، فتحل بهِ الخسارة ، وبهذه الخطة الحربية المحكمة تمكن الارطبون من الوقوف امام المسلمين وصدهم مدة طويلة

ولكن عمرو بن العاص لا بدّ ان يفسد على الارطبون خطته فماذا يفعل ، انهُ أتى بفصائل خفيفة قليلة العدد هي اشبه بالعصابات ، وسلط على كل مدينة فصيلة من هؤلاء الجند ليغيروا عليها حتى يشغلها امرها عن غيرها ، لانها تعرف أنها لو ذهبت جنودها لنجدة غيرها ، فان الاعداء الذين يهاجمونها لا بدّ ان يحتلوها في الحال ، وبذلك تمكن عمرو بهذه الفصائل من ان يشغل كل مدينة بنفسها ، ثم تفرغ هو لمقارعة ارطبون في اجنادين ، ولكنهُ تقدّم اليهِ حذراً متوجساً محترساً ، لانهُ لا يحارب قائداً عاديًّا ، وانما يحارب داهية الروم

فأرسل اليهِ رسولاً يتظاهر بأنهُ يريد ان يفاوضه في شروط الصلح والحرب ، وامره عمرو ان يتفقد القلاع ، ويعرف شكل الحصون ، ووسائل الدفاع ، ونظام الجيش ، ولكن

ارطبون داهية الروم اخفى عن الرسول كل امر وفطن الى مهمته الحقيقية ، فأرسل عمرو رسولاً ثانياً وثالثاً فلم يهتد احدهم الى شيء . فعزم عمرو ان يذهب بنفسه ليتفقد جيش عدوه وحصونه فتنكر في زي رسول من الرسل ، فاراد ارطبون ان يخفي على عمرو كل شيء كما فعل مع الرسل السابقين

ولكن عمرو بن العاص ما زال يحاوره ويداوره ، ويقوده الى موقع الحصون حتى يطبق شروط الصلح على طبيعة المدينة ، وما زال يجره من موضع الى موضع وهو يجوس خلال الجنود ، ويطلع على اسرار الجيش حتى اهتدى الى معرفة كل شيء . ولكن هل تظنون ان الارطبون رجل أبله انهُ تفرس في هذا الذكاء ، وهذه السياسة ، وهذه القدرة فجزم بان الذي يحدثهُ اما ان يكون عمرو بن العاص ذاته ، واما ان يكون المشيرَ الذي يشير على عمرو في الامور ، فيأخذُ عمرو برأيهِ

وقد وجد ان الفرصة سانحة للتخلص من عدو خطر عظيم المكر والدهاء ، فاشار الى احد أتباعه ان يكمن مع جماعة لهذا الرجل في الطريق اثناء رجوعه ، فاذا مرَّ عليهم قتلوه ، اما عمرو ابن العاص فقد عرف كل شيء وادرك انهُ وقع في الشرك ، وانهُ لا محالة مقتول

***

اين حيلتك واين فطنتك يا عمرو ان بينك وبين القتل ان تسير في الطريق الى جيشك ، ولكن عمراً في اقل من لمح البصر يأتي بالخدعة المدهشة ، يخاطب الارطبون في هدوء وثبات ويقول ايها الارطبون إنني اصارحك القول واعلمك انني مع تسعة من العرب اصحاب الرأي والمشورة في هذا الجيش العربي الذي امامك ، وان عمراً لا يعمل شيئاً إلاَّ اذا وافقنا عليهِ ، وقد سمعت حديثك ، وعرفت شروطك ، وفهمت رأيك ، وسأذهب الى اصحابي فآتي بهم جميعاً ، وسيسمعون حديثك بآذانهم ، ويرون شروطك بانفسهم ، فان وافقوا عليها فقد وافق عمرو بن العاص ، لانهُ لا يعمل إلاَّ برأينا ، فطمع الارطبون ان يقتل عشرة من اصحاب الرأي ، وفضل ذلك على ان يقتل هذا الرجل الذكي في الوقت والساعة ، وفي الحال ارسل الى الكمين الذي رصده في الطريق ان يخلي سبيل الرجل إذا مرَّ بهِ

ولما مضت الايام ولم يعد الرسل ، وعرف الارطبون خدعة عمرو قال خدعني عمرو هذا ادهى العالم اجمع ، ولما بلغ ذلك عمر بن الخطاب قال غلبهُ عمرو ولله عمرو . أما عمرو بن العاص فانهُ درس حصون الروم واسرار الجيش ، ثم فاجأ الارطبون واتاه من العورات وتمكن من التغلب عليهِ ومن فتح اجنادين وبقية بلاد فلسطين

« للبحث تتمة »

مفردات النبات

بين اللغة والاستعمال

لمحمود مصطفى الدمياطي

— ٢٠ —

الإجّاص العاديّ (١)

ويقال له في بلاد الجزائر (العين) وفي مصر وبلاد المغرب (البَرْقُوق) وفي الشام (الخَوْخ) ترتفع شجرته الى ٢٠ قدماً او اكثر وهي من النوع المتساقط الورق غير شائك الفروع ورقتها بيضية الشكل أو إهليلجية ملساء من وجهها العلوي وعلى وجهها السفلي شعيرات دقاق مسننة الحافة خشنتها أزهارها بيض تخرج عقب الاوراق أو معها . ثمرتها كرية الشكل جلدتها مختلفة اللون لحمها اصفر ونواتها اما لاصقة بهِ او منفصلة

اسمها العلمي (Prunus domestica, L.) (برونس دومستيقا) من الفصيلة الوردية وبالانجليزية (damson-tree, prune-tree, common plum-tree)

وبالفرنسية (prunier cultivée, prunier domestique) أصل موطنها بين البحر الاسود الى غرب الصين ولا سيما جبال القوقاز وآسيا الصغرى ويعتبرها علماء النبات اصلاً لما غرس منذ ٢٠٠٠ سنة في بلدان حوض البحر المتوسط ونتج عنهُ الاصناف الحالية الكثيرة التي بلغت زهاء ١٠٠ صنف في فرنسا وانجلترا و٩٥٠ صنفاً في الولايات المتحدة من اميركا وأشهرها جميعاً :

(١) الاجّاص الابيض ويقال له (الشاهلوج) بالفارسية وبالانجليزية (green-gage plum) وبالفرنسية (prune reine claude) معروف في اوربا وأميركا للاكل فاكهة ويمتاز عن اي صنف آخر بطعمه اللذيذ ثمرته متوسطة الحجم كرية الشكل خضراء او ذهبية

---

(١) يذهب كثير من علماء النبات الى ان انواع شجر الاجاص الآتية انما هي نوع واحد وهي شجر الاجاص العادي المذكور وشجر اجاص ابن آوى واسمه العلمي (prunus spinosa) وبالانجليزية (sloe tree, black thorn) وبالفرنسية (épine noire, prunellier, prunier épineux) وشجر الاجاص البري واسمه العلمي (Prunus insititia) وبالانجليزية (bullace-tree) وبالفرنسية (prunier sauvage)

(٢) الاجّاص الاسود ويقال له (عُيُون البَقَر) (١) واسمهُ بالانجليزية (damson) وبالفرنسية (prune de Damas) ثمرتهُ كبيرة الحجم بيضية الشكل مفلطحة على نوع ما جلدتها زرقاء أو ارجوانية ولحمها متماسك اخضر أو اصفر أو ذهبيّ وهو صنف متى كان فيهِ مقدار كبير من السكر صار صالحًا للتجفيف فتصنع منهُ (القراصيا) (٢) المعروفة المستعملة مطبوخة وقديمًا كانت ترد القراصيا الجيدة من دمشق أما الآن فمن فرنسا

وخشب شجر الاجاص مرغوب فيهِ لصنع الآلات الموسيقية وله استعمال في الخراطة الممتازة والقلف من سوقه يدخل في الصباغة باللون الاصفر

الإِحْرِيض أو العُصْفُر

ويقال لهُ (الزّعفران الكاذب) و (قِرْطِم الصبّاغين)

عشب يرتفع الى ثلاث أقدام جميل المنظر يزرع سنويًا ساقه ملساء وورقته بيضية الشكل ذات حافة شائكة ونورته برتقالية اللون وثمرته عريانة في اصطلاح النباتيين

اسمهُ العلمي (carthamus tinctorius L.) (قارثاموس تنقتوريوس) (٣) وفصيلته المركبة وبالانجليزية (officinal carthamus, safflower) وبالفرنسية (carthame, safran bâtarad)

موطنهُ الاصلي مصر ممتد الى الهند والآن يزرع في كثير من الجهات في أوربا والشرق وتصدر من ازهاره مقادير عظيمة الى انجلترا للصباغة والتلوين اذ يحصل منها على صبغ يتفاوت لونه من اصفر الى ورديّ الى غير ذلك حسبما يمزج بهِ من مواد ، والعنصران الفعّالان في هذا الصبغ هما القارثامين (carthamin) والقارثاموس الاصفر (carthamus-yellow) والصينيون يستعملون زهرات الاحريض لصبغ الحرير باللون الورديّ الجميل والقرمزي والارجواني والبنفسجي وذلك بوضعها في منقوع بعض القلويات وتركها حتى تلين ثم يستخرجون الاصباغ منها باضافة عصير الليمون او اي حامض نباتي آخر بنسب منوعة . ويزرع الاحريض في اسبانيا في الحدائق كما يزرع القُوقَحان (٤) في انجلترا وتستعمل ازهاره في تلوين الحساء (الشوربة) والزيتون وبعض المواد الغذائية الاخرى وللهود في بولندا رغبة في هذه الازهار فيضيفون

(١) وقيل ان عيون البقر ضرب من عنب الشام . قال ابو حنيفة : هو عنب اسود ليس بالحالك عظام الحب مدحرج يزبب وليس بصادق الحلاوة

٢) وفي بلاد الجزائر يقال للكريز عندنا (قراسيا) و (جراسيا) و (حب الملوك) وهو غير هذا الصنف من الاجاص واسمه بالانجليزية (Cherry) وبالفرنسية (Cerise)

(٣) قيل ان (قارثاموس) اشتق من قرطم اسم النبات بالعربية وان معناه يصبغ لما تنتجه الازهار من صبغ جميل

(٤) واسمه العلمي (.Calendula officinalis, L : قالندولا اوفيسينا ليس) وبالانجليزية (marigold) وبالفرنسية (Souci ou calende)

بعضاً منها الى خبزهم ومعظم لحوم غذائهم . وفي الهند يزرع الاحريض من اجل تلك الازهار ومن اجل زيته فيحصل عليه باعتصار الحبّ المعروف بالقرطِم هذا ويقال ان الفراخ الرومية والاوز ترغب في اكله كثيراً فتسمن بهِ جدًّا

آمِيلِيلِس

ضرب من الشجر يقال له في بلاد الجزائر (الصفيرا) وفي الشام (النبق المترادف) او (الزَفْرين) ذكره ابن البيطار[١] في مفرداته وقال انهُ اسم بربري في بلاد المغرب الاقصى ترتفع الشجيرة منهُ الى ٢٠ قدماً او اكثر اوراقها اهليلجية الشكل منشارية الحافة حادة القمة منفرجة القاعدة وازهارها خضر متساقطة

اسمها العلمي (Rhamnus Alaternus, L.) .(رامنوس الاترنوس) وفصيلتها العُنّابية او النَّبِقيَّة (Rhamnaceae) (رامناسية) وبالانجليزية (broad-leaved alaternus) وبالفرنسية (alaterne) موطنها بلدان حوض البحر المتوسط وهي دائمة الاخضرار سريعة النمو ولذلك تغرس سياجاً للزينة ولكون زهراتها رحيقية كثيراً ما ترد اليها النحل للتغذي بهِ

الاَنْبرار او الزِّرِشْك العادي

اسمان فارسيان يطلقان على شجيرة تعرف (بامبر باريس) و(بَربَريس) كما جاء في مفردات ابن البيطار وغيره

ترتفع الى ثمان اقدام أوراقها من النوع المتساقط خضر تضرب الى الصفرة او الزرقة بيضية الشكل مسننة الحافة ازهارها صفر مجتمعة في نورات عنقودية بسيطة متدلية رائحتها غير مقبولة عن قرب ولكنها مقبولة عن بعد تألفها اصناف مختلفة من الحشرات وثمارها عنبية شديدة الحموضة لا تمسها الطيور الا نادراً حمراء او ارجوانية او صفراء فاتحة

اسمها العلمي (Berberis vulgaris L.) (بربريس ولغاريس) وفصيلتها البربريسية او الزرشكية (Berberidaceae) (بربريداسية)

وبالانجليزية (common barberry or berberry-bush, peperidge-bush)

وبالفرنسية (épine-aigrette, épine-vinette, épine vulgaire,) شائعة في اوربا تغرس

---

(١) هو ابو محمد ضياء الدين عبد الله بن احمد المالقي الاندلسي الطبيب عرف بابن البيطار وبالنباتي صاحب كتاب الادوية المفردة لم يصنف مثله ويعرف بمفردات ابن البيطار نقل الى الفرنسية وطبع في باريس سنة ١٨٧٧ و ١٨٨١ و ١٨٨٣ ميلادية في ثلاثة مجلدات محفوظة بدار الكتب المصرية واليه انتهت معرفة النبات وتحقيقه واسمائه وأماكنه سافر الى اقصى بلاد الروم وأخذ فن النبات عن جماعة وكان ذكياً فطناً وله ايضاً كتاب المغني في الطب وغير ذلك توفي بدمشق سنة ٦٤٦ هـ

سياجاً للزينة لجمال منظرها مزهرة في الربيع ومثمرة في الخريف وهذه الثمار اما تحفظ في الخل لتؤكل كامخاً وإما تغلى مع السكر لصنع شراب او فالوذج لذيذ الطعم وإما تصنع منها حلوى مسكرة بمفردها او مع الاجّاص او فاكهة اخرى او يتداوى بها قابضة لطيفة ملائمة للمعدة او لتأثيرها الفعّال في الاضطرابات الصفراوية الى غير ذلك

وتدخل الجذور اذا غليت في محلول قلوي من الصودة او البوتاسة في الصباغة باللون الاصفر وفي بولندا يدخل القلف من الجذور في صباغة الجلد باللون الاصفر الجميل كما يدخل القلف الداخلي من السوق مع الشّب المعروف في صباغة الانسجة الكتانية باللون الاصفر الجميل. ويقال ان البقر والغنم والماعز ترغب في الاكل من هذه الشجيرة على خلاف الخيل والخنازير هذا ولا يفوتني هنا ان اذكر علاقة الأثرار العادي بالمرض المعروف عند النباتيين بالصدأ الاسود الذي يوجد على القمح والنباتات النجيلية الاخرى ذلك لان الفُطر المسمى (Puccinia graminis) (بكسينيا غرامينيس) او (Aeciduim berberidis) (ايسيديوم بربريديس) يقطع طورين متبادلين تتم بهما حياته طوراً على نبات القمح او غيره من النجيليات وآخر على الأثرار العادي بحيث اذا لم توجد شجيرات اثرار عادية في منطقة ما كان ذلك في الغالب عاملاً مهمًّا في عدم اصابة القمح وغيره من النجيليات بالصدأ الاسود

آكُنَّار

اسم بربري لنبات (جَوْز الارض) أو (جَوْز أرْقَم) وهو الذي يقال لهُ في برقة وبلاد القيروان (تَلغُوطة) كما جاء في مفردات ابن البيطار نبات دربي الجذر معمّر ينبت بريًّا الى ارتفاع قدمين أوراقه منتظمة وأزهاره بيض

اسمهُ العلمي (.Carum Bulbocastanum, Koch) (قاروم بولبوقاستانوم) أو (.Bunium Bublocastanum, W) (بونيوم بولبوقاستانوم)[1] وفصيلتهُ الصيوانية او الخيمية وبالانجليزية (grat earth-nut) وبالفرنسية (bunion bulleux, noix de terre, terre-noix) موطنهُ وسط اوربا وجنوبها وشمال افريقية ووسط آسيا الى بلاد كشمير كثير الوجود في تربة الارض الجيرية المزروعة حتى ما ارتفع منها الى ٩٠٠٠ قدم فوق سطح البحر

ينتفع بجذوره الدرنية (جوزاته) يحفر عليها الفقراء ويأكلونها نيئة او مطهية لاحتوائها على نوع من الدقيق وما فيها من حلاوة الطعم ولذا يقال انها مغذية جدًّا وقد تطهى اوراق هذا النبات للاكل ايضاً وثماره تستعمل من ضمن الابازير

(١) اشتق اسم (بونيوم) من كلمة (فنيوس) اليونانية ومعناها تل ذلك لان هذا النبات تلائمه المواقع الجافة المرتفعة

حديقة المقتطف

ابولون ودفنى

من أساطير الادب اليوناني

رباعيات الغزالى

للشاعر الفرنسي جان لاهور

الحب الصوفي — عاطفة الاستسلام

نقلها خليل هنداوي





ابولو ودفني

ابولون ودفني

كانت « دفني » أول من أحبَّ « أبولون » . على ان هذا الحب لم يأت عفو الحوادث ، وانما كان نكاية من « كوپيدوس » وكيداً ، استطاع بهِ إلـه الحب الصغير ، أن ينتقم لنفسهِ من ابن « زفس » ، بل من إلـه من اكبر الآلهة الذين عرفهم المقام الاولبي

فقد رأى « أبولون » الصبي « كوپيدوس » يلعب بقوسه وسهامه . وكان « أبولون » قد انتصر في ذلك الوقت على « فوثون » وما زالت نشوة الانتصار تتأجج في صدره ، وتضطرم سورتها في قلبه ، فراح تياهاً فخوراً . فلما رأى الصبي في لهوه ، اكبر منهُ أمر اللعب بالقوس والسهام وقال له :

« مالك ولآلات الحرب ، وما أنت صانع بها ؟ أما يجب عليك ان تتركها للأيدي التي تحسن حملها ، وللأبطال الذين يعرفون كيف يحمونها ! أيها الصبي الناشيء . اترك هذه الآلات للذين هم معتادون أن يقتحموا بها المعارك ويشقون بها طريقهم إلى النصر . انظر الى النصر الذي توجت بهِ جبيني ، والى الفتح العظيم الذي نلتهُ بانتصاري على الحية « فوثون » ، وكانت قد نشرت جسمها السام على ما شئت من فضاء الارض . ألا فاقنع أيها الصبي بمشعلك فأوقده وأرسل لظاه ووجه ألسنته الى حيث شئت ، ولكن حذار أن تتخذ من أسلحتي ألهوةً تتلهى بها »

فلما سمع ابن « فينوس » هذا الكلام التفت الى الإلـه الكبير وقال له :

« ان سهامك قد تصيب حيث شئت ان تصيب بها ، ولكن سهامي سوف تصيبك في الصميم »

وما أن فاه بهذه الكلمات ، حتى اعتلى صخرة من صخور «فَرْناسوس» ، واستلَّ من جعبتِهِ سهمين ، كلاًّ منهما مختلفاً عن الآخر ، فأحدهما يثير الحب ، والثاني يقمعهُ . وكان الاول مصنوعاً من الذهب حديدَ السنان ماضي الطعن ، أما الثاني فكان كليل الحد مطلوًّا بطبقة من الرصاص ، وبهِ طعن الحورية « دَفني » ابنة « پنيوس » آله النهر ، وبالسهم الذهبي رشق « أپولون » فشكَّ فؤاده

وكأنما ذلك السهم الذهبي كان لهيباً أضرم في قلب « أپولون » لظى الحب ، فراح يهيم « بدفني » هياماً ويغرم بها غراماً . كان في قلب « دفني » من البغض لهُ والاشفاق منهُ ما يعادلهُ ويزيد . وانما كان لهذه الحورية الجميلة غراماً بالحراج والغابات الملتفة ، وبالالعاب التي تجد في سكون تلك الغابات متسعاً لها ومجالاً يكفيها . وقد تبعها كثير من المحبين ، وتعقبها عديد من المغرمين بها ، فأقصتهم عنها ونفرت منهم نفوراً ، ومضت تجول في الغابات متنقلة في فضائها وتحت خمائلها ، كأنها شعاع الشمس المضيئة في غيهب من الليل البهيم . ولم تفكر في « كوپيدوس » ولا في سهامه التي يصيب بها القلوب ويضرم بها الاحشاء

أما أبوها فكثيراً ما نهاها عما كانت فيهِ ، فلم تنته ، ونصحها فلم ترعو . وذات يوم أقبل اليها يحدثها بلين ورفق قائلاً « يا بنتي : ان لي في عنقك حفيداً ، بل حفدة » . ولكنها كانت ترى ان الزواج جريمة كبرى ، بل معصية عظمى ، فاحمر وجهها الجميل خجلاً ، وألقت بذراعيها حول عنق أبيها قائلة : « يا أبي العزيز : هبني الهبة التي أطلبها ، هبني الحرية في أن اظل عذراء ، وان أبقى بغير زوج ، كما بقيت « ديانا » ! فلم يسعهُ الاَّ الرضوخ لمشيئتها ، وانصرف عنها وهو يتمتم : « ان وجهك يأبى ان تظلي كما تريدين »

كان « أپولون » قد أحبها ، ورغب في ان تكون لهُ . غير ان « أپولون » ، ذاك الذي كان يقسم الحظوظ على الدنيا بأسرها ، قد أنس العجز في ان يصرّف حظّ نفسه ، وان يسعدَ بأمنية قلبه . ولقد رأى ذات يوم شعرها الفاتن مرسلاً من فوق كتفيها الجميلتين فأهاب بها . « اذا كان هذا مقدار ما في جمال شعرك مُرْسلاً ،

فكيف بهِ اذا تعهدته اليد الصناع ، فأضفى عليه الفن جمالاً فوق جمال ؟ » . ورأى في عينيها بريق النجم المؤتلق ، ورأى شفتيها الفاتنتين ، ولم يقو على ان يقنع بمرآهما . ولقد جنَّ بيديها المسوَّاتين ، وذراعيها اللتين اتخذهما الفن مثالاً ينسج عليهِ ، وكتفيها العاريتين البضَّتين ، ولقد خيل اليهِ ان ما احتجب عن ناظريهِ من جسمها كان أوفى جمالاً ، وأعظم فتنة مما ظهر فيهِ

وتعقبها « أبولون » . وهربت « دفني » ، فكانت أسرع من الريح ، وأعجل من السهم الضال ، ولم تنثن عن التنقل فزعة خائفة لتستمع الى شيء من توسلاته — « قفي يا ابنة « بنيوس » ، فلست عدوّاً ولا منتقماً جباراً . لا تفرِّي مني فرار الشاة من الذئب ، او فرار الحمامة من الباشق . انما اتبعك مسوقاً للحب . ان بعدك يتعسني ، وفرارك يؤلمني ، حذار ان تزل قدمك فيصيبك من هذه الصخور أذًى . أتوسل اليك ان تكوني في فرارك اكثر تريُّثاً وأقل سرعة ، وأنا اعدك ان اكون في طرادي كما تكونين في فرارك . ان أبي «المشتري» ، وأنا سيد دِلفوس وتندوس . اني عليم بكل الاشياء ، شهادة وغيباً . اني الـه الاغنية والايقاع . ان سهامي لن تخطىء الغرض . وأسفاه ! فان سهماً أشد من سهامي فتكاً وأنفذ فعلاً ، اخترق قلبي . انا الـه الطب الذي يعرف خصائص جميع العقاقير الشافية . ولكني أشكو مرضاً تعجز جميع البلاسم عن ان تبرئه »

***

غير ان الحورية كانت تتابع الفرار ، تاركة توسلاته الى الرياح ، تتولاها بالشتات والتبديد . على ان فرارها كان مبعث اعجاب في قلب « أبولون » . فقد كان الهواء يعبث بفضل ثيابها ، وينشر شعرها الجميل مرسلاً من ورائها . غير ان الالـه ذهب صبره وقلت حيلته في اغرائها بالتوسل وشفاعة الحب ، فأسرع الخطى ، مسوقاً بسهام «كوبيدوس» ، ليلحق بها ويقطع عليها شوط الفرار الدائم . فتبعها كما يتبع السلوقي فريسته ، فاتحاً ذراعيهِ ، فاغراً فمه ، مبدياً نواجذه ، والفريسة الضعيفة جادة في الهرب ، مطلقة للريح ساقيها ، تطلب النجاة . وعلى هذه الصورة كان الالـه يتبع

الحورية الربانية — هو يطير وراءها ، على أجنحة الحب ، وهي تفر منهُ على اجنحة الخوف والاشفاق

ولاحت بداية المنتهى ، لمَّا ان ادركها « ابولون » ، ولحق بها فكانت أنفاسه في ظهرها ، ثم مدَّ يده فكانت في قبضتهِ . وتراخت مفاصلها ، وانحلت قواها ، فترنحت وكادت تسقط على الارض إعياء ورعباً ، ولكنها وجدت بقية من قوة اليأس فصاحت بأبيها — « أدركني يا بنيوس ! افتح الارض لتنشق فتبتلعني ، ثم تسوَّى عليَّ ! او فغيِّر هيأتي التي كانت سبباً في ان أقع فريسة هذا العدوان »

ولم تكد تتم صيحتها حتى يبست مفاصلها ، وانقلب صدرها الى جذع شجرة كبيرة يكسوه لحاء خشن كثيف ، وتطوَّر شعرها فأصبح اوراقاً ، وذراعاها فصارتا أغصاناً ، وغاصت رجلاها في الارض فأصبحت جذوراً وشُعَيْرَات ، وتحول وجهها الى قمة شجرة ، فلم يصبح فيهِ من شيء مما كان ، اللهمَّ الاَّ مسحة من الجمال تذكر من يشهدها بجمال من كانت قبل ان تنقلب ذلك الانقلاب السحري ، فتصير شجرة .

ووجم « أبولون » ، ينظر بتعجب فيما يرى . ولمس الجذع بيده . وأراد ان يتحقق الامر ، فلمس الاوراق بفمهِ ، فكانت نباتاً لا أثر للحيوانية فيهِ ، بل تذوق فيها طعم نبات لم يعهده . وتفرس الشجرة ساعة ثم مضى يهمس بكلمات خافتة :

« أما وقد فاتني ان تكوني لي زوجة ، فلن يفوتني ان تكوني شجرتي . سأتخذ منك إكليلاً ألبسهُ فوق رأسي . سأجمل بكِ قيثارتي وجعبة سهامي . فاذا جاء الوقت الذي سوف يقود فيهِ ابطال الرومان جحافلهم قافلين الى الوطن اثر انتصاراتهم التي سوف يشهدونها ، فهنالك يعقد من اغصانك اكاليل تتوج رؤوسهم . وكما اني قد خصصت بهبة الشباب الابدي ، فكذلك ستكون اوراقك دائمة الاخضرار ، فلا تجف ولا تكون هشيماً . انت يا شجرة الغار »



الحب الصوفي

٤ — عاطفة الاستسلام

ايها القلب المريض الذي اقتنع بجمال المرأة
ابحث هنالك — في مكان أبعد
وضع امانيّك ومسراتك في مثل اسمى
وناشد الطبيعة الكاملة ان تمنح نفسك
حبًّا اوسع آفاقاً ، يليق برغابك

لتبدأ حياة حبيبة جديدة في نفسك
مكثرة فيك الفرح والشقاء .
وانظر الى الانسانية كأنها كونك الواسع
واجعل لنفسك آماله وسكره ودموعه !

في هدوء الحواس وصفائها
يعرف العاقل ان يزدري التأثير القبيح الذي يحمله الينا الجمال المروّع
بواسطة الاتحاد الصافي للالوان والخطوط .

حارب بدون أمل ولا سأم من نفسك،
واقفاً كل كيانك على بلوغ المثل الاعلى .
واذا ما غُلبت على أمرك فصن دائماً لون الكبرياء في عينيك
لانك تعمل عملاً مقدساً ، وتحل محل الآلهة .

اربعون مثل سليمان حكموا طوراً بعد طور
— قبل ان يولد آدم — على جماعات لاعدد لها تجهل كل حب .
كانت تلك العصور يغمرها ظل من الابد الكثيف البعيد .

ثم ظهرت ذرية آدم نافضة عنها كثيراً من الوحشية الاولى

ولكن الغريزة الحيوانية لا تزال تجري في عروقها .
طينتها حالت تراباً ، ثم أصبحت سامية ، فخلقت آلهتها .

على أنها تفوقت بقوتها وعظمتها على الاجداد
برغم جبلتها المخلوقة من طين ، وعدمها المائل لها .
فلتكن يوماً اهلاً لتكون خليفةً في الكائنات ،
ولتبدع نفسها على صورة آلهتها الطاهرين

العاقل يبصر ان قايبل مع هابيل ،
والفضيلة مع الرذيلة يخرجان من نبعة واحدة .
والعاقل — على عجبه بهذا السر المبهم —
— وعلى رغم دنس الوجود — يظل قلبه نقياً .

ألا اين الراحة ؟ وكل شمس من هذه الشموس السابحة في الفضاء
يسوقها ترنح أزلي ،
وهذه الاعاصير من حب وقوة وضفاء
تدحرج غارسة الحياة حيث تحط زوابعها.

الهواء والماء ، الصخر الصلد والكائن الفائض بالحياة
النبات والحيوان انما هي ابخرة متجمدة .
ولكن من أين فاضت النفس فينا ؟
ومن أين اقبلت افكارنا الينا ؟
أكانت أبخرة الشمس تفكر من قبل ؟

ان رابطة الشفقة تربطك بكل الاشياء
انها رابطة الحية سريعة العطب لا ينبغي ان تقطعها
فاعذر الخطيئة وتفهم اسبابها
ولتحمل نفسك قبلة العطف الى المحزونين

ان من يضحي بحياته الضيقة الحدود ،

ويعرف الموت في سبيل ملكوت الوجود
هو السلطان الذي أغبطه

ومن يتقبل الألم ليجعل حبه أكثر عنفاً وقوة ،
وينتصر على سر الحياة وهو محب سعيد .

ذهولك في الموت أغبطك عليه دائماً ،
ايها المؤمنون المراعون للحب حتى العذاب
ويا من تعرفون تذوق اللذات المرة
لتكونوا شهداء حبكم .

امزج نفسك المتأثرة بالكون
وتابع الحياة في كل مكان ، في اعماق الهوات السحيقة
او الحياة المضيئة الصافية الهادئة على رؤوس القمم
ثم اسقط هادئاً نشيطاً في « العمل » !

اعز الفقير — ملك الفقراء !
الذي يستميح قوته
ولكن نفسه المحبة مشعلة من نار !
هنالك توابون شبيهون بالأسود
وتوابون يشبه غضبهم غضب الكون وتمرده
وتوابون ترتجف امامهم الملوك

ماذا تستطيع ان تتمنى ايها القلب الاكبر من الوجود
شيئاً غير الحب ، وغير الجنون فيه ، وغير مؤازرتك بدون نهاية للشقاء الذي
يدوي ، شقاء من في نفوسهم ظمأ
وفي اجسادهم جوع

إذا كان الملكوت الحقيقي هو في المعرفة ،
واذا كان العاقل متدرعاً بمثل هذه القوة ،

سيداً على نفسهِ وسيداً على الاشياء ،
فان الكنز الحقيقي الرائع هو في افئدة العاشقين ،

ينبغي لهُ ان يعطي عينيهِ ، ويجود بنفسهِ ،
ويودع شفتيهِ ويسمح بدمه وهواء وناره ،
ويعطي نفسهُ كلها كما تفعل الشمس
قبل ان يغرق في النعاس الأزلي

الصوفي يعلم الرغبة المتأججة في صدور الناس ليكونوا سعداء ،
ويعلم ان في سيئاتهم سيئات الاجداد
ولكنهُ رفيق محب مشفق عليهم
يوزع هبات قلبه وحبه على جميع الكائنات .

وراء ملذاتك لا تزال لك ملذة اخرى :
ان تذهب فقيراً حقيراً مأخوذاً بجنون الحب نحو المتألمين
تلثمهم بكل نفسك وقلبك ،
اولئك المتألمين الاموات المرتعشين في الليل البارد الذي يُرخي سدوله عليهم.

اجعل حلمك أليفاً مع الابدية
وعوّد عينيك النظر في هوة الفضاء .
وفي كل هذا الغمر المجهول الذي تتضاءل عنده جرأة الانسان المحدودة

وهكذا تتدحرج المادة كنهر كبير .
وكل شيء يتبدل . ولا شيء يموت .
في الهاوية العميقة تدور الاسباب ، وتتحول الاعمال
والاشياء تتآلف وتتفكك بلا انتهاء !

ان المتأمل في الحياة الخالدة الذاهل في مادتها كأنهُ متلاشٍ فيها ،
يرى الغد لا شيء عنده ، ولا الامس ولا اليوم .
ويجد ان الحياة والموت كلمة لا معنى لها

(انتهى)

سير الزمان

الرئيس ماساريك

رأيه في الديمقراطية والفاشية

لعلي أدهم

الشؤون الدولية

في سنة ١٩٣٧

جذب ودفع — امتحان القوة — الحربان في اسبانيا والصين — سقوط هيبة القانون — القرصنة ومؤتمر نيون — روسيا ترتد الى القومية — من محور الى مثلث ضد الشيوعية — تزاور الاقطاب. المانيا والمستعمرات — ايطاليا والعصبة

الرئيس ماساريك

رأيه في الديمقراطية والفاشية

لعلي أدهم

في ١٤ سبتمبر من العام الفارط مات توماس ماساريك رئيس جمهورية تشيكوسلوفاكيا السابق فطويت بموته حياة سرية وختمت سيرة عاطرة وغاب عن ميدان السياسة الاوربية سياسي من اعالي الابطال صانعي التاريخ وبناة الدول . ولعل اكبر عزاء لامته عن فقده انهُ مات بعد ان نضجت سنه وأدى واجبه وأبلغ رسالته على اتم ما يكون اداء الواجب وتبليغ الرسالة وارتقى ذروة المجد الخالد وظفر بالتقدير القمين بمثله والجدير بما تم على يديه

وقد استطاع ماساريك خلال تلك السنوات المليئة بالحوادث العاصفة التي تلت الحرب الكبرى وبين الانقلابات الهادمة والتغيرات الطارئة ان يحتفظ بتشيكوسلوفاكيا واحة مزدهرة ظليلة في وسط صحراوات جرد من الديكتاتوريات وحكومات الغشم والطغيان ولقد كان في سعيه الى تأسيس الجمهورية وتولي رآستها مثلاً من امثلة العزم الصارم والشجاعة الخارقة وقد اثبت في السنوات التي تولى فيها الرآسة وأشرف على مقاليد السلطة انهُ سياسي بعيد النظر رحب الافق نبيل المقصد

وقد ولد ماساريك عام ١٨٥٢ في قرية صغيرة وبدأ حياته مملقاً منقطع النصير وحيداً من الخلان وزاول في صدر حياته بعض المهن الشاقة والحرف الكاسدة ثم عالج التدريس بفضل صبره وقوة احتماله وبعد جهد شاق استطاع ان يحرز اجازة في الفلسفة وقد مكنته سعة المامه بمذاهب الفكر وتضلعه من الفلسفة من ان يصل وهو في سن الثانية والثلاثين الى منصب استاذ الفلسفة في جامعة براج وهناك تجلت مواهبه ونبه شأنه وسمت مكانته

وأتاح له ذلك فرصة التوفر على البحث والتحرر للكتابة فاخذ يضع غرر التصانيف وينشر روائع البحوث في الادب والنقد والفلسفة والسياسة ويلقي شائق المحاضرات ويضمنها سديد الآراء وناضج الافكار وامتاز بخصلتين بارزتين ميله الشديد الى العدالة الاجتماعية وشدة تأثيره في نفوس تلامذته ومريديه حتى صاروا يتخذونه قدوة لهم ويتأثرون خطواته في طلب المثل العليا ونشدان الكمال. ومهد لهُ ذلك السبيل الى دخول مجلس النواب، وحدثت محاكمة هلسنر اليهودي لاتهامه بقتل فتاة بوهيمية واقتنع ماساريك بعد بحث تلك القضية وتغلغله الى دقائقها ببراءة هلسنر فانبرى للدفاع عنه وصمد لذلك في وجه التهم والاقاويل التي كانت تنهال عليه جزافاً وقد اثبت موقفه

النبيل في هذه المحاكمة انهُ كان يجمع في نفسه بين العاطفة القوية والبصيرة النافذة ، وعارض السياسة النمساوية التي كانت ترمي إلى اضعاف شخصية أمته وإدماجها في العنصر الالماني وفي سنة ١٨٩٠ حمل لواء الحركة الوطنية التشيكوسلافية ولمس روح قومه واخذ يعمل على اثبات كيانها وتحقيق وجودها ، وثارت الحرب الكبرى فنبت بهِ بلاده وجاب الاقطار حتى انتهى بهِ المطاف الى لندن حيث اختارتهُ كلية الملك ليكون ضمن اساتذتها وهناك تهيأت له الفرصة لتدبير أمر استقلال بلاده وتنظيم حركته وكان يؤيده في ذلك ويشد ازره صديقه بينش، وترادفت عليهِ المتاعب واعترضت طريقه الصعاب فلم يتداركه وهن وتغلب بثاقب عزمه على العقبات المعترضة وقد كان انتصاره انتصار رجل يحلق الاحلام بعيد الآمال ولكنهُ أوتي قوة العزيمة على تحقيق احلامه وتصديق آماله

وكان من الطبيعي ان لا تنسى لهُ امته بعد ذلك سابق خدماته وسالف تضحياتهِ وكده في نيل حريتها وتأثيل مكانتها فاصطفتهُ لرئاسة الجمهورية ولم يكن ذلك من هين الامور فقد كان عليهِ أن يعبّد لقومه الطريق الوعر ويقيم لهم الحدود ويرسم لهم الخطط ويبتكر مستحدث التقاليد وكانت هناك اقليات عليهِ أن يحسن السياسة معها ويلتزم القصد ليزيل نفورها ووحشتها ويؤلف بين قلوبها ،وكان عليهِ أن يبث حماستهُ في الاعمال الادارية وان يفيض من ضوء عبقريتهِ على التفاصيل اليومية الدارجة وبرغم ما يؤخذ عليهِ بعض نقاد سياستهِ من الاخطاء ووجوه التقصير فان الذي يلقي نظرة شاملة على سياسته لا يخالجهُ شك في أن ماساريك قد اجاد وضع الاساس وأحسن تشييد البناء حتى اصبحت تشيكوسلوفاكيا بفضل سياستهِ ومبادئهِ السامية قوة ادبية يلوذ بها طلاب الحرية

وقد نهض بالتعليم نهضة صادقة ورفع مستواه حتى صارت معايير التشيكوسلافيين الفكرية محلاً للتقدير وسيما بالتشريع حتى اصبحت قوانين بلاده تضارع قوانين أرقى الامم وأعرقها حضارة وتمديناً وقد لقن قومه حب الحرية السياسية وعلمهم اذا اقتضى الامر ان يجودوا بارواحهم في الذود عن حياضها

والعمل الذي قام بهِ ماساريك باهر راجح من اية ناحية تواجهه وبأي ميزان تحاول وزنه، وإذا عزونا نجاحه وتوفيقه الى قوة الظروف والملابسات والى ان امبراطورية النمسا العتيقة المتهدمة قد طوعت لهُ الفرصة السانحة وافسحت لهُ مجال العمل ثم جاءت الحرب الكبرى فمكنتهُ من أن يتحين الظروف المؤاتية والى انهُ قد وجد في صديقه بينش خير عضد له ، فانهُ لا نزاع بعد ذلك في أن الرجل قد راض قومه على اساليب الحكم الصالح وضرب لهم خير الامثلة وعوّدهم الديمقراطية الصحيحة الحقة ، فالانتخابات في تشيكوسلوفاكيا حرة والتعليم هناك

يفسح المجال للاستباق في مضمار النبوغ وحرية الاجتماع مكفولة وحرية ابداء الرأي والنقد مصونة وليس بين من تخرجوا في مدرسة ماساريك من يفكر في الانقلاب على الديمقراطية والتنكر لمبادئها ، ومن اقوى الادلة على اقتداره انهُ استطاع توطيد مبادىء الديمقراطية وتعزيز مكانتها في الظروف الاليمة التي يعانيها هذا العصر المضطرب وفي تلك الليالي الحبالى بكل عجيبة

وقد ظلَّ هذا الاستاذ الاديب والسياسي الفيلسوف يأتيهِ التشريف ويوافيهِ الاعجاب من مختلف اطراف الارض وهو مع ذلك مؤثر للبساطة في عاداتهِ واخلاقهِ لا يزهى ولا يتكبر ولا تأخذه نشوة الشهرة ولا تضلهُ سطوة الحكم وظل كدأبه ولوعاً بالدرس عاكفاً على مطالعة الروايات والتملي من فنون الادب وفي سويعات فراغهِ واستجمامهِ يرتاض في الخلوات مشياً على القدم او ممتطياً صهوة جواده ولا ينفض عنهُ الناس ولا يقصيهِ عنهم الحجاب ولم ينس انهُ نشأ من سواد الشعب وان قوته قائمة على تصديقهم بمثله الاعلى ومشاركتهم لهُ في الايمان بهِ فهو في العصر الحديث خير نموذج للحاكم الفيلسوف الذي تصوره افلاطون

ويرى الاستاذ لاسكي ان السر في نجاح ماساريك يرجع الى شخصيتهِ الجذابة المحببة واخلاقهِ المتينة الرضية وجمعه بين العقل المفكر الرزين والعاطفة الحارة الفوارة وتزاوج الرأي بالشجاعة ، ولم يكن ماساريك فظًّا غليظ القلب فينفض من حوله الانصار بل كان اخلاصه التام وتفانيهِ في خدمة مبادئهِ وافكاره يدني منهُ قلوب عارفيهِ ويمكنهُ من قيادهم مختارين مغتبطين لانهم يستظلون بدوحتهِ ويستمتعون بأفانيض آرائهِ ومنثور حكمتهِ ، ولقد كسب الحرية لمواطنيهِ ومزجها بنفوسهم واجراها في طبائعهم ولم يلمس شيئاً الاَّ اضاءه بذكائهِ المشرق ونقاه من الاوشاب بصفاء نفسه ونزاهة اغراضه

ماساريك والفاشية

وأنقل هنا رأيه في الحكومة الفاشية ودفاعهِ عن الديمقراطية لأعرض على القارىء مثالاً من تفكيره وسديد نظراتهِ معتمداً في ذلك على احاديثه مع الكاتب المعاصر اميل لودفج أحد نوابغ كتاب التراجم في العصر الحديث وهي أحاديث امينة الرواية صحيحة الاسناد — قال عن الفاشية « ليست الفاشية كتاباً للسياسات العملية والادارة الحكومية وانما هي مذهب من مذاهب الحياة وأسلوب من أساليب تقويمها فهي فلسفة اقرب ما تكون الى الفلسفة الاخلاقية . لقد عنيت بنظرة الفاشية الى الحياة فأوسعتها بحثاً من الوجهة النظرية واقتفيت آثار سياستها ولقد شرح موسوليني المذهب الفاشي في دائرة المعارف الايطالية شرحاً شائقاً وأنا اقره على بعض ما ورد فيهِ واخالفهُ في بعضهِ وانما اريد الموازنة بين المبادىء

الديمقراطية والمبادىء الفاشستية ، لقد اعلن موسوليني عداءه للمادية والوضعية واكد روحية نظرتهِ الى الدنيا والحياة دون ان يصف في شيء من التفصيل افكار فلسفته الاساسية ، وقد دارت اكثر احاديثه وكتاباته حول مسألة الدولة والوطن . والفاشية مثل كل نظام سياسي يعنيها ويشغلها تحديد العلاقة بين الفرد والنظام الاجتماعي ، وموسوليني عدو للفردية وهو لا يعرف الفرد الاَّ باعتباره جزءاً متمماً للدولة والدولة في نظره تطور تاريخي وهي الضمير العام والارادة الشاملة ، وأنا من الوجهة النفسية ومن الناحية التاريخية ومن الجانب الاخلاقي كذلك لا استطيع التسليم بان الضمير الفردي مستغرق في ضمير عام ملفوف في تضاعيفه ولا اصدق بوجود ما يسمونهُ الضمير العام او الارادة العامة فليس هناك سوى ضمائر فردية ومن الوجهة السياسية فاننا لا نرى امامنا سوى مجاميع من الافراد وهؤلاء الافراد يمكن ان تكوّن منهم وحدة ويجمعهم نظام مختلف الاشكال والفاشية اسلوب من اساليبهِ

ولاعتقادي بالفردية لا استطيع ان اقبل فكرة ان الحكومة او الوطن او الشعب يتجسم في افراد قلائل او يجتمع في فرد واحد ، واعرف ان بين علماء الاجتماع واصحاب النظريات السياسية من يؤمنون بوجود ضمير عام وينكرون الضمير الفردي ولكن هذا التصور لا يقوم على اساس علمي وهو مشتق من تبعة الفكرة الارستقراطية في السياسة

والدولة عند الفاشية هي جماع كل شيء فهي اعرق من الوطن والشعب وهي تكون الوطن والوطن لا يكونها فهي صميم الوجود وروح الروح ومعنى هذا ان ضمير الدولة وهو الوحي الذي يستلهمه جميع الافراد من خاملين وبارزين ويعمل بمقتضاه الفنانون والمفكرون والسياسيون ، فليس عمل الحكومة الفاشية مقصوراً على سن القوانين ووضع الشرائع وادارة دفة السياسة وانما يشمل تنظيم الحياة الروحية ورسم القواعد الاخلاقية والدولة هي السلطة الوحيدة المتفردة المتمادية ولاحدود لنموها لانها غير محدودة وانهُ لما يروق ويعجبان يسترسل الانسان في بسط تعاريف الفاشية وبيان اغراضها ومنازعها واكتفي ان ألاحظ انها من ثمرات الخيال اكثر مما هي من نتاج العقل

والدولة الفاشية لا تروم تشكيل صور لوجود الانسان على انماط جديدة فحسب وانما ترمي الى تنقيح محتويات ذلك الوجود بما فيهِ من رجال واخلاق ومعتقدات ولهذه الغاية تحاول ان يكون لها سلطة تامة تهيمن بها على العقول وتسيطر على الاخلاق بلا معارضة ولا تعقيب ، وفي رأي الفاشية ان عصر الديمقراطية قد انتهى بالحرب الكبرى

ويبدو لي ان الدين والكنيسة قدكان لهما شأن كبير في تكوين عقلية موسوليني وصياغة افكاره وأثرا فيهِ اكثر مما اثرت النظريات السياسية والآراء التي يتلقاها الانسان في ابان نشأته من

المدرسين الذي يحبهم ومن والديه لها تأثير كبير ، فالروح الدينية الصارمة والقول بتنزيه الكنيسة عن الخطإ وتسويغ سلوكها في مختلف الشؤون لقداستها وارتفاعها عن النقد تصبح تنزيهاً للحكومة والامة وتحيطهما بقداسة تحرم النقد وتفرض الطاعة والولاء فرضاً ، وقد اقتبست الفاشية من الكاثوليكية مظاهرها ورموزها ونظامها ، وتتظاهر الفاشية بمناصرة الدين المسيحي ولكنها ترمي من وراء ذلك الى غاية سياسية لان المبدأين المسيحيين الهامين وهما مبدأ حب الناس بعضهم لبعض ومبدأ الاخاء العام للنوع الانساني مما يحير الفاشية ويربكها وهما في نظرها اوهام وخيالات سمادير والفاشية تنبذ المثل الاعلى للسلام لان الحياة عندها معركة ابدية ومن ثمّ تدريبها الشبان وتلقينهم الروح الحربية

ومحاولة الفاشية احياء الروح الرومانية جدير بالتساؤل اذ يشك في قيامه على اساس تاريخي متين لان كبار فلاسفة الرومان واليونان كانوا يبشرون بالمثل الاعلى للانسانية وأنضج العقول في روما وأنبل الشخصيات كانت تقاوم النزعة الحربية والروح الاستعمارية

ولم تستطع الفاشية السائدة ولا النزعة الالمانية المتطرفة ان يزعزعا ايماني بالديمقراطية ، ولتحليل الفاشية يلزم بطبيعة الحال أن ننظر الى منشأها وتطورها وان نكشف عن عواملها المختلفة وقد ذكرت تأثير الكنيسة وفكرة احياء الامبراطورية الرومانية ورغم معارضة موسوليني للمركسية او بسبب ذلك فانّ في تعاليمه قدراً كبيراً من المركسية من امثال ذلك محاولة نقل الجماعات الى الدولة وفكرة إقامة الديكتاتورية

الديمقراطية والدكتاتورية

ولقد سألتني[1] عن الفاشية لتوازن بينها وبين الديمقراطية من ناحية مسألة السلطة والحرية وأنا اقول بان الديمقراطية تعترف بالسلطة ولكنها تحرص على ان تجمع بينها وبين الحرية

ولقد كانت الحكومة الدينية سابقة للديمقراطية وكان هذا النظام العتيق نظام السلطة التيوقراطية يعترف باستمداد السلطة من الله أو من الآلهة ويقول بان القساوسة والحكام ورجال الدين على اختلاف طبقاتهم يستمدون سلطتهم من ذلك المصدر المقدس وكانت الانظمة التي قامت على هذه العقيدة انظمة دينية ارستقراطية مطلقة ، ولكن الحكومة الديمقراطية ليست من نوع الحكومات المطلقة فهي تسمح بالنقد وترحب به ومن مزاياها الاعتدال وهي ترتكز على

(١) الحديث موجه هنا الى اميل لودفيج

الاخلاق لا على الدين وتقوم من الوجهة الفكرية على العلم والفلسفة لا على اللاهوت والفقه الديني

ولقد كانت الحكومات في سالف الزمن تستعين بنظرية السلطة المطلقة لتخرس النقد وتكمّ الافواه ولكن الحكومة التي يباشر اعمالها في العصر الحديث اعضاء يستمدون سلطتهم من الامة لا يمكن ان تدعي العصمة لاعمالها ، والحكم القائم على الارادة المطلقة ونظرية الحق المقدس ادى الى قيام الثورات وبسبب آثاره السيئة لا تزال روح الثورة تختلج في النفوس ، وكل من يستطيع ان يفكر تفكيراً سياسيًّا منظماً يعترف بنظرية السلطة ويصبر على ضرورة الولاء للدولة ولكنهُ يقف في نفس الوقت الى جانب حقوق الحرية والحرية معناها حق التجديد والابتكار في كل فرع من فروع الحياة وكل ناحية من نواحيها وبخاصة في العالم السياسي . وهي تستلزم قبل كل شيء عرض الافكار والنظم والسلوك السياسي على محك النقد ومن ثم فان أول ما تعمل الديمقراطية على ايجاده هي فضيلة التسامح والاعتدال وبذلك تستطيع ان تتغلب على روح الثورة المتمكنة من نفوس القوم في العصر الحديث وتمحو الاسباب التي تدعو الى الصراع والكفاح بين الديمقراطية والنظم الارستقراطية التي اخلقت جدتها وذبلت نضارتها ، بل اني اقول الصبر بدلاً من الاعتدال واقصد به الصبر السياسي والصبر لازمة من اللوازم لنجاح الديمقراطية وتوفيقها »

ويعلل ماساريك الاخفاق الذي منيت به الديمقراطية الحديثة بقوله « ان الديمقراطية الحديثة لا تزال في دور الحداثة والنظام القديم قد استغرق آلاف السنين ليستتم نموه ويكتمل نضجه وقد تأصلت جذوره واستطالت فروعه في حين ان الديمقراطية نشأت مع الثورة الفرنسية فهي في دور النشوء والنمو والمستقبل لها . واذا نظرنا الى خريطة اوربا وجدنا ان اكثر دولها جمهوريات او ممكيات دستورية فلا يزال اغلبها مستمسكاً بالديمقراطيــة ، وليس مما يزري بالديمقراطية ان اصرح بانها لا تزال بعيدة عن الكمال ولا تزال يعتورها النقص وهل كانت حكومات المانيا والنمسا والروسيا الملكية كاملة من الوجهة الديمقراطية ؟ وما الذي احدث الحرب الكبرى ؟ ومن الذي فقد الحرب ؟ هل هي الديمقراطية ؟ وما الذي ادى الى الازمة الاقتصادية ؟ هل هي الديمقراطية ؟

اما عن الديكتاتوريات فانتظر وستعلم خاتمتها ، وأوربا رغم ذلك كلهِ آخذة في نبذ النظام القديم فليس هناك امة تحاول قبول النظام القديم مهما كان رأيها في الديمقراطية ، واني احرص على ضرورة التفريق بين الديمقراطية والفوضى وان اميز الديمقراطية السلبية من الديمقراطية الايجابية ؛ وقد كانت بعض الامم تستجيب لاسمى مبادىء الديمقراطية في مقاومتها للنظام العتيق ولكنها عند ما اسقطت ذلك النظام وحاولت تطبيق الديمقراطية اي القوة السياسية والحكم بارادة الشعب لا بارادة الله شاب تفكيرها وعلقت بأساليبها طرائق التفكير القديم وجراثيم العهد

البائد وليست الديمقراطية مجرد نظام سياسي واسلوب من اساليب الحكم وانما هي فلسفة حياة يحترم بمقتضاها كل مواطن زميله وصنوه ومعنى الديمقراطية هو تساوي الحقوق

ومن شأن النظرات السياسية المتطرفة ان لا تصيب الهدف عند أول محاولة وقد كان هذا هو حال الثورة الفرنسية وردود الفعل المختلفة والانتكاسات التي تعقب الثورات ليست بالشيء الحديث . وهي لا تقدح في البرنامج ولا تعيب النظام وانما هي تنال من سياسة ابطاله والموكول اليهم امر تطبيقه ، ولقد كانت اوربا معملاً للتجارب السياسية وستظل كذلك ردحاً من الزمن وهذا واضح الوضوح كله لكل من له ادنى المام بالسياسة ، ونحن نعيش في عصر انتقال كبير والنظام القديم يتحول من جميع نواحيه الى نظام جديد ، وعند ما ينادي موسوليني وجيلز بان انظمتهما هي اصفى انواع الديمقراطية ارى في ذلك اعترافاً بفضل الديمقراطية التي اتحدث عنها

واجل ما في الديمقراطية ان اعمالها لا تحاط بالاسرار ولا تنجز في الظلام وانما تبحث في وضح النهار وعلى مسمع من العدو والصديق ، وفي النظام الديمقراطي لكل مواطن الحق في اعطاء صوته ويلزمهُ ذلك ان يكون على بينة ودراية بسير الاحوال ومن ثمّ ضرورة الصحافة الحرة الراقية النزيهة والمجالس النيابية والديمقراطية بطبيعة الحال كسائر انواع الحكم في حاجة الى ادارة قديرة وحكومة مستنيرة ورجال تقدم وعرفان لهم قدرة على التوجيه وحسن استعداد للبناء ولهم تجربة صحيحة وخبرة مستفيضة بتصريف الامور ومعالجة الشؤون المختلفة ونظرة سياسية متسعة المدى. واني اقول لمن يشكون الحرية السياسية وينكرون على الصحافة حريتها ان العلاج الوحيد لذلك هو الاكثار من الحرية وليس معنى الحرية تمهيد السبيل للفوضى والجهل والعجز

علي أدهم

طريق الحق

لما شاهد المسافر الطريق الى الحق
اخذهُ العجب لانهُ رأى الاعشاب تغطيه
فقال : أرى ان احداً لم يسر عليه منذ زمن
طويل . ثم تبين ان كل عشبة سكين حادّة :
فقال لا بدَّ ان يكون هنالك طرق أخرى

عن : ستيفن كراين

الشؤون الدولية

في سنة ١٩٣٧

اذا خلا الباحث الى نفسه ، وارتدَّ بذهنه الى حوادث العام الماضي في حلبة السياسة الدولية ، تبين اتجاهين عامين ، ينتظمان معظم هذه الحوادث . اما الاتجاه الاول فجذب ودفع بين فريقين من الدول احدهما فريق يريد تبديل الحالة القائمة، وحكومات دوله قائمة على مبدأ الزعامة فهو في شئون السياسة الخارجية ، مقدم يعمد الى امتحان قوة الدول الاخرى بالتهديد آناً وبالمطالبة بتنقيح بعض الاتفاقات والمعاهدات آناً آخر . ومن هذا القبيل تعزيز محور روما برلين وتحويله الى مثلث بانضمام ايطاليا الى الاتفاق الالماني الياباني ضد الشيوعية ، وامداد قوات الجنرال فرانكو في اسبانيا ، وتأييد موقف اليابان في الشرق الاقصى داخل مؤتمر بروكسل وخارجه، وخروج ايطاليا من العصبة واعترافها بمنشوكو

اما الاتجاه الآخر فهو سقوط هيبة القانون الدولي والعرف المتبع في العلاقات الدولية ، وقد اشار الرئيس روزفلت الى ذلك في خطبته المشهورة التي ألقاها في شيكاغو في ٥ اكتوبر الماضي اذ وصفهُ بوباء يجب كفاحه بفرض — الحجر الصحي — عليه . وهو متمثل في غزو اليابان للصين خارجة في ذلك على معاهدة الدول التسع وميثاق تحريم الحرب المشهور بميثاق كيلوج بريان ، وفرضها الحصر البحري على سواحل الصين مع ان حرباً لم تعلن . ومن هذا القبيل حادثة اصابة السفير البريطاني في الصين ، واغراق المدفعية الاميركية باناي في نهر الينجتسي ، وتفشي القرصنة في البحر المتوسط ، الى ان وضعت قرارات مؤتمر نيون حدّاً لها

الحرب الاهلية الاسبانية

يلخص ما تمَّ في اسبانيا من ناحيتها الداخلية ، في فوز قوات الجنرال فرانكو في شمال اسبانيا وسقوط بلباو وسنتندر وجيجون في الشمال ، ومالقة في الجنوب في يديها ، فصار الحكم الفعلي في نحو ثلاثة أخماس اسبانيا للجنرال فرانكو وصحبه . وكان الظن انهُ بعد هذا الفوز في الشمال تطلق قواته الشمالية او معظمها فتنضم الى سائر قواته في هجوم حربي عام في منطقة مدريد ومنطقة اراجون وترويل، ولكن فصل الشتاء اقبل ببرده وزمهريره وهذا الهجوم لم يقع

ولذلك قدر الكتاب الحربيون ان ساعة الحسم في الحرب الاهلية الاسبانية لا بدَّ ان تتأخر الى الربيع القادم عند ما يصبح الجو الاسباني في النجدين القشتالي والاراجوني صالحاً مواتياً للاعمال الحربية الواسعة النطاق

اما في ناحية الحكومة ، فقد سقطت حكومة كاباليرو وألفت وزارة نجرين يؤيده فيها السنيور انداليسيو بريتو فاتجهت الوزارة الجديدة الى هدفين ، الاول تعزيز مكانتها الداخلية بضم العناصر المعتدلة اليها ، وفرض النظام والقانون على العناصر المتطرفة الى اليسار واشراك قطلونية في أعمال الدفاع ، ولهذا الغرض انتقلت الوزارة الاسبانية من بلنسية الى برشلونة . هذا هو الهدف الاول ، والكتّاب الذين زاروا اسبانيا في العهد الاخير ، مجمعون على ان وزارة السنيور نجرين قد حققت كل ما تبغيه في هذا الصدد او معظمهُ على الاقل

اما الهدف الآخر فهو تنظيم جيش قومي مدرب يعتمد على نفسه ، وكذلك تنظيم مصانع الاسلحة حتى تستطيع ان تمد ذلك الجيش بأكثر ما يحتاج اليهِ. والهجوم العنيف الذي قامت بهِ قوات الحكومة على ترويل في الايام العشرة الاخيرة من السنة الماضية دليل على مبلغ ما أدركتهُ الحكومة الاسبانية في هذا المضمار

ولكن هذا لا ينفي أن جيش الحكومة في حاجة الى استيراد المدافع الضخمة والدبابات والمدافع المقاومة للدبابات والطيارات ، علاوة على حاجتها الى مواد الطعام لان ما تنتجه البلاد التي لا تزال في قبضتها من الطعام لا يكفيها مقداراً ونوعاً . ولا سيما اذا تمكنت قوات الجنرال فرانكو من فرض الحصر البحري على سواحل اسبانيا الحكومية . وهذا في نطاق قدرتها من الناحية البحرية لان معظم الاسطول الاسباني موالٍ لها ، ولها في جزيرة ميورقة من جزائر البليار قاعدة لا تفوقها قاعدة للقيام بهذا العمل . ولكن يلوح أن انكلترا لن ترضى بالتخلي عن حقوقها في هذا الصدد زاعمة ان القانون الدولي لا يجيز للجنرال فرانكو فرض هذا الحصر وهو لم يمنح بعد حقوق المحاربين وليس في وسعه أن يجعله حصراً فعالاً . وقد أرسلت وزارة البحرية البريطانية التعليمات الى اسطولها في البحر المتوسط بأن لا تذعن سفنه لما يصدر من سفن الجنرال فرانكو الحربية الى السفن البريطانية التجارية

***

خطة عدم التدخل وملابساتها

كانت سياسة عدم التدخل التي اقترحتها فرنسا وايدتها انكلترا وتلكأت ايطاليا والمانيا في قبولها ، بدعة في السياسة الدولية لانهُ من المفروض عقلاً وقانوناً دوليًّا الامتناع عن

التدخل في شؤون دولة اجنبية إذا وقع فيها خلاف داخلي . بل من المفروض ان تؤيِّد الحكومة الشرعية القائمة حتى تتمكن من خضد شوكة المتقضين على سلطتها . ولكن اسبانيا واقعة عند مدخل البحر المتوسط وتملك جزائر البليار ، فموقعها الجغرافي والحربي ، ومافي شبه الجزيرة من مصادر للمواد الخام — كل ذلك ذو شأن عظيم في نظر الدول الاوروبية المتناضلة ، ولذلك اصبحت ميداناً لنزاع ايديولوجي بين الفاشستيين والشيوعيين. حالة ان انكلترا وفرنسا ترغبان في ابقاء الحال فيها على ما هي فاقترحت خطة عدم التدخل ، لكي تكون واقياً لاوربا من خطر التدخل الرسمي ، وحتى لا يتعدى النزاع الدولي في اسبانيا حدودها فيصبح نزاعاً اوربيًّا

فاذا أُخذنا خطة عدم التدخل على انها رمت فعلاً الى منع التدخل في شؤون الحرب الاهلية الاسبانية ، فالحكم انها اخفقت كل الاخفاق، وحسبنا ان نشير الى ما تعترف بهِ المصادر الرسمية من وجود عشرات الالوف من المتطوعين الاجانب الذين اشتركوا مع الفريقين المتنازعين علاوة على الاسلحة والذخائر الاجنبية . اما اذا نظرنا اليها على انها ستار يخفي وراءه التدخل ، فلا يوسم بالسمة الرسمية ، لمنع خطره الدولي ، فالخطة قد حققت ما قصد اليهِ بها

ونحن اذا نظرنا الى أعمال اللجنة الدولية لعدم التدخل بلندن ، خلال السنة الماضية ، وما دار فيها من النضال والاخذ والرد ، والتراشق بالتهم ، ثبت لنا انها كانت بمنزلة صمام للتنفيس عن الضغائن الدولية ، ولاسيا ما كان منها ايديولوجيًّا

وقد عنيت اللجنة خلال السنة الماضية بمشروعين كبيرين، أحدهما الرقابة البحرية على سواحل اسبانيا ، لمنع وصول المدد الى الفريقين المتقاتلين من الدول التي تظاهرهما . وفعلاً اشتركت اساطيل انكلترا وفرنسا وايطاليا والمانيا في هذه المراقبة ، وظلت قائمة فعلاً الى ان حدثت حادثتا الطرادين الالمانيين — الدويتشلند (مايو) — والليبستش (يونيو) — فقد أُلقيت على الطراد الاول قنابل من الجو ، اصابت دكتهُ وقتلت بعض بحارته ، فثأرت المانيا لنفسها بضرب المرية وتهديم بعض مبانيها . وخرجت من اللجنة ثم عادت اليها بعد مفاوضات دقيقة ، وما كاد الامل يتجدد بامكان التعاون ، حتى حدثت حادثة الليبستش ، وملخصها ان غواصة اطلقت عليها قنبلة تحت الماء اصابتها ولم تحدث فيها عطلاً ، فطلبت المانيا اجراء مظاهرة بحرية مشتركة امام بلنسية بحسب الاتفاق الذي عادت الى اللجنة على اساسه ، فأبت انكلترا وفرنسا وروسيا ذلك قبل تحقيق الحادث وتعيين التبعة . فخرجت المانيا من نظام المراقبة . وجارتها ايطاليا . وظلت اللجنة تجتمع ، والنقاش يدور فيها حامياً ، الى ان بدأت حوادث الاعتداء على السفن التجارية في البحر المتوسط ثم استفحلت وهاج الرأي العام الدولي من جرائها ، مستعيداً ذكرى القرصنة في العصور الوسطى

عند ذلك رأت فرنسا وانكلترا وجوب القيام بعمل حاسم لحماية الطرق التجارية البحرية من اعتداء القرصان ، فدعتا الى عقد مؤتمر نيون ، في الاسبوع الاول من سبتمبر ، فابت ايطاليا الاشتراك فيه ، بعد مذكرة من روسيا اتهمتها فيه بأن الغواصات الايطالية هي المعتدية ، ولكن المؤتمر اجتمع ووضع قراراته بسرعة وحزم وهي قرارات فنية لا دخل للعنصر السياسي فيها وترك المجال فيها مفتوحاً لانضمام ايطاليا ، فأبت أولاً ، ولكن بعد مفاوضة طويلة ، قبلت ان ترسل خبراءها الى مؤتمر ثلاثي بباريس يشمل خبراء انكلترا وفرنسا وايطاليا البحريين ، فتمّ الاتفاق هناك على نصيب ايطاليا في مشروع الرقابة وحماية المواصلات في البحر المتوسط

وكانت انكلترا قد اعلنت بعيد مؤتمر نيون انها ستكف عن اعمال المراقبة على سواحل اسبانيا لكي تعبئ سفنها لحماية المواصلات البحرية بحسب مؤتمر نيون، فكان في ذلك ختام المشروع الاول الذي حاولت به لجنة عدم التدخل الدولية تنفيذ خطة عدم التدخل في اسبانيا

***

اما المشروع الثاني الذي حاولته لجنة عدم التدخل ، فهو سحب المتطوعين الاجانب من اسبانيا ، وكان الرأي اولاً ان نجاح المؤتمر الثلاثي في باريس من شأنه ان يقوي الامل بنجاح مؤتمر ثلاثي آخر يحضره مندوبو انكلترا وفرنسا وايطاليا لبحث مسألة المتطوعين ، ولكن ايطاليا أبت ان تشترك في مؤتمر لا تدعى اليه المانيا ولا تشترك فيه ، وذهبت الى ان لجنة عدم التدخل هي الهيئة التي يقع على عاتقها معالجة هذا المشروع . فافضى هذا الرد الى هياج الرأي العام الفرنسي ، وجعلت الصحف تطالب بفتح الحدود الفرنسية الاسبانية ، ولكن السياسة البريطانية خففت من اندفاع الرأي العام الفرنسي وانسياق الوزارة الفرنسية في تياره ، فعادت المسألة برمتها الى لجنة عدم التدخل وبعد بحث طويل ، ومقترحات تقابلها مقترحات ، اتفقت لجنة عدم التدخل على الرضى ، بمبدأ السحب ، وانهُ عند ما يبلغ سحب المتطوعين مرتبة كافية — تقررها اللجنة — يعترف للجنرال فرنكو بحقوق المحاربين . وقد ابلغت نصوص هذه القرارات الى حكومتي الفريقين الاسبانيين ، فقبلتا المبدأ واعترضتا على بعض اساليب التطبيق ، وحتى آخر السنة لم يشرع في تنفيذ القرار

اليابان والصين

ان بواعث النزاع العنيف بين اليابان والصين — ولا ندعوه حرباً لان حرباً لم تعلن بحسب قواعد القانون الدولي — ليست بوليدة العهد الاخير ، وانما هي ترتد الى اواخر القرن الماضي ، عند ما اصبحت اليابان دولة صناعية ، لا يقوم لشعبها اود الاَّ بالصناعة والتجارة

الخارجية ، فهي لذلك تحتاج الى المواد الخام من ناحية والى الاسواق تبيع فيها منتجاتها من ناحية اخرى

وقد اقتطعت اليابان من الصين الكبرى كوريا اولاً ، ثم رسخت مصالحها المالية في منشوريا فلما نشبت الحرب الكبرى وانصرفت دول الغرب عن العناية بالصين ، عنيت بها اليابان ، وقد حاولت ان تفرض عليها سيطرتها في مطالبها المشهورة فأبت عليها الدول ذلك فاستردتها . ولما عقد مؤتمر وشنطن البحري سنة ١٩٢٢ اتفقت انكلترا واميركا واليابان على تحديد قوة البوارج في الاساطيل الثلاثة وفقاً للنسبة ٥ : ٥ : ٣ وصحب وضع المعاهدة البحرية المذكورة وضع معاهدة الدول التسع ، وفيها قطعت الدول عهداً باحترام وحدة الصين الجغرافية والسياسية ، والتزام سياسة الباب المفتوح في علاقاتها المالية والاقتصادية بها ، وظلت هاتان المعاهدتان قاعدة النظام السائد في الشرق الاقصى ، الى سنة ١٩٣١ عند ما شرعت اليابان في اقتطاع قطعة اخرى من الصين فاحتلت منشوريا وجيهول سنتي ١٩٣٢ و١٩٣٣ وأنشأت منهما دولة منشوكو وأقامت امبراطوراً عليها هو آخر أباطرة الصين . فأفضت هذه الحوادث الى تحقيق لجنة ليتون المندوبة من قبل عصبة الامم ، فلم يرق هذا التقرير حكومة اليابان ، فتذرعت بما انطوى عليه من الحكم ضدها الى الخروج من عصبة الامم

الاّ ان منشوكو لم تحقق لليابانيين من الناحية الاقتصادية ، كل الآمال المعقودة عليها ، فبذلت المساعي ، الى تنشيط حركة الاستقلال الذاتي ، في الولايات الصينية الشمالية ، مما يلي منشوكو ، وهي غنية بالمناجم فيها الفحم والحديد والبترول ، علاوة على كونها سوقاً واسعة يقطنها نحو ثمانين مليوناً من الصينيين . فخبطت هذه المساعي على الغالب ، وصحب ذلك تعزيز الحكومة الصينية المركزية بزعامة المارشال شانغ كاي شك فاغتنمت اليابان فرصة انشغال الدول الاوربية التي لها مصالح كبيرة في الشرق الاقصى بشئون أوروبا في السنة الماضية ، فتقدمت الى تحقيق فكرتها العريقة وهي انشاء شركة اقتصادية كبيرة في الشرق الاقصى ، تكون هي فيها الشريك الاكبر ، وكانت قد عززت مكانتها أزاء روسيا بعقدها الاتفاق الالماني الياباني لمقاومة الشيوعية في شهر نوفمبر من سنة ١٩٣٦

لذلك لما حدثت حادثة جسر ماركو بولو على مقربة من بكين في ٧ يوليو من السنة الماضية ، تعذرت تسويتها ، لان اليابان أبت ان تسويها مع حكومة الصين المركزية ، واصرت على تسويتها مع السلطات المحلية ، وأبت حكومة نكين ذلك لانهُ يعد تنازلاً عن سيادتها على شمال الصين ، فبدأ القتال والقراء قد تتبعوه في الصحف اليومية ، فاحتلت الجيوش اليابانية الولايات الخمس الشمالية وهي شاهار وهوبي وشانسي وسويان وشانتنغ أو معظمها ، وسارت جيوشها من شنغاي

حيث لقيت مقاومة عنيفة ، الى تنكين وها نغتشو ، ويقال ان في النية الآن الزحف جنوباً الى كانتون ولكن حكومة شانغ كاي شك انتقلت الى داخلية البلاد ويقال ان عزمها على المقاومة لا يزال قويًّا

وكان من الطبيعي ان يفضي تغلغل اليابانيين في الصين ، الى الاصطدام بالمصالح الاجنبية فيها ، فنشأ عن ذلك حوادث متفرقة أثارت الرأي العام الاوربي والاميركي ومن اشهرها حادثة الاعتداء على السفير البريطاني السر ناتشبول هيوجسن واصابته بجراح خطيرة ، واغراق المدفعية الاميركية باناي في نهر الينجستي امام ننكين

وقد توسلت الصين بعضويتها في عصبة الامم ، وبالدول الموقعة لمعاهدة الدول التسع ، فدعت الى تنفيذ ميثاق العصبة في مساعدتها . ولكن العصبة رأت وهي لم تزل تعاني آثار الاخفاق في فرض العقوبات على ايطاليا ، ان تكرار التجربة في فرضها على اليابان يعرضها حتماً الى اخفاق آخر . فأصدرت قراراً بلوم اليابان وتذرعت بموقف الولايات المتحدة الاميركية واهتمامها بشؤون الشرق الاقصى الى عقد مؤتمر بروكسل ، حتى تبعد المسألة عن محيط جنيف وكان حبوطه متوقعاً من قبل اجتماعه ، ولكنهُ دعي الى الاجتماع ، فمثلت فيه ايطاليا وأبت اليابان حضوره ، وحجتها ان معظم اعضائه دول اشترك ممثلوها بجنيف في لومها قبل الدعوة اليه . واصرت على وجوب حل المشكلة بينها وبين الصين بغير تدخل اجنبي . وحاول المؤتمر في غير قرار واحد ان يحمل اليابان على حضور المؤتمر او قبول التوسط فأبت ، وانفض على ذلك

وقد دعيت اليه المانيا كذلك ، ولكنها اعتذرت بحجة أنها ليست من الدول التي وقعت معاهدة الدول التسع

ومما يتصل بمشكلة الشرق الاقصى انضمام ايطاليا الى الاتفاق الالماني الياباني لمقاومة الشيوعية في اوائل شهر نوفمبر وقد اسفر هذا الانضمام عن اعتراف ايطاليا بدولة منشوكو ووقوفها موقف المؤيد لليابان في الملابسات الدولية الناشئة عن حربها في الصين

الاستهتار بالقانون الدولي

ليس القانون الدولي بقانون في ادق معانيه . اي انهُ ليس اعراباً عن مشيئة سلطة ذات سيادة تملك تنفيذه ومعاقبة الخارج عليه . وانما هو عرف ، مستخرج من القواعد والمبادىء المقررة في المعاهدات المختلفة ، ليس لهُ سلطة القانون من الناحية الشرعية ولكن لهُ سلطة القانون من الناحية الادبية . وقد جرت الدول على احترامه وحساب الف حساب لما ينشئه الخروج عليه او الاستهتار به من اثر سيء في الرأي العام الدولي

وقد عانت الآداب والقوانين الدولية في السنة الماضية سقوطاً في هيبتها ، واستهتاراً في نقضها ، حتى وصف الرئيس روزفلت هذه الحالة في خطبة شيكاغو المشهورة «بوباء الاستهتار بالقانون » — والامثلة على ذلك كثيرة

خذ مثلاً على ذلك الحالة في الشرق الاقصى . ليس في التاريخ الحديث — حالة — عقد لضمانها من المواثيق والمعاهدات ما عقد لضمان الحالة في الصين . فسياسة الباب المفتوح ومعاهدة الدول التسع وميثاق تحريم الحرب كل اولئك عهود دولية قطعت ودونت في وثائق رسمية وهدفها الاحتفاظ باستقلال الصين ووحدتها والحيلولة دون تميّز دولة على اخرى فيها . والنتيجة ان اليابان تجاهلتها جميعاً فاقتطعت منشوريا وجيهول سنتي ١٩٣١ و١٩٣٣ وها هي الآن في غمار حرب غرضها الاول انتزاع شمال الصين ولا يعلم احد الى اين ينتهي

ومع ذلك كله لم تعلن حرب حتى يعرف للقتال قواعد يجري بمقتضاها وذلك لان «الصين لم تفهم مقاصد اليابان فيجب ان تفهمها — او — ان تؤدب حتى تجثو على ركبها » على قول البرنس كونوي

او خذ الاعتداء على سفير انكلترا في الصين ، ليس ثمة من يقول بان اليابان قصدت الى الاعتداء عليه ولكن الاقوال اليابانية الاولى في هذا الصدد كان مؤداها ان الطيارين اليابانيين ظنوا ان المارشال شان كاي شك في السيارة وان العلم البريطاني كان صغيراً لم ير وان القيادة اليابانية لم تتنبأ بانتقال السفير البريطاني على تلك الطريق . ومن هذا القبيل ضرب المدن المكشوفة بقنابل الطيارات واغراق المدفعية الاميركية باناي

او انتقل من الشرق الاقصى الى البحر المتوسط وقف قليلاً عند حوادث الاعتداء على السفن التجارية والحربية . فهي انتهاك لحرمة الملاحة والقانون الدولي والمعاهدات القائمة . فبعد سعي دام ستة عشر عاماً قبلت الدول البحرية المادة ٢٢ من معاهدة لندن البحْرية وغرضها مستمد مما عانتهُ الدول اثناء الحرب الكبرى من اهوال الغواصات وهو انهُ لا يجوز لغواصة ما في اثناء الحرب ان تغرق سفينة تجارية او تعطلها عن السير الاَّ بعد انذارها وتأمين سلامة ركابها وملاحيها ومستنداتها . واذا كان ذلك متفقاً على مراعاته في الحرب فأحرى بهِ ان يراعى ابان السلام ولاسيما مع سفن دول محايدة تقوم باعمال التجارة المشروعة

هذا الاستهتار بالقوانين الدولية والآداب الدولية ، ظاهرة خطيرة يتصف بها هذا العصر كما اتصفت بهِ بعض عصور الانحطاط الماضية ، وهو منبع طائفة من المشكلات التي تعانيها الامم ومن العبث ان تعالج بعض هذه المشكلات على حدة اذا لم يصد مد هذا التيار . فكيان الدولة الواحدة لا قوام له الاَّ بهيبة القانون واحترامه احتراماً ناشئاً عن الاقتناع بانهُ لازم لمصلحة الفرد والجماعة اكثر من نشوئه عن خوف العقاب

تزاور الاقطاب

وقد امتازت السنة الماضية في حلبة السياسة الدولية ، باتصال اقطاب الدول زيارة ومكاتبة ، وفي مقدمتها تبادل الرسائل بين المستر تشمبرلين والسنيور موسوليني ، واساسها الرغبة في تصفية المسائل المعلقة بين الدولتين، بحيث يجعل « اتفاق الكرام » الذي عقد في مستهل السنة ، اتفاقاً ذا شأن عملي ، وزيارة موسوليني لالمانيا حيث استقبل بحفاوة عظيمة فاسفرت زيارته عن تعزيز محور برلين روما والتأكيد بانهُ غير موجه ضد دولة بعينها وانهُ ليس بمحالفة ولكنهُ تنسيق لموقف الدولتين ازاء مشكلات اوربا العامة وفي طليعتها المشكلة الاسبانية ومكافحة الشيوعية وتنظيم قلب اوربا على أساس من التعاون الاقتصادي . ثم هناك رحلة لورد هاليفاكس الى المانيا واجتماعهِ بالهر هتلر لاستكشاف نية المانيا في ما يتعلق بالمستعمرات وشرق اوربا وميثاق اوربا الغربية وغيرها ويزعم بعض الباحثين ان زيارة موسوليني لالمانيا افضت الى تحويل محور برلين روما الى مثلث برلين روما طوكيو. وان زيارة لورد هاليفاكس لالمانيا عجلت في خروج ايطاليا من عصبة الامم

وقد عقب زيارة لورد هاليفاكس لالمانيا رحلة شوطان رئيس الوزارة الفرنسية والمسيو دلبوس وزير خارجيتها الى لندن حيث اجتمعا بأقطاب الوزارة البريطانية وتباحثا مليًّا في المشكلات الدولية القائمة على ضوء الحقائق التي تبينها لورد هاليفاكس في رحلته الالمانية ثم تلا ذلك رحلة المسيو دلبوس الى عواصم بولندة ورومانيا ويوجوسلافيا وتشكوسلوفاكيا لتعزيز اواصر الصداقة بين فرنسا وهذه البلدان التي كانت في ما مضى والى عهد قريب من اخلص اصدقاء فرنسا واوثقها ارتباطاً بها. ومن هذا القبيل زيارات اخرى قام بها اقطاب السياسة كالجنرال جورنج والهر فون ربنتروب لايطاليا ، وستويادينوفتش الى باريس ولندن وروما. وليس امامنا متسع لتفصيل هذه الرحلات وانما الغرض الاشارة اليها لتبيان العناية الكبيرة التي تعلقها الحكومات الآن على اتصال اقطابها باقطاب الحكومات الاخرى

حوادث واتجاهات متفرقة

في خلال السنة الماضية احتفل بتتويج الملك جورج السادس ملكاً على المملكة المتحدة وامبراطوراً على الهند والممتلكات البريطانية وراء البحار وتوالت المساعي الى تصحيح الحالة الدولية الاقتصادية ، بتخفيف بعض القيود التي تقيد بها التجارة الدولية وعهد الى المسيو فان زيلند رئيس وزارة بلجيكا في دراسة الحالة ووضع تقرير يضمنه مقترحاته في هذا الموضوع وقد انجز هذا التقرير وكان تقديمهُ الى حكومتي انكلترا وفرنسا منتظراً قبيل نهاية العام — ومضى ستالين في اضطهاد خصومه واعدامهم ، كما انه وضع الدستور السوفيتي الجديد موضع التنفيذ فجرت

انتخابات عامة في ١٢ دسمبر ويقال في تفسير هذا وذلك ان ستالين مرغم بمنطق الحوادث الدولية ان يرتد عن ارث لنين في الشيوعية الدولية ، الى تعزيز النزعة القومية في روسيا لتتمكن من التاهب لمواجهة اعدائها في الشرق والغرب — واشتدت مطالبة المانيا بمستعمراتها السابقة حتى اصبح هذا الموضوع من الموضوعات التي تعنى الحكومات به ولا سيما الحكومة البريطانية. وبريطانيا ازاءه فريقان، فريق متصلب يرى الامتناع بتاتاً عن ارجاع مستعمرات المانيا السابقة اليها وآخر يوافق على ارجاعها على ان يكون ذلك جزءا من تسوية عامة — واسقطت وزارة بلوم في فرنسا على اثر اختلاف وقع بينها وبين مجلس الشيوخ على مسائل مالية ، فالفت وزارة جديدة برئاسة شوطان وانتظم فيه الاشتراكيون برئاسة زعيمهم بلوم رئيس الوزارة السابقة وخفض الفرنك تخفيضاً كبيراً

وعظم شأن الاضطرابات في المغرب الاقصى ، فقمعتها الحكومة بالشدة وعينت المسيو سارو وزير الدولة في الوزارة القائمة للاشراف على دراسة الحالة ووضع النظام اللازم لمعالجتها — ووقع انقلاب حكومي في البرازيل اذ أقام السنيور فارجاس نفسهُ دكتاتوراً ينوي ان يجعل البرازيل دولة نقابية بغير ان ينضم الى فريق ايديولوجي دون آخر في السياسة الدولية — ونشرت اللجنة الملكية التي عينت لبحث مشكلة فلسطين تقريرها الذي اقترحت فيه تقسيم البلاد، الى منطقتين رئيسيتين احداهما لليهود واخرى للعرب . فاشتد الاعتراض على هذا الاقتراح من العرب جميعاً ومن بعض الانكليز — وتمت الانتخابات في الهند وفقاً للدستور الجديد ، وبعد ما امتنع حزب المؤتمر عن تولي الحكم في الولايات التي فاز فيها بالاكثرية تمَّ التفاهم بينهُ وبين الحكومة البريطانية على تفسير بعض نصوص الدستور فتولى الحكم في معظمها — واعلنت انكلترا وفرنسا (٢٤ ابريل) والمانيا (١٣ اكتوبر) ضمانها لسلامة البلجيك — واعلن تنفيذ دستور ارلندة الجديد ابتداءً من منتصف ليل ٢٩ ديسمبر الماضي

وفيات

وقد توفي في خلال السنة الماضية خمسة من اكبر اقطاب السياسة العالمية هم السر اوستن تشمبرلين السياسي البريطاني المشهور باشتراكه في عقد معاهدة لوكارنو ، والمسيو دومرج رئيس الجمهورية الفرنسية سابقاً ، والمسيو ماساريك منشىء جمهورية تشكوسلوفاكيا ورئيسها الاول والمستر رمزي مكدونلد زعيم العمال في بريطانيا ورئيس وزارتهم في سنتي ١٩٢٤ و ١٩٢٩ والمستر كيلوج وزير خارجية اميركا سابقاً وصاحب ميثاق تحريم الحرب المشهور باسم ميثاق — كيلوج بريان

القاهرة : ٣١ دسمبر ١٩٣٧


رابطة
الإصلاح الاجتماعي
يوم الطفولة
الدوره الثانية
يناير ١٩٣٨

تقدمة

باسم الله وبحمده ، وفي ظل مليكنا المحبوب ، مناط آمال الامة ، ومعقد رجائها في النهوض والاصلاح ، حضرة صاحب الجلالة « فاروق الاول » . تقدم « رابطة الاصلاح الاجتماعي » رسالتها عن الطفولة المعذبة الى جمهور المثقفين المشتغلين بالخدمة الاجتماعية ، والمعنيين بالحركة الاصلاحية ، ولقد قدمت بالامس مجموعة محاضراتها التي القيت في (مؤتمر الطفل) فنالت من تقدير رجال التربية والتعليم . ما جعل وزارة المعارف تنوه بهذا المؤتمر وغيره من مؤتمرات الرابطة في تقارير رسمية ارسلت للدول الاجنبية عن مدى النهوض الاجتماعي في مصر ، وتقدم العمل في ميدان الطفولة . فكان ذلك مشجعاً للرابطة على المضي في طريقها الذي رسمته لنفسها ، فدعت الى عقد مؤتمر تبحث فيه شؤون الطفولة المعذبة في أهم نواحيها . وقد تم ذلك على الوجه المرضي إذ اقيم « يوم الطفولة » وحضره جمهور عظيم من العلماء والفضلاء والادباء ورجال التربية واساتذة الجامعة وفضليات السيدات والاوانس وكثير من طلبة معهد التربية ، وخطب صفوة من المتوفرين على دراسة مسائل الطفل خطباً نفيسة عزز أكثرها بعرض الافلام السينمائية مما كان له أكبر الأثر في نفوس الحاضرين . ورغبة في تعميم الانتفاع بهذه المحاضرات والدراسات عملت الرابطة على نشرها في المقتطف الأغر واخراجها في رسالة على حدة راجية أن يكون لها من حسن الاستفادة مثل ما كان لسابق الرسائل التي اخرجتها الرابطة في ضروب الاصلاح الاجتماعي

والله الهادي الى سواء السبيل ؟

سيد مصطفى

السكرتير العام

كلمة الافتتاح

يوم الطفولة

للدكتور محمد عبد المنعم رياض بك

في مثل هذا اليوم من العام الماضي دعت رابطة الاصلاح الاجتماعي الى عقد مؤتمر للطفل بحثت فيهِ اهم المسائل المرتبطة بهِ وقد لاقى هذا المؤتمر نجاحاً كبيراً اذ وجّه النظر الى ما لهذا المخلوق الضعيف من اثر كبير في تكوين الامة فاذا قيل ان الطفل هو أبو الرجل او ان الطفل هو عماد المجتمع حتى انهُ يلقب « بصاحب الجلالة الطفل » فلنصدق هذا القول ولنؤيده بالعمل على حماية الطفولة من جميع الاخطار التي تهددها حتى نغذي المجتمع بأيدٍ عاملة قوية وأدمغة صحيحة متزنة . هذا هو اهم ما تعنى بهِ بلاد العالم المتمدين في الوقت الحاضر الذي اصبح من اهم مميزاته دراسة الاطفال والعمل على اسعادهم حتى يخرج منهم جيل صالح سليم العقل والجسم ولهذا سمي هذا العصر بعصر الطفل The Century of the Child ولقد تغيرت في السنوات الاخيرة القواعد الخاصة بتربية الاطفال ورعاية صحتهم عما كانت عليهِ من قبل فبينما كان الاطفال يعاملون أولاً معاملة الكبار وتطبق في تربيتهم وتهذيبهم وعلاج أدوائهم نفس الوسائل التي تطبق على من تعدوا سن الطفولة أصبح للصغار الآن كيان خاص ومقام يختلف كل الاختلاف عن مقام الكبار فللاطفال مشكلات خاصة تحل بوسائل تصلح لهم ولتربيتهم أساليب خاصة ولعلاجهم مما ينتابهم من أمراض طرق علاج خاصة ، تجدون هذا ظاهراً في نواحٍ متعددة ففي الطب اصبح علاج الاطفال اختصاصاً قائماً على حدة لهُ من القواعد والاساليب الحديثة ما لم يكن معروفاً من قبل

وفي التربية والتعليم وضعت طرائق بعينها للاطفال بل وضعت طرائق لكل طبقة منهم تغاير الطرق القديمة فانتهى عهد التخويف والتأديب الجسماني ولم يعد المعلم يطبق ما كان يقولهُ الآباء من قبل في سبيل التوصية على أولادهم « اضرب وأنا أداوي » بل اصبح هم المعلم ان يغرس في نفوس الاطفال ثقتهم بأنفسهم ومحبتهم للعلم والمدرسة — كذلك تغيرت معاملة الاطفال اذا ارتكبوا جرماً يستدعي محاكمتهم او عقابهم فافردت لهم محاكم خاصة لا علنية فيها بل اشبه ما يكون بمجالس عائلية يتبين فيها القاضي حالة الطفل وظروفه وبيئته والاسباب التي دفعتهُ الى الاجرام ويبحث عن طريق لانقاذه واعادته الى الطريق السوي ولا يقف في سبيل القاضي للوصول الى هذا الغرض ارتباط الطفل باسرته بل أصبح هذا الارتباط ثانويًّا ازاء الغاية التي تنشد من انقاذ الطفل فيستطيع القاضي في البلاد الغربية ان ينتزع الطفل من السلطة الابوية غير الرشيدة ويقضي بسقوطها وهذا نظام لم يقتبس بعد في مصر مع شدة حاجتنا اليهِ اذ كثيراً ما نرى ان السبب في فساد كثير من الاولاد او ضلالهم يرجع الى القدوة السيئة التي يجدونها من اب

مجرم او غير صالح للابوة . واذا ظهرت حاجة الطفل الى الاصلاح او التهذيب فانهُ يوضع في دور خاصة لذلك هي دور الاصلاحيات ولا يرسل الى سجون عادية كما كان الامر قبلاً . وكذلك اصبحت للاطفال نظم تتفق وحاجتهم .على ان هذه النظم ذاتها اصبحت تختلف باختلاف طبقات الاطفال اذ اصبح لكل نوع من الاطفال اسلوب خاص يتلاءم مع احوالهم فهذا طفل شاذ لضعف في عقله أو قوة تفكيره او لضعف في بصره أو سمعه او لعي في نطقه وبذلك لا يمكن ان يكون في مستوى واحد مع غيره من الاطفال الاقوياء بل يجب ان يدرس سبب شذوذه ويعالج من اساسه . ستسمعون الآن ابحاثاً في شؤون بعض انواع الطفولة المعذبة وستتبينون منها أن لكل حالة علاجاً خاصًّا —وما المشكلات التي ستعرض علينا الليلة الاَّ قليل من كثير والغرض من عرضها اثارة اهتمام الجمهور بمسائل الطفولة . فقد آن الوقت أن تنظم دراستها في مصر تنظيماً صحيحاً ويا حبذا لو انشئت ادارة خاصة تضم كل ما يتعلق بشؤون الاطفال من صحة وتهذيب وقضاء واصلاح ويتولى العمل فيها اخصائيون يستطيعون بحث مسائل الاطفال بطرق علمية صحيحة — وليس هذا بأمر جديد بل قد قامت بعض الدول مثل ايطاليا بانشاء مثل هذه الادارة لتجعل جميع شؤون الاطفال في يد من يحسنون فهمها وعلاجها حتى أن الدفاع عن الاطفال في القضايا قصر على طبقة خاصة من المحامين لهم من الخبرة والدراسة والاستعداد ما يمكنهم من فهم الاطفال وعرض مسائلهم عرضاً صحيحاً على القضاء . وقد انشئت في اوربا في هذا العام هيئة دولية تسمى بالحزب الاجتماعي للطفل Social Party of the Child بمقتضى قرار أصدره مؤتمر دولي عقد في صيف هذا العام في كوبنهاجين ويقصد بهذه الهيئة ابراز مقام الطفل وما لهُ من شأن عظيم والعمل على ايجاد اخصائيين يتولون شؤون الاطفال ويدافعون عنها في الحكومات وفي الهيئات التشريعية المختلفة كمجالس النواب حتى يأتي اليوم الذي تنشأ فيه في كل دولة وزارة للطفل

هذا هو مبلغ اهتمام القوم في اوربا وقد آن الوقت لمصر ان تشترك بنصيب في هذه الحركة حركة العناية بالطفل واني لارجو ان يتاح لنا في القريب العاجل عقد مؤتمر بل جملة مؤتمرات تمثل فيها جميع الهيئات المشتغلة بمسائل الاطفال من حكومية وغير حكومية وتقوم بمباحث منظمة في أهم المسائل المتعلقة بالطفولة في مصر ثم تقدم اقتراحات عملية لعلاج ما يحتاج الامر الى علاجه وتنظيم النواحي التي لا تزال في حاجة الى التنظيم وهي كثيرة فاطفال القرى واطفال الشوارع في المدن والاطفال الشواذ وغيرهم —كل هذه مسائل تحتاج الى درس بل الى درس عميق طويل حتى تنكشف اسبابها ويوضع لكل منها علاج يجتث الشر من اصوله .فاذا وفقت رابطة الاصلاح الاجتماعي الى تنمية روح العناية بالطفولة في مصر فانها تكون قد أسدت الى البلاد خدمة جليلة في ناحية من اهم نواحيها الاجتماعية .سدد الله خطى العاملين لرفعة الوطن وهداهم سواء السبيل

الطفل الشريد

لكامل كيلاني

سيداتي سادتي : اتأذنون لي — متفضلات ومتفضلين — في أن أصارحكم ، فأقص عليكم من امري حديثاً عجباً ؟ لقد شعرت بحيرة عجيبة حين مضيت افكر في هذا الموضوع ، وتشعبت امامي اطرافه ،وكادت تلتوي طرائق البيان له ، وأساليب التفكير فيهِ ، على الرغم من وضوحهِ ، وأكاد اقول على الرغم من بداهتهِ

ولقد قلت في نفسي: اي طفل شريد يعنون ؟ واي طفل طريد يريدونني على التحدث في أمره ؟

ان كل من في الحياة — اذا امعنا في الفكر ، وأطلنا التأمل — ليس الا طفلاً شريداً ، فاذا ابى أحد واستكبر ، ولم يرض ان يكون طفلاً ، فهو رجل طريد شريد

فأي هؤلاءِ الاطفال والرجال يعنون ، والى اي نوع من التشريد يقصدون ؟ فان ضروب التشريد — في بلادنا التاعسة — أفانين اعندنا مشردون في الثقافة ، ومشردون في الاخلاق ، ومشردون في العقائد ، ومشردون في كثير من ألوان العيش وأسباب الحياة . . . .

كلاً لن يقتصر التشريد على الصعاليك والمفلوكين ، كما يتوهم المفكر أول وهلة ، بل ان تشرد هؤلاءِ هو أيسر مراتب التشرد ، أما علينا مراتب التاعسين المشردين الغرباء في هذا العالم ، فهي وقف على افذاذ الفكر ، واساطين المعرفة من عباقرة الجنس الانساني الجاحد الكنود

وقديماً قال شاعر في وصف عبقري من اولئك الافذاذ : غربته اخلاقه الزهر فيهم . . . .

وقال أبو العلاء : أولو الفضل في اوطانهم غرباء تشذ وتنأى عنهم القرباء

ثم قال وأبدع : متى ما يأتني اجلي بأرضي لحيٌ على الجنازة للغريب

ولعلكم تذكرون ان ابن الرومي قد جمع في حياتهِ بين تشريد النفس والجسم ، وقضى حياة الغريب وهو في أهله ، وعاش عيشة البائس وهو في وطنهِ وعشيرته . حتى بلغت صيحاته آذان العالم العربي في عصره وما تلاه من العصور الى اليوم ، وان لم تجد سميعاً من أقرب خلصائهِ وأصحابه الادنين في ايام حياته . أليس هو القائل :

حرمت في سني وفي ميعتي قراي من دنيا تضيفتها

لهفي على الدنيا، وهل لهفة تنصف منها ان تلهفتها

بلى او هو القائل: ألا أين عنى الصائنون لصحتي فها هي قد اضحت أذل من النعل

بلى ! وهو القائل : لا تعجبنّ لمرزوق أخي هوج حظًّا تخطى اصيل الرأي طرافا

فخالق الناس اعراء بلا وبر كاسي البهائم أوباراً واصوافا

ثم هو القائل المبدع : ان للحظ كيمياء اذا ما مسّ كلباً أحالهُ انسانا

ماذا ؟ أتراني احاضركم في ابن الرومي الشاعر الشريد في هذه الليلة ؟ لا ، فلنجتزئ بهذا القدر ، وليشرد بنا القول وجهة أخرى ، علّنا نصل الى الطفل الشريد الذي خصصت له الرابطة بضع دقائق للحديث عنهُ ، فأضمت أكثرها في غير ما أرادت الرابطة

سيداتي سادتي — إن الطفل الشريد الذي نحدثكم الليلة في أمره ، هو الطفل البائس الذي حرم نصيبه من مائدة الحياة ، وأغفل حقه في طيباتها ولذائذها ، وإن ظفر من صنوف الشقاوة فيها بأوفر قسط ، وأوفى حظ . ولعل أسعد هؤلاء المشردين حظًّا من يظفر بركن مظلم في في معارج الطريق ينام فيها آمناً لا ينالهُ من الشرطة العنت والتفزيع

وعندي أن كل وصف لهذا الشريد الذي ترونهُ حائراً بمدرجة الطريق ، لن يفيه حقه مهما تفنن الواصف وأبدع ، واستمد ما شاء من النعوت والاوصاف

وعندي كذلك أن كل نداء يتوجه بهِ دعاة الاصلاح الى استدرار عطف القادرين، هو نداء قليل غناؤه ، ضعيف أثره ، فقلما يجدي الوعظ المجرد من إشعار السامع بالفائدة العملية التي يجنيها من اتباعه لما يراد عليهِ ، أو الخسارة المادية التي تلحقهُ اذا خالف الواعظ الى ما نهى عنهُ

فواجب الداعين الى الاصلاح — فيما أرى — أن يتركوا الوعظ قليلاً ، وأن يوجهوا جهودهم إلى شرح الفوائد التي تعود على المجتمع من إغاثة الطفل الشريد ، والمضار الماثلة التي تهدد الوطن من جراء إهمالهِ وإغفال شأنهِ . واليكم أقصوصة صغيرة تمثل لكم ما أعنيه :

كان عند أحد الملوك وزة من خالص الذهب ، عيناها لؤلؤتان ، من أنفس اللآلئ . وعنّ له ان يتفكه متفنناً في هبة الإوزة لمن يقص عليهِ قصة مكذوبة على أن يرغمهُ على ان يصارحهُ بانهُ كاذب فيما قص. فجاءه رجل يخبره أنهُ ركب جملاً ذات يوم ولم يكن معهُ الاَّ تمرة واحدة ، فأكلها ، وألقى بالنواة ، فوقعت على رأس الجمل ، فاذا هي لساعتها نخلة باسقة ، واذا تمرها جنيّ ، فصعد اليها ، وظل يأكل ما شاء ، ويلقي بالنوى في الصحراء يمنة ويسرة ، فلما عاد من رحلتهِ وجد الصحراء حاشدة بالنخيل المثمر ، فابتسم الملك ، وقال : جلت قدرة الله ! .. فرجع الرجل يائساً ، فجاء ثانٍ يخبر الملك بانهُ خرج للصيد ذات يوم ، فأبصر ظبية شاردة ، فصوّب اليها سهماً ، فانفتلت يمنة ، فحاد اليها السهم ، فانعدلت يسرة ، فسايرها السهم ، فقفزت فتابعها السهم قافزاً ، ثم هبطت فهوى السهم اليها فأصابها ، فقال لهُ الملك : ما أبرعك صياداً . . . . ! وجاء ثالث ورابع وخامس وآخرون رجعوا من قصصهم بحظّي صاحب الجمل والصياد ، وبعد حين جاء الملك رجل أفاق خبير باقتناص الفرص ، ومعهُ جرة كبيرة . فأخبر الملك بأن اباهُ كان صديقاً حميماً لوالد جلالته ، فلما نشبت الحرب بين هذه الدولة والدولة المجاورة ، وأعوز الملك الراحل

المال ، اقترض من أبيهِ ملء هذه الجرة ذهباً ، على أن يردها اليه ، فان لم يفعل كانت ديناً في ذمة ولده . فلما انتهى من قصتهِ لم يستطع الملك ان يقره على ما قص ، كما اقر الكذبة السابقين ، ففاجأه بقولهِ : أنت كاذب ! فقال له الرجل من فوره : عليَّ بالإوزة ! فقال الملك : دونك فخذها . وهكذا عرف هذا الرجل من اين يؤخذ الإوز ! ....

ومغزى هذه الاسطورة الطريفة ان المرء — كما قلت لكم — لا يبالي الأمر ، مهما يجل خطره ، إلاَّ اذا اتصل الامر بذات نفسه وذات ماله من قريب !

وأي جدوى تعود على السامع حين انشده قول المعري :

لقد جاءنا هذا الشتاء وتحته فقير معرّى او أمير مدوّج

وقد يرزق المجدود أقوات امة ويحرم قوتاً واحد وهو أحوج

أو قول القائل : كان يحيي ميتاً من عطش فضل ما أوبق ميتاً من غرق

إنهُ ليتأثر زمناً طال أو قصر ، ثم يذهب تأثره بعد حين الى غير عود !

ولا شك ان الأحجى ان يسلك الدعاة الى الاصلاح طريقاً اخرى ، هي — عندي — اهدى واقوم ، ولأضرب لحضراتكم مثلاً يوضح ما اعني :

يقول بعضهم : لقد انشأت الحكومة جمعية للرفق بالحيوان ، فهلا فكرت في انشاء جمعية للرفق بالانسان ؟ حتى تؤوي أولئك المشردين التاعسين . ولو شئنا ان نجاري الوعاظ والدعاة في هذا الاسلوب لارينا ، وقلنا : ولقد أنشأت الحكومات جماعات للرفق بالنبات وحفظه من الآفات ، وإنقاذه من غوائل الجراد والحشرات . فما بالها تقسو على هؤلاء الاطفال المشردين ولا تعنى بأمرهم

هذا اسلوب — كما ترون — خيالي فياض بالشاعرية ، ولكننا نسأل انفسنا ، اذا توخينا الجد : هل تحمي الحكومات النبات رحمة به ؟ ام تحميه لأنهُ عماد الغذاء ، ومصدر الثروة ، فإذا استولت عليهِ الآفات وفتكت به ، كانت المجاعة المخيفة ، وكان الفتك الذريع بالاهلين ؟

الجواب من الوضوح بحيث لا يحتاج الى بيان ، فواجب المصلحين ان يتجهوا بجهود المخلصين من القادرين الى العناية بالطفل الشريد ، بحجة ما يهدد المجتمع الانساني من الاخطار الهائلة التي تحل به اذا لم يعن اشد العناية بحماية الامة من شر التشرد . فلا بد من تأمين الحقل الآدميّ من اخطار المشردين ، كما أمنت الحقول النباتية من اخطار الجراد والدود . واذا جاز للمعري ان يقول :

شر اشجار علمت بها شجرات أثمرت ناسا

جاز لنا ان نستعير تعبيره الطريف ، فنقول ان اول واجب على الحكومات ، هو ان تؤمّن هذه الشجرات التي اثمرت الناس ، وأن تحوطها برعايتها من خطر الشجرات السامة والآفات الراعية الاخرى

وأي سم أفتك من سم تلك الجراثيم الانسانية التى اذا اهملنا امرها ، وضنّ عليها القادرون

منا بفتات المائدة ، ونبذوهم من المجتمع ، وشردوهم في الطريق ، ولم يعنوا بامرهم صغاراً ، أحفظوهم كباراً على البيئة الانسانية ، ونزعوا من صدورهم حب الخير ، وعرفان الجميل، فامتلأت نفوسهم حقداً على العالم كله . ومن ثم تنشأ الحوادث التى نقرؤها كل يوم في صحفنا، وهي متشابهة ، تكاد تدور حول محور واحد وهو مقابلة الاحسان بالاساءة ، فمن ضيف يقتل من آواه ، ومن خادم يفتك بمولاه، ومن أفاق وشريد يحترفان السطو والنهب والاعتداءات المنكرة، وما الى ذلك من أفانين الاجرام والتنكيل . واني لأتمثل في كل طفل شريد قصة الجني التى الخصها لكم فيما يلي :

كان من عادة صياد طاعن في السن ان يرمي شبكته كل يوم في الماء ، ويرجع فرحان بما يجيء بهِ ، ففي صبيحة يوم طرح شبكتهُ على عادتهِ ، فلما جذبها وجدها ثقيلة ، فبذل أشد الجهد في إخراجها حيث تمكن من ذلك بعد عناء لا مزيد عليهِ ، فاذا بالشبكة قمقم من نحاس اصفر مرصّص ، فقال في نفسهِ : لعلَّ في القمقم كنزاً ، ثم عالج الرصاص حتى نزعه فارتفع غطاء القمقم عن دخان كثيف لم يلبث ان تجمع واكتمل مارداً يروع الناظر ، فقال للصياد : اختر لك ميتة ! فقال لهُ : اهذا جزاء احساني اليك باخراجك من القمقم واطلاقك من المحبس ؟ فقال لهُ : لقد حبسني وزير النبي سليمان لعصياني اياه منذ اعوام مئات ، فقلت في أثناء المائة الاولى : من اطلقني تكفلت له بكنوز الارض اضعها بين يديه ، فلم ينقذني احد ، فقلت في اثناء المائة الثانية : من اطلقني اغنيته وكفيته وما تركت له حاجة الاّ قضيتها مهما تكلفني، فما عبأ بي احد ، فقلت في أثناء الثالثة وقد عيل صبري ، وامتلأت غيظاً من الناس : من انقذني قتلته انتقاماً من بني آدم اجمعين !

هذه هي قصة الجني ايها السادة وايتها السيدات ، وما أشبهها بقصة الشريد ، يقول لنا في طفولته : أنقذوني اكن لكم خادماً حياتي كلها ، اقيلوا عثرة والديّ بي، فلعلي اكون في مستقبلي مقيلاً عثرات الامة في اخطر المزالق . . . . ثم لا يزال الطفل الشريد يصيح لسان حاله بهذا، حتى اذا لم يجد منقذاً له ، ولا مقيلاً اياه ، امتلأ قلبهُ بالحقد على الانسان ، وغلت في دمه معاني الانتقام لطفولته المعذبة، فيكون رجلاً كل خواطره حرب على المجتمع ، واغتيال لما تناله يداه منهُ.

واول واجب علينا وعلى كل من يتصدى للاصلاح ، هو ان نعنى بامر هؤلاء المردة المشردين وهم في اول مراحل الحياة ، قبل ان يستفحل الشر في صدورهم ، ويكبر الاثم بين جنوبهم، ويكفروا بكل معاني الرحمة والعدالة ، فيقسموا : ليقتلنّ كل من استطاعوا لهُ قتلاً ، وليملؤُنّ اسواق الناس اعتداء وسلباً ونهباً . فعلينا ان نعمل على ان يكونوا قوى عاملة على خير الامة واسعادها ، بدلاً من ان يكونوا ادوات شريرة فتاكة

أمامك فانظر : أي نهجيك تنهجُ طريقان شتى : مستقيم واعوج ...

الطفل اللقيط

للدكتور علي فؤاد بك

مدير قسم رعاية الطفل بوزارة الصحة

سادتي — سمعتم الليلة قصة الشريد فهزت مشاعركم واستدرت دموعكم، والآن احدثكم عن طفل آخر فاق زميله الاول في الشقاء لا يعرف ابًا ولا امًا ينتسب الى احدهما بل كل آماله ان ينتسب الى الانسانية الظالمة المخطئة . يستصرخكم هذا الطفل من ساعة ولادته ويستنزل با لامه ومحنته الغضب والمقت واللعنة على من كانا السبب في شقوته وتعاسته

سادتي — اللقيط احق من يتمثل ببيت أبي العلاء حيث يقول : —

هذا جناهُ ابي عليّ   وما جنيت على احد

ألم ينبذ نبذ النواة من ام قسا قلبها فتركتهُ في الطرقات عديم الحول والقوة ؟

ألم يحرم من حنان الاب وعطف الاسرة؟

ألم يفقد حبور الاخوة والاخوات، والاصدقاء والصديقات ؟

ألم يفقد صلته بالمجموع وانتسابهِ للشرف ؟

ألم يسبغ عليهِ لقب مرذول فدعي ابن السفاح ؟

هذا هو اللقيط الذي عرفته حكومتنا بانهُ كل من وُجد على قارعة الطريق، وابن سفاح ووليد خطيئة ومهده الاول ارصفة الشوارع والطرق وصناديق القمامة . كل حقه على الحكومة ان يسلمهُ من يجده للبوليس في المدن او للعمدة في الارياف كي يحرر بشأنهِ المحضر اللازم فان اخذت الرأفة بهِ من وجده اعطي اليه والاّ فانهُ يسلم الى احد المحسنين ممن حسنت سمعتهم وكان قادراً على رعايته والاّ ارسل الى احد الملاجيء للاهتمام بهِ الى حين .

سادتي — لكل لقيط سره الخاص . ولكن قصة الجميع تنحصر عن اصل ثابت ورواية تكبر وتصغر بحسب ما وضعها مؤلفها بطلاها رجل وامرأة دفعتهما عواطف الشباب .والشهوة الجامحة الى تيار ينتهي الى هوة العار والتعاسة والشقاء والذلة والمسكنة لهذا الطفل الذي من يوم ولادته تسلمتهُ المراضع وتحكم في اطعامهِ ثديها بدون رحمة ولاحنان. هي مكرهة اذ لولا الحاجة ما كشفت عنهما لغير ابنها. ولا تنظفهُ الاّ مضطرّة حتى الماء الذي بلا ثمن لا ينالهُ الاّ بعد ان تأخذ الرحمة احد المارين بهِ . يبيت الليل يبكي فلا يجد من يواسيه . حتى اذا كبر وترعرع ترعاه القوة الرحمانية

خاف أقرانه منهُ فابتعدوا عنهُ لما يسمعونه من تسميته بابن الحرام. وكذلك في المدارس

سادتي — لا تتصوروا أني أبالغ في ما قلتهُ بل لم أحدثكم ان بعضهم يتصورون انهُ اذا اصبح الصباح عليهِ ونظر في وجه أحدهم كان يومه يوم شؤم عليهِ . بل يعتقد البعض انهُ اذا وجد في منزل جلب اليهِ الخراب

طفل هذا حاله كان فيما سبق يتحتم عليهِ ان يخرج الى الشوارع لا يلوي على من يؤويهِ فيكون من المتشردين البؤساءِ . لا من المتشردين فقط

أسائلكم . من المتسبب في شقاء هذا الطفل الذي لا يفصله عن أشرف الابناء الاَّ نقطة واحدة هامة هي الزواج ليكون زينة الحياة الدنيا ومحط آمال أسرة واعزاز أخوة ومفخرة أصدقاء

أسائلكم عن الجاني . هل هو الرجل ام المرأة؟ سيقول البعض هو الرجل اذ بدونهِ لا تلد المرأة . وسيقول فريق هي المرأة اذ بدونها لا يكون حمل . وفريق ثالث يشرك الرجل والمرأة في الجرم دون ان يعين أيهما اكبر وزراً وأعظم جريرة

ولكني لا أتردد فيما اصارحكم بهِ من رأي فأقول : —

حقيقةً ان الرجل شريك في الجرم فالمرأة باستسلامها وضعف ارادتها وخلقها وطيشها وعدم تبصرها واستهتارها مكنت احد الذئاب البشرية من جريمة يذهب ضحيتها طفل بريء. فهذه الأُم وهذا الاب مجرمان في حق الانسانية والامومة والطفولة . ولكل عقابه في الدنيا وعقاب الام يبدأ من يوم شعور المرأة بالجنين فهي لا تفتأ تعمل جاهدة للخلاص منهُ . تجتهد في اشهر حملها الاولى في ازاله بشتى الوسائل فمن دواء مر الى اشربة ضارة ومن دق على البطن وقفز ووثب واجهاد في حمل اثقال الى تعرض للبرد والحر مما يعرضها لكثير من الاخطار . فاذا تشبث الطفل بمكانهِ وأبى ان يغادره راحت كل هذه الجهود عبثاً

ماذا تعمل هذه المرأة الآن وشبح العار واقف بالمرصاد . انها تقاسي من الآلام النفسانية فوق ما تحتمله اعصابها وقواها فتجد الامراض والافكار السوداء سبيلاً اليها . ويتغير تبعاً لذلك نظرها الى الحياة فكثيراً ما تقدم على الانتحار لتضع حدًّا لكل ذلك . ولكن الطبيعة تقسو عليها فتمنيها بزوال آلامها ومخاوفها عند الوضع اذا عرفت كيف تخفي عن العيون سرها . لذلك تراها ترجع عن فكرة الانتحار وتبدأ في خلق الاسباب للابتعاد عن الناس وتتحاشى مقابلتهم فتنزوي بين الجدران . تشد بطنها بالاربطة وتتفنن في الحيطة وتبالغ في كتمان امرها الى اقصى حد تستطيع معهُ اخفاء حملها عن المحيطين بها كما سأبينه لكم بالحوادث — الواقعة الحقيقية . هذه الآلام المبرحة تستمر شهوراً طويلة ليعقبها ما هو شر منها حين يأتي المخاض . في هذه الساعة الرهيبة تستجمع كل قواها الباقية وتتذرع بالمعاذير لتلد في مكان بعيد لا ينم على فعلتها .

تكبت آلامها فلا تتأوه ولا تئن خوفاً من سماع صوتها وانكشاف امرها . فاذا انتهت هذه الآلام المبرحة وهذا العذاب النفساني أخذت تفكر في اخفاء عارها فألقت بهِ في سواد الليل وغفلة العيون على قارعة الطريق وولت هاربة تظن في كل طرقة على الباب يد البوليس المؤذنة بالقبض عليها . اما المجرم الثاني فله من عذاب الضمير اكبر عذاب طول حياتهِ . ومن لعنات ابنه عليهِ حتى بعد مماته ما فيه الكفاية.

سادتي : — هذا ملخص بسيط لحياة حمل مستكن قدر لهُ أن يدعى لقيطاً . والآن انتقل لمسألة أخرى على جانب كبير من خطر الشأن وهي : —

ماذا اعددنا لهذا الطفل البريء وكيف نعوضه ما سلبتهُ يد الشر والفجور

هذا الطفل بريء لا ذنب له وهو ان كان غريباً عن المجتمع لما يحوطه من سر فهو على كل حال ابن الانسانية له حقوق اهمها : —

اولاً — ان نعمل على بث روح الفضيلة في نفوس الشباب وزرع بذور الدين لتثمر ثمرتها فلا تقع امثال هذه الجرائم الشنيعة مستقبلاً .

ثانياً — هذا الطفل له استعداد جميع الاطفال الآخرين فهو مساوٍ لهم في القوة والفكر والذكاء فيجب ان نفسح له طريقاً بين الآخرين.

ثالثاً — هذا الطفل البريء يجب ان يعوض فيساهم الاغنياء وأهل البر في رعايته الى جانب ما تقدمهُ لهُ الحكومة من ملجأ يأوي اليهِ فيتعلم ويعيش عيشة فاضلة .

رابعاً — يجب ان يكون هـذا الطفل محل عطف بعد ان فقد كل شيء يجب ان نمنحهُ عطفنا ورعايتنا .

ويسرني جداً ان اقول لكم ان كثيراً من هؤلاء الاطفال في الملجأ الذي اشرف على اطفاله يجد من عطف اولي الامر ما يحسده عليهِ الآخرون وكثيراً ما يتبنى بعض اهل اليسار لقيطاً وينزل لهُ بمحض ارادتهِ عن املاكه الواسعة بعد ان يبذل العناية في تربيتهِ

ان في بعض هؤلاء اللقطاء ذكاء يجب ان يستثمر ونفوساً غضة يجب ان تنشأ على الخير والفضيلة فالواجب يحتم علينا ان نهتم بهم لنكفر بعملنا الخيري عن جريرة الآخرين

والآن اقدم لكم فلماً سينمائياً عن اطفال الملجأ يبين لحضراتكم مبلغ ما نقوم بهِ نحوهم اسأل الله ان يوفقنا جميعاً للخير والسلام

الطفل اليتيم

للسيدة نبيهة علي

سيداتي . آنساتي . سادتي : قد تفضل من سبقوني بمحاضرتكم الليلة فذكروا الكثير عن الشريد واللقيط من النواحي النفسية والعلمية والصحية وأفاضوا في بيان ذلك التشرّد وقد وفّوا الموضوع حقه . لذلك رأيت ان أختصر عجالةً تستحق التطويل لولا ضيق وقتكم الثمين . تلك العجالة عن اليتيم . الذي هو أقوى اسباب التشرد والاجرام . فاللقيط تأويه ملاجىء حكومية ترعى مهد طفولتهِ وتهيء لهُ عيشةً صالحةً . أما اليتيم الفقير فلا ناصرَ لهُ ولا معين غير الله تعالى الذي جعل في قلوبكم الرحمة وأنزل فيها الحنان . لتشملوه بمجهودٍ عمليٍ ملموسٍ يقيهِ التشرّد والاجرام . ويخفّف من ألم نفسهِ فيصرفها عن الطالح ويُغذيها بحب الغير والعمل لخيرهم . قال تعالى (يسألونك عن اليتامى قل اصلاحٌ لهم خيرٌ) صدق الله العظيم

حقًّا ان بيان القرآن لسحرٌ حلال — إيجازٌ كلهُ حثٌّ وأمرٌ لاصلاح اليتيم غنيًا كان أو فقيراً لان الآية الشريفة لم تحدّد نوعَ اليتيم . فاليتيم الغنيُ يحتاج الى اصلاح حالهِ وتربيتهِ وقد حماهُ الشرع ممثلاً في المجالس الحسبية . اما اليتيم الفقير البائس فلا حول لهُ ولا قوة ولا معين سوى محسنٍ كريم وعطوفٍ رحيمٍ . ورُبَّ ذي يُتم لأم او اب اذا وصّيَ عليهِ امينٌ يخاف الله لم يذق في يتمهِ لوعة الاسى كما ذاقها حرّى يتمُ الفقر

ودَّ اليتيم لو ردّ عن امهِ او ابيهِ بما يستطيع غائلة الموت حتى يتربى في ظلهما ويعيش بمجهودهما وحتى لا يكون كلاً على المجتمع يستجدي الاكفّ لان ذلك كبيرٌ على نفسهِ . رأيت طفلاً مرةً يبكي بحزنٍ وحرقة في وحدة فأزعجت عليهِ خلوتهُ وسألتهُ « ما الذي يُبكيكَ ايها الصغيرُ ولا ينقصك شيءٌ في الحياة ؟ » فقال « يُبكيني تعبُ امي ونضالها في الحياة لاستكمال مطالبي واستدرار عطفٍ من بيدهِ الامر لانني يتيمٌ ! ! ويؤلمني جدًّا ان اسمع انني يتيمٌ » فشاركتهُ بدمعةٍ اخفيتها عنهُ وطيّبتُ خاطره قائلة « اعتمد على اجتهادك وستصبح رجلاً في المستقبل فتريحها من هذا التعب وتعوّض عليها ما فقدتهُ من راحة وسعادة عيشة راضية هادئة مطمئنة تلك التي يعيشها الطفل المتمتع برعاية الابوين الصالحين المثقفين . فينشأ ثابت الجنان مطمئنّ النفس كامل العقل . نشيط الجسم متوقد الذكاء يعيش في جو كلهُ مرح وسعادة فهنيئاً لهذا الطفل الذي حباه ربه بتلك النعم . وما أشقى واتعس حياة اليتيم . اليتيمُ عضو الامة المسكين الذي قست عليهِ الحياة قسوةً عاتية فصدمتهُ بموت امه او ابيه او كليهما فانتزعت منهُ مصدر الرحمة وينبوع الحنان والرعاية . وبدّلت سعادته بؤساً ونعيمه شقاءً فاصبح يضطرب ويقسو وتلتهب في نفسهِ جذوةُ الانتقام وتنبت في صدره بذور الحقد والشكِ لا سيما إذا دخل عليهِ دخيل

بعد فقد احد الابوين فتثور نفسهُ . فإما ان يصير خنوعاً ذليلاً كسيرَ القلب ضعيف الارادة . وإما ان يصبح متمرداً وقد يجرُّه التمرد الى التشرد والاجرام . وقد يرجع احد الأبوين الذي لم يمت كثيراً من الطأنينة الى نفس اليتيم بما يبدي من عطف وزيادة في العناية به والسهر على مصلحته فتهدأ نفسهُ ويخف بعض ألمه ولوعته . ولليتيم الغني في ذلك حظٌّ اوفر من اليتيم الفقير

ولو بحثنا في اسباب إجرام من آوتهم الاصلاحيات . لوجدنا اكثر الحالات هناك ناشئاً عن فقدان احد الابوين والاتيان بدخيلٍ على الطفل يسلبهُ حنان الوالد الباقي له . فينقمُ على المجتمع ويحاول الانتقام منهُ عن طريق الاجرام

وما من عابرٍ سبيلٍ قط او سائرٍ في طريق من طرق العاصمة . إلاَّ وافسد عليهِ جمال الطريق . إما جمعٌ من ابناء الشارع وإما شرذمةٌ من بناته . وليت القبحَ مظهرهم فحسب . إنما اولئك جموعٌ نقتهم الرذيلة وانحطَّت مداركهم بعد إذ تدهورت اخلاقهم فجاسوا سبل الضلال. وسبرُوا غورَ كلِّ قبيح وبذا اصبح هذا النبتُ الشائن وذاك الغراس المعيب خطراً داهماً على مظهر الامة ومدنية البلاد — هم اولاء اليتامى الذين لا عائل لهم . اومن حكمتا ظروف الفقر القاهرة بالتفرقة بينهم وبين ابويهم . فهل نكون لهم او عليهم ؟ وهل نتركهم هائمين على وجوههم يتضورون جوعاً وعرياً . او نعمل على ايوائهم ومبرتهم ؟

انتم وازواجكم واولادكم في ظلال بيوتكم . على الارائك تتكئون . لكم فيها دفءٌ ونعيمٌ مقيم . لكم في حدائقها فاكهة ولكم ما تشتهون — إذا كان هذا حظكم السعيد من الحياة الدنيا فادخروا فعل الخير للآخرة عملاً بقوله تعالى « ولا الآخرة خيرٌ لك من الاولى ولسوف يعطيك ربك فترضى . الم يجدك يتيما فآوى ووجدك ضالاً فهدى . ووجدك عائلاً فاغنى . فأما اليتيم فلا تقهر واما السائل فلا تنهر واما بنعمة ربك فحدِّث ». ما كان اليتيم ليرضى لنفسه اليتمَ والحرمان لو كان مخيراً ولكن ذلك تقدير العزيز العليم .(ليبلوكم ايكم احسن عملا)

فتسابقوا إلى البر . واجمعوا شتات اليتامى واسقوهم كأس العطف مترعاً . وكونوا لهم آباء وضعوا نُصب اعينكم فعل الخير كما فعل الرسول اذ مرَّ النبي صلى الله عليه وسلم في يوم عيدٍ بصبيةٍ يلعبون ويمرحون — ووجد بينهم صبيًّا ينحى عنهم ناحية ولمح على وجهه الكآبة فسأله « لِمَ لمْ تشاركهم فرحهم بالعيد ؟ » فقال «لاني يتيم » . فضمه النبي صلى الله عليه وسلم الى صدره وقال له «ايرضيك ان اكون اباك وعائشة امك وفاطمة اختك؟» واخذه وآواه ورباه

وارحمتاه لليتيم ان لم يعد يتذوق للرحمة مذاقاً . ولا يستسيغ للعطف طعماً ان يحمل بين جنبيه من العذاب الواناً ومن الشقاء انواعاً . وما ذلك الا لموت عائله . لقد تقطعت به الاسباب واعوزته الوسائل وسدت في وجهه السبل ولم يبقَ منها الا سبيل احسانكم . يعرف حبل

وقته في بكاء وحنين وامل ورجاء . يبكي عائله الذي كان بالامس واليوم يطويه الرمس . تراه يلاعب قرينه ويضاحكه. وما بقلبه شعاع للمرح لقد ابى عليهِ ثغرُ الزمان الابتسام له فاختطف عائلهُ وعمادهُ في الحياة . لقد غابت شمس سعادتهِ في أفق من دَمٍ بعد ان كانت في أفقٍ من نورٍ متلألىءٍ وضاحٍ . فيا ايها الاباء امسحوا دموعَ اليتامى البؤساء وارحموا من في الارض يرحمكم من في السماء. ولو تراحمَ الناسُ ما كان بينهم جائعٌ ولا عريان . ولا مظلومٌ ولا مغبون، ولأَقفرت الجفونُ من المدامع واطمأَنت الجنوبُ في المضاجِع ولمحت الرحمة الشقاء من المجتمع كما يمحو الصبحُ مدادَ الظلام . ولقد أعجبني قولَ الشاعر المرحوم الشيخ عبد المطلب في وصف اليتيم

يقول يا رب عيل صبري فهل درى ما لقيتُ جاري
يا جارنا لو أمَـلت احدى اذنيك من ظاهر الستارِ
سمعتَ خلفَ الستار صوتاً ينبيك عن صبية صغار
تشكو اليك بالنهار لما امضّها الجوعُ بالنهارِ
ولو سألتَ الظلامَ عنها تجيبك الأنجمُ السّواري
فهل دَرَى جارُنا عيالاً غرثى إلى كسرةٍ قفارِ

بعد هذه الابيات لا يسعني الاَّ ان اقول لـكم ما قال رسول الله صلى الله عليهِ وسلم « من ضم يتيماً من بين يتامى المسلمين الى طعامه وشرابه حتى يغنيه الله تعالى اوجب الله له الجنة البتة الاَّ ان يعمل عملاً لا يغفرهُ الله لهُ »

***

وقد جاء رجل الى النبيّ صلى الله عليهِ وسلم وشكا اليهِ قسوة القلب فقال له النبيّ صلى الله عليهِ وسلم « إن سرّك ان يلين قلبك فامسح برأس يتيمٍ واطعمهُ »

الـكلام في وصف اليتيم كثير وجزاء الله للمحسنِ فلنتكاتف ونتعاون على إقالة اليتيم من ألم يُتمهِ ونسرع باخراجهِ من وحدة شقائهِ وخيرُ البرِّ عاجله وافضل ما يعمل لهؤلاءِ اليتامى ايجادُ منازل لايوائهم وإطعامهم وسد حاجاتهم . اما امر تعليمهم فيوكل الى وزارة المعارف . وافضل ما يكون من امر تعليمهم ان يتعلموا مع ابناءِ الشعب حتى لا يشعروا بألم اليتم.وباختلاف حالهم عن غيرهم والطفل شديد الاحساس سريع التأثر . يتعلمون نهاراً في المدارس العامة ويلجأُون ليلاً الى منازل معدة لراحتهم . يجدون فيها من الحنان ما يعوض عليهم ما فقدوه بفقد الوالدين . هذه المنازل لا يمكن ان توجد نفسها ولا ان تدبرَ المال اللازم للانفاق عليها وإنما جودكم واحسانكم وعطفكم على الانسانية هو السبيل الوحيد لانشاء تلك المنازل فجودوا يزدكم الله من خيره (وهو ولي التوفيق)

الطفل الاعمى

للدكتور محمود عزمي القطان بك

سيداتي وآنساتي وسادتي : لا ارى افصح في التعبير عما يمكن عمله للترفيه عن الطفل الاعمى وتدرجه في مراحل التعليم من ان اعرض على حضراتكم شريطاً سينمائياً لمعهد العميان الرئيسي بأميركا المعروف بمعهد بركنز Perkins Institute بالقرب من مدينة بوستن بالولايات المتحدة الاميركية وسترون فيه طرق التعليم من رياض الاطفال الى درجة الكلية ونظم المعيشة والالعاب الرياضية والتعليم الصناعي مما يدعو للاعجاب حيث يربى الطفل الاعمى ويتدرج في التعليم حتى يحصل على قسط وافر من الثقافة تجعله في مستقبل حياته عضواً نافعاً للمجتمع . وكم كان شعوري بما عليه بلادنا من التقصير نحو العميان المصريين عند ما اطلعت على ما تفعله تلك البلاد للقيام بالواجب نحو عميانها . ومما يجعل المقابلة اشد ألماً إن نسبة العميان في مجموع تعداد القطر المصري اكثر بمراحل من اي نسبة اخرى ولم يكن بمصر حتى القريب اي عمل جدي نحو رعاية العميان الى ان أنشئت الجمعية المصرية لرعاية العميان في عام ١٩٣٢ برئاسة المغفور له الدكتور محمد شاهين باشا فأسست معهد الغلمان الضريرين بالزيتون ولا إخالكم إلاَّ قد شاهدتم شريطاً سينمائياً عن هذا المعهد في دور السينما حديثاً اخرجته شركة بنك مصر . وسعت الجمعية لدى وزارة المعارف العمومية فتكرمت الوزارة بأن تقوم بنفقات المعهد المذكور وهو الآن تابع لها كنواة لمانتوية من تعليم العميان بمصر على الطرق المستحدثة . وقد أخذت الجمعية على عاتقها ان تجد العمل لخريجي معاهد العميان فبدأت بانشاء المصنع الحالي التابع لها بجهة الزيتون ايضاً حيث يقوم اول فوج من خريجي معهدها القديم بصنع الفرش من كافة الاصناف بنجاح عظيم يبشر بالخير لهذه الفئة المسكينة. وقد اضافت الحكومة الى سخائها السابق ان اعطت للجمعية أرضاً في جهة الدقي بالجزيرة مساحتها ٦٠٠٠ متر مربع لكي تبني عليها ملجأ ومصنعاً للعميان يتسع لاكبر عدد ممكن من الصناع المتخرجين من معاهد الوزارة الحالية والمستقبلة . والجمعية لها كبير الامل في ان يعضدها الجمهور بالاشتراكات والتبرعات لكي يمكنها القيام بهذا المشروع الكبير

ومما لا شكّ فيه ان مكافحة العمى خير بكثير من ان ندرس الوسائل التي نكفل بها هؤلاء المساكين بعد وقوع المصاب . ومن الممكن بواسطة التعاون الاجتماعي ان نمنع العمى عن الكثيرين من مواطنينا الفقراء وهذا ضمن حدود الواجبات التي تأسست من اجلها الجمعية المصرية للخدمة الاجتماعية التي كانت البلاد في اشد الحاجة الى مثلها من زمن بعيد . واذا اردنا لبلادنا حياة عزيزة وجب لكل فرد منا ان ينسى نفسه لخدمة المجموع والواجب على كل فرد منا ان يكون جنديًّا يدافع عن الانسانية المعذبة في هذه الديار وعليه ان يقدم نفسه الى القيادة العامة التي تمثلها هذه الجمعيات المباركة فلا يبخل عليها بماله او علمه أو جهوده فالى العمل منذ الآن

باب المراسلة والمناظرة

الدهن والشحم

والقول الفصل فيهما

Oil and fat

للفريق امين المعلوف

في مقتطف يناير الاخير مقالة ممتعة للاب انستاس موضوعها الدهن جاء فيها ما يأتي : الدهن في كتب اللغة مصدر لدهن الشيء اذا بلّهُ. فكل ما يبل شيئاً يسمى دهناً . هذا من باب التعميم واما من باب التخصيص وعلى ما يتحصل من كتب الادب والعلم بل من اسفار اللغة نفسها فان الدهن كل مادة دسمة

ولما كان الدسم يوجد في الحيوان والنبات والجماد كان تعريف الدهن كل جوهر دسم من حيوان ونبات وجماد ونحن نؤيد هذا القول بالنقل عن الأئمة

وجاء في هذه المقالة الدهن النباتي ما يستخرج من عصر بعض الانبتة التي فيها زيت كالبان والزيتون والزنبق والخردل والسمسم والجوز واللوز والجلوز والمشلوز وهي كثيرة جمة العدد

واحسن دليل على وجود الدهن في النبات ما جاء في سورة المؤمنين « وشجرة تخرج من طورسيناء تنبت بالدهن وصبغ للآكلين » فليس شيء اوضح من هذا الكلام على وجود الدهن في الزيتون ولا جدل في هذه المسألة — انتهى كلام الاب المحترم ثم زاد على ذلك وصف الدهن والزيت وقال ما محصلهُ ان الدهن غير الزيت وانهُ مادة دسمة تدخل في بعض الزيوت . قلت وقد ذكرت هذه الآية في مقتطف ابريل من سنة ١٩٣٦

الى ان قال: وجود الدهن في الحيوان امر لا ينكر . قال ابن البيطار في ترجمة (القاوند) : أبو العباس الحافظ : هو دهن معروف لونهُ مثل لون السمن ، وقوامهُ في الجمود كذلك . وهو

معروف بالحجاز يؤتى به من اليمن ومن بلاد الحبشة . ويأتيهم من الهند » الى آخر ما قالهُ وهو لا يريد زيت الزيتون ولا غيره . أما الدميري فيقول :« القاوند طائر يتخذ وكره على ساحل البحر » . وهذا الطائر المتخذ منهُ « شحم » القاوند المعروف وهو يقيم المقعد . . . » الى آخر ما قال . فما سماه ابو العباس الحافظ «دهناً» سماهُ الدميري شحماً لانهما شيء واحد . قلت ليس هما شيئاً واحداً فاذا دققنا كان الصواب في جانب الدميري لان الدهن على التدقيق لا يكون في الحيوان بل عادة في النبات وهذا حيوان . الى ان قال الاب انستاس وهذا أبين دليل على ان الشحم والدهن من جنس واحد فهو شحم اذا كان جامداً وهو دهن اذا ماع او لم يمع . قلت فقولهُ من جنس واحد كقولنا الضأن والمعز من جنس واحد فالضأن من ذوات الصوف والمعز من ذوات الشعر وكلاهما غنم ولكنهما مختلفان فالدهن مختلف تمام الاختلاف عن الشحم في الفصيح من الكلام كما سيجيء

الى ان قال : وأهل بغداد يسمون السمن دهناً ومنهم من يقول دهناً حراً لتمييزه عن سواه من شحم وزيت الى غيرها ويقولون « هذا اللحم دهين » اذا كان كثير الودك والشحم فقول الاطباء والكتبة المواد الدهنية اصح من قولهم المواد الشحمية لشهرة اللفظة عند جميع الناطقين بها من مصريين وسوريين وعراقيين الى غيرهم . قلت فليسمح لي الاب انستاس ان اقول ان هذا الكلام فيهِ شيء من مخالفة الواقع فالعراقيون لا يقولون دهناً بهذا المعنى بل يقولون دهيناً كما مرّ والدهين غير الدهن الى ان قال الاب انستاس لان صحة الدهن لا غبار عليها اذ تعني الشحم والزيت وكل مادة دسمة اذ في الالية دهن وشحم وفي الانسان دهن وشحم وفي الامعاء دهن وشحم ، قلت هنا فيه شيء من مخالفة الواقع ايضاً وخطأ فسيولوجي والصواب ان يقال الشحم فقط في جميع هذه المواضع اي يقال ان في الالية شحم وفي الانسان شحم وفي الامعاء شحم فلماذا دهن وشحم فان كان الدهن هو ما يريدهُ الاب انستاس فليحذف منهُ الشحم وإن كان الشحم فليحذف الدهن اي يحذف واحدة منها ولكن الاب انستاس لا يزال يعتقد ان الدهن بلغة مصر والشام صواب ويصعب زحزحتهُ عن هذا الاعتقاد فليأتني بشاهد واحد من كتب اللغة ان الدهن معناه الشحم ولكنهُ لا يقدر . ألا ترى ان أحمد فارس وقد رأى

اميرة لبنانية في صومعة راهب « في مار الياس » شويّا قال قد ملأَت الطنفسة شحماً ولحماً ولو تكلم بلغة لبنان وهو لبناني لقال لقد ملأَت الطنفسة دهناً ولحماً ولكنهُ آثر اللغة الفصحى فقال شحماً ولحماً . الى ان قال الاب انستاس هذا فضلاً عن أن الشحم كلمة مبتذلة صارت اليوم من لغة القصّابين واللحّامين والشحّامين فما قول الاب المحترم في آية وردت في سورة الانعام والآية هي « وعلى الذين هادوا حرّمنا كل ذي ظفر ومن البقر والغنم حرّمنا عليهم شحومهما الاَّ ما حملت ظهورهما او الحوايا او ما اختلط بعظم ذلك جزيناهم ببغيهم وإنا لصادقون » الآية . ولا اظن الاب المحترم يقول الآن انها مبتذلة ومن لغة القوم الذين ذكرهم ولا أفهم كيف يغفل عن ذلك وهو لا يغفل عن شيء ثم إنهُ لم يأت بشاهد واحد يثبت ان الشحم هي الكلمة الفصحى ولكنهُ وجه كل عنايته للفظ الدهن ومن الصعب زحزحته عنه فالشحم هي الكلمة الفصيحة لهذا المعنى والدهن عامية بلغة مصر والشام ولهم عذر في الشام لانهم يستعملون الدهن في لبنان وبعض قرى الشام بمعنى الشحم المذاب اي الاهالة وهو سبب خطأ اهل الشام فيما اظن

هذا وقد ورد ذكر الشحم مراراً عديدة في التوراة وهو بمعنى الشحم في القرآن الكريم وانكليزيته Fat or grease وفرنسيته Corps gras ou graisse وقد ذكرت هذه الالفاظ خدمةً للمعهد الطبي في دمشق حتى يأخذوا بها

اما الدهن والزيت فوردا مراراً في التوراة وهما بمعناها في القرآن الكريم على ان الدهن معناه في التوراة وفي بعض الاماكن منها المطيب من الزيت والزيت في اماكن اخرى فكلهُ زيت. اما الدهن فانكليزيته وفرنسيته Oil or huile ومن قال غير ذلك فليقنعني بكتب اللغة لا بغيرها

ان كلمة دهن هي الشائعة في جميع انحاء الشام للشحم واريد بالشحم ما هو وارد في القرآن الكريم اي ان الشحم هو الودك جميعه لا كما يظن العامة هو شحم الامعاء فقط ولكنهم يقولون في لبنان وجميع قرى الشام دهن للشحم المحفوظ ويسمونهُ قاورمة وهو اللحم بعد قطعه قطعاً صغيرة واضافة شحم الالية وغيره من الشحم وطبخه وهم يسمونه ايضاً قاورمة واظنها تركية وهو السبب على ما اظن في تسمية الشحم بالدهن والله اعلم

هندسة الكون

بحسب ناموس النسبية

ردّ على نقد

لنقولا الحداد

اشكر لحضرة البحاثة الدكتور اسمعيل احمد ادهم عنايتهُ بنقد كتابي « هندسة الكون بحسب ناموس النسبية » في مقتطف يناير الاخير (صفحة ١١٤ — ١١٧) وارحب بملاحظاته القيمة ترحاب المفكر والمتبحر في كل فكرة دقيقة عميقة . واشكر لهُ ايضاً ثناءهُ وتقديره قيمة تجشم المشقة في بحث موضوع النسبية الذي يُعَدُّ اعوص الموضوعات العلمية في هذا العصر

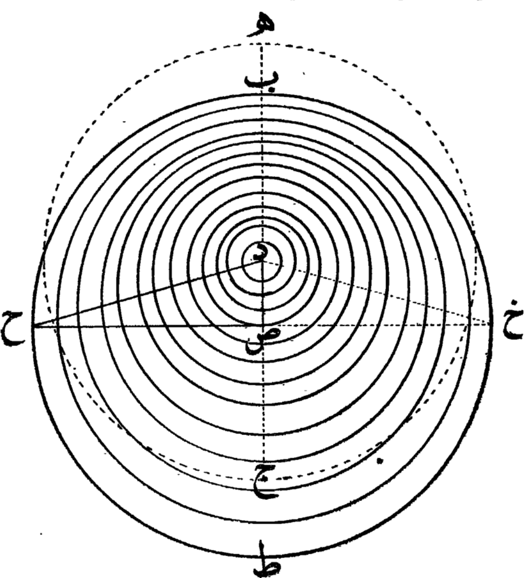
وأهم ما في نقده ملاحظته بشأن تفسير ظاهرة تقلص الاجسام في اتجاه سرعتها . وقد فهم من تفسيري لها اني اعتبر هذا التقلُّص حقيقةً فوزيقيةً اي حقيقة طبيعية واقعة . ثم يوعز بوجوب التفريق بين الواقع والظاهر بقوله بحروفه : — « يجب ان نفرق بين ما هو داخل في نطاق الفوزيقا الثانية مما هو راجع لاعتبار انساني ، وبين ما هو ضمن الفوزيقا الاولى مما يعرض لعالم الطبيعة من حيث هي . لان موضوع الفوزيقا الثانية يتصل بعالم المظاهر ، بينما موضوع الفوزيقا الاولى يتصل بما هو واقع . اذن فلنا ان نسأل هل ظاهرة التقلص في الاجسام في اتجاه حركتها حقيقة واقعة ام هي حقيقة تتصل بعالم المظاهر ، فان كانت حقيقة تتصل بعالم المظاهر فهل يصح تفسيرها تفسيراً واقعيًّا ؟ »

يجد حضرتهُ جوابي عن هذا السؤال : أولاً في اسفل صفحة ٢ وأعلى صفحة ٣ ثانياً في الفصل السادس ولا سيما في اواسط صفحة ٥٩ حيث ختمت الفقرة بهذه العبارة : تقرَّر ان هذه المسافة تعتبر متقلصة : اي انها في نظر عمر أقل مما هي في يقين زيد . اي ان هذا التقلص حقيقةٌ ظاهرةٌ في نظر عمر . ولكنهُ غير حادث بتاتاً في يقين عمر . وهذا هو المراد بالنسبية

وفي فصل التواقت (السابع) يتضح جيداً هذا الفرق بين الواقع في يقين احد مراقبين والظاهر في نظر المراقب الآخر

والظاهر لي ان حضرته يشير بالخلط بين الواقع والظاهر الى تفسيري للتقلص في الفصل الثاني (صفحات ٣٥ — ٤١) ، او انهُ يحسب ذلك التفسير تفسيراً للتقلص الظاهر كأَنهُ تقلص واقع حقيقة

على ان ادينغتون نفسه الذي بنيت تفسيري ذاك على قولهِ الموجز في تعليل التقلص يسأل نفس السؤال الذي يسأله حضرة الدكتور اسمعيل . ثم يقول ادينغتون : أن هذا التقلص حقيقي واقعي Real وحقيقي يقيني True ولبيان الفرق بين الحقيقتين تنظر نظرة الى الرسم الذي فسّرت بهِ التقلص تفسيراً وصفيًّا ورياضيًّا



لنفرض ان زيداً يقيم في النقطة (ص) وهي تنتقل بهِ الى النقطة (د) فالواقع عنده Really ان المسافة التي ينتقلها من (ص) الى (د) لا تتقلّص . واما عمر المراقب وراء (ج) خارج الرسم مثلاً فالحقيقة Truly في يقينهِ ان تلك المسافة متقلصة . —لان الامواج الكهرطيسية التي تبلغه خبر انتقال زيد لا تصل اليهِ إلاَّ بعد ان يكون زيد قد تجاوز النقطة التي كان فيها حين صدرت الموجة منها ورحلت الى عمر

اذن التقلص الذي علله هو حقيقي true في يقين عمر وان كان غير واقعي not Real عند زيد . وعلى هذا الاعتبار قامت النسبية

ولو انتقل عمر الى جنب زيد بغتة لانتفت هذه الحقيقة عنده . والدكتور اسماعيل نفسهُ يعترف (في وسط صفحة ١١٥) بان « الراصد اذا نظر الى جسم مسرع بسرعة النور لا يعود يراه الا كصفحة رقيقة ». وازيد على قوله ان الجسم اذا تجاوزت سرعته سرعة النور لا يعود الراصد يراه بتاتاً ، لان النور لا يدرك الجسم المسرع لكي ينعكس عنه الى الراصد . واذا كان الجسم المسرع نفسه منيراً فلا يصل نوره الى الراصد الا احمر او ما تحت الاحمر infra-red . وان زادت سرعته ايضاً فلا يعود الراصد يشعر بنوره بتاتاً لان امواجه تصبح من طبقة Octave غير الطبقة النورانية التي يحس بها البصر الانساني

فهل يا ترى تقلص الجسم المسرع (كسرعة النور) الذي اصبح كلوحة رقيقة ، ثم اختفاؤه ، ثم اختفاء شعاعه ، بتاتاً عن عين الراصد — هل هذه الحالات الثلاث اوهام في خيال الراصد مخالفة للواقع ؟ ام هي حقائق يقينية لهُ ؟

لا ريب انها حقائق (true) يقينية لهُ . اذاً الجسم المسرع متقلص تقلصاً حقيقيًّا في يقين الراصد ، وغير متقلص في يقين من هو راحل معهُ (اي مع ذلك الجسم) . وعلى هذا الاعتبار قامت نظرية النسبية

وحاصل القول انه ليس في مباحث الكتاب ما يثبت اني لا افرق بين النظرين — نظر المراقب البعيد للجسم المتحرك ونظر من هو مرافق للجسم المتحرك ، خلاف ما توهم حضرة الناقد

بقيت ملاحظة حضرته في قضية « التواقت » واعترف بكل تواضع اني لم افهم ماذا يعني بها . وقد راجعت ما كتبتهُ في صفحتي ٦٨ و ٦٩ فلم اجد التباساً ولا غموضاً فيهِ يوهم ما يخالف نظرية اينشطين . بل بالعكس فيهِ صراحة ووضوح يوافقان النظرية

وقد اشار حضرته اشارتين الى قضية انحراف شعاعة النور عند مرورها على مقربة من الشمس ، وقضية تحدُّب الابعاد الاربعة . ولم يفصح فيها عن ملاحظتيهِ

« وضرب حضرته صفحاً عن الاخطاء الاصطلاحية وهي كثيرة في الكتاب » في رأيهِ . فحبذا لو ارشدنا اليها ودلّنا على تصحيحها في متون لغتنا العربية او في اعمال المجمع العلمي اللغوي الموقر . فنزيده شكراً على شكر

واخيراً ارجو من حضرته ومن كل من يطلعون على الكتاب ان يثقوا اني لا ادعي العصمة — معاذ الله — ولا اتبرأ من الخطاءِ في بحث النسبية العويص ، الا اذا قدّر لي ان اكون اينشطين نفسهُ او احد انداده . وهو الامر المستحيل



العشرة المقدمون في تاريخ الفكر العربي

قرار لجنة التحكيم

اجتمعت اللجنة في تمام الساعة الخامسة من مساء الجمعة ١٤ يناير سنة ١٩٣٨ وحضر جلستها كل من الاستاذ ا . ه . ر . جب استاذ اللغة العربية بجامعة اكسفورد وعضو مجمع اللغة العربية الملكي والاستاذ الشيخ مصطفى عبد الرازق استاذ الفلسفة الاسلامية بالجامعة المصرية والاستاذ احمد امين استاذ الادب العربي بالجامعة المصرية واسماعيل مظهر سكرتير المجمع المصري للثقافة العلمية وفؤاد صروف محرر المقتطف ، وقرئت الرسائل وعددها خمس ، وقد رأت اللجنة ان رسالة منها غير مستوفية لشروط المسابقة وهي الرسالة التي رمز صاحبها لاسمه بحرفي « ك . ن »

أما الرسائل الاربع الاخرى التي استوفت شروط المسابقة فقد رأت اللجنة ان كاتبيها لم يلحظوا تماماً الاسلوب الذي اختير لكتابة الرسائل ، ورأت فوق ذلك ان اصحابها اعتمدوا على الترجمة في الاكثر دون الرجوع الى المظان الاصلية ، فوقعت اخطاء في بعض الاسماء المشهورة واخطاء اخرى في اسماء كتب عربية معروفة ، وانهم جروا على طريقة العرض لا على طريقة التحليل الفلسفي او الأدبي الذي يظهر سر العبقرية والعظمة في شخصيات من اختاروهم من العظماء

وبعد البحث والمقابلة قررت اللجنة ان لا تمنح الجوائز التي نشر عنها لأحد من الكاتبين واحتفظت بالاظرف المحتوية على اسماء حضراتهم غير مفضوضة ، وقررت كذلك ان توجّه الشكر الخالص الى حضرة صاحب السعادة اسعد باسيلي باشا وان ترغب اليه ان يبقي هذا المبلغ من المال رهن عمل ادبي آخر رأت اللجنة ان يكون على غير اساس المباراة بان يعهد الى كتّاب مختصين في كتابة فصول في موضوعات مختلفة وأن يوزّع عليهم هذا المبلغ مكافأةً لهم ، ثم تقوم إدارة المقتطف بطبع هذه الفصول في كتاب تهديه لمشتركيها باسم سعادة الواهب لذكرى الدكتور يعقوب صرّوف   ويلي ذلك : التوقيعات

في منزل الوحي

تأليف الدكتور محمد حسين هيكل بك

كثيراً ما تمنيتُ لو ان المشتغلين بالتصنيف الفني السيق من كتّاب العربية الذين زاروا الحجاز وعرفوه ، يُعنون بهذه الناحية كعناية علاّمة الهند السيد سليمان النّدوي في كتابه (أرض القرآن) ، وكعناية شيخ مستشرقي هولندا هرغرونجه في كتابه الكبير عن مكة والحجاز . ولما أقمتُ في مكة والحجاز شطراً من سنوات الحرب العظمى أخذتُ أستعدُّ لهذه المهمة ، وجمعتُ لها مواد أغتبط بها [1] ، لكني تهيبتُ اخراجها في كتاب ارتضيه ، لان الموضوع أعظم من ان يلمّ بهِ محبٌّ الكمال ما لم ينقطع لهُ . والى الآن لا تزال المكتبة العربية مفتقرة الى الكتب الجيدة عن بلادنا المقدسة ، وعن سائر بلاد العرب وأقطار المسلمين ، وكان من حق قراء العربية على كتّابها ان يملأُوا هذا الفراغ ويتفنّنوا فيهِ ، لولا ان المشتغلين بالتصنيف اتخذوه في الحقبة الاخيرة وسيلة للاستغلال والكسب وقلّ من ينقطع منهم لخدمة العلم لاجل العلم وحده

أما كتاب (في منزل الوحي) الذي اخرجهُ للناس في هذه الايام معالي الدكتور محمد حسين هيكل بك ، فان اثر العناية والبحث والتفكير بادية للقارىء في كل فصل من فصوله . وقد قال في مقدمته يصف ما توخاه فيهِ : « لقد وجّهت اكبر عناية الى آثار الرسول الكريم في البلاد المقدسة ، وجعلت جلّ همي ان اسير حيث سار ، ألتمس ما في حياتهِ من اسوة وعبرة ، وأرجو ان أقف على شيء من السر الذي هيأ هذه البلاد لتكون منزل الوحي الى النبيّ العربي خاتم الانبياء والمرسلين . ولم أتقيد في تفكيري وتأملي أمام شيء مما رأيت بغير منطقي وعقيدتي الذاتية اللذين كوّنتهما الطريقة العلمية الحديثة . فأنا لا اسلم بالعقيدة الموروثة اذا لم يكن لها اساس غير ما وجدنا عليهِ آباءنا ، ما لم امتحنها وأمحصها ، وما لم اصل من امرها الى الايمان بانها هي الحقيقة كما يسيغها عقلي ويطمئن اليها ضميري . ولقد جعلت السير في اثر الرسول غرضي من يوم أتممت مناسك الحج . والحق اني لم اجد مشقة في تعرف الآثار التي هدمها الوهابيون قبلها ، لكني انما وجدت المشقة في الاهتداء الى آثارٍ لها في تاريخ المسلمين الاولين أثر بالغ . من ذلك اختلاف الاقوال على موقع حُنين حيث كانت الغزاة التي تركت في تاريخ الاسلام اثراً قل كمثله اثر . ومنه اختلافهم على موقع عكاظ سوق العرب جميعاً في الجاهلية وفي صدر الاسلام . وانما سوّغ

---

(١) نشرت منها في السنة الخامسة من مجلة (الزهراء) فصلا عن عهد جرهم في الحجاز ، ونشرت في السنة الثانية من المجلة السلفية فصلا من الكتابات الباقية على بعض جبال الطائف وفي طريق الطائف الى مكة

الجهلُ الذي خيم على بلاد العرب من عصر العباسيين هذه الجناية النكراء ، كما سوّغ امراً لا يقل عنها نكراً ، فقد اقيمت آثار لحوادث وقعت وليس في التاريخ ما يدل على انها وقعت حيث تقوم هذه الآثار ، واقيمت آثار لحوادث لا يعرف التاريخ الحق من امرها شيئاً . وتحقيق ذلك كله وبيان قيمته العلمية امر جدير بكل من يريد الحقيقة . وقد حاولت من ذلك ما استطعت . لكن هذا التحقيق يحتاج الى أضعاف الزمن الذي قضيته بالحجاز . وكان حديث الآثار الصحيحة التي وقفنا عندها كله البلاغة في التعبير عما تدل عليه وتوحيه الى النفس من آي الجلال والعظمة. فجبل حراء والغار في قمّته ، ومسجد عدّاس بالطائف ، ومسجد العقبة وجمرتها ، وجبل ثور ومختبأ رسول الله وابي بكر بالغار فيه ، والطريق الذي سلكه النبي الى المدينة في هجرته من مكة ، ومسجد قُباء ، والمسجد النبوي والآثار الكثيرة بالمدينة ، وميدان بدر حيث وقعت الغزوة الاولى بين قريش والمسلمين ، هذه المواقع وما اليها كانت تثير امام ذهني ذكرياتٍ مليئةً بالحياة كانما حدثت بالامس ، وكانت توحي اليّ معاني الاكبار والاعظام وتزيدني اجلالاً لهذه الاماكن في صمّها العميق لم يغيّرمنهُ توالي القرون »

الى ان قال : « ليس هذا الكتاب مرجعاً من مراجع التاريخ الاسلامي ، ولا شيء فيه من تقويم بلاد العرب . انما هي وقفات وقفتها في بلاد الوحي ومنزله استوحي فيها مواقف محمد عبد الله ونبيه ورسوله . وهناك في هذه المواقف تجرّدت نفسي وسمت روحي وكرتُ بالعصور والقرون اطويها ورحت اتمثل هذا الهادي الكريم ، واتمثل المسلمين من حوله ألتمس في ذلك الاسوة والعبرة آملاً ان اشرك فيهما اخواني . لم اتقيد في هذه المواقف بما جاء في كتاب غير كتاب الله ولم أخضع تفكيري لحكم غيري . لقد تركت نفسي على سجيتها ، تتوجه بوحي روحي وتستلهم الحقّ من حولي ، وتستعرض ما تستلهم على حكم عقلي وتقدير ضميري ، ثم سطرت ما اجتمع من ذلك لا ابغي الاّ رضاء الله وحسن ثوابه »

ثم قال « كيف نستطيع ان ننقل ثقافة الغرب الروحية لننهض بهذا الشرق ، وبيننا وبين الغرب في التاريخ وفي الثقافة الروحية هذا التفاوت العظيم . لقد خفي هذا الكلام عني سنوات كما لا يزال خفيًّا عن كثيرين . وقد حاولت ان انقل لابناء لغتي ثقافة الغرب المعنوية وحياته الروحية لنتخذها جميعاً هدًى ونبراساً ، لكنني ادركت بعد لأيٍ انني اضع البذر في غير منبته فاذا الارض تهضمه ثم لا تتمخض عنه ولا تبعث الحياة فيه . وانقلبت التمس في تاريخنا البعيد في عهد الفراعين موئلاً لوحي هذا العصر ينشىء فيه نشأة جديدة ، فاذا الزمن واذا الركود العقلي قد قطعا ما بيننا وبين ذلك العهد من سبب قد يصلح بذراً لنهضة جديدة . ورو ّأتُ فرأيت ان تاريخنا الاسلامي هو وحده البذر الذي ينبت ويثمر ، ففيه حياة تحرّك النفوس وتجعلها تهزّ

وتربو . ولابناء هذا الجيل في الشرق نفوس قوية خصبة تنمو فيها الفكرة الصالحة لتؤتي ثمرها بعد حين »

***

هذه مقاطع من كلام المؤلف عن موقفه من موضوعه ، ووصفه العمل الذي اقدم عليهِ ، وهو يعتبره تمهيداً لبحوث جامعية يؤمل في اهل البحث من رجالنا ان يقوموا بها ، لان تركة السلف لا تزال بكراً وفي حاجة الى الايدي الرفيقة من اصحابها لتنظيمها وبعث الحياة فيها واستمداد الحياة منها

وهذا السفر النفيس الذي تقدم بهِ هيكل بك الى قراء العربية في هذه الايام يتألف من ستة كتب اولها في فرض الحج والرحلة اليهِ حتى وقفة عرفة وايام التشريق . والثاني عن البلد الحرام وصف فيهِ مكة الحديثة وابن السعود بمكة والجمعة في الحرم وجوف الكعبة وآثار مكة وغار حراء وغار ثور وظاهر مكة . والثالث عن الطائف وآثارها وباديتها وما كان للعرب فيها من اسواق . والرابع عن طريق المدينة ووحي المدينة . والخامس في المدينة ومسجدها وآثارها و بقيعها وظاهرها . والكتاب الاخير عن بدر وشهدائها وأوبة الرضا . ثم تساءل في خاتمة كتابه : ما بال قوم في عصور وبلاد مختلفة جحدوا الحياة الروحية وكفروا بفضل الايمان ؟ ويعلل الدكتور ذلك بان تعاليم عصور الانحلال انصرف الحظ الاوفر منها الى الجانب المادي من الحياة والى تنظيمه بكتب الفقه وقواعد الشرع ، فنشأ عن ذلك تفريط في جانب الحياة الروحية التي تصوروها صورة مادية لا تزيد مداها عما يقع عليهِ الحسّ وينحصر في حدود ادراكه ، فخضعت الامم الاسلامية لغيرها بسبب ذلك التفريط واذعنت لسلطان من آتاهم العلم مفاتيح السلطان . ولا مفرّ لبعث الحياة في الامة من تضافر مقررات العلم ومقررات الالهام لتنظيم الحياة، ولا مفرّ من الاحاطة عن طريق العلم والالهام جميعاً بحياة الكون الى غاية ما ندركه من مدى الزمان والمكان ، لنعرف موضع الانسانية منها وما تطيقه من نشاط فيها ، لتؤدّي رسالتها في الكون على خير وجه ، بان تبذل في الانتاج العقلي والروحي اخصب مجهود واحكمه واعظمه ، ولتؤدّي هذه الرسالة عن ايمان بها هو الحافز الصحيح للعمل المثمر

***

ان كتاب (في منزل الوحي) لا يقتصر على انهُ وصف للانطباعات التي شعر بها الدكتور هيكل بك وهو في منزل الوحي ، بل هو فوق ذلك حلقة من تاريخ التطوّر الفكري عند المؤلف قد يكون لها شأنها فيما سيصدر عنهُ بعد اليوم من اعمال نفيسة اخرى . وهو كتاب خليق بان يقرأه الشباب المثقف من قراء العربية في جميع اوطانها

محب الدين الخطيب

كتب شرقية باللغة الفرنسية

— ١ —

E. Dinet et El Hadj Sliman Ben Ibrahim—La vie de Mohammed, Prophète d'Aallah — Paris, G.— P. Maisonneuve, 1937.

أ. دينيه والحاج سليمان بن ابرهيم

سيرة محمد، نبي الله

قد كثرت التآليف عن سيرة النبي العربي في السنين الاخيرة سواء في الغرب او في الشرق وهذا الكتاب يمتاز عن غيره بأن احد صاحبيه فرنسي أسلم وحسن اسلامه فراح يكتب في شؤون الاسلام كتابة المهتز قلبه المنشرح صدره .

تضم هذه السيرة اهم اخبار النبي وهي مسرودة كأنها صور متلاحقة ، ويرجع ذلك الى ان المؤلف الفرنسي رسام . ومصادر هذه السيرة لا تخرج عن المعروف من طبقات ابن سعد وسيرة ابن هشام والسيرة الحلبية . وقد التزم المؤلفان المنقول في تلك المصادر ولم يذهبا في السياقة مذهب الناقد ولا المنقب لانهما يعدان مثل هذا المذهب مدرجة للخطأ والتحامل

وربما يهم القارىء العربي ان يعرف رأي (ا. دينيه) في صيرورة الاسلام . فقد ذكر الرجل في خاتمة الكتاب ان اسباب انحلال الشوكة الاسلامية ترجع في رأيه الى ثلاثة امور . اما الاول فابتعاد جمهور المسلمين منذ القرن الاول عن السنة المحمدية . واما الثاني فهجوم خرافات الامم الداخلة في الاسلام على الدين الحنيف وانتشار مغالاتها . واما الثالث فاقلاع المسلمين في العهد الحديث عن نظام فائدة المال ذهاباً منهم انها تدخل في الربا . فبهدم هذه الامور تزول اسباب انحلال شوكة الاسلام . واما ما يُتهم به الاسلام من انه مبني على التعصب وتعدد الزوجات والاستسلام للقدر فكلام لا محصول له في الواقع لان في الاسلام الصحيح ما ينفي التشيع لدين على دين ولان تعدد الزوجات من طريق الشرع خير من الزنا ولان الاستسلام للقدر اسلام لمشيئة الله وليس بتوانٍ وقعود عن العمل ودليل هذا الجهاد

ثم يختم المؤلفان كتابهما ببسط الآمال الجسيمة المعلقة على الاسلام بعد ان ينفض المسلمون سباتهم الموقت عن اعينهم

— ٢ —

Out el Kauloub. Harem, Librairie Gollimard, Paris 1937

هذه مجموعة قصص قصيرة الفتها السيدة الجليلة قوت القلوب باللغة الفرنسية ونشرتها المجلة الفرنسية الحديثة فيما تنشره من المؤلفات المستقلة الخاصة بالاقصوصة الحديثة . وقد عمل الكاتب الفرنسي الشهير بول موران مقدمة لهذه المجموعة اشار الى خصائص فنها . ولا شك ان هذه القصص القصيرة تروق قراء الغرب لما فيها من الوصف الدقيق والبيان الواضح والتحليل النفساني الصادق لعادات الامة المصرية المنتشرة قبل تحرر المرأة في المدن . وكان يحسن باحدى النساء الفطنات ان تدوّن ما يتعلق بكل هذه العادات قبل ان تبيد فتبقى على تحول السير مرجعاً اميناً لمن يحب ان ينظر الى ما كان

فلهذه المجموعة اذن ميزتان . واسلوب الكتابة فيها سهل بسيط مطرد ، لا اغراب فيهِ ولا تعسف . الاَّ انهُ ربما اندس في نواحيه تعابير عربية منقولة الى الفرنسية من غير تبديل فتدخل في الاسلوب الفرنسي شعاعاً شرقيًّا لا يخلو من اللطف

واظرف قصص هذه المجموعة حفلة الحِنَّة ومدير القرية والذكر في جامع سيدي المغربي ويوم شم النسيم

— ٣ —

الوحدة السورية والصيرورة العربية

بقلم ادمون رباط من نواب سوريا

Edmond Rabbath, Unité Syrienne et Devenir arabe, Paris 1937.

هذا مؤلف نفيس يبحث في النظام السياسي القائم في سوريا نظراً الى وضعية التخوم وهيئة الدولة وشكل المعاهدات وفي الامة العربية من حيث انها مجموعة افراد يحسون احساساً واحداً بالقومية القائمة على وحدة الارومة والحضارة والاقتصاد من جهة، والارض والدم من جهة اخرى . ثم يبحث في نشأة الاستقلال اللبناني وشكله وتضخمه وانحرافهِ مع مايكتنفهُ من النزعات الاقليمية كنزعات الدروز والعلويين واهل اسكندرونة ثم يعرض لفكرة الولايات العربية المتحدة فيفحص عن النظام التي تقوم عليهِ من ملزمات حيوية ومعاهدات تجارة ووحدة « جمارك » ثم يختم البحث باسترسال في الكشف عن سياسات الدول الاوربية ازاء الشرق العربي مع الوقوف عند السياسة الفرنسية . وهنا ذهب الاستاذ ادمون رباط مذهباً فيهِ صراحة وقوة اذ لم يخف ان الحركة العربية سائرة في طريقها لا محالة بفضل العناصر المستنيرة وبفضل تكون الفكرة القومية فالحكمة ان تسلم فرنسا بالواقع فترعى هذه الحركة بدلاً من ان تعمل لخنقها

بشر فارس

المعجم القضائي — الجزء الاول

تأليف خليل شيبوب — صفحاته ٣٧٣ بقطع المقتطف — مطبعة البصير بالاسكندرية

عرف قراء المقتطف خاصة ، وادباء الضاد عامة ، شاعر الفجر الاول ، خليل شيبوب ، فلمسوا في شعره صدق العاطفة ، ولمحوا دقة الخيال والتصوير ، كما عرفوا فيهِ الديباجة المشرقة ، وها هو يطلع على قرائهِ من ناحية جديدة كنا ما نزال في حاجة قصوى الى أثر فيها، فوضع للدوائر القضائية معجماً اصدر منهُ الجزء الاول الذي بدأهُ من حرف A الى منتصف الحرف D والذين يعرفون سعة اطلاعه على آثار لغته يدركون الدقة التي راعاها المؤلف في نقل مصطلحات هذا المعجم . والى القارىء جانباً من توطئتهِ التي اجمل فيها اغراضه وطريقته :

هذا الكتاب أمنيةٌ حققتها لأنها في نفسي صدى شعورٍ عميق بالحاجة الى مرجع يصيب منهُ المشتغلون بالامور القضائية قولاً شارحاً . يكون جامعاً مانعاً . يقفون بهِ من معاني اللفظ عند حدوده . ومن دلالتهِ عند المقصور على مقصوده . ولا يفي بمثل هذا الغرض الاَّ معجمٌ وجيزٌ تُبسطُ فيهِ الالفاظ القضائية كافةً . وتشرح شرحاً دقيقاً يستوعب معناها . ولا يتعداهُ الى سواها

ولا تزال اللغة العربية فَتيَّةً بصيغها القانونية الحديثة إذ لا يرجع عهدها بها الى ابعد من خمسين سنة . وهي فترة المهد لمثل هذا العلم اذا عرفنا ان غيرنا من الامم عالج موضوعاتهِ وصيَغهُ منذ عشرات القرون

بيد ان اللغة العربية حفلت بفرع من فروعه لا يتعدّى الموضوعات الفقهية المعروفة فزخرت كتبها بالتعبيرات الاصلية . والقوالب التالدة الطريفة . حتى إن المطالع المتريّثَ لا يبرح مفتون اللب من مرونتها على تصريف أدق المعاني . واتساعها للاعراب عن أيسر خطفات المخالفات والموافقات . ولكن الاكباب على اكثر هذه الكتب . والإيغالَ في استنباط دقائقها أمرٌ شاقٌ مرهق . لما فيهِ من تطويلٍ في المتون . وشرحٍ في الحواشي . وتعليقٍ على الشرح . وشرحٍ على التعليق . مما يذهب بالصبر . ويضيق بهِ الصدر

***

أما المؤلفات الحديثة فقد حفلت بفروع القانون كافةً ولم تغفل منها فتيلاً ومنها ما يُعدُّ بحق آيةً من آيات هذه الصناعة . ونبراساً يهتدى بهِ في حلك الابهام . والتنقيب عن مستغلق اللفظ . ولكنها قلةٌ الى جانب الكثرة . والمؤلفون الاعلامُ ما برحوا يلتمسون طريق اللغة الى المعاني لأَن العجمةَ طاغيةٌ عليهم . ودقائق تلك المعاني متنافرةٌ مع عقلية الفصحى اذا صحّ هذا التعبير

فلما عقدتُ العزيمة على وضع هذا المعجم عَنَّت لي طرائق ثلاث لم أرَ مندوحةً عن تخير احداها :

اما الاولى فكانت توجب عليَّ الرجوع الى كتب اللغة والفقه . واستيعابها كافةً لاستخراج اللفظة العربية الصميمة التي لا يمكن تبديلها ولا تحويلها . ولكنني رأيت العمر اضيق من ان يتسع لمثل هذا العمل حتى ولو توفر لهُ كل الوقت وجاز الافتراض بأن قلماً منفرداً يقوى على النهوض بمثل هذا العبء الكبير

اما الثانية فهي الرجوع الى كتب القانون الحديث واستخلاص هذه الالفاظ من مظانها . واقرارها على ما هي عليهِ في مكانها من الترتيب الهجائي . الاّ ان هذه الطريقة ادنى خصائصها العجز والكسل . بل هي ادنى خطةٍ واحطُّ منهاجاً . ولا اكذب الله اني لا اقر كثيراً من الصيغ والالفاظ التي درج عليها الشرّاح الحديثون . فما الى هذا ذهبت . ولا في هذا رغبت

فلم تبق اذن إلاّ طريقة وسطٌ يساق القلمُ فيها قدماً بين هاتين . وهي التي ذهبت اليها . ورغبتُ فيها . فقد راجعت كلّ ما توفر لي من كتب الشريعة الغراء وانتقيت منها اللفظ الذي رأيتهُ ملائماً للمعاني الحديثة . ثم راجعت عدداً كبيراً من كتب القانون الحديث . واستعنت على كثير من الالفاظ بكتب الادب وبما استقام لي من معرفة باللغة أصبتها من اشتغالي بها سنواتٍ طويلةً نظماً ونثراً

ولقد عملت على مجاراة العرف في كثير من اللفظ حتى يأنس القارىء بما الفهُ على ان يكون صحيحاً. أما اذا عرضت لفظة اصح مبنى ومعنى فقد رأيتني ملزماً بذكر اللفظة المشهورة الى جانب التي اراها أقوم في التعبير . واقعد في اداء القصد

واما التعريف القانوني فقد اعتمدت فيهِ على اصدق المراجع الفرنسية واخصها القاموس الذي وضعهُ حديثاً نخبة من جلة العلماء برئاسة الاستاذ هنري كابيتان. فقد نهجت نهجه واغترفت منهُ ولكنني لم اتقيد بهِ ولم اقصر همي عليه. بل كنت اطوف باللفظة على معاجم كثيرة . وكتب وفيرة . ثم اسهب في شرحها حيث الفائدة في الاسهاب . واوجز حيث الحاجة الى الايجاز . وربما استغنيت عن الفاظ جمة لا حاجة بنا اليها في معايشنا وانظمتنا . ثم انني تحريت كل التحري تبسيط التعريفات حتى ينتفع بها كلٌّ من له صلة قريبة او بعيدة بالحياة القانونية

***

وغني عن البيان ان هذا المعجم من المراجع التي لا يستغني عنها دوائر القضاء والمحاماة ولاسيما ونحن مقبلون بعد عقد اتفاق مونترو على عهد يتحول فيهِ القضاء وطنيًّا بحتاً

عشائر العراق

المجلد الاول

تأليف المحامي الاستاذ عباس العزاوي

اعتاد الاستاذ المحامي ، عباس العزّاوي ، في بغداد ، ان يهدي الى قراء العربية ، كتاباً مبتكر الموضوع . وقد الف في هذه السنة : (عشائر العراق) ، واصدر منهُ المجلد الاول . وهو يحتوي على العشائر التي احتلت العراق ، منذ اقدم العهد الى يومنا هذا ، وما يتعلق بعرفها ، وأنسابها ، وسائر اصولها ، فوقع في ٥٢٤ صفحة بقطع الثمن الكبير ، وزيّنهُ بست وعشرين صورة لمشاهير المشايخ الذين في عهدنا .

ووضع له سبعة فهارس ، وحسبنا ذكر عناوينها ، للحكم على محتويات الكتاب ، وهي : ١ً فهرس المواضيع — ٢ً فهرس الكتب (وقد راجع منها ١١٥ تصنيفاً من مطبوع ومخطوط ، ومن قديم وحديث ، ومن عربي وفارسيّ وتركي) — ٣ً الامكنة والبقاع — ٤ً الشعوب والقبائل — ٥ً الاشخاص — ٦ً الالفاظ الغريبة (من عربية واعجمية وردت في تضاعيف الكلام) — ٧ً التصاوير

وقد انتقد حضرة الكاتب ، المراجع التاريخية التي وقعت بيده ، واستمدَّ منها ، وبيّن ما فيها من المغامز والمحاسن ، ومن الاطايب والشوائب ، فأظهر من سعة علمهِ في الموضوع الذي جال في ميادينهِ ، ما يدل على انهُ فارسها المغوار وعلى رسوخ قدمهِ في ركابهِ ، وحسن نظره وتدبره لكلام من سبقهُ ، فافاد علماء التاريخ فوائد جمة لا يستغني عن الوقوف عليها ، كل من يحاول بعدهُ معالجة هذا البحث

زدْ على ذلك انهُ ظفر بمخطوطات فذة ، بل بتعليمات لاوجود لها في خزانة شرقية او غربية ، بذل فيها الدرهم والدينار وعن يدٍ سخية ، وجال في ديار تركيا والنمسا وسورية للبحث عنها ، فاخص كل ما اصابهُ فيها ، ونفى القشور عن كتابهِ ، ولم يودعهُ الاّ اللباب والحُـوّارى

وقد نقل من هذا الصنف من التآليف ١٧ في المقدمة التي صدرّ بها سفرَه الجليل . فجاء الكتاب خزانة ثمينة حوت كل ما لذّ وطاب في هذا المعنى الذي عالجهُ ببراعة سهلة ممتنعة.

***

ومن يقف على هذا الكنز الدفين ، يتحقق ان المؤلف من اصل عربي بدويّ قد تحضر ، ولهذا تراه اماط اللثام عن امور لا ينتبه لها الاّ من كان من صميم الاسرة البدوية ، ولا يمكن

لحضري ان يتوصل اليها مالم تكن صفتهُ تلك المذكورة . وبالحقيقة ان « العزاوي » الجليل ينتمي الى العزة من قبيلة ذوبع

وترى في هذا الديوان ابيات شعر كثيرة مع شرحها في أغلب الاحيان ، مما يدل على ان المؤلف — حفظه الله — جوّل تجويلاً في عشائر العراق من الشمال الى الجنوب، ومن الشرق الى الغرب . ولم يبخل بنفقات التنقل ليكون ما وضعهُ حجة ثبتاً بيد الباحث ، يقف فيهِ على أصدق الروايات واوثق التواريخ

***

ومما يحسن بنا ذكره هنا أن الانكليز وضعوا عدة تآليف عند احتلالهم العراق وهي تحوي اسماء القبائل وشيوخها وما تملك ايديهم من المال ، والكراع ، والسلاح مع ذكر الاراضي التي هم فيها ، والامكنة التي يرتادونها ، والمراعي التي ينتجعونها .

وقد وضع هذه التآليف سيدة انكليزية اسمها جرترود لوثيان بل Miss Gertrude Lothian Bell وكانت تتقن العربية وجاست خلال ديار العرب وبواديها ودونت اموراً كثيرة لم يسبقها احد اليها . لكن لا يطلع على هذه الكتب احد ، اللهم الاّ نفر قليل من الموظفين، لانهُ كتب على ظهر كل مجلد باللغة الانكليزية « لا يمسُّهُ إلاَّ الموظفون الانكليز » وعلى مجلدات أخر : « من كتب اسرار الدولة المحتلة ولا يعار لغير الموظفين البريطانيين »

والظاهر ان الاستاذ العزاوي رأى شيئاً من مؤلفات الآنسة (بل) ، لكنهُ لم يتمكن من الوقوف عليها وقوفاً تامًّا ، اذ يقول :

« وهذه الرسالة (التي وضعها السيد جرجيس حمدي في سنة ١٨٦٥ م) كالكتب الاخرى للمس بل وغيرها من كتّاب الغربيين ، فانها كلها تقريباً مضت على هذا السنن في تآليفها ، وان كانت اشارت احياناً الى بعض الاحوال التاريخية عرضاً ، او لم تتمكن منهُ تماماً ، وانما اكتفت بالنبذة اليسيرة عن الماضي القريب ومضت . وخير هذه المؤلفات ما اوردت اسم القبيلة بالحروف العربية كما فعلت المس بل »

وقد جعل المؤلف ثمن الكتاب زهيداً بالقياس الى حجمهِ وجدة مباحثهِ اي ٢٥٠ مليماً او فلساً ليتمكن كل انسان من ان يشتريه . ونحن في انتظار الجزءين الباقيين وهما الثاني ويبحث في ادب البادية والثالث وهو في القبائل الريفية . وهناك جزء قائم بنفسهِ هو عشائر العراق غير العربية اي قبائل التركمان والكرد . حقق الله الاعمال واقام لنا في العراق اناساً يضارعون الاستاذ العزّاوي في نفع الوطن واللغة والامة !

الاب انستاس ماري الكرملي

الكاتب واللغة العربية

رسالة بالفرنسية — للدكتور بشر فارس — ٢٤ صفحة من القطع الكبير

نشرت مجلة «الدراسات الاسلامية» التي تصدر في باريس باللغة الفرنسية مقالاً مسهباً لصديقنا الدكتور بشر فارس في موضوع «المصاعب اللغوية والثقافية والاجتماعية التي يعانيها الكاتب العربي الحديث ولا سيما في مصر». وقد جاءتنا نسخة مستقلة من هذه الرسالة فاذا هي في اربع وعشرين صفحة كبيرة، حسنة التبويب دقيقة التلخيص كاملة الاسانيد. والواقع ان الكاتب راد بفكره الثاقب النهضة العربية الحديثة في ميدان الكتابة والتأليف، وخرج من ريادته بصورة واضحة لما يعانيه الكاتب من المشاق، سواء أفي اختيار الالفاظ والاساليب كان ذلك ام في التحرّر من اساليب الكتّاب القدماء واحوال السياسة والاجتماع السائدة في هذا العصر. وقد ضرب على كل ذلك الامثلة المنتزعة من الكتب والمجلات والصحف. ولكنهُ لم يكتف بذكر المصاعب، بل عمد في القسم الثاني من رسالته الى بيان الذين جابهوا هذه العقبات، وكيف تخطّوها او سعوا الى تخطيها وما لهم في ذلك من الاثر. ففي وسعك بعد قراءة هذه الرسالة النفيسة، ان تتمثل مواكب الكتّاب والشعراء والعلماء، تليها مواكب الكتب والصحف اليومية والاسبوعية والشهرية، مارّة امامك، فتعرف ما لكل منهم ومنها من أثر في هذه النهضة، المباركة ولو كانت لا تزال في مهدها، وفي املنا ان يعني المؤلف بنقل هذه الرسالة الى العربية لنفاستها

الشرق في الآداب الفرنسية بعد الحرب

١٩١٩ — ١٩٣٣

تأليف يوسف داغر — صفحاته ٣٠٤ من القطع الكبير — طبع بيروت — ثمنه ٥٠ فرنكا

كتاب نفيس وضعهُ باللغة الفرنسية الاستاذ يوسف داغر امين دار الكتب المساعد ببيروت بذل حضرته في اعداده واخراجه وتبويبه بهذه الصورة جهداً عظيماً وصبراً طويلاً، فيجد فيهِ الباحث كل ما كتب من بحث طويل او رسالة موجزة او مقالة مقتضبة عن الشرق باللغة الفرنسية من سنة ١٩١٩ الى سنة ١٩٣٣ مع ذكر مقامها من حيث الموضوع الذي يعالجهُ وما ظهر عليها في كبرى المجلات الفرنسية من نقد وتعليق. فبدأ بعرض الابحاث تبعاً لاسماء مؤلفيها على الطريقة الابجدية ثم انتقل الى جدول مرتب وفقاً للمواد المدرسية ذاكراً المعلومات العامة من مصادر الابحاث والمكاتب والمخطوطات ومن علوم مساعدة للتاريخ كالآثار والنقود والوثائق والرقم ومن ديانات وفنون وتواريخ عامة لاحقاب الشرق فخرج السفر موسوعة كبيرة لا يستغني عنهُ باحث في شؤون الشرق

المريد

تأليف بول بورجيه — ترجمة سليم سعده

فرحت فيما مضى بكتب مترجمة قرأتها بلهفة وشوق اذكر منها ، الحرية ، سر تقدم الانجليز ، روح الاجتماع ، محاورات رينان ، الابطال ، فلسفة الملابس ، فلسفة النشوء والارتقاء ، مباحث في الاخلاق ، الامير ، سر تطور الامم ، الاسرار الزوجية، روح التربية ، الاخلاق. وأحسب ان هذه أحسن الكتب المترجمة لا كلها ، وها انا افرح اليوم وأهلل لكتاب « المريد » الذي نقلهُ الى العربية حديثاً الاستاذ سليم سعده

افرح بهِ لسببين اثنين ، الاول لانهُ الكتاب الادبي الثاني الصادر في فترة الركود ، والثاني لان مؤلفه « بول بورجيه » قد نحا فيهِ نحواً فريداً في إقحام العلوم والمبادىء في فن الرواية ، وفي بسط تأثير التعاليم الفلسفية في العقول ، وفي استصراخ ابناء جنسه صرخات صادقات لا تصدر عن غير قلب مفعم بالمحبة الصادقة والاخلاص الطاهر حين يخاطب الشاب الفرنسي قائلاً « وليس الامر الآن ان تكون خفيف الروح ، طائشاً او ملحداً ، مهذاراً متشككاً او لعوباً ، فكف عن ذلك ردحاً من الزمن ، فان الله والطبيعة ، والعمل ، والزواج ، والحب والنسل ، كل اولئك من الحقائق المجلوة ، وهي تنتصب امامك ، فيجب ان تتجلى كلها وتحيا او تموت أنت »

ولقد استطاع بورجيه بذهنهِ المتوقد ، وومضات عبقريتهِ الخلابة ، وجلده الجبار ان يلفت العالم الى صرختهِ ويجعله يصغى الى كلامهِ ، فقد لقي فيهِ المؤمن والملحد موئلاً ، والعصري والرجعي نصيراً ، والثوري المتوفز والقانع المستكين ملاذاً ، والفرنسي وغير الفرنسي سميعاً، ولا غرو في ذلك لانهُ قدر على ايقاظ كوامن الحياة وعناصرها في كل انسان وهزها بعنف ، ثم واجهها بصروف العقل ، ونوازل العاطفة ، وجبروت الغريزة ، وأفانين المدنية ، وتأثير التهذيب ، وترك الاعنة للخصال والمزايا تتطاحن في ميدان التجارب ، بيد انهُ لم يتباعد عن القارىء ليصفق للمنتصر ويضحك من المفكر اعتباطاً بل وقف الى جانبهِ يدله على مواطن الضعف التي إوجبت الانكسار ، وبواعث القوة التي توجتهُ باكليل الظفر

هوذا لمحات من مواضيع رواية « المريد » التي ليست رواية ولا كتاباً بل خلاصة جامعة لدائرة معارف الحياة الانسانية : جمعها وصنفها بول بورجيه العالم الاديب ونقلها الى العربية سليم سعده نقلاً أميناً

بقي لي ان اقول كلة في ترجمة الرواية . ولما كانت ترجمتها لا تختلف الاَّ قليلاً عن الروايات التي سبق للاستاذ سعده ترجمتها فاني اعيد ذات الرأي الذي ابديته فيه بعد تعديل يسير

قلت انهُ « يفهم جيداً مرامي المؤلف واغراضه فيماشيها في الترجمة كلة فكلمة وحرفاً فحرفاً ، لا يقدّم في بناء الجملة ولا يؤخر ، وفي وسعك ان تعيد الكلمات والجمل إلى أصولها الفرنسية بدون عناء ولا جهد » وأزيد على ذلك أن المترجم الذي يضبط الكلمات والحروف ، ويقيد نفسهُ بروابط الجملة وفق القواعد الغراماطيقية والاصطلاحات الفرنسية إنما هو امين لا غبار على أمانته فلو توافرت لهذا المترجم المقتدر اسباب الغنى بمفردات اللغة والاسلوب السلس تنهض بالجملة العربية فتكسوها حلة فخمة كالتي ألبسها إياها « بول بورجيه » العالم الاديب القدير لكان بلغ مبلغ المترجمين الموهوبين

توجب الترجمة العلمية المترجم على التقيد بالمصطلحات أما الترجمة الادبية فأول موجباتها الروح الادبي ، والغنى اللفظي ، والسلاسة في الاسلوب ، والذوق في اختيار الكلمة التي لا سبيل لمرادفاتها ان تقوم مقامها

القاهرة حبيب الزحلاوي

***

ترجم الاديب سليم سعده قصة التلميذ للكاتب الفرنسي الكبير « بول بورجيه » ورأى ألاَّ يسميه التلميذ والكلمة صحيحة وجميلة ودقيقة الترجمة فسماهُ « المريد » وهي كلمة لا تمت الى التلميذ بصلة ولا نفهم معنى لها في هذا المقام فهي لذلك ليست صحيحة ولا دقيقة الترجمة . وفي المعجمات « المريد اسم فاعل من اراد وعند الصوفية المتجرّد عن ارادتهِ او الذي اعرض قلبهُ عن كل ما سوى الله او من يحفظ مراد الله »

وهي مصدرة بمقدمة من قلم الاستاذ ابراهيم المصري ومهداة الى الاستاذ خليل مطران لانهُ اول من عرّف المصريين الى شخصية بول بورجيه

وكان الاستاذ عبد المجيد نافع قد ترجمها ملخصة وقلت كلمتي فيها على صفحات المقطم . وما قلتهُ حينذاك اقولهُ الآن فيما سوى ان الترجمة الملخصة اقل اخطاء من هذه المطولة . وان في الاولى غناء للبيب عن الثانية وان في افصاح الثانية ما لا نحبه للشبان والشابات اللذين واللواتي يقع في ايديهم وأيديهنّ . وما كان اعتراضنا على النسخة النافعية الاّ لأدبها المكشوف

نجيب شاهين

الانسان المجهول

تابع المنشور على الصفحة ١٥٨

وعلى الجملة نقول اننا لا نعرف : أتدل زيادة الحجم الجسمي والطول على حالة ارتقائية ، كما يُعتقد اليوم، ام على حالة انحلالية ؟ وليس بنا من شكّ في ان الاولاد اسعد حالاً في المدارس التي امحت فيها طرق الالزام ، حيث ابيح لهم ان يدرسوا من صنوف المعرفة ماهو اكثر ملاءمة لميولهم ، وحيث قضي على الجهد العقلي والانتباه الارادي . ولكن ما هي النتائج المترتبة على مثل هذا الضرب من التعلم ؟ ان من مميزات الفرد في المدنية الحديثة كونه ذا نشاط عظيم يوجه بكليته الى الجانب العملي من الحياة ، ولكن مع جهل شامل ومع قدر غير قليل من المكر والتحايل ، مزودين بضعف عقلي يتركهُ نهباً لمؤثرات اي محيط يتفق ان يقع ذلك الفرد تحت سلطانه . ومما يلوح لي ان الذكاء نفسه ، يضمحل ويزول ، اذا ضعف الخُلق . ولقد نرى ان المثال العقلي في الولايات المتحدة ، ما يزال دنيًّا بالرغم من ازدياد عدد المدارس والجامعات

***

يلوح لي ان المدنية الحديثة عاجزة عن إنجاب افراد زُوّدوا بمقدرة التصور والذكاء والشجاعة. وانا لنشهد في كل مملكة نقصاً ظاهراً في « المعيار » العقلي والادبي لاولئك الذين يحملون مسؤولية الحكم وتصريف الامور العامة . كذلك نلقى ان المجموعات المالية والصناعية والتجارية قد بلغت سعة عظمى ، ولقد تتأثر هذه المجموعات ، فلا يقف تأثرها على حالات البلاد التي تنشأ فيها ، وانما يأتيها التأثير ايضاً من حالات البلاد المجاورة لها في انحاء الارض . والحالات الاقتصادية والاجتماعية في جميع امم الارض ، تنتابها تغيرات سريعة . ونظام الحكومة في كل بقعة من بقاع الارض لا يلبث ان يستقر، حتى تبدأ المناقشة فيه والتساؤل عن مقدار صلاحيته. والديمقراطيات العظمى في انحاء العالم انما تقف الآن لتواجه معضلات عظمى — معضلات تتناول وجودها وكيانها ، ولذا فهي تتطلب حلاً سريعاً فاصلاً . من جماع هذا قد تحققنا ، بالرغم من الآمال العظام التي عقدها الانسان على المدنية الحديثة ، ان هذه المدنية قد عجزت عن تكوين رجال فيهم من الذكاء وصلابة الخلق وقوة الشكيمة ما يكفي لقيادتها في ذلك الطريق الشائك الخطر الذي تتعثر فيه . وفي ذلك دليل على أن الخلائق البشرية لم تنمُ بنسبة السرعة التي نمت بها النظامات التي خلقتها عقولهم . والحق ان النقائص العقلية والخلقية التي يتصف بها زعماء السياسيين وجهلهم ، هي أنكى ما تتعرض له الامم من الاخطار .

فهرس الجزء الثاني من المجلد الثاني والتسعين



« الغاب » في حديقة الاورمان

[تصوير جمال عزام]

المقتطف

الجزء الثالث من المجلد الثاني والتسعين

١ مارس سنة ١٩٣٨ — ٢٩ ذي الحجة سنة ١٣٥٦

أثمن من اليواقيت

او الزجاج والحضارة الحديثة

قد يبلغ ثمن حجر واحد من الالماس اذا كان وزنهُ رطلاً نحو مائتي الف جنيه ولكن الزجاج لا يزيد ثمن الرطل منهُ على اربعة قروش . ومع ذلك فان الفرق بين الالماس والزجاج من حيث فائدتهما للحضارة كبيرٌ لان الزجاج من اعظم المواد فائدة للناس وأثراً في العمران . فهو في ذلك يفوق اي حجر من الحجارة الكريمة . ولا ريب في ان قيمة الزجاج ستعلو شأناً عندما ينتهي العلماء والمستنبطون الى صنع اصناف جديدة منهُ

كان الزجاج قبل ان تعالجهُ ايدي العلماء مادة شفافة قصمة تصلح للنوافذ لانها تحجب الهواء والمطر وتأذن للضوء في اختراقها . اما الآن فقد اصبحت اصناف الزجاج متعددة ، وخواصها كثيرة ومتباينة . فثمة مثلاً زجاج يؤخر سير الحرارة فيهِ فتصنع منهُ لبنات للبناء ومقابض لاباريق الشاي والقهوة ، وزجاج مقاوم للتيار الكهربائي فيستعمل في صنع العوازل الخاصة باعمدة التلفون وكذلك الانابيب المفرغة . ومن اصنافهِ ما يصلح لصنع اجهزة لقلو البيض او لنسج نسيج غير قابل للاحتراق او لصنع الواحٍ تستعمل في احواض السباحة للقفز في الماء . بل هناك نوع متين من الزجاج اذا صنعت منهُ مكعباً ضلعهُ بوصتان ، استطاع ان يتحمل ضغط قطار بضائع كبير من غير ان ينكسر مع ان ضغطاً من هذا القبيل قد يكفي لكسر مكعب

مثلهُ من اية مادة اخرى . وثمة صنف آخر من الزجاج يصلح لصنع الواحٍ منهُ لا تخترقها رصاصات مدفع رشّاش اذا كانت سماكتها بوصة واحدة . وآخر تصنع منهُ الواح رقيقة اذا وقفت عليها لم تعترِك رعشة كهربائية ولو كان ضغط التيار المتصل بك عشرة آلاف فولط . اما اللبنات التي تصنع من الزجاج الخاص ببناء الدور فلا تنفذ منها الحرارة ولو كان الجوّ في الخارج قارس البرد ، الاّ بمقدار خمسين في المائة من اختراق الحرارة لجدران البناء العادي

فلا بدعَ وهذه خواص الزجاج الحديث ، في كثرة تنوّعها وعظيم فائدتها ، ان يبلغ المصنوع من اصنافهِ المستعملة في أميركا في سنة ١٩٣٠ ما يزيد على ثلاثة ملايين من الاطنان

قد يقال ان الالماس متصف بمعظم صفات الزجاج ، وانهُ علاوة على ذلك اقسى منهُ ، فهو لذلك اعظم نفعاً . ولكن الزجاج متصف بصفة لا قبل للالماس بها، وهي انصهاره وسيلهُ كالعسل آناً ثم تجمدهُ في قوالب يفرغهُ فيها الصانع كما يشاء . والزجاج من الناحية الطبيعية ليس جامداً كالصلب او الخشب ، ولكنهُ يفعل عندما تكون حرارتهُ غير مرتفعة، كانهُ مائع بَرد فلم يجرِ. احمِهِ برفع الحرارة بضع مئات من الدرجات يصبح قابلاً للافراغ في أي قالب تريد. ثم ارفع الحرارة قليلاً يسل كالشراب (Syrop) ثم بردّهُ قليلاً يصبح لزجاً . وبالبحث يمكن الوصول الى درجة متوسطة من الحرارة يكون الزجاج عندها قابلاً للنفخ والضغط والافراغ والمدّ والنسج

ان الواح الزجاج المستعمل في النوافذ يمكن ان تصنع بنفخ الزجاج . وقد ارتقى هذا الاسلوب ارتقاءً عظيماً حتى صار في امكان النافخ ، بعد المرانة الكثيرة ، ان يأخذ بأنبوبهِ من الزجاج المصهور، كتلة تكفي لنفخ فقاعة كبيرة قطرها ثلاث اقدام . وعند ما تبرد هذه الفقاعة تكسر عنقها ثم تحزُّ من جنبها بالماسة ، ثم تحمى قليلاً قليلاً فتنبسط على سطح مستوٍ . ولكن الزجاج المنبسط على السطح قد لا يكون متناسق السماكة في كل جزء منهُ ، وهذا يظهر في زجاج النوافذ الرخيص اذ يبدو سطحه متموّجاً قليلاً لا مستوياً تامًّا . وأما الطريقة الحديثة فهي بسط سطح طويل مستوٍ من الزجاج المصهور بغير نفخهِ اولاً ثم يُحمى حتى تصبح سماكتهُ واحدة في جميع اجزائهِ ، وكذلك تصنع ألواح تبلغ مساحتها ملايين من الاقدام المربعة كل سنة في اميركا

والزجاج يمكن ان يصنع من مئات من الموادّ تختلف من الرمل على شاطىء البحر الى السكّر في حانوت البدّال ، إذ كل مادة يمكن ان تصهر ثم أن تجمّد من غير ان تتبلور تصلح لصنع الزجاج . ولكن الزجاج المألوف يصنع مادةً من بلورات الكوارتز في الرمل بعد خلطها بالجير والصودا ثم تصهر جميعاً وعندما تبرد تبدو شفّافة قاسية مقاومة للحرارة والكهربائية ، وهي خواصٌ ثبتت فائدتها للحضارة ولولاها لما بلغت الحضارة الشأو الذي بلغتهُ في هذا العصر

إن قراء المقتطف يعلمون ، ان الاشعة السينية تستعمل الآن لمعرفة ترتيب البلورات في

الجسم المتبلور. فاذا درسنا الاجسام المتبلورة كالحديد والالماس بهذه الطريقة ظهر لنا ان البلورات فيها مرتبة في صفوف مستعرضة وقائمة وقاطعة للزوايا، فكأنها فرقة سائرة من الجنود تراها صفوفاً مستعرضة وقائمة ومتقاطعة وفقاً للزاوية التي تنظر منها اليها. ولكن البلورات في الزجاج ليس لها تنسيق معين معروف، ومعظم الخواص الممتازة التي يتصف بها الزجاج ناشئة عن كون جزيئاته لا تتخذ صورة معينة عند تجمده

وخير اصناف الزجاج ما صنع من مادة «السليكا» النقية المصهورة الا انه يكلف نفقة كبيرة ذلك ان صهره صعب وتناوله وهو مصهور أصعب. ولكن عندما نحتاج الى زجاج خاص لصنع مرايا المراقب، فلا بد حينئذ من الاعتماد على هذا النوع من الزجاج لانه خير ما تصنع منه هذه المرايا. اما اذا شئنا ان نصنع منه طبقاً للاكل فقد يبلغ ثمن الطبق مائة جنيه! وفي ظن العلماء انه قد يتاح لهم في المستقبل صنع هذا الزجاج الامثل بحيث لا يكون ثمنه مرهقاً، واذن يجب علينا أن نكتفي الآن بأنواع اخرى من الزجاج الى ان يحل ذلك اليوم المنشود

إن صناعة الزجاج الحديثة، قد استبدلت اسلوب نفخ الزجاج بأجهزة ميكانيكية تفرغ الزجاج في أي قالب تريد او تبعسه من غير ان ينفخ فيه نافخ. وقد ترى شريطاً ثخيناً من الزجاج المصهور في قوام العسل، خارجاً من الاتون، فيقطع قطعاً من حجم معين، تبدو كأنها شهب نارية، ثم تحملها نقالات خاصة فتوزعها على الآلات المختلفة فتفرغ في القوالب المطلوبة او تطبع بالمطابع، فاذا تم ذلك نقلت الى أتاتين خاصة لسقيها وهو عمل لا غنى عنه، لانه يمنع حدوث التشقق في الزجاج بعد ما يبرد. فاذا أخذت كتلة من الزجاج المصهور وتركتها حتى تبرد من تلقاء نفسها، برد خارجها أولاً فيتجمد ويضغط على داخلها الذي لا يزال حامياً غير متجمد. فينشأ من جراء هذا الضغط، صدوع خفية قد لا يبدو أثرها مدى سنوات، ولكنها تكون أشبه ما يكون بالزنبلك المضغوط، اذا أرخي الضغط الواقع عليه قليلاً قفز قفزاً. وكذلك هذه الصدوع فانها قد تبقى خفية ثم إذا حدث ما خدش الزجاج خدشاً يسيراً في مكان معين رأيته وقد تشقق ثم تهاوى شظايا ان لم يتطاير في وجهك. فعملية «السقي» تزيل الضغط الخارجي على الكتلة الداخلية فتمنع حدوث الصدوع وذلك بابقاء كتلة الزجاج كلها على درجة مرتفعة من الحرارة مدة ثم تبريدها رويداً رويداً

وهذه العملية بطيئة وتقتضي نفقة غير يسيرة ولا سيما اذا كانت كتل الزجاج كبيرة. فمرايا المراقب الكبيرة قد تستغرق عشرة أشهر حتى يتم تبريدها. وحرارتها يجب أن تبقى نحو ٤٠٠ درجة مئوية خلال مدة طويلة، فالنفقة على الوقود اللازم لتوليد هذه الحرارة لا يمكن ان تكون نفقة يسيرة. وكان الاعتماد في «سقي» الزجاج الى عهد قريب، على الاختبار. ولكن العلماء استنبطوا ما يمكنهم من رؤية الصدوع وتصويرها وبذلك يعرفون أين تبدأ هذه

الصدوع في الظهور فيمنعونها، ومتى يصبح الزجاج صالحاً للاستعمال بخلوّه منها

ان السعي الى صنع زجاج جديد ، كثيراً ما تكون عليه سمة من عمل الطاهي . بل اذا نظرت الى الاوراق التي دونت فيها التعليمات اللازمة لمزج المواد بعضها ببعض ، لم تختلف في نظرك عن وصفةٍ لصنف خاص من الطعام : خذ قدر كذا من كوارتز الرمل وثلث برميل من الصودا وحركها معاً في دلو من الجير. اما الكوارتز فيمنح الزجاج قواماً ومتانة .واما الصودا فتساعده على الانصهار . واما الجير فلمنعهِ من الذوبان في الماء . هذه هي المواد الاصلية . ثم بعد ذلك يصبح للخيال شأن وأي شأن . فأمامنا طائفة كبيرة من العناصر.ان اضافة قليل من هذا العنصر او من ذاك يمنح الزجاج العتيد خواص معيّنة. أنضع فيهِ قليلاً من البورق لتحول دون تصدّع الزجاج عند احمائهِ ؟ ام نضيف قليلاً من الرصاص لمنع الاشعة السينية من اختراقهِ ؟ ام حفنة من الباريوم لكي يتألق ؟ وبعد ذلك يأتي المزج الدقيق ، ثم يوضع المزيج في اتون ليلة كاملة وفي الصباح يُصبّ في قوالب من اللبن ويترك حتى يبرد تدريجاً ثم يمتحن

هنا يدخل عالم الطبيعة الحديثة ميدان صناعة الزجاج . يدخلهُ وفي ذهنهِ اسئلة كثيرة يريد ان يعرف الجواب عنها ليعرف قيمة الزجاج . ما قرب هذا الزجاج من ذلك الزجاج الامثل الذي لا يتمدّد عند ما يحمى ولا يتقلّص — واذن فهو لا يتصدع — عندما يبرد ؟ هل يبقى صافياً متألقاً اذا ظلّ معرّضاً لعوامل الجوّ ستة اشهر ؟ واية درجة من الحرارة يجب ان يبلغ قبل ان يصبح قوامهُ كقوام العسل الكثيف ، عندما يسهل العمل فيهِ افراغاً ونقشاً وحفراً ؟ وهل يصبح مائي القوام بسرعة ؟ هذه بعض المسائل التي يجب ان يجاب عنها ، قبل ان يعلم صاحب الوصفة السابقة ، هل هي جديرة بالحفظ ام تنبذ نبذ النواة

ان الغرض الاساسي من الزجاج ان يكون شفافاً ينفذ النور من خلاله . والعين كما لا يخفى جهاز دقيق ، ولكنهُ كثيراً ما يصيبها شيء من الخلل . فاذا وضعت امام العين قطعة زجاج موافقة اصلحت ذلك الخلل فيها . ولا يخفى ان احدّ العيون نظراً لا تستطيع ان تتبين الاشباح البعيدة . وسواء أعدسات نظارات كانت هذه القطع الزجاجية التي تضعها امام العين، ام عدسات مراقب ام مجاهر ، فأنها تصلح لما تستعمل له لأن الزجاج يبطيء سير الضوء عند ما تخترقه اشعتهُ

تسير شعاعة الضوء في الفضاء الخلاء بسرعة ١٨٦٣٠٠ ميل في الثانية. ولكنها عند ما تخترق كتلة من الزجاج تهبط سرعتها الى نحو ١٢٠ الف ميل في الثانية. وهنا يخطر لنا سؤال يحيّرنا وهو: لماذا تمكننا هذه الخاصية ، خاصية ابطاء سرعة الضوء في الزجاج ، من استعمال الزجاج لاصلاح خلل البصر . ولماذا يستطيع رجل مصاب بالحسر (قرب البصر) عاجزٌ عن ان يرى الاجسام واضحة اذا كانت على أبعد من ثلاث اقدام منهُ ، ان يراها واضحة جلية اذا وضع امام

عينيه قطع زجاجية من تحديب معيّن ؟ ولماذا تمكننا عدسات المراقب من رؤية كواكب لا تتبينها بالعين المجرّدة ، وعدسات المجاهر من رؤية اجسام دقيقة كثيرة في قطرة من الماء لا تزيد على رأس الدبوس ؟

اننا نرى الاجسام بما تعكسهُ نقط مختلفة على سطوحها من أمواج الضوء الى العين. وشعاعة الضوء تسير — في حدود هذا البحث — في خطٍّ مستقيم ، ولكنها تنحرف عندما تدخل جسماً كالزجاج يبطيء سيرها . ثم تنحرف أيضاً عند نفوذها منهُ في الجانب الآخر . فاذا كان سطحا الجسم الزجاجي مائلين أحدهما على الآخر ، كان انحراف شعاعة الضوء بعد نفوذها ، في اتجاه مخالف لاتجاه انحرافها داخل الجسم الزجاجي . ولكن العين لا تتبين هذا الفرق . بل ترى الجسم الذي صدرت الشعاعة منهُ ،واقعاً في الاتجاه الذي يبدو لها أن الشعاعة قادمة منهُ . وكذلك يمكن أن تعرّف العدسة بانها جهاز يخدع العين ، فيحملها على التأثر بالضوء تأثراً يجعلها تظن ان الاشعة صادرة من جسم أقرب اليها وأكبر حجماً مما هو حقيقةً

وتقريب الاجسام ليس خاصة العدسات الفريدة ، ولا هو أهم خواصها . ذلك أن العين لا تبصر الاّ بالضوء الذي يدخل بؤبؤها ، فاذا كانت العدسة كبيرة ، استطاعت أن تجمع قدراً كبيراً من الضوء ، وكذلك يدخل البؤبؤ قدر من الضوء صادرٌ من ذلك الجسم ، أكبر مما يدخلهُ عادة ، فتراهُ العين أوضح مما تراهُ عادةً . واكبر عدسة صنعت حتى الآن هي العدسة التي صنعت لمرقب مرصد يركيس باميركا ويبلغ قطرها اربعين بوصة ، وبها يرى القمر كأنهُ على مائة ميل منا فقط . مع انهُ على نحو ٢٠٠ الف ميل منا ، وليس مرقب مرصد يركيس بأكبر مرقب صنع . بل هنالك مراقب أكبر منهُ . ولكنها تعتمد على مرايا عاكسة لا على عدسات كاسرة ، منها مرقب مرصد جبل ولسن الذي قطر مرآتهِ مائة بوصة ، والمرقب الذي يصنع الآن وقطر مرآتهِ مائتا بوصة . وصنع عدسة كعدسة مرقب يركيس ، يقتضي كتلة كبيرة من الزجاج الصافي الذي لا شائبة فيهِ . فالزجاج الذي يصنع للآلات البصرية ، يجب أن يكون خالياً من اللون والفقاقيع الهوائية ، مهما يكن اللون خفيفاً والفقاقيع صغيرة ، لان ذلك يجعلهُ غير صالح لما يصنع لهُ ، فاذا اتفق وجود قليل من الحديد في كتلة من الزجاج البصري ، كان ذلك كافياً لنبذه

وبعد ما تصنع كتلة من هذا الزجاج في حجم قريب من حجم العدسة المطلوبة ، يصقل سطحها أولاً بفركها بسطح معدني من شكل معيّن بعد ان تذر فيهِ حبيبات من مادة « الكاربورندوم » فاذا أصبحت في الشكل المطلوب يوالى صقلها بحبيبات متدرجة صغراً وأخيراً تصقل بحبيبات المادة الحمراء التي تدهن بها النساء شفاههنَّ

وقد أنبأنا الدكتور جويت العالم الاميركي ، إن الصقل النهائي بهذه المادة الحمراء لمرآة

المرقب الكبير وهي المرآة التي قطرها مائتا بوصة ، قد يستغرق نحو سنتين

ومن غرائب ما يروى في صدد العدسات المستعملة في النظارات انهُ في الامكان الاستغناء بعدسة توضع على المقلة فلا يراها أحد ولا يحسّ صاحبها بها . وتكون في الوقت نفسه صالحة لتصحيح البصر بغير الحاجة الى استعمال النظارات ، وهي طبعاً أغلى من النظارات العادية ، ولكنها أقلّ تعرضاً منها للكسر، وتدلّ الاحصاءات الاميركية على ان ألوفاً من الاميركيين يستعملونها

من نواحي التقدم الجديدة في صناعة الزجاج ، ناحية نشأت عن شكوى فريق من عمال سكك الحديد . ذلك انهم يحملون فوانيس لها كوى يشعُّ منها اللون الاحمر أو الاخضر ، او الضوء العاديّ . فاذا سقطت قطرات المطر على فوانيسهم واصابت زجاج هذه الكوى، تكسّر الزجاج لتقلصهِ المفاجىء الناشىء عن البرد الذي تحدثهُ قطرات الماء . فعني علماء احدى الشركات الاميركية المعروفة باسم « شركة كورننغ » بالسعي الى صنع زجاج لا يتقلص أكثر من عشرة في المائة من مبلغ التقلص الحادث في الزجاج المستعمل في هذه الفوانيس ، عند ما تتغير حرارتهُ تغيُّراً فجائيًّا . وكانوا يعلمون ان زجاج الكوارتز النقي يصلح لذلك ولكنهُ غالٍ جدًّا لا يصلح للاستعمال التجاري . فأخذوا يبحثون عن مواد تمكنهم من صنع زجاج قليل التمدُّد والتقلُّص فوجدوا انهم اذا أضافوا البورق الى مواد الزجاج العادية تحققت أمنيتهم . ولكن الزجاج الاول الذي صنعوه على هذا الاساس ، كان يذوب في الماء كالسكر . وبعد بحثٍ دام سبع سنوات ، تمكنوا من صنع أصناف جديدة من الزجاج ، متصفة بقلة تمددها وتقلصها ، وبشدَّة مقاومتها لعوامل الجوّ والحرارة والكهربائية . وهذا الصنف من الزجاج مشهور الآن في أسواق العالم باسم زجاج « بايركس » Pyrex . ولا يخفى ان اطباق الزجاج العادية وكذلك الاكواب ، تتطاير شظايا اذا أحميت احماء فجائيًّا ، ومن أول ما تعلمناه ان نضع ملعقة من المعدن في كوب من الزجاج اذا شئنا أن نسكب فيهِ ماء مغلىً . ذلك أن الملعقة المعدنية تمتص جانباً من حرارة الماء فتحول دون تفرقع الزجاج . اما اطباق الزجاج الجديد « Pyrex » فلا تتكسر حتى ولو وضعتها في الفرن ، وفي وسع ربّة البيت ان تطهي بها ما تريد من طعام او كعك

وكان اهمّ عمل قامت بهِ هذه الشركة في صناعة الزجاج صبّ قرصٍ ضخمٍ من الزجاج سماكتهُ قدمان وقطرهُ ست عشرة قدماً لتصنع منها مرآة المرقب الكبير بكاليفورنيا . وزجاج المرآة في المرقب يختلف عن زجاج العدسة في ان الاول لا يجب ان يكون شفافاً كزجاج العدسة . ذلك أن زجاج المرآة يستعمل اساساً بعد صقله لطلائهِ بطبقة معدنية عاكسة . ولذلك يجب ان يكون قابلاً للصقل الدقيق ، وغير قابل للتمدُّد والتقلُّص . وقد بلغ من كبر هذا القرص الزجاجي الضخم — البالغ عشرين طنًّا وزناً — ان اضطرّ صانعوهُ ان ينقلوهُ بطريق غير

مباشرالى كاليفورنيا لكي يجتنبوا الانفاق والجسور التي يجتازها القطار حرصاً على القرص من ان يصاب بأذًى . اما العدسة الكبيرة فمن اشق الامور الحصول على قطعة من الزجاج يبلغ قطرها اكثر من اربع اقدام وهي خالية من فقاقيع الهواء مهما تكن دقيقة ، ومن آثار الضغط الخارجي على داخلها عند تبريدها وهذا كما تقدَّم يحدث فيها قابلية كامنة للتشقق والتكسُّر

فلما عدل عن العدسات في المراقب الكاسرة الى المرائي في المراقب العاكسة اطرد التقدم في صنع هذه حتى بات في الامكان صنع مرآةٍ قطرها ٢٠٠ بوصة ، وبها يستطيع الراصد ان يتبين شمعة واحدة ولو كانت على اربعين الف ميل

هذا في ما يتعلق بالمراقب . اما في ما يتعلَّق بعدسات المجاهر ، فقد بلغ العلماء فيها اقصى حدود الاتقان ، اذ اصبحوا يستطيعون ان يكبروا قطر جسم صغير دقيق اربعة آلاف مرَّة . فاذا شاؤا تكبيراً اعظم من هذا وجب عليهم ان يعتمدوا على امواج من الطاقة غير امواج الضوء المرئي وأقصر منها ، اي على امواج الاشعة التي فوق البنفسجي . ولكن الزجاج العادي غير شفاف لهذه الاشعة ، اي انها لا تخترقهُ كما تخترقهُ امواج الضوء المرئي ، ولذلك اتجهت انظار الباحثين الى صنع زجاج يأذن للاشعة التي فوق البنفسجي في اختراقهِ . وقد تمَّ لهم بعض ما يريدون فأصبح في الامكان رؤية اجسام اصغر جدًّا من الاجسام التي نراها بأقوى المجاهر العادية. واستعمال كلمة « الرؤية » هنا ليس بالاستعمال الدقيق . ذلك أن عين الانسان لا تتأثر بالاشعة التي فوق البنفسجي واذاً فالجسم الذي يعكسها لا يمكن ان تتبينهُ العين البشرية . فنعتمد حينئذٍ على الواحٍ خاصة من الواح المصوِّرات الضوئية (Cameras) . الاَّ ان هناك صعوبة اخرى. وهي ان الهواء يمتص جانباً كبيراً من الاشعة التي فوق البنفسجي القصيرة . وبين الجسم الصغير الملقى على شريحة المجهر والعدسة ، طبقة من الهواء لا بدَّ ان تمتصَّ جانباً من هذه الاشعة المعكوسة عن الجسم الى عدسة المجهر . ولذلك ذهب علماء الطبيعة الى وجوب وضع المجهر كلهِ في صندوق مفرغ . فاذا تمكن العلماء من كل ذلك وضعوا في أيدي علماء الطبيعة والكيمياء الطبيعية والحيوية أداة للبحث لا تقوَّم بمالٍ

ولا يخفى ان الزجاج يبدو شفافاً لانَّ الاشعة التي نرى بها الاجسام عند ما تنعكس عن سطوحها ، هي الاشعة التي تخترقهُ . ولو كانت عيوننا ترى بالاشعة التي فوق البنفسجي، لا بأشعة الضوء المرئي ، لما كان الزجاج شفافاً . بل لنذهب الى أبعد من ذلك فنقول انهُ لو كان في امكاننا ان نرى بالاشعة التي تحت الاحمر لكان الورق الاسود والمطاط شفافاً في نظرنا ولما كان الزجاج شفافاً لان الاشعة التي تحت الاحمر تخترقهما ولا تخترقهُ

وبتغيير المواد التي تدخل في تركيب الزجاج يمكن ان يجعل أقسى من الصلب او اكثر

ليناً من الطلاء الذي يطلى بهِ الخشب. فبعض اصناف الزجاج التي تصنع منها مرايا المراقب وأطباق الطهي تقاوي الاستعمال وما يلازمهُ من الفرك اكثر مما يقاويه الصلب. فاذا استطاع العلماء ان يصنعوا خيطاً زجاجيًّا مرناً يصلح للنسج، اخرجوا للعالم مادة اقوى وامتن من خيوط الحرير

وقد استنبطت وسيلة حديثة في صناعة الواح الزجاج لتقسية الزجاج تجعله اقسى وأمتن من الزجاج العادي خمسة اضعاف وذلك بصنع الواح تعرض فجأة للهواء فتبرد سطوحها قبل ان يبرد داخلها فيضغط خارجها على داخلها ولكن بدون ان يتشقق داخلها. الاَّ أن الطبقة الداخلية تكون شديدة التأثر بما يصيبها من خدش او حزّ. واما الطبقة الخارجية فأقل تأثراً منها بذلك. وهذه الحقيقة تمكنهم من صنع الواح متينة من الزجاج تستعمل في واجهات السيارات ولكن كلّ لوح منها يجب ان يصنع على حدة. اذ لا يمكن حزّ لوح كبير لصنع الواح صغيرة منهُ، لانهُ عند حزّهِ تتأثر طبقتهُ الداخلية فتنهار كأنها حبيبات من الرمل الدقيق كانت متماسكة فتفككت. ولهذه الصفة فائدة كبيرة في استعمال هذا الزجاج في واجهات السيارات، فاذا حدث اصطدام وأصاب زجاج الواجهة ما كسرهُ أو حزّهُ، واتصل اثر ذلك بالطبقة الداخلية، فان اللوح لا يتشظَّى ولا تتطاير شظاياهُ، بل ينهار ألوفاً وألوف الالوف من الكسر الصغيرة

وفي الاستطاعة الآن مدُّ الزجاج خيوطاً دقيقة ولكنها لا تصلح للنسج بل هي تشبه عند خروجها من المصنع ذلك النوع من الحلوى المعروف «بغزل البنات». وفي أحد مصانع الزجاج الاميركية ثلاثمائة ثقب يخرج منها كلّ ثانية ما طولهُ سبعون ميلاً من هذا النوع من الخيط الزجاجي فيتراكم بعضهُ فوق بعضهُ فيبدو كأنهُ كتلة هشَّة من الصوف المندوف، فتستعمل قطع منها في العزل من الكهربائية والحرارة في المباني والثلاَّجات وغيرها. ولا يزيد وزن قدم مكعبة من هذا الزجاج المعروف «بالصوف الزجاجي» على أربع وعشرين أوقية، ومن خواصهِ ان الرطوبة لا تؤثر فيهِ ويمنع انتشار الحرائق واذا وضع في جدار البيت وقاهُ من البرد القارس في الخارج كما لو كان جدار البيت من الاسمنت المسلح وسماكتهُ عشر اقدام

وقد استعمل الخيط الزجاجي في صنع الملابس منهُ ولكنها لا تزال حتى الآن غير وافية بالمرام. ذلك ان الخيط الزجاجي لا يزال تعوزه المرونة اللازمة لكل خيط صالح للنسج. ولذلك لا بد من ان ننتظر صابرين اليومَ الذي يحقق فيهِ صنع خيوط زجاجية دقيقة مرنة تصلح لصنع الملابس، ان كان ذلك مستطاعاً على الاطلاق

ان المقام لا يتسع لتعديد النواحي التي تعتمد فيها الحضارة على الزجاج وما يجتمع فيهِ من خواص فذّة، وقد اقتصرنا في ماتقدم على بعضها وما تمّ فيها من التقدم في العصر الحديث

الطفل المتأخر

للدكتور امير بقطر

ليس هذا المقال تقريظاً للمجلد الكبير الذي نقدمه للقراء ، وليس هو تلخيصاً للمادة الغزيرة التي جمعها المؤلف من ناحية ، وتوصل الى نتائجها من ناحية أخرى . وانما عرض عام لمسائل علمية عظيمة الشأن قتلها الدكتور سيرل برت [1] ، استاذ علم النفس بجامعة لندن ، بحثاً واختباراً ، وسبقهُ اليها غيره من علماء التربية والنفس . وقد رأينا ، إفادة لقراء المقتطف عامة ، والوالدين والمربين والمهيمنين على شؤون الاطفال خاصة ، أن نضع بين السطور ما ينبغي أن يعرف مما لم يتعرض لهُ المؤلف ، اذ أن لغة الكتاب ، ومفرداته العلمية البحتة ، وأسلوبه الفني ، لم يراعَ فيه التبسيط ، لانها موجهة الى الخاصة لا الى العامة ، والى المشتغلين بعلمي النفس والتربية لا الى غيرهم

وقد يتساءل البعض ويعجب ، إذا علم أن مؤلفنا هذا ضمّ بين دفتيهِ نحو سبعمائة صفحة بينها الكثير بالخط الدقيق المضني للعين المجردة ، وأنهُ تتمة لمجلد آخر لا يقل عنهُ ضخامة موضوعه «الطفل المذنب» ، ويذهب العجب اذا أدركنا ان العلماء لا تقل عنايتهم بالطفل الشاذ ، وجميع الموضوعات التي تدور حوله ، منهم بالطفل العادي ، وما ذلك إلاّ لان العقل البشري لا يستطيع ان يتفهم الجمال بغير القبح ، ولا السعادة بغير الشقاء ، ولا الذكاء بغير الغباوة ، وبضدها تتميز الاشياء . وخير الجهود التي بذلها علماء التربية ، وابهر النتائج التي توصل اليها علماء النفس ، نشأت في معاهد الشواذ وضعاف العقول ، وترعرعت في معامل الحيوان بين القردة والكلاب والقطط والجرذان ، وأكثر مدارس العالم شهرة فتحت ابوابها اولاً لقبول التلاميذ الشواذ ، مثال ذلك مدارس دكرولي التي تنسب اليها طريقة دكرولي والمعروفة اليوم باسم مدارس «لرميتاج» في مدينة بروكسل (L'Ermitage)

وقد ظل العالم زمناً لا يعير الشواذ التفاتاً ، كأنهم من سقط المتاع ، وكان الناس فوق ذلك يسيئون معاملتهم كأنهم لا عواطف لهم ولا حساسية ، كما كانوا يقيدون المصابين بالامراض العصبية ، ويسومونهم العذاب ضرباً بالسياط ، وكيّاً بالنار ، وتكبيلاً بالسلاسل الفولاذية الثقيلة.

---

[1] The Backward Child, by Cyril Burt

ولم يتنبه أولو الامر لهذه القسوة الوحشية إلاّ مؤخراً ، حينما برهن علماء النفس على ان الذكاء كلمة نسبية كالحرارة والضغط الجوّي والجمال والصلاح . وابناء البشر (والحيوان) يتفاوتون في الذكاء بين المعتوه ، والسفيه (وتعريفهُ كما في الشريعة الاسلامية من يغبن في المعاملات) والابله ، والمتوسط ، والفائق ، والممتاز ، وفوق الممتاز ، وأخيراً العبقري . والطفل يولد بقدر محدود من الذكاء يبقى فيهِ غيرقابل للزيادة والنقصان تقريباً طول حياته (الاّ إذا كان سبب نقصهِ مرضاً قابلاً للشفاء كاختلال في الغدد الصّم) . وطالما كان هذا القدر موروثاً ، فليس ثمة من ذنب على الطفل إذا لم يستطع الانتقال من مرحلة الدراسة الابتدائية مثلاً بلغت جهوده وجهود معلميه ما بلغت ، كما أنهُ ليس ثمة من ذنب على رجلٍ لا يستطيع ان يحمل قنطاراً من الحديد . وعلى هذا المبدأ نشأت نظرية الفروق الفردية التي يقتضاها تنوع الدراسات تنويعاً يعين كل طفل على تخير المواد التي توافق حالته ، كمية وصعوبة

بقي علينا أن نعرف ان المجنون لا يقاس بمقاييس الذكاء التي يستطاع بواسطتها تحديد مكانه من المعتوه أو الابله ، أو غيرها من ضعفاء العقول ، لان المجنون مريض ، كالمحموم والمجذوم ، وليس من العدل أن يقاس ذكاء المرء وهو في حالة مرض . فإذا ما شفي المجنون ، فهو كغيره من المرضى وذوي العلل ، يمكن أن يكون عبقريًّا او ممتازاً ، كما يجوزأن يكون أبله او معتوهاً. وكما أن المحموم لايعذب ولا يجلد إذا ما استرسل في الهذيان ، كذلك ليس من الانسانية في شيء ان يعذب المجنون أو الذاهب العقل إذا ما استرسل في الهذيان او التعدي على الغيرقولاً أو عملاً

ولم تعبأ انجلترا بالاطفال الشواذ إلاّ حديثاً ، وقد سبقتها في هذا المضمار اميركا والمانيا وبلجيكا وفرنسا . بيد أنها اخذت أخيراً تخطو خطوات واسعة في هذا السبيل . وما هذا المؤلف الذي نحن في صدده الاّ دليلاً على قفزات انجلترا السريعة . وقد خيل إليّ وأنا اتصفح الكتاب أن مؤلفهُ اميركي ، لأنّ الاميركيين أكثروا من التجارب ، ودونوا من نتائجها ، وألّفوا وصنفوا ما لم يصنفهُ غيرهم من الامم . كما ان الطريقة التي اتبعها تكاد تكون أميركية بحتة لأن الاميركيين كما لا يخفى ، اذا كتبوا تبسطوا وأسهبوا ، في حين ان الانجليز اذا كتبوا أوجزوا وتركوا القارىء لذاتهِ يقرأ بين السطور

نعود الآن الى الكتاب الذي نحن في صددهِ فنقول ان المؤلف قسّم الاطفال المتأخرين الى (١) ضعاف العقول و (٢) المذنبين او المشاغبين و (٣) الكثيري الغياب عن المدرسة (٤)والمتقدمين في جميع المواد الدراسية ما عدا بعضها كالحساب او الهجاء او المطالعة. والغرض من هذه التفرقة علاج كل طائفة علاجاً يناسب مقتضى الحال لانهُ ليس من شرعة الانصاف ان يتلقى جميع الاطفال ولا المتأخرون منهم مواد الدراسة الواحدة كمية ونوعاً بغير تفريق او كما

يقول المؤلف ليس من شرعة الانصاف ان تقدم طعاماً واحداً لجميع الحيوانات في الحديقة على السواء

وعمد صاحب الكتاب الى تقسيم آخر ففرق (١) بين التأخر ذهناً وخلقاً و (٢) التأخر الموروث والمكتسب و (٣) التأخر العام والخاص و(٤) أخيراً التأخر المؤقت والدائم . ويحتاج التقسيم الاخير الى شيء من الايضاح :

فعن الطائفة الاولى من المتأخرين ، يقال ان الطفل متأخر من الناحية العقلية اذا كان أقل ادراكاً من أمثاله الذين يستوون معهُ عمراً . وقد استنبط علماء النفس كما قلنا مقاييس او اختبارات للذكاء ، وهي أسئلة تتعلق ببيئة الطفل ولا دخل لها بمواد الدراسة ، يطلب من الطفل الإجابة عنها . وهذه الاسئلة تتنوع بتنوع الأعمار ، وقد وجد بعد تجربتها بمئات الالوف من الناس ان طائفة من هذه الاسئلة تخصص لمن عمره تسع سنوات مثلاً وأخرى لمن عمره اثنتا عشرة سنة وأخرى لمن عمره خمس سنوات وهكذا ، فاذا استطاع طفلٌ في السادسة من عمره أن يجيب عن طائفة الاسئلة المخصصة لمن عمره ست سنوات ، قيل انهُ متوسط الذكاء اي ان سنهُ العقلية تساوي سنهُ الزمنية . واذا لم يستطع ذلك ولكنهُ أجاب عن الاسئلة المخصصة لمن عمره خمس سنوات فهو دون المتوسط لان سنهُ العقلية خمس سنوات ، في حين ان سنهُ الزمنية ست سنوات . واذا استطاع الاجابة عن الاسئلة المخصصة لمن عمره سبع سنوات فهو فوق المتوسط في الذكاء لان سنهُ العقلية سبع سنوات في حين ان سنهُ الزمنية ست سنوات وهكذا . ويمكن استخراج رقم الذكاء لاي طفل بعد اختباره بواسطة الاسئلة التي تلائم سنه الزمنية وبيئته بعملية حسابية بسيطة ، وهي :

$$\frac{\text{السن العقلية}}{\text{السن الزمنية}} \times ١٠٠$$

مثال (١) الطفل يوسف سنهُ الزمنية ١٠ سنوات وسنهُ العقلية ١٢ سنة فيكون رقم ذكائه ١٢٠

مثال (٢) سمير سنهُ الزمنية ١٠ سنوات وسنهُ العقلية ٨ سنوات ، فيكون رقم ذكائه ٨٠

مثال (٣) حميدة سنها الزمنية ٨ سنوات والعقلية ١٢ سنة فيكون رقم ذكائها ١٥٠

هذا عن الناحية العقلية ، أما عن الناحية الاخلاقية او المزاجية كما يسميها المؤلف أحياناً فسنعالجها فيما بعد

وعن الطائفة الثانية من المتأخرين يكاد يكون العلاج عديم الجدوى اذا كان التأخر موروثاً . وهل يستطاع اخراج بذلة متقنة بديعة الهندام من قماش مادته الخام من النوع الرديء ؟ اما اذا كان مكتسباً فالمسألة من السهولة بمكان اذ يكون مثل الطفل كالموسى التي لا غبار عليها سوى

انها في حاجة الى السنان ، أو كاللؤلؤة المحوطة بسياج من الصدف والاعشاب والاقذار ، لا غبار عليها سوى انها في حاجة الى الصانع الفنان الماهر

وعن الطائفة الثالثة يقال ان في ٩٠ ٪ من الحالات، اذا كان للطفل (وسائر الناس من الكبار) كفاية في شيء فانه يكون عادةً كفؤاً مقتدراً في جميع الاشياء وهذه القدرة العامة وراثية لا مكتسبة ومهما حللناها الى وحدات وعناصر فانه يمكن جمعها في كلمة واحدة وهي كلمة « الذكاء » . اما العشرة في المئة الباقية فيكون الطفل مقتدراً في مواد ومتأخراً في مادة او اكثر منها ويقال حينئذ ان عنده كفاية خاصة في مواد وضعفاً في غيرها . ولهذه النظرية انصار على رأسهم سبيرمان من اكبر علماء النفس في انجلترا ومن خصومها ثورنديك اكبر علماء النفس في اميركا ووليم براون في انجلترا . وليس هنا المجال للدخول في تفاصيل هذه النظرية . والذكاء بحسب تعريف المؤلف هو « كفاية (مقدرة) عامة عقلية موروثة »

والطائفة الرابعة لا تحتاج الى كثرة ايضاح فالتأخر المؤقت يرجع الى اسباب لا تلبث ان تزول او يسهل ازالتها ، اما التأخر الدائم فيرجع الى علل خطرة لا سبيل الى شفائها

والطفل المتأخر كالمريض يحتاج اولاً الى تشخيص الداء وثانياً الى وصف الدواء . ويتم الاول بمقاييس الذكاء التي سبقت الاشارة اليها والاختبارات المدرسية المعروفة . اما الثاني فيحتاج الى ادارة منظمة وعناية عظيمة وخبراء او معلمين مدربين . ويقتضي العلاج الكشف الطبي الدقيق وقياس الجسم الانساني (انتروبومترك) وحفظ سجلات وافية بتاريخ الطفل وتاريخ اسرته وحياته المنزلية والمدارس التي سبق انتظامه فيها وتقارير معلميه الخ الخ. ويدعى هذا السجل الشامل . والمدرسة الراقية يلزم ان يكون فيها محلل نفسانيّ (وفيها في اميركا علاوة على ذلك طبيب اطفال وطبيب امراض عقلية) والاّ فيلزم ان يكون المعلم ذا تربية ممتازة

ويبلغ الاطفال المتأخرون في المتوسط ١٠ ٪ من مجموع التلاميذ وقد وجد المؤلف ان هذه النسبة تبلغ ٢٠ ٪ في الريف ، وهذا على ضدّ الرأي الشائع خطأ من ان اطفال الريف يمتازون عن اخوانهم في المدن . وتتفق هذه النتيجة مع النتائج التي نعرفها في اميركا ، فقد اتضح من تجارب العلماء هناك ان اطفال المدن اشد ذكاء من اطفال القرى والارياف . وقد احصى المؤلف المتأخرين ووازن بينهم وبين ضعاف العقول فوجد ان عدد النوع الاول سبعة امثال الثاني وان عدد ضعاف العقول في انجلترا وويلز مئة الف تلميذ

اسباب التأخر

رسم المؤلف خريطة لمقاطعة لندن مقسّمة الى ستين وحدة جغرافية ودرس الارقام الاحصائية التي جمعها من كافة مدارس هذه المقاطعة درساً دقيقاً للوقوف على توزيع المتأخرين

من أطفالها في هذه الوحدات الجغرافية . واستدلّ من ابحاثه على ان التأخر والفقر يسيران جنباً الى جنب ، ويلي الفقر ازدحام السكان . ومن الغريب انهُ وجد ان التأخر يتفق واحصاء المواليد والوفيات . وتتقدم هذه الاحصاءات الوفيات ، اي انهُ كلما علت نسبة الوفيات في حيّ من الاحياء علت نسبة الاطفال المتأخرين تبعاً لذلك . وتلي الوفيات المواليد ثم عدد افراد الاسرة . ووجد ان الاحياء التي تكون أعلى نسبة من غيرها في اطفالها المتأخرين تكون أسرعها في ازدياد عدد السكان ، وان نسبة وفيات الاطفال قبل بلوغهم سنة واحدة في حيّ من الاحياء تتمشى مع نسبة الاطفال المتأخرين في ذلك الحيّ الى حدّ كبير . ولا عجب في ذلك فان العوامل التي تؤدي الى وفاة الاطفال مبكّرين هي بعينها التي تؤدي الى النقص العقلي والبدني

وقد فحص المؤلف بطريقة دقيقة ١٩٣ صبيًّا و١٩٣ صبية بواسطة (١) الكشف الطبي و(٢) اختبار الذكاء .و(٣) الاختبارات المدرسية الخ الخ فوجد ان ٢٠ ٪من المتأخرين من هؤلاء من الاسر الفقيرة المعدمة ، و ٨ ٪ منهم من البيوت الخالية من الوسائل الصحية ،و١٦٪من البيئة الثقافية المنحطة و١١ ٪ يرجع تأخرهم الى اسباب مصدرها البيئة والاخلاق والشعور. ولا يفوتنا ان نذكر انّ في عدد ليس بقليل من الحالات تكون المدرسة (ومعلموها)الملومة لانها لم تستطع التوفيق بين طرق التدريس ومناهج الدراسة وبين حاجات الطفل المتأخر . ويختم المؤلف البحث في هذه الناحية بقوله انّ اهم اسباب التأخر التي تعزى للمنزل هي الامّ التي ينقصها الذكاء وتعوزها قوة الشخصية وحسن الخلق واتزان الطباع ، والام التي لا تكترث بشؤون المنزل ولا تعبأ بمطالب بنيها وبناتها والتي تقتلها الهموم،أو يكون إرثها العقلي ضعيفاً

القامة والوزن

تتناسب القامة والوزن تناسباً طرديًّا مع نسبة النجاح في الاعمال المدرسية ، لان الطفل غير الناضج أي الذي أعيق نموه او وزنه لسبب من الاسباب يكون متأخراً تبعاً لذلك . وبعد أن بين المؤلف هذه الحقيقة بسرد الارقام الكثيرة المعززة لها ، تعرّض لمسألة اخرى جديرة بالذكر ، وهي ان كثيرين من الناس يزعمون ان الطول دليل الغباوة وهو قول معكوس ، لان الطالب الذي تزيد قامته على قامة غيره في الفرقة الواحدة يكون غالباً اكبرهم سنًّا ، واذ يكون متأخراً عادة فان الناس يظنون ان تأخره يتناسب وطول قامته . ولا يعجب القارىء لعناية هذا العالم صاحب الكتاب بهذه النقطة اذا علم ان معاهد التعليم في العالم الغربي تحرص على سجلات التلاميذ التي تبين القامة والوزن وغيرهما حرص وزارة المعارف المصرية على سجلات الدرجات والامتحانات العامة . وقد ورد اليّ من وزارة معارف اليابان اخيراً تقرير بديع اصدرتهُ باللغة

الانجليزية عن حالة التعليم هناك ، ومما يسترعي الانظار فيه جداول متقنة بخطوط بيانية ملوّنة بديعة لنحو خمسة عشر مليون طالب وطالبة . وتبين هذه الخطوط بعبارة جلية الزيادة المستمرّة المطردة في طول القامة والوزن ومحيط دائرة الصدر من سنة ١٩١٤ — سنة ١٩٣٥

عيوب الحواسّ

تنحصر عيوب الحواس بين الاطفال عادة في النظر والسمع والحركة (في اليد واللسان) . وليست هذه امراضاً في غالب الاحايين ، ولذا يخصص للعناية بها العالم النفساني او المعلم الحاذق لا الطبيب . وانه من المعلوم اننا اذا دقّقنا البحث علمنا أن العيب في الحس والحركة نفساني لا جسماني . وفي الحالات النادرة التي يكون فيها العيب جسمانيًا يحال الطفل الى الطبيب المختص . وكثيراً ما تكون هذه العيوب سبباً في إخفاق التلميذ لان المعلم لا يجعل طريقة التدريس ملائمة لهذه العيوب ولا يراعي الفروق الفردية بين أفراد الفرقة الواحدة فما يتعلق بالنظر والسمع وحركة اليد واللسان واخراج الحروف التي يستعصى تمييزها من مخارجها . ولا يخفى ان الجهاز الذي يدير الادراك (العقل) هو حسّي حركيّ (Sensori-motor) أي إن المعلومات تصل الى المخ بواسطة الاعصاب الحسّية ، ومتى كيّفها المخ أرسلها بواسطة الاعصاب الحركية الى عضو من أعضاء الجسم للقيام بما تتطلبهُ هذه الرسالة . وكتب التربية وعلم النفس غنية بالطرق التي يستطيع المعلم اتباعها لفحص هذه العيوب الحسية

الطفل الايسر

من أقوى فصول الكتاب وامتنها ، بحث مسهب ممتع عن الطفل الايسر أي الذي يستعمل يده اليسرى في المواضع التي يستعمل فيها غيره اليمنى ، او أكثرها . ومن السهل فحص الوليد بين سنّ ستة شهور وخمسة عشر شهراً لمعرفة ذلك ، بوضع عصا من الحلوى ملفوفة في ورقة ملوّنة أمام عينيه ، ومراقبة اليد التي تحاول القبض عليها . ومن الصعب تحديد اليسر لان بعض الناس يستعينون باليمنى في مواطن وباليسرى في أخرى . فلاعبو « الكركت » من الذكور اليسر مثلاً يستعملون اليد اليمنى بعكس الاناث اليسر فانهنّ يلعبنها باليد اليسرى . ويتضح معنى هذه الظاهرة من الاسئلة الآتية التي وجهها المؤلف الى ستمئة من التلاميذ اليسر ، وهي : —

ما اليد التي تستعملها في (١) الكتابة (٢) الرسم (٣) التصوير (٤) الضرب بالعصا (٥) القبض على سكينة (٦) قص رقعة من الثياب (٧) حمل كوب او فنجان للشرب (٨) تنظيف الاسنان (٩) ملء الساعة او الفونوغراف (١٠) تناول كتاب او طبق موضوع فوق رفّ يصعب الوصول اليه .

وقد قسّم المؤلف الاعمال التي يستعين فيها الناس باليد قسمين أحدهما يتطلب دقة ومهارة والثاني لا يحتاج الى ذلك. فأولئك الذين يستعملون اليد اليمنى في الاعمال التي تتطلب مهارة ودقة يقال للواحد منهم أيمن وإلاَّ فهو أيسر اذا أدى هذه الاعمال بيده اليسرى ، وإن أدى غيرها باليمنى. ويقال بالاجمال ان ٢ر٥ ٪ من تلاميذ المدارس (وغيرهم) يُسر

وقد استعان المؤلف بعدد كبير من معلمي المدارس لفحص خمسة آلاف تلميذ في لندن فوجد ان توزيع اليُسر بين الاطفال العاديين والمتأخرين و ناقصي العقول كالآتي :

بيان النسبة المئوية لليسر

بين التلاميذ العاديين والمتأخرين وناقصي العقول

	عاديون	متأخرون	ناقصو العقول
ذكور	٥ر٨	٦ر٩	٥ر١٣
إناث	٧ر٣	٠ر٦	٣ر١٠
متوسط الاثنين	٨ر٤	٨ر٧	٩ر١١

ويتبين من هذه الارقام ان اليسر اكثر انتشاراً بين البنين منهم بين البنات ، وبين ناقصي العقول منهم بين المتأخرين ، وبين المتأخرين منهم بين العاديين . ويندر جداً ان يكون الواحد أيمن وأيسر في وقت واحد . غاية ما في الامر ان تتساوى اليدان قوَّةً ولكنهما قلما تتساويان مهارة في تأدية الاعمال

وقد وجد علماء الاميركيين انهُ يصعب جدًّا معرفة هل الطفل أيمن او ايسر قبل بلوغه الشهر السادس من عمره . اما بعد هذه السنّ فتأخذ حالته في الظهور تدريجيًّا حتى الشهر التاسع إذ دلّت الابحاث ان في هذه السنّ ٦٠ ٪ من الاطفال يؤْثرون استعمال اليد الواحدة على الاخرى . ويحدث احياناً في حالات نادرة جدًّا كما قلنا ، ان مهنة المرء تدعو الى استعمال اليدين في اعمالٍ تستدعي الحذق والدقة ، فاذا كان لديهِ الاستعداد الطبيعي الكافي أصبحت اليدان متكافئتين، كما هو الحال في بعض كبار الجراحين. ويذكر لنا التاريخ من هذا القبيل ميشيل انجلو وليوناردو دي ڤنشي ، وسبستيان دي بيومبو. وقد دل الاحصاء على ان هناك تناسباً كبيراً بين اليسر والسماجة وعدم الاتزان وسرعة التأثر وحدة المزاج . ويظهر من ابحاث المؤلف الذي نحن بصدده وغيره من المؤلفات التي نعرفها ان علماء النفس مجمعون على ان اكبر اسباب التلعثم ، والفأفأة، والتأتأة، واللألأة ترجع الى اليُسر . وما ذلك الا لجهل الوالدين والمعلمين بطرق التربية في هذا الشأن ، لان تأنيب الطفل او زجره او تعييره او السخرية به لاستعماله اليد اليسرى، يكسبهُ

شعوراً بالضعة وعدم الثقة بالنفس ، وسرعان ما ينقلب الشعور الى عقدة نفسية تعرقل حركة اللسان

وقد وجد المؤلف ان ٦١/٢ ٪ من اليُسر يتلعثمون او يفأفئون الخ في حين ان هذه النسبة لا تتجاوز ١٫٧ ٪ بين اليُمنى . وهذه النسبة ضئيلة اذا قيست بالنتائج التي توصل اليها غيره من العلماء الذين نعرفهم . ولا بد ان يكون هناك شيء من الاضطراب العصبي في اليسر والذين يستعملون اليمنى في اشياء واليسرى في غيرها . ونكرر القول أن معظم النتائج السيئة مصدرها الوالدين والمعلمين الذين يحاولون تدريب الطفل الايسر على استعمال يده اليمنى بأساليب معية عنيفة ، وهم لا يعلمون ان هذه الاساليب تؤدي الى عيوب كلامية وقد تكون سبب حولٍ في إحدى العينين أو كلتيهما

وهنا يتساءل القارىء : هل اليُسر وراثي او مكتسب ؟ هنا يختلف العلماء . يقول جون ب. وطسن زعيم مذهب السلوكية كعادته أنهُ مكتسب، ويقول جزل (Gesell) انهُ وراثي. ويقول غيرهما أن الطفل في السنة الاولى من عمره يستوى ذراعاه طولاً ، غير أنهُ بعد قليل تكون عظام الذراع اليمنى أطول منها في اليسرى ، ومن هذا يستدلون على أن الطول نتيجة استعمال اليد اليمنى بالعادة . وذكر اليوت سمث ان أقدم سكان لندن تدل بقاياهم على أنهم كانوا يمُنا ، وكذلك الانسان القردي (ape-man) . بيد أن غير هؤلاء من العلماء يقولون أن الجرذان تؤثر اليد اليمنى على اليسرى ، ومنهُ يستدلون على ان استعمال اليد اليمنى يرجع عهده الى ما قبل التاريخ او قبل العصور البشرية (pre-human times) على أن الاسرة التي يظهر فيها اليُسر تستمر فيها هذه الظاهرة جيلاً بعد جيل . وقد أحصى العالم الانجليزي تشمبرلين ١٢ الف من السكان فوجد أن ١٧٪ من ذرية الوالدين اليسر (أو أحدهما) يُسْر. ولا عيب في ماتوصل اليه من النتائج في إحصائه الا أنهُ بنى ابحاثه على الكتابة في حين ان الكتابة وحدها لا تتخذ دليلاً كاملاً على اليسر او العسر . ويكاد يتفق تشمبرلين مع المؤلف فقد تبين من ابحاث الاخير أن ١٤٪ من الاطفال اليسر من والدين يُسْر و ٣١٪ منهم لهم أقارب (بعيدون) يُسْر . وفي هذا دليل على أن اليسر وراثي ولكن ليس من النوع المنحط او المرتد الذي أشار اليه مندل كما زعم بعض العلماء

ومن أغرب ما قيل في هذا الشأن ان العالم الفرنسي Aimé Père (ايميه بير) وجد في أسرة واحدة ٢٥ أيسر . وليس من الغرابة في شيء ان نجد التوائم المتماثلة [1] تتفق في إيثار إحدى اليدين على الاخرى وان التوائم غير المتماثلة او الاخوية [2] تكون أقل اتفاقاً في هذا الإيثار

(١) وهي التي تولد من بيضة واحدة dentical or unicellular.

(٢) وهي التي تولد من بيضتين fraternal or bi-cellular

واصحاب مذهب السلوكية (وعلى رأسهم وطسون الذي سبقت الاشارة اليه) يعتقدون ان تشابه الابن وابيه في استعمال اليد اليسرى لاينهض دليلاً على فعل الوراثة ، لان الابن يقلد أباه عادة في كل شيء ومن شابه أباه فما ظلم . وهذا تعزيز لمبدإ البيئة لا لمبدإ الوراثة

وهناك نقطة هامة جديرة بالعناية لم يفت المؤلف الإشارة اليها لانها تتفق مع اقوال علماء النفس والأعصاب ، وهي اننا اذا سلمنا ان بعض اليُسر منشأه العادة أو الصدفة ، فان الكثير منهُ يرجع الى اختلاف في وظائف الجسم التشريحية . فمن المعروف في علمي النفس والتشريح ان الناحية اليمنى من الدماغ تدير دفة الناحية اليسرى من الجسم والعكس بالعكس . ولذا يقال ان الرجل الايمن يداً أيسر دماغاً . ومن هذا يتضح ان الحالات التي يكون فيها الرجل أيسر شبيهة بالحالات التي يكون فيها القلب في الجهة اليمنى والكبد في اليسرى . وفي معظم حالات اليسر تكون الاعضاء في الناحية اليسرى من الجسم اقوى منها في اليمنى . فقد لاحظ المؤلف من إحصاء قام بهِ بين التلاميذ الذين فحصهم ان ٨٢ ٪ من الذين يؤثرون اليد اليسرى ، يؤثرون كذلك القدم اليسرى ، و٩٤ ٪ من الذين يؤثرون اليد اليمنى يؤثرون كذلك القدم اليمنى ،وأن ٦١ ٪ (٥٧ ٪ من الذكور و٦٥ ٪ من الاناث) من الذين يؤثرون اليد اليسرى ، يؤثرون كذلك العين اليسرى على اليمنى ، و٧٣ ٪ من الذين يؤثرون اليد اليمنى (٧٠ ٪ بين الذكور و٧٧ بين الاناث) يؤثرون كذلك العين اليمنى

ولكن لعمري لِمَ يؤثر الناس الايمن على الايسر ؟ لان الايسر شاذ. ربما يقول البعض ان نصف المخ الايمن يزيد وزنهُ عن الايسر بمقدار ثمن اوقية . غير ان ما للمخ من شأن انما هو في القشرة او المادة السنجابية. وهي اكبر مساحة في النصف اليسار منها في اليمين . ولما كان النصف الأيسر من المخ هو الذي يدير اليد اليمنى كما قلنا ، فاستعمال اليد اليمنى يؤثر على اليسرى . غير ان هذا دليل ضعيف مشكوك فيه ولا يصح اتخاذه حجة يعوّل عليها

﴿ العلاج ﴾ — لا شك ان الطفل الايسر عرضة لان يكون متأخراً ليس في الخط والرسم والاعمال اليدوية وحسب ، بل في القراءة والهجاء والحساب، لان ميل الحروف وكتابة الاعداد وإجراء عمليات الجمع والطرح والضرب والقسمة الخ الخ كلها تختلط عليهِ فيكون عرضة للخطأ بطيء الحركة . وقد وجد المؤلف ان الايسر يكاد يكون اربعة اخماس الايمن سرعة في العمل اي انهُ عند تساوي جميع العوامل الاخرى يسبق الايمن الايسر بمقدار ٢٠ ٪ في عمل ما

ولكن ليست هذه الاَّ اعراض الداء المنظورة . اما الطامة الكبرى ففي العلل النفسية الدفينة الكامنة التي تنشأ عن استعمال اليد اليسرى . هي ذلك الشعور بالضعة والاختلاف عن سائر الاطفال في كل شيء ، في الكتابة واللعب والقبض على الاشياء ، في غرفة المائدة ، وساحة

اللعب ، في المكتبة وحجرة الدراسة ، وغرفة النوم . وفوق ذلك كله فانهُ على الدوام هدف لسهام الملام وقوارص الكلام من معلميه ورفاقه واقاربه ، الذين لا يفتأون ينبهونهُ ويقرّعونهُ وينتهرونهُ ويصلحون « خطأه » فيجرحون احساسه ، ويطعنونهُ في عزته وكرامته طعنة نجلاء. فهل نعجب اذا كره بعد ذلك معلميه واهله وزملاءه ودروسه والمدرسة وكل ما يتعلق بها ؟ وهل نعجب اذا شبّ مفأفئاً شاذّاً ، خجولاً ، غريب الاطوار ، عصيّ المزاج ، انانيّاً ، محبّاً للوحدة ، متقلباً ، ثائراً على غيره وكل شيءٍ حوله ؟

والمؤلف يختلف مع كثير من العلماء في العلاج . فمعظم علماء النفس الذين اطلعنا على مؤلفاتهم يؤثرون ان يترك الايسر يستعمل يده اليسرى ولا يجدون في هذا غضاضة ويعتقدون ان كل محاولة للاصلاح تؤدي الى نتائج وخيمة . بيد أن المؤلف يفرق بين حالة وحالة ، ويقول ان الطفل وهو في المهد صبيّ ناعم الاظفار ينبغي ان يدرب على استعمال اليد اليمنى وذلك بوضع جميع الاشياء التي يريد القبض عليها في الناحية اليمنى . ويذكر حكاية طليّة لصديق لهُ تمزق جيبه الأيمن مرةً فنقل نقوده الى الجيب الأيسر . وظلّ الجيب ممزقاً زمناً طويلاً ولم يخطر لزوجتهِ ان تصلحه . ومن ذلك الحين أصبح صديقه أيسر في هذه الناحية وحدها، أي ظلّ يتناول نقوده بيده اليسرى من الجيب الايسر ، حتى بعد اصلاح الجيب وتغيير السترة تغييراً كليّاً . ويزيد المؤلف على هذا ان المعلم عليهِ مراعاة سن الطفل ومزاجه ومقدار تملك عادة استعمال اليد اليسرى منهُ والعمل الذي يغلب ان يتخذه الطفل مهنة لهُ ، وعنصر الوراثة فيما يتعلق بهذا الامر فيهِ . فالطفل بعد سن السادسة يكون قد تأصل فيهِ الداء ويكون من العبث ان يحاول انتزاعه منهُ . وكذلك الطفل الذي تدل الدلائل على انهُ وُلد كذلك . والمؤلف حريص جدّاً على ان يحاول جميع من يهمهم أمر الطفل منذ نعومة أظفاره ان يدربوه بكل حكمةٍ وحذر على استعمال اليد اليمنى ، ويقول ان الطفل متى شبّ رجلاً بقي طول عمره مديناً لكل من ساهم في علاجه . والدليل القوي الذي يتخذه المؤلف سلاحاً لهذا ان أجهزة المدنية كلها — آلاتها ووسائلها — صنعت بحيثُ يقف أمامها الايسر مكتوف اليدين . فالمفاتيح وسلالم العربات والسيارات وآلات الخياطة والحاكي وكل شيء آخر وضعت على هذا الاساس

ويقول العالم الاميركي ترمان Terman ان الايسر يجب ان يترك كذلك، خصوصاً فيما يتعلق بالكتابة ، لان التدخل في أمره يؤدي الى عيوب في النطق (كالفأفأة) وهذه أشد وطأة من تلك . غير ان المؤلف لا يعتبر هذا الرأي لان الفأفأة بين اليسر ليست من الخطورة بهذا القدر ، فان النسبة المئوية بين هؤلاءِ في اليمن واليسر هي ٢ر٤٪ و ١ر٦٪ على التوالي

ويقول العالم ترافيس Travis بمثل ما قال بهِ ترمان وذلك بناء على هذه النظرية، وهو ان الايسر

يكون نصف دماغه الايمن هو السائد بعكس الايمن فان نصف دماغه الايسر هو السائد . والطفل عند ما يتكلم يستعمل النصفين معاً لانهُ يسمع بأذنيه ويحرك الجزء الايمن والجزء الايسر من الوجه والفم معاً ، في حين انهُ عند الكتابة يستعمل أحد الجزءين فقط ، فاذا كتب بيده اليمنى فانهُ يستعمل النصف السائد من الدماغ ولا يتدخل في أمره أحد ، واذا استعمل اليسرى فانهُ يستعمل النصف السائد او القوي فيتدخل في أمره الناس ويضطر الى استعمال الجزء الضعيف . وهذا يؤدي بهِ الى اختلال التوازن في طباعهِ وعواطفهِ ويدفع في نهاية الامر الى الفأفأة ، ويعترف المؤلف بوجاهة هذا الرأي ولكنهُ يؤثر ان يرجىء حكمه الى ان تقرر هذه النظرية بأدلة علمية أخرى

العيوب الكلامية

كما ان النظر والسمع هما الحاستان الرئيسيتان في الانسان ، كذلك حركتا اليد واللسان هما الآلتان الرئيسيتان فيهِ . الاولى تقودها العين والثانية الاذن . وبين الاثنتين اللسان اهم من اليد . وقد وجد بالاحصاء ان العيوب الكلامية عالية نسبتها المئوية بين الاطفال ضعاف العقول . وهناك عيبان رئيسيان في الكلام وهما (١) التلعثم و (٢) استبدال حرف بحرف آخر . اما الثأثأة فتطلق على من ينطق الثاء بدلاً من السين . واللألأة فتطلق على من ينطق اللام بدلاً من الراء . اما الوقوف فهو تكرار الكلام او الحروف ، والتلعثم هو عدم استطاعة الاستمرار

نحو ٢٥ ٪ من ناقصي العقول في المدارس التي فحصت في لندن عندهم عيوب كلامية . وتبلغ نسبة البنين للبنات في هذه العيوب الضعف . ووجد المؤلف من فحص عام أن نحو ٥ ٪ من جميع التلاميذ مصابون بعيوب كلامية ، وان معظم الثقاة وجدوا ان التلعثم والوقوف ، بين الصبيان ٣ امثاله بين الاناث . والثأثأة واللألأة ضعفه فقط والسبب الاول ان المرأة بطبيعتها فياضة في الحديث ورشيقة في جميع حركاتها ، والكلام هو حركة اللسان . والسبب الثاني ان الناس يعاملونها منذ الطفولة باللين بعكس الذكر

وتكثر العيوب الكلامية في سن الرابعة والخامسة ولكنها تتضاءل بعد نهاية الدراسة الابتدائية . ولوحظ ان بين سن ٧ — ٨ تقفز النسبة المئوية لاسباب (١) لكثرة أمراض الاطفال في هذه السن كالسعال الديكي والحصبة والزكام الشديد لانها تضعف الجهاز التنفسي والسمع (٢) لانها سن التسنين dentition

وقد أفاض المؤلف في العلاج ولعل اهم ما ذكره ان صاحب العيوب الكلامية لن يستقيم حاله مالم يتجنب أهله كل سخرية وهزء ، وما لم يراعوا إحساسه ويشجعوه على الكلام ولا يلومونهُ ،

مع عدم ارهاقه بالدروس او العمل، ومع إيكال امره الى معلم حكيم حليم صبور يستطيع ان يمرنهُ على الكلام بأساليب بيداجوجية نفسية

هذه نظرة سريعة اهملنا فيها فصلاً كاملاً عن الذكاء مكتفين بما سبقت الاشارة اليه مما يهمّ القارىء معرفته عنهُ. وقد ذيلنا البحث بالمفردات التي استعملناها وما يطابقها بالانجليزية إتماماً للفائدة . وحبذا لو اطلع على هذا المؤلف الجليل كل من يمت الى شؤون التربية بصلة

المحلل النفساني	psychoanalyst
طبيب الامراض العقلية	psychiatrist
علماء الاعصاب	neurologists
طبيب الاطفال	pediatrist
اليسر او العسر	left-handedness sinistro-dextrality
اليمن	right-handedness dextro-dextrality
ايسر	left-handed sinistro-dextral
ايمن	right-handed dextro-dextral
الاضبط	ambidexterous
مرتد . منحط	recessive
السلوكية (في علم النفس)	behaviourism
المادة السنجابيَّة (في المخ)	substantia grisea gray matter
تلعثم	stammering
لُكنة (تكرار الحروف)	stuttering
التأتأة (نطق الثاء بدل من السين)	lisping
اللألأة (نطق اللام بدل من الراء)	lallying
توائم متماثلة	identical twins unicellular twins
توائم متشابهة او أخوية	fraternal twins bicellular twins

مذنب	delinquent
متأخر	backward
شاذ	abnormal
ناقص العقل	defective (mentally)
عبقري	genius
ابله	moron [1]
ضعيف العقل	feeble-minded
سفيه (وهو من يغبن في المعاملات)	imbecile
معتوه	idiot
عادي	normal
دون العادي	subnormal
السن الزمنية	chronological age
السن العقلية	mental age
السجل الشامل	cumulative record
عالم نفساني	psychologist

(1) يعتبر moron عند علماء النفس الاشخاص الذين يكون ذكاؤهم اقل درجة من feeble-minded وأعلى درجة من imbecile (سفيه)

التعليم

بين المؤثرات التاريخية والاخطاء البورجوازية

لعبد الرحمن شكري
المفتش بوزارة المعارف

يزداد عدد الشبان العاطلين يوماً بعد يوم على الرغم مما حازوه من الشهادات. وكان الناس يظنون ان التعليم تميمة تقي صاحبها شر البطالة لان ابواب الرزق كانت تفتح امام المتعلمين القليلين فلما زاد عددهم ضاقت بهم ابواب الرزق فظن بعض المفكرين ان سبب ذلك قلة نصيب المتعلمين من الثقافة وان نصيبهم اقرب الى ان يدعى قشوراً وانهم اذا زاد حظهم من الثقافة التي هي دواء لكل داء مثل إكسير الحياة، لم يصبهم حتى داء العطل من العمل

على ان هذا الشباب المتعلم العاطل من العمل غير مقصور على مصر بل هو ايضاً في الدول الغربية. وبعض هؤلاء العاطلين نصيبهم من الثقافة الفكرية نصيب عظيم. وقد يعجب المفكر من وجود العطل من العمل في الدول الغربية. فانهُ يقول هذه بلاد توارث الناس فيها الملكات العملية وميولها جيلاً بعد جيل ثم تمتعوا ببيئة منزلية وغير منزلية تساعد على تمكين الطبائع العملية في النفوس ثم وجدوا فرصاً كثيرة تزيد هذا التمكين من القرص والمؤهلات والمؤسسات والاسواق الاقتصادية والمستعمرات فلم تحُل جميع هذه العوامل دون انتشار عطل المتعلمين بينهم. ولا مراء في ان سريان سنة العرض والطلب الاقتصادية كان لها اثر في هذا الانتشار وكانت هناك أسباب ليس هذا المجال مجال بحثها. ولكن مما لاريب فيه ان سياسة التعليم وخطته العامة كان لها اثر أيضاً لان الطبقة الوسطى على اختلاف درجاتها عند ما ظفرت بالحكم والسلطة في دول غرب اوربا في القرن التاسع عشر جعلت خطة التعليم العامة مؤسسة على الثقافة النظرية، وتقديس (البورجواه) لهذه الثقافة وسعيهم في طلبها يشبه سعي أهل القرون الوسطى في طلب إكسير الحياة او حجر الفيلسوف. وفاتهم ان طبقتهم ليست في الحقيقة طبقة واحدة متجانسة وليس جميع أفرادها ولا كل من يتعلم بحسب خطتهم الثقافية (ان صح انهم كانت لهم خطة لا محض

اتجاه فكري) ممن يستطيعون ان يعيشوا بالثقافة الفكرية دون سواها · وقد بدأوا الآن يندبون حظ العاطلين ممن يسمون بذوي «الياقات» البيض . ومن اغلاطهم انهم لم يدركوا فائدة الانتفاع من زيادة تمكين الطبائع العملية من النفوس بالوسائل التعليمية المصطنعة في المدارس الاَّ في العهد الاخير وربما كان السبب في ذلك اغترارهم زمناً بعمل عوامل الوراثة والبيئة والفرص الاقتصادية في بلادهم على تمكين هذه الطبائع .وفاتهم ان مثل الوسائل العلمية المصطنعة التي تتخذ لزيادة تمكين الطبائع والميول العملية في النفوس وتنمية ما ينشأ عنها من الصفات في العقول والجسوم كمثل الوسائل العلمية الحديثة في الزراعة فان خصب التربة لا يغني عنها وكذلك النفوس الغنية بالميول العملية المخصبة بها لا تستغني عن الوسائل التعليمية المصطنعة المنظمة التي تتخذ للاستيثاق من تمكين هذه الطبائع والميول العملية

ولما كنا نجاري دول غرب أوربا في خطتها التعليمية فقد وقعنا فيما وقعت فيه من أخطاء وكانت هذه الاخطاء أشد ضرراً بنا لان المؤثرات التاريخية والاجتماعية في نفوسنا غيرها في نفوسهم ولا تعمل كثيراً على توافر هذه الطبائع والميول العملية في نفوسنا ولان البيئة عندنا منزلية كانت او غير منزلية لا تعمل ايضاً على توافر هذه الطبائع ولان الفرص والمؤسسات الاقتصادية التي من شأنها إنماء هذه الطبائع ليست متوافرة عندنا كما هي متوافرة في هذه الدول التي نجاريها

***

والذي يتتبع خطة التعليم في مصر في الجيل الماضي يجد ان محورها كان زيادة المناهج او انقاصها وزيادة مرحلة الثقافة العامة او انقاصها؛ وما عدا ذلك من اوجه الاصلاح كان عرضاً لا جوهراً ولا محوراً لخطة التربية والتعليم وما كان منه صالحاً لم يستفد منهُ فائدة تذكر لان واضعي خطط التعليم كانوا يدينون بعقيدة الاكثار من الثقافة العامة من غير تمييز بين المتعلمين وحاجاتهم وطبقاتهم وكان لفظ الثقافة محور التفكير والحديث والكتابة والفخر وكانوا يقولون ان المرء اذا ثقف ثقافة عامة كان صالحاً للحياة وكانت الحياة صالحة له وانما كانوا يختلفون في سبيل تحقيق هذه الثقافة فبعضهم كان يرى توافرها في اطالة مرحلتها في التعليم او في إتراع مناهجها واشباعها وبعضهم كان يرى توافرها في تخفيف المناهج مع نشدان الجودة .وكان اتجاه كل فريق مثل الاتجاه الفكري عند الحكام من «البورجواه» في دول غرب اوروبا أو من المتصلين منهم بطبقة الاشراف الاغنياء وتقديس «البورجواه» للثقافة تقديساً يصرف النظر حتى عن مهيئاتها هو أمر نبيل وهو ضرورة لهم لحفظ السلطة في يدهم ولكن لم تكن جميع اسبابه عالية نبيلة فقد كان من اسبابه حسد الاغنياء من «البورجواه» المتعلمين المستنيرين من اغنياء الاشراف الذين كانت في يدهم مقاليد الحكم قبل فوز

«البورجواء» في القرن التاسع عشر ولكن الثقافة كانت عند اكثر الاشراف لذة عقلية لا عقيدة وديناً كما جعلها «البورجواء» كي يخفوا بعض الاسباب الحقيقية التي جعلتهم يأخذون بها

***

وكثرة التحدث بالثقافة ومزايا الثقافة قد صرفت المفكرين عندنا عن سبيل تحقيق الثقافة فان خوفهم من ان يجور التخصص على الثقافة فينتج نشأً ناقصاً قد جعلهم لا يميزون بين وسائل تمكين الطبائع العملية من النفوس وبين التخصص. فكلما جد اقتراح من شأنه تمكين الطبائع العملية اثناء مرحلة تعليم الثقافة قيل هذا تخصص في عمل من الاعمال لا يصح ان يدرب عليه اثناء مرحلة الثقافة. وبهذا التفكير جنوا على الثقافة التي ينشدونها لان الحواس هي ابواب النفس واذا لم تربَّ ولم تربَّ الطبائع العملية كانت النفس مغلقة او شبه مغلقة لا تقبل كل ما يرد اليها من المعقولات. وهذه الحواس والطبائع العملية والصفات التي تنشأ عنها، ومنها حضور الذهن واليقظة الفكرية وسرعة الخاطر ودقة الحكم على الحقائق وإقدام الواثق المؤهل، امور لا تنمى الاّ بمنهج فيه كثير مما يرفضهُ القائلون بالثقافة قبل كل شيء ويقولون برفض كل ما يظن انهُ تخصص في اثناء مرحلة الثقافة. ومن أجل ذلك لم يثمر ما يدعى بالنشاط المدرسي كل ثمرته لانهُ لم يكن بالجوهر بل كان العرض في المدارس فكان مقصوراً على عدد قليل من الطلبة وعلى انواع محددة من النشاط ولم تعدَّ له كل ما يحتاج اليه من حجرات او مال او اخصائيين او ادوات او فراغ ولم ينظم بطريقة المنهج الواسع النطاق المدرج الذي يراد به ما يراد من بث الصفات والطبائع العملية ولم يتضمن نتائج ابحاث المشتغلين بالتربية ولا منهجاً لتربية الحواس والملكات كما تربى على طريقة منتسوري مثلاً ولا نظاماً للتدرب على اعمال الحياة المختلفة، كما في المدارس التجريبية الاميركية ولا على غير ذلك من نتائج خبرة المشتغلين بالتربية الحديثة وبحثهم — وقد يعترض معترض فيقول ان طرق تربية الحواس والملكات من امثال طريقة منتسوري انما تراد لناقصي العقول والملكات وهذا وهم فان ثمرتها تكون اتم وأعظم في غيرهم. وقد يعترض معترض فيقول ان المدارس التجريبية في اميركا وغيرها ما هي الاّ تجربة فحسب وهذا وهم فان هذا الاتجاه الفكري قد أثر في المدارس عامة وكان من اثره ما يسمى بالنشاط المدرسي

واذا نظرنا الى تاريخ الامم وجدنا لكل منها حضارتين او ثقافتين فلها ثقافة في ابان نهضتها من البداوة او ما شابه البداوة من انواع المعيشة وهي الحضارة التي تكون للامم عند اخذها بأسباب الثقافة، قبل ان تفقد الطبائع والميول العملية التي هي اكثر في معيشتها الاولى قبلْ ان تعتورها رخاوة الحضارة وطراوتها. ولها ايضاً ثقافة اخرى او قل هي شكل يدخل

على الحضارة والثقافة الاولى بعد ان تنال منها رخاوة الحضارة وعوامل الضعف الاجتماعي المختلفة سواء أمن فساد القوانين والنظم الاجتماعية نشأت ام من ركود التجارة والصناعة والاعمال العامة لاسباب اخرى . وهذه الثقافة الاخيرة قد تكون في بعض البيئات راقية من الناحية الفكرية النظرية ولكنها قلما تكون مثمرة لافتقاد الميول العملية والصفات الناشئة من طبائعها والتي كانت لها في حضارتها الاولى

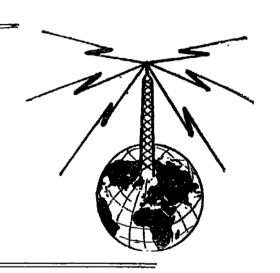
وفي مثل هذه الحال لا بد ان تحاول الامة احياء تلك الطبائع العملية واعادة تمكنها من النفوس بالوسائل التهذيبية التعليمية المصطنعة وهذه المحاولة هي ما ينبغي ان يكون محور خطة التعليم وأساسها وما يستدعي تفكيرنا وسعينا قبل كل شيء حتى قبل التفكير في الثقافة فاننا اذا فعلنا ذلك كان امر الثقافة بعد ذلك هيناً وكانت اتم وأحسن وأكثر ثمرة

***

وكما ان لنا في حياة الامم وتاريخها وحضارتها التي ذكرناها عظة وحجة وعبرة فان لنا في حياة الانسان الفرد اعظم حجة وأكبر عظة . فالطفل لا بد ان تتفتح حواسه وتربى في طفولته، وهي عادة تربى في المنزل والبيئة عفواً بطرق غير منظمة ولكنها تربية على اي حال، قبل ان ينمو ويستعد لقبول الثقافة النظرية الفكرية.وتربية الحواس المنظمة تصحح وتساعد تربيتها غير المقصودة والخطر كل الخطر في الامة المتحضرة بالحضارة الاخيرة من حضارتها اي الحضارة التي فقدت فيها الطبائع العملية اذا كانت الثقافة هي محور التعليم ان تزيد هذه الثقافة النظرية الفكرية ابناء هذه الامة عجزاً على عجز وتغريهم باحلام اليقظة وتشتت ذهنهم وتشلّ مساعيهم فتكون تلك الثقافة اشبه الاشياء بالمخدرات لا اقل ولا اكثر

***

وقد يعترض معترض فيقول اذا كانت الاعمال تمكن الطبائع والميول العملية من النفوس وتؤهل للنجاح فيها فلمَ لم تفعل ذلك في مدارس الصناعة والزراعة وهذه مغالطة . فانها تفعل ذلك وانما يكون أثرها اعظم لو ان طلاب هذه المدارس قد نشأوا من صغرهم على خطة من التعليم محورها تربية الحواس والملكات بالطرق البيداجوجية المنظمة الحديثة وتمكين الميول العملية من النفوس وانماء صفاتها التي تؤهل للنجاح في الحياة والتي تجعل الانسان اكثر استعداداً للانتفاع بالثقافة العقلية . والحقيقة ان بعض طلاب الثقافة يخسرون الثقافة ويضلون طريقها كما يضل طريق السعادة او الصحة بعض من يعنون انفسهم ويشقونها بالتفكير فيهما في كل لحظة



اساليب المخاطبات

الكهربائية وارتقاؤها في العصر الحديث

من تلغراف مورس الى تلفاز بيرد

واليوم أبطأ ما تكون رسالة	ان تطت عاجلها بريش القشعم
حمل ألوكتك الفضاء يؤدّها	شرراً الى اقصى مدًى متيمم
فالجوّ بالقطبين طرس دائرٌ	والبرقُ أسرع ما ترى من مرقم

بهذه الابيات البليغة وصف خليل مطران المخاطبات اللاسلكية الحديثة . وليس بخافٍ ان وسائل المخاطبات بين البشر ظلّت بطيئةً لارتباطها بناقلٍ يعتمد على سرعتهِ في السير كرسول او قطار او حمام زاجل. فلما تمكن العلماء من استعمال التيّار الكهربائي الساري في سلك من المعدن، ثم لما تمكنوا من تحميل الامواج الكهرطيسية الخفية رسائلهم المنوّعة ، ارتقت اساليب التخاطب ارتقاء عجيباً وانتشرت انتشاراً واسعاً، فربطت البلدان باسلاك من حديدٍ واسباب من نحاس اولاً ، ثم بامواج خفية قصيرة وطويلة ، فصار في الامكان ان تبعث برسالة برقية بالسلك التلغرافي، أو الموّاج اللاسلكي في ثوان ودقائق ، بل غدا في مكنة الانسان ان يحدّث عميلهُ أو صديقهُ في أنأى الاقطار عنهُ فينتقل الحديث « شرراً الى اقصى مدًى متيمّم »

وقد حدث في خلال الشهر الماضي في مصر حادثان استوقفا النظر ووجها العناية ، الى ما نفحنا بهِ العلم من أسباب التخاطب السلكي واللاسلكي ، أولهما اجتماع المؤتمر الدولي للمواصلات السلكية واللاسلكية في القاهرة ، وقد حضرتهُ وفود من نحو ستين دولة ، والثاني اذاعة لاسلكية في الولايات المتحدة الاميركية ، كان مصدرها من حجرة الملك في هرم خوفو الكبير بالجيزة . [1] فلذلك رأينا من حق القراء علينا ان نوجز لهم في مقال واحد ، ارتقاء المواصلات الكهربائية الحديثة من تلغراف مورس الى تلفون بل الى التلغراف والتلفون اللاسلكيين وما يتصل بهما من فنون النقل اللاسلكي كنقل الصور والنقل النموذجي والتلفزة

(١) راجع وصف ذلك في باب الاخبار العلمية من هذا الجزء

التلغراف السلكي

في أواسط القرن الثامن عشر خطر لبعض المشتغلين بالكهربائية انهُ في الامكان نقل الاشارات الكهربائية من مكان الى آخر . ثم اكتشف ستيفن غراي وغرانفل هويلر انهُ يستطاع نقل الكهربائية من زجاجة ليدن مسافة طويلة على سلك معزول . ثم اقترح أحدهم سنة ١٧٥٣ في المجلة الاسكتسية نقل الاشارات الكهربائية على سلك معزول قوامهُ ستة وعشرون سلكاً معزولاً كلُّ سلك منها يقابل حرفاً من حروف الهجاء الانكليزية

على ان المصاعب العملية التي قامت في سبيل تحقيق هذا الفكر او ما يماثلهُ كانت جمة لم يُستطع تذليلها قبل سنة ١٨٣٧ . ذلك انهُ كان لا بدَّ لزعماء الباحثين في الكهربائية كغلفاني وفولطا وأورستد وفراداي من كشف أسرارها ومعرفة قوانينها قبل ان يصير التحكم بأفعالها مستطاعاً . ثم توالت المستنبطات وكلٌّ منها خطوة في طريق الكمال . ثم قام مورس في اميركا وستانهيل في باڤاريا وهويتستون وكُك في انكلترا فصنع كلٌّ منهم تلغرافاً خاصًّا مخالفاً لتلغراف الآخر وحسب انهُ نال قصب السبق في هذا المضمار ولكنْ فُضِّل تلغراف مورس لبساطتهِ وسهولة العمل بهِ

صنع مورس تلغرافهُ الاول سنة ١٨٣٢ ولكنهُ كان معدماً لا يستطيع ان ينفق على اذاعتهِ فبقي يشتغل باتقانهِ الى ان تسنى لهُ عرضهُ للناس سنة ١٨٣٧ في جامعة نيويورك فأرسل حينئذٍ الاشارات الكهربائية مسافة ١٧٠٠ قدم على سلك نحاسي . ثم منحهُ الكنغرس (مجلس الامة الاميركي) ٣٠ الف ريال فأنشأ اول خط تلغرافي تجاريّ سنة ١٨٤٤ بين وشنطن وبلطيمور . وهو الذي وضع نظام الاشارات التلغرافية المستعمل الآن والمعروف باسمهِ (Morse Code) وتوفي سنة ١٨٧٢ قبيل انشاء المقتطف

شاع تلغراف مورس في انكلترا وأميركا واتقن اتقاناً عظيماً في بضع سنوات ومدت اسلاكه حتى صار في الامكان ارسال الرسائل التلغرافية مسافة مئات من الاميال سنة ١٨٥٠ . ثم جعل العلماء يبحثون عن امكان مدّ الاسلاك التلغرافية تحت البحر فمدَّ السلك التلغرافي البحريُّ الاول بين كاليه بفرنسا ودوفر بانكلترا سنة ١٨٥١ وتلاهُ مد الاسلاك التلغرافية بين اسكتلندا وارلندا وبين انكلترا وارلندا . وكان المهندسون الكهربائيون حينئذٍ يطمحون الى وصل اميركا واوربا بالتلغراف فتألفت شركةٌ في بلاد الانكليز سنة ١٨٥٦ لمدّ سلك تلغرافي في المحيط الاطلنطي . فتمَّ مدهُ سنة ١٨٥٨ الا أن الاشارات التي ارسلت بهِ لم تكن واضحة كلّ الوضوح فاهمل استعمالهُ فتألفت شركةٌ أخرى لمدّ سلك آخر وكان مستشارها السر وليم طمسن (لورد كلفن بعدئذٍ) فأتمت عملها سنة ١٨٦٦ بعد تجارب كثيرة أبدى فيها السر وليم طمسن من البراعة في العلوم

النظرية وتطبيق مبادئها ما جعل اسمهُ مرتبطاً كل الارتباط بمدّ السلك التلغرافي بين اوربا واميركا

وحاول بعضهم بعد ذلك ان يرسل رسالتين تلغرافيتين على سلك واحد في وقت واحد فنجح المستر ستيرنز احد سكان بوسطن في ذلك . ثم سعى رجل يدعى ستارك الى ارسال أربع رسائل تلغرافية على سلك واحد فلم تسفر تجاربهُ عن النجاح وتلاهُ اديصن المستنبط الاميركي المشهور فأفلح في ذلك ولا يزال أسلوبهُ متبعاً الى الآن

ومن ثمَّ أخذت الشركات والحكومات المختلفة تمدُّ الاسلاك التلغرافية بين مختلف البلدان والقارات فوق الارض وتحت الارض وتحت البحر فتمكنت شركة الايسترن التلغرافية في سنة ١٩٢٤ من ارسال رسالة تلغرافية من لندن حين افتتاح معرض ومبلي فدارت حول الارض ورجعت الى لندن في دقيقة وثلث دقيقة

ونشأ عن مدّ الاسلاك التلغرافية في مختلف البلدان علاقات دولية اقتضى لها مؤتمرات لتنظيمها ووضع قانون لها تجري عليهِ فالتأمت مؤتمرات في باريس سنة ١٨٦٥ وفينّا سنة ١٨٦٨ ورومية سنة ١٨٧١ وبطرسبرج سنة ١٨٧٥ ولندن سنة ١٨٩٧ وبرلين سنة ١٨٨٥ وباريس سنة ١٨٩٠ وبودابست سنة ١٨٩٦ ولندن سنة ١٩٠٣ وغيرها . وأنشىء مكتب دولي لادارة التلغرافات في برن عاصمة سويسرا سنة ١٨٦٨ . هذا وقد بلغ طول الخطوط التلغرافية المستعملة في سنة ١٩٢٠ ستة ملايين ومائة وسبعين الف ميل منها ٣٠٠ الف ميل بحري من الاسلاك التلغرافية البحرية

التلفون السلكي

لا يخفى ان الصوت شعور تشعر بهِ الأذن من أمواج في الهواءِ تصل اليهِ من الجسم الصائت فينقلها الى الاذن . وهذه الامواج تختلف في عددها وسعتها واتصال أمواج أخرى بها وقت حدوثها فيلون من ذلك علوّ الصوت وشدتهُ وكيفيتهُ . فاذا أريد نقل الصوت البشري بآلة من مكان الى آخر وجب ان تنقل الامواج بحسب عددها في الثانية من الزمان وبحسب سعتها واتصال غيرها بها لكي يكون منها صوت مسموع مثل الصوت الذي نُقل تماماً . وهذا ليس بالامر السهل كما يظن لاول وهلة ولذلك تعذَّر على العلماء زماناً طويلاً . وأول من تغلب على جانب منهُ الاستاذ ريس من فرنكفورت فانهُ صنع غشاءً من الكلوديون سنة ١٨٦٠ وأوصل بهِ مفتاحاً معدنيًّا متصلاً بسلك كهربائي فكان الصوت يهزُّ هذا الغشاء فيتحرك المفتاح باهتزازه فينتقل المجرى الكهربائي على السلك وينقطع عنهُ بحسب اهتزاز المفتاح . وفي الطرف الآخر من السلك مفتاح آخر مثل هذا يتصل بهِ غشاء مثل الاول فيهتزُّ بحسب سريان الكهربائية وانقطاعها ويهز الغشاء فيتولد صوت من اهتزازه مثل الصوت الاول في عدد أمواجهِ ولكنهُ ليس مثله في سعتها وكيفيتها فلا ينتقل بهِ الكلام ولو نقل بهِ بعض الاصوات الموسيقية

ثم استنبط المستر غراي من شيكاغو ان ينقل الصوت بعدد اهتزازته واتساعها اي بعلوه وشدته وذلك انهُ ابدل الغشاء الذي يهزهُ الصوت بقلم معدني ينغمس في الحامض الكبريتيك المخفف فتزيد المقاومة للتيار الكهربائي بحسب انغماسه في الحامض ولذلك يقوى التيار الكهربائي او يضعف وفقاً لتموُّج الغشاء او وفقاً لارتفاع الصوت وانخفاضه. ووصف غراي تليفونهُ هذا في كتاب قدمهُ الى «ديوان الامتياز بالمخترعات» في الولايات المتحدة في ١٤ فبراير سنة ١٨٧٦ وفي ذلك اليوم عينه قدم اسكندر بل Bell الانكليزي الاصل والاميركي النشأة رسم تليفون الى ديوان الامتياز مؤلف من غشاء رقيق تتصل به قطعة من الحديد اللين موضوعة امام قطعة من المغنطيس الكهربائي لكي تهتز امامهُ مع الغشاء بتموُّج الصوت، فتقوى الكهربائية او تضعف وينتقل هذا الفعل على سلك معدنيّ الى مغنطيس كهربائي آخر امامهُ غشاء كالاول فيهتز بالمجرى الكهربائي كما اهتزَّ الغشاء الاول ويصدر الصوت من اهتزازه. ولم يفِ هذا التلفون بالغرض، فجعل الاستاذ بل يزيد قطعة الحديد اتساعاً حتى جعل الغشاء كلهُ صفحة رقيقة من الحديد اللين وأبدل المغنطيس الكهربائي بمغنطيس دائم فتمَّ التلفون على ما تراهُ في الجهاز الذي يسمع الصوت به الآن

ومن ثمَّ اخذ المستنبطون يشتغلون باتقان الجزء المرسل والسَّماعة حتى يكون الصوت جليًّا والكلام واضحاً وأشهر المشتغلين بذلك اديصن واليشا غراي وهيوز مستنبط المكروفون وغيرهم

ولقي بل صعوبة كبيرة في اول عهده باستنباط التلفون في اقناع الجمهور بفائدته. فعرض تلفونهُ في المعرض المئوي الاميركي فمرَّ به القضاة قرب الغروب وقد أنهكهم التعب مرَّ الكرام، وسألهُ احدهم متهكماً « وماذا يهمنا لو نقل الصوت على سلك او لم ينقل ». واذا بحادثة من الحوادث التي يسوقها القدر لتغيير مجرى التاريخ فانقلبت الحال بين غمضة عين وانتباهتها الى حال اخرى. ذلك انهُ حينما همَّ القضاة بالانصراف اقترب من مائدة بل رجل في جماعة كبيرة من الاتباع. كان ذلك الرجل دوم بدرو امبراطور البرازيل وكان قد حضر الى الولايات المتحدة قبلاً وتعرَّف الى بل لما كان مدرساً فعرفهُ الآن وتقدم اليه وصافحهُ فشرع بل يبسط لهُ استنباطهُ والقضاة يصغون اليه. وبعد ما انتهى من بسطه اخذ الامبراطور السماعة واصغى الى ما يقوله بل في الطرف الثاني فصاح « يا الهي انها تتكلم »

كانت هذه الحادثة خاتمة المصاعب التي لقيها بل في سبيل نشر اختراعه. فما اتمَّ الامبراطور تجربتهُ حتى اقترب القضاة واحداً واحداً يريدون ان يجرّبوها وكان بينهم السر وليم طمسن (لورد كلفن) وجوزف هنري العالم الكهربائي. فقال طمسن بعد ما جرَّبها « ان هذا الجهاز اعجب ما رأيت في اميركا » فذاع اسم بل بين ليلة وضحاها وفي صباح اليوم التالي نقل تلفونهُ من

المكان الزري الذي كان فيهِ الى أظهر الاماكن في المعرض

ومن ثمَّ اخذ التلفون في الشيوع حتى بلغ عدد التلفونات المستعملة سنة ١٩٢٨ نحو ٣١ مليون تلفون في كل العالم منها نحو ١٨ مليوناً في الولايات المتحدة الاميركية وهو آخر احصاء عثرنا عليهِ في دائرة المعارف . ويظهر من مقابلة التلفونات التي كانت مستعملة سنة ١٩٢٠ بما كان مستعملاً منها سنة ١٩١٠ أن عددها تضاعف في عشر سنوات ثم انهُ زاد اكثر من خمسين في المئة بين سنتي ١٩٢٠ و١٩٢٨ . وقد تمت في الحقبة الاخيرة اصلاحات جمة في التلفون اهمها آلة استنبطها الاستاذ پيوبن من اساتذة جامعة كولومبيا جعلت المخاطبات التلفونية سهلة على مسافات شاسعة . فمدت الاسلاك التلفونية من شرق الولايات المتحدة الى غربها واستعمل الخط التلفوني التجاري بين نيويورك وسان فرنسسكو في ٢٥ يناير سنة ١٩١٥ ثم مدّت اسلاك تليفونية تحت البحر الى كوبا سنة ١٩٢١ وتمكن المهندسون المنقطعون للتلفون من مد خط تلفوني بين بلطيمور وبتسبرغ سنة ١٩١٨ تجري عليهِ اربع محادثات في وقت واحد

ومن الاجهزة التلفونية التي نشأت حديثاً ما يعرف بالتلفون الذاتي وبهِ يستغني مشترك التلفون عن الوسيط في « السنترال » فيحرك القرص حركةً خاصة تفتح امامه الخط الذي يطلبهُ من غير ان يوسّط احداً في ذلك

التلغراف اللاسلكي

بيّن هرتس العالم الالماني الشهير سنة ١٨٨٧ ان الكهربائية التي تنطلق من مكثّف كهربائي تسبب شرارة قوية تموّج الاثير الذي حولها كانها حجر يرمى في راكد الماءِ فيحدث فيهِ دوائر تنتشر الى كل جهاتهِ وقد سميت هذه التموجات تموجات هرتس نسبةً اليهِ لانهُ اكتشفها وقاسها وأثبت انها سريعة جدًّا وقد كان عملهُ هذا نتيجة لبحث مكسويل الرياضي على ما بيّنا في سيرتي مكسويل وهرتس في « اساطين العلم الحديث » . فاذا استنبطت آلة تتأثر بهذه التموجات وهي منتشرة في الفضاء اصبح التحكم بها مستطاعاً فتنقل الاشارات الكهربائية في الفضاء من غير سلك وتلتقطَ بالآلة المستقبلة . فاستعمل هرتز اولاً حلقة من السلك لالتقاط هذه التموجات ولكن لم يلبث ان اهملها لان آلة هيوز كانت أتقن منها وادقّ تأثراً . ثم استنبط الاستاذ كلزكي اونستي الايطالي آلة تفوق آلتي هيوز وهرتز وحسَّنها برانلي الفرنسي ولُدج الانكليزي وغيرهما ودعاها لُدج الجامع او الرابط Coherer

واهتمَّ مركوني بالاساليب المستعملة لكشف التموجات الكهربائية في الفضاء من سنة ١٨٩٤ الى سنة ١٨٩٦ فصنع جامعاً مؤلفاً من انبوب صغير من الزجاج مفرغ من الهواءِ طولهُ

نحو أربعة سنتمترات وقطره نحو ٤ ملمترات وفيهِ قطعتان من الفضة بينهما فسحة مملوءة ببرادة النكل والفضة ٩٥ في المائة منها نكل و ٥ فضة والقطعتان متصلتان من طرفيهما بسلكين من البلاتين في بطرية محلية . وبرادة النكل والفضة تفصل التيار الكهربائي الجاري من هذه البطرية . ولكن اذا فعلت فيها تموجات هرتس المذكورة آنفاً اجتمعت دقائق البرادة بعضها مع بعض وصارت موصلاً للكهربائية فتتم دائرة البطرية المحلية وتبقى البرادة مجتمعة كذلك الى ان تهز فتنفصل وتعود الى مقاومتها الاولى للتيار الكهربائي كما كانت وينقطع التيار

ثم كشف مركوني حقيقة كبيرة الشأن في تحقيق التلغراف اللاسلكي اذ وجد انهُ اذا وصل احد السلكين اللذين في طرفي جامعهِ بلوح من المعدن ودفنهُ في الارض ورفع الآخر على عمود تمكن جامعهُ من التأثر بتموجات هرتس ولو كانت ضعيفة لقدومها من مكان بعيد . ثم صنع جهازاً مرسلاً لاطلاق التموجات الكهربائية المتتابعة في الهواء واستقبلها بجهازه المستقبل او اللاقط ومن أجزائهِ الجامع وآلة تدوّن علامات مورس التلغرافية فكان ذلك اساس التلغراف اللاسلكي التجاري المستعمل الآن

ولا نتولى هنا بسط التحسين الذي طرأ على أجهزة التلغراف اللاسلكي بل نكتفي بالاشارة الى أهم التواريخ في شيوعهِ كوسيلة للتخاطب

نجح مركوني في يوم عيد الفصح سنة ١٨٩٩ في ارسال رسالة تلغرافية لاسلكية بين فرنسا وانكلترا فوق بحر المانش ثم فعل مثل ذلك بين سفن في عرض البحر ومحطات لاسلكية قائمة على الشواطىء . فاستوقف هذا العمل نظر العامة والخاصة الى هذا النوع الجديد من وسائل التخاطب فأقبل عليهِ جمهور من العلماء والباحثين زادوهُ اتقاناً بمباحثهم النظرية والعملية واستعمل اسلوب ماركوني اللاسلكي في المناورات التي اجراها الاسطول الانكليزي في يوليو واغسطس سنة ١٨٩٩ فثبت ان سيكون لهُ شأن كبير في الحروب البحرية فوجهت الاميرالية الانكليزية وقيادة الاساطيل الاخرى اهتمامها الى ارتقائهِ

وكان مركوني يطمح الى ارسال الرسائل اللاسلكية فوق المحيط الاطلنطي وشجعهُ على ذلك نجاحهُ في ارسال الرسائل اللاسلكية بين جزيرة ويت وجزيرة لزارد في ينار سنة ١٩٠١ والمسافة بينهما مائتا ميل . فاختار مكاناً لمحطتهِ اللاسلكية المرسلة في بولدهو بجنوب بلاد الانكليز وأقام فيها آلات كهربائية قوية لكي تكون تموجات هرتس التي تحدثها في الاثير قوية وأتمَّ بناء هذه المحطة وتجهيزها بالمعدات اللازمة في دسمبر سنة ١٩٠١ ثم اجتاز المحيط الاطلنطي الى جزيرة نيوفندلند وجعل يستعد لاستقبال الاشارات اللاسلكية التي اتفق عليها مع معاونيه وفي ١٢ دسمبر سنة ١٩٠١ التقطت آلتهُ المستقبلة اشارة « S » وهي ثلاث نقط متتابعة

بحسب نظام مورس التلغرافي وكان قد اتفق عليها مع معاونيهِ ليرسلوها في وقت معين دفعاً لكل ريب[١] . فدهش العالم لما ذاعت الانباء بنجاح تجربة مركوني و ثبت للعارفين ان التلغراف اللاسلكي يمكن استعمالهُ على مسافات شاسعة جدًّا ثم أعاد مركوني تجربتهُ في فبراير سنة ١٩٠٢ وهو على الباخرة فلادلفيا وكانت على ١٥٥٧ ميلاً من المحطة المرسلة فدوّن المستقبل رسالة طويلة بحسب نظام مورس الدولي ثم دوّن حرف S والباخرة على ٢٠٩٩ ميلاً من المحطة المرسلة . وثبت لهُ من تجربتهِ هذه ان الاستقبال في الليل اوضح منهُ في النهار . وفي ١٩٠٤ أنشئت شركة لنقل الاخبار الصحافية باللاسلكي بين أميركا وأوربا وكانت جريدة التيمس بلندن تتلقى أنباء الحرب الروسية اليابانية كذلك وما وافت سنة ١٩٠٥ حتى كان كثير من البواخر ومعظم الاساطيل قد جهزت بآلات التلغراف اللاسلكي

التلفون اللاسلكي أو الراديو

ان اذاعة الاخبار والخطب والالحان الموسيقية والاغاني بالتلفون اللاسلكي الى أبعاد شاسعة واستقبالها صار الآن امراً مألوفاً وهو قائم على مبدأ علمي بسيط مدارهُ ان أمواج الصوت تؤثر في التموجات الكهربائية التي يولدها جهاز الارسال فتختلف في قوتها وضعفها باختلاف امواج الصوت ثم تنتقل في الفضاء بسرعة النور الى أن تلاقي اسلاك جهاز مستقبل أو لاقط فتثير فيها تياراً كهربائيًّا متناوباً تتلقاهُ الانابيب المفرغة وتحوّلهُ الى تيار مستمرّ وتقويهِ ثم يتصل بسماعة التلفون فيعاد صوتاً مسموعاً

وتحقيق هذا المبدأ العلمي لم يكن مستطاعاً لولا استنباط الانبوب المفرغ — ويعرف علميًّا thermionic valve — الذي يتأثر بالتموجات اللاسلكية مهما تكن ضعيفة فيقويها ويحوّلها الى تيار كهربائي مستمر . وقد كشف مبدأهُ العلمي المستر توماس اديصن سنة ١٨٨٣ اتفاقاً ثم اشتغل بهِ فلمنغ الانكليزي وتلاهُ ده فرست الاميركي فأتقنهُ

وآلة التلفون اللاسلكي قوامها جهازان— جهاز الارسال وجهاز الاستقبال

اما الاول فيتألف من آلة كهربائية تولد تياراً كهربائيًّا سريع التناوب يحدث في الهواء التموجات اللاسلكية المطلوبة، وآلة تلفون عادية يتصل فيها الصوت بالتيار المتناوب فيقويهِ او يضعفهُ وفقاً لقوة امواج الصوت او ضعفها ، وأسلاك مرتفعة تعرف بالهوائي ترسل التموجات اللاسلكية في الاثير

وأما جهازَ الاستقبال ففيهِ أولاً — السلك الهوائي الذي يلتقط التموجات اللاسلكية من الاثير . ولا يلزم ان يكون خارج البيت بل قد يكون في داخله . وثانياً — آلة تتأثر بهذه التموجات التي يلتقطها الهوائي فتحوّل التيار المتناوب الى تيار مستمرّ وهي الانبوب المفرغ

(١) راجع وصف هذه التجربة المفصل في كتاب « فتوحات العلم الحديث » صفحة ٢٠٢

ومن خصائصها تقوية التيار ايضاً . وثالثاً — وسيلة للضبط حتى لا يلتقط الجهاز من الفضاء الا امواجاً من طول معين . ورابعاً — سماعة تلفون عاديّ يتحول فيها التيار الكهربائي صوتاً مسموعاً . وخامساً — الارض لتكملة الدورة الكهربائية

هذه مبادىء التلفون اللاسلكي وقد طبقت في اميركا واوربا والشرق العربي تطبيقاً واسع النطاق فتألفت شركات او هيئات كبيرة انشأت محطات قوية لاذاعة الانباء والخطب والاغاني والقصص والانباء التجارية والجوية وكل ما يهم الناس معرفتهُ في ساعات معينة من النهار والليل

وليس التلفون اللاسلكي من مزاحمي التلفون السلكي بل كلٌّ منهما مكمل للآخر . مثال ذلك : أن باخرة كانت تمخر المحيط الاطلنطي على مئات الاميال من شاطئ أميركا الشرقي فتكلم احد رجالها مع رجل في جزيرة كاتالينا في المحيط الهادي والمسافة بينهما نحو أربعة آلاف ميل وكان الكلام واضحاً كل الوضوح . ذلك انهُ تكلم مع محطة لاسلكية على الشاطئ الشرقي من الولايات المتحدة وهذه اتصلت بمركز التلفون السلكي فانتقلت الرسالة بهِ من شرق أميركا الى غربها ثم انتقلت بالتلفون اللاسلكي الى الجزيرة المذكورة . وقد تمّ الآن الاتصال بالتلفون اللاسلكي بين معظم بلدان العالم وقد علمنا ونحن نكتب هذه السطور أن أحد اعضاء الوفد الاميركي بمؤتمر المواصلات الدولي اتصل بزوجتهِ في اميركا فحدثها مدة ثلاث دقائق من حجرتهِ في فندق هليوبوليس بالاس

ومن الامور التي اتجهت اليها البحوث حديثاً توجيهُ الاشعة اللاسلكية في ناحية خاصة حتى يكتم ما فيها بعض الكتمان فلا تلتقطهُ الاّ المحطات التي في تلك الناحية . وكان مركوني يجرب قبل وفاتهِ استخدام أمواج لاسلكية قصيرة في التلفون اللاسلكي . اذ لا يخفى ان طول الموجة اللاسلكية من امواج المخاطبات التلفونية بين أوربا وأميركا يزيد على الف متر وقد يبلغ بضعة آلاف متر ولتوليد هذه الامواج يجب بناء آلات ضخمة قوية تقتضي نفقات طائلة فالنجاح في استعمال الامواج القصيرة يوفر كثيراً من الاموال والطاقة التي تنفق في المحطات اللاسلكية الكبيرة

واتجهت الانظار في العهد الاخير الى ارسال الصور باللاسلكي فوصفنا ذلك في غير مكان من المقتطف ونشرنا بعض الصور التي نقلت كذلك . ومن انباء اميركا ان احد الاطباء استطاع أن يعالج كسراً في يد إمرأة بعد ما نقلت اليهِ صورة الكسر باشعة اكس لاسلكيًا .

ثم هناك النقل النموذجي وهو قائم على مبدإ نقل الصور ويستعمل خاصة لنقل صور العقود والتحاويل كما هي بدلاً من نقل كلامها فقط . ومن نواحي الارتقاء في النقل اللاسلكي التلفزة وهي تختلف عن نقل الصور في أنها تنقل المشاهد الواقعة لاصورها الفوتغرافية . ومن شاء التوسع في ذلك فليطلبهُ في كتابي « فتوحات العلم الحديث » و« أساطين العلم الحديث » ومجلدات المقتطف



النزعات الادبية

العامة قبل دستور ١٩٠٨

لانيس المقدسي
استاذ الادب العربي بجامعة بيروت الاميركية

—٢—

﴿ البوادر الثورية الاصلاحية ﴾ رأينا فيما سبق ان « العثمانية » كانت قبل الدستور بارزةً في الشعر المصري عموماً . وفي كثير من الشعر العراقي والسوري واللبناني . على ان الشعر العربي لم يكن كله كذلك . فقد كان في الشرق العربي كما اسلفنا احرار يهاجمون الفساد ويحملون على السياسة الغاشمة التي كانت تدفع بالبلاد الى هوّة الانحطاط . وابرز ما نرى ذلك في عهد مدحت باشا ابي الاحرار العثمانيين . فانهُ لمّا تولى ولاية سورية ظهر في بيروت ودمشق حركة ادبية ترمي الى احياء الشعور القومي والتظلم من ضغط الاستانة . ولا ندري تماماً سرّ تلك الحركة أكان مبعثها كما يقول البعض مدحت باشا نفسه طمعاً بجعل سوريا كمصر والجلوس على اريكة الحكم فيها [1] ام لان وجود ذلك الحاكم النزوع الى الاصلاح انشأ في سوريا (كما انشأ من قبل في العراق) جوًّا ادبيًّا حرًّا استطاع بهِ اباة الضيم ومرهفو الاحساس ان يبثوا بعض خوالجهم ويفرّجوا عن كربتهم . ذلك ما نتركه للتحقيق التاريخي

وسواء أهذا صحّ أم ذاك فالواقع ان الادب العربي في ذلك العهد اخذ ينادي بالاصلاح وحملت الحماسة بعضهم على نشر قصائد نارية الصقوها (غفلاً من التوقيع) على ابواب المساجد والكنائس ومنها السينية المشهورة — دع مجلس الغيد الاوانس ، والحائية — يا دولة الترك اتركي عنك العناد وباشري الاصلاحا — وسنعود اليها في غير هذا المقام

وقد اهتمت حكومة الاستانة بهذه البوادر الثورية واخذت تسعى لمعرفة أصحابها فلم تفز بطائل واقتضت السياسة نقل مدحت سنة ١٨٨٠ الى ازمير ثم محاكمته بتهمة قتل السلطان عبدالعزيز

(١) كتاب سر مملكة لسليم سركيس ص ٦٣

فتخلص عبد الحميد منهُ وبوقت قصير استطاع ان يبطش برجال الحرية والدستور وان يرجع بالبلاد الى عهد الاستبداد المطلق فهو بعد ان بدأ حكمه باعلان الدستور وبمجاراة والده عبد المجيد في طلب الاصلاح نكص على اعقابه وعاد كما يقول روحي الخالدي الى سياسة جدّه السلطان محمود خان في استعمال الجبر والاستبداد معتقداً « ان الشعوب التي وضعها الله تحت يدي جلالته لا يمكن تسييرها الاَّ بالقوة » [1] فخمدت في أيامه الروح الاصلاحية داخل البلاد لكن بعض الاحرار من الترك والعرب حملوها الى الخارج وهناك نمت وترعرعت فكانت من العوامل الفعَّالة في انقلاب الحكومة الحميدية . وفي هؤلاء الاحرار المهاجرين يقول المشير[2] « هم اخواننا في الانسانية ، ورفاقنا في الحرية . علموا ان المجد لا ينال الاَّ على جسرٍ من التعب . فهم يتعبون في السعي وراء خدمة بلادهم وارجاع مجد مملكتهم الذي انحط الى دركات الخمول باهمال الامام الذي جار في احكامه والاعوان الذين صاروا بليةً على الامة » . . . الى أن يقول . . « وقد انضمَّ اليهم بعض أدباء سوريا ومصر وهرب البعض منهم من عالم الجور والظلم الى فضاء الحرية والامن فانتشروا في باريز وسوريا وانكلترا وأميركا وأنشأوا الجرائد » الخ

فظهر من هؤلاء المهاجرين طبقة من حاملي شعلة الادب وأكثرهم الآن في عالم الارواح منهم فتح الله مراش — رزق الله حسون — عبد الرحمن الكواكبي — خليل غانم — محمد قدري — لويس صابونجي — امين مجيد ارسلان — حبيب سلموني — خليل سعادة — سليم سركيس — نجيب الحداد — ولي الدين يكن . ولا يزال حيًّا من هذه الطبقة فارس نمر (الدكتور نمر باشا)

ومن أراد الاطلاع على بنات افكارهم فليرجع الى مؤلفاتهم (وأكثرها معروف) او الى صحفهم كالمشير والمقطم ولسان العرب ومرآة الاحوال والمجلة وتركيا الفتاة والنحلة والشورى وضياء الخافقين ورجع الصدى وكشف النقاب وسواها [3] وكلهم كما يصرح الدكتور يعقوب صرُّوف قد اتحدوا على التنديد بالادارة السيئة الضاربة أطنابها في بلادهم [4]

على انهم في ذلك متفاوتون . فمنهم المشدّد ومنهم المعتدل . ومنهم من بلغ بهِ فرط التشاؤم حدّ اليأس بالاصلاح فصار لا يرى اصلاحاً الاَّ بهدم كيان الدولة او وقوعها تحت مراقبة الاجانب . وأقدم ما رأينا من هذا القبيل قصيدة لرزق الله حسون نظمها في الحرب الروسية العثمانية واستيلاء الروس على القرص ومنها : [5]

كم حروبٍ للروس دارت على التـــرك رحاها فغادرتها طحينا

---

(١) الهلال ١٧ — ١٤٥ (٢) عدد ١١٣ (٣) في المعلوم والمجهول لولي الدين ص ٦٢ — ٧٤ وصف لبعض هذه الصحف وأصحابها فليراجع . (٤) المقتطف ٣٣ — ٨١٣

(٥) راجع القصيدة في المشير عدد ٣١ (وفي بعض أبياتها اضطراب في الوزن)

عَلَم الروس يخفق اليوم فوق الـــقرص ولَّى الاتراك في الغابرينا
هكذا هكذا تدور على البـــاغي الدوائر[1] ويهلك المجرمونا
ما عليهم لو عاملونا بحسنى وتساوٍ او انهم أنصفونا

قال الدكتور فارس نمر باشا من خطبة له في النهضة الدستورية مشيراً الى فتح الله مرّاش ورزق الله حسّون[2] — « فهذان الحُرّان الحليبان اللذان فاقا الاقران بحب الحرية كما فاقا الاقران بمعانيهما السحرية ومبانيهما العسجدية قضيا ردحاً من الزمن يرسلان شعاع الحرّية الى ابناء سوريا من قلب أعظم عاصمتين اشتهرتا في اوروبا بالحرية والنظامات الدستورية (اي لندن وباريس) ولكنهما مزجا بلاغتهما بعلقم التفريق بين الترك والعرب فأصابا بايقاظ النفوس لطلب الحرية وأخطآ بتمزيق الجامعة العثمانية »

ويستدل من شعر حسون انهُ لجأ الى روسيا حيناً . ومدح قيصرها بقصيدة جعل القسم الاول منها وصفاً لفساد الاحوال في تركيا فقال : —

جُلت الشآم وغسّاناً وعُجت على فينيقيا وكيليكيّا كمعتمرِ
وأذرعاتٍ وبلقاء وتَدْمرَ في صحراءَ خاليةٍ كالبحر من شجرِ
اذ لم أجد غير امصارٍ مقلبةٍ ورسم ابنيةٍ تبكي على الزمنِ
وقفت أنعي خراب الملك من مُدُنٍ في الحصر والوصف يعي المرء بالحَصَرِ

وهو يعزو ذلك الخراب الى سوء ادارة السلطان ورجال دولته ثم يقول بعد ابيات

لهفي ولهف بني الاحرار كلّهم على التساوي بانصافٍ مدى العُمُرِ

ومنها : حتى دخلت بلاد الروس ملتجئاً بالمستجار محبّ الله والبشرِ

ومن هنا يتقدم الى وصف ما وجده في روسيا من عدل وامن ويقابله بسوء الحال في تركيا فتؤلمهُ المقابلة ويصيح من قلبٍ متحسر[3]

وإن تذكرتُ اوطاني بكيت دماً من مهجةٍ طفحت جرياً بمنهمرِ

ومثل حسّون في النقمة على الادارة التركية وحب التخلص منها عدد من الادباء (وجلهم من مسيحيي سوريا ولبنان) وقد سبقت الاشارة الى احدهم سليم سركيس . وهو من الذين برزوا في هذا المضمار وله في ذلك كثير من القصائد والمقالات . منها قصيدة موضوعها « ثلاث حبّات» وضعها على لسان ارمني يموت جوعاً[4] وقصيدة نفير سوريا التي مطلعها[5]

يا اهل سوريا القساورْ من كل مفخورٍ وفاخرْ

(1) هكذا رواية المشيرولو استبدلنا الدوائر بالدواهي — لاستقام الوزن . (2) المقتطف ٣٦ — ٢٥٨ (3) راجع القصيدة في ديوانه النفثات ص ٧٤ (4) راجعها في المشير ٥ ابريل ١٨٩٦ (5) المشير ١١ مايو ١٨٩٥

افترضون صغارةً لم يرضها في الناس صاغرُ

وله قصيدة اخرى مرّ ذكرها في كلامنا على موقف السوريين من الدعاية العثمانية في مصر وهي شديدة الوطأة وكذلك اكثر شعره ونثره. ويكفي ان نقول انهُ صاحب جريدة المشير التي اشتهرت بعدائها للدولة العثمانية ولاسيا لسياسة عبد الحميد

والذي يراجع الجرائد الحرّة التي كانت في ذلك العهد تصدر خارج تركيا او في جوّ بعيد عن السيطرة التركية يجد ما لا يستطاع حصره هنا من نفثات الكتاب والشعراء الذين كانوا يحملون على عبد الحميد ويناوئون سياسته . وقد كان لتلك النفثات تأثير ملموس في النفسية العربية بل هو الخميرة التي خمرتها وهيأتها للنهضة القومية التي تلت ذلك العهد

واذا كان السوريون واللبنانيون قد اضطروا قبل الدستور الى هجر تركيا ، ولم يستطيعوا الجهر برغائبهم الاّ خارجها . فمن الانصاف ان نذكر هنا ان الشعر الاصلاحي في العراق كان عالي الصوت حتى في عُقر البلاد . وأبرز دعاته هناك اثنان — جميل الزهاوي ومعروف الرصافي . فلكليهما ما يستوقف النظر من الحملات العنيفة على سوء الادارة . ولقد يستغرب الانسان هذا العنف وصبر أولي الامر عليهِ دون عقاب مميت . ولكنهُ الواقع كما يتبين لمن يطالع قصائدهما القديمة وهما في عنفوان الشباب والقوة . فمن ذلك قصيدة للزهاوي قالها في الاستانة (حوالي سنة ١٨٩٧) وهي كما سترى من أشدّ ما هوجمت بهِ ادارة ذلك العهد وقد كان عقابه النفي من الاستانة الى وطنهِ بغداد . ومطلعها

ألا فانتبه للأمر حتّام تغفل أما علمتك الحال ما كنت تجهلُ

أغِث بلداً منها نشأتَ فقد عدت عليها عوادٍ للدمار تعجّلُ

ومنها — وما رابني الاّ غرارة فِتيةٍ تؤمّل اصلاحاً ولا تتأمّلُ

تؤمل اصلاحاً وترجوا سعادةً ألا باطلٌ ما ترتجي وتؤمّلُ

وما هي الاّ دولةٌ همجيةٌ تسوس بما يقضي هواها وتعملُ

فترفع بالاعزاز من كان جاهلاً وتخفض بالاذلال من كان يعقلُ

ومنها — لقد عبثت بالشعب اطماع ظالمٍ يحمّله من جوره ما يحُمّلُ

فيا ويح قومٍ فوّضوا أمر نفسهم الى ملكٍ عن فعله ليس يسألُ

وهي طويلة وأكثرها على هذا النسق[١] ومثلها قصيدته « الصارخة » وهي مخمسة يصف فيها حكومة عبد الحميد ونشرها يومئذٍ في المقتطف[٢] ومن نفثاته قوله من قصيدة يخاطب السلطان[٣]

(١) راجع ديوانه (مصر ١٩٢٤) ٢٨٠ (٢) راجع ديوانه (مصر ١٩٢٤) ١٩٦ (٣) اللباب (له بغداد ٩٢٨ ص ١٤)

ان الرعيّة أغنامٌ يحُـــدُّ لهم ولاتك المستبدون السكاكينـــا
يا عدلُ ان التفاتاً منك يسعدنا يا عدلُ ان ابتساماً منك يكفينا
ما جاءنا الشرُّ الاّ من تهاونتا وعمّنا الظلم الاّ من تغاضينـــا
لا بدّ من فكّ ما قد شدّ من عُقَدٍ كفُّ الإســار بأيدينا بايدينا
إن الذين استحبّوا قتل انفسهم فرّاً من الضيم ما كانوا مجانينا

وقوله يصف حال وطنه

ألا رعى الله اوطاناً لنا انتُهِكتْ محبوبة السهل والوديان والكُثُبِ
قد أضرم الجورُ ناراً في جوانبها واهلُهـا بين نفّاخٍ ومحتطبِ

وعلى هذا المنوال ينسج في كثير من شعره السياسي القديم.وكجرأته جرأة زميله الرصافي ولا سيا قبل ان يؤمَّ الاستانة ويشغل منصباً علميًّا فيها . ومن قصائده الجريئة مخمّس طويل موضوعه « ايقاظ الرقود » جاء فيه : —

حكومـة شعبنا جارت وصارت علينا تستبدُّ بمـا اشارت
فلا أحداً دعتهُ ولا استشارت وكلُّ حكومة ظلمت وجارت
فبشرها بتمزيق الجلودِ

اقول وليس بعض القولِ جِدّاً لسلطانٍ تجبّر واستبدّا
تعدى في الامور وما استعدّا ألا يا أيها الملك المفدّى
ومن لولاه لم تكُ في الوجود

أنِمْ عن أن تسوسَ الملك طرفا أقم ما تشتهي زَمْراً وعزفا
أطل نكر الرعية خلّ عُرفا سُم البلدان مهما شئت خسفا
وأرسل من تشاء الى اللحود

وتتجلى لنا هذه الجرأة ايضاً في قصيدتهِ « رقية الصريع » التي مطلعها

ياعدلُ طال الانتظار فعجّل ياعدلُ ضاق الصبر عنك فأقبلِ

ومنها : كيف القرار على امور حكومةٍ حادتْ بنا عن الطريق الامثلِ

ومن هنا يأخذ بوصف فساد الادارة واستبداد الخليفة منادياً بسقوط الحكومة الفردية ووجوب استبدالها بنظام جمهوري او دستوري . ثم يقول غير هيّاب

حتامَ نبقى لعبةً لحكومةٍ دامت تجرّعنا نقيع الحنظل
تنحو بنا طرق البوار تحيّفاً وتسومنا سوء العذاب الاهول
ما بالنا منها نخاف القتل إن قمنا أما سنموت أن لم نقتل ؟

وفي ديوانه الاول المطبوع سنة ١٩١٠ كثير من هذه الحملات العنيفة نظم بعضها في العهد الاستبدادي وبعضها في عهد الدستور . وقد صدق محيي الدين الخياط اذ قال فيه[1] « من هؤلاء الافذاذ الذين فطروا على عدم الاستخذاء للضيم والتجافي عن مضاجع الذلّ وعدم الاستنامة للحوادث . وقد كان يقرع قومه في اشد ايام الاستبداد بمثل قوله :—

عجبت لقوم يخضعون لدولةٍ يسوسهم في الموبقات عميدها
وأعجب من ذا انهم يرهبونها واموالها منهم ومنهم جنودها

وهذان البيتان من قصيدة موضوعها « تنبيه النيام » وهي خمسة وثلاثون بيتاً وكلها تتقد بمثل هذه النيران النفسية.

***

وقد كان في البلاد العربية العثمانية غير من ذكرنا من اصحاب الوجدان الحرّ والنزعة الثورية ولكنهم قلما كانوا يجرؤون على الجهر بما تكنهُ صدورهم لحرص قلم المراقبة ان لا ينشر في الصحف او الكتب الاّ ما يوافق مصلحة الحكومة ويشيد بذكر رجالها . فاجروا اقلامهم في غير الاصلاح السياسي وبلغوا في ذلك كما سنرى بعد شأواً يذكر

***

على انهُ لا بدّ لنا هنا من العودة الى ولي الدين يكن فقد اسلفنا انهُ كان من دعاة الجامعة العثمانية ومن أبناء الوطنية التركية . لكنهُ كان أيضاً من دعاة الاصلاح الناقمين على الدولة استبدادها وسوء ادارتها . وقد شرع بمهاجمة فسادها منذ كان في الاستانة . وفي ديوانهِ باب خاص بالسياسيات تجد فيهِ عدة شواهد على نزعتهِ الحرة . وأولى وطنياته قصيدة « نشتاق حرية فيؤبسنا » [2] ومنها

يا وطناً قد جرى الفساد بهِ متى يرينا اصلاحك الزمن
دُفنت حيًّا وما دنا أجلٌ ما ضرّ لو دافنوك قد دُفنوا
دماء أبنائك الكرام جرت بحراً فأشلاؤهم لها سفن

وكذلك قصيدته « الوطن يشكو أهله » [3] جاء فيها :

في ذمة الله رجالٌ قضوا طال بهم تحت القبور الثّواء
لا التاجُ ذاك التاج من بعدهم ولا بهاء الملك ذاك البهاء
يا أرض ميدي انها دولةٌ مادت وأنت اضطربي يا سماء

(١) مقدمة الديوان الاول ص ١١ (٢) راجع المشير ٨ يناير ١٨٩٨ (٣) في جريدة القانون الاساسي ١٨٩٨

ومنها — أقول والظلم بآفاته يحث للملك مطايا الفناء
لا ييأس المكروب من فرجةٍ ولا عليل أبداً من شفاء

ومما يذكر له هنا قصيدتهُ « زفرة من زفراتي » قالها عند ما نفي الى سيواس سنة ١٩٠٢

ومنها : اري سيواس تغمدني كأني صارمٌ ذكرُ
صدأت بها واحسبني ساصدأ ما جرى العمرُ
فوا لهفي على سربٍ تولى رعيه النَّمرُ
غدا في ارض مسبعةٍ جفاها النبت والشجرُ

ومنها : عداة الحقِّ قد ربحوا واهل الحق قد خسروا
ونحن امامنا وطن نراه اليوم يُحتضرُ
فيا افق النهب حزناً وجُدْ بالدمع يا مطرُ

﴿النعرة الشرقية في الادب الحديث﴾ ظهر لنا في العواطف الشعرية العربية السابقة لعهد الدستور مجريان رئيسيَّان — المجرى العثماني (او الدعوة للعرش العثماني ورجاله) والمجرى الاصلاحي (او الحمل على ذلك العرش ودعاته) . وظهر لنا ايضاً ان للاخير فرعين فرع المتطرّفين الداعين الى هدم الكيان العثماني . وفرع المعتدلين القائلين بوجوب الانقلاب مع المحافظة على الجامعة العثمانية . والذي يلوح لنا ان هؤلاء هم الاكثرية بين الاصلاحيين وقدكان هدفهم تجديد السلطنة ورفع مستواها لتكون وطناً حرًّا خليقاً بأن يحبّ ويفاخر بهِ . فالشرق والغرب عندهم لا يجتمعان ولا ينجي الشرقيين من براثن الاستعمار أو يحفظ كيانهم الشرقي إلاَّ العرش العثماني اذا قام على اسس الحضارة الجديدة ومن الطبيعي ان يكون المسلمون عموماً أعطف على الدولة العثمانية وفيها خلافتهم ومجدهم . يدلك على ذلك ما اظهروه في الحروب التي خاضتها قبل الدستور وبعده كحرب روسيا سنة ١٨٧٨ والحرب اليونانية ١٨٩٧ وحرب طرابلس ١٩١١ وحرب البلقان ١٩١٣ . بل وفي الحروب التي لم تخضها ولم يكن لها فيها مصلحة مباشرة كحرب روسيا واليابان (١٩٠٤ — ١٩٠٥)

ففي هذه الحرب كان العالم الاسلامي العربي بجانب اليابان لا لسبب الاَّ لان اليابان دولة شرقية ثم هي تحارب روسيا عدوّة تركيا التاريخية. وقد اثارت هذه الحرب من العواطف الشعرية في ادبنا ما لا يجوز لباحث الاغضاء عنهُ . فمن ذلك قصيدة مشهورة لحافظ ابرهيم مطلعها : «لا تلم كفّي اذا السيف نبا» وفيها يقول مادحاً امبراطور اليابان (الميكادو) ووطنية شعبه

هكذا الميكادُ قد علَّمنا ان نرى الاوطان امًّا وأبا
ملكٌ يكفيك منهُ انهُ أنهض الشرق فهزَّ المغربا

وكذلك قوله من قصيدة موضوعها « الانقسام آفة الشعب »

فانفضوا النوم وجدّوا للعلى فالعلى وقفٌ على من لم ينمْ
وانظروا اليابان في الشرق وقد ركزتْ أعلامها فوق الأممْ
حاربوا الجهلَ وكانوا قبلنا في دجى عمياتهِ حتى انهزمْ
فاسألوا عنها الثريَّا لا الثرى انها تحتل ابراج الهممْ

وقولهُ من قصيدة « أساحةٌ للموت أم محشرُ » يشير الى ما نال الشرق من انتصار اليابان

تسوءنا الحربُ وان أصبحت تدعو رجال الشرق أن يفخروا
أنى على الشرقيّ حينٌ اذا ما ذكر الاحياء لا يذكرُ
حتى أعاد الصُّفر أيامهُ فانتصف الاسودُ والاسمرُ

ولعلَّ قائلاً يقول ان شعر حافظ في الحرب الروسية اليابانية بل شعر مصر عموماً انما هو لما في نفوسهم من العطف على العثمانية لا لنعرة شرقيــة تستفزّهم الى تحدّي الغربيين . فنقول ان اليابان كانت يومئذٍ حليفة بريطانيا . وفي الاشادة بمحامدها نوع من الدعاية لبريطانيا . ومع كل ذلك لم يمتنع حافظ وزملاؤه [1] وهم من محاربي النفوذ البريطاني في مصر عن ان يستسلموا لعواطفهم الشرقية ويظهروا عطفهم على دولة شرقية برغم ما يربطها من الصداقة بمحتلي مصر

واذا ألقينا نظرة على غير مصر وجدنا ان الشعراء حتى الاحرار الناقين على تركيا يضربون على هذا الوتر الشرقي كما فعل الرصافي في قصيدته « معركة تسوشيما » [2] اذ قال

سعروها في البحر حرباً ضروساً تأكل المال نارها والنفوسا
يوم طوغو [3] دها بأسطولهِ الـــروسَ قتالاً وكان يوماً عبوسا
فحداها بوارجاً تملأ البحر وقـــاراً طوراً وطوراً بؤوسا
فكسوهم من الهوان لبوساً وسقوهم من المنون كؤوسا
هكذا شيدوا بناء المعالي هكذا أحسنوا لها التأسيســا

---

(١) كمصطفى الرافعي واحمد نسيم
(٢) وهي معركة بحرية بين الاسطولين الروسي والياباني كانت نصراً باهراً لليابان
(٣) اميرال الاسطول الياباني

وللشاعر اللبناني امين ناصر الدين في الحرب الروسية اليابانية قصيدة [١] موضوعها « الياباني ومعشوقته » جعل سداها ولحمتها شجاعة اليابان وحميتهم الوطنية وظفرهم الباهر ومن ذلك ما وضعهُ على لسان المجاهد الياباني : —

هجمنا على ميناء « أرثورَ » هجمةً   تردّ ابن عامٍ وهو بالخوف أشيبُ
ببيضٍ يلوح النصر أيّان جرّدت   وسمرٍ لها بين القلوب تقلُّبُ
وكنا اذا انهلّ الرصاص كأنّنا   من الفيد بالتفاح نرمى فنطربُ
وعدنا وهاتيك القلاع بأسرها   مهدّمةٌ قد حلَّ منها المركَّبُ
وقائعنا في البحر كانت عجيبـــةً   ولكنها في لجة البحر أعجبُ

وهنا يصف معركة تسوشيما وانتصار طوغو ثم يقول : —

ورجّعت الاقطار صوت انتصارنا   ففي الشرق هزّاج وفي الغرب ندّبُ

وقد أصاب الشاعر فان الشرق الادنى العربي او قل العثماني عرتهُ هزة وطنية عامة على أثر انتصار اليابان وقد رددها الادب العربي عدة سنين بعد تلك الحرب . وكان كلما أراد انهاض الامم الشرقية ذكرها باليابان ونهضتها كقول كاتب هذه السطور سنة ١٩١١ من قصيدة موضوعها الحياة الجديدة في المشرقين [٢]

معاذ الله ان نبقى نياما   يحيط بنا الظلام ولا ظلاما
أرى النيران تضطرم اضطراما   وآسيًّا تهبُّ من الهجود

ونجم المجد في اليابان يسطعْ   تخر لهم كواكبهم [٣] وتخضعْ
اضاء على الملا الشرقيّ اجمعْ   وأفهم جمعهم معنى الوجـود

***

ولو اردنا تعداد القصائد والمقالات التي اثارتها هذه الحرب او ذكرياتها لضاقت بنا الصفحات الكثيرة . وليس غرضنا من الاشارة اليها وضرب الامثلة عليها الا اثبات حقيقة قد تضيع في مطاوي الايام، او تذهب بذهاب الذين عرفوها بالاختبار وهي ان النهضة اليابانية التي بلغت اوجها في حرب ١٩٠٤ — ١٩٠٥ قد حركت عواطف الوطنيين في مصر والشام والعراق فظهر ذلك في ادبهم المنظوم والمنثور ، وكان من الاسباب الممهدة لذلك الاتقاد الوطني

(١) راجعها في صدى الخاطر (١٩١٣) ص ٣٤   (٢) راجعها في المورد الصافي م ٣ ص ١٧٣
(٣) الضمير في كواكبهم يرجع الى الغربيين

الذي عقب اعلان الدستور العثماني فعزز الروح الشرقية في جميع الاقطار العربية

﴿ عوامل اقليمية ﴾ بقي علينا في هذا المقام ان نوجّه النظر الى حوادث سياسية تركت في الادب صبغتها الخاصة . وهي كثيرة ومتفاوتة الاثر على ان اهمها اثنان وهما :

١ — حركة السنة الستين (١٨٦٠) في البلاد السورية وما عقبها من استقلال لبنان الداخلي . ولهذه الحركة في الادب العربي ظاهرتان كبيرتان — الاولى تأصيل الحزازات الدينية بين ابناء سوريا — تلك الحزازات التي كانت ولا تزال من اهم بواعث الشقاق في الشرق. والثانية انفصال لبنان عن السلطنة العثمانية بكيان سياسي خاص مضمون من الدول العظمى فصار اللبناني يشعر بكرامته الذاتية ويتذوق حلاوة الاستقلال

وفي تينك الظاهرتين تكوَّن في نفسه ذلك الشعور الاقليمي الذي وقف في سبيل الوحدة العربية كما سيجيء

ومن يراجع دواوين الادباء اللبنانيين في هذه الخمسين السنة الاخيرة يرى شيوع ذلك الشعور برغم جميع الوسائل التي كانت تستخدم لاضعافه . ولا ينكر ان بعض اللبنانيين قد اخذ بعد الحرب الكبرى ينزع نزعة وطنية عامة ، إما تحت اسم القومية السورية وإما تحت اسم الوحدة العربية ، ولكن الشعور القديم الموروث عن آبائهم والمستمد من استقلال لبنان بعد السنة الستين لا يزال قويًّا ، وسيظل الادب اللبناني مصطبغاً به مدة طويلة من الزمن

٢ — الاحتلال البريطاني لمصر سنة ١٨٨٢ . وهو من الحوادث الاقليمية الكبرى التي تكاد لخطورتها ان توضع في مصاف العوامل العامة . ولا نتعرض هنا للبحث في اسباب الاحتلال او النظر في مساوئه وحسناته فذلك من خصائص التاريخ . ولكننا نقرر ان هذا الاحتلال كان مبعثاً لادب مصري عنيف ، وكان له صدى لا يزال يتردد في انحاء البلدان العربية

وبرغم تضارب الآراء فيه فاننا نرى ان اكثر الشعراء والخطباء في مصر كانوا ينظرون الى الاحتلال نظر العداء وينادون بالاستقلال والدستور . وقد ادى ذلك الى احياء الشعور الوطني فيها ثم الى تدرجها في مراتب الاستقلال حتى بلغت ما بلغته في هذا العهد

ولما كان هذا الادب المصري الوطني شديد الارتباط بما نشأ منهُ بعد الدستور فسنتركه الآن على ان نعود اليه مفصلاً في مقام آخر

***

ومن هذه العوامل الاقليمية — حوادث ارمينية ، وحوران ، واليمن وكثير من حوادث العراق المحلية . ولما كانت غايتنا هنا وصف الاتجاهات العاطفية العامة فاننا نقف عند هذا الحدّ من الكلام على الشعر قبل الدستور تاركين العوامل المحلية لمن يحب التخصص فيها

الفلسفة العربية

ما أخذت وما أعطت

لفليمون الخوري

— ١ —

ليس هنالك في ما أعتقد شيء من جميع ما ترك أسلافنا العرب من تراث خالد ما هو أدعى للاعجاب والفخار من ان نرى تلك الفئة اليسيرة من أقطاب الفلسفة العربية تحتل مكاناً بارزاً في مصاف فلاسفة العالم وان تنقش أسماؤهم على لوحة الخلود الى جانب أشهر نوابغ العالم ورجالهِ المفكرين . فأسماء ابن سينا والغزالي والفارابي وابن رشد وابن جبرول وابن الطفيل ستظل مقرونة أبداً الى اسم فيثاغورس وأفلاطون وأريسطو والقديس توما والبرت الكبير وغيرهم من أساطين الفلسفة الخالدين . بل ولسوف يسمو ذكر أولئك بتوالي القرون اذ تدرك الشعوب انهُ لولا جهود العرب ورغبتهم النادرة في نشر الفلسفة والعلوم واحتفاظهم في ظلمات تلك الاجيال بكنوز علوم المتقدمين لتأخرت النهضة العلمية في بلاد الغرب قروناً عدَّة لا محالة

وأي عربي لا تأخذهُ هزَّة الطرب والارتياح الشديد عند ما يذكر كيف كانت تتقاطر قوافل طلاب العلم والفلسفة من متفرق الانحاء الى قرطبة بالاندلس مدينة العلم الزاهرة وكعبة الفلسفة في ذلك العصر ليتلقوا عن أبي الوليد ابن رشد أسرار الحكمة المشرقية وآيات الفلسفة العربية وكيف كانت الملايين من ذوي المعرفة والاطلاع في أرقى الممالك يترقبون معرفة آرائهِ وأفكاره ليسترشدوا بهديهِ ويستنيروا بنبراسهِ

نشأت الفلسفة العربية في زمن تشابه احوالهُ وعواملهُ الاحوال والعوامل التي دعت لقيام الفلسفة اللاهوتية Scholasticism وقد كانت كلتاهما تستقي من مصدر واحد هو الفلسفة اليونانية القديمة والافلاطونية الجديدة Neo-Platonism وترميان الى غرض واحد هو تطبيق

التعاليم الدينية على أحكام العقل او التوفيق بين مذاهب الفلسفة وعقائد الدين . وقد تقدم معنا في مقال سابق تحت عنوان « أدوار الفلسفة الثلاثة » ان الفلسفة اللاهوتية لم تطلع بمذهب جديد في عالم الفلسفة وهكذا كان شأن الفلسفة العربية . ذلك لان زعماء الفلسفتين العربية واللاهوتية لم يكونوا طلاب حقيقة لان الحقيقة الواحدة العظمى أنزلت لهم وحياً في الكتب السموية فلم يكن ثمَّ من حاجة الى مزيد . ولولا ان اعداء الدين من فلاسفة الوثنية قاموا يحاولون نقض الاديان الالهية الجديدة وخنقها في المهد ربما لم تكن هنالك فلسفة لاهوتية ولا عربية . ولما كان سلاح خصوم الدين الجديد مبادىء الفلسفة القديمة التي كانوا يفسرونها ويؤولونها حسبما يوافق أغراضهم كان لا بدَّ لفلاسفة اللاهوت من اتقان الفلسفة اليونانية وتمحيصها لمحاربة اولئك القوم بمثل اسلحتهم وردهم على أعقابهم خائبين . وقد بلغ فلاسفة العرب في إتقان فلسفتهم الدينية حدًّا جعل العلاَّمة الفيلسوف الفرنسي ليبري يقول ان الفلاسفة العرب قد فاقوا في فلسفتهم الدينية نظراءهم من فلاسفة النصرانية . وهو اعتراف له قيمته الكبيرة عند اهل العلم والمعرفة

بيد انه وان يكن الفلاسفة العرب لم ينشئوا مذهباً خاصًّا جديداً في الفلسفة فانهم تمكنوا من ان يجعلوا لفلسفتهم شأناً يذكر في سائر الاقطار . وذلك عائد الى ذكاء العربي الغريب الذي استطاع ان يمثل الفلسفة اليونانية تمثيلاً يقرّبها كثيراً من الاذهان ويجعل تناولها سهلاً سائغاً لجميع طلاب الفلسفة والعلم . وان من يمعن النظر في رسالة « حي بن يقظان » للفيلسوف الاندلسي الكبير ابن الطفيل يدرك الحد البعيد الذي بلغه فلاسفة العرب في اجتلاء غوامض الفلسفة اليونانية وفك طلاسمها وكشف خفاياها

***

قلت ان القصد من الفلسفة العربية كان تطبيق مبادىء الفلسفة على تعاليم الدين والتوفيق بينهما وقد جرى القوم على ذلك في كافة شرائعهم وسننهم بايمان خالص وتسليم تام . بيد ان فريقاً منهم ممن اطلقوا لانفسهم حرية التفكير الفلسفي رأوا في بعض عقائد الدين ما لا ينطبق تماماً على احكام العقل او مقتضيات مذاهب الفلسفة فخالفوا الجماعة في تلك العقائد وأنشأوا لانفسهم مذهباً خاصًّا وكان منهم فرقة المعتزلة

بيد ان أول الآثار الفلسفية التي تذكر واهمها في تاريخ الفلسفة العربية هي « رسائل اخوان الصفا » وهي احدى وخمسون رسالة وضعها اصحابها وكلهم من أهل التقوى والاطلاع الواسع افرغت في شكل دائرة معارف لتكون مجموعة الفلسفة والعلوم منذ العصور القديمة الى ذلك العصر . وقد كان لهذه الرسائل شأن خطير وتأثير قوي في جميع انحاء العالم الاسلامي لا سيما وان واضعيها

ممن انصرفوا الانصراف التام الى الامور الدينية والتفكير الفلسفي . أما الغاية الرئيسية التي ترمي اليها هذه الرسائل فهي ترقية النفس البشرية بالمواهب الروحية الى أن تبلغ حد الكمال الانساني بما ياثل الكمال في الذات الالهية وذلك بواسطة التأمل والتفكير الفلسفي . وانها لعمري فكرة جديرة بكل اعتبار . ولا نقول ان الفلاسفة اليونان لم يدركوا هذه الحقيقة او لم يقولوا بها لكنهم لم يعيروها الاهتمام اللازم ولم يحلوها المنزلة التي احلها فيها فلاسفة العرب حتى في بدء عهدهم بمباحث الفلسفة ومذاهبها وطرقها . ثم إن المحور الذي تدور حولهُ ابحاث الرسائل هو نظرية الفيض الالهي التي اخذها العرب عن المذهب الافلاطوني الجديد وآثار هذا المذهب ظاهرة في كل موضع في الرسائل تقريباً وخلاصتهُ ان كل شيء في الوجود صادر بطريق الفيض او الانبعاث من الذات الالهية العظمى والى وحدة تلك الذات الالهية مرجعهُ ومعادهُ وان على الانسان ان يحرر نفسهُ من عبودية المادة ويطهرها من أدرانها لتعود النفس طاهرة خالصة الى بارئها والمصدر الذي كان علة وجودها . وقد كان لهذه الرسائل شهرة واسعة وتأثير كبير في كافة الاوساط على الرغم مما يتخللها من اقوال ومباحث كثيرة في العرافة والسحر والتنجيم وغيرها من الابحاث العقيمة

ثم ان جماعة الاخوان اصحاب الرسائل يؤلفون بانفسهم مدرسة خاصة مستقلة ولفلسفتهم صبغة دينية بحتة ولا غرو فهم قوم انصرفوا بالاكثر الى الامور الدينية طيلة حياتهم فلم يكن بدٌّ من ذلك الاتجاه الديني الصرف

***

على ان هنالك فريقاً من اهل الفلسفة يرجعون في مبادئهم الفلسفية الى قواعد المنطق واحكام العقل ويبنون آراءهم على حوادث الطبيعة ونواميسها وأحكامها وهم يؤلفون بأنفسهم مدرسة خاصة تعرف بمدرسة الطبيعيين او العقليين لاعتمادهم احكام العقل وقواعد المنطق في بناء آرائهم ونظرياتهم : ويمكن قسمة هذه المدرسة الى قسمين : المدرسة الشرقية التي زهت في عاصمة الخلافة العباسية في اوائل العهد العباسي اي في القرن العاشر والحادي عشر. والثانية التي قامت في عهد الخلافة الاموية بالاندلس . وقد كان اهم اركان المدرسة الشرقية ابو اسحق الكندي (توفي سنة ٨٧٠ م٢٥٧هـ) وابو نصر الفارابي (٩٥٠م٣٣٩هـ) والشيخ الرئيس ابن سينا (١٠٣٧م٤٢٩هـ) وجميعهم من القائلين بان الفلسفة يجب ان تبنى على العلوم الطبيعية وذلك بدرس الطبيعة نفسها ومراقبة أنظمتها ونواميسها . وهم يعتمدون قواعد المنطق في وضع آرائهم واحكامهم وهذا ما يعبر عنهُ ابناء العصر الحديث بالطريقة العلمية الحديثة وهي الرجوع في كافة

المذاهب والآراء العلمية والفلسفية الى نواميس الطبيعة واحكامها . الاّ ان النظر العلمي عند زعماء هذه المدرسة يختلف كثيراً عن رأي أهل هذا العصر فهم يدخلون ضمن دائرة العلم الطبيعي ويخلطون بهِ، أبواباً وفنوناً غريبة ليست من العلم في شيء كفنّ السحر والتنجيم وتفسير الاحلام وغير ذلك . وكانوا يعتبرون هذه جميعها أبواباً او فروعاً حقيقية من فروع العلم ولها من الشأن ما لغيرها من العلوم والفنون الطبيعية . وكانوا يعتقدون بوجود أرواح تطوف أنحاء الفضاء وتقطن النجوم ويزعمون ان من هذه الارواح الملائك الوارد ذكرها في القرآن والتوراة

***

أما في ما يتعلق بخلق العالم ومادة الكون الاصلية فان الفارابي وابن سينا يعدّلان مراعاةً للتعاليم الدينية رأي اريسطو القائل بازلية المادة ويتخلصان من الوقوع في نظرية الخلق من العدم بقسمة الوجود الى قسمين واجب وممكن . فالواجب هو الكائن او الموجود الاول وهو ما يوافق الفارابي وابن سينا فيهِ رأي اريسطو بانهُ العقل الاول او الفعال أول وأهم الصادرات رأساً عن الذات الالهية العظمى . وهو أزلي أبدي وكل ما عداه فهو مسبب عنهُ متولد منهُ . أما كيفية نشوء العالم من مصدر وجوده فهي بطريقة الفيض او الانبعاث emanation theory ويذهب الفارابي الى ان المادة هي احد الاشياء المنبعثة او الصادرة عن الذات الالهية . أما ابن سينا فيقول بازلية المادة والعالم . ولكنّ كليهما يعتقد ان الخلق معناهُ بروز الصورة في المادة او خروجها من حيز القوة الى حيز الفعل فكأن الباري جلّ وعلا يضع في المادة قوة كامنة لها الاستعداد الكافي للظهور بالصور المختلفة عند حصول الظروف او الاسباب الملائمة لظهورها

ويذهب الفارابي وابن سينا — وهو مذهب اريسطو بعينهِ — الى ان العقل الاول او العام هو الذي يتحد بالعقل الانساني في الافراد فيتولد منهُ المعرفة والعلم . ويزعم الفارابي ان العقل المتولد في الفرد من هذا الاتحاد هو خالد أبدي وهذا يوازي القول بخلود النفس . أما ابن سينا فيذهب مع أريسطو الى أن الخالد انما هو العقل العام او عقل الانسانية فقط دون الافراد

وفي أواخر القرن الحادي عشر ظهر كتاب « تهافت الفلاسفة » للامام الاكبر الفيلسوف ابي حامد الغزالي فأفل بظهوره نجم الفلسفة في بلاد المشرق . ذلك ان الامام أبا حامد يحاول في كتابهِ «التهافت» نقض مذاهب الفلاسفة العرب كابن سينا والفارابي وغيرهما وذلك انتصاراً للدين ومراعاةً لحرمة التعاليم الدينية فجاء كتابهُ صدمة للفلسفة في ذلك العصر وكان من أثر ظهورهِ أن ثبّطت همم الفلاسفة العرب عن مباحث الفلسفة وقضى ارباب السلطة باحراق كتبهم

الفلسفية ولكن لم يتعرض الغزالي في ابحاثهِ لمسألة الخلق وخلود النفس وهو تخلص غير جدير باهل الفلسفة ورجال العلم

بيد انهُ لم تكد تغرب شمس الفلسفة العربية في عاصمة العباسيين حتى طلعت في سماء الغرب في تلك البقعة العربية الصغيرة في الاندلس،ولكن بلمعان ابهى وضياء اسطع اذ قام نخبة من اهل النبوغ الشرقي والذكاء العربي النادر فاقاموا معالم الفلسفة وبلغوا بها مبلغاً رفيعاً وذاعت شهرتها في الآفاق حتى غدا طلاب العلم يتوافدون بالالوف من مسلمين ونصارى ويهود الى قرطبة كعبة الفلسفة والعلم في ذلك الوقت لاستماع اقوال ابي الوليد ابن رشد وتلقي مبادىء الفلسفة ومذاهبها عنهُ . وقد كانت طريقة ابن رشد في التدريس من نوع القاء الخطب والمحاضرات في شتى الموضوعات الفلسفية والعلمية والادبية . ويعتقد الافرنج ان الذكاء العربي بلغ في ابن رشد اقصى مداهُ

***

كان ابو بكر محمد بن باجة يعتقد بخلود العقل العام دون الخاص وهو عقل الانسانية التي تبدو ماهيتهُ وآثاره في الافراد.وكان ينكر الصوفية (mysticism) والاعتقاد بالفناء او الاندغام في الذات الآلهية بواسطة التقشف والصلاة او الهيام والاستغراق (ecstasy) بل يقول ان هذا الاتحاد ممكن بواسطة ترقية قوانا العقلية ومواهبنا الروحية الى المراتب السامية التي يمكن ان يتم بها ذلك الاستغراق والاتحاد . وقد وافقهُ على ذلك ابو باصر ابن الطفيل في روايتهِ الفلسفية المشهورة « حي بن يقظان » التي يمثل فيها كيفية نشوء القوى العقلية والروحية في فرد نشأ في جزيرة بعيدة منقطعة عن العمران وكيف توصل اخيراً بالارتقاء العقلي الطبيعي والرياضة الروحية الى الاندماج في الذات الآلهية وهو غاية مسعاهُ . وأن من يطالع هذه القصة الفلسفية السامية يدرك ان الفلاسفة العرب لم يتركوا باباً من ابواب الفلسفة الطبيعية والعقلية لم يعالجوه ولم يغادروا موضوعاً لم يوفوهُ حقهُ من البحث والتفكير

أما الفيلسوف الكبير ابن رشد وهوالذي يعرفهُ الافرنج باسم Averroes فقد كان معجباً كل الاعجاب بالفيلسوف اليوناني اريسطاطاليس وكان يعتقد ان الذكاء البشري بلغ في هذا الفيلسوف اسمى مراتبهِ

كان قصارى هم ابن رشد شرح فلسفة اريسطو وتمثيلها تمثيلاً صحيحاً شافياً بما يقرب كل القرب من الاصل اليوناني فينفرد وحده بذلك الشرح والتفسير . ولكن من المحقق انهُ لم

يستطع انجاز مهمتهِ هذه وذلك لسببين : الاول لان ابن رشد لم يدرس فلسفة اريسطو في كتبهِ الخاصة وبالاصل اليوناني لانهُ كان يجهل اللغة اليونانية بل في الكتب العربية التي ترجمها علماء النساطرة والسريان في الشرق والغرب وهؤلاء اخذوها نقلاً عن زعماء المذهب الافلاطوني الجديد ومن شروحهم لفلسفة اريسطو التي اصطبغت بين ايديهم بشيء كثير من نظرياتهم وآرائهم الخاصة . لهذا نرى في شرح ابن رشد وتعليقاتهِ على فلسفة اريسطو مذاهب وآراء ليست منها كمسألة الفيض الالهي ومسألة عقل الانسانية العام وغيرها . والثاني لان ابن رشد كسائر فلاسفة القرون الوسطى كان لا بد لهُ في وضع آرائهِ الفلسفية من مراعاة جانب الدين خشية الرأي العام وسخط الرؤساء والحكام

***

ذهب ابن رشد في قضية الصورة والمادة الى ان الصور كائنة بالقوة في المادة نفسها غير مضافة اليها كما زعم الفارابي وابن سينا ويحصل ذلك بواسطة قوى او صور اسمى منها والتي اسماها العقل الالهي . لذلك فسألة الخلق حسبما يعتقدها الجمهور لا تعقل ، ويقول ان هنالك عقلاً واحداً عامًّا هو عقل الانسانية وهذا العقل العام يفعل في العقول الخاصة في الافراد فيرشدها الى المعرفة. وهذا يعلله ابن رشد بهذه الكيفية : ان في نفوس الافراد استعداداً فطريًّا او قابلية للتأثر بهذه المؤثرات فاتحاد العقل العام بنفس قابلة التأثر ينجم عنه نفس فردية مستقلة . كما ان النور لا يصير شيئاً محسوساً الاَّ اذا صادف جسماً ماديًّا تنعكس عنه أشعته كذلك شأن النفس التي فيها استعداد للتأثر بمؤثرات العقل العام ثم انه بتوالي تأثير العقل العام في الخاص او عقل الفرد فان المعرفة الكامنة في الاخير تصير ظاهرة بارزة وتأخذ بالارتقاء تدريجيًّا الى ان تبلغ اسمى مراتب الشعور الذاتي او معرفة الذات وتصير اذ ذاك واحدة مع الروح الكلي وبعبارة اخرى تندمج او تندغم فيه وتصير جزءًا من العقل الكلي المشترك بين ابناء الانسانية. بهذا المعنى فقط يمكننا ان نقول ان الارواح خالدة لا ان النفس البشرية خالدة بذاتها كما يعتقد عموم البشر أنما الخالد هو الروح الكلي فقط

***

واتهم ابن رشد في سنيه الاخيرة بنشر مبادىء وتعاليم تضاد عقائد الدين فأمر الخليفة المنصور بنفيه من ديوانه الاَّ انه عاد فعفا عنه لما عرف من سوء حاله في منفاه ولكن لم يعش ابن رشد بعد العفو عنه الاَّ سنة اوحدة ثم توفي في عام ٥٩٥ للهجرة وله من العمر ٧٥ سنة

الذرة وبناؤها

الكهربائي

The Electrical Structure of the Atom

للدكتور اسماعيل احمد ادهم

— ١ —

يكاد يكون اتجاه علم الطبيعيات الحديثة في مبحث الذرة ان اللبنات الاساسية التي تبنى منها الذرة موجية ، وذلك من بعد ما نجح العالم الفرنسي « لويس دي بروي » Louis de Broglie والاستاذ « هيزنبرج » Heisenberg في وضع مبادىء للميكانيكا الموجية . فنحن نعلم ان نظرية « نيلز بوهر » Niels Bohr مع نظرية المقدار القديمة The Old Quantum Theory — كانت تستحكم في الاذهان حينما تقدم للملأ « لويس دي بروي » عام ١٩٢٣ م مقرراً ان الالكترونات وهي دقائق كهربائية مادية ذات شحنة سالبة تحمل ما يتبين فيه نبضاً موجياً ، وأن أشعة « اكس » X تظهر في شكل من الطاقة خاص بالذرة . غير ان ملاحظة « لويس دي بروي » لم تحظ بتأييد أحد غير العلامة « شرودنجر » Erwin Schrodinger — ولكن حدث ان نجح الاستاذ « دافسن » Davisson — وزميله « جرمر » Germer — في اثبات ان الكهيرب « الالكترون » وهو دقيقة مادية ، يخضع لقوانين التفرق الموجي . فنحن نعلم ان مرور موجة ضوئية في ثقب دقيق يسفر عما يعرف باشتباك الامواج وتفرقها — إذ بدلاً من ان تسير الموجات الضوئية في خطوط مستقيمة فان اجزاءها تشتبك — ومثل هذا يحدث اذا مرت في معدن متبلور او صفائح فلزية حيث تقوم دقائق المعدن او الفلز مقام الحائل دون الضوء المرئي. وقد نجح هذان العالمان في إمرار الكترونات من خلال صفائح فلزية من الذهب ومعادن متبلورة فكانت النتيجة التي انتهيا اليها ان الالكترون يتصرف تصرف الامواج ، اذ تشتبك اجزاؤه وتتداخل . ومن ذلك الحين احتلت الميكانيكيات الموجية مكانها اللائق في عالم الفكر العلمي الحديث

وقد استند « لويس دي بروي » الى ظاهرة تصرف الالكترون كموج وقرر انهُ عبارة عن موجة كهربائية تجمعت في حيز صغير ، ورغم ان فرضهُ كان يوافق النتائج التجريبية التي انتهى

اليها الاساتذة «دافسن» و«جرمر» و«طمسن الصغير» G. P. Thomson فان مبدأ «عدم التثبت» — uncertainty — الذي كشف عنهُ «هيزنبرج» كان يقف عقبة دون قبول هذا الرأي

فنحن نعلم من نظرية المقدار القديمة ان اطلاق المادة لفوتونات الطاقة تكون كاملة وكذلك امتصاصها لها ، وان عملية امتصاص الفوتونات واطلاقها تسير متقطعة غير متصلة ، وذلك يرجع لكون نظرية «ماكس بلانك» Max Planck قامت تستمد كل قوتها من التحولات الدورية periodic في الاهتزازات التي تعين خط شعاع الموجة ، معتبرة هذه التحولات ليست مستمرة بل وثبات متماثلة متساوية المسافة الفاصلة بينها ، كما ان الزمن الفاصل متساوٍ ، فتكون بناء على ذلك هذه التحولات الدورية راجعة الى وحدات ثابتة لا تنقسم اصطلح على تسميتها بثابت بلانك او H = ه في الرمز الرياضي. فاذا اخذنا موضع النظر الحقيقة التي قررها جيمس كلارك ماكسويل James Clark Maxwell — في ان الامواج أيًّا كانت تتسع في دوائر باستمرار في جميع الجهات ، فكأن موجة ضوئية تصدر من احد السدم تصل الارض بعد سنين من صدورها ورؤيتها يحمل في «علم المقدار» على ان مقداراً Quantum اصاب العين ، مع ان المقدار المنطلق من احدى ذرات السدم يجب ان تتوزع طاقته على صدر قوس موجتهِ ، حتى أن السنتيمتر من سطح الارض الواقع في دائرة شمول الموجة لا يصيبهُ الاَّ جزءٌ صغير جدًّا من المقدار وهذا يستلزم انقسامها وهي لا تنقسم وهذا خلف او تناقض — contradiction —

ولقد فرض «هيزنبرج» لحل هذا الاشكال ان الامواج لا تحمل اقداراً من الطاقة متساوية في صدرها ، انما تحمل احتمالات متساوية بوجود الطاقة متمركزة في إحدى النقط الواقعة على صدر الموجة . والمذكرة التي قدمها «هيزنبرج» في هذا الشأن خريف عام ١٩٢٥م تنطوي على هذا المبدأ الذي تستتر وراءه حقيقة من أهم حقائق الكون الخفية

وقد نجح العلماء من بعد «هيزنبرج» في اثبات هذه الحقيقة ، وقد كنت أنا من أوائل هذا النفر، فقد بيَّنت تجاريبنا بمعامل البحث الطبيعي في موسكو اننا لو اسقطنا حزمة من أمواج الحرارة على طبقة معدنية من المغنيسيوم، فبطبيعة الامر سيتطاير عدد من الكهارب، وعن طريق قياس السرعة لسقوط أمواج الحرارة وعدد الكهارب المتطايرة وعرض الموجة ، تمكّنا من حساب مسئلة تركّز الطاقة في نقط معينة من صدر الموجة او توزعها ، وكانت نتيجة هذه التجارب أن الطاقة في أمواج الحرارة متجمعة في أجزاء على صدر الموجة وبذا تؤثر في الكهارب التي تصدمها

وإذاً يمكننا أن ننقح رأي «لويس دي بروي» وان نفرض مع الاستاذ «اروين شرودنجر» ان الكهربائية في الذرة ليست مركزة في نقط معينة من الذرة هي الكهيربات انما موزعة على السواء في محيط كرة الذرة . وتفسير هذا التوزيع يشكل أهم مسئلة في الطبيعيات الحديثة

— ٢ —

لقد كان أثر نظرية المقدار في تفكيرنا العلمي عن بناء الذرة كبيراً ، إذ لم نعد نعتبر سير الكهيرب في فلكه حول النواة مستمرًّا بل متوثباً ، ويكون بذلك شكل الذرة الخارجي متعدد الاضلاع نظراً لأن الكهيرب يرسم حدود الذرة وثباً في سيره من حول النواة ، وكذلك نقترب من التصوير الذي وضعهُ للذرة « جلبرت نيوتون لوس » G. N. Lewis عام ١٩١٦ وهو الذي اعتبر أساساً لبناء الذرة المستقر

وهذا التفكير وضع حدًّا لذرة « بوهر » خصوصاً وانهُ كان يرى المسارعة في الذرة ، مسارعة الكهيرب ترجع الى قوانين النشاط الكهربائي Electrodynamic الكلاسيكية ، بينما اشعاعات الذرة للفوتونات ترجع الى قاعدة « ثابت بلانك » في «علم المقدار»

ومن المعلوم لنا عن طريق التجربة ان المسارعة أي التعجيل من جهة واطلاق الذرة للفوتونات من جهة أخرى يمكن ان يخضعا لقوانين النشاط الكهربائي الكلاسيكية ولكن .... ذلك إذا بلغت عدد المقادير — ثوابت بلانك — اللانهائية او قاربتها

هذا الى أنهُ من المتعذر على الباحث في الدقائق الذرية Sub-Atomic ان يعيّن مكان دقيقة ذرية وسرعتها في آن واحد ، فاذا عرف المكان تعذر على الباحث تعيين السرعة وإذا عرف السرعة تعذر عليهِ تعيين المكان ، وقد كان تأثير هذا المبدأ ، مبدأ عدم التثبت ، كبيراً لانهُ هدم ثقة العلماء بالجبرية determinism في علم الطبيعة

غير أن من المهم ان نلاحظ ان هذه الاستحالة أو عدم التثبت كان ينعكس في المقادير الكبيرة الى نوع من التثبت والحتمية ، وهذه الحقيقة بجانب أوليات حسابات الاحتمال مهدت السبيل للعلامة « اروين شرودنجر » ان يضع نظرية جديدة في « علم المقدار » تضافر معهُ على تحقيقها « ماكس بورن » Max Born و « جوردان » Jordan و « ديراك » Dirac وفي هذه النظرية الجديدة لم يعتبر « شرودنجر » الكهيرب دقيقة مادية ركزت فيها الشحنة الكهربائية . انما اعتبرها شحنة كهربائية موزعة على فلك الالكترون على السواء ، والتوزيع هنا معناه احتمالي محض . وقد اختلفت وجهات النظر في تفسير الاحتمال ، فهو عند « شرودنجر » ليس في ساحة فراغية انما في ساحة رياضية صرفة ، بينما هو عند «جوردان» و«ماكس بورن» قياسٌ لا لكمٍّ واحد او عدد من الكميات وانما مظهر من قياس عدد لا متناهٍ من الكميات الممكنة المنتظمة . أما « ديراك » فيرى التوزيع رمزاً symbol ولكن بدون أي امكان لتفسير عددي حيث يأخذ بالوجهة التي تربط سرعة الكهيرب بمقدار طاقة حركتهِ

إن فكرة الاحتمال التي دخلت ساحة الطبيعيات الحديثة نبتت من الحقيقة التجريبية في انهُ

إذا بلغت عدد المقادير أعني ثوابت بلانك اللانهائية أو قاربتها فان مسارعة الكهيرب واطلاق الذرة للفوتونات يخضعان لقوانين النشاط الكهربائي الكلاسيكية. ومن المعلوم من حسابات الاحتمال ان إتساع الدائرة التي تخضع للاحتمال يؤدي الى تكييفات حتمية او في شبه الحتمية، وذلك راجع الى أنهُ في حالة اتساع الدائرة تتساوى نسبة مجيء الحادثات واطرادها في تتابعها . وبيان هذا:

لو افترضنا ان معنا قطعة من النقد . فهذه القطعة لها وجهان بطبيعتها ، واحتمال مجيء أحد هذين الوجهين معادل لاحتمال مجيء الوجه الآخر، فالحالات الممكنة اعني المحتملة هنا هي :

١ ، ٢ ؛ ٢ ، ١

ويكون احتمال هاتين الحالتين بنسبة احداهما الى الاخرى :

ح$_1$ — ح$_2$ = ١ — ح$_1$

باعتبار ان الوضع ١ ، ٢ = ح$_1$ والوضع ٢ ر١ = ح$_2$ فاذا تكررت هذه الاوضاع ن من المرات ، فالحالات الممكنة ثابتة في التعاقب ويكون وجه احتمال مجيء الوضع ح$_1$ راجعاً للمعادلة : [ح$_1$ — ح$_2$] ن التي تحدد من امكان الوضع الاول

وهنا التفاضل بين ح$_1$ — ح$_2$ اصغر من الواحد ، فاذا كان مقدار ن بالغاً الحد الاعظم فان امكان الوضعين يقترب من التعادل حتى يساويه في اللانهائية

واستناداً الى هذه الفكرة الرياضية المحضة امكن تفسير مغمض انطلاق الفوتونات وتغير الذرة لموازنتها الكهربائية . فنحن نعرف في ان كهيرباً ينطلق من الذرة اذا بلغ عدد المقادير اللانهاية وذلك في صورة متجانسة مع المبادىء الكلاسيكية ، وانطلاق كهيرب او تغيره لفلكه يحدث اختلالاً في موازنة الذرة ، ويحدث في بناء الذرة رد فعل ينجم عنهُ موازنة جديدة لا تأتي الاَّ باطلاق مقادير من الطاقات تعرف بالفوتونات . واطلاق الذرة لهذه الفوتونات يرجع لحلها حالة طقس جديدة تقوم على عدد لا نهائي من المقادير . وهذه اللانهائية في عدد المقادير هي التي تعطي الاطراد في انطلاق الفوتونات بالنسبة لتغير الشحنات الكهربائية موازنتها في الذرة ، لانه في الوضع اللانهائي تتساوى جميع الحالات الممكنة واطراد انطلاق الفوتونات في تتابعها

ونفس النظر الاحتمالي فسر مفهوم مبدأ عدم التثبت ، لان هذا المبدأ في ابسط صوره لم يخرج عن استحالة تعيين دقيقة ذرية في مكانها وسرعتها في آن واحد ، فاذا امكن تعيين السرعة استحال تعيين المكان واذا امكن تعيين المكان استحال تعيين السرعة ، ولكن هذه الاستحالة وعدم التثبت سرعان ما ينعكسان كما قلنا في المقادير الكبيرة ، ولبيان هذا نقول :

ان قطعة النقد المؤلفة من وجهين ، وجه مرسوم عليه روسم الملك ووجه آخر عليه المبلغ ولنرمز الى الوجه الاول بالرمز ح$_1$ ، وللوجه الثاني بالرمز ح$_2$ ، فان امكان تعيين أحد الوجهين

متعادل واحتمال بحيثه متساوٍ بحكم الطبيعة . فاذا رمينا قطعة النقد عدداً من المرات فمن المحتمل في هذه المرات ان يأتي كل وجه في دورة واحدة كما انهُ لا يستبعدان يأتي احد الوجهين عدداً من المرات ولا يظهر الوجه الآخر الاَّ مرة واحدة .... ، ولكن هذا التخالف سرعان ما يتناقص مقداره ويأخذ في الاقتراب من الصفر إذا رمينا قطعة النقد ٥٠٠ ألف مرة . لانهُ في مثل هذه المرات الكثيرة ، يعطي اتساع المدى تساوياً لتتابع الاوجه الممكنة واطرادها وهي وجهان هنا فيأتي معنا الوجه الذي يحمل رسم الملك لـ ٢٥٠ ألف مرة وكذلك الوجه الآخر. ونفس هذا يحدث معنا في ساحة « علم الذرَّة » وعلم «المقدار». ولشرح هذا نقول :

إن المشاهد في عالم الذرة ان النتيجة التي يخلص بها الباحث من تعيين أوضاع لبناتها غير حتمي لانهُ النتيجة التي يخلص بها الراصد والباحث في زمن ووضع معين يخرج بغيره باحث آخر في غير «ذا الوقت والوضع» ولو جرت التجربة في عين الشرائط التي جرت وفقاً لها التجربة الاولى . ولو أجريت التجارب عدداً من المرات فعلى عدد هذه المرات تكون النتائج معنا ، غير أن هذا العدد إذا بلغ حدًّا كبيراً ، فسنجد ان النتائج الجزئية تعطي وجهاً عامًّا في احتمال لا نهائي ، وهذا الاحتمال يمكن الباحث من حساب النتيجة التي تأتي معهُ في وضع رياضي ولكن يحمل عنصر اللزوم والحتم في طياته . وهذا نفس ما يحدث معنا إذا رمينا قطعة النقد مراراً فان النتائج تتباين في كل رمية ولكن هنالك في اتساع المدى تساوٍ في تتابع هذه النتائج واطرادها

هذه الاوليات تفسر لنا أوجه تفسير «التوزيع» عند كل من «شرودنجر» و « جوردان » و « ماكس بورن » و « ديراك » من وجهتيه الطبيعية والرياضية

— ٣ —

لقد انتهى « ديراك » بمباحث النظرية في تفسير التوزيع ، الى ان هذا التوزيع رمز ولكن بدون أي امكان لتفسير عددي أخذاً بالوجهة السلبية من المعادلة الاساسية لنظرية « المقدار » الجديدة . أعني بالوجهة التي تربط سرعة الكهرب بمقدار طاقة حركتهِ ، وكان نتيجة ذلك أن انتهى الى أن هنالك ضربين من الكهيربات، موجبة وسالبة الشحنة الكهربائية ، والكهيربات ذات الشحنة السالبة من الكهربائية هي الالكترونات ، أما الموجبة فهي وراء تناول تجاريبنا، فكأنها والخلاء سيَّان

وامتحان نظرية « ديراك » من الوجهتين الرياضية والفيزيقية عن طريق دراسة تدفق الاشعاع المادي واستناداً الى معادلتي « كلاين » Klein و « نشينا » Nishina تنتهي بالباحث، كما انتهت بنا ، الى حقيقة فوزيقية مهمة : ان الطاقة السالبة والطاقة الموجبة التي ترتبط بدقيقة الكهيرب متساوية وان الاختلاف في دلالة الاشارة الجبرية على نوع الشحنة ، وهذا يؤدي حتماً

الى فرض كهيرب موجب الشحنة الكهربائية يقابل الكهيرب السالب الشحنة الكهربائية .
وهذا التنقيح في نظرية « دراك » يتيح لنا النجاح حيث اخفق غيرنا ، مثل اوبنهيمر Oppenheimer ومن المهم ان نقول ان « لويس ده بروي » يوافقنا على هذا التعديل

وقد كشفت المباحث الفيزيقية الاخيرة عن وجود دقيقة مادية ذات شحنة موجبة وتقابل الكهيرب اصطلح على تعريفها بالبوزيترون. وكان زميلنا العالم الروسي « سكوبلزن » Skobelzien اول من انتبه الى هذه الحقيقة اثناء تصويره مسارات الاشعة الكونية Cosmic Rays عن طريق ما تتركه من الاثر في المسار الذي تسلكه وذلك في خريف عام ١٩٢٩

وكانت تجارب الاساتذة «اندرسون » Anderson و« بلاكيت » Blackett « وأوشياليني » Occhialini في الذرة المتهيجة تحت تأثير الاشعة الكونية قد انتهت الى حقيقة تجريبية في ان كتلة هذه الذرات المتهيجة تحت تأثير الاشعة الكونية تعادل كتلتها في حالتها الاولى . وقد تبين خلال هذه التجارب ان هنالك خطوطاً مزدوجة احدها منحرف لليمين والآخر لليسار ، اعني ان احدها موجب والثاني سالب ، وتبين من مباحثهم ان الخط الموجب هو صنو الكهيرب نظراً لان الخط السالب هو الالكترون نفسه . وان كتلة الدقيقة الموجبة معادلة لكتلة الدقيقة السالبة ، فكأن «البوزيترون » صنو الالكترون وليس البروتون هو الذي يصنوه

ونحن نعلم من نظرية « نيلز بوهر » العالم الدانمركي ان النواة في الذرة تعادل كتلتها كتلة الذرة وانها مكونة من بروتونات ، غير ان الميكانيكا الموجية وتجارب « دمبستر » A. J. Dempster — بينت ان البروتون لم يخرج عن كونه موجة كهربائية ولكنها ليست مركزة في قلب الذرة كما ارتأى « دي بروي » وانما موزعة توزيعاً رياضيًّا في كرة الذرة الداخلي

هذه الحقيقة التي تنسجم مع المبادىء النظرية في الفوزيقة الحديثة لها ما يسندها في عالم التجربة ، وقد كان لي عام ١٩٣٣ فكرة في ان كرة الذرة الداخلية متوزعة فيها الشحن الموجبة توزيعاً رياضيًّا ، وان هذه الشحن تتمركز في بعض النقط ، وهذه النقط هي الالكترونات الموجبة او «البوزيترونات» بحسب الاصطلاح الحديث

والآن ونحن في مستهل عام ١٩٣٨ يحمل انباء التجارب العلمية الحديثة ان البروفسور « سكوبلزن » قد نجح في ان يخلص بيروتونات من تيار من البوزيترونات تحت ضغط عالٍ ، — فاذا صح هذا — فسيكون معنا في الذرة لبنتان اساسيتان — الالكترون والبوزيترون . وهكذا يتحقق معنا الفرض القديم الذي قلت به منذ خمس سنوات في مذكرتي الى معهد الطبيعيات الروسي وهي ان الذرة مكونة من موجتين — ذات شحنة موجبة وذات شحنة سالبة، وأن هاتين الموجتين في توزيعهما الرياضي في عالم الذرة يخلقان لنا ذلك الشيء الذي نصرف اليه اصطلاح « الذرة »

العلم واصلاح النسل

العلل الوراثية

الجسمية والعقلية

للدكتور شريف عسيران

لتحسين النسل طريقتان رئيسيتان سلبية وايجابية . ومعنى السلبية سلب الصفات الفاسدة او نزعها لتبقى الصفات الصالحة،والايجابية تشجيع الصفات الوراثية الجيدة وافساح المجال لتكاثرها وانتشارها بخلق جيل جيد الصفات سالم من العلل التي تحط من جودة النسل . وتشمل الاولى نزع الجنون والبله والصرع وغيرها من العلل التي ستمر بنا فيما بعد وتحسين المحيط واختيار الصالحين من ابناء الامة لتكثير نسلهم وتحديد النسل الفاسد وتحسين طرق الزواج والتعقيم والتطبيب وغير ذلك مما سيمر بنا بالتفصيل . وقد لخص جننز الطرق السلبية بما يلي (١) طرق العلاج كمعالجة البله الناشيء عن علة في الغدد الصم والمصابين بالكساح باعطائهم الڤيتامين وما اشبه (٢) اصلاح العائلة باقصاء المصابين بعاهات وراثية من ابنائها بمنعهم عن الزواج او اختلاط تلك العائلة باخرى اصلح منها وراثة ومنع تزاوج افرادها بعضهم من بعض وغير ذلك (٣) اصلاح السلالة بنزع العوامل الوراثية الرديئة [1] منها . وسنتناول الطرق السلبية بالبحث اولاً لانها عملية اكثر من الايجابية ولان مشكلاتها اوسع نطاقاً . واكثر مشكلاتنا الاجتماعية متعلقة بالناحية السلبية . واذا كان موضوع اصلاح النسل لا يزال يعد نظريًّا من الناحية العملية فبالاحرى ان ينطبق هذا الوصف على الناحية الايجابية من طرق تحسين النسل لانها نظرية صرفة

﴿ اصلاح النسل والوراثة ﴾ من الحقائق الاساسية ان من لا يعرف بسائط الوراثة لا يستطيع فهم اصلاح النسل فهماً صحيحاً لانهُ النتيجة العملية للوراثة. وقد بحثنا في اعداد المقتطف السابقة بحثاً مستفيضاً في اهم موضوعات الوراثة [2]. وسنلخص هنا في عبارات موجزة اهم حقائق الوراثة ليستعين بها القارىء الكريم على فهم اصلاح النسل : تنتقل الصفات الوراثية بطريقتين رئيسيتين الاولى طريقة مندل بنسبة ٣ غالب الى واحد كامن والصفة المتغلبة هي الاحسن

(١) Jennings : p. 228 (٢) راجع مجلدات المقتطف ٨٠و٨١و٨٢و٨٣

بالاجمال ولكن قد تعكس الحقيقة. ينال الولد نصف وراثته من الاب ونصفاً من الام فاذا اتحدت عوامل الاب الصالحة بصنوها من عوامل الام جاءَ النسل صالحاً والعكس بالعكس . فاتحاد نوع من العوامل باخرى مثلها يخرج افلاطون او المعري او نيوتن او اينشتين واتحاد غيرها يوجد المجانين والحمقى والبله وضعاف العقول . اما أيُّ نوع يتحد بالآخر فيتوقف على المصادفات . فاذا اتحد الفاسد بالجيد فالاخير يغطي العيب ولكنهُ يبقى كامناً في النسل فقد يخرج من الصالح طالحٌ ومن الطالح صالحٌ ولكن الارجح ان نسل الصالح اكثر انتاجاً للصالحين والعكس بالعكس . والطريقة الثانية للوراثة هي الاتصال الشقي او الجنسي فتنتقل صفات الاب الى الاناث وصفات الام الى الذكور بواسطة العامل الوراثي الشقي كنزف الدم الوراثي (هيموفيليا) وعمى اللون وغير ذلك . وقد بينا علاقة الوراثة بالمحيط فبعضها لا تظهر الاَّ في محيط خاص فالمحيط والوراثة مقترنان و تأثير الوراثة يرجح فعل المحيط . اما الصفات المكتسبة فلا اثر لها في تكوين الفرد

يهول المرء ان يعرف مبلغ انتشار الامراض الوراثية في جميع الامم تحط من جودتها وتفسد نسلها . والامم التي تهتم باصلاح نسلها تضع الاحصاءات المضبوطة التي ترشدها الى الحقائق وتساعدها في مكافحة مشاكلها الاجتماعية على ضوء العلم الصحيح . ولا نستطيع ان نستوعب جميع العلل الوراثية في مقالنا هذا لان الاحاطة بهذا الموضوع تحتاج الى كتاب خاص . وسنذكر نماذج اهمها لتكون مرشداً لنا في بحثنا وتجعلنا نقدر العلل الوراثية المنتشرة في الامم وخطرها العظيم

﴿ العين ﴾ ان في عضو صغير كالعين مئات من العيوب الوراثية كالعمى الناشىء عن ضمور عصب العين والماء الازرق Cataract والسوداء glaucoma [1] والعشو (عدم النظر ليلاً) وعمى اللون. وقد احصى الدكتور لوسين هو Lucien Howe احد الاخصائيين الاميركيين بامراض العيون ما يربي على الثمانمائة عيب من العيوب الوراثية [2]. وتتبع كارل بيرسون Karl Pearson وغيره ارومة سبعمائة اسرة اتضح له منها ان فقدان لون العين وراثي واكثر العيوب البصرية كقصر النظر وطوله وراثية . ومع ان اكثر الكتب الطبية يعزو حسر النظر Myopia الى كثرة القراءة والتحديق الكثير واجهاد النظر وغير ذلك فقد ثبت مؤخراً ان سببهُ استعداد وراثي لانهُ يصيب الاشخاص الذين لا يتعرضون للعوامل المذكورة ولا يصيب غيرهم ممن يتعرضون لها. وهو وراثي بصورة كامنة اي بنسبة ١ : ٣ ويظهر ايضاً كصفة متنقلة [3] دع عنك كثيراً من العيوب البصرية التي لا يتسع المجال لذكرها

(١) المقتطف : في معجم شرف استعمل « الماء الازرق (مصر) » لـ glaucoma

(٢) The Eugenic Predicament p. 14

(٣) Human Heredity, Bauer, Fisher, and Lenz 931, p. 230-31 الوراثة البشرية

﴿ عيوب السمع ﴾ ان عيوب السمع الوراثية كثيرة العدد وقد نشر بل مخترع التلفون رسالة في سنة ١٨٨٤ بيّن فيها ان الصمم وراثة في بعض الاسر الاميركية واثبت غيره ان الصم البكم يتحدرون من اسر مصابة بهذا المرض ويقدر عدد الصم البكم في المانيا بخمسين الفاً منشأ العلة في اكثر من ربعهم الوراثة [١]

﴿ الامراض الجلدية ﴾ وثمة كثير من العلل الجلدية الوراثية كالبهق والنمش والتقرّن Keratosi والصلع وغيرها

﴿ العيوب الخلقية ﴾ كثيرة منها العنش Polydactylism [٢] والاصابع المحبوكة كالبط Sydactylism فيتصل اصبعان (او اكثر) ويبقيان غير منفصلين والكزم brachydactylism [٣] والصَّدَف [٤] Knock Knee والفَحَج [٥] Bowleg والقَفَد [٦] Flat foot والطفالة Infantilism والحدب Kypfosis وكثير غيرها

﴿ الاستعداد للامراض ﴾ اما الامراض التي يرث فيها المرء استعداداً فكثيرة منها التهاب الغدد والكساح ونزف الدم الوراثي (هيموفيليا) وتصلب الشرايين والبول السكري وداء النقرس والتأثر بالمواد الغذائية والادوية والروائح المختلفة فبعض الناس يتأثر بأكل البيض او الجبن وغيرهم يتأثر بالكينا او غيرها ويصاب آخرون بنوبات ربو حينما يشمون رائحة زبل او غيرها . والبرقان المزمن وبعض أمراض القلب ورائحة الانف الكريهة المعروفة (بالاوزينا) والاستعداد للسل الرئوي والعظمي والسرطان ومئات غيرها تدخل تحت هذا الموضوع

﴿ الامراض العصبية ﴾ ان الامراض العصبية هي بيت القصيد في بحثنا ولهذا سنتوسع قليلاً في البحث فيها لانها تؤثر في عقول المصابين وانتاج الامة الثقافي. ولا نستطيع ان نتصور عدد المجانين والبله وضعاف العقول والصُّرع الذين هم عالة على الامة يحطون من جودتها ويكلفونها النفقات الباهظة ويقللون انتاجها المادي والثقافي ويثقلون كاهل دافع الضريبة فيها . والامراض العقلية ضروب كثيرة وهي درجات من اختلال بسيط الى أعلى مراتب الجنون . وقلما ترى امرءاً خالياً من الاضطرابات العقلية . فالغضب الشديد والانفعال الذي يحمل المرء ان يأتي باعمال يأباها العقل السليم كالقتل والتخريب والتسفل بالافعال والاقوال وأمثالها ، جميعها ضروب من

---

(١) Human Heredity p. 262 . (٢) الاعنش من له ست أصابع . المقتطف : الزمع : في معجم شرف . والازمع في محيط المحيط ي زائد الاصابع (٣) تعمر الاصابع (٤) اقبال احدى الركبتين على الاخرى (٥) تداني صدور قدميه وتباعد عقباه فهو أفحج (٦) الاقفد من يمشي على صدور قدميه ولا تبلغ عقباه الارض

الاضطرابات العقلية الوراثية . وشتان بين من يتلقى الحوادث برباطة جأش وعقل رزين ، ومن يتأثر بأتفه الامور فيفقد توازنه ويضيع صوابه

يقدر عدد المصابين بالامراض العقلية الذين يدخلون مستشفيات الولايات المتحدة سنويًّا بثلاثين الفاً . وقد ظهر من الاحصاءات ان عدد الذين أصيبوا في الماضي والمصابين حالاً والذين يصابون في المستقبل من هذا النوع اي الذين يدخلون المستشفيات المخصصة لهذه الامراض يبلغ مقدار خمسة بالمائة من مجموع السكان . فاذا أضفنا اليهم عدد الذين لم يدخلوا المستشفيات الخاصة بهذه الامراض يبلغ معدل المصابين ما يقرب من عشرة بالمائة من مجموع السكان[١]

وقد أيدت احصاءات كثيرين من الباحثين ان الجنون وراثي في الأسر ينتقل انتقال القامة ولون الشعر والعين وغيرها من الصفات الجسدية. ومن رأي بيرسن اننا اذا تتبعنا اصابات الجنون تتبعاً كاملاً لم نكن مغالين اذا قلنا ان اربعين بالمائة منها تأتي من آباء كانوا مصابين بهذه العلة[٢]

وتقدَّر النفقات التي تتكبدها مستشفيات الولايات المتحدة سنويًّا في معالجة المصابين بهذه الامراض بثلاثة أرباع بليون دولار . فمرض واحد منها وهو الخرَف قبل الاوان (Dementia Praecox) يكلف مليون دولار يوميًّا[٣]

ومن رأي بعض الثقاة الذين يعوَّل على آرائهم ان خرَف الشيخوخة ووهن القوى العقلية اللذين نعدهما من المظاهر الطبيعية وراثيان لأنهما يصيبان بعض الناس ويعفان عن آخرين ويظهران باكراً في فئة ويتأخران في غيرها ويكونان شديدين في البعض وخفيفين في آخرين[٤]

ولا يجب ان يتبادر الى الذهن ان الوراثة هي السبب الوحيد في الامراض العصبية . بل هناك عوامل اخرى كالحلق (الزهري) والكحول وغيرها مما لا مجال لتعداده ولكن الوراثة من العوامل المهمة وقد حصرنا بحثنا فيما يتعلق بموضوعنا فقط

﴿الصرْع﴾ ان للصرع اسباباً كثيرة منها أذى يصيب الدماغ من جرَّاء لطمة او ضغط او كسر وداء الزهري وغير ذلك . ويؤكد الاخصائيون ان بعض هذا الداء ناشئ عن استعداد وراثي. وأغلب الصُّرْع معرضون لانواع الاختلال العقلي ، ونحو عشرة بالمائة من الصرْع متولدون من آباء كانوا مصابين بهذا المرض وعشرة بالمائة من اولادهم مصابون به[٥] وبصرف النظر عن الوراثة فالمصابون بهذا الداء غير صالحين ان يكونوا آباء وامهات لاولاد أسوياء الخلق

---

(١) Applied Eugenics p. 123. (٢) The Eugenic Predicament
(٣) Applied Eugenics p. 124 (٤) Human Heredity p. 438 (٥) Human Heredity 441

﴿ النقص العقلي ﴾ (Mental defficiency) أن هذا الداء من اكثر الادواء انتشاراً ومدى انتشارهِ أكثر من مدى انتشار كل مرض عقلي . وستهولنا كثرة انتشاره وهو يهم الآباء والمربين والنفسيين (Psyhcologists) وأساتذة المدارس والسلطات الصحية لانهُ من المشكلات المهمة في حياة الامم . ولهذا سندخل في تفصيلاتهِ بعض التفصيل

يجب ان نميز بين النقص العقلي والتأخر العقلي . فالثاني عارضٌ يتولد من حادث جسدي او عقلي او محيطي كلطمة على الرأس او كسر او ضغط حين الولادة . ويتولد أيضاً من مرض الزهري الخَلْقي وفقر الدم وعدوى الطفيليات وامراض القلب والكلى والتهاب اللوزتين والحميات وأجهاد العين والسل والكساح وغيرها. ومتى زال السبب عاد العقل الى حالته الطبيعية. أما النقص العقلي الصحيح فلا يزول وهو درجات مرتبة بحسب شدته وضعفه. واليك درجاته:—

الاحمق : (Idiot) وهو شخص ضعيف العقل لا يستطيع وقاية نفسه من الاخطار ولا القيام بحاجاتهِ الجسدية وذكاؤهُ لا يتجاوز ذكاء ولد عمره ثلاث سنوات وحاصل ذكائهِ أقل من ٢٥

الاخرق : (Imbecile) هو غالباً من يمكن تدريبه على قضاءِ حاجاته الجسدية واعمال يدوية في منتهى البساطة ولا يمكن ان نجعلهُ يعتمد على نفسهِ وعمره العقلي بين ٣—٧ سنوات وحاصل ذكائهِ يتباين من ٢٥—٤٩

الابله : (Moron) : هو من يمكن بالتدريب والعناية ان يعتمد على نفسه بعض الاعتماد ولكنهُ لن يستطيع ان يجاري رفقاءهُ العاديين وعمره العقلي لا يتجاوز عشر سنوات وحاصل ذكائهِ ٧٤ [1]

وقد توصل العلماء الى ترتيب هذه الدرجات اي درجات نقص العقل بواسطة امتحان الذكاء الذي يجدر بنا أن نذكر شيئاً عن اهميته وصلاحه

﴿ امتحان الذكاء ﴾ Intelligence Test هو واسطة لتمييز ذكاء الانسان والحيوان ويعلق بهِ بعض العلماء شأناً كبيراً في الحياة الاجتماعية فمن الضروري ان نعرف مثلاً هل تأخر الولد ناشئ من عدم قابليته الطبيعية او من فساد طريقة التعليم او ضعف رغبتهِ او غير ذلك [2]

---

(١) Osler, Modern Medicine vol. VI p. 918 وجاء في تاج العروس : احمق قليل العقل وحقيقة الحمق وضع الشيء في غير موضعه مع العلم بقبحه والمعري يقول

اذا كان لا يحظى برزقك عالم ونرزق مجنوناً ونرزق احمقا (الى آخر الابيات)

مما يدل على ان الحمق يأتي بعد الجنون . وجاء في الافصاح في فقه اللغة . الاخرق فوق الابله والابله الذي به ادنى حمق (الافصاح ص ٨٨) . فالتعاريف العلمية واللغوية تتفق مع ما ذكرناه من عربية هذه الالفاظ

(٢) قياس الذكاء The Measuremant of Intelligence by Lewis Terman y. 5

ولا ينكر باحث مبلغ تأثير النقص العقلي في احداث الرذيلة والجناية والانحطاط [١] . وقوام امتحان الذكاء اسئلة للاجابة عنها او ايعازات للعمل بموجبها . والمقياس المعول عليه هو مقياس بينه سيمون (Binet and Simon) وهما عالمان فرنسيان من علماء النفس لهما الفضل الاول في هذا الموضوع وخير من شرحه ونقحهُ الاخصائي الاميركي الشهير الاستاذ لويس تيرمان (Lewis Terman) استاذ علم النفس في جامعة ليلاند ستانفورد بكاليفورنيا وقد لخصنا عنهُ

يتكون مقياس« بينه» من مجموعة امتحانات مفرغة في اسئلة تتطلب الإجابة عنها إعمال موهبة الذكاء هي أربع وخمسون امتحاناً متدرجة في صعوبتها ويتمكن ولد سوي [٢] (normal) في الثالثة من العمر من الاجابة عن اسهلها. ويتطلب اصعبها اجهاد ذكاء معدل الشخص البالغ. والقصد الاول من الاسئلة امتحان الذكاء الطبيعي لا العلم المدرسي ولا التمرين البيتي والتمكن من معرفة درجة ذكاء الولد لان ما يتعلمه ينوّرنا في معرفة قابليته لزيادة التعلم . وقد ادرك « بينه » تمام الادراك ان الذكاء غير موحد الجهة بل له نواح متعدّدة ولا يمكن ان يجلي حقيقته نوع واحد من الامتحانات . وعليه وضع اسئلة مختلفة الانواع ففيها ما يميز فروق قوة الذاكرة والعقل (reaso) والمقابلة والفهم وتقدير الوقت والسهولة في تقدير قيم الاعداد والتمكن من استنباط معنى كامل لمختلف الافكار ووضوح قوة التقدير وغنى الافكار ومعرفة الاشياء العادية وغير ذلك

﴿ كيفية استنباط المقياس ﴾ رتبت الامتحانات بحسب درجة صعوبتها بعد ان جربت على ٢٠٠ ولد اسوياء (جمع سَوِيّ أي الولد الطبيعي لا المتفوق ولا المنحط) من مختلف الاعمار بين سن ٣ — ٥ فوجد « بينه» مثلاً انهُ لم يجز امتحانين من الامتحانات سوى عدد يسير من صغار الاولاد ولنقل ممن هم في الخامسة من العمر . ثم اخذ يزداد عدد الذين جازوا هذا الامتحان بتتابع السنين الى ان نجح جميع الاولاد تقريباً بين سن ٧ — ٨ . فلو نجح ٢/٣ — ٣/٤ الاولاد الاسوياء الذين بلغوا السابعة من العمر في الامتحان الذي ذكرنا لحسب « بينه » هذا الامتحان امتحان ذكاء ولد عمره سبع سنوات . والامتحان الذي يجوزه ٦٥—٧٥ ممن هم في التاسعة من العمر امتحان ذكاء ولدٍ عمرهُ تسع سنوات وهلم جرًّا . وبعد ان جرب عدة امتحانات بهذه الطريقة استخلص خمسة اسئلة لكل امتحان تمثل كل دور من ادوار العمر من سن ٣—١٠ (ما عدا السنة الرابعة التي جعل لها اربعة اسئلة فقط) ووضع خمسة اسئلة لسن ١٢ وخمسة لسن ١٥ ومثلها للبالغين حتى بلغت الاسئلة اربعة وخمسين ونذكر بعض هذه الاسئلة على سبيل التمثيل :

(١) Terman p 9.

(٢) السوي : غلام سوي لا عيب فيه ولا داء ج اسوياء

﴿السن الثالثة﴾ (١) يدل الولد على انفه او عينه او فمه (٢) يردد عددين (٣) يعد الاشياء التي يراها في الصورة (٤) يذكر اسم امرته (٥) يردد جملة ذات سبع مقاطع

﴿ السن الخامسة عشر﴾ يرد سبعة اعداد (٢) يذكر ثلاث سجعات (rhymes) لكلمة من الكلمات (٣) يردد جملة ذات ٢٦ مقطعاً (٤) يفسر صورة من الصور (٥) يشرح بعض الحقائق المعطاة له

ويتمكن العلماء بوساطة هذه الامتحانات من تفريق درجات الذكاء من اعلاها الى ادناها. ويعبرون عن العمر الذي يجتاز فيه الفرد هذا الامتحان بالعمر العقلي (ع. ع) فعندما نعرف عمر الشخص العقلي نتمكن من تعيين درجة ذكائه . وحاصل الذكاء هو العمر العقلي مقسوماً على العمر الزمني (ع.ز) مضروباً في مائة :

(ع. ع÷ع . ز) × ١٠٠ = حاصل الذكاء

فلنفرض ان عمر ابنك ١٠ سنوات وعمره العقلي ٧ سنوات فقط فيكون حاصل ذكائه (٧ ÷ ١٠) × ١٠٠ = ٧٠ اي بدرجة اخرق (moron) . ولنفرض ان عمر شخص آخر العقلي ١٧ والزمني ١٠ فيكون حاصل ذكاءه : (١٧÷ ١٠) × ١٠٠ = ١٧٠ اي عبقري واذا كان حاصل الذكاء دون العشرين كان الشخص احمق ودون الستين ابله الخ . [١] ومعدل درجة الذكاء مائة فما فوقها يكون فوق المعدل وما دونها دونه ولا يقيسون الذكاء بعد سن ١٥—١٦ اذ يعتقد اكثر العلماء ان المواهب العقلية لا تنمو بعد هذا السن وانما تنمو قوة الحكم (Judgement) لا موهبة الذكاء ولا المعرفة الحسية [٢]

وقد انتقد بعض العلماء هذه الامتحانات بأنها لا تميز الذكاء الفطري من المصطنع المتولد من التعليم والتدريب وان اللغة والمحيط عاملان في تباعد الشقة بين المُمْتَحنين وان المُمْتحن يتعودها ، واكثرها يتطلب مجرد معلومات ولا تدل على ذكاء المرء الفطري . ثم يتوقف الامتحان على اختبارات الشخص والمامه بالمواد الممتحن بها وغير ذلك [٣]

ورغماً عما يوجَّه الى هذه الامتحانات من الانتقاد والاعتراض فانها أفضل طريقة معروفة حتى الآن للوصول الى نتائج تقريبية في تفريق درجات الذكاء. وقد نقح تيرمان هذه التجارب ووسعها واستنبط مقاييس للسن المعين تماماً فاذا كان الولد في الخامسة من عمره قاس هذا السن فقط . وهكذا اذا كان في السادسة والسابعة . وجعل الاسئلة ستة عوضاً عن خمسة لكل امتحان

(١) Scientific American, Jan. 1937, p. I8 "Ourselves and the Feeble-minded„ by Estabrook (٢) Scientific American, Jan. 1937, p. 18 (٣) Science of Life p. 1332

لكل شهرين سؤال فيبلغ مجموعها ٩٠ ويقيس الذكاء من السنتين الاولين لا من السنوات الثلاث الاول كما كان سابقاً

وقد نقح تيرمان ومريل (Merril) هذه الاسئلة في الطبعة الجديدة لسنة ١٩٣٧ فجعلا الامتحانات ١٢٩ . وقد تطورت هذه الامتحانات تطوراً عظيماً في العهد الاخير فصارت تشمل شهور الحياة الاولى الى سن البلوغ وتجاوزت ما بعد هذا السن ولم تعد الامتحانات تقتصر على قياس الذكاء وتفريق الحمق وضعاف العقول بل تناولت شخصية المرء هل هي سوية أو غير سوية فيدرس العلماء قوة إرادة المرء وثباته وضميره وغيرها من المميزات. وبالاختصار يحاول معرفة نوع شخصيته

نقتصر على هذا القدر من الموضوع لانهُ ليس من اختصاصنا ومن شاء أن يتعرف على المذاهب الجديدة فليراجع كتاب بهلر : امتحان نشوء الاولاد منذ ولادتهم حتى السن المدرسي [(١)]

﴿ الاحصاءات ﴾ لنستنطق الآن الاحصاءات عن عدد ناقصي العقول عند مختلف الامم. يستدل من تقرير طبيب مدارس لندن لسنة (١٩١٤—٣٠) ان ناقصي العقل فيها موزَّعون كما يلي:

حمقى ١٧ر١ بالمائة . بُله ١٣ر٧٨ وضعاف العقل ١٥ر٨٥ وتقرب هذه النسبة مما توصلت اليه لجنة استقصاء النقص العقلي في مدن انكلترا وهي حمقى ٣ر٦ بالمائة خُرق ١٦ر٦ بالمائة وضعاف العقول ٣ر٨٠ بالمائة [(٢)]. ويظهر من تقرير لجنة البحث عن النقص العقلي في ادارة المعارف البريطانية ان ناقصي العقل زادوا في انكلترا خلال سنة ١٩٠٦ —١٩٢٧ مائة بالمائة بينما لم تزدد عدد السكان سوى ١٤ بالمائة . وفي سكان انكلترا الحالين عشرة آلاف لكل مليون مصابون بالنقص العقلي [(٣)]

بلغ عدد ناقصي العقل والصرع في مؤسسات الولايات المتحدة في أول يناير سنة ١٩٢٩ فقط ٦٤٢٥٣ من مجموع ١٢٠ مليوناً . وهذا الاحصاء لا يبين الحقيقة لانهُ لا يشمل الاَّ الذين هم تحت رعاية المؤسسات الخاصة بهذه الامراض فاذا اضفنا اليهم الخارجين عن هذا النطاق ارتفعت النسبة كثيراً . [(٤)] وقد قدر مؤتمر البيت الابيض لسنة ١٩٣٠ أن نسبة ناقصي العقل في الولايات المتحدة ١٥ بالمائة من مجموع السكان (أي ما يقرب من العشرين مليوناً) وتبين من امتحان ذكاء ما يزيد على المليونين من جنود أميركا اثناء الحرب العامة أن حاصل ذكاء ٢ر٦ منهم دون السنين

---

(١) Testing Children Devlopment from Birth to School Age, by Charlotte Buehler translated to English by Henry Beaumont.

(٢) The Eugenic Predicament p. 37 (٣) The Science of Life p. 1468

(٤) The Eugenic Predicament p. 151

ومع أنهُ لم يثبت أن الجرائم وراثية فالارجح ان مثل هؤلاء ذوو امزجة عصبية ضعيفة تسيطر على إرادتهم وتدفع بهم الى ظلمات السجون وتجعلهم عالة على الامة . ويمكننا أن نعد المتسولين من هذه الطبقة غير المرغوب فيها

روى تيرمان عدة شواهد عن بعض الأسر الاميركية المشهورة بالنقص العقلي وتأثير ذلك في النسل ومن ابرزها اسرة « كاليكاك » . وهذه قصتها : كان مارتن كاليكاك (Martin Kallikak) شابًا جنديًا في الثورة الاميركية فاتفق أن التقى في الحانة التي كان يرتادها الجنود بفتاة ضعيفة العقل فتزوجها فولدت منهُ صبيًا ضعيف العقل وبلغ صلب هذا القران الموقت سنة ١٩١٢ (٤٨٠) منهم ٣٦ غير شرعيين و٣٣ فاسقاً و٢٤ مدمناً للخمر وثمانية تجار اعراض و١٤٣ ضعاف العقول والباقي مشكوك في صحة عقولهم . وعقب رجوعهِ من ميدان الحرب بسنوات قليلة تزوج فتاة من عائلة عريقة النسب فأثمر هذا القران ٦٩٦ فرداً ليس فيهم لقطاء ولا مومسات ولا مجرمون ولا متاجرون بالاعراض ووجد بينهم فاسق واحد ومدمنان ولم يظهر فيهم اي نقص في العقل بل نشأ منهم اطباء ومحامون وقضاة ومربون وتجار وملاك(١)

قال جننغز ان ضعف العقل منتشر في ثلث من واحد في المائة من الامة . فالامة التي عددها مائة مليون يبلغ ضعاف العقل فيها ٣٣٠٠٠٠ وهذا العدد يشمل الذين يكون هذا النقص بارزاً فيهم . واذا تذكرنا ان الصفة الوراثية لا تظهر الاَّ اذا كانت في زوجي الاب والام فاذا كانت في زوج واحد وكان الآخر سليماً فالسليم يغطي المعيب فيكون النقص المستتر هائلاً فنجد في الامة نحو ٩٠٠٠٠٠٠٠ يحملون هذا العيب ولا بد من ظهوره يوماً من الايام (٢)

ولا تقتصر الامراض الوراثية على التي ذكرناها بل هناك امراض كثيرة يرث المرء فيها استعداداً لقبولها كالسرطان وتضخم الغدة الدرقية وغيرها . ومن رأي دافنبورت D. Davenport مدير معهد كارنيجي التناسلي ان المناعة ضد الامراض والاستعداد لقبولها وراثيان فحين ما ينتشر وباء من الاوبئة كالتيفوئيد مثلاً يصاب بهِ البعض وينجو آخرون بسبب مناعتهم فالذين يتعرضون للعدوى ولا يصابون تكون فيهم مناعة موروثة (٣)

***

نقتصر على هذا القدر من العلل الوراثية وسنذكر غيرها حينما نتطرق الى بحث التعقيم

(١) The Measurement of Intelligence, Lewis M. Terman p. 10

(٢) The Biological Basis of Human Nature, Jennings p. 241.

(٣) Scientific American Oct. 1933 p. 162 The Inheritance of Diseases

معركة الكلام

أو التنافس الدولي

في الاذاعة اللاسلكية

— ١ —

لما مرض الملك جورج الخامس من بضع سنوات ، وهو المرض الذي سبق مرض وفاته ، كانت الاذاعة التي يذيعها اطباؤه كل ليلة عن حالته الصحية ، تطرق اسماع عشرات الملايين من الناس في مختلف انحاء المعمورة . فتنشئ روح العطف على الملك الكريم وهو يغالب الموت. ويعتقد المستر ستيفن دجان مدير المعهد الدولي للتربية، ان اعراب اقطاب الحياة العامة في اميركا ، سواء أقطاب الحكومة كانوا ام اقطاب الصحافة والمعاهد العامة ، عن عطفهم على الملك وامرته وشعبه ، خففت من حدة الشعور السياسي، الناشيء عن اختلاف الحكومتين الاميركية والانكليزية في بعض المشكلات السياسية والاقتصادية . وفي هذا دليل على ما تستطيعه الاذاعة اللاسلكية ، من بث شعور التعاطف والفهم وتأثيرها في العلاقات الدولية

يقابل هذا ان الجانب الاول من سنة ١٩٣٤ كان حافلاً ، في أوربا الوسطى ، باذاعات لاسلكية ، صادرة من محطة في جنوب المانيا وموجهة الى الشعب النمسوي ، منطوية على التحريض على الحكومة النمسوية . وكان من نتائج هذا الضرب من الاذاعة ان حدثت حوادث النمسا المشهورة في يوليو سنة ١٩٣٤ التي أغتيل فيها المستشار دولفوس ووقفت أوربا الوسطى أياماً بعيد اغتياله وهي على شفا جرف هار — شفا الحرب الاوربية . وفي هذه الحادثة دليل على ما قد يكون للاذاعة اللاسلكية من أثر في احداث الجفاء والقطيعة في صلات الدول بعضها ببعض

كان الاصل في الاذاعة اللاسلكية ، ان تكون وسيلة من وسائل التسلية ، باذاعة الموسيقى على اختلاف ضروبها ومراتبها ، والاحاديث الفكهة والروايات القصيرة ثم ضم اليها استعمالها للتثقيف العام ، باذاعة أحاديث الكتاب والعلماء ، فيصغي كل من شاء الى أحدث مبتدعات العلماء وآراء المفكرين

ولكن الاذاعة اللاسلكية كالصحافة ، هذه للعين وتلك للاذن ، في وسعها ان تنمي روح المودة والتفاهم بين الأمم وفي وسعها أيضاً ان توسع شقة الخلف وتبذر بذور الشقاق . والتبعة الواقعة على محطات الاذاعة اللاسلكية أعظم من تلك الواقعة على الصحافة . ذلك ان جمع الانباء الصحفية وتمحيصها وجمعها وطبعها وتوزيعها ، يستغرق وقتاً، والوقت يفسح المجال لسكون العواطف الثائرة بعض السكون ، وتحكيم العقل بعض التحكيم . ولكن ليس بين المذيع وسماعه حاجز ما، فالمسافة بين المذيع والسامع ، كائناً بعدها ما كان ، تجتازها الامواج اللاسلكية بسرعة الضوء اي في جزء من الثانية . فشعور الحقد والبغض الذي يثيره المذيع بما يقول ، قد يفضي الى نتائج خطيرة لساعته بل لدقيقته . ثم إن البلدان الدمقراطية فيها ، صحف متباينة الرأي، مختلفة النظر، وتباينها هذا يحمل على المقابلة والتريث والتأني ، ويعصم من التعجل والاندفاع . أما الاذاعات اللاسلكية ، فمحصورة في محطات خاضعة في كل بلد لسلطة واحدة على الغالب ، ما عدا البلاد الاميركية وهولندة ، فالمجال لاختلاف الرأي والمقابلة بين وجوه النظر ضيق محصور . حتى في الولايات المتحدة الاميركية ، لا نجد الاَّ نظامين كبيرين لهما مقام في طول البلاد وعرضها

— ٢ —

من نحو سنة أعلن السر جون سيمون ، وكان وزيراً للداخلية ، أن الحكومة البريطانية طلبت الى شركة الاذاعة البريطانية ، ان تتخذ الوسائل اللازمة لانشاء برنامج إذاعة بعيد المدى وان بحثاً أجراهُ ممثلو الحكومة البريطانية اسفر عن ضرورة استعمال اللغات الاسبانية والبرتغالية والعربية في هذه الاذاعات

وليس ثمة ريب في أن الاذاعة الى البلدان الاجنبية بلغاتها ، مشكلة حملت رجال الاذاعة اللاسلكية واقطاب الحكومات على كثير من التفكير في السنتين الماضيتين . ولا ريب كذلك في انها تنطوي على كثير مما لهُ صلة بمستقبل العلاقات الدولية ، ابان السلم والحرب . وما عزم شركة الاذاعة البريطانية، على الاذاعة باللغة العربية— وهي الاذاعة التي بدأت من نحو شهرين— الاَّ من قبيل الردّ على النشاط السياسي ، الذي عمدت اليه بعض الحكومات الفاشستية بوساطة الراديو . فالراديو اصبح في عرف الدول الدمقراطية والفاشستية على السواء ، سلاحاً لا يمكن اهماله في الدفاع عن المصالح القومية

ان السيطرة على محطات الاذاعة اللاسلكية مركزة في يد الحكومة او يد مجلس خاص في معظم بلدان أوربا ، وذلك على الضدّ من الطريقة المتبعة في الولايات المتحدة الاميركية . وتركيز السيطرة ، تختلف اغراضهُ باختلاف البلاد . ففي بعضها — وهي البلدان الدمقراطية بوجه عام — يقصد بهِ الى تنظيم الاذاعة بدلاً من تركها ولا ضابط بها اولاً ومنع الاذاعات

التي قد تسيء الى الرأي العام داخل البلاد او في البلدان المجاورة . اما في البلدان القائمة حكوماتها على مبدإ الزعامة فالغرض بث الدعاية في الداخل لافراغ الرأي العام في قالب واحد، وفي الخارج لبسط رأي الحكومة ونزعتها السياسية. ففي الدنمارك والنرويج نجد محطات الاذاعة اللاسلكية تابعة للحكومة وأما في هولندة فالمجال فسيح لنشاط الشركات الخاصة . وأما في المانيا وروسيا فتدار محطات الاذاعة كأنها مصالح حكومية . واما في ايطاليا ، فقد أنشئ للاذاعة شركة كبيرة تموَّل من رؤوس الاموال الخاصة وتخضع لسيطرة الحكومة

ولكن انكلترا تجري على نظام خاص وسط فأنشأت لذلك شركة الاذاعة البريطانية B.B.C. وهي هيئة صدر بأنشائها مرسوم ملكي ، تدير محطات الاذاعة لفائدة الامة ، لا بقصد الربح . فلا تختلف في قاعدتها وطريقتها عن كثير من الهيئات العامة في انكلترا كالهيئة التي تدير مرفأ لندن او الهيئة التي تدير اعمال سيارات النقل الكبيرة (الاوتوبوس) وليست هذه الهيئة وقفاً على حزب سياسي دون آخر ، بل هي تمثل النزعات السياسية السائدة في البلاد بوجهٍ عام . ولا تمارس الحكومة عليها ضغطاً ما ، وأنما عملها يقتضي الحذر في نقد الحكومة التي اصدرت قانونها . ولكن مما لا ريب فيه انهُ اذا مالت محطة الاذاعة البريطانية اكثر مما يجب ان تميل، الى ناحية الحكومة ، ارتفعت اصوات الاحتجاج في البرلمان والصحف ، فيُصغَى الى ما تقول ، لان المعارضة اليوم قد تكون حكومة جلالة الملك في الغد . فالاتزان في مصلحة الجميع على السواء

وتسير فرنسا على خطة تجمع بين محطات تملكها الحكومة ومحطات تملكها الشركات الخاصة . اما المحطات الحكومية فتابعة لوزارة البريد ، وادارتها في يد مجلس للحكومة فيهِ ممثلون للحكومة ولاصحاب مصانع الادوات اللاسلكية وللسمَّاع كذلك . والمحطات الخاصة تدار على نمط المحطات الاميركية وتجني المال اللازم من الاعلانات اللاسلكية . أما المحطات التابعة للحكومة في فرنسا وانكلترا فتجني نفقاتها من مال يستوفى من أصحاب الأجهزة الملتقطة

وتختلف هولندة عما تقدَّم في ان فيها خمس جماعات للاذاعة اللاسلكية وهذه الجماعات لا تدار للربح بل لنفع أعضائها . فلثلاث من هذه الجماعات نزعة دينية خاصة (كاثوليكية وبروتستانية والثالثة مسيحية فقط) ومحطة لها نزعة سياسية اشتراكية والخامسة عامة محايدة علمانية . ولكل جماعة دائرتها الخاصة ومذيعوها ومذيعاتها ، وهي تقتسم بالاتفاق بينها الوقتَ المتاح للاذاعة من محطتين من محطات الامواج الطويلة وتدفع الاجر عن استعمال هاتين المحطتين للشركة التي تديرها. وهذه الشركة مستقلة ولكن أسهمها موزَّعة على الحكومة والجماعات الخمس. وقد أثبت الاختبار ان هذا النظام سائر على خير ما يرام بغير جفاءٍ او اختلاف ما . والعجيب في أمرهِ تبرُّع السماع للجماعات بلا قاسر او قانون . فليس في هولندة قانون ما يقضي بانتماء من يملك

جهازاً ملتقطاً الى احدى هذه الجماعات ولا ان يستصدر رخصةً لاستعمال جهازه وفي الاصغاء الى ما يذاع. ومع ذلك فلكل من هذه الجماعات المختلفة طائفة من الاعضاء يتبرعون بما يكفي للقيام بنفقاتها. أما الاعلان، وأما الربح فممنوعان. وكل ما هناك ان الموظفين والمذيعين والمذيعات يتقاضى كلٌّ منهم جعلاً معقولاً. وليس في أي بلد من بلدان العالم نظام أرقى وأتم من هذا النظام الهولندي

— ٣ —

للاذاعة اللاسلكية في مغزاها السياسي ناحيتان — الناحية الداخلية والناحية الخارجية

في اوربا خمس عشرة دولة لا تسمح باذاعة الاقوال والآراء السياسية من محطات الاذاعة إلاَّ بامر الحكومة وموافقتها وهذه البلدان هي — المانيا وايطاليا وروسيا السوفيتية والنمسا وبلغاريا واستونيا وفنلندا وهنغاريا ومدينة دانتزج الحرَّة وبولندا والبورتغال ودولة ارلنده ومدينة الفاتيكان. أما في تشكوسلوفاكيا ويوجوسلافيا فالحكومة فيهما تُراقب كل ما يذاع في الموضوعات السياسية. وأما في سائر البلدان الاوربية، ومعظمها دمقراطيُّ الحكم فثمة مراقبة على ما يذاع في السياسة، يمارسها المشرفون على محطات الاذاعة نفسها معتمدين في الحذف على ما يحرّمهُ القانون والادب العام

ولكن انكلترا تلغي كلَّ مراقبة في اثناء المعارك الانتخابية. وكانت اسبانيا تسمح باذاعة الخطب السياسية بعد مراجعة مدير البرنامج لها. اما الآن فمحطات الاذاعة اللاسلكية في اسبانيا في قبضة السلطات العسكرية في الفريقين المتناضلين. واذن يمكن أن يقال أن اطلاق حرية الاذاعة في الموضوعات السياسية في اوربا، يكاد يكون محصوراً بوجهٍ عام في البلدان الدمقراطية الغربية. وقد يضاف اليها دولتا لتفيا ولتوانيا على سواحل بحر البلطيق

وللدعاية الانتخابية اللاسلكية في انكلترا نظام خاص. فقبل ميعاد الانتخاب العمومي، بنحو اسبوعين او ثلاثة اسابيع، يسمح لاقطاب الاحزاب السياسية الممثلة في مجلس النواب ان يذيعوا خطباً سياسية من محطة الاذاعة، على أساس التساوي في الوقت. اي إذا سمح لاقطاب المحافظين في هذه الاسابيع الثلاثة، باذاعات مجموع وقتها عشر ساعات، سمح لاقطاب العمال كذلك باذاعات مجموع وقتها عشر ساعات. وكذلك لسائر الاحزاب. وقد سار هذا النظام على ما يرام الى أن كانت سنة ١٩٣١ عندما طلبت الحكومة القومية ان يعتبر كل حزب ممثل فيها، حزباً مستقلاً وان يتاح لهُ المساواة المشار اليها آنفاً. فكان مجموع الوقت المتاح للاذاعة للاحزاب المؤيدة للحكومة اكبر كثيراً من مجموع الوقت المتاح للمعارضة. ويعزى غير قليل من اكتساح الحكومة القومية للبلاد في الانتخابات التي تمت في نوفمبر سنة ١٩٣١ لهذا التفوق في ما أُتيح لاقطابها من الوقت للدعاية الانتخابية اللاسلكية. ومن المشكلات التي تواجهها شركة الاذاعة البريطانية في هذا الصدد كون الحزب الشيوعي ممثلاً بعضو واحد في البرلمان. فهل يتاح لهُ من الوقت للاذاعة

اللاسلكية السياسية في الانتخاب القادم ما يتاح لحزب المحافظين وهم أكثرية

وعلاوة على ما تقدم يسمح مجلس شركة الاذاعة البريطانية ، بالمناظرات السياسية بين اقطاب السياسة والكتاب السياسيين ، ولكنهُ يشترط ان تقدم اليهِ نسخ الخطب لمراجعتها ، ومعرفة هل نصوص الخطبة محصورة في الموضوع ، وهل هي متسقة مع الوقت المتاح للاذاعة ثم لحذف ماقد يكون فيها خارجاً على العرف الادبي . وكل ذلك لحفظ التوازن في المناظرة ، فاذاعة رأي معين تتلوه اذاعة رأي مقابل له . وهكذا . ومن هذا القبيل مناظرة في « الفاشستية » اشترك فيها السر اوزوالد موزلي زعيم الفاشستيين البريطانيين والمس ميجان لويد جورج كريمة المستر لويد جورج وأحد أعضاء مجلس النواب . أما الكتَّاب المشهورون كبرنارد شو فيمنحون الحرية المطلقة في اذاعة ما يشاؤون ما زال الكلام في نطاق الأدب العام — في رأي المذيع

وتقتصر سائر دول أوربا الدمقراطيـة في الاذاعات السياسية على موضوعات وأقوال غير حزبية الاَّ في النرويج والدنمارك والبلجيك ، فانها تتبع خطة أقرب الى الخطة البريطانية . وأما في هولندة فثمة جماعتان من الجماعات الخمس تسمح بالخطب السياسية ، وهما الجماعة الكاثوليكية ، والجماعة الاشتراكية . ولكن الجماعات الثلاث الباقية تحظرها . ولا تأذن حكومتا السويد وسويسرا الاَّ في اذاعة الخطب السياسية التي لاتحيُّز حزبيٌّ فيها . ولكن تشكوسلوفاكيا تحظر الخطب التي فيها نقد للحكومة ، مع انها من خير الامثلة على الحكم الدمقراطي في أوربا . ولذلك لا بدَّ من وضع تشكوسلوفاكيا — في ما يتعلق بالاذاعة — في صف الدول الدكتاتورية ، لولا انها تقيم وزناً في اذاعتها للاقليات التي ضمن حدودها وما لها من ثقافة قومية خاصة بها . وهي تعتذر بما تفرضهُ من الرقابة على الاذاعة السياسية، بموقفها الجغرافي السياسي. لان خطبة واحدة قد تنشىء لها مشكلات دولية معقدة . فاذا اتجهنا بنظرنا الى الحكومات الدكتاتورية، وجدناها تستعمل الاذاعة اللاسلكية لتعزيز مقامها داخل حدودها الجغرافية والعنصرية ، واذاعة آرائها السياسية، أنَّى سمعت اذاعتها. فالاذاعة اللاسلكية أضحت في أيدي رجالها أمضى سلاح عرفهُ العالم. فاذا أضيف الى ذلك براعة أقطاب الدعاية في استعمال هذا السلاح بحيث يؤثر في النفوس ويستهويها، عرفنا مبلغ الخطر الذي ينجم عن استعمالهِ لتحقيق بعض المآرب القومية

وهذه الدعاية تتخذ أشكالاً متعدِّدة ، بحيث أصبحت الخطب السياسية الاَّ خطب الزعماء غير لازمة . ذلك ان كل ما يذاع يطوى بطريقة خفية على مغزى سياسي سواء أفي التاريخ تحدَّث المحدِّث ام في العلم أم في الفن أم في الاعمال العامة . ويضاف الى هذا اذاعة أنباء الحوادث وقد لوِّنت باللون السياسي الخاص ووصف الاحتفالات الشعبية العامة ، ولا سيما الاحتفالات السياسية، وصفاً يؤثر في النفس بفخامتهِ. وليس من نتائج المصادفات ان لا الهر هتلر ولا السنيور موسوليني،

يذيع خطاباً سياسيًّا من حجرتهِ الخاصة ، بل من منبر عام او من شرفة قصر رسمي او من دكة مدفع ضخم ، وذلك لان اذاعة الخطبة يسبقها وصف الجماهير المحتشدة والهتافات الصاعدة في اجواز الفضاء والاعلام والبنود المرفوعة . وهذا كلّهُ من نواحي التقدم في فهم نفسية الجماهير وتطبيقها في الدعاية اللاسلكية

وعند ما يتكلم هتلر في المانيا ، تذاع خطبتهُ فيجب ان يصغي اليها كلُّ الماني . فتنفخ الصفّارات في المعامل فيسود السكون ثم ينطلق صوت الزعيم من الابواق المضخّمة . وتنصب مثل هذه الابواق في الميادين العامة ، فتحتشد الجماهير للاصغاء ومن يتخلّف عن الاصغاء كان ذلك طعناً في وطنيتهِ وولائهِ . اما في الانتخابات العامّة فتحول البلاد الى احتفال انتخابي عام يدوم بضعة ايام وتسودهُ الحماسة الشديدة ، مع ان نتيجة الانتخاب قلما تكون في معرض الشك

— ٤ —

ولا يخفى ان تخطيط اوربا الجغرافي السياسي ، يجعل من المتعذّر ان تقيم محطات الاذاعة اعتباراً للجغرافية السياسية . ذلك ان حصر الاذاعة في نطاق الحدود الخاصة بدولة من الدول عملٌ مستحيل . فمن المتعذر مثلاً على محطة في جنوب المانيا الى الشرق ان تذيع ما تذيع من دون ان يسمَع ما تذيعهُ في تشكوسلوفاكيا . ثم هناك حدود اللغة وهي مختلفة ايضاً . فمحطة الاذاعة في ستراسبورج بالالزاس تذيع باللغة الالمانية لان لغة السواد من سكان الالزاس هي اللغة الالمانيـة فيسمَع ما تذيعهُ في جانب كبير من غرب المانيـا . وروسيا تسوّغ ما تذيعهُ باللغـة الالمانية بوجود جمهورية الفولجا الالمانية في الاتحاد السوفيتي . وما يصدق على ستراسبورج يصدق على بلدان اوربية كثيرة . هذه المحطات تذيع انباء الحوادث من ضمن ما تذيع . فالمحطة الروسية تعني عناية خاصة باذاعة انباء الهر هتلر والريخ الثالث وايطاليا والتعليق عليها وتفرغها في قالب تحسبهُ المانيا دعاية ضدها . وهي على حق في ذلك . ومحطة موسكو لا تكتفي باذاعة الانباء والتعليق عليها ، بل تعمد الى نقد ما يذاع من المحطات الالمانية ، و « تصححهُ » على قولها . وتستخدم لذلك مذيعين يجيدون اللغة الالمانية كتابةً ولهجةً ، وليس بالنادر ان تتعدى التعليق والنقد الى ضروب من الكلام الجارح

اما محطة ستراسبورج فلا تجري على نمط محطة موسكو في اذاعة الانباء بل تتوخى عدم التحيز . ولـكن ذلك لا يرضي السلطات الالمانية لان ما تذيعهُ يختلف عما يذاع في المانيا نفسها في الصحف والانباءِ اللاسلـكية . ومن أعسر الامور على الحكومة الالمانية ابطال فعل هذه المحطة . نعم انها أصدرت قوانين بمنع الاصغاءِ الى محطة ستراسبورج ، ولـكن مراقبـة جميع الذين يملـكون أجهزة ملتقطة ، مهما تـكن دقيقة ، لا يمكن ان تكون شاملة

هذا قليل من كثير وهو كافٍ للدلالة على ما هو حادث . وقد اشتدت هذه المنافسة منذ شرعت الدول في انشاء محطات مركزية قوية . ففي سنة ١٩٣٠ لم يكن ثمة محطة للاذاعة قوتها تبلغ مائة كيلو وط . ولا يزال الحدُّ الاعلى في الولايات المتحدة الاميركية لقوة محطات الاذاعة خمسين كيلو وط . ولكن ما أهلّت سنة ١٩٣٢ حتى انشئت خمس محطات قوة كلٍّ منها مائة كيلو وط . وقد أنشئت هذه المحطات على ما قيل ردًّا على محطة موسكو القوية التي غمرت اوربا بالدعاية الشيوعية مع ان الروس يزعمون انهم اضطروا الى انشاء هذه المحطات القوية لكي تتصل اذاعتها بجميع انحاء روسيا وسيبيريا الشاسعة . ثم زادت قوة بعض المحطات الى ١٢٠ كيلو وط — كمحطتي وارسو وبراج — ثم الى ١٥٠ كيلو وط فالى ٢٠٠ كيلو وط. ويقال الآن ان الاتجاه الى انشاء محطات قوتها ٥٠٠ كيلو وط . والاذاعة من هذه المحطات لا تشمل البلدان المجاورة فقط بل والبلدان النائية ايضاً . ومن هذا القبيل محطة باري الايطالية ، فحاولت انكلترا مقاومتها اولاً باذاعات من محطة فلسطين ثم بالاذاعة بالامواج القصيرة من لندن

واستعمال الامواج القصيرة اصبح عاملاً جديداً ذا شأن كبير في الاذاعة البعيدة المدى . فازداد الطلب عليها لاستعمالها في الاذاعة العامة ، مع شدَّة الحاجة اليها للاستعمال في « الخدمات المتنقلة » اي لخدمة الطيارات والسفن وغيرها . وتوزيع هذه الامواج من المشكلات الرئيسية التي يعالجها مؤتمر المواصلات السلكية واللاسلكية الملتئم في القاهرة الآن

فاستعمال الامواج القصيرة ، مقترناً باسلوب « الشعاع الموجَّه » beam يمكن محطات الاذاعة من الاتصال بأنأى الاقطار من دون ان تلتقط الرسائل التي تحملها هذه الامواج في معظم البلدان الواقعة بين محطتي الاذاعة والالتقاط . وتفسير ذلك ان الموجة الارضية من هذه الامواج ، تضعف بعيد انطلاقها ، ولكن الموجة الجوية تسير منعكسة من طبقة هيڤسيد فتدور حول الارض. فاذا « وجِّهت » بالمواني العاكس أمكن سماعها في منطقة دون أخرى من مناطق الارض . وهذا النظام تعتمد عليه الحكومة البريطانية في الاتصال ببلدان الامبراطورية . وتعتمد عليه الحكومة الالمانية في الاتصال بالجاليات الالمانية في شتى انحاء الارض فتوقظ فيهم الحنين الى الوطن وتبث بينهم فلسفة النازي الوطنية والسياسية وتسعى ان تفتح الاسواق للمصنوعات الالمانية بانشاء صلات الودّ والتعاطف مع بعض البلدان ، وتحاول ان تقنع العالم اجمع بعظمة المانيا وسداد مطالبها وأمانيها . وهذا النوع من الاذاعة يتمُّ على وجهٍ مستمر بست لغات ، وباكثر من ستٍّ اذا اقتضى الامر ذلك . وتحذو ايطاليا هذا الحذو فتذيع محطة الامواج القصيرة في براتوسمير الدا بالايطالية والانكليزية والاسبانية والبرتوغالية والعربية والصينية واليابانية والهندستانية . وعلى هذا جرت البلدان الاخرى التي لها مستعمرات كفرنسا وهولندة وبلجيكا

— ٥ —

إن المتفائل فقط ، المتمادي في التفاؤل ، يستطيع أن يتجاهل أو ان ينكر أن هذا التنافس في انشاء محطات الاذاعة اللاسلكية انما هو جزء من الاستعداد للحرب ، لانها وسيلة الدول المختلفة للتأثير في صفوف العدو المحارب واضعافها وتفكيكها من الناحية المعنوية . وليس ما نراه حادثاً في اسبانيا الا صورة مصغرة لما يمكن أن يحدث في حرب عامة . فلذلك قرأنا ان السلطات العسكرية استولت على محطات الاذاعة في مقدمة ما استولت عليه . واختص أحد قوّاد الثوّار باذاعة الانباء التي من شأنها ان تضعف المقاومة وتكسرها في أرض الحكومة . فعرف الجنرال كيبوده لانو بوصف « الجنرال المذيع » . ثم إن الحكومة من ناحيتها شوَّشت جميع الرسائل المذاعة الى حامية « القصر » لكي لا يبلغها نبأ المدد العسكري الوافد عليها . كما انها سعت الى بذر بذور القلق في صفوف المتطوعين الايطاليين بوصفها ما أصيب به اخوانهم في ميدان القتال وفي الاسر . وكلا الفريقين يحاول ان يشوّش اذاعة الفريق الآخر

وليس ما تقدم الا ناحية يسيرة من نواحي استعمال الاذاعة اللاسلكية في الحرب . ففي مستهلّ الحرب الكبرى كانت المواصلات اللاسلكية لا تزال في مهدها . وكان اعتماد الدول على المواصلات التلغرافية السلكية ، وكان معظم الاسلاك البرقية البحرية خاضعاً لسيطرة انكلترا واميركا ، فلما قطع الاسطول البريطاني الاسلاك الالمانية في بدء الحرب غدت المانيا معزولة عن العالم . ويذهب احد الكتّاب الى ان جانباً كبيراً من هزيمة المانيا في الحرب الكبرى يمكن ان يعزى الى ايصاد ابواب الانباء والدعاية في وجهها ، علاوة على التقاط رسائلها المرسلة بالاسلاك الدولية وحلّها

اما الآن فان أهم طرق المخاطبات الدولية ، تشق الاثير ولا تعتمد على الاسلاك . ومع انهُ من المستطاع تشويش الاذاعة اللاسلكية ، لا يمكن ان يقال الآن ان قطعها مستطاع . ذلك ان التشويش يقتضي احداث امواج كهربائية قوتها كقوة الامواج التي يراد تشويشها ، ويقتضي كذلك معرفة تواليها . فلا بدَّ من سهر دائم ومعرفة سابقة بالقاعدة التي يقوم عليها توالي الامواج . واذن فمن المتعذر في المستقبل ، وفي حالة نشوب حرب ، أن تلتقط جميع الرسائل المذاعة وان تحل ، دع عنك تعذُّر تشويشها تماماً . اما توجيه الرسائل الى الوكلاء والجواسيس في البلدان الاجنبية فليس صعباً ، بل الصعب منعهُ ، لان الاجهزة الملتقطة قد بلغت مرتبة من الاتقان ، بحيث يستطيع الجهاز ان يلتقط رسائل موجهة الى منطقة ما ، بالاشعة القصيرة ولو كان مصدرها يبعد ألوفاً من الاميال . ويكفي في هذه الحال ان يلتقط الجهاز جزءاً من نغم موسيقي او عبارة مقتبسة من كتاب ادبي مشهور ، لكي يؤدي ذلك معنىً خاصًّا للجاسوس

ان هذا الميدان واسع جدًّا ومن المتعذر التكهن بما يمكن ان يتمّ فيه من الغرائب

الدكتور محمد اقبال

اكبر شعراء الهند المسلمين في العصر الحاضر
رسالة شعره[1]

للسيد ابو النصر احمد الحسيني الهندي

— ٢ —

ثالثاً : ومن معالم رسالة شعر اقبال التعميم . فدعوة رسالته لا تخص طبقة دون طبقة بل تشمل نوع الانسان بأجمعه . وتسعى لتحويل العالم الانساني الى كتلة واحدة . وذلك لانهُ من ابناء الدين الذي من تعاليمه « الخلق عيال الله ، فأحب الخلق الى الله من احسن الى عياله[2] » وبناء عليهِ فمن اهم مباديه الحب العام وكراهة الفروق الجنسية والدموية وتمييز الالوان والاوطان قال :

« ان التميز الجنسي والقانوني قد أباد الشعوب
فهل يعرف اهل وطني ذلك ويفكرون فيهِ
فلا يكون لساني مقيداً بلون خاص
فليكن نوع الانسان شعبي والعالم وطني »

وقال ايضاً : « لسنا من الافغان ولا الترك ولا التتار
اننا ولدنا في الحديقة ومن غصن واحد
ان تميز اللون والرائحة علينا حرام
لاننا تربينا في ربيع واحد »

ولا يختص حب اقبال بنوع الإنسان فقط بل هو يحنو على غير ذوي الارواح كذلك . قال :

« اذا صدم الهواء ورقةَ الورد
فالأثر يقطر دمعةً من عيوني »

يرى اقبال ان وجود الفرد وجود اعتباري . فاذا اجتمع الافراد وأنشأوا لانفسهم اجتماعاً خاصًّا يزدادون قوةً ، ويتوفرون هيبةً ، ويتضاعفون ثقةً ، وينالون بهِ قسطاً وافراً من

---

(١) راجع مقتطف فبراير صفحة ١٧٦ فقد كتبت هذه المقالة على ذكر احتفال بتكريم الشاعر عند بلوغه سن الستين في ٩ يناير سنة ١٩٣٨ مدَّ الله في عمره (٢) من الاحاديث النبوية

التقدم لا يقدر الفرد ان يبلغهُ في حالة الانفراد . ولا اجتماع عنده اشد اركاناً ، واقوى اسباباً ، واثبت قواعد ، وأرسى دعائم من الذي ثبتت وطائده وتأكدت اواخيه بوحدة الدين ، ووحدة الفكر ، ووحدة الغاية . ويرى ان الاجتماع الاسلامي من هذا الصنف . وان اعظم خطر يهدد هذا الاجتماع في العصر الحاضر هو نبذ الروح الديني الذي كان اساس التكوين لوحدته ، وخوض افراده غمار التعصب الوطني والجنسي الذي تعلموا أساليبهُ من الغرب لذلك يخاطبهم :

« ان شعبكم بالدين فاذا ذهب الدين ذهبتم
لانهُ اذا لم يكن هناك التجاذب لم يكن محفل الأنجم »

وقال أيضاً : « ان الدين اذا ملص ذيله من اليد فلا رابط هناك
واذا ذهب الرابط ذهبت الامة . »

وقال ايضاً : « لا تقس أمتك على أمم الغرب
لان نظام أمة الرسول الهاشمي خاص
ان اجتماعهم ينحصر في الملك والنسب
ولكن اجتماعك يستحكم بقوة الدين »

وقال ايضاً : « كل من يختار فرق اللون والدم يفنى
سواءٌ أتركيًّا كان أم راحلاً ام عربيًّا شريفاً
ان نسب المسلم اذا قدم على الدين
طِرتَ انت من هذا العالم مثل غبار الطريق . »

وقال ايضاً : ان الافتخار بالنسب جهل
لان حكمه على الجسم والجسم فانٍ . »

يرى اقبال ان ليس في العالم نظام اجتماعي يضمن حرية الفرد التامة كما يضمنها نظام الاجتماع الاسلامي . فالفرد ينال حريته الكاملة بغير بذل اي جهد حالاً عند دخوله فيه . لان من أهم مباديه الاساسية « إن الحكم الا لله » و « لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق » . لذلك يخاطب المسلم :

« لا تهن فطرتك الحرةَ بالعبودية (أيها المسلم)
انك لو اخترت برهمن[1] لك سيداً فأنت أكفر منهُ
ان المسلم ليس بعبد لأحدٍ سوى الله
فرأسه لا يخضع لفرعون ما . »

وهو يعتقد ان المسلم لو يصبح مسلماً حقيقيًّا لا يمكن ان تشدخهُ غمرة اي قوة مهما يكثر

(١) لقب للرئيس الديني في الديانة الوثنية الهندية

جمعها وتدوّسهُ شدَّة اي سطوة مهما يكبر شأنها . فان التاريخ شاهد على ان عدداً قليلاً من أهل البادية بغير ان يكون لهم عدَّة كافية وأهبة شاملة أو سلطة منظمة دوَّخوا العالم بقوتهم الروحانية واتحادهم الديني . لذلك يقول :

ما الذي أباد استبداد قيصر وكسرى ؟
انهُ قوة حيدر وفقر أبي ذر وصدق سلمان
هل يمكن لاحد أن يقدر قوة المؤمن
ان القدَر يتغير بنظر الرجل المؤمن »

وقال أيضاً : « إن رُحلة المسلم وراء السماء الزرقاء
انت القافلة التي ذرّات طريقها النجوم »

وقال أيضاً : « انت يد الله (العليا) ولسانهُ (الصادق)
اجعل (في نفسك) اليقين ايها الغافل ! لانك مغلوب الظن ـ

رابعاً : ومن معالم رسالة شعر اقبال الدعوة الى الاعتماد على النفس . فان أكبر داء الشرق عامة والمسلمين خاصة فقدان عزة النفس وضياع علوّ الهمة وعدم القصد لجسام الامور فأصبح الرضا بالذلة شعارهم والصبر على الهوان دثارهم . لذلك يخاطبهم :

« اعرف حقيقتك أيها الزارع
لانك أنت الحب ، وأنت المزرعة ، وأنت الماء ، وأنت المحصول
هل يرتعش قلبك من خوف الطوفان ؟
مع أنك انت الرُبان ، وأنت البحر ، وأنت السفينة ، وأنت الساحل
وا أسفاه على جهلك ! لانك اصبحت محتاجاً الى الساقي
مع انك أنت الخمر، وأنت الدنُّ ، وأنت الساقي ، وأنت المحفل . »

وقال أيضاً : « كن لهيباً واحرق القش، ما سوى الله
لم تخاف من الباطل ؟ انك أنت المبيد له . »

وقال أيضاً : « اعرف أصلك أيها الغافل !
لانك وان كنت قطرة ولكنك غير محدود مثل البحر
إن العدة التي يمكن أن يفتح بها العالم بغير السيف والمدفع
لو تفهم فتلك العدة [1] في حوزتك
لمَ أنت اسير طلسم اللاشيء ؟

---

(١) يريد به القرآن وقوة الايمان به

أنظر (الى نفسك) لان عظمة الطوفان فيك مخفية »

وقال ايضاً : « انت مسلم ! فعمّر صدرك بالاماني
واجعل مطمح نظرك في كل زمان «لا يخلف الميعاد»

وقال ايضاً : انظر الى نفسك ، لم تشتكي من العالم ؟
انك لو غيرت نظرك فالعالم يتغير لك . »

وقال ايضاً : « انت غمضت عيونك وقلت ان هذا العالم حلم
افتح عيونك فان هذا الحلم حلم اليقظة . »

وقال ايضاً : « ليس ذلك العاشق الذي يحرك شفتيه للتأوه (من ألم الحب)
ان العاشق هو الذي يحمل العالـمين على كفه
ان العاشق هو الذي يخلق العالم لنفسه بنفسه
ولا يرضى بالعالم المحدود . »

خامساً : ومن معالم رسالة شعر اقبال الدعوة الى محاربة الجمود والجحود . اما الجمود فان لكل زمن مقتضياته وضروراته . والزمن يتغير . فمقتضياته وضروراته ايضاً تتغير . ولذلك فالجمود او الاستمرار على حالة واحدة واهمال دواعي الحال ومطالب الزمن عنده من اكبر العوائق في سبيل التقدم الانساني . وهو يعتقد ان القرآن ما دام ينبوع الهداية للانسان فهو يقدر ان يخلق له عالماً جديداً على حسب الاحوال والدواعي في كل مكان وزمان ويهدي الحياة الانسانية في جميع الاحوال لذلك يقول :

اهدم القديم واقدم على بناء الجديد
فان كل من بقي في ورطة « لا » لم يصل الى « الاّ » [١]

وقال ايضاً : « بكل نَفَس تخرجه غيِّر العالَم
وامض في هذا الرباط القديم كالزمن »

وقال ايضاً : «ايها الشاهين ! أخشى انك اخترت السكن في الحديقة
لان هواءها يجعل جناحيك عاجزين عن الطيران . »

وقال ايضاً : «اعبر نهر المجرة [٢] واجتز زرقة السماء (ولا تُقِـم)
فان القلب يموت بالاقامة وان كانت في القمر »

وقال ايضاً : « لوكان في قلبك عالم جديد فأت به
فان الافرنج قد وقعوا ضحية جروحهم الخفية»

(يتبع)

(١) اشارة الى كلمة التوحيد « لا اله الا الله » (٢) مجموعة النجوم في السماء

أقطاب الاسلام لاحداث الطلاب

عمرو بن العاص

لحسن حسن علي

—٢—

لما ذهب عمرو بن العاص لفتح مصر ، واستولى على الفرما وبلبيس وأم دنين وأراد ان يفتح قصر الشمع أو حصن بابليون ، وجد ان الحصن منيع ، وأسواره قوية عالية ، وجنوده كثيرون ، وهم مزوّدون بالسلاح والعتاد الوافر ، فعرف انهُ اذا هاجمهم في هذا الحصن على عددهم الجمّ تعرض بجيشهِ لضرباتهم ، وسهام قسيهم ، وحجارة منجنيقاتهم ، وهم وراء الحصون تحميهم الاسوار ، فتراجع أمامهم فظنّ تيودوروس قائد الحصن أنهُ يستطيع أن يزحزحهُ عن أم دنين فخرج اليهِ في جيش كبير . أما عمرو فانهُ أتى بفئة من جيشهِ وعلى رأسها خارجة بن حذافة ، وجعلها تكمن عند الجبل الأحمر (في العباسية الآن) ، وأتى بفئة أخرى ، وجعلها تكمن عند أم دنين بالقرب من النيل ، ثم قابل تيودوروس ببقية الجيش ، فابتدأت المعركة ، والتحم الجيشان واستمرت الموقعة حتى كلَّ الفريقان ، ولما أدركهما الفتور والخور كرَّ خارجة بن حذافة من الجبل الأحمر وانقضَّ بجيشهِ على تيودوروس كالصاعقة ، ورجاله أقوياء أشداء لانهم لم يشتركوا في المعركة . فتراجع أمامهم جيش تيودوروس واختلَّ نظامه ، فقوّى ذلك من عزيمة جيش عمرو واشتدت حماستهُ ، فزاد ذلك في ضعف جيش تيودوروس ، وفي اختلال صفوفه ، ثم انقض الجيش المرابط عند النيل في أم دنين على جيش تيودوروس من الناحية الاخرى فأصبح جيش الروم محصوراً بين ثلاثة جيوش في غاية الحماسة ، فتمكن عمرو من ان يفنيهُ عن آخره ولم ينج من هذا الجيش الاّ شرذمة قليلة . وهذه الخطة الحربية وان كانت ترينا دقة عمرو في وضع الخطط الحربية المتقنة الفريدة فانها تكشف لنا عن عقلية عمرو وميله الى الترصُّد والمباغتة ، وترينا كيف كان يحب ان يخدع خصمه ، ويبدي له شيئاً يشغله بهِ ، ويخفي عنهُ شيئاً آخر ، وبعد ذلك يفاجئهُ بأمر غريب لم يكن في حسبانه فيوقعهُ في الحيرة والذهول ، وفي أثناء هذا الذهول يتمكن عمرو من القضاء على خصمه بأيسر السبل

ولما تمَّ فتح مصر لعمرو بن العاص ، نصبه عمر بن الخطاب والياً عليها ، فلما تولى عثمان ابن عفان صرفهُ عنها وولى مكانه عبد الله بن أبي السرح ، فغضب لذلك عمرو بن العاص ، ونقم على عثمان ، وحنق عليهِ غاية الحنق ، ولكنهُ نظر في المدينة يميناً ويساراً فوجد ان الخطر قريب وان الثوار يتراسلون ، وان الثورة توشك ان تنفجر ، فأدرك ان الخليفة لا محالة مقتول ، وانهُ اذا بقي في المدينة اتهمهُ الناس بأمر عثمان ، لما شاع بين الناس من نقمته وحنقهِ عليهِ ، فخرج الى فلسطين وأقام بها ، ولما قتل عثمان وجد عمرو المسلمين قد انقسموا اربعة اقسام

١ — القسم الاول وهو قسم المتورّعين المتدينين ، وهؤلاءِ نفضوا ايديهم من الفتنة ، وتركوا الثوار والثورة والقتال والقتلة ، وانزووا في بيوتهم يعبدون فيها ربهم ولا يرضى عمرو مطلقاً أن ينضم الى هذا الفريق ، لان ذكاءه وفطنته ونشاطه الوفير تمنعهُ من أن يكون كمًّا مهملاً ، وتبعثهُ على ان يغامر في هذا الامر حتى يستفيد من هذه الحال الجديدة

٢ — القسم الثاني وهو قسم طلحة والزبير ، وكان يرى هذا الفريق ان الثوار هم الذين أجبروا الناس في المدينة على مبايعة علي ، وهم يرون ان بيعة علي باطلة ، لانها تمت وسيوف الثوار مشهورة على رقاب الناس ، فيجب ان تنقض بيعة علي ، وان يترك الناس وهم احرار يختارون من شاءوا ، وقد رأى عمرو ان هذا الفريق ضعيف ، وأتباعه قليلون ، وجيشه لا محالة مهزوم ، وهو لا ينضم الى فريق سيؤول امره الى الهزيمة المحققة

٣ — القسم الثالث وهو قسم علي بن ابي طالب ، فكَّر عمرو في هذا القسم طويلاً ، فرأى ان هذا الفريق كثير الاضطراب ، وانهُ يحوي جماعة من الشذاذ ذوي الرؤوس الصلبة وهم في كثير من الاحيان لا ينقادون الى رئيسهم ولكنهم يجبرونهُ على الاخذ برأيهم

ورأى أن علي بن أبي طالب في جميع اعمالهِ واموره آخذ بأحكام الشريعة والدين ، تارك لأمر الرأي والسياسة ، ورأى ان ما عند علي من العلم بالدين اكثر مما عند عمرو ، فإذا انضمَّ عمرو اليهِ ، فلن يتخذه وزيراً ولا مشيراً ولا صاحب رأي ، لان الكلمة العليا عنده للدين وحده ، إذاً لا مفر له من ان ينضم الى الفريق الرابع وهو فريق معاوية بن ابي سفيان ذلك الرجل الحول القلب الذي توافق طباعه طباع عمرو

أرسل معاوية الى عمرو يطلب الانضمام اليهِ ، ويستشيره في امره ، فأشار عمرو على معاوية بأن يطلب منهُ أن يقتل من قتلوا عثمان ، فاذا فعل ذلك فقد أوهن نفسه ، وقتل أنصاره ، وأضعف جنوده لان اكثر الثائرين على عثمان كانوا قد انضموا الى جيوش علي . وإذا قتلهم علي فانهُ يوقع الفتنة في جيشه ، والاختلاف في صفوفه . فاذا أبى ان يقتلهم حاربهُ بجنود الشام ، وهكذا أصبح عمرو بن العاص من أشد الناس مناصرة لعثمان بعد مقتله بعد ان كان من اعظم

الحاقدين عليهِ وقت حياته . كيف ذلك يا عمرو ؟ ألم تكن حاقداً على عثمان كل الحقد ؟ يجيب عمرو عن ذلك دعني أدور مع الزمان كما يدور ، ودعني ألبس لكل حال لبوسها ، فان السياسي لا يستقر على حال واحدة

أخذ معاوية برأيه ، وأتى بالقميص الذي قتل فيهِ عثمان وهو مضرَّج بدمه ،وشدَّ بهِ أصابع زوجته نائلة التي قطعها الثوار حين دافعت عن زوجها ، ثم نشر هذا الثوب على المنبر ، وجعل يحض الناس على الاخذ بثأر هذا الخليفة الذبيح المظلوم ، وما زال بهم حتى بكوا ، وعاهدوا الله على الحرب والانتقام لهذا الخليفة ما بقيت فيهم قطرة من الدماء

ولكن ماذا تجدي الخطب وماذا يفعل التهديد ، وهناك علي بن ابي طالب وهو قائد حربي عظيم محنك ، وشجاعته وقوته الشخصية مضرب الأمثال. أسرع علي بجيشه الى البصرة وقابل جيش طلحة والزبير فتغلب عليهِ ، ثم سار في بلاد العراق نحو الشمال بجيش كبير يبلغ نحو تسعين الفاً ، فوجد ان معاوية قد عسكر عند صفين بجيش يبلغ عدده نحو خمسة وثمانين الفاً . ابتدأ القتال مناوشةً ، ولما طالت المدة زحف علي بجيوشه على جيش معاوية ، وأمعن قائده الفذ الاشتر النخعي في جيش معاوية فتكاً وقتلاً وتنكيلاً حتى تراجع جيش معاوية ورجحت كفة علي ، واوشكت جيوش معاوية على الهزيمة ، فركب معاوية فرسه ، والتجأ الى عمرو وقال لقد هلكنا يا عمرو إن لم تنجدنا برأيك ، وهنا تخيل عمرو مصرع طلحة والزبير ، وأدرك ان الأسر ينتظره ، والقتل يترصده ، وأحسَّ حرج الموقف فأدار رأسه ، وقلب افكاره ، وفي الحال أتى بالخدعة الصماء والداهية الدهياء والفكرة الحالكة السوداء أتى بالخدعة التي ارجفت لها الدنيا ، والتفت لها الدهر ، وتغير بها مجرى التاريخ ، وانقلبت بها الحوادث . نادى بأعلى صوتهِ في جيش معاوية من كان معهُ مصحف فليعلقهُ على سنان رمحه ، ثم نادى في جيش علي والجيش في شدة حماسته وقوته : هذا كتاب الله هو الحكم الفصل بيننا وبينكم ، فان كنتم على حق اتبعناكم ،وإن كنا على حق فيجب عليكم أن تتبعونا ، إنكم اخواننا في الدين ، والاخوة لا تهدر بينهم الدماء ، وبمثل هذه الكلمات تأثرت جيوش علي وكفت عن القتال وقالوا إخواننا في الدين طلبوا صلحنا ، وأرادوا حقن الدماءِ ، أنقتلهم وقد رجعوا الى كتاب الله ، وبذلك أجبروا عليًّا وأكرهوه على أن يترك هذه الموقعة بعد أن رجحت فيهِ كفته ، وأصبح قاب قوسين من النصر ، وألجأوه الى اختيار أبي موسى ليعرف حكم الله في هذه الفتنة مع عمرو بن العاص

ولا يجوز لنا أن نستهين بخدعة رفع المصاحف فقد كان لها آثار تاريخية عظيمة لانها

أولاً : منعت علي بن أبي طالب من أن يجني ثمرة انتصاره فهو لم يفتح الشام ، ولم يأسر معاوية ، ولم يقض على الفتنة . ثانياً : أن معاوية تمكن بعدها من تعزيز جيشه وضم صفوفه ،

وتنظيم وسائل الدفاع . ثالثاً : أن علي بن أبي طالب بعد أن كان يقود جيشاً متوحد الكلمة متحمساً للقتال خرج عليه جماعة يعرفون بالخوارج ، وكانوا يقولون إننا على بصيرة من أمرنا ، وعلى يقين من ديننا وإن الله قد أمرنا أن نحارب العصاة حتى يفيئوا الى أمر الله هذا حكم الله الواضح البين فكيف نترك حكم الله وننتظر حكم عمرو وابي موسى هؤلاء الجماعة أصبحوا حرباً على علي وعلى الدول الاسلامية التي ظهرت بعده ، وإن عشرات الآلاف الذين قتلوا منهم وفي سبيلهم كانوا ضحايا هذه الخدعة السوداء الجهنمية التي اخترعها عمرو في لحظة . رابعاً : أن بقية جيوش علي لم تظل على ما كانت عليه من الحماسة وحب الحرب فقد فترت حماستهم بهذه الخدعة ، وأصبحوا يرون أنفسهم يحاربون إخواناً لهم من المسلمين ، فهم لن ينالوا ثواباً على هذا القتال التي تزهق فيه ارواحهم ، وأصبحوا يتسللون من معسكر علي ، وهكذا تمكن عمرو بحيلته وذكائه من تشتيت جيش علي ، ويقضي عليه القضاء المبرم ، ويحوّله الى جماعات مفككة لا أثر لها ولا غناء فيها

فبعد أن كان جيش علي في أوج نصره ، وفي نشوة ظفره ، وفي منتهى حماسته ، وبعد ان عجزت عن رده همم الرجال ، وعزائم الابطال ، وشفرات السيوف ، وأسنة الرماح استولت عليه حيلة عمرو المدهشة فمزقته شذر مذر ، وقطعته إرباً إرباً وجعلته هباء منثوراً

اجتمع الحكمان أبو موسى الاشعري وعمرو بن العاص فقال عمرو لأبي موسى إن أهل الشام يكرهون عليًّا ، ولا يمكن أن ينصبوه خليفة عليهم أبداً . وإن أهل العراق يكرهون معاوية فعلينا أن ننقذ الناس من الفتنة التي توشك أن تقضي على المسلمين جميعاً ، وعلينا أن نبعد معاوية عن هذا الامر ، ونخلع عليًّا من الخلافة ، ونترك الناس احراراً يختارون من شاءوا خليفة عليهم ، فوافق ابو موسى على ذلك ، ثم قدَّم عمرو بن العاص أبا موسى ليتكلم اولاً تكريماً له واعترافاً بفضله فخلع ابو موسى عليًّا وأقره بعد ذلك عمرو ولكنه ثبت صاحبه ، وبذلك ضرب عليًّا الضربة الاخيرة القاضية ، وبايع اهل الشام معاوية بالخلافة ، ومكث علي مدة حاول فيها ان يجمع شتات جيشه ليعيد الكرة على معاوية ، فلم يطل الله في اجله

ثم تتابعت الحوادث فقتل علي بعد ان ذهب عمرو الى فتح مصر ولما فتحها جعلها له معاوية طعمة فأقام بها حتى مات فيها . فنحن اذا تصفحنا تاريخ عمرو بن العاص ، نجد انفسنا ننتقل من فكرة ناضجة الى فكرة أنضج منها ، ومن حيلة غامضة الى حيلة أغمض منها ، ومن خدعة ملتوية الى خدعة اكثر منها التواء ، وهكذا نجد عمر بن العاص عاش طول حياته ذا ذهن جبار ، وعقل ناضج ، وحيلة منقطعة النظير

المراجع — (١) حسن المحاضرة للسيوطي (٢) الاغاني لابي الفرج (٣) ابن الاثير (٤) كتاب الدكتور حسن ابراهيم

المؤتمر الدولي للمواصلات

السلكية واللاسلكية

التأم في القاهرة في اواخر يناير المؤتمر الدولي للمواصلات السلكية واللاسلكية، وقد اتيح لنا مقابلة بعض اعضائه من رؤساء الوفود وخبرائها الفنيين فخلصنا من الحديث معهم الى الحقائق التالية

المؤتمر في الواقع مؤتمران احدهما للتلغراف والآخر للراديو . لاولهما لجنتان وللثاني ثلاث لجان تتناول في بحثها أجور الرسائل وقواعدها وتوزيع الامواج اللاسلكية على الاغراض المختلفة التي تحتاج اليها

مشكلة مؤتمر الراديو

والمشكلة الكبرى التي يواجهها قسم الراديو من المؤتمر هي توزيع الامواج . فباتساع نطاق الاذاعة اللاسلكية لاغراض التسلية والتثقيف والدعاية زاد الطلب على الامواج القصيرة — وهي اصلح الامواج للاذاعة — لاستعمالها في هذا الباب . ولكن هناك اغراضاً اخرى لا بد لها من هذه الامواج . فثمة الطيران التجاري ومعظم الطائرات ان لم نقل جميعها مجهزة باجهزة لاسلكية للاذاعة والالتقاط فهي تتلقى من المحطات الارضية المختلفة في المطارات وغيرها انباء الجو وتقلبه في كل ساعة من ساعات الطيران وتبعث برسائل من قبلها تستعلم بها عما تريد من الشؤون الفنية وهي في الحالين لا تستغني عن الاذاعة والالتقاط حرصاً على سلامة الركاب . وقد اتسع نطاق الطيران التجاري في السنوات الاخيرة اتساعاً عظيماً وينتظر ان يطرد هذا الاتساع بل ان السناتور هوايت رئيس الوفد الاميركي مقتنع الاقتناع كله بان انتظام السفر الجوي فوق المحيط الاطلنطي قريب التحقيق . ولا بد لطائرات الخط الاطلنطي حينئذٍ من الاعتماد على الراديو في تأمين سلامة الركاب

واذن فالمنطقة الخاصة بالطيران من الامواج اللاسلكية القصيرة قابلة للاتساع لا للضيق وذلك لاستعمالها في المحافظة على حياة الناس وهو أهم من الاذاعة للتسلية او الدعاية او حتى للتعليم

وما يقال عن الامواج اللازمة للطيران

يقال بوجه عام كذلك عن الامواج اللازمة للسفن التي تجوز البحار . فان سلامتها وسلامة ركابها تقتضي أن يخصص لها منطقة معينة من الامواج اللاسلكية القصيرة تستطيع الاعتماد عليها وتكون دائماً في خدمتها

***

ولكن منطقة الامواج اللاسلكية القصيرة محدودة . وهنا لبُّ المشكلة الفنية التي يواجهها المؤتمر فالمطلوب لمحطات الاذاعة العامة من هذه الامواج لا يمكن ان يتاح لها الآن من احد طريقين . إما ان يؤخذ من الامواج المخصصة لخدمة الطيران والملاحة وما شاكلهما وهي تعرف باسم « الخدمات المتنقلة » وأما أن يتوصل العلم الى توسيع منطقة الامواج القصيرة. ولا يمكن ان يقال أن العلم عاجز اطلاقاً عن ذلك. ولكن الحالة كما هي الآن تجعل التوفيق بين طلبات محطات الاذاعة العامة ومقتضيات الاذاعة الخاصة بالخدمات المتنقلة والموازنة بينها عملاً دقيقاً ، وهو لب المهمة الملقاة على اللجنة الثالثة من لجان مؤتمر الراديو

مشكلة مؤتمر التلغراف

أما في مؤتمر التلغراف فالمشكلة البارزة تختلف عما تقدم لأنها مشكلة مالية اقتصادية في المقام الاول اي أنها مشكلة فنية فقط بالمعنى الاقتصادي . ذلك ان القائمين باعمال التلغراف سواء أكانت الهيئات القائمة بها هيئات حكومية ام هيئات خاصة يهمها ما يمكن ان تربحهُ من الخدمة التي تسديها للامم اذ تربطها بعضها ببعض بطرائق المخاطبات السريعة المكتومة المضبوطة. يقابل هذا ان هناك هيئات عامة أُخرى كهيئة مراسلي الصحف وهيئة ارباب الاعمال وغيرهما يهمها ان تكون أجور هذه المخاطبات أقل ما يمكن ان تكون حتى لا يرهق عملها بنفقات كبيرة. فمهمة اللجنة الاولى من مؤتمر التلغراف هي التوفيق بين مطالب هؤلاء ومطالب هؤلاء

وقد تفضل السناتور هوايت فبسط لكاتب هذه السطور لماذا احجمت اميركا حتى الآن عن توقيع اتفاق التلغراف الدولي . ذلك إن جميع اعمال التلغراف في اميركا في أيدي شركات تترك لها الحكومة كامل الحرية في تصنيف الرسائل التلغرافية وتعيين الاجور وكل ما يتعلق باعمالها الادارية وانما للحكومة سيطرة رقابة عليها فقط فلا تتدخل في أعمالها الاَّ إذا رأت منها ميلاً الى التحكم والاستغلال اللذين يجعلانها في مرتبة الشركات المحتكرة. فتوقفها عند حدها وتردها الى الصراط السويّ. أما اتفاق التلغراف الدولي فيتدخل في تفاصيل الاعمال الادارية التي تأبى الحكومة الاميركية وفقاً لمبدإها ان تفرضها على الشركات الخاصة . ولو اكتفى الاتفاق الدولي بتقرير المبادىء العامة لما رأت الحكومة الاميركية مانعاً يحول دون توقيعه

هذا من الوجهة النظرية . أما من الوجهة العملية فجميع شركات التلغراف الاميركية تعمل وفقاً لقواعد الاتفاق الدولي عندما تكون اعمالها خارج الولايات المتحدة الاميركية

العالمان بيلان وبيرو

من متع الحياة الصحافية ان توالي الكتابة عن أقطاب عالمين فتروي لقرائك ما تيسر من اعمالهم ومباحثهم وتطالع في الكتب والمجلات آثارهم وآراءهم ثم تتاح لك فرصة الالتقاء بهم فترتفع الكلفة اذ يلتقي النظر بالنظر لانك في الواقع كنت تعرفهم حقًّا ذلك ان معرفة الرأي والخلق أعرق وأهم من معرفة الوجه والقسمات

لذلك كانت الامسية التي قضيناها في حديث مع المسيو بيلان المخترع الفرنسي المشهور والمسيو بيرو العلامة المتيورولوجي الكبير من فرص الحياة النادرة فالاول مخترع الطريقة الاولى لنقل الصور الفوتغرافية بالتلغراف وهو اختراع يرتد الى ثلاثين سنة وقد وصفناه في مجلتنا المقتطف. فما وقعت العين على العين حتى ارتفع حاجز الكلفة بيننا وجلسنا نتحدث في ذلك الاختراع الطريف ونواحي استعماله في الصحافة المصرية

والثاني من اولئك الافذاذ الفرنسيين الذين يدرسون في الوقت الحاضر قوام الجو الكهربائي بوساطة الامواج اللاسلكية يطلقها في الجو فترتفع في الفضاء ثم تنعكس مرتدة الى الارض فتلتقط في مواقع مختلفة فاذا خصائصها قد تغيرت ، ومن وجوه التغير التي تصيبها يستنتج بعض خواص الجو في طبقاته العليا ولا يكتفي بذلك بل يعد اجهزة مختلفة لتدوين الحرارة والارتفاع وغير ذلك من خواص الهواء ويضعها في بلونات تطلق في الجو فترتفع وترتفع حتى تنفجر البلونات فتسقط الاجهزة الى الارض معلقة بمظلة تقيها خطر التحطم عند السقوط وحاملة المعلومات التي دونت فيها في اثناء الصعود ، وبطاقات عليها العنوان الذي يجب ان ترسل اليه. وقد بلغ ارتفاع اعلى هذه البلونات تحليقاً ٢٥ الف قدم او اكثر

بل أغرب من ذلك انهُ وضع في بعض هذه البلونات جهازاً لاسلكيًّا للارسال ووصله بالاجهزة المتيورولوجية فأصبح البلون يرسل الى الارض المعلومات التي تدوّنها الاجهزة من تلقاء نفسها رويداً رويداً فتدوّن على الارض وتدرس

نقل الصور التلغرافي

وقد انبأنا المسيو بيلان باتساع نطاق الاستعمال لجهازه المعروف باسمه (بيلانوغرام) في الصحافة في فرنسا وانكلترا وغيرهما . ومن محاسن الصدف انا عدنا الى البيت بعد الاجتماع به فاطلعنا في جريدة النيويورك تيمس الصادرة يوم ٢٣ يناير على صورة حضرة صاحب الجلالة الملك فاروق والملكة فريدة بعد الزفاف منقولة بالتلغراف من احدى مدن اوربا الى نيويورك ونرجح ان الاصل نقل من القاهرة الى لندن او الى غيرها من مدن اوربا بالطيارة

ومما روي لنا ان صورة مصرع الملك اسكندر اليوجوسلافي والمسيو بارتو الفرنسي في مرسيليا سنة ١٩٣٤ نشرت في صحف باريس بعد الحادثة بخمس وثلاثين دقيقة

وسألنا المسيو بيلان عن سبب تأخر التلفزة في فرنسا عنها في انكلترا واميركا فقال ان كل اختراع جديد ناحية من التقدم يختص بها البلد الذي يتم فيه الاختراع ولا يتاح للبلدان الاخرى مجاراته فيه الاَّ بعد زمن

وعلى كل حال فان اساليب التلفزة المستعملة الآن على ما فيها من البراعة والاتقان قد لا تكون السبيل الاوفى الى تحقيق التلفزة على أتم وجه واذاعة استعمالها . ومن هذا القبيل العقبات الفنية التي لا تزال تحول دون ذلك كوجوب تنقيل الجهاز المرسل الى مكان الحوادث الكبيرة التي ينتظر الجمهور مشاهدتها واخرى اقتصادية كغلاء اسعار الاجهزة وهذا الرأي يطابق في مجمله ما سمعناه من خبراء الراديو في الوفد الاميركي في المؤتمر الحالي

وقد قال لنا المسيو بيلان انهُ كان مرة في برلين فاتصل بصديق له بليبزج بالتلفون التلفزي فرأى صاحبه وصاحبهُ رآه فانحنى كلٌّ منهما للآخر وهو يكلمه ويشاهده وأراد المسيو بيلان ان يقدم زوجته الى صديقه ودعاها فأبت قائلة « إن ذلك يخيفني »

والغالب ان عناية المسيو بيلان بالمؤتمر ناشئة عن عنايته بما ينتظر ان يصيب اجور النقل التلغرافي الخاص بالصور من تغيير وتبديل

خارطة للجو المتقلب

أماعنايةالمسيو بيرو بهِ فأعرق وأوثق . ذلك انهُ على كونه باحثاً علميًّا في قوام الجو الكهربائي يرئس اللجنة الدولية للظواهر الجوية الخاصة بالطيران التي مقرها باريس ومهمة هذه اللجنة ان تعد خارطة للجو الدائم التقلب عدة مرات كل يوم ثم تذيعها في فترات قصيرة بالراديو فتتصل معلوماتها بالمطارات والطائرات المحلقة فتعرف حالة الجو في مسارات الطيران المختلفة . ولا بدَّ لهذا العمل من تبادل المعلومات بالراديو بين محطات متباينة المواقع لجمعها واعداد الخارطة الجوية ثم اذاعتها

ان القيام بهذا العمل الحيوي للطيران يقتضي أن تخصص له منطقة من الامواج للاذاعة تكون خاصة بهِ دون غيره من الاعمال حتى لا تختلط الاذاعة ولا تشوش . وقد بلغ التقدم فيهِ في العهد الاخير مبلغاً عظيماً فتذاع خريطة جوية كاملة مرة كل ثلاث ساعات ويبلغ عدد الكلمات او مجموعات الحروف التي تتبادلها محطات الظواهر الجوية كل يوم نحو خمسين الف كلمة

فهو هنا ليدافع عن استقلال العمل الذي يشرف عليه بأمواج خاصة به ولتوسيع نطاق هذه الامواج قليلاً اذا أمكن

***

حديث الدكتور جويت

من حسنات المؤتمر الدولي للمواصلات السلكية واللاسلكية انه كان الباعث على قدوم طائفة كبيرة من العلماء والمشتغلين بالبحث العلمي تنقيبا وادارةً الى مصر . وقد سبق ان اشرنا في ما تقدم الى العالمين الفرنسيين بيلان وبيرو وموضوع هذا الحديث رجل يرجع اليه جانب كبير من الفضل في البلوغ بوسائل المخاطبات الكهربائية ولاسيا التلفونية

منها في الولايات المتحدة الاميركية اعلى مراتب الارتقاء — اعني الدكتور جويت وكيل شركة التلغراف والتلفون الاميركية

واذا علمت ان هذه الشركة تملك بواسطة الشركة المركزية في نيويورك وفروعها السبعة عشرة أو الثمانية عشرة في سائر انحاء البلاد الاميركية نحو ثلاثة ارباع اجهزة التلفون المستعملة في اميركا وهي تزيد على عشرين مليوناً ، وان الدكتور جويت هو الذي انشأ قسم المباحث العلمية فيها ونظمه ورقاه حتى صار يضم خمسة آلاف من الباحثين واتباعهم نصفهم من الباحثين المتخرجين في كليات العلوم من شتى جامعات اميركا — اذا علمت ذلك ادركت ان لهذا الرجل مقاماً فذاً في هذه الناحية من نواحي الحضارة الحديثة وان ما يتكرم به من الحقائق عن تقدم التلفون ونقل الصور التلغرافي والتلفزة في اميركا جدير بأن يسطر ويقرأ

وهو علاوة على ذلك صديق لطائفة من اكبر علماء اميركا ورئيس لبعضهم فملكن المشهور في مباحث الذرة والاشعة الكونية خدنه واعز صديق له، وكذلك كان ميكلصن الذي قاس سرعة الضوء في العصر الحديث ادق قياس وقام بتلك التجربة المشهورة التي بنيت عليها نظرية اينشتين، وبوبن الذي جعل التلفون بعيد المدى ممكناً ، واديصن الغني عن التعريف. ثم ان دافيسون الذي نال جائزة نوبل الطبيعية في السنة الماضية من اقطاب رجال البحث في قسم المباحث الذي انشأه جويت ونظمه

لذلك كانت الساعة التي قضيناها في الاصغاء الى هذا العالم المتواضع في حديثه الى حد الحياء ، المبسط لادق المباحث الكهربائية باقوال وتشبيهات تقربها من الذهن من المتع النادرة التي قلما ننساها

الرسائل المتعددة على سلك واحد

سألت الدكتور جويت في مقدمة الحديث عما بلغه ارسال الرسائل التلفونية المتعددة على سلك واحد ذهاباً واياباً من الارتقاء قائلاً اني كنت قرأت عن خط انشىء من سنوات بين مدينتين من مدن اميركا ينقل اربع مخاطبات تلفونية على سلك واحد في وقت واحد . فابتسم وقال : اننا قد تخطينا هذه المرتبة الآن وصار من المألوف عندنا نقل محادثات يتباين عددها بين اثنتي عشرة محادثة وست عشرة محادثة في وقت واحد بل ليس ما يمنع ان تنقل خمسمائة محادثة في وقت واحد لولا ان النفقة باهظة الآن تحول دون شيوع الطريقة الخاصة بها

فقلنا أفي وسع المحدث الكريم ان يبسط لنا بكلام قريب من الفهم السر العلمي الذي يتيح لكم مثل هذا العمل العجيب

فعمد الى التشبيه . قال افرض ان امامك طريقاً وان عند طرفي الطريق سلسلة من الأبواب . فمن باب واحد يدخل غنم لوّن صوفه باللون الأحمر ومن باب ثان يدخل غنم لون صوفه باللون الازرق ومن الثالث غنم لون بالاخضر ورابع بالاسود وهكذا . فكل باب من هذه الابواب لا يسمح إلاّ بدخول صنف من الغنم ملوّن بلون خاص. ولكن عندما يجوز الغنم الابواب ويسير في الطريق حيث لا حوائل ولا حواجز يختلط الاحمر بالازرق بالاخضر بالاسود. ثم يقبل الغنم على آخر الطريق فلا يستطيع ان يخرج كله من باب واحد

ولكنه لا بد للاحمر منه ان يخرج من الباب الخاص به وكذلك الاخضر والازرق والاسود. فأنت اذا نظرت الى الطريق نفسه ورأيت الغنم فيه رأيته مختلطاً بعضه ببعض ولكنك اذا وقفت أمام الابواب التي في منتهى الطريق رأيت كل صنف خاص خارجاً من الباب الخاص به

وكذلك في المحادثات التلفونية المتعددة السائرة على سلك واحد. فكل رسالة منها منقولة بتيار ذي موجه ذات تذبذب خاص تدخل السلك من باب اي من جهاز معين فاذا أصبحت جميعها سائرة في السلك اختلط بعضها ببعض بحيث اذا وصلت سماعة تلفونية بمنتصف السلك لم تسمع الا لغطاً مشوشاً لا معنى له ولا فائدة فيه. ولكن اذا انتهت الرسائل جميعها الى آخر رحلتها أصابت أجهزة بمنزلة الابواب كل جهاز منها لا يسمح الا لنوع واحد من الذبذبات الكهربائية بالمرور وكذلك تنفصل الرسالة الواحدة عن الرسائل الاخرى وتسير تواً الى الجهاز التلفوني الذي وجهت اليه.

وليس هذا النوع من الارسال خاصاً بالمحادثات التلفونية ومقتصراً عليها بل هو صالح للرسائل التلغرافية كذلك ولنقل الصور التلغرافي بل ليصلح السلك الواحد لنقل محادثات تلفونية ورسائل تلغرافية وصور بالتلغراف في وقت واحد مادامت جميع هذه العمليات تحول الى ضرب واحد من الطاقة هو الامواج الكهربائية المختلفة الذبذبات

نقل الصور الفوتوغرافي

ولما كنت مشتغلاً بالصحافة فقد همني بوجه خاص ان اعلم ما بلغه نقل الصور التلغرافي في اميركا من الارتقاء. وفي هذا الموضوع كان حديث الدكتور جويت حديثاً ممتعاً. ذلك ان هذا الضرب من المواصلات الكهربائية بلغ في الولايات المتحدة أعلى مراتب الارتقاء. فشركة (الاسوشييتدپرس) مثلاً تملك سلكاً خاصاً مدته لها شركة التلغراف والتلفون الاميركية وهو يمنطق الولايات المتحدة كلها على من فيها من شاسع المسافات فتستقبل الصور المرسلة اليها وترسلها الى فروعها وعملائها من الصحف في كل ساعة بل في كل دقيقة من ساعات النهار والليل ودقائقهما. وهي لا تختلف عند التقاطها عن الصور الفوتغرافية دقة ووضوحاً. ونقلها طبعاً أغلى من ارسالها بالبريد والطيارة ولكن الاجر ليس فاحشاً. ولما كانت شركة التلغراف والتلفون تتقاضى من الاسوشييتدپرس جعلاً معيناً في السنة على استعمال السلك فلم يكن في مستطاع الدكتور جويت ان يذكر لي ما يكلفه نقل البوصة المربعة من الصور العادية

ثم هنالك نظام آخر لنقل الصور يعرف بالنظام الثانوي تنقل به الصور على اسلاك التلفون والتلغراف العادية وميزة هذا النظام في أن اجرة النقل أقل ولكن الصور لا تبلغ مبلغ الصور المنقولة بالسلك الخاص من الوضوح ولكنها واضحة وضوحاً كافياً لاغراض الصحف

والخطة التي تجري عليها شركات الصور الصحافية ان ترسل صورها بالبريد الى أقرب عملائها وبالطيارة الى من كان أبعد من هؤلاء ثم بالتلغراف الى ابعدهم عن مقرها

عوائق تقدم التلفزة

وسألته عن التلفزة او الرؤية عن بعد فقال ان العائق دون انتشارها الآن عائق اقتصادي على الغالب . فان مجرد رؤية المغني او المحدث يقتضي انفاقاً اضافيًّا على البرنامج لاعداد المشاهد والملابس وهو ما لا تقتضيه الاذاعة اللاسلكية . وهذا يجعل نفقة تحضير البرامج كبيرة. اما المشاهد العامة كحفلة ملاكمة او مصارعة او سباق او تنصيب الرئيس او ما كان من قبيلها فتستعمل في نقلها طريقتان: الاولى . نقل التلفاز المرسل الى مكان الحادث واذاعة مشاهده وهي حادثة فيراها اصحاب التلافيز اللاقطة عند حدوثها تماماً وإما ان يؤخذ لها فلم سينمائي ثم بعد انقضاء الحادث بقليل يذاع هذا الفلم من التلفاز المرسل فيراه اصحاب التلافيز اللاقطة وهذا ليس بالتلفزة الصحيحة لانه لا يذيع المشاهد عند حدوثها تماماً ولذلك يمكن وصفه بالتلفزة الثانوية

ومن النواحي العلمية الخاصة بالتلفزة ان اللوح المستقبل كان في عهد التلفزة الاول يشتمل على مصابيح متعددة كل مصباح يقابل كل بقعة صغيرة من النور تقع على الجسم المتلفز (بفتح الفاء) فعندما تقع شعاعة النور على جزء صغير من الخد مثلاً ينار في لوح الجهاز اللاقط مصباح يقابلها وهكذا الى ان تتم الصورة بسرعة يجب ان تكون عظيمة

وقد قال لي الدكتور جويت انهم جربوا في عهد التلفزة الاولى نقل المشاهد المتلفزة بين وشنطن ونيوجورك من نحو ١٢ سنة فكان في لوح الجهاز اللاقط ستة آلاف واربعمائة مصباح ولكنهم الآن استبدلوا باللوح المؤلف من مصابيح متعددة بلوح متألق فما تقع على بقعة منه شعاعة الضوء او شعاعة من الكهيربات حتى يتألق مكانها فاذا اجتمعت الوف من هذه البقع المتألقة بسرعة عظيمة نشأت على اللوح صورة هي طبق الاصل للاصل المتلفز

الخدمة العامة السريعة

وللدلالة على مبلغ ما ادركته شركة التلغراف والتلفون العامة باميركا من الشأو البعيد فى تحقيق غرضها وهو الخدمة العامة للمشتركين وجمهور المتكلمين دون ان يحدث اي تأخير فى محادثاتهم ولو كانت بعيدة المدى، انه استطاع ان يطلب رقم ولديه التلفوني — وهما فى كاليفورنيا — قبل سفره من نيويورك فتم الاتصال التلفوني بينهما فى ثلاثين ثانية مع ان المسافة تزيد على ثلاثة آلاف ميل. وروى لي قصة اخرى عن جار له ذهبت زوجه فى مهمة الى بلدة صغيرة فى احدى الولايات المتوسطة الشمالية ولم يأته نبأ وصولها. والبلدة لا يتجاوز عدد سكانها المائتين . فسأل الدكتور جويت ما يمكن ان يفعل فقال نحاول الاتصال بها بالتلفون ولم تنقض دقيقة حتى كان الزوج يحدث زوجته مع انها كانت مقيمة عند احد اهلها فى بيت منعزل يبعد عشرة اميال عن تلك البلدة الصغيرة

هذا التقدم العلمي الراجع الى البحث العلمي الدقيق وهذا التنظيم الكامل وهذه الخدمة العامة السريعة جعلت للمواصلات التليفونية في اميركا اكبر شأن فى حياتها الخاصة والعامة وقد كان للدكتور جويت ولاعوانه ولقسم المباحث الذي نظمه اكبر الاثر في كل ذلك . فالساعة التي قضيناها نصغي اليه كانت من ساعات العمر



تاريخ اليهود ليوسف بن كريون

Geschichte der Juden des Josef Ben Gorion

أخرجه ووقف على ضبطه وشرحه وطبعه ، من مخطوطات برلين ولندن واكسفورد وباريس واستراسبورج الدكتور مراد كامل مبعوث الجامعة المصرية في المانيا

(المقدمة بالالمانية في ٤٨ صحيفة ، والمتن والفهارس في ٣٣٤ صحيفة باللغة الحبشية ، ومن قطع المقتطف . وعدد اللوحات المصورة ١٢ . الناشر **J. J. Augustin** بنيويورك)

عمل جليل لم يكن يقدم على مثله حتى السنين الاخيرة الا شيوخ المستشرقين ، ولكنه اليوم ثمرة جهود زميل مصري نابه هو الدكتور مراد كامل، الذي أوفدته الجامعة الى أوربا منذ زهاء ست سنوات ليتخصص في دراسة اللغات السامية على أساتذتها في المانيا ، ويعرف القراء انهم أعلى المستشرقين كعباً وأغزرهم علماً في هذا الميدان

درس الدكتور مراد في جامعة توبنجن Tübingen على الاستاذ الدكتور ليتمان Littmann مدير القسم الشرقي فيها وعضو مجمع اللغة العربية الملكي كما درس في جامعة برلين على الاستاذ Mittwoch ، وفي غيرها من جامعات المانيا، واتصل بجل الاساتذة المشتغلين باللغات السامية ، ثم اختار موضوعاً لرسالته في الدكتوراه نشر الترجمة الحبشية لكتاب يوسفوس في تاريخ اليهود

ويعرف كثير من القراء ان يوسفوس هذا — او يوسف بن كريون — مؤرخ يهودي مشهور ، وُلد في بيت المقدس سنة ٣٧ او ٣٨ ميلادية . وكانت أسرته من كبار الكهنة فعنيت بتعليمه ، وكان ذكيًّا سريع الدرس والتحصيل حتى قيل انه كان حجة في علوم الدين اليهودي منذ كان في الرابعة عشرة من عمره وقد اتبع يوسفوس في التاسعة عشرة من عمره مذهب الفريسيين (وهم شيعة يهودية نشأت في القرن الثاني قبل الميلاد وامتاز اتباعها بشدة تمسكهم بقواعد الدين وبالتقاليد القديمة والمظاهر الخارجية للعبادة والتقوى) وسافر الى روما حين كان في السادسة والعشرين من عمره ليسعى في الافراج عن بعض القسوس الذين قبض عليهم والي الشام وأرسلهم الى روما لمحاكمتهم في تهم ليست خطيرة الشأن ، ولقي يوسفوس حظوة لدى صديقة للامبراطور نيرون فشفعت له عند العاهل الجبار حتى أطلق سراح الكهنة ، وأغدقت الهدايا على يوسفوس ، ثم عاد الى الشام فوجد ان اليهود قد عقدوا العزم على التخلص من حكم روما ، ولم يقبل في البداية ان يشجع هذه الحركة لعلمه بسلطان روما وصعوبة التغلب عليها ، ولكن لم يلبث ان جرفه التيار فانضم الى الثوار . وولاه

مجمع اليهود في بيت المقدس على مقاطعة الجليل ، وحارب الروم فحاصروه في مدينة يوتاباط، ولما سقطت المدينة في أيديهم ووقف يوسفوس أسيراً بين يدي فسبانوس قائد الروم ، قال انه رسول أوقعته العناية الربانية أسيراً ليتنبأ للقائد بأنه سيرتقي عرش روما بعد نيرون ، وأبقاه القائد حتى تحققت نبوءته فأكرمه واستصحبه الى روما حيث عاش وعكف على التأليف حتى توفي في أول القرن الثاني الميلادي

وكتاب تاريخ اليهود الذي نحن بصدده الآن ، مكتوب بالعبرية وله ترجمة عربية (تاريخ يوسفوس اليهودي — المكتبة العمومية لسليم ابراهيم صادر ببيروت) كما ان له ترجمة حبشية. على ان النسختين العبرية والعربية ليستا متفقتين تمام الاتفاق ، وأكبر الظن ان النسخة الحبشية مترجمة عن النسخة العربية لأنها تكاد ان تكون ترجمة حرفية لها

وكانت حاجة الدوائر العلمية المشتغلة باللغات السامية ماسة الى نشر النص الحبشي ، فقد كان المطبوع منه لا يتجاوز صفحات معدودة ، على الرغم من ان له شأناً تاريخيًا خطيراً

أما الدكتور مراد فقد نشر اليوم هذا الكتاب نشراً علميًا صحيحاً ، فراجع نسخه المختلفة ، وقارن بعضها ببعض ، وأثبت نتائج مراجعته في هامش الكتاب بعد ان رمز لكل نسخة بحرف من حروف الابجدية ، بله انه كتب له مقدمة ثمينة بالالمانية ، أثبت فيها النتائج التي وصل اليها من مقارنة النسخة الحبشية من كتاب يوسفوس بالنسختين العبرية والعربية . وقد قال صديقنا الدكتور في مقدمته هذه ان مخطوطات هذا الكتاب في الحبشية ترجع الى القرن السادس عشر الميلادي وأكبر الظن انها نقلت عن العربية في نهاية القرن الثالث عشر او بداية القرن الرابع عشر الميلادي ، فالمعروف ان العصر الذهبي لترجمة المؤلفات العربية الى الحبشية كان بين سنتي ١٢٧٠ و ١٤٣٠ تقريباً

وألحق الدكتور مراد بالكتاب فهارس للأعلام وفهارس للأماكن وبياناً برؤوس الموضوعات . وقصارى القول ان نشر هذا الكتاب على النحو العلمي الصحيح دليل قوي على ان كلية الآداب تؤدي رسالتها العلمية على أطيب وجه . ففي آخر السنة الماضية أصدرت لجنة التأليف والترجمة والنشر كتاب أخبار أبي تمام الذي نشره وحققه وعلق عليه الزميلان خليل عساكر ومحمد عبده عزام من خريجي كلية الآداب ومعهما الاستاذ الهندي نظير الاسلام وقد كتب الاستاذ الجليل أحمد أمين « ان هذا الكتاب خير الامثلة لما ينبغي ان يكون عليه النشر » واليوم يظهر في عالم المستشرقين كتاب تاريخ اليهود بالحبشية على يد زميلنا مراد كامل، وقد سمعت عن عمله في نشر هذا الكتاب ثناءً ليس بعده ثناء ولاسيما من أستاذنا ليتمان

وان كان ثمة ما نأخذه على صديقنا الدكتور مراد فهو انه لم يعن في مقدمته حق العناية بتعريف المؤلف وبيان ما لكتابه من خطير الشأن

دار الآثار العربية — زكي محمد حسن

اعتقادات فرق المسلمين والمشركين

للامام فخر الدين الرازي — بمراجعة وتحرير علي سامي النشار — ومعه بحث في الصوفية والفرق الاسلامية لفضيلة الاستاذ الشيخ مصطفى بك عبد الرازق — ١٠١ص . ٢٤×١٦

إن ميزة رسالة الرازي أن صاحبها — على قول فضيلة الاستاذ مصطفى بك عبد الرازق — عُني بتمييز مذهب الصوفية باعتباره مذهب فرقة مستقلة وبتبيين فرقهم الفرعية بعد ذلك فسدّ نقصاً وتدارك ما فات من ألّف قبله في الفرق الاسلامية. قد ورد هذا القول في سياق البحث الذي عمله الاستاذ مصطفى بك عبد الرازق (ص ٦ — ١٦) وهو بحث دقيق يشف عن دراية واسعة بما يتصل بالصوفية وعن اطلاع شامل على ما قيل فيها من حيث انها فرقة من فرق الاسلام. وكان فضيلة الشيخ عبد الرازق قد القى هذا البحث محاضرة في مؤتمر تاريخ الاديان المنعقد بليدن سنة ١٣٥١ هـ (١٩٣٢ م))، فجاء دلالةً حافلةً على براعة أستاذ من اساتذة الجامعة المصرية في معالجة المسائل الاسلامية اللاحقة بالشؤون الدينية

والاستاذ مصطفى عبد الرازق ممن يعمل للعلم الخالص في جد وأمانة . ومن حسنات هذا العالم أنهُ أول من نظر في رسالة الرازي مخطوطة فوصف مضمونها واستخلص ما فيها ، ثم جاء تلميذ من تلاميذه من بعده ينشرها اتماماً للفائدة وتعميماً لها . وقد اعتمد الناشر وهو الاستاذ علي سامي النشار على مخطوطتين احداهما مخزونة في الخزانة التيمورية في القاهرة والاخرى في خزانة مدينة ليدن في هولندة . وهو يصفها لنا في مقدمة موجزة (ص ١ — ٥) ثم يبسط لنا المنحى الذي انتحاه في التدقيق فالنشر . ثم رأى بعد هذا أن يدوّن ترجمة فخر الدين الرازي ويثبت تصانيفه (ص ٢٦ — ٣٤) مستنداً الى أوثق المصادر المعروفة

أما الرسالة نفسها فجليلة على قلة صفحاتها وايجاز عباراتها وقد نشرها الناشر على أحسن وجه ، لولا سقطات أستأذنهُ في التنبيه على بعضها :

ص ٦٠ ، س ٩ : ودعى الخلق الى نفسه — والوجه : ودعا (عارض ص ٦٣ ، س ٦)

ص ٦٢ ، س ١٣ : فلما علم المختار إنه — والوجه : أنه

ص ٦٧ ، س ٦ : وهو فرق كثيرة — والوجه : وهم (عارض ص ٧٢ ، س ٦)

ص ٧٤ ، س ٥ : وهو الأشر من الطوائف — والوجه : وهؤلاء شر الطوائف (انظر روايات الحاشية)

ص ٧٧ ، س ١٠ : وأول تملك منهم بمصر — والوجـه : وأول من .. (انظر رواية الحاشية)

ص ٨٣ ، س ١١ : وما عداهم من اليهود يؤمنون بالتورية وغيرها من كتب الله — والوجه : بالتوراة (انظر رواية الحاشية) .

ص ٩٢ ، س ١١ : ولم تزل تلامذتي ولا تلامذة والدي — والوجه : تلامذتي وتلامذة (انظر رواية الحاشية)

ص ٩٣ ، س ٦ : لما كان كليم الله . . أن مع حججه الباهرة يقول . . — والوجه : حذف « ان » (كما في رواية الحاشية)

ثم ان الناشر عمل للاعلام فهرستاً (ص ٩٥ — ١٠١) ، فأخرج بكل ما بذل كتاباً يدخل في جانب المؤلفات العلمية ب. ف.

المجموعة السنوية لمراجع علم الآثار والفن الاسلامي

Annual Bibliography of Islamic Art and Archeology

الجزء الاول ٦٤ صفحة لعام ١٩٣٥ . بيت المقدس

نشرها الاستاذ ل . ا . ماير وقام على تحريرها الاساتذة جعفر عبد القادر ومحمد أغا أوغلو والدكتور زكي محمد حسن وفيرا كراتشكوفسكايا والدكتور كارل لام وعبد الرزاق لطفي وفان دي بوت وفوجل وواكر وغيرهم

اهم ما يحتاج اليه الباحث والمؤلف ومحب الاطلاع ان يجد بسهولة وبدون عناء المصادر الفنية التي يستقي منها مادة كتابته . ولاسيما بعد ان تنوعت مواد المعرفة ونمت الدراسات العلماء والفنية والادبية نمواً كبيراً كما نضجت وسائل البحث والاطلاع . وأية ذاكرة مهما تكن قوية لا تتسع لاستيعاب كل ما كتب في موضوع خاص ؟

لذلك اتجه فريق من الباحثين الذين وهبوا فضيلة الصبر وسعة الاطلاع الى جمع المراجع وتنظيمها بحسب اقسامها للاعتماد عليها والرجوع اليها

ولقد اخذ الاستاذ المستشرق ماير (L. A. Mayer) على عاتقه اخراج مجموعة سنوية لمصادر علم الآثار والفن الاسلامي ظهر منها الجزء الاول لتسجيل كل ما يكتبه العلماء والهواة والباحثون من كتب ومقالات ومحاضرات . . الخ في العمارة الاسلامية وتخطيط البلدان والمجموعات الفنية والمخطوطات والعملة والملابس والاسلحة والرنوك والتأثيرات الاسلامية والاثنوجرافي والحفريات ... الخ مما ينشر في المطبوعات العالمية التي تبحث في تلك الموضوعات

وقد عاونه في اخراج هذا السفر الفريد نخبة من علماء الآثار والفنون الاسلامية اشرنا اليهم في صدر هذا الكلام من مصر وايران والعراق وفلسطين وسوريا وأسبانيا وتركيا وهولنده والسويد وألمانيا وانجلترا ... الخ

والآن فانك ترى قيمة هذا المجهود العلمي النادر الذي بذله الاستاذ ماير والزملاء الافاضل ... فانهم بهذا العمل المجيد قد عاونوا كل مؤلف واثري ومحب للفنون على تسهيل مهمته عند الكتابة والبحث . فنشكر للاستاذ ماير وزملائه هذه التحفة النفيسة ونأمل ان نرى المجموعة السنوية الثانية لعام ١٩٣٦ قريباً جداً عبد الرحمن زكي

سارة

تأليف عباس محمود العقاد — صفحاته ١٩٢ قطع وسط — ثمنه ١٠ قروش

للاستاذ عباس محمود العقاد مكانة ممتازة في أدب اللغة العربية في العصر الحديث بلغها بما اجتمع لهُ من طبع متوقد و نفس مرهفة وعقل يميل الى النقد والتحليل فيتخذهما مطية الى الحكمة وهي ضالة الاديب . وهذا كلهُ من السجايا الفكرية والنفسية التي قلما تجتمع في انسان ، فاذا اجتمعت وأسعفها قلم بليغ ، كان لصاحبها المكانة العالية المرموقة

ففي شعر الاستاذ العقاد ومضات من شعور نفسهِ المرهفة ، وقلبه الخفاق ، وتأمله الحكيم، وفي « فصولهِ » و « ساعاتهِ » و « مطالعاتهِ » آثار ذلك العقل الذي وعى من طرائف الآداب الشرقية والغربية ، وطبائع الشعوب ، واتجاهات النفوس ، ونتائج المباحث العالية في العلم والتاريخ والاجتماع ، ما يوحي اليك وأنت تطالعها ان مواكب الفكر العالمي سائرة أمامك وهي مرفوعة الاعلام زاهية البنود . ثم انقلبْ الى « ابن الرومي » و « سعد زغلول » تجد المترجمَ المحقق لشخصية أديب شاعر ، وشخصية زعيم مصلح ، فاذا توغلت في مطالعة فصولها ، رأيت قلم العقاد فيها قلماً منقاداً لعقل متمكن ، كل خطوة يخطوها في التحليل والتعبير ، خطوة راسخة، صاحبها على ثقة من الطريق الذي يسير فيهِ ، والحجة التي يقصد اليها

الاَّ ان الاستاذ العقاد في كتابهِ « عالم السدود والقيود » ثم في « سارة » — وبخاصة في سارة — هو الكاتب الذي اجتمعت لهُ فنون الشعر والادب والعلم في لطاق كتاب واحد ، ثم أضفى عليها غلالةً من «اختبار الحياة» فتجلت في «سارة» تلك الموهبة الموحَّدة موهبة الاديب الممتاز التي تنطوي فيها وتندمج، جميع مواهب الشعور والفكر والتأمل التي تقدمت الاشارة اليها

قد يختلف بعض الذين قرأوا « سارة » في هل هي قصة بالمعنى المتواضع عليهِ ، من حيث حوادثها واشخاصها ، والمؤلف لم يقل انها قصة او رواية ولو قال لما ضارهُ ذلك . فاذا كانت حوادثها قليلة فان فيها من الحوادث ما يكفيهِ وسيلة لما يريد من الوصف والتحليل والتغلغل في النفوس والغرائز . واشخاصها الاربعة ولاسيما سارة وهمام وامين ، أشخاص احياءُ ولو كانوا من بعث الخيال ، رسم الاستاذ العقاد صورهم رسماً دقيقاً لانهُ تغلغل في نفسياتهم فانكشفت له حقيقتها

ولكن الذين قد يختلفون على ما تقدم لا يسعهم ان يختلفوا في ثلاث مزايا تمتاز بها «سارة». اولاً — توقد الشعور فيها من اولى صفحاتها الى أخراها . وهذا الشعور المتوقد هو الرابط القوي بين اجزائها جميعاً سواءٌ اعمد الكاتب الى وصف المقابلة بين سارة وهمام ام عمد الى وصف الفراغ الذي يحسهُ همام في حياتهِ عندما لا يقابلها . وثانياً — التحليل النفسي الدقيق البليغ لحالة الحبيب والحبيبة في ساعة الرضى وساعة الغضب ، او في فترة الهزل وفترة الجدّ ، او عندما يعمر قلبهُ

اليقينُ يحجبها لهُ وعند ما تساورهُ الريَب في انحرافها . وثالثاً ذلك التعليق الفلسفي الحكيم على جميع هذه الحالات ، وهو تعليق مردُّهُ الى العقل ولكنهُ مصحَّح ومقيَّد بنتيجة الاختبار . ومن المتعذّر ان نسوق للقارىء فقرات مختارة لنمثّل بها على ما تقدَّم ، فصفحات الكتاب مترابطة وليس بالسهل ان يفك ترابطها وتفصم وحدتها ، ولكننا نقول اننا قرأنا الكتاب مرتين فلم تكن القراءة الاولى بمغنية عن الثانية متعة وفائدة . وأملنا من قارىء هذه الكلمات ان يقرأهُ

الرد على مستشرق

قد كان المستشرق الفرنسي لويس جوفليه الف كتاباً في سير الحوادث الجارية منذ ١٩٣٠ الى ١٩٣٣ في البلاد العربية . وعنوان الكتاب

Louis Jovelet. L'Evolution Politique et Sociale des Pays Arabes
Edition Geuthner, Paris

وقد نشرت المجلة الالمانية Die Welt des Islams (العالم الاسلامي) في عددها الاخير نقداً باللغة الفرنسية لهذا الكتاب بقلم الدكتور بشر فارس . والذي حمل الدكتور فارس على نقد كتاب ذلك المستشرق انهُ اصاب فيهِ ما لا يجاري الحقيقة . ومن ما آخذه عليهِ قول المؤلف إن مطالبة مصر بالغاء الامتيازات الاجنبية مظهر من مظاهر بغض الاجانب Xenophobia ، فردَّ الناقد ان هذه المطالبة انما هي ترجع الى حقوق المساواة والكرامة القومية. ومن ما آخذه ايضاً قول المؤلف إن التفكير العربي الحديث حقير الشأن وهنا انبرى الدكتور بشر فارس يبسط فضائل ادبنا الحديث ، فذكر اسماء الكتاب والشعراء المبرزين امثال خليل مطران والزهاوي وامثال طه حسين والريحاني وجبران وميخائيل نعيمة والاب انستاس الكرملي والعقاد وهيكل والمازني مشيراً الى خصائص كل واحد منهم . وقد ذهب الناقد الى ابعد من ذلك اذ نبه على السقطات التاريخية اللغوية التي تجول في كتاب المستشرق . والذي يقرأ هذا النقد يأخذه اسلوبه الانشائي المتدفق المدعم بالطريقة العلمية

محاضرات دينية

الارشمندريت بولس الخوري — صفحاتها ٣٢ من قطع المقتطف — مطبعة كوى بمصر

اصدر سيادة الارشمندريت بولس الخوري رئيس كنيسة رؤساء الملائكة للروم الارثوذكس بمصر كراسة تتضمن ست محاضرات دينية كان قد القاها في الكنيسة على الشعب في موضوعات مختلفة من دينية واجتماعية وأدبية نهج فيها منهجاً حديثاً في تفهيم حقائق الديانة من الوجهة العلمية وبث روح الفضيلة والاخلاق العالية في الجمهور

المسألة الجنسية

تأليف الدكتور اوجست فوريل — دكتور في الطب والفلسفة والقانون — استاذ الامراض العقلية ومدير مستشفى المجاذيب بزوريخ «سويسرا» سابقاً — نقله الى العربية عن الترجمة الانكليزية للطبعة الالمانية الدكتور صبري جرجس — وهو في مجلدين ٢٧٩ ص. و ٢٥٠ على التوالي

تعد المسألة الجنسية من أعقد المشاكل التي تواجه الحضارة الحالية وأكثرها تشعباً وأعسرها حلاً لانها تتصل بالحياة الانسانية في صميمها. وقد حاول المؤلف ان يعرض لها من جميع نواحيها ووفق في ذلك توفيقاً بديعاً وكان في أسلوبه واضحاً وصريحاً وجريئاً. وتلك ميزات أكسبت كتابه تلك الاهمية التي يحظى بها في جميع أنحاء العالم المتمدن

ولست أريد ان أدلل هنا على أهمية المسألة الجنسية في الحياة الانسانية ولا على ضرورة بحثها بحثاً جديًّا على ضوء العلم الحديث فتلك أمور أصبحت من البديهيات التي لا تحتاج الى الذكر والتنويه. ولكني أقصد بنقل هذا الكتاب الى العربية أن أعرض امام القارىء ثمرة تجارب رجل يعد من الثقات في علم التناسليات. ولست أطلب من القارىء ان يوافق على كل النظريات والآراء التي يعرضها المؤلف في كتابهِ ولا ان يأخذها كقضية مسلم بصحتها ولكنني أريده ان يجعلها موضعاً لتفكيره ونقده

ولعل الميزة الظاهرة لهذا الكتاب هي أنهُ يعالج الموضوع من مختلف نواحيه ولا يقتصر على بحثه من ناحية واحدة. وهو لهذا السبب يفيد القارىء الذي يريد أن يلم بالمسألة الجنسية من جميع وجوهها. هذا فضلاً عن انهُ يبحث هذا الموضوع الدقيق في صراحة لا تخدش الحياء وبأسلوب علمي سهل واضح

واذا كان المؤلف قد أراد بهذا الكتاب ان يدرس الطبيعة ويبحث نفسية الانسان في حالتي الصحة والمرض فان المترجم قد اراد فضلاً عن ذلك ان يؤدي واجباً يشعر بضرورة القيام بهِ نحو الثقافة الجنسية في مصر. فان اللغة العربية ظلت الى عهد قريب محرومة من كل ما يتناول المسألة الجنسية بذكر قريب او بعيد وبقي الشباب من الجنسين جاهلاً للثقافة الجنسية الصحيحة مع تقدمهِ في مختلف نواحي التفكير الاخرى

والمترجم اذ يقدم هذا الكتاب الى الشباب ليدرك تمام الادراك أنهُ يعرض في الفصول الاخيرة منهُ بعض الآراء التي تخالف التقاليد السائدة ولكنهُ يرجو ان تكون هذه الآراء موضع العناية والتمحيص من القارىء فلا يتعصب لها أو عليها دون تفكير أو بحث

وفي ختام هذه الكلمة يجب ان أعترف بالخدمة الجليلة التي أسداها الدكتور محمد بك شرف الى اللغة العربية فقد كان « قاموس المصطلحات العلمية » عوناً دائماً لي في اختيار اللفظ المناسب لكثير من المصطلحات الغريبة اه من مقدمة المترجم

عقيدة الالوهة

رسالة محمد — المال في الاسلام — بقلم الدكتور أبو شادي

لا يذكر الدكتور أبو شادي الاَّ ويذكر بجانبهِ النشاط العقلي والعملي اللذان يتصف بهما واللذان لا يقفان بهِ عند حدٍّ واحد او اتجاه بذاتهِ . وها هي رسائله الثلاث الاخيرة تشهد له بسعة اطلاع في نواحي دينهِ ، ولكن بعقل العالم وبصيرة الباحث الذي يريد ان يتقصى الحقيقة من وراء البحث والاستقراء . فقد لاحظ ان كثيراً من الاطباء تتزعزع عقائدهم لعجزهم عن التوفيق بين الدين والعلم وذلك راجع لضعف ايمانهم الفطري وسطحية نظراتهم ولأن ازدياد تقدم العلوم اصبح معه التدليل الموروث على وجود الله لا يقنع عقل الباحث المفكر في حين أن الاسلام لم يفقد الادلة العظيمة الحجة التي لا تخالف العلم السليم ولا الاحساس النفسي التقي لانها تقوم على ركنين أولهما الاحساس الصوفي الفطري : إحساس الجزء بالكل . وثانيهما وحدة الوجود. وقد دلل الدكتور ابو شادي على ذلك في رسالة عقيدة الالوهة تدليلاً علميًّا

أما « رسالة محمد » فهي رسالة تمجيدية لنبي الاسلام الكريم أظهر فيها الكاتب ديمقراطية الاسلام وضمان حرية الفكر والتسامح وما كفله النبي الكريم للمرأة من حقوق رفعت من شأنها ونهضت بالعرب من جرائها والحضّ على العلم والمعرفة والعمل وحسن التصرف في نظام الحياة وانتهى من كل ذلك الى أن « رسالة محمد (صلعم) هي رسالة انسانية تقوم على الديمقراطية والبر والتقوى والاخاء الشامل ، ولها في مثاليتها الرفيعة جناحان أحدهما وجداني والآخر عملي يأخذ بقوانين الحياة ، وقوتها متصلة بالتعمير والاصلاح وترقية الانسانية وتآخيها . فكل ما يماشي هذه الغايات فهو منها ، وكل ما يناقضها فهو غريب عنها ، ولذلك قيل في صدق تام إن العلم روح الاسلام »

أما الرسالة الاخيرة « المال في الاسلام » فهي من الرسائل النفيسة التي لا يمكن ان تتناولها سطور قلائل فقد عالج فيها اقتصادية الاسلام واحكامه وبيّن فضل هذا الدين في الايحاء الاقتصادي لاوربا بهذا التنظيم الجديد مما حمل برناردشو على الاشادة بصلاحية تعاليم الاسلام لاوربا الحديثة

وبالاطلاع على هذه الرسائل تتضح للقارىء جهود المؤلف في إعزاز دينهِ القويم ومحاولة التقريب بين احكام العلم واحكام الدين مما يثبت العقائد على اساس صحيح في زمن يحتاج فيهِ الدين والعلم الى كل هذا التقريب والى جميع هذه الجهود

حسن كامل الصيرفي

الهام

قصة مصرية تحليلية في ١٩٢ صفحة من القطع الكبير بقلم نقولا يوسف

لم يقصد المؤلف بوضع هذه القصة الى الدعوة لاصلاح اجتماعي معين أو علاج ناحية من النقائص المألوفة بقدر ما عني بالناحية الفنية التي يقصد بها التحليل والتصوير. ولذا فهو لم يتبع طريقة السرد الروائي الذي نعهده في القصص الشعبية المطولة التي يسهب مؤلفوها في اختراع الحوادث والمفاجآت المثيرة بل كان مؤلف هذه القصة شديد الاهتمام بالتحليل السيكولوجي وتصوير الشخصيات فهو في سياق الرواية يصور لنا عدداً من الشخصيات المتباينة الطباع والخلق من نساء ورجال ويعمل على تطبيق فروع علم النفس في استجلاء الخفايا النفسانية فيتغلغل الى مجاهل النفس البشرية ويصور مكنوناتها والى القلوب الحساسة فيرسم خلجاتها. وهو في هذه الناحية يدرس الخواطر التي تنساب في الرأس بلا ترتيب في بعض الظروف

وفي القصة عدد من الشخصيات المختلفة الا ان أبطالها من الشباب الذين يتميزون بشعور قوي وقلوب ملتهبة تتبدل عليها شتى الازمات النفسانية فتزيدهم تجارب في الحياة وقوة في الشخصية — كما ان بها عدداً من المناظر المصرية طبيعية واجتماعية صورها المؤلف بأسلوب سلس واضح فلا يمل المرء تتبعها والاستمتاع بها فهذه صورة شم النسيم، وصورة الريف المصري في مختلف أشكاله وروائعه، وصورة كاتب مصري يكافح في الحياة بقلمه ويلاقي العقبات فيتخطاها تارةً ويتورط بها تارةً أخرى، والراقصة « الهام » التي تقف حيرى بين الفن الذي وقفت عليه حياتها وبين الزواج والبيت الهادئ. والحسناء ايزيس التي تعيش في جنات الفيوم تقطع أوقاتها في الموسيقى والمطالعة وهناك صور الفقر والتشرد والبيئة التي تدفع المجرم الى اقتراف الآثام. ولا تخلو القصة من مواقف ينتصر فيها العقل على العاطفة الجامحة ومواقف ينتصر فيها الخير على الشر. والنفس البشرية التي لا تخلو مطلقاً من فضيلة مستترة أو جملة فضائل تختفي في مجاهل النفس ثم تظهر كبصيص من نور وسط ظلام. وتطلب هذه التحفة القصصية من جميع مكاتب القاهرة وثمنها ٥ قروش

البوق

بين ايدينا العدد الاول من مجلة البوق لسنتها الثالثة وهي صحيفة مدرسة فؤاد الاول الثانوية يحررها طلبة المدرسة بما تجود به أقلامهم باحاديثهم الظريفة وحوادثهم الطريفة وقد استهلوه بحديث ممتع لحضرة صاحب العزة ناظر المدرسة ضمنه نصائح ثمينة منها قوله « النظام والطاعة والصدق » فاتبعوا النظام في اعمالكم والطاعة لاساتذتكم والصدق في قولكم وستجدون مني اباً يسهر على راحتكم وامنكم ويدأب بلا كلل على ما فيه رفعة شأنكم وجميل ذكركم وخير وطنكم. والصحيفة مطبوعة على ورق مصقول طبعاً متقناً فنهنئ طلبة مدرسة فؤاد الاول الثانوية بصحيفتهم الادبية ونتمنى لهم اطراد التقدم والنجاح

فهرس الجزء الثالث

من المجلد الثاني والتسعين

بشر فارس

مفرق الطريق



مقتطف مارس ١٩٣٨

قد خط العناوين والتزاويق الرسام حسن مكاوي
نقلا عن تصميم وضعه المؤلف
وأعان المؤلف على اخراج الكتاب في
شكله الفني الاستاذ محمد زكي خليل


مسرحية في فصل واحد

النشأة المسرح المصري

ب. ف

توطئة

إنّ وِجهة هذه المسرحيّة مما انساق له قلمي ورفّت إليه نفسي بعد التحصيل والرويّة والاجتهاد . فرأيتُ أن أصنع للمسرحيّة مقدّمة أبسط فيها الأسلوب الذي أجريتُها عليه ، فضلاً عن قصائدَ نظمتُها قد وقف على مقاصدها من يدأب في قراءة «المقتطف» ، لكي تكون بياناً لبعض ما نشرته حتى اليوم ثم بعضِ ما أنا ناشر بعده إن شاءَ ربُّك .



هذه قصة تمثيلية على الطريقة الرمزيّة — إذا شئت . وليست الرمزية ههنا بِرَوفةٍ على الرمز بشيء إلى شيء آخر . ولكنّها — فوق هذا — استنباطُ ما وراءَ الحس من المحسوس وإبرازُ المضمر وتدوينُ اللوامع والبواده ، بإهمال العالمَ المتناسِق المتواضَع عليه المختلَق اختلاقا بِكَدّ أذهاننا ، طلبا للعالمَ الحقيقيّ الذي نضطرب فيه رضينا أو لم نَرضَ : تدهشنا ظواهره وتَروعنا بواطنه وتعجزنا مبادئه — عالمَ الوجدان المشرق والنشاط

الكامن والجماد المتأهّب للتحرُّك إلى ما يجري بينها من العلاقات الغريبة والإضافات التائهة في منعطفات الروح ومثاني المادّة ، يشترك في كشفها الإحساسُ الدفين والإدراكُ الصِرف والتخيُّلُ المنسرح :

كلُّنا يطوى في المكان القصيّ من سريرته شيئاً لا بدّ له من أن يُقال — شيئاً أجنبيًّا عمّا يتّصل بالمألوف أو المنتظم أو الاجتماعيّ. صاحبُه يكتُمه حتى من نفسه وربما جهله، على أنه يتكلم ويتحرّك وهذا الشيءُ شاغلهُ بحيث تُمسي طائفة مُعَيَّنة من أقواله وأفعاله مجموعة رموزٍ ، لا رموزُ آراءٍ تنكشف مصادرها وتطّرد مجاريها ولكنْ رموز نزعات مُبهمة وممكنات ضائعة وممتنعات متمَثِّلَةَ ومغالبات إنما تُرتقب مواصفُها في الساعة التي يهمّ فيها الظلام أن ينفرش فيتصوّر المرتقبُ هزيزَ الريح وصفق الموج — ثم إنّ مثل هذا الشيء لا يقصَّل ولا يعلَّل ولكنَّه يعرض خطفًا . فكانّ المنشىء يتوجسُ كيف تجاوب نفسُه جرْسَ الأشياء الخارجيّة من دون أن يتحمل ترتيبَها ولا تأويلها ، فيَعدل عن البسط والتبيين إلى إثبات البرق الذي التوى في السحاب فغزا الظُلمةَ لحظةً ، كأنّما البرق آية وَحْيٍ.

وبَعيدٌ أن يكون الرمز لوناً من التشبيه أو الكناية إلى غير ذلك من ضروب المجاز ، للذهن في وضعها ثم قَبولها الحظُّ الأعلى . بل هو صورة أو قلْ سِرب صوَرٍ جزئيةٍ ينتزعها المنشىء من المبذول كما تُنتزَع الأشكالُ من هيئات الموجودات على مِرْقَم رسّامٍ موفور الحواسّ ، مشغول المخيلة ،مُحدَّث القلب ، يَعُدُّ الملموسَ منبَثَقَ الانطلاق إلى عالمٍ أمْثَلَ، إلى عالمٍ روحانيّ يوفّق بين الواقع والموهوم . فيجعل ذاتَه الفنّانةَ تعكس على اللوح الموضوعَ المرئيَّ بفضل عينين درِّبتا على لمح مشاهداته الباطنة . فيمزِجُ الرسمُ لوائحَ الرسّام بالخارجيّات ، فتنسجم سرًّا : كأنّ الخطوطَ الأفقيّةَ انبساط نفسه، والخطوطَ العَموديّةَ انبعاثها ، والدوائر انطواؤها ، والمنحنيات انقباضها، وكأنّ الضياء

من صَحوها ، والظلالَ بعض مشكلاتها ، وكأنَّ اوجوهَ الوضّاحةَ أشواقُها، والمناظرَ المَغبرَّةَ من غمومها: الوجدانيُّ يَحِلُّ في المادّيّ ، حتى إنَّ الاشكال ربّما تبدو ناقصةً أو مختلَّةً أو مائلةً تتردَّد عند حدود المعقول لمن لم يكن موطّأ الفهم لها مرهَف البصيرة .

وذلك بأنَّ هذا الرسّام لا يكاد يَحفِل بالمنطِق ، لأنَّ المنطق اصطلاحٌ آلتُه العقل، والعقل إنما يجرِّد الأشياءَ أو يشذّبها ثم يغفل بعضها أو يجهل بعضها. فالتوضيح الذي ينتهي إليه أقرب إلى الاختراع منه إلى التحقيق . والعرفان الجيدُ شعورٌ بالحقيقة لا العلم بها . وبين العقل والشعور مابين الهَضْبة الصخرِة والروض الرفّاف .

وإنْ قيل إنّ المنطق هو القانون بل المعيار بل ضابط التناسب ، وإنْ قيل إنّ المنطق كمِثل الزخرفة العربيّة في أبعادها ومسافاتها ومقاديرها فما لا يرتقي الشكّ إليه أنّ المنطق ينشأ عنه تدبيرٌ معقولٌ إنَّما يُعوزه لهَب الحياة: أنظرْ إلى صورة اتّفق أهل الدراية على أنّها خطّافة للعين تصيبُ في جوانبها شيئاً يترجرج شيئاً يقول لك : « بيني وبين بصرك صلة ، صلة اليقظة والإحساس بالوجود ». ثم انظر إلى رسم لا يخرج عن خطوطٍ هندسيّة غايةٍ في الدقّة أفلا تَقبض صدركَ البرودة المنسابة فيه؟ هذا الرسم الذي دبّره العقل من باب الحساب لا يعرف السبيل إلى نفسك، لأنَّ النفس على فطرتها تهوى كل ما يرجع إلى الطبيعة الصادقة ، والطبيعة تجهل الإحكام في التخطيط والجمود في التعبير : « الطبيعةُ — على قول المصوّرين التأثريّين les Impressionnistes — لونٌ ، تخاطبنا من طريق اهتزازاته الضوئية مخاطبةً متقطعة ومتقلبة » .

ومَثَلُ المنشىء إذَنْ مثَلُ راقصةٍ تنحرف عن قواعد الرقص المضبوطِ فنّهُ المتأمَّم اعتياداً لا اندفاعاً، فتأبى أن تخطّ أشكالاً محصورةً في نظامٍ سرعانَ ما يُهتدى إليه، بأن تُحلّل النغمات وتُقطّع الموازين لِكَيْ تردّها في الفضاء وَحْدةً متماسكةً حتى

التشنّج، واضحةً وضوحاً يتفرّق البصرُ له . وإنّما تكني بالتلوّي والتوتّر، والنزوان والتقبّض عن انفعالات إحساسها الموسيقي : السماع ينقلب حركةً ! فتراها تُنتقّل قدميها على الأرض خفيفتين تهيّأً لقفزةٍ هل تعود بعدها ؟ وتُسلّط ذراعيها على الخلاء الذي حولها تغرف منه طرائفَ تهبُها لمن تلحظه عيناها دون أعيننا ، وتمدُّ أصابعها وتزويها كأنّها تحثُّ وتزجُر قلوباً تطوف بها ، ثم تهصِر الخصر وتُطلق العِطف وتنفُض الثدي وتثني الرأس كأنّها تُنادي ربًّا لا يلتفت إلى عِباده حتّى تتأوّه أجسامُهم فتريد أن تنهدم . فإذا بها ترقص حَسْبَها يخفِق قلبها وينبض عِرقها إذعاناً لإشراق الساعة وانقياداً لهواجسها : فتتخلّص الغريزة من الكبت وتنصر الاضطراب النفسانيّ من الاختلاج العُضويّ ، فتردُّ الرقص وثبةً حرّةً ، وثبةَ النفس اللطيفة نحو الغبطة المضنية .

•

ولا يُستخلص من هذا أنّ الإنشاء يصبح ضرباً من الهذَيان أو أنّه يستحيل مجموعةَ رؤًى شوارد وبَدَواتٍ نوادر . فإنما المنشىء يعرض عن المراسيم الجامدة إرادةَ أن يجعل الكتابة لحناً يغلب فيه الارتجال الملهَم على الصناعة الموقوفة: إذ يتجنّب فيه النغَم الحاديَ المعلّقَ كالسيف الصَّديء فوق المقاطع واللوازم والفواصل ، ويحذف الانتقالَ المتواتِر تارةً المستديرَ أخرى من القَرار حتى الجواب ثم من الجواب حتى القرار في مجرى متساوي النِسَبِ منتظم التقاطيع ، وينبذ تدريج الصوت من الشدّة إلى اللين أو من اللين إلى الشدّة ، ويُهمل توطئة الخروج من طبقة إلى طبقة، ويترك تَحْلِيَةَ القَفلة . لِيُنهض التأليف على خطّ هشّ متكسّر، ينحني ويستقيم مع موضوع اللحن ، يمهل ويندفع به ، كأنّما اللحنُ حديث يتجاذبه فتْيَةٌ أنس بعضُهم الى بعض ، فينقطع ويتّصل ويذهب ويجيء ويصعد وينخفض . وإنما الذي يحدو اللحنَ طائفة من المدّات والهمَسات والهمَزات تلائمه مرّةً وتُنافره مرّة ، طائفة من الأصوات المفردَةِ بين حادّةٍ وثقيلة ، ومُفخّمةٍ ومرخّمة ، ومن النقَلات المنفصلة بين

مقلقلةٍ ومضغوطة ، ومـقيمةٍ وطافرة ، كأنَّها من فـضَلات اللحن تـحْكي تفاصيل موضوعهِ وتراسل تعاريجه فتتساوق أنفاسـه حتى ينقضي .

بَقِيَ أنَّ هذا الإنشاء الذي يعالج ما يلي المادَّةَ المباشرة لاصلة له بأنواع أخرى من التأليف : منها الخطابة التي تأكل أدَبنا شعرَه ونثرَه منـذ نشأته ، لأنَّ الخطابة حيلة ثم كذب: فإمَّا أن تستر بمُفْـرداتها الضخْمة وجـملها الوارمة بضاعةً ضاوية ، وإمَّا أن تزوّق ما يكاد يكون مُدرَكاً وتبالغ في التعبير عمَّا يكاد يكون محَسّا — ومنها التحليل المطَّـرِد اطراداً الذي يـفصـل الآراء والميول ويشدُّ بعضـها إلى بعض فتبـدو بسيطةً معقولةً متلاحقةً لأنَّ مباعثها لاتزال طيَّ الضمائر — ومنها التأثير القريب الغور الذي يهزّ أعصابك دون أن يجعلك تتقرّى العواطف البعيدة أو تجسّ الرعدات الدقيقة، كالتماسه الموضوعات العنيفة السهلة في آنٍ نحْوَ مقابلةِ الحبّ بالواجب — ومنها الوصف الواقعيّ الذي يَقعد عن الخلوص إلى ماوراء المنظورات : من خواطر وواردات لاتبرز لمشهد الحس — ومنها التلفيق الأدبيّ الذي يستلّ الأشخاص من العالَم الإنسانيّ ، فتارةً يـعليهم فتحسبهم آلهة وأخرى يهبطهم فتحسبهم شياطين — ثم منها الإبداع الفني لأنَّ بلوغ التمام المتناهي في الصناعة نتيجةُ الحذق لانتيجة الشعور، وإنما نتيجة الشعور تطلعٌ قلِقٌ إلى تمامٍ لا يتناهى .

٨

وبعـدُ فإن أشخاص هذه المسرحية دُمًى تحرّكهم عواطفهم الدفينة ، كما أنّ

الناس آلات في قبضة الحياة الجائشة ، إذا هم استبسلوا فنزلوا إلى ساحتها . وقلّما يفعلون (ولا سيا في الشرق العربي) .

وكما أنّ الحياة الجائشة تحيّر العقل الغِرّ فتختلط عليه شؤونها اختلاطاً شديداً حتى يُتاحَ له أن يتدرّب على خشونتها ويستأنس بدقائقها من طريق التألّم والتأمّل والتفهّم فيقدر أن يُطوّح ببصره إلى الحوادث التي وقعت له حياته فتتنسّق فصولها كلّها أو بعضها بين يديه ، كذلك يحسن بمن يقف على هذه المسرحيّة — المُبْهَمة معالمها أوّلَ الأمر — أن يتدبر نواحيها من بعد الوقوف عليها ، مستضيئاً باللاحق ليُبصر السابق .

والّذي يَزيد في إبهام معالم هذه المسرحيّة أنّها تجمع في العاظِ معدودة طائفةً من الآراء والتأثّرات صبّها الزمان في قوالبها. وكلُّ شيء لاحقٍ بعالَمَ الفكر طال عهد نشأته واستوائه لا ينقاد للذهن دَفعةً ، بل على الذهن أن يتأتّى له يستشفّه — وفي ذلك من اللّذة ما فيه. وعندي أنّه قد حان الزمن الذي فيه أصبح الإيجاز والإيماء في الإنشاء الرفيع أحبَّ الى القارىء العربيّ المهذّب من التطويل والتذييل ، حتى إذا رجع القارىء عن الحس الظاهر إلى الحس الباطن تجلّى له ماوراءَ السطور . فتدْرَكُ بذلك غايةُ الأدب العالي ، ومَدارها أن يجعل المنشىءُ القارىءَ يُشاطره فنّه .

وأمّا لغة المسرحيّة فقد أردتُها سهلة ، لأنّه من العسف أن يُغرب المؤلف أو يتكلّف الصياغةَ ابتغاءَ التهويل، ولاسيا إذا ألّف للمسرح،ذلك أنّ المسرح إنما هو مَنْقَل ألوان الحياة. والحياة الحقّ طفل يلهو ومايدري أنه لاهٍ ، وزهرة تضوع وتعجب لمن يستروح شذاها ، ونهر يهدر ولا يطرب لترنيمه . وليس في هذه التعابير كلّها تصنّع ولا استكراه . ثم إنّ الذي أميل إليه أنه كلما بَعُد غَورُ التفكير فشطّت المعاني ونزع الأسلوب إلى الإيهام والتلويح بحيث ينبسط على الكلام ظلّ لطيف ، جَدَر الأداءُ بأنْ يلتزم السلاسةَ والوضوح. على أنْ تنزّه الكتابة عن المُبتَذلات ، عن تلك التراكيب

المطروقة المطروقة حتى صارت وساوسَ يَنصبها الادب اليابس في وجه استقلال القلم ، فتمنع الإنشاء أن يدلَّ على صاحبه دلالةً حافلة ، ثم على أن يُتَخيَّر اللفظ مُحاذَرةَ أن يزوغ مدلولُه عن المعنى المقصود فتهزُلَ الفكرة ، وأن تُهذَّبَ العبارة لئلاّ تسقط إلى الركاكة فيسمُجَ الأدب.

القاهرة ، ديسمبر ١٩٣٧

قد ورد في هذه التوطئة عدة ألفاظ وتراكيب اصطلاحية ترجع الى التصوف والفلسفة والموسيقى وما اليها جميعاً ، قد تكون غير شائعة لهذا العهد ، غير أني استخرجتها من المصادر العربية الثبتة ، نحو «الرسالة القشيرية » و « مقدمة ابن خلدون » و « الرسالة الشرفية في النسب التأليفية » لصفي الدين عبد المؤمن ابن فاهر الارموي (مخطوطة ، مخزونة في دار الكتب في باريس : B. N. 2479) . ثم ان هنالك ألفاظاً أخرى وضعتها أو نقلتها من معنى الى معنى فضلاعن تراكيب انصرف اليها قلمي ، منها : النشاط الكامن (أي القائم في النفس بالقوة لا بالفعل) ، والتخيل المنسرح (أي الذي لا يقوم دونه سد) ، والمنتظم (أي المندرج في نظام معين) ، والمبذول (أي ما يقع تحت الحس) ، والذات الفنانة (أي جانب من جوانب الفطرة مهيأ للتأثر بألوان الفن أو ابتداعها) ، والصناعة الموقوفة (أي التي لا تقبل التغير) ، والنغم الحادي (أي الغالب في اللحن والمتردد في ثناياه : Leitmotiv) ، والمنقل (أي المكان الذي ينقل الشيء اليه) ، وغيرها مما يفطن له القارىء من سياق الكلام .

مفرق الطريق

مسرحية في فصل واحد

المسرح

مؤخّره

صفٌّ من المنازل المنخفضة على شكل المنازل التي تُصاب الآن في الأحياء القديمة
في مصر . من نافذة من نوافذ أحد المنازل الواقعة فى الجانب الأيمن
من المسرح يخرج نور . نور مصباح « جاز » (نفَّاطة)
كبير . المصباح لا يرى . وإذا أريد إظهاره
فليكن معلقاً بالحائط بمسار
ضخم معقوف .

مقدّمه

طريق ضيق .
على الأرض جزازات ورق
وبقايا من قصب السكّر. يمتد إلى جانبي
المسرح يميناً ويساراً . الجانب الأيمن منه يضيئه النور
الخارج من النافذة إضاءةً ضئيلة . وأما الجانب الأيسر فبين المظلم
والمنار، وتشتد الظلمة فى أوله من اليسار. والطريق ينحدر من الجانب الأيمن المنار
إلى الجانب الأيسر المظلم . ثم إنه غير مستقيم بحيث يلتقى جانباه وَسَطَ المسرح زاويةً منفرجة.

الاشخاص

سميرة

امرأة في السابعة والعشرين أو تقاربها. نحيفة، رشيقة، حسنة الشكل. بَشَرتُها ضاربة إلى الصفرة. شعرها أسود متدلّ بعض الشيء حتى كتفيها. ترتدي «فستاناً» (دُرّاعة) نظيفاً عادياً أسود لا يخلو من أناقة بسيطة، كالذي ترتديه فتيات من العامة في مصر لعهدنا هـذا، مشدوداً إلى ما فوق خصرها، ليس بالواسع بحيث يشفُّ عن رشاقة جسمها، مرتفعاً إلى أسفل العنق، ساقطاً إلى القدمين حتى الحذاء وإلى الذراعين حتى المعصمين. فلا يُرى من الفتاة سوى وجهها السافر وكفّيهـا. الحذاء أسود. والمطلوب أن تشتدّ المقابلة بين سواد اللبس وصفرة الوجه واليدين.

الأبله

فتى لا عمر له. مستحكم البنية. منفوش الشعر. يرتدي «جلبيّة بلدي» (جلباباً مصرياً) صفراء. حذاؤه أسود عتيق جداً. تبدو على هيئته القذارة.

هو

شاب في الثلاثين أو يقاربها. جميل المنظر. على رأسه طربوش [هذا غير واجب]. يرتدي «بدلة» (حُلّـة) لونها زاهر. وفي عروة في أعلى «البدلة» وردة. حذاؤه أبيض. بَشَرتُه سمراء بل شديدة السمرة.



تبيين

المسرح

في مفرق الطريق أي حيث ينفرج يمينا منارا وصاعداً، ويساراً مظلماً ومنحدراً ، يلتقي العقل والشعور، فيتجاذبان المرء ولكل منهما حظه من القوة والغلبة . وأما الجانب المظلم فحيث يقهر الشعور العقل فينحدر المرء وتعمى رشده الى غاية تحترق عندها النفس . وأما الجانب المنار فحيث يصرع العقل الشعور فيسلك المرء في صعود مثلوج يحيا عنده بنجوة من الاحتراق ، يحيا كمثل شجرة شظف عودها وجف ورقها وذوى زهرها — على ما هو مبين في رسم الغلاف .

سميرة

نفس مضطربة تتنازعها حلاوة الماضي الموجع وراحة الحاضر المقفر ، تطمئن الى حياة يلجمها العقل وتجذبها حياة يتدلع فيها الشعور . فهي كالموسوسة ، يبدو كلامها هذيانا لأن رأيها لا قرار له. وتراها كلما لمست الحقيقة القاحلة فزعت منها الى متمثلاتها المورقة . واذا انقضت هذه أوت الى التلف المعنوي ارادة ان تحبس حركات نفس رقابة في الاحتراق .

الأبله

لا يقوى على الكلام ، ولكنه يفهم كل شيء . ولا ينكشف أمره حتى ينحطم قلبه، كمظلوم راض بما قسم له يحسبه الناس سادراً ، فاقد الاحساس فيستخفون به ، حتى اذا بغى الجرح الذي يضرب في جنبه فار فارفض فأصاب الظالم رشاش منه يرده الى الواقع . فبكاء الأبله في مختتم هذه القصة — ذلك البكاء الذي نزع الغطاء عن عيني سميرة فنعها أن تبعث على يد مغريها الى الشعور — صرخة مظلوم يعرف أنه من أجلها مقتول.

هو

عنوان الانسان العادي، المنشأ في حلقه المواضعات الاجتماعية (وما أكثرها في الشرق العربي عامة ومصر خاصة)، المبني على البغي، الرقيق لساعته ، العاجز عن ادراك المعاني المجردة حتى يؤخذ بيده فيقاد اليها فيصرعه جلالها ، ثم يود لو يعيش في ظلها دون أن يبذل نفسه بذلا في سبيلها كأنه يقنع بالوقوف بباب هيكلها لعله يظفر ببعض ما فاته من اللذة الخالصة ، فتعوزه الفرصة لتبدل الاحوال التي كانت تكتنفه .



المشهد الأول

الأبله ، سميرة

الأبله جالس في الجانب المنار على الأرض، على مقربة من جدار منزل ، بين يديه رزمة قصب سكر . يقشر قصبة بأضراسه ثم يدفع «عقلة» القصبة (الأنبوبة) الى المرأة فتمضغ منهـا شيئاً وتعيدها اليه فيأتي عليها مصاً . من آن الى آن يضحك ضحكة خفيفة لا معنى لها .

سميرة تجيء وتذهب أمامه في هدوء وبطء . تنظر اليه أحياناً في ذهول .

يستمر هذا التمثيل الصامت زهاء دقيقتين.

وبينما الأبله يكسر « عقلة » من عود قصب على ركبته اذ يشد العود اليه بقوة كأن أحداً يريد خطفه من خلف ، وذلك في أثناء مرور سميرة أمامه بحيث تراه .

سميرة

ما بك ! أيـريد أحد خطفَ قصبـك ؟

الأبله

يومىء أن نعم

سميرة

معاذَ الله ! ومن هذا ؟

الأبله

يحاكي صوت الكلب وهو لا يزال
قابضاً على عود القصب بحرص

سميرة

كلب ؟ ومتى كانت الكلاب تمتصّ القصب ؟

الأبله

يضحك

سميرة

كفى ضحكاً ! كم أشتهي أن أراك تبكي يوماً ، فتُبكيني. [مهلة] أممكن هذا ؟
[تنظر اليه] .

الأبله

يتأملها في جد

سميرة

أممكن هذا ؟ ولِمَ لا ؟ فهذى الكلاب أصبحت تمتصّ القصب .

الأبله

يطرق

سميرة

أكلبٌ هو ؟

الأبله

يومىء أن نعم

سميرة

لا . إنّ هذا لا يُمكن حصولُه... كما أنّ بكاءك لن يكون. [صمت] المستحيلات
في هذا العالم معروفة [تحدق اليه] .

الأبله

يرفع ببصر تائه اليها ورأس القصبة
بين أضراسه وهـذه لا تتحرك

سميرة تخاطب نفسها

ولربّـما أحببنا أن يكون الأمرُ المستحيل ... مُـمكِنا. [مهلة] ماذا أقول ؟
لا. لا... ولو أنَّ الكلاب أصرّت على امتصاص القصب لقتلتهـا جميعاً ، جميعاً .
[تخاطب الأبله] أتسمعني ؟ [آمرة] إضحكْ !

الأبله

يضحك ضحكة فيها تكلف وشبه رنين أسى



المشهد الثانى

الأبله ، سميرة ، هو

هو يقدم من الجانب الأيسر في تباطؤ شديد فينصرف الى أول منزل من هذا الجانب . يحاول أن يقرأ اسم الطريق عليـه . الأبله ينظر اليه شزراً . سميرة ترمقه في غير عناية . يقبل هو وسط الطريق حيث المكان بين المظلم والمنار وحيث المرأة واقفة. البعد بينه وبين المرأة مقدار « مترين » بحيث يشمله الظلام فوق مايشمل المرأة . يلزم الأبله نظرته طوال الحديث الذي يجري بين هو وسميرة مهملا امتصاص القصب. يعبر عن انفعالاته في صمت .

هو لسميرة

من فضلك ياست : هل هذا زقاق سي عبّود ؟ إني — والظلمة على هذه الشدّة — لا أستطيع قراءة الاسم المكتوب على جدار هذا المنزل [يشير الى المنزل الذي كان انصرف اليه] إن كانت هنالك كتابة .

سميرة

نعم ، هذا زقاق سي عبّود.

هو

شكراً .

سميرة

هل لك أن تفيدني كما أفدتك ؟

هو

يشير أن افعلي

سميرة

هل بلغك ، عمرَك ، أنّ الكلاب تمتصّ القصب ؟

هو

يؤخر رجلا كمن ذعر من أمر

سميرة

سألتني عن شيء أفلا يحقّ لي أن أسألك عن آخر ؟

هو

ولكنّه سؤالٌ ... سؤال ...

سميرة في لهجة من ينفي شيئا قائماً في ذهن خصمه

لاغرابة فيه .

هو

يتعجب صامتا

سميرة في بطء

كل شيء يبدو غريباً لك إنّما هو جِدٌّ معقول عند صاحبه . إنّ سؤالي يدهشك ، ولو جالت أفكاري في ذهنك وتجاوبت على نحو ما تجول في ذهني وتتجاوب لزال دَهَشُك . إنّ الاشياء لا وجود لها إلاّ بنا ، وكلٌّ واحد منا عالمٌ قائمٌ برأسه .

هو

هل لكِ أن تُجيلي أفكارَكِ في ذهني وتجعليها تتجاوب لعلّي أقوى على الردّ ؟

سميرة في تهيج

إسمع . إنّ هـذا [تشير الى الأبله] لا يستطيع غير الضحك ، وإني يضحكني لسعيدة . وإن عرف يوماً ما البكاءُ شقيتُ به . [مهلة] [في تحسر كأنها تخاطب نفسها] ولكنْ... أصادقةٌ أنا ؟ [ثم فكرتها باشارة] وعندي أنه يستطيع البكاء إذا استطاعت الكلابُ امتصاصَ القصب .

هو

إني أوثر ألاّ يجولَ مثل هذه الافكار في ذهني وألاّ يتجاوب .

سميرة

لأنّها أفكار مجانين . [صمت] كلاّ ، بل هي أفكار فئةٍ من الناس يشعرون فوق ما تشعرون. والحقّ أني لا أفهم لِمَ قدرة هذا الأبله على البكاء مرتبطة بقدرة الكلاب على امتصاص القصب . خاطرٌ هجم عليّ من جانبٍ غامض .

هو ساخراً

صدقتِ .

سميرة

مهما نقُل جميعاً ففي يقيني أنّ وقوع الامر الثاني ينشأ عنه وقوعُ الأمر الأول .

هو

يقين مشكوك فيه.

سميرة

قلتُ : يقيني .

هو

ولكنْ إذا بدا لكل واحد منّا أن يستقلّ بيقينٍ له فإلى أين مصيرنا ؟ إلى الشكّ العام.

سميرة

كلا ! إلى الأمل . [مهلة] [في بطء شديد] الحقيقة ، أليست ذلك الوادي الشّظف يُخضلهُ فَيْضُ مشاهداتي الباطنة ؟

هو

أفّ لهذا الكلام المعقّد ! [يهم بالانصراف من حيث جاء] .

سميرة

تريدون الأمور واضحةً [هو يلبث في مكانه] خشيةً على سلامة أذهانكم . أينبغي لكل أمرٍ يحصل أن ينساق إلى ناحيةٍ معلومة في ملتوياتِ أفهامكم ، تنتظره ؟ [في سخرية] متاع يندرج في خزانة ! .. لا شيء أكرهُ إلى الحياة من إطارٍ يُعَدُّ لمجراها ، إنّ الروح والفكر مع مايجيش فيهما من نزعات ووثبات يُنكران السدّ والحدّ. إنكم تفتكون بهما.

هو في ضجر، يشير في عنف

كفى !

سميرة آمرة في لهف

أعِدْ هذه الكلمة!

هو

لمَ ؟

سميرة آمرة

أعدْ.

هو في شيء من الخشية

كفى . . .

سميرة

لا . أعدها بالنبرة نفسها وأرْدِفها بالإشارة عينها ... أدنُ مني .. لا تَخَفْ .

هو يدنو منها ويقول ويشير كالمرة الاولى

كفى !

سميرة بالنبرة نفسها والاشارة عينها

كفى !

هو		كمن يخاطب معتوها

مساءَ الخير !

سميرة		تهجم عليه وتمسك بثيابه وترسل طرفها في وجهه ثم في جسمه منتفضة

أي سميرة ؟

هو

من سميرة ؟

سميرة

هل عرفت سميرتين ؟

هو		ينكس رأسه ثم يرفعه ويحدق الى وجه المرأة ويقول فى لهجة المدهوش

أنتِ ؟ !

سميرة

لا تجاوب ، وعيناها تكادان تقتلانه

هو		يواصل كلامه

هنا ؟ وهكذا ؟

سميرة

الحبُّ مرحلة الى الفناء ! [مهلة] أمرٌ آخَر غريب .

من الآن فصاعداً ينظر هو الى سميرة وجلا، زائغ البصر، مختلج النفس. يحرك يديه الحين بعد الحين في تهيج، ولكن التحريك ليس فيه غلو . وجهه الى الجمهور وسميرة ظهرها الى الجمهور بحيث لا يرى منها الا التفاتات يديها وكتفيها. وأما الأبله فيظل طوال حديث المرأة مبهوتا كالمستفيق على كره من حلم لذيذ والقصبة في يده مائلة ممدودة نحو فمه. يشاهد ما يجري وهو يتألم في صمت . كل ذلك حتى يسمع صوت الناي فتتبدل هيئات الأشخاص الثلاثة .

سميرة   في هدوء متممة حديثها

... وما غرابته ؟ جرت الحوادث لي كما يجب أن تجري . أحببتك ، فائتمنتك على ما تملكه يداي حتى أتى يوم قلتَ لي فيه: كفى ! وأشرتَ على نحو ما أشرتَ الآن [تعيد اللفظة بالنبرة والاشارة مرتين كأن اللفظة شبح يلازم ذهنها] . . . فانطلقتُ عنك إلى حيث تنطلق المرأة التي تريد ان تُذلّ الرجال لأنّ واحداً منهم أذلها . [مهلة] [في سرعة] وأتاني يوماً فيمن كان يأتيني من الرجال الذين كنت ألهو بهم شاب صوته منحوت من صوتك ، فطربت لحديثه وأنا لا أعلم السبب . وأردتُ أن اطرب فوق ماطربت [مهلة] [في تهيج] أممنوع هذا ؟ [في بطء] فعلّمته الكلمات التي كنتَ تنطق بها وأنت مائل عليّ . . . ظلٌّ عريض مطروح على صورةٍ ناصعة . وما كنتُ لأذكرَ أنّها منك ، لأنّ نفسي كانت شربتها فطوتها أضلعي ، ونشرتها شفتا قلبي . وإذا الشاب يوماً يلفظ تلك الكلمات في ذلك الصوت . . . ذلك الصوت ، وهو مائل عليّ . فإذا بك تتمثّلُ لي دَفْعَةً ، فكنت كالنار ترفع من بعيد للتائه المطمئن . . . أنتَ ، أنتَ الذي أشربني تلك الكلمات ، أنت الذي قال لي . كفى ! بذلك الصوت . [تشير على نحو ما كان أشار] أنت منقاد لي مرةً أخرى ، وتظفربي ؟... فخنقتُه ! [هو يتراجع ويرفع يده كأنه يرد شبحاً] [سميرة تواصل كلامها] إنّ أمور القلب لا تنقضي إلاّ بالخنق ! [مهلة] منذ ذلك اليوم أشرقتْ نجاتي ، إذ غاب الذي كان يحسُّ من نفسي وانطفأ الذي كان يشتعل . والآن أعيش في الثلج ... إبعدْ [تلتفت الى الأبله وتصيح] إضحك !

الأبله

يضحك في تراخ

سميرة

هذه الضحكة هي التي تَثْلُجني ، كلّ يوم ، كلّ لحظة . أراك دهشاً لأنّ بيئتنا بيئة إحساس محض... إلاّ أنّه إحساس لا يبلغ الاحتراق . أمّا أنا فقد جُبلت من نار فيأكل

بعضي بعضاً . [مهلة] إنّما أحيا ، والثلجُ من حولي ، طيفَ شجرةٍ جرداء !

هو

ولكنْ ألا تهفو نفسكِ إلى الدفء أحياناً ؟

سميرة في استرخاء

تعالبني فتهفو . غير أنّ الذي يُدفئنا الشمس ، ولذّة الشمس في حُرْقتها .

هو

بقليلٍ من التعقّل تتجنّبين الحُرقة .

سميرة

التعقّل جُعِل لمن يحسب أنّه يُحسّ . مثلي لا بُدّ له من الاحتراق .

هو

إنّكِ مسرفة .

سميرة

كنتُ كذلك لمّا كنت إنسانة ، لمّا كنت أحبّك ، أيّامَ احترقت

هو

كم أودّ أن أبذل لكِ الدفء.

سميرة

مثلك يُحرق ولا يُدفىء .

هو

علّميني كيف ادفىء.

سميرة

فات الأوان . ما أعرف اليوم إلا كيف احرق ، أفلم أتخرّج على يديك؟ ولِمَ تريد العودة إلى ما كان ؟ هل انتهى إحساسك إلى أقصاه؟ كلاّ ، بل تراني أحاول النجاة

من أرضكم فأسمو عليكم ، فتندم على تهيئتك لي هذه القدرة . [في شدة] إبعدْ ! [مهلة] إنّما حياتي في الثلج .

هو

بينكِ وبين الثلج لا أبرح قائماً.

سميرة

بيني وبين الدفء رائحة حريق .

هو

ولكنْ.. قلبُك.

سميرة في غير عناية

قلبي ؟ [مهلة] لفظ طالما أداره لساني حتى ضاع معناه .

هو

سميرة !

سميرة

ألم أقل لك إني لست أنا. هذا اسم فَنِّي.

هو

ولكن . . .

سميرة

إنّكَ تكثر الاستدراك. ألا تستطيع إطلاقَ الكلام .

هو

أما تعرفين أنّ كل شيء مقيَّد ؟ [صمت] هل من شيء يبطل عنده الاستدراك ؟

سميرة بعد مهلة ، وفي بطء ثقيل

إذا احترق . [مهلة] [في تلهف] قلبي ! . .

هو في لهجة من لا يسلم بحصول أمر

لفظ ضاع معناه .

سميرة في لهجة من يقيم حجة

ألا ترى البدويّ يتأمّل الصحراء ليلَه ونهارَه ، إذا سئل عن لون رمالها تلعثم ؟

هو

قد عرفتكِ امرأةً لاتحمل كلّ هذا القدر من العلم . فمن أين أتاك ؟

سميرة في بطء

أما للحُرقِ فَيَنْض ؟ [مهلة] [في تلهف] قلبي ! . .

هو في لهجة الحائر

لفظ ضاع معناه . . . ولكنّ هنالك ألفاظاً لا تموت . هذه لفظة الله لا ينفكُّ الخَلق يذكرونها، أفلا يزال اللهُ اللهَ ؟

سميرة

كما أنّ القلب لا يزال على حروفه [تنظر اليه تائهة البصر] .

هو يدنو منها ويهمس اليها يغريها

الدفء ! الدفء !

سميرة تحول نظرها عنه كأنها تخاف أن تلين لكلامه. على أنها لا تبتعد عنه . تظهر أنها منجذبة

ذلك وهم .

هو يقنعها

لولا السراب أيّة قافلةٍ لا يَنهكها طولُ الرحلة : ساعةَ اليأس — إذا وارت البئر كنزها عن الأعين القلقة كأنّها فتاة غضّة خَفِرَة ،أو أمست كعجوزٍ تشنّج جلدها لا تبذل سوى الجفاف — يضحك السراب فتعلو الهمم.

سميرة

إنّـي عرفت ذلك السراب ، بل شربت منه . وكان الماء أُجاجاً على لذّة . وإني أود لو أرتشفه مرةً أخرى . آه ! حتى هذا يفوتني اليوم . [مهلة] [في بطء] الحب مُمتـرَكٌ قَـتْـلاه الأوهام.

هو يدنو منها، يقنعها

الشعورُ عـكـّـاز المرأة .

سميرة تنظر اليه في هياج

وما هو للرجل ؟

هو

معراجُـه إذا أدرك جوهرَه .

سميرة

ومتى أدركتَـه ؟

هو

الليلةَ .

سميرة

شيء تمّ بعد حين تمامه .

هو مدافعا

من ذا يرى أنّ ليس للعنب نشوة من بعد نـضجـه ؟

سميرة نافية

في ظنّـي أن المرأة جُـعلت لتحيا بالحب ، وقد ميتٌ به . وهأنت ذا كأنك تحيا به عني .... إنّ الأمور تنقلب أوضاعُـها على أيديكم،لأنـّكم يُـفزعكم الخلوصُ إلى أسرارها

هو

ما أغلظَ كلامَـكِ !

سميرة

ولم أنته بعد . [مهلة] أصبحتَ امرأةً تأتيك راضيةً فرحة ، فقلتَ متعة . وما كنتَ لتقوى على النزول إلى مضطرَب الحياة، فتعرفَ مَرَحها، فتقولَ نعمة ... المرأة عندكم زهرة تقتلع لأنّ إناثكم لم يعلّمنكم أنها تُقطف . وأنّى لهنّ أن يفعلنَ وهنّ يتخشّينكم أبداً... في عُرفكم أنّ نساءكم يَهبْنَ لكم أنفسهنّ. ما أسخفكم ! إنّهنّ يفرِشنَها لكم. [مهلة] أمّا أنا فقد أردتُ أن أشذّ عنهنّ فوهبت لك نفسي حقّاً. فرُحتُ ضحيّةَ ادّعاءٍ جديدٍ للمرأة .

هنا يعلو صوت ناي من النافذة المنارة . صوت خفيت يظل دقيقة . يلتفت الأبله وسميرة وهو الى النافذة . الأبله ينظر شزراً ويطرح بالقصبة التي بيده أرضا. سميرة تضم يديها الى صدرها كالمصلية. هو ينظر كالمأخوذ.

سميرة ل هو

كم يشغلك الناي !

هو

إنه لجميلُ المدّات!

سميرة كأنها في وجد ، شاخصة الى النافذة

إنّها لضلوعي تتقصف مصعّدة في معارج الهواء الصافي. وكم يَلذّ لي أن تُفلت ضلوعي من بين جوانبي! هل تدري ما الإفلات مما يلازمك على كرهٍ منك؟ إنّ هذا الناي يُعينني على النجاة من الأرض. ولذلك ألبث في هذا المكان، تحت هذه النافذة . . . صاحبُ الناي ينفخ فيه كل ليلة ، فأحبُّ أن أعيرَه ضلوعي وهو لا يدري. ولو درى لهشّم حُلمي. وما أشدّ حاجتي اليه ! آه، إني أحسّ الحين بعد الحين كأنّ ضلوعي تريد أن تفلق صدري لعطشٍ فيه أعرفه وأهابه.

هو　　يشير نحو الأبله كأنه يقول:
ألا يسكن هذا عطشك

وهذا؟

سميرة

ضَحِيكُه لا يقوى على تسكين ذاك العطش، ولاسيّما في الليل. برودة إلى برودة تهدّ العزم، عزمَ امرأة.

هو

وفيم كلُّ هذا؟

سميرة

أنت لا تفهمني وأنا أفهمك.

هو　　يشير نحو الأبله

وهل هذا يفهمك؟

سميرة

إن جهله بي من باب آخر.

هنا يعلو صوت الناي، فيتمتم الأبله

هو　　ينظر الى سميرة ويشير نحو الأبله

ماذا؟

سميرة

كثيراً مايضجّ إذا سمع الناي.

هو

أتُرى صوت الناي يَغيظه؟

سميرة

أتظنه يُدرك أنّ الناي يسعدني على عشرته؟ سترى أنك مخطىء. [تلتفت الى الأبله تأمره] إضحك.

الأبله

لا يضحك بل ينظر الى الأرض واجما

سميرة — التمثيل نفسه

إضحك !

الأبله

التمثيل نفسه

هو — لسميرة

لعلّه يفهمك وأنتِ لا تفهمينه.

سميرة

تظهر التعجب والتفكر

هو — يواصل فكرته

علمتني اليوم أنّ الحياة مجموعة سوء تفاهم .

سميرة — في لهجة المنكر ، تشير نحو الأبله

إلاّ أنه خفيف العقل .

هو

كما أنتِكِ واهمة.

سميرة

كما أنتَكَ مغرور .

هو — بعد مهلة قصيرة

ثلاث أحوال من منزلةٍ واحدة .

هنا يعلو صوت الناي مرة ثالثة، ولكن نصف دقيقة فقط

سميرة — في أثناء ذلك ، لـ هو

أسكت الآن .

هو بعد سكوت التاي

حقاً ! إنه لاخّاذ .

سميرة

إنه لمعطاء !

هو

يبذل لك النجاة .

سميرة

من الاختناق .

هو يعد مهلة قصيرة

مسكينة !

سميرة لاتحفل بهذا الرد ، بل تتطلع الى النافذة في شغف.
وأما الأبله فيرمقها مغيظاً.



المشهد الثالث

سميرة ، هو

هو يدنو من سميرة ويجعل كفه على كتفها ويجذبها بلطف الى الطريق المظلم وهي منقادة مذهولة وعيناها منصرفة الى النافذة ووجهها محول الى مؤخر المسرح لا الى الجمهور . يرى الأبله هذا فينهض يتبعها بحركات واشارات ضالة. وبعد أربع خطوات أو خمس يعود أدراجه وينزوي عن المسرح ناحية « الغيابات » (الكواليس). وفي هذه اللحظة يعلو صوت الناي غاية في الشجى .

سميرة

أهلْ .

يقفان . يظل صوت الناي دقيقة كاملة

هو بعد سكوت الناي

أصبحت لاحاجة لك فيه .

يعود الناي دقيقة أخرى كاملة الى مداته الشجية . تستمع سميرة اليه كأنها تنتفض.

سميرة بعد سكوت الناي ، تشير نحو النافذة

دعْني أودّعُه ... إنه قام مقام عكازٍ لي دهراً... ولم ينحطم قط. وما يُدريني؟ ربما عدتُ اليه ... أفلا أفارقُه على وداد؟ [في بطء] لانزال بنا حاجة الى ما ملأ أيدينا ممّا لم نؤمّل [تميل باذنها نحو النافذة كأنها تريد أن تسمع صوتا متقبضاً].

في هذه اللحظة عينها يسمع من داخل الغابات يميناً — حيث الأبله منزو — نشيج رقيق يقارب مدات الناي الشجية .

سميرة

إسمع الناي يبكيني.

هو يرهف الأذن

لا . إنّ هذا بكاءُ الأبله [مهلة قصيرة] عدوّ الناي.

سميرة ترهف الأذن وتلوي رأسها نحدق الى داخل الغابات من اليمين وتبسط يدها كأنها تدفع شيئاً مكروهاً. في هذه اللحظة يرسل الناي بعض مدات مبهمة تشابه نشيج الأبله .

هو يواصل حديثه

عجباً ! إنّ الناي يراسل الأبله في البكاء . [مهلة قصيرة] عدوّان اتّفقا !

سميرة

ألم نتّفق نحن ؟

هو

جمعتنا اللذةُ وجمعهما الألم .

المشهد الرابع

الأبله، سميرة، هو

تنفض سميرة كتفها من كف هو وتسرع نحو الأبله، فتجذبه من يده في شيء من العنف حتى وسط المسرح، ثم تدور بحيث تجعل ظهرها ناحية الجانب المنار وظهر الأبله ناحية الجانب المظلم على بعض خطوات أمام هو.

سميرة للأبله

أتبكي؟ ومن علمك البكاء؟

الأبله

ينظر اليها في تضاؤل

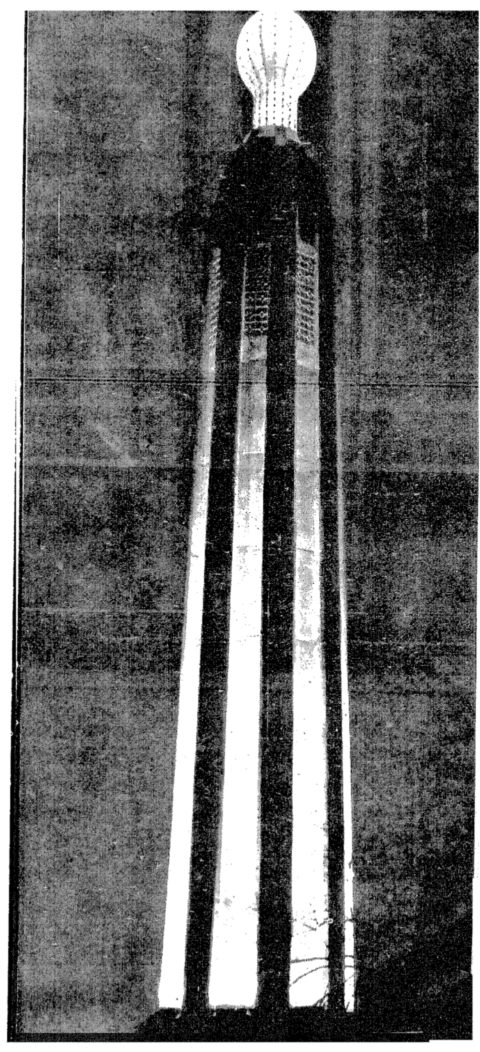
سميرة للأبله، في شدة

إنّ الكلاب تمتص القصب إذَن! وقد فاتني قتلُها. [ثم لـهو في لين] أحرقْتُه وهو يثلُجُني [ثم للأبله في تراخ] بكاؤك منع البعث!

يتراجع الأبله حتى يقرب من هو

سميرة والأبله يتراجع

ها! ها! أنت مثلنا. تبكي وتضحك. ولكنّ ضحكك أكثر من بكائك. فاذكر — إذ كنتَ في بدء أمرك — أنّ للبكاء الْغابة أبداً. [مهلة] [للأبله وهو جميعاً وهما واقفان جنبا



لذكرى أديصن

اكبر مصباح كهربائى في العالم

وهو المصباح الذي أقيم في منلوپارك بنيوجرسي بأميركا حيث أنشأ أديصن معامله وقد احتفل بتدشينه يوم ١١ فبراير سنة ١٩٣٨ ويبلغ ارتفاع المصباح وحده دون البرج القائم عليه ١٤ قدماً . وبلغت نفقة اقامة البرج والمصباح ٢٠ الف جنيه وهبها لذكرى أديصن المستر وليم بارستو

المقتطف

الجزء الرابع من المجلد الثاني والتسعين

١ ابريل سنة ١٩٣٨ — ٣٠ محرم سنة ١٣٥٧

المجرات

بحث في أجزاء الكون الكبرى

— ١ —

وصف أحد الكتّاب الارضَ بقوله «ان الانسان يعيش على ذرّة من الغبار الكوني تحيط بها نفحة من الهواء ورشّة من الماء وعلى سطحها مسحة من الحياة». الاّ ان الانسان على عجزه عن الافلات من هذه الذرة، سعى قروناً طوالاً الى التغلغل في أسرارها من ناحية وفي خفايا الكون العظيم الذي يحيط بها من ناحية أخرى. وكان في عهده الاول مولعاً بالتخيّل فتصوَّر الكون صوراً متباينة. فقد كانت الارض في نظر طاليس قرصاً سابحاً في محيط من الماء. وذهب انا كسيمندر الى ان الارض مسطَّحة وانها في مركز الكون وان الشمس ليست الاّ ثقباً في قبة الجلد الصلدة تفيض منها نار الآلهة التي وراءها. الاّ ان انا كسيمينيس رأى صورة أخرى إذ خيِّل اليه وهو يرقب السماوات من سطح الارض ان النجوم مسامير فضية مدقوقة في القبة الصلدة

وتهاوت هذه الصور القديمة صورة إثر صورة، اذ كثر عدد الرصّاد. فكشفوا واحد بعد واحد حقائق عن حركات النجوم والسيارات، فتحت لهم الباب الى معرفة شيء عن هندسة هذا الكون العظيم. ففيثاغوراس علم تلاميذهُ ان الارض كرة تدور حول الشمس فلم يؤْبه لقوله. وارسطرخس ذهب في منتصف القرن الثالث قبل الميلاد الى ان الشمس مركز الكون وحاول ان يقيس المسافة بين الشمس والارض الدائرة حولها. فلم يصغ احد الى ما يقول.

وانقضى نحو الفي سنة قبل ان ولد علم الفلك الحديث . ففي ٢٤ مايو سنة ١٥٤٣ كان كوبرنيكوس يعاني سكرات الموت عند ما جيء اليهِ بنسخة من كتابهِ « دوران الاجرام السموية » وهو الكتاب الذي ذهب فيهِ الى ان الارض كرة ، ليست بثابتة كما قال بطلميوس ، بل متحركة دائرة حول الشمس كما قال فيثاغوراس وارسطرخس

كان الكون الذي تصوَّره كوبرنيكوس كوناً صغيراً لا تعدو حدوده أبعد السيارات المعروفة حينئذٍ . الاَّ ان النجوم التي ظنها ارسطرخس قليلة ، والتي لم يحصِ منها بطلميوس الاَّ ألفاً ، أخذت دراستها تعنو لآلات الرصد الحديثة بعد ما صنع غليليو المرقب (التلسكوب) الاول في القرن السابع عشر . فأحصي منها أولاً نحو خمسمائة الف نجم . وعندئذٍ بدأ علماء الهيئة يدركون ان الشمس ليست الاَّ « جنديًّا في جيش السموات » . وكذلك بعث علم الهيئة في القرن السابع عشر وتراجعت الآفاق الكونية من حدود النظام الشمسي الى حدود المجرَّة رويداً رويداً . ثم جاءَ اسحق نيوتن ، وهو ابن فلاح انكليزي وُلد بعيد وفاة والده ، وكشف عن ناموس الجاذبية العامة ، ففسَّر بهِ افلاك الاجرام الفلكية وحركاتها ، وهو موضوع عجزت عبقرية غاليليو عن ادراك كنههِ

هذا الكشف بعث حياة جديدة في علم الفلك . فأقبل الرصَّاد على دراسة النجوم المتلألئة وراءَ أبعد السيارات وعيَّنوا بعد عناء كبير مواقع مئات منها . وكان بين هؤلاءِ البحَّاث ، رجل الماني انكليزي يدعى وليم هرشل ، نشأ موسيقيًّا وهاجر الى انكلترا فراراً من ويلات الحرب الدائرة حينئذٍ ، وتحوَّل وهو يعلم الموسيقى في سبيل الرزق ، الى الفلك ، اذ كان في الخامسة والثلاثين من العمر . ولو لم يتح لهُ في ليلة ٣١ مارس سنة ١٧٨١ اكتشاف السيار أورانوس لظلَّ على الراجح موسيقيًّا طول حياته يسترق اللحظ الى السماوات في ساعات الفراغ اشباعاً لرغبتهِ الخاصة . ولكن اكتشافهُ السيَّار أورانوس افضى بهِ الى عناية وجِّهت اليهِ من المليك والى زواجهِ من سيدة ذات ثراءٍ ومال

ومضى هرشل وقد كُفي مؤونة العيش ، يتقن صنع المرايا للمراقب العاكسة ، وشغف بعمله هذا شغفاً عظيماً حتى روي عنهُ انهُ كان لا يتوقف عن عملهِ لتناول الطعام فكانت شقيقته كارولين تلقمهُ بيدها وهو ماضٍ في عمله . ولما تمَّ لهُ صنع مرقب قطر مرآتهِ تسع عشر بوصة وجَّههُ الى السموات فكشف ما يعرف بدرب التبَّان أو المجرَّة . وقد وصف المجرَّة هذه في الجمعية الملكية سنة ١٧٨٤ بقولهِ « انها طبقة ممتدة من النجوم وليست الشمس ومجموعتنا الشمسية الاَّ جزءاً منها » . والواقع ان الراصد على الارض يرى المجرَّة كأنها شيءٌ منفصل عنهُ ولكنهُ عند التدقيق قريب من مركزها . وعني هرشل بهذه الناحية من الموضوع فحسب ان الشمس منحرفة قليلاً

عن مركز المجرّة، وإن المجرّة شبيهة بقرص قليل التسطيح او بساعة جيبٍ وأن قطرها ستة اضعاف سمكها . ولما قضى هرشل نحبهُ حفر على شاهد قبرهِ « انهُ نفذ الى السموات » .[1]

ثم جاءَ على علم الفلك الحديث فترة من الجمود . ذلك ان الامم لم تنجب خلالها عالماً يلقى على اكتافهِ وشاح غاليليو ونيوتن وهرشل ، فيستطيع ان ينفذ من المجرّة الى ما ورائها

إلاَّ ان ذلك كان يقتضي اولاً ، معرفة أبعاد النجوم على وجهٍ من الدقة . ولم يكن قياس ابعاد النجوم بالامر السهل . حتى هرشل نفسه كان قد حاول قياسها وأخفق . ولا يخفى ان أقرب النجوم الى شمسنا هو النجم المعروف باسم « بروكسيما سنتوري » وهو يبعد عنا اربع سنوات ضوئية وخمس سنة .أي ان الضوء يستغرق هذه المدة في سيرهِ منهُ الينا مع ان سرعتهُ ١٨٦٣٠٠ ميل في الثانية . فالشمس على هذا الاساس تبعد عنا ثماني دقائق . فليس من الغريب ان يعجز علماء ذلك العصر عن قياس أبعاد النجوم ،وهذا النجم وهو أقربها الينا يبعد عنا ٢٥ مليون مليون ميل يقابله ان الشمس تبعد عنهُ ٩٣ مليوناً فقط

الاَّ أنهُ لم تنقض ست عشرة سنة على وفاة هرشل حتى اجتاز علم الفلك مرحلة جديدة كبيرة الشأن. ذلك ان وليم هرشل كان لهُ ابن يدعى جون ترسم خطوات أبيه. وإذ كان جون معنيًّا بتصنيف النجوم التي في غيوم مجلان البادية في نصف القبة الجنوبي جاءَهُ في سنة ١٨٣٨ كتاب من باحث يدعى فردريك بسيل Bessel . وكان في هذا الكتاب ان بسيل تمكن من تعيين بعد النجم المرقوم برقم ٦١ في صورة الدجاجة باسلوب جديد سمَّاهُ اسلوب زاوية الاختلاف المثلث Triggonometric Parallax وأساس هذه الطريقة ان النجوم تبدو ثوابت لبعدها العظيم عن الراصد الارضي . الاَّ ان مراقبتها تسفر عن أنها ليست ثابتة بالقياس الى نجوم أخرى أبعد منها . فاذا قيست الزاوية الحاصلة من مراقبة كلٍّ من نجمين من موقعين مختلفين على الارض او من موقع واحد في مكانين مختلفين من فلك الارض حول الشمس امكن ان يعمل حساب لبعد اقربهما الينا بطرائق علم المثلثات . وهذا العمل شبيهٌ بما يعمله المهندس الذي يقيس بعد جبل من مكانين ليرسم مثلثاً يعرف بهِ بعد الجبل من معرفة البعد بين المكانين والزاوية التي بين خطي النظر

وكان بعد النجم ٦١ في صورة الدجاجة بحسب طريقة بسيل ٦٠ مليون مليون ميل عن الارض . وما انقضت شهور على ذلك حتى أعلن توماس هندرسن وهو اسكتلندي كان يشتغل بالرصد في مرصد رأس الرجاء الصالح انهُ قاس بعد الفا قنطوروس فاذا هو ٢٥ مليون مليون ميل اي نحو اربع سنوات ضوئية وثلاثة اعشار السنة. ثم قاس ستروف بالطريقة نفسها « الفا السلياق»

(١) راجع موجز سيرته وآثاره العلمية في اساطين العلم الحديث صفحة ٣٤ — ٤٠ من الطبعة الاولى

الاّ ان الطريقة كانت صعبة ، ولذلك كان عدد النجوم التي قيست ابعادها بها حتى مستهل القرن العشرين لا يزيد على ستين نجماً . وكان منها احد عشر نجماً فقط تبعد عنا احدى عشرة سنة ضوئية او اقلّ والباقي كان أبعد من ذلك

غير ان العلماء ظلوا مكبّين على هذه الطريقة على الرغم من صعوبتها ، ولكنهم تولوها بالتحسين والاتقان فشرع علماء مرصد يركيس في استعمال التصوير الضوئي سنة ١٩٠٣ فغدت هذه الطريقة أدق مما كانت ثم كشف العلاّمة ولتر ادمز — مدير مرصد جبل ولسن — طريقة طيفية لتعيين زوايا الاختلاف من دراسة خطوط الطيوف المختلفة وقوة الاشراق فأسفر استعمال هذه الطريقة الطيفية من سنة ١٩١٦ الى ١٩٢١ عن قياس ابعاد الفين من النجوم. ومع ما اضيف الى طريقة زاوية الاختلاف من التحسينات على ايدي فان مانن ورسل وشابلي ظلّ عدد النجوم التي قيست ابعادها قليلاً جدًّا بالقياس الى الوف الوفها المنثورة في رحاب الفضاء

***

قلنا ان الشمس والسيارات وسائر الاجرام الداخلة في مجموعتها جزء من تلك المجموعة النجمية التي اطلق عليها اسم المجرّة . فهل وراء المجرّة عوالم أخر ? يرى الباحث في نواحٍ شتى من الفضاء « لطخاً سحابية » مضيئة يبدو له انها وراء المجرّة . ما هي ? وهل هي مجرّات اخرى ? وهل تشبهُ مجرتنا ? ليست هذه الخواطر بشيء جديد في العلم . بل ان الفيلسوفين كانت وسپنوزا اشارا اليها وكتبا فيها . فقالا ان وراء آفاقنا عوالم لا حدّ لها ولا عدد . بل استرعت نظر ابي الحسن الصوفي الفلكي العربي قبلهما فوصفها

وكذلك وقف العلم هنيهة عند حدود مجرّتنا ، يعد عدّتهُ ويحشد بحارتهُ وربابنتهُ لرحلة جديدة في رحاب الكون الشاسعة ووراءها . ففي سنة ١٧٨٢ كان الفلكي الفرنسي ميسييه (Messier) قد أحصى مائة وثلاث لطخ من هذه اللطخ السحابية المضيئة. كان بعضها أشبه ما يكون بأقراص السيارات ، وكان بعضها لا شكل خاص لهُ كأنهُ قطعة مشعّثة من الغيوم . ثم في ١٨٤٨ تمكن لورد رُس من رؤية أول لطخة من هذه اللطخ الحلزونية الشكل . وكان سبيله اليها مرقبٌ قطرهُ ست اقدام وطول أنبوبهِ خمسون قدماً . ثم تمكن العلامة هجنز Huggins في أواخر العقد السابع (١٨٦٧) من استعمال المطياف في دراستها . قال : وجّهت المطياف الى أحد هذه السدم Nebulae الصغيرة ، ولعلّ القارىء يستطيع ان يتصوّر شعور الرهبة والتطلع الذي خالجني عند ما وضعت عيني على المطياف » . فكانت هذه الطريقة الجديدة في البحث الخطوة الاولى الى هذه « العوالم الجزرية » الكائنة من وراء المجرّة ، ومعرفة تركيبها ، وتبيّن ان بعضها مجموعات كبيرة من النجوم تبدو غيمة مضيئة لبعدها، وإن البعض الآخر غاز مضيء على الاكثر

كانت السدم بعيدة عنا بعداً يجعل قياسه متعذراً . فطريقة زاوية الاختلاف لا تجدي . لان الاختبار كان قد أثبت ان هذه الطريقة لا يمكن تطبيقها على نجوم تبعد عنا اكثر من مائة سنةٍ ضوئية . فكان لا بد من طريقة اخرى تقوم على قاعدة جديدة . وكذلك انقضت السنون وعلماء الفلك يبحثون عن هذه الطريقة . اما كيف كشفت فمن روائع العلم الحديث

***

من انواع النجوم التي ترصّع القبة الفلكية نوع يعرف باسم « المتغيرات القيفاوية » وقد دعيت هذه النجوم كذلك نسبة الى نجم « دلتا قيفاوس » . هذه النجوم تتغير اشراقاً تغيراً دوريًّا فاذ تكون خافية الضياء تراها وقد اخذت تزداد اشراقاً ثم تأخذ بعد ذلك بالخمود حتى ترجع الى حالها الاولى . وقد شبهها جينز بنار الموقد الخامدة وقد التي فيها قدر من الفحم فما لبثت حتى اشتدَّ سعيرها . وقد وصفناها في مقتطف دسمبر ١٩٣٥ فقلنا « هذه النجوم قد تكون حمراً او مبياضة أو صفراً ، ولكنها على اختلاف ألوانها تنبض نبضاً منتظماً كأن كلاًّ منها قلب كبير ينقبض وينبسط او كأنها شعلة من الغاز تمدها حنفية تفتح وتقفل في فترات منتظمة فاذا فتحت كبرت الشعلة واذا أقفلت ضؤلت الشعلة حتى تكاد تنطفىء » . اما فترة التغير هذه فتختلف باختلاف النجوم من بضعة ايام الى شهر او اكثر

والفضل في كشف الطريقة الجديدة لقياس ابعاد النجوم لسيدة أميركية تدعى المس هنريتا لفيت Leavitt . كانت هذه السيدة تشتغل في مرصد جامعة هارفرد سنة ١٩١٢ . وكان قد مضى عليها سنوات وهي تدرس الالواح المصورة لنواحٍ مختلفة من السموات بغية ان تكشف ما تنطوي عليهِ هذه الالواح من حقائق جديدة عن النجوم مفردة ومجتمعة . واذ كانت مكبَّة على صورة لاحد القنوان النجمية التي على حدود المجرَّة ، تبيَّنت فيها شيئاً جديداً . ذلك ان طائفة من المتغيرات القيفاوية كانت قد ظهرت في تلك المجموعة النجمية . فلاح لها من دراسة الصورة ان المتغيرات القيفاوية الكبيرة المشرقة كانت أبطأ تغيُّراً من المتغيرات القيفاوية الصغيرة الخافية . فالفترة التي تنقضي بين خفاء القيفاويات الكبيرة وبلوغها ذروة اشراقها ثم رجوعها الى ما كانت عليهِ كانت أطول من فترة التغيُّر في القيفاويات الصغيرة . فأسرَّت ذلك الخاطر وعمدت الى ما تجمع من الصور الضوئية للسدم الاخرى التي صورت منذ استعمل تلك الطريقة الفلكي درايبر في سنة ١٨٨٠ وخرجت من بحثها الدقيق المستفيض بأن طول فترة التغيُّر متصلة صلة وثيقة بقوة الاشراق . فأعلنت هذه القاعدة الجديدة في علم الفلك

ولـكن الاشراق البادي لنجم من النجوم يختلف عن اشراقهِ الحقيقي. لان ما يبدو من اشراق أحد النجوم يتوقف على بعدهِ . فقد يكون نجم عظيم الاشراق ولـكنهُ عظيم البعد في الوقت نفسهِ فيبدو للراصد الارضي نجماً غائراً . فاذا كان هناك نجمان قيفاويان على بعد واحد من الارض وكانت فترة التغيُّـر في أحدهما اقصر من فترة التغير في الثاني ، فالاول أقلُّ اشراقاً من صاحبهِ

فلما وضعت هذه القاعدة هذا الوضع ظهرت فائدتها في قياس ابعاد النجوم . ولنفرض أن أمامنا نجمين قيفاويين فترة تغيُّرهما واحدة . ثم لنفرض ان اشراق أحدهما البادي يفوق اشراق الآخر مائة ضعف . فالنتيجة الحتمية التي نخرج منها — إذا صحت قاعدة المس لڤيت — ان أقلهما اشراقاً يجب ان يكون أبعد من الآخر عشرة اضعاف لان الضياء الصادر من جسم مضيء يقل كمربع المسافة . ثم لنفرض ان أحد هذين القيفاويين واقع في مجموعة من النجوم عرف بُعدها عن الارض . ففي هذه الحالة يمكن استخراج بعد الآخر استخراجاً دقيقاً

وكذلك تمَّ للعلماءِ أسلوب جديد بارع لذرْع الفضاء (١)

هنا دخل هارلو شابلي Shapley الميدان . كان شابلي قد توفَّـر على علم الحيوان ، ثم انقلب الى الصحافة واخيراً استهواه علم الفلك فأقبل عليهِ . فلما اعلنت المس لڤيت قاعدتها الخاصة بعلاقة فترة التغير في النجوم القيفاوية المتغيرة بقوة الاشراق كان في مرصد جبل ولسن بكاليفورنيا يرصد القنوان الـكروية Globular clusters لما بدا له فيها من خواص تجعلها عوالم قائمة بذاتها وفي الوقت نفسهِ جزءاً من المجرَّة ، فوجد في بعضها طائفة كبيرة من النجوم يبلغ عددها ٣٥ الفاً . فلما ثبت لهُ ما لقاعدة المس لڤيت من الشأن جعل شغلهُ الشاغل البحث عن المتغيرات القيفاوية في هذه القنوان . وبعد بحث رياضي دقيق تمـكن من استخراج طريقة سهلة من قاعدة المس لڤيت تمـكن الباحث من معرفة ابعاد هذه النجوم الحقيقية بدلاً من معرفة ابعادها النسبية واستعمل طريقتهُ هذه في قياس بعـد قنو هرقل — وعدد نجومهِ ٣٥ الفاً — فوجدهُ ٣٦ الف سنة ضوئية . واذن فهـذا القنو جزءٌ من المجرَّة ولا يمكن ان يكون خارجها لان قطرها نحو مائة الف سنة ضوئية. ثم استعمل الطريقة نفسها في قياس ابعاد مائة من هذه القنوان الـكروية فوجد ان ابعدها — وهو الموسوم NGC 7006 — يبعد ٢٢٠ الف سنة ضوئية ، عن الارض

ومن غرائب هذا الباحث انهُ كان في اثناء بحثهِ الفلـكي يرتدُّ الى البحث في الحيوان ليريح ذهنهُ فيعدُّ رسائل في طبائع بعض الحيوانات ويتلوها على اكادمية العلوم الاميركية

(١) راجع مقتطف دسمبر سنة ١٩٣٥ صفحة ٥٢٥ مقالة « ذرع الفضاء »

هوذا طريق جديد رسمتهُ المس لفيت وسار فيهِ شابلي الى بعد ٢٢٠ الف سنة ضوئية ، فمن يجرؤ على ان يقود مواكب العلم الى رحاب الفضاء حيث السدم اشبه ما يكون بالمنائر في بحار الكون القاتمة تومىء الى الروّاد

وجد علم الفلك هذا الرائد المقدام في شخص باحث يدعى ادوين هبل Hubble . ولد هبل في مارشفيلد بولاية مسوري الاميركية وتلقى العلوم العالية في جامعة شيكاغو فكان ملكن الطبيعي مدرّبهُ وهايل الفلكي مصدر إلهامهِ . وكان علم الفلك اقرب العلوم الى قلبهِ تليهِ الرياضة العالية . وظهر نبوغهُ وهو لا يزال حدثاً فمكنهُ وهو في الحادية والعشرين من الفوز بجائزة مهّدت لهُ سبيل الدراسة في جامعة اكسفورد . والغريب فيهِ انهُ تلقى في اكسفورد علوم القانون وعندما عاد الى اميركا مارس المحاماة في مدينة لويسفيل بولاية كنتكي . فلما احس انهُ بَرِم بقوانين الناس ارتد الى قوانين الكون فعيّن باحثاً في مرصد يركيس ثمَّ استدعاه هايل الى مرصد جبل ولسن بكاليفورنيا في سنة ١٩١٩

هناك شرع هبل في دراسة السدم وكان قد سبق لهُ ان صوّرها في سنة ١٩١٧ وسأل نفسهُ وهو يصوّرها هل هي جزء من المجرَّة . وكان اقرب هذه السدم يبدو لطخاً خفيفة الضياء في حجم قرص القمر . فوجّه نظرهُ اولاً الى السديم المرقوم Messier 31 وهو سديم حلزوني في صورة المرأة المسلسلة Andromeda وصفهُ اولاً ابو الحسن الصوفي احد كبار علماء الهيئة عند العرب بقولهِ انهُ « لطخة سحابية » . ثم صرف عنايتهُ الى السديم Messior 33 في صورة المثلث . فوجد ان السديم الاول — اي M. 31 (١) — أضعف اشراقاً من اجرام سماوية أخرى معروف بعدها عن الارض . ولكن ذلك لم يدلّهُ على اشراقهِ الحقيقي . فجعل يبحث عن متغيّرات قيفاوية فيهِ فوجد طائفة منها نحو العشرة او أكثر قليلاً وظهر لهُ ان فترة التغيّر فيها تماثل فترة التغيّر في بعض القيفاويات التي في المجرَّة . فاستند الى قاعدة المس لفيت كما أفرغها شابلي واستخرج الاشراق الحقيقي لهذا السديم فاذا هو يزيد على اشراق الشمس أربعة آلاف ضعف . وعلى هذا الاساس قال ان السديم M. 31 يبعد عن مجرتنا ٩٠٠ الف سنة ضوئية . واذن فهو خارج المجرَّة . وقد أسفر البحث الدقيق في هذا السديم المعروف باسم سديم المرأة المسلسلة علاوة على سمتهِ العلمية M. 31 فاذا هو شبيهٌ بالمجرَّة شكلاً وتركيباً

بعد ذلك انصرف الى السديم الثاني M. 33 فبحث فيهِ عن متغيرات قيفاوية فلما وجدها اعتمد عليها وعلى قاعدة المس لفيت في تعيين بعد هذا السديم عن مجرّتنا فاذا هو خارج المجرَّة كذلك ويبعد عنها مليون سنة ضوئية

---

(١) سنستعمل حرف M في ما يلي من الكلام اختصاراً لـ Messior

وكذلك شرعت سفينة العلم في رحلتها خارج حدود المجرَّة . لقد أثبت هبل وجود عوالم اخرى هناك ، وأشار الى أنهُ من الجائز وجود الوف منها . إن نظرية « العوالم الجزرية » التي أشار اليها هرشل ثم اهملت ، عادت الآن وجلست على عرش الفلك !

***

كان بحث هبل المتقدم فاتحة فصل جديد عجيب في الريادة الفلكية . وما مهدت السبيل حتى أقبل الروَّاد من كل جانب يبحثون عن عوالم جديدة في الرحاب التي خارج المجرَّة . هو ذا المراقب الكبيرة مسدَّدة الى صدر السماء . وها هي ذي « اللطخ السحابية » تنحل بفعل المرقب والمصوَّرة الضوئية والمطياف الى نجوم تامة التكوين وسحب مضيئة لا تزال في حالتها البدائية. هنا وجدت متغيرات قيفاوية مكنت الراصدين من تعين ابعاد هذه السدم بل وجد في بعضها نجوم جديدة Novae تبدو حيث لم يكن ثمة نجم او حيث كان هناك نجم غارٌ ، وإذا النجم الجديد ينبثق مشرقاً كانهُ نار شبت فجأة ثم لا تلبث بعيد اشتعالها حتى تخمد وتنطفىء . كان الصينيون قد رصدوا بعض هذه النجوم في الزمان القديم . ويروى عن هبَّارخس انهُ صنع زيجه لانهُ رأى نجماً جديداً عظيم التألق . فأراد ان يعرف هـل هو ظاهرة نادرة او كثيرة الوقوع فجعل يحصي النجوم ويدوِّن مواقعهـا ليعلم متى ظهر نجم يحسب جديداً ، بالقياس الى النجوم الثوابت . وكان اول نجم جديد ظهر في العصر الحديث فاسترعى عناية العلماء نجماً رآه تيخو براهي في صورة ذات الكرسي Cassiopeia سنة ١٥٧٢ وقيل انهُ بلغ درجة من التألق جعلت رؤيته مستطاعة في رابعة النهار . وظل على ذلك ستة اشهر . ومن أحدث ما رصد من هذه النجوم الجديدة نجم جديد في صورة هرقل سنة ١٩٣٤ زاد اشراقه خلال شهر واحد مائة الف ضعف وكان اشراقه قبيل اختفائه مثل اشراق النجم القطبي. وليس في تاريخ الفلك منذ سنة ١٥٧٢ الاَّ ذكر ثمانية وأربعين نجماً من هذه النجوم الجديدة. ولعل نجم بيت لحم الذي استدل به الرعاة على ولادة المسيح كان احدها. ولكن العلماء لا يزالون في شك من اصلها ونشأتها ويذهب بعضهم الى انها نشأت من اصطدام نجم غارٍ بآخر مظلم ويقول آخرون انها قد تنشأ من انفجار النجم بما يحشد في داخله من الطاقة

هذه النجوم الجديدة ، من الوسائل التي تمكن الباحثين من تعيين ابعاد السدم لان البحث اسفر عن ان معظم اشراقها يدل بوجه عام على بعد الصورة التي تظهر فيها عن الارض

[موضوع الفصل التالي في
هذا البحث الخلاب « تفرق
السدم وتمدد الكون »]

الشيخ ابو علي

ابن سينا

بقلم منوشهر مؤدب زاده
صاحب جهره نما الايرانية

— ١ —

الشيخ الرئيس ، حجة الحق ، رئيس العقلاء ، شرف الملك ، أبو علي حسين بن عبدالله ابن سينا . هذه هي الالقاب التي نعرفهُ بها غير أن لقب (الشيخ الرئيس وحجة الحق ورئيس العقلاء) ليست ألقاباً سلطانية أو أميرية بل هي ألقاب لقّبهُ بها العلماء وعرِف بها بينهم ونرى أن كلمة (حجة الحق) قد استعملت من بعده لقباً لبعض أعاظم الفضلاءِ كالخيام مثلاً . اما الشيخ الرئيس فهو من ألقابهِ المخصوصة وقد يقال لهُ (الشيخ) اختصاراً فأينما استعمل هذا اللقب في الكتب الفلسفية فهو المقصود بهِ . وأما كلمة (الرئيس) فكانت تستعمل في ذلك العصر لقباً لاعاظم الرجال وكانوا يضيفون اليهِ بعض الاحيان ألفاظاً كالاستاذ والفاضل وما اشبه ذلك من الالفاظ الدالة على زيادة في الإجلال والاكرام . ومنها لقب (الشيخ الرئيس) الذي تفرّد بهِ ابن سينا وأصبح علماً له بعد ذلك

وشرف الملك من الالقاب السلطانية التي عرف بها الشيخ . ويظهر لنا أن اشتغاله بالمناصب الملكية والتصدي لامور الوزارة قد منحاه هذا اللقب . ونراه مذكوراً في رسائل كتبت للشيخ من معاصريه وصرح بهِ القاضي ابن خلّكان في كتاب وفيات الاعيان ايضاً ولكنهُ ليس من الالقاب المتداولة كثيراً بين الناس

وأما نسبه فالمشهور هو ما ذكرناه ولكنّ ثمّ طائفةً تزعم غير ما قرّرناه وتجعل سينا جدّاً ثالثاً للشيخ أبي علي ، ويذكرون نسبه كما يأتي : أبو علي حسين بن عبد الله بن حسن بن علي بن سينا .

وكان أبوه عبد الله من مدينة بلخ وقد هاجر في أيام نوح بن منصور أحد ملوك السامانية

(من سنة ٣٦٥ — ٣٨٧ هجرية) الى مدينة بخارى[1] عاصمة الحكومة السامانية وفي زمن نوح ابن منصور المذكور توظَّف في دوائر الحكومة وباشر أعمال الدولة وكان عاملاً في إحدى قرى بخارى تسمى خَرْمَيْثَن (بفتح الخاء المعجمة وسكون الراء المهملة وفتح الميم وسكون الياء وفتح الثاء المثلثة قرية من قرى بخارى — معجم البلدان ص ٤٢٤) وقد تزوَّج من فتاة من أهل قرية أَفْشَنَه (وأفشنه بفتح الهمزة وسكون الفاء وفتح الشين المعجمة قرية من قرى بخارى. — راجع معجم البلدان صفحة ٣٠٥ من المجلد الاول) تسمى ستاره — حسبما ذكرها ابن خلّكان — فاولدها أبا علي (وستارة لفظة فارسية بمعنى كوكب) . وقد اختلفوا في سنة ولادة الشيخ فنهم من قال انهُ ولد في سنة ٣٧٣ هـ وقد نظم فيها بعض الشعراء بالفارسية ما معناه أن حجة الحق أبا علي ابن سينا وُلد في (شجع — ٣٧٣) ودرس كل العلوم ومارسها في (شصا — ٣٩١) وتوفي في (تكز — ٤٢٧)

ومما يستفاد من المقدمة التي كتبها تلميذ الشيخ (أبو عبيد الجوزجاني) الآتي ذكره على كتاب « الشفاء » ان أستاذه كان يبلغ من العمر ٣٢ عاماً سنة ٤٠٤ مما يدل على انه ولد عام ٣٧٣ ويقول الشهرزُوري ان ولادة الشيخ أبي علي كانت في سنة ٣٧٠ ويوافقه جلُّ المؤرخين القائلين ان وفاة ابن سينا كانت في سنة ٤٢٨ وكان إذ ذاك يبلغ من العمر خمساً وخمسين سنة وهو مطابق للتاريخ المذكور ايضاً

ويقول لنا ابن سينا في رسالة كتبها عن نفسهِ وأودع فيها سيرة حياته ما ترجمتهُ : انهُ عند ما تفرَّغ من الطب وأتم دراسته كان لا يبلغ من العمر اكثر من ستة عشر عاماً ثم دعاه الملك الساماني نوح بن منصور لمعالجة مرضه الذي أعيي الاطباء واستعصى عليهم وكانت وفاة نوح في سنة ٣٨٧ فاذا فرضنا ان ولادة ابن سينا كانت في سنة ٣٧٣ كما يدَّعون تكون سنُّهُ عند ما توفي نوح بن منصور لا تتجاوز الرابعة عشرة او الخامسة عشرة وهو يخالف كل المخالفة ما ذكره

(١) وكانت بخارى في ذلك العصر عاصمة الدولة السامانية الايرانية التي ينتهي نسبها الى بهرام جور الساساني وكان لهم اهتمام بالشعر والادب الفارسي الذي أخذ ينمو بعد ان أخمدت جذوته الفتوح الاسلامية فأكرموا الشعراء واصطنعوهم وأسبغوا عليهم نعمهم وبذلوا لهم الصلات والهبات فزها الشعر الفارسي ونما وأزهر وأينع وصارت بخارى مقصد الشعراء ومحط رحالهم فكثر الشعراء والادباء حتى لم تكن مدينة او بلد او قرية لم يقم منها شاعر او أديب من الايرانيين وقد أمر ملوك بني سامان بنقل كتب من اللغة العربية الى الفارسية فنقلت . ومن أهم ما نقل في هذا العصر كتابا التاريخ والتفسير للطبري وهما اليوم أحسن أثر ودليل على الثقافة الادبية الايرانية في ذلك العصر الذي يعد فجر النهضة وسلاسة الالفاظ والعذوبة اللتين تظهران في هذين الكتابين وتدلان على ذلك الاستعداد العظيم الذي نهض بالادب الايراني نهضة لم يكن ينتظرها التاريخ

الشيخ عن نفسه فانه يقول أنهُ أتم دراسة الطب في السادسة عشرة ولا بد ان يكون قد اشتغل قبل ذلك بالطب وارتفعت شهرته وعلا صيته حتى دعاه الملك الساماني لمداواته . ولكن اذا جعلنا تاريخ الولادة سنة ٣٧٠ خرجنا من هذا المأزق . أليس من العجب ان يكون الراوي لهذه الرسالة والمذيل لها هو أبو عبيد المذكور مع ذلك نراه يقول في مقدمته على كتاب « الشفاء » ان استاذه كان يبلغ من العمر اثنين وثلاثين عاماً سنة ٤٠٤ ؟

فني ما ذكرناه ما يكفي لان نقول ان ولادته على أصح الروايات كانت في سنة ٣٧٠ والآن نعود الى سيرة حياته فنقول : —

بعد ما وُلد ابو علي في افشنة انتقل بهِ والده الى مدينة بخارى وسكنها وأرسل ولده الى احد الكتاتيب . ومن هنا تبتدىء حياته العلمية وثقافته النادرة فانهُ لم يبلغ العاشرة حتى كان قد حفظ القرآن الكريم ودرس اكثر فنون الادب .

وكان أبوه من الشيعة الاسماعيلية القائلين بامامة اسماعيل بن الامام جعفر الصادق وكان يراجع رسائل اخوان الصفا وأبو علي يسمع ما يدور بين أبيهِ وأخيهِ وما يتذاكران فيهِ من المسائل الفلسفية الاسماعيلية في مبحث العقل والنفس وما أشبه ذلك فتأثرت نفسه بما سمعهُ منهم وتمكن حبُّ الفلسفة من نفسهِ ورغب في دراستها . ولكن أباه أرسله ليتعلم الحساب فاشتغل بدراستهِ وأتقنه على احد أساتذة هذا الفن . واتفق ان أبا عبد الله الناتلي زار مدينة بخارى في تلك الايام (وناتل بلدة قديمة من بلاد طبرستان) وأبو عبد الله هذا هو أحد فلاسفة القرن الرابع وكان من جهابذة فن الالهيات وممن يُشار اليهم بالبنان في هذا الفن وقد ألّف كتباً في الفلسفة ومنها كتاب في بيان « مدى العمر الطبيعي » . وقد نقل عنهُ البيروني في كتابهِ المسمى بالآثار الباقية ص ٨٣ ومنها كتاب آخر في شرح الوجود ورسمهِ وقد شاهده الشهرزوري وارتضاه وكانت عنده نسخة منهُ

وقبل ان يزور أبو عبد الله الناتلي بخارى كان أبو علي يقرأ الفقه على اسماعيل الزاهد ولما ورد أبو عبد الله بخارى أخذه عبد الله أبو الشيخ أبي علي بن سيناء الى بيتهِ وأضافهُ عنده ليدرس ابو علي عنده الفلسفة فقرأ هذا على الناتلي بعضاً من المنطق وقسماً من هندسة اقليدس ولكنهُ بعد ان درس ستة من الاشكال الهندسية وفهم طريق حلها استخرج باقي الاشكال ودرسها من نفسهِ وقرأ أيضاً بعض المجسطي عند الناتلي ولم يشكل عليهِ فهم بقية الكتاب

ولكنَّ أبا علي لم يقدّر هذا الاستاذ حق قدره فهو يحتقره فيما يقول عنهُ ومما يقول فيهِ انهُ قرأ عنده ظواهر المنطق وأما الدقائق فلم يكن للناتلي إلمامٌ بها ، ويقول ايضاً « عندما شرعت في قراءة المجسطي قال لي اقرأ الكتاب وأوضح مسائله ثم اعرض عليَّ أفكارك لأصلح

لك الخطأ ولأ دلك على الصواب ولـكن هذا الرجل (اي الناتلي) لم يكن يفهم الـكتاب،فشرعت أنا في المطالعة والدرس وأوضحت ما أشكل من القضايا والمسائل وما أكثر القضايا التي لم يفهمها حتى عرضتها عليهِ وأوضحتها لهُ »

ثم سافر الناتلي بعد ذلك الى مدينة جرجانج وظلَّ أبو علي يطالع الكتب الفلسفية ويدرسها وحده وقد نجح في ادراك اكثر مطالبها وايضاح معظم مسائلها المشكلة العويصة

ثم أقبل ابن سينا على دراسة الطب وهو يعتقد ان هذا العلم ليس من العلوم الصعبة ولذلك تمكَّن من اتقانهِ في زمن قليل واشتهر فيهِ فقصده علماء هذا الفن وأخذوا يقبلون عليهِ للاخذ عنهُ فأصبح مقصداً لعلماء هذا الفن ومحطًّا لرحالهم . وكذلك قصده المرضى فجعل يداوي من قصده حتى برع في الطب ووقعت له تجارب ذات شأن ربما لم يصبها من كان قبله . وكان اشتغاله بالطب بينما كان يدرس الفقه وهو لم يتجاوز السادسة عشرة ثم عاد الى دراسة المنطق والفلسفة وأخذ يدوّن القضايا الفلسفية ثم يعرضها على القوانين المنطقية واستمرَّ مثابراً على عمله هذا زمناً لا يقل عن ثمانية عشر شهراً لم ينم فيها الاَّ قليلاً طرفاً من الليل فأتقن الفنون المنطقية والطبيعية والرياضية وفهمها وأوضح ما اشكل منها . ثم شرع في دراسة علم الالـهيات وقرأ كتاب (ما بعد الطبيعة) لارسطاطاليس وأعاده اربعين مرة حتى حفظه عن ظهر قلب ولـكن مع ما بذله من الجهد لم يتمكن من فهم ما حواه الـكتاب من المطالب فتطرق اليهِ اليأس وربما اراد الانصراف عن تعلم الالـهيات ولكن وافاه الحظ وقتَ ما عثر على رسالة لابي نصر الفارابي كان قد كتبها لبيان اغراض ارسطو في (ما بعد الطبيعة) فـكانت هذه الرسالة أحسن سبب في فض ما اشكل عليهِ من علم الالـهيات ففهمهُ واتقنهُ كسائر العلوم . ثم ارسل اليهِ نوح بن منصور ودعاه ليداويه فانتهز الشيخ هذه الفرصة ولم يضيعها وطلب من الملك الساماني ان يسمح له بالدخول الى المـكتبة الملـكية فأذن له وكانت هذه المـكتبة من المـكتبات العظيمة تحتوي على كتب ومجلدات نفيسة نادرة الوجود فدخلها ابن سينا وأقبل على المطالعة والقراءة وأكبَّ على الاخذ من كتبها النفيسة وأعمل حافظتهُ فأخذت تلتهم ما تجد امامها من فنون وعلوم وعثر هنالك على كتب لم يرها احدٌ قبله فشرع يكتب عنها مذكرات نافعة قيمة ذات فوائد عظيمة ولم يبلغ الثامنة عشرة حتى اتقن العلوم الفلسفية.ايّ اتقان وارتوى من منهلها العذب وبلَّ غلته . واتفق ان تطرقت النار الى هذه المـكتبة العظيمة واحترقت بما حوته من الـكتب وذلك بعد خروج ابي علي منها فرماه أعداؤه بالتهمة ونسبوا اليه احراق المـكتبة ليتفرد بالعلوم والـكتب التي اكتسبها منها وليشتهر بهذه العلوم وينسبها الى نفسه . ولـكن مؤلفات هذا النطاسي العظيم التي حوت العلوم الفلسفية والحـكمية قد ملأت الفراغ الذي احدثه احتراق المـكتبة وسدت تلك الثلمة التي

حدثت من جراء ذلك . ثم شرع ابو علي في التأليف وصنف كثيراً من الكتب واتفق ان توفي والده في تلك الايام -- والظاهر ان وفاته كانت سنة ٣٩٢ هـ -- فتصدى الشيخ بعد ذلك للاعمال السلطانية التي كانت لابيه واستمر في ذلك العمل حتى اضطربت احوال ما وراء النهر واختلت الامور فسافر الى خوارزم اضطراراً ونزل ضيفاً كريماً على ابي الحسين السهيلي وزير علي بن المأمون خوارزمشاه فأكرم مثواه وتلقاه بكل ما يليق بمقامه وطلب اليه أن يصنّف الكتب -- وكان أبو الحسين السهيلي هذا من جلّة أهل الفضل والادب في ذلك العصر وكان ينظم الشعر وله اشعار عربية رائقة ذكر بعضها صاحب معجم الادباء في كتابه . وكان وزيراً للخوارزمشاهية ، وفي سنة ٤٠٤ أي في عصر المأمون بن المأمون سافر الى بغداد دار الخلافة العباسية وعاش فيها الى سنة ٤١٨ -- وأما أبو علي فقد عاش في سعة ورخاء في البلاط الخوارزمشاهي ونال من علي بن المأمون والمأمون بن المأمون بعده كلّ اكرام وعاشر بعض اهل الفضل واختلط بجلّة العلماء كأبي ريحان البيروني وابي نصر بن عراق وابي سهل المسيحي -- وكان أبو سهل عيسى بن يحيى المسيحي الجرجاني من اعاظم علماء هذا العصر وله تآليف كثيرة منها كتابه المعروف (بالمائة) في الطب . قال ابن العبري في كتابه تاريخ مختصر الدول « ودرس ابن سينا الطب على ابي سهل المسيحي » وهو مرتاب فيما يقوله والظاهر انهُ قول لا يعبأ بهِ لان أبا علي لو كان متلمذاً عليهِ لذكره في رسائله ولو اعتقد فيهِ كالتالي لذمَّه ايضاً . ثم من اين نعلم أن أبا سهل كان في مدينة بخارى ؟ وبعد هذا كله فان أبا علي قد صرَّح ان الطب ليس من العلوم الحرجة وانهُ قرأه على نفسه ولم يدرسهُ على احد ولم يُشر احدٌ من المؤرخين الى ذلك فكون ابي سهل من اساتذة ابي علي لا يخلو من تأمل

وفي سنة ٤٠٣ سافر أبو علي من خوارزم لسبب غير معلوم ولعل عدم اكتراث خوارزمشاه لأبي الحسين السهيلي الحامي لاهل العلم والادب وعدم الاهتمام بهِ كان هو السبب . وقد ذكر صاحب كتاب (چهار مقاله) في السبب الذي سافر من اجله أبو علي حكاية لا ريب في سقمها حيث يقول إن فراره كان خوفاً من السلطان محمود الغزنوي يمين الدولة وقد علّل القاضي نور الله في كتاب مجالس المؤمنين ذلك وقال أن تشيُّع أبي علي وتعصُّب السلطان لمذهب اهل السنَّة كانا سبب هذا الخوف فأراد ابو علي ان يذهب الى شمس المعالي قابوس بن وشمكير الذي كان من السلاطين المتشيِّعة والظاهر ان ابا علي لم يقصد قابوساً لتشيعه بل لانهُ كان من الفلاسفة والادباء وكان يحب اهل الادب ويهتمُّ بهم فقصده لذلك . غير انهُ لما كان على وشك الذهاب الى جرجان سمع ان قابوساً قد قبض عليهِ وسجن ثم قتل فاضطرّ الى العود الى دهستان ومرض هناك ولما عادت اليه صحته وتعافى من مرضه ذهب الى جرجان . وفي كتاب (چهار مقالة) رواية

عن زيارة الشيخ لقابوس بن وشمكير والطريقة التي داوى بها الشيخُ أحد أقارب هذا الامير وقد نظمها مولانا جلال الدين الرومي في الجزء الاول من كتابهِ المسمى بالمثنوي . غير ان المستفاد من رسالة أبي علي انهُ لم يلاقِ قابوساً . فلا بدَّ لنا اذن من ان نقول ان الرواية المذكورة في كتاب (جهار مقالة) سقيمة لا أصل لها

ويقول أبو الفداء في تاريخه ان أبا علي قد ذهب الى قابوس بعد ما أقام عند مجد الدولة البويهي وخدمهُ مدة ولكن الذي نعلمهُ هو ان أبا علي سافر الى الري في سنة ٤٠٤ ولم يكن قابوس حيًّا في ذلك التاريخ . وعند ما كان أبو علي مقيماً في جرجان استأجر لهُ احد الفضلاء بيتاً الى جنب بيتهِ وأنزل ابا علي فيهِ وكان يتولى أموره ويتعهدها وهنا اتصل بهِ أبو عبيد الجوزجاني المشار اليهِ آنفاً الآتي ذكره في محله وكان هذا يحرض الشيخ ويستفزُّ همته في التأليف والتصنيف. وكان الشيخ يتصدّى لبعض الاعمال السلطانية في جرجان ايضاً ولم يكن لديه متسع من الوقت للتأليف والتدريس . ومن الكتب التي الفها في جرجان المجلد الاول من كتاب القانون ومختصر المجسطي وبعض رسائل الَّفها لابي محمد الشيرازي . ويستفاد من مقدمة هذه الرسائل ان الشيخ قبل وصوله الى جرجان اصيب بامراض صعبة كان ابو محمد الشيرازي سبباً في تخفيف وطأتها . ومن جرجان قصد مدينة الريّ وخدم مجد الدولة وامه المعروفة بالسيدة والمسماة بزبيدة وداوى مجد الدولة وكان مرضه السوداء ثم سافر الى قزوين ومنها الى همذان واتصل بكدبانويه—ولم نعرف من هي—وورد على شمس الدولة بن فخر الدولة حاكم همذان في مجلسه وشفاه من مرضه الذي كان يشكو منه وقد اختلفوا في السنة التي سافر فيها الشيخ الى همذان فالشهرزوري يقول في كتابه سافر قبل بدر بن حسنويه (وحسنويه هذا كان يحكم بعض بلاد كردستان) وقال ابو عبيد في مقدمته ان سفره هذا كان بعد مقتل هلال بن بدر بن حسنويه. وانا نعلم حق العلم ان بدر بن حسنويه وابنه هلالاً قد قتلا (سنة ٤٠٥) فعلى قول الشهرزوري يكون سفر الشيخ الى همذان قبل سنة ٤٠٥ أو بعد هذه السنة على ما قال ابو عبيد في مقدمته . والظاهر لنا ان الثانية اصح لان الشيخ قد طالت اقامته في جرجان وذهب من هناك الى الريّ وقزوين . ثم ان رواية أبي عبيد أصح ولعل الاشتباه الحاصل للشهرزوري هو من تصحيفه كلمة (قتل هلال) اذا كان قد قرأها (قبل هلاك) بدر بن حسنويه فنقلها كذلك . واما ابو علي فقد أصاب منزلة رفيعة عند شمس الدولة البويهي ولازمهُ في اسفاره فاستوزره وفوض الامور اليهِ ويظهر ان تصديه للوزارة كان بين سنتي ٤٠٥ و٤١٢ لان حوادث سنة ٤١١ تذكر لنا تاج الملك بهران وزيراً لشمس الدولة واما قبل ٤٠٥ فلم يكن قد سافر الشيخ الى همذان . وكان قد ضعف امر الديالمة وافل نجم سعادتهم ولم يبقَ لهم في بلاد الجبال ما كان لهم من القوة وهاج الجند ونهبوا دار الشيخ ابي علي

واختفى هو خوفاً على نفسهِ ولم يضيع هذه الفرصة فاشتغل بالتأليف في ايام اختفائه ولم تمض ٤٠ يوماً على ذلك حتى اصيب شمس الدولة بالقولنج فاستدعى أبا عليّ ليداويه وفي بعض الروايات انهُ استوزر الشيخ ثانية . وفي سنة ٤١٢ توفي شمس الدولة وخلفهُ من بعده ابنه سماء الدولة وقبض على الشيخ وحبس في قلعة فردجان وبقي محجوراً عليهِ وله في هذه القضية قصيدة مطلعها : —

دخولي في اليقين كما تراه   وكل الشك في امر الخروج

ولم يفتهُ ان يستغل هذه المدة ويغتنم هذه الفرصة فقضاها في التأليف والتصنيف فألف فيها شطراً من كتبه وتآليفه . وفي سنة ٤١٤ هاجم همذان علاء الدولة ابو جعفر كاكويه حاكم اصفهان الذي كان أبو علي متهماً بمكاتبته وحبس لاجله ففرَّ تاج الملك وسماء الدولة من همذان.ولما رجع علاء الدولة عنها عادا اليها واخذا في استمالة الشيخ ووعداه بالحسنى . ولما يئس من انجاز ما وعداه به سافر مستتراً الى اصفهان. والذي يظهر لنا من رسائله وما يرويه غيره انهُ لاقى شدة ومحنة في همذان وان الدجالين من اهل العلم والادب قد آذوه وناصبوه العداء واتهمهُ بعضهم بمعارضة القرآن الكريم واتخذوا بعض خطب الشيخ في التوحيد والالاهيات دليلاً لمدعاهم . ويظهر من كتاب ارسله الشيخ الى ابي عبيد الجوزجاني ان بعض الفضلاء قد رشا بعض الدجالين ليتهموا الشيخ في معتقده ومذهبه ،ومن الخطب التي استدل بها أعداؤه على زيغهِ هي الخطبة المسماة بالغراء وقد شرحها الحكيم عمر الخيامي في سنة ٤٧٢ بالفارسية وكان أحد فضلاء همذان يقول ان الكلَّ الطبيعي لهُ وجود في الخارج وكان الشيخ معارضاً لهُ ويظهر ان هذه المعارضة قد اشتدت بينهما حتى اضطرَّ أبو علي ان يستفتي علماء بغداد ويعرض المسألة عليهم ليحكموا فيها

***

ولا نعلم على وجهٍ من الدقة السنة التي سافر فيها الشيخ الى اصفهان ولكن المظنون ان سفره هذا كان بعد ٤١٤. والذي نستفيده من مقدمة ابي عبيد الجوزجاني على كتاب « الشفاء » ان هذا الكتاب قد تمَّ تأليفه في اصفهان وكان الشيخ في ذلك الحين قد بلغ من العمر أربعين سنة ولكن لا يمكن الركون الى هذا القول لانهُ ينقضهُ في شرحهِ لسيرة أبي علي حيث يقول ان ابا علي لم يتوجه الى اصفهان الاَّ بعد ان انقضت مدَّة طويلة على وقعة علاء الدولة ومهاجمة همذان. فاذا كان ما يدعيهِ ابو عبيد من اتمام تأليف كتاب الشفاء في اصفهان وان عمر الشيخ كان في ذلك الحين أربعين سنة فيلزم ان يكون الشيخ قد توجه الى اصفهان قبل الواقعة بسنتين حيث شرع هناك باتمام التأليف . ولكن ابا عبيد قد نقض هذا القول . وأقام ابو علي في اصفهان عند ابي جعفر كاكويه

فارغ البال منعم الحال وتفرغ الى التأليف والتصنيف فأظهر درر فضائله ودوّن غرر حكمهِ وأودعها بطون كتب لا يزال البشر يستفيد منها ويرتوي من منهلها العذب . قال بن الاثير « ابو جعفر كاكويه كان ملحداً زنديقاً ولذلك صنف أبو علي كتبه في الزندقة والالحاد وردّ الانبياء عنده » ولكننا لم نعلم حتى الآن اي كتاب لابي علي كتب على رد الانبياء على اننا نقول ان الرجل قد أيد الانبياء وأخذ بجانبهم الى حدٍّ ما وكان ابو جعفر يعقد في كل ليلة من ليالي الجمع مجلساً ويدعو اليه العلماء فكان ابو علي يتكلم ويتكلمون ويتباحثون في شتى المسائل . ومن الامور التي اقترحها علاء الدولة على الشيخ فأجاب طلبه وقام بما اراد هو الرصد الذي اشتغل بهِ الشيخ مع تلميذه ابي عبيد الجوزجاني مدة لا تقل عن ثماني سنين ولكننا ويا للأسف لا نعلم من ذلك الرصد والامر الذي انتهى اليهِ شيئاً . وكان ابو علي ملازماً لابن كاكويه في جميع اسفاره ومنها التي دارت فيها الحرب بين علاء الدولة وجيش خراسان في سنة ٤٢٣ وقد حضرها ابو عبيد واصيب بالقولنج وكان يحب مصاحبة علاء الدولة وعدم التخلف عنهُ فاستعمل ادوية حارّة اثرت فيهِ فانحرفت صحته وضعف مزاجه فاعتلّ وفقد نشاطه ولم يقدر على القيام بالامور كذي قبل وزاد الطين بلّة ما ارتكبهُ بعض الاطباء وغلمانه من ذوي الاغراض حتى استعمل من الادوية اكثر من اللازم فأحدث له ذلك مغصاً في الامعاء وأدّى الى وفاته وذلك سنة ٤٢٨ وهذا قول أجمع عليهِ المؤرخون وكتبهُ ابو عبيد ايضاً فعلى هذا يلزم ان يكون الشيخ قد عمّر ٥٨ سنة . ولكن أبا عبيد قد اختلط عليهِ الامر فهو يقول ان الشيخ في سنة ٤٠٤ كان يناهز الثانية والثلاثين من عمره فعلى هذا القول تكون ولادته في سنة ٣٧٣ ويكون عمره عند وفاته ٥٥ سنة بيد ان أبا عبيد مع انهُ يتفق مع غيره في سنة الوفاة يقول ان عمره كان ثلاثاً وخمسين سنة وهذا سهو منهُ

***

ولكن هناك ملاحظة أخرى وهي انا اذا جعلنا كلمتي (شجع) و (تكز) المذكورتين تاريخاً للولادة والوفاة فكلمة (تكز) تساوي ٤٢٧ وعلى هذا يكون عمره ٥٤ سنة وهذا لا يطابق ما كتبهُ ابو علي عن نفسهِ في سيرة حياتهِ . وقد اختلف المؤرخون في محل وفاتهِ وقبره ايضاً . قال ابن الاثير في وقايع سنة ٤٢٨ « وفيها توفي أبو علي بمدينة اصفهان » وهناك قول آخر بأن الوفاة كانت في همذان وحمل جثمانه الى اصفهان ودفن فيها . والصحيح انه توفي في مدينة همذان ودفن فيها وقبره معروف هناك يزوره السائحون والناس

[للبحث تتمة]



الشعلة الدستورية

لانيس المقدسي
استاذ الادب العربي بجامعة بيروت الاميركية

الشعلة الدستورية سنة ١٩٠٨
وانقضاء العهد الحميدي

أدرك أحرار الأتراك حرج الموقف السياسي ، وكأنما نظروا بلحظ الغيب الى العواقب السيئة بل الى الانفجار المتوقع من استمرار الدولة على فسادها فسعوا الى اصلاح الحال وتمكنوا ان يحملوا السلطان عبد الحميد عند تسنّمه العرش سنة ١٨٧٦ على اعلان الدستور والحكم النيابي لكن ذلك الدستور لم يلبث — كما رأينا — ان خنق في المهد . وعادت الدولة الى نظام الحكم الفردي فكان ما عرفناه من تفاقم الاضطراب السياسي والاجتماعي طيلة العهد الحميدي (١).

ولعلّ الابيات التالية لولي الدين يكن ترسم لنا بوضوح صورة ذلك العهد . قال (٢)

يبكي بنوكَ ويضحك الزمنُ	ماذا أصابك أيها الوطنُ
ما أوشكت ان تنتهي محنٌ	الاّ وجاءت بعدها محنُ
أما الرسوم فانها درستْ	أما الرجال فانهم دفنوا
العصر راجت سوق باطله	فالحقّ فيــهِ ما لهُ ثمنُ
يا قوم هبّوا من مضاجعكم	طال المدى حتّام ذا الوسنُ

وما رآه ولي الدين في تركيا نفسها رآه جميل الزهاوي في العراق فقال من قصيدة موضوعها « نحن في غفلة » (٣)

(١) راجع وصف هـذا الاضطراب في مقالات الانقلاب العثماني — الهلال م ١٧ ولا سيما ص ١٥٧ — ١٦٣ (٢) ديوانه (الطبعة الاولى) ٣٢ (٣) ديوان الزهاوي (مصر) ١٩٢٤ ص ٢٩١

نحن في غفلة نيامٌ وعنّا نائبات الزمان غير نيامِ
نحن في دولةٍ تداركها الله تبيح المحظور للحكامِ
وعدها بالاصلاح جمٌّ ولكن لا يجوز الاصلاح حدَّ الكلامِ
نحن قوم قضت ارادة شخصٍ واحدٍ ان نعيش كالأنعامِ

ومن الطبيعي ان يصحب الاضطراب الاداري اشتداد العوامل الهدّامة من الخارج ومن الداخل . وقد صدق روحي الخالدي اذ قال [1] « فبسبب تشويش الادارة وتذبذبها لم يعد للحكومة قاعدة مضطردة ولا أصول مرعية لا في سياستها الداخلية ولا الخارجية ولذا سقط اعتبارها عند الدول الاجنبية حتى تجرأوا على تهديدها في المسائل الطفيفة العادية وسقط اعتبارها أيضاً في نظر رعاياها وصار أكثر الموجودين منهم في الديار الاجنبية يأنفون من دخولهم في التابعية العثمانية » فلا عجب اذا رأينا ممتلكاتها البلقانية تنفصل عنها واحدة بعد واحدة فضلاً عن كريت وقبرص وسواها . وفي الشعر العربي اشارات كثيرة الى ذلك كقول الزهاوي [2]

رعى الله شعباً أهملتهُ رعاته وملكاً كبيراً ركنهُ متزعزعُ
تقطّع منهُ كلَّ يوم مدينةٌ وما الكفُّ الاَّ أصبع ثم أصبعُ

وكقصيدة في جريدة المشير مطلعها [3]

ذهبت ويا للهول أرض كريد بعصائبٍ هتكتْ ستار الغيد

وكلها طعن في عبد الحميد وسياسته التي أدَّت — بزعم الشاعر — الى تجزئة المملكة وزعزعة أركانها . وكثيراً ما نرى هذه الاشارات الى ضعف السلطنة مقرونة بشعور الأسى والجزع كقول ولي الدين في منفاه الى سيواس [4]

يقول أحبتي صبراً وهل في النار يُصطبرُ
ونحن أمامنا وطنٌ نراهُ اليوم يحتضرُ
فمن يجزع فمعذورٌ ولكن قلَّ من عذروا
فيا أفق التهبْ حَزناً وجُد بالدمع يا مطرُ

ففي مطلع القرن العشرين نرى السلطنة العثمانية بين المطامع الاوربية والفساد الداخلي في موقف شديد الدقَّة . وكما تمكن الاحرار في مثل هذا الموقف سنة ١٨٧٦ من اعلان الدستور عادوا بعد اثنتين وثلاثين سنة تحت لواء « الاتحاد والترقي » فاضطروا عبد الحميد الى اعلانه والشروع في انتخاب نواب الامة . وهكذا كان يوم ٢٤ تموز (يوليو) ١٩٠٨ يوماً عظيماً في تاريخ السلطنة

(١) الهلال ١٧ — ١٦٢ (٢) اللباب ١٣ (٣) المشير ٢٧ فبراير ١٨٩٧ لاسعد حمادي
(٤) ديوانه ٥٦

العثمانية اذ تنادى زعماء الامة بالحرية والمساواة والاخاء فتجاوبت أصواتهم في أنحاء البلاد وكان لها دويّ عظيم بين أبناء الشرق العربي

﴿ الاستبشار العام بالعهد الجديد ﴾ وباعلان الدستور سرت في نفوس العثمانيين عموماً وأبناء العربية خصوصاً نشوة حبور لم يُعهد لها مثيل. فعقدوا الحفلات الباهرة في الوطن وفي المهاجر. وانبرى خطباؤهم وشعراؤهم يشيدون بحسنات الانقلاب وأعمال القائمين به [١] . ولا نبالغ اذا قلنا انهُ ما من حدَث حرّك الاقلام العربية كهذا الحدثَ العظيم فقولنا قول من شهد بعينه تلك الحال وعرف باختباره شعور الناس وشاركهم في غبطتهم العامة وآمالهم الواسعة . خذ سوريا ولبنان مثلاً وراجع صحفهما لذلك العهد فتدرك عمق ذلك الانفجار الادبي فيهما . ويكفي ان نلمح هنا الى قصائد عبد الله البستاني ، ومحي الدين الخياط ، وشكيب أرسلان ، والياس فياض ، ونقولا فياض ، وفارس الخوري ، وأمين ناصر الدين ، وعبد الرحمن سلام ، ومصطفى الغلاييني ، وشبلي ملاّط ، وبشارة الخوري ، وسواهم من شعراء الوطن ، وسعيد شقير ، وأسعد رستم ، والشاعر القروي ، وشبل دموس ، ونعوم مكرزل وأمثالهم في مصر والمهاجر الغربية . هذا فضلاً عن عشرات الاناشيد الوطنية والازجال العامية التي لبست من البيان مسحة لم نعهدها في عهود الاستبداد

وما يصدق على سوريا ولبنان يصدق على العراق ايضاً. وهناك الزهاوي، والرصافي، والدجيلي، والعبادي ، والشبيبي ، والهنداوي ، والازري ، والعُبيدي ممن شهدوا هذا الانقلاب وكان كلامهم معبراً عن عواطف الامة

وقد رسم لنا الزهاوي يومئذٍ صورة لبغداد تُعدُّ مثالاً صادقاً لجميع المدن العثمانية . قال [٢]

وقفتُ والعين تبكي من مسرّتها ... أمام شعبٍ من الافراح عجّاجِ
أمام بحرٍ من الافكار مضطرب ... أمام جيش من الاصوات رجراجِ
ان الشعوب اذا هاجت عواطفها ... كالبحر يضرب أمواجاً بأمواجِ

أزاء هذه النعمة الدستورية نسي شاعرنا ما كان يثير اشجانه من مساوىء العهد الماضي — عهد الظلم والجهل والفوضى — كما كان ينعته قبلاً ، فقال والامل يملأ فؤاده [٣]

البرق أهدى لنا بُشرى بها هدأت ... أرواحنا بعد طول الخوف والرهبِ
بُشرى كما تبتغي الآمال صادقة ... أجلّها الناسُ من قاصٍ ومقتربِ
لقد أقرَّ لعمري أعيناً سخنت ... ما نالهُ فئة الاحرار من أربِ

---

(١) قال المقتطف (٣٣ — ٩٠٥) كان لاعلان الدستور أعظم وقع في نفوس العثمانيين فعقدوا له حفلات باهرة في بلادهم وفي كل البلدان التي هاجروا اليها تلي فيها من الخطب والقصائد ما لو جمع لملأ مجلدات كثيرة . (٢) ديوانه (١٩٢٤) ٢٧٤ (٣) ديوانه (١٩٢٤) ٢٧٥

وقال آخر يصف شعوره وشعور الناس في احدى حفلات الدستور في بيروت [١]

« هذه أول مرة شعرت فيها بالوطنية التي يشعر بها كل من قدر الوطنية قدرها . ويتزاور الناس من جميع الطبقات وهم فرحون منشرحو الصدور فاليوم شعر السوريون بطيب الحرية وأدركوا سوء مغبّة الاستبداد والضغط وعرفوا ان التعصب الذي يفرّق الكلمة يفرّق القلوب. اليوم دروا ان أوربا لم تستفحل صولتها الاّ بالاتحاد ، ولا اتحاد مع التعصّب »

وليس في هذا الكلام شيء كبير ولكنهُ شعور الناس يومئذٍ . وقد كان ذلك الشعور يتدفق شعراً ونثراً على ألسنة كبار الادباء وعلى ألسنة صغارهم وكان للشعر العاميّ نصيب وافر منهُ ولا سيما في لبنان ومهاجره ومن أمثلته قول أحدهم ارتجالاً [٢]

يا اسلامْ ومْسيحيّه اسمعوا لي ها القضيّه
اهل الارضْ بطول وعرضْ يقولوا تحيا الحريّه

***

أهل الارض بطول وعرض يقولوا تحيا الحريه
فليحيا نيازي وأنور والجيوش الشاهانيه

***

أهل الارض بكاملْها من أوّلْها لآخرها
تركيا الله يعمّرها بجاه ربّ البريّه

***

بَطَلْ روح الاستبدادْ نادوها بكل البلاد
زمان الماضي ما ينعاد الظلم نجومه مخفيّه

وقد اشترك في هذا التهليل اشهر قوّالي ذلك الحين كخليل النغاليّ الشحروري والياس الفرّان وسواهما . وللاول مخمّس دعاه صوت الحريّة ومطلعه

صوت البرى من قاع بوسفور العميق لما وصل لله من أقومْ طريقْ
المجد ظلّل حزب تركيا الفتاة وانتصر عهد الجديدْ على العتيقْ

***

المجد ظلّل حزب تركيا الفتاة والروح لبّستْها بعد ذاك الممات
والرب أوهبها علا ونصر وحياة من بعد ما كانت حزينة بائسه
والمظالم راحْ بتخنقْها خنيقْ

(١) جريدة لسان الحال ١ آب ١٩٠٨ (٢) الآداب في القرن التاسع عشر (شيخو) ٢ — ١٦٢

وقد ذكره الاب شيخو في منتخباته الدستورية . وكذلك ذكر « قرّادية » للقرآن مطلعها

كنت بأكبر بليّه بسجن العبوديه

وبعض أقوال المهاجرين فلتراجع [1]

ولم تقصّر مصر في مشاركة سائر الاقطار العثمانية بهذا الابتهاج العام . على أنهُ لا مناص للناظر المتعمق في الخوالج الشعرية يومئذٍ من ان يلمح هنا كما لمح من قبل شيئاً من التفاوت بين النزعة المصرية الصميمة وغير الصميمة . فبينا ترى الاخيرة تقرن الغبطة الدستورية بذكريات العهد البائد ومآثر رجال الاتحاد ، وتحوم دائماً حول ما كان يقاسيه الناس من ظلم واضطهاد . ترى الاولى هزجة بالعرش العثماني داعية الى توثيق عرى الاخلاص له. وقلما ترى فيها ما يشير الى اضطرابه أو فساده ، وحال الرعية في أبّان استبداده . وهذه قصيدة شوقي في الدستور العثماني [2] ومطلعها

بشرى البريّة قاصيها ودانيها حاط الخلافة بالدستور حاميها

فهي فيض من الحبور ، وبشرى وضاءة بمستقبل زاهر ستقر لهُ عيون العثمانيين ولكنها عند التحقيق قلادة دريَّة يضعها في عنق السلطان . اثنان وخمسون بيتاً أكثرها يدور على السلطان وعمله العظيم في اعلان الدستور من مثل قوله —

أسدى الينا أمير المؤمنين يـدا جلَّت كما جلَّ في الاملاك مسديها

وليس مستعظماً فضـل ولا كرم من صاحب السكَّة الكبرى [3] ومنشيها

إنّ الندى والرضى فيـهِ واسرته والله للخير هـاديه وهاديها

خلافة الله في احضان دولتهم شاب الزمان وما شابت نواصيها

بل هو يعزو الى عبد الحميد قبول الدستور [راضياً مرضيَّا وانهُ لو أراد لرفضه وأحدث حرباً أهليّة عظيمة —

حقنت عند منـاداة الجيوش بها دم الـبريَّة ارضاء لباريها

وهكذا يجري في مدحه وتبيان فضله ولا يشير الا بيت واحد فيها الى رجال الدستور وفي نهايتها يهنىء العثمانيين ويشير الى حال مصر والى أماني المصريين فيقول —

ياشعب عثمان من تُرك ومن عربٍ حيّاك من يبعث الموتى ويحييها

صبرت للحقّ حين النفس جازعة والله بالصبر عند الحق موصيهـا

ما بين آمالك اللائي ظفرت بهـا وبين مصر معانٍ أنت تدريها

(١) الآداب في القرن التاسع عشر (شيخو) ٢ — ١٦٠ — ١٦٢ (٢) الشوقيات ١ — ٣٥٨

(٣) اشارة الى السكة الحديدية الحجازية

ومثل شوقي حافظ ابراهيم في قصيدته « تحية الاخلاص » [١] للامة العثمانية الدستورية ففيها يمدح السلطان عبد الحميد لاعلانهِ الدستور ومدّهِ سكة الحجاز . ويستهلّها بقوله —

اثنى الحجيج عليك والحرمانِ وأجلَّ عيد جلوسك الثقلانِ
أرضيتَ ربّك إذ جعلت طريقه أمناً وفزت بنعمة الرضوانِ
وجمعت بالدستور حولك أمّة شتى المذاهب جمّة الاضغانِ

ومنها مشيراً الى سرور الناس بالحرّية —

ثلجت صدورهمُ وقرَّ قرارهم لما حلفت باوثق الأَيمانِ
يايومَ عاد النازحون لارضهم يتسابقون لرؤية الاوطانِ
للّه كم اطفأتَ من نارٍ ذكت دهراً وكم هدّأت من اشجانِ
هذا يطير الى «فروقَ» ومن بها شوقاً وذاك الى رُبى لبنانِ
خلعوا الشباب على البشير وأخلقوا باللثم عهد خليفة الرحمنِ

وينحي باللائمة على شريف مكة ويحمل عليهِ وعلى أعوانهِ حملة شعواء . وفي القصيدة وصف للحرية معشوقة الجميع . وذكر خاص لشهر تموز (يوليو) شهر الدستور وتمنٍّ أن يكون لمصر نصيب منه —

تمّوز أنت أبو الشهور جلالةً تمّوز أنت مُنى الاسير العاني
هلاَّ جعلتَ لنا نصيباً علَّنا نجري مع الاحياءِ في ميدانِ
ايعود منك الآملون بما رجوا ونعود نحن بذلك الحرمان

وهي تدعو الى الوئام والاتحاد في ظل الهلال

وعلى غرار شوقي وحافظ أكثر نفثات المصريين الدستورية . ويقابلها نفثات الذين ذاقوا مرارة العهد الحميدي : ففيها كما أسلفنا يقترن الحبور بذكر الماضي ، كما ترى في شعر ولي الدين يكن ومنهُ قصيدة في افتتاح البرلمان العثماني يقول فيها [٢]

بالامس كنا معشراً تبكي لحالتنا المعاشرْ
تقتادنا الايدي الاثيمةُ للسجون وللمقابرْ
ويصول أنصار المليك على الاكابر والاصاغرْ

ومنها مشيراً الى المجلس النيابي : —

للّه قصرٌ شامخٌ مدُّ النواظر عنهُ قاصرْ
قصرٌ بهِ يعلو القساوي رأس مأمورٍ وآمرْ

(١) راجعها في ديوانه (١٩٢٢) ج ٣ — ٢١ (٢) ديوانه (١٩٢٤) ٥٤

وتجيش عاطفة الشكر في نفسهِ فيقول

يا دهر شكرك واجبٌ يا دهرُ ما في الناس كافرْ
لم يبق ظلمٌ يتقى دارت على الظلم الدوائرْ

هذا الميل الى مقابلة العهد الحاضر بالعهد البائد — الى ذكر المساوىء التي كانت تزعج الناس وتؤلمهم تعظيماً لحسنات الدستور وبثّاً لما كانت تكظمهُ الصدور تراه شائعاً في المنظومات الدستورية خارج الحلقات المصرية . وقد ذهب الشعراء في ذلك كل مذهب وهاموا في كل واد . ولا بدع فهم يعبرون عن شعور أمة كانت ترسف بقيود الذل فجاءها فجأة من حطّم تلك القيود ، وأطلقها حرَّة تنعم بسعادة الوجود . ولو أردنا ضرب الامثلة على هذه الظاهرة الروحية لملأنا صفحات عديدة من قصائد الشعراء وخطب الخطباء ولكننا نكتفي هنا بأنموذج منها .وهو أبيات من قصيدة لسعيد باشا شقير قال فيها يخاطب الجند الذين تمَّ على أيديهم اعلان الدستور

اليوم نمرحُ احراراً بفضلكمُ نغدو ونمسي ولا همٌّ ولا نَصَبُ
قد أطلق الحرُّ من سجنٍ أهين بهِ وعاد للوطن المحبوب مغتربُ
فلا جواسيس نخشى من وشايتهم ولا جرائد تأتينــا فنرتعبُ
ننام في الليل لا الاحلام تقلقنا وننهض الصبح لا خوفٌ ولا رعبُ
كم بين حال اتتنا كلُّها طربٌ وبين حالٍ عدتنا كلُّها رَهَبُ

ومثلها قول نقولا رزق الله من قصيدة مطلعها [1]

يا ايهّا الناس حيّوا ذلك العَلَما وسبّحوا مانح الحريّة الأُمما

وفيها يطلب من الناس مناصرة عصبة الاحرار الذين احيوا البلاد ، وحرّروا العباد والدعاء لهم بالبقاء حتى تدوم للوطن هذه الآلاء . ثم يلتفت الى العهد الماضي فيقول

سوّاكمُ العــدل اخواناً سواسيةً فليس يُظلم فيكم غير من ظلمــا
وليس يقصى اديبٌ عن مواطنه ولا يضام عليم قال ما عَلمـا
ولا يكافأ ذو مالٍ لثروتهِ ولا يجازى فقير فقره أثِمــــا
ولا يقوم على الذلّ العزيزُ كمن قد شفّه الداء حتى عاشر السقما
لا يعبثنّ بحقٍ من حقوقكم ذو سلطةٍ جائرٌ مهما علا وسما

***

وسواء أكان الشعر العربي ممالئاً للعرش العثماني ام غير ممالىء فان الدستور التي عليهِ عموماً

(١) الهلال ١٧ — ١٧٢

مسحة ظاهرة من الزهو والاستبشار اذ فتح للناس ابواب الرجاء فأصبحوا ينظرون الى المستقبل نظر الوثوق والتفاؤل . وكان الدستور عندهم شعار السعادة الفردية والقومية ومفتاح الرقيّ الاقتصادي والاجتماعي . شعور لذيذ هزّ القلوب حيناً ولكنهُ لم يطل

﴿خلع عبد الحميد﴾ والذي يلاحظ من دراسة الشعر ان هذا الحبور العام الذي عقب اعلان الدستور كان في اول الامر مقروناً بالثناء على عبد الحميد . ذلك لان الذين احدثوا الانقلاب لم يمسوا بادىء ذي بدءٍ عرشهُ فظلَّ حيناً يتمتّع بنفوذٍ عظيم . على انهُ لما حدثت الفتنة الرجعية سنة ١٩٠٩ رأى الدستوريون ان في بقاء ذلك السلطان خطراً على نظامهم فخلعوه في ٢٧ نيسان من تلك السنة واجلسوا على العرش اخاه محمد رشاد . وبخلعهِ سرَت هزة شعرية لا تقلّ عن هزّة الدستور : فتفجرت القلوب بما كانت تكنّهُ لشخصهِ ولعهده ، واخذ الشعراء في سوريا والعراق والمهاجر يتبارون في تعداد مساوئهِ . ومن امثلة ذلك قصيدة لفارس الخوري[1] مطلعها

الله اكبر فالظلاّم قد علموا   لايّ منقلبٍ يُفضي الأُولى ظلموا

لقد هوى اليوم صرح الظلم وانتقضت   اركانهُ وتولّت اهله النّقَمُ

ومنها يخاطب عبد الحميد ساخراً بهِ ذاكراً مجد اسلافه

شادوا لك العزّة القعساء من قدمٍ   فجئت تهدم ما شادوا وما رسموا

كانت لهم دولة بالسيف ناهضةٌ   وفي زمانك لا سيفٌ ولا قَلَمُ

حصدت ما زرعوا فرّقت ما جمعوا   هدمتَ ما رفعوا بعثرت ما نظموا

وهي طويلة وكلها من هذا النفَس البليغ . وأشد منها تشفيًّا قول احد شعراء المهجر من قصيدة نشرتها جريدة مرآة الغرب[2]

مضى عبد الحميد الى مكان   رمتْ فيهِ أم قشعمٍ الرحالا

مضى وله بفعل الشر ذكر   محا ذكر الالى كانوا مثالا

مليكٌ قد تسربل بالمخازي   وعمَّ الارض غدراً واحتيالا

امير المؤمنين دعوه زوراً   فكان الذئب لم يعرف حلالا

عدوّ الدين والاسلام هلاَّ   علمت بانّ في الدنيا زوالا

ولمعروف الرصافي في ديوانه قصيدة معروفة يصف فيها زحف الجيش من سلانيك على الاستانة وخلعهم عبد الحميد تأييداً للحرية وحفظاً للدستور . ومطلعها —

لقد سمعوا من الوطن الانينا   فضجّوا بالبكاء له حنينا

---

(١) فارس بك الخوري (رئيس المجلس النيابي السوري الآن) راجع القصيدة في المقتبس ٤—١٣٧

(٢) الآداب العربية في القرن التاسع عشر (شيخو) ١٨٥

وناداهم لنصـــرتهِ فقاموا   جميعاً للـــدفاع مُسَلّحينا

ومنها مشيراً الى زحف الجيش وارغامهم أنوف الرجعيين —

أتينا دار قسطنطـــين صبحاً   وقـــد فتحت لهم فتحاً مُبينا

وظلّ الجيش جيش الله يشفي   بحـــدّ سيوفه الداء الدفينا

فأرهق انفس الطاغـــين حتى   سقاهم من عدالتهِ المنونا

وحطّوا قصر يلدز عن سماءٍ   لهُ فانحطّ أسفل سافلينـا

هوى عبد الحميد بهِ هويّـا   الى درك المـــلوك الظالمينـا

وفي ختامها —واسقط ذلك الجبّـار قهراً   وأنبأه بصـارمه اليقينـا

فقرّت أعين الدستور أمناً   وشـاهت أوجه المتمرّدينا

وله في ذلك قصيدة أخرى اسمها « وقفة عند يلدز » وهي لا تقلّ عن اختها مضاءً . وفيها يخاطب الشاعر قصر يلدز بعد أن سقط صاحبه (عبد الحميد) وأرسل سجيناً الى سلانيك ، فيذكر ما كان له من مساوىء ومظالم ويختم القصيدة بنفثة فخريّة حماسيّة فيقول —

إنما نحن امةٌ تدرأ الـــضيم ولا تستـــكين لوالِ

أمّة سادت الانام وطابت   عنصراً من أواخرٍ وأوالِ

فاذا ما علا الغشوم نهضنـا   فقذفناه سافلاً من عالِ

نحن من شعلة الجحيم خلقنا   لأُلي الجور لا من الصلصالِ

وهنا تحمله الحماسة الى اقصى مدى فيهدد طغاة الانام جميعاً منذراً إياهم بسوء المصير فيقول—

يا ملوك الانام هلاّ اعتبرتمْ   بملوكٍ تجور في الافعالِ

فاتركوا الناس مطلقين والاّ   عشتم موثقين بالاوحالِ

***

تلك كانت عواطف الشعر العربي في العراق والاقطار السورية والمهاجر . اما في مصر او في الاوساط المصرية الاصيلة فمن الطبيعي ان لا نتوقع هذا الاندفاع في الحمل على عبد الحميد والتهليل لسقوطهِ . فالمصريون او بكلمة اصح فالشعر المصري قد قابل خلعه برعشة مقرونة بالعطف والشفقة . وذلك على ما يظهر لسببين رئيسين . (١) لما ذكرناه سالفاً من أن المصريين الحديثين لم يذوقوا من الادارة الحميدية ما ذاقهُ اخوانهم في الاقطار الاخرى . (٢) لانهم كانوا ازاء احتلال اجنبي قد أثار حفائظهم الدينية والجنسية فليس من الوفاء الوطني وقد جاهروا

مراراً بمودتهم للعثمانية ان ينقلبوا على الخليفة الآن ويحطوا من شأنهِ امام الاجانب وقد كانوا الى الامس يعظّمونهُ ويدعون له . فليس غريباً اذن ان تظل علاقتهم بعرش الخلافة حية فعّالة ، وان يكونوا أعطف على الهاوي عنهُ وأقرب الى الصفح عن سيئاته . وعلى ذلك نرى شوقي يقول في قصيدته « سل يلدزا ذات القصور » (١)

خطبُ الإمام على النـــظيم يعزّ شرحاً والنثير
شيخ الملوك وان تضعـــضع في الفؤاد وفي الضمير
نستغفر الله لـــهُ والله يعفو عن كثير
ونراه عند مصـــابهِ اولى ببالكٍ او عذيرِ

وانظر الى روح العطف كيف يظهر في قوله مخاطباً عبد الحميد

عبدالحميدحساب مثلك في يد الملك الغفـورِ
ماذا دهاك من الامو ر وأنت داهية الامورِ
دخلوا السرير عليك يحـــتكمون في ربّ السرير
أعظِم بهمْ من آسرين وبالـــخليفة من اسيرِ

وكما كان طبيعيًّا ان يتلبّس شعر شوقي بثوب الوفاء للسلطان والعطف عليهِ كان طبيعيًّا ايضاً ان نرى شاعراً كولي الدين ذاق ما ذاق من أهوال الاستبداد يعارض قصيدة شوقي فينظم قصيدة (٢) على وزنها ورويها منددًا بعبد الحميد معدّداً سيئات حكمهِ كقولهِ : —

ان الثلاثين التي مرّت بنا سرَّ العصورِ
وهبتك تجربة الامور فعشت في جهل الامورِ
من كان يدعوك الخبيرَ فلست عندي بالخبـيرِ

ويقول مشيراً الى شوقي وطبقتهِ متألماً من عطفهم ومسيئاً الظن بعواطفهم

لما أُديل عن السرير بكاه عبـاد السريرِ
أسفوا عليـــهِ وانما أسفوا على المال الدريرِ
طلبوا لهُ عفو الغفور وشذّ عن عفو الغفورِ

(١) الشوقيات ١ — ١٢٦ (٢) ديوانه ٣٠

وما نراهُ في شعر شوقي نراهُ في شعر حافظ واسماعيل صبري واحمد نسيم وسواهم ونود ان نشير هنا اشارة خاصة الى قصيدتين لحافظ [1] فالاولى مطلعها

لا رعى الله عهدها من جدود كيف أمسيت يا ابن عبد المجيدِ

ومنها — شمت المسلمون قبل النصارى فيك قبل الدروز قبل اليهودِ

شمتوا كلهم وليس من الهمّة ان يشمت الورى في طريدِ

انت عبد الحميد والتاج معقودٌ وعبد الحميد رهن القيودِ

خالدٌ انت رغم انف الليالي في كبار الرجال أهل الخلودِ

وهذه القصيدة، برغم ما يتخللها من ذكر بعض المساوىء الحميدية، مرتبطة بشعور واحد هو شعور العطف والوفاء للخليفةِ

ولي الامر ثلثَ قرنٍ ينادي باسمهِ كلُّ مسلمٍ في الوجودِ

على انّ هذا العطف اخذ يخفُّ في شعر حافظ وها نحن نراه في العيد الدستوري الاول ينشد قصيدته التي مطلعها « اجل هذه اعلامه ومواكبهُ » فيذكر محامد الدستور وما تي محمود شوكت ونيازي وأنور. ويقف على يلدز واصفاً ما اصابهُ، معدّداً اوهام صاحبه واخطاءه ثم يقول

سلوه أأغنتْ عنهُ في يوم خلعهِ عجائبهُ او احرزتهُ رغائبه

وأخرجهُ من يلدزٍ ربّ يلدزٍ وجرّده من سيف عثمان واهبه

وأصبح في منفاه والجيش دونهُ يغالبُ ذكرى ملكه وتغالبه

يناديهِ صوت الحقّ ذق ما أذقتهم فكلُّ امرىءٍ رهنٌ بما هو كاسبه

مضى عهد الاستبداد واندكّ صرحهُ وولّتْ أفاعيهِ وماتت عقاربه

واذا تابعنا حافظاً في قصيدته هذه التي نظمها بعد خلع عبد الحميد بنحو ثلاثة أشهر وجدنا ان تحوّل عطفه عن ذلك السلطان لم يخفّف من ولائهِ للعرش العثماني والخلافة الاسلامية فهذا العيد يستخفهُ لمدح السلطان الجديد محمد رشاد وتعظيم عرشه فيقول —

لتهني امير المؤمنين محمداً خلافتهُ فالعرش سعدٌ كواكبه

ستملك امواج البحار سفينه كما ملكت شمَّ الجبال كتائبه

ممالكه محروسة وثغورهُ ركائبه منصورةٌ ومراكبه

[موضوع الحلقة التالية من هذا البحث النفيس — الدستور والروح الوطنية —]

(١) راجعهما في ديوانه (١٩٢٢) ٣ ص ٣٠ — ٤٤

حواء الخالدة

لعبد الرحمن شكري

أنتِ يا من ألَّفَتْ بين الفنونْ ... وهي لولا ما جنت منك ظنونْ

دوحة الفن التي تحبو الورى ... بجناها من قطوف القاطفين

كل لحنٍ او قريض او دُمَى ... نُحِتَتْ اوصورةٍ منك تكون[1]

كل من قد خلبت لب الرصين ... من حسان جمعت سحر الفتون

كُنْتِهَا في الناس حالاً بعد حالٍ ... تحفة فاتنة للناظرين

فلبستِ الحسن شكلاً بعد شكلٍ ... وخبرتِ الحب حيناً بعد حين

ورأيتِ الكون في ضحوته ... وفهمتِ الناس في ضيق ولين

كنتِ أمًّا كنتِ أختاً كنتِ زوجاً ... كنتِ في البؤس عزاء البائسين

فعلى صدرك يبكي همه ... وأساهُ موجعُ القلب حزين

كم نفوس وقلوب بسطت ... لك ما تضمر في ماضي السنين

فعرفتِ القلب ما ينشده ... وعرفت النفس والسر الكمين

وقرأتِ الروح دهراً بعد دهرٍ ... وبلوتِ الخلق في مرِّ القرون

اي قلب مغلق لم تفتحي ... اي سر للورى لا تعرفين

كُنْتِ حواء التي من أجلها ... يندب الفردوسَ كلُّ العالمين

وقليلٌ لكِ يا حواء ان ... يفقد الخلقُ جنان الخالدين

(١) الدمى التماثيل

آدمٌ كان بجهل قانعاً ناعماً بالجهل في خفض ولين[١]
ليس يستطلع امراً غامضاً في ثمار العيش والسر المصون
بكِ شام الكون غضّاً زاهياً اكذا الغبن فيا نعم الغبين
جذوة الفطنة في اللب وفي نفسه من حسنك الغض ، شؤون
كَفّري في النسل عن إثم مضى وثقي بالله خير الغافرين
لم يكن إثمك الاّ قدراً كي يلذ الناسُ سعدَ الهالكين
لا يُحِسُّ السَّعْدَ الاّ هالكٌ قد أحسَّ الهم في القلب الحزين
كُنْتِ هيلين التي من أجلها خربت طِرْوادة ذات الحصون[٢]
وقليلٌ لكِ يا هيلين ان يهلك الأقيال في الحرب الزَّبون
كُنْتِ شيرين التي قد ذللت عُنُق كسرى وهو ذو الملك المكين[٣]
كُنْتِ تايس اذا ما خطرت خفق القلب كطير في وكون[٤]
كُنْتِ سيفو اذ رمت بالشعر كالسحر تُذْكي لفظه للسامعين[٥]
كُنْتِ اسبزيا التي قد فتنت باقتران الحسن والفهم الفطين[٦]
كُنْتِ ليلى كنتِ بُثْنا كنتِ عزّاً باعثات الوجد والشعر المبين[٧]
كُنْتِ ما كنتِ ولكنْ انتِ انتِ لكِ سحر الضوء والليل الدجين
وغداً كيف تكونين وما اسمك بين الناس في الآتي الشَّطون.[٨]

(١) خفض العيش نعيمه وكذلك اللين والمراد بإثم حواء المذكور في القصيدة أكلها من الشجرة المحرمة وحث آدم على الاكل منها (٢) هيلين الاغريقية الحسناء التي كانت سبب حصار وتخريب طروادة كما جاء في القصص (٣) شيرين من حسان الفرس (٤) تايس ممثلة اغريقية فاتنة (٥) سيفو شاعرة اغريقية اشتهرت بالغزل (٦) اسبزيا حسناء في عهد بركليز اشتهرت بالعقل (٧) بثنا هي بثينة التي نظم جميل بن معمر فيها الشعر وعزا هي عزة التي نظم فيها كثير وقد وردت هاتان الصيغتان في شعر جميل وكثير (٨) الشطون البعيد

فكرة التقدم

ما كان منها وما آلت اليه

لعلي أدهم

لكل عصر من عصور الحضارة فكرة خاصة تسيطر عليه ويتسم بطابعها وتحدد اتجاهه وتعبر عن عقل المجتمع الذي نشأت فيه وتبين مدى ادراكه وتدل على تصوره للحياة وموقفه من مشكلاتها . وفي ابان قوة هذه الفكرة وامتداد سلطانها وشدة استيلائها على النفوس تسمو على البحث وتنزه عن النقد لانها تعتبر في ذلك الوقت من المبادىء المقررة والقضايا التي لا يرتقي اليها الشك ، فلا ينظر اليها من حيث هي فكرة سائدة فهي من أجل ذلك عرضة للدثور والعفاء لانها وليدة ظروف متقلبة ونبت ملابسات لا تني تتغير وانما ينظر اليها من حيث هي حقيقة خالدة مطبوعة في صفحات الكون مسطورة على جباه الاشياء فهي من الوضوح والابانة بحيث لا تتطلب تفكيراً ولا تستلزم بحثاً ولا تحقيقاً

وفكرة التقدم من قبيل هذه الافكار التي شغلت مكانة كبيرة ولعبت دوراً هاماً في سير الحضارة الغربية، ولم تكن مجرد نزعة طارئة او فكرة فاسفية رائجة وانما كانت عقيدة ثابتة مدة تقارب القرنين يسير الناس في مدارجها ويعتصمون بأسبابها وكانت في الواقع هي الايمان المحرك والقوى الدافعة في الحضارة والمحك الذي يقدر به نصيب المذاهب الاجتماعية من الصلاح والفساد والنفع والضرر ، وكانت جميع النظريات التي نشأت في ذلك العصر تستنجد بها وتتعلق بأذيالها لغلبة الاعتقاد بأن النظرية السياسية او الفكرة الاجتماعية التي لا توائم فكرة التقدم لا تستطيع أن تستجمع عناصر البقاء ولا تتوافر لها دواعي الحياة

وقد كان السواد الاعظم من الناس في العصور الوسطى يتجهون بتفكيرهم ويفزعون بآمالهم الى الحياة وراء القبر ، وكانت الدار الآخرة هي مجال خواطرهم ومهوى أفئدتهم وكانوا ينظرون الى الاشياء بمنظار هذه الفكرة ويعايرون الامور بمعاييرها ، ثم حدثت احداث زعزعت الثقة بهذه الفكرة وأنزلتها من مكانتها العالية فهي وان كانت لا تزال عالقة بالنفوس ولكنها أصبحت في العصور التالية فكرة غير رئيسية وأخذ الاعتقاد بحياة سعيدة هانئة في هذا الكوكب

الارضي قد تتيسر أسبابها وتدنو قطوفها للاجيال القادمة يحل محل فكرة السعادة المنشودة في العالم الآخر والكمال المرتقب وراء الموت وبذلك التحقت فكرة العالم الآخر بتلك الحكم الاخلاقية والمواعظ الدينية التي يرددها الناس بألسنتهم ولكنهم لا يستجيبون لها في أعمالهم ولا يبنون عليها أساس تفكيرهم وليس لها أثر مذكور في وزن الامور وتقدير القيم

***

وقد قامت فكرة التقدم في العصور الحديثة مقام الافكار الدينية ، ومعروف ان الدين في طليعة القوى المحركة للحضارة ولكن الدافع الى الدين قد يبدو في صورة التفكير السياسي والاتجاه الفلسفي

وفكرة التقدم في معناها الواسع تتضمن الاعتقاد بان العالم يتدرج في سبيل الكمال تدرجاً شاملاً وينتقل على الدوام من حسن الى أحسن ويرتقي من منزلة الى منزلة أرقى ، ولكن المعروف ان أشياع فكرة التقدم كانوا ناقمين على حاضرهم برمين بما في القوانين من نقص وعيوب وما يعم الحياة وتمتلىء به جنباتها من ضروب القسوة وألوان الظلم ، ولما كان المستوى الذي بلغته الانسانية هو نتيجة تطور قصي المدى بعيد الاصول استغرق عصوراً غير محدودة فاننا خلقاء ان نستخلص من ذلك ان حركة التقدم جد بطيئة وان بلوغ الانسان مرتبة الكمال المأمول مسألة موصولة بالمستقبل البعيد الذي يصعب علينا تصوره وإدراك كنهه ، وكان ذلك قمناً بأن يكف من حماستهم ويطامن من آمالهم

ولكن مفكري القرن الثامن عشر والتاسع عشر لم يلمحوا التقدم من هذه الناحية ولم يقيسوا مداه بألوف السنين ، وانما كان يغلب عليهم الامل في قرب اقبال عهد جديد للعدالة والاستنارة تتحقق فيه آمالهم وتصدق ظنونهم ولم يكن للمؤرخين الذي تعودوا اقتفاء اثر الانسانية واستقراء تاريخها فضل كبير في توطيد الفكرة والاشادة بها وكان أكثر انصارها من المفكرين السياسيين وانصار المذاهب الثورية والانقلابات الاجتماعية وكانت انظارهم متجهة صوب المستقبل القريب بحكم مذاهبهم السياسية والغايات التي كانوا يعملون لتحقيقها وكانوا يستعينون بهذه الفكرة على مرارة الكفاح ويتقون بها آلام الهزيمة ، وكان يغلب على مصلحي القرن الثامن عشر والتاسع عشر الاعتقاد بامكان اصلاح المجتمع وعلاج عيوبه واستدراك نقائصه والانتقال من الفساد الطاغي والاضطراب المستحكم الى الصلاح التام والاستقرار الكامل والخروج من الظلمة الحالكة الى النور المشرق المتلألىء وكان هذا الايمان القوي بفكرة التقدم منطوياً في الحقيقة على حسن ظن بالطبيعة الانسانية وقابليتها للرقي والكمال

أما عامة الناس فكانت فكرة التقدم تقترن في أذهانهم بالتغير الاقتصادي الذي بدأت طلائعه وظهرت مقدماته في القرن الثامن عشر وبذلك الرقي الصناعي الذي توالت انتصاراته وعمت فواضله ويسر لهم استعمال السيارات واللاسلكي والمذياع والصور المتحركة ومكنهم من الافتنان في الاختراع والكشف ، وقد يبدو لنا أن نسخر من هذا التقدم الذي تعتبر دلائله وسماته أمثال هذه المظاهر البراقة والمرائي الخادعة ولكن لا نزاع في أن القرنين الاخيرين قد شاهدا براعة منقطعة النظير في تسخير قوى الطبيعة وترويض عناصرها وتطبيق العلم على الحياة اليومية واخضاعه لمستلزماتها وكان من أثر ذلك ان ظهرت حضارة علمية صناعية ليس لها مثيل في سالف العصور وغابر الحضارات وقد ادى ذلك الى استفاضة الثروة وتكاثر السكان على مثال غير معهود وانتشار الثقافة وتيسير أسبابها

***

وفي القرن التاسع عشر بسطت الحضارة الغربية سلطانها على العالم وكانت الحضارات الشرقية القديمة قد استنزفت قوتها وضعف شأنها فلم تستطع ان تثبت لها وتقاوم تأثيرها ، واستغلت الحضارة الاوربية كنوز العالم الجديد لتضخيم ثروتها وتكثير مواردها وتمكين اهلها من العيش الرغيد والنعمة السابغة ، واخذت الافكار السياسية والاجتماعية تعبر البحار وتجوب الاقطار وتعمل عملها وتسري مسراها في العقول وتنسخ الافكار القديمة والآراء البالية وذاعت مبادىء الديمقراطية وانبعثت النهضات القومية ونشطت الامم تطالب بالحكومة الذاتية وتحققت حرية الرأي الى مدى بعيد وكفلها القانون وسمت الفكرة الانسانية وناهضت فكرة الرق والعبودية واعلنت عليها حرباً شعواء وطاردتها مطاردة عنيفة وبطلت العقوبات القاسية التي كانت تشوّه الحضارات القديمة وتزري بالطبيعة الانسانية وانتشر التعليم وشمل مختلف الطبقات وهذب عقلية الجماعات وصقل مداركها ، فالتقدم من هذه الناحية حقيقة لا سبيل الى نكرانها والمماراة فيها وليس حلم حالم ولا خيال واهم

ولكن لا ينبغي ان ينسينا ذلك ان هذا التغير الملحوظ والتقدم المشهود الذي نعتز به هو في ذاته تحول نسبي وليس نتيجة حتمية لتطور حيوي عام شامل لحياة الانسانية جمعاء فهو تقدم خاص موقوت منوط بمرحلة من مراحل الانسانية ودور من ادوار التاريخ وصنف من صنوف الحضارة ولا يقتضي ذلك أن يكون اكثر بقاء واشد استعصاء على عوامل الهدم ودواعي الفناء من الحضارات القديمة وهو لا يعفينا من ان نسائل انفسنا هل التقدم في ضروب الحياة المادية هو تقدم في المعنى الدقيق والتفسير الصحيح للكلمة ؟ وهل الانسان في العصر الحديث اسعد حالاً

وأنعم بالاً وأسمى نفساً وأرجح عقلاً من الانسان في سوالف العصور ومؤتنف الحضارات ؟

كثير من كبار المفكرين لم تفتنهم الحضارة الحديثة ولم يخلب ألبابهم بريقها وقد حذرونا عواقب الاندفاع في الكثير من نزعاتها وعابوا عليها الكثير من الاخطاء والنقائص وتطرف بعضهم فآثر العودة الى الماضي او نبذ الحضارة والفرار من مغرياتها ، وبعض المفكرين الذين أطالوا النظر وأجادوا البحث في أحوال تلك الحضارة تكشفت لهم عيوبها ودخائل ضعفها وراعهم ما قد يؤدي اليه تقدم الصناعة والاختراع من ارهاق للاجسام واضعاف للعقول وافناء للشخصيات وهبوط بالفن الرفيع والثقافة العالية ، وأثار تخاوفهم الافراط في استغلال موارد الطبيعة وافناء ذخائر الارض للربح العاجل والحاجات العارضة ، وقليل من المفكرين الآن من يجترىء على ان يمزج الرفه المادي بالتقدم لاننا نعرف حق المعرفة ان حضارة من الحضارات قد تكون في مظهرها الخارجي شامخة البنيان ضخمة الثروة موفورة المرافق والموارد في حين ان حيويتها الاجتماعية وقوتها المعنوية في هبوط وانحلال وتدهور وهي تفقد في كل لحظة جزءاً من مدخر تقاليدها العالية وثقافتها السامية

***

ولم تساور أمثال هذه الشكوك أهل القرن الثامن عشر لانهم كانوا يثقون ثقة تامة بمبادئهم وساعد على تقوية تلك الثقة وحماها غوائل الشك انتشار فلسفة ديكارت ، فان طرافة فلسفته قائمة على انهُ يجعل العقل قوة منفصلة ناهضة بذاتها لا تخضع لاحكام الجسم ولا تتأثر بمؤثراته والعقل عنده في مكنته ان يحصل المعرفة التامة الاكيدة من الحقائق الواضحة البسيطة المودعة فيهِ والكامنة في كيانهِ والتي يستطيع ان يدركها بالبداهة المباشرة دون ان يركن الى السلطة والتقاليد او يرجع الى التجربة والمشاهدة ، وهذا هو الاساس الذي يستصوبهُ ديكارت ويشير باعادة النظر في مختلف العلوم في ضوئهِ ، ويرى ديكارت ان ذلك العلم الغزير والمعرفة المستفيضة والتقاليد الجمة التي يتكوَّن من مجموعها تراث الثقافة الغربية وجميع الافكار والاعتقادات التي أفادها الناس من التجارب وانتزعوها من المشاهدات لا قيمة لها ولا غناء فيها فهي معرفة مدخولة يلتبس فيها الحق بالباطل ويختلط الغث بالسمين وهي لا تستحق ان نوليها عنايتنا ونوقف عليها بحثنا وعلينا ان نحل محلها المعرفة الحديثة التي لها دقة الرياضة وأحكامها والمستمدة من أشعة العقل الذي لا يعرض لهُ الخطأ ، وتفكير الرجل الكيس الاريب لهُ من القيمة والصحة أكثر مما في العلم المستقى من الكتب والمدارس لانهُ قائم على الادراك البديهي المباشر المدلول على الصواب والموكل بالالباب

وقد أثر هذا الاسلوب في التفكير تأثيراً بعيداً وفي ظلالهِ ترعرعت الافكار المجردة عن

الحضارة والتقدم والعلم والعقل ، وهذا الاعتقاد غير المحدود بقوة العقل ظاهر في أكثر ما كتبهُ فلاسفة القرن الثامن عشر عن المسائل الاجتماعية والسياسية وفي اعتقادهم ان الآداب لم يكن لها تأثير ذو بال في تقدم الانسان وانما الفضل كل الفضل للعقل والاختراع ومن ثمَّ تحامل مفكري القرن الثامن عشر على الاديان وتشديدهم النكير عليها واعتبارها خرافات تعوق التقدم وترتد بالانسان الى الوراء وانها قائمة على الخديعة والقسوة ولم يخطر لهم أنها صادرة من اعماق الضمير وأنها صدى لعاطفة متغلغلة في أطواء النفس وحاجة من حاجات القلب الانساني واذا كان تاريخ الانسانية القريب والبعيد ممتلئاً بالسخف والمنكرات حاشداً بالضحايا البريئة فما أحرانا بالشك في حركة التقدم واليأس من طبيعة الانسان ولكن الحقيقة أن مفكري القرن الثامن عشر لم يعتقدوا بالتقدم المستمر المنتظم الحركات المتتابع الادوار وانما كانوا يؤمنون بتقدم فجائي للعقل الانساني مصدره الثورة الفكرية التي أحدثها ديكارت ، واستتباب سلطان العقل كان عندهم دليلاً على اقبال عصر كله سعادة وخير ورخاء تحطم فيه الانسانية قيودها الموهنة وتسمو على أحكام المصادفات وتنطلق في سبيل الحق والخير ثابتة الخطوات موفقة السعي ، وقد أوحى ذلك الى رجال الثورة الفرنسية محاولة إعادة بناء المجتمع على أسس جديدة عمادها العقل وألهم مصلحي القرن التاسع عشر الاجتماعيين الاعتقاد بامكان تغيير نظام المجتمع

***

وقد كان لاخفاق الثورة الفرنسية رد فعل في عالم الفكر والسياسية ولكنهُ كان رد فعل وقتي وظل أكثر المفكرين السياسيين امناء لمبادىء عصر الاستنارة وظلوا يعتقدون بفكرة التقدم وفكرة الحضارة المطلقة القائمة على مبادىء صالحة لجميع الناس وجميع العصور

وقد امتاز النصف الاول من القرن التاسع عشر بمحاولة انشاء علم الاجتماع وجعله علماً مستقلاً يتوج جهود سائر العلوم وكان اقدر ممثلي ذلك العلم الحديث الفيلسوف اوجست كونت وهو أول من تناول بالتفصيل والاسهاب العلاقة بين علم الاجتماع والعلوم الاخرى وعنده أن هناك تطوراً متتابع الحلقات مستمر الخطوات من العلوم التجريدية كالرياضة الى العلوم الاوفر نصيباً من التعيين والتخصيص مثل الفلك والكيمياء وعلم الحياة وعلم الاجتماع ، وتقدم علم الاجتماع يوضح المرحلة الاخيرة للتقدم العلمي ويجعل من الممكن ان تكون من ضروب المعرفة الانسانية كلاً عضوي التركيب منسق الاجزاء وهذا العلم الوضعي الذي يشمل علم الانسان وعلم الطبيعة الخارجية في علاقتها بالانسان يحل محل المذاهب القائمة على المعتقدات الدينية او نظريات ما وراء الطبيعة التي كانت لها الغلبة قبل أن تستتم الروح العلمية قوتها وتأخذ أهبتها ولذا

اشتد كونت في نقد آراء القرن الثامن عشر وعمل على نقضها لانها في رأيه متشبعة بافكار ما وراء الطبيعة فهي هادمة وغير صالحة للبناء وكان المنظور ان يؤدي به ذلك الى نبذ الافكار المجردة امثال فكرة التقدم وفكرة الانسانية وفكرة الحضارة وان يحصر تفكيره في الافراد والمجتمعات الخاصة ولكنهُ على النقيض من ذلك اصر على ان الانسانية هي الحقيقة الفذة وان الفرد في ذاته محض تجريد وان جميع التغيرات التي تطرأ على المجتمعات خاضعة لقانون التقدم وهو الحقيقة النهائية للعلم الوضعي الاجتماعي

ولما كان هذا الكليُّ المركب العلمي ثمرة الفلسفة الوضعية اجتماعيًّا في صميمه فقد تبع ذلك ان الطبيعة كانت تفسر بموجبه تفسيراً يلائم حاجات الانسان ويتجاوب مع مطالب المجتمع ولا ينظر اليها من حيث هي كل شامل المجتمع نفسه جزءٌ منهُ ووظيفة العلم عند كونت مقصورة على خدمة الانسانية وقد أدى ذلك الى تقويم الطبيعة بالقيم الانسانية ونشوء ديانة الانسانية ولم ترق هذه النزعة الدينية مفكري القرن التاسع عشر وأثارت شكوكهم في صحة فلسفة كونت

وحوالي سنة ١٨٤٨ أخذ تأثير الفلسفة المثالية الالمانية ينحسر شيئاً فشيئاً وأخذ تيار الفلسفة المادية يشتد ويعلو وراجت افكار بخنر وظهرت نظرية التطور وأثرت تأثيراً شديداً في التفكير الاجتماعي ويبدو ذلك واضحاً في فلسفة هربرت سبنسر اكبر ممثلي علم الاجتماع في النصف الثاني من القرن التاسع عشر عند الكثيرين ، ونظرية التطور هي محور بحثه واساس تفكيره وهو يعتبر التقدم الاجتماعي فرعاً من فروع قانون التقدم الكوني العام ورقي الحضارة هو احد مظاهر ذلك القانون الذي يشمل الخليقة بامرها ، وهنا نرى فكرة التقدم في اقصى امتدادها واوسع تطبيقاتها فهي لا تشمل حياة الانسانية وحدها وانما تشمل نظام الطبيعة برمته

***

وهناك شيءٌ من التناقض بين تصور مفكري القرن الثامن عشر للتقدم والتفسير العلمي الذي فسره به مفكرو القرن التاسع عشر فقد كان فلاسفة القرن الثامن عشر يضعون الانسان في مرتبة اسمى من مرتبة الحيوان وينظرون اليه منفصلاً عن الطبيعة ويجعلون العقل مبدأ تطور الحضارة ولكن نظرية النشوء والارتقاء اعادت الانسان الى احضان الطبيعة ونسبت تقدمه الى عملية آلية تقوم بها قوى الطبيعة العمياء ودوافعها الخفية التي تسيطر على العالم المادي في مختلف صوره والعقل نفسه عضو كسائر الاعضاء تكامل تركيبه وتطور نموه تحت تأثير جهاد الانسان في الملاءمة بين نفسه وبين البيئة والتقدم هنا لا يعرف الاخلاق ولا الرحمة لانهُ قائم على تنازع البقاء وتطبيق ذلك على حياة الانسان يهدم الكثير من مثله العليا ويبدد احلامه في العدالة

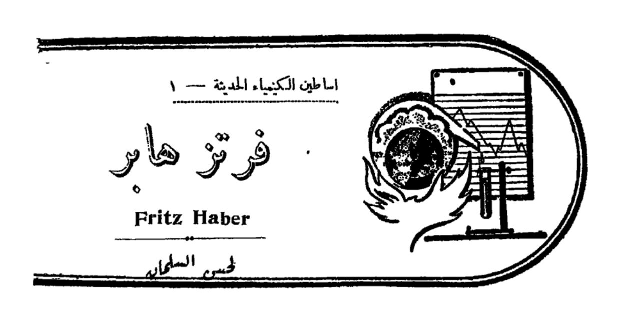
والمساواة وهي من خصائص فكرة التقدُّم القديمة ويؤدي الى الجشع والانانية وكان على المفكرين الذين قبلوا نظرية دارون في الانتخاب الطبيعي ان يواجهوا نتائج التناقض العميق بين اعتقاداتهم العلمية ومثلهم العليا الاخلاقية وكيف أن الانسان ذا الآمال البعيدة والاحلام السامية هو ابن الطبيعة الشاهرة السلاح المؤللة الانياب التي تأكل أبناءها وتضحي بذريتها ، وقد عني بذلك التناقض العلاَّمة هكسلي والتقدُّم في رأيه يقوم على تعطيل عمل التطوُّر الكوني في كل خطوة من خطواته ومرحلة من مراحله والأخذ بالتقدُّم الاخلاقي ، وطبيعة الكون عنده منافرة لطبيعة الاخلاق والحركة الكونية لا ترمي الى خير الانسان والطبيعة لا تعرف فكرة الواجب ولا تحفل بالآداب، والحقوق عندها قائمة على القوى المفترسة المستضرية

ولكن اذا كان الامر كذلك فان الامل ضعيف في تغلب الانسان على حركة الطبيعة المستمرة وخطتها الابدية ولا مناص للانسان في هذا الموقف الاَّ في العودة الى الاعتقاد بقوة شاملة صمدية خارجة عن حدود الزمان والمكان او الانطواء على اليأس الاليم وتوديع الآمال المحلقة وتوطين النفس على احتمال الحياة والصبر على احداثها حتى يقبل الموت وتنتهي اللعبة أو يعمل على الاستفادة من الظروف جهد الطاقة ويجاري سائر المخلوقات في الاخذ بقانون المحافظة على الذات دون ان يتورَّع عن الاجرام او يعف عن الشر

***

وهكذا كان مصير فكرة التقدم التي اوحت الآمال الكبار والاماني الحسان وانتهت باخلاف الظنون وخيبة الآمال وتبعها الشك في مقدرة العقل نفسه على الاصلاح والخلاص من ثوائر الاهواء ونوافر الغرائز وقد شجع ذلك انتشار النزعات المتمردة على العقل التي بدأت في اواخر القرن التاسع عشر

وعلى هذا الاساس قام مذهب الذرائع (البراجمتزم) والمذهب الحيوي ومذاهب تحليل النفس وكلها ترمي الى اضعاف الثقة بالعقل وعلم الاجتماع نفسه اخذ يوجه التفاته الى هذه الناحية التي تبدو واضحة في نفسية الجماعات وغريزة القطيع . وقد كانت الحرب الكبرى آخر صدمة عنيفة اصابت فكرة التقدم ومهدت السبيل لانتشار المذاهب القدرية التي ترى ان الحضارة الحديثة مشرفة على الانحلال والزوال وانها ستلحق بالحضارات البائدة مثل مذهب شبنجلر الذي قوبل بالترحيب وأثر تأثيراً كبيراً في التفكير التاريخي



في عام ١٨٩٨ كان الرئيس لمجمع تقدم العلوم البريطاني العالم الكبير السير وليم كروكس، فاختار السير وليم موضوعاً لخطبة الرآسة « الخبز والعالم » ، لانه كان يعتقد ان البشرية لا بد ان تبلغ يوماً تعم العالم فيه مجاعة كبرى . ذلك لان الجنس الابيض الذي يعيش على الحنطة تزداد عاماً بعد عام زيادة مطردة بينما مجموع الاراضي الزراعية في العالم محدود وزيادة مقادير الحنطة المستنبتة في تلك الارض تنقص عاماً بعد عام . فاذا ما رأيت تلك الزيادة وهذا النقص فلن يحل عام ١٩٣١ حتى تظهر اولى بوادر المجاعة العامة ولن تمر عشرة اعوام على هذا التاريخ حتى تكتسح المجاعة جميع انحاء العالم

ويستدل كروكس على رأيه هذا بالادلة التالية : ان الاسمدة وهي العامل الاساسي في زيادة مقادير الحنطة والحبوب الاخرى ، على نوعين الاسمدة الطبيعية — اعني الاسمدة الحيوانية والنباتية وهذه تستعمل لتسميد الاشجار والانجم والخضر ، والاسمدة الكيمياوية التي يكثر استعمالها في تسميد الاراضي لزراعة الحبوب . فالاسمدة الاولى محدودة المقدار ونتروجينها ينفصل عنها عند ما تتحلل ، اما الثانية فمقاديرها لا تكفي لما تحتاج اليه الارض مدداً طويلة ، وهي املاح النتروجين المستخرجة من تقطير الفحم الحجري او من الارض ذاتها في بلاد شيلي . ومما لا ريب فيه ان املاح النتروجين سواء أكبريتات الامونيوم كانت ام نترات الصوديوم نافدة مهما يطل عليها الزمن وبزوالها سيقل الخبز وهو الطعام الاساسي للناس وتفنى الماشية ، وتنتشر المجاعة فيهلك الناس وتأخذ المدنية بالزوال . وقد مرّ عام ١٩٣١ على العالم بسلام والمجاعة لم تظهر، وربما لن تظهر بعد اليوم . فكيف نوفق بين ما ذهب اليه كروكس وبين الواقع ؟ أكان كروكس مخطئاً في احصائه وتدقيقه ؟ أم حدث في العالم ما غيّر مجرى الحوادث ؟ ذلك ما سنفهمه من دراسة حياة الكيمياوي الالماني المشهور فرتز هابر

في التاسع والعشرين من شهر ينابر (كانون الثاني) عام ١٩٣٤ انتقل من هذه الدنيا عظيم من عظماء

العصر ، وقائد من قواد العلم الحديث وأحد الواضعين لأسس الصناعة الكيمياوية . توفي فرتز هابر في وطن غير وطنه وبين شعب غير شعبه . وخمدت شعلة حياة هذا المجاهد في سبيل العلم دون ان تحتفل الامة التي افنى حياته من اجلها بذكراه ، مع انها تتنعم بثمار جهوده وستبقى مدينة له ما زالت المدنية قائمة . لكن العلماء ابناء البشرية جمعاء وليسوا بابناء امة واحدة ، فاذا ما قصرت امة من الامم في ما يحتمهُ الواجب عليها نحو علم من اعلامها فان تلاميذ ذلك العالم والمعجبين بابحاثه في مشارق الارض ومغاربها لا بد ان يقيموا لهُ مجداً في قلوبهم وان يتذكروا دائماً الخدمات الجلّى التي اسداها لابناء البشرية عامة

يعد هابر ولا ريب من العلماء الخالدين الذين سيبقى اثرهم ما بقيت المدنية الحديثة . فقد خلق صناعة عالمية وسيبقى العالم محتاجاً الى هذه الصناعة ما زال عدد نفوسه في ازدياد وما زالت الصناعة سائرة في طريق التقدم سيراً حثيثاً. فبفضل هذا العالِم بلغ مجموع ما انتجهُ العالم من الامونيا الصناعية خلال عام ١٩٣٥ ثلاثة ملايين من الاطنان. فما مقدار ما سينتجه عند ما تستخدم جميع مصادر الطاقة الكهربائية ؟

وُلد هابر في التاسع من شهر يناير (كانون الاول) عام ١٨٦٨ بمدينة برسلو ، وأُكمل دراستهُ العالية على يد العالم الالماني الكبير لايبرمان Lieberman أحد المكتشفين لصبغ الاليزارين الصناعي . وقد شارك أستاذه في بحوثهِ واتخذ الاليزارين موضوعاً لاطروحته التي نال بها « الدكتوراه » . ولكن ما ان ترك حجرة الدرس حتى استقل في بحثهِ خوفاً من ان يتأثر برأي أساتذته وانصرف لدراسة ما لم يحل من مشكلات الكيمياء الكهربائية والكيمياء الصناعية . ولم يستقر على بحث ما حتى قادتهُ الصدفة الى الاجتماع بفرتز بونت Bunte عام ١٨٩٤ في مدينة كارلسروه Karlsruhe وكان منهمكاً مع رفيقه انكلر Engler حينئذٍ في بحوث صناعية متعلقة بالوقود

صنّف الكيمياوي ولهلم أوستفالد العلماء فميز بين فريقين الاول ويشمل أولئك الذين أنتجوا في مستهل حياتهم ثم خبت نارهم عند ما تقدموا في السن أمثال لابيج وجرهارت وورتز. والثاني ويشمل العلماء الذين أنتجوا في مختلف مراحل أعمارهم أمثال فرادي وأديصون وجب وهلمولتز وأضرابهم من الذين لم تنطفىء نار عبقريتهم الاَّ بخمود أنفاسهم . أما هابر فانهُ يصعب علينا ان نضعهُ في أحد الفريقين ذلك لانهُ قضى الشطر الاول من عمره دون أن ينتج للعالم انتاجاً يستحق الذكر ولكن بزغت شمسهُ عند ما بلغ منتصف العمر وقام بجلائل الاعمال مما بوَّأه المكان الرفيع بين كيمياويي العالم

للمواد العضوية نوعان من الجزيئات ، الجزيئات السلسلية Straight Chain Molecule والجزيئات الدائرية Closed Chain Molecule . فالزيوت المعدنية ومشتقاتها مكونة من جزيئات

سلسلية ، وتمتاز هذه المركبات بأن حالتها الطبيعية متوقفة على طول السلسلة ، فاذا طالت السلسلة اشتدّت كثافة المادة وتماسكت جزيئاتها والحالة على ضدّ ذلك عند ما تقل ذرات الكربون في السلسلة

كانت هذه الحقائق معروفة لدى الكيمياويين ، ولكن ما لم يدركه أحد منهم كان العلاقة بين أفراد طائفة الهيدروكربونات . وقد انكبّ هابر على دراسة هذه العلاقة دراسة علمية ، وبعد تجارب دقيقة متعددة عرف ان ذرات الكربون في المواد الهيدروكربونية متحدة بعضها ببعض وبالهيدروجين. فالميثين مثلاً وهو أبسط المواد الهيدروكربونية تركيباً قوامهُ أربع ذرات هيدروجين تحيط بذرة كربون بينما الايثين قوامهُ ست ذرات هيدروجين محيطة بذرتين متماسكتين من الكربون وهكذا الى ان نصل الى سلسلة مكونة من خمس وثلاثين ذرة كربون كل ذرتين منها متماسكتان ويحيط بهذه الذرات الكربونية اثنتان وسبعون ذرة من الهيدروجين . وهذه المادة معروفة باسم بنتاتراي — اكونتين Pentatriakontane ، وهي مادة صلبة تنصهر عند ما تبلغ الحرارة ٧٥ مئوية وتغلي عند الدرجة ٣٣١ مئوية

والمهم في هذا ان هابر هو المكتشف الاول لطريقة تحطيم جزيئات المواد الهيدروكربونية بفعل الحرارة . فقد تمكن من تكوين مواد هيدروكربونية قصيرة السلسلة من أخرى طويلتها. فمثلاً عند احماء المادة المعروفة بالهكسين وهي مكونة من ست ذرات كربون واربع عشرة ذرة هيدروجين دون تعريضها للهواء ، تكوَّن لديهِ عدة مواد هيدروكربونية بسيطة السلسلة بعضها مشبع وبعضها غير مشبع . وتدعى هذه الظاهرة « بالتحطيم » Cracking

والتحطيم كبير الشأن ولا سيما في صناعة البترول ، اذ لا يخفى ان البترول الخام سائل كثيف قوامهُ عدة مواد هيدروكربونية مشبعة تتفاوت سلاسلها طولاً . فعند التقطير تنفصل هذه المواد بعضها عن بعض وتتجمع في أنابيق خاصة بها بحسب درجة غليانها . ولما كان بعض هذه المواد كبير الشأن من الناحية الصناعية كالغازولين مثلاً تضطر معامل تكرير البترول ان تحطّم جزيئات المواد التي تلي الغازولين في الكثافة لتحضيرهِ منها

ومن الغريب ان هابر لم يشتهر ببحثهِ في هذا الموضوع ولا ببحثهِ في طرق أكسدة المواد العضوية واختزالها بالاساليب « الكهركيمياوية » Electrochemical ، ولكنهُ اشتهر وعرف في العالم أجمع باكتشافه طريقة تحضير الامونيا الصناعية من نتروجين الهواء

كان هابر يبحث في التوازن بين جزيئات الغازات عند ما أدرك أن للضغط علاقة كبيرة بالتفاعلات الكيمياوية الجارية بين الغازات أو بين الغازات والمواد الصلبة والسائلة . وكانت غايته من بحثه هذا أن يحقق بعض القضايا المتعلقة بالحركة الحرارية Thermodynamics وكان في هذا الاثناء يؤلف كتاباً عنوانه « الحركة الحرارية لتفاعلات الغازات الصناعية » . ولقد

نُشر كتابهُ هذا عام ١٩٠٥ وما زال يعد من خير ما كتب في الموضوع ، ومن يطالعه يستوثق من انهُ لو لم يكتشف نيرنست القانون الثالث من قوانين الحركة الحرارية لاكتشفه هابر

عندما اشتهرت بحوث هابر في البلاد التي تتكلم الالمانية ، وجه اليهِ شقيقان يشتغلان بالصناعة الكيمياوية بفينا سؤالاً استفسرا فيه عن امكان تحضير الامونيا من النتريدات والهيدريدات. وكأن هذا السؤال كان وميض برق أضاء لهُ سبيل البحث عن تحضير الامونيا بالطرق الصناعية. فسعى اولاً لتحضير الامونيا باحمائهِ الهيدروجين والنتروجين معاً حتى تبلغ درجة الحرارة نحو الف مئوية مستعملاً عناصر مختلفة كمواد مساعدة ، أهمها الاورانيوم والاوسميوم ، فكانت نسبة الامونيا المتكونة من القلة بحيث لا يمكن الركون الى هذه الطريقة من الناحية الصناعية . ولما كان التفاعل بين الهيدروجين والنتروجين باعثاً للحرارة Exothermic بعكس كثير من التفاعلات الكيمياوية فاستعمال الحرارة وحدها مما يخالف القانون الثالث من قوانين الحركة الحرارية . فلم يبق أمام هابر عندما أدرك هذه الحقيقة الاَّ أن يستعمل الضغط كعامل للاتحاد. وتحقيقاً لفكرتهِ هذه صنع جهازاً مكوناً من اسطوانة معدنية سميكة داخلها أخرى من الكوارتز، ويحيط بهذه ملف لاحمائها على أن تكون بين الاسطوانتين مادة عازلة . ويتصل بالاسطوانة الصغرى انبوبان متمركزان أحدهما لارسال المزيج من غازي النتروجين والهيدروجين والآخر لاخراج غاز الامونيا المتولد داخل الاسطوانة الصغرى ، ويمر هذا الانبوب بمكثف لتكثيف الامونيا . وقبل إمرار الغازين يضغطان ضغطاً شديداً لا يقل عن مائتي ضغط جوي على أن يحمى الانبوب المصنوع من الكوارتز حتى تقرب حرارته من خمسمائة درجة مئوية

وقد جابه هابر لأول وهلة مصاعب كثيرة أهمها ان التفاعل لا يتم ما لم يكن كل من الغازين نقيًّا حتى لا تحول أي مادة دون التفاعل . والصعوبة الاخرى ان الاجهزة المستعملة لا تتحمل الضغط العالي مدداً طويلة . أما نقاوة الغازات فقد تغلب عليها بتحضير النتروجين من الهواء السائل وبتحضير الهيدروجين من الغاز المائي ، وأما الصعوبة الاخرى فقد تغلبت عليها الميكانيكية الحديثة

كان هابر يبغض الحرب لانهُ كان من الذين آمنوا بأنها سبيل من سبل تدهور المدنية الحديثة. ولكن ما إن اشتعلت نار الحرب بين بلاده والحلفاء ، وأدرك أنها حرب ضروس ستدوم اكثر مما كان يظن ، وأن حكومته في أمس الحاجة الى الرجال العاملين، حتى تقدم عارضاً علمهُ ونشاطهُ على حكومتهِ وانتظم في خدمة الجيش واشترك في المعارك الحربية اشتراكاً فعليًّا . كانت المانيا تستعد لتلك الحرب قبل وقوعها بمدة طويلة ، على عكس حلفائها الذين خاضوا غمارها دون سابق استعداد ظانين أنهم بمساعدة حليفتهم الكبرى المانيا سيكسبون الحرب وأنها وإن طالت فلن تدوم

أكثر من عام واحد . ولكن ما ان انقضى عام ١٩١٤ حتى ادركت جميع الامم التي اعلنت الحرب ولا سيما حلفاء المانيا ان الحرب ستدوم عدة أعوام وانهم سيهزمون شر هزيمة ان لم يستعدوا لها أتم استعداد . وبديهي أنهم يقصدون بالاستعداد التزود بالمقادير الكافية من المفرقعات والمتفجرات . ولا يخفى ان المادة الاساسية في صناعة خمس وتسعين بالمائة من مختلف انواع المفرقعات والمتفجرات تحضر باستعمال الحامض النتريك ولا يمكن تحضيرها بغيره . ومعنى ذلك ان الفوز في الحرب العظمى كان حليف الامة التي تمتلك اكبر مقدار منهُ

كانت الحكومتان الالمانية والنمساوية قبل الحرب تحضران الحامض النتريك من تفاعل حامض الكبريتيك مع نترات الصودا او ملح شيلي. ولكن عندما اشتعلت نار الحرب وحوصرت المانيا حصاراً بحريًّا تعذر على المعامل النمساوية والالمانية تحضير المفرقعات اللازمة للجيوش ما لم تهتم الحكومتان بابتكار طرق اخرى

ولو لم تساعد الصدف الجيوش الالمانية فتفتتح احدى المدن البلجيكية انتورب وتستولي على خمسين الف طن من ملح شيلي لانهزمت الجيوش الالمانية في ميادين الحرب قبل انقضاء عام ١٩١٥ . ومع هذا فان الحكومة الالمانية لم تجد بدًّا من تأسيس معملين كبيرين لتحضير الامونيا بطريقة هابر احدهما في اوپو والآخر في مرسبرج وتبلغ المقادير المحضرة في هذين المعملين أربعمائة وخمسين الف طن في العام الواحد. وكذلك استطاعت المانيا ان تتابع الحرب حتى عام ١٩١٨ . ومما يجب ان لا يغرب عن البال ان انخذال المانيا وحلفائها لا يعزى الى قلة عتادها وانما لقلة المواد المغذية فيها .

هذه طريقة هابر في تثبيت نتروجين الهواء وما كان لها من الاثر في الحرب الماضية وما قد يكون لها من الاثر في الحروب القادمة ، أما شأنها في حالة السلم فلا تقدر ، لان نجاح الامم زراعيًّا متوقف على مقادير الاسمدة النتروجينية التي يمكن الحصول عليها والاستفادة منها . ومما لا ريب فيهِ ان العالم بأسره سيقبل على طريقة هابر عند نفود ملح شيلي وغيره من الاملاح النتروجينية وعند تمكنهِ من الاستفادة من جميع مصادر الطاقة الكهربائية

وبعد انقضاء الحرب عاد هابر الى دراساتهِ وبحوثهِ العلمية فترأس خلال عهد الجمهورية الالمانية جمعيات علمية متعددة اهمها جمعية القيصر ولهلم للابحاث الكيمياوية الطبيعية ، وبقي رئيساً لها حتى اضطر الى مغادرة بلاده في عهد الريخ الثالث . وتشاء الظروف القاهرة ان يمضي بضعة اعوام مريضاً عليلاً في بلاد الغربة ويوافيه الاجل وهو بعيد عن التربة التي شب فيها وترعرع ، والتي احبها واخلص لها وصرف جميع ما يملك من اجلها ولكن ذكراه ستبقى في قلوب طلاب العلم الذين لا يعرفون فروقاً بين عالم وآخر — البصرة —

نواح عسكرية وجغرافية في عصر اسماعيل

الجيش المصرى

والاستكشاف فى أفريقيا

للملازم الاول عبد الرحمن زكي

— ١ —

لما أراد الخديو اسماعيل إعادة تنظيم الجيش المصري رأى انهُ يعوزه الاكفاء من الضباط الحربيين والاداريين والمهندسين . فوقع اختياره على لفيف من الضباط الاميركيين لتأليف هيئة اركان حرب الجيش وعين الجنرال « ستون » رئيساً لها . فانتخب نحو اربعين ضابطاً منهم « لورنج » و«داي» و«شاييه لونج » و« پروت » و«پوردي » . وبعد قليل من الزمن تمكن « ستون » وزملاؤه من تخريج فئة من الضباط المصريين لهم من المهارة والتدريب على الاعمال ما ملأ صدر الخديو والامة فخراً وإعجاباً . ومن هؤلاء الضباط مختار وواصف وحمدي وفوزي وغيرهم ممن اضاءوا صحيفة تاريخ مصر الحديث في السودان [١]

كانت باكورة اعمال القسم الجغرافي من هيئة اركان الحرب في الجيش المصري استكشاف الصحارى المصرية

ففي اوائل عام ١٨٧٠ اضطلع الكولونيل ميسون Mason ومعهُ بعض الضباط المصريين بمهمة استكشاف الطرق والدروب الموصلة الى واحة سيوة . وقامت بعثة الكولونيل پوردي "Purdy" عام ١٨٧١ برسم ضواحي حلوان واستكشاف المنطقة التي بين النيل والبحر الاحمر ابتداء من الخط الممتد بين المقطم والسويس الى خط يوازي القصير . وقد استغرقت اعمال هذه البعثة عاماً. وعادت بحقائق وافية عن طبقات الارض وما فيها من مناجم المعادن والمحاجر وعروق الذهب التي عرفها قدماء المصريين في تلك الجهات [٢]

وفي عام ١٨٧٣ قام الكولونيل كولستون Colston بكشف الطريق الموصل بين قنا وبيرنيقه Berenice على ساحل البحر الاحمر جنوب رأس بناس. وفي هذه المدينة التقى بالكولونيل پوردي

(١) فتح افريقية في عهد الخديو اسماعيل للاستاذ محمد رفعت (٢) مصر والجغرافيا تأليف الدكتور فردريك بنولا بك وترجمة احمد زكي باشا — المطبعة الاميرية ببولاق سنة ١٣١٠ هـ



بردي باشا



محمد رءوف باشا

قادماً عن طريق البحر الاحمر. فاستصحبهُ معهُ في التجول بالبقعة الواقعة بين بيرنيقه وبربر للتوفيق بين ابحاثه الجديدة وبين ابحاث لينان دي بلفون التي بدأها فيها قبل ذلك بأربعين عاماً (١)

الاستكشاف في كوردفان ودارفور

ولما أتمت القوات المصرية فتح كوردفان ودارفور (١٨٧٤) اصدر الخديو اسماعيل امره الى الجنرال ستون بتنظيم بعثة كبيرة لاتمام الاستكشاف في تلك البقاع . فأنشأ ثلاث بعثات من الضباط كان على رأس البعثة الاولى منها الكولونيل كولستون لارتياد كوردفان ثم الانضمام الى البعثة الثانية بعد انتهائه من اعمال بعثته . وتألفت البعثة الاولى من الضباط المصريين :

الملازمين الاول عمر رشدي (باشا) ومحمد ماهر (باشا) وأحمد حمدي (باشا) ويوسف حلمي وخليل فوزي وأربعة ضباط آخرين . وقد لازم هؤلاء القائمقام الاميركي ريد لكنهُ لم يصبر على متاعب الرحلة فعاد الى القاهرة . وقد اصطحب رجال هذه الحملة العالم المواليدي الدكتور بفوند Pfund وتسعين رجلاً . غادرت هذه البعثة القاهرة في شهر ديسمبر عام ١٨٧٤ وسلكت طريق النيل الى وادي حلفا ثم سارت بجانب الشاطىء الايسر الى مدينة الدبة ثم تجولت في وادي ماتول عن طريق إبلاي وبلغت مدينة الابيض في ١٢ يونيه سنة ١٨٧٥

في هذه الرحلة اصيب الكولونيل كولستن بمرض شديد فاضطر ان يعهد بقيادة الحملة الى الميجور بروت Major Prout قائد الحملة الثانية . وقد ألف كولستون كتاباً نشرته مجلة اركان حرب الجيش المصري كما نشرت له مجلة الجمعية الجغرافية الخديوية رسالتين ارفقت بهما خارطة عن بيان خط السير الذي اتبعه (٢) . ثم تقلد قيادة البعثة المذكورة الماجور بروت . وكان غرضه الوصول الى الابيض عن طريق سواكن والخرطوم ورسم الطريق الذي تخترقه البعثة . وقد انجز مهمته وسافر في يوم ٢١ مارس سنة ١٨٧٦ الى دارفور للحاق ببعثة الكولونيل بردي. وفيما يلي نلخص اهم الاعمال التي اتمها الكولونيل بروت وفريق الضباط المصريين الذين كانوا معهُ (٣)

١ — رسم خط سير طوله ٦٠٠٠ كيلو متر عمل بواسطة جميع الضباط متفرقين

٢ — خارطة عمومية لاقليم كوردفان مقياس $\frac{١}{٦٠٠٫٠٠٠}$ رسمها بروت والملازمان ماهر وفوزي

٣ — خارطات تفصيلية اهمها خارطة الطريق من سواكن الى بربر مقياس $\frac{١}{٨٠٠٫٠٠٠}$ رسمها «بروت» وماهر . وأربع مناطق من الطريق بين النيل الى الابيض

(١) رسالة كولستون بعنوان يوميات الرحلة من قنا الى بيرنيقة وبربر المنشورة في العدد التاسع من القسم الثاني من المجلة الجغرافية الخديوية

(٢) تقرير عن كوردفان الشمالية والوسطى في مجلد واحد بمطبعة اركان الحرب باللغة الانجليزية

(٣) راجع الطريق من الدبة الى الابيض في العدد الرابع من القسم الثاني من مجلة الجمعية الجغرافية ١٨٨٨

٤ — تعيين سبعة عشر موقعاً بالارصاد الفلكية

٥ — خارطة مدينة الابيض بمقياس ١/٢٠٠ر٠٠٠ رسمها الضباط خليل فوزي وعمر رشدي ويوسف حلمي

٦ — رسوم شتى وصور متنوعة اهمها خارطة تبين توزيع الغابات في كوردفان

٧ — ملاحظات وبيانات بعلم الجو وطبيعة الاراضي

٨ — مجموعات نباتية وجيولوجية جمعها الدكتور بفوند

٩ — رسائل مفيدة جداً في الكلام عن السكان والتجارة والاخلاق والعادات [١]

وقد اتم الاميرالاي پروت اعمال حملته في ثلاث سنوات . ثم قام من الابيض قاصداً الى الفاشر فبلغها في اليوم الرابع والعشرين من ابريل بعد ان رسم الطرق والمسالك التي مرَّ بها [٢]

***

اما الحملة الثانية بقيادة الكولونيل پردي Col. Purdy فكان قوامها القائمقام ميسون بك Col. Mason الفلكي والملازمين الاول محمود صبري (باشا) ومحمد سامي وسعيد نصر (باشا) من ضباط هيئة اركان الحرب (قسم الجغرافيا) والملازم الثاني خليل حلمي والطبيب محمد امين واثني عشر صف ضابط وجندي من اركان الحرب.وقد سارت هذه الحملة من دنقلة العجوز الى الفاشر عن طريق جديدة اختطتهُ ورسمتهُ حملة الكولونيل پردي في سنة ١٢٩٢هـ ١٨٧٥م وكانت محفوظة في مكتبة اركان حرب الجيش [٣] . ولم تنشر نتائج هذه الحملة العلمية مفصَّلةً . وان كان الكولونيل ميسون قد كتب بحثاً ملخصاً لاعمال الحملة لم يجنِ منهُ علماء الجغرافيا فائدة كبيرة

وقد قطعت البعثة في رحلتها ٦٥٠٠ كيلو متر واستكشفت كل ما مرت بهِ اثناء سيرها وعينت ٢٢ موقعاً فلكيًّا . وقد توفى اثناء هذه الرحلة الدكتور بفوند في اليوم الثاني والعشرين من اغسطس ١٨٧٦وترك مجموعة نباتية واخرى جيولوجية وكلتاهما حفظت بالجمعية الجغرافية

ورسمت الحملة الطرق الآتية :

الميرالاي پوردي — من دنقلة الى الفاشر الى حفرة النحاس

« ميسون — من الفاشر حوالي جبل ميدوب . من الفاشر الى جبل مرة . والى

---

(١) راجع التقرير العام عن مديرية كوردفان باللغة الانجليزية المطبوع بمطبعة عموم اركان الحرب عام ١٨٨٧

(٢) راجع خارطة الطريق من الابيض الى الفاشر رسمها الضابطان ماهر وفوزي بمقياس ١/٥٠٠ر٠٠٠ فيها خمسة مواقع فلكية والارتفاعات وخارطة الطريق من فوجه الى الابيض التي رسمها پروت بمقياس ١/٥٠٠ر٠٠٠

(٣) راجع خارطة خط السير من دنقلة العجوز الى الفاشر عن طريق وادي محال الى السكرنك بمقياس ١/٩٠٠ر٠٠٠



الكولونيل كولستون

الكولونيل براوت

	الحدود الغربية للترجة . وغربي جبل مرة من دارا الى شكا والطويشة
الماجور بروت	حول منطقة جبل مرة . وفي جهة الشمال عند قوم الزعارة وقد رسم خارطة لها بمقياس ١/١٠٠٫٠٠٠
الملازم محمود صبري	في الشمال بجانب تخوم دار تاما في فوجه وقد رسم خارطة للمنطقة
« محمد سامي	شرقي الفاشر والطويشة والعودة منهما ورسم خارطة [١]

اما البعثة الثالثة فقد كانت برئاسة المهندس الاميركي ميتشل Mitchell الملحق بقسم اركان حرب الجيش المصري[٢] وبصحبته الضابط عبد الفتاح حلمي . وكان غرض البعثة كشف المعادن بين النيل والبحر الاحمر . وقد كشفت مناجم الذهب في « الحمامة » شمالي قنا ثم عرجت بثغور البحر الاحمر وخليج عدن كالقصير ومصوع وتاجورة وزيلع . وأوغلت في الداخل ثم عادت الى مصوع وكشفت الجهات الشرقية من الحبشة [٣]

ورسم البكباشي محمد عزت احد ضباط حملة منزنجر باشا خارطة للجهات الواقعة بين باجورة وبحيرة عوسا بالحبشة

فتح هرر واستكشاف اقليمها

وبينما كانت اعمال الاستكشاف الجغرافية سائرة بنشاط في غربي السودان كانت القوات المصرية قد اخضعت هرر فأصبحت منفذاً للحضارة الحديثة الى اواسط افريقيا . ولاسيما بعد ما تنازلت تركيا للحكومة المصرية في منتصف عام ١٨٧٥ عن مدينة زيلع مقابل اتاوة سنوية

وفي العام المذكور كان اللواء رؤوف باشا قد اعدّ حملة عسكرية نجحت في اخضاع اقليم هرر وظل العلم المصري يخفق على ربوع تلك البلاد الى مارس ١٨٨٤[٤]

وكان لزاماً عقب هذا الفتح العسكري أن تعقبه البعثات العلمية لدرس تلك الاقطار الجديدة وارتياد طرقها وجبالها واوديتها وخيراتها الطبيعية

ولسنا نبالغ مطلقاً اذا قلنا ان نصيب مصر من الاعمال التي تمت في ميدان البحث الجغرافي في افريقيا الشرقية خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر مجهول لدى الباحثين الاوربيين الذين عنوا بتاريخ الكشف . فقد خلف لنا رجال الكشف المصريين تراثاً نفيساً من الاعمال

---

(١) راجع مصر والجغرافيا ص ٥٤ والتعليقات المذكورة رقم ٥ و٦ و٧

(٢) راجع تقريره عن أعمال هذه البعثة في مجلة الجمعية الجغرافية الخديوية مجموعة ١ عدد ٦ — اكتوبر سنة ١٨٧٩ ص ٧ و١٥

(٣) عبد الرحمن الرافعي — عصر اسماعيل — الجزء الاول . ص ١٧٨

(٤) راجع الكلام على سيادة مصر في بلاد هرر بقلم المؤرخ البولندي « بوليتشك » في العدد الحادي عشر من القسم الثاني من مجموعة الجمعية الجغرافية الخديوية

الجغرافية التي لا تعتبر بأي حال من الاحوال قليلة . وتثبت هذه الاعمال لنا بدون ادنى شك سبق الرواد المصريين الى فتح داخلية بلاد الصومال وحصو لهم على معلومات جغرافية نفيسة

فانهُ لما خضعت ميناء زيلع للرقابة المصرية سهل لمصر ان تتصل بسكان داخلية البلاد. وتم لها اخضاع هرر فأعادت فتح الطرق التجارية القديمة. فكانت النتيجة ان اصبحت مصر على اتصال قريب بجنوبي شرقي الحبشة . وهذا يشبه ما تمَّ عندما احتلت مصوَّع فأخذت السيادة المصرية تتسرب ايضاً الى الجزء الشمالي الشرقي من تلك المملكة . وفي ذلك الحين كان النفوذ المصري يمتد ببطء الى الجنوب حتى اصبح ممتد في النهاية الرقابة على كل ساحل الصومال الى الجنوب حتى ميناء كسمايو ونهر جوبا . وفي جميع الحملات كانت التحقيقات العلمية تسير بجانب العمليات الحربية المصحوبة بالتغلغل السلمي . وقد سعى رجال القسم الجغرافي من هيئة أركان الحرب في الجيش المصري ليجعلوا اسم مصر وهاجاً في العالم العلمي وللاخذ بيد الحضارة في فتح ميادين جديدة للتوسع [١]

ولم تكن جهود هؤلاء الضباط الشبان الجريئين مقتصرة على شرقي افريقية بل أنها امتدت واتخذت سبلاً متعددة الى داخلية مناطق السودان الشاسعة والى المناطق المجهولة حتى الآن من أعالي النيل . ولقد سجلت معظم أعمال الكشف الاولى ما تركهُ لنا هؤلاء الضباط من تقارير ورسائل وابحاث وخارطات لم ينشر كلها . وإن كانت الجمعية الجغرافية نشرت منذ سنين [٢] بحثاً نفيساً لاعمال مصر الجغرافية التي تمت في القرن التاسع عشر . وعلى الرغم من خلو هذا البحث من التمحيص لاختصاره الا انهُ القى ضوءاً على ما بذل من النشاط في ميدان الطبوغرافيا ورسم الخارطات . ورسم صورة واضحة للعمل العظيم الذي تم في البلاد التي كشفت ومسحت

ولنبدأ أولاً بالاشارة الى الدراسات الجغرافية الجدية التي اشترك في القيام بها الضابطان المصريان البكباشي محمد مختار والصاغ عبد الله فوزي في هرر وساحل الصومال لنستطيع الحكم على نوع العمل العلمي الذي اتم الاثنان جزءاً كبيراً منهُ في ذلك الوقت لولا انهُ اوقف فجأة نتيجة للحوادث السياسية في مصر عام ١٨٨٢ [٣]

وبعد فانهُ يظهر لنا ان الكتاب الاوربيين لا يعلمون شيئاً عما انجزه المكتشفون المصريون في افريقية وذلك على الرغم من ان معظم بحوث الضباط نشرت باللغتين العربية والفرنسية في حينها. وكان

---

(١) Mustafa Amer: Some Unpublished Egyptian Maps of Harrar مجلة الجمعية الجغرافية الملكية — مجلد ١٩ . ص ٢٨٩ — ٢٩٩ عام ١٩٣٧ . وهذا البحث مرجعنا الاساسي في كتابة هذا الموضوع

(٢) F. Bonola Bey : L'Egypte et la Geogrphie Le Caire 1890 مترجم الى اللغة العربية أيضاً بقلم المغفور له احمد زكي باشا

(٣) راجع مقالاتهما في مجلة الجمعية الجغرافية الخديوية (بالنص الفرنسي) ومجلة اركان الحرب العامة للجيش المصري باللغة العربية

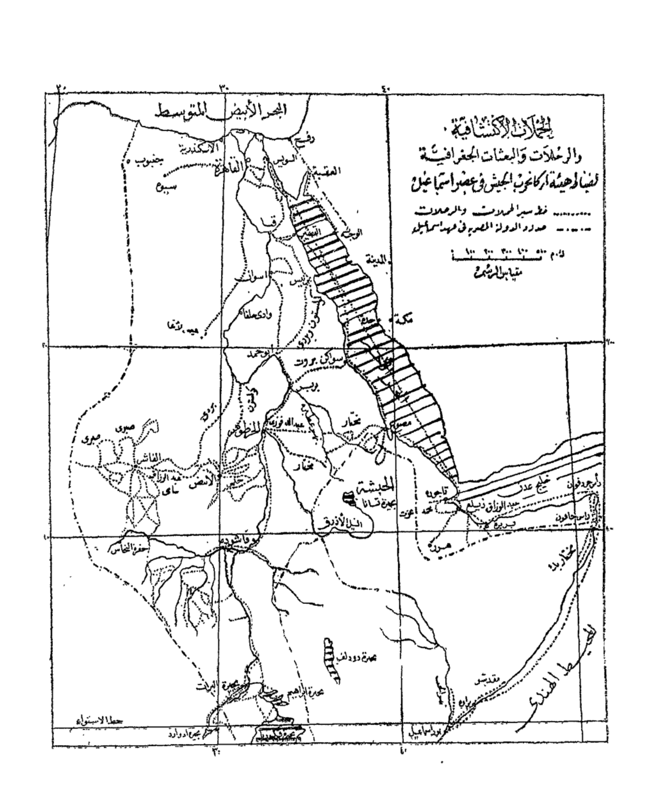


الكولونيل شايه لونج بك



الجنرال ستون

[جميع صور المقال مهداة من الجمعية الجغرافية الملكية]



الحملات الاكتشافية
والرحلات والبعثات الجغرافية
لضباط هيئة أركان حرب الجيش في عصر إسماعيل
خط سير الحملات والرحلات
حدود الدولة المصرية في عهد إسماعيل
مقياس الرسم
البحر الأبيض المتوسط
الاسكندرية
القاهرة
السويس
العقبة
رفح
جغبوب
سيوه
قنا
أسوان
وادي حلفا
الوجه
المدينة
مكة
سواكن
بربر
الخرطوم
مصوع
الفاشر
الأبيض
الحبشة
بحيرة تانا
النيل الأزرق
خليج عدن
تاجوره
زيلع
بربره
هرر
فاشودة
بحيرة رودلف
بحيرة البرت
بحيرة ابراهيم
مقديشو
براوه
المحيط الهندي
خط الاستواء

هؤلاء الكتّاب قد ارتبطوا بمحالفة للصمت وعدم التحدث عنها او انهم يتعمدون الجهل بها. ومع ذلك فلا يفقد الحق مناصريه . لانا نستثنى من هذا الحكم اوربيين شهدا بالجهود العلمية التي قامت على اكتاف ضباط الجيش المصري وأولها الدكتور بوليتشه (Dr. P. Paulitsche)(١) الذي زار هرر بعد خروج القوات المصرية منها مباشرةً وانصف الادارة المصرية في تلك البلاد كما نوه في كتاباته بالعمل الجغرافي الذي انجزه الضباط المصريون ولاسيما البكباشي مختار من الشأن الكبير. وثانيهما العالم الايطالي روبتشي بريشتي (L. Robecchi Bricchetti) الذي زار هرر فيما بعد وأدرك عمل مختار وأعوانه(٢)

ولقد ترك لنا الضباط المصريون بجانب ملاحظاتهم وتقاريرهم وأوراقهم مجموعة نفيسة جداً من الخارطات ما زال البعض منها محفوظاً للآن . وهي بدون أدنى شك ليست الخارطات الاولى من نوعها . لكنها في الحقيقة هبة ثمينة في علم الخارطات . فقد كان كشف المنطقة الواقعة بين مصوع وهضبة الحبشة والعمليات الحربية ضد الحبشة خير وسيلة لامداد علم الجغرافية بانواع المعرفة المفيدة وأهمها عدد وفير من الرسوم والتخطيطات الكروكية . ونذكر في هذا الصدد بيان خط السير الى بحيرة عوسا الذي عملهُ الضابط محمد عزت سنة ١٨٧٥ (٣) وعمل الضباط ضياء ونظمي ومجدي على حدود الحبشة في عام ١٨٧٥(٤) . ونذكر ايضاً خارطة المكتشفات العسكرية على الحدود الشمالية للحبشة التي اشترك في عملها ستة من ضباط الجيش (١٨٨٠ — ١٨٨١) لما كان اللواء راشد باشا حكمداراً لمناطق الحدود (٥)

ومن الخارطات المهمة — خارطة زيلع وضواحيها التي رسمها مختار وفوزي (١٨٧٥) (٦) وخارطة بربر وضواحيها التي رسمها الضابط عبد الرزاق نظمي وآخرون(٧) ثم خارطات البكباشي مختار الخاصة برأس جردفوى بمقياس ١/٤٠٠٠٠٠ (١٨٨٠) ووادي طحين ومناطق هندوبنا(٨) . وأخيراً تخطيط نهر جوبا وتصحيح خارطة ساحل الصومال الذي تم على يد الضباط حسن واصف وعبد الرزاق وصديق وجميعهم كانوا من ضباط حملة ماكيلوب باشا

(١) P. Paulitsche : Le Harrar sous l'Administration Egyptienne (1875-1885), Bull. de la Soc. Geog. Le Caire, No. 10. pp. 575-591.

(٢) L. R. Bricchetti : Nell Harrar, Milan 1896, pp. 28 and 114

(٣) Dor Bey : Werner Munzinger Pasha. Bull. 1876, Serie I. No. 1 pp 124-127; Bonola : p. 61

(٤) مجلة الجمعية الجغرافية الخديوية — المجموعة ١ رقم ٨ ص ٣٨ عام ١٨٧٦ ورقم ٩ و ١٠ ص ٤٣ — ٧٦

(٥) Bonola — ص ٧٤ — خارطة باللغة العربية وتحتوي على ثلاث لوحات مطبوعة في المطبعة الاهلية بالقاهرة

(٦) مجلة أركان الحرب — السنة الثالثة — مجلد ١ — جزء ١ — القاهرة ١٨٧٦ ص ٢٩ — ٣٥

(٧) مجلة الجمعية الجغرافية — السلسلة ٢ — رقم ٧ ص ٣٤٩

(٨) مجلة الجمعية الجغرافية — السلسلة ١ — رقم ٨ ص ٢٩ — ٤٢ ورقم ٩ و ١٠

والكولونيل شايه لونج [١] وكان من نتائج تهديد لورد دربي للخديو اسماعيل (يناير ١٨٧٦) ان اعمال هذه الحملة لم تتم كما كان ينتظر

وكان قوام هذه الحملة بارجتين حربيتين مصريتين وهما محمد علي ولطيف وسفينتين نقالتين — طنطا ودسوق — وثمانية بلوكات مشاة وبلوك خيالة وآخر من المدفعية . وقد اقلعت السفن المذكورة من السويس في يوم ١٧ فبراير ١٨٧٥ فوصلت الى مصب نهر جوبا وتمكن شايه لونج من استكشاف البلاد الكائنة على ضفتي النهر مسافة ١٥٠ ميلاً بزورق بخاري ورسم اليوزباشي حسن واصف الذي كان برفقته مجرى النهر . ووفقت هذه الحملة لتصحيح خارطة سواحل الصومال واستكشاف مينائي كسيمايو (بور اسماعيل) ودنفورد على المحيط الهندي وسبر اعماقهما بمعرفة الكولونيل وارد واليوزباشي صديق وضابط آخر من اركان حرب الجيش [٢]

وقد تعاون ضباط القسم الجغرافي بعضهم مع بعض فأخرجوا خارطتين عامتين عن مصر وملحقاتها: كان مقياس الخارطة الاولى $\frac{1}{1000000}$ وقد عرضها مندوبو مصر في المعرض الجغرافي الدولي الذي عقد في البندقية في سبتمبر ١٨٨١ [٣] والخارطة الثانية مقياسها $\frac{1}{1000000}$ احتوت على جميع المعلومات التي جمعت في خلال الاعوام الثمانية عشر للفتوحات والاكتشافات والدراسات المصرية ومما يؤسف له ان هذه الخارطة قد ضاعت لما سقطت الخرطوم في ايدي المهديين [٤]. ومن الآثار النفيسة التي خلفها القسم الجغرافي ذلك المصور المظيم لافريقيا (Carte General de l'Afrique) وليس هناك ادنى شك في ان هذه الخارطة المفصلة الفخمة خير ما انتجه ضباط اركان حرب الجيش عام ١٨٧٧ . وهي أدق خارطة عرفت الى ذلك الحين اشترك في رسمها كل من الاميرالاي لوكيت والقائمقام مختار بك والصاغ عبد الله فوزي وعبد الرزاق نظمي والضباط محمود صبري وأحمد فائق (باشا) وأحمد فهمي وحسن حارس (باشا) وحسن صفوت وابراهيم حلمي ومحمد جودت ومحمد خير الله ويوسف ضياء (باشا) وعلي حيدر (باشا) واحمد رشيد [٥]

ومن حسن الحظ انهُ ما زالت النسخة الاصلية لهذه الخارطة محفوظة في قصر عابدين في في احد ابهائه العظيمة . وكان المغفور له جلالة الملك فؤاد قد امر باعادة طبعها واخراجها في نصف حجمها الاصلي . فنفذت ارادته بهمة رجال مصلحة المساحة المصرية . واخرجت الطبعة الاولى عام ١٩٣٠ ثم اعيد طبعها بتهذيب وتحسين واخرجت عام ١٩٣٤ [للبحث تتمة]

---

(١) Bonola, 65-66 et 72 ; M. Sabry, L'Empire Egyptien sous Ismail, Paris 1933, p. 397-398

(٢) من مذكرات مخطوطة أرسلها الكولونيل لونج الى الدكتور بونولا . ومقالة أخرى نشرتها له الجمعية الجغرافية الاميركية الصادرة سنة ١٨٧٨ وعنوانها « على نهر جوبا » (٣) مجلة الجمعية الجغرافية الملكية — القاهرة ١٨٨٢ — السلسلة ٢ رقم ١ ص ١ — ٢١ (٤) Bonola : p 75 (٥) عبد الرحمن الرافعي - عصر اسماعيل — الجزء الاول ص ١٨٠

الى وكرك يا قلبي !

لحسن كامل الصيرفي

الى وَكْرِكَ يا قلبي ففي وَكْرِكَ أحلامُكْ
تُعانِقُ فيه ما يُوحيه من شِعْرِكَ إلهامُكْ
وتَفنَى في جلالِ الوحي والأحلام آلامُكْ
وتَزْخرُ فيه اصداؤ كَ بالنَّجوَى وأنغامُكْ
فقد تَسْحَرُكَ الدنيا فتستيقظُ آثامُكْ
إذا ما حِدْتَ عن وَكْرِكَ أو غرَّتْكَ أوهامُكْ

* * *

الى وكرك يا قلبي فقد حاصَرَنا الليلُ
وجُنَّتْ حولنا الدنيا فلا وَحْيٌ ولا عقلُ
وخَفَّتْ زُمَرُ العشَّاقِ كالأحلام تَنْسَلُّ
دَعَتْها الشهوةُ العميا ءُ فانساقَ بها الرَّحْلُ
وهامت في ضَلالتها بكأسٍ قلَّما تحلو
فَلُذْ بالوَكْرِ يا قلبي حَسْبُكَ ذلك الظِّلُّ

* * *

الى وكرك يا قلبي لتطرَح عنكَ أعباءَكْ
وتسمعَ في سكون الليلِ من جارِكَ اصداءَكْ
ولا تَعْبَأْ بأضواء يُنَسِّينَكَ أضواءَكْ
فحُلْمُكَ لم يَزَلْ يقظانَ يستلهم إيحاءَكْ
يطلُّ عليكَ من مَرْقاهُ يَسْتَطلِعُ انباءَكْ
فلا تَحفِل بمَنْ تبسمُ، أو تُزْمِعُ إغواءَكْ

* * *

الى وكرك يا قلبي فإنَّ الليلَ خَدَّاعُ
ترى الاضواء ساحرةً وهذا السحرُ إيقاعُ
وهذي الفتنةُ الحيْرَى غَواياتٌ وأطماعُ
وهذا الحبُّ يا قلبي مَلَذَّاتٌ وإمتاعُ
وهذي حَيَّةُ الجنَّاتِ تلهو بالأُلَى انصاعوا
فعُد للوَكْرِ يا قلبي ففي وَكْرِكَ أسجاعُ

بعث الثقافة

وأثره في النهضة العربية

لقدري حافظ طوقان (١)

وطد المحاضر لمحاضرته بذكر ما أدركته أمم الغرب وبعض أمم الشرق من ان بعث الثقافة أهم العوامل التي تستند اليها النهضات السياسية والحركات الاستقلالية وان الامة التي تبغي مجداً وسؤدداً عليها ان تخلق في الافراد روح الايمان بقابليتهم على للابتداع وان تنشىء فيهم الشعور بالعزة القومية وذلك بالاهتمام بماضيها وربطه بحاضرها وتعريف الناشئة بجهود أسلافهم وما ثرهم في ميادين العلوم وماكان لهم من اثر في تقدم الحضارة . ثم أشار الى ما فعلت الامتان اليونانية والارلندية في هذا الميدان . ثم وجه الكلام الى الامة العربية وتراثها العقلي المجيد فقال : — [المحرر]

ان الامة العربية من الامم التي خلّفت آثاراً جليلة في ميادين المعرفة عادت على الحضارة بالتقدم والارتقاء . وقد لا يكون هناك امة لها ما للامة العربية من تراث خالد وأثر بليغ في سير العلوم فلولا نتاج القريحة العربية لتأخر سير المدنية بضعة قرون

ومما يؤسف لهُ حقّاً اننا اهملنا تراثنا ولم نلتفت اليه ، وأنه باهمالنا هذا وعدم التفاتنا الى مآثر اسلافنا أصبح لدى الكثيرين اعتقاد في عدم قابليتنا وأنه لم يكن لاجدادنا اي جهد فكري عالي ، وأنهُ لم ينشأ بين العرب من استطاع ان يبلغ في ميدان العلم مبلغ علماء اوربا وعباقرتها

ومن اغرب ما نشاهده اليوم ان نجد كثيرين ينكرون على العرب مآثرهم في مختلف العلوم والفنون وقد يزيد استغرابكم اذا علمتم ان هذا الانكار سائد ومسيطر على المثقفين وأصحاب الشهادات والالقاب العلمية ، وليت الامر يقف عند هذا الحد — حد الانكار — بل يتعداه الى الاستخفاف بكل ما هو شرقي عامة وعربي خاصة والى التنقص من جهد السلف وفضلهم على المدنية ، بينما نجد في الغرب من قام يدافع عن الحقيقة لانها حقيقة ومن قام يظهر الحق لانهُ حق . وقد دفعهم الاخلاص للحقيقة ان ينصفوا الحضارة العربية بعض الانصاف فاعترف غير واحد بما للمدنية العربية من فضل على مدنية أوربا التي ينعمون بها . وقد ثبت لهم

---

(١) من المحاضرة النفيسة التي ألقاها قدري حافظ طوقان في منتدى جمعية الشبان المسيحية بالقدس برآسة الاستاذ احمد سامح الخالدي عميد الكلية العربية بالقدس

انهُ كلما تقدم العلماء في البحث عن نتاج قرائح العرب تجلى لهم فضل العرب على العلم والعمران بصورة أوضح وظهر لهم ان العرب سبقوا الغرب في وضع النظريات الرياضية والفلكية والفلسفية . وقد قال أحد علماء الفرنجة ان بعض ابتكارات واختراعات حسبناها من عملنا ثبت بعد قليل ان العرب سبقونا اليها . واعترف بعضهم بعلوّ كعب الحضارة العربية وبما أسدتهُ من خدمات جلى الى المدنية . قال فلوريان : « . . . كان للعرب عصر مجيد عُرفوا فيه بانكبابهم على الدرس وسعيهم في ترقية العلوم والفنون ، ولا نبالغ اذا قلنا ان أوربا مدينة لهم بخدمتهم العلمية — تلك الخدمة التي كانت العامل الاول والاكبر في نهضة القرنين الثالث عشر والرابع عشر للميلاد . . . » . وقال (ولز) عن حضارة العرب ما يلي : « وكانت طريقة العربي ان ينشد الحقيقة بكل استقامة وبكل بساطة وان يجلوها بكل وضوح وبكل تدقيق غير تارك منها شيئاً في ظل الابهام . فهذه الخاصة التي جاءتنا نحن الاوروبيين من اليونان وهي نشدان النور انما جاءتنا عن طريق العرب ولم تهبط على اهل العصر الحاضر عن طريق اللاتين ... » ومما لا شكَّ فيه ان الحضارة العربية هي حلقة الاتصال بين حضارة اليونان والحضارة الحالية فهم الذين حفظوا علوم اليونان وغيرها من الضياع وهم الذين نقلوها ونقلوا معها اضافاتهم الكثيرة الى اوربا عن طريق الاسبان ، ويعترف (البارون دي ڤو) بأن الرومان لم يحسنوا القيام بالميراث الذي تركه اليونان ، وبأن العرب كانوا على خلاف ذلك فقد حفظوه وأتقنوه ، ولم يقفوا عند هذا الحدّ ، بل تعدوه الى ترقية ما أخذوه وتطبيقه باذلين الجهد في تحسينهِ وانمائهِ حتى سلموه للعصور الحديثة . وهم فوق ذلك أساتذة أهل اوربا اعترف بذلك العالم الافرنسي الكبير (سيديو) حيث قال : « وان نتاج أفكارهم الغزيرة ومخترعاتهم النفيسة تشهد انهم أساتذة أهل اوربا في جميع الاشياء ... »

هناك أناس يضربون على نغمة جديدة اقتبسوها عن الجاحدين لفضل العرب والاسلام ، وهذه النغمة تدور حول قولهم ان العرب لم يكونوا غير نقلة للعلوم ، ومن الغريب ان لا تجد من العرب من ردٍّ عليهم ، ومن الغريب ان يكون الرد عليهم من عالم أميركي اشتهر بالبحث والتنقيب . قال الدكتور (سارطون) : « ان بعض الغربيين الذين يجربون ان يستخفوا بما أسداهُ الشرق الى العمران يصرحون بأن العرب والمسلمين نقلوا العلوم القديمة ولم يضيفوا اليها شيئاً ما . . . . هذا الرأي خطأ . . . لو لم تنقل الينا كنوز الحكمة اليونانية لتوقف سير المدنية بضعة قرون . . » ويمضي الدكتور في كلامهِ فيقول : « ... ولذلك فان العرب كانوا أعظم معلمين في العالم في القرون الثلاثة الثامن والحادي عشر والثاني عشر للميلاد . . . »

في العرب علماء عباقرة استطاعوا ان يُسدوا جليل الخدمات الى العلم كالتي اسداها نيوتن وفراداي ورنتجن وغيرهم من نوابغ الغربيين . وقد اعترف (ويدمان) بأن العرب أخذوا بعض النظريات

عن اليونان وفهموها جيداً وطبقوها على حالات كثيرة مختلفة ثم أنشأوا من ذلك نظريات جديدة وبحوثاً مبتكرة « فهم بذلك . . . » يقول ويدمان « ... قد أسدوا الى العلم خدمات لا تقل عن الخدمات التي أتت من مجهودات نيوتن وفراداي ورنتجن . . » والذي لا أشك فيه ان عالماً له مقامهُ العلمي الممتاز كالاستاذ (ويدمان) لا يلقي الكلام جزافاً وهو يعرف ما يقول ويزن كل كلمة يفوه بها بميزان الحقيقة والانصاف. انا أولى من غيرنا بمعرفة عباقرتنا ونوابغنا . انه لواجب مقدس علينا أن نهتم بتراثنا وبما أورثهُ أسلافنا الى الاجيال . أليس من العيب الفاضح علينا ان لا نعرف ان الخوارزمي هو من كبار رياضيي العالم وانهُ اول من وضع (الجبر) بشكل مستقل عن الحساب وقد بوَّبهُ ورتبهُ وزاد عليهِ زيادات هامة تعد اساساً لكثير من بحوثه . وعلم الجبر — يا سادتي — من اعظم اوضاع العقل لما فيهِ من الدقة واحكام في القياس

ولقد جمع العرب بين الجبر والهندسة وطبقوا الهندسة على المنطق كما طبقوا اكثر العلوم على مختلف مرافق الحياة . واعترف (كاجوري)بفضل العرب على الجبر فقال « ... ان العقل ليدهش عند ما يرى ما عمله العرب في الجبر .. » وقال ايضاً . « ... ان حل المعادلات التكعيبية بواسطة قطوع المخروط من اعظم الاعمال التي قام بها العرب ... » ويمكن القول ان بحوث العرب في الجبر والهندسة وفي إحكام العلاقة بينهما كانت سابقة لبحوث (ديكارت) و(فرما)

أليس غريباً ان لا يعرف كثيرون ان العرب هم الذين هذبوا الارقام الهندية التي نستعملها الآن والتي وصلت الغرب بواسطة الكتب العربية . وليس المهم هنا تهذيب العرب للارقام بل المهمّ ايجاد طريقة جديدة لها ، طريقة الاحصاء العشري ، واستعمال الصفر للغاية التي نستعملها الآن ووضع علامة الفاصلة للكسر العشري . ان أثر ذلك في تقدم الرياضيات والعلوم الاخرى وارتقاء الحضارة في مختلف نواحيها ليس مما تسهل المبالغة فيهِ

هل سمعتم شيئاً عن البتاني الذي امتاز على غيره بمواهبه وقد تبوأ مركزاً عالياً في ميادين العلوم ولاسيما في الفلك والمثلثات والجبر والهندسة . ولقد اطلع (لالاند) وهو عالم غربي لمع في سماء البحث والاستقصاء والانتاج ، اقول اطلع (لالاند) على مآثر البتاني فكان ان عدَّه من العشرين فلكيًّا المشهورين في العالم كله . وكان من العرب علماء آخرون ادهشوا الاوربيين وحملوهم على الايمان بقوة العقل العربي وابداعه ، ومن هؤلاء العلماء ابن سينا الذي قال عنهُ (سارطون) انهُ من اشهر مشهوري العلماء العالميين . والكندي الفيلسوف الذي يسرى ذكره في كل ناد ، وهو من الذين امتازت مواهبهم بنواحيها العديدة ومن الذين عدّهم (كاردانو) العالم الايطالي الشهير من الاثنى عشر عبقريًّا الذين هم من الطراز الاول في الذكاء في العالم كله

أليس من المؤسف حقًّا ان لا يعرف الناشىء العربي ان اجداده تبنّوا الكيمياء وانهم

ابدعوا فيها وانهم سبقوا غيرهم في الالتجاء الى التجربة ليتحققوا من صحة بعض النظريات . واليهم يرجع الفضل في استحضار كثير من المركبات والاحماض التي تقوم عليها الصناعة الحديثة. فلقد استحضروا مركبات تستعمل الآن في صنع الصابون والورق والحرير والمفرقعات والاصبغة والسماد الاصطناعي . وقد يجهل كثيرون ان جابر بن حيان هو من ألمع علماء الكيمياء العالميين ومن الذين اضافوا اضافات هامة الى الثروة الانسانية العلمية جعلتهُ في عداد الخالدين المقدمين في تاريخ تقدم الفكر

وقد تدهشون (ايها السادة) اذا قلنا انهُ وُجد في الامة العربية من اشتهر في كثير من العلوم كالبيروني وانهُ كان ذا كعب عال فيها . ففاق علماء عصره وعلا عليهم وكانت لهُ مبتكرات كبيرة الشأن وبحوث نفيسة في الرياضيات والفلك والتاريخ والجغرافيا . وقد توصل (شاو) العالم الالماني بعد دراسة حياة البيروني وبعد اطلاعه على مؤلفاته الى الوقوف على حقائق لم تكن معروفة خرج منها باعتراف خطير وهو: « ان البيروني اعظم عقلية عرفها التاريخ » . ولو ان هذا الاعتراف صدر عن باحث عربي لرُمي بالتحيز والمغالاة ، لكنهُ بحمد الله صادر عن عالم يزن كلامه ولا يبدى رأياً الاَّ بعد بحث وتمحيص. و(شاو) هذا يقترح ان تؤلف جمعية لتمجيد البيروني واحياء مآثره . واني اقترح على الاستاذ الخالدي ـ ونحن في هذا الصدد ـ ان يعمل على احياء ذكر البيروني باقامة مهرجان (على غرار مهرجان الجاحظ) يدعو اليهِ العلماء من الاقطار العربية ليتكلموا في نتاج البيروني في نواحيه المتعددة ، وبذلك ينصف عالماً كبيراً اسدى الى العلوم والمدنية اجل الخدمات . ومن بحاث الغرب من حملتهُ دراسته للتاريخ والجغرافيا على القول بان مقدمة ابن خلدون هي اساس التاريخ وحجر الزاوية فيهِ وان كتاب معجم البلدان لأَبي عبدالله ياقوت هو معجم غني جداً بالمعرفة وليس له من نظير في سائر اللغات

لولا العرب لما كان علم المثلثات على ما هو عليهِ الآن ، فاليهم يرجع الفضل في وضعه بشكل مستقل عن الفلك وفي الزيادات الاساسية الهامة التي جعلت الكثيرين يعتبرونهُ علماً عربيـاً . ولا يخفى ما لهذا العلم من اثر في الاختراع والاكتشاف وفي تسهيل كثير من البحوث الطبيعية والهندسية . ونظرة الى بحوث الضوء ونظرياته تثبت انهُ لولا العرب لما تقدم هذا العلم تقدمه الحاضر . يقول (ماكس مايرهوف) . «ان العرب اسدوا جليل الخدمات الى هذا العلم الذي تتجلى لنا فيهِ عظمة الابتكار الاسلامي .. »

وبقيت كتب ابن الهيثم في البصريات منهلاً ينهل منهُ أكثر علماء القرون الوسطى كروجر باكن وبول واتيلو وليوناردفنشي وكوبرنيكس وكبلر وغيرهم . وتعترف دائرة المعارف البريطانية بان كتابات ابن الهيثم في الضوء أوحت اختراع النظارات . ويمكن القول ان ابن الهيثم هو من

عباقرة العالم الذين أسدوا الى العلوم خدمات لا تثمن . ومن يطلع على مؤلفاته ورسائله تتجلَّ لهُ المآثر التي خلفها مما ساعد كثيراً على تقدم علم الضوء الذي يشغل فراغاً كبيراً في الطبيعة والذي لهُ اتصال وثيق بأهم المخترعات والمكتشفات والذي لولاه لما تقدم علما الفلك والطبيعة تقدمهما العجيب ، تقدماً مكّن الانسان من الوقوف على بعض أسرار المادة في دقائقها وجواهرها وكهاربها وعلى الاطلاع على ما يجري في الاجرام السماوية من مدهشات ومحيرات. وأثبتت التحريات الحديثة بأن العرب هم الذين اخترعوا الرقاص والاسطرلاب واكتشفوا الخلل الثالث في حركة القمر . وبأنهم من الذين مهدوا لايجاد التكامل والتفاضل واللوغارتمات ، وبانهم من الذين قالوا بدوران الارض كما ان أرصادهم تقيم الدليل على اهليلجية فلك الارض وقد سبقوا (غاليليو) في وضع بعض قوانين الرقّاص . وإذا شئنا المضيّ في تعداد مآثر العرب في العلوم والفنون طال بنا القول وقد نخرج عن موضوع المحاضرة

أيها السادة — يظهر مما مرَّ أن في الغرب منصفين ، وان في الغرب من حفزهُ الانصاف والروح العلمية الصحيحة الى الاهتمام بالتراث العربي والاعتراف بعظمة النتاج الذي خلّفهُ العقل العربي للعلم والعمران ، وقد ثبت لهم ان المدنية العربية مدنية يزدان بها التاريخ ويحق للدهر أن يفاخر بها . وأرى ان هذه المدنية لو لم تكن حافلة بالمآثر مليئة بالمفاخر، سامية رائعة لها طابعها الخاص وخصائصها الممتازة لما اشتغل بها الغربيون ولما كتبوا عنها المجلدات ولما اهتمت جامعاتهم بالبحث عن آثارها والغوص على كنوزها . فلقد قدرت جامعة (برنستون) الاميركية خدمات العرب وافضالهم على الانسانية والثقافة فراحت تخصص أفخم ناحية في اجمل ابنيتها لمآثر علم من أعلام الحضارة الخالدين — الرازي — كما راحت تنشيء داراً لتدريس العلوم العربية والبحث عن المخطوطات واخراجها ونقلها الى الانكليزية حتى يتمكن العالم من الاطلاع على اثر التراث العربي في تقدم العلم وازدهار العمران . وعلى الرغم من هذا الاهتمام ، وعلى الرغم من البحوث التي قام بها العلماء في تراثنا فلا تزال هناك نواحٍ لم تعطها حقها من البحث والاستقصاء ولم ينفض عنها بعد غبار الاهمال. ومما لا ريب فيه أن مثل هذه البحوث والموضوعات ليست بالتي يمكن اعطاؤها حقها بسهولة . ولن يتمكن الباحثون والمنقبون من الوقوف على نتاج العقل العربي كاملة وخدماته للانسانية الاَّ اذا تابعوا استقصاءهم وواصلوا تنقيبهم ، وعندئذ يتمكنون من إزالة السحب الكثيفة المحيطة بتراثنا ومآثرنا

واذا كان في الغرب منصفين فان فيه كذلك من هو غير منصفٍ او من لهُ مطامع وأغراض لا تستقيم ونهوض العرب . فشوَّه كثير من الحقائق ، وقلب البعض الآخر ، وادخلت الشكوك والريب في كثير من الحوادث التي تمجد العرب ، وفوق ذلك أُخذ بعض النظريات والاختراعات العربية ونُسب الى غيرهم وقيل باسم العلم والحقيقة ان العرب غير منتجين وانهم لم يكونوا غير

نقلة ، وان الحضارة العربية لم يكن لها أثر يذكر في سير المدنية الحاضر ، ووصم العقل العربي بالجمود وبكونه دائماً عالة على غيره . وقد يسأل البعض هل من قصد وراء ذلك ؟ والجواب على هذا ان القصد التثبيط من عزائمنا وإدخال اليأس الى قلوبنا من نجاحنا ومن المؤسف حقًّا ان تتحقق بعض غايات هؤلاء وبعض ما يرمون اليه ، إذ كان لذلك كله الاثر الكبير في عقلية طلابنا وكتابنا واخذ الاعتقاد بعدم قابليتنا يتسرَّب الى الكثيرين منا واصبحنا هدامين لكياننا ، منكرين ميراثنا لا نرى فيه خيراً ولا جمالاً ولا متاعاً ولا انتفاعاً ورحنا مفتونين بالحضارة الغربية عاكفين عليها مهملين تاريخنا وحضارتنا واصبحنا نعرف عن شكسبير ودانتي وجيتي وفراداي ونيوتن واديسون وباستور اكثر مما نعرف عن المتنبي والمعري والبيروني والبوزجاني والخوارزمي وابن الهيثم والبتاني وجابر بن الافلح وابن رشد والكندي والمجريطي . . . وو . . . وغيرهم . واصبحنا نرى في المدنية الاوربية كل الخير وكل الجمال وكل المتاع وكل الانتفاع

أيها السادة — قد يسيء بعضكم الظن فيرى في أقوالي هذه دعوة الى اهمال العلوم الاوروبية ونبذ الحضارة الغربية . أنا لا أدعو الى ذلك ، ولا أطلب مقاومة تيار المدنية الحالية من كل النواحي . أنا أقول وأطلب ان ندرس الى جانب المدنية الاوروبية ثقافتنا وتاريخنا . أنا أقول بدرس ما يأتي به الغرب والتعرف على سبله ومسالكه وان نضيف الى ذلك ما في حضارتنا وثقافتنا من عناصر خالدة . نريد أن يعرف النشء العربي مآثر اجداده في ميادين العلوم والفنون ومكتشفاتهم فيها . نريد ان يشعر الناشيء العربي أن أجداده كانوا شيئاً في هذا الوجود ، وأنهم بالعمل الجدي استطاعوا ان يشيدوا حضارة شرقية عربية لا تزال أوروبا تنعم بمآثرها . نريد ان يعتقد العربي بقابليته وان يؤمن بنبوغه وانهُ في إمكانه ان ينتج وان يبدع

سادتي : ان في استطاعة علماء العرب ومفكريهم ان يمهدوا لهذا كله بعقد مؤتمر للعلوم العربية (كما اقترح الدكتور مشرّفة بك) تنحصر غاياته في بعث الثقافة العربية واحياء الآثار العربية بمختلف الوسائل : كانشاء مجمع دائم للدراسات العربية والاسلامية يعمل على نشر المؤلفات العربية مع شرحها وبيعها باثمان معتدلة حتى يتمكن الجميع من الاطلاع عليها والوقوف على مآثر السلف وتراث الاجداد ، والعمل ايضاً على ادخال تاريخ العلوم العربية في برامج التدريس في الجامعات والكليات في الاقطار العربية ، وبذلك تستطيع هذه المعاهد ان تقوم بواجبها القومي والوطني ويصبح عندئذ معنىً لوجودها . وقد اتصلت بعميد كلية العلوم في الجامعة المصرية الدكتور مشرّفة بك وطلبت منهُ ان تقوم كلية العلوم بهذا العمل الخطير وان تتولى الدعوة لهذا المؤتمر . ويسركم ان تعلموا ان هذا الطلب تحت الدرس ومحل عناية العميد . وأملنا وطيد بأن فكرة بعث الثقافة عن طريق عقد هذا المؤتمر ستخرج قريباً الى حيز الوجود

لا أظن ان أحداً يخالفني في ان الحكومات العربية والجماعات وبعض الافراد في الاقطار العربية بدأت تسعى لسدّ النقص الذي لازم الحركات الوطنية والقومية مدة طويلة. فلقد بدأت النهضة الثقافية تسير حثيثاً وستعود على الامة باليقظة وعلى ابناء الجيل بالاعتزاز. وها نحن اولاء نجد ارباب المعاهد وبعض القائمين بأمر الحكومات العربية يهتمون باحياء تراث العرب واظهار مآثرهم وما قدموه من جليل الخدمات الى المدنية. مَنْ منا لم يسمع عن المهرجانات العديدة في مصر والمغرب وسوريا التي اقيمت احياءً لذكرى شاعر العرب المتنبي؟ وقد كانت هذه المهرجانات موفقة ورائعة، نبيلة المقاصد سامية الغايات كشفت عن بعض النواحي التي كانت محاطة بغيوم الغموض والابهام

ومَنْ منا لم يقرأ عن اسبوع الجاحظ الذي اقامته كلية الآداب في الجامعة المصرية وقد تكلم فيه فريق من فحول الادب وأئمة البيان؟ بل ومن منا لم يلمح الحركة الجديدة نحو احياء الكتب القديمة واظهارها الى الناس والسعي لنفض غبار الاهمال عنها؟ وها هي ذي الحكومة المصرية تشترك مع الافراد والجماعات في بعث الثقافة العربية عن طريق احياء ذكرى كبار الادباء والشعراء ونوابغ رجال العلم والفن، وعن طريق اخراج المخطوطات وطبعها ونشرها. وهاهي ذي الحكومة السورية تعمل على اقامة مهرجان كبير احياءً لذكرى المعري بمناسبة مرور الف عام على وفاته وقد انتهت من وضع تصميم لبناء ضريح الشاعر الفيلسوف في مسقط رأسه (المعرة) من ولاية حلب

ومن المبهج ان نجد هذا التوفّز نحو بعث الثقافة العربية لا ينحصر في جهة واحدة، بل يشمل جهات اخرى. فقد اخبرني الدكتور مشرّفة بك ان في نيته اقامة مهرجان لاحياء ذكرى ابن الهيثم في عام ١٩٣٨ اذ يكون قد مرّ على وفاته تسع مئة عام. ولا شك ان هذا الاتجاه الجديد سيدفع بالحكومات العربية والجماعات والافراد الى اخراج مؤلفات نوابغ الرياضيين والطبيعيين ورسائلهم وجعلها في متناول المتعلمين. ولست بحاجة الى القول أن هذه النهضة لا تزال في اولى مراحلها ونحن لم نقطع فيها بعدشيئاً جديراً بالاعتبار. ولكن ما نراه من الشروع في الاهتمام بالتراث العربي لما يؤكد لنا أن العرب أصبحوا يدركون ان بعث الثقافة واحياء القديم وربطه بالحاضر من أقوى الدعائم التي عليها يبنون كيانهم ويشيدون استقلالهم

وأختم كلامي بأنهُ ما من أمة تستطيع احترام حاضرها وتحقيق مثلها العليا اذا لم تكن على صلة بماضيها محترمة لهُ واقفة على ما فيهِ من جلال وبهاء، وعلى الامة التي تبغي عزّاً وتبغي سؤدداً ان تصل ماضيها بحاضرها وان تبني حضارتها على حضارة أسلافها، وبذلك لا بغيره تستطيع تلك الامة ان تشعر ناشئتها بأن لهم كياناً محترماً وشخصية مستقلة، وهذا كلهُ يدفع بالامة الى حيث المجد والعظمة

الفلسفة العربية

ما أخذت وما أعطت

لفليمون خوري

— ٢ —

لم يكن بد قبل الدخول في قلب هذا البحث من الاشارة الى الذين شادوا أركان الفلسفة العربية وكانوا بناة مجدها وشهرتها وماكانت اشهر آرائهم ومذاهبهم . وقد أتينا على أهم تلك الآراءِ في القسم الاول من هذا المقال بقدر ما سمح بهِ المجال

اما موضوع المقال وهو « ما أخذت الفلسفة العربية وما اعطت » فقد تقدم القول أن الفلسفة العربية كنظيرتها الفلسفة اللاهوتية (Scholasticism) في بلاد الغرب لم تطلع بمذهب جديد ولا اتخذت لنفسها طريقة خاصة بل كان ما جاءت بهِ منقولاً عن فلاسفة اليونان . وقد أخذ العرب عن هؤلاءِ جميعهم فلم يدعوا فيلسوفاً لم ينقلوا عنهُ من طاليس الى أريسطاطاليس الى افلوطينوس وبروكلس من زعماءِ الافلاطونية الجديدة . ولكن جلّ اعتمادهم كان على المذهب الافلاطوني الجديد لانهُ اكثر موافقة لنزعتهم الدينية

على أنهُ وان كان الفلاسفة العرب لم يستقلوا بمذهب خاص يعرفون به فقد كانوا كما تقدم أعظم الشارحين للفلسفة اليونانية واكثرهم دقةً وتحقيقاً . وانما كان بفضل شروحهم هذه ان انتشرت الفلسفة وذاعت في الاقطار شرقاً وغرباً كأنما بعثت على أيديهم من مرقدها فكان عليها المعوّل في كثير من معاهد الفلسفة والعلم طيلة القرن الثالث والرابع عشر الى أواخر الخامس عشر تقريباً حين بدت طلائع الفلسفة الحديثة والعلم الحديث في مستهل القرن السادس عشر فضربت حجباً كثيفة على جميع الفلسفات القديمة والوسطى والغت معظم مذاهبها ونظرياتها

إن من يراجع آراء فلاسفة العرب ومذاهبهم المختلفة يجد بينها كثيراً مما لهُ قيمة فلسفية كبيرة ولكن الفلسفة الحديثة ومكتشفات العلم الحديث قضت على معظمها كما قضت على كثير من نظريات الفلسفة اليونانية . الاَّ أن من يمعن النظر يرى بينهما ما يشير اشارة واضحة الى أهم مبادىء

الفلسفة الحاضرة وأشهر مذاهبها. وهذا ما قصدت بالاشارة اليهِ بقولي «ما أعطت الفلسفة العربية» صارفاً النظر عما لا أثر لهُ او صدى في الفلسفة الحديثة

فمن هذه الآراء ما ذهب اليهِ زعماء المدرسة الشرقية مثل الفارابي وابن سينا من وجوب تقرير الحقائق الفلسفية بناء على درس نواميس الطبيعة ومراقبة مجاريها وأحكامها. وهذا ما يعزوه علماء العصر المجددون من أهل الغرب للفيلسوف الانكليزي باكون مع انهُ تقدمهُ فيها كثيرون غيرهُ مثل روجر باكون وأوكام وغليليو. ولكن الفارابي وابن سينا سبقوا جميع هؤلاءِ الى تقرير هذه الحقيقة بمئات السنين

ومنها قول أبي الوليد ابن رشد بأن في المادة نفسها قوة طبيعية لتوليد صور الاشياء (forms) اي ان هذه الصور تحصل بسبب قوة كامنة طبيعية في المادة نفسها. وهو يخالف بذلك مذهب أريسطو القائل ان صور الاشياء تحل في المادة بقوة من الخارج. أليس في رأي ابن رشد هذا من النظر العلمي ما فيهِ ولا سيما لمن لم يعرف شيئاً عن النشوء الطبيعي في مذهب المتأخرين

ومنها رأي ابن سينا والفارابي في الكون وقسمة الوجود الى واجب وممكن. وهذا من البراهين التي اعتمدها الفيلسوف الالماني الكبير كانت (Kant) وأطلق عليها اسم البراهين الكونية [1] (cosmological proofs) على وجود الخالق جل وعلا

يزعم ابن سينا والفارابي ان الاشياء الطبيعية ليست من الامور الضرورية حتماً اذ من الجائز ان يوجد غيرها بدلاً منها. فهي اذاً من الاشياء الممكنة لا الواجبة الوجود. والممكن يستدعي او يقتضي بطبيعة الحال وجود ما هو واجب الوجود بذاته ليكون سبباً او علة لوجوده. فالواجب الوجود بذاته هو الخالق جل جلاله ولا احد سواه. وكل ما عداه فهو في دائرة الممكن. وقد أفاد هذا الرأي الفارابي وابن سينا كثيراً اذ تخلصا بهِ من القول بأزلية المادة تبعاً لرأي اريسطو وهذا منافٍ لمقتضى التعاليم الدينية كما تقدم

ولابن جبرول الفيلسوف العربي (١٠١٠ — ١٠٧٠) الذي اشتهرت فلسفتهُ عند علماء الغرب وكان له المناظرات الشديدة اللهجة مع اعظم فلاسفتهم فكان لهُ منهم الانصار والخصوم، آراء ذات قيمة فلسفية كبيرة تدل بأوفى بيان على أسمى مبادىء الفلسفة في هذا العصر

فمن تلك الآراء ما ذهب اليهِ من اتحاد العنصرين العقلي والمادي في مادة واحدة عامة اذ

(١) أما البرهان الثاني من هذا النوع الذي اعتمده كانت فهو مذهب أريسطو من حيث السبب او المحرك الاول. يقول أريسطو ان كل حركة في الكون لا بد لها من محرك. فاذا تتبعنا سلسلة الاسباب او المحركات وجدنا انه لابد لنا من الوقوف عند السبب او المحرك الاول غير المتحرك. فالمحرك الاول في اعتقاد أريسطو هو الباري جل جلاله

قال ان المادة الهيولية والمادة الروحانية ليستا سوى جزئين من المادة العامة وقد اتيت على ذكر هذه النظرية مفصلاً في مقال نشرتهُ مجلة المقتطف الغراء في عدد حزيران (يونيو) من السنة الماضية تحت عنوان « بين اسبينوزا وابن جبرول » وفيهِ اشارة كافية الى وجه الشبه في مذهب الاثنين في المادة الاصلية (١)

وقد ورد في المقال نفسهِ ايضاً نظرية ابن جبرول في الارتقاء الطبيعي وكيفية ذلك الارتقاء وهو بحث لم يتناوله اهل الغرب الاَّ بعد القرن السابع عشر . قال ابن جبرول « ان المادة الطبيعية (يريد مادة الكون الاصلية) اي الجوهر المنتشر يتحرك ليتخذ صورة العناصر الاربعة ثم يرغب في اتخاذ صورة الجماد ثم النبات ثم الحيوان . ثم يطمح الى الامتزاج بالعقل والارتفاع الى ذلك العقل العام الذي هو منتهى كل الارتقاء واليهِ تنتهي كل حركة » . واننا اذا تأملنا هذا القول على ما فيه من بساطة المعنى والتركيب واعتبرنا الوقت الذي قيل فيه لم يسعنا الاَّ اكبار هذا الرأي وانزاله منزلته من المكانة والاعتبار

ولابن جبرول فكرة اخرى جديرة بكل اعجاب وهي اعتقاده في الارادة وايراده اياها كاحدى علل الوجود ومبادئه . فقد جاء في خلاصة مذهبهِ قوله « ان للكون ثلاثة مبادىء الوحدة الخالصة وهي الخالق . ثم المادة والصورة وهما العالم . ثم الارادة وهي الواسطة بين العلة السامية ومفاعيلها » . ان الارادة كما يعلم المطلعون هي المبدأ الاول للوجود في مذهب الفيلسوفين شوبنهور وهارتمان وغيرهما من فلاسفة القرن التاسع عشر (will to live,) أو ليس ان ارادة او حب البقاء معناه في نظر المحدثين وعلماء العصر تنازع البقاء ؟ فاما ان تكون ظهرت هذه الفكرة في عصر ابن جبرول على ندرة المادة العلمية في ذلك العهد فذلك امر يستحق الذكر بل الاعجاب . ثم ولئن كان نظر ابن جبرول في الارادة يختلف عن وجهة نظر هارتمان وشوبنهور فجوهر الفكر واحد والفضل للمتقدم . ولا حاجة بنا الى القول ان نظرية شوبنهور هذه في الارادة هي من اشهر مذاهب الفلسفة في وقتنا الحاضر

ومن مأثور اقوال ابن باجه الذي عرفهُ الافرنج باسم (Avempace) قولهُ في الخلق الاجتماعي في الانسان نقلاً عن كتابهِ تدبير حياة المتزل « ان بين الانسان والحيوان نسبة كما بين الحيوان والنبات وبين النبات والجماد . فما اختصَّ من الاعمال بالانسان وكان صحيح النسبة اليه هو ما صدر عن ارادة مطلقة اي عن ارادة مصدرها التبصر لا ما صدر عن مجرد الهداية الطبيعية كما في الحيوان . مثال ذلك: انسان كسر حجراً لكونهِ صدعهُ فهو عمل حيواني

(١) ان هذا الرأي ينسبه الغربيون الى الفيلسوف الهولندي اسبينوزا ولكن ابن جبرول تقدمه فيه بمئات السنين كما اشرنا الى ذلك في المقال المذكور

فلو كسره كي لا يصدع غيره لكان عملاً انسانياً . وقلما فعل الانسان افعالاً حيوانية محضاً وكثيراً ما فعل افعالاً انسانية محضاً فعلى المعتزل ان يفعل ما كان من النوع الثاني ويحترز من مطاوعة النفس الحيوانية ولا يكون دليله الاَّ النفس المدركة ، ويفضل الافعال المستقيمة على النافعة حتى اذا تبارت فيهِ النفسان العقلية والحيوانية تسبق الاولى الثانية سبقاً مبيناً . ويعتني باصلاح صفاته الادبية فتصير اعماله اقرب الى الالهية منها الى الانسانية ، فاذا جرى المعتزل على هذا السنن فانهُ يتدرَّج في الوصول الى معرفة العالم الروحاني وهي غاية سعيهِ »

ألا يجد القارىء في هذه العبارة اوضح دلالة على مبدإِ الغيرية altruism في حياة الانسانية الاجتماعية والغيرية هي اظهر صفات الخلق الاجتماعي في الانسان كما لا يخفى

هذا أهم ما وقفت عليهِ في نظريات فلاسفة العرب وآرائهم مما لهُ أثر بيّن في الفلسفة الحديثة وكان من وضعهم ولا أصل لهُ في الفلسفة اليونانية . وما أدرانا ان الفلاسفة المحدثين من أهل الغرب لم يأخذوا بعض الاصول والمبادىء في فلسفتهم الحاضرة من الفلسفة العربية . فربَّ فكرة صغيرة تقلبت مع الايام فصارت مذهباً خطيراً . وربَّ حادث يسير حوَّل مجرى تاريخ مملكة بأسرها . فعسى ان يوافينا بعض ذوي الاطلاع بشيء من هذا النوع استيفاءً للبحث وتعميماً للفائدة . على أني أرى أديبنا العربي يستطيع ان يروي من الذاكرة مئات الابيات من الشعر لشاعر واحد وقد يقضي الساعات يحلل بيتاً من الشعر ليتبين مواطن القوة والضعف فيهِ . انهُ قد يفعل ذلك وربما كان لا يعلم انهُ قام في تاريخ الامة العربية أفراد كالفارابي والغزالي وابن باجة وابن الطفيل من أعلام الفكر وأقطاب الفلسفة . فهل يقلب لنا المستقبل صفحة جديدة من الجد والاهتمام فنقبل على ذلك المورد العذب من آثار فلاسفتنا الاعلام نستقي آيات الحكمة الشرقية ونجتني ثمرات تلك العقول الفياضة بالمعرفة والاختبار . هل نفعل ذلك انصافاً لانفسنا واحياءً لذكر فلاسفتنا العظام الذين عرف ابناء الغرب قدرهم فأجلوهُ وأكرموهُ وجهلناه نحن فكان جهلنا علينا خساراً

***

ان القرن العشرين هو عصر التيقظ والتسامي لمعرفة حقائق الكون الكلية وعدم الركون الى الامور السطحية او التلهي والاشتغال بالاشياء القليلة الجدوى . هذا هو الطابع الفلسفي العلمي للقرن العشرين فعسى ان يكون لابناء الاقطار العربية حظ من هذه اليقظة العامة كيما نستطيع ان نحيا أفراداً وجماعات الحياة المستنيرة المثلى ونكون اعضاء عاملين حقّاً في جسم هذا المجتمع العظيم

الدكتور محمد اقبال

أكبر شعراء الهند المسلمين في الوقت الحاضر

رسالة شعره

للسيد ابو النصر احمد الحسيني الهندي

—٣—

اما الجحود وهو ترك الدين الذي هو عنده بمنزلة الروح في هيكل الاجتماع الاسلامي أو الانسلاخ عن الماضي ، والانحراف في سبل الغرب ، فيرى انهُ خطر مهدد لكيان الهيئة الاجتماعية الاسلامية واكبر دليل على العجز وفتور العزيمة ، اذ بهِ يزدري المرء ماضيهُ ، ويحتقر متاعه ، ويصغر نفسه . فتمتلأ أرجاء قلبه بعظمة الغير ، ويحتل جوانب نفسه أعمال الاجنبي . فلا يرى الخير الاَّ في محاكاته ، ولا النجاح الاَّ في تقليده فيموت استعداده للخلق ، وتفنى كفاءتهُ للابداع . لذلك ينشدهم:

« انني ارى عند المسلم التقليد والظن
فروحي ترتعش في جسمي في كل وقت
خشية ان يحرمه (الله) يوماً
ويلقي حرقة (حبه) في قلب الغير »

وقال ايضاً : « وان كان عند الفرنجي اساليب كثيرة
ولكني لم استفد منهُ الاَّ العبرة
يا من اصبحت اسيراً في تقليده ! كن حراًّ !
امسك ذيل القرآن وكن حراًّ ! »

وقال ايضاً : « مزق قميص التقليد
لكي تتعلم بهِ التوحيد »

وقال ايضاً : « ان صاحب القلب الحي يخلق الاعصار والدهور

ولكن روحه تصبح من التقليد محرومة من الحضور[١] »

وقال ايضاً : « انهُ يثقل على العبد الحر
ان يعيش في عالم الآخرين »

وقال واصفاً نتيجة التعليم الغربي :

« وان كنا مسرورين بتعليم الشبان ولكن
تخرج من شفتينا الضاحكتين سروراً ، اللهفةُ كذلك
لانا كنا نفهم ان تعليمهم سيأتي بالرخاء
ولم نك نعرف انهُ يأتي معهُ الالحاد

وقال ايضاً مصوراً حالة الشاب في العصر الحاضر :

«انهُ قد أصبح من حب الظهور عبداً للافرنج
فيأخذ منهم الرقص والغناء
هو يبيع نقد حياته باللهو
وقد اصبح العلم عليه صعباً فيهتم باللهو
وغدت فطرته تقبل ذلك
ان البحث عن السهل في هذا الدير القديم
دليل على ان الحياة قد ذهبت عن الجسم »

***

وعلى ذكر اللهوو رأي الشاعر فيهِ أذكر انهُ لما نزل الدكتور مصر من سنوات جاءهُ شاب مصري من المشهورين بالعلم والادب فسألهُ وأنا جالس عنده رأيهُ في مصر فقال

—انا لم امض هنا الاَّ بضعة ايام ولكن ما وصلت اليهِ بملاحظاتي هو ان مصر تحتاج الى قيادة اخلاقية قوية اشد الاحتياج . فكنت بالامس اتنزه في جهة الجيزة اذ رأيت هناك مدينة الملاهي فاستغربت جداً . فبالله عليك قل لي يا سيدي ! ما هي الواجبات التي قمتم بها حتى وجدتم متسعاً من الوقت لتأسيس مدينة الملاهي وضياع حياتكم فيها . ثم انا أرى انكم تحبون تقليد أوربا أكثر من ان تخلقوا انتم عالمكم لانفسكم بأنفسكم

—نحن نقلد أوربا لان نهضتها لم تقم الاَّ تقليداً لنهضة الاسلام . فالثورة الفرنسية في أوربا في الحقيقة كانت صدى الحركة الاسلامية

(١) اي من حضور القلب الى الله

—ما دمتم تنتقدون ذلك فلم لا تقلدون الاسلام عوضاً عن تقليد أوربا ؟

— وما رأيك في مصطفى كمال ؟

— ان مصطفى كمال لم يأت بشيء جديد بل كل ما عمل باسم التجديد انه قلد أوربا ولا غير. وعندي الحركة الفاشستية خيرٌ من حركة مصطفى كمال ، لانها تخلق من الايطاليين عالماً جديداً وبدون اي تقليد كما خلق الاسلام من العرب

لم يكن انتقاد الدكتور مبنيًّا على سوءِ النية بل على ما وصل اليه فكره وبصيرته بعد درس عميق للحضارات القديمة والحاضرة وعلى ما يتمنى للبلاد الاسلامية من الخير والمجد . فهو رجل مفكر يرى بفكره الثاقب ضرورة تجرد النهضات في ابان قيامها عن الفنون والملاهي الضارة لها . وهو عندي رأي سديد . وقد وضحهُ هو منذ عشرين سنة في مجلة العهد الجديد ونحن نلخصه هنا قال :

« ان الغاية القصوى لجميع الاعمال الانسانية هي الحياة . فما يريده الانسان من أعماله وجدّه، وما يبتغيه من عنائهِ وكدّه إن هو الاّ ان تكون حياته ذات خصب ومجد وقوة .لذلك يجب ان يكون جميع الفنون الانسانية قاصدة هذه الغاية العظمى ومصوّبة الى هذا الهدف الجليل ، وان يُقدّر كل شيء في هذا العالم على حسب كفاءته لتحقيق هذا الغرض ولبلوغ هذه الغاية — الحياة. وعليهِ فالفن الذي يقدر أن يوقظ قوتنا الارادية الراقدة وينفخ فينا روح العزيمة والجلد لمجابهة محن الحياة وآلامها بالبطولة والفحولة ويقودنا على هذا النمط نحو مجد الحياة وقوتها ، أرفع وأعلى وأجدر بالاهتمام والعناية . وما سواه جميع تلك الاشياء التي تنعسنا وتحملنا على غمض عيوننا عن الحقائق المحيطة بنا التي على سيادتها تتوقف الحياة هي في الحقيقة بلاغ الزوال ورسول الموت . وعلى هذا يجب أن لا يكون الفن مسكراً كحبة الافيون تخدّر الاعصاب فتوهن العزيمة وتفتر الهمة فتقتل الاماني وتجعل الانسان ينسى واجباته نحو نفسه وغيره ويقع في هاوية الخمول والضعة

وأما القول ان « الفن لأجل الفن » فهو من ايجاد التدهور والانحطاط قد اخترع لخدعنا ولابعادنا عن الحياة والقوة » انتهى

لذلك يرى الدكتور اقبال ان المعاملة التي عامل بها الاسلام الفنون والملاهي هي في المسألة عين الرشد ونفس الهداية لنوع البشر قاطبةً في كل مكان وزمان

***

سادساً : ومن معالم رسالة شعر اقبال الدعوة الى غرس الانانية [1] وتربيتها و نيل الكمال .

(١) مرادنا « بالانانية » هنا الانانية المجردة عن صفاتها الحسنة والسيئة وليست كما هي معروفة عند العامة بصفتها السيئة ونحن قد اعتمدنا في ترجمة هذه الكلمة على رأي الدكتور اقبال نفسه لان الدكتور يعرف العربية ولان صاحب القول أدرى بما يقول

وهو موضوع فلسفته الخاصة ، بسط مباديها في جميع دواوينهِ وعلى الاخص في اثنين منها اي « أسرارِ خودي » و « رموزِ بيخودي » . ففي الاول قد وضح طريق تربية الانانية وتكوينها، وفي الثاني طريق نيل الفرد الـكمالَ وذلك بدخولهِ في نظام الاجتماع الاسلامي وهو عنده المثل الاعلى في جميع النظم الاجتماعية في العالم . فالاول يشمل المبادي والاصول لتربية الانانية ، والثاني يحتوي على الاركان والاسس للنظام الاجتماعي الاسلامي التي بالخضوع لها ينال الفرد الـكمالَ . لذلك سمى الاول « أسرارِ خودي » اي أسرار الانانية والثاني «رموزِ بيخودي» اي رموز انكار الانانية لان الخضوع في الحقيقة انكار الانانية . ونحن نقدم اليك أولاً صورة موجزة لفلسفتهِ [1] ثم نزف اليك ترجمة بعض الابيات المختارة التي تمس الموضوع من دواوينهِ المختلفة

ان الحقيقة عند اقبال عبارة عن عمل مستمر للتكوّن والتغيّر وليس معناها حالة الوجود الساكنة او الوجود المقيد والمعين . وما يريد بهِ هيجل من تعميمهِ ، وويدانتا [2] من برهما [3] والصوفية من الله انهُ روح سارية في الكون ليس الاّ صورة من تصوير الذهن او جولة من جولات الفكر . وبازاء هذا التعميم لهيجل وبرهما لويدانتا وتصور الله للصوفية يرى اقبال ان المراكز المعينة للتجربة هي الحقائق الاساسية للكائنات . وتلك المراكز تتجلى في الانسان في شكل الانانية المملية شخصيتهُ على صفحة الوجود . فالحياة عند اقبال شيء منفرد خلاف ما يصورها هيجل او ويدانتا او الصوفية بأنها الشاملة السارية في الكون . وعلى هذا فالله عنده فرد واحد أعلى وأسمى ليس كمثلهِ شيء تمتع بصفاته الافراد الاخرى . ثم الحياة عنده عبارة عن حركة مستمرة في التقدم تجذب الكائنات بالغلبة على مشاكلها الى نفسها (أي الى مركزها الانانية) كما تجذب الصفات الالهيّة الى نفسها (اي الى مركزها الانانية) . والانانية هذه تتقوى بالعشق الذي هو أسمى صورة للحركة المستديمة في الطلب والسعي في نيل المطلوب غاية الحياة . وأما المقياس لمعرفة الخير والشر في الطلب فهو أن جميع الطلبات التي تقوي الانانية خير، والتي تضعف الانانية شرٌّ . فالعشق خيرٌ لانهُ يقوّي الانانية ، والاستجداء شرٌّ لانهُ يضعف الانانية . فكلما تتقدم الانانية على هذا المنوال تتقرب الى الانانية العظمى (اي الله) وينال صاحبها الـكمال . ولا يريد اقبال بذلك التقرب او الـكمال ان يكون نهاية الانسان الفناء في تلك الانانية العظمى او الانضمام اليها كما يقوله الصوفية او يبيّنهُ لنا ويدانتا ، بل الانسان الكامل

(١) وقد كتبنا قبلا مقالا ممتعاً في فلسفته نشر في الرسالة في عدد ١١٨ من سنتها الثالثة فمن أراد التفصيل فليرجع اليه (٢) اسم للـكتاب المقدس عند ديانة البراهمة وهو أساس فلسفتهم (٣) اسم علم عندهم لله تعالى

عنده هو الذي يجذب تلك الانانية العظمى الى نفسه اي يتصف بصفاتها ويتخلق بأخلاقها . وهذا الكمال لا يمكن ان يناله الفرد الاّ بالدخول في أمثل النظم الاجتماعية وأعلاها وهو عند الدكتور نظام الاجتماع الاسلامي كما قلنا

نقتطف من تمهيد ديوانهِ « أسرارِ خودي » بعض الابيات التي ترجمتها في ما يلي قال :

أنا أنتظر قائمي الفجري
سُعداءُ عُبَّاد ناري
أنا النغمة ولكن غير محتاجة الى المِضراب
أنا صوت شاعر الغد
ان عصري لا يعرف الاسرار
ويوسفي ليس لهذه السوق
أنا قانط من اصحابي القدماء
ان طُورْي يحترق لأجل موسى المقبل
إن بحر أصحابي ساكن مثل الندى
ولكن نداي يحمل طوفان البحر
ان نغمتي من عالم آخر
إن هذا الجرس لقافلة أخرى
كم شاعر ولد بعد موته
فهو غمض عينَيْه وفتح عيونَنا
ورحل الينا من العدم مرة أخرى
وازدهر مثل الورد من تراب قبره
أنا العاشق والصراخ ايماني
وضجيج الحشر معشوقي .

وقال في ان أساس نظام العالم الانانية وان تسلسل حياة الافراد يتوقف على توطيد الانانية واليك ترجمة بعض الابيات المختارة :

إن مظهر الكائنات اثر من آثار الانانية
فكل ما تراه سرٌّ من أسرار الانانية
ان الانانية متى ايقظت نفسها
كشفت عالم الفكر (لها)

إن مئات من العوالم مخفية في ذاتها

فان الاعتراف « بأنا » يميط اللثام عن « غير أنا »

وقال أيضاً : على أن حياة العالم قائمة بقوة الانانية

فالحياة فيه على حسب تلك القوة

وقال أيضاً : ان القطرة حين فهمت الانانية

حوّلت وجودها التافه الى اللؤلؤ

ان الجبل متى انعدمت أنانيته أصبح الصحراء

وأنّ من شدة جَرَيَان النهر

وقال ايضاً : ان الموج الى أنه موج في البحر

حقيق بان يركب اكتاف البحر

وقال ايضاً : ان العشب متى نال قوة النموّ من أنانيته

فَلَقَتْ همته صدرَ الحقيقة

وقال في ان حياة الانانية قائمة من خلق الآمال وايجاد المقاصد ما يلي ترجمة بعض الابيات منهُ :—

ان بقاء الحياة من الأمل

ان قافلتها تسير بجرس الأمل

وقال ايضاً : أحيِّ الاملَ في قلبك

لئلاً تصبح حفنة ترابك قبراً

وقال ايضاً : ان التمني هيجان الانانية

انهُ موجٌ مضطربٌ من بحر الانانية

وقال ايضاً : ايها الغريب عن سر الحياة ! قم !

قم ! سكران من خمر الأمل

فان كنت ذا أمل فأنت مشرق كالصبح

ونار محرقة لغير الأمل .

وقال في ان الانانية تتقوى من العشق ما يلي ترجمة بعض الابيات منهُ :—

ان نقطة النور التي تسمى الانانية

في ترابنا شرار الحياة

هي تصبح من العشق اكثر ثباتاً

وحياةً واحتراقاً ولمعاناً

وقال ايضاً : تعلم العشق واطلب محبوباً
ونظرَ نوح وقلبَ ايوب

وقال في ان الانانية تضعف من الاستجداء ما يلي ترجمة بعض الابيات منهُ :—

يا من جمعت الضرائب من الأُسود
وأصبحت ثعلبَ الطبع من الاحتياج
الى متى تكون سائل المنصب
وتركب العصا مثل الاولاد

وقال ايضاً : ان الفقر يزداد ذلةً من السؤال
ان السائل يزداد فقراً من السؤال
ان اجزاء الانانية تنفك بالسؤال
ويحرم بهِ نخيل طُوْر الانانية من التجلّي

وقال ايضاً : ان القمر يأخذ قُوتَهُ من مائدة الشمس
لذلك يحمل النَدْيةَ في قلبهِ من احسانها

وقال ايضاً : ان تحت السماء ذلك الشاب الشريف
يمشي عاليَ الرأس مثل الصنوبر
الذي يحافظ على عزة نفسه اكثر عند ضيق اليد
وان كان حظه راقداً ولكنهُ اكثر يقظة

وقال في الحياة ما يلي ترجمته :

« ان الحياة شرح اشارات الانانية
ان « لا » و« الاّ » من مقامات الانانية [١]

وقال ايضاً : ان الحياة هي تزيين الانانية بالذات
وطلب الشهادة على وجودها من الغير

***

طاغور واقبال

هذه اهم المعالم لرسالة شعر اقبال . وفي الآخر نحب ان نقول كلمة في الفرق بين رسالتي الشعر للشاعرين الهنديين العظيمين الدكتور السر محمد اقبال والدكتور السر رابندرانات طاغور

(١) « لا » و «الا» اشارة الى كلمة لا اله الا الله

اللذين هما كفرسي رهان في العصر الحاضر تعتز بعبقريتهما الهند وتتباهى لانهما ركيضا امومتها ورضيعا لبانها . ولا يساعدنا المجال ان تصيب عُذَيقة ولا الوقت ان نوافي جُذَيله هنا برسم جميع معالم الفرق بينهما للقارىء . فما نقدر عليه هو ان تتحفهُ بصورة مصغرة لكل منهما فيتضح له الفرق فنقول :

ان اهم الفرق بين رسالتي شعرهما هو الذي بين السكون والحركة . فروح شعر طاغور كلها هدوءٌ وسكون وهما من لوازم التفكير العميق فيما وراء الطبيعة الذي لا يزال الصفة المميزة والمطمح الرئيسي للديانة الوثنية الهندية وثقافتها من القدم . لذلك جولان فكر طاغور لا يتعدى هذا المدى . فهو يقدم لك مناظر أنيقة بنمط يكاد سنا ضوئها يخلب قلبك ومشاهد رائعة بأسلوب يكاد بهاء حسنها يذهل نفسك ، فيقص به جناح فائرك ويطمس معالم ثائرك ، ويدفعك الى التزام الهدوء والسكينة والتفكير . وهذا الهدوء والسكينة اللذان يتمناهما المرء كثيراً ويحنّ اليهما في معامع الحياة وجلبة الاعمال حنيناً قد فقدهما الغرب منذ زمن بعيد . لذلك عند ما سطع نور شعره فرح به الغرب وأسبغ عليه جائزة نوبل فأصبح سبباً هامًّا في ذيوع شهرته في العالم مالم تبلغهُ شهرة اقبال بعد. وقد يكون السبب لذلك اختلاف طبعه ايضاً عن طبع طاغور . فانه يكره الظهور[1] وطاغور لا يكرههُ كما يدل عليه ترشيحه نفسه للجائزة . وعلى كل حال فشعر طاغور صورة بهية لمناظر الطبيعة وجمالها وهدهدة مؤثرة للمتعبين من معارك الحياة ومشاكلها ، ووحي السكينة للفاقدين طمأنينتهم في منافسات الحضارة ومنازعاتها

واما روح شعر اقبال فكلها حركة وإقدام . وهما ايضاً من الصفات المميزة لدعوة الاسلام وثقافته . فشعره ثورة تتأجج لهدم السكون ، وبركان نار يلتهب لحرق الجمود . هو يوقظك بشعره من الغفوة وينبهك على الهفوة ويسبح بك الى العلاء سبحاً ، وينفخ فيك به روح العزيمة ويحذرك من فتور الصريمة ويسبح بك الى المجد سبحاً . لذلك رسالة شعر إقبال رسالة تحتاج اليها الحياة الانسانية اشد الاحتياج في حين قد وهت علائقها باسراف الغرب في الاقدام على غير الهدى ، وتضعضعت دعائمها بامعان الشرق في الاحجام على غير البصيرة ، خلافاً لرسالة شعر طاغور فانها علاج وقتي لها لا يتعدى اثره ظروفاً وأحوالاً خاصة كما لا تمسها ايضاً الحاجة الى تلك الرسالة في كل حين وآن . وعلى هذا فشعر اقبال روح الثقافة وصُور التقدم وجرس الرحيل الى رفعة لا تطاول وقوة لا تضام ، ونداء عام للتسنم الى ذروة الشرف والتوقل في معارج المجد

(١) وقد صور الدكتور طبعه هذا في بيت ترجمته « أنا لا أتحمل دلال الملوك ولا جرح الاحسان . يا من انخدعت بالطمع انظر الى همة هذا الفقير »

مقام الكربون

في الافعال الحيوية

والشوائد العضوية

للكربون مقام خاص بين العناصر لانهُ يدخل في مركَّبات منوعة متعددة يزيد عددها على مركبات جميع العناصر الأُخرى . فمن المسلَّم بهِ عند الكيمياويين ان جميع العناصر ما عدا الكربون، تدخل في تركيب عشرين الفاً الى اربعين الفاً من المركبات مع انها لم تركَّب جميعاً منها. يقابل ذلك أن الكربون يدخل في تركيب نحو ٣٠٠ الف مركَّب، ولا يبعد ان يزداد هذا العدد في السنوات المقبلة حتى يصبح ٦٠٠ الف . فليس ثمة حدٌّ من الناحية النظرية للمركبات التي يمكن تركيبها من الكربون . ولعلَّ الصفة المميزة لذرّات الكربون قدرتها على توليد مركبات ذاتية . وهذا يجعل المركبات الكربونية مما لاعدَّ لهُ ، وقد اثبتت التجربة في احوال متعددة وجود مركبات كربونية كان الدليل اليها البحث النظري فقط . وعلى ذلك نرى ان تغييراً يسيراً في بناء الجزيء الكربوني من الناحية الكيمياوية ، كابدال ذرات بذرات، او مجموعات من الذرّات بمجموعات اخرى ، يمكن الباحث من احداث تبديل في الخواص التي يتصف بها ذلك الجزيء . وهذا حمل العلماء على الاعتقاد بان هذا العنصر هو اساس لا غنى لهُ لاعظم ظاهرات الطبيعة ، نعني ظاهرة الحياة. وقد عرّفت الكيمياء العضوية بانها « كيمياء مركبات الكربون »

اثبت العلماء بالبحث الطيفي الدقيق ان نحو ٦٠ عنصراً من العناصر الاثنين والتسعين موجودة فعلاً في الاجرام السموية . والكربون منها . فليس ثمة ريب الآن في ان هناك كربوناً غازيًّا في اكليل الشمس (كروموسفير) . ولما كان متوسط درجة الحرارة في الاكليل يبلغ ستة آلاف درجة مطلقة ، فمن المتعذر على الغالب ان يدخل الكربون هناك في تركيب مركبات كربونية . ومما يجدر ذكرهُ في هذا الصدد ان الكربون يدخل في بعض مركبات شمسية قلما نراها على الارض ومنها ثلاثة غازات احدها يعرف باسم داي كربون Dicarbon وعبارته الكيمياوية C_2 — ك٢ والثاني اسمهُ مونسيان Moncyan وعبارته الكيمياوية C N — ك ن والثالث ميثايّن Methine وعبارته الكيمياوية C H — ك يد . وهذه الغازات معروفة عند علماء الفلك وقد وجدوا آثارها في اجواء الشموس او النجوم التي من قبيل شمسنا . ويلوح للعلامة الالماني نوداك Noddack

ان هذه المركبات الـكربونية الثلاثة هي الاركان التي تقوم عليها الـكيمياء العضوية. وقد ظهر من دراسة النيازك ان بعضها يحتوي مركبات عضوية. وبحث هذه المركبات لا يزال في مستهله لقلة ما امكن استخراجه منها من النيازك النادرة لاجراء البحث عليه ووجودها في النيازك يبعث على الاهتمام. ذلك ان المسلم به ان النيازك لا أثر للحياة فيها واذن فهذه المركبات نشأت فيها بالتركيب الكيمياوي

قد يظن انهُ يسهل على البحاث والطلاب ان يروا بأعينهم تحول المواد غير العضوية الى مواد عضوية على الارض ولـكن هذا ليس في الواقع بالامر اليسير. ذلك ان دهوراً طوالاً انقضت على الاحياء وهي العامل الفعال في انشاء المواد العضوية على الارض، حتى لتصعب اقامة الدليل على ان بعض المركبات العضوية المعقدة نشأت من اصل غير عضويّ

والـكربون عنصر واسع الانتشار ولـكنهُ ليس اكثر العناصر مقداراً في كرة الارض، والغالب في رأي نوداك، ان متوسط مقدار الـكربون في الارض يبلغ ثلث واحد في الالف

يستدل بنتائج المباحث الجيولوجية على انهُ كان على الارض من نحو الف مليون سنة احياء كثيرة. والظاهر ان الحياة على الارض بدأت على سطحها بعد ما برد برداً كافياً ولـكن العلماء لا يعلمون على وجه من الصحة كيف بدأت الحياة ولا متى. وما بدأت الحياة على الارض وغطت سطحها حتى اصبح لعنصر الـكربون شأن في تطور الحياة على سطح الارض اكبر جدًّا مما يمكن ان يؤخذ من متوسط مقداره في قشرتها

والراجح ان الافعال الحيوية في مختلف العصور كانت على نمط واحد ولـكنها كانت متفاوتة في شدَّتها. وهذه الافعال يصفها العلماء عادة بكلمتين معناهما «دورة الـكربون». ولا يخفى ان كثيراً من العناصر والمواد على سطح الارض يطرأ عليها وجوهٌ من التغير تنتهي بها الى المرحلة التي بدأت منها. وأشهر الامثلة على ذلك الماء. فالماء منتشر في الجوّ بخاراً ثم ينعقد مطراً ويسقط على الارض ويجري جداول وأنهاراً الى البحر ثم يتبخر بفعل حرارة الشمس فيعود بخاراً مائيًّا في الهواء

أما الميزة التي تمتاز بها «دورة الـكربون» فهي اشتراك الاحياء في اتمامها. فعنصر الـكربون موجود في قشرة الارض في الصخور الـكربونية وأطباق الفحم وماء المحيط والهواء والاحياء. والاحياء قسمان عامان النبات والحيوان. ومن صفات النبات الاساسية قدرتهُ على تناول ثاني أكسيد الكربون من الهواء ثم تحويلهُ بفعل الضوء الى مركبات عضوية وأوكسجين. ثم يتناول الحيوان هذه المركبات الـكربونية طعاماً فيحوّلها ثانية الى ثاني أكسيد الـكربون بعد ان يستعمل بعضها في توليد الطاقة. فالنبات يطلق في الليل ثاني اكسيد الكربون في الهواء. وبعد الموت تتحلل الاجسام العضوية فينطلق منها ثاني أكسيد الـكربون. واذن فنحن أمام دورة تامة لعنصر الكربون تشترك فيها الاحياء اشتراكاً فعَّالاً فتنتقل ذرات الكربون من الهواء الى النبات

ومنهُ الى الحيوان ثم تعود الى الهواء . الاَّ ان جانباً من ثاني اكسيد الكربون الذي ينطلق من أجسام الحيوانات لا ينطلق في الهواء حتى يتناولهُ النبات ويمثلهُ

أما النباتات البحرية فتتناول ثاني أكسيد الكربون من ماء البحار . والحيوانات البحرية تطلقهُ في الماء ، حتى بعد موتها وانحلالها ينطلق منها هذا الغاز ويذوب جانب كبير منهُ في مياه البحار

الاَّ ان « دورة الكربون » لا تسير دائماً هذا السير المطلق . لان بعض الحيوانات يستطيع ان يحدث تفاعلاً بين ثاني اكسيد الكربون وعنصر الجير فتتولد مركبات تعرف باسم « الكربونات » وفي هذه المركبات يخزن جانب غير يسير من عنصر الكربون في الارض . او قد تنحرف « دورة الكربون » بتولد اطباق الفحم . ولكن اطباق الفحم أقل من رواسب « الكربونات » الجيرية مقداراً . وكلا الفعلين يزيل من الطبيعة جانباً من الكربون الذي تتناولهُ الافعال الحيوية على المنوال المتقدم، لاسيما لان هذين المعدنين — الكربونات الجيرية والفحم — من المواد التي تقاوم التفاعل الكيمياوي . والغريب مع هذا ان البحوث الجولوجية أثبتت ان مقدار ثاني اكسيد الكربون في الهواء والماء ومقدار الكائنات الحية كان مقداراً ثابتاً مدى ملايين من السنين . والظاهر أن النقص يسدُّ بما ينطلق من ثاني اكسيد الكربون من الطبقات السفلى من القشرة الارضية ومن تفتت الصخور البركانية

واذا بحثنا هذا التوازن بين ثاني اكسيد الكربون والنبات والحيوان وجدنا انهُ لا يعتمد فقط على كون مقدار ثاني اكسيد الكربون ظلَّ ثابتاً دهوراً طويلة ، بل ويعتمد كذلك على تركيب الاجسام كذلك ولذلك يصحُّ ان ندعوه « التوازن العضوي »

قلنا ان النباتات تستطيع ان تحوّل ثاني اكسيد الكربون بفعل ضوء الشمس وحبيبات الخضير (الكلوروفل) الى مواد عضوية واوكسجين . وان الحيوانات تأكل النباتات فتأخذ مقداراً من الكربون المثبّت فيها وتحوّله الى ثاني أكسيد الكربون . ولما كانت النباتات لا تستغني عن ضوء الشمس لتركيب المواد العضوية فضوء الشمس اذاً عامل لا غنى عنهُ في حفظ التوازن العضوي . ولا يخفى ان معظم الطاقة في ما يصيب الارض من ضوء الشمس يستنفد في تدفئتها مما يجعلها قابلة لسكن الانسان ، وان قليلاً منها فقط يستنفد في التركيب الضوئي

والكربون الذي يخزن في النباتات كلَّ سنة ليس كلُّ الكربون المثبّت في اجسام النبات لان كثيراً من النبات يعمّر ، وكثيراً منهُ تأكلهُ الحيوانات ومنها ما يعمّر ايضاً . فالجانب الاكبر من الكربون المخزون على هذا المنوال مخزون في الاشجار المعمّرة . وما في الحيوانات من الكربون يعدل تقريباً مقدار الفحم الذي يحرق كلَّ سنة . ويقدر نوداك ان مقدار الكربون المثبّت في اجسام النبات والحيوان يعدل نصف مقدار ثاني اكسيد الكربون في الهواء

واذا قابلنا بين مقدار الكربون الذي تثبّتهُ النباتات كلَّ سنة بمقداره المخزون في الارض كان الثاني اعظم جداً من الاول . وسبب ذلك واضح وهو ان الوف الالوف من السنين انقضت والنباتات تثبت الكربون في جسمها بفعلها الحيوي ثم تقبر في الارض . ومع ذلك فان مقادير الفحم وكربونات الجير المدفونة في الارض يسيرة جداً اذا قيست بملايين السنين التي انقضت على فعل النبات في تثبيت الكربون وهذا يدلُّ على ان جانباً قليلاً جداً من هذا الكربون المثبت يتحوَّل فحماً وكربونات . والبحث يدل على ان النباتات تأخذ من الهواء مقداراً من الكربون يكاد يعدل تماماً المقدار الذي تطلقهُ الحيوانات بالتنفس . اما ما يتحوَّل الى كربونات الجير او فحم فلا يزيد على خمس واحد في المئة . الاَّ أنَّ هذا التوازن قد ينحرف الى ناحية النبات لان في الهواء من ثاني اكسيد الكربون ما يكفي لمقدار من النبات هو ضعفا مقداره الحالي مدى ثلاثة قرون. وهذا إذا تمَّ يعني نشوء حراج كثيفة على نحو ما شهد العالم في بعض العصور الخالية . وأما انحراف التوازن الى ناحية الحيوان فلا يدوم — اذا تحقق — لان الحيوانات لا تلبث حتى ترى ان ليس أمامها نبات يكفي لغذائها . والغريب ان الطبيعة تحتفظ بالتوازن العضوي وتحافظ عليه محافظة دقيقة تدعو الى العجب . فالموازنة بين الحيوان والنبات تشمل عصوراً طويلة . ولا يعلم الباحثون كيف يحتفظ بهذا التوازن العضوي . ولكن لا ريب ان هناك وسائل طبيعية لا نعرف الاَّ شيئاً يسيراً عن بعضها

فهل يمكن الاحتفاظ بهذا « التوازن العضوي » الى ما شاء الله ؟ سؤال عظيم الشأن ، فاذا حاولنا ان نجيب عنهُ من ناحية العوامل التي تجعل هذا « التوازن » مستطاعاً عجزنا عن ذلك لجهلنا معظم هذه العوامل . ولكن اذا نظرنا الى الموضوع من ناحيتهِ الكيمياوية الجيولوجية استطعنا ان نجيب بالايجاب . ذلك ان الحياة تعتمد على اشعاع الشمس ووجود ثاني أكسيد الكربون في الهواء والماء . وليس ثمة ما يدل على ان قوة اشعاع الشمس قد ضعفت في العصور الجولوجية التي درسناها . ولا ما يدل على انها قد تضعف في المستقبل القريب . أما في ما يتعلق بثاني اكسيد الكربون في الهواء فالمسألة تختلف قليلاً . ذلك ان النباتات والحيوانات حوَّلت أثناء تطورها مدى ملايين ومئات الملايين من السنين ، مقداراً عظيماً جداً من كربونها الى فحم وكربونات الجير . فالكربون الذي في هذين المعدنين مثبَّت فيهما لا يعود منهُ الى « دورة الكربون » الاَّ مقدار يسير لا يزيد على الربع على الاكثر . وعلى هذا الاساس ومن هذه الناحية وحدها ، لا يمكن ان يقدر مدى التوازن العضوي — كما هو الآن — بأكثر من ٢٠٠ الى ٣٠٠ مليون سنة . أما هل تستطيع الاحياء ان تتحوَّل تحوُّلاً عجيباً يمكنها من اطلاق كربون الفحم وكربونات الجير ، فمن أسرار المستقبل وحده

اسرحدّون

ملك أشور او وحدة الحياة

للروائي الروسي تولستوى

غزا آسرحَدُّون ملك أشور ديار الملك ليللي ، ودمر بلاده تدميراً وتركها طعمة للنيران واستأسر سكانها جميعهم وساقهم مصفدين في الاغلال،وأطاح رؤوس المقاتلة واهلك بعض الزعماء ومثّل بالباقين افظع تمثيل ، وحبس الملك ليللي نفسه في قفص

وبينما كان الملك آسرحدّون مستلقياً في فراشهِ وهو يفكر في ابتداع طريقة لقتل الملك ليللي سمع فجاءة ركزاً على مقربة منه ، ولما فتح عينيه أبصر شيخاً طاعناً في السن ذا لحية بيضاء منسدرة تشع عيناه وداعة وحناناً

وقال لهُ الشيخ « أنت تفكر في قتل الملك ليللي »

فاجابهُ آسرحدون « نعم أريد ذلك ولكني لم اهتد بعد الى طريقة لتنفيذه »

فقال له الشيخ « ولكن أنت نفسك ليللي »

فاجابهُ الملك « كلاّ هذا غير حق ، إن ليللي هو ليللي وأنا أنا »

فقال له الشيخ « أنت وليللي شخص واحد ، وانما انت تتوهم إنك لست ليللي وان ليللي ليس اياك »

فقال الملك آسرحدّون « ماذا تعني بذلك . هأنذا مستلق على فراشي الوثير وحولي من رجالي والموالي عبيد خاضعون واماء طائعات ، وغداً سأولم وليمة لاصدقائي كما فعلت اليوم في حين ان ليللي محبوس كالعصفور في القفص،وغداً سيتخزق ويظل في وصب مندلق اللسان حتى تزهق روحه ويطرح للكلاب توسع جسده تمزيقاً »

فقال لهُ الشيخ « ليس في متناول قدرتك ان تفتك بحياته »

« ولكن ما حال الاربعة عشر الفاً من جنوده الذين افنيتهم ورفعت من رممهم تلالاً ،

واني ما ازال حيًّا ولـكنهم الآن لا وجود لهم ، ألا ترى في ذلك دليلاً واضحاً على أني استطيع ان أنهب الاعمار وأمحو الحياة ؟

« ولـكن من أين جاءك انهم غير موجودين » ؟

« لاني لا أراهم،وفوق ذلك انهم قد تعذبوا وذاقوا الغصص والآلام ولـكني لم الق عذاباً ولم أكابد ألماً ، ولقد كان ذلك نقمة عليهم ونعمة لي »

« هذا يبدو لك كذلك ، وانت انما عذبت نفسك ولم تعذبهم

فقال الملك « اني لا أفهم حديثك »

« أتريد أن تفهم »

« نعم أريد ذلك »

فقال لهُ الشيخ « اذن تقدم هنا » وأشار الى حوض متسع متأق بالماء

فنهض الملك ودنا من الحوض

« اخلع ثيابك وادخل الحوض »

ففعل آسرحدّون ما أمره بهِ الشيخ

وقال الشيخ وهو يملأ الجرة ماء « عندما أصب عليك الماء غطّس رأسك »وأمال الشيخ الجرة على رأس الملك وأحنى الملك رأسه حتى صار تحت الماء

***

أخذ الملك آسرحدون بعد ذلك يشعر بأنهُ أصبح شخصاً آخر غير آسرحدون ، ولما أحسَّ بأنهُ ذلك الشخص الآخر رأى نفسه مستلقياً على فراش فاخر والى جانبهِ امرأة حسناء لم يكن قد رآها من قبل وانما أدرك انها زوجته ، وهبت المرأة وقالت لهُ

« زوجي العزيز ليللي ! لقد انهكك مجهود الامس وقد نمت أكثر من المعتاد وقد حرصت على راحتك ولم أيقظك ، ولكن الامراء ينتظرونك الآن في البهو ، فالبس ثيابك واخرج لهم »

ففهم آسرحدون من هذه الـكلمات انهُ ليللي ولم يستغرب ذلك وانما عجب كيف لم يدر ذلك في خلده من قبل ، ونهض من فراشهِ وارتدى ملابسه وخرج الى البهو حيث كان الامراء ينتظرونه

وحيَّا الامراء ملكهم ليللي وألصقوا جباههم بالارض ثم رفعوا رؤوسهم بعد ان ألقى عليهم كلمة ، وجلسوا أمامه وشرع أكبر الامراء سنًّا يتكلم قائلاً انهُ أصبح غير ميسور احتمال اهانات الملك آسرحدّون وانهُ يلزم ان تعلن عليهِ الحرب ، ولـكن ليللي خالفهم وأمر بإيفاد الرسل للاحتجاج على أعمال الملك آسرحدّون وصرف الامراء من حضرته ، واختار بعد ذلك

جماعة من الاعيان ليكونوا سفراء ولقنهم ما يقولونهُ للملك آسرحدّون ، ولما أنجز آسرحدّون عمله — وكان يشعر — بأنهُ ليلي — امتطى جواده وانطلق ليصطاد الحمر الوحشية ، وأصابهُ التوفيق فقتل بيديهِ حمارين وحشيين ، ولما عاد ادراجه الى قصره أولم وليمة لاصدقائهِ وشاهد رقص الجواري ، وفي اليوم التالي ذهب الى البلاط حيث كان ينتظره مقدمو العرائض واصحاب الدعاوى والاسرى المجلوبون للمحاكمة ، وهناك فصل كعادته في المسائل المعروضة عليهِ ، ولما اتم عمله وقام بواجبه اقتعد صهوة جواده وتوجه للصيد وكان رياضته المحبوبة،واسعفه الحظ فصاد لبوة عجوزاً معها شبلاها ، وبعد الصيد اولم وليمة لاصدقائه وشاهد خلالها الرقص وسمع عزف الموسيقى ، وقضى ليلتهُ مع الزوجة التي يحبها

وهكذا كان وقته مقسماً بين واجباته الملكية والمتع والمسرات ، وقضى اياماً واسابيع ينتظر عودة رسله الذين اوفدهم الى الملك آسرحدّون الذي كانه يوماً ، ولم تعد الرسل الاّ بعد مضي شهر ورجعوا وقد جدعت انوفهم وصلمت آذانهم ، وامرهم الملك آسرحدّون ان يبلغوا الملك ليلى ان ما صنع بهم سيصنع بالملك ليلى نفسه اذا لم يبادر بارسال الجزية من الفضة والذهب وخشب السرو والحضور بنفسه ليقدم الطاعة للملك آسرحدّون

فجمع ليلى — آسرحدّون سابقاً — الامراء وشاورهم في الامر فاشاروا عليهِ جميعهم بان لامناص من الحرب ومهاجمة الملك آسرحدّون قبل ان يغزوهم في عقر دارهم ، واقرهم الملك على ذلك وسار في طليعة الجيش وبدأ الجهاد ، وكان يركب كل يوم ليستنهض عزيمة رجاله ويثير حميتهم ، وفي اليوم الثامن من مسيره التقى جيشه وجيش الملك آسرحدّون في واد متسع يشقه نهر واستمر القتال واستبسل جيش الملك ليلى ، ولكن ليلي — الذي كان آسرحدّون سابقاً — رأى جيش العدو يزحف من سفوح الجبال في عدد النمل حتى غص بهِ الوادي وتغلب على جيشه ، فطار في عربته الحربية الى بهرة المعركة واثخن في العدو اثخاناً وبطش بهم بطشاً ذريعاً ولكن جيش الملك آسرحدّون كان يفوق جيشه عدداً وشعر ليلي بانهُ قد جرح ووقع اسيراً وطوى تسعة ايام في سفر مع سائر الاسرى مكبلاً بالقيود وحوله جند آسرحدّون ،وفي اليوم العاشر دخل نينوى ووضع في قفص وكان لا يبالي السغب ولا الم الجراح وانما كان يحز في نفسه عار الهزيمة والاحساس بالعجز ، ورأى ان كل ما يستطيعه في هذا المأزق هو ان يحرم عدوه سرور رؤية آلامه ولذا صمّم على ان يحتمل صابراً كل ضروب التعذيب وصنوف الآلام وامضى في قفصهِ عشرين يوماً ينتظر الاعدام ، ورأى رجال حاشيته واصفياءه واقاربه يقادون الى الموت وكانت همهمتهم تخترق صماخ اذنه وكان أحيجهم يشق سمعه فبعضهم قطعت ايديهم وبترت ارجلهم ، والبعض سلخت جلودهم أحياءً ، وقد احتمل رؤية ذلك دون

ان يظهر توجعاً او رثاءً او تفزعاً ، ورأى زوجته وريحانة قلبه مقيدة بالسلاسل يقودها اثنان من الخصيان السود وعرف انها مسوقة الى الملك آسرحدّون واحتمل ذلك بلا تذمر ولا تأفف، ولكن احد الجند الموكلين بحراسته قال له «انا مشفق عليك يا ليلي ، لقد كنت بالامس ملكاً فانظر ماذا صار اليهِ امرك ؟ ولما سمع ليلي هذه الكلمات تذكر ملكه الضائع فأمسك بقضبان القفص وضرب رأسهُ فيها محاولاً الانتحار ولكن لم تكن بهِ قوة على القيام بذلك فأنَّ من الالم وغلبهُ اليأس وارتمى في اسفل القفص

وحضر اثنان من الجلادين وفتحا باب القفص وأخذا في تكتيفهِ وقاداه الى مكان الاعدام وكان مخضباً بالدماء ، ورأى ليلي خازوقاً يقطر منهُ الدم وقد انتزعت منهُ جثة احد اصدقائه فعرف انهُ تهيأ لقتله ، ونزعوا ملابسه فهاله نحف جسمه الذي كان قويًّا جميلاً وحملهُ الجلادان وكانا على وشك وضعه فوق الخازوق

وفكر ليلي في الموت والعدم ونسي اعتزامه ان يظل الى النهاية محتفظاً بهدوئه قائياً شجاعته وارتفع صوتهُ بالبكاء والنحيب والتمس الرحمة دون ان يصغى لشكاتهِ احد

ولكنهُ فكر اخيراً «هذا لا يمكن ان يكون ولا بد انا اكون في نوم عميق ولا بد ان يكون ما انا فيهِ حلم رهيب » وحاول اليقظة من النوم وما عتم ان استيقظ ولكنهُ لم يجد نفسه آسرحدّون ولا الملك ليلي وانما وجد نفسه نوعاً من الحيوان فعجب لذلك ، وكان اشد ما يثير عجبه هو انهُ كيف لم يعرف ذلك من قبل

***

كان يرعى في وادٍ معشوشب ويمزق الكلأَ بأسنانهِ وأنيابهِ ويطرد الذباب بذنبهِ المسترخي وكان يمرح حوله جحش اشهب طويل الساقين منمر الظهر ثم انطلق يعدو الى آسرحدون ولكزه تحت بطنه بفمه الناعم المستدق ملتمساً الضرع ، ولما اصابهُ اخذ يترشف منهُ ترشفاً متصلاً وأدرك آسرحدون انهُ أتان ولم يدهشهُ ذلك ولا احزنهُ بل سره ان يرى حياتهُ نامية سارية في ذريتهِ ، ثم سمع حوله حفيفاً وأحسَّ بسهم صارد نفذ حده المسنون من الجلد الى اللحم وشعر بألم مرمض ، ونزع آسرحدون — الذي كان في نفس الوقت أتاناً — الضرع من فم الجحش وارخى اذنيه وانطلق يعدو الى العانة التي ضلَّ منها يتلوه الجحش ، ولما قاربا العانة التي أجفلت أصاب سهم آخر رقبة الجحش وأصماه مخترقاً الجلد الى اللحم فزحر زحيراً مؤلماً وأقعى على ركبتيهِ ولم يستطع آسرحدون ان يتركهُ وظلَّ واقفاً الى جانبهِ ونهض الجحش مترنحاً على سيقانهِ المزيلة وسقط من الاعياء ووثب اليهِ الرجل واحتزَّ رأسه

ففكر آسرحدون وغمغم لنفسه « هذا لا يمكن ان يكون لا بدّ ان أكون في حلم وبذل مجهوداً ليستيقظ ويفيق من حلمه حقيقةً أني لست ليللي ولست الحمار الوحش ولكني آسرحدون »

وصاح ورفع في نفس الوقت رأسه من الحوض وكان الرجل العجوز ما يزال واقفاً الى جانبه يصب على رأسه آخر قطرة من الجرة

فقال آسرحدون « لقد تألمت كثيراً واحسبني قضيت في تلك الآلام ردحاً من الزمن» ؟

فقال لهُ الشيخ « كلاً لم يطل عهدك بالالم لقد غمست رأسك في الماء ورفعتهُ وانظر الى الجرة ترَ بها بقية الماء فهل تدري الآن» ؟

فلم يحر آسرحدون جواباً ونظر الى الشيخ نظرة ملؤها الرعب واسترسل الرجل العجوز يقول «أتدري الآن ان ليللي هو أنت وان الجنود الذين أعدمتهم هم أنت ؟ وليس الجنود فحسب وانما الحيوانات التي ذبحتها وانت تصيد ونهشت لحمها هي كذلك انت ، ولقد جرى في وهمك ان الحياة مقصورة عليك وحدك ولكني رفعت عن باصرتيك حجاب الوهم وجعلتك تدرك انك باساءتك الى الغير انما تسيء الى نفسك ، والحياة واحدة في الجميع وحياتك جزء من نفس هذه الحياة العامة ، وتستطيع في ذلك الجزء من الحياة الممنوح لك ان تجعل الحياة احسن او اسوأ وتنميها او تنقصها ، وتستطيع ان تسمو بالحياة في نفسك وان تحطم الحواجز التي تفصل حياتك عن حياة الغير ، واذا احببت للغير ما تحب لنفسك واعتبرتهم مثلك زاد نصيبك من الحياة ، وأنت تنقص حياتك اذا حاولت ان تزيدها على حساب الغير ، وتحطيم حياة الغير من وراء طاقتك ، وحياة من سفكت دماءهم ومثلت بهم قد اختفت عن ناظريك ولكنها لم تنعدم ، ولقد توهمت أنك تطيل حياتك وتختزل حياتهم ولكن هذا ليس في وسعك ، والحياة لا تعرف الزمان ولا المكان، وحياة لحظة وحياة آلاف السنين وحياتك وحياة الكائنات جميعها خفيها وظاهرها متساوية متعادلة ، ومحو الحياة او تبديلها غير ممكن لان الحياة هي الشيء الوحيد الموجود »

ولما نطق الشيخ بذلك اختفى

***

وفي صباح اليوم التالي اصدر الملك آسرحدّون اوامره باطلاق سراح الملك ليللي والاسرى جميعهم ومنع عقوبة الاعدام

وفي اليوم الثالث استدعى ابنه اشور بانيبال وسلمهُ صولجان الملك وانطلق الى الصحراء ليفكر فيما تعلمهُ ، واخذ بعد ذلك يسيح في المدن والقرى ويدعو الناس الى معرفة ان الحياة واحدة وانهم عندما يلحقون الاذى باحد انما يضرون انفسهم

***

طبقة الاوزون

في أعالي الجو

التي تقينا من البوار

يعلم قرّاء المقتطف مما يطالعونهُ فيهِ اننا نتلقى من الشمس اشعة كثيرة عدا اشعة الضوء التي نرى بها ، وانَّ تلك الاشعة بعضها اطول امواجاً من اشعة الضوء وبعضها اقصر امواجاً ، ولكن الطويل الامواج منها والقصير الامواج لا تحسُّ بهِ عيوننا على السواء . ولا يخفى ان الامواج التي اقصر امواجاً من اشعة اللون البنفسجي تؤثر تأثيراً عظيماً في الاحياء . فهي تميت الاحياء الدنيا التي من قبيل البكتيريا والجراثيم . وتؤثر في البشرة فتلفحها . وتفعل في بعض المواد الكيمياوية فتجعل التصوير الضوئي ممكناً وفي الجسم فتحول بعض موادهِ الى فيتامين D الواقي من الكساح ، مع انها تظل جامدة عاجزة من التحوُّل حتى تقع تحت تأثير هذه الاشعة

ان منطقة الاشعة التي فوق البنفسجي منطقة واسعة تمتدُّ من محاذاة الاشعة البنفسجية حيث يبلغ طول امواجها اربعة آلاف انجستروم[1] الى حيث يبلغ طول امواجها مائة انجستروم . الاَّ ان الامواج التي تتفاوت اطوالها من ٤٠٠٠ انجستروم الى ٣١٥٠ انجستروماً لا تؤثر تأثيراً بيولوجيًّا معيَّناً مع انها تؤلف معظم الاشعة التي فوق البنفسجي التي نتلقَّاها من الشمس . ثم يزداد هذا التأثير ازدياداً سريعاً وفقاً لقصر امواجها فتصبح قادرة على لفح البشرة وقتل الميكروبات والتأثير في الالواح الفوتغرافية وتوليد الفيتامين المقاوم للكساح

ولكن المشاهد في دراسة ضوء الشمس ان طيف الاشعة التي فوق البنفسجي تنتهي فجأة عند حدّ معيَّن من دون ان تتدرَّج قصراً . وهذا غريب لان في قدرة الباحثين ان يولدوا بأجهزتهم ، من الاشعة التي فوق البنفسجي ما هو أقصر امواجاً من الامواج التي يقف عندها الطيف الشمسي . وهذا لا يصدق على ضوء الشمس فقط بل يصدق على ضوء النجوم ، اي ان تحليل الضوء الواصل الينا من النجوم المختلفة ، يسفر عن منطقة واسعة من الاشعة التي فوق

---

(١) وحدة قياس الامواج القصيرة وهي تعدل جزءاً من عشرة ملايين جزء من المليمتر

البنفسجي ، ولكن هذه المنطقة تنتهي فجأة عند حدٍّ واحدٍ في جميعها ، فكان الاستنتاج الطبيعي الذي يمكن الخروج بهِ من هذه الدراسة ، أن في الغلاف الغازي الذي يحيط بالكرة الارضية شيئاً يمتص تلك الاشعة القصيرة الامواج فلا نستطيع ان نتبينها بأدق الاجهزة العلمية التي يعتمد عليها

فاذا صحَّ ذلك كان وجود هذا الحائل دون وصول تلك الاشعة الى سطح الارض من الغرائب لان الهواء عند سطح الارض يأذن للاشعة القصيرة الامواج في اختراقهِ . وقد جرّب نقل هذه الاشعة في مسارٍ أفقي من الهواء على سطح الارض طولهُ عدَّة أميال ويزيد مقدار الهواء فيهِ على مقدار الهواء الذي تخترقهُ الشعاعة في سيرها من أعلى طبقات الجوّ الى سطح الارض، فثبت ان ذلك مستطاع . واذن في الجوّ شيء غير الهواء يحول دون وصول هذه الاشعة الينا . وكان الرأي أن الاوزون هو ذلك الشيء . والاوزون أوكسجين قوام جزيئهِ ثلاث ذرات حالة ان الاوكسجين العادي قوام جزيئهِ ذرتان فقط . وفي سنة ١٩٢٠ أثبت الباحثان الفرنسيان شارل فابري وهنري بويسون صحة ذلك . فقالا ان هذا الاوزون موجود في طبقات الجوّ العليا ، وانهُ يفعل كأنهُ غشاءٌ كثيف يحول دون وصول هذا الضرب الخاص من الاشعة الينا ، حتى ولو كانت السماء صافية كعين الديك

ثم عمد هذان الباحثان الى أساليب ضوئية وبصرية دقيقة لقياس مقدار الاوزون ، فعرفا مقدارهُ ولكنهما عجزا عن معرفة مدى الطبقة التي يتخلَّلها . والغريب ان مقدارهُ يسير ، اي انهُ لو بلغ الضغط عليهِ مبلغ الضغط على الهواء الملاصق لسطح الارض لكوّن طبقة من الاوزون التي لا تزيد كثافتها على ثلاثة ملمترات . ولكن هذا لا يعني ان طبقة الاوزون حيث هي في أعالي الجوّ تبلغ هذه السماكة ، او تشغل طبقة رقيقة من الهواء ، لان الضغط هناك قليل جداً فالغاز لطيف ثم هو مختلط بغازات أخرى ولا يبعد ان تكون سماكة الطبقة التي تحتوي على هذا القدر من الاوزون بضعة أميال

ومن العجب العجاب أن يكون مقدار يسير من الاوزون كهذا المقدار كافياً لاحداث هذا التأثير . ولكن التجارب الدقيقة في معامل البحث تؤيد النتائج التي توصل اليها فابري وبويسون . وقد ظهر علاوة على ذلك انهُ لو نقص الاوزون مقدار الثلث لكفى تعرضنا بضع دقائق لضوءِ الشمس لاحتراق بشرتنا كما لو اصابتها نار حامية : يقابل هذا انهُ لو تضاعف مقدار الاوزون لقضي على الجنس البشري بالبوار لكثرة ما ينمو من البكتيريا والجراثيم ولقلَّة ما يتولَّد في الاجسام من الفيتامينات اللازمة للحياة

إلاَّ ان تغيُّراً يسيراً في مقدار الاوزون يحدث في فصول مختلفة واحوال متباينة ، فقد ينقص حتى يبقى مقداره مساوياً لطبقة سماكتها مليمتران ، أو يزيد حتى تربي سماكتها على ثلاثة

مليمترات . والغالب ان الاوزون أكثر في الربيع والخريف من المتوسط ، ثم انهُ على أقلهِ في المناطق الاستوائية حيث التغير في مقدارهِ يسير جدًّا

ويتفاوت علوّ هذه الطبقة من الاوزون عن سطح الارض من عشرة اميال الى أربعين ميلاً . ولكن القارىء قد يسأل اذا كان مقدار الاوزون في طبقات الجوّ العالية ذا شأن في مقدار ما يصلنا من الامواج القصيرة من الاشعة التي فوق البنفسجي ، فما شأن ارتفاع الطبقة التي تحتوي عليهِ ؟ وهو سؤال في محلهِ والردّ عليهِ ان لهُ شأناً يذكر في حرارة الارض وغلافها الغازيّ

لا يخفى ان حرارة الارض نتيجة للتوازن بين ما يتصل بها من اشعة الشمس فتمتصهُ وما تطلقهُ من هذه الاشعة بعد امتصاصهِ . ولما كانت حرارة الارض دون حرارة الشمس الوف الدرجات ، فالاشعة التي تنطلق من الارض تقتصر على الاشعة التي تحت الاحمر من طول معين — يزيد طول امواج هذه الاشعة عشرين ضعفاً على طول الامواج الحمر — . يقابل هذا ان الاوزون متصف بصفة أخرى غير امتصاص الاشعة التي فوق البنفسجي من طول معيّن . ومن هذه الصفات قدرتهُ على امتصاص الاشعة التي تحت الاحمر . ومن غرائب الاتفاق ان أمواج الاشعة التي تحت الاحمر التي يمتصها ، هي من قبيل امواج الاشعة التي تطلقها الارض . واذن فالاوزون في الهواءِ ، يمتصُّ جانباً من الاشعة القادمة من الشمس الى الارض وكذلك جانباً من الاشعة التي تطلقها الارض في الفضاءِ . وامتصاصهُ لهذا الضرب الاخير من الاشعة يرفع حرارة سطح الارض وغلافها الغازي ، لان جانباً من الحرارة التي يمتصها ينتقل منهُ الى الغازات الاخرى إما بالاصطدامات الجزيئية وإما بالاشعاع . فحفظهُ للحرارة التي يمتصُّها من اشعاع الارض، او انتقالها منه الى غازات الهواءِ الاخرى يتوقفان على الضغط الجوّي او بكلمة أخرى على ارتفاع الطبقة المحتوية على الاوزون عن سطح الارض . وفعل الاوزون في كلّ ذلك يشبه فعل ألواح الزجاج في مستنبت ، فانها تقي النبات من تطرق بعض العوامل الجوية الخارجية اليهِ كالبرد ، وفي الوقت نفسهِ تحفظ الحرارة التي تولَّد فيهِ من التشعُّع الى الخارج

وقد دلت التجارب على ان الطبقات المحتوية على الاوزون مرتفعة جدًّا بحيث لا تجدي أساليب البحث الطخروري (اي ارتفاع البلونات الى الطبقة الطخرورية سواءٌ أكبيرة كانت فيها علماءُ مع أجهزتهم أم صغيرة لا تحتوي الاَّ على الاجهزة المدوّنة من تلقاء نفسها) في قياسها . ولكن هذا الاسلوب من البحث سائر الى الامام وقد يتاح للفلكي والمتيورلوجي في المستقبل القريب ان يبعث بأجهزتهِ الى الطبقة المحتوية على الاوزون او إن يتخطاها وحينئذٍ يستطيع ان ينفذ الى بعض أسرارها وأسرار الاشعة الواردة من الاجرام السموية

الاذاعة

اللاسلكية المصورة او التلفزة
وسائلها وأطوارها وارتقاؤها

لعوض جندى

يرى بعض الناس انهُ من اصعب الصعوبات ، ادراك طريقة اطلاق صورة متحركة من احدى غرف الاذاعة ، على اجنحة الاثير الى بيوتنا حيث تتجلى لنا على ستار صغير بكل سهولة. وذلك لاننا اذا ما تأملنا مليًّا التفصيلات الفنية لعناصر الرؤية باللاسلكي ألفيناها عويصة . بيد اننا عند ما نجزىء الجهاز المستقبل لتلك الصورة ، لا نلبث أن نوقن سهولة فهم القواعد المؤسس عليها . وأساس الاذاعة اللاسلكية المصورة ، الخداع النظري . فالصورة التي تنقل بها تخدع العيون التي تبصرها . ولسنا نشاهد على الستارة صورة مفردة ، بل سلسلة كاملة من نقط تتغير بأقصى سرعة . ولو حدّقت عن كثب في صورة فوتوغرافية مصورة في جريدة ما ، لوجدتها مؤلفة من نقط صغيرة متباينة درجات الضوء والظلّ . حتى اذا ما أبعدتها عن بصرك قيد ذراع واحدة وتطلعت اليها ، تبينت لك صورة كاملة . وتكاد الصورة التي يتم نقلها بالراديو تؤلف على ذلك النمط . ولا يزال مستحيلاً نقل صورة كاملة في آن واحدٍ . ولكن من الميسور نقلها أجزاء نقلاً عاجلاً يخدع العين البشرية فتظن انها ظهرت بأجمعها مرة واحدة . وسبب نجاح هذه الطريقة قوة أو خاصية الحفظ او الاستبقاء التي في آلة البصر . ومن ثمّ كانت تجزئة الصورة أولى العمليات الجوهرية للتلفزة . وتجزأ الصورة بطريقة اضاءتها تدريجاً

وتضاء الصورة اضاءة تدريجية بعدة وسائل . وقد تكون الصورة غير فوتوغرافية ، بل كائناً حيًّا اي ممثلاً يمثل في مقر الاذاعة المصورة . وربما تتغاير وسائل تلك الاضاءة التدريجية المصورة ، غير ان قاعدتها الاصلية لا تتغير ، وقوامها قرص منقّب عدة ثقوب ، ويسلط الضوء المراد انارة الصورة به ، على ذلك القرص فيمرّ من ثقوبهِ الى الصورة المرغوب فيها ، بدلاً من سقوطهِ عليها مباشرةً مرة واحدة . وتجعل ثقوب القرص على شكل حلزوني . وعندما يدور القرص دوراناً سريعاً يصيب الضوء الصورة على شكل نقط صغيرة او خطوط يلتقطها الجهاز الناقل ويطلقها في

الاثير واحدة في إثر الاخرى ،فتصل الى الجهاز المستقبل حيث تحشد حشداً عاجلاً جدًّا فتتألف الصورة المنقولة. وحينما يستعمل عدد كبير من النقط، او الخطوط المقسمة الى نقط، في تأليف صورة تظهر الصورة في الجهاز المستقبل منتظمة واقرب الى اصلها مما لو أُلفت من نقط قليلة . ومثال ذلك ان الصورة التي مساحتها عقدة مربعة تؤلف من الف نقطة ، ويجب ان تكون هذه النقط ابعد بعضها عن بعض ، منها لو تألفت الصورة من عشرة آلاف نقطة ، فتصير درجات الضوء والظل في الثانية المؤلفة من عشرة أمثال نقط الاولى ، اوضح كثيراً منها في الاولى

ومن العقبات الكبرى التي اعترضت مخترعي الاذاعة اللاسلكية المصوَّرة ، نقل عدد كبير من الخطوط في ثانية واحدة . ولكنهم قد ذللوا حديثاً هذه العقبة الى حدٍّ ما . وبذلك ستصبح الصور المنقولة بالراديو المصور مضبوطة ، أسوةً بالصور الضوئية التي تصور في الجرائد

ولاضاءة الصورة المزمع نقلها بالراديو وسيلتان اساسيتان وأولاهما جعل الضوء يتحرك حركة سريعة على الاشخاص المراد نقل صورها ، غير ان لهذه الطريقة عوائق عديدة ومنها وجوب تعتيم البيئة التي يجري فيها العمل . وهذا يقتضي حصر العمل في غرف الاذاعة

والوسيلة الثانية هي اضاءة الشبح اضاءة طبيعية كما يضاء على المسرح بالانوار المخصصة لتلك الغاية ، او وضعه خارجاً في نور الشمس بحيث تلتقط الانوار او الظلال بعدسة تجمعها ثم توجّهها الى عجلة منيرة . وفي احدى تينك الحالتين يتجزأ الضوء اجزاء قبل وصوله الى الشبح . وفي الحالة الاخرى يتجزأ الضوء المنعكس تجزئة تامة بعد مغادرته الشبح ، فتكاد النتيجة تكون واحدة في كل حالة ما دام المعوّل على الجهاز الاخير . وبذلك نصل الى أنفع الاجزاء في جهاز نقل الاذاعة المصورة . ونعني بهِ البصاصة الكهربائية ونتائجها اعجب كثيراً من تفصيلات تركيبها الفعلي

اننا متى تكلم في التليفون تهتز طبلتهُ فتحدث ذبذبة في التيار الكهربائي الضئيل الساري في الجهاز . وذلك وفقاً لنبرات صوت المتكلم في بوق التليفون . وهذا عينه ما تفعله البصاصة الكهربائية في الضوء ، بدلاً من الصوت ، لأن أضأل تغاير في الضوء والظل يستحيل بالبصاصة الكهربائية ذبذبات في التيار الكهربائي

ذلك ان سلسلة سريعة من ومضات الضوء تنبعث من القرص المضيء ، فتسدّد الى البصاصة الكهربائية فتحدث ذبذبات في التيار الكهربائي . فتضخم مثلها عند ما تتولد من الصوت بالميكروفون . ثم تذاع من الموصل الجوي اللاسلكي ، أما في محطة الاستقبال فتعكس هذه الطريقة اذ يلتقط الموصل الجوي اللاسلكي أمواج الاثير كما يحدث في محطة استقبال الاذاعة حيث تلتقطها صمامات الاستقبال في جهاز الاذاعة المصورة وتضخمها. ثم ان هاتيك التيارات يتوسل بها الى تغيير قوّة مصدر الضوء او المصباح وتمرُّ في قرص مضيء آخر ومنهُ الى الستارة حيث

يعاد تأليف الصورة الاصلية التي أذيعت من غرفة الاذاعة . وقد روت مجلة العلم العام انهُ « اخترع في المانيا حديثاً جهاز جديد يتيح للجماهير المحتشدة سماع الخطب العامة ورؤية خطيبهم جليًّا وسماعهِ جيداً . والجهاز مؤسس على أنماط الاذاعة اللاسلكية المصورة اذ يكبر صورة الخطيب بحجمها الطبيعي عدَّة أضعاف فتظهر للحضور جميعاً واضحة بينما يسمعون صوته الجهير بأبواق الراديو المعتادة . ولذلك يعتلي الخطيب منبر الخطابة وتوضع الميكروفونات المألوفة تجاههُ وتوضع بصاصتان كهربائيتان يمنةً ويسرة . ومتى شرع الخطيب في القاء خطبته، تصوب الى وجههِ ، شعاعة خضراء من جهاز العرض ، تكاد لا تبصرها العين ، فتتموج إزاءه تموُّجاً خفيًّا لا تلمحهُ غير تينك البصاصتين الكهربائيتين الحساستين بالضوء أيًّا كان فتساير الاشعة المنعكسة من ملامح الخطيب فتطلق سلسلة نبضات كهربائية مطابقة لتلك الاشعة فتستحيل ضياءً مرة أخرى وذلك بصمام من صمامات الاشعة السالبة من قوة ٢٠٠٠٠ فولط . ثم تقوم عدسة قوية بالقاء الصورة على الستار . وقد أزمع مخترعو هذا الجهاز تعميمه في المسارح ليجعلوا كل مقعد من مقاعدها مساوياً للآخر في التمتع برؤية الخطيب وسماع صوتهِ من كثب »

وليست عملية اضاءة صورة الشبح شيئاً فشيئاً بالقرص المثقب كلها هينة جدًّا كما تلوح للقارىء أول وهلة، فاذا لم يتحرك القرص المضيء في طرف الجهاز المستقبل بالسرعة عينها التي يتحرك بها في طرفه الناقل ، حدث في الستار اضطراب وتشويش ، اذ ينبغي جعل ذينك القرصين في مركز مضبوط ، الواحد بالقياس للآخر . ويجب تحريكهما بسرعة واحدة تماماً . وقد اخترعت لذلك التوازن عدة أجهزة بديعة . واذا أدير جهاز استقبال الاذاعة المصورة بتيار كهربائي متغير من نوع التيار الذي يستعمل في جهاز النقل ، كان الامر هيناً الى حدٍّ ما ، لان ذبذبات التيارات الكهربائية ثابتة جدًّا فلا تتبدل البتة ولذلك تستعمل لادارة الساعات الكهربائية . وليس ذلك ميسوراً دائماً لانهُ قد يتفق ان يكون مقر الاذاعة المصورة في منطقة يسكنها لفيف من الناس لا يستخدمون تياراً كهربائيًّا من منبع واحد . ولذلك اخترع المخترعون قاعدة ارسال نغمة مستمرة تعمل بمثابة مسيطر على القرص المضيء في طرف جهاز الاستقبال على ان يضبطوا سرعته ضبطاً يطابق سرعة القرص المضيء في جهاز النقل

وقالت مجلة العلم العام الاميركية في جزء يناير ١٩٣٨ انهُ قد تبين للخبراء ان الصبغات الحمر التي تستعملها ممثلات السينما في تبرجهن لا تظهر في وجوههن عند تصويرها بآلات التصوير فتتجلى صورهن عند نقلها بأجهزة الاذاعة اللاسلكية المصورة ، مشوَّهةً غير طبيعية ، فاستبدلن بالدمام ، صبغات خضراً واتخذنَ منها اقلاماً لصبغ شفاههن وتخضيب وجناتهن فتلوح شفتا الممثلة ووجنتاها متناسقة مع ظلال الصور الفوتوغرافية لسائر ملامح وجهها عند ما تعرض الصورة على ستار جهاز الاستقبال

أما وقد أوضحنا القواعد الاساسية للاذاعة المصورة ايضاحاً موجزاً، فجديرٌ بنا ان نشير الى شتى التفصيلات التي أفضت الى تحسين الاذاعة اللاسلكية المصورة . ومنها ان الثقوب التي تثقب في قرص الاضاءة قد استعيض عنها بالمرائي او العدسات لكي تزيد منفعة الضوء وذلك على نسق عدسة آلة التصوير اذ انها تنقل من الضوء أكثر مما ينقله ثقب دقيق مجرد

﴿ مرآة مغنطيسية مهتزة تعكس الصور المنقولة بالراديو ﴾ اخترع الدكتور لي دي فورست والمستر ويليم بريس Wiliam Priess أسلوباً لانارة الاشباح في الاذاعة المصورة قِوامهُ مرآة هزازة تعكس الصورة المنقولة بالراديو على ستارة مساحتها قدمان فتبدو الصورة للناظر متقنة واضحة بلا استعمال الصمام السلبي الشعاعة . ولذلك يستقطب (يعطى خاصية الاستقطاب) الضوء من مصباح للعرض من قوة ٥٠٠ وط فيمر في بطارية كر Kerr فينظم الشعاعة ومن ثمَّ تعكس المرآة الضوء المنظم على الستارة . وتؤلف المرآة من لوحة فولاذية صقيلة ذات سطح من معدن الروديوم rhodium معلقة بين قطبي ملف مغنطيسي يمغنط بجهاز يحوّل التيار المتغير الى تيار ثابت ويستمد قوتهُ من دائرة النور الكهربائي المنزلي المعتادة . وتهتز المرآة نفسها ٥٠٠٠ مرة في الثانية . ويهتز الاطار الموضوعة فيهِ فيلقي صوراً مؤلفة من ٢٥ خطًّا × ٢٠٠ خط على ستار العرض في كل ثانية ويمتاز هذا الجهاز المضيء برخصهِ وسكونهِ »

وكانت مساحة الصور القديمة التي نقلتها الاذاعة المصورة قلما تزيد على مساحة طابع البريد فكان لا بدَّ من الامعان في التنقيب عنها امعاناً يكاد يضارع البحث عن شُرط الصور المتحركة « السينما » في عهد شيوع صناديق الدنيا أو صناديق العجب . وقد تضاعف حجم هاتيك الصور فأصبح في وسع المرء مشاهدتها عن بعد قليل وهو جالس على كرسيه

ومن جهة اخرى يرى الخبيرون أنهُ غير محتمل تكبير ستائر الاذاعة اللاسلكية المصورة تكبيراً تظهر عليهِ صور الفيلم النظرية الاَّ إذا اخترعت قاعدة جديدة من كل الوجوه او أحدثت في تلك الستائر بضعة تحسينات خطيرة

﴿ صمام الشعاعة السلبية أو الصمام السلبي الشعاعة ﴾ وأحدث ما تمَّ من المخترعات الخاصة بالاذاعة اللاسلكية المصوَّرة صمام الشعاعة اللاسلكية الذي ذاع ذيوعاً واسع الانتشار فاستعمله المخترعون بدلاً من مصدر الضوءِ الاعتيادي الذي يغيره التيار الكهربائي. وهو بمنزلة دورق او قنينة ضيقة العنق يقوم قعرها المسطح مقام الستارة وقد اخترعت منذ عدة سنين قبل صيرورة اللاسلكي مذهباً عمليًّا . ولكن لم تظهر خاصية هذا الصمام النافعة الاَّ قريباً. وهي جعل شعاعة من الكهيربات تنطلق الى الستارة وتموج وفق شحنة المكثف الكهربائية . وكان استعمالها في بدء الامر مقصوراً على المباحث الجوية . غير انهُ يبدو لنا ان هذا الجهاز سيجد على الارجح مكاناً في كثير من

أجهزة الاذاعة اللاسلكية المصورة عوضاً عن مصابيح النيون الاصلية

وليس صعباً إدراك العقبات الميكانيكية التي اعترضت المخترعين حتى فازوا بوسائل تعجيل تجزئة الصور واعادة تكوينها وهما العنصران الجوهريان في الاذاعة اللاسلكية المصورة

وقد استخدم هذا الصمام السلبي الشعاع في كثير من الآلات الجديدة . وهو شبيه بصمام الراديو الكبير ومجهز في أحد طرفيه بفتيلة مغشاة بغشاء من الاوكسيد . وهي المؤلفة للقطب السالب . واسلاك الصمام محمولة على الجزء المبرشم من مشكاته « زجاجته » ويحمى ذلك العنصر بمرور التيار الكهربائي فيه أسوةً بصمام الراديو فينشأ عن ذلك الاحماء اضطراب الكهيربات فتسير بالنور الكهربائي المركز وتتجه صوب نقطة التركيز الكهربائي . وفي الطرف الآخر من الصمام السلبي الشعاع ، سطح منبسط وهو بمثابة ستارة مغشاة بطبقة من مادة متألقة تتألق متى صدمتها الكهيربات التي تتناثر من القطب السالب فتلوح للناظر بقعة زاهية الضوء من خارج الصمام. وفي ذلك المجاز الكهربائي زوجان من اللوحات يستطيعان عند شحنها بالكهربائية شحناً ملائماً ، تحريف الاشعة السلبية عن اتجاهها الاصلي فتغدو كأنها صادرة من خرطوم يسددها الى أية جهة مقصودة . والتوسل بهذه الوسيلة الى الاذاعة اللاسلكية المصورة ، جليل المنفعة إذ يتاح بالوسائط الكهربائية جعل تلك البقعة الضوئية تخترق الستارة بر مشاهدون تدخل الآلات الميكانيكية المعتادة المعقدة التي لا تفي بالمرام

والصورة التي تستقبل بالصمام ذي الشعاعة السلبية (وهي البقعة الضوئية التي تستحيل صورة ، مؤلفة من نقط بيض وسود) تتناسق عاجلاً مع حركات البقعة المضيئة في الطرف المرسل من الجهاز ويتم ذلك التوازن كله بالكهربائية ولذلك يحدث بلا تعب يذكر. ومع كل تلك التحسينات لما تبلغ الاذاعة اللاسلكية المصورة أوج النجاح المنشود لها . فلا مرية في القول انها ما زالت جنيناً إذا ما قسناها باجهزة الراديو المتقنة المختلفة الاشكال

﴿ جهاز الايكونوسكوب[١] Iconoscope ﴾ وثمة طريقة اخرى يظهر أنها مرجوة النجاح جداً وذلك باقترانها بالوسائل الاخرى، ونعني بها طريقة الايكونوسكوب لمخترعه الدكتور ڤلاديمير ك . زوريكين وهو المنظار الذي سيذلل العقبات التي ما زالت تحول دون بلوغ الاذاعة اللاسلكية المصورة الشأو العملي الذي ينشده لها العلماء . ويؤلف الايكونوسكوب من ربوة من البصاصات الكهربائية المنفصلة بعضها عن بعض . وهو من انفع آلات الاذاعة اللاسلكية المصورة التي تمَّ اختراعها حتى اليوم

ولا مندوحة لنا على وجه التقريب في كل حالة من حالات اختراع الاذاعة اللاسلكية

(١) عين صناعية لها شبكية من البصاصات الكهربائية وقد وصفناها وصفاً شافياً في مقتطف يناير سنة ١٩٣٤

المصورة ، عن الاشارة الى الاشعة الضوئية أيًّا كان نوعها وطول موجتها ، ولو كان من الاطوال التي لا تراها العين المجردة . وهذا يتضمن استحالة نقل الصور في اثناء انتشار الضباب وفي الليل، ويبين لنا تعذر ادخال التلوين عليها ايضاً في آخر الامر. ولا بدَّ انهُ سيأتي وقت تتمكن فيه من اضاءة الصور بأجمعها ونقلها مقرونة بتلحين الصوت والعناصر التي تتألف منها على بعد صورة ميكانيكية جذابة ذات رونق يستهوي مشارب المتعلمين وذلك بموجات تتحرك في آن واحد

﴿ جهاز بيرد J. L. Baird ﴾ هو من النماذج العملية الاولية وقد قررت شركة الاذاعة البريطانية تجربة جهازين مختلفين من اجهزة الاذاعة اللاسلكية المصورة جنباً الى جنب لكي تختار اصلحهما اختياراً نهائيًّا . وكانت تلك التجارب الابتدائية تجرَّب بأجهزة معظمها وقتية مصحوبة بجملة عدسات قديمة وشمع الختم والدوبارة، ومع ذلك فقد أسفرت عن النجاح اذ اتيح نقل صور متقنة واضحة جدًّا في سنة ١٩٢٥

وقد تحسنت الاجهزة في السنين التالية تحسناً عظيماً فغدت شركة الاذاعة البريطانية تنقل الصور نقلاً منتظماً وكان من العوائق التي تكشفت في بدء الامر ضرورة وجود قوة الضوء العظيمة لانارة الاشخاص المراد نقل صورهم. فحاول العلماء تذليل تلك العقبة باكتشاف نافع وهو التمكن من نقل الصور بالراديو نقلاً جيداً بوساطة الاشعة الخفية ، يكاد يضارع نقلها بالضياء الابيض المألوف ونعني بالاشعة الخفية الاشعة التي تحت الاحمر التي تستطيع اختراق الضباب والتي لا تراها العيون المجردة . فأضحى ميسوراً نقل صورة شبح في الظلام الحالك تقريباً . وقد تتبين فائدة اختراع هذا الجهاز عند تطبيقه على البواخر . فكل باخرة يُركَّب فيها منظار ليلي قوي (نوكتوفيزور Noctovisor) يتسنى لها رؤية غيرها عندما تدنو منها في الضباب الكثيف ، ولو كانت تلك الباخرة القادمة مختفية كل الاختفاء عن العيون البشرية المجردة

وقد اقترح بعضهم إمكان استعمال جهاز الشعاعة السلبية لتلك الغاية . فاذا ما أرسلت إحدى البواخر اشارة ثابتة في اثناء انتشار الضباب الكثيف ، ظهرت الاشارة على ستارة رقاص الشعاعة السلبية بمثابة سلسلة خطوط فتنبه ربان الباخرة الى دنوّ الباخرة الاخرى منهُ . ويتوقف نجاح الاذاعة اللاسلكية المصورة على صفة الصور ، وقوامه في الاغلب ، السرعة والضبط ، اللذان يستعملان في ارسالها. وفي مطلع هذا الاختراع كان يستعمل ٢٤ خطًّا ثم زيد هذا العدد الى نحو ٤٠٠ خط و٢٠ أطاراً في الثانية، فكانت النتيجة صورة تكاد تكون مشابهة للصورة الاصلية. اما في حالة نقل الصور السريعة الحركة فيدخل فيها تعقيد آخر ، لان السينما المعتادة مشهورة بكونها صيغة من صيغ الخداع البصري ، لأن الذي تراه على الستارة ليس صورة متحركة ثابتة حقيقية بل سلسلة كاملة من الصور الفوتوغرافية تعرض تباعاً عرضاً حثيثاً جداً بحيث تخدع عينك فتتخيلها صوراً متواصلة

واضعف سرعة يمكن عرض تلك الصور بها،على ذلك النمط تناهز عشراً في الثانية بيد انهُ قد تبين بالاختبار ضرورة عرض عدد يتراوح بين ٢٢و٢٥ صورة في الثانية . فاذا ما اريد جعل الصور المذاعة بالراديو غير مطموسة ولا مهزّة فلا بد من مراعاة هذه القاعدة لان عيوننا يجب ان تخدع بالنقط المتحركة ويجعل عدد الصور المعروضة ٢٥ صورة في الثانية على الاقل حتى تعتقد العيون بأنها تشاهد حركة ، لا سلسلة صور منفصلة بعضها عن بعض . ولما كانت اسطوانات الجراموفون تؤلف جانباً كبيراً من برامجنا اللاسلكية ، رجّح العليمون بأن افلام السنما سوف تستعمل في ملاهينا التي توافينا بها الاذاعة المصورة لان نقل فيلم السنما بطريقة الاذاعة المصورة ، أسهل كثيراً في الحقيقة من نقل مشهدٍ من غرفة الاذاعة . ويتمُّ عرضهُ بالطريقة المألوفة غير ان الضوء الذي يوجه من السنما الى الستارة ، يستبدل بهِ جهاز منير تسدّد أشعتهُ الى بصاصة كهربائية . ومن ثمَّ تلقط الصور بالطريقة المتادة — وفي أثناء ذلك يكون الجزء الناطق من الصورة ، الذي يستوعبهُ مجاز ضيق من فيلم الصوت تحت حافته ، قد مرَّ بما يسمى بباب الصوت حيث يلتقط ذلك الصوت ويرسل على موجة مستقلة الى حيث يستقبل ويضخم وينقل الى بوق الراديو . ويكون الصوت على الافلام دائماً سابقاً قليلاً للصورة لانهُ لا بدَّ من مضي بعض الثانية قبيل مرور الفيلم من جهاز عرض الضوء الى جهاز عرض الصوت . وهذا التأخير يتيح مثل فتح فيهِ في اللحظة الملائمة بعكس ما اذا كان سجلا الصوت والصور موضوعين جنباً الى جنب قبيل ذلك بقليل . وما زالت الشروح الخاصة بمسابقات العدو وغيرها ، تؤلف شطراً مألوفاً جدًّا عند الجمهور من برامج الاذاعة اللاسلكية الشفوية . ويرجوكل امرىء بوساطة الاذاعة اللاسلكية المصورة زيادة التمتع بالملاهي وذلك بتمكينه في الحقيقة من رؤية مباراة كرة القدم أو مسابقة الملاكمة ،لا ان يصغى فقط الى الشروح التي يلقيها عامل الاذاعة

على انهُ من سوء الحظ ان نقل الحوادث بالراديو في الهواء الطلق ، من اشق الامور . وقد تبين بالاختبار ان تسجيل الحوادث على الفيلم و نقلها بالراديو المصور اسهل . وليست هذه الطريقة بطيئة كما يظن ، اذ قد اتضح بجهاز بديع صغير ، سهولة نقل الفيلم بالراديو المصور في عشر ثوانٍ بعيد التقاطه ، وذلك بأن يلتقط المصور الصورة بالاسلوب المعتاد ثم يحمض الفيلم بذاته بعد اظهاره ويثبت ويجفف ، ويتم تجفيفه في سلسلة من الحياض ثم ينقل بلا موافاة الى جهاز الارسال الخاص بالاذاعة ، المصورة حيث ينار حالاً . ومع ان ذلك العمل يحدث بعيد الزمن الحقيقي بهنيهة فان هذه الثلاثين الثانية التي تمضي بعيد وقوع الحادث فلما يمكن ملاحظتها الاَّ في نهاية السباق ، وعند الفوز حينما يسمع ضجيج النظارة قبيل حدوث الحادث بلحظة . وأي تأخير ثابت يتسنى اصلاحه بكل سهولة

ومن التحسينات التي لا مندوحة عنها للاذاعة المصورة (التليفون الظاهر) اي الذي تظهر فيه صورة المتكلم . ولم يبق الاً قليل من الشك في ان كثيراً من حظائر التليفونات العامة في المستقبل ، ستركب فيها اجهزة للاذاعة المصورة بحيث يمكن انارة محيا المتكلم فتلقط ذبذبات التيار الكهربائي وترسل الى الجهاز المستقبل حيث تصور الصورة بجوار سماعة التليفون المعتادة

***

ومن الاسباب التي تحتم تكوين جل البرامج الابتدائية للاذاعة المصورة من الافلام ، هو أن مدى اشارات الاذاعة المصورة محدد ، أكثر منهُ في اذاعة الصوت ، لان الاشارات اللاسلكية العادية يتيسر اطلاقها الى مدى مئات من الاميال بلا صعوبة كبيرة . أما اشارات الاذاعة المصورة فلا تعدو ٢٠ أو ٣٠ ميلاً حينما يراد الحصول على نتائج مرضية في هذه الآونة . وكثيراً ما تصادف الاذاعة مناطق تسمى « بالميتة » وقد تعترضها العوائق بسهولة اكثر منها في حالة الراديو المعتاد . أي أننا لوشئنا تعميم الاذاعة المصورة في مملكة انكلترا مثلاً لاحتجنا الى ٢٠ او ٣٠ محطة لنقل الاذاعة المصورة . ومع ذلك قد يبقى مليون او مليونان من الناس بعيدين عن اجهزة النقل بعداً لا يسمح لهم بالرؤية دون حائل . فاذا ما أريد تمثيل ثلاثين رواية مختلفة او أكثر على أيدي شركات مختلفة كل يوم ، كانت نفقاتها باهظة جداً . اما اذا صوّرت تلك الروايات على الافلام تصويراً خاصاً لاذاعتها بالراديو المصوّر ، امكن نقلها من المحطات المركزية جميعها في آن واحد بلا نفقة فادحة وقد يكون الفيلم في الحقيقة نافعاً للاذاعة المصورة كنفع جهاز البلاتنرفون[1] للاذاعة العادية . وقد شرع الخبراء في تجربة نقل اشارات الاذاعة المصورة الى ابعاد اكثر مما بلغتها حتى الآن ، فظهر لهم ان تلك الموصلات الجوية اللاسلكية تتأثر بالارتفاع كل التأثر . فأقام المهندسون الالمان في سيارة نقل جهازاً طوافاً لنقل الاذاعة المصورة ليجول في منطقة واسعة ابتغاء الحصول على نتائج افضل مما حصلوا عليها من قبل . والمرجو انهم بالتوقل في جبل ارتفاعه ١٤٠٠٠ قدم سيتمكنون من ارسال اشارات جيدة تقطع اكثر من مائة ميل . اما بلاد انكلترا فغير صالحة لعمل كهذا اذ لا تزال تحتوي هضاباً صغيرة بجوار المراكز الكبرى الحافلة بالسكان . ولذلك سيضطرون الى انشاء محطات صغيرة مفرقة لتستعمل بضع سنين . وثمة بعض الشك بأن الصعوبة الناشئة عن البعد ستذلل اخيراً فتتبوأ وقتئذٍ الاذاعة اللاسلكية المصورة الدولية مكانها وتصبح ضرورة من ضرورات الحياة اليومية

[نقلا عن كتاب الاستاذ لو العالم الانكليزي ومجلتي « العلم العام » و « الميكانيكا العامة »]

---

(١) وقد وصفناه في باب الاخبار العلمية بمقتطف نوفمبر سنة ١٩٣٧

حديقة المقتطف

السراب

للشاعر باسل دورفيلي

نقلها خليل هنداوي

الادب العالمي

على هامش خمسة كتب جديدة

لكامل محمود حبيب

السراب

للشاعر باربي دورفيلى

آه ! العيون المعبودة ليست بالعيون التي يرى اصحابها

انهم كانوا يحبونها وتضوى ابدانهم من اجلها !

والاحلام — اكثر الاحلام نشوة ليست بالاحلام التي يبدعها

كائنان تراميا قلباً على قلب وباتا ذراعاً على ذراع !

والسعادة — بل اكثر السعادة غلاء على أنفسنا الظمأى —

ليست بالسعادة التي يبكى عليها بعد زوالها !

بل الحب الجميل الذي كان في الحياة ،

لم يخرج ابداً من القلب . . .

انهُ هنالك ! يحيا ابداً ، ويبقى سرمدا .

لا تؤثر فيهِ السنون ، ولا ينال منه الزمان شيئاً

يظنون انهُ قد توارى وضاع وهلك في ثنايا المقادير ،

ولا يخالون البائد الا إيَّاه.

ولقد يحيون بعده عشر مرات .

الفتوة قد تدحرجت مفجَّرة ملتهبة .

والزمان يجر بيده الكهولة التي تطوينا احشاؤها ، وتلفنا أطواؤها .

ولكن هذه الاحشاء القوية التي يظن انها سليمة من الجراح ،
لهم فيها جرح يحسونهُ !
انهُ جرح لم يندمل ، ولكنهُ لا يسيل دما .
هذا ليس بشيء !
انهُ كشي الورود الاولى التي سحقت في الربيع على القلب عندما يتبرعم .
ما أكثر ما هنالك من أشياء عبرت على هذا القلب .
ولكن هذا (اللاشيء) الباقي هو كل شيء .

ليس أحد يتكلم عنه أبداً ،
وليس أحد ، هنالك — يشعر بأن تحت اطواء القلب تتوارى
عاطفة لا اسم لها ، ولا يستطيع أحد انتزاعها .
ليس هذا الشيء هو الحب الذي فسّر على ذراع المحبوب ،
ثم أخذ يُمقَت قليلاً قليلاً .
ليس هذا الحب ،

انهُ ليس إلاَّ حلماً ، ولكنهُ حلم أجمل من الحب .
تحت كل هذا الحب الذي يترك الحياة زاهية .
وتحت كل السعادة التي تستطيع ان تسكرها
تجد دائماً هذا الجنون الذي لا يجد لهُ القلب قريناً
وانا تحملنا — في كل مكان — أثر هذه المملكة الغريبة من هذا الحلم القوي المبهم المنتصر .
والى ذراعيك — يا حبيبتي — يمشي هذا الحلم الجميل ويرسو على قلبي !

انكِ لا تدركين ما يعرو قلبي ويغمر نفسي .

انكِ تطوقين جبيني بذراعك ، وبالذراع الأخرى التي تسكب في نفسي لهيبها وتبحث عن هذا القلب ، حيث أنتِ لا تكونين .

تفتشين عنهُ لتنظري نفسك فيهِ أيتها الغادة التائهة !

وتقولين « انك صامت يا حبيبي فماذا عراك ؟ »

لا شيء عراني يا معبودتي ، ولكني رحت أنظر الى ذلك (اللاشيء)

إن هذا اللاشيء ينتصب في فكري !
انهُ ليس إلاَّ خيالاً ، أو وجهاً وهميًّا .
ولكن بين جميع ذكريات أنفسنا العتيقة
تظل الذكرى البعيدة هي الاقوى .

ومن خلال القلب المشتعل الذي يأكل بعضهُ بعضاً
نرى الغابر المتدحرج هو الاكثر لمعاناً لعيوننا .
والنهار الأصفى والاتقى جمالاً ما هو الاَّ طيف
فجرٍ عاد يطوف في السموات .

وانتِ انتِ كنت طيف فجر لا يخبو شعاعهُ عندي أبدا .
ولكنكِ — يا نور عيني — يا من رحت اعبدها ،
لم تمحي ابداً هذا (الغير) الذي رحت أُحبه .
ان نجمة محلقة على البحار التي لا تُحد، تنعكس على امواجها وتضحك من تلاطمها.

ألا ! كم نفتقر نحن الى نساء تمتلكهن ، لكي يستطعن ان يساوينَ تلك التي لا نملك عليها . . . .

[نقلها خليل هنداوي]

الادب العالمي

على هامش خمسة كتب جديدة

— ١ —

البطل

ان البطل رجل خرافي عاش في خيال الناس زماناً يحيكون حوله الاقاصيص والاساطير ليكون إلهاً لا تسمو اليه الانسانية الضعيفة ، او بشراً قضى عمره في بشرية خارقة هي فوق طاقة البشر . هكذا قال اللورد راجلان في نظريته الحديثة التي طلع علينا بها منذ حين في كتابه (البطل) . ولعلّ في نظرية اللورد راجلان ما يفزع عباقرة الكتّاب والشعراء والمؤلفين والعلماء ، وما يهيج في صدورهم الاحقاد والضغائن ، فهو قد نفى النبوغ والشذوذ والتفوق في وقت معاً ، وركب متن الشطط فراح ينقض حوادث التاريخ من بعد قوةٍ أنكاثاً « إن روبين هود الذي عاش عند سنة ١٢٠٠ لم نعثر لهُ على وثيقة واحدة تثبت وجوده » وقال « إن كيث مارلو انطلق يحدّث عن هيلانة زوج منيلاوس وعشيقة فاريس ، والتي ارسلت الحرب شعواء طاحنة بين قوم زوجها وعشيرة خليلها بعد ان فزعت عن دار الاول لتستقر في أحضان الثاني . . . قال :

افكانت هذه الطلعة الفتانة هي التي قذفت بآلاف من السفن الى قاع البحر
وأججتِ النار في أبراج إليون
يا هيلانة الجميلة ، هبي لي الخلود بقبلة واحدة

ولكن شيئاً من ذلك لم يكن » . ثم اندفع يهدّم حوادث فريام (ملك الطروادين) وزعم ان حروب طروادة أساطير لم تكن في الوجود بل هي قصص كان يتغنى بها القسيسون والرهبان في محاريبهم ومعابدهم ضُمّت اشتاتها بعض الى بعض لتكون ملحمة عظمى ، هيلانة منها براء ، وهي المرأة الشريفة الطاهرة التي ترعى حق زوجها وحق دارها معاً ، وأخذ يضرب على هذا الوتر طويلاً لا فرق عنده بين سندريلا وموسى او يوسف

وفي الحق لا بد ان نطمئن الى هذا الرأي قليلاً قليلاً فهو منطقي الى حد ،

وهو قد كشف لنا عن أساطير وأكاذيب فيها التلفيق والحشو« إن الملك آرثر — مثلاً — واخيل وروميلوس وريمس . . . اناس عاشوا على الارض زماناً ودوّت اسماؤهم في ارجاء الدنيا ، غير ان الالسن قد تناقلت عنهم أقاصيص هي من وحي الخيال فحسب ، لايرضاها العقل ولا يستسيغها الفكر ، وحسبنا أن نرى في أقاصيص الاقتصاد بطلاً هو هو ... كلفن كوليدج

غير أنهُ يتراءى لي أن اللورد راجلان أرخى لخياله العنان قليلاً في كثير مما جاء في كتابه

ولقد وضع نصب عينيه ثلاث قواعد : ان يكون البطل رجلاً عاديًّا عاش عمره على الارض ثم حيكت حوله الاساطير الخرافية لتسمو به ، أو أن يكون بلغ مكاناً رفيعاً فذهب صيتهُ في الناس ، أو أن يكون خرافة ولدت في خيالٍ خصب فحسب

فلماذا ، إذن ، لا يقول اللورد بان العبقري رجل ضم في حياته ناحيتين فجمع بين الحقيقة والخيال ، وألف بين الواقع والخرافة ، ثم حالت قصة حياته الى شيء من التقدير الذي يقرب من العبادة ؟

— ٢ —

ديبوسي ، الرأس المفكر :

لقد قضى كلود أشيل ديبوسي ايام شبابه في باريس عابثاً مرحاً يطير من نديّ فلا يقع — حين يقع — إلاّ في مقهى ، حيث يحتشد الفنانون ، فيجلس هو صامتاً يردد بصره بين النُدل والجالسين في وقت معاً ويحدّق فيهم كانهُ يفتش عن شيء لايجده . وهو دائماً يهفو الى مقهى «فيبر» يجلس الى النافذة فما يحوّل بصره عن الغابة التي على مدّ البصر منه ، أو الى نديّ «شا نوار» —(الهرّ الاسود)— فيسمر مع إحدى رفيقتيه : جاي ديبون الجميلة ذات العينين الخضراوين او الى روزالى تكستير الفتانة ، حتى استطاعت الاخيرة ان تغلبهُ على أمره فتزوج منها ، وانطوى عن الاولى وفي قلبه صبابة من حب

وفي الحق لقدكان الرجل زوجاً وفيًّا لا يعدل بفتاته امرأة أخرى ، وهي أيضاً قد قاسمتهُ حياة الضنك والفاقة في صبر ووفاء

وحين ألّف «أورتهُ » « ڤلياس وميليزاند » التي سمت بهِ الى أوج الشهرة ،

تدافع اليهِ الناس يجذبونهُ من خلوتهِ الحبيبة الى نفسه ، ولكنهُ ارتدَّ اليها رويداً رويداً ثم نزعهُ مرض السرطان الذي أصيب بهِ عن كل رفيق وهو ما يفتأ يحن الى أصدقائه ورفاقهِ يقضي معهم ساعات فيها اللذة والسعادة

ودبَّ الشك في قلب الزوجة الصالحة حين رأت في فلياس صورة جابي صديقة زوجها القديمة. ولعل لها بعض العذر فصاحبنا قد وضع أساس «أوبرتهِ» هذه في حين كانت جابي تجلس اليهِ وتحدّثهُ وتقضي الى جانبهِ بعض عمرها، فنفثت فيهِ من روحها ثم اندفعت الزوجة في نزق وطيش — والغيرة تتسعر في قلبها تريد أن تلتهمهُ — اندفعت تصوِّب الى نفسها فوهة (مسدس). غير أن الرصاصة طاشت عن الهدف ...

وتزوَّج ديبوسي من إما باردالك فرماه الناس بالطمع لانها كانت ذات ثراء ومال ولكن الرجل كان في منأى عن كل ذلك، فهو قانع تبدو قناعتهُ في حياتهِ ودارهِ وفنّـهِ في وقت معاً

ولقد انقضَّ عليهِ (واجنر) يذيقهُ من لاذع القول وقارس الكلام يريد ان يوهي ما اشتدَّ من قوتهِ ، وهو صامت لا يردعن نفسهِ ، ولا يدفع قولاً بقول . . . ولكنهُ استشعر قوة أخرى عاصفة تكاد تهب فتجتاحهُ ، تلك هي قوة (باريت) الجبار ، فانبرى لخصمهِ يهجوهُ ويسفهُ ذوقه بكلمات قاسية حزّت في نفس واجنر

واغتمر ديبوسي في الادب الرمزي والموسيقا التأثرية ، وهما بعض سمات عصره ، فعملا في أسلوبهِ وفنهِ

ومع انهُ نزع عن التقليد وعن النظريات الموقوفة في الفن ، فلقد بلغ هامة المجد الموسيقي ، لانهُ جعل همه ان ينفذ الى صميم الشعور الانساني في بساطة وسهولة تفرّد هو بهما ، ثم استطاع ان يغالب كل الاهواء والاضطرابات التي جرفت كثيراً ممن بلغوا أوج الشهرة في زمانهِ مثل واجنر وفيبر وبيتهوفن نفسه فتألق نجمه ساطعاً خلاباً بينهم . وكان رقيق النفس ، مشبوب العاطفة ، عبقري الشعور « لو استطاع انسان ان يسمع صوت النبتة وهي تنمو ، لوجدها — بعد حين — لحناً يترنم بهِ ديبوسي » وكان ينظر الى الطبيعة نظرات فيها الفلسفة والعقل معاً « لم تكن الطبيعة في عيني ديبوسي ملهى يموج بالمثلين فما يهدأ ولا يستقر ، ولكنها كانت وعاء الحياة تشع في جنباته روح الانسان ، وتضطرب في أرجائهِ كل عناصر الحياة ، فليست الدنيا طريقاً موحشاً يجتاز الانسان ما بين طرفيهِ على مضض ،

ليبلغ الغاية فيسلم الروح ، بل هي شيء مقدس لا بدَّ ان يعبده الناس لان فيهِ نغم لحن موسيقي أخاذ . . . وأراد ان ينفث في حياتهِ معاني الموسيقا الحبيبة الى نفسهِ، فنأى بعقلهِ عن آلامهِ فهي لا تملك عليهِ السبيل ولا تزعزع من عزيمتهِ الجيَّاشة ، ونأى بقلبهِ عن أفراحهِ فهي لا تسيطر عليهِ فتسلبهُ رزانته وهدوءه ، ثم اطمأنَّ الى حياتهِ وفيها الرضا والطمأنينة . . . وأغرم بالبلاغة والبيان شأنهُ في ذلك شأن أترابه من الادباء الرمزيين . . . وشرب الخمر بقدَر فما رؤي في سني عمرهِ مرة واحدة ممتلئ العقل يضطرب في مشيتهِ ، أو ذاهلاً يترنح ويهذي بما لا يعي . . . ولشدَّ ما أساءت اليهِ الخلوة فكان يشعر كأن شيئاً يحبس نفسه فيتململ في سكون . . . »

هكذا كان ديبوسي كاتباً ومؤلفاً وناقداً وموسيقيَّـاً ، افتنَّ في كل ذلك ليخلِّف من ورائهِ صفحة طيبة الذكر من صفحات تاريخ العباقرة على الارض

— ٣ —

من أدب المرأة الالمانية :

تتحدَّث المرأة عن نفسها وآلامها فتبدي عن شيء وتخفي شيئاً حياءً منها وكبرياء . ثم هي تخلو الى القرطاس فتطرح عنها ثوب الكبرياء والخجل ، وتفتح أمامه مغاليق قلبها ليرى فيها أشياء غُمِّيَت على الناس ، وبين جنبيها قلب يحمل في اضعافه أنداء من العاطفة النبيلة حيناً وأعاصير من روح الشر العاصفة أحياناً . . . ثم هي تجد في قلبها نسمات الهوى فتنسى كل شيء إلاَّ الرجل الذي أحبت أنانية منها وطيشاً ، والمرأة هي هي في كل حين وفي كل وطن

وأسلوب المرأة رقيق طلي يأخذ بالالباب كأنهُ رنَّات صوتها العذب ، وقلبها معلق دائماً بالامل الحلو . . . الدار والرجل والولد ، تلك أمنية لا تستطيع ان تنزع عنها وان هي فعلت فلا تلبث ان تتردَّى فيها من ناحية أخرى

جريت جولبرانس وفريدة اشترندبرج واليصابات شخت ، ثلاث ممن كتبنَ في القصص الالماني فأبدعنَ وصفاً واتقاناً ، والمرأة — دائماً — تسبح في آفاق من الخيال منفسحة الارجاء ، فتجيد الوصف والتصوير . هكذا كانت السيدة جريت في قصتها الاخيرة « ظلال محبوبة » "Geliebte Schatten" فهي تصف في روعة ومهارة حياة أسرة عاشت تتقلب بين ربوع سويسرا وجبال المانيا الجنوبية

وإذا كانت جريت قد نشرت أمامنا صورة من خيالها الراقي الجميل ففريدة

تجذبنا الى عصور كان الناس فيها يهيمون بالعبقرية ويرفعونها الى سماء التقديس. في أواخر القرن التاسع عشر كان أمل كل فتاة مهذبة ان تلقي بنفسها بين احضان رجل تهبهُ جسمها وروحها ثم تقاسمهُ متاعب حياته واعباءه. ولقد سيطرت هذه الخاطرة على عقل الفتاة (فريدة) فوقعت في حبالة كاتب كبير يكبرها بسنوات وسنوات هو أوغست أشترندبرج وقعت في حبالتهِ حين اسرتها عبقريته وظرفه فتزوجت منهُ، غير ان حياتهما الزوجية لم تدم طويلاً فافترقا. وبعد سنوات راحت هي تصور حياة الكاتب الكبير من الناحية النسائية — وهي ما تزال تهفو نحوه — ، ولعلَّ الغيرة التي تأججت بين ضلوعها — حين رأتهُ قد تزوج من غيرها — هي التي دفعتها الى ان تحلل خواطر الرجل الذي عاشت الى جانبهِ عمراً من عمرها ، بعد اذ أحست ببعض شقاوتهِ في داره الجديدة ، فأخرجت للناس قطعة من الادب العالمي هي درة في جبين تاريخ الادب العالمي

وكتبت اليصابات شخت قصتها « يونكا » تقص حادثاً فيهِ السلوة والمتعة ، فهي تصف لنا فتاة جمعت بين الجمال الاوربي الجذّاب وبين سمرة البشرة الشرقية الفتّانة هي « يونكا » نفسها ، كانت أمها أميركية وأبوها أوربيًّا فاختار هو لها هذا الاسم يعني بهِ الفريدة ، وفي الحق لقد كانت فريدة في كل شيء ، في خلقها العالي النبيل ، وفي عاطفتها الشريفة المضطرمة ، وفي نفسها الرقراقة الصافية ، وفي عقلها الحصيف الناضج ، وفي جمالها الآسر الخلاَّب . . . تزوجت « يونكا » من ضابط الماني فتفتح الزواج عن طفلة جميلة هي ليلى بعث بها ابوها الى بلاده لتتلقى علومها هناك ، وبعد حين فجعت المرأة في زوجها ، على حين كانت قد تعلقت رجلاً من وطنها أميركا .. . واصطرعت الخواطر في رأس المرأة ، أفتترك وحيدتها هناك تذوق مرارة الوحدة والغربة معاً ، أم هي تسرع اليها فتخلف قلبها عند الرجل الذي أحبت ، أم هي تدعو صاحبها ليرافقها الى هناك ؟ وأنى للرجل أن يفعل وهو زوج ، وامرأتهُ على فراش المرض ما تستطيع ان تبرح ؟ وجاءت ساعة الوداع لتنطلق الام الى ابنتها ويظل الرجل العاشق الى جانب زوجته المسكينة . . . وفي هذا الكتاب وصف رائع لاقطار كثيرة هي من معجزات الادب ولاسيا وصف يونكا لبلادها

ثلاث قصص تكتبها المرأة فلا تستطيع ان تخفي بعض ما يضطرب في قلبها وهو يتحرّق شوقاً الى ان تصبح هي ربة دار وزوجة وامًّا ... كامل محمود حبيب

سير الزمان

الخلق القومي

في المانيا وفرنسا وانكلترا

مشكلة العالم

الاقتصادية وعلاجها بحسب تقرير فان زيلند

الخلق القومي

في المانيا وفرنسا وانكلترا

ان السياسيّ الذي يقيم للمواد الخام وزناً في تقديره السياسي أكثر مما يقيم لفلسفة الشعب، او يعتقد ان الارقام افعل اثراً في توجيه التاريخ من الشعور، لا بدّ ان تأخذهُ الدهشة عندما يشاهد بأُمّ عينيه، ما لم يكن يتوقعهُ من تحوّل او انقلاب في اخلاق امةٍ من الامم، والفلاسفة وحدهم يستطيعون ان يستشفّوا تطوُّر الاحوال الانسانية بدقةٍ، وهذا حكم يصدق على افلاطون وفيقرون ونيتشه صدقهُ على الفلاسفة المحدثين. ولو ان الالمان عنوا قبل الحرب الكبرى، بفهم الخلق الانجلو سكسوني، اكثر من عنايتهم بانباء الجواسيس وارقام المدافع، لما اقدموا على الحرب، واذا عني الانكليز والاميركيون الآن بدراسة الخلق الالماني فقد يكون في وسعهم ان يحولوا دون حربٍ أخرى تتجمع نذرها في الافق الدولي

ان الفرق الحاسم بين تاريخ المانيا النفسي وتاريخ الشعوب الاخرى، هو التعارض في المانيا بين العقل والدولة. ففي العصور الزاهية في فرنسا وانكلترا نرى ازدهار الثقافة مقترناً باستفحال القوة المادية في الامتين. اما المانيا فقد كان عقلها يزدهر وثقافتها تشرق في العصور التي تنتابها فيها يد التمزيق والضعف. فاذا اتحدت على العدوّ وانبسط فوقها ظل القوة ضعف فيها الوزن الذي يقام للاعتبارات الروحية العالية. وفي وسع الباحث ان يتتبع هذه الظاهرة من عهد ارسموس المصلح الديني الى بلانك العلامة الطبيعي. بل ان جوته وهو اعظم حدث في تاريخ المانيا، نشأ في عصر كانت فيه المانيا ممزقة في الداخل مقهورة في الخارج. اما كوكبة الموسيقى من باخ الى شوبرت فارتفعت فوق ضعف الامة وتخاذلها كما تحلّق الطيارة فوق اطباق الضباب الكثيف

ان الرجال الذين اذاعوا ذكر المانيا في الخافقين، رجال الفن والاختراع والتفكير والشعر، نشأوا وعاشوا في اظلم عصورها بل وفي ولاياتها الصغيرة الضعيفة بالقياس الى بروسيا. بل ان بروسيا لم تنجب خلال التاريخ الالماني من القرون الوسطى الى عصرنا الحاضر موسيقياً واحداً ولا شاعراً واحداً في الطبقة الاول بين الشعراء والموسيقيين

وليس بين رجال الفكر والقلم في المانيا من ادرك هذه الحقيقة كما ادركها جوته أو كان أشدَّ منهُ نقداً لها. ولذلك روي عنهُ انهُ ذكر وهو شيخ ان المعلمين الثلاثة الذين يدين لهم بكل شيء كانوا شكسبير الانكليزي ولينيوس السويدي وسبينوزا اليهودي. وقد عاش طوال حياته وهو يحسُّ ان الالمان «عظامٌ أفراداً ضعافٌ أمةً». ثم ان بطل جوته كان عدوّ وطنه — نبوليون — وأما نيتشه فقد حمل على بسمارك لانهُ جعل المانيا قوية

هذا الفصل بين الدولة والعقل في تاريخ المانيا ، ناشيءٌ عن فقد روح الحرية الحقيقية. الاَّ ان المانيا لم تكن الدولة الوحيدة التي قامت فيها طبقة عسكرية أخذت بيدها مقاليد الحكم لا ينازعها فيها منازع . ولكن الشعب قام في البلدان الاخرى على الطبقة العسكرية فأنزلها من رفيع عليائها . أما المانيا فقد ظلَّت ثلاثة قرون متوالية ، والحاكم الحقيقي فيها طبقة الضباط (اليونكرز) وعليهم كان اعتماد الملك والامراء في الحماية وفي قمع كل ثورة . ولم يقم من صفوف الشعب من يثور على هذه الحالة. والمانيا هي البلاد الوحيدة في اوربا التي لم تقع فيها ثورة . فحرب الفلاحين قاومها لوثر مع انهُ أوحى بها ، وثورة سنة ١٨٤٨ انقضت قبل ان تترك أثراً باقياً ، أما في سنة ١٩١٨ فلم يكن هناك ثورة على رغم التحوُّل من ملكية تكاد تكون مطلقة الى جمهورية . وكل ما حدث في سنة ١٩١٨ ان طائفة من الامراء فرُّوا من البلاد ، تاركينها في أيدي فريق من أقطاب الاحزاب ، ليس لهم من المرانة والقدرة ما يمكنهم من تسيير مقدَّراتها . وهذا يفسّر لك تلك الظاهرة الغريبة في تاريخ المانيا الحديث ، وهي ان ملكاً او أميراً من بيوتها المالكة لم يخلعهُ الشعب . وقد تبينت ذلك بنفسي بعيد الحرب اذ زرت معظم الولايات الالمانية فكان أفراد الشعب يباهون بأنهم آخر من أشار على أمرائهم بالنزول عن عروشهم

ثم ان الشعب الالماني ، فلما كان برِماً بأنهُ لم يمنح الحقوق التي تتمتع بها الشعوب الاخرى . بل كان مكتفياً راضياً بأن يترك مقاليد الحكومة والجيش لطبقة الضباط ، فطغوا وبغوا وكانت النتيجة ان الحرية أخذت تختنق حالة ان التجارة أخذت في الاتساع. ومن غريب ما أرويهِ في هذا الصدد انني كنت أحدث أحد دهاة « اليونكرز » قبل الحرب فقال لي « سأخلف مالي وأرضي لاذكى أبنائي وأما من يليهِ فلينتظم في الجيش والثالث في وزارة الخارجية » . اما الرجل من الطبقة المتوسطة فكان يعقد أملهُ على نجاح ابنهِ في تجارتهِ او صناعتهِ او فنهِ . وكذلك ترى ان معظم اصحاب العقول الثاقبة والارواح النيرة في الامة الالمانية مستمدَّة من الطبقة الوسطى . وأما القواد والوزراء فيكادون ينحصرون في الطبقة الارستقراطية . ولا يسعنا ان نقول أن مجد المانيا الحقيقي قام على ممثلي الطبقة الارستقراطية ، يستثنى من ذلك بسمرك السياسي وكلايست الشاعر

هذا الفصل بين العقل والدولة في كل العصور كان الباعث على رسم صورة مزدوجة لالمانيا تنشيء اضطراباً وغموضاً في ذهن من يحاول ان يفهمها . فالمتتبع للتاريخ الالماني، المعجب بمجدها الفني والفكري كثيراً ما يسأل : ما السرُّ في أن البلاد التي أنجبت جوتة وبيتوفن ، ترتدُّ في الحين بعض الحين ، او بالحري تنحطُّ في الحين بعد الحين ، الى مستوى هو دون المستوى العالي الذي بلغتهُ في الثقافة والحضارة ؟ إن السر في ذلك ان الرجل — رجل الشارع كما يصفونهُ — يميل على طول الزمن الى تقليد الرجال الذي يمثلون القوة والسلطان في قومهِ . فاذا رأى الطلاَّب ان المالي الكبير او الاستاذ العظيم ، لا يدخل ذلك المجتمع الزاهر الاَّ من باب الرتب العسكرية

والملابس الرسمية الفخمة ، فلا تعجب اذا رأيتهم يقلدون الجنود في مظهرهم وان يعمدوا الى اثخان وجوههم بالجراح في مبارزات يقيمونها لاوهى الاسباب . ومن كان وجههُ اكثر ندوباً كان أعلى من زميلهِ مقاماً . ان الملابس العسكرية والمبارزات الدامية استعادت مكانتها في المانيا الحاضرة ، وغدا الضابط كما كان بطل كلّ فتاة

وكانت نتيجة هذا التنظيم العسكري الدقيق ، فوضى الروح . ذلك ان صورة الدولة كما كانت طبقة الضباط تتخيلها ، جاءت بعيدة البعد كلهُ عن مثُل العقل وأهدافهِ العليا . فالطاعة والنظام لا بدَّ منهما في دولة من هذا القبيل ، ولذلك رفعا الى المقام الاول بين الفضائل . والالمان هم الامة الوحيدة على الارض التي تطيع عن شعور لا عن ضرورة . وكذلك انكمشت «مشيئة الحرية» فلم تجد لها ميداناً الاَّ في ساحة العقل ، فتولَّدت منها «نزعة الفردية» التي أشار اليها جوتة وترسخت

هنا نقبل على أهم الفروق بين الخلق الشعبي الالماني والخلق الشعبي الفرنسي . ذلك ان «الطاعة» تسود الحياة السياسية والاجتماعية في المانيا ، يقابلها نزعة قوية أساسها مقاومة القواعد الجامدة في حياة العقل . أما في فرنسا فالامر على نقيض ذلك . فالكاتب الفرنسي اذا استعمل صيغة من الصيغ التي ليست في القاموس الانسكلوبيذي اتهم بانتهاك احد القوانين . ولكن اذا علّق في الشارع اعلان يأمر الناس في باريس ان يمشوا الى يمين الشارع مشوا الى اليسار

إن أكبر خطرٍ يتعرَّض له سياسيٌّ الماني ، اشتهارهُ بانهُ عالم بحاثة في موضوع ما . ولو ان وزيراً المانيًّا ألف كتاباً عن هوميروس كما فعل غلادستون ، لكان موضوع سخرية . ثم ان فريقاً غير يسيرٍ من وزراءِ انكلترا الف روايات . اما في فرنسا فقلما تجد وزيراً لم يؤلف . ولكن ماذا تجد في المانيا — انها تهزأ براتينو لانهُ ألف ونشر خمسة مجلدات او ستة . وقد ظل البرنس بولوف يخفي عن قومه عشر سنوات انهُ من المتعمقين في دراسة فوست وفهمها . فالالماني يحكم بالسيف لا بالقلم

وهذا من اسرار الخلاف الدائم بين الجارتين الكبيرتين المانيا وفرنسا ، وهو لا يمكن ان يفهم على صحته الاَّ اذا درس الخلق القومي في الامتين . الواحدة تملك ما يعوز الاخرى . وما يضعف الاولى يعزز من قوة جارتها . هنا على جانبي خط واحد ، امة دقيقة النظام جامدته تقابلها اخرى قليلة النظام وقلما تعبأ بهِ اذا زاد عن حد معين . الواحدة متصفة بنزعة الى الصوفية . والثانية باجلال للمنطق . احداهما تبغي التوسع والثانية لا تريد سوى الدفاع

ان الالمان يستريبون كياسة الفرنسيين . والفرنسيون لا يأمنون توفُّر الالمان . فالرجل الفرنسي يريد ان يترك وشأنهُ ، بل يؤثر ألاَّ يعلق اسمهُ على باب دارهِ . اما في المانيا فثمة رجال مهمتهم ان ينظموا كل ناحية من نواحي الحياة حتى ناحية الملاهي . السلطات الحكومية في فرنسا على جانب عظيم من اللطف والظرف . ولكن بعض الخطابات تضلُّ طريقها . اما في المانيا فتصلك خطاباتك

في مواعيدها ولكن أولي الشأن يدمدمون في وجهك . كل انسان في فرنسا حتى رئيس الدولة «موسيو» . اما في المانيا فكل جزار وخباز يحب ان يكون ذا لقب . الفرنسي يحب هرَّهُ لانهُ يحتفظ بعزلته ويأبى كسيدهِ ان يتلقى الاوامر من احدٍ . وأما الالماني فيحب كلبهُ البوليسي الذي يقف كسيدهِ طائعاً منتظراً الاوامر للانقضاض على العدوّ . ان الخضوع محتقر في فرنسا مبجَّل في المانيا . وهذان الرجلان — هاتان الأمتان — مقضيٌّ عليهما ان يعيشا جنباً الى جنب...

واذا قابلنا بين الخلق القومي الالماني والخلق القومي الانكليزي ، تبيَّنا وجوهاً من الشبه في سجيتي الكفاءة في الاعمال وحب المغامرة في سبيلها . الاَّ اننا نجد فطرة اللعب ونزعة التهكم عنصراً اساسيًّا في الخلق الانكليزي وكلتاهما بعيدة عن الخلق الالماني . ان الانكليزي يغلب عليهِ حسٌّ التهزل ، والالماني حسٌّ المأساة بل و «حب الموت» على قول كلنصو . انهُ غير متصف بذلك التجرُّد الذي يحسب أساساً لفطرة اللعب السليمة . فهو لا يرغب في الظفر فقط بل ويحتقر الخاسر . وقد قيل أن الجنود الانكليز الاول الذين وقعوا في أسر الالمان في الحرب الكبرى حاولوا ان يصافحوا آسريهم فلم يمدّ المانيٌّ واحدٌ يدهُ اليهم

لقد عاشت المانيا وكأنها في ظل حكم دكتاتوري مطلق — اذا استثنينا عهد الجمهورية — مدى ثلاثة قرون وفي هذه الفترة لم يكن في وسع السلطة الحاكمة ان تتساهل في شأن التصوير الهزلي (الكاريكاتور) اذ ليس في المانيا شيء اسمهُ الجمع بين الولاء للحكام والهزل منهم . والهزل لا يمكن ان يكون بغير شعور الحرية ، والحرية لا تؤخذ الاَّ بالكفاح في سبيلها . ان الالماني يتصور الدولة هرماً ، ومطمحهُ الاعلى ان يكون اقرب ما يكون الى قمتهِ . اما كيف يتناول زعيم المعارضة في انكلترا مرتباً من الخزينة العامة فيحيِّرهُ . عدد القوانين المسطورة في انكلترا على أقلهِ وفي المانيا على أكثرهِ . والقاعدة في انكلترا أن كل مالم يمنع مباح . أما القاعدة في المانيا فان كل ما لم يُبَح ممنوع . واذكر انني عندما رأيت ركاب القطار في انكلترا يأخذون امتعتهم من عربة الامتعة بلا وصل أو وثيقة ، وأن الاعتماد في ذلك على « الكلمة » والثقة ظننت انني في جمهورية أفلاطون . على انني تبينت بعد ذلك بعض الفروق بين انكلترا والجمهورية الافلاطونية

ويجب ان نضيف الى فقد روح الحرية وشهوة الطاعة او الخضوع ، صفة ثالثة اساسية في الخلق الالماني ، وهي حب الالمان للموسيقى . ان فهمهم لا يمكن ان يكون كاملاً الاَّ اذا فهمنا أثر هذا الحب في نفوسهم . فالموسيقى هي الواحة الظليلة التي يلجأون اليها من متاعب التنظيم الدقيق . وكذلك لجأ الالمان الى موسيقى بيتوفن بعد خذلانهم في الحرب العالمية ، فعزفت موسيقاه في المانيا في السنوات التالية لعقد الصلح اكثر من اي عهد سابق

وليس من مجرَّد الاتفاق أن شعبين يكادان يكونان ابناء خؤولة وعمومة — كالانكليز

والالمان — يختلفان في موقفهما من الموسيقى هذا الاختلاف . فالانكليز شعبٌ سياسيٌّ . والسياسة قائمة على النزعة العملية . وهو اذن ليس بالشعب الموسيقي ، لان حب الموسيقى الاصيل المتأصل ينبع من نزعة صوفية . ولذلك فالشعب الالماني ، ليس شعباً سياسيًّا او بالحري أن الناحية السياسية من حياته تغلب عليها نزعة صوفية تجعلها خطراً دوليًّا ، وتقض مضاجع الحكومات ولا سيما وقد اضفيت الآن سمة الصوفية على «القوة» لا على الدولة فحسب فأصبحت بمنزلة العقيدة الربانية

منذ ما انشأ بسمارك الريخ الاول ، خشي اعظم المفكرين الالمان ، وعلى رأسهم نيتشه تأثير الانتصارات العسكرية في نفس الامة . وقد قال لي راتينو وهو من خير من اسدى خدمة لالمانيا خلال الحرب ، «اذا انتصرنا فسأذهب الى سويسرا وأعيش فيها » ذلك انه كان يخشى طغيان الطبقة العسكرية وقد واتاها النصر . هذه الطبقة العسكرية هي الحاكمة بأمرها في المانيا الآن وسيبهُ ان تدريب الشعب على الحرية ، وغرس اصولها في نفسهِ ، في حاجة الى نظام اقوى وارسخ من جمهورية فيمار

والعالم يواجه المانيا اليوم ، وهي على عهده بها سنة ١٩١٤ مستعدة للقتال والموت ، خاضعة للنظام ، آخذة بطاعة حكامها ، شاكية السلاح . ولكنها كانت سنة ١٩١٤ غنية واسعة التجارة جاهدة العمل مبدعة مبتكرة . يقابل ذلك انها تحسُّ اليوم بقوتها ولكنها تحسُّ كذلك بان العالم غبنها ، وانها خلقت للحكم ولكن النصر انتزع منها خدعة وميناً . فهي واقفة اليوم في دروعها تطلب الثأر . والخطر الصادر من المانيا في حالتها الحاضرة ليس سببهُ الرغبة في الحرب لصون الكيان بل الرغبة في الحرب لاسترداد ما تحسبهُ شرفاً مضاعاً

ان الالمان في قرارة نفوسهم لا يبغون المواد الخام والمستعمرات وحقول اوقرانيا . انهم يسعون وراء شيء ينزل في طبقة المثل العالية . انهم لا يبغون الحرب ليحفروا آباراً من الزيت خاصة بهم ، ولا ليزرعوا القطن الذي يحتاجون اليهِ في حقولهم . انهم يريدون الحرب للنصر نفسهِ . انهم يريدونها ليثأروا لانفسهم من الجناية التي اقترفت ضدهم عند ما انتزع منهم النصر خدعةً وغصنةً ملتو في ايديهم ثم توّجت هذه الجناية بذلك الخزي ، خزي منعهم عن التسلّح !

لا يقنعهم اعجاب العالم بأنهم ثبتوا في وجه العالم اربع سنوات ، ولا باعجاب العالم بالعلم الالماني والاختراع الالماني والسفن والطيارات الالمانية وبما انجبتهُ الامة الالمانية من مؤلفين وفلاسفة وشعراء وموسيقيين وكيمياويين وأحيائيين . ان ذلك ليس مجداً كما تفهمهُ الامة العسكرية . اما المجد في نظرها فيعني النصر بقوة السلاح . وكل من يشعر انهُ غبن يبالغ في مطالبهِ . وخطر الحرب تتجمع نذرهُ في الجوّ ، اذ ليس هناك ما يرضي المانيا إن نالته بالمفاوضة لا بالقوة والفتح . اعطهم تنجنيقا غداً فيطالبوا بعد غدٍ بجميع المستعمرات . اعطهم دانستج فيطالبوا في الحال بالمجاز البولندي . انهم يشعرون

انهم ضحايا بريئة لدسائس العالم. ولكنهم يحسون في الوقت نفسه انهم على جانب من القوة لاخذ الثأر
واذا كان الالمان يطلبون النصر فذلك النصر يجب ان يتحقق في باريس . اذ من فرض عليهم عار فرساي ؟ وقلما تجد من يفكر في ان الفرنسيين — لولا تدخل ولسن — كانوا ينوون ضم الضفة الشرقية من نهر الرين وان الالمان كانوا عازمين على استبقاء جميع البلاد التي فتحوها . على ان الشروط الباهظة التي فرضها الالمان على رومانيا وروسيا لا تسوّغ في نظرهم ما ارتكب في معاهدة فرساي من الاخطاء . ذلك ان المشهد الذي تمَّ في بهو المرايا في قصر فرساي عند توقيع معاهدة فرساي مطبوع في ذهن كل طفل الماني . وقد ولَّد فيهم شعوراً بالصغار لا بدَّ من التخلص من ربقتهِ مهما يكن الثمن

وقد أقمنا نحن دعاة السلام من الالمان ، نكتب ونذيع مدى عشر سنوات ، داعين الى التفاهم الاوربي وتأييد العصبة كما يجب ان تكون ، وجاءت علينا فترة من الزمن بدى لنا فيها بريق أمل في ان يحل الفهم محلَّ الثأر . ولكننا نسينا ان احدى هاتين الامتين أعظم حيوية ، وأضيق أرضاً بشعبها ، وأشد استعداداً للكفاح من جارتها، واذا كان الشعب الفرنسي بعد هزيمتهِ في حرب السبعين يحمل آثار هذه الهزيمة بصبر مدى أربعين سنة ثم تعرَّض ثانية لاعتداءِ المنتصر الاول عليهِ ، فأحرِ بألمانيا وهي المهزومة ان تستعدَّ لاعادة الكرَّة . واذا كنا قد عقدنا الامل يوماً ما على الحيلولة دون هذا ، فاننا كنا على خطإ لان الخلق الالماني يناقضهُ على خطٍّ مستقيم

ومن غريب الامر ، ان الطفل الالماني يتعلَّم في كتبهِ المدرسية ان شتراسبورج كانت المانية وستظلُّ المانية ، حالة ان هتلر يذيع في خطبهِ منكراً انهُ يرغب او يفكر في السعي الى استعادتها . واذ يؤكد لفرنسا ان لا باعث للنزاع بين الامتين ، يباع « كفاحي » في المانيا بعشرات الالوف من النسخ وفيهِ ما فيهِ عن ان فرنسا هي « العدوّ الاصيل » . كان العالم يحسب ان نقض معاهدة من كبائر الامور ، وجاءت عليهِ عشرون سنة منذ نشبت الحرب الكبرى ورواية « قصاصة الورق » من اكبر ما يوجَّه الى المانيا القيصرية من التهم . ولكن المانيا اليوم تقول « ان المعاهدات تظل نافذة ما زالت مؤاتية لمصلحة الدولة » . وقد قيل هذا القول ونشر في الجرائد الرسمية مصبوباً على معاهدات قبلتها المانيا عن رضاً ولم تكره عليها إكراهاً كمعاهدة فرساي . ومع اني كنت مخالفاً للهر بروننغ في الخطة السياسية ، الاَّ ان ذلك لا يمنعني من ان اقول ان بروننغ كان آخر الماني فاوض وعقد معاهدات على أساس من الثقة واحترام التوقيع

هذه الخصائص الاساسية في الخلق القومي الالماني متجمعة بارزة في عهد الحكم الحالي — على رأي اميل لدفج وعن مقالٍ لهُ في الاتلنتكي منثلي لخصنا ما تقدم — فروح المانيا المنبعثة لا يمكن ان تفهم الاَّ بدرس من هذا القبيل

مشكلة العالم الاقتصادية

وعلاجها بحسب تقرير فان زيلند

كان موضوع الحوائل التجارية في مقدمة الموضوعات التي استرعت عناية رجال الحكم والاقتصاد منذ ما وضعت الحرب اوزارها . وقد تنوّعت هذه الحوائل ، حتى كأن نظام الحماية والحواجز الجمركية حينئذٍ لم يكن كافياً فوضع نظام خاص لتقييد الاستيراد في كثير من البلدان فلا يستطيع التاجر ان يستورد بضاعة ما الاّ اذا استصدر رخصة بذلك . وكانت حكومات تلك البلدان في كثير من الاحيان لا تذيع الاحصاءات الرسمية الخاصة بالوارد ولا عدد الرخص التي صدرت لاستيراد اصناف معينة من العروض ، فكان ذلك مانعاً دون الاعتراض على تحكم اصحاب الشأن في التجارة . ثم استغني عن نظام الرخص رويداً رويداً حتى الغي في اتفاق عقد سنة ١٩٢٨ واتفاقات اخرى تلتهُ

ولكن حلّ محلّ نظام الرخص الخاصة بالاستيراد رفع الضرائب الجمركية في معظم بلدان العالم . فلما اجتمع المؤتمر الدولي الاقتصادي في جنيف سنة ١٩٢٧ برآسة المسيو تونيس رئيس وزراء بلجيكا سابقاً ولاحقاً ، اشترك فيهِ فريق من اكبر رجال العمل والاقتصاد في العالم فنظر في موضوع الضرائب الجمركية وأعرب عن رأيهِ في وجوب « وضع حدّ لزيادة الضرائب الجمركية والسعي الى خفضها » . واخذت عصبة الامم بهذه الخطة فقرَّرت في جمعيتها العمومية المجتمعة في خريف سنة ١٩٢٩ الموافقة على اقتراح اقترحتهُ فرنسا وبلجيكا وانكلترا مشتركة ، افضى في سنة ١٩٣٠ الى « مؤتمر الهدنة الجمركية » . ومع ان اعضاء المؤتمر لم يتفقوا على هذه الهدنة الجمركية المرغوب فيها ، عقدوا اتفاقاً تجاريًّا من شأنهِ ان يجعل كل زيادة تحكمية في الضرائب الجمركية عملاً صعباً اومتعذراً لانهم جعلوهُ خاضعاً لشروط معيّنة

الاّ ان هذا الاتفاق لم يبرم وعلى ذلك ظل العمل الدولي المشترك لخفض الضرائب الجمركية حبراً على ورق . الاّ ان طائفة من الدول الصغيرة اقتنعت بالمبدإ فطبقتهُ في دائرتها الخاصة وهي الدول المعروفة بدول « كتلة اوسلو » التي تشمل بلجيكا والدنمارك ولوكسمبورج وهولندة والنرويج والسويد . ثم انضمّت اليها فنلندة . وكذلك اتفقت هذه الدول على ان تطبق مبدأ الاتفاق التجاري في معاملاتها بعضها مع بعض ووضعت لذلك اتفاقاً وقعتهُ في ٢٣ دسمبر سنة ١٩٣٠ وهو مشهور باسم « اتفاق اوسلو »

الاّ ان الازمة الاقتصادية العالمية ، ما لبثت حتى استفحلت ، فعمدت شتّى الدول الى

اساليب مختلفة جديدة لتقييد التجارة وفي مقدمتها نظام الحصص وتقييد التبادل النقدي

والواقع ان نظام الحصص هو نظام الرخص وقد اتخذ شكلاً دقيقاً . ذلك ان القيد لا يفرض على مجمل الوارد من بضاعة ما فقط، بل وعلى ما يستورد منها من كل بلاد. أما تقييد التبادل النقدي فكان من شأنهِ اقامة الحوائل دون تسديد ثمن ما يستوردهُ التاجر الاَّ بترخيص من الحكومة . والقاعدة في هذا القيد ان يجعل تسديد المال ثمناً لما يستورد من بلاد ما ، خاضعاً لنطاق التبادل التجاري بين البلادين . حتى لا يزيد ثمن ما يستورد من بلاد ما على ثمن ما يصدَّر اليها بوجه عام

وكذلك اخذت صورة التجارة الدولية تتحوَّل ، من تجارة تشترك فيها دول متعدِّدة ، الى صورة وحدتها التبادل بين دولتين

وقد كان في مقدمة البواعث على ظهور هذه الحوائل اضطراب سعر الذهب في مختلف البلدان . وهذا الاضطراب طغى على حدود المنافسة التجارية العادية ، فاضطرت الدول ان تعمد الى وسائل خاصة لحماية منتجاتها . ولكن الحالة تحسنت في أواخر سنة ١٩٣٦ باتفاق بعض الدول على تسوية أسعار نقدها ، مما مهّد السبيل الى عقد الاتفاق النقدي الثلاثي بين انكلترا وأميركا وفرنسا في ٢٨ سبتمبر من سنة ١٩٣٦ معلناً خفض سعر الفرنك ومعرباً عما تعلقهُ الدول من الشأن العظيم بالتخلي رويداً رويداً عن نظام الحصص وتقييد التبادل النقدي سعياً الى الغائهما

وعندئذٍ بدا لأولي الامر انهُ من الحكمة اجراء بحث دقيق في خير الوسائل لتحقيق هذا الغرض. وذكر اسم المسيو پول فان زيلند في هذا الصدد على اعتبار انهُ خير من يتولى القيام بهذا البحث ، وذلك لانهُ من الخبراء المتمكنين من أساليب التجارة الدولية بما أتيح لهُ من دراستها عند ما كان مديراً ووكيلاً للبنك الاهلي في بروكسل ثم وزيراً للخارجية فرئيساً للوزارة البلجيكية . يضاف الى هذا ان الرجل الذي يعهد اليهِ بهذا العمل الخطير يجب أن يكون ممثل دولة من مصلحتها السعي الى اطلاق التجارة الدولية من قيودها . وقد كانت بلجيكا تلك الدولة. يستدلُّ على ذلك باشتراكها في غير اتفاق واحد من هذا القبيل كاتفاق أوسلو — المشار اليهِ آنفاً — واتفاق أوشي المعقود سنة ١٩٣٢ بينها وبين لوكسمبرج وهولندة على هذا الاساس

وفي شهر نوفمبر ١٩٣٦ كان المسيو فان زيلند — وكان حينئذٍ رئيساً للوزارة البلجيكية — في لندن فذكر لهُ بعضهم اقتراح قيامهِ بهذا البحث ، ولكنهُ لم يخاطب رسميًّا في هذا الموضوع الاَّ في شهر ابريل من سنة ١٩٣٧ فقبل ما عرضتهُ عليهِ الحكومتان الفرنسية والانكليزية في هذا الصدد واستعان بأحد رجال الاقتصاد البلجيكيين — المسيو فرير — لان مهامّ منصبهِ كانت تحول دون قيامهِ بجميع أعمال البحث وما تقتضيها من أسفار ومقابلات وحدهُ . فزار

المسيو فرير معظم حواضر اوربا وحادث اقطابها الاقتصاديين والسياسيين وسافر المسيو فان زيلند الى اميركا فاجتمع بالرئيس روزفلت ، وانتهى البحث في اواخر الصيف الماضي ، فلما استقال فان زيلند من رآسة الوزارة البلجيكية لاسباب تتعلق بالسياسة الداخلية في البلجيك تفرّغ لوضع تقريرهِ وما عنَّ لهُ في هذا الموضوع الخطير من آراءٍ ومقترحات

التقرير ثلاثة أقسام . أولها مقدمة عامة تناول فيها مسألة أساسية عليها يتوقف ما في القسمين التاليين . وهذه المسألة يمكن ايجازها في السؤال التالي : هل نسعى الى الرخاء الدولي بتعزيز تبادل العروض والخدمات بين الامم على اساس من حرية التعاقد والتبادل او نسعى اليهِ عن طريق الاكتفاء الذاتي فتعنى كل دولة في سدّ كل ما تحتاج اليهِ بالاعتماد على مواردها وصناعاتها الخاصة ؟ والمسيو فان زيلند يعترف بان هناك ما يمكن ان ينهض حجة لتأييد خطة الاكتفاء الذاتي وانها قد تؤتي ثمرة نافعة ولكنهُ يضيف الى ذلك ان الدول المكتفية ليست بمعزل عن تقلّب الاسواق العالمية . فليس في وسع اية أمة ان تنسحب من مجمع الامم . وجميع الدول التي حادث فان زيلند وصاحبهُ اقطابها مجمعة على وجوب القيام بعمل مشترك لتقليل الحوائل التي تعرقل التجارة العالمية . نعم إن هذا الاجماع كان في كثير من الاحيان محوطاً بالتحفظ الشديد ، ولكن فان زيلند تبين في جميع محادثاتهِ اثر الرغبة الصادقة فشجعهُ ذلك على المضيّ في بحثهِ

أما القسم الثاني من التقرير فنقد دقيق لأنواع الحوائل القائمة دون التجارة العالمية الحرَّة وما يقترحهُ في سبيل علاجها . فالضرائب الجركية ليست الآن اعظم هذه الحوائل بالقياس الى نظامي الحصص وتقييد التبادل النقدي . ولذلك يعود في ما يقترحهُ في هذا الصدد الى فكرة « الهدنة الجركية » التي اقترحت سنة ١٩٣٠ الاَّ انهُ يستثني من الهدنة بعض الضرائب الجركية المرتفعة جدًّا عن المستوى العام ويقترح خفضها حتى تتسق واياهُ . أما نظام الحصص فاقتراحهُ بشأنهِ يقوم على اساس من الحسم أي انهُ يجب ان يلغى . ولكن الغاءه لا يمكن ان يتم إلا رويداً رويداً ، وإذا كان مستوى الضرائب الجركية في بعض الاحوال غير كافٍ لحماية معقولة للبضائع الخاضعة لنظام الحصص فلترفع الضرائب قليلاً وليلغَ هذا النظام . والحصص التي يجب ان تقدَّم الغاءه على غيرها هي الحصص المفروضة على المصنوعات . وهو يرى ان الاحتفاظ بنظام الحصص في ما يخص الحاصلات الزراعية لهُ ما يسوغهُ اذا كان الغرض منهُ توزيع المستورد منها على شهور السنة بحيث لا يضار الحاصل الذي تنتجهُ البلاد المستوردِة . وعلى كل حال يرى المسيو فان زيلند انهُ يجب ان لا تفرض حصص جديدة ولا ان تجعل قيود الحصص القائمة اشد مما هي

فاذا انتقلنا الى موضوع الاضطراب النقدي والتباين الكبير في اسعار الكمبيو وجدنا ان لا امل للمسيو فان زيلند في علاج ناجع الاَّ في المستقبل البعيد عند ما تعود احوال العالم

الاقتصادية والمالية الى الطمأنينة والاستقرار . هذا العلاج يمكن ادراكه في آخر عهد غير قصير من الانتعاش الاقتصادي والتعاون العالمي لا في مستهله . ولا بدَّ في رأيهِ من تنقيح الاتفاق النقدي الثلاثي — انكلترا وفرنسا وأميركا — وتوسيع نطاقه حتى تنضم اليهِ كل دولة ترغب في الاشتراك في حركة انهاض التجارة العالمية . وكذلك يتاح نوع من الاستقرار الوقتي للنقد ، اما الاستقرار النهائي فنتيجة عوامل متعددة داخلية وخارجية ، ولا يمكن ان يحقق الاَّ تدريجاً

وعند المسيو فان زيلند ان تقييد التبادل النقدي اكثر الحوائل الاقتصادية ضرراً بالتجارة العالمية ويجب ان يلغى . ولكن قبل ان تتمكن الامم من ذلك عليها ان تعالج مشكلة «الاموال المتجمدة» . اي يجب ان تسوي بقايا النظام القديم وهذا لا يستطاع الاَّ بعقد اتفاقات لتسوية الديون ولا سيما في الدول التي طرأ على نقدها تغيير كبير . ثم توحَّد الديون وتحوَّل الى سندات تصدرها الدول الدائنة وتضمنها الدول المدينة وتستعمل لتمويل التجارة العالمية بواسطة هيئات عالية معيَّنة . وعند ذلك نستطيع ان ننظر في معونة البلدان التي الغت نظام تقييد التبادل النقدي فيها . وهذه المعونة يجب ان تفرغ في شكل اعتمادات تفتح لها وتمكنها من التصدير والاستيراد . ولعلَّ بنك التسويات الدولي خير هيئة تتولى هذا العمل . وقد تقتضي الحاجة ان تشترك الدول في انشاء صندوق خاص بهذا البنك لتمويل الاعمال التجارية المشروعة

حصرنا الكلام حتى الآن في الحوائل التجارية مجرَّدة عن صلتها باحوال العالم عامة . والاختبار يدل على ان هذا الحصر أو هذا التجريد لا يجديان في اصابة الهدف المقصود . فمشكلة التعاون الاقتصادي تعتمد بطبيعتها على عوامل متعددة منها السياسي ومنها النفسي . والواقع أننا اذا تغلغلنا في الموضوع الى منبعهِ تبين لنا ان اساسهُ تعزيز شعور التعاون والرغبة فيهِ ، في البلدان التي مضت عليها سنوات وهي تسعى الى الرخاء عن طريق القطيعة والاكتفاء الذاتي . والغالب ان البلدان التي اختارت هذا الطريق لم تخترهُ مدفوعة ببواعث اقتصادية في المقام الاول ، بل ببواعث سياسية ونفسية . واذن فنحن أمام نوعٍ آخر من العقبات التي تعترض التجارة الدولية وعلى هذه العقبات وقف المسيو فان زيلند القسم الثالث من تقريرهِ . ولما كانت المهمة التي عهد اليهِ بها لا تشتمل على هذه الناحية من الموضوع فانَّ ما يقولهُ فيها محوطٌ بشيءٍ كثير من التحفُّظ. وعندهُ ان أهم المسائل التي يجب ان تعالج قبل ان هي ما يلي : ١ — مسألة توزيع المواد الخام توزيعاً غير متساوٍ وهذه المسألة متصلة وتجرُّ في أثرها مسألة توزيع المستعمرات ٢ — مسألة توزيع رؤوس الاموال توزيعاً غير متساوٍ ٣ — مسائل الاقليات العنصرية ٤ — الحاجة الى تسوية الديون والقروض الدولية ٥ — تأثير التنافس في التسلح ٦ — المشكلات السياسية بوجهٍ عام

ويعد ذلك عمد المسيو فان زيلند الى تلخيص بعض المقترحات لعلاج هذه المسائل . ففي ما

يتعلّق بالمستعمرات مثلاً يشير الى تحويل البلدان المشمولة بالانتداب الى بلدان خاضعة للرقابة الدولية ، والى اعتماد سياسة الباب المفتوح في المستعمرات ، او الى انشاء شركات كبيرة برؤوس اموال دولية تمنح امتيازات خاصة للقيام باعمال اقتصادية بحت في المستعمرات . اما في ما يتعلق بالمواد الخام فيتخيّل صاحبنا انهُ في المكنة وضع نظام للمقايضة بين المواد الخام في البلدان التي تنتجها والخدمات العامة والمصنوعات في البلدان الصناعية . على ان كلّ هذا لا يمكن ان يتحقق ويطمئن اليهِ الانسان الاّ اذا عقدت تسوية سياسية عامة بين الدول

ومن الواضح اذن ، انهُ من المتعذر وضع اقتراح عام شامل تحل بمقتضاهُ مشكلة الحوائل التجارية في أوسع مقتضياتها ، ولا بدّ حينئذٍ ان يكون الاعتماد على قواعد عامة يسهل تطبيقها وملاءمتها لمقتضى الحال ، والمسيو فان زيلند يتصوّر عهدة تعقدها الدول وتقطع بها عهداً بأن تبذل ما في وسعها لرفع مستوى الحياة في بلدانها وبين شعوبها . وهذه العهدة لا بدّ ان تشتمل على ناحية سلبية مؤداها الغاء جميع الاعمال والافعال التي تعارض المصلحة العامة وعلى ناحية ايجابية مؤداها التعهد ببحث جميع الحوائل التي تعترض سبيل التجارة بروح الصداقة والمودة . ولا تكون هذه العهدة الاّ توطئة اذ لا بدّ ان تعقبها اتفاقات عملية قائمة على البحث الدقيق التي قام بهِ حتى الآن القسم الاقتصادي في عصبة الامم

ومن المستطاع تطبيق هذا الاقتراح في ثلاث مراحل . أما المرحلة الاولى فهي مرحلة التوطئة وفيها يجتمع ممثلو الدول الاقتصادية الكبرى او على الاقل ممثلو فرنسا وبريطانيا وأميركا والمانيا وايطاليا (ولماذا أغفل اسم اليابان ؟) فيدرسون الموضوع درساً عامًّا . ثم يوسع نطاق البحث وينشأ مكتب خاص يتصل رجالهُ بالحكومات المختلفة داعياً اياها لبسط المصاعب والعقبات التي تعانيها في تجارتها الدولية ، وما هو العون الذي ترتقبهُ من الدول الاخرى في هذا السبيل ، او الذي تستطيع ان تبذلهُ للغير . ثم تجمع هذه الاجوبة وتبوَّب ويوضع على أساسها برنامج عملي ويلي ذلك المرحلة الثالثة وهي مرحلة المفاوضات الدبلوماسية لعقد الاتفاقات وتنفيذها

ان التقرير الذي وضعهُ المسيو فان زيلند آية في بابهِ . ذلك ان الرجل خبير اقتصادي وقد اتاح لهُ منصبهُ ومقامهُ وهو مشغول بدراسة الموضوع الذي عهد اليهِ بهِ ، ان يتصل بأقطاب الامم . ثم انهُ رجل عرف كيف يفصل في تقريره بين الاقتصاد والسياسة . فالقول الذي قالهُ لا ينزع عن قوس سياسية معينة فقولهُ اشبهُ ما يكون برأي الطبيب لان المسيو فان زيلند كتبهُ كاقتصادي لا كسياسي ، ومجرد ذكره للمشكلات المتسمة بالسمة السياسية يدلك على انهُ لم يحابِ . فهل تأخذ الحكومات بهِ ؟

لقد قال الطبيب قولتهُ ، فعلى المريض ان يدل ان فيهِ مشيئة للحياة — وتطبيق العلاج

باب المراسلة والمناظرة

هندسة الكون

بحسب ناموس النسبية

رد على رد

قرأت بامعان كلمة الأديب البحاثة نقولا الحداد في مقتطف فبراير (ص ٢٤١ — ٢٤٣) ردًّا على كلمتي المنشورة بمقتطف يناير نقداً لكتابه النفيس «هندسة الكون بحسب ناموس النسبية» وكان بودّي ان يلاحظ العالم الفاضل نقولا الحداد ان تفرقتي علم الفوزيقا قسمين، أساسية في الطبيعيات الحديثة من وجهة نظري، ولبيان هذه التفرقة أقول ان جسماً ساكناً مشحوناً بالكهربائية على الكرة الارضية، طالما هو ساكن فهو يحدث من حوله مجالاً كهربائيًّا ولا يحدث مجالاً مغناطيسيًّا، ولكن هذه الحقيقة تدخل في اي قسم من الطبيعيات الحديثة؟

أنا شخصيًّا أراها تدخل في نطاق الفوزيقا الثانية لانها قائمة على اعتبار انساني، لانهُ بالنسبة لراصد في احدى السدم خارج مجرّتنا، او بالنسبة لراصد مستقل عن حركة الارض، سيكون هذا الجسم الساكن المشحون بالكهربائية لفوزيقي الارض جسماً يتحرك بسرعة ١٠٠٠ ميل في الثانية، ونحن نعلم ان شحنة متحركة تحدث تياراً كهربائيًّا تابعاً للحالات التي تسمح بها قوانين الكهربائية المغناطيسية وتتمخض عن مجال مغناطيسي

اذن المسئلة تتصل بحركة الجسم وسكونهِ وهما أمران اعتباريان يدخلان في باب نظرية النسبية وكذلك يدخل في هذا الباب خلق الجسم المادي المشحون بالكهربائية لمجال كهربائي او مغناطيسي. وكل هذه المسائل معروفة للباحثين في علوم الفوزيقا ولكن هؤلاء الباحثين يندُّ عنهم ان هذه الصور التي نرسمها في علم الفوزيقا اعتبارية، ان صحّت من جهة رسم صورة للطبيعة المدركة فانها لا تصلح لرسم صورة للطبيعة من حيث هي طبيعة . ويجب ان نلاحظ ان النظريات العلمية لا تخرج عن كونها شيئاً ذهنيًّا؟ ونحن لا يمكننا الاَّ ان نكشف عن اثر خطانا، ولا نستطيع الخروج من التعميم الصادر عن ذواتنا الاَّ في ساحة واحدة هي ساحة «علم المقدار»

هذه التفرقة أساسية، وعدم انتباه جلّ علماء هذا العصر ان لم يكن كلهم جعلهم يتردّون في

خطإ فاحش وينقلبون من علماء واقعيين الى مثاليين، ذلك انهم لما رأوا امكان ربط العالم الخارجي في صيغ معادلات رياضية ورموز حسابية ظنوا أن هذا يؤخذ على ان الوجود عقلي مثالي ، اعني يردُّ في نهاية تحليله للفكر ، فهذا السر ارثور ستانلي ادنجتون الفلكي الانجليزي المعاصر ينشر بحثاً في صحيفة « الابزرفر » في عددها الصادر في ٢١ ديسمبر سنة ١٩٣٠ يكتب فيه ان العالم المادي ليس الا قرارة الرموز التي تتظاهر في واعيتنا ، وهذا السر جيمس جينز الرياضي الانجليزي الشهير ينشر في نفس الصحيفة بحثاً في عددها الصادر في ٤ يناير سنة ١٩٣١ ويعلن في هذا البحث انضمامه للمثاليين معتبراً الوعي اس الوجود وان العالم المادي مشتق منهُ ، وأنت لو ذهبت تستقصى آراء اساطين العلم في عصرنا لوجدتهم يتفقون في هذه النقطة ، ولكنهم يقعون في التناقض فيما يكتبون ، وهذا راجع للخلط في التفكير المجرد ، اذ هم لا يدركون ان نجاح الوجهة الرياضية في ربط الحوادث وتفسير تصرفاتها لا يحمل على ان طبيعة الاشياء رياضية بل يدل على ان هنالك قاعدة معقولة تصل بينهُ وبين طبيعة الاشياء ، فالاشياء هي الكائن الواقع والرياضيات ربط ما هو واقع في نظام ذهني على قاعدة العلاقة والوحدة وبعبارة اخرى ان الرياضيات نظام ما هو ممكن والكون نظام ما هو واقع . والواقع يتضمنهُ الممكن ، ولذلك فالواقع حالة خصوصية منهُ . ومن هنا يتضح انهُ لا غرابة في انطباق الرياضيات على الكون الذي نألفهُ بل كل الغرابة في عدم انطباقها . لان لكل كون رياضياته المخصوصة فكونُ كونٍ من الاكوان مضبوط بالرياضيات شرط ضروري لكونه كوناً . ومن المهم ان نلاحظ مع الاستاذ . ا . وولف استاذ المنطق بجامعة لندن ان هذا الخطأ الذي تردَّى فيه علماء هذا العصر ونفرٌ من جلة علماء العصور الماضية يرجع لممارستهم الكثيرة للاستدلال الرياضي حتى لقد رسخ في ذهنهم ان العالم لا يخرج عن نسب وعلاقات رياضية تردفي نهايتها من حيث التحليل الى الفكر ، مع ان استعمال الرموز الرياضية لا يعني وجود الفكر وحده ، لان العمليات الجبرية والرموز الرياضية تظل صوراً جوفاء حتى يتحدد لكل منها قيمة حسابية خاضعة للقياس والتقدير ، والرياضة في ذلك كخاصة التفكير الذي يجري بين لسب فكرية خاصة تظل جوفاء حتى تدل كل منها على صور واحساسات لها قيم مخصوصة في العالم الخارجي

هذه هي نكتة تفكيرنا في التفريق بين ضربين من الطبيعيات ، ضرب كما تخلقهُ تصوراتنا وتخيلاتنا وكما يخضع للتعميمات الصادرة من نفوسنا . وضرب يعرض للطبيعة من حيث هي ، وهذا الضرب لا يتأتى الا في بعض ساحات علم الفوزيقا ومنها ساحة « علم المقدار »

على هذا الاساس يتبين حقيقة نقدنا لتعليل ظاهرة التقلص عند البحاثة نقولا الحدّاد ، وهي تنصب على الفصل الثاني كله من القسم الاول من كتابه (ص ٣٥ — ٤١) ، لانهُ فسّر

ظاهرة التقلص وكانهُ واقع حقيقة وبناهُ على توازن الذرة والتيار الذي ينشئهُ سرعتها او تسارع الذرة فقال ص ٣٦ :

« ان الجو الكهربائي المغناطيسي الذي تحدثهُ الذرة يتقلص في اتجاه سير النواة ولا يتقلص في الاتجاه العامد له » وشرح هذا ص ٣٧ وص ٣٨ وملخص هذا الرأي :

« ان الذرة حين تكون متحركة تحدث جوًّا كهربائيًّا مغناطيسيًّا موجيًّا يشبه الجو الجاذبي تماماً . وامواج هذا الجو حالما تصدر من الذرة تنتشر الى جميع الجهات متتابعة حرة غير خاضعة لاي تأثير من قبل الذرة التي اصدرتها اي ان الذرة لا تجر جوّها معها بل ان النواة تندفع في جوها ، وكهربها يحذو حذوها ، يعبر امواج الجو الذي نحن بصدده . وتنتج عن ذلك نتيجة طبيعية وهي ان اقواس الامواج امام خط سير الذرة تكون اقرب بعضها الى بعض من اقواسها الخلفية ، ومعنى ذلك ان الجو الكهربائي المغناطيسي الذي احدثتهُ الذرة اشد حدّة امام الذرة واقل حدة وراءها منهُ الى جانبيها . اما الكهرب فيجتهد ان يحافظ على بعده المقرر عن النواة ما امكنهُ . ولكن لان النواة سائرة يصبح كأنهُ يدور في فلك اهليلجي في حين يكون الفلك موازياً لخط السير . وكل ذرة من موكبة الذرات تحذو حذو الذرة التي نحن نصف تحركها وجوّها وبطبيعة الحال تندفع نحو القسم الاقل حدة من الذرة التي امامها لان قوة التدافع بين فلكي الكهربين المتلاصقين اقل ولذلك تصبح المسافة بين الذرتين المتلاصقتين اقصر منها بين الذرتين المتجانبتين المتجاورتين »

وانت ترى أن هذا التفسير فوزيتي يفسر ظاهرة التقلص وكانهُ واقع في عالم الذرة ، ولا اقول عن هذا التفسير خطأً من الوجهة الفيزيقية لان نفراً من العلماء يقولون بهِ ويعارضون بهِ تفسير اينشتين ، وانما اقول انهُ لا يتفق ونظرية النسبية التي كان البحاثة نقولا الحدّاد في مقام المبسط لها والشارح

ان نظرية اينشتين ترى التقلص ظاهريًّا اعني لا وجود له في العالم الذرّي وهو نتيجة من عدم امكان الراصد التفريق بين الزمان والمكان تفريقاً موضوعيًّا لانهُ مقيد بالآنه وبحركة النسبية التي تعطي له وجهة من النظر غير الوجهة التي تعطيها لراصد آخر لهُ من حركة النسبية ومكانه موقف آخر وقد شرحت وجهة نظر اينشتين في المقال الذي اشرت اليهِ في نقدي لكتاب البحاثة نقولا الحدّاد

وأحب ان الفت نظر البحاثة نقولا الحدّاد لمؤلفات لورانتز ومنيقوفسكي وهو سيقف على حقيقة الفرق بين نظرة نسبية اينشتين ونسبية لورانتز لظاهرة التقلص . كما أحب ان يلاحظ أني لا أعيب عليهِ لبوساً او غموضاً في شرحهِ لقضية اينشتين في التواقت ، وانما كانت كل ملاحظتي تنصب على نقطة واحدة وهي انهُ نظر لنظرية اينشتين في النسبية كناموس كوني وبني عليهِ

هندسة للكون مع ان فكرة اينشتين في التواقت غير مقبولة علميًّا لانها قائمة كما قلت على خلط بين نظريتين من هيئات القياس ، وانما فكرة لورانتز في نسبية التواقت هي المقبولة من العلماء وقد توسعت في هذه النقطة وأفردت لها بحثاً في الجزء الثالث من كتابي Die Grundlangen der Relativitaetstheorie فيستحسن ان تراجع هنالك . او في احد المصادر التي تناقش نظرية النسبية

أما اشارتي لقضية انحراف شعاعة النور عند مرورها على مقربة من الشمس فهي تنصب على ان تفسير البحاثة نقولا الحداد ليس من نظرية النسبية العامة في شيء ، لانهُ قائم على نفس النظرة التي نظر بها لقضية تقلص الاجسام في اتجاه سرعتها (انظر ص ١٠٩ — ١١٠ من كتابهِ) وهي ليست من نسبية اينشتين ، انما تدخل في باب آخر من مبحث النسبية هي نسبية لورانتز — ولورانتز نفسه في نسبيته يفسر انحراف شعاعة النور التفسير الذي قدمهُ في كتابه البحاثة نقولا الحداد ، غير انهُ يعترض على هذا التفسير بانهُ لا يتفق واعمال البعثتين الفلكيتين اللتين رصدتا ظاهرة الإنحراف لانهُ يترتب على ذلك ما قاله البحاثة نقولا الحداد في هامش الصحيفة ١١٠ من كتابهِ مع ان نتيجة الرصد تثبت ان الانحناء واحد من جهة كوكبة النجوم التي امام الشمس وكذلك من جهة الكوكبة التي وراءها ، وقد اول لورانتز هذا تأويلات وخرّجها تخريجات تراها في مبحثهِ الاخير الذي نشره عن نسبيته عام ١٩٢٣

اما قضية تحدب الابعاد الاربعة فاشارتي تنصب على ان التحدب الذي قال بهِ الرياضيون منصب على اربعة ابعاد فراغية . اما التحدب الذي يقول بهِ اينشتين فكائن في عالم متمادي « الزمان — المكان » . وهذا التحدب الرياضي في عالم المكان غيره في عالم « الزمان — المكان » وهذا الفرق دقيق لم ينتبه لهُ الكثيرون من شراح النسبية حتى ان ادنجتون والارل رسل وجيمس جينز ترددوا فيهِ . والبحاثة نقولا الحدّاد جاراهم في خطئهم وظن ان التحدب الذي قال بهِ الرياضيون في عالم رباعي الابعاد هو ما انتهى اليهِ اينشتين نفسه وبودي ألاّ يظن البحاثة نقولا الحداد أني اعيب عليهِ هذه الفرطات ، لانهُ لم يبرأ من مثلها او مما يماثلها احد من شرّاح النسبية ، واني لا انكر ان السبيل الوحيد لعدم الوقوع في هذه الاخطاء هو ان تبقى النسبية في عليائها في صيغها الجامدة الرياضية ولكن من يفهمها وقتئذٍ من غير الذين في مكنتهم السير في الاستدلال الرياضي العالي ؟ لا اشك ان لا أحد !

اذن ليس هنالك سبيل الاّ الوقوع في مثل هذه الاخطاء حتى تساق النسبية الى الافهام العامة ، واني واثق بان البحاثة نقولا الحداد لو صحح هذه النقط من كتابه لجاء فريداً في بابه ، بين الكتب المبسطة لنسبية اينشتين

اسماعيل احمد ادهم

الدهن والشحم

Oil and Fat

أرى الآن ان اعود الى هذا البحث للفصل فيهِ فانهُ لا يليق تركه فالالفاظ واضحة لا تقبل التأويل. فمن جملة ما قاله الاب انستاس ما يأتي بنصهِ :

ومن تعبير اللغويين للدلالة على ان الدهن يكون في الانسان شرحهم لكلمة الغفارة فقد قالوا فيها خرقة تكون دون المقنعة توقي بها المرأة خمارها من الدهن. وقالوا مثل ذلك في الصِقاع والصوقعة (ق) . وليس المراد هنا الدهن الذي تستعمله النساء للتطيب بل الدهن الذي يفرزه او يقذفهُ الرأس إذ لو كان من دهن التطيب لما عمّم اللغويون الكلام واطلقوه على كل امرأة تستعمل الخمار وانما خصوا بهِ النساء لأن الرجال اقل استعمالاً لما يلبس على الرأس من النساء لانهُ يلازمهن ليل نهار والاً فرؤوس الرجال تقذف الدهن كما تفيض بهِ رؤوس النساءِ . انتهى

قلت ان سيادة الاب واهم هنا واليك ما جاء في تاج العروس في مادة غفر: الغفارة ككتابة خرقة تكون دون المقنعة توقي بها المرأة خمارها من الدهن . وفي مادة صقع : الصقاع خرقة تكون على رأس المرأة تقي بها الخمار نقله الجوهري كالصوقعة. وفي معجم لاين في مادة صقع وهو ترجمة التاج قال :

الصِقاع a piece of rag which a woman protects her خمار from oil in her hair putting it on her head

فتجد ان الاب انستاس واهم في ما قاله فالدهن لا تفرزه رؤوس الناس لا نساء ولا رجالاً بل هو الدهن او الزيت كما جاء في القرآن الكريم فالاب جعله شحماً رغبةً منهُ في جعل الدهن كذلك وهو مخالف للآية التي ورد فيها الدهن . ومن العجب ان ذلك يجوز على الجوهري والفيروزابادي والزبيدي ولاين الاعجمي . ولو تبصر الاب أنستاس في عبارة التاج لما حصل لهُ هذا الوهم فالدهن كما ذكرت في المقالة الاولى ولا يمكن غيره وكما ذكرت في مقتطفي ابريل ويونيو سنة ١٩٣٦ التي قبل السنة الماضية

فاذا أراد الواحد ان يقول الدهن فليقل انها عامية او مولدة امناً للعثار فلا يصطدم الدهن بكتب اللغة والآية الكريمة اما الدهن والشحم فكما ذكرت في صدر هذه المقالة والتي قبلها . ثم ان الدهن والشحم لم يردا في القرآن الكريم الاَّ في آيتين فقط وقد ذكرتهما . عرفت ذلك من فهرست فلوجل أشتراه لي وأنا في بغداد الاب انستاس .

امين المعلوف

حول « مفرق الطريق »

مسرحية في فصل واحد

الى محرّر المقتطف : — هذه طرفة ادبية ، لوقيل لك : ان ثمنها زنتها لآلىء ، قل لهم : انكم تبخسون حقها ، لانها تزري بالدر ، وتسخر بالابيض والاصفر ، وما ذلك الاّ لانها عروس بكر ، لم يعرفها انس ولا جان ، ولم يعهد مثلها اهل الدراية ولا ارباب العرفان

هي مسرحية ، افرغت في قالب بديع ، وضعهُ لها حضرة الدكتور الفنان ، الاستاذ بشر فارس ، وقد قدم عليها توطئة هي غرة البيان . فنحن لا نعلم ما نقرظ ، أألتوطئة وقد تفردت بمحاسن دلت على ما في صدر منشئها من دفائن الادب ، ام روائع الفن التي ترى في المسرحية نفسها ، فجعلتها يتيمة فذة في بابها

تلك براعة دلت على براعة ، لا يأتي بمثلها الاّ من قضى أشهراً وليالي ، في تذوّق فن الروايات وصبها في قالب عصري فتان ، وصوغ مفردات لها هي فرائد ، غاص عليها صاحبها في ابحر العربية ، ومعاجمها الجمة ، ومخطوطاتها المتعددة . فجاءت تختال بأبهة ودلال ، تتحدى بمحاسنها الشائقة كل ما جاء من امثالها ، ممن سبق موشيها الى هذا الطراز

أما مغزاها فمن أحسن المغازي ، اذ حسبك ان تعلم انهُ وسمها (مفرق الطريق) فهو يحذر بها من أراد ان يختار لنفسهِ شرّى الطريقين ، عند وصوله الى هذا المفرق ، وان لا يتبع إلاّ حسناها . وقد صور كل ذلك بريشة إحدى الفنانات الفرنسيات فضلاً عن وصفهِ ببراعتهِ الساحرة. وعبارتها محكمة متقنة شائقة رائقة ، تجذب القارىء الى تتبع ما فيها من الوصف الانيق ، السليم الذوق ، الخالي من كل تعسف وتكلف

على أننا نأخذ على حضرة الكاتب انهُ قال في ص ٩ : « فتردّ الرقص وثبة حرّة وثبة النفس اللطيفة نحو الغبطة المضنية ». ونحن لم نسمع في حياتنا كلها « بغبطة مضنية» فهذان لفظان متضادان متنافران في معناهما . وعندنا انهُ لو قال : نحو الغبطة الميمونة أو الموفقة أو الفالحة او نحو هذه النظائر ، لكان كلامهِ أوفى بالمقصود

ورأيناه يكثر في التوطئة من استعمال «انما» حتى اننا لو اطلقنا على حضرته اسم «الدكتور انما » لما ظلمناه حقه وبخسناه مقامه . ولعل الكاتب الضليع ابقى في توطئة مسرحيتهِ هاتين الشامتين ليقال عليهما : انهما شيئتا لون هذه العروس البكر ليبهر حسنها ، حسن سائر ما تقدمها من أشباهها او ليكسف جمالها الساحر الفتان ، جمال البدر التم . فكفى بذلك عذراً !

الاب انستاس الكرملي



الرحلة الاخيرة للمنطاد هندنبرج

ليونهاردت ديلت

كاتب هذا المقال كان أحد الركاب الناجين وهو يصف تلك الحادثة المروعة

ابتدأت الرحلة مبشرة بنجاح اكيد وكانت هي المرة الاولى التي أركب فيها منطاداً. كانت رؤية العالم الارضي من المنطاد متعذرة اولاً ولم نكد نتميز شمال الاطلنطيكي حتى كنا عبرناه. اما الركاب الآخرون فقد امضوا وقتهم بين تسلية وعمل فبعضهم كان يقرأ والبعض يحرر خطابات والبعض الآخر يتكلم عن مشكلة المانيا في حجرة التدخين واجتمع الاطفال يلعبون في براءة الطفولة وانهمك النساء في التطريز وشغل الصوف. واخترق السفين السحب القاتمة كأنه يخترق سحاب ليل مقمر

وفي صباح اليوم الثالث تمكنا من رؤية نيوفندلند فظهرت النظارات المكبرة وآلات التصوير من صناديقها ومما زاد في سرور زوجتي انها رأت خلال النظارة ان النقط البيض الصغيرة التي لم تستطع تمييزها بالعين المجردة انما هي جبال الجليد العائمة ولقد أمر الكابتن ان يطير المنطاد على قرب منها فرأيناها في جلاء كأنها تماثيل رخامية هائلة وبرزت الشمس من خدرها وانعكست اشعتها على الثلوج متموجة بديعة فكان منظرها يسلب اللب ويأخذ بمجامع القلوب ورأينا بطون الاودية ومرشد السفن الكبير عند كايب ريس وغابات الصنوبر الشاسعة ثم اختفى الشاطىء وارتفعنا ثانية — منطاد سنجابي اللون يخترق فضاء سنجابياً فوق المحيط الكبير اللانهائي. وبعد ظهر اليوم الرابع من الرحلة كنا قد وصلنا الى الحدود الاميركية من تحتنا بوسطون ملتفة في ضباب كثيف

وكان الجميع في هرج يجمعون اوراقهم الخصوصية واهتم الخدم بأسرة النوم فكوموها في نهاية الممشى ورتبوا الحقائب الكثيرة في البهو الاسفل وكنا حينئذٍ فوق نيويورك حيث رأينا ناطحات السحاب وقد لفها الضباب فظهرت رؤوسها كأنها مسامير بارزة من لوحة كبيرة. وعند ما بدت الشمس بعد هنيهة قلت كثافة الضباب وكنا على علو يسير فامكننا ان نرى مصوري الصحف على قمة امبير بيلدنج ورأينا الجسور (الكباري) ظاهرة كأنها في

تصميم هندسي ناتىء أما تمثال الحرية الـكبير فظهر كدمية خزفية صغيرة . وبعد قليل بدأنا نهبط ببطء ناحية القاعدة في لاكهرست حيث كان الجميع يتوقعون وصولنا في الساعة الرابعة ولـكن العاصفة الشديدة وما تخللها من رعد وبرق كانا يحيطان بنا ويتبعاننا كذئاب جائعة مفترسة اجبرتنا على التأخر . ورأيت السيارات الـكثيرة واقفة على جوانب المطار والناس يلوحون بأيديهم في حماسة. ومما زاد في اغتباطي علمي بان اخوي من المستقبلين ولم اكن رأيتهما منذ ثلاثين عاماً

وكان المنطاد متجهاً برأسهِ ناحية الجنوب والعاصفة على اشدها والبرق يخطف الابصار ولـكن لم يكن هناك رعد. ودار المنطاد نصف دورة وعلى فجأة هدأت العاصفة قليلاً وكانت جميع العوامل تبشر بنزول المنطاد في سلام تام ورغم ذلك لم ينقطع البرق الذي كان يحيط بنا ويتبعنا بينما اتجه برأسه الى فوق وسار بسرعة كبيرة وسط الامطار التي أخذت تنهمر ورأينا الحظيرة وقد فتحت ابوابها ودار المنطاد دورة سريعة ليتجنب مواجهة الرياح وابتدأ في النزول ورأى القائد ضرورة تفريغ المياه لتقليل سرعة الهبوط ورمينا حبلين طويلين لاننا كنا وقتئذٍ على بعد ١٥٠ قدماً من الارض وأخذ العمال يجذبون المنطاد ناحية إحدى الصاريات المتحركة

وكنت وزوجتي وقتئذ تتطلع من نافذة جانبية وفجأة لحظت سكوتاً فجائيًّا مطبقاً وطبعاً كانت الحركات جميعها ساكنة ولـكن خيّل اليَّ وقتئذٍ أن العالم جميعهُ قد شمله سكون عميق مرعب ولم أسمع أمراً ولا نداء ولا صوتاً قط ورأيت من مكاني الناس على الارض وكأنهم قد تصلبت أجسامهم وأخـــذوا ينظرون ناحيتنا في بلاهة ورعب وسمعت أثر ذلك فرقعة خفيفة كصوت زجاجة البيرة عند فتحها فدرت ببصري الى المقدمة ورأيت النار مشتعلة فيها . لم تكن هناك الاَّ وسيلة واحدة للنجاة وهي ان أقفز في الحال . أظن ان المسافة كانت وقتئذٍ ١٢٠ قدماً وخطر ببالي ان آتي بملاءة الفراش لأخفف من أثر الصدمة ولـكن في تلك اللحظة اصطدمنا بالارض صدمة شديدة فصحت بأعلى صوتي الى النافذة وسحبت زوجتي وقد أخذت ترتعش فرقاً

***

ولقد ادرك الجميع الحقيقة المروعة ويخيل اليَّ الآن ان القدر الظالم لم يعط ضحاياه الفرصة حتى للشعور بروعهم وإدراكه واني لست أعلم الآن ولا زوجتي كيف قفزنا من النافذة

كان المنطاد قد ارتطم بوجههِ ولما كنا في الجزء الاعلى فقد كان بيننا وبين الارض نحو ١٥ قدماً . لم نشعر الاَّ وقدمانا على الارض وكانت الصدمة قاسية نوعاً فركزنا على ركبتينا بضع ثوانٍ وقد احاطت بنا سحائب الغاز المشتعلة ولهيبها يشوي الوجوه . كان على كل منا ان يترك يد زميله ليفسح لنفسهِ طريقاً وسط الاتون الحديدي المشتعل واقسم أني كنت أوسع بيدي

الطريق ولم اشعر بالالم من جراء مسك الحديد الحامي . لم يكن هناك منفذ قط فالنار تحيط بنا من جميع النواحي فكنت كأني في حلم غريب وليس لجسمي حقيقة او وجود بل كان كأنهُ يسبح في الفضاء

وفي لحظة تبيَّنت أن زوجتي ليست بجانبي فالتفت الى الوراء ففاجأتني ألسنة اللهيب والدخان الخانقة في وجهي كأسواط الجحيم ورأيتها منبطحة على الارض فذهبت اليها ووكزتها فقامت بنفسها وأخذت تتبعني كأنها في حلم او كأنها دمية ميكانيكية ادير مفتاحها وتعثرت أنا الآخر بدوري ولكن بالزيت الملتهب الذي كان يغطي الارض

غمرني وقتئذٍ شعور غريب، شعور من وصل الى نهاية الطريق شعور من أدرك ان النهاية قد دنت . وسعدت بهِ فقد كان الموت أكثر ما يتمنى وسط ذلك الجحيم المرعب . ونظرت ناحية زوجتي فرأيتها تجري بسرعة غريبة وقد احترق نصف وجهها فزودني ذلك بشجاعة جديدة وقمت من عثرتي وداومت الجري ناحية الحياة كشيطان رجيم

وعلى فجأة تنفست الهواء ووقفت جامداً ثم اتجهت ببصري ناحية المنطاد فرأيته خلف اللهب الكثيف قطعة من نار واقسم ان وازعاً دفعني للاتجاه اليه ولم يكن ذلك طبعاً لانقاذ غيري ولعلَّها غريزة المخاطرة واهلاك النفس التي تدفع بالفراشة الى النار وفيها حتفها ولكني سرعان ما رجعت الى صوابي عند ما رأيت زوجتي متمددة على الارض بجانبي وسمعتها تئن أنين الموت

أتت مركبة الاسعاف وحملتنا الى مستشفى المطار الذي كان يعج بالناس وتصاعدت آهات الالم من الجميع وأخذ الممرضون يحقنون الجميع بالمورفين ولقد سمعت باذني شابًّا يطلب حضور عروسه من المانيا وقسيساً . ودخل ضابطان يساعدان كهلاً على المسير وقد احترق نصفه الاسفل فكانا في الحقيقة يحملانه ورأيت كثيرين وقد احترقت شعورهم وآخرين امتزجت بالدماء حروقهم ورأيت رجلاً يبحث عن زوجته وقد ذهب بصره

ولم تكن حروقي على كثير من الخطورة فقادوني الى الحجرة المجاورة حيث كان الكابتن لهمان ممدداً على الفراش وقد نزعت عنهُ ملابسه وعلمت ان ظهره قد انكسر مما زاد في خطورة حالته فاقتربت منهُ وقلت له ما السبب؟ فقال: البرق ولم يقل بعدها في حياته كلمة

وعندما خرجت من الحجرة كان المنطاد لا يزال يحترق . . . نقلها : محمد سعد فوزي

هل تعلم

* ان أقدم الطيور عاش من نحو ١٥٠ مليونًا من السنين وكان عاجزاً عن الطيران ؟

* وان عمق بعض آبار النفط في الولايات المتحدة الاميركية بلغ ميلين وان المهندسين يزعمون انهم قادرون أن يبلغوا عمق ثلاثة أميال بما لديهم من الاجهزة الآن

عنصران أثقل من الاورانيوم

لا وجود لهما في الطبيعة

في جامعة ستانفورد بكليفورنيا باحث طبيعي شاب يدعى فيليب ايلسن اعلن في الاسبوع الثاني من شهر دسمبر الماضي ما قد يكون من أهم المكتشفات العلمية الحديثة. ذلك انهُ تمكن بحسب قولهِ من تحويل عنصر الاورانيوم الى عنصرين أثقل منهُ فأيد بذلك مباحث فرمي الايطالي الذي اعلن من سنتين انهُ صنع من الاورانيوم عنصراً جديداً

في الجدول الدوري الذي وضعهُ منديلف الروسي وفي جدول الاعداد الذرية الذي وضعهُ موزلي الانكليزي ، مكان لاثنين وتسعين عنصراً . اخف هذه العناصر هو الايدروجين ورقمهُ الذري واحد واثقلها عنصر الاورانيوم ورقمه الذري اثنان وتسعون . وكان الظن الى ان اذيع اكتشاف فرمي الايطالي ان ليس وراء هذه العناصر عناصر اخرى في الطبيعة . ولكن اذا تأيدت مباحث فرمي وايلسن فقد اصبح في وسع الانسان ان يخلق عناصر لا وجود لها في الطبيعة . بل ان ايلسن يقول ان هناك ما يدل على وجود عنصرين آخرين عدا العنصرين اللذين صنعها ، رقمهما ٩٥ و ٩٦ ولكن هذه الادلة ليست بوافية الآن

صنع الاستاذ فرمي العنصر الثالث والتسعين باطلاقهِ النوترونات على عنصر الاورانيوم ذلك ان النوترون لاشحنة كهربائية له فلا تفعل فيهِ القوى الكهربائيـة فيستطيع ان يخترق النطاق الكهربائي المضروب حول نواة الاورانيوم فاذا اصاب نوترون نواة الاورانيوم قذف منها كهيربا ولصق هو بالنواة فتصبح نواة عنصر جديد هو العنصر الثالث والتسعون

الاَّ ان العنصر الثالث والتسعين ليس مستقرًّا اي انهُ مشع ولا تلبث نواته حتى تطلق كهيربا آخر فيصبح عنصراً جديداً هو العنصر الرابع والتسعون

وكان الظن ان العنصر الثالث والتسعين الذي صنعهُ فرمي قصير العمر فلا يلبث حتى يتحول بانطلاق ذريرات (دقائق الفا) من نواتهِ الى راديوم فالى رصاص . ولكن مباحث ايلسن في كليفورنيا اثبتت ان وراء الاورانيوم عناصر ليست بقصيرة العمر كما كان يظن وان نصف حياتها نحو الف سنة — وهو حقيقة جديدة — اي ان العنصر يفقد نصفهُ بالاشعاع في مدى الف سنـة على نحو ما يفقد الراديوم نصفهُ بالاشعاع في مدى ١٦٠٠ سنة

***

والطريقة التي يعتمد عليهـا في احداث هذا التحويل هي تناول نوى الايدروجين الثقيل — وهي تعرف باسم دوتيرونات من دوتيريوم اسم الايدروجين الثقيل — فتوضع في جهاز جديد استنبطهُ لورنس الاميركي

وتمنح زخماً عظيماً بدورانها دوراناً وحويًّا فيهِ فاذا بلغت مرتبة معينة من الزخم اطلقت على لوح من عنصر البريليوم فتصيب ذراته وتقذف منها نوترونات وهذه النوترونات تصيب بدورها وهي منطلقة عنصر الاورانيوم فتولد منهُ العنصر الجديد اي العنصر الثالث والتسعين ومن العنصر الثالث والتسعين يتولد العنصر الرابع والتسعون

التلفزة الملونة

فوز عظيم للمخترع الانكليزي بيرد

« التلفزة » لفظ عربنا بهِ لفظ التلفيزيون الفرنسي ولفظ « التلفشن » الانكليزي وهو يعني نقل المرئيات عن بعد وفي الوسع استعمال الفعل « تلفز » واسم الآلة « التلفاز » يتلوه وصفه بالمذيع أو باللاقط وكذلك اسم المفعول « المتلفز » بفتح التاء والفاء

إن قراء المقتطف يعرفون ان شركة الاذاعة البريطانية لها محطة خاصة في قصر الكسندرا بلندن تذيع منها برامج تلفزة فيلتقطها كل من يملك تلفازاً لاقطاً وقد سبق لنا ان نشرنا رواية « آخر المرحلة » وهي من أشهر مسرحيات الحرب أذيعت كاملة بالتلفاز المذيع من قصر الكسندرا فتمكن اصحاب « التلافيز » اللاقطة ان يتتبعوا فصولها ومشاهدها وقد بدأت شركة الاذاعة البريطانية اذاعة هذه البرامج في شهر اكتوبر من سنة ١٩٣٦ ومن المشاهد التي أذيعت منها موكب التتويج وسباق السيارات ومباريات التنس بومبلدون والفوتبول والملاكمة وغيرها وحفلة محافظ لندن وحفلة يوم الهدنة

ولكن يؤخذ من آخر ما اتصل بنا من الاحصاءات ان أصحاب التلافيز اللاقطة في المنطقة التي يشملها البرنامج لا يزيد على ثمانية آلاف وهو عدد قليل بالقياس الى عدد السكان في تلك المنطقة وهم نحو اثني عشر مليوناً وعدد الاجهزة اللاسلكية اللاقطة نحو مليونين ويعلل ذلك بغلاء الاجهزة وخشية الناس ان يكون التقدم سريعاً في اتقانها فيضطرون الى نبذها وقصر الوقت المخفض للاذاعة التلفزية

الاَّ ان هذا لم يثبط من همة المخترع العظيم بيرد فبعد ان تقدم جميع المخترعين في تحقيق فكرة التلفزة تحقيقاً عمليًّا عمد مؤخراً الى جعلها ملونة وذلك باستعمال ثلاثة ألوان اساسية في التلفاز المذيع صادرة من ثلاثة مصادر مختلفة وهي الازرق والاخضر والاحمر ثم تجمع هذه الالوان في التلفاز اللاقط فتولد منها ظلال الالوان المختلفة وتبدو الاشباح في ألوانها الطبيعية

ولا ينكر المستر بيرد ان التلفزة الملونة لم تبلغ مبلغ الافلام الملونة من حيث دقة التلوين ووضوح الاشباح ولكن الاختراع لا يزال في دور التجربة ولا بدَّ ان يسفر البحث والامتحان عن اتقانه

الغدة التكفية وتأثيرها في النمو

في سنة ١٨٥٥ ظهرت رسالة موجزة في موضوع الغدَّة التكفية ولكن مؤلفها كان يجهل وظيفتها . وكان بعضهم يظن انها عضو أثري لا عمل لهُ الآن . الاَّ انها قد تتضخم أحياناً فتضغط رقبة الطفل فيموت اختناقاً . وهي جسم رخو وردي اللون قائم فوق القلب يكون وزنه عند الولادة نحو ربع أوقية ثم يكبر حتى يبلغ وزنه عند البلوغ أوقية كاملة . ثم يضمر رويداً رويداً فلا يبقى منهُ الاَّ أثر يسير

وقد ظلَّ عمل هذا الجسم غامضاً حتى أخذ باحث يدعى جودر ناتش قطعاً من الغدَّة التكفية وغذى بها الشراغيف (صغار الضفادع) فنمت نموًّا عظيماً من دون ان تتحول الى ضفادع تامة وصنع الباحث « ريدل » خلاصة من تكفية الثور وحقن بها حماماً مصاباً بضعف في غدته التكفية فبدت في هذا الحمام آثار عجيبة اذ جعل يبيض بيضاً سويًّا بعد ما كان يبيض صفار البيض فقط

وفي سنة ١٩٣٤ تمكن الباحث رونتري من تحضير خلاصة هذه الغدة وغذى بها الجرذان ففاز بنتائج تبعث على الدهشة

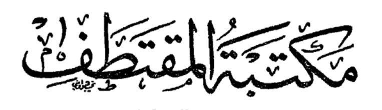
ذلك ان الاجيال المتتالية من الجرذان كانت تفوق بعضها بعضاً في سرعة نموها وتبكير نشاطها الجنسي. فلما كان الجيل الرابع والخامس برزت أسنان الجرذان بعد انقضاء ٢٤ ساعة فقط على ولادتها مع ان المدة التي تنقضي بين الولادة وبروز الاسنان في الجرذان السوية ثمانية أيام . وتفتحت عيون الصغار في هذين الجيلين بعد انقضاء يومين مع ان هذا لا يتم عادةً الاَّ بعد انقضاء أربعة عشر يوماً على الولادة وتمكن من فطمها بعد ثلاثة أيام من ولادتها وبعد ثلاثة أيام أخرى استطاعت ان تسبح وما بدا في أعمالها الحيوية والفسيولوجية من اسراع بدا كذلك في نمو غرائزها الجنسية فجيلها العاشر استطاع ان يخلف نسلاً بعد انقضاء ٤٣ يوماً على ولادته مع ان السوي منها لا يخلف نسلاً في العادة قبل انقضاء مدَّة تتفاوت من ٨٠ يوماً الى ١٢٠ يوماً ولو أسرع نمو الغرائز الجنسية في الصبيان والبنات بهذا المعدل لبلغوا سن النضج التناسلي في الثامنة الى العاشرة من العمر

ان الباب الجديد الذي تفتحهُ هذه المباحث الطريفة ولا سيما في تربية المواشي لباب سحري يعجب منهُ الانسان ويروّع عند يتأمل في ما قد يفضي اليه

***

هبوط الارض

كانت الارض حول مدينة لندن في العصر الحجري أعلى مما هي الآن نحو ستين الى سبعين قدماً وانها لا تزال آخذة في الهبوط بمعدل تسع بوصات كل قرن ؟



مقاييس الكفاءة للاستقلال

تأليف الدكتور ولتر هولمز رتشر — استاذ العلوم السياسية في جامعة بيروت الاميركية
صفحاته ١٥٠ قطع المقتطف

ألف الدكتور رتشر هذا الكتاب باللغة الانكليزية ونشره سنة ١٩٣٤ ثم طلب اليهِ فريق كبير من اصدقائهِ ان يعنى بنقلهِ الى اللغة العربية، فعهد الى مساعدهِ فؤاد خليل مفرّج بترجمته وبعدما مضى شوطاً غير يسير في نقلهِ الى العربية « دعي لعمل آخر خارج الجامعة فأفضى الى وقف الترجمة » فاتمّها الكاتب البليغ شاكر خليل نصّار ووقف على الطبع في المطبعة الاميركية ببيروت فخرج الكتاب كجميع ما تخرجهُ جامعة بيروت الاميركية فائدة ورونقاً

والفكرة التي تدور من حولها بحوث الكتاب بجملة اجمالاً طياً في توطئتهِ قال المؤلف :—

«ان نظام الانتداب الذي نصت عليهِ المادة الثانية والعشرون من ميثاق عصبة الامم مسلم به انهُ بطبيعته نظام وقتي وأنهُ سيشاهد ان عاجلاً أو آجلاً الغاء الانتدابات عن البلدان المنتدب عليها والاعتراف باستقلالها . والميزة الهامة في هذا النظام اقراره بأن هذا التطور الذي يؤدي الى الاستقلال لا يتم الاَّ بعد ان تبرهن الامم المنتدب عليها أنها قادرة أن « تقف وحدها تحت ضغط الاحوال في العصر الحاضر » . على أن هذه الاحوال لم تحدَّد بطريقة ما كما انهُ لم توضع مقاييس للكفاءة عامة القبول يمكن ان تتجه اليها انظار الامم المنتدب عليها او أن يقاس بها مقدار الرقي الذي تبلغهُ كل أمة من هذه الامم

«وغير خافٍ ان وضع مقاييس معينة لمعرفة كفاءة الامم المنتدب عليها وتقرير مؤهلاتها للاستقلال ضروري لأمرين أولهما اعتباره خطوة جوهرية نحو الغاء الانتداب وثانيهما نزع الشك وعدم الثقة اللذين يخامران عقول الامم المنتدب عليها من جراءِ ما سمعوه من الوعود غير المحدودة بنيل الاستقلال ، واقامة هدف ظاهر تتجه اليهِ تلك الامم بقواها في سعيها الى الاستقلال . وقد كان الامل عند ابتداء بحثنا هذا في سنة ١٩٢٧ ان نلقي نوراً على هذه المشكلة المظلمة كما انهُ كان غرضنا ان نقوم بالبحث مقابلين بين مختلف المقاييس التي تقدمت بها الامم التي تطلب الاستقلال في نهضاتها القومية التحريرية لعلنا نستخلص منها مقاييس صحيحة عامة يمكن تطبيقها سياسيًّا تطبيقاً يظهره شيوع استعمال هذه المقاييس . وما جاءت سنة ١٩٣١ حتى قامت اللجنة الدائمة للانتدابات في عصبة الامم ، بعد تحليل المشكلة تحليلاً استدلاليًّا ، بوضع بعض الشروط العامة

التي يجب ان تحققها الامة قبل رفع نظام الانتداب عنها . فاتخذنا هذه الشروط هدفاً للاشارة والمقابلة بينها وبين المقاييس التي اظهرها تحليلنا الاعمال والسوابق التاريخية تحليلاً استقرائيًّا

«وقد قادنا البحث الى هذه النتيجة وهي ان المقاييس التي كانت توضع لحالات مختلفة الظروف من حيث الجنس او العنصر وجغرافية البلاد وماضيها التاريخي كانت تتشابه تشابهاً ظاهراً على وجه العموم الامر الذي يؤيد صحة الافتراض ان هناك مقاييس عامة يصح استعمالها في كل الاحوال . واذا كان قد ظهر فرق بعض الاحيان بين هذه المقاييس فانهُ كان نتيجة الملاءمة والمقتضيات السياسية ويمكن اعتباره شذوذاً يؤيد القاعدة العامة ولا يقاومها اذ انهُ كان شذوذاً ايضاً في تصرف الدول المختلفة

«والظاهر جليًّا ان مقدار الفائدة التي تجنى من هذه المقاييس في تقرير اهلية جماعة ما للاستقلال تتوقف على تمكننا بطريقة حسية ظاهرة من معرفة ما اذا كانت الجماعة المذكورة قد حققت الشروط التي تتطلبها هذه المقاييس . ولسوء الحظ ليس لدينا الاَّ القليل من الوسائل التي تمكن بها من قياس درجات التقدم التي تبلغها الجماعات قياساً بالكمية والمقدار . وايجاد وسائل كهذه لايزال مشكلة قائمة أمام مهارة الخبراء والعلماء الباحثين الاحصائيين»

فاذا عرفت ان المؤلف طبَّق هذه القواعد العامة على العراق وجزائر الفلبين والهند في دراسة مفصلة مقابلة وافرة الاسانيد شغلت ثلاثة فصول مسهبة وانهُ ضمَّ اليها فصلين في « مقاييس الاعتراف بالدول الجديدة » و « مقاييس الدخول في عصبة الامم » ، علاوة على مقدمة عظيمة الفائدة في تحديد موضوع الكتاب عرفت ان الدكتور رتشر ومساعديهِ قد أسدوا خدمة كبيرة للدول العربية بنشر هذا الكتاب الحافل بكنوز الحقائق والمبادىء السياسية.

***

على هامش السيرة

الجزء الثاني

للدكتور طه حسين بك ٢٨٤ صفحة من القطع المتوسط

حقًّا ان الدكتور طه حسين بك عميد كلية الآداب في مصر قد بلغ الغاية التي كان ينشدها من وراء تأليف هذا السفر النفيس ، وذلك بطريقة كلها حذق ودراية . وقد ابرز هذا احسن ابراز صديقنا الدكتور بشر فارس في الحوار الذي كان وضعهُ لحفلة تكريم معالي محمد حسين هيكل

باشا التي اقيمت في دار الاوبرا الملكية في الثامن عشر من شهر مارس والحوار يجري بين استاذ وطالب في الجامعة المصرية بعد مائة سنة . وموضوع الحوار « محاكمة فرسان السيرة الثلاثة » والفرسان هم محمد حسين هيكل (مؤلف « كتاب محمد ») وطه حسين (مؤلف « على هامش السيرة ») وتوفيق الحكيم (مؤلف « محمد ») ونورد هنا الجانب الخاص بكتاب الدكتور طه حسين بك لما فيه من صدق النقد والرشاقة في التعبير

الاستاذ — واما الكتاب الثاني ؟

الطالب — صاحبه كان دعامة من دعائم جامعتنا ، حفظت وسلمت ! وكان قد حلف لينصرنَّ الفكر الحر فلقي في سبيل ذلك مصاعب وللرجل رسالة جليلة منشورة في مجلة كانت تبرز في مدينة حلب (يعني « الحديث ») ساق فيها ما وقع له ودفع الإشكال القائم بين الدين والعلم . واما الكتاب فقل سمكة تتملص من بين اصابعك ، تقرأ فتقول : ما هذا علماً بل اساطير جُمعت وسردت في اسلوب لطيف وعبارة اخاذة . ثم تقلب فيه النظر فتقول : ليس هذا بعلم ولا بأدب وان كان جامعاً لهما ألطف جمع : لقد والله كان ذلك الرجل على جانب عظيم من الحذق . تراهُ يتشبث بنص السيرة اذ تحدث عن الرسول وافاض في الاخبار المتواترة ، ثم يفلت وينسرح ساعة يأخذ الحديث في غير ذلك . ويعينهُ في الحال الاولى علمه الثاقب بتاريخ الاسلام وفي الحال الثانية مخيلته الزاخرة

الاستاذ — وما كانت غايته ؟

الطالب — ان يرد جانباً من جوانب المنقول ادباً حيًّا تصاب فوائده على غير كلفة

الاستاذ — وهل ادرك غايته ؟

الطالب — نعم يا سيدي الاستاذ

ففي هذه الجمل القلائل ابرز صاحب الحوار ميزة الدكتور طه حسين المفكر الحر والمنشىء المتمكن في « هامش السيرة » ثم دل على انهُ لم ينزل عند رغبة عامة القراء اذ عالج الكتابة في السيرة وقلمه مستقل فقال ما شاء ان يقول متفنناً مصوراً من دون ان ينحرف عن الاصول وهو العالم بها ، حتى ان كتابه جاء يحير العقول بل يغلبها على امرها فيضطرها ان تقبل الادب القديم في شكل جديد كلهُ رواء ، ثم دفع صاحب الحوار ما اتهم به الدكتور طه حسين بك من جانب بعض النقاد لما قالوا انهُ انما عالج الكتابة في الاساطير . والتحقيق ان « على هامش السيرة » كتاب فيه ادب وعلم يتراسلان نحو غاية جليلة مفيدة هي « ان يردَّ جانباً من جوانب المنقول ادباً حيًّا »

مفرق الطريق

تأليف بشر فارس — طبعة فاخرة جداً في ٤٠ صفحة من القطع الكبير — مطبعة المعارف بمصر الثمن ١٢ قرشاً عدا أجرة البريد

عرف أبناء العربية عامة وقرَّاء المقتطف خاصة ورجال الاستشراق الدكتور بشر فارس أديباً متفنناً ، وبحَّاثة مدققاً ، ولغويًّا متضلعاً ، وعُرف الى جانب كل هذا بشاعريتهِ الرمزية العميقة التي يصوِّر بها أحاسيسه تصويراً ليس فيهِ جمود الواقع فتحس ان وراء ألفاظهِ عوالم شتى بها أشباح متلاحقة . ما تكاد تميز واحداً منها حتى تلقاهُ قد انطوى خلف سحر آخر يلاحقهُ

وللدكتور بشر عناية دقيقة باللفظ المتفق مع الجو الذي ينظم فيهِ أو يكتب عنهُ بل ان اللفظ من ألفاظهِ يخلق بذاتهِ جوًّا للمعنى ، ومن يقرأ قصيدته « الخريف في باريس » يتسمع قطرات المطر وهي تتساقط ، ومن يقرأ أغنيته لحبيبتهِ في الشروق ويستمع الى البيت التالي يستمع الى سقسقة العصفور منبعثة من ثنايا الالفاظ : —

سقسقَ العصفورُ ما سقسقَ همساً في وسادكْ

وما ذلك الاَّ للعناية التي يبذلها شاعرنا في المزاوجة بين اللفظ والمعنى وخلق الجو من هذا التزاوج

ولقد شاء ان يتحف لغتهُ في ناحية من نواحيها التي اختطَّتْ حديثاً في الادب العربي — ناحية الادب المسرحي — بأثر من آثاره ، فوضع مسرحية في فصل واحد ، وكلنا نعلم قلة هذا النوع في أدبنا حتى يكاد يكون الى العدم أقرب منهُ الى القلة غير انهُ لم يستطع ان يتخلى عن أسلوبهِ الرمزي فغمس ريشتهُ من ألوانه ورسم أفكاره وأغراضه واتجاهات نفسهِ رسماً خلق للفكر مجالاً بعيداً للتأمل وأفقاً مترامي الاطراف للخيال المسرح ، وقد أتحف المقتطف بدوره قرَّاءه بهذا الاثر . وقد مهَّد لهذه المسرحية بتوطئة فريدة في بابها بسط فيها الاسلوب الذي أجرى عليهِ مسرحيته ، وهذه التوطئة قطعة من الادب التحليلي الخالص للاسلوب الرمزي

قد يجد القارىء العادي صعوبة في فهم هذه المسرحية بل قد تتعب القارىء الذي لا يهيها إحساسه كله عند المطالعة او المشاهدة فتمر بهِ كما تمر الفرصة السعيدة بالمتناوم المتكاسل . وقد أشار الى ذلك المؤلف في توطئته

والمسرحية تصور لنا التجاذب النفسي بين العقل والشعور فتعرض لنا صورة تمثل على مسرح الحياة ، وخصوصاً في هذا الزمن الذي طغت عليهِ موجة الاستهتار ، أشخاصها ثلاثة رجلان وامرأة فأما الرجلان فأحدهما غارق في نفسه تائه عن رشده ، وثانيهما أحد هؤلاء المسحورين بالاضواء التي تلفهم بين دهشتها وتأخذهم ببريقها ، وأما المرأة فهي معلقة بين عالمي هذين الرجلين تسوقها عاطفتها فتكاد تهوي بها الى الحضيض فتصرعها ويجتذبها عقلها وقد ردَّها اليهِ الالم المنبعث

من نفس الرجل الاول فتستيقظ وتثوب الى رشدها وتتجه صعداً الى ثلج العقل تطفئ فيه حرارة العاطفة . إن قراء العربية التي طلع عليهم الدكتور بشر فارس بهذه المسرحية ليشاركوننا في شكره على المتعة الذهنية التي أتاحها لنا ولهم آملين ان لا ينقطع هذا الفيض « الصيرفي »

السير

محاضرات اذاعها محمد سعيد لطفي الحائز لشهادة الشرف من جامعة اكسفورد ومستشار الاذاعة اللاسلكية للحكومة المصرية — صفحاته ٢٣٧ قطع المقتطف حرف ٢٤ ابيض

لسنا في حاجة الى إقامة الدليل على ما للاذاعة اللاسلكية من مقام وأثرٍ في تعليم الشعب وتهذيبه . فهي مدرسة الامة ، يتصل اثرها باصغر القرى وأنأى الدور . او هي منبر عام يقف عليهِ الخطيب سواء أكان ام اديباً ام مؤرخاً ام واعظاً ، فلا ينحصر صوتهُ بين اربعة جدران ولا تقتصر فائدة ما يقول على عشرات او مئات . ومن هنا المكانة الاجتماعية التي احرزتها الاذاعة اللاسلكية في عصرنا ، وعلى مقدار ما يبذله رجالها من السعي لتحقيق اغراضها التعليمية السامية ، نهوضاً بالتبعة العظيمة الملقاة على عواتقهم، يحكم لهم او عليهم

وليس ثمة ريب في ان الاذاعة اللاسلكية للحكومة المصرية — ادركت منذ يومها الاول — على حداثة عهدها — ما عليها من تبعة كبيرة في نشر النور ، نور العرفان والارشاد — في طبقات الامة المصرية والامم الناطقة بالعربية في البلدان المجاورة . فاستعانت بالادباء والشعراء والعلماء والمؤرخين علاوة على حشد اسباب الطرب على انواعها لكي تنهض بجانب من التبعة الاجتماعية التي يشعر رجالها بانها تبعتهم الخاصة . والفضل الاكبر في تنظيم كل ذلك لمستشار الاذاعة الاستاذ محمد سعيد لطفي . ومع ان العمل الذي قام بهِ يستغرق وقت وجهد اكثر من رجل واحد ، عمد الى اعداد احاديث في « سيرة الرسول وبعض اصحابهِ وقرابتهِ » واذاعها. ولا نشكُّ في ان المؤلف المذيع اسدى خدمة عظيمة الشأن لسماع الاذاعة المصرية ، لاننا اشدّ ما نكون حاجة في هذا العصر الى بث ما اتصف بهِ اولئك الافذاذ من خلق قويم ، وعزم صلد ، وفضائل جعلتهم أئمةً في الدين والعلم والسياسة يؤتمّ بآرائهم النافذة وحكمتهم العالية ويُقتدَى بهم

وقد وصف المؤلف طريقتهُ في مقدمة ساقها الى والدهِ الكريم في الدار الآخرة فقال : « رويت التاريخ ياوالدي كما كنا نتحدث ساعات التسلية فلم ارهق المستمعين ولم اذكر اسماً إلاَّ لضرورة ولا بلداً الاَّ لحادث جلل ونزهت من تناولت سيرهم جميعاً عمَّا لهج بهِ الحاسدون وأدخله عليهم الاعداء والموتورون » . ثم اوجز طريقة تناولهِ لسير الخلفاءِ الراشدين ومعاوية وعمر ابن عبد العزيز وهشام وابي العباس السفاح وهارون الرشيد والامين وغيرهم من أقطاب الاسلام ولهذا الكتاب ميزة أخرى على غيرهِ من الكتب في انهُ أول كتاب عربيّ أُلِّف خاصة

للاذاعة اللاسلكية . وسيرى متتبعو الادب العربي الحديث ، إن انشاء محط الاذاعة اللاسلكية العربية ذو أثر كبير في توجيه أساليب الكتابة العربية ، لان ما يكتب ليذاع ، يجب ان يتصف بخصائص بيانية تختلف عمَّا يكتب ليقرأ ، وفي مقدمة هذه الخصائص البيانية الوضوح وقصر الجمل وتخير الالفاظ السهلة الجزلة ، وكلّ ذلك حتى يستقيم للمذيع تحقيق غرضهِ وهو الاستئثار باصغاءِ الجمهور . وكتاب الاستاذ محمد سعيد لطفي مثل طيب على هذا الاتجاه .

نباتات النحل الاوربية

European Bee Plants

ومجلة مملكة النحل

تأليف القس بايت الن — طبعته مجلة مملكة النحل بالاسكندرية — صفحاته ١٥٠ قطع المقتطف (مصورة)

ليس في مصر مَنْ لا يذكر للدكتور ابي شادي فضل الدعاية للنحالة المصرية واذاعتها والنهوض بهذه الصناعة الزراعية الى فن من الفنون يمارسهُ الطفل والفتاة كما يمارسهُ الرجل فقد دأب منذ تسع سنوات على تعزيز هذه الحركة حتى استطاع ان يحمل وزارة المعارف على ادخال النحالة في مدارسها وتدريب التلاميذ عليها ، وأنشأ من اجل ذلك مجلة «مملكة النحل» وأسس لها رابطة تضم كبار المشتغلين بهذه الصناعة وأصبح امر النحالة بطرقها العصرية من المسائل التي تعنى بها جميع الطبقات الزراعية في مصر . ولقد خطت مجلته الى سنتها التاسعة وهي تحمل لقرائها آثار كبار المشتغلين بالنحالة في العالم . وبهذه المناسبة نشر الدكتور ابو شادي كتاباً حديثاً باللغة الانجليزية عن النباتات العسلية او نباتات النحل الاوربية لعالم انكليزي هو القس بايت آلن وليس بغريب ان يكون احد القساوسة الانكليز عالماً نحَّالاً فتاريخ الانكليز العقلي حافل بآثار العلماء ولا سيما المواليديين منهم من طبقة رجال الدين

الكتاب علمي عملي يتناول اسم النبات السائر والعلمي وترتيبهُ في جدول الفصائل النباتية وخصائصهُ ووصف حبيبات لقاحهِ ومقامهُ بين النباتات التي يختلف اليها النحل لامتصاص أريها وتحويله عسلاً

هذا الوصف الموجز لا يفي بتبيان قيمة الكتاب العلمية وفائدتهِ العملية ولكن العالم الفاضل الاستاذ محمود مصطفى الدمياطي تفضل فعمد الى ترجمة أسماءِ النباتات الواردة في هذا الكتاب على نحو ما فعل في طائفة كبيرة من النباتات في الفصول النفيسة التي نشرها لهُ المقتطف بعنوان « مفردات النبات » بين اللغة والاستعمال ، وسيلحق باسم كل نباتٍ أشهر أوصافهِ وما يستعمل لهُ وبذلك تصبح مقالات الاستاذ الدمياطي — وسنشرع في نشرها في مقتطف مايو — مرشداً نافعاً يزيد من فائدة هذا الكتاب للنحالين في مصر والبلدان العربية

تاريخ ابن الفرات

المجلد التاسع : الجزء الثاني — عني بتحرير نصه ونشره الدكتور قسطنطين زريق والدكتورة نجلا عز الدين — جامعة بيروت الاميركية — وطبع بالمطبعة الاميركية ببيروت — صفحاته مع الفهارس ٥٩٠ قطع المقتطف

قلنا في مقتطف دسمبر ١٩٣٦ عند صدور الجزء الاول من المجلد التاسع من هذا السفر النفيس ما يلي

«صاحب هذا التاريخ هو ناصر الدين محمد بن عبد الرحيم بن علي بن الفرات المصري الحنفي وُلد سنة ٧٣٥ هـ ودرس على جماعة من علماء زمانه وأجازه فريق منهم . . . . وأكبَّ على دراسة التاريخ وكتابتهِ فوضع فيهِ مؤلفهُ الكبير . وتوفي ليلة الفطر سنة ٨٠٧ هـ

«أما تاريخهُ فقد أجمع المترجمون لهُ على انهُ كان كبيراً جدًّا تبلغ مسودتهُ نحو مائة مجلدة وان ابن الفرات لم يكمل تبييضه بل أتمَّ تبييض المائة الثامنة ثم السابعة ثم السادسة منهُ ، فلما بلغ المائة الخامسة فالرابعة أدركهُ أجلهُ . وذكروا ان هذا التاريخ كثير الفائدة الاَّ ان عبارتهُ عامية جدًّا غير سليمة من الاخطاء اللغوية . وقد جرى على قاعدة اكثر المؤرخين في عصره فرتب حوادث تاريخية بحسب السنين وأورد الوفيات في آخر كل سنة

«لم يحفظ من هذا الكتاب الاَّ نسخة واحدة فريدة يوجد منها في المكتبة الامبراطورية في فينا تسع مجلدات وقد نقلت بالفوتوستات للعلامة المغفور لهُ احمد تيمور باشا فوضع لها مقدمة وجيزة واستقصى المصادر التي اعتمد عليها ابن الفرات وذكر ما في النسخة من السقط والتقديم والتأخير ، وهذه النسخة محفوظة في دار الآثار المصرية . وفي مكتبة الفاتيكان مجلد يعتقد لوسترانج انهُ أحد المجلدات الساقطة من نسخة فينا وبين مخطوطات المكتبة الوطنية بباريس مجلد يظهر من وصف ده ملاين لهُ انهُ يمتُّ كذلك الى النسخة الاصلية . وفي مجموعة شيفر مخطوطة وصفها بلوشيه بأنها المجلد التاسع او الثامن من تاريخ ابن الفرات وهي تبدأ بأخبار الملوك الساسانيين وتنتهي بشعراء الجاهلية»

والجزء الثاني كالجزء الاول منشور على احدث الطرق العلمية في نشر الوثائق والاصول التاريخية تحقيقاً ومقابلة واسناداً . وفي هذا الجزء مائة وعشر صفحات من الفهارس للاشخاص والقبائل والشعوب والاماكن وهي تشمل متن التاريخ دون المقدمة اما الحواشي فلم يؤخذ منها الاَّ المنقول عن هوامش الاصل . والقاعدة في صنع الفهرس :« ايراد اسماء الاشخاص باكثر ما يمكن من التفصيل ذاكرين — بالترتيب — الاسم فالكنية بـ (ابن) فالنسبة ، فالكنية بـ (ابو) فالشهرة ومتبعين بقدر الامكان ترتيب المؤلف عند ذكره للاعلام بصورتها التفصيلية في الوفيات او في المواضع الاخرى . ولم نعتبر في الترتيب الابجدي الكلمات الموضوعة ضمن قوسين او حاصرتين او كلمة اطلب . كذلك اهملنا اداة التعريف والف ابرهيم واسمعيل واسحق وابن حين وقوعها في وسط الكلم . . . »

تاريخ الفن المصري القديم

تأليف الاستاذ محرم كمال

اخرج الاستاذ محرم كمال الامين المساعد بالمتحف المصري هذا السفر النفيس وقد بذل في اخراجه جهداً كبيراً وبحثاً مدققاً فقسم الكتاب الى عشرة فصول شرح فيها باسهاب كل ما تناوله قدماء المصريين من تنوع الحرف والصناعات في جميع الفنون فعرف في الفصل الاول طبيعة الفن المصري وقال ان فن كل امة يخضع كما تخضع اخلاقها لمؤثرات عدة تختص بطبيعة الاقليم الذي نشأت فيه . فالمناخ والمناظر وسائر ما تتميز بهِ امة عن اخرى ، كل ذلك يكيف الروح الفنية كما يكيف القوم انفسهم . « واذا اراد فن ان ينسج على منوال فنٍ آخر كان هذا خلطاً بين الافكار » . تصور معبداً كورنثيًّا او كنيسة نورمندية او هيكلاً صينيًّا تجد كلاًّ منها بطبيعة الحال مناسباً وملائماً لاحواله الخاصة التي اقيم فيها . ولكن اذا بني المعبد الكورنثي في انجلترا والكنيسة النورمندية في الصين والهيكل الصيني في مصر ، كان وضع كل منها خطأً كبيراً . ومن اجل ذلك اذا اردنا ان نفهم فنًّا ما وجب علينا ان نبدأ بتعرف عوامل هذا الفن وأحواله وخصائصه والجو الذي نشأ فيهِ

فالفن المصري اذا نظرنا اليهِ من وجهة الفن الصحيح الحقيقي نجده قد وصل الى اعظم مرتبة من الحقيقة ولقد نبا ذوق هذا الفن عن اقامة الابراج العالية التي لا يحيط ولا يمسك بها شيء ، كما انهُ لم يرد ان يعبر عن الجمال الخيالي ومشاعرهِ في البناء بما يخرجه عن حدود الرسوخ والثبات

والكتاب مزين بالصور الكثيرة التي تشرح كل الاعمال والصناعات التي قام بها القدماء المصريون . ومن فصوله فن العمارة المدنية والحربية والعمارات الجنازية والنحت والحفر والنقوش في الدولة القديمة ، وقد وزعته مجلة الهلال الغراء هدية على مشتركيها

الضرائب ومصروفات الدولة

تأليف روفائيل مسيحة — صفحاته ١٠٠ من قطع المقتطف ، مطبعة المجلة الجديدة

الاهتمام بدراسة المالية العامة حديث بالنسبة لغيرها من العلوم ولعلَّ السبب في هذا راجع الى ان العلاقة بين الفرد والحكومة كانت قائمة على الرهبة وقد أخرج الاستاذ روفائيل مسيحة هذا الكتاب وعالج فيه المبادىء العامة للضرائب وباقي ايرادات الدولة بشيء من الايجاز توخى فيها الناحية الاجتماعية لا الناحية الادارية التفصيلية كطرق جمع الضرائب وطرق صرف النفقات العامة

ولقد تعددت الضرائب في المجتمع الحديث فقلما يجد الانسان شيئاً خالياً من الضرائب ، فالثياب التي نرتديها والمأكولات التي نتغذىَ بها والمسكن الذي نأوى اليه والكتاب الذي نقرأه واللهى الذي نروّح فيه عن نفسنا كل هذه موضوعات للضرائب ولذا أصبح الانسان مجموعة متحركة من الضرائب ولهذا فقد أصبحت متصلة بحياتنا اتصالا وثيقاً

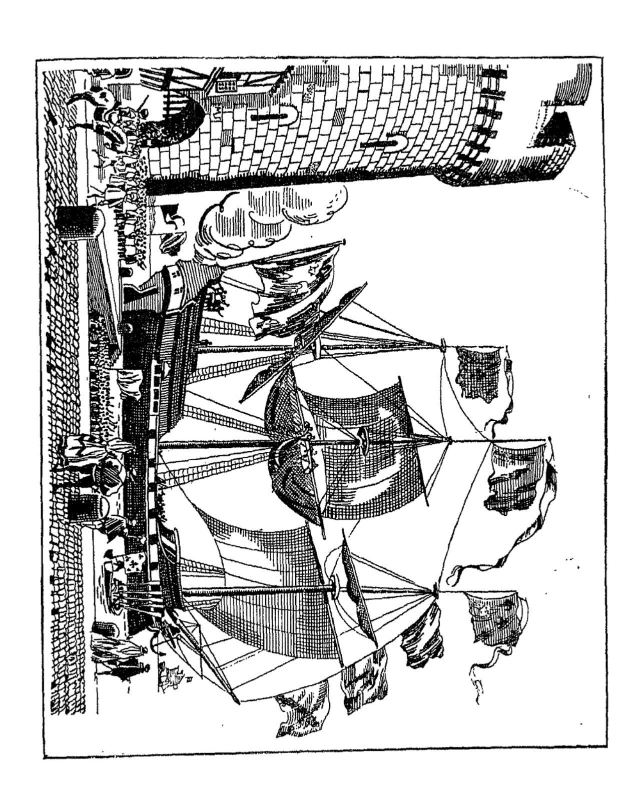
والكتاب مطبوع على ورق جيد طبعاً نظيفا ويطلب من جميع المكاتب الشهيرة بمصر

فهرس الجزء الرابع

من المجلد الثاني والتسعين

هذه الصورة

منقولة عن كتاب كتب خاصة للاطفال محتوياً على سيرة رائدٍ بحري فرنسي أميركي يدعى جاك كارتييه (١٤٩١ — ١٥٥٧) وقد نشرناها هنا لنحثّ كتّابنا على وضع تراجم لروّاد العرب المشهورين أمثال الاصطخري والمسعودي وابن حوقل والبيروني وغيرهم وان يراعى في هـــذه التراجم أسلوب التبسيط والتشويق لاغراء الصغار بالمطالعة وتزيين صفحاتها بصورٍ من قبيل هذه الصور الجميلة من ريش الرسامين العرب في مصر وغيرها من بلاد الشرق الادنى . ولا ريب في ان عملاً من هذا القبيل يكون ذا شأن عظيم في الثقافة العامة



المقتطف

الجزء الخامس من المجلد الثاني والتسعين

١ مايو سنة ١٩٣٨ — ١ ربيع اول سنة ١٣٥٧

بعد عهدي بعلم الفلك (١)

للدكتور فارس نمر باشا

كنا سنة ١٨٧٤ ، نحسب بعد الشمس عن الارض ٩٥ مليون ميل ، على أعتبار ان زاوية اختلافها الافقي الاستوائي ٨،٥٧٧٦ً ، كما حسبهُ الفلكيون من عبور الزهرة على وجه الشمس سنة ١٧٦٩ ، ولكننا كنا نسمع أن بعض الذين جاؤوا بعدهم من الفلكيين ، قاسوا زاوية اختلاف الشمس الافقي من النظر في اضطرابات حركات القمر ، ومن رصد المريخ . وكان متوسط قياسهم لها أيضاً ٨،٩٤ أي اكثر من ذلك بأقل من ٣ أعشار الثانية من القوس . وذلك يجعل بعد الشمس عن الارض ٩١٫٤٣٠٫٠٠٠ ميل فقط . وكان الجميع ينتظرون ان يتوصلوا الى حساب أدق من ذلك حين عبور الزهرة على وجه الشمس ، في ديسمبر ١٨٧٤ ، فلما حان الزمن كنت في بدء عهدي بعلم الفلك ، وقد ناهزت العشرين من العمر ، فبت أترقب ذلك بشوق عظيم ، كأني سأبلغ به غاية المقصود . ولكننا لما أصبحنا في ذلك اليوم ، كانت السماء مطبقة بالغيوم ، فخابت مني الآمال ، واشتدت بي الغموم ، وهرعت الى المرصد لاستقبال مديره ، أستاذي المرحوم الدكتور « كرنيليوس فان ديك » ، فوجدتهُ مثلي كاسف البال ، ولكنهُ مع ذلك يعلل النفس بالآمال ، خلافاً لما كنت أنا عليه . فجعلنا كل لحظة نخرج من المرصد ونرقب وجه

(١) نص محاضرة الرآسة في المجمع المصري للثقافة العلمية بدورته السابعة

السماء فلا نجد إلاَّ سحاباً يتلو سحاباً ، حتى اذا اقترب ميعاد العبور ، رأيت السماء قد صحت والغيوم انقشعت عن وجه الشمس، فظهرت ساطعة في القبة الزرقاء . فأسرعنا الى المنظار والساعات المعدَّة لتقييد زمن العبور ، ووقف أستاذي يرصد الزهرة ، وأنا وابنته نقيد وقت مماسَّتها لقرص الشمس ، وعبورها عليهِ بالساعات والدقائق والثواني ايضاً، واتّهينا من ذلك على ما يرام ، وقضيت بقية يومي وانا أتيه تارةً عجباً وأطفر طوراً سروراً بما تمَّ . وفعل غيرنا مثل ما فعلنا في مراصد عديدة متفرقة على وجه الكرة ، ولما حسبوا حسابهم وجدوا أنهم غير متفقين في زاوية اختلاف الشمس الافقي ، وان اختلافهم لا يزال يدور على كسر من الثانية من القوس ، بسبب الصعوبة في رؤية مماسة قرص الزهرة لحرف قرص الشمس بتمام الضبط والدقة ، ذلك لان الكسر الذي يساوي نحو ثلث الثانية من الزاوية ، لا يزيد عن غلظ شعرة من شعر الانسان إذا نظر اليها عن بعد ١٢٥ قدماً (أو أربعين متراً) ومع كل هذا الصغر وهذه الدقة في الزاوية ، فانّها تجعل مقدار الفرق في بعد الشمس عنا نحو ٣ ملايين من الاميال . فبقينا حيث كنا . ثمَّ عبرت الزهرة ثانيةً على وجه الشمس في ٦ ديسمبر ١٨٨٢ ، فقلنا في المقتطف عقب ذلك ما نصه :

« ولـكن أبى الطقس الذي قضينا زهرة العمر في رصد تقلباتهِ ومراقبة أحواله ، إلاَّ ان يحرمنا مرآها ، فسدل على وجه السماء برقع السحاب صفيقاً ملبداً لا تذيبهُ حرارة الشمس، ولا تنفذه اشعة نورها . فانثنينا عن المنظار آسفين ، وودعنا الزهرة وراصديها ، عالمين أنا لن نرى عبورها ، لأنها لا تعود فتعبر قبل مئة وإحدى وعشرين سنة ونصف سنة ، بعد أن ينقضي العمر ، وتمسي عظامنا رمياً »

وما زال الفلكيون بعد ذلك يقيسون زاوية الاختلاف هذه بطرق مختلفة ، كانحراف النور، ورصد احدى النجيمات حين اقترابها من الارض ، حتى علمت من مطالعاتي ان مؤتمر باريس الذي عقد سنة ١٩١١ ، اعتمد على حساب بعد الشمس عن الارض ٩٢٫٨٧٠٫٠٠٠ ميل . ولـكن المتفق عليهِ الآن ان زاوية الاختلاف الاستوائي ٨٫٨″ وهي تساوي ٩٢٫٨٩٧٫٠٠٠ ميل ، والفرق (٢٧٫٠٠٠) سبعة وعشرون الف ميل ، فلا نحاسبهم عليها

***

كان آخر عهدي بعلم الفلك ، أن النظام الشمسي مؤلف من الشمس وثماني سيارات فقط ، تدور حول الشمس عدا النجيمات والمذنبات والنيازك والشهب . ولـكنهم كشفوا بعد ذلك ، اي سنة ١٩٣٠ سياراً تاسعاً سموه « إفلوطون » وهو (إله الجحيم والنيران المستبطنة الارض عند قدماء اليونان) واقع وراء « نبتون » ويبعد عن الشمس اربعين ضعفاً من بعد الشمس عن الارض . وأذكر بمزيد السرور والفخر من مطالعاتي لاخبار هذا السيار الاخير ، أنهُ كان

لحضرة اخينا الفاضل الدكتور محمد رضا مدور مدير المرصد المصري بحلوان ، واحد اعضاء مجمعنا الموقر، مشاركة تذكر فتشكر في رصد هذا السيار بمنظار مرصد حلوان العاكس، وتصوير مواقعه لتتبع حركاته بين النجوم ، وتيسير حساب عناصره الفلكية على اهل الحساب

***

فارقنا مرصد بيروت سنة ١٨٨٤ ، وكان المعلوم حينئذٍ ان المريخ ليس له اقمار تدور حوله كالزهرة وعطارد، ولكنا علمنا بعد ذلك ان الفلكي «آصاف هول » مدير مرصد « وشنجتن» بالولايات المتحدة ، اكتشف له قمرين صغيرين سنة ١٨٧٧ ، واكبرهما لا يزيد طول قطره عن ١٥ كيلو متراً ، والآخر نصف ذلك القدر

وكان المعلوم ان للمشتري اربعة اقمار فقط ، اول من اكتشفها « غليليو » بمنظاره سنة ١٦١٠ . ولكنهم اكتشفوا له خمسة أقمار اخرى بين سنتي ١٨٩٢ و١٩١٤فأصبح عدد أقماره تسعة ، وهذه الاقمار تدور حوله في جهة دورانه على محوره ، الا الثامن والتاسع ، فانهما يدوران حوله في خلاف جهة دورانه ، اي على خلاف التوالي

وكان المعلوم ايضاً ان لزحل ثمانية أقمار فقط ، فاكتشف له الفلكي « بكرنج » قمراً تاسعاً سنة ١٨٩٩ . وهذا القمر التاسع يدور حول زحل في جهة مخالفة لجهة دوران زحل على محوره ، ولجهة دوران الاقمار الثمانية حول زحل

أما « أورانوس ونبتون » ، فلم يكتشف لهما اقمار اخرى غير الاربعة التي كانت معلومة « لاورانوس » ، والقمر الواحد الذي كان معلوماً « لنبتون »

وكان طول يوم السيار « اورانوس » ، اي مدة دورانه على محوره ، غير معلوم . ولكن في سنة ١٩١٢ وجد الفلكيان « پرسيفال لويل» و «سليفر» ، من رصد طيفه (بالسپكترسكوب) الذي سماه الاستاذ فؤاد صرّوف محرّر المقتطف[1] وأجاد «بالمطياف»، ان طول يومه ١٠ ساعات و٤٥ دقيقة . ثم أيدهما «مور» و «مِنزِل» الفلكيان في مرصد «لِك» بالولايات المتحدة، سنة ١٩٣١

وكذلك السيار نبتون كانت مدة دورانه على محوره غير معلومة ، ولا تزال غير معلومة تماماً حتى الآن . ولكن « مور » و« مِنزِل » المذكورين آنفاً ، حسبا انها ١٥٫٨ ساعة . واستدل « مكسويل هول » من تغير إشراقه ، أن هذا التغير يتم في ٧ ساعات وخمسين دقيقة . فاذا حسبنا ان إشراقه يتغير مرتين في مدة دورانه على محوره ، كانت تلك المدة ١٥٫٦٦ الساعة . والاكثرون الآن على ان مدة دورانه على محوره بين ١٥ و٢٠ ساعة

(١) محرر المقتطف :— بمشاورة الاستاذ عبد الرحيم بن محمود

وكان عدد الكويكبات التي كنا نسميها نجيمات Asteroids يزداد ازدياداً مطرداً في عهدنا فقد اكتشف « بيازي » الايطالي ، اول كويكب منها في سنة ١٨٠١ ، واكتشف غيره بعده ثلاثة أخرى، حتى بلغ عددها اربعة كويكبات سنة ١٨٠٧ ، وبعد ذلك لم يكتشف احد غير هذه الاربع مدة ٤٠ سنة ، وفي سنة ١٨٤٥ اكتشف احد هواة علم الفلك واسمه « هنكي » الكويكب الخامس . ومنذ ذلك الحين توالى اكتشاف الكويكبات الجديدة وخصوصاً بعد أخذ صورها بالتصوير الضوئي ، حتى تجاوز عددها ٢٢٠ كويكباً ونحن في بيروت . وتتبعنا اخبارها بعد ذلك الى أن بلغ عددها ١١٠٠ كويكب سنة ١٩٢٨ ، وأرجح الآن انهم اكتشفوا مئات اخرى غيرها ، ولكنهم لم يستوفوا رصدها ليحسبوا أفلاكها وهي لصغرها لا تكاد جاذبيتها تكون شيئاً مذكوراً ، حتى انهُ لو وقف إنسان في احدها وقفز إلى علو ٥٠ ذراعاً من سطحها لما اعتراهُ من الأذى ما يعتريه لو انهُ قفز الى علو نصف ذراع وهو على سطح الارض

وتتذكر انهُ في سنة ١٩٠٠ اهتم علماء الفلك اهتماماً عظيماً بأمر كويكب من هذه الكويكبات يسمى « إروس » (Eros) لانهُ يدور حول الشمس في فلك اهليلجي يدنيه كثيراً من الارض ، حتى تصير على بعد مليوني كيلو متر منهُ . ففي سنة ١٩٠٠ دنا منا حتى لم يبق بيننا وبينهُ سوى مليون كيلو متر ، فانتهز الفلكيون الفرصة في جهات مختلفة من الارض وتعاونوا على رصدهِ حينئذٍ للوصول الى معرفة بعد الشمس عن الارض

***

والشيء بالشيء يذكر — فقد اذاع فلكي ايطالي (سكياباريلي) في سنة ١٨٧٧ ، انهُ رأى بمنظار مرصدهِ خطوطاً مستقيمة على وجه « المريخ » . ثم عاد فأذاع سنة ١٨٨١ ان كثيراً من هذه الخطوط التي كانت مفردة ، صارت مزدوجة ، وسماها (Canale) أي ترعاً أو قنياً ، فهاج خبره هذا خواطر الفلكيين في الاقطار ، وكثر اخذهم وعطاؤهم فيهِ . واتصلت اقوالهم بالصحف العمومية فأذاعوها في الاصقاع طولاً وعرضاً ، وبنوا عليها العلالي والقصور . فقال قوم ان المريخ مسكون بأناس مثلنا يحرثون ويزرعون وفيهم المهندسون الذين يهندسون الترع للري . وقال آخرون ان اهل المريخ حفروا الترع المزدوجة بعد الترع المفردة ، لكي يخاطبوا أهل الارض وينبهوهم الى وجودهم . وجعل البعض يقترحون عمل ترع مثلها على الارض ، أو اضرام نيران عظيمة على مسافات طويلة ، او وضع علامات اخرى ظاهرة على سطح الارض ، لافهام اهل المريخ اننا فهمنا مرادهم من حفر ترعهم ، ونحو ذلك من القال والقيل ، والكلام العريض الطويل

ولا ازال اذكر استاذي العظيم ، قدس الله روحه ، وهو يرصد سطح المريخ بالمنظار

العاكس في تلك الليالي ، وأنا واقف بجانبه ، ثم يقول لي تعال وانظر ، فأرى احياناً خطاً أو خطوطاً مفردة أو مزدوجة ، ولا أكاد أقطع حتى الآن إن كانت خطوطاً على سطح المريخ او سمادير في عيني من شدة التحديق . وكان أستاذي يطرق طويلاً وهو يفكر ، ثم يقول : ترى أهذه من صنع الطبيعة ؟ وكيف يمكن ان تكون من صنع الاحياء ؟ وبعد ما يطلق كلانا العنان للخيال حتى يطاول المريخ ويكتنفهُ ، ثم يعود ولا يأتي بطائل ، يتنهد أستاذي ويتحسر ويقول : آه ، ياليتني كنت قد ولدت بعد اليوم بخمسمئة سنة ، لكي أعلم ما يخبئهُ عنا الزمان الآن . فأقول في سري ولو ولدت بعد الف عام لتحسرت كما تتحسر الآن ، لأن ما يبقى خفيًّا عنا حينئذٍ ، يكون أكثر من الخفي الآن

وبعد ان فارقت بيروت ومرصدها ، وطلّقت علم الفلك بأعوام، سافرت الى أوروبا سنة ١٨٩١ ، وأتيت « ميلانو » وقصدت مرصد « بريرا » وقابلت مديره « إسكيابارلي » وسألتهُ في سياق الكلام عما جرى بترعه ؟ فضحك وقال : ان قوماً يتابعونني وآخرين يخالفونني . وهزّ كتفيه كمن يقول ، دعنا منها الآن ، وسنحتكم الى الزمان

ثم علمت من مطالعاتي ان هذه الخطوط لم تعد تظهر مدة ١٠ أعوام او أكثر ، وبعد ذلك عادت فظهرت ورآها الراصدون ورسموها في خرائط « المريخ » وصوروها تصويراً ضوئيًّا أيضاً . ولا يزال الفلكيون مختلفين في أمرها ويقولون انها تختلف كثيراً في عرضها واتجاهها . وأن زيداً يراها على شكل ، وعمراً على آخر ، بحسب المنظار الذي ينظرها به

وهناك ظاهرة أخرى دامت ايام اشتغالي في مرصد بيروت مساعداً للدكتور « فان ديك » مديره ، ثم مديراً لهُ بعده ، وهي البقعة الحمراء الكبيرة التي ظهرت على وجه المشتري سنة ١٨٧٨ ودامت حتى فارقت المرصد سنة ١٨٨٤ . وقد كان لظهورها سماع ورنين كثير بين الفلكيين ، والصحف التي تروي أخبارها . فقد كان شكلها في أوّل أمرها بيضيًّا ولونها أحمر داكناً، وبلغ عرضها نحو ١٤ الف كيلو متر (٨٧٠٠ ميل) وطولها نحو ٤٠٠٠٠ كيلو متر (٢٥٠٠٠ ألف ميل) وظهرت ظهوراً جليًّا جدًّا على سطح المشترى ولقبها الافرنج بالبقعة الحمراء العظيمة، واشتدت حمرتها بعد مضي الحول عليها ، ثم حال لونها على توالي الاعوام . وقد علمت من مطالعاتي لاخبارها انها خفيت شيئاً فشيئاً ولم يبق منها الا أثرها منذ ٢٠ سنة الى الآن . ويظهرلي من قراءة ما قالوا في تعليلها ، ان حقيقة امرها لم تزل مجهولة الآن كما كانت ايام رصدي لها منذ نيف وخمسين عاماً

ولست اقصد في هذه المحاضرة استقراء كل ما جدَّ اكتشافه في النظام الشمسي بعد عهدي بعلم الفلك . وانما اذكر اكتشافاً آخر وهو تغيرّ عرض المكان من حين الى حين تبعاً لتغير المحور الذي تدور عليه الارض دورتها اليومية ، بسبب تزحزح مواد في باطنها عن مواضعها

الى مواضع أخَر ، بسبب تعرّي سطح القارات ، وتأثير اختلاف الفصول فيها . وقد خطر ذلك على بال « يولر » من اكابر علماء الرياضيات في القرن الثامن عشر ، وحسب حسابه ، وعين مقدار تأثيره . ولكن لم يستطع احد اثباته فعلاً بالرصد والمشاهدة ، الاَّ في سنة ١٨٨٨ حينما اثبت « كستنر وشَنْدلر » — (Keistner & Chandler) ومن تبعهما من الفلكيين ، ان قطب الارض يتغير تغيراً ضئيلاً جدًّا في مدد معينة ، وبالتالي ان عرض المكان يتغير كذلك ولكن تغيره محدود وقليل جدًّا ، بحيث لا يؤثر في هواء المكان واقليمه على اختلاف فصوله وانتقل الآن من النظام الشمسي الى غيره

***

ابنا فيما تقدم ان علماء الهيئة اكتشفوا في الخمسين السنة الماضية ، اقماراً واكتشافات اخرى مختلفة لم يكتشفها الذين سبقوهم . ولا خلاف في ان اكتشافهم لها كان بعضه بجدهم واجتهادهم ولكن لا جدال ايضاً في أن معظم توفيقهم كان بزيادة الاتقان في صنع الآلات الفلكية ، واستعانتهم بالتصوير الضوئي والحل الطيفي والآلات الاخرى التي بلغت الغاية في دقة الصنع ، وتقسيم الزوايا. فقد كانت آلات مرصد « بيروت » وأنا أديره ، وافية بأغراض المرصد وحاجاته ، ولكنها على ما أسمع ، كانت بالقياس الى آلاته الآن أو الى آلات مرصد حلوان ، كأنوال الحاكة في الكرداسة بقرب الاهرام ، الى أنوال معامل الغزل لشركة مصر في المحلة الكبرى . ولا أزيد في المبالغة فأقول : كنسبة أسلحة الاحباش الى أسلحة الايطاليين الذين يقاتلونهم في وادي نهر « تمبين » ! ويطول بي الكلام جدًّا لو أردت الاسهاب في بيان تلك الآلات إجمالاً بل يعجز قلمي عن الشرح او الوصف لو شئت شرحها ووصفها تفصيلاً ، فأضرب صفحاً عن ذلك ، وأقول ان المنظار كان أعظم مميز لعلم الهيئة عند المحدثين ، على ما كان عليه عند المتقدمين . ولا أدري ما الذي كان البشر يعلمونه عن الكواكب لولاه ، غير ما وصل اليهم من الاقدمين عن صورها وأسمائها وحركات بعضها وأزمان دورانها . فالفضل فيما اتصل اليه علمنا بعد ذلك ، معظمه للمنظار وتوابعه ، وللتصوير الضوئي[1] (الفوتوغرافي) وللحل الطيفي . والمنظار إما كاسر للنور ، وإما عاكس له . ولعل « غليليو » كان أول من استعمل المنظار الكاسر الذي صنعه لنفسه في أوائل القرن السابع عشر في رصد الشمس والقمر والكواكب ، فاكتشف الكلف على وجه الشمس والجبال في القمر ، والاربعة الاقمار الاولى من أقمار المشترى ، وكان الفيلسوف « اسحق نيوتن » أول من استعمل منظاراً عاكساً لرؤية النجوم سنة ١٦٦٨ وكان قطر مرآة الشبح في

---

(١) محرر المقتطف : فضل المقتطف التصوير الضوئي على الشمسي لان هذا الضرب من التصوير لا يكون دائماً بضوء الشمس

منظاره لا يزيد عن بوصتين . ثم أخذ صناع الآلات البصرية والفلكيون يفتنّون في الصنع ويتبارون في الاتقان . وامتاز الفلكي الانجليزي « وليم هرشل » بصنع عدة مرايا عاكسة ، الواحدة اكبر من الاخرى بين سنة ١٧٧٤و١٦٨٩ حتى أبلغ قطر مرآة الشبح أخيراً ٤ أقدام (٤٨ بوصة) واكتشف بها أقمار « أورانوس » وغيرها من أقمار « زحل » ، و٢٥٠٠ سديم ونجوماً ثنائية أي مزدوجة حقيقية . وفي سنة ١٨٤٥ صنع اللورد « رُصْ » منظاره العاكس المشهور وقطر مرآة الشبح فيهِ ٦ أقدام(٧٢ بوصه) ورأى بهِ السدم الحلزونية ولم يزالوا يتبارون في تكبير هذه المناظير العاكسة حتى اوصلوا مرآة الشبح فيها الى ١٠٠ بوصة في منظار «هوكر» سنة ١٩١٩ وهو المركب في مرصد جبل «وِلسن » بولاية « كالفورنيا » في الولايات المتحدة الاميركية ، وهو الآن اكبر منظار ، ووزن مرآة الشبح فيهِ ٤ اطنان ، وقد شرعوا في صنع مرآة أكبر من هذه قطرها ٢٠٠ بوصة ، وينتظر ان يتم صنعها وتركيبها سنة ١٩٤٠

وكما تسابقوا في صنع العاكسات وتكبيرها ، تسابقوا ايضاً في صنع الكامرات وتكبيرها، حتى أبلغوا قطر بلورة أكبرها ٤٠ بوصة في المنظار المركب في مرصد « يِركِس »

ويخيل اليَّ انهُ بعد هذا الاتقان والتكبير في المناظير ، وفي بعض الوسائط التي استنبطوها ليستعينوا بها على رصد ما لا يستطيعون رصده بالمناظير وحدها ، كتصوير النجوم بالتصوير الضوئي وحل ضوئها الى الالوان المختلفة التي يتركب الضوء منها لمعرفة المواد التي تتركب منها ولاكتشاف حركاتها ، وقسمة الزوايا الى اقسام في منتهى الصغر والدقة ، وغير ذلك من الآلات البصرية والهندسية التي تشاهد الآن في المراصد المستكملة وسائط الرصد — أقول إنهُ يخيل اليَّ بعد ذلك كله انهم يحوّلون عنايتهم الآن بصفة خاصة الى مجموعات النجوم والكواكب الخارجة عن النظام الشمسي ، ويتقدمون في ذلك بخطى أوسع كثيراً مما كانوا يتقدمون بها في عهدي . فقد كانوا يقيسون بعد النجوم بمقياس زاويتها الاختلافية، متخذين فلك الارض حول الشمس قاعدة لذلك ، فعلموا بذلك الاختلاف السنوي لاثني عشر نجماً ، وانها تبعد عنا بعداً هائلاً ، تتخذ فيهِ سرعة النور مقياساً له .

ثم اهتدوا الى التصوير الضوئي لقياس زاوية إختلاف الثوابت ، فلم تأت سنة ١٩١٤ حتى كانوا قد علموا اختلاف ١٨٧٠ نجماً ، وحسبوا أبعادها عنا ، ثم وجدوا ان قياس زاوية الاختلاف بهذه الطريقة يحتمل خطأً $\frac{١}{١٠٠}$ من الثانية من القوس ، بزيادة أو نقصان ، و $\frac{١}{١٠٠}$ من الثانية يكاد لا يحده البصر ، ولكنهُ مع ذلك يؤثر في معرفة البعد المدقق ، فعدل كثير منهم عن هذه الطريقة ، وجعلوا يعوّلون على المطياف (Spectroscope) لقياس زاوية الاختلاف ، فعينوا بهِ ، اختلاف ١٦٥٠ نجماً بحسب مطالعاتي حتى الآن [لها بقية]

الليل في صحراء مصر

للشاعر المستر (William Gray) وليام جراي
مهندس اللاسلكي بالجيش البريطاني بمصر

بدا الهلال مختالاً في القبة الزرقاء . وكأنما خلعت عليه « إزيس » من جمالها الفتان ! ها هو الفضاء بيننا ساجٍ وكأنهُ يحلم بنجومٍ لم تولد بعد !!

* * *

فوق صدر السماء الازلية يمضي الهلال في رحلته . لا يملّ المسير ! بينما أنا ، اضطجعت على الرمال مأخوذاً كمن قد سُحِرْ . أحلم بآمون . . .

* * *

ها هي ربّة الفناء ! كلما حرّكت أجراسها استيقظت بعض نسائم لا تلبث أن تموت ! وهناك من أعماق وادي الموت يُسمع نداؤها الرهيب ! !

* * *

وإلاهة الشر بوجهها المتجهّم ! قد كفّت عن الجولان
ورقدت مسربلة في عارها لتستريح ! بينما تتجاوب في جوف
الصحراء صيحات ابن آوى المنبعث صداها من الغرْب ! !

* * *

والوادي الخصيب ! تعلوه ابتسامات الكرى غارقاً في النوم على نغم هَدْهَدةٍ حنون . وقد رقدت «ازيس» على شاطىء النيل تملأ النهر بفيض دموعها . . .

* * *

وحتى عيون «أبي الهول» ، تلك العيون التي لا تنام ، يبدو عليها
فتور الوَسَن وهي ترنو الى السماء تنتظر الإلـه « راع » (١)
راكباً قاربه عائداً مع الشروق . من خلال ضباب الفجر ! !

* * *

. . . . وهنا امتدت يد الكرى السحرية الى أجفاني فتلاشى كل
شيء وتركتني على صدر الرمال يحنو عليّ الليل في صحراء مصر ! !

[نقلها : محمد فهمي]

---

(١) اسم الاله الشمس التي كان يعبدها قدماء المصريين



ابو العلاء المعري

وفلسفة التاريخ

بحث في أحد جوانب الفلسفة العلائية

لعلي أدهم

ابو العلاء المعري شاعر كبير عرك الحياة وبلا الناس وترك في شعره ذخيرة لا يستهان بها لقراء القلب البشري ومفسري غرائب النفس الانسانية ، ولكن شعره الحاشد بالتبرم والسخط والغاص بالتشاؤم والتطير لا يسمو بك فوق متناقضات الحياة الى عالم الاتساق والانسجام ولا يرفعك الى الجو الفني الهادىء حيث تنسى الاوطار واللبانات ولا تهفو بك احزان الحياة ولا تطرقك هموم العيش ، وهو حكيم مخلص يكشف لك عن اعمق علاقات الكون بالانسان ويجلو لك افانين الطباع ويرسل الضوء في غيابات النفس ولكن حكمته لا تهدي الضال الى الصراط المستقيم ولا ترفع المصباح لساري الليل وخابط العشواء ولا تؤاسي من ساءه الدهر وتنكر له الحظ ولا ترد الى الامل من ازمع اليأس ولا تزيد المقدامة الشجاع اقداماً وشجاعة بل قد توهن ارادته وتثلم عزيمته وتيئسه من الصعود الى مصاف الابطال ومراتب العظماء

وابو العلاء هو هادم صروح اليقين وقاطع طريق الآمال البشرية، وهو يكمن لها في الشعاب والمثاني لاغتيالها ولا يكتفي بتركها جريحة دامية بل يقصفها قصفاً منكراً ويجهز على حياتها، وتجول من شعره في صحراء مترامية يقصر عن مداها الطرف ومهما ضربت في نواحيها فلن تصادف شجيرة واحدة تستذري بظلها، بل لاترى فيها اثراً للنبت والحشائش وتشاؤمهُ من الرسوخ والقوة بحيث يصح ان يكون معبراً عن تشاؤم جيل برمته او سلالة من السلالات البشرية بأسرها ، ولئن كان المتنبي يمثل جانب القوة والطموح من النفس العربية والبحتري يصف الجانب المتماوج الطروب من حياتها فان المعري يعبر عن الجانب المتطير منها كما عبر شوبنهاور عن تشاؤم الالمان وكما افصح ليوباردي عن تشاؤم اللاتين في القرن التاسع عشر ، وقد اعلن المعري على الحياة معركة لامهادنة فيها ولا هوادة وتدرَّع لها بدرع موضونة من اليأس والزهد وجعل يقذفها بحملات شعواء تستطال تتجاوب باصدائها الدهور وسيجد فيها كل مفكر مهما بلغ من رضاه عن الحياة درساً صالحاً وعبرة صادقة

فما هو سر تشاؤم الرجل ؟ وهل هو عدوى عصره ومرض جيله ؟ وهل يئس المعري لانهُ أبعد الامل وأغرق في حسن الظن بالحياة فأيقظهُ من رقاده نذير الشقاء وداعي الألم ؟ وهل حلم المعري حلم الكمال وصحا من نشوة الحلم ولا تزال صورته باقية في معالم ذاكرته ثم التقى بالواقع المشوه الجديب فكرههُ واشاح بوجهه عنهُ ثم شرع بعد ذلك يثأر لنفسه المخدوعة بمحاولة هتك اسرار الحياة وتعديد مساوئها ؟ وهل عاش المعري حسير لباناته وصريع امانيه وعلالاته ؟ وهل كان له طموح في الحياة وامل في الصولة والغلبة فلما سلبهُ الدهر بصره ونكبه في سلاح من أقوى الاسلحة مضاءً في معركة الحياة أضمر في نفسه كراهة الحظ وتمرد على الاقدار ولعن الايام ؟

لست ارى رجاحة اي وجه من هذه الوجوه ، وليس في حياة ابي العلاء وما انتهى الينا من اخباره ما يدل على انهُ كان حالماً بالكمال ولوعاً بالمثل الاعلى ، ولم يخدع المعري عن حقيقة الحياة وقد أحسَّ من أول امره فوضى الحياة وخداع الاقدار ومماطلة الحظوظ وظل طول عمره يجمع الحقائق ويعبئها وينظمها ويسلط عليها ملكته الفنية ليهاجم بها الآمال ويمزق شملها

واذا رجعنا الى عصر المعري لنستقرىء علاقته بهِ ولنعرف هل استمد المعري تطيره من احوال عصره المضطربة ونشبع بهِ من جوه القاتم وجدنا المسألة غير مقنعة ولا شافية ، ولقد كان عصر المعري عصر شك وانحلال وانحدار في مهابط التدهور ، ولكن تشاؤم المعري كان أبعد اعراقاً من ان نعزوه الى حالة عصره ، وعبقرية المعري بطبيعتها عبقرية حزينة وقد قوى عصره نزعة التطير في نفسه وشحذ يأسه وأكد حنقه على الايام وتصاريفها ولكنهُ لم يخلق هذه النزعة ، وقد لاحظ اناتول فرانس ان الفلاسفة المتطيرين قد يظهرون في اوقات ازدهار الحضارة وصفاء الجو ، والمسألة قبل كل شيء مسألة مزاج شخصي وطبيعة نفسية قد يزيدها العصر قوة دون أن يوجدها وقد يضعفها ويحبس تيارها ولكن دون ان يقضي عليها ، واهم العوامل المكونة لتطير المعري كامنة في نفسه ضاربة في صميم طباعه ومردها الى احساسه الفردي ومشاعره الشديدة اليقظة والتنبه ، وابو العلاء بمزاجه من الارواح المستوحشة من زهرة الدنيا النافقة على الوجود المؤثرة لظلمة العدم وصمت الفناء ، وهو يكره الحياة في الصميم والجوهر فضلاً عن الصور والاعراض ولا يشكو عصراً ليمدح آخر وانما كل العصور عنده سواسية والناس جميعهم اشرار خساس الطباع ليس لكسرهم جبر ولا لدائهم دواء يستطب بهِ فلا سبيل للامل ولا معنى للحرص على النسل في مثل هذا الوجود الخاسر ، ويرى شوبنهاور ان الحياة في نفسها «جريمة» نكفر عنها باحتمال آلامها ويرى المعري انها «جناية» جناها الآباء القساة على اولادهم المساكين وانها مصيبة تعالج بالبر والاحسان

فكونك في هذي الحياة مصيبة يعزيك عنها ان تبر وتحسنا

وينفرد أبو العلاء من بين شعراء العرب قاطبةً بميزة واضحة لا سبيل الى نكرانها وهي انهُ

أقربهم في مستوى الفكر والثقافة الى فكر الغرب في العصور الحديثة ، وكأن فكره الجوال قد نقله من عصره الى افق الفكر الاوربي الحديث ، ومن يدمن قراءة المعري يلحظ اوجه الشبه بينهُ وبين امثال شوبنهاور وليوباردي وفينجر واناتول فرانس وكارلايل وغيرهم من اعلام الفكر الغربي ، بل ان هناك مشابه قوية بينهُ وبين شكسبير نفسه ، وفي اعتقادي ان هذه المشابهة البارزة لم تجيء كلها عفواً ويمكن الاستعانة على فهمها بشيء يسير من التحليل التاريخي ، ولا ريب ان في كل عبقري جانبين ، احدهما عالمي والآخر زمني محلي ، والجانب الاول متصل بمزاجه الخاص ونفسه الدخيلة المطوية في ظلمات الخفاء ، والجانب الثاني متصل باحوال العصر وخاضع للتفسير والبحث وأرى أن هناك شبهاً من وجوه كثيرة بين عصر المعري والقرن التاسع عشر من ناحية وكذلك مشابهة عامة في المزاج الاصيل والطوية الكامنة بين المعري والكثيرين من كبار مفكري الغرب والتئام هذين السببين قد زاد الشبه العام توكيداً وجعله من الوضوح بحيث يسهل لمسه من غير كبير كلفة

كان عصر المعري من أرقى عصور النضج الفكري للحضارة الاسلامية مع اضطرابهِ الشديد من الوجهة السياسية ، وقد تفشو عوامل الانحطاط في ابان النضج الفكري ، والمعروف ان العصور التي تتراخى فيها الروابط الاجتماعية وتتفكك الوحدة ، هي عصور الضعف في حين ان العصور التي تقوى فيها تلك الصلات ويكون المجتمع أشبه بوحدة عضوية هي عصور القوة ، وقد تكون عصور القوة والوحدة راكدة من الوجهة الفكرية والعلمية مجدبة من الروح الفنية ، وقد تكون عصور الانحلال والضعف زاهية بالحياة الفكرية مشرقة بالآثار الفنية ، وقد كان عصر المعري في جملتهِ من عصور الضعف التي غلب فيها الشك اليقين. وتحللت فيها العصبيات وفترت المبادىء وضعفت فكرة « السلطة العامة المحترمة » وامتهنت في شخص الخليفة العباسي أكبر ممثليها وتهيأت الافكار لشيء كثير من حرية الفكر ، وانما مهّد لها السبيل ضعف التعصب وانطفاء جذوة اليقين وانتشار الشك وتناول كل شيء بالبحث والنقد . وكذلك في القرن التاسع عشر كان العصر مكفهر الافق قد تخلخلت فيهِ أركان المجتمع بسبب الهزّة التي أحدثتها الثورة الفرنسية وهدمها للنظم القديمة ومحاربتها الآراء العتيقة ومحاولتها القضاء على التقاليد ، وكان الانسان واقفاً بين بناء اجتماعي مهدم وبناء لم تتم بعد اقامتهُ ، وكان الموقف موقف شك وحيرة وتساؤل ولهفة يكثر في مثله الفلاسفة المتشككون والمتطيرون ويظهر من ناحية أخرى دعاة الاصلاح وبناة النظام الجديد يبشرون بالعصر المقبل ويجدّدون اليقين الواهي ، وأمثال هذه الاوقات صالحة للفكر مثيرة لهُ لانهُ يجد في اضطرابها وفوضاها مجالاً للنماء والاتساع ويأمن خطر العدوان على حريته واقتحام حرمه لان فرصة التفكك والانحلال تهيىء لهُ أسباب الحرية وتمكنهُ من تصفح الخواطر المختلفة والقيام بسياحتهِ في عالم الافكار المتناقضة والمذاهب المختلفة ، وليس في وسع

مفكر مثل نيتشه او شوبنهاور او رينان أن يعبر عن نفسهِ التعبير الكامل في عصر مثل عصر لويس الرابع عشر اوالعصور الوسطى ، وما كان ليسمح عصر مثل عصر عبد الملك ابن مروان او عصر الرشيد بوجود المتنبي او أبي العلاء ، وهذا من أشد ما ينعاه الفرديون على أنصار الاشتراكية لانها تحاول بإحكام الروابط الاجتماعية ان تصبّ الناس جميعاً في قوالب متشابهة وتقضي على التنوعات الفردية واختلاف ألوان الامزجة .وقد كان أبو العلاء كسائر كبار الشعراء نهم الفكر شغوفاً بتعرف كل شيء مطبوعاً على تلك العالمية الخاصة بالعبقريين ، وهذا الاتساع النفسي من شأنه أن يوجه النظر الى التاريخ ويغري بالتعمق في تأمل حوادثه واستعراض صوره ومن ثمّ كان للثقافة التاريخية دخل كبير في تكوين كبار شعراء العالم وفي أشعار هوميروس وفرجيل وروايات شكسبير وجيتي وشلر وبيرون شواهد نواطق بذلك ، ولم يكتف بعض الشعراء بتناول التاريخ في منظومات الشعر وروائع الملاحم بل أوقف جزءاً من حياتهِ على كتابة التاريخ كما فعل شلر في كتابة تاريخ حرب الثلاثين سنة وكما فعل هيني في مقالاتهِ الانتقادية

وأبو العلاء الذي بزّ شعراء العرب وحلق فوقهم بعبقريتهِ العالية واخلاصهِ الجم للادب والحياة يفوقهم جميعاً من ناحية النظرة التاريخية ، ومن كان في عمق أبي العلاء فلا مفرّ لهُ من ان يطالع قصة الخليقة ويجول في تاريخ الانسانية ليسرد أخبارها وينصّ عبرها ويتأمل ما انتابها من آمال وآلام وما لحقها من يأس ورجاءٍ وما تعلقت بهِ من عقائد ومذاهب وما مرّ عليها من مختلف الاطوارِ ومتنوع الحالات ، وقد وجد في التاريخ مجالاً رحيباً لتطيره ومنفذاً لسخريتهِ، وكان يشعر بغزارة معرفته التاريخية ويقول

ما كان في هذه الدنيا بنو زمن الاّ وعنديَ من أخبارهم طرف

وفي الحق ان أبا العلاء لم يقصد بهذا البيت المباهاة الكاذبة والفخر الاجوف وانما قرَّر حقيقة تدعمها لزومياته وتشهد بصدقها سائر آثاره

ومن أدمن النظر في التاريخ وأطال التأمل في حوادثه لا بدّ ان ينتهيَ فيهِ الى رأي خاص ويكون لنفسهِ فلسفة ينظر الى التاريخ في ضوئها مهما كانت قيمة هذه الفلسفة من الحق او من الباطل وسواء أراد قارىء التاريخ ذلك ام لم يرده وأدركهُ أم لم يدركهُ . ورجل مثل ابي العلاء حائر شاك منفرد بنفسهِ ماهر في التنقيب على مواطن الضعف في الانسانية نزاع بفطرتهِ الى التطير من الواضح اللازم ان تسمع في فلسفته التاريخية صدى يأسه وترى أثر تململه وتسخطه، وقد كان ابو العلاء شديد الفردية في احساسه يصادم المجتمع بفرديته الاوحدية الشاذة ولا يرضى النزول من برجهِ العاجي للانغماس في تيار الجماعة وانما الدنيا ملعب وهو متفرّج لا لاعب كما في قوله

والارض رقعة لعَّاب مقسمة منها سهول وأجبال وحزان

وهو لا يرى من ثَمَّ في التاريخ الاَّ الفرد المحدود القدرة يصاول الدهر فيغلب والمجتمع في نظره كتلة من الافراد لا وحدة عضوية ، ولم يجتمع هؤلاء الافراد في ظل فكرة روحية او باعث سام ، كلاَّ وانما ارغمهم على الاجتماع الطاعية والحيوانية

ما اشبه الناس بالانعام ضمهم الى البسيطة مصطاف ومرتبع

وتطير ابي العلاء جعلهُ يرى انتصار الشر على الخير واستفاضة الظلم والبغي في الحركة التاريخية ، والحقيقة ان لكل ناظر في التاريخ مذهباً خاصًّا يتلوَّن بألوان مزاجه ويتصل بعقيدته وطبيعة اعتقاده ، وقد جمع الاستاذ روبرت فلنت في كتابه الحفيل عن فلسفة التاريخ نيفاً وثمانين فلسفة من فلسفات التاريخ لطائفة من أئمة المفكرين من قدماء ومحدثين

ويختلف المؤرخون في تفسير التاريخ واستكناه حقيقته المتوارية وراء مظاهره اختلافاً واسعاً ولهم في ذلك مذاهب مختلفة ، واشد تلك المذاهب تناقضاً مذهبان ، مذهب يفزع اليهِ المتفائلون وهو مذهب التقدم ومذهب يلوذ به المتطيرون وهو مذهب الحركة الدائرة ويمثله القدماء بالافعى التي تأكل ذنبها ، وأنصار هذا المذهب ينكرون الوحدة الاجتماعية والتقدم التدريجي الشامل ولا يعتقدون ان هناك غاية منصوبة تتجه اليها الانسانية ، ويرون المجتمع والانسانية عامة شراذم من الافراد تستحثها المطالب المادية وتسوقها الحاجة الى الاجتماع استجابة لتلك الرغائب والحاجات وعندما تكون الظروف موافقة تتكون نواة امة ، وكل هذه الامم خاضعة لقانون الحركة الدائرة ، فهي تمر في أدوار متتابعة من الحكومة الملكية الى الحكومة الارستقراطية ومنها الى الديمقراطية وهذه تسلمها الى الفوضى ومن الفوضى تنحدر الى الحكم المطلق وهكذا دواليك

والانسان في رأي انصار هذا المذهب موكول للصدف العمياء مهجور في هذا الكون المريب [1] تلعب بهِ الغرائز وتعبث بهِ الاهواءِ وتغريه الاطماع والشهوات فلا يجد من أمرها فكاكاً ولا يملك لها دفعاً ، وليس هناك عناية الهية مشرفة على هذا الكون تريق الضوء في حياة الانسان وتأخذ بيده في هذه الاوحال والارجاس والعواثير ، فما قيمة الاعمال والجهود وما أثرها في عالم كهذا العالم ؟ كل فكرة كبيرة تقف حياتك على خدمتها وكل تضحية غالية تقدمها لغاية سامية وكل يقين صادق وعقيدة متينة ضائعة عديمة الاثر في هذا الوجود كما تضيع قطرات الغيث في الرمال ، والسعادة ظل زائل وضباب منقشع ، ومن أصحاب هذا الرأي فريق ضعفت في نفوسهم الحاسة الاخلاقية وتمت الغلبة لعقولهم على عواطفهم فشأنهم مداورة الايام واقتناص الفرص وعبادة القوة المادية والاتجار بالمبادىء والتقلب في اقذار الحياة تقلب السمكة في البحر ، وفريق آخر من ذوي النفوس الخيرة والقلوب الكبيرة قد راعتهم هذه الفكرة وملأت نفوسهم

(١) قارن هذا بقول المعري : تورعوا يابني حواء عن كذب فما لكم عند رب صاغكم خطر

مرارة والماً فهم يبشرون باليأس والتزهيد في الحياة ويندبون حظ الانسانية ويقفون على اطلال الحضارات يبكون مصائر الامم، وفلسفتهم حزينة مجللة بالسواد ملأى بصور الفناء ،والانتصار في نظر اصحاب هذه الفلسفة نذير الهزيمة والحياة دليل الموت والضوء رسول الظلمة،وكل عمل ينم على حماسة ويقين ينظرون اليه نظرة المتشكك المرتاب فلا ينجو من سخريتهم آثم ولا مصلح ولا يفلت من تهكمهم حامل القلم ولا رب التاج، وهم يسخرون بانفسهم وبالطبيعة والكون وبالله نفسه وانبيائه، وكأن الطبيعة التي ضنت عليهم بروح الامل والسرور الخالص قد حبتهم بالنصيب الاوفر من ملكة السخرية والاستهزاء

ويعمد اصحاب هذه الفلسفة الى طرق كثيرة للتسلي ، فمنهم من يتلهى بالكأس واللذة على طريقة عمر الخيّام او بتحليل نفسه على طريقة فردريك اميل او بالاشتغال بغريب اللغة كما كان يفعل ابو العلاء مصنف كتاب الايك والغصون وكما فعل ليوباردي الذي كان امام المتطيرين في عصره وكان في نفس الوقت اكبر لغوي في زمنه في آداب اللغة اليونانية ، ومثل بسكال الذي برع في الهندسة وان كانت الروح الدينية التي غلبت على عصره قد منعتهُ من الايغال في التطير

اما المدرسة الثانية فهي تؤمن بالتضامن الاجتماعي وقانون التقدم وترى ان الانسانية سائرة الى الكمال وهي تستخلص ذلك من نزعة الاجتماع الغريزية في الانسان ومن وحدة النوع الانساني واتفاق الغرض الذي ترمي اليه الانسانية وتتجه نحوه جهودها المشتركة، وهي ترى ان خير كفيل بتحقيق أمل الانسانية هو انتقال الحق من جيل الى جيل وذلك النزوع الى الكمال الذي يهوّن التضحية ويوحي الاديان ويعمر القلوب بالايمان، وجهود الامم والافراد ليست ضائعة ولا ذاهبة عبثاً ومآثرهم خالدة والشر الذي نشكوه سيتمخض عن الخير وستستحيل اخطاء البشر على مدى الايام منافع جزيلة وخيرات سابغة ويأسف اصحاب هذا المذهب لوجود الشر والفوضى في الحياة ولكنهم لا ييأسون من مقاومته واصلاح الحياة وتهذيبها

ويفخر كلا المذهبين بطائفة من الاسماء البارزة في تاريخ الفكر الغربي ، فمن انصار المذهب الاول ماكيافلي وشوبنهاور الذي يقول «ما دامت الحياة أبدية فان فكرة التقدم لامحالة باطلة» وكارلايل، ومن القائلين بالتقدم بيكون وديكارت ومشليه وأوجست كنت، وابو العلاء في نظره للتاريخ ينتسب الى المذهب الاول فهو ينكر التقدم ولا يرى جديداً تحت الشمس فيقول عن الناس

يسعون في المنهج المسلوك قد سبقوا ... الى الذي هو عند الغر مخترع
ابكار هذي المعاني ثيبات حجا ... في كل عصر لها جان ومفترع

وهو لا يهتف للمنتصر وانما يحذره عاقبة كعاقبة المغلوب فيقول له

لا تفرحنَّ بدولةٍ أوتيتها ... ان المدال عليهِ مثل الدائل

وينذر من احتوت يده على شيء بأنهُ سيفقده لان

من يعط شيئاً يستلبهُ ومن ينم جنح الظلام فانهُ سيؤرق

وابو العلاء لا ينظر الى الماضي نظرة اكبار ولا يحيطهُ بهالةٍ من التقديس والقدماء في نظره لم يكونوا اكرم طبعاً وأبر نفساً من اهل عصره

ما كان في الارض من خير ولا كرم فضلَّ من قال ان الاكرمين فنوا

وأما حكم العقل في قضية المفاضلة بين القدماء والمحدثين فهو كما يروي لنا ابو العلاء

يخبر العقل ان القوم ما كرموا ولا افادوا ولا طابوا ولا عرفوا

عاشوا طويلاً وماجوا في ضلالتهم ولا يفوزون ان جوزوا بما اقترفوا

بل لم يتسم فرد واحد منهم بالحكمة وفصل الخطاب ولم يؤت العقل والرشد احد والارض لم تعرف الانسان الاعلى ولن تعرفهُ

ما كان في هذه الدنيا اخو رشد ولا يكون ولا في الدهر احسان

وانما يتقضى الملك عن غيرٍ كما تقضت بنــو نصر وغسان

ويردف ذلك بقوله: ولم يأت في الدنيا القديمة منصف ولا هو آت بل تظالمنا جزم

فاذا ضقت ذرعاً بعصرك وبرمت بشروره آساك ابو العلاء بقوله

شكوت من اهل هذا العصر غدرهم لا تنكرنَّ فعلى هذا مضى السلف

فاذا شككت في ذلك اكده بقوله

لا يخدعنك اخرانا كأولنا في نحو ما نحن فيه كانت الامم

فاذا وصل الى مسمعه ان هناك قوماً يعلقون الامل على المستقبل ويرجون من ورائه الخير وتحقيق الاحلام هزَّ رأسه وأنشد

يقال ان سوف يأتي بعدنا عصر يرضي فتضبط أسد الغابة الحطم

هيهات هيهات هذا منطق كذب في كل صقر زمان كائن قطم

ومن يدوي فقد يستفحل الشر ويتفاقم الخطب في المستقبل

والله يحمد كلما طال المدى طغت الشرور وقلت الاخيار

وكان المعري يرسل فكره الى الماضي السحيق والمستقبل البعيد فيرى الحياة بين هاتين النهايتين صوراً سريعة يغتالها الفناء وخيالات تزول كما تزول دوائر الماء حول مواقع الحصيات في سطوح البحيرات، فما قيمة الدول العظيمة والآثار الضخمة وما تأثير النجوم اللامعة والشمس الساطعة وما قيمة العواطف البشرية ومتع الروح ولذات النفس؟ كل هذا ضائع في الابد الزاخر، والانسان هذا الطيف الزائر والسائح الغريب في هذا الكون يعيش قليلاً ثم تطوى صفحته ويدرج في قبره والدنيا بحالها

نمضي ونترك البلادَ عريضة والصبح انور والنجوم زواهر

وقد تضيع اخبارنا وتدثر آثارنا كما ضاعت في جوف الدهر آثار من قدم الارض قبلنا

سيسأل ناس ما قريش ومكة كما قال ناس ماجديس وما طسم

والبشرية التي تهافتت في التاريخ وتلك الاجيال المتلاحقة انما هي صور تتراءى الى الليل الابدي وتغرق في زواخر الدهر وهي اشبه بالخيالات والاشباح تلوح ثم تختفي وانما البشر

اشباح ناس في الزمان يرى لها مثل الحباب تظاهر وتواري

أو شخوص اقوام تلوح فأمة قدمت مجددة وأخرى تهلك

والدهر هكذا مستمر في دورته يطحن الاجيال ويطوي الايام

عش ما بدا لك لن ترى الأمدى يطوى كعادته ودهراً داهرا

وانما هي حركة مكررة معادة: والدهر اكوان تمر سريعة ويكون آخرها نظير الاول

والوجود كله كدر لا صفو فيه

لا ازعم الصفو مازجاً كدراً بل مزعمي ان كله كدر

ولا امل في اصلاح الكون وتقويم اعوجاج الناس وعلاج الطبائع

لم يقدر الله تهذيباً لعالمنا فلا ترومنَّ للاقوام تهذيبا

وهم كذلك لان النبعة التي استقوا منها نبعة فاسدة

تفرع الناس عن اصل به درن فالعالمون اذا ميزتهم شرع

والانكى من ذلك انهُ

يكفيك شراً من الدنيا ومنقصةً ألاَّ يبين لك الهادي من الهاذي

والناس في غفلة لا يفيقون منها

وما عيون الناس فيما ارى منتبهات من طويل السنة

ولقد اجرى اناتول فرانس على فم المؤرخ الكهل للملك فارس المحتضر في احدى محاورات كتاب آراء جيروم كوانيار كلمة هي خلاصة فلسفته التاريخية وهي قوله في تلخيص تاريخ البشر « انهم ولدوا وتألموا وماتوا » ويصح ان تكون هذه الكلمة موجز رأي ابي العلاء الذي يقول

خلقنا لشيء غير باد وانما نعيش قليلاً ثم يدركنا الهلك

بل قد انحدر به اليأس الى ابعد من ذلك حيث فقدت الاشياء في نظره حقيقتها واشتبهت عليه مميزاتها وصفاتها

فنحن في غير شيء والبقاء جرى مجرى الردى ونظير المأتم العرس

وهذه هي اعمق قرارات اليأس ولكنها ايضاً الذروة العالية التي ارتفع اليها المعري في عالم المفكرين المتطيرين واستحق بها ان يكون الامام الثبت والحجة الثقة في وصف علل الحياة وأدواء النفوس، ولئن كان يستملك من ابي العلاء جهامة الحزين الذي لا تزدهيه اعاجيب الحياة ولا تطربهُ انغامها فقد يسليك منهُ تبسم الساخر المتهاتف الذي لا يعفي شيئاً من سخريته ولا يغفل لحظة عن تهاتفه

الانسان والنبات

للدكتور محمد بهجت
اختصاصي بقسم البساتين بوزارة الزراعة

مملكة النبات مملكة واسعة عظيمة تحوي عدداً كبيراً من الاجناس والانواع موزعة على الارض بل وعلى البحار والانهار توزيعاً عجيباً تقرره وتحدده عوامل البيئة المختلفة كالحرارة والرطوبة ونوع التربة والضوء وغير ذلك من العوامل الظاهرة والخفية. ومن افراد تلك المملكة ما هو ضئيل الى ابعد حدود الضآلة بحيث لا يتسنى لاعيننا البشرية ان تراه، وربما استطاعت ان ترى البعض منه اذا استعانت بأقوى المكبرات الحديثة التي مكنتنا من رؤية عالم عجيب خفي يزخر بالحياة النباتية ويؤثر من مصاير الانسانية أعظم تأثير — ذلك هو عالم البكتيريا والفطر والجراثيم. ونرى بها من الناحية الاخرى افراداً بلغت من الاكتناز والضخامة والذهاب في كبد السماء مبلغاً عظيماً يدعو الى الدهشة والتعجب. ولا يسع المرء عند ما يقف حيال اشجار السيكويا الهائلة التي بولاية كاليفورنيا الاميركية على ساحل المحيط الهادىء الا ان يخشع امام تلك العمالقة التي تحسب اعمار بعضها بآلاف السنين ويذهل لتلك المخلوقات التي كانت يوماً ما بذوراً صغيرة دقيقة تذروها الرياح فأصبحت اطواداً حية هائلة كالرواسي الشامخات لا تنال منها الانواء والاعاصير الهوجاء . . . ومن أفراد تلك المملكة ما هو نافع غاية النفع للانسان والحيوان ومنها ما هو ضار بهما أبلغ الضرر . . ومن أفرادها ما هو جميل لأعيننا ومنها ما هو قبيح دميم

ومما لا ريب فيه ان النبات ظهر على الارض في فجر الحياة الاولى ونشأ وتدرج في سلم الارتقاء خلال عصور عديدة من قبل ان يدب عليها الانسان وتنشأ بينه وبين النباتات العلاقات الوثيقة التي أثرت في حالاته النفسية والاجتماعية والاقتصادية تأثيراً عظيماً اوصله الى منزلته الحالية من المدنية الحديثة . ولنا في التاريخ أمثلة متعددة يظهر منها ان الوقوف على سر واحد من أسرار النبات قد يؤثر في حياتنا الفكرية والمادية أعظم تأثير. ومن الامثلة البارزة المتعددة نبات المطاط او الكاوتشوك الذي نعلم قدر أثره في مدنيتنا الحديثة

ولو فتشنا ملياً عن مصدر حياتنا وينبوع نشاطنا ومدنيتنا لوجدناه النبات، ذلك الكائن الحي المنتج الخليق بالاجلال والاعظام والمحبة والتقدير. ولو تجاوزنا تلك النظرة السطحية وتعمقنا قليلا

في البحث لوجدنا ان النبات مدين بحياته للشمس التي هي مصدر الحياة جميعها . ولقد أحسَّ أجدادنا المصريون منها ذلك وأدركوا ما في خيوطها الذهبية من حياة هي السحر وسحر هو الحياة فعبدوها وقدَّسوها. وكانوا يتخيلونها زورقاً يستقله اله من آلهتهم اسموه هوروس يسبح بهِ في أجواز الفضاء من المشرق الى المغرب في نظام ثابت عجيب وتدبير محكم . وعند ما ابين فيما يلي علاقة ما بين الشمس والنبات ستتكشف لاعيننا حقيقة من أروع الحقائق التي ندرك منها نعمة الحياة التي أنعم بها الله سبحانهُ وتعالى علينا و نقدر قدرته جل شأنه اذ سخر الشمس فيما سخر لنا من القوى الطبيعية التي تنفعنا في حياتنا الدنيا

يتنفس النبات كما يتنفس الحيوان ، فيأخذ كلاهما الأوكسجين من الهواء ويعطي غاز ثاني اكسيد الكربون الذي يزفره الحيوان من منخريهِ والنبات من مسامهِ العديدة الخاصة بذلك . واذا احترق النبات او الحيوان نتج عن احتراقهما غاز ثاني أكسيد الكربون كذلك وهذا ينتشر في الهواء ويختلط بهِ . . . يدخل الهواء المحمل بهذا الغاز الى النبات عن طريق فتحات بأوراقهِ منتشرة على سطوحها السفلية وبالغة من الصغر والدقة مبلغاً عظيماً وهناك يذوب في العصارة النباتية ويتحوَّل بعمليات متتابعة الى سكر بسيط ومن ثمَّ الى سكر مركب او نشاء أو زلال أو دهن او الى خلووز (سلولوس)— تلك المادة التي يبني بها جدر خلاياه وأليافه وخشبه ، او الى اي مركب آخر يحتاج اليهِ في بنائهِ وتغذيتهِ ، ثم ان هذه المواد المجهزة تتحرك في الاوعية الى الانساج القريبة او البعيدة في النبات للاختزان أو لأداء الوظائف الفسيولوجية المختلفة . غير ان تحويل الغاز الكربوني الى سكر ثم الى مواد أخرى اكثر منهُ تعقيداً ثم دفع تلك المواد في الأوعية والانساج كل ذلك يحتاج الى جهد . وهذا الجهد يستمده النبات من أشعة الشمس . فعند ما تسقط هذه الاشعة على أوراقهِ الخضراء المنبسطة تمتص المادة الخضراء التي بها والتي تعرف بالكلوروفيل او الخضير جزءاً صغيراً من تلك الاشعة التي هي مزيج من حرارة وضوء فتتم العملية السحرية في صمت عجيب لا يلحظها ملاحظ او يحس بها مستنصت . وينتقل بهذه العملية الجهد الذي كان بأشعة الشمس الممتَصَّة الى المركبات التي تكونت داخل النبات . وعند ما تحترق هذه المركبات داخل جسم الحيوان بواسطة عملية التنفس تعطيهِ من الحرارة والجهد بقدر ما أخذت من أشعة الشمس تماماً . كذلك تعطي قطعة الخشب اذا احترقت في الهواء حرارة وجهداً بقدر ما أخذت من الشمس . فنحن نستغلُّ الحرارة التي تتولد بجسومنا في الحركة وفي أداء العمليات الفسيولوجية والشغل الخارجي . ونستخدم الحرارة التي بالوقود في انضاج طعامنا وتسيير عرباتنا وطياراتنا وسفننا وغير ذلك . فالاشجار التي على وجه الارض اذاً والفحم والزيوت المعدنية التي في باطنها والتي نشأت من تحلل مواد عضوية نباتية كل هذه كنوز عظيمة ومستودعات هائلة للقوى الشمسية اختزنت بها من آلاف بل ملايين السنين . . . فنرى من ذلك انهُ لولا الشمس

لما كانت الحياة على سطح الارض ، وانهُ لولا تلك الورقة الخضراء الكريمة — ورقة النبات — لما كان انسان او حيوان . وربَّ سائل يتساءل وماذا تقول في أمة الاسكيمو التي تسكن الاصقاع الجليدية القطبية والتي لا يقتات أهلها الاَّ سمك البحار وحيتانها ولا تسكن الاَّ كهوفاً تتخذها من الجليد ؟ اين فضل النبات على ذلك الانسان المنعزل عن المملكة النباتية والذي لم يرَ ورقة النبات الخضراء ؟ والجواب على ذلك ان هذا الانسان الذي يقتات اللحم فقط يعتمد في حياته على النبات أيضاً ولكن بصفة غير مباشرة .وذلك لان السمك الذي يأكلهُ يعيش على أسماك او حيوانات بحرية أخرى اصغر منهُ. وهذه تقتات الاعشاب البحرية الضئيلة.وقد حسب بعض الحاسبين ان كل رطل من جسم انسان الاسكيمو بني من ٦٣٥ رطلاً من الاعشاب البحرية التي تغذت بها اسماك أكلها الاسكيمو بدوره.فما أبهظ ما تتكلفهُ مملكة النبات لإعاشة أمة الاسكيمو القليلة العدد !

وربَّ قائل يقول أيضاً ان العلم تقدم تقدماً عظيماً بحيث أصبح في مكنتنا تركيب بعض المواد الغذائية في مصانعنا . وسوف يأتي يوم نستغني فيهِ عن الحقول الشاسعة بما نستطيع تجهيزه في المصانع المحدودة ! نعم لقد استطاع علم الكيمياء مثلاً ان ينتج صبغ النيل المعروف فقضى بذلك قضاء مبرماً على زراعة النيل الطبيعي بالهند،وصحيح ايضاً ان بعض العلماء تمكن من تحضير مقدار صغير من السكر البسيط بواسطة الاشعة فوق البنفسجية، وصحيح ايضاً أنهم توصلوا الى تحضير بعض المواد الهامة كالفانيليا بل والكاوتشوك إلاَّ ان تحضير كل ذلك يستنفد من الجهد والنفقات الشيء الكثير مما يجعل الانسان محتاجاً الى أوراق النباتات الخضراء ومعتمداً عليها كل الاعتماد

وثمَّ اعتبار آخر يجعل اعتماد الانسان على النبات أمراً محتوماً وهو أن الاخير يصنع المركبات الهامة المعروفة « بالفيتامينات » في أوراقه الخضراء . ويتوقف نمو الجسم الانساني وسير وظائفه سيراً طبيعيًّا وسلامته من كثير من الامراض على تلك المركبات المعقدة الغامضة التي لها في حياتنا شأنٌ هامٌّ والتي توجد في الجسم الحيواني أيضاً . فبعد ان يمتصها الحيوان من الغذاء النباتي نسترجع بعضاً منها فيما ينتجه من لبن وزبد وجبن وبيض وغير ذلك من منتجاته المتعددة هذا فضلاً عما نحصل عليهِ مباشرةً من النبات نفسه عندما نأكله

ولننظر الآن كيف بدأت العلاقة بين الانسان والنبات ، ثم كيف توثقت تلك العلاقة وتطوَّرت مع السنين والقرون وأثرت في الانسان حتى ابلغتهُ مدنيته الحاضرة

كان الانسان الاولي يسير عارياً في الغابات يلقط مما يجده على الشجر الذي ينمو لنفسهِ ما يطيب لذوقه من حَبٍّ وثمر . وكان يحتمي في ظلال اشجارها من حرارة القيظ او صبارة البرد ومن شآبيب المطر . ثم هداه تفكيره الى ان يتخذ من اجزاء النبات سقفاً وعرائش يأوي اليها هو وما قد استأنس من حيوان . ومن ثمَّ نشأت فكرة بناء البيوت والمساكن . وكان اذا

تناسل فتزايد عدده وقلّ قوته وكلأ ماشيته نزح الى جهة اخرى وفيرة القوت كثيرة المياه والعشب . ولما شاهد النبات ينضج حبه وينثره حوله لابقاء نوعه فطن الى استكثاره فجمع الحب وبذره لنفسه وحصده وهكذا تعلم الزراعة التي طرأ بواسطتها تغيير كبير على الاصناف البرية من حيث الكم والكيف . وكان يرى قطعة الخشب تطفو على سطح الماء فيعتليها ليعبر عليها الانهر والبحيرات الصغيرة، ثم بدا له بعد ذلك ان يجوف تلك القطع او يضمها بعضاً لبعض ليستوى بداخلها حتى لايدركه البلل ومن ثمَّ كان بناء السفن التي ساهمت بنصيب وافر في بناء مدنيتنا الحالية اذ استطاع الانسان ان يحمل فيها غذاءه ويجوب البحار ويكشف آفاقاً جديدة ويربط اطراف العالم بعضها ببعض

ولقد بدأ الانسان اول ما بدأ بتغطية جسمه وستر عورته باوراق النباتات الكبيرة ولم يلبث ان اهتدى الى ذات الالياف منها وفطن الى استعمالها بدل تلك الاوراق . ثم اهتدى بعد ذلك الى غزل ونسج تلك الالياف . وها نحن اليوم اكثر ما نكون اعتماداً على النبات في لباسنا ،حتى تلك المنسوجات التي تمت الى اصل حيواني كالصوف والحرير فان انتاجها يتوقف على النبات فالاغنام او الابل ترعى النبات وتربي صوفها. وتأكل دودة القز اوراق النباتات ثم تنسج خيوطها الحريرية بعد ذلك

وكان الانسان يذوق ويأكل بطبيعة الحال كلّ ما يصادفهُ من اجزاء النباتات المختلفة فيجد في بعضها حلاوة وفي البعض الآخر غضاضة ، وفي البعض ما ينفعهُ من داء معين وفي البعض الآخر ما يؤذيهِ اذية بالغة او طفيفة . فاستطاع من تجاريبه الكثيرة التي عاناها ان يميز بين ما هو صالح منها لقوته وما هو صالح لدوائهِ . وما زال الانسان الى يومنا هذا يرجع في معالجة اكثر امراضه واسقامه الى النبات واصبحت النباتات الطبية المعروفة تعد بالآلاف

ولقد غير الانسان كثيراً من معالم المملكة النباتية فما حل ببقعة الاّ وعمد الى تقطيع الاشجار الباسقة والنباتات المتكاثفة ليفسح في رقعة سكناه . فاذا ما أفسحها واستقر بها قطع كثيراً غيرها من حوله لكي يزرع الحب لنفسه ولحيوانه . وعند ما تيسرت المواصلات واصبح في مستطاع الانسان ان يهاجر في افواج كبيرة الى اصقاع بكر لم يكن لها بهِ عهد من قبل امعن فيها تقطيعاً وتحريقاً باسراف مريع فأزال غابات عامرة بتمامها وعرّى وجه الارض من زينتها الخضراء الجميلة وبدد كنوز القوى المذخورة فيها شر تبديد . وأعظم مثل لذلك الغابات الفسيحة الواقعة شرقي نهر المسيسبي بالولايات المتحدة الاميركية. كانت تلك الغابات مأهولة ببضعة آلاف من الهنود الحمر الذين لا يأخذون من الطبيعة الاّ القليل الذي يفي بحاجاتهم البسيطة . فلما نزلها الرجل الابيض المتمدين ازالها ومحا معالمها وأقام مكانها الدور والقصور والقرى العامرة والمدن الصاخبة الزاخرة. وحصل في الهند ان اخليت الغابات لزراعة الشاي والبن والمطاط وغيرها من النباتات الاقتصادية التي يلح في طلبها الانسان. ولم يكن تقطيع الغابات وتدميرها بأوربا بأقل منهُ في القارات الاخرى

فقد دمر الانسان فيها اكثر مما تستطيع الطبيعة انتاجه. وأخيراً فطنت الحكومات الى تلك الثروة الجسيمة المهددة بالزوال فسنت القوانين لحماية الغابات ولاستغلالها بقدر ولتعميرها من آن لآخر ... ما كان ذلك من الانسان لمجرد العبث ومحاربة النبات وانما من اجل مصلحته الخاصة فهو وان محا الاشجار من رقعة ما فقد اسكن تلك الرقعة انواعاً اخرى من النبات كالحبوب وغيرها. وتراه من ناحية اخرى ينزل الارض القاحلة او الصحراء المجدبة فيطرق اليها الماء ويغرس بها الاشجار وينثر فيها الحب فتصبح جنة فيحاء دانية القطوف متعددة الالوان ولئن قسا الانسان على النبات من ناحية فقد اسدى الى مملكته ايادي بيضاء كثيرة، فهو يطوف بالغابات المنعزلة البعيدة ويتسلق الجبال الوعرة ويسلك الصحاري المخيفة ليتصيد كل نادر من النبات ثم يكثره ويحسنهُ الى درجة لا يبلغها ذلك النبات في الاحوال الطبيعية . . . لقد فعل الانسان أكثر من ذلك فانهُ زاد بطريقة التوليد على المملكة النباتية أصنافاً وأشكالاً وألواناً ما كان لها وجود من قبل فهو الذي خلقها خلقاً بعقله الراجح وصبره العظيم فأتت خيراً الف مرة من آبائها الوحشية. هذا فضلاً عن انهُ حسن الاصناف والانواع الموجودة تحسيناً عظيماً. ولأضرب على ذلك مثلاً واحداً بسيطاً ببنجر السكر الذي يزرع في اوروبا بكثرة لاستخراج السكر منهُ بدلاً من قصب السكر الذي لا تسمح الظروف الجوية بنموه هناك. كانت نسبة السكر بالبنجر من نحو ٥٠ سنة نحو ٥ر١٠٪ فأصبحت الآن بفضل عمليتي التوليد والانتخاب التي يقوم بها الانسان نحو ٥ر١٨٪ ولقد وصلت النسبة في بعض افراد منهُ الى نحو ٢٥٪ وهكذا أوشك هذا النبات ان ينافس قصب السكر الذي تبلغ نسبة السكر فيه نحو ٢٠٪

ولعل أغرب وأعجب ما في حياة الانسان تلك العلاقة التي بينهُ وبين النباتات الدنيئة التي لا يراها بعينه المجردة. تلك الكائنات التي نسميها الميكروبات او الجراثيم تكافح في الحياة وتناضل من أجل بقائها وبقاؤها قوية. فهي تهاجم النباتات الراقية كما تهاجم الانسان والحيوان وتفتك بها جميعاً فتكاً ذريعاً في بعض الاحوال. انها لا تعبأ بالانسان العاقل الجبار بل تتحداه دواماً وتعيش على لحمه ودمه وتزهق في كل يوم آلافاً بل ملايين من الارواح البشرية والحيوانية. لم يستطع الانسان بعلمه الواسع الغزير وعقله الجبار العظيم ان يقضي على تلك المخلوقات الضئيلة التي تتغذى بدمه وأحشائه ثم تفرز فيها سموماً ناقعة تودي بحياته. وكل ما استطاع ان يفعله هو انهُ ألجمها وكسر من شرتها وأصبح مالكاً لقيادها بحيث يستطيع ضبطها ومقاومتها. ولكن كثيراً ما يفلت زمامها من يده وتهيج مرة واحدة فتذيق الانسان والحيوان من صنوف العذاب أشكالاً وألواناً وأخيراً تذهب بالارواح جملة. تلك هي جراثيم الامراض التي نخشاها ونفرق منها. وغير ذلك بعض الجراثيم النباتية التي تقع في طعامنا وشرابنا لتتغذى به أيضاً

فتحيلهُ وتجعل منهُ مركبات أخرى فاسدة ذات روائح كريهة او طعم بشع . وفي مقدورنا ان نتصور عظم ما تخسره الانسانية كل عام من جراء تلك الجراثيم التي تتلف اللحم واللبن والخضر والفاكهة والشراب وغير ذلك مما تقدر قيمتهُ بملايين الجنيهات . . .

ومن الناحية الاخرى تقع جراثيم من نوع آخر في كثير من صنوف الطعام والشراب فتحيلها تماماً او بعض الشيء وتغير من نكهتها او طعمها بحيث تصبح أطيب مذاقاً وأشهى الى النفس . والامثلة على ذلك متعددة فبعض أصناف الجبن مثلاً لا تكتسب طعمها الطيب المعهود من غير ان تقع عليها اصناف خاصة من الجراثيم النباتية تعيش عليها وتتكاثر وتحيل بعض موادها وتفرز بها افرازات خاصة . ونحن لا نأكل من جبن « الروكفور » اللذيذ الشهي مادتهُ اللبنية فقط بل والعفن الذي عليهِ بجراثيمهِ مما يجعل لهُ هذا الطعم الزكي الخاص . وثمَّ مثل آخر هو الخبز الذي نستطيبهُ فما كنا لنستسيغهُ او نستطيع اكله ما لم نضع مع العجين قبل خبزه قليلاً من نبات الخميرة الذي يخمر بعضاً منهُ فيجعله لذيذاً شهيًّا . يرحب الانسان بمثل هذه الجراثيم النباتية ويتركها تعمل عملها بل ويشجعها عليهِ بما يهيء لها من الظروف الخاصة المساعدة وكم نحن مدينين لامثال تلك النباتات الدنيئة التي يتوقف على نشاطها الكثير من الصناعات الكبرى التي تدر علينا الخير الوفير والبر العميم

هذا ولم تقتصر العلاقة بين الانسان والنبات على الناحية المادية فحسب بل تعدتها الى الناحية المعنوية ايضاً . فقد استعان الانسان بالنبات في طقوسه الدينية وفي افراحه وأتراحه . وأدرك ما في اجزائه وألوانه من رشاقة وجمال فأحبهُ وأحاط نفسه به في غرفه وحدائقه ومتنزهاته واتخذ منهُ معيناً لا ينضب يشبع منهُ ناحيته الفنية . وسيظل النبات من اهم موارد الالهام للشعراء والمفتنين يشيدون بجماله ويبرزونه للعالم في شكل رائع جذاب . كما انهُ سيظل مورداً خصباً يأخذ منهُ الانسان لزخرفهِ مسكنه ومعبده وملبسه وشتى ادواته المنزلية وغير المنزلية

نرى من كل ما تقدم صورة واضحة يظهر لنا في ناحية منها التعاون بين الانسان والنبات واعتماد الاول على الثاني في معيشتهِ وأعماله بل وفي حاجاتهِ الفنية والروحية ويظهر من الناحية الاخرى منها ذلك الصراع الهائل الطويل المدى بين الانسان والنبات . فالنبات يهاجم الانسان رأساً ويهاجم طعامه وشرابه ونباتهُ الذي يزرعه وحيوانه الذي يرعاه ، والانسان بدوره يذود عن نفسه وعن حيوانه ونباته الذي تحت كنفه بكل ما اوتيه من قوة وحيلة مستعيناً في كفاحه هذا بشتى الوسائل كالبرودة الشديدة والحرارة المرتفعة والجواهر السامة وغير ذلك من الوسائل الطبيعية والكيمياوية الفعالة . وخلاصة ذلك ان ما نفيده من النبات ليعدل الف الف مرة ما يصيبنا منهُ وانا مدينون له بحياتنا المادية والروحية الى حدٍّ كبير

قصب السرعة

بين الاحياء

والطيران حول الارض في نهار واحد

يعلم قراء المقتطف ان قصب السرعة في الكون للضوء فهو يسير بسرعة ١٨٦٣٠٠ ميل في الثانية . ويعلمون كذلك ان من الطيور ما تتجاوز سرعتهُ مائة ميل في الساعة ، وبعضها كالصقر او البازي يبلغ ١٦٠ ميلاً في الساعة او اكثر قليلاً . وهذه سرعة عظيمة ، ولكنها مع ذلك تجعل الصقر بطيئاً البطء كلّهُ بالقياس الى حيوان آخر تزيد سرعتهُ على سرعة امواج الصوت ! ذلك الحيوان حشرة صغيرة تعرف باسمها العلمي « كيفينومايا » Cephenomyia وباسمها الشائع « ذبابة الايل » وهذا الاسم الثاني مستمد من كونها تتطفل وهي يرقة على بعض الحيوانات من نوع الايّل فتسكن مسالكها الانفية والحلقية . ويقال انها تختزن الغذاء وهي في هذه المرحلة من حياتها وتستعمله عند ما تتحول ذباباً

وقد روى المواليدي الاميركي العلاّمة روي تشابمن اندروز — مدير المتحف الاميركي للتاريخ الطبيعي — في مجلة التاريخ الطبيعي التي يصدرها ذلك المتحف ان العلاّمة الدكتور تشارلز تونزند قضى سنين كثيرة في دراسة هذه الحشرات فوصفها في كتاب خاص بعث بهِ الى الدكتور اندروز بانها تخترق الجوّ كخطف البرق وانهُ قاس سرعتها وحقق القياس بوساطة مصوّرات ضوئية سريعة خاصّة فاذا سرعتها تبلغ ٤٠٠ ياردة في الثانية او نحو ٨١٨ ميلاً في الساعة . وكتب تونزند مقالاً عنها في مجلة الحشرات التي تصدر بنيويورك فقال انهُ قد يصعب على ايٍّ كان ان يصدِّق ان حشرة تستطيع ان تسبق رصاصة بندقية ولكن ذبابة « الكيفينومايا » تستطيع ان تسبق رصاص البندقيات القديمة ولا يستبعد ان في مكنتها ان تساير قنابل المدافع الالمانية الضخمة التي اطلقت على باريس في اثناء الحرب العالمية

والغريب في هذه الحشرة ان ذكرها أسرع من انثاها ويفسَّر ذلك بأنهُ لا بدّ للذكر

من ذلك لكي يلحق بالانثى حتى يتسنى اتمام الزواج . ولو كان في الامكان ان تصنع طيارة تطير بسرعة هذه الذبابة لاستطاعت ان تطير حول الارض عند خط العرض الشمالي ٤٠ مثلاً بين شروق الشمس وغروبها في يوم من ايام الصيف . ولا يخفى ان اسرع الطيارات لا تتجاوز سرعة ٤٥٠ ميلاً في الساعة . وان سرعة امواج الصوت في الهواء ١٠٨٩ قدماً في الثانية اي اقل من ٤٠٠ ياردة وهي سرعة هذه الذبابة العجيبة

***

من الثابت ان كل ما اصابتهُ انواع الحيوانات من الرقي في الحركة والانتقال مبني او متصل بمبادىء ميكانيكية مستقرة في شكلها وتركيبها ، فاذا عرف العلماء أسرار الحركة السريعة في ذباب « الكيفينومايا » تمكنوا من بناء آلات للطيران قائمة عليها فيبلغون سرعة قد يتعذر عليهم بلوغها اذا اقتصروا على اتخاذ الطيور مثالاً لهم ينسجون على منواله . وان ما شاهدناه من معجزات المخترعات والمستنبطات في هذا العصر يشير الى ان الجزم باستحالة شيء لغرابتهِ او بعده عن المألوف جرأة لا يقدم عليها عاقل

فاذا استطاع العلماء والمهندسون ان يتبينوا اسرار السرعة في هذه الذبابة ، وان يطبقوا مبادىء حركتها وقواعد شكلها في بناء الطيارات ، وان يجعلوا الطيارات بحيث تطير في طبقات الجوّ الطخرورية حيث الهواء لطيف والمقاومة للطيارات أقل منها على ارتفاع بضعة آلاف من الاقدام ، فليس من المتعذر ان تبلغ الطيارات سرعة ٨٠٠ ميل او الف ميل في الساعة

فاذا اتيح لنا الطيران بطيارة من هذا القبيل سبع عشرة ساعة متوالية تمكّنا من الطيران بها حول الارض في نهار واحد . فالمسافة حول الارض عند خط العرض الاربعين نحو ١٤ الف ميل . فاذا طارت الطيارة بسرعة ٨٠٠ ميل في الساعة تمكّنت من الطيران حول الارض في ست عشرة الى سبع عشرة ساعة . واذا فرضنا انها قامت من نيويورك في الساعة الخامسة صباحاً فانها تبلغ مدينة «أوماها» بالولايات المتوسطة الاميركية في ساعة ومدينة «رينو» على حدود كاليفورنيا في ساعة أخرى ومدينة «باكين» بالصين في ست ساعات ومنها الى «استانبول» في أربع ساعات أخرى ثم الى «مدريد» في ساعة ونصف ساعة ومنها الى «نيويورك» في ثلاث ساعات ونصف ساعة فتصلها في الساعة العاشرة مساء

فاذا تحقق عمل من هذا القبيل فاق خرافات الاقدمين عن بساط الريح وروايات جول فرن الفرنسي مع ما كان فيها من التطرف في الخيال والوهم حين وضعت ، ولكن الحقائق التي يقوم عليها هذا الزعم ثابتة نقرؤها في فصل الحشرات من كتاب الطبيعة المفتوح

٣ — الحاجة الى زيادة المعرفة بالانسان

الانسان المجهول

للعلامة الكسيس كارل

تلخيص : اسماعيل مظهر

ينبغي إذن ان نتعرّف كيف ينتظر ان تؤثر أساليب الحياة الجديدة في مستقبل السلالة البشرية . فان استجابة النساء لاوجه التكيُّف التي انتابت حياة اوائلنا وعاداتهم ، من طريق الانقلاب الصناعي ومدنية الانتاج العملي ، كانت حاسمة سريعة . ولك ان ترى شيئاً من ذلك في ان نسبة المواليد قد نقصت فجأة . ولقد كان لهذا الحادث أثره البالغ الجلل في الطبقات الاجتماعية وفي الامم التي كان يظن انها سوف تكون اكثر اهل الارض استمتاعاً ، إن مباشرةً أو بالواسطة ، بفوائد التقدم الحديث وجنياً لثمراته ، بتطبيق المكتشفات العلمية تطبيقاً عمليًّا . على ان العقم بالارادة — اي تعقيم النساء بحكم الاختيار — ليس حادثاً جديداً يشهده لاول مرة تاريخ العالم . فانهُ كان طابَع بضعة عهود مرت في تاريخ مدنيات بائدة . إنهُ لعَرَض طائفي. على اننا ولاشك نعرف له مكانتهُ تمام المعرفة

وإنهُ لمن الظاهر أن التغيرات التي انتابت محيطَنَا بذيوع « الصّناعية » —Technology— وبالحرَي الفن الصناعي ، قد أثر في جمعيتنا تأثيراً بالغ المدى . يَبْدَ ان نتائج هذا « الفن » قد لابستها خليقة لم نكن نتوقَّعها . لقد أدركنا ان لها نتائج تنافي كل المنافاة تلك التي أمَّلْنَا فيها ، والتي كان لنا ان نرتقبها من أوجه الارتقاء التي انتابت مساكننا وطرائق حياتنا واغذيتنا وتعليمنا والجو العقلي الذي كوّنتهُ من حولها الخلائق البشرية في العصر الحديث

إذن نتساءل : كيف انتهينا الى هذه النتائج المتناقضة ؟

٥ — إن هذا التغير مضر ، مادام انهُ قد تمَّ من غير نظر صادق في حقيقتنا

قد يمكن ان نجيب عن هذا السؤال جواباً بسيطاً ساذجاً ، فنقول : إن المدنية الحديثة قد تحرَّجت وارتجَّت دعائمها ، لانها لا توائمنا . ذلك بان قواعدها قد اقيمت من غير نظر في حقيقة

طبيعتنا أو معرفة بها ، وانها وليدة نَزَوات الكشف العلمي ، وشهوات الناس وخيالاتهم ونظرياتهم ورغباتهم . فهي على الرغم من انها قد شيدت بجهودنا ، فانها خلقت بعيدة عن ان تكافىء منا الحجم والشكل

والظاهر الجلي ان العلم لا يتبع طريقاً مرسوماً او خطة معينة . أنهُ ينمو خبط عشواء . وأوجه تقدمه رهن حالات اتفاقية ، القضاء الصرف مصدرها ، والقدر الاعمى منبعها . مثل ذلك ميلاد العباقرة ذوي الكفايات ، وتكوين عقولهم ، والاتجاه الذي تتجه اليهِ قوة التطلع فيهم . وكل هذا لا يقع اتباعاً للرغبة في تحسين حالات الانسان . فإن المكتشفات التي أحدثت المدنية الصناعية إنما جاءت تبعاً لما تقلّب على مشاعر العلماء وميولهم من الاهواء ، والظروف التي أحاطت بمتّجهاتهم . فلو أن غليليو ونيوتن ولافوازيه كانوا قد صرفوا قواهم العقلية الى درس الجسم الحي والوعي ، اذن لكانت دنيانا غيرها الآن . فان رجال العلم لا يدرون في اي طريق هم مسوقون . انهم انما تقودهم المصادفة والتفكير العلوي ، وبالحريّ ضرب من الكشف النفسي — clairvoyance : ان كلاً منهم بمنزلة عالم برأسهِ ، له سنتهُ التي تحكمهُ . وبين الفينة والفينة ينجلي لهم من الاشياء ، ما يظل غامضاً على غيرهم . وعلى الجملة نريد ان نقول إن المكتشفات إنما تأتي عفواً من غير تقدير للنتائج التي تترتب عليها . على ان نتائجها قد أحدثت في الدنيا انقلاباً بالغاً ، صوَّر حضارتنا في الصورة التي نشهدها

انتقينا من تلك الثروة العلمية الضخمة أجزاء بعينها . على ان اختيارنا لتلك الأجزاء لم يكن حليف النظر في ما تحتاج اليهِ الانسانية من المصالح العليا . لقد اتبعنا في الاختيار اتجاهاً أملتهُ علينا ميولنا الطبيعية . ان العوامل المسيّرة التي أدت الى نجاح المخترعات الحديثة في حضارتنا قد ترجع في حقيقتها الى مبادىء تعلق بها الانسان هي : الحصول على الراحة والرضا ببذل أقل ما يمكن من الجهد ، والجذل الذي تحدثهُ السرعة او اختلاف المناظر ، مضافاً الى ذلك حاجة الانسان الى التخلص من ذات نفسه بعض الاحيان . ولكن قلما ساءل أحدٌ نفسه : كيف يستطيع ان يواجه عوامل الاستسراع التي انتابت أُلفة الحياة وانسجامها ، تلك العوامل التي تتجلى مظاهرها في سرعة الانتقال والمبرقة (التلغراف) والمسرَّة (التليفون) وأساليب التعامل الحديثة ، والآلات الكاتبة الحاسبة ، بل وجميع تلك الاجهزة التي تقوم الآن بأعمال المنازل الحديثة . فان النزعة التي حملتنا على استخدام الاجهزة الحديثة ، كالطائرات والسيارات والخيالة والمسرَّة والراديو ، والتي ستحملنا في القريب العاجل الى استخدام المرناة Television هي في حد ذاتها نزعة طبيعية ، أشبه بتلك التي حملت آباءنا في ظلام القرون الاولى ، على ان يعكفوا على تعاطي الخمور . فالمنازل المدفأة بالبخار ، والنور الكهربي والمراقي elevators وذيوع الاغذية الكيمياوية والتزام حدود

أدوية خاصة في الحياة التناسلية ، عامةً ذا لم يقبله الناس الا لانها مخترعات محببة الى النفس ، مجلبة للرضا . ولكن لم يلتفت أحدٌ الى شيء مما لها من الاثر المحتمل في الخلائق البشرية

***

في تنظيم الحياة الصناعية لم يلتفت الى شيء مما للعمل من التأثير الوظائفي والعقلي في حياة العمال . فالصناعة الحديثة قائمة على قاعدة — « أكبر نتاج بأقل نفقة » — حتى يتمكن فرد واحد أو مجموع من الافراد من كسب أكبر مبلغ يمكن كسبهُ من المال . ولقد نمت هذه الطريقة وتشعبت من غير ان تساور انساناً فكرة ما في طبيعة الخلائق البشرية الذين يحركون الآلات ، ومن غير ان يؤبه بالتأثيرات التي تنتاب الافراد ، وبالتبعية اعقابهم ، من طريق ذلك الاسلوب المصطنع الذي تفرضهُ حياة المعمل عليهم فرضاً . كذلك شيدت المدن العظيمة من غير ان يحسب حساب للخلائق التي تسكنها . فالمطرحات Sky-scrapers بصورها الدميمة وحجومها العظيمة لم تقم الا على فكرة الحصول على أكبر ايراد ممكن من كل قدم مربعة من الارض ، وتزويد ساكنيها ، أصحاب مكاتب كانوا أم طلاب إقامة ، بأماكن يرتاحون اليها ويأنسون بها . وكان هذا سبباً مباشراً في اقامة تلك العمائر المطرحة العظيمة ، التي تزدحم بعدد كبير من أبناء آدم . وأبناء المدنية الحديثة يألفون هذا الاسلوب من الحياة . وبينما هم يمتعون بمباهج هذه الحياة وزخارفها التي تحوطهم في مساكنهم تلك ، ينسون أنهم قد جرّدوا من حاجيات الحياة . فان المدن الحديثة انما تتألف مما يشبه الاغوار السحيقة القائمة جنباتها حفافي شوارع مظلمة ضيقة شاع فيها لهب الغزولين وتراب الفحم والغازات المُسمة ، وتعالت فيها جلبة السيارات والعربات والترام ، وازدحمت على غير انقطاع بجماهير غفيرة من الناس . والمدرك من هذا جميعه ان المدائن الحديثة لم تُشد بحيث تتفق مع الخير الذي ينشده سكانها

ان حياتنا الحديثة تتأثر الى حد بعيد بالاعلانات التجارية . ذلك بأن اذاعة هذه الاعلانات لم يلحظ فيه مصلحة المستهلك ، بل منفعة المعلن . ومثلنا على ذلك ان الجمهور قد لقن ان العيش الابيض خير من العيش الاسمر . فطفق تجار الدقيق يمعنون في نخله المرة بعد المرة حتى تجرّد من كل عناصره المفيدة . وبذلك استطاع تجار الدقيق وأصحاب المخابز ان يحصلوا على أرباح أعظم مما كانوا يربحون ، في حين ان المستهلكين قد انحطت قيمة غذائهم ، وان اعتقدوا انهم انما يأكلون غذاءً أنقع من غذائهم الاول . وقد اتضح ان الامم التي يؤلف الخبز غذاءها الرئيس ، مضت تنحدر وتنحط . والمحصل ان اموالاً طائلة تنفق على الاعلان . فكان من نتائج ذلك ان مقادير عظيمة من المنتوجات الغذائية والصيدلية ، منها ما هو غير مفيد ، ومنها ما هو مضر ، قد اصبحت من الحاجيات التي يعكف عليها الانسان المتمدن . وبهذا نجد ان طوائف من ذوي الطمع والجشع

قد استطاعوا بطرائقهم الخاصة في دفع الجماهير الى استهلاك سلعهم التي يعرضونها للبيع ، ان يحدثوا اثراً بالغاً في حالات العالم الحديث

ومع هذا فان الدعاوة التي توجه طرائق عيشنا في الحياة الجديدة ، لا تخضع دائماً للبواعث الأَنانية . ذلك بان الظاهر من طبيعة تلك الدعاوة أنها بدلاً من ان تتجه الى فائدة الافراد المالية او فائدة جماهير منهم ، فانها في الاكثر ترمي الى النفع العام . غير انها الى جانب هذا قد تكون بالغة منتهى غايات الضرر والفساد ، إذا هي صدرت عن اشخاص تصورهم ، الذي كوّنوه عن هذا الكائن البشري ، ناقص او خاطىء . ولنضرب لذلك مثلاً . فان اطباءنا اذ ينصحون بالتزام ضروب خاصة من الطعام ، وكثيراً ما يفعلون ذلك ، يريدون الاطفال تسارعاً في النماء ، ويدل فعلهم في مثل هذه الحال على انهم ولا شك يجهلون الموضوع الذي يعالجونهُ ، فهل الاطفال الذين هم اكبر حجماً او أكثر ثقلاً ، اصلح من اولئك الذين هم اصغر حجماً او أخف وزناً ؟ فان الذكاء والنشاط والهمَّة والقدرة على مقاومة الامراض لا تتوقف على وزن الجسم او كبر الحجم ، أو ما يجري ذلك المجرى من الصفات . ومثل آخر نقتطعهُ من معاهد العلم . فان التعليم الذي تفرضهُ المدارس والجامعات انما يعني غالباً بتدريب الذاكرة ومرانة العضلات على نمط اجتماعي خاص ، يُسلم حتماً الى شيء من الضعف النفسي ، يتجلى في عبادة الرياضيين ، فهل مثل هذه النظامات مفيدة لرجال العصر الحديث الذين هم أحوج ما يكونون الى الاتزان العقلي وثبات الاعصاب والحكم الصادق على الاشياء والهمة والشجاعة الادبية وقوة الاحتمال ؟ ولقد نتساءل لماذا يتصرف رجال الصحة تصرف المقتنعين بان الانسان عرضة لان يصاب بالامراض المعدية وحدها ، من غير ان يفكروا في انهُ الى جانب هذا معرَّض الى الاضطرابات العصبية والعقلية والى ضعف العقل بصورة عامة . ومن هنا نرى ان الأطباء والمعلمين ورجال الصحة ، ولو أنهم يعملون جهدهم رامين الى خير الانسان ، فانهم لا يصيبون الغرض الذي يسعون اليه . ذلك بانهم يعالجون مقدمات لا تتضمن من الحقيقة الا جزءاً ضئيلاً . وقد يصدق هذا الحكم على كل اولئك الذين يستعيضون بميولهم واحلامهم ومذاهبهم عن تلك الحقيقة الجامدة التي ندعوها الانسان . وما هؤلاء غير نظريين يحاولون ان يقيموا مدنيّات لا تلائم عند الواقع غير صورة مشوّهة ممسوخة من الانسان ، لا الانسان على حقيقته . والذي لا شك فيه ان أنظمة الحكومات التي تقوم في ادمغة أصحاب المذاهب الاجتماعية من غير ان تكون اصولها مستمدة من الحالات الراهنة ، اشياء معدومة القيمة هزيلة الوزن . فمبادىء الثورة الفرنسية ، واوهام ماركس ولنين ، إنما تصلح لنوع من البشر خياليٍّ لا حقيقة لوجوده . ولذا أقول انهُ من الواجب أن نؤمن بأنَّ السنن التي تحكم الصلات الانسانية ما تزال مجهولة خفية ، وإن لنا ان

نقضي الى جانب هذا بأن علمي الاجتماع والاقتصاد علمان ظنيان حدسيّان،وبالحري علمان كاذبان

لهذا نقول ان المحيط الذي تعاون العلم والفن الصناعي على تلوينهِ ونجحا في خلقه ليكون للانسان مباءة ، محيط لا يوائم الانسان ، ذلك بأنهُ شيد اعتباطاً ، من غير نظر في حقيقة ذاته

٦ — حاجتنا الى معرفة أوفى بحقيقة ذواتنا

والمحصل : ان علوم المادة الجامدة قد أحرزت تقدماً عظيماً في حين ان علوم الكائنات الحية ظلت بدائية . فان بطء التقدم الذي نأنسه في علم الاحياء — Biology — إنما يرجع الى الحالات المحيطة بالوجود الانساني والى تعقد ظاهرات الحياة والى الصورة التي انصب فيها ذكاؤنا ، وهو ذكاء يميل بفطرتهِ الى الأَبنية الآلية والى الرياضيات المجردة. ذلك الى ان تطبيق المكتشفات العلمية تطبيقاً عمليًّا قد قلب الآية في عالمي المادة والعقل . وكان من جراء ذلك الانقلاب أن حدث تأثير عظيم الخطر على حالات الحياة . أما اخطر ناحية من نواحي ذلك الانقلاب فتنحصر في أنهُ استحدث من غير نظر او اعتبار لطبيعتنا . فان جهلنا بأنفسنا قد أوسع المجال لعلوم الآلة والطبيعة والكيمياء تلك القوة التي مكنتها من ان تكيِّف تكيفاً أعمى انماط الحياة التي ألِفَها أسلافنا

والحقيقة ان الانسان ينبغي ان يكون المقياس الذي يقاس عليهِ كل الاشياء . وبالرغم من هذه الحقيقة وعلى عكس ما تقتضيهِ تماماً ، يعيش الانسان غريباً في هذا العالم الذي خلقهُ من حولهِ . لقد عجز الانسان عن ان ينظّم دنياه ، لانهُ لا يملك المعرفة العملية بحقيقة طبيعته . فكان التقدم العظيم الباهر الذي حازتهُ علوم المادة الجامدة وبذت به العلوم ذوات العلاقة بالكائنات الحية ، من أعظم الكوارث التي انتابت الانسانية . والمحيط الذي أبدعهُ ذكاؤنا وتلك المخترعات التي اخترعنا ، قد أثبتت انها غير ملائمة لنا من اكثر الوجوه . نحن أنما نشعر بأننا تعساء ، واننا نتحدر أدبيًّا وعقليًّا ، وتلك عشائر الانسانية وأممها التي بلغت فيها المدنية الصناعية أرقى مبالغها ، هي بذاتها العشائر والامم التي ترى انها آخذة في أسباب الضعف شيئاً بعد شيء ، بل انها العشائر والامم التي نلحظ ان رجوعها الى الهمجية سريع وشيك . غير انها لا تشعر بهذه الحقيقة . انها تعيش غير محمية من أثر البيئات المعادية التي كوّنها العلم من حولها . والواقع انحضارتنا ، كالحضارات السابقة ، قد خلقت حالات أصبحت معها الحياة ، لاسباب ما تزال غامضة ، أمراً يكاد يكون مستحيلاً . فان متاعب أهل المدن الحديثة وشقاواتهم، انما تعود الى نظاماتهم السياسية والاقتصادية ومعاهدهم الاجتماعية ، وفوق كل هذا ، الى ضعفهم الذاتي . وعلى الجملة نشعر أننا ضحية لتأخر علوم الاحياء وسبق علوم المادة عليها

اما العلاج الاوحد لهذه السيئات فاستعاقنا في المعرفة بحقيقة ذواتنا . فان استعاقنا وتفقهنا في هذه المعرفة سوف يمكننا من معرفة وسائل الحياة الجديدة التي تؤثر في وعينا وفي جسومنا. وبهذا نفقه بأي سبيل نكيّف انفسنا بحيث نلائم بيئاتنا وكيف نبدل هذه البيئات ، إذا ما أصبح قلب نظمها وأسسها ضرورة محتومة . واننا باستظهار طبيعتنا الحقيقية وكفاياتنا والطرق التي نجعل بها هذه الكفايات قوة ذات اثر واضح في الحياة ، نستطيع ان نجلو نواحي ضعفنا الوظيفي ونستبين حقيقة امراضنا الادبية والعقلية . اننا بغير الاستعاق في درس علوم الاحياء لنعجز عن معرفة السنن التي تحكم أوجه نشاطنا العضوي والروحي ، كما نعجز عن ان نعرف ما يجب ان نتنكب وما ينبغي ان نقبل عليهِ من أشياء الحياة ، او أن نحقق على الاقل مدى حريتنا في ان نحوِّر من بيئاتنا أو أنفسنا بمحض اختيارنا

ان حالات البقاء الطبيعية قد حطمتها الحضارة الحديثة . وهذا ما يجعلنا نشعر شعوراً عميقاً بأن العلم بالانسان قد أصبح أمسّ العلوم بكياننا

في الادب

قال الطغرائي في ولدٍ لهُ وافاهُ على كبر :

هذا الصغير الذي أوْفى على كبري	أقرَّ عيني ولكن زاد في فِكَري
وافى وقد أبقت الايام في جسدي	ثلماً كثلم الليالي دارَةَ القمر
والشيب أردف مسودًّا بمشتعل	والدهر أعقب منصاتاً بمستطر
سبع وخمسون لو مرَّت على حجر	لبان تأثيرها في صفحة الحجر
فزاد حرصي على الدنيا وجدَّد لي	ضنًّا بمالي واشفاقاً على عمري
أضوى عليهِ وأخشى ان يعاجلني	يومي، ولم أقض من تشريحِهِ وطري
وأشتهي أن أراهُ وهو مقتبلٌ	غض الإهاب خضيب الوجه بالشعر
أحيي مآثر آبائي وأشبههم	في مجدهم،واقتني في هديهِ أثري

زواج الاقارب

أضارٌ هو أم نافعٌ

للدكتور ليفي لنز

مسألة الزواج بين الاقارب وما قد يسفر عنهُ هذا الزواج من اولاد أصحاء او أعلاَّء ، مسألة شغلت عقول الناس من قديم العصور . وهي مسألة معقدة لان المرء يميل على الغالب الى الحكم حكماً قاطعاً في الموضوع وفقاً لحادثة استوقفت نظرهُ او مراعاةً لبعض القواعد الدينية . ولكن إخلاف النسل السليم القوي غدا في عصرنا مشكلة كبيرة الشأن . ولذلك أصبح لعلم اصلاح النسل مكانة عظيمة في دوائر العلماء والعامة على السواء . والنتيجة التي خرج بها العلماء من بحوثهم وتجاربهم هي ان الزواج بين الاقارب لا خطر فيهِ ولا خوف منهُ اذا كانت الاسرة التي يتم الزواج بين افراد منها اسرة سليمة

ولنضرب على ذلك بعض الامثال : هو ذا شاب يريد ان يتزوج ابنة عمهِ . فاذا دلَّ البحث الدقيق على ان الاسرة سليمة من العيوب الوراثية ، فليس ثمة ما يعترض بهِ على هذا الزواج من الناحية العلمية والصحية . بل على الضدّ من ذلك ان العلم يرى في هذا الزواج خيراً كبيراً يتجلى في صحة الاطفال التامة . او خذ مثلاً آخر . يريد اثنان من أسرة واحدة سليمة ان يتزوجا . ولكنَّ في هذه الاسرة أفراداً مصابون بحسر النظر (ميوبيا) وهو عيب غير بارز فلا يسترعي النظر لان كثيرين من المصابين بهِ لا يستعملون النظارات . ففي هذه الحالة يستهدف الاولاد — ثمرة هذا الزواج — لخطر الاصابة اصابة شديدة بحسر النظر لانهم يرثون الاستعداد لهذه الاصابة من أبويهم

ولكن اذا تزوج أحد شبان هذه الاسرة فتاةً من أسرة أخرى غير مصابة بحسر النظر بل بالبول السكري ، ففي هذه الحالة يقلُّ خطر الاستهداف للاصابة بحسر النظر لان الجرثومة الحاملة لهذا العيب تنتقل الى الطفل من ناحية واحدة هي ناحية الوالد . وعلى قدر ما يستهدف

الطفل لخطر الاصابة بحسر النظر ، يستهدف كذلك لخطر الاصابة بالبول السكري لان أسرة الأم مصابة بهِ . وليس في هـذا ما يمنع ان يصاب الطفل بحسر النظر او بالبول السكري . ولـكن التعرّض لخطر الاصابة بأحدهما قليل . واذن يصحّ ان نقول إن زواج الاقارب ، اذا كانوا من أسرة سليمة من العيوب الوراثية ، لا خطر فيهِ على الاولاد

والعلماء لم يصلوا الى هذا الرأي على أساس التأمل النظري،ولـكنهم خلصوا اليهِ من تجارب متعدّدة واسعة النطاق

ففي المانيا بحديقة قصر روزنشتين على مقربة من مدينة شتتغارت يعيش فريق من الانباع الاقطاعيين البيض وقد مضى عليهم مائة سنة وهم يتزاوجون حتى غدت صلات القرابة بينهم وثيقة جدًّا . وليس ثمة ما يجيز لنا ان نقول إنهُ يبدو عليهم أقل دليل من ادلة الانحطاط او الحؤول البيولوجي . وفي سنة ١٨٦٤ نقل الى انكلترا ثلاثةمن الاتباع الاقطاعيين من زيلندة الجديدة فنسلوا في ٦٤ سنة ستة آلاف خالين جميعاً من آثار الحؤول . ثم ان الجياد الشهب في فردريكسبورج تولدت من تشبية جوادٍ وثلاث عشرة أصيلة . وهي مشهورة بصفاتها الممتازة على الرغم من التزاوج بين نسلها

***

وكانت الشريعة تقضي على ملوك « الانكاس » بأن يتزوجوا شقيقاتهم . فلما تغلب الاسبانيون عليهم في أميركا الجنوبية كان ملك بيرو أحدهم خلفاً لاسلاف يستغرق تاريخهم الف سنةٍ ومع ذلك كان سليماً . أما انهُ عجز عن مقاومة الاسبانيين فلا دخل لهُ في الامر

وما لنا وللاعتماد على الشواهد البعيدة وعندنا في تاريخ مصر القديمة ما يكفينا حيث كان زواج الملك بشقيقته اجباريًّا . ولم تـكن هذه القاعدة مما يتميز بهِ الاعيان بل كان عادة شائعة في جميع طبقات الشعب

ومع ذلك لا بدَّ من ان نقول ان الاسر السليمة من العيوب نادرة الندرة كلها واذن لا بدَّ من اتخاذ الحيطة الـكاملة عند النيَّة على عقد زواج بين قريبين لصيقين . ونحن نشير الى هذا عنايةً منا بالصحة الخاصة والعامة وسلالة الاطفال من العيوب الوراثية ، وهذا يفسّر عناية بعض الحـكومات الاوربية بانشاء عيادات طبية خاصة حيث يعنى الاطباء المختصون بتنوير الخطيبين في هذا الموضوع الخطير واطلاعهما على ما يجب ان يطلعا عليهِ . ومما يؤسف له ان مصر لم تنشىء حتى الآن عيادات من هذا القبيل

الدستور

والروح الوطنية

لانيس المقدسي

استاذ الادب العربي بجامعة بيروت الاميركية

مما ذكرناه آنفاً يتضح ان ما تدفّق بهِ الشعر الدستوري من عواطف الحبور والتهليل راجع بالاكثر الى ما نشأ في نفوس العثمانيين عموماً والعرب خصوصاً من ايمان ثابت باخلاص الدستوريين ورجاءٍ حيٍّ بحسن المصير. فكنت تراهم على شبه يقين من انهم أصبحوا ابناء لدولة عظيمة تحبّهم وترغب في تقدّمهم

ذلك الايمان وذلك الرجاء بعثا في الشرق العربي روحاً جديدة أيقظت القلوب وأضرمت فيها الشعور بالفخر والكرامة الذاتية فألبست الادب خللاً قشيبة من الجمال. وقد ظهر ذلك في مظهرين رئيسيين هما الاعتزاز بالوطنية، والدعوة الى الاتحاد القومي : واليك البيان مما اختبرناه بأنفسنا وعرفناه من اختبار الآخرين

﴿ الاعتزاز بالوطنية ﴾ أشرنا في فصل سابق الى ما كان للحرب الروسية اليابانية ١٩٠٥ من أثر في تخمير الشرق العربي بروح الكرامة الشرقية. وقلنا ان ذلك لم يكن الا سبباً تمهيديًّا لحركة أعمق وأوسع نطاقاً. وقد بدأت هذه الحركة فعلاً عقب اعلان الدستور. وسنرى كيف تطورت مع الزمان. وكيف تغيرت أشكالها في شتى البلدان

ولايخفى ما كان للاجانب في السلطنة العثمانية من نفوذ سياسيٍ واقتصادي وفكري. فهم أصحاب الامتيازات وفي معاهدهم نشأ سواد المتعلمين، فلا بدع ان يتولد في نفس الشرقيّ ازاءهم ما يسميه علماء النفس بالصغار الذاتي[1]، حتى صار عند الجمهور كل شيءٍ غربي أفضل من كل شيءٍ شرقي، تاجرهم أصدق، وعالمهم أعلم، وصانعهم أحذق، بل وعنصرهم، أشرف وأرقى. وجرى ذلك بين الناس في الشرق العربي وأُلفوه حتى صار جزءاً من كيانهم النفسي. على ان النهضة العلمية أخذت منذ القرن الماضي تعمل على إضعاف هذا الشعور، فنشأ بين المفكرين من ثار على «الصغار

(١) مقابلة للتعبير الانكليزي Inferiority Complex

الذاتي» حرباً شعواء داعياً الناس الى احترام النفس واكرام الوطن . كقول أحدهم[١] « كيف نؤمل نجاح صناعتنا وتأخر صناعتهم في بلادنا حال كون كل عربي يمدح صناعتهم ويطعن في صناعة بلاده ، ويفضل ما كان أفرنجيًّا مهما كان » . وقد نظر الكاتب هنا الى الوجهة الاقتصادية وهاله ان يرى تأخر الوطني لتأصل فكرة سقيمة فيه . ومنهم من نظر الى الوجهة الاجتماعية او الروحية فآلمهُ ان يرى ما يسود الناس من اعتقاد بأفضلية الغربي وتفوّقه الفطري على الشرقي. فقال [٢] « ام لا ترى انك لو عنيت بأمر قومك عنايتك بالاجنبي تقوم بأمره ، وتولع بشكره ، لما لبثت أن ترى منهم من يبلغ شأوه وان كان رفيعاً ، ومن يدرك سعيه وإن كان سريعاً »

وعرف الغربيون ذلك الشعور في الشرقيين فاستغلوه بل تمادوا في استغلاله حتى صاروا لا يتورّعون عن التشامخ على بني الشرق وامتهانهم في عقر دارهم . فمن الطبيعي ان يولد ذلك في نفوس الأُباة من الشعراء والكتبة « ردّ فعل » يظهر في منظومهم ومنثورهم كما ترى في قصيدة للزهاوي قالها قبل الدستور ومنها [٣]

كفى الغربُ فخراً انهُ متقدّم	وان له مالاً به يتنعم
وانّ لهُ في البرّ جيشاً عرمرماً	يماثله في البحر جيش عرمرم
ترقّى فلما اشتدّ ساعدهُ عتا	وبات يغيظ الشرق والشرق يكظم
يطيل على اجحافه بحقوقه	سكوتاً كأنّ الشرق ليس له فمُ
فيا أيها الغرب المدلّ بنفسه	رويدك ما هذا الغرورُ المذمّم
أتزعم ان الشرق يلبث صاغراً	أمامك مغصوباً وأنت المكرّم
وتبقى عليه هكذا متسيطراً	تمصّ دم الاموال منهُ وتهضمُ

والقصيدة حوالي ثلاثين بيتاً وكلها على هذا النسق من البرم بهذه الحال ويتخلّلها فخر بالماضي وأمل بالمستقبل . وظلّ الامر كذلك الى اوائل القرن الحالي حين أخذت الحضارة الجديدة تعمّ البلاد وحين توفّر الشرقيون على دراسة العلوم الحرّة ، فعرفوا ما لهم وما عليهم . وكبرت نفوسهم فصارت الطبقة المثقفة منهم تشعر بوجودها ، فيسؤها ما تراه في الوطن من اثرة أجنبية وتحاول القضاء عليها بشتى الوسائل ولا سيما باحياء الروح الوطنية . على انها كانت تصطدم بالامتيازات الاوروبية . ويفتّ في عضدها خنوع الدولة للاجانب وجهل العامة معنى احترام النفس والوطن . وقد زاد الطين بلّة تلك النعرات الطائفية وما ولدته من ضغائن ومخاوف ، مما فتح الباب لتدخل الاوربيين بحجة حماية الاقليات ، وبالتالي لازدياد نفوذهم الروحي والسياسي وشيوعه في جميع انحاء الشرق

(١) سليم البستاني مجالي الغرر (١٩٠٦) ١٠٠
(٢) أديب اسحق في الدرر ١٤٨ (٣) ديوانه (١٩٢٤) ٢٩٣

فلما اعلن الدستور وارتفع الضغط المضني عن الالسن والصدور ، اتّقد الشعور الوطني اتقاداً لم يعهد من قبل واخذ الادب العربيّ يتغنّى بالقومية تغنياً غريباً اشتركت فيه جميع العناصر والطوائف . وقلما كانوا يفرقون يومئذٍ بين الكرامة الشرقية والكرامة العثمانية ، بل ذهبوا الى ابعد من ذلك في حماستهم الدستورية فقلبوا للاجانب ظهر المجنّ ورفعوا الهلال العثماني الى اوج التعظيم

وقد كان شيء من ذلك قبل الدستور ولكنهُ لا يقاس بما وصل اليه بعده والذين ادركوا ذلك العهد لاينسون قط تلك الهبّة القومية التي كان لها في نفوس الشبيبة فعل للسكرات فأنستهم حتى نسوا مساوىء العهد السابق ، واطلقوا لاقلامهم وألسنتهم العنان فجرت في هذا المضمار جري السوابق . فلا تستغرب اليوم اذا قرأت لاحد ادباء بيروت المسيحيين الاصلاحيين قوله من خطاب القاهُ في الاسكندرية [١] :—

« ليبتهج العثمانيون فقد نشر الدستور ، وجاء اليوم الذي التمّ فيه شعث الامة العثمانية وتآلفت اعضاؤها ، وتآخت اجزاؤها . فكلنا بنعمة الدستور عثمانيون — عثمانيون لا نعرف غير هذا اللقب لقباً ، ولا نتخذ سواه نعتاً . عثمانيون قبل كل شيء . عثمانيون طول الحياة . عثمانيون مذهبنا الحرية وشعارنا الوطنية وفخرنا الراية الهلالية وملجأنا الدولة العلية »

ومثله ما جاء في لسان الحال من افتتاحية [٢] : — قال الكاتب يصف حالتنا الاجتماعية والروحية قبل الدستور ويقابلها بما صارت عليه بعده — « لم يكن حالنا حال المريض فقط . بل لا نجازف اذا قلنا اننا كنا قد بلغنا حال المحتضَر . وطال هذا الدور (اي دور الاحتضار) الى ان اتانا الدرياق فنشطنا من عقال الخمول ووثبنا وثبة الاسد من العرين » وبعد ان يصف هذه النهضة يشير الى علاقة الوطنيين بالاجانب فيقول (وهو من المعروفين باعتدال المنهج)— « وسيرى الغريب من الفرنجة وغيرهم كيف يعاد مجد الامم وتتجدّد حياتها بقوة افراد رجالها »

وقال احد الكتبة المسلمين [٣] واصفاً ما كانت تقاسيه الدولة من السياسة الاوربية —« ان الدول كانوا يواصلون الضغط على جسم المملكة العثمانية ويضاعفون السعي لايقاع الشلل في عروقها الكثيرة التشعب . ولكن قضى ربك ان يردّ كيد اولئك المتسابقين الى نهش هذا الجسم المتضعضع الى نحرهم ، وتعود العثمانية بفضل الدستور قوية الشكيمة تقف في وجوههم وقفة الرئبال لا جزعة ولا فزعة »

وعلى هذا المنوال نسج كثير من المقالات والخطب وكلها تشير الى ما كان يملأ النفوس من

(١) خليل زينيه جريدة الثبات ١ عدد ٦ (٢) عدد ٢٦ (تشرين اول : اكتوبر) ١٩٠٨

(٣) طه المدور في لسان الحال ٢٢ شباط (فبراير) ١٩٠٩

النقمة على الاجانب او على الاقلّ من الامل بنهوض الدولة فيسترد ابناؤها (الترك والعرب على السواء) مجدهم الغابر ولا يضطرون بعد ان يقفوا امام الاجنبي وقفة الضعيف امام القادر

اما الشعر فحدّث عن اتقاده الوطنيّ ولا حرج . فيهِ اشتركت جميع الاقطار العربية والمهاجر حتى لبنان فانهُ برغم استقلاله الذاتي ورغم اتجاهه نحو الغرب علقت بهِ شرارة من ذلك اللهيب فكان من ابنائهِ في الوطن والمهجر شعراء يهزجون بتعظيم الانقلاب والاستبشار بهِ ، ويهللون للعرش العثماني وابطال الحرية . ومن اراد الاطلاع على ما قيل في هذا الباب فليرجع الى الصحف العربية في العامين ١٩٠٨ و١٩٠٩ [١]

ومما لا ريب فيهِ ان الشعر الدستوري في السنتين المذكورتين مفعم بروح التفاؤل شديد الحماسة للكرامة الشرقية والجامعة العثمانية . سواء في ذلك المسيحيّ والمسلم ، الناقم على سياسة عبد الحميد او غير الناقم . ومن امثلتهِ هذان البيتان لسعيد شقير من قصيدته المار ذكرها —

لا زلتَ يا جيشنا فخراً لأمتنا وحظّاً اعلامك الامجاد والغلبُ
نرقى المعالي وتركيّا لنا وطنٌ للعزّ والمجد فيها تُرفع القببُ

والابيات التالية من قصيدة للدكتور نقولا فياض [٢]

يا بني عثمان إنا امةٌ اصبحت موضوع اعجاب الامم
سيعيد العدلُ تاريخاً لكم طبع المجد بهِ منذ القدم
في حمى جيش عزيز باسلٍ واسع النعمة كشاف الغمم

وبعد ان يصف حماة الدستور الاحرار وافعالهم المجيدة وخوالج الامة يلتفت الى الغرب وعلاقته بتركيا فيقول : —

قل لاهل الغرب عنا حسبكم ان للاتراك بأساً وكرم
حرّروا الشرق وذي افعالهم جدّدت صبوته بعد الهرم

وكأنهُ يرى ما كان يراه كثيرون من الاجانب سبب التفريق بين الشرقيين فيقول : —

ولمن يطمع في تفريقنا كان للتفريق عهدٌ وانصرمْ
غير دين الحبّ لا دين لنا نحن في البؤس سواءٌ والنعمْ

ولعلّ الابيات التالية تمثل نزوات الشباب الوطنية عهدئذٍ وعصبيتهم الشرقية الثائرة . وهي من قصيدة تليت يوم افتتاح «المبعوثان» (البرلمان العثماني) [٣] وتصف تألم الشرقيين من غطرسة الغربيين وشعورهم ان العهد الجديد سيضمن للشرقي حقوقه وكرامته . تبدأ بذكر

(١) راجع خصوصاً المشرق (بيروت) (٢) راجعها في مجلة الهلال ١٧ — ٨٧ (٣) للكاتب سنة ١٩٠٨

ما كانت عليه مصر وسوريا وما كان يعانيه أباة الضيم فيهما وفي سائر الاقطار العربية من صلف الاجانب حتى يحمل الناظم شعوره الى قوله : —

أترتضي الذلَّ من أيدٍ تقبِّلها كأنها للهدى والدين معتصَمُ
ونحن نحقر في القطرين سيدنا ونكرم الزعنف الصعلوك ينهمُ
داءٌ سرى في دم ابن الشرق فانقلبت أهلوه لا همٌّ فيهم ولا شيمُ

ويتقدّم من هنا الى ذكر الانقلاب الدستوري وانبثاق النور الجديد من العرش العثماني وان هذا النور سيجلو ظلمات الهوان عن البلاد وسيربطهم معاً برابطة الوطنية الحقة والولاء لصاحب العرش ؛ ثم يلتفت الى الغرب فيقول متحمساً

لظًى من النيل للدانوب متقدٌ الى العراق الى البحرين ملتهمُ
ان يكرمونا فان الشرق يكرمهم او يحقرونا فان الشرق منتقمُ

ومما يلاحظ ان هذه الحماسة كانت شديدة الاتقاد في شعراء المهاجر . كقول أحدهم [١]

حسب الغرب هبَّة الشرق نوماً ورماها بأنها وهميه
كذب الغرب ان في الشرق قوماً بشفار الصمصام شقّوا الدجيه

وليس ما قدّمناهُ الاَّ نماذج قليلة من الشعر الوطني الذي أنشأه الامل الدستوري في الاوساط الادبية المسيحية ، فما قولك بالاوساط الاسلامية وما نشأ فيها من حماسة شعرية وما أثارتهُ من عواطف قومية والمسلمون عموماً أكثر ميلاً الى العثمانية وأشدّ نفوراً من السيطرة الاجنبية

ومن الخطأ الفادح ان يُساء الظن بتلك العواطف الوطنية وان يقال انها لم تكن الاَّ من قبيل التزلف او المداهنة . قد تكون عواطف مغترٍّ او سكرانٍ ولكنها كانت يومئذٍ تخرج من قلوبٍ كان كثير منها طافحاً بالامل والاخلاص . واليك تزكيةً لذلك قول أستاذ عرف ببعد نظره وترويّه في الامور . فقد نشر لهُ المقتطف خطبةً اختارها من بين كثير من خطب ذلك العهد اذ رآها من أدلّ ما أنشيء في وصف تلك الحالة [٢] . وقد جاء فيها وصف دقيق لحالة العثمانيين قبيل الدستور كقوله — « كنا منذ بضعة أسابيع والصدور خانقة بما فيها . والنفوس واجمة من هول ما ترى من موقفها ، والعقلاء النزهاء لا يدرون ماذا يصنعون ولا ماذا يقولون . وكأنما أطبقت عليهم السماء أو سدّت عليهم منها منافذ الرحمة . وبينما نحن في هذه الظلمة المدلهمة وفي حالٍ من اليأس والقنوط ما شهدنا مثلها ولا آباؤنا الاولون سطع علينا بغتة نور القانون الاساسي فأشرقت على آثاره شمس الحرية الشخصية والحرية القومية والحرية الفكرية الادبية »

---

(١) أداب القرن التاسع عشر شيخو ٢ — ١٧٣ (٢) المقتطف ٣٣ — ١٩٠٥ للاستاذ جبر ضومط

ثم يتقدَّم الى شرح معنى الدستور وتأثيره حتى يصل الى قولهِ — « ترون مما ذكرته في بيان حقيقة الدستور اني لا أرى ان أفراحنا بهِ صبيانيَّات تافهة . ولا احتفالاتنا ومظاهراتنا الخارجية تكرمةً لهُ ولحماته تهوّساتٌ ضارة . بل هي مهما بلغت مع القصد والحكمة قليلة في جنب أهميته ومقدار قيمته . وأيُّ قيمة أعظم من قيمة الحياة — حياة الفكر والقول والعمل المشروع للفرد، وحياة العزة والقوة والتوازر والاستقلال والاستبسال للامة . فمن أراد الحياة فليقل ليحي الدستور العثماني والقائمون بهِ ومن أراد الموت موت الذلّ والصغار والاستعباد فلا رحمهُ الله . وليمت هذا الشخص من بين جماعة العثمانيين الحرَّة »

وقد شعر الاستاذ كما شعر أكثر العقلاء يومئذٍ بطغيان ذلك التيار الوطني وخشي كما خشوا ان يقود الى الغرور والتهوّر او ان يستغلهُ أهل المآرب فناشد الناس قائلاً « دعوا التسرّع فان تسرّعكم لا يفيدنا الآن وان كنتم أخلص المخلصين وأغير أهل الغيرة الحقة على شرف العثمانية ومصلحة العثمانيين . انا في حاجة الى المخلصين أصحاب العلم والخبرة الذين قبل ان يقولوا يفكرون ويتروون وبعد ان يقولوا يفعلون كما يقولون . مثل هؤلاء تطمئن اليهم نفوسنا ونسلم اليهم قيادنا وتدبيرنا »

ومن ظواهر الاعتزاز بالوطنية في ذلك الحين تلك الغارات الشعواء التي شنها الشعراء على بعض الدول الاوربية لتعديها على بعض الممتلكات العثمانية وضمها نهائيًّا الى أملاكها . كما فعلت النمسا بالبوسنة والهرسك . واليونان بكريت . ثم ما فعلتهُ ايطاليا بطرابلس الغرب : فكان شعراء العربية على اختلاف نحلهم ومنازعهم يداً واحدة على المعتدين . وكان شعرهم غالباً كالبحر الثائر يرمي صخور الشاطىء بالزبد الصاخب . كقول الشاعر اللبناني من قصيدة وطنية (١)

ألا من يبلغ النمسا كلاماً نسجّلهُ ونورثهُ البنينا
بان عهودها كانت سراباً وكان ودادها (بلفاً) مبينا
فلا تجد السنون الى التصافي سبيلاً ما تعاقبت السنونا
او النمسا تكفر عن ذنوبٍ جنتها فاعتدت عاراً وهونا
أتحسب جارة الدانوب أنّا نذلُّ لمثلها ابداً جبينا

ولا ريب ان الشاعر كان في هذه الابيات يعبّر عن الشعور العام في المملكة العثمانية، وقلَّما خطر يومئذٍ بباله ان « جارة الدانوب » ستصبح عن قريب حليفة الدولة العثمانية في الحرب العالمية . وفي حادثة كريت كان من تحمس العثمانيين عموماً ما حمل شاعراً لبنانيًّا آخر على نظم قصيدة بدوية النزعة ومنها (٢):—

(١) شبلي الملاط — راجع شيخو ١٧٧ (٢) لامين ناصر الدين راجعها في ديوانه صدى الخاطر تحت موضوع نادبة كريت وكذلك في شيخو ١٩١ على ان في الروايتين بعض الاختلاف

أظنَّ بنو اليونان ان سيوفنا تثلَّمن ام اخنى علينا التأخرُ
ألم يذكروا بالامس ما كان بيننا على حين خضنا الموت والموت يزخرُ

لعله يشير بذلك الى الحرب اليونانية العثمانية سنة ١٨٩٧

صدمناهم تحت العجاجة صدمةً كما راع اسراب الظباء غضنفر
وكان لنا معهم وقائع لم تزل احاديثها في الخافقين تُكرَّر

ومنها يخاطب اليونان : —

تحيّنتمُ وقتاً توالت خطوبهُ لادراك امرٍ نيلهُ متعذّرُ
وخلتم توالي الظلم اورث شعبنا خمولاً واصبحنا على الهون نصبر
قهرناكمُ والملك قد كان ذاوياً فكيف وروض الملك فينان اخضرُ

أي قهرناكم أيام عبدالحميد والدولة في حال البؤس فكيف الآن وهي زاهية بعهدها الدستوري الجديد

فما ضمَّ إكريتٍ بسهلٍ فدونهُ صدام الرزايا والهلاكُ المقرَّرُ(١)

ولشاعرنا اللبناني نفثات كهذه في حوادث البلغار وأدرنه وحرب طرابلس الغرب وغيرها من الوقائع السياسية التي كانت مثاراً للخواطر قبل الحرب الكبرى

ومثل ذلك تجده في الشعر العراقي . فالرصافي مثلاً ، وقد عرفنا انهُ كان قبل الدستور من الاحرار أو الناقمين على سياسة الحكومة الحميدية ، اصبح بعده من المغالين في نصرتها، المتحمسين في مقارعة أعدائها . وله قصائد رائعة يستنهض فيها المسلمين الى الجهاد ذوداً عن الوطن العثماني كقوله من قصيدة في الحرب الطرابلسية موضوعها « الى الحرب » (٢)

ألا انهضْ وشمّر أيها الشرق للحربِ وقبل غرار السيف واسلُ هوى الكتبِ
ولا تغترر ان قيلَ عصرُ تمدّنٍ فان الذي قالوه من اكذب الكذبِ
ألست تراهم بين مصرٍ وتونسٍ أباحوا حمى الاسلام بالقتل والنَّهبِ
وما يؤخذ الطليان بالذنب وحدهم ولكن جميع الغرب يؤخذ بالذنبِ

وله أشدُّ من ذلك في هذه الحرب وفي ادرنه والبلقان وسواها . والظاهر ان اقامته في الاستانة قد اثرت كلَّ التأثير في الناحية القومية الدينية من نفسه . فلما نشبت الحرب العالمية وخاضت غمارها تركيا الى جانب المانيا والنمسا اخذته الحمّية الدينية كما اخذت كثيرين سواهُ فنظم قصيدة موضوعها « الوطن والجهاد » يدعو فيها المسلمين الى قتال أعداء الوطن والدين (اي الحلفاء) ولكي يدرك القارىء ما كان يسود بعض الاوساط العربية في ذلك العهد (أي قبل

(١) والظاهر ان هذا البيت حذف من القصيدة في صدى الخاطر (٢) راجعها وراجع امثالها في باب الحربيات من ديوانه (بيروت ١٩٣١)

ان تتبدّل الحال بظهور الدعوة العربية والثورة الحجازية ،) تنقل لهُ منها بعض أبياتها الاولى — قال : —

ياقومُ إن العدى قد هاجموا الوطنا فانضوا الصوارم وأحموا الاهل والسكَنا
واستنفروا لعدوّ الله كلَّ فتىً ممن نأى في أقاصي ارضكم ودنا
واستنهضوا من بني الاسلام قاطبةً من يسكن البدو والارياف والمدنا
واستقتلوا في سبيل الذود عن وطنٍ بهِ تقيمون دين الله والسُّننا

وبعد ان يجري شوطاً في هذا المضمار يلتفت الى مصر فيندّد بحكومتها (أو قل بسلطانها يومئذٍ ووزارتهِ) لمجاراتهم الانكليز والانقياد لسياستهم . ويعود بعد ذلك الى الوطن والدعاء لهُ فيقول

لا زلتَ ياوطن الاسلام منتصراً بالجيش يزحف من ابنائك الأُمنا
إنّا نحبّك حبًّا لا انتهاءَ لهُ يستغرق الارض والاكوان والزمنا

ويخصُّ العراق بالقسم الاخير من القصيدة وما أشيع عن اقتراب العدوّ منه ، فيحضّ العراقيين على الاستبسال في صدّه —

إنّ العراق لعمرُ الله مسبعةٌ تواثب الأُسْد فيها من هنا وهنا
هم المناوير ان صالوا بملحمةٍ فلا يرون لهم غير المنون مُنى

ويجري مجرى الرصافي من شعراء العراق محمد حبيب العبيدي ، وخيري الهنداوي ، ومحمد الحسين كاشف الغطاء ، وعبد العزيز الجواهري وسواهم ممّن نفخ فيهم الدستور روحاً جديدة تحملهم على مناصرة الخلافة والتهجّم على اعدائها في أوروبا ، وأضرم فيهم النعرات الشرقية والدينية ، حتى قال أحدهم من قصيدة موضوعها « بعد حرب الطليان والبلقان » . [1]

اظهر الغرب ما أجنَّ من الغدر — وأبدى كوامن الاضغانِ
وأحاطت بالمسلمين علوجُ البغي — من كلّ جانبٍ او مكانِ
أيها المسلمون هبّوا فليس الموتُ — الاّ حياتكم بهوانِ
قد دهاكم ويلٌ فماذا التمادي وأتاكم سيلٌ فماذا التواني
جاءكم جارف من الغرب تيّارٌ — يهدُّ البنا وأسّ المباني

وحبيب العبيدي قصيدة اسمها « ألواح الحقائق » القاها في المنتدى الادبي العربي في الاستانة بعد خطاب له في الحرب الطرابلسية وهي تقرب من خمسمائة بيت وقد ضمّنها أهمّ الحوادث التاريخية من عهد الرسالة الى زمن انشادها [2] . ومما نقل الينا منها يصح ان نحكم انها تعبر

(١) محمد كاشف الغطاء . راجعها في كتاب الادب العصري في العراق لروفائيل بطي الطبعة الاولى ج٢ — ٨٧
(٢) راجعها في الادب العصري : لبطي ١ — ١٤٨

تعبيراً جليًّا عن هذه المحبّة المعنوية في نفوس الشرقيين وعن أمانيهم في ارجاع مجدهم الغابر ونفض ما كان قد لحق بهم من عار التأخر — كقوله —

كيف ترضى ياشرق ان يمشيَ الـــغرب اماماً وانت تمشي وراء
أفلم يأنُ ان تجدّد عهداً شهد الصُبح فضله والمساء
أنسام الهوان دون المنـــايا انما الموت والهوان سواء

وهو يصل هذه النهضة الشرقية بمجد العرب الاقدمين ويختمها بذكر مفاخرهم التاريخية . ويدعو بني الشرق عموماً الى النهوض والجري في سبل العلى والتقدّم . ومثل ذلك خيري الهنداوي في قصيدته « أيها الشرق »[1] ، وقصيدته « فتاة سلانيك »[2] ومن هذه الاخيرة قولهُ متألماً —

أُم البلاد أضاعك الاقوامُ فبكى مرابع مجدك الاسلامُ
يا أيها الشرق الذي قد عمّهُ للغرب من بعد الشروق ظلامُ
ما الغرب اوّل ظالم لك بالذي يأتيه بل ابناؤك الظلاّمُ
قد أهملوكَ وانت معقل عزّهم فاستهونتك بوطئها الاقـــدامُ

ولقد يجوز ان نتهم بعض شعراء ذلك العهد بمداهنة الاتراك وان شعرهم لذلك لا يعكس لنا الشعور العربي الحقيقي . وهنا نكرّر قولنا اننا انما نؤرخ العواطف العربية كما تظهر في نفثات أدباء العرب الشعرية ، ومهما تكن الاغراض النفسية وراءها فذلك لا ينفي حقيقتها وانها ناشئة عن الحوادث متصلة بالشعور العام . والحقّ يقال ان ما اختبرناه بأنفسنا ، وما عرفناه من اختبار الآخرين يدفعنا الى تنزيه كثير من الشعراء يومئذٍ عن المداهنة المقصودة ، ويميل بنا الى ان نعزو عثمانيتهم الى ما أثارتهُ الاحداث السياسية من شتى النعرات في نفوسهم

ففي أوائل العهد الدستوري كان الشعر العربي في سوريا ومصر والعراق مجلىً لالوانٍ من الوطنية غير واضحة الحدود . ولكن كما ان ألوان الطيف اذا مزجت معاً كوّنت شيئاً واحداً هو النور . كذلك تلك الالوان العاطفية من دينية او قومية مرجعها واحد هو الاحساس الحادّ بكرامة شرقية لم يعهدها الشرقيون او العرب منهم قبل ذلك العهد . وقد كان لنشوة الدستور يدٌ في تعميم ذلك الاحساس والباسه حيناً لباس الجامعة العثمانية . وكانت تلك النشوة على اشدها في السنة الاولى من اعلان الدستور ايام كان الناس لا يزالون يطفرون فرحاً بزوال الاستبداد ، وينظرون الى المستقبل بعيون التفاؤل والاستبشار ، ثم اخذت بالتراخي تدريجيًّا

على ان النزعة الشرقية المصطبغة بالصبغة العثمانية ظلت بارزة في الادب العربي الى اوائل الحرب العالمية . ومما يزكي ذلك ما نظمه الشعراء سنة ١٩١٣ في حادثة الطيارين التركيين فتحي

(١) الادب العصري : لبطي ١ — ١٦٦ (٢) الادب العصري : لبطي ١ — ١٧١

وصادق وهما اول طيارين شرقيين ظهرا في سماء الشرق العربي . فلما وصلا سوريا ولبنان قابلهما الادب العربي بهبّة وطنية هزَّت اعصاب الناس وأثارت نخوتهم الشرقية او قل العثمانية . كقول الشيخ مصطفى الغلاييني من قصيدة حماسية : — (١)

خيمتما فوق الرؤوس فأشرقت ... منا الوجوه وأزهرت انوارها
وفتحت يا فتحي القلوب بزمرة ... احيا موات رجائنا تذكارها
ونزعت منا اليأسَ وهو بليةٌ ... شنعاء عمَّت قومنا اضرارها

ومثل هذه الحماسة الوطنية تتجلى في اقوال اكثر الشعراء لذلك العهد . ثم طار الطياران يقصدان مصر ، ولكن القدر المحتوم لم يمهلهما فسقطا قرب طبريا وكان لمصرعهما رنة اسف عمت جميع الاقطار العربية . وقد جعلهما الشعر العربي مثال الوطنية الشرقية المتحفزة لمباراة الغرب . وفي ذلك يقول الياس فياض — (٢)

فتحي أطلَّ من العلاءِ مكذِّباً ... من قال إنا امة لن تقدما
من قال ان الشرق شعبٌ خاملٌ ... لا يستطيع مع الشعوب تقدُّما
اليوم قد جددتما لشبابه ... عهداً ينسّي عهده المتصرما
أهرقتما للعلم افضل مهجةٍ ... كانت تراق على المظالم قبلما
هذا هو الدرس المفيد وهذه ... عظة الزمان فهل لنا ان نعلما
من ليس يعرف ان يموت مكرماً ... هيهات يعرف أن يعيش مكرَّما

ويتجلى شعور المصريين يومئذٍ في قول شاعرهم حافظ من قصيدة (٣)

اخت الكواكب ما رماكِ وأنتِ رامية النسورِ
ماذا دهاكِ وفوق ظهركِ مربض الاسد الهصور

ومنها مخاطباً فتحي: حاولت ان تَرِد المجرَّة والورودُ من السيرِ
فوردتَ يافتحي الحمامَ وأنت منقطعُ النظيرِ
وهويت من كبد السماء وهكذا مهوى البدور
ان كان اعياك الصعود بذلك الجسد الطهور
فاسبح بروحك وحدها واصعد الى الملك الكبير

وعلى هذا النمط نظم كثير من الشعر الوطني في بيروت ودمشق وبغداد والقاهرة وسواها من حواضر العالم العربي

واذا قيل كيف ذلك والعرب يومئذٍ كانوا قد بدأوا يستنكرون سياسة الاتحاديين الاتراك

(١) المورد الصافي ٥ — ٢٤٣ (٢) المورد الصافي ٥ — ٣٠١
(٣) المورد الصافي ٥ — ٣٠٢ مطبعة المقتطف ١٩١٦ ص ١٢٧ — ١٣٨

ويتشوّفون الى حياة قومية وكيان مستقل بدليل ما نراه من جمعياتهم السياسية في مصر وغير مصر قلنا ان تلك الجمعيات لم تكن تملك من وسائل الدعاية ما يشيع في جميع الانحاء مبادئها او ما يجمع القلوب على نصرتها . فظلّ السواد الاعظم من ابناء العربية متعلقين بآمالهم الدستورية . لا يرون لهم من رابطة غير الخلافة العثمانية . ثم ان الحركة العربية الاستقلالية لم تكن قد نضجت نضجاً كافياً لتأصيل فكرة الانفصال عن الجامعة العثمانية . ويخيل الينا من دراسة عواطف الناس في ذلك الحين ان الزعماء الذين كانوا يعملون في سبيل الفكرة العربية لم يكونوا على بينة من هذا الامر . ولو راجعت الرسائل التي كان يتبادلها سرًّا امثال عبدالحميد الزهراوي ، ومختار بيهم، ومحمد المحمصاني ، وسليم الجزائري ، ورشيد رضا ، واخوانهم من اعضاء المؤتمر العربي أو الجمعية الاصلاحية ، لوجدت ما يزكي قولنا ان الاصلاح الذي كانوا ينشدونه لم يكن يراد به اولاً القضاء على الرابطة العثمانية والاستهداف لمطامع الاستعمار(١) . ولو عرفت تركيا يومئذٍ كيف تستغل شعور الناس لألّفت من الكتلتين التركية والعربية جامعة عزيزة الجانب صادقة الوطنية . لكن السياسة العنصرية الحادة حالت دون ذلك ، فكانت من الاسباب المعجلة لنجاح الدعايات الاوربية في الشرق العربي ، ثم لاشتعال الثورة العربية في اثناء الحرب الكبرى

وسواء أصح استنادنا الى تلك الرسائل ام لم يصح فالواقع المشاهد ان الشعر العربي كان في اوائل العهد الدستوري أسرع الى الصفح عن مساوىء العهد الماضي والى تعزيز الرابطة العثمانية . ثم حدث الاحتكاك بين العنصرين التركي والعربي وأخذ البعض يلهجون بحقوق العرب في السلطنة وقد ظهر ذلك في الشعر العربي (كما سنرى) . على ان الشعر لم يقطع صلته بتةً بآماله الدستورية التي كان يشيد بذكرها . وقد ظلّ طيلة العهد الدستوري أميل الى التوفيق بين الاماني القومية والجامعة العثمانية ولو تأملنا لرأينا انهُ لم يصبح عدوًّا لهذه الجامعة الاّ بعد الثورة العربية والحرب العالمية

فليس من الغريب ان نراه من حين الى آخر يتأجج بالشعور العثماني إزاء بعض الحوادث الوطنية كالتي مرَّ ذكرها من حوادث التعدي على الدولة في البلقان وطرابلس او من حادثة الطيران التي اضرمت القلوب في مختلف الاقطار حتى قال فيها شاهد عدل هو الدكتور هورد بلس رئيس جامعة بيروت الاميركية السابق وكان يوم الحادثة في مصر — «ان ما آنسته من حماسة اخواننا المصريين وشدة استعدادهم لاستقبال الطيارين واقامة المآدب والاحتفالات اللائقة بهما جعلني اتصور شيئاً مما سمعته عن عظمة الاستقبال الذي جرى لهما في بيروت وعن الابتهاج الذي شمل الاهلين لمشاهدتهم الطيارين العثمانيين لاول مرة»(٢)

---

(١) راجع هذه الرسائل في كتاب ثورة العرب (لاحد أعضاء الجمعيات العربية) (٢) مجلة الكلية

الانسان الآلة

لفليمون خوري

قدّر ان تكون فلسفة الفيلسوف الفرنسي ديكارت منشأ المشكلات الفلسفية والمعضلات التي لا يزال يعالجها اهل الفلسفة الى يومنا هذا . وقد أبنت في مقال سابق نشره المقتطف تحت عنوان « العقلي والمادي » كيف انقضية الفصل المطلق التي فصل بها ديكارت بين العقل والمادة ادَّت الى كثير من النظريات والافكار المختلفة وكيف تعددت فيها وجوه المسائل والقضايا الفلسفية وما انتهت اليهِ في وقتنا الحاضر

ولدينا هنا مشكلة الانسان الآلة (man machine) ولكن هذه لم يثرها ديكارت بل خلقها فلاسفة القرن الثامن عشر الذي كان بنوع خاص خصباً بفلاسفة المادة وعلماء الطبيعة . الاَّ ان فلسفة ديكارت كانت منشأ هذه المشكلة ومنبت غرسها واليك ايها القارئ بيان ذلك :

قضت فلسفة ديكارت بالفصل التام بين المادة والعقل وجعلت كلاًّ في دائرتهِ الخاصة فلا تفاعل بينهما على وجه السببية ولا تداخل على الاطلاق . وقد ارتأى ديكارت هذا الرأي وجرّد الطبيعة من كل اثر للعقل خلافاً لمن تقدمهُ من الفلاسفة ليدع للعلم الطبيعي مجالاً لتفسير حوادث الطبيعة ونواميسها تفسيراً طبيعيًّا ميكانيكيًّا بحتاً . وعليهِ فلا يكون ثمَّ من قصد في الطبيعة كما يزعم الفلاسفة ولا غاية لانهُ اذا سلمنا بوجود قوة عقلية تدبر الكون فاننا نكون قد حكمنا بوجود العقل في الطبيعة نفسها وهذا غير ما يريدهُ ديكارت . ثم ان ديكارت لم يقف عند هذا الحد بل اطلق هذا المبدأ حتى تناول العالم العضوي (organic world) ايضاً فجعل حياة الحيوان والنبات خاضعة لهذا الحكم وكذلك جسم الانسان لانهُ من العالم العضوي . فعندهُ ان حياة الحيوان ومثلها الحياة في الجسم البشري تمشي على طريقة ميكانيكية بحتة نظير الآلات الصماء كالساعة مثلاً او غيرها مما يدور بحركة ذاتية ميكانيكية غير ان الفرق بينهما ان المحرك في الساعة هو الرقّاص اما في الجسم البشري فالحرارة المتولدة في القلب . ويقول ايضاً انهُ لا حاجة الى فرض اية قوة لتدير هذه الحركة الحيوية في الجسم فمجرد تركيب الجسم على هذه الصورة هو كتركيب ادوات الآلة كافٍ لتقوم الاعضاء بوظيفتها تماماً . وان وجود الدم والحرارة هو كل ما يقتضي لهذه الغاية

يتضح مما تقدم ان ديكارت لم يطلق هذه اللفظة «الآلة» على الانسان بل على الحيوان فقط

فقال الحيوان الآلة (animal machine) لا الانسان . أما الفلاسفة الماديون الذين عاصروا فولتير مثل لامتري وكوندياك وتولاند وهارتلي وهولباخ وهلفيتيوس وديدرو وغيرهم من فلاسفة القرن الثامن عشر فانهم تناولوا هذه الفكرة ووجدوا فيها دعامة قوية لمقاصدهم ومبادئهم المادية فجعلوها حجر الزاوية واخذوا يبنون عليها ما شاء لهم التصور من غريب الآراء والافكار. وكان اول ما شرعوا فيه بهذا الصدد قولهم « اذا كان الحيوان آلة » فلماذا لا يكون الانسان ؟ « وما الدماغ » ؟ هو آلة الفكر كما ان اللسان هو آلة الذوق . وزعم هارتلي ان الفكر نتيجة اهتزازات ذرات الدماغ وهذه تتحرك تبعاً لنواميس طبيعية آلية . وذهب بريستلي وهو مكتشف الاوكسجين الى ان الاعمال والحركات الفكرية هي من نوع حركة الاجسام المادية . وقال كابانيس ان الفكر وظيفة الدماغ كما ان الهضم وظيفة المعدة وافراز الصفراء وظيفة الكبد . وفي سنة ١٧٧٤ وضع البارون هولباخ الالماني كتاباً في المذهب المادي تحت عنوان « نظام الطبيعة » يفسر فيه جميع النواميس الطبيعية وحوادث الكون بمجرد المادة والحركة فقط . ويزعم ان الفكر هو عمل الدماغ وليس خالداً سوى المادة . وانهُ لا يوجد شيء مما نسميه روحاً . ولا قصد ولا غاية في الطبيعة ولا خارجاً عنها . اما ارادة الانسان فهي غير حرة بل خاضعة حتماً لناموس الضرورة واحكام القدر

وجملة القول ان هذا هو رأي الفلاسفة الماديين في العقل البشري وقد بنوه كما تقدم على نظرية ديكارت . ولما كان رأي ديكارت ايضاً انهُ لا علاقة ولا تأثير للعقل في اعمال الحياة العضوية تبادر لاذهان غلاة المادية انهُ اذا كان لا علاقة للعقل ولا تأثير في اعمال الجسم ووظائف الاعضاء فأي حاجة اليهِ . ان هو الاَّ تابع من توابع المادة وخاصة من خواصها وليس له وجود مستقل عن المادة اصلاً

هذا وان للفلاسفة العقليين او الروحيين ردوداً جمة على آراء الماديين هذه ولكن ليس هذا مجال بسطها لانني قصدت بيان قضية الانسان الآلة حسبما تطورت بين ايدي فلاسفة المادة. على اننا اذا بسطنا رأي العلامة الفيلسوف الالماني هرمان لوتزي (١٨١٧—١٨٨١) وهو احد اعلام الفلسفة العقلية وقد حاول الجمع او التوفيق بين مختلف الآراء الفلسفية وخصوصاً بين الرأي الميكانيكي والمبدأ العقلي الروحي فاننا نكون قد اشرنا الى رأي الفلاسفة العقليين بهذا الصدد وهو نقيض الرأي المادي المتقدم ذكره والى الاتجاه الفلسفي الغالب بعد القرن الثامن عشر

يقول لوتزي « ليس الانسان مجرد مرآة تنعكس عليها صور الاشياء والحوادث الخارجية . ان العالم المادي الذي يسير سيراً ميكانيكيًّا لا يستطيع ان يفيدنا شيئاً عن الوجود المعنوي وأسرار الحياة العميقة ومقاصدها السامية . ان هذه جميعها لا يمكن ان يكون لها اثر في عالم ميكانيكي بحت . ومع هذا فلا بد من تفسير النظام الطبيعي وفقاً لهذه النظرية الميكانيكية . ان الجسم الحي انساناً كان او حيواناً يحيا ويقوم بوظائفه كما تقوم الآلة الصناعية بعملها تماماً ولا

فرق بينهما من هذه الجهة مطلقاً . ثم ان الفرق بين المواد الآلية وغير الآلية ليس بكون الاولى تمتاز عن الاخرى بوجود قوة حيوية فيها بل بتركيبها وترتيب أجزائها بنسبة بعضها الى بعض . وهذا الترتيب فيها هو نتيجة عوامل طبيعية تحدد لكل جزء صورته ووجهة تطوره وارتقائه "

« وان رأياً كهذا اذا أخذناهُ بظاهرهِ كأنما لا يدع مجالاً لحقيقة الانسان ومقاصده العظيمة ومطالبه السامية . غير أننا اذا تحرينا الاسباب الاولية والمقدمات التي نبني عليها الرأي الميكانيكي هذا نجد ان هذا هو غير الواقع . ذلك لان العالم الخارجي الذي نخالهُ ونعتقدهُ عالم الحقيقة انما هو عالم ظاهري فقط (phenomenal world) أي الذي تمثلهُ لنا الحواس لا العالم الحقيقي بالذات—هو نتيجة شعورنا وادراكنا للمؤثرات الخارجية وتفسير العقل لها . بيد ان هذه الاحساسات والادراكات ليس الاّ تأثيرات عقلية في العقل نفسهِ، وما الحس والادراك فينا بل والمبادىء العقلية التي تفسر بها مختلف الحوادث والمؤثرات، الاّ وظائف متنوعة في العقل الواحد الانساني

اذاً ما هو جوهر الاشياء الخارجية وبعبارة أخرى ما هي الحقيقة بالذات ؟ اننا اذا أمعنا النظر وتحرينا الاسباب والمقدمات وجدنا ان الاستقراء يؤدي بنا الى نتيجة واحدة فقط وهي المبدأ التصوري (Idealism) ودليل ذلك ان الاشياء بالذات [1] (things-in-themselves) يجب ان تكون من طبيعتها ان تؤثر في غيرها وان تتأثر بهِ . ان كائناً بهذه الصفة لا نجدهُ الاّ في انفسنا فقط وما هو إلاّ ذلك الجوهر في داخلنا والذي يؤلف وحدة الوجدان فينا وهو ما نسميهِ الروح او النفس. هذه الوحدة في الوجدان التي تستطيع ان تجمع بين مختلف التأثيرات الخارجية والداخلية وتؤلف منها أبداً وحدة كاملة هي التي تحدو بنا الى الاعتقاد بوجود نفس فائقة الحس غير قابلة التجزئة ومستقلة أو متميزة كل التميز عن الجسد. وانهُ في النفس وفي النفس البشرية فقط نجد هذه الوحدة الدائمة بين الاشياء المتعددة والثبوت على حال واحدة وسط جميع عوامل التحول والتغير والنشوء

لذلك فالجواهر التي يتكلم عنها العلم هي غير مادية بالمعنى المتعارف ولا يمكن تعريفها الاّ بانها أشبه الاشياء بوحدات ليبنتز (Leibniz's monads) او بانها مراكز قوة فقط كالتي نختبرها في أنفسنا . وحتى الدقائق التي في أدنى طبقات المادة ليست اشياء ميتة جامدة كما نتوهم بل مملوءة حياة وحركة ونشاطاً . وان في الطبيعة درجات متفاوتة من الحقيقة ولكن أسماها العقل البشري بيد ان في أحط ضروب المادة أثراً من القوة العقلية ايضاً

هذا هو رأي الفيلسوف لوتزي في العقل والوجود المادي وهو يعبر بهِ عن رأي معظم الفلاسفة العقليين فيما نعلم . ولعل فيهِ اشارة كافية لترينا ان في الوجود اسراراً لم تتجل بعد للعقل البشري فلا يتوهمنّ الواهمون ان فلاسفة المادة فكوا الطلاسم وحلوا الالغاز ونفذوا بمادتهم الى اعماق الحياة . فهذه لم تزل بعد للخلوق وأسرار الوجود لم تشرق بعد انوارها على عقول بني الانسان

(١) هذا هو تعبير الفيلسوف الالماني كانت وهو يقصد بهِ التمييز بين الاشياء كما هي في حقيقتها الاصلية وبينها كما تبدو للحواس

العبقرية والنبوغ

الفروق العقلية بين الوراثة والمحيط

للدكتور شريف عسيران

من الامور الظاهرة فروق البشر الجسدية فنهم الطويل والقصير والاسود والابيض والاصفر والبدين والنحيف واسود العينين وازرقهما الى غير ذلك . وكذلك نجد مختلف الفروق العقلية كالعبقري والاحمق والذكي والابله والعاقل والمجنون والمفكر والجامد وهلمَّ جرًّا . وليست الفروق العقلية اكثر من الجسدية فقط بل تفوقها شأناً . نجد في كل امة وكل جيل افراداً يسمون على اترابهم كما يسمو الجبل الشامخ على ما يحيط بهِ من البقاع امثال كنفوشيوس وسقراط والمعري وغليليو ونيوتن وباسكال وباستور وشكسبير والمتنبي وبتهوفن وشوبرت والرازي واينشتين واضرابهم وهم معروفون عندنا معرفة النجوم الساطعة في السماء . وتظهر امارات التفوق على المرء منذ ان يشب عن الطوق . فقد رجا باسكال والده ان يسمح له بدرس الرياضيات وهو صبي فرفض طلبه ريثما يدرس اللغات والتاريخ وطالما كان يشاهده منكبا على درس الهندسة رغماً عن ممانعته لميوله الفطرية فاستطاع ان يحل عدداً من نظريات اقليدس . وكان يعزف موزارت الموسيقى في الرابعة من عمره والف قطعاً موسيقية وهو ابن ست سنوات . وظهرت بواكير بتهوفن الموسيقية في الثانية عشر من عمره وكتب شلر روايته اللصوص وعمره ٢٣ سنة والف شكسبير كثيراً من رواياته وهو في الرابعة والثلاثين من عمره[١] ونظم المعري الشعر وعمره يقرب من الاربعة عشر سنة ومثله المتنبي

ونشاهد هذه الفروق بارزة في المدارس الابتدائية والعالية والجامعات فبعض الطلاب يحلون اعوص المسائل الرياضية دون عناء ويعسر على غيرهم حل ابسطها ويصل بعضهم الليل بالنهار درساً وسعياً ولا يتوصلون الى درجة اقرانهم ممن لا يجهدون انفسهم بالدرس . ونعرف كثيرين ممن تبحروا في اللغة العربية وآدابها وتضلعوا من فلسفتها وصرفها ونحوها وبيانها وعروضها وسائر ما

---

(١) Human Heredity p. 581

يتعلق بها ولا يستطيعون رغماً عن ذلك نظم بيت من الشعر ونرى آخرين يجهلون القواعد والقوافي ويأتون بمعجزات احمد فالفروق بين مختلف الافراد ظاهرة في كل موهبة من المواهب في الموسيقى والشعر والرياضيات والتصوير وغير ذلك فالقوى العقلية محدودة في كل امرو بحسب وراثته ولا يفيدها التمرين الاً بقدر القوة المدخرة فيها

واول من اثبت ان العبقرية والمواهب العقلية وراثية هو السير فرانسيس غالتون وقد مرَّ بنا انهُ تتبع سيَر ٤١٥ شخصاً من مشهوري انكلترا يمتون الى ثلاثمائة اسرة ووجد في تلك الاسر ما يقرب من الالف مشهور

***

ويجدر بنا ان نقف هنيهة لنميز بين العبقرية والنبوغ اوالموهبة . ان ألسنة الناس والصحف والمجلات تلوك هذين اللفظين وتستعملهما في شتى المناسبات وتغدق بهما على لفيف كبير من البشر حتى ليخيَّل الينا ان ارضنا تعج بالعباقرة والنابغين فاذا نظم فلان قصيدة او كتب مقالاً في مجلة او جريدة دعتهُ عبقريًّا واذا ارادت التنويه بفضل فلان قالت عنهُ نابغة فخرج هذان اللفظان عن معناهما وامتهنا اي امتهان

﴿ العبقر ﴾ جاء في الطبعة الرابعة عشر من دائرة المعارف البريطانية تحت لفظة Genius انها من اصل لاتيني ومعناها المولّـد وكانت ترمز في العصر الروماني القديم الى عقيدة دينية خاصة وهي جونو Juno ربَّة الزواج والولادة تقابلها لفظة هيرا Hera عند اليونان وهي ربَّة النساء والزواج ثم انحرفت عن معناها الاصلي وصار يقصد بها العفريت او الروح (Spirit) او الملاك الحارس وصارت تستعمل في الانكليزية مقابلة للفظة جن العربية وهي طائفة من الارواح الصالحة او الشريرة حسبما جاء وصفها في قصة الف ليلة وليلة [١]

وجاء في تاج العروس : عبقر كجعفر بالبادية كثير الجن يقال في المثل كأنهم جن جعفر ثم نسبوا اليهِ كل شيء تعجبوا من حذقهِ او جودة صنعتهِ وقوتهِ وقال ابن الاثير قرية يسكنها الجن فيما زعموا فكلما رأوا شيئاً فائقاً غريباً مما يصعب عمله او شيئاً عظيماً في نفسهِ نسبوه اليها وقيل العبقري الذي ليس فوقهُ شيء [٢] وجاء فيهِ ايضاً تحت لفظة جن والجن بالكسر خلاف الانس والواحد جني يقال سميت بذلك لانها تتقى ولا ترى كما في الصحاح وكانوا في الجاهلية يسمون الملائكة عليهم السلام جنًّا لاستتارهم عن العيون [٣] . فنستنتج من هذا التعريف اللغوي ان العبقر هو الجن وان العبقرية تقابل لفظة genius اللاتينية والانكليزية

﴿ النبوغ ﴾ جاء في تاج العروس نبغ الشيء كمنع ونصر وضرب اي ظهر نبغ الماء نبوغاً

(١) ملخص عن دائرة المعارف البريطانية الطبعة الرابعة عشر تحت لفظة genius
(٢) تاج العروس لفظة عبقر ص ٣٧٩ (٣) تاج العروس لفظة جن ص ١٦٥

مثل نبع بالعين ومن المجاز نبغ فلان اذ قال الشعر وأجاده ولم يكن في ارث الشعر وفي اللسان في ارثه الشعر ومنهُ سمي النوابغ من الشعراء والنابغة الرجل العظيم الشأن والهاء للمبالغة [١] وأرى ان لفظ نبوغ اكثر مقابلة للفظ Talent الانكليزية ومعناها الموهبة

وبعد ان عرفنا معنى اللفظين اللغوي نأتي على تعريفهما العلمي: يعرّف غالتون العبقريَّ بأنهُ الرجل ذو المواهب المتفوقة ويميز العبقرية عن المقدرة باننا لا نستطيع تجريد الاخيرة من اثر التهذيب اما العبقرية فطبيعية تخلق مع المرء [٢]. ويجعل الشهرة مقياساً لتفوق الفرد ويقول يجب على الانسان ان يظهر مقدرة بارزة في موضوع ما على الاقل ليحصل على شهرة عالية او ان يمتاز بأنهُ أتى بشيء لم يستطعه غيره او ان يكون زعيم فكرة [٣] ويجعل المتفوق او العبقري الرجل الذي يصل الى مرتبة لم يبلغها سوى ٢٥٠ من بين مليون او واحد من أربعة آلاف [٤]

ويفرق الدكتور لنز بين العبقرية والموهبة او النبوغ . فالموهبة Talent هي أعلى مراتب الفن . أما العبقرية فتعددة المواهب والتفاوت بينها وبين الموهبة في التفوق العقلي كالتفاوت بين الاحمق والاخرق في الانحطاط العقلي . ويوجد بين مليون شخص يختارون صدفة عدَّة نوابغ او موهوبين اما العباقرة فقليلون جدًّا فكل عبقري نابغة او موهوب ولا يعكس . ومن رأيهِ انهُ ليس ضروريًّا ان يكون العبقري مبتكراً او مولداً Creative بل انساناً متعدد المواهب [٥]

﴿ العبقرية والجنون ﴾ يجعل بعض العلماء صلة بين العبقرية والجنون . وأول من قال هذا القول العالم الايطالي لمبروزو وجاراه غالتون ولنز وغيرهما ويأتون بشواهد متعدِّدة على ذلك وحجتهم ان في أكثر العباقرة والنوابغ المشهورين ضرباً من الانحراف العقلي والانحراف يعدُّ علة خاصة اذا كان لا يمكن الشخص من القيام بأود نفسه وحمايتها Self Preservation وتؤدي المواهب الشاذة الى حالة كهذه لان كثيراً من النابغين يقصرون عن القيام بتكاليف الحياة اليومية التي تسهل على الرجل المعتدل وما يصدق على الفرد من وجهة كفاءة النفس في تحصيل العيش يصدق بصورة اكثر على الاسرة . فكثيرون من العباقرة لا يتزوجون واذا تزوجوا كانت حياتهم الزوجية تعسة لانهم يفشلون في القيام بما تتطلبهُ الحياة الزوجية السعيدة فالنتيجة فناء تلك الاسرة . ويوصف صاحب الحالة العقلية التي لا تمكن المرء من كفاءة نفسه أو أسرتهِ بـ « المضطرب النفس Psychopathic » واقصى درجاتهِ الجنون . وأغلب العباقرة والنابغين لم يخلوا من ضرب من هذا الاضطراب كفوقيه وبسمارك ولوثر ونيوتن واميير وفردريك الكبير وباسكال وروسو وبلوشر وشوبنهور ووجنر ونيتشه وتولستوي ونابوليون وأضرابهم [٦]

(١) تاج العروس لفظة نبغ ص٣١ (٢) ص ٧ Hereditary Genius (٣) ص ٩ : Ibid
(٤) المقدمة ص٨ (٥) Ibid: Human Heredity p. 567 (٦) Human Heredity p. 609—613

ولا نسترسل في تحليل هذه الناحية لنعود الى موضوعنا الاصلي وربما عقدنا فصلاً خاصًّا لهذا البحث في المستقبل . ينكر غالتون ان للمحيط تأثيراً في اكتساب القوى العقلية ومن أقواله المأثورة : إن التهذيب والمؤثرات الاجتماعية لا تؤثر في انماء القوى العقلية بقدر ما يؤثره التمرين في انماء عضلات ذراع الحداد . ويعترض البعض على غالتون بان ابناء المشهورين لا يكونون كآبائهم وحجة غالتون ان الفرد يرث ربع صفاته من أحد والديه والصفات الباقية من الأب الآخر او من أسلافه الماضين واذا علمنا ان نطفة الذكر ونطفة الانثى تفقدان نصف عواملهما الوراثية قبل ان تمتزجا اتضح لدينا صحة قول غالتون . اضف الى ذلك ان عدداً كبيراً من العباقرة يموتون بلا عقب أمثال بتهوفن وشوبرت وغيرهما

وقد توصل الدكتور فردريك ودس في أميركا، (Dr. Frederick Adams Woods)[1] الى نتائج تشابه نتائج السير فرانسيس غالتون فتتبع سيَر ٣٥٠٠ مشهور من مشهوري أميركا المدونين في قواميس كبار الرجال ووجد انهم يمتون بصلة قرابة بعضهم الى بعض بنسبة ١ — ٥

***

واذا كان المحيط عاملاً في تكييف القوى العقلية فيجب ان يتساوى ابناء الملوك في هذه الناحية — ولاسيما أولياء العهد الذين تتاح لهم جميع الاحوال الملائمة من تعليم وتهذيب وتدريب وتثقيف وسائر المؤهلات التي تؤهل المرء أن يكون ذكيًّا خلوقاً مثقفاً . وقد تتبع الدكتور ودس المذكور في كتابه الوراثة في الاسر المالكة Heredity in Royalty فلم يرَ ان المساواة في المحيط التي تتاح لكل فرد من الاسر المالكة تخلق منهم رجالاً متساوين في مواهبهم وبيَّن الفرق بين الهوهنزلرين Hohenzollern المتفوقين بمواهبهم والهانوفريين العديمي الذكاء[2] وقد ذكر ودس على سبيل المثال فردريك الكبير وايزابلا ملكة أسبانيا ووليم الصامت وغوستافس ادلفس Gustavus Adolphus مقابلة لهم مع غيرهم من المنحطين من نفس الطبقة

ولا ينكر ان الفرص تفسح المجال أحياناً لبروز المواهب الكامنة كما زاد عدد علماء الالمان في نصف القرن الاخير فلا تعزى هذه الزيادة الى ازدياد معدل ولادات هذه الطبقة بل أن تقدير العلم كان حافزاً لابراز تلك المواهب

وقد ناقش كتل J. Mckeen Cattell نظرية المواهب في درسه الف عالم من علماء اميركا وقال « لو ولد دارون في الصين سنة ١٨٠٩ لما كان دارون ولو ولد لنكان هنا (يقصد اميركا)

(١) Applied Eugenics p. 14 (٢) The Eugenic Predicament p. 63

في نفس اليوم الذي ولد فيه ولم تكن الحرب الاهلية لما اصبح لنكان . فلو استبدلنا الاثنين لما كان دارون في اميركا ولا لنكلن في انكلترا . . . » وقصده ان يبرهن ان الظروف هي التي تخلق الرجال . صحيح ان للظروف اي المحيط تأثيراً ولكنهُ تأثير ثانوي او يسير بالقياس الى المواهب الطبيعية . ربما لو ولد دارون بأميركا لا يكون دارون الذي نعرفه الآن ولكنهُ على كل حال ما كان يموت مجهولاً فالمحيط لا يخلق الرجال بل يبرز مواهبهم . فالمساواة في المحيط تزيد الفروق بين البشر اكثر مما تنقصها [1] ويجب ان يكون هناك مساواة في المحيط ليصبح كل امرىء ميسراً لما خلق له

ودرس الدكتور بيركس ٢٠٠ ربيباً دفعوا الى من تبناهم حين ولادتهم او في السنة الاولى من العمر [2] وقابلهم مع مائة ولد نشأوا في احضان آبائهم الحقيقيين ومن السهل تمييز تأثير الوراثة في الفئة الثانية لعدم وجودها في الاولى وكان تمييز ذكائهم وتأثير المحيط والحياة البيتية ممكنين فيهم فلو كان للتدريب وتقليد الآباء والمحيط تأثير في تكييف الاولاد لكان لزاماً ان يشبه الابناء المتبنون الذين تبنوهم مشابهة الابناء لآبائهم الحقيقيين ولكن النتيجة لم تكن هكذا بل ظهر ان تأثير الوراثة في هؤلاء الاولاد بنسبة ٧٥ — ٨٠ بالمائة وتأثير المحيط البيتي بنسبة ١٧ بالمائة . والمحيط البيتي اهم من المحيط المدرسي في امتحانات الذكاء [3]

***

﴿ القياس ﴾ اذا كان للمحيط تأثير فيجب ان يصدق على اليتامى الذين يربون في المياتم اذ يعيشون في محيط واحد ويدربون نفس التدريب ويجب ان يختلفوا عن غيرهم ممن تختلف تربيتهم باختلاف الاسر التي يمتون اليها . وقد جاء درس الف يتيم في تكساس مخالفاً لهذه الفكرة لان الفروق بين الايتام الذين عاشوا في محيط واحد وتربوا تربية واحدة كانت كالفروق بين سواهم من غير اليتامى مما يدل على ان الوراثة لا المحيط هي الاصل في تكييف الشخصية

﴿ اللقطاء ﴾ وتتبع بعض العلماء في انكلترا عدداً من اللقطاء الذين أُدخلوا المعاهد الخاصة فور ولادتهم فكان معدل ذكاء ابناء التجار وارباب المهن منهم ١٠١ بينا كان معدل اولاد الصناع labourers ٩٢ مع ان الفريقين تربوا في محيط واحد ولم يحتكوا بآبائهم وقد اتخذوا ضابطاً لهم control اولاداً من لندن عاشوا في احضان آبائهم وتربوا في المدارس العامة فكان معدل درجة ذكاء الطبقة العليا منهم ١٠٥ والسفلى ٩٦ وهكذا جاءت نتائج درس التوائم من وجهة

(١) Applied Eugenics p. 17

(٢) اختيروا في هذا السن لسببين « ١ » افساح الوقت الكافي لتأثير المحيط ان كان له ذلك التأثير «٢» خشية اختيار العائلات الذكية الاولاد الاذكياء

(٣) Applied Eugenics p. 3

الاجرام وامتحان الذكاء والامراض وغيرها من العوامل مؤيدة لفكرة ان الوراثة هي العامل الاكبر في تكييف الفرد

***

﴿ تلامذة المدارس ﴾ قابل دف Duff ٧٣ تلميذاً من الممتازين بلغ حاصل ذكائهم ١٣٦ فما فوق سنة (١٩٢١—١٩٢٢) مع فئة اخرى حاصل ذكائها مائة اتخذها ضابطاً وتتبع سير الفئتين في المدرسة فكانت نسبة الذين دخلوا المدرسة الثانوية من الفئة الاولى اكثر من الثانية ونال ٥٥ بالمائة منهم جوائز بينما لم ينل احد من الفئة الثانية اي جائزة. ولما قوبل بعض افراد الفئة الاولى الذين لم يدخلوا المدرسة الثانوية مع الذين دخلوها من الفئة الثانية فاقوهم في التهجئة وحسن التعبير وجودة القراءة ونطاقها وروح الطموح ولم يتقدم احد لنيل الشهادة الثانوية من الفئة الثانية عدا واحد بلغ درجة حاول بها نيلها بينما نال ٣٠ بالمائة من الفئة الاولى الشهادة و٧ لم ينجحوا و١٠ بدلوا مدرستهم و٢ كانوا صغاراً ولم يحاولوا دخول الامتحانات واثنان تركوا المدرسة . وذكر هولنز ولداً امتحن ذكاءه هولنورث بطريقة «ستانفورد— بينه» وعمره ٨ سنوات فنال ١٨٧ درجة وبلغت درجاته بعد مضي عشر سنوات ٤٤١ بينما كان معدل درجات هذا الامتحان ٤٤٠ فخرج من المدرسة بدرجة شرف ونال جائزة Phi Beta Kappa (١) ونال درجة معلم علوم وهو ابن ١٦ سنة (٢)

وقد حاولت مس أوتس تزييد ذكاء بعض البنات الناقصات العقل اللواتي تجاوزسنهنَّ السادسة عشرة بتمرينهم تمرينات خاصة على القراءة وغيرها ولما امتحنتهم بطريقة «ستانفورد بينه» وجدت درجة ذكائهم تقدمت ونشأ هذا التقدم من مفردات الكلام وفهمه لا من تحسن ذاكرتهم او عاقلتهم (reasoning) ولم تستطع تقدير تقدمهنَّ من هذه الناحية لانها لم تكد تتقدم ومتى كانت القوة العاقلة مفقودة فلا سبيل لتمرينها

وتتبع الدكتور تيرمان ومساعدوه سيرة مائة ولد ذكور وأناث بلغ حاصلهم الذكائي ١٤٠ فما فوق ولا يبلغ هذه الدرجة من مجموع طلاب المدارس الا النزر اليسير فدرسوهم درساً مفصلاً من جميع النواحي قبل عهد الدراسة وبعدها فوجدوا أنهم تفوقوا بدروسهم طيلة حياتهم المدرسية ولم يرسب منهم احد بأي موضوع من الموضوعات ونالوا أحسن الجوائز وغير ذلك من الميزات التي ينالها الممتازون. وظهر من تتبع سجلات أجدادهم انهم كانوا يمتهنون المهن التي تتطلب معدل المقدرة العقلية

---

(١) شارة اميركية ممتازة في الجامعات تدل على التفوق الجامعي

(٢) The Eugonic Predicament p. 72

وانحدر العدد الاكبر منهم من هذه الطبقة وكان أباء عدد منهم من رجال الاعمال وفريق يسير من أرباب المهن الرفيعة (Skilled) وواحد بالمائة فقط من ارباب المهن الوضيعة (Unskilled) [١]

وقد فحص بيترس W. Peters الاخصائي بعلم النفس تقارير عدد كبير من أولاد المدارس ووجد على الاغلب مشابهة بين الآباء والابناء وقابل تقارير الآباء مع اجداد الاولاد وتوصل الى نفس النتيجة فاستنتج ان أثر المحيط (كالتهذيب البيتي وما أشبه) ضئيل جداً في حياتهم التعليمية. وأجرى تجاريب نفسية على عدد من التلاميذ الذين يمتون بعضهم الى بعض بصلة نسب وقابلها مع تقارير آبائهم فوجد الفروق بين الابناء كبيرة حينما تكون كذلك في الآباء والعكس بالعكس

وقد درس بيرسون وشستر والدرتن تقارير خريجي جامعة اكسفورد وقابلوها مع تقارير آبائهم فوجدوها متقاربة

***

﴿ التوائم ﴾ فحص ثورنديك ٥٠ تماً فحصاً نفسيًّا فوجد ان مشابهتهم بعضهم لبعض ضعف مشابهة الاقارب غير التوائم ولكنهُ لم يميز بين التوائم المتماثلة وغير المتماثلة

ودرست المس غوردون ٢١٦ تماً في أحد مياتم كالفورنيا فامتحنتهم بطريقة «بينه» وكانت نتائجها قريبة من نتائج غيرها ولا يمكن ان تكون الفروق العقلية ناشئة عن المحيط في المياتم لان المحيط واحد

وذكر بوبنو حادثة تمتين ماتت أمهما وعمرهما أسبوعان فحضن احداها ريب من الحضر وبقيت في المدرسة مدة أربع سنوات ثم انصرفت الى الاعمال التجارية وصارت أمينة لاحدى الشركات وكانت وظيفتها تقضي عليها بالتجوال أحيانا في غير بلادها . ونشأت الأخت الاخرى في الريف وأنهت تحصيلها المدرسي ثم دخلت الجامعة وتزوجت عقب مدة قصيرة من دخولها ورزقت بولد ثم انتظمت في سلك التعليم ومع ان هاتين الاختين عاشتا في محيط مختلف فانهما كانتا متقاربتين في عقليتهما وطباعهما [١]

﴿ الاسر ﴾ من المعروف لدى أكثرنا ان المواهب تسري بين الاسر سريانها في الافراد وأكثرنا يعلم عن كثير من الأسر العربية التي اختصت بموهبة من المواهب كأسرتي اليازجي والبستاني بالادب واللغة وأسرة المعلوف بالشعر . ونأتي الآن على ذكر بعض الاسر التي اختصت ببعض المواهب كالموسيقى والرسم والشعر والرياضيات والعلوم وما أشبه فمن هذه

(١) The Eugenic Predicament p. 73-74

(٢) Human Heredity p. 558

الاسر أسرة باخ Bach التي نستطيع ان نتتبع مواهبها الموسيقية مدى خمسة أجيال في الذكور. وظهر بين أولاد Johan Sebastian Bach ما لا يقل عن خمسة موسيقيين. ويستطيع المرء ان يتتبع الموهبة الموسيقية عدة أجيال في اسرتي موزارت وفبر Weber واحداها تمت الى الاخرى بنسب وقد جمع H. Kurella مستندات عن ٢٨ أسرة استطاع ان يتتبع فيها مواهب متفوقة في الموسيقى مدى أربعة أجيال امثال أسرة بتهوفن وشوبرت ولزت Liszt ولسوء الحظ ان بعضهم كبراهمس وبتهوفن وشوبرت ماتوا عقيمين

﴿ الرياضيات ﴾ ومن الاسر المشهورة بالموهبة الرياضية اسرة Bernouillis التي اشتهر بها على الاقل ثمانية رياضيين بارزين او تسعة

﴿ الصناعة ﴾ ومن الاسر المشهورة بالمخترعات الصناعية اسرة كروب الشهيرة بصنع الاسلحة فقد ظهر تفوقها بهذه الناحية في النساء والرجال

وقد ذكر غالتون في كتابه النبوغ الوراثي بعض الاسر التاريخية المعروفة بمواهبها العسكرية والسياسية امثال اسرة اسكندر الكبير ووليم اورانج. وللكيمياوي الطبيعي الفيلسوف Boyle المعروف ١٤ نسيباً من ذوي المواهب الخارقة. ومن الاسر الممتازة بمواهبها العقلية اسرة دارون وغالتون. فالسير فرانسيس غالتون ابن عم شارلس دارون مؤلف كتاب أصل الانواع وغيره من الكتب القيمة. واسرة اراسمس دارون Erasmus Darwin معروفة بتفوقها فاولاده (١) روبرت دارون كان طبيباً معروفاً وعضواً في الجمعية العلمية الملكية (٢) وكان يرجى لابنه شارلس دارون الذي مات بسن العشرين مستقبل باهر. وشارلس روبرت دارون الذي تنسب اليه نظرية التطور هو ابن روبرت وقد تزوج Ema Wedgwood وقد كان والدها من مشهوري المؤسسين لصناعة الخزف بانكلترا فولدت اربعة اولاد وهم فرانسيس دارون النباتي الشهير وجورج الفلكي المعروف وهوراس المهندس البارع وليونارد المؤلف في السياسة والاقتصاد ورئيس جمعية تحسين النسل سابقاً. وتدع Primfall سير ٩٥٦ عالماً من علماء اميركا وتوصل الى نتائج تقرب من نتائج غالتون ووجد علاوة على ذلك ان تزاوج لذوي المواهب امر متعارف الى حدٍّ ما فنحو من ٢١ عالمة من عالمات اميركا تزوجنَ علماء بعلم ايوان

***

هذا وشل من بحر من هذا الموضوع الواسع وفيه البراهين الساطعة على ان الوراثة هي العامل الاكبر في تكوين الشخص وان اثر المحيط ضئيل اليها وقد اكتفينا بهذا القدر خشية الملل

تفرّق المجرّات

حقائق الموضوع

اذا ثبت الرأي الحديث في ظاهرة تفرّق المجرّات كان اكتشاف هذه الظاهرة الفلكية العجيبة في الطبقة العليا بين المكتشفات العلمية الباهرة في جميع العصور . ذلك ان الصورة الكونية التي رسمت وفقاً لهذا الرأي تمثّل لنا الكون وقد اخذت أجزاؤه الكبرى في الابتعاد بعضها عن بعض ، بسرعة تزيد في بعضها على سرعة دقائق « ألفا » المنطلقة من الراديوم . فكأن الكون فقاعة من الصابون ، مضت تنتفخ وتنتفخ ، حتى غدا ما على سطحها وما فيها من ذرّات وجزيئات يبتعد بعضهُ عن بعض بسرعة عظيمة . وقد طلع هذا الرأي على العلماء فجأة فأخذوا بهِ حتى كادوا يمسكون انفاسهم ، وعجزوا عن تفسيرهِ تفسيراً مقبولاً عند جمهرتهم ، لما فيهِ من الغرابة والجرأة

هذا الموضوع يعالج من ناحيتين ، إحداهما ناحية الحقائق التي اثبتها العلماء بالرصد والتصوير والثانية ناحية الآراء التي تفسر بها هذه الحقائق

كان هبل Hubble [1] زعيم هذا البحث الجديد . وكان هيوماسون Humason ساعدهُ الايمن . أما كيف دخل هيوماسون ميدان البحث الفلكي وصار من أعلامهِ ، فقصة عجيبة . ذلك ان والد هيوماسون كان صاحب مصرف في كاليفورنيا . ولكن الولد كان راغباً عن المدرسة وعن أعمال المصارف . وكان يرى من سهول باسادينا بكاليفورنيا قمّة جبل ولسن فاستهوتهُ فذهب الى فندق قائم على مقربة من المرصد المشهور ، وجعل يخدم فيهِ ، آناً يسوق سيارتهُ ومركباتهِ لنقل ما يجب نقلهُ اليهِ من المدينة عند السفح . وآناً يساعد موظفيهِ وخدامهُ في شتى الاعمال . وعهد اليهِ في أحد الايام بأن يسوق مركبة يجرّها بغال ، وكانت المركبة تقلّ أجهزة علمية ثقيلة الى المرصد . فاتصل ببعض رجالهِ ، فعطفوا عليهِ وكان يُدعى للقيام ببعض الاعمال في حجرة الساعات او في حجرة التصوير . وما لبث الفتى حتى برع في أساليب التصوير الضوئي Photography [2] ثم تزوج ابنة احد رجال المرصد ومن ثمَّ أكبَّ على دراسة

---

(١) راجع مقتطف ابريل ١٩٣٨ صفحة ٣٥٥ مقال « المجرات » (٢) فضلنا استعمال لفظي « التصوير الضوئي » على « التصوير الشمسي » لان التصوير قد يتم في ضوء المغنيزيوم مثلاً لا بضوء الشمس

علم الفلك وغدا يعتمَد عليهِ في كثير من أعمال التصوير النجمي وفي سنة ١٩٢٢ بلغ من تقدير مدير المرصد لبراعتهِ ان عينهُ في منصب رسمي بين رجال المرصد وأتاح لهُ استعمال المراقب الكبيرة

***

بعد ان أثبت هبل — على نحو ما بيَّنا في المقال السابق — ان وراء مجرتنا عوالم لا تحصى التفت هو وهيوماسون الى موضوع فلكيّ جديد كان قد طرقهُ اولاً عالم فلكي آخر هو صليفر Slipher مدير مرصد فلاغستاف بولاية ارزونا الاميركية وهو المرصد الذي كشف فيهِ اولاً السيَّار التاسع « بلوطو »

كان صليفر قد عني بدراسة طيوف المجرَّات الحلزونية وهي المجرَّات التي خارج مجرتنا لانهُ وجد ان قياس بُعدها بطريقة اختلاف الزاوية لا يجدي . فالتفت الى دراسة طيوفها لعلَّهُ يستطيع ان يتبيَّن حركتها من خطوط الطيف . وهذه الطريقة تعود الى العقد السابع من القرن الماضي وصاحبها الاول عالم انكليزي يدعى هجنز Huggins وهي قائمة على مبدإ طبيعي اكتشفهُ اولاً عالم بوهيمي يدعى كرستيان دوبلر Doppler في سنة ١٨٤١ ويعرف بمبدإ دوبلر. ولعلَّ خير وصف لمبدإ دوبلر هذا ضربُ مثلٍ عليهِ . ذلك ان القطار الصافر اذا كان مقترباً منا علا صفيرهُ واذا كان مبتعداً عنا انخفض صفيرهُ . فأمواج الصوت في الحالة الاولى تتلاحق في مدى يقصر باقتراب القطار فتقصر اذا قصر فيرتفع الصفير . أما اذا كان القطار مبتعداً فان أمواج صفيره تتلاحق في مدى آخذ في الاستطالة بابتعاد القطار عن السامع ، فتطول الامواج فاذا طالت انخفض الصفير . وقد كان مبدأ دوبلر مقتصراً على عالم الصوت وأمواجهِ . ولكن اللون في الضوءِ يقابل الارتفاع والانخفاض في الصوت . فالاحمر في الضوء اقل تذبذباً وأطول امواجاً من البنفسجي في الطرف الآخر من الطيف . فاذا طبقنا مبدأ دوبلر على الضوء قلنا انهُ اذا كان هناك جسم مضيء ضوءًا يقترب منا تلاحقت امواج ضوئهِ في مدى متقاصر فتقصر الامواج فينحرف فيهِ اللون من الاحمر الى جهة البنفسجي . وعلى الضد من ذلك اذا كان جسم مضيء ضوءًا بنفسجيًّا يبتعد عنا تلاحقت امواج ضوئهِ في مدى متطاول فتطول وينحرف فيهِ اللون من البنفسجي الى جهة الاحمر . ولا يخفى ان في طيوف النجوم خطوطاً مميزة لها . فاذا قلنا الآية المتقدمة وكان لدينا طيف لجسم مضيء ووجدنا في هذا الطيف الخطوط الطيفية المميزة في غير مكانها المألوف وانها حادت الى جهة الاحمر، قلنا ان ذلك الجسم مبتعد عنا . واذا كان الحيود الى جهة البنفسجي قلنا ان ذلك الجسم مقترب منا . ومقدار الحيود يدلُّ على سرعة الابتعاد او الاقتراب

واذن ففي وسع الباحث الفلكي ان يتخذ من مقدار الحيود مقياساً لسرعة ابتعاد الجسم المضيء او اقترابهِ . وقد كان هجنز اول من اعتمد على هذا المبدإ في دراسة حركة الاجرام

السموية . فأخذ طيوف بعض الاجرام السموية وتبين فيها الخطوط المميّزة لبعض العناصر فيها. ثم قابل مواقع هذه الخطوط بمواقع الخطوط المقابلة لها في طيوف اجسام منيرة ثابتة على سطح الارض . فوجد ان الخطوط المميزة للعنصر الواحد في طائفتي الطيوف لا تتوافق . فأسند الخلاف الى حركة الاجرام السموية وثبوت الاجسام التي على الارض . فلما أعلن رأيهُ هذا في سنة ١٨٦٨ قوبل بكثير من الريب . ولم يقم لهُ الوزن الصحيح إلاّ بعد ان أُعيدت تجاربهُ واتقنت وسائل تصوير الطيوف ودراستها . وعلى هذه الطريقة اعتمد صليفر في دراسة احدى المجرّات الحلزونية فوجدها تدور بسرعة عظيمة . فطرف منها يقترب من الراصد الارضي بسرعة لان الخطوط في طيفهِ تحيد الى البنفسجي والطرف المقابل يبتعد عنهُ بسرعة لان الخطوط في طيفهِ تحيد الى الاحمر

واجتمع لديهِ في سنة ١٩٢٨ حقائق عن حركة ثلاثة واربعين سديماً من أقرب السدم الى الارض فظهر لهُ انها جميعاً آخذة في الابتعاد عنا . الاّ ان صليفر لم يدرك مغزى هذه الارقام فلما اتجه اليها هبل وعني بها تبين صلة غريبة وثيقة بين سرعة ابتعاد هذه السدم وابعادها . وان سرعة الابتعاد كما تقاس بالحيود الى جهة اللون الاحمر في خطوط طيوفها تزداد وفقاً لبعدها عن الارض . فالسدم البعيدة أسرع ابتعاداً من السدم القريبة . فهل هذه الصلة بين البعد وسرعة الابتعاد سرعة اساسية ؟ وهل يمكن تطبيقها على الآفاق الكونية التي وراء ما بلغناه بمراقبنا ومصوّراتنا من رحاب الفضاء ؟ وهل جميع السدم آخذة في الابتعاد عن الارض ؟

ما كادت ترتسم هذه الاسئلة في ذهن هبل حتى ثبت لهُ ان لا بدَّ من امتحان هذه الصلة ليعلم أحقيقة أساسية هي ، ام ظاهرة عارضة ؟ وان هذا الامتحان يجب ألاّ يقتصر على السدم التي في نطاق ما بلغناهُ بآلاتنا من الفضاء ، بل يجب ان يشمل كذلك أبعد ما يمكن ان نبلغهُ بها . واذن فالامر الاول الذي يتعين عليهِ هو ان يقيس ابعاد السدم بالاعتماد على الطريقة التي كشفتها المس لفيت — طريقة المتغيرات القيفاوية (مقتطف ابريل ١٩٣٨ ص ٣٥٥) — وثانياً عليهِ ان يعين مقدار الحيود الى الاحمر في طيوفها بالطريقة الطيفية التي ابتدعها هجنز وجاراه فيها صليفر . أما العمل الاول فأخذه على عاتقهِ . وأما العمل الثاني فعهد بهِ الى صاحبهِ هيوماسون . وأنبأ مدير المرصد بما ينوي فأتاح لهُ استعمال المرقب الكبير الذي قطر مرآتهِ العاكسة مائة بوصة

ليس من السهل ان ترسم طيوفاً للضوءِ القادم الينا من سدم تبعد عنا ملايين من سني الضوء بل ان سنة الضوء نفسها صورة ذهنية لا نكاد ندرك لها معنى بالقياس الى الابعاد على سطح الارض لان سرعة الضوء ١٨٦٣٠٠ ميل في الثانية الواحدة . وفي السنة ٣١٥٣٦٠٠٠ ثانية على اعتبار السنة ٣٦٥ يوماً . فكيف بنا اذا شئنا ان نتصور مليون سنة ضوئية او عشرة ملايين او مائة مليون ! وكذلك كان على هيوماسون ان يتقي الضوء الواصل في سديم معين ، مخترقاً هذا

الجوّ الحافل بالسدم والنجوم ، واقعاً من أنبوب المرقب على شق ضيق في المطياف المتصل بهِ . ثم انهُ كان يتعين عليهِ ان يرقب ذلك الضوء الليل كلهُ حتى يبقى انبوب المرقب مسايراً لمصدر الضوء مع دورة الفلك ، فلا يحيد عنهُ والاَّ اختلط ضوؤه الواقع على المطياف بأضواء أخرى

نعم ان للمرقب اجهزة ميكانيكية غاية في الدقة ، يمكن ضبطها فتحفظ المرقب مسايراً للجسم المرصود ، ولكن سرعة حركة المرقب تتغير قليلاً بتغيُّر الحرارة ، فلا بدَّ من المراقبة الدقيقة للفوز بالنتائج الدقيقة . ثم يأخذ الليل في الانقضاء ، ويقرب الفجر من الانبلاج ، فيجب حينئذٍ ان تغطى لوحة التصوير الحسّاسة ، حتى الليل التالي ، وكذلك حتى الليل الذي يليهِ ، حتى يتمَّ تصوير السديم ، وهو كثيراً ما يستغرق من سبعين الى خمس وسبعين ساعة ، اي من ثماني ليالٍ الى عشر ليالٍ من العمل المضني . وليس بالسهل ان تقضي سبع ساعات او ثماني ساعة كل ليلة مدى ثماني ليالٍ او عشرٍ ،وانت ترقب نقطة من الضوء الخفي ، ولكن هيوماسون نهض بهذا العمل الاخّاذ ، ولم يقتصر على سديم واحد بل صوَّر عشرات ومئات

بعد ذلك يؤخذ الفلم المصوَّر ، ويحمض ويثبت في حجرة خاصة بالمرصد ، ثم تؤخذ صورة الطيف ويبدأ البحث فيها عن الخطوط المميزة للعناصر ، ليعلم هل هي في مكانها ، ام هي حائدة عنهُ الى جهة ما ، وما مبلغ الحيود . وهذا الضرب من العمل دقيق الدقة كلها . لان طيوف النجوم والسدم ، حافلة بالخطوط الدقيقة المتلازَّة ، فكيف بها اذا كان الطيف في صورة طولها عشر بوصةٍ . وكثيراً ما كان هيوماسون لا يتبين شيئاً واضحاً فيعيد عمل التصوير من اولهِ . فاذا تبين خطوطاً معينة معروف مكانها في طيف جسم مضيء ثابت ، قابل المكانين وعين مقدار الحيود وعلى اساسهِ تقدَّر سرعة السديم

كان تقدير سرعة السديم ، وعلاقة ذلك ببعدهِ عنا ، منوطاً بالدكتور هبل . ولم يكن هذا العمل بالعمل العاديّ . هنا رأي يقول انهُ كلما بعدت السدم زادت سرعة تباعدها . وهذا صور دقيقة فيها خطوط مبهمة تدلُّ على انحراف الخطوط الطيفية . فهل يثبت الحساب،ان السدم جميعاً آخذة في الابتعاد عنا وفي الابتعاد بعضها عن بعض ، وهل يثبت الحساب كذلك ان سرعتها تزداد بالقياس الى بعدها عنا ؟ لذلك كان البحث في كل صورة من هذه الصور ، وكأنهُ استكشاف سيّار جديد . وكانت النتيجة ان جميع الصور ايَّدت الرأي السابق — اي ان السدم جميعاً آخذة في الابتعاد. وأبعدها عنا اسرعها ابتعاداً

ومضى هبل وهيوماسون في سبر اغوار الفضاء واستخراج النتائج من الصور التي تتجمع عندها . ثم اخذا يرتبان تلك النتائج في جدول. هوذا السديم المرقوم N.G.C. 385 في صورة الفرس الاكبر بعدهُ عنا ثلاثة وعشرين مليوناً من سني الضوء وهو آخذ في الابتعاد بسرعة ٢٤٠٠

ميل في الثانية . ثم هناك سدم ابعد من السديم السابق واسرع . فثمة السديم المرقوم N.G.C. 2562 في عنقود السرطان بعده عنا تسعة وعشرون مليوناً ونصف مليون من سني الضوءِ وسرعة ابتعاده عنا ٣٠٠٠ في الثانية . اما السديم في فرساوس فبعده ستة وثلاثين مليوناً من سني الضوء وسرعة ابتعادهِ ٣٢٠٠ ميل في الثانية. والسديم N.G.C. 4884 الذي في شعر برنيقة بعده خمسة واربعون مليوناً من سني الضوءِ وسرعة ابتعادهِ ٤٧٠٠ ميل في الثانية . وفي صورة الدب الاكبر عنقود اكتشفهُ ولتر باد من بضع سنوات وقدر بعدهُ بخمسة وثمانين مليوناً من سني الضوء وهو بحسب هذه الصور العجيبة آخذ في الابتعاد عنا بسرعة ٩٥٠٠ ميل في الثانية. ولما كشف عنقود الاسد في سنة ١٩٣٠ وعرف ان بعدهُ ١٠٥ ملايين من سني الضوءِ صوّر طيفه فاذا الصورة تقول انهُ يبتعد عنا بسرعة ١٢ الف ميل في الثانية . وفي التوأمين عنقود يبعد ١٣٥ مليون سنة ضوئية ويبتعد بسرعة ١٥ الف ميل في الثانية . وفي العوّاء عنقود فيهِ سديم يبعد ٢٢٠ مليون سنة ضوئية وسرعة ابتعادهِ بحسب هذه الصور ٢٤ الف سنة ضوئية في الثانية

الصورة السموية	المسافة بملايين سني الضوء	سرعة الابتعاد بالاميال في الثانية	عدد السدم التي رصدت وصورت
العذراء	٦	٧٠٠	٢٣
الفرس الاكبر	٢٣ر٥	٢٤٠٠	٤
السمكتان	٢٤	٢٩٠٠	٤
السرطان	٢٩ر٥	٣٠٠٠	٢
فرساوس	٣٦	٣٢٠٠	٤
شعر برنيقة	٤٥	٤٧٠٠	٨
الدب الاكبر	٨٥	٩٥٠٠	١
الاسد	١٠٥	١٢٠٠٠	١
الاكليل الشمالي	١٢٠	١٣٥٠٠	١
التوأمين	١٣٥	١٥٠٠٠	٢
العواء	٢٢٠	٢٤٠٠٠	١

هذه هي حقائق الموضوع . اثبتها بالرصد والقياس باحثان متمكنان . فما مغزاها ؟ أتعني ان الكون آخذ في التفرق والتشتت ؟ وما صفة هذا الكون وما صورتهُ ؟ هذا موضوع المقال التالي

الشيخ ابو علي

ابن سينا

بقلم منوشهر مؤدب زاده
صاحب جهره نما الايرانية

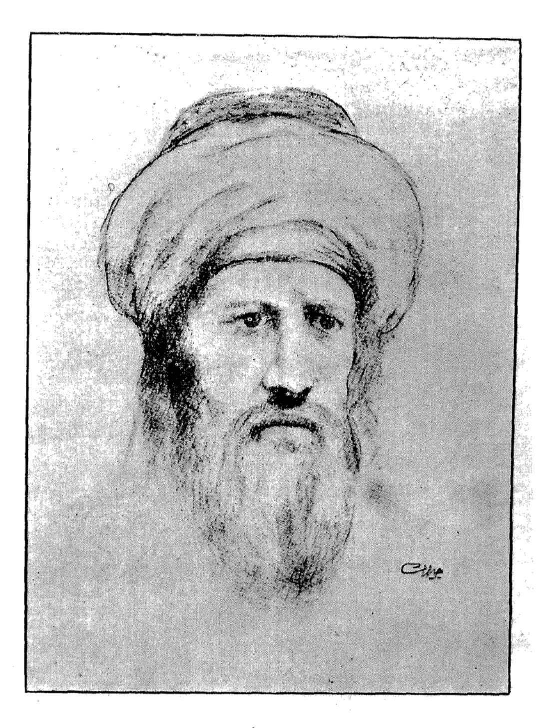
— ٢ —

ان أبا علي كما نرى في سيرته كان من نوابغ عصره الذين لا يشقّ لهم غبار فان عبقريته الفذّة مكنتهُ من أن يتقن في زمان قليل علوماً لم يتمكن غيرهُ من فهمها واقتنائها إلاّ بعد عناء شديد وممارسة تحتاج الى زمن ليس بالقليل . نعم ان هذا الرجل اللوذعي العظيم قد حوى ما استعصى على الناس من العلوم والمعارف في ابان شبابه وأحاط بها إحاطة تامة وفهم مسائلها وأوضح ما أشكل منها وكشف غطاء اسرارها وشرح نكاتها الدقيقة ولم يترك باباً من العلم إلاّ طرقهُ ولم يبق مسألة إلاّ نظر فيها وبلغ بهِ الامر انهُ لم يحصل له اي تفاوت في زمن الكهولة عن زمن الشباب الذي هو أوان الطيش والعيش تضطرب فيهِ الافكار وتزلّ فيهِ الاقدام فكان له في شبابهِ ما للشيوخ من الافكار والمسائل في شتى العلوم والمعارف

ومن هنا قال بعضهم ان دماغه كان مخلوقاً للفلسفة ومعجوناً منها بل في وسعنا ان نقول ان دماغ أبي علي كان خلاقاً للفلسفة وموجداً لها . فقد كان للرجل ذكاء وفطنة قويان نادران قلما وجدا في شخص فكانا عاملين قويين في استخراجاته ومستنبطاته في الطب ومعالجة الامراض فقد استنبط بفضل هذه المواهب ما ربما عجزت عنهُ اليوم الافكار مع ما في متناولها من الوسائل الكاملة التي جهّزها بها العلم

يقال انهُ اصيب مرة بصداع تخيّل اليهِ ان مادة من المواد قد توجهت الى دماغه فاذا لم يدفعها بأضمدة ولطخات خارجية احدثت قرحة في دماغه فبادر الى مداواة نفسه ونجح فيها استنبط

وفضلاً عن هذا الذكاء النادر والفطنة التي فاق بها أهل عصره كانت جميع قواه في حد الاعتدال والكمال فكان متفرداً في القوى المادية والمعنوية ومتمتعاً بها . ولاجل هذا يمكن



ابن سينا
كما تخيَّلهُ ورسمهُ جبران خليل جبران

ان يقال عنهُ انهُ كان انساناً معتدلاً تام القوى ونحن نعلم حق العلم ان لاعتدال القوى المادية اثره الفعّال في اعتدال القوى الفكرية . والفلسفة الجديدة تبرهن على هذا وتثبتهُ لنا ولذا كان أبو علي من الوجهة الفكرية من أعدل الفلاسفة المشائين وكانت طريقته أقرب الطرق للبرهان والحقيقة وفضلاً عن هذا فان القوى المذكورة قد أكسبت الرجل قوّة من الاجتهاد والمثابرة على الاعمال تناسبها تمام المناسبة ولذلك نراهُ قد تمكّن من إعمال القوّة المادية والروحية واجتنى منها ثماراً ناضجة وأحرز منها نتائج باهرة لا يستهان بها بل لا يحصر مداها . فقد روى لنا أبو عبيد : قال عند ما وصل منطق كتاب النجاة الى شيراز أورد عليهِ علماء تلك المدينة بعض إشكالات أرسلوها للشيخ على يد أبي القاسم الكرماني فتناول الشيخ الرسالة وراح يشتغل بأمور كانت لديهِ وكان وصولها عند الاصيل فقضى الشيخ تلك الليلة مع أبي عبيد ولكن أبا عبيد يقول لم يتنفس الصبح حتى وجه اليَّ فحضرت ووجدتهُ جالساً في مصلاه فناولني الجواب وكان مكتوباً على خمسين صحيفة

ويروي لنا هذا الرجل أيضاً ان ابا علي قد ألف مبحث الآلهيات والطبيعيات من كتاب الشفاء سوى مبحث النبات والحيوان في مدّة لا تزيد على عشرين يوماً ولم يحتج في تأليفه الى مراجعة اي كتاب واليوم لا يمكننا ان ندرس ونتفهم ما كتبهُ هذا العبقري في أقل من سنتين . فانظر الى حافظة هذا الرجل واستحضاره للمسائل والمطالب ثمَّ تصوَّر شخصيتهُ الفذّة . ولعلَّ هذه القوى والحافظة والذكاء النادر وتمكنه من ممارسة العلوم والاحاطة بجميع المسائل وفهم المطالب أكسبتهُ في مجالس الدرس والتقرير تلك الحدّة التي طالما أشار اليها المؤرخون وصرَّحوا بها في كتبهم ومؤلفاتهم . فقد ذكر الشهرزوري في عدّة مواضع من كتابهِ تاريخ الحكماء ان أبا علي كان يحتد ويكثر من ذم العلماء ولذلك كثر أعداؤهُ والحاقدون عليهِ وأخذوا يسعون بشتى الطرق في احتقاره واستصغاره . ونرى كل هذا واضحاً مكتوباً في رسالاتهِ ومنها رسالته المسماة بالأضحوية وقد قال في أولها «وقد انتابتني حوادث وصُبَّت عليَّ مصائب ونحن لو أصيبت بها الجبال الرَّواسي لتصدَّعت واندكّت منها »

ومنها معارضة أبي علي لأبي القاسم الكرماني وأبي علي المعروف بمسكويه وهي دليل على هذه الدعوى . يقال ان أبا علي مرَّ يوماً على مجلس درس لمسكويه فرمى اليهِ بجوزة وقال لهُ ما مساحتها ؟ فناولهُ مسكويه رسالةً كان ألفها في علم الاخلاق وقال لهُ يجب عليك أولاً ان تسعى في تهذيب أخلاقك

لا ريب في ان الامر لا يخلو من مبالغة وان أكثر هذه الامور قد نسبها اليهِ أعداؤهُ وخصومه الكثيرون في حياتهِ وبعد مماتهِ

وكيف يمكن ان يصدَّق ان رجلاً بلغ من العلم والحكمة مبلغاً فاق بهِ الاقران والاتراب يكون على جانب عظيم من سوءِ الخلق والحدَّة التي تلوّث سمعته ؟

فاذا سلمنا جدلاً بما يقال عنهُ فاننا لا يمكننا إلاَّ ان نعترف بأن أبا علي كان من أعظم الفلاسفة بل كان على رأس اولئك الذين تفقهم المدنية الاسلامية الزاهية وأنجبهم ذلك العصر الذهبي الزاهر. فقد درس فلسفة ارسطاطاليس من دون إلمام باللغة الاغريقية او اللاتينية ففهمها بفضل قواه النادرة وذكائهِ العجيب ومع انهُ لم يكن لديه إذ ذاك سوى تراجم ناقصة فقد تمكن من أن يتكلم فيها ويقررها أحسن تقرير ويبينها بياناً ما عليهِ من مزيد حتى نسخت مؤلفاته كتب المتقدمين ورغب فيها الناس ورغبوا عن كتب أرسطاطاليس فاحتلت هذه مكانها

ولم ينكر المتقدمون ولا المتأخرون مقامه هذا وقد أقروا لهُ بالفضل واعترفوا له بانهُ أحذق استاذ قرر تعاليم أرسطاطاليس وقد عرضوا عليهِ كل مسألة أشكلت عليهم واخذوا برأيهِ وجعلوا أقواله وآراءهُ مستنداً لهم في اثبات المسائل الفلسفية والحكمية . ومن جملة فلاسفة الاسلام وعلمائهم الذين يشار اليهم بالبنان ابو حامد الغزالي فقد قال في مقدمة كتابه (تهافت الفلاسفة) ان أقوال المترجمين لكلام أرسطاطاليس لا تخلو من تبديل او تحريف يحتاج الى تفسير او تأويل وقد صار هذا سبباً للنزاع بينهم وبين اكبر فلاسفة الاسلام نقلاً وتحقيقاً اي الفارابي وابن سينا ، ولذلك فنحن نبدنا ما اختاراه وقالا بصحتهِ لاننا لا نشك فيما لم يختاروه ان يكون سقيماً او مختلاً

ولاجل ذلك يعتقد بعض العلماء ان الغزالي لم يقدم على تأليف كتابه هذا الموسوم بتهافت الفلاسفة إلاَّ وهو يريد هدم آراءِ ابي علي الفلسفية والتحامل عليهِ والحط من مقامه وكذلك كتاب المصارعة لمؤلفه محمد بن عبد الكريم الشهرستاني فهو يحكي لنا الصراع الدائم القائم بين مؤلفه والشيخ أبي علي بن سينا . وقد جاء في بعض الرسائل الفلسفية أنهم اتفقوا على ان أبا علي قد تفرَّد وفاق الاقران في الحكمة وأصبح في الفلسفة علاَّمة دهره فلم يبلغ شأوه احد ولم يشق له غبار وكل من ادرك كلام أبي علي وفهم معناه فقد فاز بقصب السبق ونال أعلى مقام في الحكمة والفلسفة. وكان عمر الخيّامي من فلاسفة القرن الخامس والسادس من الذين يعتقدون بأبي علي أي اعتقاد وقد سألهُ بعضهم شأن الاعتراضات التي اوردها ابو البركات البغدادي على آراءِ ابي علي في الفلسفة والحكمة من الصحة والبطلان فأجاب الخيّامي ان أبا البركات لم يفهم كلام ابي علي بعد

وقد بلغ المقام بأبي علي في الفلسفة والحكمة حتى اصبح تعلُّم مؤلفاته وتعليمها من الامور الضرورية المسلم بها حتى اصبح المقصود من درس الفلسفة على مرّ الزمان هو دراسة كتب ابي

علي ليس إلاّ ولذلك هدأت الحركة الفلسفية وتوقف سيرها الى حدٍّ ما فآل ذلك الى انحطاطها في القرون الاخيرة فقام بعض العلماء وعارض اقوال ابي علي وآراءه وأورد عليه ولم يكن ذلك الاّ اظهاراً للفضل والعلم وشمر آخرون للدفاع عنهُ وعن تآليفه وكتبه . ومن المعارضين للشيخ والموردين على كتبه شكوكاً كثيرة الامام فخر الدين الرازي الشارح لاشارات ابي علي وقد رد على آراء الشيخ ومبانيه حتى سمّى بعضهم هذا الشرح (بالجَرح)

ثم جاء نصير الدين الطوسي من جلة حكماء القرن السابع وقرر اقوال الشيخ احسن تقرير وأبطل اعتراضات فخر الدين الرازي وحسبها واهية وانتقد كتبه وجرّحها باشكال مختلفة . وكذلك محمد بن عبد الكريم الشهرستاني فقد كرر في كتابه المصارعة آراء ابي علي وأقواله واعترض على اكثرها اعتراضات واهية حسبها واردة وقد يتجاوز هذا الرجل في بعض الاحيان حده فيعدّ كلام ابي علي كالمجانين والمجذوبين وقد رد الخواجة نصير الدين على كتابه المسمى بالمصارعة بكتاب سمّاه (مصارع المصارع) وابطل اقوال الشهرستاني وانتقد اخلاقه ولامهُ على تعرضه للشيخ بما لا يليق من الكلام ولعمر الله ان نصير الدين لعلى حق فيما يقول

ولما شاعت وانتشرت فلسفة المشائين ومعتقداتهم على يد ابي علي وكتبه واذعن لها تقريباً قام رجل من اعاظم علماء ايران معارضاً لهذه المعتقدات وجاء بالعقيدة الاشراقية وهي التي تعرف بالحكمة الاشراقية وجعل يقررها ويشيد لها صرحاً على انقاض اصول المشائين التي أوشكت ان تنقرض ويأفل نجمها . وقد راجت الحكمة الاشراقية وكثر تابعوها وكسدت سوق مؤلفات ابي علي ورغب عنها الى حدٍّ ما وذكر تفصيل ذلك في تاريخ الفلسفة للقرن السادس

***

وقد حاز ابو علي فضلاً عن الفلسفة مقاماً شامخاً في الطب ووقف منهُ موقف الاستاذ فقد نسخ كتابه المسمى بالقانون كتب المتقدمين وقضى على تعاليمهم . وكان ابو علي يتحيز لارسطاطاليس ويميل اليه ويتحامل على جالينوس ويحقره في كتبه ويسميه احياناً (فاضل الاطباء) ويقول عنهُ ان فاضل الاطباء جالينوس هو طبيب غير انهُ يجب ان يتفلسف

أما محمد بن زكريا الرازي فكان جالينوسيًّا ولم يكن يعتقد بأرسطاطاليس كثيراً — فطريقة أبي علي التابع لارسطاطاليس في تدوين الطب وتقريره لهُ منطقية بينما طريقة الرازي أقرب للمطابقة والعمل

فلما شاع منطق أرسطاطاليس بين الناس ولم يكن الاشتغال بالتشريح والتجارب الكيمياوية بالامر الهين كان لتقرير أبي علي وقوّة بيانه أحسن تأثير في انتشار طريقته وأقوى عامل وضامن للأخذ بها فنسخت طريقة جالينوس التي نشرها محمد بن زكريا وغيره من الذين عرفوا

بالزندقة وعدم التمسك بمذهب فصار كتاب قانون ابي علي يدرس في جميع مجامع الطب والمجالس التي تعقد لدراسة هذا العلم وغدا الكتاب الذي يعتمد عليه . ولم يقتصر أبو علي في الطب على التقليد بل كانت له تجارب وآراء وتأملات وكان اكثرها في معالجة الامراض ومداواتها وقد ذكرها في القانون وقد فقد ما كان منها على صورة مذكرات لم تدوّن بعد في كتاب — هذا ما يرويه لنا ابو عبيد

وقد ظن بعضهم أن أبا علي —كما يستفاد—من كتبه لم يكن إلاَّ تابعاً لارسطاطاليس وقد قلّد المعلم الاول في آرائه قوةً وفعلاً وخصوصاً في المنطق وكتاب التعليم الاول . ولكن الامر على خلاف ما ظنوه فقد كان للشيخ في كل قسم من اقسام العلوم التي اخذها عن ارسطاطاليس آراء اودعها في كتاب مخصوص سمّاه (الحكمة المشرقية) واما الخطة التي كان قد قرّرها لنفسه في تآليفه وكتبه كالشفاء فهي تقرير آراء المشائين ليس إلاَّ ولذلك لم يتعرض لرد آراء شيعة أرسطاطاليس وتضعيفها بل على العكس من ذلك سعى في تأييدها جهد طاقته وقد اتبع نصير الدين الطوسي الذي خلفهُ هذه الخطة في كتبه التي ألفها في تقرير آراء المتكلمين والحكماء من الاشراقيين والمشائين . ومع ان الشيخ أبا علي يقول كل من اقرَّ بشيء وآمن به بلا دليل لديه فهو خارج من الفطرة الانسانية منسلخ من الطبيعة البشرية نراهُ عند اثباته للنبوة أجاز للفرد الكامل اباحتهُ صيت مخالفيه ودماءهم . ولعل آراءه هذه حملت المؤلفين على أن ينتقدوا فيه التكتم ولكنهُ لم يكن معروفاً بذلك في عصره بل كان معاصروه يرمونهُ بالكفر والالحاد والزندقة . والذي يلوح لنا من سيرة حياته أنهُ لم يكن منكراً للمبادىء الدينية وكان كلما وقعت له مسألة لم يفهمها دخل المسجد الجامع وسأل الله تسهيلها وكشفها له . ولما أيقن بالوفاة تاب الى الله ووهب امواله للفقراء والمساكين ولعل ما اتهمهُ به المعاصرون من الكفر والالحاد جعله يعتقد في كتمان الحقائق الفلسفية وعدم البوح بها وقد اومأ في آخر كتاب الاشارات بكتمانه والضن به على غير اهله وأن لا يظهر عليه إلاَّ من كان أهلاً له . وأما من الوجهة التعليمية فقد كان يشابه أرسطاطاليس كل الشبه . ولم يأخذ برأي فلاسفة الهند الذين يعتقدون ان عمران الروح لا يكون إلاَّ باضعاف الجسم وهدم بنائه.وقد اخذ بهذه العقيدة بعض المتصوفين ولكن أبا علي لم يقدم على هدم قواه الجسمانية بل تمتع بقواه الروحية والجسمية كما يقول المحققون والفلاسفة والعرفاء أن الانسان يجب ان يكون جامعاً وذا عينين ويهتم بكل من مراتب الوجود في حدة . فكان كما يقول اهل العرفان : « لا الكثرة تمنع وحدته ولا الوحدة تحجب كثرته »

[لها بقية]

نواح عسكرية وجغرافية في عصر اسماعيل

الجيش المصرى

والاستكشاف فى أفريقيا

للملازم الاول عبد الرحمن زكي

— ٢ —

اقليم هرر

اذا تحولنا من بلاد الصومال الى مديرية هرر التي زارها الرحالة الانجليزي برتون R. F. Burton بين عامي ١٨٥٤ و١٨٥٥ وجدنا ان النتائج العلمية التي حصل عليها كانت قليلة جداً ولا يصح الاعتماد عليها ويمكن ان ننتحل بعض الاعذار لهذا الرحالة فنقول ان الاحوال التي احاطت به أثناء اضطلاعه برحلته جعلت اقامته في هرر لا تزيد على عشرة أيام. ثم انه تعذر عليه ان يستعمل من اجهزة البحث الا بوصلة الجيب وساعة وترمومتر ومع ذلك فقد أدت له بعض الفائدة [١] ويحتوي كتاب برتون بجانب تخطيط عام لهرر على خارطة اخرى لا قيمة لها البتة من الناحية الجغرافية تبين الطريق الذي سلكه الى هرر. وقد كان الموقع الذي أثبته لمدينة هرر أصح من الموقع الذي اثبته هاريس واعوانه الذين قاموا برحلة الى شوا [٢] او الرحالة كراتندن [٣]

ولقد ظلت مهمة الفوز بمعلومات صحيحة عن داخلية تلك البلاد شاقة جداً زمناً طويلاً لغيرة الاهالي الوطنيين وتعصبهم. فكانت المعلومات المكتسبة مبنية على التخمين والرواية وليست مؤسسة على التحقيق العلمي. وظلت الاحوال على هذا المنوال مدة عشرين عاماً عقب زيارة برتون. ولم يحاول احد خلالها أن يقوم بفتح داخلية البلاد حتى ظهر المصريون وأفلحت جهودهم في عام ١٨٧٥ وحينذاك سهل القيام بالرحلات. فتجمعت تدريجياً المعلومات والنقط الرئيسية للارشاد وللمرة الاولى عملت خارطات لاقليم كان بالامس مجهولاً تماماً. واستطاع

(١) R. F. Burton. First Footsteps in East Africa. London 1856. p. 62

(٢) W. C. Harris . Highlands of Aethiopia, 3 Vols. London 1844

(٣) C. J. Cruttenden. J. R. G. S. Vol XIX. 1849 pp. 49-76, also-J.R.G.S. Vol. XVIII, 1848. pp. 136—139.

الضباط المصريون بقيادة البكباشي مختار ان يزهوا بعملهم الانساني فانتشلوا هرر من الظلام الجغرافي الدامس الذي رقدت فيه قروناً كاملة

لقد وصل المصريون الى تائجهم الباهرة التي لم يصل اليها أحد من قبل لانهم كانوا يشرفون على ادارة تلك الاقطار ولانهم كانوا ايضاً يتمتعون بمزايا لم يتمتع بها غيرهم من المستكشفين . وقد استفادوا من تلك المزايا بدليل النتائج الغزيرة التي حققوها والتي نراها أمام أعيننا اليوم

ففي عام ١٨٧٦ بعد ان انتهى البكباشي محمد مختار من جولاته لاستكشاف بلاد الصومال[١] نشر مع زميله فوزي باللغة العربية الخارطة الاولى لهرر والبلدان المجاورة . وقد ظهرت في مجلة اركان الحرب . وكتب ايضاً الضابط فوزي مقالاً طويلاً عن نتائج أعمال الكشف الذي قام به المصريون في مقاطعات شعوب العيسي وجالا وهرر[٢] . وتمتاز الخارطة المذكورة بدقة ما احتوته من الحقائق كالمحطات المهمة والمدن وطرق التجارة ومقاطعات القبائل وأهم اوصاف الارض الطبيعية ومعالمها[٣] . وفي هذه الخارطة أثبت موقع هرر كما يأتي :

٤٨ً ٢٢َ ٩٠° من خط العرض و ١٥ً ٢٠َ ٤٢° من خط الطول[٤] . واثبات هذا الموقع لا يختلف الاَّ بضع دقائق الى الشمال ومثلها الى الشرق عن موقعها الجغرافي الذي أثبت أخيراً بغاية الضبط كما يختلف شيئاً قليلاً عن الموقع الذي أثبته رءوف باشا في تقريره عن مدينة هرر وضواحيها[٥] ففي تقرير رءوف باشا أثبت موقع المدينة على خط عرض ٢٠َ ٩٠° شمالاً و١٧َ ٤٢° طولاً كما أثبته برتون . ولكن لم كان الاختلاف بين تقرير القائد العام للحملة الى هرر وبين تقارير ضباط هيئة اركان حربه ؟ هذا مما صعب فهمه

والخارطات الهامة الاخرى التي أحرز فيها مختار وفوزي نجاحاً باهراً خلال الاعوام الاولى للاحتلال المصري هي أول تخطيط عمل لمدينة هرر (١٨٧٦) وقد بيَّنا عليه أسوار المدينة وأبوابها وقلاعها وأهم الايضاحات الطبوغرافية ورسمنا قطاعاً واضحاً يقطع المدينة في اتجاه شمالي جنوبي تقريباً[٦] وهذا الرسم (قياس $\frac{1}{4000}$) يعتبر عملاً فائقاً من الطراز الاول من ناحية التفاصيل الموضحة عليه ومهارة العمل ودقته اذا قوبل بأي عمل آخر تمَّ فيما بعد لهذه المدينة

(١) راجع النبذة التي كتبها البكباشي مختار على استكشافه في بلاد جاديبورسي المدرجة في العدد السابع من القسم الاول من مجموعه الجمعية الجغرافية (٢) مجلة اركان الحرب — السنة الثالثة — المجلد ١ — الجزء ٥ — القاهرة ١٨٧٧ ص ٣٨٥ — ٤٠٠ وجزء ٦ ص ٤٦٢ — ٤٧٩ (٣) أحمد فوزي — وصف عمل الاستكشاف في العيسي والجالا وهرر — مجلة اركان حرب — السنة الثالثة ١٨٧٧ — المجلد ١ ج ٥ ص ٣٩٢ . ومحمد مختار — الجمعية الجغرافية — ملاحظات عن مقاطعة هرر — السلسلة ١ — ص ٣٦١

(٤) في هذه الخارطة يعتبر خط الطول المار بباريس صفر (٥) رءوف باشا : تقرير عن مدينة هرر وضواحيها — مجلة أركان حرب ١٨٧٦ — السنة الثالثة : المجلد ١ — جزء ١ ص ٤٤

(٦) محمد مختار واحمد فوزي : خارطة مدينة هرر عام ١٨٧٦ — مطبعة اركان حرب العامة — القاهرة ١٨٧٧ — مجلة الجمعية الجغرافية الخديوية ١٨٧٧ — السلسلة ١ رقم ٤

ونذكر ايضاً في هذا الصدد — الخارطة العربية — لبلاد الصومال التي رسمها الضابط فوزي وعرضها في المؤتمر الجغرافي بالبندقية عام ١٨٨١ (١) . لكن مما يؤسف لهُ ان تلك الخارطة قد فقدت . ومن المحتمل ان تكون قد أودعت في مكان وظلت فيه منسية مجهولة

عود الى الصومال وبربرة والحبشة

وقبل أختتام هذا البحث نعود الى ذكر بعض الاعمال الجغرافية التي قام بها الضباط المصريون في افريقيا . فقد رسم الملازم الاول عبد الرزاق نظمي وكثير من زملائهِ من ضباط اركان حرب الجيش ميناء بربرة وضواحيها الى جبل دوبار . وكان المستر « سدني أنسور » مكلفاً اتمام البحث فيما يختص بانشاء سكة حديد بين دنقلة والفاشر

ولما نشبت الحرب بين مصر والحبشة (١٨٧٦) رسم بعض ضباط اركان الحرب برآسة الامير الاي لوكيت عدداً كبيراً من الخارطات التفصيلية للبلاد الحبشية ورسموا خارطة عامة للبلاد الواقعة بين مصوع وهضبة الحبشة . ويعتبر هذا العمل من أهم وأفضل ما اشتغلت بهِ هذه الجماعة المنتخبة من اكفاء الضباط المصريين . كما حقق البكباشي عبد الله فوزي (باشا) حدود الحبشة الشمالية والطرق بين مصوع والخرطوم ثم رسمت خارطتها (٢)

وفي عام ١٨٧٨ عهد الخديو اسماعيل الى الكولونيل جريفز (Col. Graves) والقائمقام محمد مختار بارتياد شواطىء الصومال على المحيط الهندي لاختيار موقع يقام فيه فنار لارشاد السفن فخطط القائمقام مختار بك خارطة هذه الجهة ومكان الفنار وهو يقع على بعد ثمانية اميال جنوبي رأس جردوفوى (٣) وعلى مسافة ثمانمائة متر من مصب نهر صغير يجري فيه الماء العذب . لكن لم ينشأ الفنار لانتهاء حكم اسماعيل في يونيو سنة ١٨٧٩ . وفي عام ١٨٨٠ كان الامير الاي محمد مختار قد جاب نواحي السودان الشرقي لما كان رئيساً لاركان حرب السودان يصحبه من ضباطه خليل بك فوزي والملازمان محمد خير الله وعلي خيري وقد نشر بحثاً مسهباً في تخطيط أبو حراز والقضارف (ابوسن) والقلابات وطومات وأميديب وغيرها من مدن السودان الشرقي (٤)

الاعمال الختامية

وتتجه الآن لدراسة آخر اعمال الخرائط التي انجزها الضباط المصريون في هرر التي تعتبر تقدماً باهراً على الاعمال التي سبق عملها بمعرفة مختار وفوزي وغيرها : ففي أواخر عام ١٨٨١ مسحت هرر وملحقاتها من جديد بتفصيلات متقنة وايضاحات اكثر مما جاء في المحاولات التي تمت من قبل

(١) مجلة الجمعية الجغرافية الخديوية ١٨٨٢ — السلسلة ٢ — رقم ١ — ص ١ — ٢١ (٢) عبد الرحمن الرافعي — عصر اسماعيل — ص ١٧٩ (٣) مجلة الجمعية الجغرافية مجموعة ١ عدد ٩ (أغسطس — نوفمبر ١٨٨٠ ص ٢٩) (٤) مجلة الجمعية الجغرافية مجموعة ١ عدد ١١ — فبراير ١٨٨١ ص ٥

وقد قام بهذا العمل البكباشي أحمد وعدي والملازم الاول عبد الكريم عزت . وكانت مصر في ذلك الحين قد أخضعت بعض قبائل من الوطنيين الذين لم يقبلوا التسليم في بادىء الامر . وكان كلما اتسع الافق السياسي امتدت أعمال الكشف وازدادت . ولذلك جاءت الخارطات الجديدة بطبيعتها اكثر استيفاء للعلومات من سابقاتها او التي اعقبتها وانجزت في احوال صعبة في ذلك الوقت الذي عادت فيه هرر الى حكم أمرائها السابقين واخلاء المصريين لتلك البلاد (١٨٨٤ — ١٨٨٥) وأخيراً لما أصبحت هرر تحت الحكم الحبشي (١٨٨٧) . ففي خلال عامين كان عمل الضابطين وعدي وعزت قد تم . ويمكن الاطلاع عليه في مجموعات خارطات الجمعية الجغرافية . وقد عرف « بولتشكي » قيمة تلك الخارطات العلمية والجغرافية واثنى على العمل الفني الذي اضطلع به الضباط المصريون في هرر كما انهُ امتدح جهود الضباط مختار وفوزي وعزت[1] وبينما كان هؤلاء الضباط النابهون يقومون باكتشافاتهم كان الجنرال ستون[2] يشرف في القاهرة على رسم خارطة كبيرة شاملة للاملاك المصرية قياسها ١/؟..... . وكان الغرض من انشاء هذه الخارطة جمع النتائج المتحصلة في خلال ثماني عشرة سنة انقضت كلها في الفتوحات والاستكشافات والمباحثات والمراجعات . وقد كتب عنها الجنرال : ستون : — « أن مسطح الارض التي شملتها تلك الاعمال يعادل مجموع مساحة فرنسا وامبراطوريتي المانيا والنمسا . وقد قضت هذه الاعمال على حياة ضابط وعالم ألمانيين واثنين من الفرنسيين ومثلهما من الاميركين ومثلهما من الطليان ومثلها من المصريين وجميعهم استشهدوا في سبيل الاخلاص للعلم . هذا غير من اختارهم الموت من « الجنود البواسل الذين رافقوا الضباط وأهل الريادة . فانهم لقوا حتفهم في تلك البلاد المجهولة مثل زملائهم الذين صحبوا البعثات العلمية المحضة ايضاً »

وليس في وسع احدٍ ان يتجاهل ما كان لمصر من شأن المتقدم وفضله في ميدان الاستكشاف الجغرافي في بلاد الصومال وافريقيا الشرقية وجميع انحاء السودان وصحارى مصر[3]. وهذه الاعمال الخالدة صفحة مجيدة تفاخر بها كل أمة حية . وهي جهود اعوام متتالية كما وصفها الجنرال ستون قامت كلها على أكتاف الضباط المصريين في صمت وهدوء وتواضع وكفاح مع الامراض المتوطنة في تلك الاقاليم البعيدة والتي كانت في يوم من الايام قطعة من أرض الوطن

---

(١) Paulitschke. pp. 575—591

(٢) هو شارلس بومري ستون رئيس هيئة اركان حرب الجيش المصري من عام ١٨٦٩ الى عام ١٨٨٢. وقد كان كولونيلاً في الجيش الاميركي ندبه المغفور له الخديو اسماعيل باشا لرآسة بعثة عسكرية اميركية لاصلاح الجيش المصري كما ذكرنا في صدر المقال . راجع مقالة اباته باشا بعنوان الجنرال ستون ومقالنا بالمقتطف ج يوليو بالمجلد ٩١ ص ٢٠٢ — ٢٠٨

(٣) من مقال الاستاذ مصطفى عامر بك رئيس قسم الجغرافيا بالجامعة المصرية وكان انفس مرجع لنا في كتابة هذا الموضوع

ساعات في هياكل الشعراء — ٣

الياس فياض

وقصيدة النجوم

ليوسف البعيني

مضى خمسة أعوام وأزيد على وفاة الشاعر الرقيق الحسّاس الياس فيّاض ذلك البلبل الغريد الذي فتن بأناشيده أبناء العربية على السواء . وكنت طوال هذه الاعوام أمنّي النفس بكتابة كلمة ضافية عنهُ لا لشيءٍ بل قدراً لروحه الكبيرة وإنصافاً للشعر العربي الذي أحببتهُ وآثرتهُ على الآداب الاخرى لما في اوزانهِ من رنين ، ولما في الفاظهِ من حبٍّ لم يخبُ نوره ولم تترمّده جمراتهُ !!

أما أدلّتي على ذلك فهي تلك المقاطع الساحرة التي ردّدها تحت سماءِ الشرق المقمرة عُمَرُ بن أبي ربيعة ومجنون ليلى وغيرهما من شعراءِ الحبّ والغرام . . . وقد طوت أشعارهم الحقب الخوالي طافيةً كالاحلام فوق أمواج الدهور دون ان يفقدها تقادم العهد تلك النشوة المسكرة ، وذلك الدبيب المستحبّ

على انني لا احاول في هذه الكلمة الموجزة أن أعطي للقارىء صورةً شفّافة عن الياس فياض ، ولا ان أجهد نفسي بتبيين اسرارِ شعره السائغ اللذيذ . . . كلاّ فأنا لا أقصد هذا ولا ذاك . . . بَيْدَ اني أريد التحدث عن قصيدة « النجوم » التي كانت ولا تزال موضوع إعجابٍ وفتنة لدى ادباءِ العربية في كلّ مكان !

وقبل ان ابدأ بحديثي أُحبُّ ان أطلع القارىء على إني أصرف اكثر أيامي ولياليّ بين الكتب . فلمطالعةِ الكتب عندي لذّة لا تعادلها لذّة في الحياة . . . ولذلك توفرت لديّ ثروة أحاديثٍ ادبية طريفة ، ثروةٌ لا حدود لبحورها ولا تخوم . . . وعلى هذه القاعدة امسيتُ واقفاً على سير الادباءِ ، ليس عند العرب فحسب ، بل عند كثير من الامم الغربية التي تتذوّقُ الادب الرفيع ، وتقدّس الفنّ والجمال !!

ولطالما عثرتُ في مطالعاتي على مآخذ ادبيّة جمّة ، مآخذ شعرية ونثرية ، فكنت امضي في سبيلي وهو سبيل الاديب الذي لا يطلب من مطالعاتهِ الاّ اللذّة الشافية وإشباع ميولهِ وعواطفهِ بروحانيّة علوية سامية . وظلّ عهدي كذلك حتى وقع بين يديّ ديوان — الياس فيّاض — وهو من أفضل الدواوين الشعرية التي اصدرتها المطابعُ العربية في مستهل هذا الجيل لكونهِ مطبوعاً بطابع يختلف عن غيره ويتهادى في موكب من الجدّة والانسجام. وقد حُرمت من هاتين الميزتين أغلب دواوين الشعر في تلك الايام

قرأت الديوان فأسكرتني قصائده العذبة وعلى الاخص قصيدة — النجوم — تلك القصيدة الرائعة المؤثرة التي قلّدها جمهور من كبار شعراء العربية في مصر ولبنان . وهؤلاء لم يقلدوها الاّ لما تحمل في ابياتها من حرقة ، هي حرقة الشاعر الظامىء المتألم الذي يعانق فجر الحياة ومساؤها في ظلال اجفانهِ ! !

وهذه هي القصيدة :

قُلتُ للنيّرات ذاتَ مساءِ أتُرى أنتِ مثلنا في شقاء
ساهراتُ الجفونِ — هل لفراقٍ خافقاتُ الضلوعِ — هل للقاء
هائماتٌ مع المجرّة تجر ينَ الى غير غايةٍ او رجاء
مثلَ سربٍ من القطا ظامئاتٍ حول ماءٍ يمُنعنَ وردَ الماءِ
أوعذارى من حولِ نعشٍ حيارى في صلاةٍ ما تنقضي ودُعاء
إنّ في لحظكِ الشجيّ حنيناً نافذاً سهمهُ الى احشائي
وأرى نورك الضئيل كدمعٍ سائلٍ من محاجر بيضاء

***

أنورٌ كئيبةٌ ام جراحٌ أنتِ في اللانهاية السوداء
أنتِ يا جدّة الخلائق ام الد هر يا ربة الهدى والضياء
أنتِ تبكين يا نجوم ؟ أجابتْ نحن في عزلةٍ بهذا الفضاء
بيننا البحر من قديم فلا يغروْ كَ منا تقارب الاضواء
كلّ نجم منا يعيش بعيداً عن أخيهِ في وحشةٍ وجفاء
محرقاً نفسهُ بغير انتفاعٍ ذاهباً نوره سدًى في السماء

***

قد فهمتُ الذي تقولين يا شهـ ـب فأنتنّ انفس الشعراء
هكذا نورُها يضيع بأفقٍ نزلتْ منهُ منزلَ الغرباء

لا ترى الانفس القريبةُ منها ما بها من توقد وذكاء
فتنير الظلام حيناً وتمضي في ثياب الخلود نحو الفناء

***

ولكنّني لم أكدْ استعيدها حتى علمتْ بأنها مأخوذة عن الشاعر الفرنسي المشهور — سولّي برودومّ — وأحببتُ ان انبه المرحوم الياس فيّاض الى هذا المأخذ الصريح فكتبتُ اليهِ رسالة لطيفة طويتها على إعجابي بهِ وعلى تبيان الحقيقة . وعلى الرغم من تقادم العهد فأنا لا أزال اذكر من تلك الرسالة جملة مقتضبة فيها جمالٌ وإغراءٌ وهي : —

اخي الحبيب الياس ،

أجتناةٌ ريشتُك الساحرة من رياض الجنّة ومعطّرةٌ بأنفاس الخلود . . . أم قنصتها من جبِ الانبياء حتى جاءت تقطّر في جراحات القلوب ما تقطّرهُ ، وتسكب على الاجفان الذابلة ما تسكبهُ ؟ فللهِ درّك من شاعرٍ حنون اذا ما أهاب بأوتار قيثارهِ مشت رعشةٌ برياض الشعر وبلابله . . . .

بعثت اليهِ بتلك الرسالة نازفاً في مراشفها عاطفةً من عواطفي المرتعشة كزنبقة الغور عندما يلامسها نسيم الاودية وهي اول رسالة بعثتُ بها الى شاعرٍ يلمعُ اسمهُ في سماء الادب اذ كنتُ انقل خطواتي ايامئذٍ بحيرة واضطراب كاني الفرخُ يهمُّ للطيران من الحوصه واهياً ضعيفاً على أني ما انتظرت ان يجيبني مبيناً لي الحقيقة . ولكنهُ اجابني رحمهُ الله بكتابٍ ضافٍ ينمُّ على ادب سامٍ وروح معذبة ترهقها اشباح الشاعرية . وهذا الكتاب لا ازال احتفظ به كأثر غال له قيمته المقدسة

اليك بعضه :

أخي !

أي نغمٍ موجعٍ مؤثر هو هذا النغمُ الذي جئتَ تسمعني اياه ؟ لقد أيقظ في صدري حلماً هامداً كنت أحسبني رقدت معه يوم ودعت الشعر وقبعت صامتاً الى ان يسمح الله بمغيب شمس الحياة

تسألني يا اخي عن قصيدتي — النجوم — وتلح عليَّ بتبيان حقيقة أمرها . لقد قلت لي انها وقعت من نفسك في العربية موقعاً الطف منها وهي في الفرنسية . لماذا لم تكتفِ بهذه اللذة قانعاً بها وحدها ؟ أما وانت تريد ان تعرف اسرارها فما عليَّ اذاً الاَّ ان احدّثك باسهاب ، وهذا الحديث يرهقني كثيراً لكوني مريضاً اليوم بداء قديم سوف لا يبارحني إلاَّ وحياتي في قبضته !

من عشرين عاماً تقريباً كنت أدرس الحقوق في باريس —باريس المدينة الشعرية الفاتنة— فعرفت فيها فتاة جميلة شقراء على جانب كبير من الثقافة والتوسع في الفنون . وكثيراً ما أنشدتني الرائع من الشعر الفرنسي . ومن بين ما أنشدتني اياه ، وكان لهُ تأثيراً عميق على عواطفي وافكاري ، قصيدة — سولي برودوم — المسماة (المجرَّة) فقد رسخت هذه القصيدة في فكري رسوخاً امتزج بقلبي وروحي

وبعد مضي زمن طويل على هذا الحادث عدت الى الاسكندرية . وفي ذات ليلة اشتدَّت عليَّ آلامي النفسية فرحت أبحث عمَّا يعزّيني . ولما لم القَ في الاسكندرية من أبثهُ مصابي بكيت متألماً !! ولم يكن امامي الاّ النجوم اشكو اليها كآبتي . فقابلت بين احتراقها في الظلام وبين احتراق نفسي الحزينة فجاشَ الشعر في قلبي . . . ولم يطلع الفجر حتى كنت أتمم آخر بيت من قصيدة النجوم

هكذا نظمت قصيدة (النجوم) وأنا أحسب أنها من توليدي . ويمكنك الاعتقاد يايوسف انني لم أكن انتظر ان أجيء على أبيات بكاملها من قصيدة الشاعر الفرنسي المجدّد ، وان نبرة تلك الفتاة الحسناء ما زالت تتردّد في مخيلتي ... ولذلك لم أقل في ديواني أنها مأخوذة !

(أخوك الياس)

***

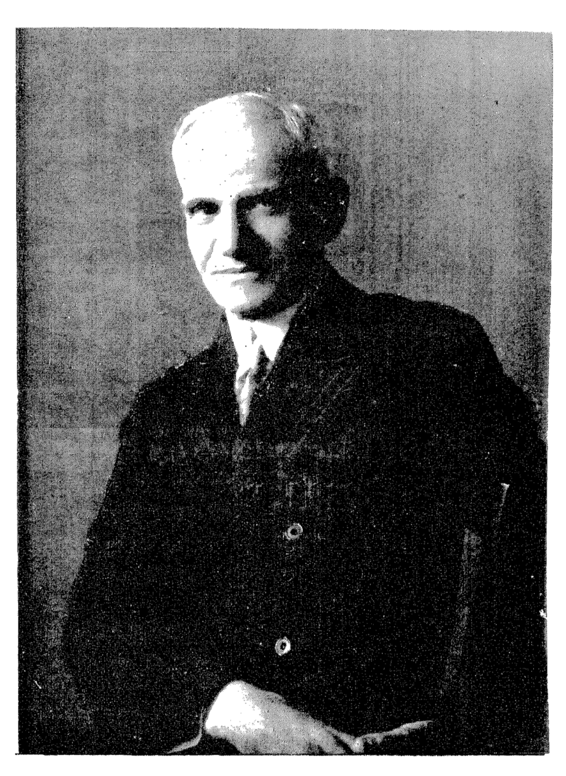
بعد شهر على تسلُّمي هذه الرسالة قرأت في جريدة كانت تصدر في بيروت تهجماً على الياس فيَّاض من قلم أحد أدعياء الادب والفن يعيب فيهِ قصيدة النجوم ويتهم الشاعر الحسَّاس بالسرقة والتقليد . لقد أذهلني ذلك التهجُّم وتلك الإغارة لكوني واثقاً بأن معارف الناقد المستتر وراء امضاء مستعار هي معارف لا تتعدّى البسيط من الادب والنقد والمضحك ان الناقد اخذ الخبر عن المرحوم الياس ذاته ثم رفع عقيرته بالسباب والشتائم ، وهي غالباً ما تكون شيمة الاديب المقصر العاري من الفن والعبقرية

ولكن الامر الذي يدعو الى الدهشة والعجب هو ان اديبنا الكبير الاستاذ امين الريحاني ترجم قصيدة النجوم الى اللغة الانجليزية دون ان ينتبه الى شيء . . . وقد لاقت ترجمة صديقي فيلسوف الفريكة استحساناً عامًّا من ابناء هذه اللغة . وذلك لان الياس فياض سكب عليها شعوره فراحت تتراهى بين انامل المترجم العبقري في حلتين ساحرتين ، حلة الشاعر اللبناني الرقيق ، وحلة الاديب الفرنسي الطريف — سولي برودوم — الذي نفخ الشعر العالمي بقصائد هي تماثيل خالبة في هياكل الارواح

الى ذكرى

الدكتور صرّوف

كان حضرة صاحب السعادة أسعد باسيلي باشا قد تبرّع بمائة جنيه للمقتطف لتوزعها جوائز أدبية على الذين يفوزون في مباراة تقترح موضوعها ، احتفاء بذكرى الدكتور صرّوف ، واجتمعت لجنة التحكيم في يناير الماضي وأصدرت قرارها (المنشور في مقتطف فبراير صفحة ٢٤٤) ورغبت فيهِ الى الواهب « ان يبقي هذا المبلغ من المال رهن عملٍ أدبي آخر رأت اللجنة ان يكون على غير أساس المباراة بأن يعهد الى كتّاب مختصين بكتابة فصولٍ في موضوعات مختلفة وان يوزّع عليهم هذا المبلغ مكافأة لهم ، ثم تقوم ادارة المقتطف بطبع هذه الفصول في كتاب تهديهِ الى مشتركيها باسم سعادة الواهب لذكرى الدكتور يعقوب صرّوف » . ويسرُّ ادارة المقتطف ان تذيع انها تلقت من سعادة أسعد باسيلي باشا انهُ مغتبط بالنزول على رأي اللجنة . وقد شرعت الادارة في اعداد المعدات لهذه الفصول بارشاد حضرات اعضاء اللجنة وستوزع مجموعتها هديةً على حضرات المشتركين



أسعد باسيلى باشا

صورة قلمية

اسعد باسيلي باشا

بقلم نقولا شكري

رجلٌ مثقف ، هادىء ، قوي الارادة ، واسع أفق التخيل شديد الملاحظة، متسعر الذكاء ، أوتي من وثاقة العقل وقوة النفس ، وشدة الطبع ، وسعة الحيلة ، ما لم يرزق كثير

تقابله فتلقى رجلاً من الطراز الاول ، في العقد السابع من العمر ، نحيف الجسم ، معتدل القامة ، متواضع السمت ، تبدو عليه مخايل الثقة العظيمة بالنفس ، والرغبة العميقة في ان يعمل دون ان يتكلم ،على وجهه الباسم النبيل الهدوء العجيب ، والرقة والحزم معاً ، يحدّثك في صوتٍ هادىء ، وبعبارات سهلة ، فيبهرك بوفرة معلوماته ، لانهُ دائم الاطلاع على الحركات الفكرية في العالم ، فلا تفوتهُ بادرة من حوادث العالم ، وقد درس فلاسفة عصره وكتّاب العظام ، من أميل زولا الى تولستوي . ذلك هو مجموع الخطوط الرئيسية التي تتألف منها صورة صاحب السعادة اسعد باسيلي باشا

وشخصية اسعد باسيلي باشا الى هذا كله فيها سهولة وفيها تعقيد ، وفيها جوانب لا تدق على الباحث ، وفيها جوانب اخرى تدق على المستقصي ، ولكنها في الحالين شخصية الجيل التي قلما تتكرر . وهي شخصية فيها ما يجتذب الاديب ، وما يجتذب الفيلسوف ، وما يجتذب التاجر ، لانها جمعت اليها الواناً من الخصائص التي اتاحت لها ان تكون جذابة ، وان تكون مؤثرة في اولئك وهؤلاء

واني — مع عرفاني البالغ بهذه الشخصية الكبيرة — لن ازعم للقراء اني استوعبتها وتناولتها من وجوهها جميعاً ، لن ازعم ذلك فما هو بالهين ان يضم هذا الفصل اليسير خصائص ، وما هو بالامر الهين ان يكون البحث وراء هذه الشخصية وليد السرعة والايجاز ، ولكني مع ذلك سأتحدث عن اسعد باسيلي الاديب والباحث والتاجر . واني لأرجو ان اكون في

دراسته موفقاً بعض التوفيق ، وألاَّ يدخل في روع احد انني أقرضهُ الثناء ، فما لشيءٍ من هذا كله أتحدث عن اسعد باسيلي ولكني أتحدث عنهُ لانهُ كما أسلفت شخصية قلما تتكرر في جيل واحد . . .

ويطيب لي ان اتناوله من مرحلة شبابه ، تلك المرحلة التي اكتملت فيها اسباب التكوين لهذه الشخصية الممتازة ، فأقول ان اسعد باسيلي لم يكن من اولئك الذين يعيشون في ظل محدود ، وفي موطن محدود ، وانما كانت له اطماع الرجل الذي انتبه الى خصائصه وفطن الى ما فيها من جلال ، وما لها من روعة ، فاتخذ منها مشعلاً لنفسه وكان هذا المشعل باهر الضوء ، رائع الشعاع . ثم كان من شأنه ان يمضي في كنف هذا الضوء وان تكون خطواته لا تعثر فيها ولا التواء

ولقد كانت مرحلة شبابه مقترنة بهذا البعث الهائل لتلك الرسالة الضخمة ، رسالة التجديد الشامل في بعض مراميه ، المتحفظ في كثير من اغراضه ، وقد تحمَّل نصيبه من ادائها أيام دراستهِ في مدينة طرابلس الشام حين كان يتولى الاشراف على التعليم في مدرسة « مار الياس » كعضو بارز في الجمعية الخيرية الارثوذكسية ويراسل امهات الصحف في بيروت والقاهرة

***

واكبر الظن عندي ان تأثير هذه المرحلة كان التأثير القوي الفعال ، فهذه شخصية أسعد باسيلي قد بدأت تغمر الفضاء الرحيب ، متجاوزة حدود مدينة طرابلس ومتجاوزة مع ذلك حدود الطلاب الذين بهرهم هذا القائد الشاب

ونحن في هذه المرحلة حيال ناحيتين : تمثل الناحية الاولى في جهاده كباحث واديب وقف حياته لهدم الركيك من القديم . ولبثّ الآراء والمبادىء الجديدة في مجلة « الجامعة » التي تولى اصدارها الكاتب الاجتماعي الكبير المرحوم فرح انطون فني وسع الذين يميلون الى مراجعة الابحاث العلمية التي كانت تنشر في أثناء النهضة الاخيرة ان يطلعوا على نخبة من الموضوعات الفلسفية التي كان أسعد باسيلي الاديب يعلن فيها وقتئذٍ رأيه في « العلم والدين » وما الى ذلك من الآراء الجريئة التي كان يجاري فيها مذهب الفيلسوف « سبنسر » ومذاهب غيره من الفلاسفة ويبني على احكامهم

وتمثل الناحية الثانية في الحقبة القصيرة التي قضاها في تجارة الاخشاب مع شقيقه المرحوم انطونيوس باسيلي في طرابلس الشام . وأنها لناحية جزيلة الاثر في حياته ، فقد استطاع بمواهبهِ ، وبأعماله الحافلة بمشاهد الصدق والاستقامة ان يوقظ في بني وطنه عاطفة التوقير لمقامه التجاري

هاتان الناحيتان — ومكانة أسعد باسيلي منهما هي مكانته — قد أيقظتا في شخصيتهِ الجوانب التي أصارتهُ فيما بعد رجلاً في الطبقة الاولى بين الرجال

واخذت شخصية أسعد باسيلي بعد ذلك تتجاوز البيئات الخاصة وتفرض نفسها على الحياة العامة من ذلك اليوم الذي أبحر فيهِ الى مصر مع مواطنه الاديب الكبير فرح انطون لاصدار جريدة يومية يبثان فيها آراءهما الجريئة ولكنهما لم يلبثا ان اختلفا على تفصيلات هذا المشروع فأفضى هذا الخلاف الى انصراف اسعد باشا عن الصحافة الى ميدان التجارة حيث برزت كفايته التجارية وأطلت على مصر من هامة الاوج . وآثر فرح انطون ان يظل في ميدان الكتابة والتأليف ويسير فيهِ الى آخر الشوط

ونعتقد انهُ لو تخيَّر اسعد باشا وقتئذٍ ان يكون ذلك الصحفي البحاثة المشتغل بالمباحث العالية لما كان أقل توفيقاً وربما كان نجاحه يعود على الجيل بنتائج شديدة النفع والاثر

***

اذن لم يسلك أسعد باسيلي سبيل العمل المادي إذ ذاك بعقلية محدودة كأكثر المشتغلين بالتجارة ، وتخليه عن سبيل العلم والادب انما يرجع الى مذهبه الوضعي وعقيدته التي لا تؤمن الاَّ بالحقائق الملموسة . على ان مذهبه الوضعي باعتباره من رجال الاعمال لم يحل دون تدينه وصدق ايمانه وهو ممن يرون « ان للدين اصولاً عميقة في الانسان لا سطحية كما يتوهم البعض وأن هناك حقيقة أساسية قام عليها بنيان الاديان »

اما فنه في الكتابة فمع انهُ كان محتفظاً فيهِ بشيءٍ من الرشاقة الاَّ انهُ اصبح مسبوقاً بطائفة من الكتاب المحدثين الذين انجبهم تطور العصر . ولكن رسائله ستبقى على الزمن لانها من صميم المثل الاعلى . . . وقد كان كاتباً منوّعاً كثير الابواب ، جم الاحاطة ، بالغ التفوق ، فقد كتب في أدق مسائل الاجتماع ، وأعمّ مسائل الحياة ، فلهُ رسائل قيمة في العلاقات الزوجية ، وبحوث أدبية شائقة . ولما تخلى نهائيًّا عن الاشتغال بالدراسات الادبية والعلمية الرفيعة ، وأقبل على تجارة الخشب ، أحرز في الزمن القصير مقاماً وثقة واتساعاً في الاعمال لا تتوافر لغيره في الزمن الطويل

***

أقبل أسعد باشا على تجارة الخشب في الاسكندرية والسوق التجارية ممتلئة بجبابرة التجار ودهاتهم . ولكنهُ لا ينقصهُ النشاط الذي يكافح بهِ ، وعرف كيف يقاوم العوامل العديدة التي تعمل على محاربة التاجر الناشىء وهزيمته ، فقد وقف وحده غير مبال بضروب النضال التي

حُشدت لمقاومتهِ ، واستطاع ان يهزم خصومه بأسلحة أشد من أسلحتهم ، تساعده في ذلك ارادة صلبة وخبرة واسعة وذكاء متوقد

وقد ظلَّ يشق طريقه بين الصفوف حتى سيطر على سوق الخشب وربما قامت وارداته مقام الضعفين من واردات سائر التجار . وحسبنا ان نعترف بأننا لا نستطيع الاشارة اليهِ دون ان نلقبهُ بملك الخشب

وبعد ، فقد تمتد الطريق وتطول أمام الذين يبتغون الوصول الى الغاية . ولكن الذين لا يكلون ولا يقفون يخلفون من ورائهم خطاً مستقيماً هو سبيل النجاح في الحياة ، هو الخط نفسه الذي يخلفهُ البطل بين الصفوف ، دليل جهاده المقرون بالفوز ، وهو الخط الذي يتركهُ في التربة محراث المزارع مبشراً بالانتاج

***

قلنا ان الطريق تمتد وتطول أمام الذين يبتغون الوصول الى الغاية . ولنضيف الى ذلك ان الاقدام رأس النجاح ، وفي أمثال الاميركيين المعاصرين ان فرضاً على المرء ان يخاطر وأن عاقبة هذه المخاطرة محمودة لانها تعلّم الجرأة ، والتاجر الجريء موفور النجاح لان لا جرأة بلا بصيرة

وما زال أسعد باشا رغم مشاغله التجارية الكبيرة يعطف على الفكر والادب . فمن عاداتهِ ان يأوي بعد الغداء الى مكتبتهِ الانيقة ليعيش فيها بين كتب الادب والاجتماع ، ثمرة أذهان جيل او يزيد تحوطهُ وتشارقهُ . فلا يحرم من الجو الذي لا يموت فيهِ الذهن ، ولا تصدأ فيهِ القريحة ، وفي هذا ولا ريب عزاء الادباء بعد اعتزالهِ اياهم

ومن الحق ان نقول ان العمل التجاري لم يمنع هذا الرجل المفكر من ان يطل على الناس الحين بعد الحين . ولم يحل بينهُ وبين عرض الصور التي تلوح في ذهنهِ على الجمهور ، واخراج ثمرات قريحته كلما رأى الفرصة سانحة والزمن مواتياً ، فقد قرأنا لهُ في العام الماضي بحوثاً طريفة في الازمة الاقتصادية بعث بها الى جريدة المقطم من اوربا وهكذا أقام الدليل على انهُ لم ينس الناس ولم ينصرف عن الجمهور شأن كثيرين من أهل الفكر بلغوا الذروة في التجارة ، او قعدوا مقاعد الحكومات ، وتولوا الوزارات والرئاسات ، فقد كان لورد بيكونسفيلد على رأس الوزارة الانجليزية فلم يمنعهُ منصبه على خطورته ان يضع ذهنه في كل مكتبة ، ويعيش في خزانة كل قارىء فبينا هو ينشىء المحالفات ، ويوقع المعاهدات ، ويرأس الوزارات ، اذ هو طارح عنهُ كل ذلك عائد الى حجرته ، ليغيب في تفكيره ، ويأخذ في وضع رواياته ، ثم نحن لا ننسى ايضاً

ان جوته كان وزيراً ورئيس بلاط دوق فيمار فما كان ذلك ليقتل فيه الروح المضطرمة في جانحته ، والنزعة الفكرية التي تتقد في فؤاده . ثم لا ننسى كذلك ادباء العرب الذين عاشوا في قصور الخلفاء ، وولوا الولايات ، فأبوا الا ان يظلوا مع ذلك ادباء وكتاباً اكثر منهم ولاة وحكوميين ...

وأسعد باسيلي باشا قد شق طريقه الى المجد باقدامه وشجاعته ، وهو قدوة صالحة لمن يبغي ان يسلك سبيل التجارة او الاقتصاد ، وهو يجمع الى مواهبه وصفاته الممتازة حبًّا للخير وللانسانية ويرى في الاحسان وسيلة تقوى بها ارادته في العمل ، وحياة الضمير في دائرة العمل المادي أقوى منها في سائر الاعمال الاخرى ، فهو أريحي كريم ، والتاجر الكريم عنصر غريب في أهل صناعته ، لان اكثر التجار يستمسكون بالاخلاق التجارية في الحياة العامة لانهم يدخلون أموالهم في الدفاتر والسجلات ولعلهم يرون خروج شيء منها ضرباً من التكلف والمشقة وفساد النظام . ولكن المبرات التي يخرجها التاجر من فضل ارباحه هي وسيلة جميلة من وسائل الزيادة فيها ومباركتها ، وانت ترى روكفلر الاميركي ملك المال ، قد كان له من ملايينه العديدة غنى عن التماس حب المساكين ، واكتساب قلوب المنكوبين في الحياة ، لان له متاجر ضخمة لا تعد وأموالاً مركومة لاتنفد

ولكن الحياة لاقيمة لها اذا خرج الانسان منها ولم يستطع ان يكتسب قلباً واحداً من قلوب هذه الارض ، ولو كان روكفلر هذا قصر عنايته على ماله وثرائه ، فلم ينشىء الملاجىء والمعاهد والمستوصفات والجامعات ، ولم يخرج من دفاتره جزءاً كبيراً مما دخلها ، لخرج هو الآخر روكفلر فقط ، ولكن روكفلر عرف معنى الحياة وأدرك قيمة المال في نفسه ، فاشترى بكل ثروته كلمة واحدة اراد ان يذهب بها الى الابد وهي كلمة « روكفلر محسن »

***

وعلى هذا المبدأ سار اسعد باسيلي فهو ينفق جزءاً كبيراً من ارباحه على الفقراء والمحتاجين واعانة الاسرات التي ادركها البؤس ، فلم يلبث ان اصبح محبوباً من الناس ، جميل الذكر بين الطبقات ، وكان من ذلك ان انتخب رئيساً للمجلس الطائفي للروم الارثوذكس المصريين ، ورئيساً للجمعية الخيرية السورية الارثوذكسية ، ووكيلاً للغرفة التجارية المصرية ، وقاضياً محلفاً بمحكمة الاسكندرية المختلطة ، ثم عرفت الحكومة المصرية مكانته السامية ، فطلبت الى مجلس الوصاية الموقر الانعام عليه برتبة الباشوية الرفيعة ، فأصدر المجلس امره بهذا الانعام السامي

وسيبقى آخر الامر ، ان أعترف اليك ايها القارىء بانني لا أعرف رجلاً أعذب حديثاً ، ولا أبعد شرًّا ، ولا أقرب خيراً ، ولا أحلى خلقاً وروحاً ، من أسعد باسيلي باشا

تقدم الري بمصر

في العصر الحديث

لمعالي حسين سري باشا

اقتطف «المقطم» ما يلي من المختصر النفيس الذي وضعهُ معالي حسين سري باشا وزير الاشغال:

تمَّ بانشاء القناطر الخيرية وضع الحجر الاساسي في بناء الري المستديم في الوجه البحري وأمكن بواسطتها امداد هذه الاراضي بما يلزمها من الماء مدة الصيف مما ساعد على تحويل المساحات الحوضية لتروى بطريقة الري المستديم وكانت مساحة الاراضي التي تزرع فيها بعض المحاصيل الصيفية لا تتعدى مليوني فدان وقت البدء في بناء القناطر فزادت بعد ذلك الى ما يربي على ثلاثة ملايين تتمتع بنظام الري المستديم ولا يخفى ما كان لهذا التوسع من اثر في زيادة مقدار المحاصيل وما ترتب عليه من ازدياد موارد البلد وازدياد ثروتها بارتفاع ثمن اراضيها وبذلك تكون الجهود المتواصلة التي بذلها المغفور له محمد علي باشا قد اثمرت وتحقق الامل الذي تطلع اليه . كذلك كان انشاء ترعة الابراهيمية الخطوة الاولى في ادخال نظام الري المستديم في مصر الوسطى . اذ لما لمس سكان هذه المناطق أثر محصول القطن في الثروة الزراعية عملوا على زراعته في بعض مساحاتهم الحوضية وكانوا يحيطون هذه المساحات بجسور تقيها طغيان الماء عليها مدة الفيضان ويرفعون ما يلزمها من الماء بالآلات اما من النيل وإما من الآبار الارتوازية . ومن ثمَّ امتد العمل جديًّا الى تحويل جانب من اراضي مصر الوسطى الى الري الصيفي فجاءت بأطيب الثمرات . ولعلنا نجد بين سطور الجدول الآتي ما يكفي للتدليل على مقدار ما جنتهُ البلاد من الربح منذ أن أدخل المغفور له محمد علي باشا زراعة القطن في مصر بازدياد مقدار هذا المحصول سنة بعد اخرى

السنة	قنطار	بالة	السنة	قنطار	بالة
١٨٢٠	٩٤٤	٢٣٤	١٨٨٠	٢٧٩٢٠٠٠	٦٩٨٠٠٠
١٨٣٠	١٦٨٦٧٥	٤٦٦٦٩	١٨٩٠	٤١٦٠٠٠٠	١٠٤٠٠٠٠
١٨٤٠	١٩٣٣٠٧	٤٨٣٧٧	١٩٠٠	٦٤٤٠٠٠٠	١٦١٠٠٠٠
١٨٥٠	٣٨٤٤٣٩	٩٦١٠٠	١٩١٠	٧٥٠٠٠٠٠	١٨٧٦٠٠٠
١٨٦٠	٥٩٦٢٠٠	١٤٩٠٥٠	١٩٢٠	٦٠٣٦٠٠٠	١٥٠٩٠٠٠
١٨٧٠	١٩٦٦٠٠٠	٤٩١٥٠٠	١٩٣٠	٨٢٧٦٠٠٠	٢٠٦٩٠٠٠

وقد بلغ محصول القطن في عام ١٩٣٦ ما يزيد على تسعة ملايين من القناطير وهي اكبر مقدار أنتجتهُ الاراضي المصرية منذ عهد ادخال زراعته الى الآن . على ان زراعة الاراضي مدة الصيف تتطلب ريها في هذا الوقت الذي تقل فيهِ تصرفات النيل ويعجز ايراده عن ان يمدها بحاجاتها من الماء لذلك كان على القائمين بامر التوسع في كل مرحلة ان يفكروا في توفير الماء اللازم للمساحات الصيفية ومن هنا عادت فتجددت فكرة التخزين وحجز مقادير من ماء الفيضان الزائد على الحاجة والاستفادة بهِ مدة الصيف وسبق ان قلنا ان أول من فكر في تخزين الماء هم ملوك الاسرة الثانية عشرة وبدت هذه الفكرة من بعدهم لمحمد علي باشا فأمر مهندسه لينان باشا بدراسة هذا المشروع

وفكر هذا في منخفض بحيرة موريس القديم غير انهُ عدل عن هذه الفكرة لما رآهُ من التكاليف الباهظة التي تلزم لتنفيذها . ثم رأى اقامة قناطر عند جبل السلسلة لتخزين الماء أمامها الاَّ ان ضعف القناطر الخيرية بعد بنائها لم يشجعهُ على المضي في تنفيذ هذه الفكرة ولقد تجددت فكرة تخزين الماء عند جبل السلسلة مرَّة أخرى ثم عاد الرأي فانحرف عن هذا الاتجاه الى منخفض وادي الريان وهكذا الى ان استقرَّ على استخدام مجرى النهر نفسه للتخزين وأخذت الحكومة في بحث هذا الاقتراح وعهدت الى لجنة من المهندسين الاخصائيين باختيار الموقع الموافق لهذا الخزان فقررت اللجنة بعد دراسة مجرى النيل بين حلفا والقاهرة — ان أنسب موقع يبنى عنده هو شلال اسوان بحري جزيرة أنس الوجود وكان تصميم السد في بادىء الامر يسمح بالحجز عليهِ الى منسوب ١١٦ متراً وتبلغ سعة الخزان عند هذا المنسوب نحو ثلاثة آلاف مليون من الامتار المكعبة الاَّ ان الرغبة في المحافظة على معبد أنس الوجود الذي يقع في حوض الخزان حالت دون ذلك واقتصر في بناء السد الذي تمَّ في سنة ١٩٠٢ على جعل منسوب التخزين ١٠٦ امتار وبذلك لم ينشأ الخزان الاَّ ليسع مليارًا واحداً فقط

وللانتفاع بماء التخزين رأى رجال الري في ذلك الوقت ان يعملوا على رفع منسوب ماء النيل عند فم ترعة الابراهيمية ليتمكنوا من اعطاء مصر الوسطى نصيبها من هذا الماء مدة الصيف . وكانت هذه الترعة تتغذى من النيل بدون قنطرة تساعد على رفع الماء أمامها للدرجة التي تكفي لامداد الزمام المترتب ريه عليها بالماء اللازم لهُ ولمعالجة هذه الحال استقرَّ الرأي على اقامة قناطر على النيل عند اسيوط وتمَّ بناء هذه القناطر سنة ١٩٠٢ وكذلك أمكن لترعة الابراهيمية ان تأخذ نصيبها من الماء مدة الفيضان والصيف دون ان يكون لمناسيب النيل تأثير كبير فيها

وفي سنة ١٩٠٣ تمت اقامة قناطر زفتى على فرع دمياط لتغذية أراضي شمال مديرية الدقهلية والجزء الشرقي من الغربية في الفترة الحرجة وقت طغي الشراقي واشتداد الطلب على الماء

وامتدت الجهود بعد هـذه المرحلة الى العناية بتحسين وسائل الري في أراضي مصر العليا التي تروى بطريقة الري الحوضية ولما رؤي ان أراضي مديرية قنا تحتاج الى تحسين حالة ريها فـكـّر في اقامة قناطر اسنا على النيل لترفع أمامها ماء الفيضان بحيث تكفي لغمر هذه الحياض وبدىء في اقامة هذه القناطر سنة ١٩٠٦ وتمَّ بناؤها سنة ١٩٠٨

ولقد جرت العادة في الماضي ان يقام سنويًّا سدان من التراب في كل من فرعي النيل أحدها بالقرب من ادفينا والآخر عند فارسكور ثم أبطلت اقامتهما في السنوات الاخيرة من القرن التاسع عشر حتى كانت سنة ١٩٠٠ حيث أعيد انشاء السدين ومنذ هذا التاريخ درجت مصلحة الري على ان تقيمها سنويًّا لمنع دخول ماء البحر المالح الى المجرى وتلوث مائه بها وللتمكن من ان تحجز أمامها ماء الرياح الذي يتسرَّب من الاراضي الزراعية للانتفاع بهِ في الري عند اشتداد الطلب. ويبدأ العمل عادة في انشاء السدين في ديسمبر ويتم قفلهما في أواخر فبراير او أوائل مارس وتختلف هذه التواريخ باختلاف تصرف النهر الطبيعي ويبنى حسابها على قاعدة قفل السدود قبل التاريخ الذي يجب ألاَّ تمر بعده قطرة من ماء النهر الى البحر او بمعنى آخر التاريخ الذي يقابل البدء في تفريغ خزان اسوان ويستمر كل منهما قائماً حتى يقطعا عند حلول ماء الفيضان في يوليو او أغسطس

ولقد دعت قلة الايراد الذي أتت بهِ السنون الشحيحة في اوائل القرن الحالي الى إعادة التفكير في تخزين مقادير أخرى من الماء واتجهت الانظار الى خزان اسوان للعمل على رفع منسوب التخزين بهِ لعله بذلك يسد النقص في الايراد الطبيعي للنهر عن احتياجات الاراضي الزراعية. وانتهى هذا التفكير الى البدء في تعلية خزان اسوان الاولى التي تمت سنة ١٩١٢ وأصبحت سعة الخزان بعدها حوالي ٢٥٠٠ مليون متر مكعب وقد استخدمت كمية الماء الاضافية في تحسين حالة الري وفي التوسع في جانب من الاراضي البور في الوجه البحري ولما تم الانتفاع بهذه الزيادة كانت مساحة الاراضي المنزرعة بالدلتا ٣،٣٠٥٠،٠٠٠ فدان ومساحة الاراضي التي تروى ريًّا مستديماً في مصر الوسطى ١،٠٥٠،٠٠٠ فدان وبذلك يكون قد أمكن الانتفاع بماء التخزين كله عند اسوان في استصلاح نحو ٣٠٠،٠٠٠ فدان من اراضي الدلتا وفي تحويل حوالي ٤٥٠،٠٠٠ فدان من حياض مصر الوسطى الى الري الصيفي. وفي سنة ١٩٣٠ تمَّ بناء قناطر نجع حمادي على النيل في وسط المسافة تقريباً من قناطر اسنا الى قناطر أسيوط وذلك لضمان الري الحوضي في مديرية جرجا ولامكان تحويل الاراضي الحوضية بمديرتي اسيوط وجرجا الى الري المستديم بعد اتمام اعمال التخزين. وتمَّ حفر ترعتين تأخذان من امام هذه القناطر أحدهما بالبر الايسر للنيل وهي ترعة الفؤادية والاخرى بالبر الايمن وتسمى ترعة الفاروقية

حديقة المقتطف

رولا

من أروع قصائد الفريد دي موسيه

ترجمة فليكس فارس



رولا

من أروع قصائد الفريد دي موسيه

ترجمة فليكس فارس

تمهيد

إنَّ الفكرة والبيان لعزيزان على كل كاتب ، وقد تكون غيرته على بيانهِ أشدَّ من غيرتهِ على تفكيره ، والكاتب يبدي آراءهُ وأحكامه أقوالاً في كل مجال فلا يلوي عليها في حين ان صفحةً تدبجها يراعته تسقط عن شخصيتهِ سقوط الجنين عن أحشاء أمهِ ، فكل ذي بيان حريص على بيانه حرص الحياة على مظهرها ، وما تدرك الحياة نفسها الاَّ على معاكس شخصيتها

إنَّ في بذل البيان لتفكير الغير كثيراً من التضحية لكاتب اندغم تفكيره في بيانهِ ، لأن هذا البذل يستلزم إقامة حاجزٍ بين القوة المبدعة مما كمن فيها تذكاراً وتنسيقاً ، علماً بالاستقراء وعلماً بالحس الباطن ، وبين قوَّة التعبير تصويراً وتلويناً وتنغيماً . وفي هذا الفصل من الجهد ما لا يدركهُ الاَّ من يعانيهِ . ولا يعاني هذه المشقة كل من يقتحم الترجمة اطلاقاً ، فان من الترجمة ما لا تتعدى الاقتدار على النسخ وليس هذا النوع ما نعني ، فالمترجم الذي ينقل عن لغات الغرب كتاباً يبحث صناعة او مسألة اقتصادية لا يكون عملهُ اذا هو امتلك ناصية اللغتين الاَّ عبارة عن كتابة ما سطَّرتهُ الريشة من الشمال الى اليمين بكلمات يخطها القلم من اليمين الى الشمال ولمثل هذا العمل قيمته ولا نكر غير انهُ جدٌّ بعيد عن مجال البيان الأدبي ، وليس فيهِ غير أثر الجهد والاطلاع والدقة اذ لا يمكنهُ ان يتضمن أشياء من شخصية المترجم الادبية

شتان اذاً بين من يترجم ومن يسلخ انشاءه عن تفكيره ليكوِّن هيكلاً سويًّا من البيان تحتله روح مؤلف مبدع فنان

لك ان تعهد الى اي مهندس شئت بان ينقل لك خارطة مهما تعددت خطوطها

وتشعبت تعاريجها ، فانهُ ليستعين بالمسطرة والبركار فيأتيك بنسخة عنها لا تفرق عن الاصل بشيءٍ ، ولو عهدت الى عشرة مهندسين بهذا العمل لأتاك كل واحد منهم بنسخة لا تفرق عن نسخ الآخرين . ولكنك لن تصل الى النتيجة نفسها اذا أنت عهدت الى رسامين اثنين برسم صورة انسان او حيوان او زهرة أو منظر من مناظر الطبيعة . ذلك لان رسم الجماد يستلزم العمل بصناعة ثابتة الاصول ورسم ما تتجلى فيهِ الحياة يستلزم العمل بالفن ، وما الفن الا قوة متغلغلة كالحياة نفسها في أعماقٍ يجهل الفنان نفسه أغوارها

ناقل المعلومات الوضعية والقصص والاحاديث العادية من لسان الى لسان مترجم كلمات بكلمات أما ناقل البيان الفني والشعري ففنان وشاعر يعبر بيانه بلغته ويتنازل عنهُ لتفكير عبقري يستحق أن يُسكت الناقلُ تفكيرَه أمامه ويطوي لديهِ شراع خيالهِ والهامه

وبعد ، فهذا تعبير بالعربية عن قصيدة من أروع قصائد الفريد دي موسه ان لم تكن اروعها جميعاً ، تصبَّتنا بالهامها وفنها فاقتحمنا ايرادها بالعربية ناثرين نظيمها معرضين عن قوافيها ، اذ لو اردنا تقييدها بالنظم العربي لأضفنا الى غموض الاصل غموضاً آخر يُبعد الشقة بين إلهام موسه وبيانه ، ونحن باعتمادنا النثر كنا اقرب من الشاعر نفسه الى إلهامهِ وشاعريتهِ

لاح لبعض كبار كتّابنا ان لا فائدة من ترجمة الشعر لانهُ قائم على عناصر لا يمكنها اجتياز حدود لغتها للدخول في حدود لغة اخرى ، ونحن مع اعترافنا بما للنظم من ميزة لا نعتقد ان الوزن والقافية هما اهم عناصر القصيدة بل قد تتضاءل قيمتهما حتى ليصبحا في حكم المعدوم في القصائد التي يسودها الشعر العالي وروعة الموسيقى الفنية في إحكام ألفاظها . فانك لو قرأت لموسه صفحة من انشائهِ المرسل لتحس بالهزّة نفسها التي تستولي على مشاعرك حين تقرأ أجمل قصائده

وهنالك ظاهرةٌ أخرى تدلك على ان ما يشجيك من سماع القصيد ليس موسيقى الساكن والمتحرك في التفاعيل او (التكّ والتمّ) بتعبيرٍ آخر بل هو انتظام الالفاظ في سلك البيان وتلاؤم النبرات ، وهذه الظاهرة تتجلى لك في طريقة إنشاد

الفنانين للشعر فهم لا يقرأونهُ سواءٌ أعربيًّا كان ام أفرنجيًّا على الطريقة القديمة التي تدخل التفاعيل الى الاذن كانها نقرات الدفوف بل يلقونهُ بالمد والقصر تبعاً لموسيقى النثر الكامنة في النظم متجاوزين حدود القوافي ليشعروك بروح القصيد دون تقاطيعه

ولو انك سمعت ملقياً من كبار فناني الفرنجة ينشدك قصيدة فانك لا تميّز لاول وهلة هل ما يلقيهِ من المنظوم او من المنثور

لذلك لا نرى ما يراه البعض من الاستغناء عن ترجمة القصائد الخالدة من اللغات الاجنبية الى العربية بحجة انها تفقد ميزانها وروعتها ، فاننا نرى بالعكس ان المترجم اذا ملك ناصية البيانين يمكنهُ ان يزيد في جلاءِ القصيدة وجمالها بتوجيه موسيقاها ومراميها توجيهاً اقرب الى الفن المطلق من توجيه المؤلف نفسه . لان المؤلف الناظم قد اكرهتهُ الاوزان والقوافي على مجاراة قيودها

ان الفريد دي موسه لأقدر من تسلط على الالفاظ فانقادت له بأوزانها وقوافيها ، ومع ذلك فقد رأيناه في قصيدته (رولا) يضطر احياناً الى الانقياد لاوزانه وقوافيه فتتحكم بإلهامه وتجره الى ترسّمها بخطوات تخرجه عن سبيله ، وكنا نحن غير مقيدين الا بفكرته وعواطفه وأسلوبه ، فأمكننا ان نرجع خطواته التائهة الى مواقعها وما نحتاج الى مثل هذا الجهد عندما نترجم من نثره ونثر غيره من أرباب الفن الخالدين

ويلوح لنا ان اللغة العربية بما فيها من مرونة والفاظ موسيقية أليق من اية لغة باستيعاب فنون الامم جميعاً ، ذلك لاننا نقرأ ما يترجمهُ الفرنجة عن لغاتهم وعن لغتنا ونشعر بتمرّد الاصل يغالبهُ المترجم فلا يتوصل الى دمغهِ بطابع لهُ . وما نشعر بمثل هذا القصور عند ما نطالع ترجمة كبار كتابنا

لقد حاولنا ان ننقل قصيدة رولاّ فأعرناها بياننا واذا كان توفيقنا لم يتعد حدود اقتدارنا ، فحسبنا اننا اقتحمنا مسلكاً غير معبَّد لن يصعب على عباقرتنا تذليل صعابه

الاسكندرية ابريل ١٩٣٨ فليكس فارس

رولا

مهداة الى محمود تيمور

— ١ —

أيشجيك الزمان الذي كانت الارض فيهِ مسرحاً للسماء فتغصّ بطغمات الآلهة: آلهة الاساطير ، حين نفرت الزهرة من احشاء الغمر وهي تنفض بلل دموعه وتثبّ ناقصة ضفائر شعرها لتُمرع الدنيا بلواقحها . . .

أيشجيك الزمان الذي كانت فيهِ الحور الهائمات تداعبنَ شعاع الشمس طافرات بين ازاهر الغدران متحرّشات بأرباب الحقول المتراخين تحت ظلال الغاب ، حين كانت الينابيع ترتعش لقبلات الاله الذي انقلب على ضفافها نرجساً نديًّا ، بينما كان هرقل الجبّار المدثر بعباءته الدموية يمد على الارض وارف عدله ، وبينما كان آلهة الغابات يطلّون من بين أغصان السنديان الخضراء المتأودة ويرددون أغنية السابلة بأصداء الصفير .

ذلك زمن كانت الألوهية فيهِ تتغلغل في كل شيء حتى في صميم آلام الناس ، فكانوا يعبدون ما ينحرون في هذا الزمان .

ذلك زمن كان له اربعة آلاف إله ولم يكن فيهِ جاحد واحد : زمن تمتع فيهِ الكل بالسعادة فما حرم منها الاَّ (بروموته) شقيق ابليس الهابط بهبوطه .

لقد مضى ذلك العهد فتبدلت السماء كما تبدلت الارض والانسان ، فاذا مهد العالم يستحيل له لحداً ، وقد هبت أعاصير الشمال على انقاض روما فكفّنتها بأوشحتها السوداء .

***

أيشجيك الزمان الذي توارى فيهِ عصر البربر مخلّفاً عصراً ذهبيًّا شهد العالم القديم يصدع لحده ليهبَّ حين هبّ العازار من قبره مطلاً على الدنيا وقد التمع جبينه بأنوار الشباب

ايشجيك الزمان الذي كانت اغانينا القديمة فيهِ تنشر اجنحتها الذهبية لتجول في آفاقها الساحرات ، حين كان كل ما لنا من صروح ومعتقدات يتشح بياض البكارة والطهر حين كان كل شيءٍ يُبعث من لحده بعد ان بسط عيسى عليهِ راحتيه ،حين كان بيت الكاهن وقصر الامير يرفعان كلٌّ على جبهتهِ صليباً يمد بذراعيهِ الى الآفاق ؟

أيشجيك زمن كانت فيهِ بيعة السيدة في كولونيا وبيعة الحواري بطرس في ستراسبورغ تتنصتان كأنهما اكوام صخور جاثمة في خشوعها الى اناشيد الشعوب تسبح الله مستقبلة طلائع العصر الجديد ؟ ذلك زمان كان للحياة فتوتها فيهِ وكان الموت فيهِ راسياً على الرجاء .

***

أي ، عيسى ، ما انا ممن تحملهم خطواتهم المرتعشة الى معابدك لتأدية فروض الصلاة . لست ممن يتسلّقون مرتقي الجلجلة لينطرحوا امام صليبك مقبلين اقدامك الدامية ، انا ممن يلبثون وقوفاً امام ابواب هياكلك المقدسة ، بينما تهبّ المدائح على جماعات المؤمنين فتلويهم كما تلوي الرياح متأودات الغاب ، فيترامون على الركب متمتمين كلمات التسليم لمشيئة الله

أنا لا أؤمن بكلمتك ، أيها المسيح ،وما أنا الاَّ قادم متأخر يقتحم عالماً تجاوز حد الهرم ، وهل يلد جيلٌ لا امل له الاَّ جيلاً وقحاً لا خشية في قلبه ؟ لقد أقفرت سماء هذا الزمان فأفلت كواكبها ونجومها وما يسود الاَّ الصدف العمياء على من انتقضوا من اوهامهم وهم يندفعون شتيتاً مروّعاً على مراكض الاشباح

إن الروح القديمة تهبّ على ردوم العالم مشوّهة ما في السماء من اجناد قاذفة بهم الى أعمق الاغوار

لقد تخلخلت مسامير صليبك تحت مستندك عليهِ ، وزلزلت الارض تحت جدران مدفنك ،فأين مجدك ايها المسيح . ان مُجسَّمك قد استحال رماداً على صلبا تنا السوداء ..

***

أستميحك ايها السيد أن أضع قبلة على هذا الرماد ، انا ابن هذا العصر الجاحد ، دعني أسحّ دموعي على هذه الارض الباردة التي وهبتها الحياة بموتك وها هي ذي صائرة بعدك الى الموت

من سيعيد اليها حياتها ، وقد كنت احييتها بدمك الطاهر . من سيأتي الى العالم مرة اخرى بما اتيت به ، من سيعيد الينا الشباب نحن ابناء الامس المثقلين بأوصاب الشيخوخة والهرم . وحال العالم اليوم كحاله يوم ولدت وهذا الجيل يتوقع ما توقعهُ ابناء عهدك ، على ان ما فقدناه نحن قد تجاوز ما فقده الاولون

إن العازار هذه الازمان مسجّى في قبره الفسيح ، فأين المخلّص يدحرج الحجر عنهُ ؟ اين الحواري بولس الشيخ يقف كما كان يقف بين ابناء روما حين كانت عيون الشعب معلقة بأطماره ؟

اين نحن من علية العشاء السري ومن سراديب أوائل المؤمنين ؟

من منا يحمل هالة النور على جبينه . وعلى اقدام من ستنكسب عطور المجدلية ؟

في أي جوٍّ سيصدو الصوت الخفت لأصوات البشر ، من منا سيرقى مرتبة الالوهية ؟

لقد عادت الارض الى هرمها وقديم انحطاطها فهي ترتعش اليوم كما ارتعشت حين ظهر يوحنا في الصحراء وهتف هتفتهُ القدسية ، غير ان الارض المحتضرة احست في ذلك العهد بالمخاض لندائهِ وتحرك في احشائها عالم جديد

أفليس عهدنا كعهد كلوديوس وطباريوس ، وقد أخلق الدهر كل شيء وارتوى كيوان من دماء ابنائه . لقد تعبت الانسانية من توليد الآمال ، وهذا ضرعها يتدلى خاوياً لكثرة ما أرضعت فهي الآن ساجية تطلب الراحة في عقمها

— ٢ —

وكان جاك رولاً أضلّ فاسق في باريس : في المدينة المجليّة بين مدن العالم باندفاق رذائلها وابتذال فحشائها. وما لاح بين اعمدة مواخيرها ولا أنارت مصابيحها الخاسئة ولداً عربيداً كرولاً على موائد ميسرها وولائمها

وما كان لرولاً من قائد غير شهواتهِ وقد أسلم لها زمام حياته وهي تنساب أمامه طليقة كقطيع نام عنهُ راعيه ، فأصبح يتطلع الى ايامه كوسنان ينظر الى ذاهبات الماء في الغدير

وانحصرت حياة رولاً في شهواتهِ فاستقرت في جسده كنزلاء فندق سادهم السكر يتلهون تارةً بتخديش الجدران وتحطيم الأسرة متناوشين في الظلام متمازقين

كالجآذر والمصارعين ويتجمعون تارةً متعاطين الكؤوس متناشدين كسرب اطيار دفعتهم الرياح الى شجيرة مزهرة في أرض قاحلة

وكان والد رولاً وهو من صعاليك البلهاء ربى ولده تربية من سيرث ميراثاً ضخماً وقد تنامى انهُ بدَّد هو نفسه اكثر من نصف ثروته

ووجد رولاً نفسهُ في ليلة من ليالي الخريف سيداً يتولى زمام نفسه وهو لا يحسن صنعة ولا يعرف فنًّا ولو انهُ أحسن اي عمل لما أطاق القيام بهِ ،وهل يحمل نفسهُ مشقة من يرى السعي للرزق جديراً بالخدام ، ومن لا يقابل الناس إلاَّ بابتسامة لا يعرف احد الاَّ معناها ؟

وذهب رولاً يتمتع بالزهيد الباقي له إرثاً عن أبيه محتفظاً بغرور السيد لاعتقاده بأن الله قد ابدعهُ سيداً

***

قيل ان هرقل جلس يوماً وقد تعب من جهوده في عمله الابدي على مفرق طريقين تناديه الفضيلة من أحدهما وتراوده ملذات الفسق من الآخر فاتبع الفضيلة إذ لاحت له أبهى وأجمل من الملذات

ذلك زمان كان فيهِ قبحٌ وجمال أما الآن فلا جمال لا في الخير ولا في الشر، وليس لهذا الجيل ان يقف مشككاً حائراً بعد ان سبقتهُ أجيالٌ اختطت لها جادتها الكبرى بين طريقين اندثرت معالمهما حول المسلك الجديد . . .

وما كان رولاً وهو يتبع هذا المسلك في العشرين من عمره الاَّ مقتفياً خطوات من تقدموا عليهِ من آبائهِ

***

ما يستقبل انظار الداخل الى المدن الاَّ مجازرها وأسوارها ومدافنها ، وهكذا من يتجه الى المجتمع لا تلوح له عند اقترابه منهُ الاَّ نفاياه ، فالطهر والعفاف محجبان في حين ان الرذيلة والابتذال يتعانقان أمام عين الشمس . وما يرحب الناس بابن جلدتهم اذا هو تقدم نحوهم شاهراً النصل القاطع الذي وهبتهُ إياه السماء ليدافع بهِ عن نفسهِ فهم لا يفسحون له مجالاً إلاَّ اذا غمس هذا النصل أولاً في نهر الضلالة والاقذار . . .

وكان جاك صريحاً جسوراً رائع الجمال يأنف من الانطباع على الحياة ولا يعرف له آلهاً غير الشمم ، عاش ثلاث سنوات مخصصاً لكل سنة كيساً من الذهب، فلم ترَ الارض من مشارقها الى مغاربها آدمياً مثله ُ ينثر احتقاره على الشعوب وأسيادها

مشى رولاً بنفس عارية في مساخر هذه الحياة معربداً صاخباً يجرّ اذيال غروره فما جهل احد انهُ بدَّد جميع ما يملك في سنواته الثلاث ، وكان الناس ينظرون اليهِ مبتسمين فيعلن لهم انهُ أعدّ قذيفة يلهب بها دماغه حين ينتهي بهِ شوطه الى الاملاق

وكان هذا الفتى الجموح ابيّ النفس ساذجاً كالاطفال عطوفاً كالاشفاق عظيماً كالامل لا يبالي بالدهر ولا يحسب لهُ حساباً وهو يعتقد انهُ مدّرع للحادثات زرداً لا يفنيهِ الزمان

***

عندما يشرد فرس القفر الجموح في الصحراء وتمر الايام تبتليه بالسعّار القاتل يتطلع عبثاً الى السماء متوقعاً منها رذاذاً يبلل النخيل المقنّع بالغبار وقد تدلت اغصانه من وهج السماء المشتعلة كأنها غدائر النوادب ، فيذهب مفتشاً على الآبار وقد نزحتها ألسنة النار ، وتلوح له الآساد منطرحة على الصخور تعج بالأنين وقد هدّ قواها الظمأ ، عندئذٍ يغرس الفرس منخريه الداميتين في الرمال ، والرمال المحرقة تمتص دماءهُ فينطرح على الغبراء وينطفىء النور في عينيه فتدور بهِ ذرات الرمال الصفراء لتلفه بأكفانها الصامتة ابداً في طيها ونشرها

***

لو علم هذا الفرس ، عند ما مرت بهِ القافلة قرب الساج ، انهُ باستسلامه لحداة اليبس واقتفائه آثارهم ينجو بحياته لكان ادلى بعنقه وكبت جموحه فوجد في بغداد معالف القضب الندي المزهر وآباراً لا يدرك الطرف غورها

***

اذا كان الله قد جبلنا من طينة واحدة ، فلا ريب انهُ انشأ من صلصال غريب من يشبهون العقبان بتمردهم ولعله التي بخزفهم ليجف تحت اشعة شمس لاذعة ، فجاءوا الحياة بأجنحة لا تلوى ورؤوس لا تنخفض ، فعاشوا في الدنيا وما امتلكوا منها الاّ كلمة الحرية

— ٢ —

أعلى ثلج أم على دمية من رخام يتلاعب اشعاع المصباح الذهبي على الستائر الزرقاء المتهدلة فوق السرير ؟ لا . . ليس للثلج ولا للرخام مثل بياض هذه الطفلة النائمة تتردد انفاسها كالنسيم المهوّم على اعشاب البحار

هي طفلة ما مرّ بها الاّ خمسة عشر ربيعاً ولما تضخ انوثتها بعد . والملاك المنعطف عليها يرتاب فيها فلا يدري اهو اخوها أم هو عاشق لها .

لقد انفرط شعرها على جسمها فكان له دثاراً وهي قابضة على صليب عقدها كأنها تُشهد الليل على انها رفعت الى الله صلواتها قبل استسلامها للكرى وانها ستكرر هذه الصلاة عند ما تفيق مع الضحى .

***

لقد استغرقت في نومها وتألق جبينها بهالة النبل والطهر فكأن السماء قد اغدقتها رذاذاً من العفاف الأعلى .

هي نائمة عارية وراحتها مبسوطة على قلبها ، فيا لروعة هذا الجمال هابهُ الليل فارتعش وشاحه الاربد أظلالاً يداعبها النور فترتد الاظلال خاشعة عن هذا الجمال

***

يا لأنفاس هذه العذراء تورث الرهبة كأنها صدى خطوات عابد خاشع امام هيكله .

في الغرفة ازهار ليمون ناضرة ، ونول وكتب ، وعلى الحائط غصن مقدس يتدلى حزيناً فوق صليب قديم ، فما اطهرك يا رقاد الطفولة وقد القت اليك السماء بدرع الجمال ، وهل عاطفة الطفولة الاّ صلاة خاشعة كأنها محبة الارواح .

أفما يشعر من يتقدم الى هذه الطفلة الراقدة بأن فوق سريرها ملاكاً يرتعش جناحاه وهو ساهر عليها

***

أهي امك ايتها الفتاة ، هذه المرأة الجالسة قرب سريرك تردد انظارها على الساعة النابضة وعلى الموقد المستعر ، فتنتفض بذاهب صبرها من حين الى حين .

ماذا تراها تنتظر في مثل هذا المزيع من الليل ، وعلى م تنهض لتعاين بابك وشرفتك ، اذا كانت هذه المرأة أمك ، فمن تنتظر غير أبيك ، وأبوك قد مات منذ زمن طويل .

لمن هذه الكؤوس وهذه المائدة وما عليها من الطعام ، لمن أُشعلت هذه الشموع ومن هو القادم يا ترى ؟

ليأتِ من يشاء ، فأنتِ مستغرقة في رقادك ، ولست أنت الخليلة المهيأة للعاشق المنتظر . ومن يجسر ان يتلفظ بالغرام أمامك وهذه أحلامك مشرقة بأنصع من ضياء النهار في ظلمة ليلك

لمن هذا الدثار تمسح المرأة الساهدة عنهُ ما علق بهِ من أمطار وأوحال

انهُ لدثار صغير فهو اذاً دثارك ، يا ماريا ، وهــذه آثار البلل على شعرك ، واحمرار التعب على خديك . فأين كنت ذاهبة تحت العاصفة في هذا الليل

لا . . . ان هذه المرأة ليست أمك

***

سكوتاً . . . ان ما وراء الباب أصواتاً خافتة ، وقد لاح من فرجة دفتيهِ نساء نصف عاريات تشعثت غدائرهن وهن ينزلقنَ انزلاقاً في السرداب المظلم

في الغرفة المحاذية مصباح تتضاءل أنواره على كؤوس متساقطة فوق الخوان المضرج بثمالات الخمور وعلى نفايا ما تمتعت بهِ الفحشاء

أُغلق الباب وتعالت من ورائهِ قهقهات مروعة

***

انها لاشباح أحلام ، يا ماريا ، فكل شيء يرقد حولك بسلام ، وهذه المرأة الساهرة قربك هي أمك ، وما يبق حولك الاَّ عرف الازهار ، وليس على شعرك الاَّ بلل الزيت المعطر وما احمرار وجهك الاَّ تورد من دماء قلبك

سكوتاً . . . لقد قرع الباب ، وأقلق سكون الظلام وقع أقدام تطأ الدهليز ، ولمع نور جسّاس يتقدَّم شبحين

هذا أنت ، يا رولاً . . . ما ذا أتيت تفعل في هذا المكان

***

أي فوست . . . أفما كنت مستعدَّاً لمبارحة الارض في تلك الليلة المفجعة حين تقدَّم اليك الملاك المطرود من الجنان ملفعاً بدثاره الناريّ يحملك ليجول بك في أبعد الآفاق

أفما كنت قذفت بلعنتك الأخيرة ، وضربت بعرض جدرانك المتهدمة جبينك

المجد بنضون ستين عاماً ، حين سمعت من بعيد نبرات الاناشيد المقدسة فارتعشت والسموم تجول على شفتيك والموت بواكبك وأنت ترتكب الكبائر حتى وصلت الى آخر مرحلة من انتحارك البطيء ، فانفجر قلبك وقد أخلقهُ الزمان كما يتفتق الصخر من لوافح الحر أيام الصقيع

لقد كانت دنت ساعتك أيها الشيخ، وكنت تواجه الفناء بلحيتك وقد رعى سوادها المشيب وهزت الحياة جذورك لتقتلعها ، فاذا بملاك الموت يقف حائراً بك ، حين قطرت من ساعدك النحيل قطرة من دمك تريقها كعهد لابليس ليردك الى الدنيا

يا لهُ من نسيم بليل مرَّ على رأسك المجلل بالبياض ، أي فوست ، عند ما قضى لك ان تعود الى الدنيا لتتعلق بأهداب طفلة في الخامسة عشرة من ربيع الحياة . . .

***

خمسة عشر ربيعاً ، هو عمر جوليت ، اي روميو ، عند ما كانت قبلاتكما تمازجان مع نشيد القنابر ذاهبة معها على أجنحة النسمات

خمسة عشر ربيعاً ، هي شجرة الحياة في الواحة المخضلَّة بين كثبان الرمال

خمسة عشر ربيعاً ، هو عمر حواء عندما نشأت من راحة الله فأودعها خلود الاجيال

لقد كنت زهرة الجنة ، أيتها المرأة الاولى ، فعراك الذبول وقادتك الخيانة الى الحرمان . لقد كان سيدك خالداً فأوردته الموت وما تناقص حبك لهُ ، ولئن أعيد اليكِ جنانكِ ، فلن تترددي في اضاعته مرة ثانية ، لأنكِ تعلمين ان من يعبد الرجل هو انتِ ، وأنتِ تريدينهُ طريداً منفيًّا لتكوني عزاءه في شقائهِ وموتهِ

***

وألقى رولاً بنظراتهِ الكئيبة الحاسرة الى ماريا المنطرحة على سريرها المديد، فارتعش كأن قوة سرية راعتهُ فهزتهُ هزًّا

ان ما سيؤديه لقاءَ تمتعهِ ليلة واحدة بماريا لمبلغ جسيم وقد اضطر الى بذل آخر دنانيره في سبيلها ، وكان اصدقاء رولاً عارفين بما اقدم عليهِ وقد اعلن لهم قبل مبارحتهم ان احداً لن يراه بعد حين يشق الضحى ظلمات هذا الليل

لقد مرت بهِ السنوات الثلاث وهي خير مراحل شبابهِ ، ثلاث سنوات مليئة بالملذات والعربدة والسكر ، مرت كحلم وتلاشت تغاريدها كألحان طير عبر في الفضاء وتوارى

انها لآخر ليالي رولاً هذه الليلة ، ليلة الموت التي تنطبق فيها شفتا المحتضر على آخر توسلاته ، وتغتفر فيها الروح كل شيء اذ ترى كل شيء يتقرب الى الحق حتى ليكاد يندغم فيه . ورولاً قد جاء يقضي ليلتهُ الاخيرة هذه بين احضان فتاة ساقطة، على سرير طفلة تنتظره كغصن ذابل يترامى على نعشهِ المفتوح

يا للاختلال الابدي ... يا للجريمة تدفع بالطفولة الى مهاوي الفحشاء . . .

أفما كان خيراً لهذا الجسم الضعيف الصغير المستسلم للدعارة ولا من يدافع عنهُ ان يتناوله منجل الحصَّاد فيبتره بتراً وان تمد يد الى عنقهِ فتفكك عظامهُ فكًّا ؟

أفما كان خيراً لهذا الوجه ان يُطلى بالجير ويُشد فوقهُ قناعٌ من حديد من ان تجيء الفحشاء فتحوله الى غدير صاف تنعكس على سطحهِ الازهار ونجوم السماء وفي قعره قطرات الغسلين ؟

***

يا لهُ من جمال يغالب القبائح فيبقى جمالاً . . ويا للكنز المهتوك . .

أية قبلة غرام تهيم على هذه الشفاه . وأية أثمار تتهيأ للانعقاد على هذا الاملود تهب عليه نسمات السماء بل أي لهب يكمن في هذا المشعل الطاهر تراوده لوافح الفحشاء

***

أيها الفقر ! . . ايها الفقر ، انت هو القوَّاد الذي ألقى على هذا السرير بهذه الطفلة التي كانت اليونان القديمة ترفع امثالها الى هيكل (ديانا)

لقد أدت فرض صلاتها قبل ان رقدت امس، ولمن وجهت هذه الصلاة ،يا لله ! .

أفما كان الاولى بها ان تركع امامك أيها الفقر لاجئةً الى رحمتك متوسلة اليك .

أفما انت من جاء ذات ليلة مع عاصفات الرياح مقتحماً الإعوال الساهد في المسكن الحقير لتقول للأم (إن ابنتك عذراء ورائعة الجمال، والبكارة تباع والجمال يباع)

أفما انت من غسل هذه الطفلة ، ايها الفقر ، وأرسلها الى المهرجان ، كما تغسل الاموات لتدرج في الاكفان ؟

أهي أم أنت ، ايها الفقر ، من التفَّ بالدثار الصغير وتراكض تحت لمعان البروق قاصداً باب العهر والابتذال .

من يدري، لو أنك جدت عليها بالرغيف، اين كانت ستلقي ماقدر لها على غير هذا الباب

ما كان هذا الجبين الناصع جبين فتاة لا حياء فيها . وما كان لهذا القلب الطاهر ان ترعاه جراثيم الفساد وهو يستقبل شفق الحياة

ويلٌ لهذه الطفلة تدفع الى مهب العواطف المضللة الجامحة وعاطفتها لما تزل راقدة لقبوها بماريون وهي ماريا.. والقوا بها الى هاوية الفحشاء ، وماغرّها لمعان الذهب ولا استهوتها حياة الاغنياء ، انها بائسة لا تطلب الا قوتاً وما تستسلم تحت هذه الستائر المروعة على هذا السرير ، سرير العار الا لتعود الى أمها بما جنته من عذابها عليه ...

***

أين شفقتكن ، يانساء المجتمع ، المرسلات احتقاركن في العيش المرح على كل من لا يتمتع بما تمتعن به من حبور ورخاء ؟

أين شفقتكن ، ايتها الامهات ، الموصدات الابواب على البنات في الخدور والساترات العشاق تحت أسرة الازواج . ؟ .

إن عشقكن ذهبي الاحلام تنفخ الحياة فيه جامحات الخيال

ولكم فيكن من تباهي بمثل هذا العشق لانها ليست معروضة بين البائحات اعراضهن لمن يشاء ، ان مثل هذه المرأة لم تشهد شبح الجوع يتقدم ليرفع غطاء سريرها منشداً طروباً يلصق شفتيه على فمها متقاضياً قبلة لقاء كسرة خبز . . .

***

ايها الجيل ، اتراك ذاهباً في ما تيك ذهاب الاجيال المنصرمة قبلك تندفع كالنهر الصاخب حاملاً جثثاً عائمة على مجراك مترامية الى بحر السكون ، في حين أن هذه الارض الهرمة تشهد هذه المآسي بين الولادة والموت فتستمر دائرة حول الشمس دون أن تتجاوز مدارها لتصعد نحو خالقها شاكية اليه هذا الشقاء

***

لك اذاً ، أيتها المومس الجميلة ان تهبي وتمزّقي ستر نهديك ، فالخمرة تشع متدفقة في الأكواب ونسمات الليل تهز متهدلات الستائر وقد لاح ارتعاشها في مرآتك

انهضي انها ليلة رائعة بذلتُ لها ما تستحق من ثمن ، وما كان المسيح ليشعر اثناء عشائه السري بقدر ما أشعر من جذل وحبور في عشائي الاخير

هيا تعالي ، وليحيا الحب الثامل العربيد ، دعيني أتذوق خمرة الاندلس في

رضابك ، ولتحملنا ملائكة اللذة على معاصمها الى حيث لا صواب ولا شعور

هيا بنا ننشد الحب والجنون خير أغانينا ونشرب نخب الزمان الغابر ونخب الموت القريب

تعالي نكرع الخمرة ونسلو كل شيء الاَّ الخمرة والجمال ، فلا يتصاعد هتافنا الاَّ لتبجيل الحرية والحياة

— ٤ —

اي فولتير ، اترقد الآن بسلام ، ولما تزل بسمتك القبيحة تلوح على موضع الثغر من جمجمتك البالية

قالوا ان عصرك لم يكن ناضجاً ليفهمك ، فهلا راقك عصرنا وقد ولد فيه رجالك

لقد عملت راحتاك المريضتان طويلاً في زعزعة ذلك الصرح الرفيع فتداعى ولكنهُ هوى علينا بأنقاضهِ نحن ابناء هذه الايام .

لقد انتظرك الموت ثمانين حولاً وهو يتشوّق اليك وأنت تراوده تغزّلاً وتشبيباً فما كان غرامكما الاَّ شرارةً من الجحيم .

أفلا تنسحب احياناً ، اي فولتير ، من فراش عروستك بنت العدم بين ديدان القبور لتذهب بجبينك الشاحب تائهاً بين أنقاض الاديرة واطلال القصور .

بماذا تراها تناجيك هذه الصروح المقفرة والهياكل المتهدمة وانت نفخت عليها فأقوت وغدت خاوية لا حياة فيها .

بماذا تناجيك الصلبان ، وما يقول لك المخلّص المشبوح عليها ، افتدمى جراحه عندما يتقدم شبحك اليه في الليل محاولاً اقتلاعه كما تُقتلع الزهرة الذابلة عن معارشها ؟

أفراضٍ أنتَ ، يا فولتير ، عن عملك رضى المبدع حين فرغ من الخلق فرأى حسناً كل ما ابدع .

أما وأنت الراضي المبتهج بما أتيت ، فانني ادعوك الى وليمة في هذا المساء ، أنهض من مرقدك فما عليك الاَّ ان تضرب الباب بلا استئذان وتدخل الى حيث احد اتباعك يتناول عشاءهُ الاخير .

أفما تسمع قبلات هذا الفتى وهذه الفتاة ، أفما يلوحان لك وقد تمنطق كل منهما بساعدي رفيقه جسداً واحداً بروحين وقد زفرت شفاههما المرتجفة بشهيق كأنهُ نحيب وإعوال .

كلاهما فتى وكلاهما رائع الجمال ، وهذه صرخة الغرام بينهما تستهوي المساء لتنزل بستائرها الذهبية على عناقهما المديد .

فتش على الحب بين هذين المتعانقين، إنهما ما عرفاه من قبل وما يعرفانه الآن..

***

وهذه الكلمات الرائعة الساحرة أين تلقناها ، وليس الاً لنشوة الحب ان تتفوه بها بين الشهيق والزفير ؟

يا للمرأة من أداة جبور ومن أداة تعذيب ، يا لها من هيكل سرّي تتعالى فوقه همسات المصلين وصخب اللاعنين ...

أين ترى تجول من الاجواء او من الاصداء هذه الكلمات الابدية التي لم تزل تعربد منذ خمسة آلاف سنة على شفاه العاشقين ؟

***

يا للمطاولة الكافرة : ليس من حب هنا ، وهنا ملاكان وقلبان ما أحقهما بالاعتلاء في صفائهما الى أبيهما الاعلى مع طغمات الاملاك

ليس من حبٍّ هنا ، وهنا زفيرٌ في الليل ، بل هنا الطبيعة بأسرها ترتعش ثاملة من خمرة الغرام

هنا عبقات بخور وأقداحٌ مبعثرة ، هنا تصدو قُبَلاً لا عداد لها ، ولعلَّ هنا ، ويا للشقاء ، يتكوّن مخلوق تعس سيلعن النور

اذا كان لا حبَّ هنا ، فما هو هذا الشبح الرائع كأنهُ الحب بعينه ؟ . .

***

يا مساكن العزلة تحت قباب الاديار ، أيتها المدافن المظلمة، ان الحب كامن فيك.

وما من شفة ألقت قبلة ملتهبة على أعمدتك وأحجارك دون ان ترتعش بنشوة الحب العميق

تعالي أيتها الصروح ، صروح المنعزلين ، تقدمي واهتكي أستارك أمام هذا الفتى وهذه الفتاة وهما يلتهبان بشوق النشوة على سرير لا يصلح الاً للرقاد وللموت

اضربي بقلبيهما عرض جدرانك، أيتها الصروح، واغرسي فيهما أشواك ما فيك من مسوح دامية وارسلي على جبينهما رشاش ميأهك المقدسة، قولي لهما كم يجب على امثالهما

من سجدة على اللحود ليدركوا حقيقة الحب كما يدرك بين جدرانك أيتها الاديار . . .

***

انكم لتكرعون ثمالة كؤوسكم فترسلونها الى اعماق قلوبكم ، أيها المترهبون ، انكم ترون وجه المخلص عند ما يراود النعاس أجفانكم . وعند ما ينفلق الصباح تتلمس عيونكم هذا الوجه ايضاً على زجاج النوافذ المذهبة بالنور ، وأنتم تصغون الى ما تهتفون مع الارغن من أناشيد الصلاة

هذا هو حبكم تتفانون في سبيله فتجدون السعادة فيه

***

أي فولتير ، أنظر الى هذا الشاب المتدفق قوة وحياة يترامى بأحر قبلاته على هذا الصدر البديع ، انظر اليه انهُ سيسجى غداً في لحده الضيق ، فهل لك ان تغبطهُ

لقد قرأ هذا الشاب ما كتبتَ للمجتمع فلن يجد سلواناً ولا أملاً بعد ان أصبح عليه جحوداً ، فلك غداً ان تضمهُ الى رفاتك دون ان تهتك حرمة قبرك

أفتُراكَ تعتقد ، يا فولتير ، لو استبقيتَ في نفس هذا الرجل شيئاً من الايمان انهُ كان سيلقى باحتضاره على فراش الفحشاء ؟

ليتك أبقيتَ لهُ الاعتقاد بأن الموت اجتيازٌ معبرٍ الى قرار ، لكان اذن لا يبالي ولا يخاف اقتحامه فينظر الى ملاك الموت نظره الى عروسة تعالى في السحاب حاملة مفتاح قلبه الذهبي لتطرحهُ عند عرش الله الحي

***

هذه صنيعتك ، يا فولتير ، هذا هو الانسان كما أردت ان يكون ، فان التاريخ لم يشهد الاَّ منذ أمس من يموت كما يموت روّلا . . .

عند ما وقف بروتوس على أنقاض روما صارخاً (ما أنتِ الاَّ كلمة أيتها الفضيلة) لم يكن يرسل لعنةً او يتفوه بتجديف

كان بروتوس فقد كل شيء ، ولم يبق لهُ لا وطن ولا مجد ولا أمل ولا حرية ، بعد ان توارت عنهُ (بورنيا) وفارقهُ (كاسيوس) ، بعد ان أراق دمه وتفرق جنده من حوله ، فامتنع عليه ان يؤمن بشيء على وجه الغبراء . ولكنهُ عند ما رأى نفسه وحيداً ولا مقعد لهُ الاَّ قطعة من الصخر ، رفع أبصاره الى السماء فا

تفقّد شيئاً في مداها الفسيح ، بل تنفس قلبه منها نسمات الامل فأدرك ان آلهته لم تزل وان سيفه لم يزل في قبضة يده

اما نحن ، قتلة الآلهة فأي شيء بقي لنا ؟

***

لمن تعملون ، ايها الهدامون الاغبياء ؟ . .

اي شيء تريدون ان تزرعوا على قبر المسيح اذا انتم اسقطتموه عن هياكله وقذفتم بالحمامة البيضاء الى المهاوي المظلمة .

لقد طمحتم الى خلق الانسان من جبلتكم وتكوينه على مثالكم وعلى هواكم ، لقد اردتم اقامة عالم جديد ، فها هو ذا العالم الذي اردتم ان عالمكم رائع وانسانكم متفوق كامل ، لقد هدمتم الجبال وافسحتم مدى السهول واستنبتم شجرة جديدة للحياة .

لقد كسحتم كل حائل فمهدتم طرقكم على الحديد .

كل شيء عظيم وكل شيء رائع ، ولكن هذه الاجواء تكتم الانفاس وتشد على الصدور وقد ذهبت اقوالكم الرنانة على الرياح الموبوءة تزعزع كل معبود ، فروعت الاطيار وشرّدتها . .

لقد قضي على الرياء ، فما يثق بالكهنة احد ، ولكنّ الفضيلة تنهار وقد انتشر الجحود على انقاضها

اين النبلاء يباهون بطارف امجادهم ، بعد ان اصبحوا يعرضونها للابتذال في المواخير ؟

لقد اصبح التفكير حرًّا وأطلق البيان على مسارحه ، غير أن الشعب أصبح يتوق الى الميادين تتصارع عليها الثيران

لا الفقير اذا عزّت نفسه عليه ولا الغني اذا اجتاحته المحن يلجآن الى الرهبنة في هذه الايام ، فهما يعتبران هذا الانعزال جنوناً ويفضل كلٌّ منهما ان يشعل فحماً في غرفته ويوصد نوافذها ليختنق بسمومه

— ٥ —

ولاحت لعين رولاّ اوائل اشعة الشمس على السطوح فذهب الى الشرفة يتطلع منها الى الطريق وكانت العربات الضخمة قد بدأت تهتز باثقالها على المنعطفات ، فاحنى

رولاً جبينه الشاحب وقد حكمهُ الذهول امام السماء يشق الضحى فيها ستائر الافق الحمراء .

وكانت على الساحة جوقة من رعاع المغنين تنشد أغنية قديمة .

يا للاغنية يسمعها الانسان في ساعات محنته بعد ان تغنى بها في مرح طفولته .

انها لتمحو كل ما انطبع بعدها في التذكار فتحفر بين ماضيهِ وحاضره هوةً سحيقة واذ يشعر ببعدها عنهُ او ببعده عنها ، اذ يشعر بتقادمها او بتقادمه ، يحني رأسه المتعبة على نبراتها حزيناً واجماً .

ان هذه النغمات القديمة لأنفاس ما في المرء من اطلال ونحيب ما فيهِ من ملائك التذكار ترف على احلام الطفولة وحبها البريء .

انها لتهبُّ بنبراتها على أزاهر الزمان المنصرم فتنوّرها وتتعالى باكية فوق مضجع احتضارنا بعد أن غرّدت فوق مهودها .

***

وادار رولاً رأسه فرأى ماري مستسلمة للكرى وقد ارهقها السهاد .

هكذا كانت الطفلة تفزع الى عالم الرؤى والرجل يفزع الى عالم الفناء .

عند ما تمزق الغمام شمس الخريف لتقع على ركام الثلوج ، تبدو هذه الركام ملتهبة كأنها صدر الصباح تعلوه حمرة الخجل من قبلات النور المحرقة .

هكذا يتورد إهاب العذراء من دم قلبها عند ما تمسّها الشهوة باطراف جناحها .

أي كوكب النهار ! ما الارض ألاً معشوقتك الهائمة وما تحتفظ أنت بشبابك الاً لتسكب عليها روعة الجمال الى الابد .

***

اي ، أطيار السنونو المتطايرة في الافق متعالية متهاوية ، خبريني لماذا قُضي عليَّ أن اموت . . .

أيهِ ، ما أقبح الانتحار . . . ويا ليت لي جناحين لامدها في هذه الاجواء الصافية فأذهب طائراً طليقاً

علّماني ، يا أرض ويا سماء ، ما هو معنى الضحى ، وما هي قيمة يوم جديد في هذا العالم الهرم القديم .

قولي لي أيتها المروج الخضراء وأيتها البحار السحيقة لي شيئاً يتجلى فيك اذا

كنت انتِ محرومة من الشعور ليهتز القلب اهتزازاً امامك وتجثو الركاب عند ما تتوهج آفاقك بأنوار الصباح . . .

من أوثق رباط الخطوبة بينك وبين كوكب النهار أيتها الارض .

ماذا تقول الاطيار في تغاريدها وعلى من تبكي أنداء السماء ؟

لماذا تحدثينني عن حبك الآن ، وماذا تريد الكائنات مني وانا اطلب الفناء .

***

أية قوة كانت تدسّ في خيال روﻻ كلمة الحب فتجول فيهِ بكل روعتها . بل اي هاتف كان يلقي بهذه الكلمة في أذنهِ والموت منتصب أمامه .

اي معنى لكلمة الحب تقال لفاسق عاش يوماً فيوماً متنقلاً من خمّارة الى خمّارة محتقراً الحياة مباهياً بتحقير كل عاطفة تمت الى الحب بسبب .

أتقال له هذه الكلمة وما وقعها في مسمعه الا وقع إهانة توجه الى قلبه المتحجر حيث لم تنبت زهرة واحدة وهو يعرضهُ قاحلاً على الناس كما يعرض الجندي جرحاً قديماً .

أيذكر الحب أمامه وهو مَنْ لا خليلة ولا سكن لهُ وهو مَنْ عاش في ملاعب الرياح متحدياً تصاريف أقداره مسلماً شبيبته لكل زعزع ينفضها نفضاً كأنها اوراق ذابلة على شجرة جفّ جذعها .

من تُرى تذهب بهِ القحة الى الوقوف امام هذا المحتضر ليذكّره بالحب بعد ان كرع ثمالة كأسه والتقى الى ليل الابد بآخر شرارة من حياته وها هوذا في ساعته الاخيرة يفتش على سرير ماخورٍ ينطرح عليهِ ليلفظ آخر انفاسهُ ويدفع بآخر لعناته .

***

عند ما تبارح أنثى العقاب وكنها يتقدم فرخها الى حافتهِ متحفزاً فكأنهُ يحس باقتداره على نشر قوادمه والانطلاق في الفضاء

من ترى يهيب به الى الطيران ويشجعهُ على اقتحامهِ وهو لم يفرج مخلباً ولم ينشر جناحاً من قبل . انهُ يعلم بنسبه وأن له أن يقتحم الرياح عندما تدغدغهُ لفحاتها

على ان تحت الشمس منابت للارواح السافلة كمنابت الكلاب وبنات آوى والافاعي ، تستنبت هذه الارواح كما تستنبت هذه الحيوانات فتموت حيث ولدتها امهاتها وكلها تحمل في احشائها جراثيم سلالاتها الدنيئة كان الطبيعة تستبقي على اجناسها سماداً تسمد بهِ التراب حول القبور ، ولكن لهذه الطبيعة قوتها السرية

تعمل بها على خلق طبقة من الاحياء نبيلة تمر على الحياة فلا تعلق بها ارجاسها

ومن حبتهُ القطرة هذا الصفاء ، فانهُ ليتمرغ في الحمأة وتدور به الشرور خانقة سريرته طوال ثلاث سنوات دون أن تقضي عليها اذ يجيء يوم ينتبه فيه ضميره فينتفض قلبه انتفاض عبدان (سان دومينيك) الذين مرَّت عليهم الاحقاب حتى تمكنوا من اقتلاع سلاسلهم من ارض العبودية حين عصفت بهم زعازع التمرد ونسمات الحرية

هكذا تنتبه أفكارك الآن ، يا رولاً ، محاولة تحطيم قيودها فهي تصيح بك وقد لاحت في دياجر القفر مشاعل الحياة ذاهبة الى ما وراء الحياة

أي رولاً ان هذا العدم الذي تتمسك بهِ يداك إن هو الاَّ وهمٌ يتبدَّد ، انما العدم خيالٌ قائمٌ لا تنطفي أمامه أنوار الارض حتى تتوهج لمعاتها في الابدية

انك ما أحببت من قبل ، فانك لن تحب الى الابد

***

وعلا وجه رولاً الشحوب فأغلق النافذة وهو يرتعش فاذا بيده تصدم زهرة ناضرة فتقصفها واذا بالزهرة تهتف في اعماق روحه :

أحب وأموت . . : لقد ألهبني النسيم تقبيلاً فنوّر تويجي وتساقطت أوراقي ، لقد لبست له الزهو والبهاء فجاءت القبلة تهبني الحياة ، وما يهم الزهرة انسحاق قلبها بعد ان تفتحت اكمامها

***

احب ... هذه هي الكلمة التي تلفظها الطبيعة بأسرها لتحملها اجنحة الرياح والاطيار ، هذه هي الزفرة المفجعة تزفرها الارض عند ما يحين لها ان تندفع الى أغوار الظلام

وهل تهيم الكواكب بغير هذه الكلمة الحزينة الرائعة وهي ذاهبة في مدار اجوائها ؟ ان أضعف النجوم اندفعت منذ ابدعها الخالق متجهة الى حبيبها كوكب النهار ، واندفع وراءها ما يشتاقها من الاجرام فسارت العوالم منذ الازل متجاذبة بالحب في أفلاكها

***

ووجم رولاً أمام الفتاة الراقدة متفرساً في ملامحها ، تأخذه منها روعة الجمال

وتعيد اليهِ رؤى كأنهُ شاهدها فيما مضى من الزمان ، فارتعش متسائلاً : أليست هذه المومس اختهُ في هذه الغرفة تلحد فيها كما سيُلحد هو ، افما يحسّ الى جنب ما يعانيهِ من اقتحام الموت بما تعانيهِ هي من اوصاب الحياة

***

ان الصبر يتمشى على مهل في قلب هذه المخلوقة الشقية الواهية ، أفليست آلامها اختاً لآلامي . أفما هي التمثال الذي قدّر لي ان اراه ممدداً على لحدي ، وأنا اتحفز للنزول الى اعماقه ؟

لا تنتبهي من رقادك ايتها الفتاة ، إن انتباهتك من حياة الارض ولكن هجوعك طاهر فهو لله . دعيني أقبل النعاس على اجفانك فأودّعه وأوليه حبي ، فهو لم يبع وشاح طهره ولم ادفع له ثمناً . إن وسنك لم يزل طفلاً ذاهباً في احلام طفولته ولم يعلق بهِ منك إلاّ روعة جمالك

***

يا للجسم الملائكي يتلوّى وراء هذه الستائر المتماوجة

أفما يكتفي الحب بما ترسمهُ الخطوط في اتساقها المادي وبما يهب عليهِ من نسمات البهاء ليغرّد بأشجى الحانه ، وهل الحب الاّ الضحية المستمرة للخداع ، الاّ العليل يرتعش فرقاً من زوال دائه .

اذا كان العاشق لا يظفر من الحبيب الاّ بما يحتاج اليهِ من التوهم ليتمتع بعذابهِ ، فعلى مَ أذهب مفتشاً على الوهم في الآفاق .

مالي ولماري وحياتها ، افما هي امامي الآن مجسّم الفتوة والحياة ؟

لك ان تأتي الآن ، ايها الحب ، اذا كنت انت عطر الحياة وليفح عبيرك من هذه الزهرة البائسة وقد تفتقت اكمامها عن مثل هذه النضارة وهذا الجمال . . .

***

وتقدم رولاً الى السرير وتمدّد جنب ماري فاشتبك الناظران وتمازج النفسان .

وقالت : — كنت أشهد رؤيا غريبة ، رأيتني على هذا السرير افيق من رقادي ، فاذا بهذه الغرفة منبسطة امامي كأنها مقبرة واسعة الارجاء تبعثرت العظام البالية بين اكمّتها الخضراء .

ورأيت ثلاثة رجال يحملون نعشاً تقدموا بهِ وانزلوه عن اكتافهم ليؤدوا فريضة الصلاة ، فاذا بالنعش ينقلب عنهُ الغطاء واذا انتَ ممددٌ فيهِ وعلى وجهك رشاشٌ من الدماء السوداء .

رأيتك تنهض من النعش وتتقدم اليَّ آخذاً بيدي قائلاً لي —ماذا تفعلين هنا ، لماذا تحتلين مكاني .

وانتبهت الى نفسي فاذا بي ممددة على قبر .

فقال رولاً — إن في حلمك حقيقةً وإن خلا من الجمال ... ولن تحتاجي الى إغماض جفنيك غداً لتري مثل الحلم ، فانني منتحرٌ اليوم

***

ونظرت ماري الى مرآتها وهي تبتسم ، فلاح لها وجه رولاً في المرآة وقد علتهُ صفرة الموت فارتعشت وامتقع لونها فصاحت بهِ : — مالك ، ماذا جرى لك ؟

فقال : — أفما بلغك انني أفلست منذ امس ، وهل أتيت إلاَّ لأُحيي ليلة الوداع بقربك . ما من احد يجهل هذا ، وقد قضيت بالانتحار على نفسي

— أقامرت بمالك

— لا لم اقامر ولكنني بددّت مالي

فحدجت الارض بأنظارها مستغربة وقالت : — أفليس لك امٌّ ، أفليس لك أقارب وأصدقاء ، أفليس لك أحد في الحياة ؟ أتنتحر ، ولماذا تنتحر . . .

والقت عليهِ نظرة تشع أسىً وحناناً وترددت على شفتيها سؤالات لم تجسر على التفوه بها . فألقت رأسها الى رأسهِ واختطفت عليهِ قبلة واجفة ، وهي تقول همساً : — ليس لي مال ، فان أمي تأخذ ما تصل اليهِ يدي ، ولكنني املك عقدي الذهبي أفما تجيز لي بيعه فتأخذ ثمنهُ وتقامر به مرواداً حظك ؟

ابتسم رولاً على مهلٍ وأخذ حقّا أسود صغيراً أفرغهُ في فمهِ ، ثم انحنى يقبّل عقدها على نحرها ، وإذ رفعت رأسها لم تجد على صدرها غير جثتهِ لا حراك فيها

وكان رولاً قد لفظ روحه بالقبلة الطاهرة

وكان الحب قد ساد لحظةً عليها وعليهِ . . .

تمت



اوربا المتوسطة

والشرقية

مركز الثقل في السياسة الاوربية الآن

١ — مرحلة النفوذ الفرنسي

٢ — مرحلة السلامة المشتركة

٣ — انحلال السلامة المشتركة

٤ — خاتمة

اوربا المتوسطة الشرقية



والى الشمال من لثوانيا لتفيا فاستونيا ففنلندا وهي لم تظهر على هذه الخارطة

اوربا المتوسطة

والشرقية

مركز الثقل في السياسة الاوربية الآن

أما وقد انتهت المفاوضات البريطانية الى اتفاق يرجى منهُ خيرٌ عظيمٌ في اقرار الحالة السياسية المضطربة في حوض البحر المتوسط فقد انتقل مركز الثقل في السياسة الاوربية الى شرق أوربا وما يليها من شرقها الشمالي وشرقها الجنوبي

هذه المنطقة وصفها ماساريك — الرئيس الاول للجمهورية التشيكوسلوفاكية — في مقال لهُ نشرهُ في مجلة أوربا الجديدة سنة ١٩١٧ بقولهِ انها « منطقة الشعوب الصغيرة » وهي تشمل الآن بعدما ضمَّت النمسا الى المانيا، ثلاث عشرة دولة هي من الشمال الى الجنوب فنلندا واستونيا ولاتفيا ولتوانيا وبولندا وتشيكوسلوفاكيا وهنغاريا ويوجوسلافيا ورومانيا وبلغاريا واليونان والبانيا وتركيا. واذا نحن تذكرنا اين بدأت الحرب الكبرى في سنة ١٩١٤ وكيف أضرمت نارها الاولى تبين لنا ما لمنطقة الشعوب الصغيرة من الاثر في سلام أوربا وحربها. وما صحَّ بالامس لا يزال صحيحاً اليوم. فما الحالة هناك ؟

ان تقسيم هذا الجانب من أوربا الى دولات متعدّدة لا يعود الى بواعث عنصرية فقط. بل ان الامبراطوريات الكبيرة في العصور الماضية لم يتم لها توحيد هذه الشعوب وأدماجها بعضها في بعض على نحو ما تمَّ لفرنسا وانكلترا وأسبانيا في الغرب. ذلك ان الامبراطورية الرومانية المقدَّسة، وامبراطوريتا آل هوهنزولرن وآل هبسبرج والسلطنة العثمانية، كانت تعتمد على إثارة الطوائف العنصرية بعضها على بعض في سبيل حكمها ونزعت منها في الوقت نفسه المنشآت السياسية التي كانت قد أقامتها لنفسها بغير ان تسلّم لها بما ينسيها نزعتها الخاصة ويمكنها من التآلف والاندماج. ولعلَّ خير الامثلة على ذلك بوهيميا وبولندة. فالأولى نُزع منها استقلالها في القرن السابع عشر والثانية في القرن الثامن عشر. وحاول الجرمان من ناحية والروس من ناحية أخرى استعمار هاتين المنطقتين علاوة على الاستبداد بهما. فازدادت النزعة القومية العنصرية فيهما شدَّة وتأصلاً. فلما نشبت الحرب الكبرى هبّتا الى استعادة ما فقدتاهُ

فهل تستطيع المانيا ان تحقق في القرن العشرين ما أخفقت فيهِ في القرون الماضية ؟ هذه المسألة محور مشكلة من اكبر المشكلات في السياسة الاوربية في هذا العصر. فاذا استطاعت المانيا ان تخضع الدول الصغيرة في أوربا الوسطى وأوربا الشرقية لنظامها السياسي والاقتصادي

استطاعت ان تصبح الدولة المهيمنة على اوربا . وكتاب « كفاحي » يبين ان زعيم الريخ الثالث ينوي تحقيق هذا الحلم . فاذا لم يصدَّه صادٌّ ، واذا استأنفت المانيا « الاندفاع نحو الشرق » Drang nach Osten بغير نظر الى العواقب ، فانني اخشى ان تكون اوربا معرضة ثانية لاهوال الحرب . لانهُ على الرغم من ضعف الوزارات الفرنسية والبريطانية وتقلب الرأي العام الذي تستند اليهِ ، يخامرني الريب في ان تسلِّم حكومتا فرنسا وبريطانيا في آخر الامر باطلاق يد المانيا في اوربا الوسطى والشرقية . لانهما ان فعلتا كان ذلك تسليماً منها بسيطرة المانيا على مصادر من الثروة والسطوة تجعلهما ضحاياها الاولى . وانا لا اقول ان بعد النظر وادراك حقائق الحال ستحملهما على مقاومة هذا « الاندفاع » ولكنني اقول انهما ان لم تفعلا فقد قضي عليهما ان تكونا دولتين من الطبقة الثانية

وقبل ان تغامر المانيا لكسب ما تريدهُ من طريق الحرب تراها تبذل السعي لتهديم النظام السياسي الذي انشيء بعد الحرب الكبرى للمحافظة على ما قررتهُ معاهدات الصلح . وكل حدث من احداث السياسة الدولية القريبة كان مظهراً من مظاهر هذا السعي

فلننظر الآن في تحول الاتجاهات السياسية في اوربا المتوسطة والشرقية بعد الحرب لعلَّنا نستطيع ان نتبين ما يدلنا على مستقبلها وهل هناك في « منطقة الشعوب الصغيرة » ما يشير الى انهُ في وسع بعضها ان يحتفظ باستقلاله او هو مقضي عليهِ بان يصبح تابعاً لشمس المانيا وما لها من قوة عسكرية واقتصادية . وتاريخ هذه المنطقة منذ سنة ١٩٢٠ ينقسم الى ثلاث مراحل واضحة . فثمة اولاً مرحلة التفوق الفرنسي في النفوذ السياسي والعسكري . وتليها مرحلة السعي لتنظيم السلامة الاجتماعية بواسطة المعاهدة والمواثيق وقد بلغت قمتها في الميثاق الفرنسي السوفيتي في مايو ١٩٣٠ ثم هناك المرحلة الثالثة التي تبرز فيها نزعة بعض الدول الصغيرة الى عقد معاهدات مقابلة للمعاهدات القديمة ، وقد كان بدؤها يوم دخلت جيوش المانيا منطقة الرين المجردة من السلاح في ٧ مارس سنة ١٩٣٦

مرحلة التفوق الفرنسي

دامت المرحلة الاولى — مرحلة التفوق الفرنسي — من حين عقدت معاهدات الصلح ووقفت الى شهر اكتوبر من سنة ١٩٣٣ اي الى ان خرجت المانيا من مؤتمر نزع السلاح وعصبة الامم وهيئة العمل الدولية . في خلال هذه السنوات كان الجيش الفرنسي أمنع جيوش اوربا . وكان احتلال فرنسا منطقة الرين (الى سنة ١٩٣٠) وتجريد هذه المنطقة من الحصون بمقتضى معاهدة فرساي ، مما يمكنها من اختراق غرب المانيا بغير ان تقف عقبة كبيرة في وجهها فتستطيع

مناجزة الجيش الالماني في الغرب، بحيث تصبح المانيا عاجزة عن اي عمل حربي ذي شأن في الشرق . في هذه الفترة كان الخطر الوحيد الذي تستهدف له دول اوربا الوسطى والشرقية ، ناشئاً من موقف هنغاريا وروسيا السوفيتية . أما الاولى فلم يكن في وسعها الاعتماد على المانيا حينئذٍ ، في طلبها للثأر ، فاتجهت الى ايطاليا . وقد اعلنت ايطاليا رأيها في وجوب تنقيح المعاهدات في خطبة لموسوليني القاها في يونيو سنة ١٩٢٨ ولـكنها مع ذلك ظلت تتعاون مع فرنسا وانكلترا وهي تبحث عن خير الوسائل لتحقيق اغراضها . واما روسيا فكانت لا تزال في غمار الثورة فلم يكن في وسعها الاشتراك في حرب خارجية ولا سيا بعد هزيمتها في الحرب الروسية البولندية في سنة ١٩٢٠

ففي هذه الحالة تراءى لفرنسا ان خير وسائل السلامة أبسطها . فعقدت في فبراير من سنة ١٩٢١ اتفاقاً سياسيًّا وآخرحربيًّا مع بولندة . وفي يناير من سنة ١٩٢٤ عقدت اتفاقاً سياسيًّا مع تشيكوسلوفاكيا وكان الاتفاق التشيكوسلوفاكي بمنزلة محالفة الاَّ انهُ لم ينصَّ على تعاون هيئتي اركان الحرب في الجيشين . ومع ذلك كان للبعثة الحربية الفرنسية في براج مقام اعظم من مقامها في وارسو حيث كان المارشال بلسودسكي يحدُّ من نفوذها غيرةً على مقامهِ . ولذلك يمكن ان يقال ان الاتفاق العسكري البولندي الفرنسي ظلَّ حبراً على ورق على الغالب ولم يوضع موضع التنفيذ الفعَّال .فلما ذهب المارشال فوش في سنة ١٩٢٣ الى وارسو ليحدِّث المارشال بلسودسكي في ما يكون موقف بولندة اذا اتخذت المانيا خطة الهجوم في شرق اوربا، لم يفز القائد الفرنسي من القائد البولندي الاَّ بقولهِ « أزحف على موسكو . اما المانيا فانني اتخذ قراراً عندما اراني في الميدان »

كانت الحـكومة الفرنسية قد فاوضت حكومتي بولندة وتشيكوسلوفاكيا لان حدودهما محاذية لحدود المانيا.وبهذا يفسَّر تمثيلها في مؤتمر لوكارنو الذي عقد في شهر اكتوبر من سنة ١٩٣٥ ولا يخفى على متتبعي السياسة الدولية ان اتفاقات لوكارنو كانت قسمين احدهما اتفاق خاص بمنطقة الرين وقد ضمنتهُ بريطانيا وايطاليا يؤيده اتفاقان احدهما بين فرنسا والمانيا والآخر بين المانيا وبلجيكا . اما القسم الثاني فكان مشتملاً على معاهدتي تحكيم بين المانيا من جهة وكلٍّ من بولندة وتشيكوسلوفاكيا من جهة اخرى .ولـكن بريطانيا وايطاليا تجنبتا ضمان هاتين المعاهدتين فتعيَّن على فرنسا ان تنهض بهذه التبعة وحدها فعزَّزت اتفاقيها مع بولندة(١٩٢١)وتشيكوسلوفاكيا (١٩٢٤) بتصريحين وعدت بمقتضاهما ان تؤيد حليفتيها الشرقيتين بالقوة العسكرية في الاحوال التي تشملها الفقرة السابعة من المادة ١٥ وكذلك المادة ١٦ من ميثاق عصبة الامم . وهذه النصوص في الميثاق تشمل جميع حالات الحرب — اي حالات النزاع المعروضة على مجلس عصبة الامم اذا

عجز المجلس عن حلّها بالاجماع وكذلك حالات الاعتداء الصريح الذي لم تتخذ لمنعهِ وسائل التسوية السلمية

اما وقد قطعت فرنسا على نفسها عهوداً من شأنها ان تلزم المانيا باحترام حكم القانون الدولي فلم يبقَ على بولندة وسائر الدول في حوض الدانوب الاَّ ان تفعل ما يدل على تماسكها في وجه روسيا السوفيتية وهنغاريا . ولذلك عقدت بولندة ورومانيا اولاً اتفاقاً في سنة ١٩٢١ ثم في مارس سنة ١٩٢٦ قطعتا فيهِ عهداً بالتعاون على صدّ اي اعتداءٍ موجهٍ الى اراضي احداهما او كيانها السياسي . ثم حدّدتا الاحوال التي ينفذ فيها هذا العهد وفقاً لما فعلتهُ فرنسا في السنة السابقة بمقتضى المادتين ١٥و١٦ من ميثاق عصبة الامم . واضافتا الى ذلك اتفاقاً يشمل التعاون بين هيئتي اركان الحرب في جيشها ووعدت كلٌّ منها بان لا تعقد محالفة مع دولة ثالثة قبل مشاورة صاحبتها

وعقدت رومانيا وتشيكوسلوفاكيا ويوجوسلافيا ثلاث معاهدات حدّدت فيها موقفها من هنغاريا وهذه المعاهدات هي أساس « الاتفاق الصغير » . والقاعدة في هذه المعاهدات الثلاث التعاون المتبادل في وجهِ اعتداء غير مستفزّ من هنغاريا على احداها . ثم الامتناع عن عقد معاهدة مع دولة رابعة الاَّ بعد التشاور . والغرض العام الذي اتجهت اليهِ هذه المعاهدات كان على ما جاءَ في التوطئة، هو المحافظة على السلام الذي اشتري بتضحيات عظيمة ونصَّ عليهِ ميثاق عصبة الامم وكذلك صون الحالة الناشئة عن عقد معاهدة تريانون سنة ١٩٢٠

وهذا كلهُ يعني ان رومانيا وبولندة اتفقتا على صدّ روسيا وان رومانيا وتشيكوسلوفاكيا ويوجوسلافيا اتفقت على صدّ هنغاريا . وقد سبق أن قلنا ان فرنسا عقدت معاهدتين مع بولندة واحدة ومع تشيكوسلوفاكيا واحدة . اما صلتها برومانيا ويوجوسلافيا فلم تتعدَّ معاهدتي التشاور والتعاون المعقودتين في ١٠ نوفمبر ١٩٢٦ (رومانيا) و ١١ نوفمبر ١٩٢٧ (يوجوسلافيا)

الاَّ انك عند ما تدقق النظر في هذا النظام المعقّد ترى فيهِ كثيراً من مواطن الضعف . فالاتفاق الصغير قاعدتهُ صدّ المجر وحدها فليس فيهِ ما يحتم اشتراك دولهِ الثلاث في عمل ضدّ المانيا او ايطاليا او بلغاريا . وبولندة على الرغم من تحالفها مع رومانيا ، كانت شديدة العطف على هنغاريا فلم تبرم معاهدة تريانون ، وعلى شيء من النفور من تشيكوسلوفاكيا . ثم ان تشيكوسلوفاكيا وطرفها الشرقي داخل كالاسفين بين رومانيا وبولندة ، لم تكن مرتبطة ارتباطهما بوجوب التصدي لروسيا . أما مشكلة استقلال النمسا وضمانهُ فلم تعالج . وكانت جميع هذه الدول تحسب فرنسا صديقة لها وحليفة وتعتمد على مساعدتها في ساعة الضيق ، مع ان أساليب المساعدة وطرائق العون لم تبحث بحثاً مفصلاً . وكانت الصداقة وثيقة بين بنش وزير خارجية تشيكوسلوفاكيا ومار كينوفتش وتيتولسكو وزيري خارجية يوجوسلافيا ورومانيا ، فلم يجرؤ أحد على الظن حينئذٍ ان هذه الصلات الوثيقة يمكن ان يعروها الانحلال

٢ — مرحلة السلامة المشتركة

في سنة ١٩٣٣ أخذت عوامل الضعف تتطرّق الى هذا النظام الاوربي القائم على تفوق النفوذ الفرنسي . كانت جيوش فرنسا في منطقة الرين قد سحبت منها في يونيو ١٩٣٠ وحذفت مسألة التعويضات الالمانية في مؤتمر لوزان (١٩٣٢) من سفر النزاع السياسي . وألغيت المراقبة الدولية على أعمال المانيا الحربية. وفي ٣٠ يناير من سنة ١٩٣٠ تقلد الهر هتلر منصب المستشار في الحكومة الالمانية وأخذت الثورة الوطنية الاشتراكية طريقها المرسوم . وفي شهر أكتوبر من السنة نفسها فصم الهر هتلر كل صلة لهُ بجنيف . فشعرت الدول المهدَّدة في سلامتها أنها لا يسعها الاكتفاء بضمانات السلام العامة المطوية في ميثاق العصبة . ولا سيا لان الولايات المتحدة الاميركية ظلّت متمسكة بمبدأ حرية البحار مما حدَّ من رغبة بريطانيا في تطبيق مبدإ العقوبات (المادة ١٦ من ميثاق العصبة) تطبيقاً فعالاً خشية أن تصطدم باميركا . وكانت قوة الجيش الفرنسي قد أصيبت بما أوهنها بنقص مدة الخدمة العسكرية الى سنة واحدة . فلما تولّى المسيو لويس بارتو وزارة الخارجية الفرنسية ودرس هذه الحالة الجديدة وأدرك مغزاها بعث بمذكرتهِ المشهورة الى انكلترا (١٧ ابريل ١٩٣٤) مبيناً فيها ان فرنسا تحتفظ بحريتها في اعادة تنظيم جيشها وتعزيزهِ

هنا بدأت المساعي لتحقيق ما يعرف «بالسلامة المشتركة» بتحديد المقصود من تطبيق المادة ١٦ من ميثاق العصبة اذا اقتضت الحال تطبيقها . واسم المسيو بارتو مرتبط بهذه المساعي مع ان جانباً منها كان قد بذل في البلقان قبل دخولهِ الكاي دورساي

كان من شأن انبعاث القوة العسكرية الالمانية في هذه الفترة ان وجهت انظار وزراء الخارجية الفرنسية المتعاقبين — هريو وبونكور وبارتو — وكذلك قواد الجيش — فيجان وجاملان — الى فكرة واحدة ، وهي استغلال القلق البادي في الدوائر الروسية من جرَّاء السياسة الالمانية البادية في مذكرة هوجنبرج المشهورة في صدد استعمار المانيا لبعض الاراضي الروسية . وان يكون غرض هذا الاستغلال هدم معاهدة رابالو الروسية الالمانية التي عقدت في سنة ١٩٢٢ ثم أيدت بمعاهدة ١٩٢٦ وجدّدت في مايو ١٩٣٣ في عهد الحكومة الوطنية الاشتراكية الجديدة في المانيا . وأدرك بارتو وقواد الجيش الفرنسي الفائدة الكبيرة التي تجنى من هدم الصداقة الالمانية الروسية واحلال الصداقة الفرنسية الروسية محلّها . ففي المقام الاول ينتفي الخوف الذي يسود حلفاء فرنسا في شرق أوربا من طغيان روسيا عليها . وفي المقام الثاني تمتنع روسيا عن ان تكون مصدراً ثميناً لكثير من المواد الخام التي يحتاج اليها الجيش الالماني . ويضاف الى هذا وذاك رغبة الحكومة الفرنسية في تأييد موسكو لنظرية « السلامة المشتركة » التي اقترحها الوفد الفرنسي في مؤتمر نزع السلاح ، والاعتماد على قوة روسيا الجوية في حالة قيام ازمة بين فرنسا والمانيا

وكذلك حفلت سنة ١٩٣٣ والسنتان اللتان تلتاها بمساعٍ سياسية متعددة لعقد مواثيق لضمان السلام ضماناً متبادلاً . ففي سبتمبر من سنة ١٩٣٤ ضمّت روسيا الى عصبة الامم . ويعود ضمّها الى العصبة الى رأي وسعي كلّ من بارتو الفرنسي وبنش التشيكوسلافي كي ويفتش اليوجوسلافي ورشدي أراس التركي وبوليتيس اليوناني وغيرهم ممن كانوا يرغبون في أن يروا دول أوربا المتوسطة والشرقية مرتبطة في اتفاق دفاعي يكفي لصد أي سعي من شأنه ان يهدم النظام القائم

وكان الرأي ان تكون فرنسا وروسيا قطبي هذه الكتلة احداها في الغرب والثانية في الشرق . وكان الرأي كذلك ان تقسم او تجمع مواثيق «السلامة المشتركة» في بضعة مواثيق اقليمية ، فيعقد ميثاق خاص بشرق اوربا الشمالي تنتظم فيه المانيا وروسيا وبولندة وتشيكوسلوفاكيا ودول ساحل البلطيق . وآخر للبحر المتوسط تنتظم فيه الدول القائمة على سواحله . وثالث لاوربا الوسطى يكون اساسه اتفاق بين فرنسا وايطاليا وغرضهُ الاول ضمان استقلال النمسا

لم يحقق من جميع هذه المشروعات العظيمة الاَّ النزر القليل . منها الاتفاق البلقاني في ٩ فبراير ١٩٣٤ بين يوجوسلافيا ورومانيا واليونان وتركيا ، وذلك قبل ان يتقلد بارتو وزارة الخارجية الفرنسية . وكانت قاعدتهُ محالفة عسكرية للدفاع عن الحدود القائمة في البلقان ولكن الاتفاق العسكري لم ينصّ في الواقع الاَّ على التعاون بين ثلاث منها فقط في حالة هجوم بلغاريا . وقد اعتذرت اليونان عن الاشتراك معها في ذلك بأن سواحلها شديدة التعرض للخطر . ثم ان الاتفاق لا يحتوي على نص خاص بالتعاون بين دوله ضد احدى الدول الكبرى . ونذهب الى أبعد من هذا فنقول ان لا الاتفاق البلقاني ، ولا الاتفاق الصغير ، ولا الاتفاق البلطيقي ، يشمل نصًّا ما خاصًّا بمقاومة اعتداءٍ تقوم بهِ المانيا او ايطاليا

كان الطريق الى عقد الاتفاق البلقاني قد مهّد في سنة ١٩٣٣ بعقد معاهدات بين روسيا السوفيتية وجاراتها حدّد فيها معنى الاعتداء . وفي مقدمة هذه المعاهدات ما عقد بين روسيا والاتفاق الصغير . وبمقتضى هذه المعاهدات سلّمت روسيا بضم بسارابيا الى رومانيا ، تسليماً ضمنيًّا لان حدود الدول المتعاقدة وصفت وصفاً صريحاً فيها . وعلى اثر ذلك سعت روسيا لدى صديقتها تركيا فحملتها على الشروع في المفاوضة لعقد الاتفاق البلقاني .

وأهم من الاتفاق البلقاني ، بين المعاهدات التي عقدت في هذه الفترة ، واوقع أثراً في السياسة الدولية ، المعاهدة الفرنسية السوفيتية (٢ مايو ١٩٣٥) وبمقتضاها قطعت الدولتان المتعاقدتان عهداً بالتعاون المتبادل وفقاً للمادتين ١٥و١٦ من ميثاق عصبة الامم . وتبعتها في ١٦ مايو ١٩٣٥ معاهدة تشبهها بين روسيا وتشيكوسلوفاكيا . فلما فسّرت المادة ١٦ من مواد ميثاق العصبة في النزاع الايطالي الحبشي تفسيراً جعل تطبيق العقوبات على ايطاليا لا مفر منهُ ، غدت هاتان المعاهدتان

بمنزلة تحالف عسكري ، لانهُ اصبح لكل دولة ان تعتبر اي اعتداء موجه الى غيرها من اعضاء العصبة كأنهُ موجه اليها . والفرق الوحيد بين المحالفات القديمة التي كانت تعقد قبل الحرب الكبرى وهذا الضرب من مواثيق التعاون المتبادل ، ان المواثيق الحديثة القائمة على اساس من المادة ١٦ في ميثاق العصبة ليست الاَّ مواثيق دفاعية

كان المشروع الذي قصد بارتو الى تحقيقه واسع النطاق كثير التعقيد والاشتباك وكان الرأي ان تشترك فيه جميع الامم وتجني منهُ فائدة الضمان المشترك لسلامتها . فروسيا مثلاً تعد بنجدة فرنسا اذا استهدفت لهجوم الماني وبنجدة المانيا اذا استهدفت لهجوم فرنسي . وفرنسا تعد بنجدة المانيا اذا استهدفت لهجوم روسيا ، وروسيا اذا استهدفت لهجوم المانيا عليها . وهذا النوع من الترابط يجب ان يشمل معظم دول اوربا ، واذن فعقد الاتفاقات الثنائية بين الدول الاوربية الكثيرة كان يقتضي محادثات دبلوماسية لا نهاية لها . ففي شهر يوليو من سنة ١٩٣٥ فاز المسيو تيتولسكو من الملك كارول بالسعي لعقد ميثاق تعاون متبادل بين رومانيا وروسيا ، ولكن فرنسا أخَّرت ابرامها للميثاق الفرنسي الروسي الى شهر مارس من سنة ١٩٣٦ ولذلك لم يتقدم لتفينوف الى بحث مسألة الميثاق الروماني الروسي الاَّ في ٢١ يوليو من ١٩٣٦ موضحاً ان المفاوضات الرسمية تبدأ في شهر سبتمبر من تلك السنة في جنيف . ولكن تيتولسكو اخرج من وزارة الخارجية الرومانية في ٢١ اغسطس ١٩٣٦ فوقفت المساعي لعقد هذا الميثاق بين رومانيا وروسيا عند ذلك الحدّ . وفي الوقت نفسه كانت يوجوسلافيا تسعى لعقد اتفاق تعاون متبادل مع فرنسا فلم يعرها لافال اذناً صاغية ، وكذلك نرى انهُ ما توارت جثة بارتو في لحدها حتى كانت عوامل الانحلال قد تطرقت الى فكرته

٣ — انحلال السلامة المشتركة

كيف يُفسَّر هذا التحوُّل ؟ ذلك ان المحرِّك القوي الذي كان يسوق دول أوربا المتوسطة والشرقية الى التفاهم والترابط في سبيل سلامتها المشتركة ، أصيب بما عطلهُ ووقفهُ عن الحركة . وكان الباعث على ذلك يرتدُّ جانب يسير منهُ الى النزاع الحبشي الايطالي ، أما الجانب الاكبر فكان يرتدُّ الى ما بدا من ضعف فرنسا وبريطانيا يوم ٧ مارس سنة ١٩٣٦ عندما دخلت الجيوش الالمانية منطقة الرين المجرَّدة من السلاح . هذا الحادث قضى على ما كانت تؤملهُ دول اوربا المتوسطة والشرقية من مساعدة فرنسا لها في محنتها . وكانت المفاوضات التي دارت بين ١٩٣٤ — ١٩٣٦ قد أثبتت ان السلامة المشتركة في حوض الدانوب لا يمكن تنظيمها بغير تأييد فرنسا لها ، وضمان مواثيقها . أما فرنسا فلم يكن في وسعها ان تؤيد وتضمن الاَّ اذا وافقتها انكلترا على ذلك

ان نظرة واحدة الى الخارطة الاوربية تحمل الباحث على السؤال ، لماذا لم تعقد رومانيا وتشيكوسلوفاكيا معاهدة تعاون متبادل مع اتفاق مصلحتهما على وجوب عقدها . وتفسير ذلك ان كلَّ اتفاق من هذا القبيل لا تشترك فيه فرنسا او لا تضمنهُ فرنسا وتتعهد بمقتضاه ان تستعمل جيشها العظيم لشغل الجانب الاكبر من الجيش الالماني في الغرب، لايمكن ان يقوم على أساس سليم

فاذا نظرت الى الحالة الاوربية هذه النظرة تبينت ان يوم ٧ مارس سنة ١٩٣٦ كان تاريخاً حاسماً . لانهُ ما زالت منطقة الرين مجرَّدة من الحصون والاستحكامات ففي وسع الجيش الفرنسي ان يوغل في المانيا من غير ان يلتقي مقاومة تذكر وان يشغل الجانب الاكبر من الجيش الالماني فتعجز المانيا عن أي عمل حربي ذي شأن في شرق اوربا أو متوسطها . وفي هذه الحالة كان في وسع فرنسا ان تنذر المانيا اذا رأت منها ما يدلّ على نية الاعتداء فتقول لها «الى هنا وكفى»

والجيش الفرنسي جيش قوي جدًّا (اذا استثنينا سلاحهُ الجوّي الآن) حسن النظام والتدريب . وحصون فرنسا على حدودها الشرقية أمنع من عقاب الجوّ . ولكن منذ احتلَّت الجيوش الالمانية منطقة الرين في ٧ مارس سنة ١٩٣٦ انشأت فيها حصوناً تجعل الدفاع عن المانيا سهلاً . ثم ان البلجيك ارتدت في شهر ابريل من سنة ١٩٣٧ الى خطة الحياد . وهذا حمل دول اوربا المتوسطة والشرقية على التفكير : هل تستطيع فرنسا وانكلترا في هذه الاحوال سبيلاً الى القيام بهجوم فعَّال على المانيا ، اذا حدَّثتها نفسها بالاعتداء في اوربا الشرقية او المتوسطة . وهذا التفكير هداها الى القول بأن جميع المعاهدات والمواثيق التي انشأتها لضمان السلامة المشتركة اصبحت غير قابلة للتنفيذ

فلننظر الآن في ما تمَّ بعد ما تبينت دول هذه المنطقة الحقائق المتقدمة مما قضى الى انحلال الجبهة الفرنسية في وسط اوربا وشرقها

الاَّ ان الجبهة التي كان بارتو ساعياً في توحيدها وتعزيزها ، بدأت تتصدَّع في أيامه . فعقدت بولندة في ٢٦ يناير من سنة ١٩٣٤ اتفاقاً مع المانيا على تأجيل جميع المسائل المختلف فيها بينهما عشر سنوات وهو اتفاق يبدو اول وهلة انهُ عقد لمنع ما قد ينشأ بين الدولتين من نزاع ولا سيما بسبب المجاز البولندي . الاَّ ان الواقع ان الباعث لالمانيا على عقده معرفتها ميل الكولونيل بك وزعيمه المارشال بلسودسكي . ذلك ان ميولهما حملت المانيا على الاعتقاد بأن بولندة تحتفظ بجميع قواتها في المستقبل لمقاومة روسيا السوفيتية بل لمهاجمتها . وانها لن تكون كاملة الولاء لفكرة السلامة المشتركة . وانها ستسعى جهدها لبزل تشيكوسلوفاكيا بالدخول بينها من جهة وبين حليفتيها رومانيا ويوغوسلافيا في الاتفاق الصغير من جهة أخرى . وانها لا بدَّ ان تبذل مساعيها في براغ مع هنلين ضد بنش وفي رومانيا ضد تيتولسكو . والواقع ان تقدير المانيا

كان في محله ، لان الكولونل بك كان دائم السعي لاضعاف النفوذ الفرنسي وهدم ما ابتغته فرنسا من انشاء لنظام « السلامة المشتركة »

ثم ان تفكير بلسودسكي العسكري كان لا يتلاءم مع النزعة السلمية في الدمقراطيتين الفرنسية والتشكية . واما بك فكان تلميذاً وفياً لاستاذه وزعيمه . نعم ان بولندة كانت حانقة لان فرنسا اهملتها بعض الاهمال في معاهدات لوكارنو ولانها قبلت ان توقع في ٧ يونيو من سنة ١٩٣٣ ميثاق الدول الاربع مع بريطانيا والمانيا وايطاليا . ومع إن هذا الميثاق ولد ميتاً لكن تأثيره النفسي في حلفاء فرنسا في أوربا الوسطى والشرقية كان بالغاً أقصى حدود الضرر . ثم ان بولندة أزعجها ان تقترح فرنسا في مؤتمر نزع السلاح خططاً لضمان السلامة قبل ان تستشيرها فيها . فلما اقترحت بولندة على فرنسا القيام « بحرب واقية » على المانيا في سنة ١٩٣٣ أبت فرنسا ذلك فشرعت بولندة في الحال في المفاوضات مع برلين . ومهما تكن الاعذار التي يعتذر بها الكولونيل بك ، ومهما يبلغ تصريحهُ بولائه لفرنسا ولصداقتها من البلاغة ، فالواقع الذي لا ريب فيه انه اختار طريقهُ . فاذا حدث ما أسلم أوربا الى ازمة لا مخرج منها الا بالحرب فعلى بولندة ان تختار، واذا كانت الكلمة العليا للكولونيل بك حينئذٍ فالغالب انهُ يختار ان يكون في جانب الريح الثالث . ولكنهُ مع مالهُ من المكانة ليس سيد بولندة الوحيد . ومنذ ما دخلت جيوش المانيا منطقة الرين في مارس من سنة ١٩٣٦ أخذت رومانيا ويوجوسلافيا تجري على خطة تشبه خطة بولندة من بعض الوجوه لتأمين سلامتهما من دون ان تتخذ إحداها خطوة لا رجعة فيها

ففي ٢٩ اغسطس سنة ١٩٣٦ اخرج تيتولسكو من وزارة الخارجية برومانيا . فلما اجتمع مجلس الاتفاق الصغير في براتيسلافا ، في احد اجتماعاته الدورية ، بعيد ذلك ، قرَّر حلَّ الوثاق الذي كان يربط الدول الثلاث منذ فبراير سنة ١٩٣٣ وذلك باعتراف المؤتمر بأنهُ من حق كل دولة ان تفاوض من تشاء من جاراتها وتعقد معها اتفاقاً وفقاً لمصلحتها الخاصة . وكانت الحجة ان تشيكوسلوفاكيا قد عقدت اتفاقاً مع روسيا في مايو من سنة ١٩٣٥ فلماذا لا يجوز ليوجوسلافيا او رومانيا ان تعقد اتفاقاً مع المانيا او ايطاليا اذا دعت الحاجة اليه . وكأن المجلس نسي حينئذٍ ان الاتفاق الروسي التشيكوسلوفاكي عقد بموافقة الدول الثلاث ، وان وزيري رومانيا ويوجوسلافيا كانا قد انضما الى وزيري تشيكوسلوفاكيا في تبيان الفوائد الجمَّة التي تجنى من عقد اتفاق روسي فرنسي . بل انهم ذهبوا الى ان الاتفاق الفرنسي الروسي اساس للاتفاق العام الذي يبغونهُ ، ولم يسلّموا بالاتفاق الفرنسي الايطالي الذي عقد في ٧ يناير ١٩٣٥ الاَّ عند ما تيقنوا ان باريس تنوي ان تعقد اتفاقاً آخر مع روسيا

وعلى الرغم مما حدث في مؤتمر براتيسلافا جدّدت فرنسا مساعيها لتعزيز جبهة الاتفاق الصغير فأنبأت الدول الثلاث في نوفمبر من سنة ١٩٣٦ انها مستعدة ان تتخذ على نفسها عهوداً عسكرية وسياسية أزاء كلّ واحدة منها على نمط العهود التي تتخذها الدول الثلاث أزاء بعضها بعضاً . ولكن رومانيا ويوجوسلافيا لم تقبلا هذا العرض . لانهما لم تقبلا ان تتعهدا بمساعدة تشيكوسلوفاكيا ضدّ المانيا . نعم ان عرض فرنسا لم يرفض رسميًّا ولكنهُ لم يقبل فهو اذن معلّق

وماذا فعلت يوجوسلافيا بعد ما اتخذ مؤتمر الاتفاق الصغير ذلك القرار ؟ عقدت مع بلغاريا معاهدة في ٢٤ يناير سنة ١٩٣٧ اتفقت فيها الدولتان على ان لا تحارب احداهما الاخرى مطلقاً ولكن الاتفاق البلقاني كما لا يخفى يقضي على يوجوسلافيا بأن تشترك في الدفاع عن اليونان او تركيا او رومانيا في حالة اعتداء بلغاريا على احداها — ومع ذلك اكد المسيو ستويادينوفتش رئيس وزراء يوجوسلافيا لحلفائه في الاتفاق البلقاني ان اتفاقه مع بلغاريا لا يحول دون نهوضهِ بما تقتضيه منهُ نصوص الاتفاق البلقاني !

ثم انهُ عقد اتفاقاً سياسيًّا مع ايطاليا في ٢٥ مارس سنة ١٩٣٧ وبهِ وعدت ايطاليا بالامتناع عن اي سعي موجه الى سلامة الاراضي اليوجوسلافية ووعدت يوجوسلافيا مقابل ذلك ان تتشاور مع ايطاليا في حالة نشوب ازمة دولية للاتفاق على موقف مشترك . وهذا لا يتواءم ونصوص المعاهدة الفرنسية اليوجوسلافية المعقودة في سنة ١٩٢٧ والمجددة في ١٩٣٢ ثم في اكتوبر من سنة ١٩٣٧ . وتفسير ستويادينوفتش لهذه المفارقة ان التشاور والاتفاق على موقف مشترك، اختياريٌّ في المعاهدة مع ايطاليا واجباري في المعاهدة مع فرنسا لان المعاهدة اليوجوسلافية الايطالية تستثني اي عهود قطعتها حكومة بلغراد في اتفاقات سابقة . ومما يذكر في هذا الصدد ان معاهدتي يوجوسلافيا مع بلغاريا وايطاليا عرضتا على حلفاء يوجوسلافيا ولكنهما عرضتا عن انهما امر واقع فاما ان تقبلا واما ان ينهار الاتفاق البلقاني والاتفاق الصغير

وماذا تم في رومانيا ؟ لم تجار بولندة ويوجوسلافيا في انفصالها انفصالاً صريحاً عن الكتلة التي سعت فرنسا الى انشائها في شرق اوربا ووسطها . ولكن وزارة تاتارسكو شرعت في ربيع سنة ١٩٣٧ في مفاوضة بولندة وايطاليا . إلاّ ان فرنسا تدخلت في الموضوع وبذلت ما لها من مقام ونفوذ في بوخارست للحيلولة دون انتهاء هذه المفاوضات الى اتفاق معيَّن . ولا يخفى أن الكولونيل بك وزير خارجية بولندة لا يني عن بذل سعيهِ في رومانيا ضدّ فرنسا . ولكن نجاحهُ كان متعذراً ما زال نيقولاي تيتولسكو وزيراً للخارجية . ولذلك ظلّت المعاهدة الرومانية البولندية الموجَّهة ضدّ روسيا حرفاً ميتاً في اثناء عهد تيتولسكو فلما أخرج من وزارة الخارجية الرومانية في اغسطس ١٩٣٦ جدَّد الكولونيل سعيه . وكبر الأمل في تحقيق أغراضهِ عندما

قامت وزارة جوجا في أواخر السنة الماضية . ولكن سقوط وزارة جوجا وقيام وزارة البطريرك كرستيا وإعادة تأليفها من عهد قريب جعل الحالة في رومانيا غامضة وان كان السعي المبذول في الاسابيع الاخيرة للقضاء على الحرس الحديدي دليلاً على ان الملك كارول — وهو حاكم رومانيا الحقيقي الآن — ينوي ان يحتفظ بما يربط رومانيا بفرنسا وانكلترا من العرى

خاتمة

هذا أهمّ ما يمكن ان يقال الآن عن تطور الحالة في «منطقة الشعوب الصغيرة» . اما ما يأتي به الغد وهل تفوز المانيا ببسط نفوذها على هذه المنطقة ، او تعود معظم هذه الدول فتلتف حول الدمقراطيتين الغربيتين ، فيتوقف في رأي الكاتب الفرنسي برتيناكس — وعلى مقال لهُ في مجلة الشؤون الخارجية الاميركية [1] عدد ابريل ١٩٣٨ اعتمدنا في كتابة هذا الفصل — على حزم انكلترا وفرنسا . فاذا بدا لهذه الدول الصغيرة أن فرنسا وانكلترا عادتا قوة فعَّالة في السياسة الاوربية عادت هذه الدول الى تأييد مساعيهما . وإذا ثبت ضدّ ذلك ، فانها لا بدَّ لها من ان تمضي في خطتها البادية في موقف بولندة ويوجوسلافيا ، الى أن تصبح مضطرة جزءاً من « أوربا الوسطى » — ميتل أوربا — الخاضعة للسيطرة الالمانية

ويروي «برتيناكس» في آخر مقالهِ هذا انهُ كان في لندن في الاسبوع الثالث من شهر فبراير الماضي — بعد ان اجتمع الهر هتلر بالهر شوشنج في برختسجادن (في ١٢ فبراير) وحملهُ على اجابة بعض مطالبهِ كضمّ الهر زايس انكوارت الى وزارتهِ وتقليده منصب وزير الداخلية فيها — فخطب في فريق من اعضاءِ مجلس النواب البريطاني مبيِّناً ان ما تمَّ في النمسا لم يكن الاَّ نتيجة لعجز فرنسا عن القيام بعمل حاسم في ٧ مارس سنة ١٩٣٦ فهتفوا لهُ مؤمنين على كلامهِ . ولكن في يوم ١٨ فبراير سنة ١٩٣٨ تلقى المسيو كوربان سفير فرنسا في لندن امراً من حكومتهِ بان يخاطب المستر ايدن وزير الخارجية البريطانية في ارسال تصريح انكليزي فرنسي مشترك الى برلين تعرب فيهِ الحكومتان عن عزمها على مقاومة كلّ اعتداءٍ على المعاهدات الدولية الخاصة باوربا الوسطى . فأعرب ايدن عن موافقتهِ على هذا الرأي ولكنهُ لم يلبث حتى اضطرّ أن يستقيل من وزارة الخارجية لما بينهُ وبين رئيس الوزارة من خلاف أساسي في الرأي والاسلوب ولا سيما في ما يتعلق بالمفاوضات مع ايطاليا . أما الاقتراح الفرنسي فلم يرفض ولكن المستر تشمبرلين صرَّح في مجلس النواب بأنهُ ينوي ان يسعى ثانية للاتفاق مع ايطاليا وألمانيا . ولا يخفى ان الجيوش الالمانية دخلت النمسا (في ١١ مارس) فلم تحرك فرنسا ولا انكلترا ساكناً غير الاحتجاج ثم أُيِّد ضمّ النمسا الى المانيا في استفتاء ١٠ ابريل . وفي ١٦ ابريل تم توقيع الاتفاق البريطاني الايطالي

(١) Foreign Affairs, April 1938 pp 401 -- 416



تآليف المستشرقين

بقلم الدكتور بشر فارس

— ١ —

Henri Pérès — La Poésie andalouse en arabe classique, au XIe Siècle — Editions Adrien—Maisonneuve, Paris 1937.

هنري بيريس — الشعر الاندلسي باللغة الفصحى في القرن الحادي عشر (للمسيح) ظواهره العامة وقيمته من حيث هو وثيقة — ٥٤١ ص — ٢٥ × ١٦

الاستاذ هنري بيريس مستشرق فرنسي معروف ، لهُ مباحث طريفة موقوفة على الآداب العربية وقد نقدت بعضها في هذا الباب من المقتطف . والاستاذ بيريس من أساتذة كلية الآداب في الجزائر . وها هو ذا يخرج مؤلفين نفيسين في وقت واحد ، أحدها الذي بين يدينا والآخر عنوانه : أسبانية في أعين الرحالين المسلمين من سنة ١٦١٠ الى سنة ١٩٣٠ (ارجع الى نقدي لهُ في مجلة الرسالة ، عدد ٢٥١ ، البريد الادبي)

يرى المؤلف ان الادب الاندلسي للقرن الحادي عشر للمسيح قليل الحظ من عناية البحَّاثين . والتحقيق أنهُ على جانب عظيم من الشأن لأسباب ، منها تبدل المجرى السياسي ببروز ملوك الطوائف على انقاض الدولة الاموية ، وتحرر الافكار من الضغط الديني بفضل تآليف الفلاسفة ، وتقبض العنصر الاندلسي مستقلاً عن العناصر الشرقية ، وتسرُّب الفكرة القومية اذن في نواحي الشعر . واعتماد المؤلف في سبيل فحص الشعر الاندلسي لذلك العهد على القصائد والمقطوعات المنظومة باللغة الفصحى دون اللغة الدارجة اي دون الازجال لان هذهِ كانت نادرة في ذلك الزمان . وطريقة عرض المؤلف لمباحثهِ ان ينظر في الشعر ظاهره وباطنه فينقل الجانب اللامع منهُ الى اللغة الفرنسية مع سوابقه ولواحقه مخافة ان يجيء الشعر أبتر . وأما النقل فما لا يخفى على المؤلف ان ترجمة الشعر العربي من المصاعب ، الاَّ انهُ لزم النص حتى انهُ ربما نقل البيت حرفاً بحرف ارادة ان يحافظ على الروح والمدلول

وللكتاب مقدمة مسهبة يبسط فيها المؤلف مجرى الحياة السياسية ثم ما يتعلق بشؤون العنصر والقومية فهنا يشرح نفسية الاندلسي وهناك يقابل حزب الاندلسيين بحزب البربر . والمقدمة توطئة علمية ترسل على نواحي الكتاب كلها ضوءا وهّاجاً . اما مباحث الكتاب نفسه فتنقسم اربعة اقسام . احدها موقوف على الشاعر وتكونهِ وحالته الاجتماعية واتصاله بالملوك والامراء .

والآخر محصور في الهام الطبيعة للشعراء . والثالث يتناول الحياة الاجتماعية. والرابع الحياة المنزلية

واما القسم الاول فيعرض طرق انتشار اللغة العربية في الاندلس ، ويذكر الكتب والمواد التي كانت تقرأ وتؤخذ ، ويشير الى ما اقتبسهُ الاندلس من الشرق ثم الى انزوائه عنهُ وتخلصه من قيده ، ويسرد طبقات الشعراء وضروب الشعر ، ويدوّن الوان الشعر التي توحيها حياة القصور

واما القسم الثاني فيعرض مصادر الوحي الخاصة بالطبيعة الاندلسية ، نذكر منها : الصعيد والمدينة والمتنزهات والقصور ، قرطبة « وعجائبها الاربع » ، اشبيلية وظواهرها ، المرية وضواحيها ، وغيرها من البلدان والقرى . ثم الاودية والجبال والحدائق والخمائل والازهار والفواكه والخضرة والبحيرات والجداول والبحر والسفن والسماء وما فيها ثم ما يتصل بها كالامطار والبروق ، ثم الحيوانات من ذوات الاربع والطيور والحشرات

واما القسم الثالث فيستخرج من الشعر مجموعة مدلولات على الحياة العامة كالسكان وعناصرهم والاقتصاد والاحوال الشخصية (من زواج وموت وملبس ومشرب) والترف والاستحمام واللعب والرياضة والحرب ثم اللهو على ألوانه من مآدب وشرب النبيذ وسماع الغناء

وأما القسم الرابع فخاص بالمرأة والرجل والحب . وفيه تحليل لطيف لالوان شعور المرأة واخلاق الرجل ومراتب الحب

هذا وقد جعل المؤلف للكتاب خمسة فهارس : الاول للاعلام والثاني للشعراء والثالث للمراجع والرابع للالفاظ الفنية والخامس للالفاظ العربية المدونة بالفرنسية

فانك لترى ما شأن هذا الكتاب الجليل ، يبرز لنا قرناً كاملاً من طريق الشعر

وهذه طريقة من البحث العلمي مستقيمة مفيدة

وجل ما يؤخذ على الكتاب بعض اوهام في الترجمة . منها :

bienveillant للفظة « سَمْح » (ص ١٢٥) والوجه généreux tables للفظة « موائد » (ص ٣١٦) والوجه tables servies لان المائدة خوان عليه طعام

expérimenté للفظة « ماهر » (ص ٣٢٤) ، والوجه maître (bijoutier) واللفظة الفرنسية التي اوردها المؤلف تفيد لفظة « خبير »

mélodies للفظة « ترنُّم » (ص ٣٩٢) ، والوجه psalmodie ، واللفظة الفرنسية تفيد لفظة « الحان »

spirituels للفظة « ظرفاء » (ص ١٧٥) ، والوجه agréables

بقي ان المؤلف قال في الحاشية الاولى لصفحة ٢٢٥ ان النسبة تفيد نسبة المسلم الى اورمته والوجه « العربي »

— ٢ —

Ibn Haiyan—Al Muktabis - tome IIIe—Texte Arabe publié par le P. Melchior M. Antuna, O. S. A. — Editions Geuthner, Paris 1937.

القسم الثالث من كتاب المقتبس في تأريخ رجال الاندلس ، للمؤرخ الشهير أبي مروان حيان بن خلف المعروف بابن حيان — نشره الاب ملشور م . انطونية — ٢٢ ص باللغة الفرنسية و ١٧٥ للنص العربي — ٢٤½ × ١٨

لهذا السفر مقدمة مسهبة يتكلم فيها الناشر على ابن حيّان من كتّاب القرن الخامس. فيذكر مكانتهُ العالية بين سائر المؤرخين من العرب وان ضاع الجانب الاكبر من تآليفه . ثم يترجم له ترجمة وافيةً إذ يخبرنا أين ولد ونشأ ثم كيف أخذ العلم وعمن أخذه ثم لمن بذله ثم في اي الفنون كتب وما كتب . وينتقل بعد هذا الى وصف المخطوطتين اللتين اعتمد عليهما في نشر الكتاب . ثم ينصرف الى تدوين المصادر التي عوّل عليها ابن حيّان ، وتراه يذهب في هذا الفصل الى ان المؤرخ الاندلسي اطلع على سير وأخبار من أقلام النصارى . ثم يختم المقدمة بذكر اثر ابن حيّان في تآليف من جاء بعده من المؤرخين

وميزة هذا الكتاب انهُ يسرد في أسلوب سهل على ركاكة او ضعفٍ أحياناً الحوادث التي وقعت في عهد الامير عبدالله صاحب قرطبة وجدّ الخليفة عبد الرحمن الثالث . والجانب الاكبر من هذه الحوادث ترجع الى حروب وغزوات

هذا وقد بذل الناشر الأب ملشور.م . أنطونية جهده في التثبت والتدقيق ، إلا ان هنالك بعض أوهام لا بدّ من التنبيه عليها . منها :

ص ١١٥ ، س ١٠ : وهي (مدينة بياسة) في خير الطاعة — والوجه : حيّز

ص ١١٧ ، س ١٤ : وأنفذ القائد احمد بن محمد رسله الى المدينة لورقة معذراً الى الخبيث ديسم . . . — والوجه : منذراً

ص ١١٧ ، س ٢ (تحت) : فنشثت حرب — والوجه : فنشبت حرب

ص ١١٩ ، س ٧ : ووافى بها (بأشبيلية) أيضاً روء وريح ومطر — والوجه : نوء (راجع ص ١٦ ، س ١)

ص ١١٩ ، س ١٢ : ثم صار العسكر متردد على تلك الحصون — والوجه : يتردد

ص ١٣٣ ، س ١٥ : ذاك الخبيث المراي بالزهد — والوجه المرائي

ص ١٣٣ ، س ١٧ : وتدبر برائهِ — والوجه : برأيه

ص ١٣٦ ، س ١٨ : فلنفر عليهِ الهزيمة — والوجه : فلتقر

ص ١٤١ ، س ٢ : يستقري قراءها ويتقصى أكنافها — والوجه : قراها
ص ١٤١ ، س٦ (تحت) : وجال العسكر في تلك الجهة أياماً يحترق ويدمر والوجه : يحرّق
ذلك الى ما هنالك من الجمل المتشابهة (مثلاً : ص ١١٥ س ١٠ ، ١١ — ص ١٣٦ ، آخر الصفحة — ص ١٤١ ، س ١١) والغلطات المطبعية (مثلاً : ص ١٢٠ ، س ١١ — ص ٦)

— ٣ —

Biographie des grammairiens de l'Ecole de Basra, par ... as-Sirafi publié et annoté par F. Krenkow—Bibliotheca Arabica, Faculté des Lettres d'Alger. 1936

كتاب اخبار النحويين البصريين . تأليف ابي سعيد الحسن بن عبد الله السيرافي . اعتنى بنشره وتهذيبه افقر عباد الله الى رحمته فرنسيس كرنكو — ٩ صفحات للمقدمة الفرنسية ، و١١٦ للنص العربي ، و٣ ألواح للمخطوطة — ١٩½ × ١٢½

إن هذا الكتاب يخرج في عهد شغل علماء العربية فيه بعلم النحو ، إذ يقلبون فيه النظر ارادة تهذيبه وتقريب مناله الى طلبة العلم . والتحقيق ان الكتاب لا يبحث في المسائل النحوية ولا يعرض للتوياتها ، غير أنهُ يلوح اليها في معرض الكلام على أئمة النحو . وخير ما يستخرج من هذا الكتاب انهُ يرتب النحويين البصريين فيجعلهم طبقات ثم يوازن بينهم، حتى إنك تستطيع أن تميز النحوي الثقة من النحوي الضعيف . وانها لنتيجة جليلة

هذا وللكتاب ثلاثة فهارس : الاول لاسماء الرجال والقبائل ، والثاني للاماكن ، والثالث لاسماء الكتب

وأما نشر الكتاب فحسن على وجه الاجمال ، وثمة هنات أشير اليها :
ص ٥٩ ، س ١٠ : (شعر) فتولّى لم يُمتَّع بكفنْ — والوجه : يُمتَّعْ .
ص ٦٢ ، س ٢ : فنظِر فيهِ — والوجه : فنظر .
ص ٦٣ ، س ١ : (تحت) بين يدي الناس — والوجه : أيدي .
ص ٦٤ ، س ٥ : نمَى إليَّ أنّ الرشيد . . . — والوجه : نُمي .
ص ٧٥ ، س ٦ : خلّفتُ أخيَّةً لي أصغر مني اقيمها مقام الوالد — والوجه : الولد (كما في الاصل ، انظر الحاشية)
ص ٧٥ ، س ٢ : (تحت) : تقول ابنتي حين جدّ الرحيل أرانا سواء ومن قد يتمّ
ترانا اذا ما . . . .
والوجه : أرانا (كما في البيت الاول ثم كما في ديوان الاعشى ص٣٣ ، والبيت لهُ)

— ٤ —

Les Prolégomènes d'Ibn Khaldoun 2e partie. Editions Paul Geuthner, Paris 1936

مقدمة ابن خلدون — المجلد الثاني — ٤٩٣ ص — ٢٤ × ١٦

إن مقدمة ابن خلدون فوق التعريف . وقد اشتدت عناية علماء الفرنجة لهذا العهد بها منذ اليوم الذي فيه اخذت العلوم الاجتماعية ينبسط ميدانها ويعلو شأنها ، ولا سيما بعد قيام المدرسة الفرنسية الجارية على سنن دُركايم Durkheim . ذلك ان رجال هذه المدرسة أصابوا في مقدمة ابن خلدون ما يساير آراء دركايم ونظرياته. وما أعرف مفكراً عربيًّا قديماً يظفر الآن بما يظفر به ابن خلدون من العناية . فالرسائل فيه متلاحقة في المشرق والمغرب

ومما لا يجهله احد ان مقدمة ابن خلدون نقلها البارون دي سلان الى اللغة الفرنسية في باريس حوالي سنة ١٨٦٠ . وقد اصبحت الترجمة عزيزة نادرة . ففطن ناشر فرنسي لاخراجها مرة ثانية للمشتغلين بالمشرقيات والاجتماعيات. فظهر الجزء الاول منها سنة ١٩٣٤ (اطلب ديسمبر وابريل ١٩٣٤) . واليوم ظهر الجزء الثاني . وعسى ان يظهر الجزء الثالث وهو الاخير قريباً فتعمّ الفائدة ، وان كانت ترجمة البارون دي سلان موضع نظر أحياناً لانتقال لغة الفلسفة من مذهب الى مذهب في اثناء تسعين سنة . ولعلني افصّل هذا عند ظهور الجزء الثالث

— ٥ —

Abstracta Islamica. (5e Série) Revue des Etudes Islamiques. Editions Geuthner, Paris.

يعنى الأستاذ لويس ماسينيون المستشرق المعروف وأحد اعضاء مجمع اللغة العربية الملكي باثبات مجرى التأليف الخاص بالعرب والاسلام في المجلة التي يخرجها في باريس « مجلة الدراسات الأسلامية » . ففي الجزء الرابع من سنة ١٩٣٥ والجزء الثاني من سنة ١٩٣٦ يصيب القارىء عناوين التآليف وأسماء المؤلفين مدونة على حسب الموضوعات . وهذه الموضوعات كما يلي :

تاريخ العلوم في البلاد الاسلامية — الفلسفة وعلم الكلام — فقه اللغة والتربية — علم الاجتماع واحوال الشعوب — تاريخ الادب ونشر النصوص — الفن والريازة (اي المعمار ، والكلمة للعلامة الاب انستاس الكرملي ، انظر « اهرام » ٤/٣ ١٩٣٨ ص ٣) — تاريخ الادب الفارسي والتركي والعبري — والعربي — التشريع والتقنين والتدبير — التاريخ الديني : محمد والقرآن — التصوف والفرق — الاستحداث — الاستعمار الاوربي والسياسة العصرية — الاسلام: نظرات عامة وصلة الاسلام بالغرب — المخطوطات والبردي — المصادر والمؤتمرات والمجلات

وقد اشترك في اثبات هذه التآليف كلها الاستاذ لويس ماسينيون والاستاذ بول كراوس والاستاذ هنري شارل

ولا يسع الناقد الا أن يفرح بمثل هذا العمل المفيد ، إذ انهُ يبذل للباحث المراجع مفصلةً وافيةً . ولربما نبّه على بعض سقطات في كتابة الالفاظ والاسماء العربية باللغة الفرنسية ، نحو كتابة لفظة الريح هكذا : الريه (ص ٣١٠) ولفظة اللآلىء هكذا : اللألىء . (ص ٣٠٧) واسم ابن العربي هكذا : ابن الاربي (ص ٣٠٤) ب. ف.

الفصول والغايات

في تمجيد الله والمواعظ

لأبي العلاء المعري — ٤٨٢ ص من قطع المقتطف — يطلب من مجلة الرسالة بالقاهرة

ضبطه وفسر غريبه ونشره محمود حسن زناتي

ان ناشر هذا الكتاب — الاستاذ الشيخ محمود حسن زناتي — ممن الِف المخطوطات ووطن النفس على النظر فيها وممن جعل الكتب والتصانيف خلطاءه وصحبه ، ذلك بانهُ ظل زماناً اميناً للخزانة الزكية وهي خزانة شيخي المرحوم احمد زكي باشا . واكبر شاهد على هذا انهُ لما اعتزل عمله عقد النية على نشر طائفة من اسفار المتقدمين . وها هوذا يخرج علينا اول ما يخرج بكتاب ضخم له مكانة رفيعة ، كتاب الفصول والغايات للامام الاكبر واحد عصره ونخر العربية نثراً وشعراً وفلسفةً أحمد بن عبد الله بن سليمان . . . التنوخي المعري صاحب اللزوميات ورسالة الغفران

واذا نحن أغفلنا التنويه بالمؤلف فما يحسن بنا ان نشير الى قدر الكتاب . فاعلم انهُ من الكتب التي شاع عنها انها ضاعت والتي قيلت فيها اقوالٌ منها أن « الفصول والغايات » مؤلف يجنح الى الكفر لان صاحبه عارض بهِ القرآن وأراد ان يأتي بالاعجاز البعيد . والتحقيق ما اثبتهُ الاستاذ زناتي في « المقدمة » من ان الكتاب انما تجري غايته الى « تمجيد الله والمواعظ » من طريق الافتنان في الكتابة من تدوين الغريب وارسال النوادر وبث الطرف وهي طريقة معروفة لأبي العلاء

هذا وأما نشر الكتاب فيدل على العناية الشديدة التي بذلها الاستاذ زناتي بين تحقيق وتدقيق ونظر ومراجعة . وجل ما كانت تتوق اليهِ النفس أن يذهب الناشر في كتابة المقدمة الى ابعد مما ذهب اليهِ من التعليق على الكتاب نفسه ومن الوصف للنسخة الخطية التي اعتمد عليها (وهي بالخزانة التيمورية برقم ٨٣٨ أدب) على حسب ما يصنع الناشرون اليوم . ثم ان الكتاب تعوزه طائفة من الفهارس منها فهرست للاعلام واسماء الاماكن ب. ف.

الحلل السندسية

في الاخبار والآثار الاندلسية

تحفة من تحف الامير شكيب أرسلان

عطوفة الامير شكيب ارسلان في غنى عن التعريف الى حملة الاقلام في هذه الدنيا العربية لان الادباء والعلماء في هذه الايام أحد رجلين بالنسبة الى الأمير أعزه الله :

إما عالم امتلأت نفسه اعجاباً وتقديراً لفضل الامير في مختلف نواحي العلم والادب وإما متعلم من بحره الزاخر وفيضه العظيم والرجلان يعترفان من صميم القلب بأن الامير حجة العرب في هذا القرن ومناط فخرهم في هذا العصر

الله أكبر ما هذا البحر الزاخر وما هذه الروح السامية والادب العالي والوطنية العاملة وما هذا الرجل الذي لا ترتاح نفسه المتواضعة الاّ الى خدمة يسديها الى العالمين العربي والاسلامي، فهو السياسي الذي ينوب عن ملايين العرب والمسلمين في جنيف يدافع عن قضاياهم العديدة فيهاجم أخصامهم ويشرح حججهم وينشر حقيقة أمرهم فاذا ظهر كتاب لعالم أو مقالة لسياسي او رسالة لمستشرق وفيها شيء أو بعض شيء يغمط حق العرب او يحاول الحط من فضلهم أو النيل من الاسلام وشعوبه رأيت الامير لا تهدأ ثائرة نفسه حتى ينشر في الحال الرد المفحم فيقرع الباطل بحجته ويرفع صوته عالياً يدوي في الاندية السياسية والعلمية والادبية

انك ليملكك العجب حين تعلم انهُ على الرغم من نصح الاطباء لهُ يواصل اخوانهُ في مختلف بقاع الارض بالرسائل العامة والخاصة فيجيب عن كل سؤال ويتقدم بكل نصيحة ويوامي كل مظلوم ويدافع عن كل مضطهد

أما ناحيته العلمية والتي يحاول ان ينقطع لها في هذه الايام فهي من أهم نواحيه وسيرى العالم العربي على الرغم مما رأى من آثاره الكثيرة آثاراً خالدة يستجم لها في جنيف ولا يمضي عام أو بعض عام حتى يخرج الامير كتاباً خالداً في الموضوعات التي يتوق لها العلماء والمفكرون في العالم العربي

ولقد عرف الامير ايده الله بأشد الغيرة على تراث امته العربية وولع منذ نعومة اظفاره بدراسة تاريخ الاسلام وحضارة العرب في الاندلس ذلك الفردوس المفقود وقد تجلى ولعه هذا في ترجمة رواية آخر بني سراج وما علق عليها . ولما شاءت الحال ان تتيح للامير زيارة الاندلس منذ اعوام قريبة — وهي امنية طالما كان يرجو تحقيقها — انصرف يومئذ بكليته الى تطبيق النظريات

التاريخية على الحقائق الملموسة فزار المالك والبلدان وجاس خلال الدور والقصور وشاهد المساجد والمعابد ووقف مبهوراً امام عظمة القصور الشواهق وغاص في غمرات ذلك الفردوس العظيم فتفقد كل مدرسة وكل مكان فوصف كل شيء رأى وأرجعهُ الى اسمه العربي وشرح تاريخه وايامه البيض واستقرأ الآثار واستخرج عبرها فرَّ بكل قطر وأحاط بكل عصر

ثم افرد الفصول الضافية عن الحياة الاسلامية في تلك الجنان وكيف أخرج منها المسلمون كما أخرج ابو البشر آدم من الخلد ولم يترك حادثة تتعلق بأحوال الامة الاسلامية في الاندلس لها علاقة تاريخية او علمية او سياسية الاَّ اشار اليها

جمع الامير كل هذا في كتابهِ «الحلل السندسية» الذي نحن بصدده فكان مؤلفاً فريداً لا يمكن لعالم او اديب او سياسي من ساسة العرب ان يستغنى عنهُ خصوصاً وان المؤلفات عن فردوس الاندلس باللغة العربية قليلة من جهة وناقصة من جهة اخرى

فقد رجع الامير الى مئات المصادر فصحح رواياتها بما لديهِ من صحيح السند فأنكر الباطل وأحق الحق وأخرج طائفة من الاسماء تعد بالمئات من عجمتها المغلوطة الى عربيتها الصحيحة مما يدل على سعة منقطعة النظير في حب البحث والصبر على استخراج الحقائق من مكامن بعيدة واماكن ليس من السهل الوصول اليها

وقد جمع بين دفتي الكتاب مجموعات كبيرة من صور ملوك القوط والاندلس وآثار الحضارة الاسلامية بفنونها ومعابدها وصور القادة والوزراء وبعض وقائع تلك الايام ايام الوصل بالاندلس وعهد المجد الذي خلده العرب في تلك الدنيا التي مرت كخلسة المختلس

وسرد الامير شكيب في رحلته هذه اسباباً تعتبر من اقوى الادلة على ما انتاب العرب من اسباب الضعف بعد تلك القوة ودلل عليها باستقراء واستنتاج يبعثان على الدهشة حتى يخيل اليك وانت تطالع ما كتب وتقارن بما كتب الغير — انك ذهبت الى تلك البلاد وعاشرت اهلها ودرست عن كثب حالتهم النفسية من كل وجوهها

وقد اهدى الامير رحلته هذه الى روح ابي المطرف الخليفة اميرالمؤمنين عبد الرحمن الناصر الاموي الذي يعجب بهِ المؤلف اكثر من كل خليفة حاشا الخلفاء الراشدين

***

وقد تولى طبع هذه الرحلة ونشرها السيد محمد المهدي الحبابي صاحب المكتبة التجارية الكبرى بفاس وقدم لها بمقدمة اوجزت ما في الكتاب ودلت على تقدير عظيم للمجهود الجبار الذي بذلهُ المؤلف الجليل حتى أخرج للعلماء والباحثين هذه الموسوعة الاندلسية التي أضافت الى المكتبة العربية ذخراً من أنفس الذخائر

***

المعجمية العربية

على ضوء الثُّنائية والالسُنية السامية

للاب ا . س . مرمرجي الدومنكي أحد أساتذة المعهد الكتابي والآثاري الفرنسي في القدس الشريف مطبعة الآباء الفرنسيسيين في القدس سنة ١٩٣٧ . ثمنه ٢٥٠ ملا

هو كتاب لغوي يبحث في بعض الالفاظ العربية وأصلها بحثاً دقيقاً ويبحث في تاريخها والبلاد التي نشأت فيها أفارسية هي أم عربية أم ارمية أم عبرية أم حبشية والبحث دقيق جداً فيه طلاوة يستهوي القارىء . ولما كنت عاجزاً عن نقد هذا الكتاب لجهلي اللغات السامية الاَّ لغتي العربية وهذه لا أعرفها الاَّ معرفة ضعيفة محدودة ولكنني سأستعرض بعض الالفاظ التي جاءت فيها استعراضاً . وجملة الالفاظ نحو خمسين لفظاً واليك بعضها

البارية ليست بفارسية

قال المؤلف سُئلت احدى المجلات هذا السؤال (« أأصاب اصحاب المعاجم العربية بقولهم البارية او البورية الحصير المنسوج من القصب وهي كلة معربة أصلها فارسي»! فان كان صحيحاً فما هو اللفظ الفارسي الاصل وما هو مدلولهُ ؟ وان لم يكن فما رأيكم في الامر) ؟ فأجابت المجلة « البارية او البورية فارسية لا تحتمل شكّاً وهي في هذه اللغة بوريا بضم الباء ضمَّا غير صريح ومعناها الاصلي نوع من القصب يكثر في الآجام ويشبه البلاج بعض الشبه تتخذ منهُ هذه الحصر او البواري » . واما الظاهر لنا فهو ان البارية او البورية ليست فارسية قطعيًّا فما اصلها اذن ؟ ذاك ما يجيب عليهِ هذا المقال ثم أجاب المؤلف عن هذا السؤال بيحث استغرق ١٢ صفحة ذكر فيها اصلها بالاكدية والعبرية والارمية والحبشية وأتى بالشواهد الكثيرة على ان البارية اصلها من العراق اي البلاد الشمرية الاكّدية وهي اكّدية في الاصل من كلة بورو ومعناها اليراع او القصب وانها عراقية قحة عمرها ما ينيف على الاربعين قرناً

ثم الكلمة التالية

اصل الحواريين فقد قال فيها ما ملخصهُ . قال : الظاهر مما تقدم ان لفظة الحواريين قرآنية أم غير قرآنية ليست مشتقة من حَوِر وأنهم قوم كانوا قصَّارين او ملوكاً او أنقياء القلب او أنصاراً ولا هي سريانية بل حبشية معناها الرسل دخلت العربية بدخول الحبشة الى اليمن وعن أهل نجران تلقاها عرب الحجاز عنهم

ثم كلة الحج

فقد قال فيها هو يدل على اجهاد النفس انتقل معناه الى معنى الرقص ثم الدوار فالاحشاد فالموسم فالعيد فالقصد فزيارة أحد المقادس فزيارة كنيسة نجران عند نصارى العرب فزيارة كنيسة القيامة فزيارة الكعبة المكيّة

أصل كلمة داوية

كان في ايام الصليبيين فرقتان من الرهبان دعاهم العرب أحياناً الاسبتارية أو الاسبتالية ولاشبهة في أن هؤلاء هم رهبان المستشفيات وآخرين داوية وهذه سريانية معناها الفقراء اي الاخوة الفقراء

أصل كلمة الفصح

وهي عبرية وكلمة توراة كذلك عبرية وكلمة إبل وبيت لحم واللحم واللقم وكلمة صلاة وصورت السريانية وسورة القرآنية

أصل كلمة هيكل

هذه اللفظة من عداد الالفاظ الواردة في اللغات السامية جمعاء اي الاكّدية والعبرية والارمية والعربية والحبشية . أما المعاجم العربية من قديمة وحديثة فلا نجد فيها ذكراً لاصلها . اما الواضح انها ليست من الاوضاع المشتقة من الافعال بل أحر بها ان تحسب من الاصول الجامدة

كان يظن سابقاً ان أصلها عبري . ثم لما ظهرت في الرقم المسمارية قيل انها أشوريّة . وفي الحقبة الاولى من دراسة الاشوريات حين كان الباحثون يدعون اللغة الشمرية « اكدية » قالوا انها منقولة من هذه اللغة الى الاشورية. بيد انهُ إذ توصل المحققون ان يثبتوا بان « الشُمَرية » لغة قائمة بذاتها ليست من طائفة الالسن السامية لكونها لغة مقطعية مجاورة غير متصرفة وقد وضعوا لها تدريجاً كتب لغة وصرف ونحو—اتضح اليوم بكل جلاء ان لفظة هيكل وضع شمريّ ولا سامي قطعاً . ومن هذه اللغــة نقل الى الاكدية ومنها الى العبرية فالارمية فالحبشية فالعربية

وقال والخلاصة

مما ينجم عن تقصيات المتخصصين ان اللغة الشمرية ليست بسامية فلا يجوز أن تنظمها في سلك هذه الالسن . كلمة Ekal شمرية مركبة من علامتين صوريتين وقد أطلقت عند الشمريين على البلاط والمعبد . أدخل الاكديون هذا الوضع الى لسانهم غير مغيرين فيهِ شيئاً سوى انهم زادوا عليهِ علامات الاعراب التي لا وجود لها في الشمرية . ومن الاكدية انتقل الى اللغات السامية الاخرى . وفي هذه الالسن لا في الاكدية نفسها المضمحلة منها الحلقيات تحولت الهمزة الى هاء فأصبحت اللفظة بصورة : هيكل

هذه هي الحقيقة العلمية الناصعة وما كان في الكتب او الصحف بهذا المعنى فهو الحري بالاعتبار والاتباع.ومن هذا يتكشف وهن الرأي القائل : ان كلمة « هيكل » سامية الاصل . وهي كذلك او ما يقاربها لفظاً ومعنىً في الارمية والعربية والحبشية والاشورية

والكتاب على هذه الصورة يبحث في نيف وأربعين كلمة بحثاً دقيقاً وافياً فهو خير علمائنا من شرقيين وغربيين على الاطلاق الذين يبحثون في مثل هذه الامور   امين المعلوف

القانون الدستوري

تأليف الدكتور وايت ابراهيم والدكتور وحيد رأفت — الاستاذين بكلية الحقوق المصرية
صفحاته ٨٥٧ قطع المقتطف — ثمنه ستون قرشاً

جرت العادة ان تقسم دراسة القانون الدستوري قسمين كبيرين : — قسم المبادىء والنظم الدستورية وقسم دستور الدولة وهو في هذه الحالة الدستور المصري . وعلى هذا جرى المؤلفان الفاضلان . فتناولا في الكتاب الاول القواعد والنظم الدستورية بوجهٍ عام من دون ان يحول ذلك دون التعريج على الدستور المصري لضرب الامثلة بهِ وتبيان ما أخذ بهِ من هذه القواعد

وقد تناولا في الباب الاول في فصول حسنة الترتيب وافية البيان الدولة وأساسها ونشأتها وسيادتها وأين مستقرُّها فيها . والحكومة وأنواعها وأجزاءها والسلطات فيها . وأما الباب الثاني فقد خصَّاهُ بالدستور المصري ، وهو في أكثر من ٢٠٠ صفحة ، فهو على ما نعلم أوفى كتاب مدرسي في الدستور المصري وتحليل مبادئهِ وموادّه . ولم يكتف المؤلفان بذلك، بل جعلا البحث في الدستور المصري ، من النوع المقابل ، فأنت بعد أن تقرأ المواد الخاصة بسلطة من السلطات وتفسيرها ، تطالع ذيلاً عامًّا فيهِ بسط لنشأة المبادىء التي تقوم عليها ، وكيف طبقت في دساتير الامم الاخرى المشهورة بنظمها الدستورية . وفي الكتاب الرابع من هذا السفر النفيس موجز دقيق لبعض الدساتير الاجنبية كدستور بلجيكا ودستور فرنسا ودستور انكلترا ودستور الولايات المتحدة الاميركية . ويلحق بذلك جميع الوثائق الرسمية الخاصة بالنظام الدستوري بمصر كنصوص الدستور وقانون الانتخاب واللائحة الداخلية لكلٍّ من مجلسي النواب والشيوخ

ويشهد كاتب هذه السطور انهُ طالع هذا الكتاب مطالعة باحث منقب ، ولا سيما ما كان منهُ خاصًّا بالدستور المصري وأحكامهِ . فوجده وافياً بالاغراض التي توخاها المؤلفان الفاضلان، واضحاً في الشرح والتعليق والمقابلة ، وحبذا الحال لو خلا من بعض هفوات مطبعية يسيرة لا تضيره

تاريخ أورطة البنادق الخامسة المشاة

للملازم الاول عبد الرحمن زكي — مطبوعات المتحف الحربي — ٤٢ صفحة — المطبعة الأميرية ببولاق

تناول المؤلف في كتابه وهو الاول من نوعه تاريخ الجيش منذ نشأته في ايام الفراعنة وتطوراته في العصر القديم . وانتقل بعد ذلك الى وصف حالته في العهد الاسلامي فنهضتهُ الوثابة في أيام حكم محمد علي باشا وأشباله العظام . ووقف المؤلف صفحات كتابه الاول على تاريخ الاورطة الخامسة منذ انشاء الجيش المصري الجديد في عام ١٨٨٣ فوصف أهم معاركها وعملياتها الحربية في أقاليم السودان وحوادثها الهامة التي اشتركت فيها وذكر أسماء قوادها ومشهوري ضباطها . كل ذلك أورده المؤلف في اسلوب طلي يغري القارىء غير المحارب بقراءتهِ بشغف

نوابغ الشباب

بقلم احمد قاسم جودة — هدية مجلة الهلال

معرفة سير عظماء الرجال وتراجمهم من الامور المستحبة التي تلذ للجميع مطالعتها ولا سيما تراجم الذين نبغوا منهم في سن مبكرة فتكون نماذج من المثل العليا يسير على غرارها الشباب سواء أفي التضحية كان أم في الايمان والجد والوطنية والاقدام ، والتراجم بطبيعتها كما يقول الفيلسوف المشهور كارليل أشمل الموضوعات نفعاً وأعمها لذَّة ومتعة للنفوس ولا سيما تراجم الممتازين الافذاذ والكتب الموضوعة في هذا الموضوع كثيرة نذكر منها على سبيل المثال اعلام المقتطف ورجال المال والاعمال واساطين العلم الحديث غير ان الاستاذ احمد قاسم جوده أحسن صنعاً باختياره هذا الموضوع وجعله على عظماء الشباب اي ان يكون جميع اصحاب التراجم التي في الكتاب قد بلغوا اوج مجدهم في سن الشباب الباكرة وظلوا حياتهم موسومين بسمة الشباب

واليك بعض الذين ذكرهم في كتابه وأتى على سيرهم واعمالهم : الاسكندر المقدوني وموتسارت وتوماس تشارتون وطرفة بن العبد ومصطفى كامل وكيتس الشاعر وغيرهم

وجميع الذين ترجم لهم في هذا الكتاب من رجال السياسة أو الفن أو الادب وكان يحسن ان يضم اليهم سيرة عالم او عالمين من الذين نبغوا في سن الشباب امثال باسكال الذي تعلم هندسة السطوح والاجسام وهو في الثانية عشرة ونشر بحثاً في « هندسة القطوع المخروطية » وهو في السادسة عشرة . ولا جيرانج الذي وصف بانهُ « اعظم عالم رياضي حيّ » وهو في الخامسة والعشرين ولافوازييه الذي منح الوسام الذهبي من اكادمية العلوم الفرنسية وهو في الثانية والعشرين وموزلي وقد كان أحد أركان الطبيعة الحديثة وهو في السادسة والعشرين فكان قتلهُ في جبهة الدردنيل من فواجع الحرب العامة ومن اكبر ما مني بهِ العلم من الخسائر

رئيس التحرير وقصص اخرى

اصدره الاديب صلاح الدين ذهني . وهو طائفة من القصص العصرية المستمدة موضوعاتها من الحياة المصرية دون مبالغة او مخالفة . وامثال هذه القصص تبشر بنهضة طيبة يقوم بها شاب الادباء الذين يتناولون الحياة الاجتماعية بالبحث والتحليل . ولقد قرأت قصصاً كثيرة وضعها ادباء مصريون اختلفت فيها عوامل « التكوين » أو الوضع وتشعبت فيها مناحي البحث وانما قد دعتني كلها الى الاعتراف بأن النثر العربي وإن كان قد تطور وارتقى حتى اصبح في مكنة الكاتب المثقف ان يتخذ منهُ أداة لبحث معضلات الحياة والنفس الانسانية الاَّ انهُ لما يزل في حاجة قصوى الى المرونة والتهذيب والصقل والثروة اللفظية . حتى يقوم بما يقوم به

النثر في اللغات الحديثة الاوربية وحتى يؤدي رسالته في الادب كاملة . فلسنا ننكر ان بعض الكتاب مما يعرضون للابحاث الاجتماعية والنفسية بنوع خاص قد يقفون قاصرين دون التعبير عما يجول بعقولهم من آراء وفِكَر . وبنفوسهم من نزعات ورغبات . وعما يشاهدونهُ في الحياة من ألوان وصور . ولن يكون « الهيكل القصصي » ممتعاً مؤثراً الاَّ اذا صب فيهِ الكاتب المعنى القوي العميق واستطاع ان يطوّع له اسلوباً رصيناً لا يعتوره ضعف او فتور . وأحب ان اثبت في هذه المجالة ان هذه القصص تستمد شيئاً غير قليل من نفسية المؤلف كما انها لا تخلو في مواضع كثيرة من أثر قراءته للقصة الاوربية . ولست اعني هنا التقليد فالمؤلف قد ترك هذه المرحلة وانما اعني انهُ يستضيء في ابحاثه الاجتماعية بالمنحى الخاص الذي يعرض لهُ ادباء القصة في الادب الاوربي . والقصة في الادب الفرنسي مثلاً تعرض للاخلاق في شيء كثير من التفصيل والايضاح وتعرض للحياة الزوجية في شيء غير قليل من العناية الخاصة . أنها تعالج الاجتماع في شتى صوره وأوضاعه . واما القصة في الادب الروسي فتفتح امام القارىء ميادين كثيرة للبحث والالهام . هي تعنى بأوضاع الحياة الانسانية وتعالج مشكلات الفقر والعمل والتعليم كما ان القصة في الادب الانكليزي قد تبحث مشكلة النسل والعناية بالطفل وتعرض في اغلب الاحيان لدرس الحياة الاجتماعية العامة . فانني لست انسى انني اذا قرأت مسرحية لـ « شو » او قصة لـ « ولز » او « هكسلي » تبينت عقب قراءتي « الفكرة » والمثل الاعلى مما يعمد المؤلف الى إثباته لكي يخرج منهُ القارىء بالفائدة المرجوّة . ولعلي لا أعدو الحقيقة اذا قلت ان هنالك صوراً كثيرة من الحياة المصرية بما احتوتهُ من عادات وتقاليد قد بحثها المؤلف فأجاد بحثها . كما انهُ وفق الى حد بعيد في ان يتخذ من موضوع المرأة سبيلاً الى استهواء القارىء . والخيال في قصصه شيء يتركه المؤلف لطبيعة الموقف فلا يخلق منهُ فنّاً قائماً بذاته وهذا ما يطبع أسلوبه الفكري بالطابع الواقعي . ولقد ترى هذا عندما يتحدث عن الحياة حديث الرجل العادي لا حديث الفيلسوف الذي يتبينها طبقاً لمنطقه وبصيرته فهو يرسم باختصار حقائق الاجتماع ما يسر منها وما يحزن ولعل من خير ما أعجبت بهِ قصة « حسنة » وما فيها من حوار أعاد الى ذاكرتي « التحقيق الجنائي » لصاحب يوميات نائب في الارياف وما فيهِ من حوار وذكريات ومواويل بلدية — ولست أحكم هنا أن كان منطق الحديث نفسهُ يدعو الى تكرار بعض العبارات في سياق الحوار . واذا كان هذا يطغى أو لا يطغى على الوضع الطبيعي للقصة

وبعد فالمؤلف يغبط على توجيهه السليم ولانهُ لا يشعر القارىء بشيء من الضجر أو السآمة وذلك لانهُ لا يعجز عن التجوال في مختلف الميادين وهذا ما يهيء له مكانة ملحوظة في الادب القصصي

حليم متري

السيد رشيد رضا او أخاء ٤٠ سنة

تأليف الامير شكيب أرسلان — طبع بمطبعة ابن زيدون بدمشق صفحاته ٨٣٢ بقطع المقتطف

«وبعد هذا فلا شك في انهُ اذا وزن عمل كل من اعيان هذا العصر بل من اعيان كل عصر كان السيد الامام محمد رشيد رضا من أرجحهم ميزاناً وأوفاهم قسطاً لا يجحد ذلك الاَّ من رانت عليهِ الضلالة او اعماه الغرض . واني لاجد نشر مناقبه والتنويه بقدره والاشادة بحسناته الكثيرة والانارة لبراهينه الساطعة من عزائم الله الموجبة وفرائضه المبرمة عملاً بقوله تعالى (وزنوا بالقسطاس المستقيم) هذا مضافاً الى ما كان بيننا من الاخاء القديم والذمام المتين والرمي عن قوس واحدة والاقتداء بامام . لا جرم اني ارى ترجمتي له ديناً عليَّ لا يجوز ان ألوي به ما دامت لي أنامل تمسك القلم »

هذه جملة من مقدمة الكتاب تدل القارىء الكريم على منهج ما كتبه عطوفة الامير شكيب ارسلان عن صديقه السيد الامام محمد رشيد رضا طيب الله ثراه بعد وفاته فقد سجل سيرته في هذا السفر النفيس فأتى بترجمة حياته من قلمه رحمه الله وأتى ببعض ما نظمه وكتبه عنه في حياته وبعد مماتهِ ونشر الكتب التي ارسلها اليهِ بعد ما حذف منها ما اقتضى الزمن الحاضر حذفه لاسباب خاصة

والامير شكيب علم من اعلام البيان في هذا العصر وهو آية الاخلاص والوفاء لاصدقائه كتب سفراً مسهباً عن المرحوم احمد شوقي بك كان له احسن الوقع في النفوس وها هو ذا يتحف القراء بسفر اوسع في سيرة امام من ائمة الاسلام وقد قال فيهِ راثياً : —

مضى الذي كان فيه منتهى أملي	ومن نشدت لتعليمي وتهذيبي
ومن عن الاخذ عنهُ شد راحلتي	ومن للقياه إسآدي وتأويبي
شعرت أن خلت الدنيا بمصرعه	لم يكفني طول تشريدي وتغريبي
فمن أناجيه بعد اليوم في حزني	ومن أرى بثه بثي وتعذيبي
واهاً على حجة الاسلام حين خبا	ذاك الشهاب بليلات غرابيب
واهاً على علم الاعلام حين هوى	فلا تصادف قلباً غير منخوب
هوى وكل جبال العلم دانية	عن شأوه فهي منهُ كالاهاضيب
اين الذي كان ان اجرى يراعته	في اي فن اتانا بالاعاجيب

فالكتاب آية من آيات الوفاء وتنويه بقدر عالم كبير وصديق حميم يستحق اعجاب القراء والعناية بهِ والانتفاع بما حواه من سيرة طيبة وكتب خاصة نيفت على نصف صفحات الكتاب والمعلوم ان الكتب الخاصة تكون لها منزلة ممتازة فلو نشرها المؤلف كما هي لكان لها شأن آخر. وفي الكتاب نص المقصورة الرشيدية الكامل فنوجه الانظار الى هذا الكتاب

فهرس الجزء الخامس

من المجلد الثاني والتسعين

